

الجامع لأحكام القرآن الكريم

نفوس
القرآن

دار البيان للتراث

اهداءات ٢٠٠٢

أ/ رشاد كامل الصيلاني

القاهرة



طبعة خاصة
بتصريح من دار الشعب

يطلب من : دار الريان للتراث

• دار الريان للتراث ١٧٧ شارع الهرم . ت : ٥٢٩٥٩٩
• مصر الجديدة : ٢٠ شارع الأنس . ت : ٢٥٩١٨٩٢ / ٢٥٩١٨٩١

الجامع لأحكام القرآن الكريم

النفوس
القرطبي

لأبي عبدالله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي

دار الريان للتراث

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الأنفال

مدينة بدرية في قول الحسن وعكرمة وجابر وعطاء . وقال ابن عباس : هي مدينة
إلا سبع آيات، من قوله تعالى : « وإذ يمرك بك الذين كفروا » إلى آخر السبع آيات .

قوله تعالى : يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرُّسُولِ
فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنْتُمْ
مُؤْمِنِينَ ﴿١﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى - روى عبادة بن الصّامت قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بدر
فلقوا العدو فلما هم منهم الله أتبعهم طائفة من المسلمين يقاتلونهم، وأحدثت طائفة برسول
الله صلى الله عليه وسلم، واستولت طائفة على العسكر والنهب، فلما نفي الله العدو ورجع الذين
طلبوهم قالوا: لنا النفل، نحن الذين طلبنا العدو وبنا نقاتلهم الله وهم منهم . وقال الذين أحدثوا
برسول الله صلى الله عليه وسلم: ما أثم بأحق به منا، بل هو لنا، نحن أحدثنا برسول الله صلى
الله عليه وسلم للأنفال العدو منه غيرة . وقال الذين استولوا [على] العسكر والنهب: ما أثم بأحق
منا، هو لنا، نحن حويناكم واستولينا عليه، فانزل الله عز وجل : « يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ
الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرُّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » .
فقسمه رسول الله صلى الله عليه وسلم عن فوائق بينهم . قال أبو عمر: قال أهل العلم بلسان العرب :
استولوا أطافوا وإحاطوا، يقال : الموت مُستلٍ على البعاد . وقوله « فقسمنه عن فوائق »
يعنى عن سرعة . قالوا : والفوائق ما بين حَلَبِي الناقة . يقال : انتظره فوائق ناقة، أى هذا

زيادة فيها أحل الله لهذه الأمة مما كان محظرا على غيرها . قال صلى الله عليه وسلم : " نُفِّلَتْ
 على الأنبياء بست - وفيها - وأُحِلَّت لِي الفَنَاحُ " . والأغفال : الفَنَاحُ نفسها . قال عترة :
 إنا إذا أحمر الوَعَى تَرَوَى الفَنَاحُ . وَنَفَّ عِنْدَ مَقَاسِ الْأَخْطَالِ .
 أي الفَنَاحُ .

الثالثة - وأختلف العلماء في عمل الأخفال على أربعة أقوال : الأول - عليها فيما
 شذ عن الكافرين إلى المسلمين وأخذ بغير حرب . الثاني - عليها الخمس . الثالث -
 خمس الخمس . الرابع - رأس الغنيمة ، حسب ما يراه الإمام . ومذهب مالك رحمه الله
 أن الأنفال مواهب الإمام من الخمس ، على ما يرى من الاجتهاد ، وليس في الأربعة إلا خمس
 نفل ، وإنما لم ير النفل من رأس الغنيمة لأن أهلها مبيتون وهم المويجفون ، والخمس مردود
 قسمه إلى اجتهاد الإمام . وأهل غير معينين . قال صلى الله عليه وسلم : " مَالِي مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ
 إِلَّا الْخُمْسَ وَالْخُمْسَ مَرْدُودٌ عَلَيْكُمْ " . فلم يمكن بعد هذا أن يكون النفل من حق أخذ ،
 وإنما يكون من حق رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الخمس . هذا هو المعروف من منعه .
 وقد روى عنه أن ذلك من خمس الخمس . وهو قول ابن المسيب والثاقبي وأبي حنيفة .
 وسبب الخلاف حديث ابن عمر ، رواه مالك قال : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سَيرَةً
 قَبْلَ تَحْدِثِمْ بِمِثْمَا إِبْلَاكِيَّةً ، وَكَانَتْ سَهْمَانَهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ بَعِيرًا أَوْ أَحَدَ عَشَرَ بَعِيرًا ، وَقُلُّوا بَعِيرًا
 بَعِيرًا . هكذا رواه مالك على الشك في رواية يحيى عنه ، وتابعه على ذلك جماعة رواة الموطأ
 إلا الوليد بن مسلم فإنه رواه عن مالك عن نافع عن ابن عمر ، قال فيه : فَكَانَتْ سَهْمَانَهُمُ
 اثْنَيْ عَشَرَ بَعِيرًا ، وَقُلُّوا بَعِيرًا بَعِيرًا . ولم يشك . وذكر الوليد بن مسلم والحكم بن نافع عن
 شعيب بن أبي حمزة عن نافع عن أبي عمر قال : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم في جيش
 قبل نجد - في رواية الوليد : أَوْسَةَ آلَافٍ - وَأَنْبَعَتْ سِيرَةٌ مِنَ الْجَيْشِ - في رواية
 الوليد : فَكَانَتْ مِنْ تَحْرِجِهَا - فَكَانَ سَهْمَانُ الْجَيْشِ اثْنَيْ عَشَرَ بَعِيرًا ، وَثَلَاثُ سَهْمَانِ
 أَهْلِ السَّرِيَةِ بَعِيرًا بَعِيرًا ، فَكَانَ سَهْمَانُهُمْ ثَلَاثَةَ عَشَرَ بَعِيرًا ، ذَكَرَهُ أَبُو دَاوُدَ . فَاجْتَمَعَ بِهَذَا مِنْ

يقول : إن الثقل إنما يكون من جملة الخمس . ويأتيه أن هذه السرية لو نُزِلت على أن أهلها كانوا عشرة مثلاً أصابوا في غيبتهم مائة وخمسين ، أخرج منها تسعين ثلاثين وصار لهم مائة وعشرون ، قُسمت على عشرة وجب لكل واحد اثنا عشر بغيراً ، اثنا عشر بغيراً ، ثم أعطى القوم من الخمس بغيراً بغيراً ، لأن خمس الثلاثين لا يكون فيه عشرة أجرة . فإذا عرفت ما للفسرة عرفت ما للسنة والآلاف وأزيد . واحتج من قال : إن ذلك كان من خمس الخمس بأن قال : جائز أن يكون هناك شياخ تباع ومتاع غير الإبل ، فأعطى من لم يملك البعير قيمة البعير من تلك المروض . ومما يعضد هذا ما روى مسلم في بعض طرق هذا الحديث : فأصبنا إبلاً وغنماً ، الحديث . وذكر محمد بن إسماعيل في هذا الحديث أن الأمير نقلهم قبل القسم ، وهذا يوجب أن يكون الثقل من رأس الغنيمة ، وهو خلاف قول مالك . وقول من روى خلافه أولى لأنهم حفاظ ، قاله أبو عمرو رحمه الله . وقال مكحول والأوزاعي : لا ينقل بأكثر من الثلث ، وهو قول الجمهور من السلف . قال الأوزاعي : فإن زانم فليقب لهم ويحمل ذلك من الخمس . وقال الشافعي : ليس في الثقل حد لا يتجاوز الإمام .

الرابعة - ودل حديث ابن عمر على ما ذكره الوليد والحكم عن شعيب عن نافع أن السرية إذا خرجت من العسكر فغنمت أن العسكر شركاؤهم . وهذه مسألة وحكم لم يذكره في الحديث غير شعيب عن نافع ، ولم يختلف العلماء فيه ، والحمد لله .

الخامسة - واختلف العلماء في الإمام يقول قبل القتال : من هدم كذا من الحصن فله كذا ، ومن بلغ إلى موضع كذا فله كذا ، ومن جاء برأس فله كذا ، ومن جاء بأسير فله كذا ، يعزهم^(١) . فروى عن مالك أنه كرهه . وقال : هو قتال على الدنيا . وكان لا يبيزه . وقال الثوري : ذلك جائز ولا بأس به .

قلت : وقد جاء هذا المعنى مرئوعاً من حديث ابن عباس قال : لما كان يوم بدر قال النبي صلى الله عليه وسلم : "من قتل قتيلاً فله كذا ومن أسر أسيراً فله كذا" . الحديث بطوله .

وفي رواية عكرمة عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم : "من فعل كذا وكذا أتى مكان كذا وكذا فله كذا" . فسارع الشبان وثبت الشيوخ مع الزيات ؛ فلما فتح لهم جاء الشبان يطلبون ما جعل لهم فقال لهم الأشياخ : لا تنهبون به دوننا ، فقد كانوا يهدمون لكم ؛ فانزل الله تعالى : « وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ » ذكره إسماعيل بن إسحاق أيضا . وروى عن عمر بن الخطاب أنه قال لجرير بن عبد الله البجلي لما قدم عليه في قومه وهو يريد الشام : هل لك أن تأتي الكوفة ولك الثلث بعد الخمس من كل أرض وسبي . وقال بهذا جماعة فقهاء الشام : الأوزاعي ومكحول وابن حيوة وغيرهم . ورواها الخمس من جملة النسيئة ، والنقل بعد الخمس ثم النسيئة بين أهل المكرب ؛ وبه قال إسحاق وأحمد وأبو عبيد . قال أبو عبيد : والناس اليوم على أن لا نقل من جهة النسيئة حتى تخمس . وقال مالك : لا يجوز أن يقول الإمام لسيرة : ما أخذتم فلکم ثلثه . قال محمّدون : يريد ابتداء . فإن نزل مضى ، ولم أنصباؤهم في الباقي . وقال محمّدون : إذا قال الإمام لسيرة ما أخذتم فلا خمس عليكم فيه ، فهذا لا يجوز ، فإن نزل رددته ؛ لأن هذا حكم شاذ لا يجوز ولا مضى .

السادس - واستحب مالك رحمه الله ألا ينقل الإمام إلا ما يظهر كالعامة والفرس والسيف . ومنع بعض العلماء أن ينقل الإمام ذهابا أو فضا أو لؤلؤا ونحوه . وقال بعضهم : النقل جائز من كل شيء . وهو الصحيح لقول عمر ومقتضى الآية ، والله أعلم .

السابعة - قوله تعالى : (فَأَتُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ) أمر بالتقوى والإصلاح ، أي كونوا مجتمعين على أمر الله في الدعاء : اللهم أصلح ذات البين ، أي الحال التي يقع بها الاجتماع . فدل هذا على التصريح بأنه تجبر بينهم اختلاف ، أو مالت النفوس إلى التشاح ؛ كما هو منصوص في الحديث . وتقدم معنى التقوى ، أي اتقوا الله في أقوالكم وأفعالكم ، وأصلحوا ذات بينكم . (وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ) في الفرائض ونحوها . (إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) أي إن سبيل المؤمنين أن يمثل ما ذكرنا . وقيل : « إِنْ » بمعنى « إِذ » .

قوله تعالى : إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ
وَإِذَا نُتِلَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿١﴾
الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٢﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ
حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٣﴾

قوله تعالى ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا نُتِلَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ
زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ فيه ثلاث مسائل :

الأولى - قال العلماء : هذه الآية تحريض على إزام طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم
فما أمر به من قسمة تلك الفئمة . والوجل : الخوف . وفي مستقبله أربع لسانات : وَجِلَ
يُوجِلُ وَاجِلٌ وَيَتَجَلَّ وَيَجِلُّ ، حكاه سيويه . والمصدر وَجِلٌ وَجَلًا وَمُوجِلًا ، بالفتح .
وهذا مُوجِلُهُ (بالكسر) للوضع والاسم . فن قال : يَجِلُّ في المستقبل جعل الواو ألفا لفتح
ما قبلها . ولغة القرآن الواو « قَالُوا لَا تَوْجَلْ » ^(١) . ومن قال : « يَجِلُّ » بكسر الياء فهي على
لغة بني أسد ، فإنهم يقولون : أنا إيجِل ، ونحن ييجِل ، وأنت ييجِل ، كلها بالكسر . ومن
قال : « يَتَجَلَّ » ينله على هذه اللغة ، ولكنه فتح الياء كما تحوها في يعلم ، ولم تكسر الياء في يعلم
لاستغناء الكسر على الياء . وكسرت في « يَجِلُّ » لتقوى إحدى الياءين بالأخرى . والأمر
منه « إيجِل » صارت الواو ياء لكسرة ما قبلها . وتقول : إني منه لأَوْجِل . ولا يقال في المؤنث :
وَجَلَاءَ ، ولكن وَجِلَةٌ . وروى سفيان عن السدي في قوله جل وعز : « الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ
وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ » قال : إذا أراد أن يظلم مظلمة قيل له : آتق الله ، كف وَجِلَ قلبه .

الثانية - وصف الله تعالى المؤمنين في هذه الآية بالخوف والوجل عند ذكره . وذلك
لقوة إيمانهم ومراعاتهم لربهم ، وكأنهم بين يديه . ونظير هذه الآية « وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ، الَّذِينَ
إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ » ^(٢) . وقال : « وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ » . فهذا يرجع إلى كمال

الثالثة - قوله تعالى : (وَإِذَا نُفِثَ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا) أى تصديقاً . فإن إيمان هذه الساعة زيادة على إيمان أسس ، فمن صدق ثانياً وثالثاً فهو زيادة تصديق بالنسبة إلى ما تقدم . وقيل : هو زيادة انشراح الصدر بكثرة الآيات والأدلة ، وقد مضى هذا المعنى في « آل عمران » . (وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) تقدم معنى التوكل في « آل عمران »^(٢) أيضاً . (الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيَمُوتُونَ زَكَاتُهُمْ يُتَّقُونَ) تقدم في أول سورة « البقرة » . (أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا) أى الذى استوى في الإيمان ظاهرهم وباطنهم . ودل هذا على أن لكل حق حقيقة ، وقد قال عليه السلام لحارثة : « إنا لكل حق حقيقة لما حقيقة إيمانك »^(٣) الحديث . وسأل رجل الحسن فقال : يا أبا سعيد ، مؤمن أنت ؟ فقال له : الإيمان إيمانان ، فإن كنت تسألني عن الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله والجنة والنار والبهت والحساب فأنا به مؤمن . وإن كنت تسألني عن قول الله تبارك تعالى : « إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ » إلى قوله - أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا - فوالله ما أدري أنا منهم أم لا . وقال أبو بكر الواسطي : من قال أنا مؤمن بالله حقاً ، قيل له : الحقيقة تشير إلى إشراف وأطلاع وإحاطة ، فمن فقدته بطل فدهواه فيها . يريد بذلك ما قاله أهل السنة : إن المؤمن الحقيقي من كان محكوماً له بالجنة ، فمن لم يعلم ذلك من صير حكته تعالى فدهواه بأنه مؤمن حقا غير صحيح .

قوله تعالى : كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ

الْمُؤْمِنِينَ لَكَاذِبُونَ ﴿٥﴾

قوله تعالى : (كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ) قال الزجاج : البكاف في موضع نصب ، أى الأفعال ثابتة لك كما أخرجك ربك من بيتك بالحق ، أى مثل إخراجك وربك من بيتك بالحق . والمعنى : إرض لأمرك في الفتناء وتفل من شئت وإن كرهوا ، لأن بعض

(٢) راجع ج ٤ ص ١٨٩ طعة أول أورتانية .

(١) راجع ج ٤ ص ٢٨٠ طعة أول أورتانية .

(٣) راجع ج ١ ص ١٦٤ طبعة ثانية أورتانية .

الصحابه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين جعل لكل من أتى بأسير شيئا قال : يبق
 أكثر الناس بشير شيء . فوضع الكاف في « ك » نَصَبٌ كما ذكرنا . وقاله القرآن أيضا .
 قال أبو عبيدة : هو قسم ، أى والذي أخرجك ؛ فالكاف بمعنى الواو ، وما بمعنى الذى . وقال
 سعيد بن مسعدة : المعنى أولئك هم المؤمنون حقا كما أخرجك ربك من بيتك بالحق . قال :
 وقال بعض الساماء « كما أخرجك ربك من بيتك بالحق » فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم .
 وقال عكرمة : المعنى أطيعوا الله ورسوله كما أخرجك . وقيل : « كما أخرجك » متعلق بقوله
 « لم درجات » المعنى : لم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم . أى هذا الوعد للمؤمنين
 حتى فى الآخرة كما أخرجك ربك من بيتك بالحق الواجب له ؛ فأنجزك وعدك وأظفرك بعدوك
 وأوفى لك ؛ لأنه قال عز وجل : « وَإِذْ يَبْعُدُكُمْ اللَّهُ أَحَدَى الطَّائِفَيْنِ أَنَّهُمْ لَكُمْ » . فكما أنجز هذا
 الوعد فى الدنيا كذا يُنجز ما وعدكم به فى الآخرة . وهذا قول حسن ذكره النحاس واختاره .
 وقيل : الكاف فى « ك » كَأَف التشبيه ، ومخرجه على سبيل المجازة ؛ كقول القائل لبعده :
 كما وجهتك إلى أعدائى فأستضعفوك وسألت مددا فأمددتك وقويتك وأزجت ظنك ؛
 فقدم الآن فاقبهم بكنا . وكما كسوتك وأجريت عليك الرزق فاعمل كذا وكذا . وكما أحسنت
 إليك فأشكرنى عليه . فقال : كما أخرجك ربك من بيتك بالحق ونعاشكم الناس أمانة منه —
 يعنى به إياه ومن معه — وأنزل من السماء ماء ليطهركم به ، وأنزل عليكم من السماء ملائكة
 مُرَدِّفِينَ ، فأضربوا فوق الأعناق وأضربوا منهم كل بنان . كأنه يقول : قد أزحت علكم ،
 وأمددكم بالملائكة فأضربوا منهم هذه المواضع ، وهو المقتل ؛ لتبغوا مراد الله فى إحراق
 الحق وإبطال الباطل . والله أعلم . (وَإِنَّ قَرِيْقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ تَكَايَهُوْنَ) أى لكاهسون
 ترك مكة وترك أموالهم وديارهم .

قوله تعالى : يَجْعَلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا بَيَّنَّ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى

الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴿٦١﴾

قوله تعالى: (يُحَادِّثُكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ) مجادلتهم: قولهم لما ندبهم إلى العير وفات العير وأمرهم بالقتال ولم يكن معهم كبير أعباء شق ذلك عليهم وقالوا: لو أخبرتنا بالقتال لأخذنا العدة. ومعنى (فِي الْحَقِّ) أى فى القتال. (بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ) لم أكن لا تأمر بشئ إلا بإذن الله. وقيل: بعد ما تبين لهم أن الله معهم إما الظفر باليسير أو بأهل مكة، وإذا فات العير فلا بد من أهل مكة والظفر بهم. فعنى الكلام الإنكار لمجادلتهم. (كَأَنَّمَا يُسْأَلُونَ إِلَى الْمَوْتِ) كراهة للقاء القوم. (وَعَمَّ يَنْظُرُونَ) أى يعلمون أن ذلك واقع بهم؛ قال الله تعالى: «يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ» أى يعلم.

قوله تعالى: وَإِذْ يَعِدُّكُمْ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشُّكَّةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحَقِّقَ الْحَقَّ يَكَلِّمَنِيهِ وَيَقْطَعَ كَذِبَ الْكَافِرِينَ ﴿١٦﴾ لِيُحَقِّقَ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلِتُزْكَرَ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾

قوله تعالى: (وَإِذْ يَعِدُّكُمْ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ) «إحدى» فى موضع نصب مفعول ثانٍ. «أَنَّهَا لَكُمْ» فى موضع نصب أيضا بدل من «إحدى». (وَتَوَدُّونَ) أى تحبون. (أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشُّكَّةِ تَكُونُ لَكُمْ) قال أبو حنيفة: أى غير ذات الحد. والشوك: السلاح. والشوك: البنت الذى له حد؛ ومنه رجل شائك السلاح، أى حديد السلاح. ثم يطلب فيقال: شائك السلاح. أى تودون أن تظفروا بالطائفة التى ليس معها سلاح ولا فيها حرب؛ عن الزجاج. (وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحَقِّقَ الْحَقَّ يَكَلِّمَنِيهِ) أى أن يظهر الإسلام. والحق حق أبدا، ولكن لظهوره تحقيق له من حيث إنه إذا لم يظهر أشبه بالباطل. (يَكَلِّمَنِيهِ) أى يوحى؛ فإنه وعد نبيه ذلك فى سورة «الذِّحِّانِ» فقال: «يَوْمَ تَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُتَّقِمُونَ» أى من أبى جهل بأصحابه. وقال: «يُظْهِرُهُ عَلَى الدِّينِ كَلِيدًا» وقيل: «بكلماته» أى

بأمره ، إياكم أن تجاهدوهم . (وَيَقْطَعُ دَارَ الْكَافِرِينَ) أى يستأصلهم بالهلاك . (يُبَيِّنُ الْحَقَّ) أى يظهر دين الإسلام ويُبَيِّزُهُ . (وَيُطِيلُ الْبَاطِلَ) أى الكفر . وإطالة إعداده ، كما أن إحقاق الحق إنظاره . « بَلْ تَصْنِفُ الْحَقُّ مَلَّ الْبَاطِلِ فَيَمْنَعُهُ غَزَا هَوَاقِفُ » . (وَلَوْ تَرَى الْمُجْرِمُونَ) .

قوله تعالى : إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِآلِيفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ① وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ②

قوله تعالى : (إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ) الاستغاثة : طلب النوث والنصرة . غوث الرجل : قال : واغوثاه . والاسم النوث والغوث والغوثات . واستغاثني فلان فآفته ، والاسم الغياث ؛ عن الجوهري . وروى مسلم عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : لما كان يوم بدر نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المشركين وهم ألف وأصحابه ثلثمائة وسبعة عشر رجلا ، فاستقبل نبي الله صلى الله عليه وسلم القبلة ، ثم مَدَّ يَدَيْهِ ، فجعل يهتف بربه : « اللَّهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي . اللَّهُمَّ ائْتِنِي مَا وَعَدْتَنِي : اللَّهُمَّ إِنْ تَبَلَّكَ هَذِهِ الْمَصَابِيءُ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ لَا تَعْبُدْ فِي الْأَرْضِ » . لما زال يهتف بربه ماذا يديه مستقبل القبلة حتى سقط رداؤه عن منكبيه . فاتاه أبو بكر فأخذ رداؤه فألقاه على منكبيه ، ثم التزمه من ورائه وقال : يا نبي الله ، كفناك مناشدتك ربك ، فإنه سيهتك لك ما وعدك . فارتل الله تعالى : « إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِآلِيفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ » فأممته الله بالملائكة . وذكر الحديث . (مُرْدِفِينَ) يفتح الدال فراءة نافع . والياقون بالكسر اسم فاعل ، أى متابعين ، تأتي فرقة بعد فرقة ، وذلك أهيب في العمون . و « مُرْدِفِينَ » يفتح الدال على ما لم يسم فاعله ؛ لأن الناس الذين قالوا يوم بدر أردفوا بالآل من الملائكة ، أى أنزلوا إليهم لمصوتهم حل

الكفار . فردفين بفتح الدال تمت لألف . وقيل : هو حال من الضمير المنصوب في « يُدْكُمْ » . أى مذكّم في حال إردافكم بالث من الملائكة ؛ وهذا مذهب مجاهد . وحكى أبو عبيدة أن ردّفى وأردفى واحد . وأنكر أبو عبيد أن يكون أردف بمعنى ردّفى ؛ قال لقول الله عز وجل : « تَتَّبِعَهَا الْإِذَّةُ »^(١) ولم يقل المُردفة . قال النحاس ومكّي وغيرهما : وقراءة كسر الدال أولى ؛ لأن أهل التأويل على هذه القراءة يفسرون . أى أردف بعضهم بضاً ، ولأن فيها معنى الفتح على ما حكى أبو عبيدة ، ولأن عليه أكثر القراء . قال سيويه : وقرأ بعضهم « مُردّفين » بفتح الراء وشدّ الدال . وبعضهم « مُردّفين » بكسر الراء . وبعضهم « مُردّفين » بضم الراء . والدال مكسورة مشدّدة في القراءات الثلاث . فالقراءة الأولى تخديرها عند سيويه مردّفين ، ثم أدغم التاء في الدال ، وألحق حركتها على الراء لئلا يلتقي ساكنان . والثانية كسرت فيها الراء لانتفاء الساكنين . وضمت الراء في الثالثة إتباعاً لفظة الميم كما تقول : ردّ يا هذا . وقرأ جعفر بن محمد وعاصم المجتهدى « بألف » جمع ألف ؛ مثل قلّس وأفلس . وعنها أيضاً « بألف » . وقد مضى في « آل عمران » ذكر نزول الملائكة وسببهم وقائلهم . وتقدّم فيها القول في معنى قوله : « وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى » . والمراد الإمداد . ويجوز أن يكون الإرداف . (وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ) شبه على أن النصر من عنده جل وعز لا من الملائكة ؛ أى لولا نصره لما أتتفع بكثرة العدد بالملائكة . والنصر من عند الله يكون بالسيف ويكون بالهبة .

قوله تعالى : إِذْ يُفَتِّشُكُمُ النَّعَّاسُ أَمْنَةً مِنْهُ وَيُنْزِلُ عَلَيْكُمْ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ . وَيَذْهَبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُنْشِئَ بِهِ الْآفَاقِدَامَ ﴿١١﴾

قوله تعالى : (إِذْ يُفَتِّشُكُمُ النَّعَّاسُ) مفعولان . وهى قراءة أهل المدينة ، وهى حسنة لإضافة الفعل إلى الله عز وجل لتقدم ذكره في قوله : « وما النصر إلا من عند الله » .
(١) آية ٧ سورة المازعات . (٢) راجع ج ٤ ص ١٩٠ طبعة أمّ أرثانية . (٣) ج ٤ ص ١٩٨

ولأن يـده « وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ » فأضاف الفعل إلى الله عز وجل . فكذلك الإغشاء يضاف إلى الله عز وجل ليتنا كل الكلام . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو « يَغْشَاكُمْ النَّاسُ » بإضافة الفعل إلى الناس . دليله « أُمَّةٌ نَاسًا يَغْشَى^(١) » في قراءة من قرأ بإلقاء أو بالياء ؛ فأضاف الفعل إلى الناس أو إلى الأئمة . والأئمة هي الناس ؛ فأخبر أن الناس هو الذي يغشى النوم . وقرأ الباقر « يَغْشِيكُمْ » بفتح النين وشد الشين . « النَّاسُ » بالنصب على معنى قراءة نافع ، لتنان بمعنى غَشَى وأغشى ؛ قال الله تعالى : « فَأَغْشَيْنَاهُمْ^(٢) » . وقال : « فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى^(٣) » . وقال : « كَانَمَا أَغْشَيْتُ وَجُوهَهُمْ^(٤) » . قال مكي : والاختيار ضم الياء والتشديد ونصب الناس ؛ لأن يـده « أُمَّةٌ يَنْهَ » والمساء في « منه » فـه ، فهو الذي يشبههم الناس ، ولأن الأكثر عليه . وقيل : أئمة من العدو . و « أُمَّةٌ » مفعول من أجله أو مصدر ؛ يقال : أَمِنَ أُمَّةً وَأَمَّنَا وَأَمَانًا ؛ كلها سواء . والناس حالة الأمن الذي لا يخاف . وكان هذا الناس في الليلة التي كان القتال من غدها ؛ فكان النوم عجيبا مع ما كان بين أيديهم من الأمر الميهم ، ولكن الله ربط جاشهم . وعن علي رضي الله عنه قال : ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد على فرس أبيض ، ولقد رأيتنا وما فينا إلا نائم إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت شجرة يصل ويصلي ويصلي حتى أصبح ؛ ذكره البيهقي . الماوردي : وفي امتنان الله عليهم بالنوم في هذه الليلة وجهان : أحدهما - أن قوامهم بالاستراحة على القتال من الفد . الثاني - أن ائمتهم بزوال الرعب من قلوبهم ؛ كما يقال : الأمن مني ، والخوف مني . وقيل : غشاهم في حال التقاء الصفيين . وقد مضى مثل هذا في يوم أحد في « آل عمران » . قوله تعالى : (وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْسَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ) ظاهر القرآن يدل على أن الناس كان قبل المطر . وقال ابن أبي نجیح : كان المطر قبل الناس . وحكى الزجاج أن الكفار يوم بدر سبقوا المؤمنين إلى ماء بدر فزلوا عليه وبقي المؤمنون لا ماء لهم فوجست نفوسهم وعطشوا وأجبنوا وصلوا

(١) آية ١٥٤ سورة آل عمران . (٢) آية ٩ سورة يس . (٣) آية ٥٤ سورة النجم .
(٤) آية ٢٧ سورة يونس . (٥) راجع ج ٤ ص ٢٤١ طبعه أهل دار الفقه .

بذلك ؛ فقال بعضهم في قوسهم بإلقاء الشيطان إليهم : زعم أنا أولياء الله وفيما رسوله وحالنا هذه والمشركون على الماء . فأنزل الله المطر ليلة بدر الساعة عشرة من رمضان حتى سالت الأودية ؛ فشرىوا وتطهروا وسقوا الظَّهْر وتَلَبَّتِ السَّحَابُ^(١) التي كانت بينهم وبين المشركين حتى ثبتت فيها أقدام المسلمين وقت القتال . وقد قيل : إن هذه الأحوال كانت قبل وصولهم إلى بدر ؛ وهو أصح ، وهو الذي ذكره ابن إسحاق في سيرته وغيره . وهذا اختصاره : قال ابن عباس لما أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأبي سفيان أنه مقبل من الشام ندب المسلمين إليهم وقال : ” هذه عير قريش فيها الأموال فأخرجوا إليهم لعل الله يُفْلِكَوْهَا “ قال : فأنبعت معه من خَفٍّ ؛ وقتل قوم وكبر هوا الخروج ، وأسرع رسول الله صلى الله عليه وسلم لايلوي على من تعدر ، ولا ينتظر من غاب ظَهره ، فسار في ثلثة وثلاثة عشر من أصحابه من مهاجري وأنصاري . في البخاري عن البراء بن عازب قال : كان المهاجرون يوم بدر ثِيْفًا وثمانين ، وكان الأنصار نيفا وأربعين ومائتين . وخرج أيضا عنه قال : كنا نحمدك أن أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم كانوا ثلثة وبضعة عشر ، على عدد أصحاب طالوت الذين جازوا معه النهر ، وما جاز معه إلا مؤمن . وذكر البيهقي عن أبي أيوب الأنصاري قال : فخرجنا — يعني إلى بدر — فلما سیرنا يوما أو يومين أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نتماد ، ففعلنا فإذا نحن ثلثة وثلاثة عشر رجلا ، فأخبرنا النبي صلى الله عليه وسلم بعدتنا ، فمرَّ بذلك وحيد الله وقال : ” عِدَّةُ أَصْحَابِ طَالُوت “ . قال ابن إسحاق : وقد ظن الناس بأجمعهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يلقى حربًا فلم يكثر استعدادهم . وكان أبو سفيان حين دنا من الحجاز يتجسس الأخبار ويسأل من لقي من الرِّكبان تخوفا على أموال الناس ، حتى أصاب خبرا من بعض الرِّكبان أن محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم قد استغفر لكم الناس ؛ فغير عند ذلك واستأجر قحطم بن عمرو النفازي وبشاه إلى مكة ، وأمره أن يأتي قريشا

(١) الظَّهْر : الايل التي يحمل عليها ويركب . (٢) السَّحَابُ (عَمَلَةٌ) : أروض ذات ملح ورز .

(٣) لوى عليه : عطف أو انتظر .

يستغفرهم إلى أموالهم ويغفرهم أن يحدا صلى الله عليه وسلم قد عرض لها في أصحابه ؛ ففعل
ضمضم . فخرج أهل مكة في ألف رجل أو نحو ذلك ، وخرج النبي صلى الله عليه وسلم
في أصحابه ، وأتاه الخبر عن قريش بخروجهم ليمتنوا عيهم ؛ فأستشار النبي صلى الله عليه وسلم
الناس ، فقام أبو بكر فقال فآحسن ، وقام عمر فقال فآحسن ، ثم قام المقداد بن عمرو فقال :
يا رسول الله ، امض لما أمرك الله ، فنجن منك ، والله لا نقول كما قالت بنو إسرائيل
« اذهب أنت وربك فقاتل إنا هاهنا قاعدون » ولكن اذهب أنت وربك فقاتل إنا معكم
مقاتلون ، والذي بئنك بالحق لو سرت إلى برك النمام - يعني مدينة الحبشة - بلأدنا
مك من دونه ؛ فسر بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعا له بنجر . ثم قال : « أشيروا
علي أيها الناس » يريد الأنصار . وذلك أنهم عدد الناس ، وكان حين يأموه بالعقبة قالوا :
يا رسول ، إنا برآه من ذمامك حتى نصل إلى ديارنا ، فإذا وصلت إلينا فانت في ذمنا ،
فمنك مما نتع منه أنفسنا وأبنائنا ونساءنا . فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتخوف
ألا تكون الأنصار ترى أن عليها نصرته إلا بالمدينة ، وأنه ليس عليهم أن يسير بهم إلى عذر
بشير بلادهم . فلما قال ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم كلمه سعد بن معاذ - وقيل
سعد بن عباد ، ويمكن أنهما تكلما جميعا في ذلك اليوم - فقال : يا رسول الله ، كأنك تريدنا
معشر الأنصار ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أجل » فقال : إنا قد آمنا بك
وآبناك ، فأض لما أمرك الله ، فوالذي بئنك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته
لخضناه معك . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « امضوا على بركة الله فكلاني أنظر
إلى مصارع القوم » . فضى رسول الله صلى الله عليه وسلم وسبق قريشا إلى ماء بدر . ومنع
قريشا من سبق إليه مطر عظيم أتاه الله عليهم ، ولم يصب منه المسلمين إلا ما شئت لهم
دفع الوادي وأعانهم على السير . والتحصن : الرمل اللين الذي تسوخ فيه الأرجل . فقول
رسول الله صلى الله عليه وسلم على أدنى ماء من مياه بدر إلى المدينة ، فأشار عليه الحباب

ابن المنذر بن عمرو بن الجُمُوح بنير ذلك وقال له : يا رسول الله ، أرايت هذا المنزل ،
 أمزلا أنزلك الله فليس لنا أن نتقدمه أو نتأخر عنه ، أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟
 فقال عليه السلام : " بل هو الرأى والحرب والمكيدة " . فقال : يا رسول الله ، إن هذا ليس
 لك بمنزل ، فانهض بنا إلى أدنى ماء من القوم فننزله ونُغَوِّر ما وراءه من القُلُبِ ^(٢) ، ثم نبني عليه
 حوضا فنعلمه فغشرب ولا يشربوا . فاستحسن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك من
 رايه ، وفعله . ثم اتفوا فنصر الله نبيه والمسلمين ، فقتل من المشركين سبعين وأمر منهم
 سبعين ، واتيهم منهم للؤمنين ، وشفى الله صدر رسوله عليه السلام وصدر أصحابه من
 غيظهم . وفي ذلك يقول حسان :

عَرفْتُ ديارَ زَيْنَبَ بالكَيْتِ • تَكْطُ الوَثِي في الوَرَقِ القَيْتِ ^(٣)
 تَدْلُوها الرِّياحُ وَكُلَّ جَوَيْ • مِنَ الوَثِي مِنْ مِرْمَرٍ مَكُوبِ ^(٤)
 فامسى رَبُّها حَلَقًا وامسَتْ • يَتَبَّأُ بَعْدَ ساكِنِها الحَيْبِ ^(٥)
 فَدَعَّ عَنْكَ التَّذْكَرُ كُلَّ يَوْمٍ • وَرَدَّ حِراةَ الصَّدْرِ الكَيْبِ
 وَخَبَّرَ الَّذِي لا يَغِيبُ فِيهِ • بِصَدَقِ غَيْرِ إِخْبَارِ الكَذِيبِ
 بِما صَنَعَ الإلهُ غِداةَ بَدِيرٍ • لَنَا في المَشْرِكِ مِنَ النَصِيبِ
 غِداةَ كَانَتْ بِجَمْعِهِمْ حِراةً • بَدَتْ أَرْكانَهُ جُنْحُ الفَسْرِوبِ
 فَبَلابِلُهُمْ مِنا يَجْمَعُ • كَأَمَدِ الفِئابِ مُرْدانٍ وَشَيْبِ
 أَمامَ مُحَمَّدٍ نَوَازِرُوهُ • عَلى الأَعْداءِ فَلَاحَ الحَسْرِوبِ
 بِأَيْدِيهِمْ حِساوِيْمُ مُرْهَفاتُ • وَكُلَّ مَجْرِبٍ خائِلِ الكُصُوبِ ^(٦)

- (١) عَرَفَ عَيْنَ الياء : إذا دَفَعَا وسدَّها . (٢) القَلْبُ : جَمْعُ قَلْبٍ ، وَهُوَ البُرْءُ السَّادَةُ القَدِيمَةُ
 الَّتِي لا يُعْلَمُ لَهَا رُبٌّ ولا حافِرٌ تَكُونُ في البَراري . (٣) الوَثِي : الكِتابَةُ . وَالْقَيْتُ : الجَدِيدُ .
 (٤) الجَوْنُ : السَّحابُ . وَالرَّيْ : المَطَرُ الَّذِي يَأْتِي في الرِّيحِ . (٥) الفِئابُ : الحِصْرُ .
 (٦) الخائِلُ : الكَثِيرُ الهم .

بنو الأوس الفطاريث وأزوتها • بنو النجار في الدين الصلب
فأدركنا أبا جهنل صريحا • وعبة قد تركنا بالمحبوب^(١)
وشية قند تركنا في رجال • ذوى نسب إذا نُسبوا حبيب^(٢)
يناديهم رسول الله لما • قد فتناهم بكأكب في التليب^(٣)
ألم نجدوا كلامي كان حقا • وأمر الله بأخذ بالقلوب
فما نطقوا ، ولو نطقوا لقالوا • أصبت ركنك ذا رأى مصيب

وهنا ثلاث مسائل :

الأولى - قال مالك : يلتقي أن جبريل عليه السلام قال للنبي صلى الله عليه وسلم :
”كيف أهل بدر فبك ؟“ قال : ”خيرنا“ فقال : ”إهم كذلك فبنا“ . فدل هذا على أن
شرف المخلوقات ليس بالدوات ، وإنما هو بالأفعال . فلذلك أنعم الله الشريفة من المواظبة
على التسبيح الدائم . ولنا أفعالنا بالإخلاص بالطاعة . وتتفاضل الطاعات بتفضيل الشرع
لها ، وأفضلها الجهاد ، وأفضل الجهاد يوم بدر ، لأن بناء الإسلام كان عليه .

الثانية - ودل خروج النبي صلى الله عليه وسلم إلى بدر على جواز التغير للفتنة لأنها
كسب حلال . وهو يرد ما كره مالك من ذلك ، إذ قال : ذلك قتال على الدنيا ، وما جاء
أن من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله دون من يقاتل للفتنة ، يراد به إذا
كان قصده وحده وليس للدين فيه حظ . وروى عكرمة عن ابن عباس قال : قالوا للنبي
صلى الله عليه وسلم حين فرغ من بدر : عليك بالعير ، ليس دونها شيء . فناداه العباس وهو
في الأسرى : لا يصلح هذا . فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : ”ولم ؟“ قال : لأن الله
وعدك إحدى الطائفتين ، وقد أعطاك الله ما وعدك . فقال النبي صلى الله عليه وسلم :

(١) الفطاريث : جمع الفطاريث ، وهو البهائم الشريفة السخى . (٢) الجيوب : وجه الأرض .

(٣) بكأكب : جمع ككبة وهي أجنحة الكتفة .

” صدقت “ . وعلم ذلك العباس بحديث أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وبما كان من شأن بدر، فسمع ذلك في أثناء الحديث .

الثالثة — روى مسلم عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ترك قتل بدر ثلاثاً، ثم قام عليهم فناداهم فقال : ” يا أبا جهل بن هشام يا أمية بن خلف يا عتبة بن ربيعة يا شيبة بن ربيعة أليس قد وجدتم ما وعد ربكم حقاً فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقاً “ . فسمع عمر قول النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله، كيف يسمعون، وأني يحيون وقد جفوا ؟ قال : ” والذي نفسي بيده ما أتم بأجمع لما أقول منهم ولكنهم لا يُقدرون أن يُحييوا “ . ثم أمر بهم فسُحِبُوا فَأَلْقُوا فِي الْقَلِيبِ ، قَلِيبِ بَدْر . « جَفَّوْا » بفتح الجيم والياء ، ومعناه أُنْتُوْا فَصَارُوا جَيِّفًا . وقول عمر : « يسمعون » استبعاد على ما جرت به العادة . فأجابه النبي صلى الله عليه وسلم بأنهم يسمعون كسمع الأحياء . وفي هذا ما يدل على أن الموت ليس بعدم محض ولا فناء صرف ، وإنما هو انقطاع تعلق الروح بالبدن ومفارقتها ، وحيلولة بينهما ، وتبدل حال وانتقال من دار إلى دار . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” إن الميت إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه إنه ليسح قرع ناعله “ الحديث . أخرجه الصحيح .

قوله تعالى : (وَيُنَبِّئُ بِهِ الْأَقْدَامَ) الضمير في « به » عائد على الماء الذي شذ دهن الوادي، كما تقدم . وقيل : هو عائد على ربط القلوب ؛ فيكون تثبيت الأقدام عبارة عن النصر والمعونة في موطن الحرب .

قوله تعالى : إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَكِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَالَتِ فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَأَخْضِرُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿٦٢﴾

قوله تعالى : ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنْ يَنْهَكُنَّ فِي « إِذ » بشت »
 أى ثبت به الأقدام ذلك الوقت . وقيل : العامل « ليربط » أى ويربط إذ يوحى . وقد
 يكون التقدير : إذ كر إذ يوحى ربك إلى الملائكة . « أنى معكم » فى موضع نصب ، والمعنى :
 بأنى معكم ، أى بالنصر والمعونة . « معكم » بفتح العين ظرف ، ومن أسكنها فهو عنده
 حرف . ﴿ فَتَبَيَّنُوا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أى بشروهم بالنصر أو القتال معهم أو الحضور معهم من غير
 قتال ، فكان الملك يسير أمام الصف فى صورة الرجل ويقول : سيروا فإن الله ناصركم .
 ويظن المسلمون أنه منهم ، وقد تقدم فى « آل عمران » أن الملائكة قانت ذلك اليوم .
 فكانوا يرون رموساً ^(١) تتدر عن الأعناق من غير ضارب بزونه . وسميع بعضهم قائلاً يسمع قوله
 ولا يرى شخصه : أقدم ^(٢) حيزوم . وقيل : كان هذا التثبيت إذ كر رسول الله صلى الله عليه وسلم
 للؤمنين نزول الملائكة مدداً .

قوله تعالى : ﴿ سَأُنْفِثُ فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرِّيبَ ﴾ تقدم فى « آل عمران » بيانه .
 ﴿ فَأَخْبِرُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ ﴾ هذا أمر للملائكة . وقيل : للؤمنين ، أى أخبروا الأعناق ،
 و « فوق » زائدة ، قاله الأخفش والضحاك وعطية . وقد روى المسعودى قال قال رسول الله
 صلى الله عليه وسلم : « إني لم أبعث لأعذب بمذاب الله وإنما بعث بضرب الرقاب وشذ
 الوثاق » . وقال محمد بن يزيد : هذا خطأ ، لأن « فوق » تنفيد معنى فلا يفوز زيادتها ،
 ولكن المعنى أنهم أبيع لهم ضرب الوجوه وما قرب منها . وقال ابن عباس : كل هام
 وجمجمة . وقيل : أى ما فوق الأعناق ، وهو الرموس ، قاله عكرمة . والضرب على الرأس
 أبلغ ، لأن أدنى شيء يؤثر فى الدماغ . وقد مضى شيء من هذا المعنى فى « النساء » وأن
 « فوق » ليست بزائدة ، عند قوله : « فوق آتيتين » . ﴿ وَأَخْبِرُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَشَانٍ ﴾ قال
 الزجاج : واحد البان بشانة ، وهى هنا الأصابع وغيرها من الأعضاء . والبان مشتق من

(١) رابع ج ٤ ص ١٩٠ طبة أول أو ثانية . (٢) ندر : سقط .

(٣) حيزوم : اسم فرس من خيل الملائكة . (٤) رابع ج ٤ ص ٢٣٢ طبة أول أو ثانية .

(٥) رابع ج ٥ ص ٦٣ طبة أول أو ثانية .

قولهم : أين الرجل بالمكان إذا أقام به . فالبيان يُعْمَلُ به ما يكون للإقامة والحياة . وقيل : المراد بالبيان هنا أطراف الأصابع من اليدين والرجلين . وهو عبارة عن الثبات في الحرب وموضع الضرب ، فإذا ضربت البتان تعطل من المضروب القتال بخلاف سنائر الأعضاء . قال عنترة :

وكان قَتَى الهجاء يحى ذمارها • ويضرب عند الكرب كلَّ بَنانٍ

ومجاهد أن البتان الأصابع قول عنترة أيضا :

وأن الموت طَوَّع يدي إذا ما • وصَلْتُ بَنانها بالهُندُوني

وهو كثير في أشعار العرب، البتان : الأصابع . قال ابن فارس : البتان الأصابع ، ويقال الأطراف . وذكر بعضهم أنها سُميت بَناناً لأن بها صلاح الأحوال التي بها يستقر الإنسان ^(١) وبين . وقال الضحاك : البتان كل مَفِصَل .

قوله تعالى : **ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ** وَمَنْ يُسَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٦﴾ **ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ** ﴿١٧﴾

قوله تعالى : (**ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ**) « ذَٰلِكَ » في موضع رفع على الابتداء ، والتقدير : ذلك الأمر ، أو الأمر ذلك . (**شَاقُوا اللَّهَ**) أى أولياءه . والشقاق : أن يصير كل واحد في شق . وقد تقدم . (**ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ**) قال الزجاج : « ذَٰلِكُمْ » رفع بإختصار الأمر أو القصة ، أى الأمر ذلكم فذوقوه . ويجوز أن يكون في موضع نصب بذوقوا ، كقولك : زيدا فأضربه . ومعنى الكلام التوبيخ للكافرين . « وَأَنَّ » في موضع رفع عطوف على ذلكم . قال الفراء : ويجوز أن يكون في موضع نصب بمعنى وبأن للكافرين . قال : ويجوز أن يضمروا وعلوا أن . الزجاج : لو جاز إختصار وعلوا بلزاد منطلق وعمراً

(١) بَيَّ بالمكان : أقام .

(٢) راجع ج ٢ ص ١٤٣ طبعة ثانية .

حالما ، بل كان يجوز في الابتداء زيدا منطلقا ؛ لأن الخبر معلوم ؛ وهذا لا يقوله أحد من
الحويين .

قوله تعالى : يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفَا
فَلَا تُؤَلُّوهُمْ ۖ الْأُدْبَارَ ﴿١٥٦﴾ وَمَنْ يُؤْمِدْ ذُرَّهُ ۖ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ
أَوْ مُتَحَرِّزًا ۖ إِلَىٰ فِتْنَةٍ ۖ فَقَدْ بَاءَ بِقَضِيٍّ مِّنَ اللَّهِ وَمَا لَهُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ
الْمَصِيرُ ﴿١٥٧﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى - قوله تعالى : (زَحَفَا) الزحف البتوفلا قليلا . وأصله الاندفاع على
الألوية ؛ ثم سمي كل ما شق في الحرب إلى آخر زاحفا . والتزاحف : التصدى والتقارب ؛
يقال : زحف إلى العدو زحفا . وأزدحف القوم ، أى مشى بعضهم إلى بعض . ومنه
زحاف الشعر ، وهو أن يقط بين الحرفين حرف فيزحف أحدهما إلى الآخر . يقول : إذا
تدائمت وتعايتم فلا تفزوا عنهم ولا تعطوهم أذباركم . حرم الله ذلك على المؤمنين حين فرض عليهم
الجهاد وقتال الكفار . قال ابن عطية : والأدبار جمع دُبُر . والعبارة بالتدبر في هذه الآية
ممثلة الفصاحة ؛ لأنها شائعة على القار ، ذاقته له .

الثانية - أمر الله عز وجل في هذه الآية ألا يؤلّ المؤمنون أمام الكفار . وهذا
الأمر مفيد بالشريطة المنصوصة في مثل المؤمنين ؛ فإذا لقيت فئة من المؤمنين فئة هي ضعف
المؤمنين من المشركين فالقروض ألا يفزوا أمامهم . فمن فز من اثنين فهو فاز من الزحف . ومن
فز من ثلاثة فليس بفاز من الزحف ، ولا يتوجه عليه الوعيد . والفرار كبيرة مؤيقة بظاهر
القرآن وإجماع الأكثر من الأئمة . وقالت فرقة منهم ابن المسيب في الواجحة : إنه يراعى
الضعف والقوة والمدة ؛ فيجوز على قولهم أن يفز مائة فارس من مائة فارس إذا علموا أن ما عند
المشركين من التعدة والبسالة ضعف ما عندهم . وأما على قول الجمهور فلا يحل فرار مائة إلا

ما زاد على المائتين ؛ فهما كان في مقابلة مسلم أكثر من اثنين فيجوز الأتخاذ ، والصبر أحسن . وقد وقف جيش مؤنة وهم ثلاثة آلاف في مقابلة مائتي ألف ، منهم مائة ألف من الروم ، ومائة ألف من المستعربة من تخم وجندهم .

قلت : ووقع في تاريخ فتح الأندلس ، أن طارقاً مولى موسى بن نصير سار في ألف وسبعمائة رجل إلى الأندلس ، وذلك في رجب سنة ثلاث وتسعين من الهجرة ؛ فألقى ملك الأندلس لدريق وكان في سبعين ألف عتار ؛ فزحف إليه طارق وصبر له فهزم الله الداغية لدريق ، وكان الفتح . قال ابن وهب : سمعت مالكا يسأل عن القوم يلقون العدو ويكونون في تحرس يحرسون فيأتيهم العدو وهم يسير ، أيقاتلون أو ينصرفون فيؤذنون أصحابهم ؟ قال : إن كانوا يلقون على قتالهم قاتلوهم ، وإلا انصرفوا إلى أصحابهم فأذنوهم .

الثالثة - واختلف الناس هل الفسار يوم الزحف مخصوص بيوم بدر أم عام في الزحوف كلها إلى يوم القيامة ؛ فروى عن أبي سعيد الخدري أن ذلك مخصوص بيوم بدر ، وبه قال نافع والحسن وقسادة ويزيد بن أبي حبيب والضحاك ، وبه قال أبو حنيفة . وأن ذلك خاص بأهل بدر فلم يكن لهم أن يخازوا ، ولو أنخازوا لأنخازوا للشركين ، ولم يكن في الأرض يومئذ مسلمون غيرهم ، ولا لاسلمين فئة إلا النبي صلى الله عليه وسلم ؛ فأما بعد ذلك فإن بعضهم فئة لبعض . قال الكيا : وهذا فيه نظر ؛ لأنه كان بالمدينة خلق كثير من الأنصار لم يأمرهم النبي صلى الله عليه وسلم بالخروج ولم يكونوا يرون أنه قتال ، وإنما ظنوا أنها الغيرة ؛ فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فيمن خف معه . ويروى عن ابن عباس وسائر العلماء أن الآية باقية إلى يوم القيامة . احتج الأولون بما ذكرنا ، وبقوله تعالى : « يوشع » فقالوا : هو إشارة إلى يوم بدر ، وأنه نسخ حكم الآية بآية الضمف . وبقى حكم الفسار من الزحف ليس بكبيرة . وقد فز الناس يوم أحد فعفا الله عنهم ، وقال الله فيهم يوم حنين « ثم ولّيتهم مدبرين » ولم يقع على ذلك تعنيف . وقال الجمهور من العلماء : إنما ذلك إشارة

الى يوم الزحف الذى يتضمنه قوله تعالى : « إِذَا لَقِيتُمْ » . وحكم الآية باقى الى يوم القيامة بشرط الضعف الذى بينه الله تعالى فى آية أخرى ، وليس فى الآية نسخ . والدليل عليه أن الآية نزلت بعد القتال واقضاء الحرب وذهاب اليوم بما فيه . وإلى هذا ذهب مالك والشافعي وأكثر العلماء . وفى صحيح مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « اجْتَنِبُوا السِّبْغَ الْمَوْبِقَاتِ - وفيه - وَالتَّوَلَّوْا يَوْمَ الزَّحْفِ » وهذا نص فى المسألة . وأما يوم أحد فإنما قرأ الناس من أكثر من ضعفهم ومع ذلك عَفَوْا . وأما يوم حُنين فكذلك من قرأ إنما انكشف عن الكثرة ؛ على ما يأتى بيانه .

الرابعة - قال ابن القاسم : لا يجوز شهادة من قرأ من الزحف ، ولا يجوز لهم الفرار وإن قرأ إمامهم ؛ لقوله عز وجل : « وَمَنْ يُؤْمَرْ يَوْمَئِذٍ بِهِ » الآية . قال : ويجوز الفرار من أكثر من ضعفهم ، وهذا ما لم يبلغ عدد المسلمين . أتى عشر ألفا ؛ فإن بلغ اثني عشر ألفا لم يحل لهم الفرار وإن زاد عدد المشركين على الضعف ؛ لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « وَلَنْ يُغْلِبَ اثْنَا عَشَرَ ألفًا مِنْ قَلِيلٍ » فإن أكثر أهل العلم خصصوا هذا العدد بهذا الحديث من عموم الآية .

قلت - رواه أبو بشر وأبو سلمة العاملي ، وهو الحكم بن عبد الله بن خطاب وهو متروك . قالوا : حدثنا الزهري عن أنس بن مالك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « يَا أَكْثَمُ بْنُ الْجَوْشَنِ أَغْزَمُ غَيْرِ قَوْمِكَ يَحْسُنُ خَلْقَكَ وَتُكْرَمُ عَلَى رِفْقَاتِكَ . يَا أَكْثَمُ ابْنُ الْجَوْشَنِ خَيْرُ الرِّفْقَاءِ أَرْبَعَةٌ وَخَيْرُ الطَّلَاحِ أَرْبَعُونَ وَخَيْرُ السَّرَايَا أَرْبَعَانَةٌ وَخَيْرُ الْجُيُوشِ أَرْبَعَةٌ أَلْفٌ وَلَنْ يُؤْتِيَ اثْنَا عَشَرَ ألفًا مِنْ قَلِيلٍ » . وروى عن مالك ما يدل على ذلك من منزهة وهو قوله للعمري العابد إذا سألته هل لك سعة فى ترك مجاهدة من غير الأحكام وبدلها ؟ فقال : إن كان معك اثنا عشر ألفا فلا سعة لك فى ذلك .

(١) العمري (بضم العين وضع الميم) وهو عبد الله بن عمر بن عبد العزيز بن عبد الله بن عمر بن الخطاب ، كان من أزهز زمانه . مات سنة ١٨٤ هـ (عن أنساب السمان) .

الخامسة - فإن فرغ فليستغفر الله عز وجل . روى الترمذى عن بلال بن يسار بن زيد قال : حدثني أبي عن جدي سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول : " من قال أستغفر الله الذى لا إله إلا هو الحى القيوم وأتوب إليه غفر الله له وإن كان قد فر من الزحف " . قال : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه .

السادسة - قوله تعالى : (إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَمَحِّبًا إِلَى فِتْنَةٍ) التحريف : الزوال عن جهة الاستواء . فالتحريف من جانب إلى جانب لمكايد الحرب غير منهزم ؛ وكذلك التحيز إذا نوى التحيز إلى فئة من المسلمين ليستعين بهم فيرجع إلى القتال غير منهزم أيضا . روى أبو داود عن عبد الله بن عمر أنه كان في سيرة من سرايا رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : نغاضى الناس تحيصة ، فكننت فيمن حاص ، قال : فلما برزنا قلنا كيف نصنع وقد فررنا من الزحف وبؤنا بالغضب . قلنا : ندخل المدينة فتثبت فيها ونذهب ولا يرانا أحد . قال : فدخلنا قلنا لو عرضنا أنفسنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن كانت لنا توبة أقنا ، وإن كان غير ذلك ذهبنا . قال : بغضنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم قبل صلاة الفجر ، فلما خرج قلنا إليه قلنا : نحن القزارون ، فأقبل إلينا فقال : " لا بل أتم الكارون " . قال : قدنونا فقبلنا يده . فقال : " أنا فئة المسلمين " . قال تطلب : الكارون هم العطاؤون . وقال غيره : يقال للرجل الذى يؤتى عند الحرب ثم يكر راجعا : عكر وأعكر . وروى جرير عن منصور عن إبراهيم قال : انتهزم رجل من القادسية فأقى المدينة إلى عمر فقال : يا أمير المؤمنين ، هلكت ! فررت من الزحف . فقال عمر : أنا فتك . وقال محمد بن سيرين : لما قتل أبو حبيدة جاء الخبر إلى عمر فقال : لو انحاز إلى لكتنت له فئة ، فأنافئة كل مسلم . وعلى هذه الأحاديث لا يكون الفرار كبيرة ؛ لأن الفئة هنا المدينة والإمام وجماعة المسلمين حيث كانوا . وعلى القول الآخر يكون كبيرة ؛ لأن الفئة هناك الجماعة من الناس الحاضرة للحرب . هذا على قول الجمهور أن الفرار من الزحف كبيرة . قالوا : وإنما كان ذلك القول

(١) حاض : جال ، أى جالوا جولة يطلعون القرار .

عن النبي صلى الله عليه وسلم : الحبيطة من المؤمنين ، إذ كان في ذلك الزمان
يتبنون لأضدادهم مرارا . والله أعلم . وفي قوله " والتولى يوم الزحف " ما يمكن .

السابعة - قوله تعالى : (فَقَدْ بَاءَ بِقَضِيبٍ مِّنَ اللَّهِ) أى استحق الفضب . وأهل
« باء » رجع . وقد تقدم . (وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ) أى مقامه . وهذا لا يدل على الخلود ؛ كما تقدم
في غير موضع . وقد قال عليه السلام : " من قال استغفر الله الذى لا إله إلا هو الحى القيوم
غفر له وإن كان قد فر من الزحف " .

قوله تعالى : فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ
وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءٌ حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾
ذَلِكَ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنٌ كَذِبِ الْكَافِرِينَ ﴿١٨﴾

قوله تعالى : (فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ) أى يوم بدر . روى أن أصحاب رسول الله
صلى الله عليه وسلم لم يدرى س يدرى كركل واحد منهم ما فعل : قتل كذا ، فعل كذا ،
بغاء من ذلك ففانحروهم . فزلت الآية إعلاما بأن الله تعالى هو المجتبه والمقدر لجميع
الأشياء ، وأن العبد إنما يشارك بتكسبه وقصده . وهذه الآية ترذ على من يقول بأن أعمال
العباد خلق لهم . فقيل : المعنى فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم بسوقهم إليكم حتى أمكنكم منهم .
وقيل : ولكن الله قتلهم بالملائكة الذين أمركم بهم . (وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ) مثله ، ولكن
الله رمى . واختلف العلماء في هذا الرمي على أربعة أقوال :

الأول - إن هذا الرمي إنما كان في حصب رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين ؛
رواه ابن وهب عن مالك . قال مالك : ولم يبق في ذلك اليوم أحد إلا وقد أصابه ذلك .
وكذلك روى عنه ابن القاسم أيضا .

الثاني - أن هذا كان يوم أحد حين رمى أبي بن خلف بالحربة في عنقه ؛ ففكر آتياً منهزماً . فقال له المشركون : والله ما بك من بأس . فقال : والله لو بصق ملء لفتني . أليس قد قال : بل أنا أقتله . وكان قد أوعد أبي رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقتل بمكة ؛ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : " بل أنا أقتلك " فأتى عدو الله من ضربة رسول الله صلى الله عليه وسلم في مرجعه إلى مكة ، بموضع يقال له « سرف » . قال موسى بن عقبة عن ابن شهاب : لما كان يوم أحد أقبل أبي مقنعا في الحديد مل فرسه يقول : لا نجوت إن نجا عدي ؛ فحمل على رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد قتله . قال موسى بن عقبة قال سميد بن المسيب : فأعرض له رجال من المؤمنين ، فأمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم نفلوا طريقه ؛ فاستقبله مصعب بن عمير بئى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فقتل مصعب بن عمير ، وأبصر رسول الله صلى الله عليه وسلم ترقوة أبي بن خلف من فرجة بين سائفة البيضة والدرع ؛ فطعنه بحربة فوق أبي عن فرسه ، ولم يخرج من طعته دم . قال سميد : فكسر ذلعا من أضلاعه ؛ فقال : قى ذلك نزل « وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى » . وهذا ضميم ؛ لأن الآية نزلت عقيب بدر .

الثالث - أن المراد لفسهم الذى رمى به رسول الله صلى الله عليه وسلم في حصن خيبر ، فسار في الهواء حتى أصاب ابن أبي الحقيق وهو على فراشه . وهذا أيضا فاسد ، وخيبر وفتحها أبعد من أحد بكثير . والصحيح في صورة قتل ابن أبي الحقيق غير هذا .

الرابع - أنها كانت يوم بدر ؛ قاله ابن إسحاق . وهو أصح ؛ لأن السورة بديرة ، وذلك أن جبريل عليه السلام قال للنبي صلى الله عليه وسلم : " خذ قبضة من التراب " فآخذ قبضة من التراب فرمى بها وجوههم فسا من المشركين من أحد إلا وأصاب عينه ومنخره وفه تراب من تلك القبضة ؛ وقاله ابن عباس ، وسأى . قال ثعلب : المعنى « وما رميت » الفزع والرعب في قلوبهم « إذ رميت » بالحصباء فأنهزموا « ولكن الله رمى » أى أعانك وأظفرك . والعرب تقول : رمى الله لك ، أى أعانك وأظفرك وصنع لك . حكى هذا أبو عبيدة

في تخلف الجواز . وقال محمد بن يزيد: وما رميت بقوتك إذ رميت، ولكلك بقوة الله رميت .
 (وَلَيْلِي الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءٌ حَسَنًا) البلاء ها هنا النعمة . واللام تتلقى بمحذوف؛ أي وليلي
 المؤمنين فعل ذلك . (ذَلِكَ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنٌ كَيْدَ الْكَافِرِينَ) قراءة أهل الحرمين وأبي عمرو .
 وقراءة أهل الكوفة « مُوهِنٌ كَيْدَ الْكَافِرِينَ » . وفي التشديد معنى المبالغة . وروى عن الحسن
 « مُوهِنٌ كَيْدَ الْكَافِرِينَ » بالإضافة والضعف . والمعنى : أن الله عز وجل يلقي في قلوبهم
 الرعب حتى يشتتوا ويتزق جمعهم فيضعفوا . والكيد : المكر . وقد تقدم^(١) .

قوله تعالى : إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ
 لَّكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نُعَذِّبْكُمْ وَلَنْ تَغْنِيَ عَنْكُمْ فِتْنَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ
 وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾

قوله تعالى : (إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ) شرط وجوابه . وفيه ثلاثة أقوال :
 يكون خطاباً للكفار ؛ لأنهم استفتحوا فقالوا : اللَّهُمَّ أَفْطِنَا لِلزَّيْحِ وَأَظْلِمْنَا لِصَاحِبِهِ فَأَنْصِرِهِ
 عليه ؛ قاله الحسن ومجاهد وغيرهما . وكان هذا القول منهم وقت خروجهم لنصرة العير .
 وقيل : قاله أبو جهل وقت القتال . وقال النضر بن الحارث : اللهم إن كان هذا هو الحق
 من عندك فامطر علينا حجارة من السماء أو آتتنا بعذاب أليم . وهو من قتل بيدر .
 والاستفتاح : طلب النصر ؛ أي قد جاءكم الفتح ولكنه كان للمسلمين عليكم . أي فقد
 جاءكم ما بان به الأمر ، وانكشف لكم الحق . (وَإِنْ تَنْتَهُوا) عن الكفر (فهو خير لكم) .
 (وَإِنْ تَعُودُوا) أي إلى هذا القول وقتال محمد . (نَعَذِّبْكُمْ) إلى نصر المؤمنين . (وَلَنْ تَغْنِيَ
 عَنْكُمْ فِتْنَتُكُمْ) أي جماعتكم (شَيْئًا) . (وَلَوْ كَثُرَتْ) أي في العدد .

الثاني - يكون خطاباً للمؤمنين ؛ أي إن تستنصروا فقد جاءكم النصر . وإن « تنتهوا »
 أي عن مثل ما فعلتموه من أخذ الغنائم والأسرى قبل الإذن ؛ فهو خير لكم . « وإن تعودوا »
 أي إلى مثل ذلك تعد إلى توبيخكم . كما قال : « لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ » الآية^(٢) .

(١) راجع به ص ٢٨٠ طبعه أول مرة . . . (٢) آية ٦٨ من هذه السورة .

والقول الثالث - أن يكون « إن فتفتحوا فقد جاءكم الفتح » خطاباً للمؤمنين ، وما بعده للكفار . أى وإن تعودوا إلى القتال نعد إلى مثل وقعة بدر ، الفشوى والصحيح أنه خطاب للكفار ؛ فإنهم لما نفروا إلى نصرة العير تعلقوا بأسنار الكعبة وقالوا : اللهم أنصر أهدى الطائفتين ، وأفضل الدينين . المهديون : وروى أن المشركين خرجوا معهم بأسنار الكعبة يستفتحون بها ، أى يستنصرون .

قلت : ولا تمارض لاحتمال أن يكونوا فعلوا الحالتين . (وَإِنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ) بكرر الألف على الابتساف ، وبفتحها عطف على قوله : « وَأَنَّ اللَّهَ مُبْهِتٌ كَيْدَ الْكَافِرِينَ » . أو على قوله : « أَنَّى مَعَكُمْ » . والمعنى : ولأن الله ؛ والتقدير لكثرتها وإن الله . أى من كان الله في نصره لم قلبه فئة وإن كثرت .

قوله تعالى : يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَهْدَ وَاتُّم تَسْمَعُونَ ﴿٦٦﴾

قوله تعالى : (يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ) الخطاب للمؤمنين المصدقين . أفردم بالخطاب دون المنافقين إجلالا لهم . جدد الله عليهم الأمر بطاعة الله والرسول ، ونهاهم عن التولى عنه . هذا قول الجمهور . وقالت فرقة : الخطاب بهذه الآية إنما هو للمنافقين . والمعنى : يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا بالسَّخْم فقط . قال ابن عطية : وهذا وإن كان محتملا على بعد فهو ضعيف جدا ؛ لأن الله تعالى وصف من خاطب في هذه الآية بالإيمان ، والإيمان التصديق ، والمنافقون لا يتصفون من التصديق بشئ . وأبعد من هذا من قال : إن الخطاب لبني إسرائيل ، فإنه أجنبي عن الآية .

قوله تعالى : (وَلَا تَوَلَّوْا عَهْدَ) التولى الإعراض . وقال « عنه » ولم يقل عنها لأن طاعة الرسول طاعته ؛ وهو كقوله تعالى : « وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ » . (وَأَنْتُمْ

تَسْمَعُونَ) ابتداء وخبر في موضع الحال . والمعنى : وأتم تسمعون ما ينزل عليكم من الحجج والبراهين في القرآن .

قوله تعالى : وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾
إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْرُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾

قوله تعالى : ((وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا)) أى كاليهود أو المنافقين أو المشركين . وهو من سماع الأذن . ((وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ)) أى لا يتدبرون ماسمعوا ، ولا يفكرون فيه ؛ فهم بمنزلة من لم يسمع وأعرض عن الحق . نهى المؤمنين أن يكونوا مثلهم . فدللت الآية على أن قول المؤمن : سمعت وأطعت ، لا فائدة فيه ما لم يظهر أثر ذلك عليه بامتثال فعله . فإذا قصر في الأوامر فلم يأنها ، وأعتمد النواهي فأفتحها فأبى سمع عنده وأبى طاعة . وإنما يكون حينئذ بمنزلة المنافق الذى يظهر الإيمان ، ويُسِر الكفر ؛ وذلك هو المراد بقوله : « ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون » . يعنى بذلك المنافقين ، أو اليهود أو المشركين ؛ على ما تقدم . ثم أخبر تعالى أن الكفار شر ما دَبَّ على الأرض . وفى البخارى عن ابن عباس : « إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْرُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ » قال : هم نفر من بنى عبد الدار . والأصل أشرك ، حذفت الهمزة لكثرة الاستعمال . وكذا خير ، الأصل أخير .

قوله تعالى : وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾

قوله تعالى : ((وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ)) قيل : الحجج والبراهين ؛ إجماع قههم . ولكن سبق عليه بشقاوتهم . ((وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ)) أى لو أسمعهم لما آمنوا بعد علمه الأزلى بكفرهم . وقيل : الله لا يسمعهم كلام اللوث الذين طلبوا إحياءهم ، لأنهم طلبوا إحياء قصى ابن كلاب وغيره ليشهدوا بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم . الزجاج : لأسمعهم جواب كل ما سألوا عنه . ((وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ تَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ)) إذ سبق في علمه أنهم لا يؤمنون .

قوله تعالى : يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَسُوا لِلَّهِ إِذَا أُنْجِيَ
لِمَا يُحْيِيكُمْ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ بِحَوْلِ بَيْنَ ثَمَرَةٍ وَقَلْبِهِ وَهُوَ إِلَيْهِ
مُعْشَرُونَ ﴿٢١﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى - قوله تعالى : (يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَسُوا لِلَّهِ) هذا الخطاب
للمؤمنين المصدقين بلا خلاف . والاستجابة : الإجابة . و (يُحْيِيكُمْ) أصله يُحْيِيكُمْ ، حذف
الضمة من الياء لثقلها . ولا يجوز الإدغام . قال أبو عبيدة : « منى » ، « حجير » ، « أجيبوا »
ولكن عُرف الكلام أن يتعدى استجاب بلام ، ويتعدى أجاب دون . قال الله تعالى :
« يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ » . وقد يتعدى استجاب بغير لام ؛ والشاهد قوله تعالى :
« وَإِذَا دُعِيَ إِلَى اللَّهِ فِى الْحَرْبِ فَلْيُرَادِّهِ » . فلم يستجبه عندئذ .

ثاني - قوله تعالى : (يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَسُوا لِلَّهِ) هذا الخطاب
للمؤمنين المصدقين بلا خلاف . والاستجابة : الإجابة . والمصدر الإجابة . والاسم الخاتمة .
والطاعة . تقول : أساء سائماً فأساء جابة . هكذا يتكلم بهذا الحرف . وأصاويه وانجاب :
التحاور . وتقول : إنه لحسن الحية (بالكسر) أى الجواب . (لِمَا يُحْيِيكُمْ) متعلق بقوله :
« استجبوا » . المعنى : استجبوا لما يحييكم إذا دعاكم . وقيل : اللام بمعنى إلى ؛ أى
إلى ما يحييكم ، أى يحيى دينكم وبسلككم . وقيل : أى إلى ما يحيى به قلوبكم وتوحده .
وهذا إحياء مستمر ؛ لأنه من موت الكفر والجهل . وقال مجاهد والجمهور : المعنى استجبوا
للطاعة وما تضمنته القرآن من أوامر ونواهي ؛ ففيه الحياة الأبدية ، والنعمة السمائية ،
وقيل : المراد بقوله « لِمَا يُحْيِيكُمْ » الجهاد ؛ فإنه سبب الحياة فى الظاهر ، لأن العدو إذا لم

(١) آية ٣١ سورة الأحقاف . (٢) هو كعب بن سعد التميمي يرمى إياه أبا القوار .

(٣) أصل هذا الخبر ما ذكره الزبير بن بكار أنه كان لسيل بن عمرو ابن ميمون ضيف فقال له إنك
فتح الحيرة وقصدت الميم الضميمة أى أين نفسك ؟ قلن أنه يقول له : أين أمك ؟ (بضم الحيرة والميم)
قال : ذهبت تفتري دقيفاً . قال أيره : أساء مما ... الخ . (عن الحسن) .

بُغْرَا ، وفي غزوة الموت ، والموت في الجهاد الحياة الأبدية ؛ قال الله عز وجل : « وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا بَلْ أَحْيَاءٌ ۖ وَالصَّحِيفُ الْمَمُومُ كَمَا قَالَ الْجَاهِلُونَ »^(١)
 الثانية - روى البخاري عن أبي سعيد بن المثل قال : كنت أصلي في المسجد فدعاني رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم أجبه ، ثم أتيتني فقلت : يا رسول الله ، إني كنت أصل . فقال : « ألم يقل الله عز وجل « اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ » »
 وذكر الحديث . وقد تقدم في الفائدة^(٢) . وقال الشافعي رحمه الله : هذا دليل على أن الفعل الفرض أو القول الفرض إذا أتى به في الصلاة لا تبطل ، لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالإجابة وإن كان في الصلاة .

قلت : وفيه حجة لقول الأوزاعي : لو أن رجلا يصل فأبصر غلاما يريد أن يسقط في برفصاح به وأنصرف إليه واتبه لم يكن بذلك بأس . والله أعلم .

الثالثة - قوله تعالى : (وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ) قيل : إنه يقتضي النص منه على خلقه تعالى الكفر والإيمان فيحول بين المرء الكافر وبين الإيمان الذي أمره به ، فلا يكتسبه إذ لم يقدره عليه بل أقدره على ضده وهو الكفر . وهكذا المؤمن يحول بينه وبين الكفر . فإن بهذا النص أنه تعالى خالق لجميع اكتساب العباد خيرها وشرها . وهذا معنى قوله عليه السلام : « لا ، ومقلب القلوب » . وكان فعل الله تعالى ذلك عدلا فيمن أضله وخذله ، إذ لم ينعمهم حقاً وجب عليه فتورل صفة العدل ، وإنما منهم ما كان له أن يتفضل به عليهم لا ما وجب لهم . قال السدي : يحول بين المرء وقلبه فلا يستطيع أن يؤمن إلا بإذنه ، ولا يكفر أيضا إلا بإذنه ، أي بمشيئته . والقلب موضع الفكر . وقد تقدم في « البقرة »^(٣) بيانه . وهو بيد الله ، متى شاء حال بين العبد وبينه بمرض أو آفة كيلا يعقل . أي بادروا إلى الاستجابة قبل ألا تتمكنوا منها بزوال العقل . وقال مجاهد : المعنى يحول بين المرء

(١) آية ١٦٩ سورة آل عمران .

(٢) راجع ج ١ ص ١٠٨ طبة ثانية أرتالة .

(٣) راجع ج ١ ص ١٨٧ طبة ثانية أرتالة .

وعقله حتى لا يدري ما يصنع . وفي التتريل : « إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ »^(١)
 أى عقل . وقيل : يحول بينه وبينه بالموت ، فلا يمكنه استدراك ما فات . وقيل : خاف
 المسلمون يوم بدر كثرة العدو فأعلمهم الله أنه يحول بين المرء وقلبه بأن يبذلهم بعد الخوف
 أمناً ، ويبدل عدوهم من الأمن خوفاً . وقيل : المعنى يقلب الأمور من حال إلى حال ؛ وهذا
 جامع . واختيار الطبرى أن يكون ذلك إخباراً من الله عز وجل بأنه أملك لقلوب العباد
 منهم ، وأنه يحول بينهم وبينها إذا شاء ؛ حتى لا يدرك الإنسان شيئاً إلا بمشيئة الله عز
 وجل . (وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ) عطف . قال الفراء : ولو استأنفت فكسرت « وأنه » كان
 صواباً .

قوله تعالى : وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً
 وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٥﴾

فيه مسائل ثلاث :

الأولى — قال ابن عباس : أمر الله المؤمنين ألا يقزوا المنكرين أظهرهم بمعصيتهم
 العذاب . وكذلك تأول فيها الزبير بن العوام فإنه قال يوم الجمل ، وكان سنة ست وثلاثين :
 ما علمت أنا أردنا بهذه الآية إلا اليوم ، وما كنت أظنها إلا فيمن خوطب ذلك الوقت .
 وكذلك تأول الحسن البصرى والسدى وغيرهما . قال السدى : نزلت في أهل بدر خاصة ؛
 فأصابهم الفتنة يوم الجمل فأقتلوا . وقال ابن عباس رضى الله عنه : نزلت هذه الآية في أصحاب
 رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال : أمر الله المؤمنين ألا يقزوا المنكرين بينهم فيعصمهم الله
 بالعذاب . وعن حذيفة بن اليمان قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يكون بين ناس من
 أصحابي فتنة ينفروا الله لهم بصحبتهن ما يبي يستن بهم فيها ناس بعدهم يدخلهم الله بها النار » .
 قلت : وهذه التأويلات هي التي تمضد لها الأحاديث الصحيحة ؛ ففى صحيح مسلم عن
 زينب بنت جحش أنها سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقَالَ لَهُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَهْلَكَ وَفِيْنَا

الصالحون ؟ قال : " نعم إذا كثرت الخبيث " . وفي صحيح الترمذي : " أن الناس إذا رأوا الظالم ولم يأخذوا على يديه أوشك أن يمعهم الله بذاب من عنده " وقد تقدمت هذه الأحاديث . وفي صحيح البخاري والترمذي عن النعمان بن بشير ^(١) عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا لأن يتركهم وما أرادوا هلكوا جميعا وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعا " . وفي هذا الحديث تعذيب العامة بذنوب الخاصة . وفيه استحقاق العقوبة بترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . قال علماؤنا : فالفتنة إذا عُمِلت هلك الكل . وذلك عند ظهور المعاصي وانتشار المنكر وعدم الخير ، وإذا لم تُتَبرَّحْ وجب على المؤمنين المنكرين لها بقلوبهم هجران تلك البلدة والمهرب منها . وهكذا كان الحكم فيمن كان قبلنا من الأمم ، كما في قصة السبت حين هجروا العاصين وقالوا لا نساكنكم . وبهذا قال السلف رضي الله عنهم . روى ابن وهب عن مالك أنه قال : تُهجر الأرض التي يصنع فيها المنكر جهارا ولا يستقر فيها . واحتج بصنيع أبي الدرداء في خروجه عن أرض مصاوية حين أظن بالربا ، فأجاز بيع سقاية الذهب بأكثر من وزنها . ترجمه الصحيح . وروى البخاري عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا أزل الله بقوم عذابا أصاب العذاب من كان فيهم ثم بُشُوا على أعمالهم " . فهذا يدل على أن الهلاك العام منه ما يكرن طهورة المؤمنين ومنه ما يكون نعمة للنافعين . وروى مسلم عن عبد الله بن الزبير أن عائشة رضي الله عنها قالت : عَهِثَ رسول الله صلى الله عليه وسلم في منامه ، فقلت : يا رسول الله ، صنعت شيئا في منامك لم تكن تفعله ؟ فقال : " العجب ، إن ناسا من أمتي يؤمنون هذا البيت برجل من قريش قد بلما بالبيت حتى إذا كانوا بالبيداء خُسِفَ بهم " . قلنا : يا رسول الله ، إن الطريق

(١) استهموا : اتفرعوا .

(٢) حيث : مكان . ساء : اضطرب بهمسه . وقيل : حله أطرافه . من يأخذ شاة أو دابة .

قد يجمع الناس . قال : " نعم . فهم المستبصر والمجبور وآبن السبيل يهلكون مهلكا واحدا
ويعصرون مصادر شتى يعصمهم الله تعالى على نياتهم " . فإن قيل : فقد قال الله تعالى .
« ولا تزر وازرة وزر أخرى » . « كل نفس بما كسبت رهينة » . « لها ما كسبت وعليها
ما اكتسبت » . وهذا يوجب ألا يؤخذ أحد بذنب أحد ، وإنما يتعلق العقوبة بصاحب
الذنب . فالجواب أن الناس إذا تظاهروا بالمتكرفن الغرض على كل من رآه أن يفيره ، فإذا
سكتوا عليه فكلمهم عاص . هذا بضمه وهذا برضاه . وقد جعل الله في حكمه وحكمته الراضى
بمثلة السامل ، فأنتظم في العقوبة ، قاله آبن الغري . وهو مضمون الأحاديث كما ذكرنا .
ومقصود الآية : وآتقوا فتنة تعدى الظالم ، فتصيب الصالح والظالم .

١ / الثانية - واختلف النعاة في دخول النون في « لا تصيين » . قال الفراء : هو بمثلة
قولك : انزل عن الدابة لا تطرحنك ، فهو جواب الأمر بلفظ النهى ، أى إن نزل عنها
لا تطرحنك . ومثله قوله : « ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم » . أى إن تدخلوا لا يحطمنكم ؛
فدخلت النون لما فيه من معنى الجزاء . وقيل : لأنه خرج مخرج القسم ، والنون لا تدخل
إلا على فعل النهى أو جواب القسم . وقال أبو العباس المبرد : إنه نهى بعد أمر ، والمعنى
النهى للظالمين ، أى لا تقرين الظلم . وحكى سيويه : لا أرتك ها هنا ، أى لا تكن ها هنا ،
فإنه من كان ها هنا رأيت . وقال الجرجاني : المعنى آتقوا فتنة تصيب الذين ظلموا خاصة .
فقوله « لا تصيين » نهى في موضع وصف النكرة ، وتأويله الإخبار بإصابتها الذين ظلموا .
وقرأ على زيد بن ثابت وأبى وأبن مسعود « لتصيين » بلا ألف . قال المهدوى : من
قرأ « لتصيين » جازأف يكون مقصورا من « لا تصيين » حذفت الألف كما حذفت من
« ما » وهى اخت « لا » في نحو آم والله لأفعلن ، وشبهه . ويموز أن تكون لفظة لقراءة
الجماعة ؛ فيكون المعنى أنها تصيب الظالم خاصة .

(١) المستبصر : هو المستنير للأمر ، القاصد لذلك عمدا . والمجبور : المكره .

(٢) آية ١٥ سورة الإسراء . (٣) آية ٣٨ سورة المائدة . (٤) آية سورة البقرة .

(٥) عبارة آبن الغري : « فانتظم الذنب بالعقوبة » . (٦) آية ١٨ سورة النمل .

قوله تعالى : **وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَخَطَفَكُمْ الْإِنْسُ فَقَاؤُكُمْ وَأَيْدِيكُمْ يَنْصِرُهُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** ﴿٦٦﴾

قوله تعالى : **(وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ)** قال الكلبي : نزلت في المهاجرين ، يعني وصف حالهم قبل الهجرة وفي ابتداء الإسلام . **(مُسْتَضْعَفُونَ)** نعت . **(فِي الْأَرْضِ)** أي أرض مكة . **(تَخَافُونَ)** نعت . **(أَنْ يَخَطَفَكُمْ)** في موضع نصب . والخطف : الأخذ بسرعة . **(الْإِنْسُ)** رفع على الفاعل . قتادة وعكرمة : هم مشركو قريش . وهب بن منبه : فارس والروم . **(فَقَاؤُكُمْ)** قال ابن عباس : إلى الأنصار . السدي : إلى المدينة ، والمعنى واحد . **(أَوَى إِلَيْهِ بِالْمَدَى)** ضم إليه . **(وَأَوَى إِلَيْهِ بِالْفَصْرِ)** أنضم إليه . **(وَأَيْدِيكُمْ)** قواكم . **(يَنْصِرُهُمْ)** أي يعونه . وقيل : بالأنصار . وقيل : باللائكة يوم بدر . **(وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ)** أي الغنائم . **(لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)** قد تقدم معناه .

قوله تعالى : **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَحُونُوا أُمْنَتَكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ** ﴿٦٧﴾

روى أنها نزلت في أبي لُبابة بن عبد المنذر حين أشار إلى بني قُرَيْظَةَ بالذبح . قال أبو لُبابة : والله ما زالت قدمي حتى علمت أبي قد خنت الله ورسوله ، فنزلت هذه الآية . فلما نزلت شد نفسه إلى سارية من سواري المسجد ، وقال : والله لا أذوق طعاما ولا شرابا حتى أموت ، أو يتوب الله علي . الخبر مشهور . وعن عكرمة قال : لما كان شأن قُرَيْظَةَ بعث النبي صلى الله عليه وسلم عليا رضي الله عنه فيمن كان عنده من الناس ، فلما انتهى إليهم وقفوا في رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجاء جبريل عليه السلام على فرس أبيض فذالت عائشة رضي الله عنها : فلما أتى أنظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يمسح الفبار عن وجهه

جبريل عليهما السلام ؛ قلت : هذا دحية يارسول الله ، فقال : " هذا جبريل عليه السلام " .
قال : " يارسول الله ما يمنك من بنى قُرَيْظَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ " فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
" فكيف لي بمحصنهم " فقال جبريل : " فإني أدخل فرسي هذا عليهم " . فركب رسول الله
صلى الله عليه وسلم فرسا مَعْرُورِي^(١) ؛ فلما رآه علي رضي الله عنه قال : يارسول الله ، لا عليك
ألا تأتيهم ، فإنهم يشتمونك . فقال : " كلا إنها ستكون نجاة " . فأتاهم النبي صلى الله عليه وسلم
فقال : " يا إخوة القردة والخنازير " فقالوا : يا أبا القاسم ، ما كنت غاشا ! فقالوا : لا تزل
على حكم محمد ، ولكننا نزل على حكم سعد بن معاذ ؛ فنزل . فحكم فيهم أن يقتل مقاتلتهم
ويُسَبِّحُوا ذُرَارِيَهُمْ . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " بذلك طرقتي الملك سحرا " فنزل
فيهم « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَحْذَرُوا إِمَانَكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ » . نزلت
في أبي لُبَابَةَ ، أشار إلى بنى قُرَيْظَةَ حين قالوا : نزل على حكم سعد بن معاذ ، لا تفعلوا فإنه
الذبح ، وأشار إلى حقه . وقيل : نزلت الآية في أنهم كانوا يسمعون الشيء من النبي صلى الله
عليه وسلم فيلقونه إلى المشركين ويُفْشَوْنَهُ . وقيل : المعنى يظنون الغنائم ونسبتها إلى الله ؛ لأنه الذي
أمر بقسمتها . وإلى الرسول صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه المؤدّي عن الله عز وجل والقيّم بها .
والخيانة : النذر وإخفاء الشيء ؛ ومنه : « يَسْلُمُ حَاثِيَةُ الْأَعْيُنِ » وكان عليه السلام يقول :
" اللهم إني أعوذ بك من الجوع فإنه بئس الضجيع ومن الخيانة فإنه بئس البطانة " .
نحوه النَّسَائِيُّ عن أبي هريرة قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ... ؛ فذكره .
(وَتَحْذَرُوا أَمَانَاتَكُمْ) في موضع جزم ، نسقا على الأول . وقد يكون على الجواب ؛ كما يقال :
لا تأكل السمك وتشرب اللبن . والأمانات : الأعمال التي أئتمن الله عليها العباد . وسُميت
أمانة لأنها يؤمن معها من منع الحق ؛ مأخوذة من الأمن . وقد تقدّم في « النساء » القول
في أداء الأمانات والودائع وغير ذلك . (وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ) أي ما في الخيانة من القبح والعار .
وقيل : تعلمون أنها أمانة .

(١) مرفأنا . (٢) آية ١٩ سورة انفار . (٣) رابع ج ٥ من ٢٥٥ طبعة أدل أو ثانية .

قوله تعالى : **وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا آمَاكُمُ أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ** ﴿٣٨﴾

قوله تعالى : **(وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا آمَاكُمُ أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ)** كان لأبي لبابة أموال وأولاد في بني قريظة، وهو الذي حمله على ملايتهم، فهذا إشارة إلى ذلك . **(فِتْنَةٌ)** أي اختبار، امتحنهم بها . **(وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ)** فأثروا حقه على حقكم .

قوله تعالى : **يَنَاءِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تَبَيَّنُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْصِلُ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرُ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ** ﴿٣٩﴾

قد تقدم معنى « التقوى » . وكان الله عالما بأنهم يتقون أم لا يتقون . فذكر بلفظ الشرط ؛ لأنه خاطب العباد بما يخاطب بعضهم بعضا . فإذا أتى العبد ربه - وذلك باتباع أوامره واجتناب نواهيه - وترك التشبهات مخافة الوقوع في المحرمات، وشحن قلبه بالنية الخالصة، وجوارحه بالأعمال الصالحة، وتحفظ من شوائب الشرك الخفية والظواهر بمراعاة غير الله في الأعمال، والركون إلى الدنيا بالعفة عن المال جعل له بين الحق والباطل فرقانا، ورزقه فيما يريد من الخير إمكنا . قال ابن وهب : سألت مالكا عن قوله « **إِنْ تَبَيَّنُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْصِلُ لَكُمْ فُرْقَانًا** » قال : مخرجا، ثم قرأ « **وَمَنْ يَتَّبِعِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا** » . وحكى ابن القاسم وأشهب عن مالك مثله سواء، وقاله مجاهد قبله . وقال الشاعر :

مَالِكٌ مِنْ طُولِ الْأَمْسِ فُرْقَانٌ • بِمَسَدِ قَطْعَيْنِ رَحَلُوا وَبَانُوا
وقال آخر :

وكيف أَرَبِحُ الْخُلْدَ وَالْمَوْتَ طَالِي • وَمَالِي مِنْ كَأْسِ الْمُنِيَةِ فُرْقَانٌ

ابن إسحاق : « فرقانا » فصلا بين الحق والباطل ؛ وقاله ابن زيد . السدي : نجاة . الفراء : فتحا ونصرا . وقيل : في الآخرة، فيدخلكم الجنة ويدخل الكفار النار .

قوله تعالى : **وَمَا ذُكِّرْ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا يُبَيِّنُونَكَ أَوْ يَقْتُلُونَكَ**
أَوْ يُخْرِجُونَكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكِيرِينَ ﴿٥٦﴾

هذا إخبار بما اجتمع عليه المشركون من المكر بالنبي صلى الله عليه وسلم في دار الندوة ؛
فاجتمع رأيهم على قتله فيتيوه ، و رصدوه على باب منزله ليقتلوه إذا خرج ؛ فأمر
النبي صلى الله عليه وسلم على بن أبي طالب أن ينام على فراشه ، ودعا الله أن يعصى عليهم أمره ؛
فطمس الله على أبصارهم ، فخرج وقد غشيهم النوم ، فوضع على رؤوسهم تراباً ونهض . فلما
أصبحوا خرج عليهم على فأخبرهم أن ليس في الدار أحد ، فعلوا أن رسول الله صلى الله
عليه وسلم قد قات ونجا . انظر مشهور في السيرة وغيرها . ومعنى « يُبَيِّنُونَكَ » ليبيِّنوك ؛
يقال : أثبتته إذا حبسته . وقال قتادة : « يُبَيِّنُونَكَ » ونافا . وعنه أيضاً وعيد الله بن كثير :
ليسجنوك . وقال أبان بن تغلب وأبو حاتم : ليسخونك بالجرافات والضرب الشديد .
قال الشاعر :

فقلت ويحك ما في صهيبتكم • قالوا الخليفة أمسى مُتَبَاً وجما

(أَوْ يَقْتُلُونَكَ أَوْ يُخْرِجُونَكَ) عطف . (وَيَمْكُرُونَ) مستأنف . والمكر : التدبير في الأمر
في خفية . (وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكِيرِينَ) ابتداء وخبر . والمكر من الله هو جزاؤهم بالعذاب على مكرم
من حيث لا يشعرون .

قوله تعالى : **وَمَا ذُكِّرْ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا يُبَيِّنُونَكَ أَوْ يَقْتُلُونَكَ**
أَوْ يُخْرِجُونَكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكِيرِينَ ﴿٥٦﴾

زلت في النظرين الحادث ، كان نخرج إلى الحيرة في التجارة فأشترى أحاديث كهيئة
ودمنة ، وكسرى وقيصر ؛ فلما قص رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبار من مضى قال
النضر : لو شئت لقلت مثل هذا . وكان هذا وقاحة وكذبا . وقيل : أنهم توهوا أنهم

بانون بمنله ، كما توهمت بحرة موسى ، ثم راموا ذلك فمعجزوا عنه وقالوا عبادا : إن هذا
إلا أساطير الأولين . وقد تقدم^(١) .

قوله تعالى : وَإِذْ قَالُوا اَللّٰهُمَّ اِنْ كَانَ هٰذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ
فَاَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ اَوْ اَنْتِنَا بِعَذَابٍ اَلِيْسٍ ﴿٢٧﴾

الفراء على نصب « الحق » على خبر « كان » . ودخلت « هو » للفصل . ويمحوز
« هو الحق » بالرفع . (مِنْ عِنْدِكَ) قال الزجاج : ولا أعلم أحدا قرأ بها ، ولا اختلاف
بين النحويين في إجازتها ، ولكن القراءة سنة ، لا يقرأ فيها إلا بقراءة مرضية . واختلف
فيمن قال هذه المقالة ؛ فقال مجاهد وابن جبير : قائل هذا هو النضر بن الحارث . أنس
ابن مالك : قاله أبو جهل ؛ ورواه البخاري ومسلم . ثم يحوز أن يقال : قالوه لشبهة كانت
في صدورهم ، وعلى وجه العناد والإبهام على الناس أنهم على بصيرة ، ثم حل بهم يوم بدر
ماسألوا . حكى أن ابن عباس لقبه رجل من اليهود ؛ فقال اليهودي : ممن أنت ؟ قال : من
قريش . فقال : أنت من القوم الذين قالوا : « اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك » الآية .
فهلا عليهم أن يتولوا : إن كان هذا هو الحق من عندك فأهدنا له ! إن هؤلاء قوم يجهلون .
قال ابن عباس : وأنت يا إسرائيل ، من القوم الذين لم تحيف أرجلهم من بلل البحر الذي
أغرق فيه فرعون وقومه ، وأنجي موسى وقومه ؛ حتى قالوا : « اجعل لنا إلها كما لهم آلهة^(٢) »
فقال لهم موسى : « إنكم قوم تجهلون » فأطرق اليهودي مضجعا . (فَاَمْطِرْ) أمطر في العذاب .
ومطر في الرحمة ؛ عن أبي عبيدة . وقد تقدم .

قوله تعالى : وَمَا كَانَ اَللّٰهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَاَنْتَ فِيْهِمْ وَمَا كَانَ اَللّٰهُ مُعَذِّبَهُمْ
وَهُمْ يَسْتَغْفِرُوْنَ ﴿٢٨﴾

لما قال أبو جهل : « اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ » الآية ، نزلت « وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ » كذا في صحيح مسلم . وقال ابن عباس : لم يعذب أهل قرية حتى يخرج النبي صلى الله عليه وسلم منها والمؤمنون ، ولما حرقوا بحيث أمروا . (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ) ابن عباس : كانوا يقولون في الطواف : غفرانك . والاستغفار وإن وقع من الصبار يدفع به ضرب من الشرور والإضرار . وقيل : إن الاستغفار راجع إلى المسلمين الذين هم بين أظهرهم . أى وما كان الله معذبهم وفيهم من يستغفر من المسلمين ، فلما خرجوا عذبهم الله يوم بدر وغيره ، قاله الضحاك وغيره . وقيل : إن الاستغفار هنا يراد به الإسلام . أى « وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون » أى يأسون ، قاله مجاهد وعكرمة . وقيل : « وهم يستغفرون » أى في أصلاهم من يستغفر الله . روى عنه مجاهد أيضا . وقيل : معنى « يستغفرون » لو استغفروا . أى لو استغفروا لم يعذبوا . استدعاهم إلى الاستغفار ، قاله قتادة وابن زيد . وقال المدائني عن بعض العلماء قال : كان رجل من العرب في زمن النبي صلى الله عليه وسلم مُسْرِفاً على نفسه ، لم يكن يخرج ، فلما أن تَوَقَّعَ النبي صلى الله عليه وسلم لبس الصوف ورجع عما كان عليه ، وأظهر الدين والنسك . فقيل له : لو فعلت هذا والنبي صلى الله عليه وسلم حتى لفرح بك . قال : كان لي أمانان ، ففنى واحد وبقي الآخر ، قال الله تبارك وتعالى : « وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم » فهذا أمان . والثاني « وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون » .

قوله تعالى : وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْحَسَنِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُمْ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُمْ إِلَّا الْمُنَافِقُونَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾

قوله تعالى : (وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ) المعنى : وما يمنهم من أن يعذبوا . أى أنهم مستحقون العذاب لما ارتكبوا من الفواحش والأسباب ، ولكن لكل أجل كتاب ، فعذبهم الله

بالسيف مدحروج النبي صلى الله عليه وسلم . وفي ذلك نزلت : « سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ »^(١)
وقال الأخفش : إن « أن » زائدة . قال النحاس : لو كانت كما قال لرفع « بعذابهم » .
(وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) أي إن المتقين أوليؤه .

قوله تعالى : وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصَدِيَةً فَذُوقُوا
الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٢٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ
لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَبِّحْهُمْ بِمَا كَانُوا كَافِرِينَ ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةٌ ثُمَّ يَغْلِبُونَ
وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٢٦﴾ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ
وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكَبُهِ جَمِيعًا فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ
أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٢٧﴾

قال ابن عباس : كانت فريش تطوف بالبيت عُرَاءَ ، يصفقون ويهفرون ؛ فكان
ذلك عبادة في ظنهم . والمُكَاءُ : التصفير . والتصدية : التصفيق ؛ قاله مجاهد والسدي
وابن عمر رضي الله عنهم . ومنه قول عنترة :

وحليل طائفة تركت مجذلاً * تمكو فريسته كيشق الأعمى

أي تصوت . ومنه مكيت الدابة إذا تفخت بالريح . قال السدي : المكاء التصفير ،
على نحو طائر أبيض بالبحر يقال له المكاء . قال الشاعر :

إذا غرد المكاء في غير روضة * فويل لأهل الشاء والخبرات

فسادة : المكاء ضرب بالإيدى ، والتصدية صباح . وعلى التفسيرين فقيه ردة على الجهال من
الصوفية الذين يرقصون ويصفقون . وذلك كله منكر يتزه عن مثله القلاء ، ويتشبه فاعله
بالمشركين فيما كانوا يفعلونه عند البيت . وروى ابن جريح وابن أبي نجيح عن مجاهد أنه

(١) سورة المائدة . (٢) الحليل : الزوج . ويرى : وسيل بانتهاء المعجزة . الفريضة : الموضع

الذي يردد من الدابة والإنسان إذا خاف . والأعمى : المشرق النقة العليا .

قال : المَكَاةُ إدخالهم أصابهم في أفواههم . والتصدية : الصَّفير ، يريدون أن يشغلوا بذلك
عما صلى الله عليه وسلم عن الصلاة . قال النحاس : المعروف في اللغة ما روى عن ابن عمر .
حكى أبو عبيد وغيره أنه يقال : مَكَا يَمْكُو مَكَا ومَكَاه إذا صَفَرَ . وصَدَى بُصْدَى تصدبة
إذا صفق ؛ ومنه قول عمرو بن الإطابة :

وظلّوا جميعاً لم شخصة • مكاه لدى البيت بالتصدية

أى بالتصفيق . سعيد بن جبّر وابن زيد : معنى التصدية صدمه عن البيت ؛ فالأصل على
هذا تصددة ، فابدل من أحد الدالين ياء . ومعنى (لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ) أى المؤمن
من الكافر . وقيل : هو عام في كل شيء ، من الأعمال والصفات وغير ذلك .

قوله تعالى : قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ
وَلَوْ أَنَّ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٨﴾

فيه خمس مسائل :

الاولى — قوله تعالى : (قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا) أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يقول
للكفار هذا المعنى ، وسواء قاله بهذه العبارة أو غيرها . قال ابن عطية : ولو كان كما ذكر
الكنائى أنه في مصحف عبد الله بن مسعود « قل للذين كفروا إن تائبوا يغفر لكم »
لما تأدت الرسالة إلا بتلك الألفاظ بينها ، هذا بحسب ما تقتضيه الألفاظ .

الثانية — قوله تعالى : (إِنْ يَنْتَهُوا) يريد عن الكفر . قال ابن عطية : ولا بد
والحامل على ذلك جواب الشرط « يُغْفَرُ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ » ومغفرة ما قد سلف لا تكون
إلا لِحُتِّهِ عن الكفر . ولقد أحسن القائل أبو سعيد أحمد بن محمد الزيرى :

يستوجب العفو الفتي إذا اعترف • ثم انتهى عما أتاه واقترَفَ

لقوله سبحانه في المسترف • إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف

(١) في القاموس ونحوه : « والإطابة امرأة من بنى كنانة بن الخثيم بن جسر بن لؤسان ، وعمرها اثنا عشر
شهرا ، واسم أبيه زيد سارة » .

روى مسلم عن أبي ثُماسة المَهْري قال : حضرنا عمرو بن العاص وهو في سِياة الموت يبكي طويلا ، الحديث . وفيه : فقال النبي صلى الله عليه وسلم : "أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها وأن الحج يهدم ما كان قبله" الحديث . قال ابن العربي : هذه لطيفة من الله سبحانه من بها على الخلق ؛ وذلك أن الكفار يقتحمون الكفر والجرائم ، ويرتكبون المعاصي والمآثم ؛ فلو كان ذلك يوجب مؤاخذه لهم لما استدركوا أبدا توبة ، ولا نالهم مغفرة . فيسر الله تعالى عليهم قبول التوبة عند الإنابة ، وبذل المغفرة بالإسلام ، وهدم جميع ما تقدم ، ليكون ذلك أقرب لدخولهم في الدين ، وأدعى إلى قبولهم لكلمة المسلمين ، ولو علموا أنهم يؤاخذون لما نابوا ولا أسلموا . وفي صحيح مسلم : أن رجلا فيمن كان قبلكم قتل تسعة وتسعين نفسا ثم سأل هل له من توبة بقاء عابدا فسأله هل له من توبة فقال لا توبة لك قتلته فبكي به مائة ، الحديث . فأنظروا إلى قول العاصد : لا توبة لك ؛ فلما علم أنه قد أيسسه قتله ، ففعل الآيس من الرحمة . فالتنفير مفسدة للخطيئة ، والتيسير مصلحة لهم . وروى عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه كان إذا جاء إليه رجل لم يقتل فسأله : هل لقنائل من توبة ؟ فيقول : لا توبة ، تخويفا وتحذيرا . فإذا جاءه من قتل فسأله : هل لقنائل من توبة ؟ قال له : لك توبة ؛ تيسيرا وتأليفا . وقد تقدم .

الثالثة — قال ابن القاسم وابن وهب عن مالك فيمن طلق في الشرك ثم أسلم : فلا طلاق له . وكذلك من حلف فأسلم فلا حنث عليه . وكذا من وجبت عليه هذه الأشياء ؛ فذلك مغفوره . فأما من أقرى على مسلم ثم أسلم أو سرق ثم أسلم أقيم عليه الحد للفرية والسرقه . ولو زنى وأسلم ، أو أغضب مسلمة ثم أسلم سقط عنه الحد . وروى أشهب عن مالك أنه قال : إنما يعني الله عز وجل ما قدم مضى قبل الإسلام ، من مال أودم أو شيء . قال ابن العربي : وهذا هو الصواب ؛ لما قدمناه من عموم قوله تعالى : « قل للذين كفروا إن يَتَّبِعُوا يَغْفِرْ لَهُمْ ما قد سلف » ، وقوله : "الإسلام يهدم ما قبله" ، وما بيناه من المعنى من التيسير وعدم التنفير . قالت : أما الكافر الحريّ فلا خلاف في إسقاط ما فعله في حال كفره في دار الحرب . وأما إن دخل إلينا بأمان فقتل مسلما فإنه يحقد ، وإن سرق قطع . وكذلك الدمي إذا قذف

حَدَّثَنَا، وَإِذَا سُرِقَ قِطْعٌ، وَإِنْ قُتِلَ قَبْلُ، وَلَا يُسْقَطُ الْإِسْلَامُ ذَلِكَ عَنْهُ لِنَقْضِهِ الْمَهْدَ حَالاً كُفْرَهُ؛ عَلَى رِوَايَةِ ابْنِ الْقَاسِمِ وَغَيْرِهِ. قَالَ ابْنُ الْمُنْذِرِ: وَاخْتَلَفُوا فِي النَّصْرَانِيِّ يَزْنِي ثُمَّ يَسْلَمُ، وَقَدْ شَهِدَتْ عَلَيْهِ بَيِّنَةٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ؛ فَخَبَّرَنِي عَنْ الشَّافِعِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِذَا هُوَ بِالْعِرَاقِ لَا حَدَّ عَلَيْهِ وَلَا تَغْرِيبَ؛ لِقَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: «قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ». قَالَ ابْنُ الْمُنْذِرِ: وَهَذَا مُوَافِقٌ لِمَا رَوَى عَنْ مَالِكٍ. وَقَالَ أَبُو نُوَيْرٍ: إِذَا أَقْرَبَ وَهُوَ مُسْلِمٌ أَنَّهُ زَنَى وَهُوَ كَافِرٌ أَقِيمَ عَلَيْهِ الْحَدَّ. وَخَبَّرَنِي عَنْ الْكُوفِيِّ أَنَّهُ قَالَ: لَا يَحْدُّ.

الرابعة - فأما المرتد إذا أسلم وقد فاته صلوات، وأصاب جنبايات وأتلف أموالا؛ فقليل: حكمه حكم الكافر الأصلي إذا أسلم؛ لا يؤخذ بشيء مما أحدثه في حال ارتداده. وقال الشافعي في أحد قولي: يلزمه كل حق لله عز وجل والآدمي؛ بدليل أن حقوق آدميين تلزمه فوجب أن تلزمه حقوق الله تعالى. وقال أبو حنيفة: ما كان لله يسقط، وما كان للآدمي لا يسقط. قال ابن العربي: وهو قول علمائنا؛ لأن الله تعالى مستغني عن حقه، والآدمي مفقر إليه. ألا ترى أن حقوق الله عز وجل لا تجب على الصبي وتلزمه حنوف الآدميين. قالوا: وقوله تعالى «قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ» عام في الحقوق التي لله تعالى.

الخامسة - قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَعُودُوا﴾ يريد إلى القتال؛ لأن لفظة «عاد» إذا جاءت مطلقة فإنما تتضمن الرجوع إلى حالة كانت الإنسان عليها ثم انتقل عنها. قال ابن عطية: ولسنا نجد في هذه الآية لهؤلاء الكفار حالة تشبه ما ذكرنا إلا القتال. ولا يجوز أن يتأول إلى الكفر؛ لأنهم لم ينفصلوا عنه، وإنما قلنا ذلك في «عاد» إذا كانت مطلقة لأنها قد تدبىء في كلام العرب داخلة على الابتداء والخبر، فيكون معناها معنى صار؛ كما تقول: عاد زيد ملكا؛ يريد صار. ومنه قول [أمية بن] أبي الصلت: -

تلك المكارم لا أقبلان من ابن * شيئا بماء فنادا بعد أبو الـ

وهذه لا تتضمن الرجوع إلى حالة قد كان المائد عليها قبل. فهي مقيدة بغيرها لا يجوز الاقتصاد دونها؛ فحكمها حكم صار.

قوله تعالى : (فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ) عبارة تجمع الوعيد والتهديد والتبليغ بمن هلك من الأمم في سالف الدهر بعذاب الله .

قوله تعالى : وَقَتِّلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنَّ آتِيَهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعِمَّ الْمَوْلَى وَنِعِمَّ النَّصِيرُ ﴿٣٧﴾

قوله تعالى : (وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ) أى كفر. إلى آخر الآية تقدم معناها وتفسير الفاظها في « البقرة » وغيرها والحمد لله .

قوله تعالى : وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ نِصْفَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَآبِنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ ءَامِنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّفَقُّعِ أَجْمَعِينَ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٨﴾

قوله تعالى : (وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ نِصْفَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَآبِنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ ءَامِنْتُمْ بِاللَّهِ) فيه ست وعشرون مسألة :

الأولى — قوله تعالى : (وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ) الفتيمة في اللغة ما يناله الرجل أو الجماعة بسبي ، ومن ذلك قول الشاعر :

وَقَدْ طَوَّفَ فِي الْأَفَاقِ حَتَّى • رَضِيتَ مِنَ الْغَنِيمَةِ بِالْإِيَابِ
وَقَالَ آخِرُ :

وَمُطِّمَ الْغَنَمِ يَوْمَ الْغَنَمِ مُطِّمَهُ • أُنَىٰ تَوَجَّهَ وَالْمَحْرُومِ مَحْرُومِ

والغنى والغنيمة بمعنى ؛ يقال : غنم القوم غنما . وأعلم أن الاتفاق حاصل على أن المراد بقوله تعالى : « غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ » مَالُ الْكُفَّارِ إِذَا ظَفِرَ بِهِ الْمُسْلِمُونَ عَلَىٰ وَجْهِ الْقَبْضَةِ وَالْقَهْرِ . ولا تقتضى اللغة هذا التخصيص على ما بيناه ، ولكن عُرِفَ الشَّرْعُ قَيْدَ الْفِعْلِ بِهَذَا النَّوعِ . وَتَمَّتِ الشَّرْعُ الْوَاصِلُ مِنَ الْكُفَّارِ إِلَيْنَا مِنَ الْأَمْوَالِ بِأَسْمَيْنِ : غَنِيمَةً وَقَيْثًا . فَالشَّيْءُ الَّذِي يَنَالُهُ الْمُسْلِمُونَ مِنْ مَدْقَمِ السَّبْيِ وَإِصْفِ الْخَيْلِ وَالرَّكَابِ يُسَمَّى غَنِيمَةً . وَلِزِمَ هَذَا الْأَسْمُ هَذَا

المعنى حتى صار عرْفَا . والقيء مأخوذ من فاء يقيء إذا رجع ، وهو كل مال دخل على المسلمين من غير حرب ولا إيفاح . نكراج الأرضين وجزية الجاهم ونمس الغنائم . ونحو هذا قال سفيان الثوري وعطاء بن السائب . وقيل : إنيما واحد ، وفيهما الخمس ؛ قاله قتادة . وقيل : النية عبارة عن كل ما حارب للمسلمين من أموال بني قهر . والمعنى متقارب .

الثانية — هذه الآية ناسخة لأول السورة ؛ عند الجمهور . وقد ادعى ابن عبد البر الإجماع على أن هذه الآية نزلت بعد قوله « يسألونك عن الأنفال » وأن أربعة أخماس النعمة مقسومة على الغنائم ؛ على ما يأتي بيانه . وأن قوله « يسألونك عن الأنفال » نزلت في حين تشاجر أهل بدر في غنائم بدر ؛ على ما تقدم أول السورة .

قلت : ومما يدل على صحة هذا ما ذكره إسماعيل بن إسحاق قال : حدثنا محمد بن كثير قال حدثنا سفيان قال حدثني محمد بن السائب عن أبي صالح عن ابن عباس قال : لما كان يوم بدر قال النبي صلى الله عليه وسلم : « من قتل قتيلًا فله كذا ومن أسر أسيرًا فله كذا » وكانوا قتلوا سبعين ، وأسروا سبعين ، بقاء أبو اليسر بن عمرو بأسيرين ؛ فقال : يا رسول الله ، إنك وعدتنا من قتل قتيلًا فله كذا ، وقد جئت بأسيرين . فقام سعد فقال : يا رسول الله ، إننا لم نمنعنا زيادة في الأجر ولا جبن عن العدو ولكننا قلنا هذا المتألم خشية أن يعطى المشركون ، فإني إن أعطى هؤلاء لا يبقى لأصحابك شيء . قال : وجعل هؤلاء يقولون وهؤلاء يقولون فترزت « يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول فاتقوا الله وأطيعوا ذات بينكم » فسألوا النعمة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم نزلت « وأعلموا أنما غنيمت من شيء فأن لله خمسة » الآية . وقد قيل : إنها محكمة غير منسوخة ، وأن النعمة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وليست مقسومة بين الغنائم ؛ وكذلك لمن بعده من الأئمة . كذا حكاه المازري عن كثير من أصحابنا ، رضى الله عنهم ، وأن للإمام أن يخرجها عنهم . واحتجوا بفتح مكة وقصة حنين . وكان أبو عبيد يقول : افتتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة عتوة ومن على أهلها فردّها عليهم ولم يقسمها ولم يجعلها عليهم قبيًا . ورأى بعض الناس أن هذا جائز للأئمة بعده .

قلت : وعلى هذا يكون معنى قوله تعالى : « وأعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه » والأربعة الأئمة للإمام ، إن شاء قسمها وإن شاء قسمها بين الغانمين . وهذا ليس بشيء ؛ لما ذكرناه ، ولأن الله سبحانه أضاف الغنمة للغانمين فقال : « وأعلموا أنما غنمتم من شيء » ثم عين الخمس لمن سمي في كتابه ، وسكت عن الأربعة الأئمة ؛ كما سكت عن الثلثين في قوله : « وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمَّةِ الثُّلُثِ^(١) » فكان للأب الثلثان اتفاقاً . وكذا الأربعة الأئمة للغانمين إجماعاً على ما ذكره ابن المنذر وابن عبد البر والذَّادِي والمَازَرِي أيضاً والقاضي عياض وابن العربي . والأخبار بهذا المعنى متظاهرة ، وسيأتي بعضها . ويكون معنى قوله : « يستأثرونك عن الأثقال » الآية ، ما ينقله الإمام لمن شاء لما يراه من المصلحة قبل القسمة . وقال عطاء والحسن : هي مخصوصة بما شذ من المشركين إلى المسلمين ، من عبد أو أمة أو دابة ؛ يقضى فيها الإمام بما أحب . وقيل : المراد بها أثقال السرايا أي غنائمها ، إن شاء قسمها الإمام ، وإن شاء نقلها كلها . وقال إبراهيم التَّخَيُّمِيُّ في الإمام يبعث السرية فيصيبون المغنم : إن شاء الإمام نقله كله ، وإن شاء تخمسه . وحكاه أبو عمر عن مكحول وعطاء . قال علي بن ثابت : سألت مكحولاً وعطاء عن الإمام ينقل القوم ما أصابوا ، قال : ذلك لهم . قال أبو عمر : من ذهب إلى هذا تأول قول الله عز وجل : « يستأثرونك عن الأثقال قل الأثقال لله والرسول » أن ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم يضمها حيث شاء . ولم ير أن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى : « وأعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه » . وقيل غير هذا ما قد أتينا عليه في كتاب (القيس في شرح مؤطاً مالك بن أنس) . ولم يقل أحد من العلماء فيما أعلم أن قوله تعالى « يستأثرونك عن الأثقال » الآية ، ناسخ لقوله « وأعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه » بل قال الجمهور على ما ذكرنا : إن قوله « ما غنمتم » ناسخ ، وهم الذين لا يجوز عليهم التحريف ولا التبديل لجواب الله تعالى . وأما قصة فتح مكة فلا حجة فيها لاختلاف العلماء في فتحها . وقد قال أبو عبيد : ولا نعلم مكة يشبهها شيء من البلدان من جهتين : لإحداهما أن رسول

الله صلى الله عليه وسلم كان الله قد خصّه من الأفعال والفتائم ما لم يجعله لغيره ؛ وذلك لقوله «يسئلونك عن الأفعال» الآية ؛ فزى أن هذا كان خاصاً له . وإليه الأخرى أنه سنّ لمكّة سنّاً ليست لشيء من البلاد . وأما قصة حنين فقد عوض الأنصار لما قالوا : يعطى الفتائم فرشنا ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم ! فقال لهم : «أما ترضون أن يرجع الناس بالدينيا وترجعون رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بيوتكم» . خرجهم مسلم وغيره . وليس لغيره أن يقول هذا القول ، مع أن ذلك خاص به على ما قاله بعض علمائنا . والله أعلم .

الثالثة - لم يختلف العلماء أن قوله : «وأعلموا أنما غنمتم من شيء» ليس على عمومه ، وأنه يدخله الخصوص ؛ فما خصّصوه بإجماع أن قالوا : سلبُ المقتول لقائه إذا نادى به الإمام . وكذلك الرقاب ؛ أعني الأسارى ، الحيرة فيها إلى الإمام بلا خلاف ، على ما يأتي بيانه . وما خصّ به أيضا الأرض . والمعنى : ما غنمتم من ذهب وفضة وسائر الأمتعة والسبي . وأما الأرض فغير داخله في عموم هذه الآية ؛ لما روى أبو داود عن عمر بن الخطاب أنه قال : لولا أتمر الناس ما فتحت قرية إلا قسمتها كما قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم خيبر . وما يصحح هذا المذهب ما رواه الصحيح عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : «منعت المرائق فقيزها ودرهمها ومنعت الشام مئتها ودينارها» الحديث . قال الطحاوي : «منعت» بمعنى ستمع ؛ فدل ذلك على أنها لا تكون للغانمين ؛ لأن ما ملكه الغانمون لا يكون فيه فقيز ولا درهم ، ولو كانت الأرض تقسم ما بقى لمن جاء بعد الغانمين شيء . والله تعالى يقول : «والذين جاءوا من بعدهم» بالطف على قوله «للمقرء المهاجرين» . قال : وإنما يقسم ما ينقل من موضع إلى موضع . وقال الشافعي : كل ما حصل من الغنائم من أهل دار الحرب من شيء ، قل أو أكثر من دار أو أرض أو متاع أو غير ذلك قسم ؛ إلا الرجال البالغين فإن الإمام فيهم غير أن يئس أو يفل أو يئس . وسبيل ما أخذ منهم وسبيل سبيل للنيمة . واحتج بصوم الآية . قال : والأرض منقومة لا محالة ؛ فوجب أن تقسم كسائر الغنائم . وقد قسم

رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أمتنع عنة من خير . قالوا : ولو جاز أن يدعى المخلصون في الأرض جاز أن يدعى في غير الأرض فيطل حكم الآية . وأما آية «الحشر» فلا حجة فيها ؛ لأن ذلك إنما هو في النفي لا في التثنية . وقوله «والذين جاءوا من بعدهم» استئناف كلام بالدعاء لمن سبقهم بالإيمان لا لغير ذلك . قالوا : وليس يخلو فصل عمر في توقيفه الأرض من أحد وجهين : إما أن تكون غنيمة استناب أنفس أهلها ؛ وطابت بذلك فوقفها . وكذا روى جرير أن عمر استناب أنفس أهلها . وكذلك صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سبي هوازن ، لما أتوه استناب أنفس أصحابه عما كان في أيديهم . وإما أن يكون ما وقفه عمر قتيلاً فلم يمتح إلى مرضاة أحد . وذهب الكوفيون إلى تخيير الإمام في قسمها أو إقرارها وتوظيف الخراج عليها ، وتصير ملكاً لم كأرض الصلح . قال شيخنا أبو العباس رضى الله عنه : وكان هذا جمع بين الدليلين ووسط بين المذهبين ، وهو الذى فهمه عمر رضى الله عنه قطعاً ؛ ولذلك قال : لولا أمر الناس ؛ فلم يغير بنسخ فعل النبي صلى الله عليه وسلم ولا بتقصيصهم ؛ غير أن الكوفيين زادوا على ما فعل عمر ، فإن عمر إنما وقفها على مصالح المسلمين ولم يملكها لأهل الصلح ، وهم الذين قالوا للإمام أن يملكها لأهل الصلح .

الراية - ذهب مالك وأبو حنيفة والثوري إلى أن السلب ليس للقاتل ، وأن حكمه حكم الغنيمة ؛ إلا أن يقول الأمير : من قتل قتيلاً فله سلبه ؛ فيكون حينئذ له . وقال الليث والأوزاعي والثافى وإسحاق وأبو نوح وأبو عبيد والطبرى وابن المنذر : السلب للقاتل على كل حال ؛ قاله الإمام أبو لم يقله . إلا أن الثافى رضى الله عنه قال : إنما يكون السلب للقاتل إذا قتل قتيلاً مقبلاً عليه ، وأما إذا قتل مدبراً عنه فلا . قال أبو العباس بن سريج من أصحاب الثافى : ليس الحديث «من قتل قتيلاً فله سلبه» على عمومها ؛ لإجماع العلماء على أن من قتل أميراً أو امرأة أو شيخاً أنه ليس له سلبٌ واحد منهم . وكذلك من ذُفِعَ على جريح ، ومن قُتِلَ من قُطعت يده ورجلاه . قال : وكذلك المنزه لا يمنع في أنهزامة ؛ وهو

كالكتوف . قال : فمِمَّ بِذَلِكَ أَنَّ الحديث إنما جعل السلب لمن يُقْتَلْهُ مَعْنَى زَائِدٍ ، أَوَّلُهُنَّ فِي قَتْلِهِ فَضِيلَةٌ ، وَهُوَ الْقَاتِلُ فِي الْإِقْبَالِ ؛ لِمَا فِي ذَلِكَ مِنَ الْمُنَّةِ . وَأَمَّا مَنْ أُخْذَ ^(١) فَلَاحُ . وَقَالَ الطَّبْرِيُّ : السَّلْبُ لِلْقَاتِلِ ، مَقْبِلًا قَتْلَهُ أَوْ مَدْبِرًا ، هَارِبًا أَوْ مَبَارِزًا إِذَا كَانَ فِي الْمَعْرَكَةِ . وَهَذَا يَرِدُهُ مَا ذَكَرَهُ عَبْدُ الرَّزَّاقِ وَمُحَمَّدُ بْنُ بَكْرٍ عَنْ ابْنِ جُرَيْجٍ قَالَ سَمِعْتُ نَافِعًا مَوْلَى ابْنِ عُمَرَ يَقُولُ : لَمْ تَزَلْ نَسْمَعُ إِذَا اتَّيَّحَ الْمُسْلِمُونَ وَالْكَفَّارُ قَتْلَ رَجُلٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ رَجُلًا مِنَ الْكُفَّارِ فَإِنْ سَلِبَهُ لَهُ ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ فِي مَعْمَعَةِ الْقِتَالِ ؛ لِأَنَّهُ حِينَئِذٍ لَا يُدْرَى مَنْ قَتَلَ قِتِيلًا . فظَاهِرُ هَذَا يَرِدُ قَوْلَ الطَّبْرِيِّ لِاشْتِرَاطِهِ فِي السَّلْبِ الْقَتْلَ فِي الْمَعْرَكَةِ خَاصَّةً . وَقَالَ أَبُو ثَوْرٍ وَابْنُ الْمُنْذِرِ : السَّلْبُ لِلْقَاتِلِ فِي مَعْرَكَةٍ كَانَ أَوْ غَيْرَ مَعْرَكَةٍ ، فِي الْإِقْبَالِ وَالْإِدْبَارِ وَالْهَرُوبِ وَالْإِهْتِمَارِ عَلَى كُلِّ الْوُجُوهِ ؛ لِعُمُومِ قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ” مَنْ قَتَلَ قِتِيلًا فَلَهُ سَلْبُهُ “ .

قلت : رَوَى مُسْلِمٌ عَنْ سَالِمَةَ بْنِ الْأَكْوَعِ قَالَ : غَزَوْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هَوَازِينَ ، فَبَيْنَا نَحْنُ تَنْتَضِعُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذْ جَاءَ رَجُلٌ عَلَى جَمَلٍ أَحْمَرٍ فَأَنَابَنَا ، ثُمَّ اتَّرَعَ طَلْقًا مِنْ حَقِيْقَةِ فَقِيْدٍ بِهِ الْجَمَلُ ، ثُمَّ تَقَدَّمَ يَتَغَدَّى مَعَ الْقَوْمِ وَجَعَلَ يَنْظُرُ ، وَفَبَيْنَا ضَمْعَةً وَرِيقَةً فِي الظُّهْرِ ، وَبَعْضُنَا مُشَاءً ، إِذْ نَخْرُجُ يَسْتَشِدُّ ، فَآتَى جَمْلَهُ فَأَطْلَقَ قَيْدَهُ ثُمَّ أَنَاخَهُ وَقَعْدَ عَلَيْهِ فَأَنَارَهُ فَأَسْتَشِدُّ بِهِ الْجَمَلُ ، فَاتَّبَعَهُ رَجُلٌ عَلَى نَاقَةٍ وَرَقَاءً . قَالَ سَالِمَةُ : وَخَرَجْتُ أَشْتَدُّ فَكُنْتُ عِنْدَ وَرِيكِ النَّاقَةِ ، ثُمَّ تَقَدَّمْتُ حَتَّى كُنْتُ عِنْدَ وَرِيكِ الْجَمَلِ ، ثُمَّ تَقَدَّمْتُ حَتَّى أَخَذْتُ بِخِطَامِ الْجَمَلِ فَأَلْفَحْتُهُ ، فَلَمَّا وَضَعَ رُكْبَتَهُ فِي الْأَرْضِ اخْتَرَطْتُ سَيْفِي فَضَرَبْتُ رَأْسَ الرَّجُلِ فَتَنَدَّرَ ، ثُمَّ جَسَتْ بِالْجَمَلِ أَقْوَدَهُ ، عَلَيْهِ رَحْلُهُ وَسِلَاحُهُ ، فَاسْتَقْبَلَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالنَّاسُ مَعَهُ فَقَالَ : ” مَنْ قَتَلَ الرَّجُلَ ؟ “ قَالُوا : ابْنُ الْأَكْوَعِ . قَالَ : ” لَهُ سَلْبُهُ أَجْمَعُ “ . فَهَذَا سَالِمَةُ قَتَلَهُ هَارِبًا غَيْرَ مَقْبِلٍ ، وَأَعْطَاهُ سَلْبَهُ . وَفِيهِ حِجَّةٌ لِمَا لَكَ مِنْ أَنَّ السَّلْبَ لَا يَسْتَحِقُّهُ الْقَاتِلُ

- (١) أَيْ أَتَمَّلَ بِالْجِرَاحِ . (٢) أَيْ تَنَقَّدَى . (٣) الطَّلَقُ (بِالتَّحْرِيكِ) : قَيْدٌ مِنْ جُلُودِ وَالْحَلَبِ : الْحَبْلُ الْمَشْدُودُ عَلَى حَقْوِ الْمِيرَاوَمِنْ حَقِيْقَتِهِ ، وَهِيَ الزِّيَادَةُ الَّتِي تَجْعَلُ فِي مَوْزِنِ الْقَتَبِ ، وَالْوَالِدُ الَّتِي يَجْعَلُ الرَّجُلُ فِيهِ زَادَهُ : (عَنْ ابْنِ الْأَثِيرِ) . (٤) أَيْ حَالَةٌ ضَعْفٍ وَهْزَالٍ فِي الْإِبِلِ . (٥) أَيْ خَرَجَ مَصْرُوحًا . (٦) الْأَوْرَقُ مِنَ الْإِبِلِ : الَّتِي فِي نَوْتِهَا بَيَاضٌ إِلَى سَوَادٍ . (٧) نَدَرٌ : سَقَطَ .

إلا بإذن الإمام، إذ لو كانت واجبا له بنفس القتل لما احتاج الى تكرير هذا القول .
ومن نجته أيضا ما ذكره أبو بكر بن أبي شيبة قال : حدثنا أبو الأحوص عن الأسود بن قيس
عن بشر بن علقمة قال : بارزت رجلا يوم القادسية فقتلته وأخذت سلبه ، فأتيت سعدا
فخطب سعد أصحابه ثم قال : هذا سلب بشر بن علقمة ، فهو خير من أثنى عشر ألف درهم ،
وإنا قد قتلناه إياه . فلو كان السلب للقاتل قضاء من النبي صلى الله عليه وسلم لما احتاج الأمر
أن يضيفوا ذلك إلى أنفسهم بجتهادهم ، ولأخذ القاتل دون أمرهم . والله أعلم . وفي الصحيح
أن معاذ بن عمرو بن الجموح ومعاذ بن عفراء ضربا أبا جهل بسيفهما حتى قتلاه ، فأتيا
رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " أياكما قتله ؟ " فقال كل واحد منهما : أنا قتله .
فنظر في السيفين فقال : " كلاكما قتله " وقضى بسلبه لمعاذ بن عمرو بن الجموح . وهذا نص
على أن السلب ليس للقاتل ، إذ لو كان له لقسمه النبي صلى الله عليه وسلم بينهما . وفي الصحيح
أيضا عن عوف بن مالك قال : خرجت مع من خرج مع زيد بن حارثة في غزوة مؤتة ،
ورافقني مَدْيَنُ^(١) من اليمن . وساق الحديث ، وفيه : فقال عوف : يا خالد ، أما علمت
أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قضى بالسلب للقاتل ؟ قال : بلى ، ولكنني استكثرت .
وأخرج أبو بكر البرقاني بإسناده الذي أخرجه به مسلم ، وزاد فيه يسأنا أن عوف بن مالك
قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن يحبس السلب ، وإن مَدْيَنًا كان رفيقا لم
في غزوة مؤتة في طرف من الشام ، قال : لجعل رومي منهم يشتد على المسلمين وهو على فرس
أشقر وسرج مذهب ومنطقة ملطحة وسيف محلى بذهب . قال : فيفري بهم ، قال : فتلطف به
المديني حتى صر به ف ضرب عرقوب فرسه فوق ، وعلاه بالسيف فقتله وأخذ سلاحه .
قال : فاعطاه خالد بن الوليد وحبس منه ، قال عوف : فقلت له أعله كله ، أليس قد
سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " السلب للقاتل " ! قال : بلى ، ولكنني
استكثرت . قال عوف : وكانت بيني وبينه كلام ، فقلت له : لأخبرن رسول الله صلى الله

(١) أي رجل من المدائن جاءوا بمدون جيش مؤتة ومباذرتهم .

عليه وسلم . قال عوف : فلما اجتمعنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر عوف ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال لخالد : " ألم لم تعطه " ؟ قال فقال : استكثرته . قال : " فادفعه إليه " فقلت له : ألم أنجز لك ما وعدتك ؟ قال : ففضب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : " يا خالد لا تدفعه إليه هل أنتم تاركون لي أمراً " . فهذا يدل دلالة واضحة على أن السلب لا يستحقه القاتل بنفس القتل بل يرى الإمام ونظيره . وقال أحمد ابن حنبل : لا يكون السلب للقاتل إلا في الميادرة خاصة ،

الخامسة — اختلف العلماء في تخمس السلب ، فقال الشافعي : لا تخمس . وقال إصحاق : إن كان السلب يسيراً فهو للقاتل ، وإن كان كثيراً تخمس . وفعله عمر بن الخطاب مع البراء بن مالك حين بارز الخزرجي فقتله ، فكانت قيمة منقطته وسواريه ثلاثين ألفاً فخمس ذلك . أنس عن البراء بن مالك أنه قتل من المشركين مائة رجل وإلا رجلاً فبارزة ، وأنهم لما غزوا الزارة خرج دُعقان الزارة فقال : رجل ورجل ، فبرز البراء فاختلفا بسيفيهما ثم اعتنقا ، فتوكله البراء فقع على كعبه ، ثم أخذ السيف فذبحه ، وأخذ سلاحه ومنقطته وأتى به عمر ، فعلمه السلاح وقوم المنطقة ثلاثين ألفاً فخمسها ، وقال : إنها مال . وقال الأوزاعي ومكحول : السلب تخمس وفيه الخمس . وروى نحوه عن عمر بن الخطاب . وانجحة للشافعي ما رواه أبو داود عن عوف بن مالك الأشجعي وخالد بن الوليد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قضى في السلب للقاتل ولم يخمس السلب .

السادسة — ذهب جمهور العلماء إلى أن السلب لا يعطى للقاتل إلا أن يُقيم البيعة على قتله . قال أكثرهم : ويجزئ شاهد واحد ، على حديث أبي قتادة . وقيل : شاهدان أو شاهد وعين . وقال الأوزاعي : يُعطاه بمجرد دعواه ، وليست البيعة شرطاً في الاستحقاق ، بل إن أنفق ذلك فهو الأول دفعاً للنازعة . ألا ترى أن النبي صلى الله عليه وسلم أعطى أبا قتادة سلب مقتوله من غير شهادة ولا عين . ولا تكفي شهادة واحد ، ولا يُنات بها حكم بمجردا . وبه قال الليث بن سعد .

قلت : سمعت شيخنا الحافظ المنذري الشافعي أبا محمد عبد العظيم يقول : إنما أعطاه النبي صلى الله عليه وسلم السلب بشهادة الأسود بن نزع بن نزع بن نزع . وصعد الله بن أنيس . وعلى هذا يندفع النزاع ويزول الإشكال ، ويطرد الحنك . وأما المالكية فيخرجون على قولهم أنه لا يحتاج الإمام فيه إلى بينة ، لأنه من الإمام ابتداء عطية ، فإن شرط الشهادة كان له ، وإن لم يشترط جاز أن يعطيه من غير شهادة .

السابعة - واختلفوا في السلب ما هو ، فأما السلب وكل ما يحتاج للقتال فلا خلاف أنه من السلب ، وفره إن قاتل عليه وصريح عنه . وقال أحمد في القرس : ليس من السلب . وكذلك إن كان في هيبته وفي منطقته دنائير أو جواهر أو نحو هذا ، فلا خلاف أنه ليس من السلب . واختلفوا فيما ية بين به للحرب ، فقال الأوزاعي : ذلك كله من السلب . وقالت فرقة : ليس من السلب . وهذا مروى عن ثنوخون رحمه الله ، إلا المنطقة فإنها عنده من السلب . وقال ابن حبيب في الواضحة : والسواران من السلب .

الثامنة - قوله تعالى : (فَأَن لَّهِ نَجْمَةٌ) قال أبو عبيد : هذا ناسخ لقوله من وجل في أول السورة « قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ » ولم يخمس رسول الله صلى الله عليه وسلم غنائم بصرى ، فنسخ حكمه في ترك التخمين بهذا . إلا أنه يظهر من قول علي رضي الله عنه في صحيح مسلم « كان لي شارف من نصيب من الغنم يوم بدر ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أعطاني شارباً من الخمس يومئذ » الحديث - أنه تخمس ، فإن كان هذا فقوله ابن عبيد مردود . قال ابن عطية : ويحتمل أن يكون الخمس الذي ذكر علي من إحدى الفزوات التي كانت بين بدر وأحد ، فقد كانت غزوة بني سليم وغزوة بني المصطلق وغزوة ذي أصر وغزوة بجران ، ولم يحفظ فيها قتال ، ولكن يمكن أن غنمت غنائم . والله أعلم .

قلت : وهذا التأويل يردده قول علي يومئذ ، وذلك إشارة إلى يوم قسم غنائم بدر ، إلا أنه يحتمل أن يكون من الخمس إن كان لم يقع في بدر تخمس ، من خمس سيرة عبد الله بن

(١) الهيبان : الذي يجعل فيه الغنم . رشاد السراويل . (٢) الشارف : الفاقة المسنة .

يَحْتَسِبُ، فإنها أول غنيمة غُنِمَتْ في الإسلام، وأول خمس كان في الإسلام؛ ثم نزل القرآن «واعلموا أنما غنمتم من شيء فإن لله خمسة». وهذا أولى من التأويل الأول. والله أعلم.

التاسعة - «ما» في قوله «ما غنمتم» بمعنى الذي، والمساء مذكوفة؛ أي الذي غنمتموه. ودخلت الفاء لأن في الكلام معنى المجازاة. و«إن» الثانية تؤكد للأولى، ويجوز كسرهما، وروى عن أبي عمرو. قال الحسن: «هذا مفتاح كلام^(١)، لله الدنيا والآخرة؛ ذكره الناس». واستفتح جل وعز الكلام في الفى والخمس بذكر نفسه؛ لأنهما أشرف الكسب، ولم ينسب الصدقة إليهما لأنها أوساخ الناس.

العاشرة - واختلف العلماء في كيفية قسَم الخمس على أقوال ستة:

الأول - قالت طائفة: يقسم الخمس على ستة؛ فيجعل السدس للكعبة، وهو الذي لله. والثاني لرسول الله صلى الله عليه وسلم. والثالث لذوى القربى. والرابع لليتامى. والخامس للساكنين. والسادس لأبن السبيل. وقال بعض أصحاب هذا القول: يُرد السهم الذي لله على ذوى الحاجة.

الثاني - قال أبو المالية والزيغ: تقسم الغنيمة على خمسة، فيعزل منها سهم واحد، وتقسم الأربعة على الناصي، ثم يضرب بيده في السهم الذي عزله فاقبض عليه من شيء جملة للكعبة، ثم يقسم بقية السهم الذي عزله على خمسة، سهم للنبي صلى الله عليه وسلم، وسهم لذوى القربى، وسهم لليتامى، وسهم للساكنين، وسهم لأبن السبيل.

الثالث - قال المنهال بن عمرو: سألت عبد الله بن محمد بن علي - وعلي بن الحسين عن الخمس فقال: هو لنا. قلت لعلي: إن الله تعالى يقول: «وانتاتى والمساكين وابن السبيل» فقال: أيتامنا ومساكيننا.

الرابع - قال الشافعى: يقسم على خمسة. ورأى أن سهم الله ورسوله واحد، وأنه يصرف في مصالح المؤمنين، والأربعة الخماس على الأربعة الأصناف المذكورين في الآية.

(١) أى قوله تعالى: «فإن الله خمسة» راجع الحديث في كتاب قسم النبي في سنن السائى.

الخامس - قال أبو حنيفة : يقسم على ثلاثة : اليامي والمساكين وابن السبيل .
وارتفع عنده حكم قرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم بموته ، كما ارتفع حكم سمه . قالوا :
ويبدأ من الخمس بإصلاح القناطر، وبناء المساجد ، وأرزاق القضاة والجنود . وروى نحو
هذا عن الشافعي أيضا .

السادس - قال مالك : هو موكول الى نظر الإمام واجتهاده ، فيأخذ منه من غير
تقدير، ويعطى منه القرابة باجتهاد، ويصرف الباقي في مصالح المسلمين . وبه قال الخلفاء
الأربعة ، وبه عملوا . وعليه يدل قوله صلى الله عليه وسلم : « ما لي أراه الله عليكم إلا الخمس
والخمس مردود عليكم » . فإنه لم يقسمه انماسا ولا ائلافا ، وإنما ذكر في الآية من ذكر
على وجه التنبيه عليهم ؛ لأنهم من أهم من يدفع إليه . قال الزجاج عتجا مالكا : قال الله
عن رجل « يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ قَلِيلًا لِلَّذِينَ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى
وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ » ^(١) وللرجل جائز بإجماع أن ينفق في غير هذه الأصناف إذا رأى ذلك .
وذكر النسائي عن عطاء قال : نحس الله ونحس رسوله واحد، كان رسول الله صلى الله عليه
وسلم يحمل منه ويعطى منه ويضعه حيث شاء ويصنع به ما شاء .

الحادية عشرة - قوله تعالى : (وَلِلَّذِي الْقُرْبَى) ليست اللام لبيان الاستحقاق والمالك ،
وإنما هي لبيان المصير والمحل . والدليل عليه ما رواه مسلم أن الفضل بن عباس وربيعة
ابن عبد المطلب أتيا النبي صلى الله عليه وسلم ، فكلما أحدهما فقال : يا رسول الله ، أنت أبر
الناس ، وأوصل الناس ، وقد بلغنا النكاح فجئنا لتؤمرانا على بعض هذه الصدقات ، فتؤدّي
اليك كما يؤدّي الناس ، ونصيب كما يصيبون . فسكت طويلا حتى أردنا أن نكلمه ، قال :
وجعلت زينب تُلمس إلينا من وراء الحجاب ألا نكلمه ، قال : ثم قال : « إن الصدقة لا تحمل
لأكل مجد إنما هي أوساخ الناس أدعوا لي بحمية ^(٢) - وكان على الخمس - وتوفل بن الحارث بن

(١) آية ٢١٥ سورة البقرة . (٢) يقال : ألمع ولمع ، إذا أشار بشو به أو بيده .

(٣) هوميحة بن جزة ، وجل من بني أسد .

عبد المطلب قال : بخاءه فقال تحمية : " أنيكنج هذا الغلام أبنتك " - للفضل بن عباس - فانكحه . وقال نوفل بن الحارث : " أنيكنج هذا الغلام أبنتك " يعني ربيعة بن عبد المطلب . وقال تحمية : " أصدق عنهما من الخنس كذا وكذا " . وقال صلى الله عليه وسلم : " مالى مما أفاء الله عليكم الا الخمس والخمس مردود عليكم " . وقد أعطى جميعه وبعضه ، وأعطى منه المؤلفة قلوبهم ، وليس ممن ذكرهم الله في التقسيم ، فدل على ما ذكرناه ، والموفق الإله .

الثانية عشرة - واختلف العلماء في ذوى القربى على ثلاثة أقوال : فريش كلها ، قاله بعض السلف ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم لما صعد الصفا جعل يهتف : " يا بنى فلان يا بنى عبد مناف يا بنى عبد المطلب يا بنى كعب يا بنى مرة يا بنى عبد شمس أقعدوا أنفسكم من النار " الحديث . وسيأتى في « الشعراء » . وقال الشافعي وأحمد وأبو ثور ومجاهد وقسادة وابن جرير ومسلم بن خالد : بنو هاشم وبنو عبد المطلب ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم لما قسم سهم ذوى القربى بين بنى هاشم وبنى عبد المطلب قال : " إنهم لم يفارقوني في جاهلية ولا إسلام إنما بنو هاشم وبنو المطلب شيء واحد " وشبك بين أصابعه ، أخرجه النسائي والبخاري . قال البخاري : قال الألبان حديثي يونس ، وزاد : ولم يقسم النبي صلى الله عليه وسلم لبنى عبد شمس ولا لبنى نوفل شيئا . قال ابن اسحاق : وعبد شمس وهاشم والمطلب إخوة لأم ، وأنهم عاتكة بنت مرة . وكان نوفل أخاهم لأبيهم . قال النسائي ، وأسهم النبي صلى الله عليه وسلم لذوى القربى ، وهم بنو هاشم وبنو المطلب ، بينهم الفتي والفقير . وقد قيل : إنه للفقير منهم دون الفتي ، كالتياى وابن السبيل . وهو أشبه القولين بالصواب هندي . والله أعلم . والصغير والكبير والذكر والأنثى سواء ؛ لأن الله تعالى جعل ذلك لهم ، وقسمه رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم . وليس في الحديث أنه فضل بعضهم على بعض .

الثالث - بنو هاشم خاصة ، قاله مجاهد وعلي بن الحسين . وهو قول مالك والثوري

والأوزاعي وغيرهم .

(١) في قوله تعالى : « وأنذر عشيرتك الأقرين » آية ٢١٤ .

الثالثة عشرة - لما بين الله عز وجل حكم الخمس وسكت عن الأربعة الأخماس، دلّ ذلك على أنها ملك للغانمين . وبين النبي صلى الله عليه وسلم ذلك بقوله : " وأئنا قرية عصمت الله ورسوله فإن نحسبها لله ورسوله ثم هي لكم " . وهذا ما لا خلاف فيه بين الأمة ولا بين الأئمة؛ على ما حكاه ابن العربي في (أحكامه) وغيره . بيد أن الإمام إن رأى أن يمتحن على الأسارى بالإطلاق فعل ، وبطلت حقوق الغانمين فيهم ؛ كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم بثمامة بن أثال وغيره ، وقال : " لو كان المعلم بن عدي حياً ثم كذبني في هؤلاء التتبي ^(١) - يعني أسارى بدر - تركتهم له " أخرجه البخاري . مكافأة له لقيامه في شأن [قنص] الضبيفة . وله أن يحتل جميعهم ؛ وقد قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم حبة بن أبي معيط من بين الأسرى صبراً ، وكذلك النضر بن الحارث قتله بالصفراء صبراً ، وهذا ما لا خلاف فيه . وكان لرسول الله صلى الله عليه وسلم سهم سهم كسهم الغانمين ، حضراً أو غائب ، وسهم الصفي ، يصطلى سيفاً أو سهماً أو خادماً أو دابة . وكانت صفيّة بنت حيي من الصفي من غنائم خيبر . وكذلك ذو المقار كان من الصفي . وقد انقطع بموته ؛ إلا عند أبي ثور فإنه رآه باقياً للإمام يجعله يجعل سهم النبي صلى الله عليه وسلم . وكانت الحكمة في ذلك أن أهل الجاهلية كانوا يرون للرئيس ربح الغنيمة . قل شاعرهم :

لك الميراث منها والصفايا * وحكك والشيطة والفضول ^(٢)

وقال أخبسر :

ما الذي ربح الجيوش ، لصلبه * عشرون ، وهو يمسد في الأحياء

(١) التتبي : جمع قنص ، كرمي وزمن . (٢) أي الصفيقة التي كتبها فريش في الأياض الماشية ولا الحلية ولا ياتكهم . وهو معلم بن هدي بن ثور بن عبد مناف ؛ مات كافراً في صفير قبل وفاته بدو نحو سبعة أعصر . (عن شرح النسطاني) . (٣) صبر الإنسان وقهره على القتل ؛ حبه يزاده حتى يموت . (٤) ذو المقار : اسم سيف النبي عليه السلام ، وسمي به لأنه كانت فيه خفر صغار حسان ؛ ويقال لغفره شفرة . (٥) البيت لعبد الله بن عبد الصفي ، يتكلم بسطام بن قيس . والشيطة : ما أصاب الرئيس في الطريق فيل أن يصير إلى مجتمع إلى . والفضول : ما غفل من القصة ما لا تصح قصته على حد النزاهة ؛ كالغير والفور والمحورما (من اللسان) .

يقال : ربع الجيش أربعة ربيعة إذا أخذ ربع الغنيمة . قال الأصمعي : ربع في الجاهلية وخمس في الإسلام ؛ فكان يأخذ بغير شرع ولا دين الربع من الغنيمة ، ويصطفى منها ، ثم يتحكم بعد الصبي في أي شيء أراد ، وكان ماشد منها وما فضل من خروجه ونتاج له . فاحكم سبحانه الدين بقوله : « وأعلموا أنما غنمتم من شيء فإن لله خمسة » . وأبقى بينهم الصبي لنبية صلى الله عليه وسلم وأسقط حكم الجاهلية . وقال عامر الشعبي : كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم سهم يدعى الصبي إن شاء عبدا أو أمة أو فرسا يختاره قبل الخمس ؛ أخرجه أبو داود . وفي حديث أبي هريرة قال : فليق العبد فيقول : « أي قل ألم أكرمك وأسودك وأزودك وأحترك الخليل والإبل وأذكرك رأس وتربع » الحديث . أخرجه مسلم . « ربع » بالباء الموحدة من تحتها : تأخذ الميراث ، أي الربع مما يحصل لقومك من الغنائم والكسب . وقد ذهب بعض أصحاب الشافعي رضي الله عنه إلى أن خمس الخمس كان للنبي صلى الله عليه وسلم يصرفه في كفاية أولاده ونسائه ، ويدخر من ذلك قوت سنته ، ويصرف الباقي في الكراع والسلاح . وهذا يرده ما رواه عمر قال : كانت أموال بني النضير مما أفاء الله على رسوله مما لم يوجب عليه المسلمون بخيل ولا ركاب ، فكانت للنبي صلى الله عليه وسلم خاصة ، فكان ينفق على نفسه منها قوت سنة ، وما بقي جعله في الكراع والسلاح عدة في سبيل الله . أخرجه مسلم . وقال : « والخمس مردود عليكم » .

الرابعة عشرة — ليس في كتاب الله تعالى دلالة على تفضيل الفارس على الراجل ، بل فيه أنهم سواء ؛ لأن الله تعالى جعل الأربعة أنحاس لم ولم يخص راجلا من فارس . ولولا الأخبار الواردة عن النبي صلى الله عليه وسلم لكان الفارس كالراجل ، والبعث كالجر ، والصبي كالبالغ . وقد اختلف العلماء في قسمة الأربعة الأنحاس ؛ فالذي عليه عامة أهل

(١) المرق (بالضم) : أثبت البيت أو أورد المانع والغنائم . (٢) الحديث أورده مسلم في كتاب الزهد . قال النووي : بضم القاء وسكون الهمزة ومعناه يا ملان ، وهو ترجم على خلاف القياس . وقيل هي لغة بمعنى ملان وقال صاحب المرقاة يسكون الهمزة وتفتح وتضم . (٣) الكراع (بالضم) : الخيل . (٤) الذي في صحيح مسلم : « ... فكان ينفق على أهله نفقة سنة .. » الخ .

العلم فيما ذكر ابن المنذر أنه يُسمُّ للفارس سهماً ، وللراجل سهم . ومن قال ذلك مالك ابن أنس ومن تبعه من أهل المدينة . وكذلك قال الأوزاعي ومن وافقه من أهل الشام . وكذلك قال الثوري ومن وافقه من أهل العراق . وهو قول الليث بن سعد ومن تبعه من أهل مصر . وكذلك قال الشافعي رضي الله عنه وأصحابه . وبه قال أحمد بن حنبل وإسحاق وأبو ثور ويعقوب ومحمد . قال ابن المنذر : ولا نعلم أحداً خالف ذلك إلا النعمان فإنه خالف فيه السنن وما عليه جُلُّ أهل العلم في القديم والحديث . قال : لا يُسمُّ للفارس إلا سهم واحد .

قلت : ولعله شُبِّه عليه بحديث ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جعل للفارس سهمين ، وللراجل سهماً . خرجه الثارِقُطْنِي وقال : قال الرمادي كذا يقول ابن غير قال لنا النيسابوري : هذا عندي وهم من ابن أبي شيبة أو من الرمادي ؛ لأن أحمد بن حنبل وعبد الرحمن بن بشر وغيرهما رَوَوْه عن ابن عمر بخلاف هذا ، وهو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أسهم للرجل ولفرسه ثلاثة أسهم ، سهماً له وسهمين لفرسه ؛ هكذا رواه عبد الرحمن بن بشر عن عبد الله بن نعيم عن عبيد الله بن عمر عن نافع عن ابن عمر ؛ وذكر الحديث . وفي صحيح البخاري عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جعل للفارس سهمين ولصاحبه سهماً . وهذا نص . وقد روى الثارِقُطْنِي عن الزبير قال : أعطاني رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعة أسهم يوم بدر ، سهمين لفرسي وسهماً لي وسهماً لأخي من ذوى القرابة . وفي رواية : وسهماً لأثمة سهم ذوى القرى . ونخرج عن بشير بن عمرو بن محسن قال : أسهم رسول الله صلى الله عليه وسلم لفرسي أربعة أسهم ، ولي سهماً ؛ فأخذت خمسة أسهم . وقيل : إن ذلك راجع إلى اجتihad الإمام ، فيضد ما رأى . والله أعلم .

الخامسة عشرة - لا يفاضل بين الفارس والراجل بأكثر من فرس واحد ؛ وبه قال الشافعي . وقال أبو حنيفة : يُسمُّ لأكثر من فرس واحد ؛ لأنه أكثر غناء وأعظم مضمة ؛

(١) التي في نسخة الثارِقُطْنِي : « عن ابن نعيم » .

ربه قال ابن الجهم من أصحابنا ، ورواه مثنون عن ابن وهب . ودليلنا أنه لم ترد رواية عن نبي صلى الله عليه وسلم بأن يسهم لأكثر من فرس واحد ، وكذلك الآية بعده ، ولأن صدق لا يمكن أن يقال إلا على فرس واحد ، وما زاد على ذلك فرفاهية وزيادة عُدّة ، وذلك لا يؤثر في زيادة السهمان ، كالذي معه زيادة سيوف أو رماح ، واعتبارا بالكالت والرابع . وقد روى عن سليمان بن موسى أنه يسهم لمن كان عنده أفراس ، لكل فرس سهم .

السادسة عشرة — لا يسهم إلا للعناق من الخيل ، لما فيها من الكثرة والفقر ، وما كان من البراذين والهجين بمنابتهما في ذلك . وما لم يكن كذلك لم يسهم له . وقيل : إن أجارس الإمام أسهم لها ؛ لأن الانتفاع بها يختلف بحسب الموضع . فالهجين والبراذين تصلح للواضع المتوعدة كالشعاب والجبال ، والعناق تصلح للواضع التي يتأق فيها الكر والفز ؛ فكان ذلك متعلقا برأى الإمام . والعناق : خيل العرب ، والهجين والبراذين : خيل الروم .

السابعة عشرة — واختلف علماءنا في الفرس الضعيف ؛ فقال أشهب وابن نافع : لا يسهم له ؛ لأنه لا يمكن القتال عليه فأشبهه الكبير . وقيل : يسهم له لأنه يرجى برؤه . ولا يسهم للأعرج إذا كان في حيز مالا ينفع به ، كما لا يسهم للكبير . فأما المريض مرضا خفيفا مثل الزهيمص^(١) ، وما يجري مجراه مما لا يمنعه المرض عن حصول النعمة المقصودة منه فإنه ينهم له . ويعطى الفرس المستأجر والمستأجر ، وكذلك المنصوب ، وسهمه لصاحبه . ويستحق السهم للخيل وإن كانت في السفن ووقعت النعمة في البحر ؛ لأنها معنة للزول إلى السير .

الثامنة عشرة — لا حق في النساء المشوة كالأجراء والصناع الذين يصحبون الجيش للماش ؛ لأنهم لم يقصدوا قتالا ولا خرجوا مجاهدين . وقيل : يسهم لهم ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم : " النعمة لمن شهد الواقعة " . أخرجه البخاري . وهذا لا حجة فيه لأنه جاء بيانا

(١) الزهيمص : الذي أماءه الرصة ، وهي ذرة تصيب باطن حافر الفرس .

(٢) المشوة (ضم الحاء وكسر الهاء) : ودالة الناس .

لمن يباشر الحرب ونخرج إليه ، وكفى ببيان الله عز وجل المفاتين وأهل المماش من المسامين حيث جعلهم فرقين مميزين ، لكل واحدة حالها في حكمها ، فقال : « عَلِمَ أَنَّ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرَضَى وَأَنزَلُوا يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مَنْ فَضَّلَ اللَّهُ وَأَنزَلُوا يَفَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ^(١) » . إلا أن هؤلاء إذا قاتلوا لا يضرمهم كونهم على معاشهم ؛ لأن سبب الاستحقاق قد وجد منهم . وقال أشهب : لا يستحق أحد منهم وإن قاتل ، وبه قال ابن القصار في الأجير : لا يسهم له وإن قاتل . وهذا يرده حديث سلمة بن الأكوع قال : « كنت تبعاً لطلحة بن عبيد الله أسقى فرسه وأحمه وأخدمه وأكل من طعامه ، الحديث . وفيه : ثم أعطاني رسول الله صلى الله عليه وسلم سهمين ، سهم الفارس وسهم الزاجل ، فجمعهما لي . خرجت مسلم . واحتج ابن القصار ومن قال بقوله بحديث عبد الرحمن بن عوف ، ذكره عبد الرزاق ؛ وفيه : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعبد الرحمن : « هذه الثلاثة الدنانير حفظه ونصيبه من غزوته في أمر دينه وآخرته » .

التاسعة عشرة — فأما العبيد والنساء فذهب الكتاب أنه لا يُسهم لهم ولا يُرضخ ^(٢) . وقيل يرضخ لهم ؛ وبه قول جمهور العلماء ، وقال الأوزاعي : إن قاتلت المرأة أسهم لها . وزعم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أسهم للنساء يوم خيبر . قال : وأخذ المسلمون بذلك عندنا . وإلى هذا القول مال ابن حبيب من أصحابنا . خرج مسلم عن ابن عباس أنه كان في كتابه إلى نجدة ^(٣) : تسألني هل كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفرز بالنساء ؟ وقد كانت يفرزون فيداوين الجرحى ويحذرن من الغنيمة ، وأما يسهم فلم يضرب لمن . وأما الصبيان فإن كان مطبقاً للقتال ففيه عندنا ثلاثة أقوال : الإسهام وفيه حتى يبلغ ؛ لحديث ابن عمر ، وبه قال أبو حنيفة والشافعي . والتفرقة بين أن يقاتل فيسهم له أو لا يقاتل فلا يسهم له . والصحيح

(١) آخر سورة المزمل .

(٢) أحسه : أزيل التراب عنه بالهبة .

(٣) الرضخ : العطاء ليس بالكثير . (٤) هو نجدة بن عامر الحنفي ؛ كان من رؤساء المخوارج .

(٥) يحذرن : يحسبن الحذرة (يكرهن الحما . وضما) وهي الطية .

الأول؛ لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم في بنى قريظة أن يقتل منهم من أنبت ويُنْقَل منهم من لم ينبت . وهذه مراعاة لإطاعة القتال لا للبلوغ . وقد روى أبو عمر في الاستيعاب عن ثُمَّة بن جُثْدب قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُعرض عليه الفُتُلان من الأنصار فيلحق من أدرك منهم؛ فُرضت عليه عامًا فالحقى غلاما وورقًا، فقلت : يا رسول الله، ألحقته ورددته، ولو صار عني صرعه . قال : فصارعني فصرعته فالحقني . وأما العبد فلا يُسهم لهم أيضا ويُرَضَّخ لهم .

الموفية عشرين — الكافر إذا حضر بإذن الإمام وقاتل في الإسلام له عندنا ثلاثة أقوال : الإسهام ونفيه؛ وبه قال مالك وآبن القاسم . زاد آبن حبيب : ولا نصيب لهم . ويقرى في الثالث — وهولُحْنُون — بين أن يستقل المسلمون بأنفسهم فلا يُسهم له ، أو لا يستقلوا ويفتقروا إلى معونته فيسهم له . فان لم يقاتل فلا يستحق شيئا . وكذلك العبد مع الأحرار . وقال الثوري والأوزاعي : إذا أسْتَمِنَ بأهل الذمة أسهم لهم . وقال أبو حنيفة وأصحابه : لا يسهم لهم ، ولكن يُرضخ لهم . وقال الشافعي رضي الله عنه : يستأجرهم الإمام من مال لا مالك له بعينه . فان لم يفعل أعطاهم سهم النبي صلى الله عليه وسلم . وقال في موضع آخر : يُرضخ للشركين إذا قاتلوا مع المسلمين . قال أبو عمر : اتفق الجميع أن العبد، وهو ممن يجوز أمانه، إذا قاتل لم يسهم له ولكن يرضخ؛ فالكافر بذلك أولى ألا يسهم له .

الحادية والعشرون — لو خرج العبد وأهل الذمة لصوصا وأخذوا مال أهل الحرب فهو لهم ولا يخمس؛ لأنه لم يدخل في عسوم قوله عز وجل : « وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ » أحد منهم ولا من النساء . فأما الكفار فلا مدخل لهم من غير خلاف . وقال ثُمْنُون لا يخمس ما ينوب العبد . وقال آبن القاسم : يخمس؛ لأنه يجوز أن يأذن له سيده في القتال ويقاتل على الدين؛ بخلاف الكافر . وقال أشهب في كتابه : إذا خرج العبد والذمي من الجيش وقتل فالغنيمة للجيش دونهم .

الثانية والعشرون - سبب استحقاق الممهم شهود الوقعة لنصر المسلمين ، على ما تقدم . فلو شهد آخر الوقعة استحق . ولو حضر بعد آقضاء القتال فلا ، ولو غاب بانزاع فكذلك ، فان كان قصد التحيز إلى فئة فلا يسقط استحقاقه . روى البخاري وأبو داود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث أبان بن سعيد على سرية من المدينة قبل تحجده ، فقدم أبان بن سعيد وأصحابه على رسول الله صلى الله عليه وسلم بخير بعد أن فتحها ، وإذ حرم خيلهم ليف ، فقال أبان : أقسم لنا يا رسول الله . قال أبو هريرة : لا أقسم لهم يا رسول الله . فقال أبان : أنت بها يا وبرا تحذر علينا من رأس ضال . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " اجلس يا أبان " ولم يقسم لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم .

الثالثة والعشرون - واختلف العلماء فيمن خرج لشهود الوقعة فثمة المذرمه كرض ؛ ففى ثبوت الإسهام له ونفيه ثلاثة أقوال : يفرق فى الثالث ، وهو المشهور ، فيثبته إن كان الضلال قبل القتال وبعد الإدرا ب ، وهو الأصح ؛ قاله ابن العربى . وينفيه إن كان فيه . وكن بعثه الأمير من الجليش فى أمر من مصلحة الجليش فشغله ذلك عن شهود الوقعة فانه يسهم له ؛ قاله ابن المَوَاز ، ورواه ابن وهب وأبن نافع عن مالك . وروى لا يسهم له بل يُرضخ له لعدم السبب الذى يستحق به السهم ، والله أعلم . وقال أشهب : يُسهم للأسير وإن كان فى الحديد ، والصحيح أنه لا يسهم له ؛ لأنه ملك مستحق بالقتال ؛ فن غاب أو حضر مريضاً كن لم يحضر .

الرابعة والعشرون - الغائب المطلق لا يُسهم له ، ولم يسهم رسول الله صلى الله عليه وسلم لغائب قط إلا يوم خيبر ؛ فانه أسهم لأهل الحُدُيرية من حضر منهم ومن غاب ؛ لقول الله عز وجل : « وَعَدَكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا » ؛ قاله موسى بن عقبة . وروى ذلك عن جماعة من السلف . وقسم يوم بدر لثمان وسعيد بن زيد وطليحة ، وكانوا غائبين ؛ فهم كن

(١) الزور : دوية على قدر السور غبراء أربضاء حسة العين شديدة الحياء . والقال : شجر السدر من شجر الشوك ، (٢) أدرب القوم : إذا دخلوا أرض العدو . (٣) آية ٢٠ سورة الفتح .

حضرها أنت شاء الله تعالى . فأما عثان فإنه تخلف على رُقبة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم بأمره من أجل مرضها . فضرب له رسول الله صلى الله عليه وسلم بسهمه وأجره ؛ فكان كمن شهدا . وأما طلحة بن عبيد الله فكان بالشام في تجارة فضرب له رسول الله صلى الله عليه وسلم بسهمه وأجره ؛ فبعد ذلك في أهل بدر . وأما سعيد بن زيد فكان غائباً بالشام أيضاً فضرب له رسول الله صلى الله عليه وسلم بسهمه وأجره . فهو معدود في البدرين . قال ابن العربي : أما أهل الحديبية فكان ميعادا من الله أخص به أولئك نفر فلا يشاركهم فيه غيرهم . وأما عثان وسعيد وطلحة فيحتمل أن يكون أسهم لهم من الخمس ؛ لأن الأمة جمعة على أن من بقى لمدر فلا يسهم له .

قلت : الظاهر أن ذلك مخصوص بعثان وطلحة وسعيد فلا يقاس عليهم غيرهم . وأن سهمهم كان من صلب الغنيمة كسائر من حضرها لا من الخمس . هذا الظاهر من الأحاديث والله أعلم . وقد روى البخاري عن ابن عمر قال : لما تغيّب عثان عن بدر فانه كان تحته أبنه رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت مريضة ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : **« إن لك أجر رجل ممن شهد بدرا وسهمه »** .

الخامسة والعشرون — قوله تعالى : **﴿ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ ﴾** قال الزجاج عن فرقة : المعنى فاعلموا أن الله مولاكم إن كنتم ؛ فـ **« إِنْ »** متعلقة بهذا الوعد . وقالت فرقة : إن **« إِنْ »** متعلقة بقوله **﴿ وَاَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ ﴾** . قال ابن عطية : وهذا هو الصحيح ؛ لأن قوله **﴿ وَاَعْلَمُوا ﴾** يتضمن الأمر بالاعتقاد والتسليم لأمر الله في الغنائم ؛ فنقّى **« إِنْ »** بقوله **﴿ وَاَعْلَمُوا ﴾** على هذا المعنى ؛ أي إن كنتم مؤمنين بالله فاقفادوا وسلموا لأمر الله فيما أعلمكم به من حال قسمة الغنيمة .

قوله تعالى : **﴿ وَمَا أَتَزَلْنَا عَلَىٰ عِدَّتَيْنَا يَوْمَ الْمُفْرَقَانِ ﴾** **﴿ مَا ﴾** في موضع خفض عطوف على أسم الله . **﴿ يَوْمَ الْمُفْرَقَانِ ﴾** أي اليوم الذي فرقت فيه بين الحق والباطل ، وهو يوم بدر . **﴿ يَوْمَ اتَّخَذَ الْمُجْرِمُونَ حِزْبًا لِلَّهِ حِزْبًا ﴾** (والله على كل شيء قدير) .

قوله تعالى : إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَدِ وَلَكِنَّ لِبَقِيَّةِ اللَّهِ آمِرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾

قوله تعالى : (إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى) أى أزلنا إذ أنتم على هذه الصفة . أو يكون المعنى : واذكروا إذ أنتم . والعدوة : جانب الوادى . وقرئ بضم العين وكسرهما ، فعل الضم يكون الجمع عدى ، وعلى الكسر عدى ، مثل طيبة وطى ، وقرية وقرى . والدنيا : ثابت الأدنى . والقصى : ثابت الأقصى . من دنائهم ، وقصا يفصو . ويقال : القصيا ، والأصل الوار ، وهى لغة أهل المجاز قصوى . فالدنيا كانت مما على المدينة ، والقصى ما على مكة . أى إذ أنتم نزول بغير الوادى بالجانب الأدنى إلى المدينة ، وعدوكم بالجانب الأقصى . (وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ) بنى ركب أبى سفيان وغيره . كانوا فى موضع أسفل منهم إلى ساحل البحر فيه الأمتة . وقيل : هى الإبل التى كانت تحمل أمتهم ، وكانت فى موضع يأمنون عليها توفيقا من الله عز وجل لهم ، فذكرهم نعمه عليهم . « الركب » ابتداء « أسفل منكم » ظرف فى موضع الخبر . أى مكانا أسفل منكم . وأجاز الأخفش واليكافى والفراء « والرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ » أى أشد تسفلا منكم . والركب جمع راكب . ولا نقول العرب : ركب إلا للجماعة الراكبي الإبل . وحكى ابن السكيت واكثر أهل اللغة أنه لا يقال : راكب وركب إلا للذى على الإبل ، ولا يقال لمن كان على فرس أو غيرها راكب . والرَّكْبُ والأرْكَبُ والركبان والراكبون لا يكونون إلا على جمال ، عن ابن فارس . (وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ) أى لم يكن يقع الاتفاق لكثرةهم وقتكم ، فأنكم لو عرفتم كثرتهم لاتفقتم . فوفى الله عز وجل لكم . (لَيَقْبِضَ اللَّهُ آمِرًا كَانَ مَفْعُولًا) من نصر المؤمنين وإظهار الدين . واللام فى « ليقبض » متعلقة بمحذوف . والمعنى : جمعهم لينسى ،

ثم (ها فقال : (لِيَهْلِكْ) أي جمعهم هناك ليقضى أمرها . (لِيَهْلِكْ مَنْ هَلَكَ) « من » .
 و . ربح رفع . « ويحيا » في موضع نصب عطف على ليهلك . والينة إقامة الحجّة والبرهان .
 أي يموت من يموت عن بيعة رأها وعبدة عابها ، فقامت عليه الحجّة . وكذلك حياة من يحيا .
 وقال ابن السخاقي : ليكفر من كفر بعد حجّة قامت عليه وقطعت عذره ، ويؤمن من آمن على
 ذلك . وقرئ « من حي » بيّان على الأصل . وبياء واحدة مشددة ، الأولى قراءة أهل
 المدينة والبرّي وأبي بكر . والثانية قراءة الباقرين ، وهي اختيار أبي عبيد ، لأنها كذلك وقعت
 في المصحف .

قوله تعالى : إِذْ يُرِيكُهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَأَيْتَهُمْ كَثِيرًا
 لَفَلسَلْتُمْ وَلَتَنْتَزَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٠﴾
 قال مجاهد : رآهم النبي صلى الله عليه وسلم في منامه قليلا ، فقص ذلك على أصحابه ؛
 فنتبهم الله بذلك . وقيل : عني بالنام محل النوم وهو العين ، أي في موضع منامك ، لحذف ؛
 عن الحسن . قال الزجاج : وهذا مذهب حسن ، ولكن الأولى أسوغ في العربية ؛ لأنه
 قد جاء « وَإِذْ يُرِيكُهُمْ إِذْ اتَّقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ » فدل بهذا على أن
 هذه رؤية الانتقاء . وأن تلك رؤية النوم . ومعنى (لَقِيتُمْ) لقيتم عن الحرب .
 (وَلَتَنْتَزَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ) اخلفتم . (وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ) أي سلمكم من المخالفة . ابن عباس :
 من الفشل . ويحتمل منهما . وقيل : سلم أي أتم أمر المسلمين بالظفر .

قوله تعالى : وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذْ اتَّقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ
 فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿١١﴾
 قوله تعالى : (وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذْ اتَّقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا) هذا في اليقظة . ويجوز حمل
 الأولى على اليقظة أيضا إما قلت : المنام موضع النوم ، وهو العين ؛ فتكون الأولى على م . ذا
 خاصة بالنبي صلى الله عليه وسلم ، وهذه للجميع . قال ابن مسعود : قلت لإنسان كان يجاني

يوم بدر : أترام سيعين؟ فقال : هم نحو المائة . فأسرنا رجلا فقلنا : كم كنتم؟ فقال : كنا ألفا . (وَيَقْلِكُكُمْ فِي أُعْيُنِهِمْ) كان هذا في ابتداء القتال حتى قال أبو جهل في ذلك اليوم : إنهم أكلة جزور، خذوهم أخذاً وأربطوهم بالحبال . فلما أخذوا في القتال عظم المسلمون في أعينهم فكثروا، كما قال : « يَرَوْنَهُمْ يَنْتَلِيهِمْ رَأَى الْعَيْنِ » حسب ما تقدم في « آل عمران » بيانه . (يَقْضَى اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَعْمُولًا) تكرر هذا، لأن المعنى في الأول من اللقاء، وفي الثاني من قتل المشركين وإعزاز الدين ، وهو إتمام النعمة على المسلمين . (وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ) أى مصيرها ومرتدما إليه .

قوله تعالى : يَأْتِيَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٥٥﴾

قوله تعالى : (يَأْتِيَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً) أى جماعة (فَاثْبُتُوا) أمر بالثبات عند قتال الكفار، كما في الآية قبلها النهى عن الفرار عنهم، فالتى الأمر والنهى على سواء . وهذا تأكيد على الوقوف للمدح والتجلد له .

قوله تعالى : (وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) للعلماء في هذا الذكر ثلاثة أقوال : الأول — اذكروا الله عند جزع قلوبكم، فإن ذكره يُعين على الثبات في الشدائد . الثانى — اثبتوا قلوبكم، واذكروه بالستكم، فإن القلب لا يسكن عند اللقاء ويضطرب اللسان، فأمر بالثبات حتى يثبت القلب على البقين، ويثبت اللسان على الذكر، ويقول ما قاله أصحاب طالوت : « رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدًا صَبْرًا وَثَبَّتْ أَقْدَامُنَا وَأَنْصَرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ » . وهذه الحالة لا تكون إلا عن قوة المعرفة، وأقدام البصيرة، وهى الشجاعة المحمودة في الناس . الثالث — اذكروا ما عندكم من وعد الله لكم في اتباعه أنفسكم ومئاته لكم .

(١) أى هم قليل، يشبههم لم تامة .

(٢) رابع ج ٤ ص ٢٥ طبة أولى أو ثانية .

(٣) آية ٢٥٠ سورة البقرة .

قلت : والأظهر أنه ذكرُ اللسان الموافق للبيان . قال محمد بن كعب القرظي : لو رُخص لأحد في ترك الذكر لُخص لركباً ؛ يقول الله عز وجل : « أَلَا نُنَكِّمُ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمَزًا وَآذَنًا كُرْبًا كَثِيرًا » . ولُخص للرجل يكون في الحرب ؛ يقول الله عز وجل : « إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاغْلِبُوا وَآذَنُوا كُرْبًا كَثِيرًا » . وقال قتادة : افترض الله جل وعز ذكره على عباده ، أشغل ما يكونون عند الضراب بالسيف . وحكم هذا الذكر أن يكون خفياً ؛ لأن رفع الصوت في مواطن القتال ردى . مكروه إذا كان الذكر واحداً . أما إذا كان من الجميع عند الحملة لحسن ؛ لأنه يثبت في أعضاء العدو . وروى أبو داود عن قيس بن عباد قال : كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يكرهون الصوت عند القتال . وروى أبو بردة عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم مثل ذلك . وقال ابن عباس : يكره التمسُّع عند القتال . قال ابن عطية : وبهذا والله أعلم تبحر المرابطون بطرحه عند القتال على صياتهم به .

قوله تعالى : **وَاطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ** (١)

قوله تعالى : **(وَاطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا)** هذا استمرار على الوصية لهم ؛ والأخذ على أيديهم في اختلافهم في أمر يدر وتنازعهم . **(تَفْشَلُوا)** نعس بالفاء في جواب النهي . ولا يُجْزئ سبويه حذف الفاء والجزم . وأجازه الكسائي . وقرئ « تَفْشَلُوا » بكسر الشين . وهو غير معروف . **(وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ)** أي قوتكم ونصركم ؛ كما تقول : الريح فتلان ، إذا كان غالباً في الأمر . قال الشاعر :

إذا هبت رياحك فاغتنمها • فإن لكل خافقة سكوت^(١)

(١) آية ٤١ - سورة آل عمران . (٢) اضطربت الأصول في هذه الجملة ؛ ففى بعضها : « ... إذا كان العاطب واحداً ... » وفى البعض الآخر : « ... إذا كان العاطب أماً ... » . (٣) فى الأصول : « استن . » والتصويب : « تفسر ابن عطية . والظاهر أنه يريد أن المرابطين آثروا الترك بلحق التمسُّع بما ورد عن ابن عباس على الصياغة به . (٤) القافية مرفوعة ، واسم « إن » هاءنا ضمير الشأن . وقوله « لكل خافقة سكوت » خبرها . ومن هذه الآية :

ولا تعمل عن الاحسان فيها • فأتدري السكون متى يكون

وقال قتادة وابن زيد : إنه لم يكن نصر قط إلا يريح تهب فتضرب في وجوه الكفار .
ومنه قوله عليه السلام : « نُصِرْتُ بالصَّبَا وأهلك ما بالديور »^(١) . قال الحكم : « وتذهب
ويحك » . بنى الصَّبَا ؛ إذ بها نصر محمد عليه الصلاة والسلام وأنته . وقال مجاهد : وزهبت
ريح أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم حين نازعوه يوم أُحد .

قوله تعالى : (وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ) أمر بالصبر ، وهو محمود في كل المواطن
وخاصة موطن الحرب ؛ كما قال : « إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَأَثَبْتُمَا »

قوله تعالى : وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَحَرْنَا مِنْ دِيَارِهِمْ بِطَرَا وَرِشَاءِ
النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٧﴾

بنى أبا جهل وأصحابه الخارجين يوم بدر لنصرة الير . خرجوا بالقيان والمغنيات
والمعارف ؛ فلما وردوا الجحفة بثت خفأ الكاذب - وكان صديقا لأبي جهل - بهدايا
إليه مع ابن له ، وقال : إن شئت أمددتك بالرجال ، وإن شئت أمددتك بنفسى فمع من
خف من قومي . فقال أبو جهل : إن كنا قاتل الله كما يزعم محمد ، فوالله ما لنا بالله من طاقة .
وإن كنا قاتل الناس فوالله إن بنا على الناس لقوة ، والله لا نرجع عن قتال محمد حتى نزيد
بدرا فنشرب فيها الخمر ، ونزف علينا القيان ؛ فإن بدوا موسم من مواسم العرب ؛ وسوق
من أسواقهم ، حتى نسمع العرب بخرجاتنا قهنا بنا أنرا لأبد . فوددوا بدرا ، وجرى ما جرى من
هلاكهم . والبطرفى اللغة : التقوية بنعم الله عز وجل وما ألبسه من البافية على المعاصي .
وهو مصدر في موضع الحال . أى خرجوا بطرفين مرادين صادين . وصدّمهم إضلال الناس .

(١) الصبا (بالفتح) : الريح الشرقية . والديور : الريح الغربية .

(٢) القيان : جمع قية ، وهى الأمة منية كانت أو غير منية .

قوله تعالى : وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكَ
 الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكَ فَلَمَّا تَرَ اتَّافِلَتَيْنِ نَكَصَ عَلَى
 عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ
 شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤٨﴾

روى أن الشيطان قتل لم يومئذ في صورة سُرَاقَة بن مالك بن جُشَم ، وهو من بني بكر بن
 كنانة ، وكانت قريش تخاف من بني بكر أن يأتوهم من ورائهم ؛ لأنهم قتلوا رجلا منهم . فلما
 قتل لم قال ما أخبر الله به عنه . وقال الضحاك : جاءهم إبليس يوم بدر برايته وجنوده ،
 وإلى في قلوبهم أنهم لن يهزموا وهم يقاتلون على دين آبائهم . وعن ابن عباس قال : أمدَّ الله
 نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بألف من الملائكة ؛ فكان جبريل عليه السلام في خمسة
 من الملائكة مُجَنَّبَةً ، وميكائيل في خمسة من الملائكة مُجَنَّبَةً . وجاء إبليس في جند من الشياطين
 ومعه راية في صورة رجال من بني مُذَلِّج ، والشيطان في صورة سُرَاقَة بن مالك بن جُشَم . فقال
 الشيطان للمشركين : لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم ؛ فلما اصططف القوم قال
 أبو جهل : اللَّهُمَّ أَوْلَانَا بِالْحَقِّ فَاَنْصُرْهُ . ورفع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده فقال :
 ” يَا رَبِّ إِنَّكَ إِنْ تَهَلَكَ هَذِهِ الْمَصَابَةُ قُلْتُ تُعْبَدُ فِي الْأَرْضِ أَبَدًا “ . فقال جبريل : ” خذ
 قبضة من التراب “ فأخذ قبضة من التراب فرمى بها وجوههم ؛ فلما من المشركين من أحد
 إلا أصاب عينيه ومنخره وفه . فولَّوا مدبرين ، وأقبل جبريل عليه السلام إلى إبليس فلما
 رآه كانت يده في يد رجل من المشركين اتزع إبليس يده ثم ولَّى مدبرا وشيئا ؛ فقال له الرجل :
 يا سُرَاقَة ، ألم تزعم أنك لنا جارٌ ؛ قاله : إني برىء منكم إني أرى ما لا ترون ذكره البيهقي وغيره .
 وفي موطأ مالك عن إبراهيم بن أبي عتبة عن طلحة بن حبيدة بن كرز أن رسول الله صلى الله

(١) حجة الجيش : هي التي تكون في الحجة والميعة ، وهما حجتان والثرون مكسورة . وليل : هي الكثرة الزائدة
 ناعدا إحدى تاسعاً العشر .

عليه وسلم قال : " ما رأى الشيطان نفسه يوما هو فيه أصفر ولا أحقر ولا أدمر ولا أغبر
من يوم عرفة وما ذلك إلا لما رأى من قتل الرحمة وتجاوز الله عن الذنوب العظام
إلا ما رأى يوم بدر " . قيل : وما رأى يوم بدر يا رسول الله ؟ قال : " أما إنه رأى جبريل
يزج الملائكة " . ومعنى تكس : رجع بلفة سليم ؛ عن مؤرج وغيره . وقال الشاعر :
ليس التكويس على الأدبار مكربة • إن المكارم لإقدام على الأسل^(١)

وقال آخر :

وما ينفع المستأخرين تكوئهم • ولا ضرر أهل السابقات التقدم

وليس هاهنا قهقري بل هو فرار ؛ كما قال : " إذا سمع الأذان أدبروله ضراط " . (إني
أخاف الله) قيل : خاف إبليس أن يكون يوم بدر اليوم الذي أنظر إليه . وقيل : كذب
إبليس في قوله « إني أخاف الله » ولكن علم أنه لا قوة له . ويجمع جار على أجوار ويجيران ،
وفي الفيل جبة .

قوله تعالى : إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ
غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٥﴾

قيل : المنافقون : الذين أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر . والذين في قلوبهم مرض :
الساكنون ، وهم دون المنافقين ؛ لأنهم حديثو عهد بالإسلام ، وفيهم بعض ضعف نية . قالوا
عند الخروج إلى القتال وعند التفاء الصفيين : غرَّ هؤلاء دينهم . وقيل هما واحد ؛ وهو
أولى . الآخر إلى قوله عز وجل : « الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ » ثم قال « وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ
بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ » وهما لواحد .

(١) يزج الملائكة : أي رتبهم ويؤتيهم ويصفهم هرب :

(٢) هو مؤرج بن عمرو الدوسي يكنى أبا نيد ، مات سنة ١٩٥ هـ . (٣) الأسل : الزناح والبلل .

(٤) آية ٣ سورة البقرة .

قوله تعالى : وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ يَتَوَقَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةَ يَصْرَبُونَ
وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَرُوهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٥٥﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيكَ
وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٥٦﴾

قيل : أراد من يني ولم يقتل يوم بدر . وقيل : هي فيمن قتل بيد . وجواب « لو »
محذوف ، تقديره : رأيت أمرا عظيما . (يَصْرَبُونَ) في موضع الحال . (وَجُوهَهُمْ
وَأَدْبَرُوهُمْ) أي استأههم ، كنى عنها بالأدبار ، قاله مجاهد وسعيد بن جبیر . الحسن :
ظهورهم ، وقال : إن رجلا قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله ، إنى رأيت بظهر
أبي جهل مثل الشراك ؟ قال : « ذلك ضرب الملائكة » . وقيل : هذا الضرب يكون عند
الموت . وقد يكون يوم القيامة حين يصيرون بهم إلى النار . (وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ)
قال الفراء : المني ويقولون ذوقوا ، لحذف . وقال الحسن : هذا يوم القيامة ، تقول لهم خزنة
جهنم : ذوقوا عذاب الحريق . وروى أن في بعض التفسير أنه كان مع الملائكة مقامع من
حديد ، كما ضربوا التهب النار في الجراحات ، فذلك قوله : « وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ » .
والذوق يكون محسوسا ومعنى . وقد يوضع موضع الابتلاء والاختبار ، تقول : اركب هذا
الفرس فذقه . وأنظر فلانا فذق ما عنده . قال الشنخ يصف فرسا :

فذاق فاعطته من اللبن جانبيا . كفى ولها أن يرق السهم حاجرا

وأصله من الذوق بالفم . (ذَلِكَ) في موضع رفع ، أي الأمر ذلك . أو « ذلك » جزاؤكم .
(يَا قَدَّمْت أَيْدِيكَ) أي اكتسبتم من الآثام . (وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ) إذ قد أوضع
السبل وبعث الرسل ، فلم خالفتم ؟ . « وأن » في موضع خفض عطف على « ما » وإن
شئت نصبت ، بمعنى وبأن ، وحذفت الباء . أو بمعنى : وذلك إن الله . ويموز أن يَرَىٰ
في موضع رفع نسقا على ذلك .

قوله تعالى : كَذَّبَ آلُ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ
 اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٥٧﴾

الدأب العادة . وقد تقدم في «آل عمران» . أى العادة في تعذيبهم عند فتن الأرواح
 وفي القبور كمادة آل فرعون . وقيل : المعنى جُوزى هؤلاء بالنفل والسب كما جُوزى آل
 فرعون بالفرق . أى دأبهم كدأب آل فرعون .

قوله تعالى : ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكْ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ
 حَتَّى يَغْيِرُوا مَا يَأْنِفُسِهِمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٨﴾

تعليق . أى هذا العقاب ؛ لأنهم غيروا وبدلوا ، ونعمة الله على قريش المنصب والسنة
 والأمن والعافية . «أولم يروا أننا جعلنا حرماً آمناً ونَحْفَظُ النَّاسَ مِنْ حَوْلِهِمْ» الآية .
 وقال السدي : نعمة الله عليهم بعد صلى الله عليه وسلم فكفروا به ، فنزل إلى المدينة وحل
 بالمشركين العقاب .

قوله تعالى : كَذَّبَ آلُ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ
 رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٥٩﴾

ليس هذا بتكرار ؛ لأن الأول للعادة في التكذيب ، والثاني للعادة في التغير ، وبإى
 الآية بين .

قوله تعالى : إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ
 لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦٠﴾ الَّذِينَ عَاهَدَتْ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْفُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ
 وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٦١﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ أي من يَدب على وجه الأرض في علم الله وحكمه ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يَتُوبُونَ ﴾ نظير «الضَّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْمَلُونَ» . ثم وصفهم فقال : ﴿ الَّذِينَ عَاهَدَتْ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْصُوتُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَسْرَةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴾ أي لا يخافون الانتقام . « ومن » في قوله « منهم » للتبعض ؛ لأن العهد إنما كان يجري مع أشراطهم ثم ينقضونه . والمعنى بهم قُرَيْظَةُ والنضير ؛ في قول مجاهد وغيره . نقضوا العهد فأعانوا مشرك مكة بالسلاح ، ثم اعتذروا فقالوا : نسينا ؛ فعاهدكم عليه السلام ثانية فنقضوا يوم الخندق .

قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا تَشَفَّعْتَهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِدَ بِرَبِّهِمْ مَنْ خَلَفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَدَّكُرُونَ ﴾

شرط وجوابه . ودخلت النون توكيدا لما دخلت ما ؛ هذا قول البصريين . وقال الكوفيون : تدخل النون الثقيلة والخفيفة مع « إنا » في المجازاة للفرق بين المجازاة والتخير . ومعنى « تشفعتم » تأسرهم وتجعلهم في نقاب ، أو نلقاهم بحال ضعف ، بقدر عليهم زبنا وتعلمهم . وهذا لازم من اللفظ ؛ لقوله « في الحرب » . وقال بعض الناس : تصادفتهم وتلقاهم . يقال : تَفَتَّه أَنْفَعَهُ تَفًّا ، أي وجده . وفلان يَتَفَّ لَيْفًا أي سريع الوجود لما يحاوله ويطلبه . وَتَفَّ لَيْفًا ، وأمرأة تَفَّافٌ . والقول الأول أول ؛ لارتباطه بالآية كما بينا . والمصادف قد يلب فيمكن التشريد به ، وقد لا يضب . والتفاف في اللغة : ما يُسَدُّ به الفتاة ونحوها . ومنه قول النابغة :

ندعو قَمِينًا وقد عَضَّ الحديدي بها . عَضَّ التَّفَافُ عَلَى ضَمِّ الْأَنْبَابِ

﴿ فَشَرِدَ بِرَبِّهِمْ مَنْ خَلَفَهُمْ ﴾ قال سعيد بن جبير : المعنى أئذ بهم من خلفهم . قال أبو عبيد : هي لغة قريش ، شردهم سمع بهم . وقال الضحاك : تَكَلَّ بهم . الزجاج : إفعل بهم فعلا

(١) آية ٢٢ من هذه السورة . (٢) القم (بالفتح) : قصر في الألف فاحش . وقميين : حتى مشق . وهما تبيان : قمين في بني أسد وقمين في قبيل عيلان . والأنابيب : جمع أنبوبة ، وهي كعب القصبة والرع .

من القتل تفرق به من خلفهم . والتشريد في اللغة : التبديد والتفريق ، يقال : شرذت بني فلان ففترتهم عن مواضعهم وطردتهم عنها حتى فارقوها . وكذلك الواحد ، تقول : تركته شريداً عن وطنه وأهله . قال الشاعر من هذيل :

أَطَوَّفَ فِي الْأَبَاطِحِ كُلِّ يَوْمٍ • مَخَافَةً أَنْ يَشْرِدَ بِي حَكِيمٌ

ومنه شرد البعير والدابة إذا فارق صاحبه . و « مَنْ » بمعنى الذي ، قاله الكسائي . ودوى عن ابن مسعود « فشرذ » بالذال المعجمة ، وهما لغتان . وقال قُطْرُبٌ : التشرذ (بالذال المعجمة) التكتيل . وبالذال المهملة التفريق ؛ حكاه النخعي . وقال المهدوي : الذال لا وجه لها ، إلا أن تكون بدلا من الدال المهملة لتقاربهما ، ولا يعرف في اللغة « فشرذ » . وقرئ « مِنْ » خلفهم « بكسر الميم والفاء » (لَمْ يَهْمُ يَذْكُرُونَ) أي يتذكرون بوعدهم لإمام . وقيل : هذا يرجع إل من خلفهم ، مَنْ عمل بمثل عملهم .

قوله تعالى : وَإِنَّمَا تَخَافَنَ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةٌ فَانْزِلْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ
إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِبِينَ ﴿٥٨﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى - قوله تعالى : (وَإِنَّمَا تَخَافَنَ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةٌ) أي غشاً ونقضاً للمهد . (فَانْزِلْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ) وهذه الآية نزلت في بني قريظة وبني النضير . وحكاها الطبري عن مجاهده قال ابن عطية : والذي يظهر من لفاظ القرآن أن أمر بني قريظة انتضى عند قوله « ففترد بهم مِنْ خَلْفِهِمْ » ثم ابتداء تبارك وتعالى في هذه الآية بأمره فيها يصنمه في المستقبل مع من يخاف منه خيانة ، فترتب فيهم هذه الآية . [وبنو قريظة لم يكونوا في حد من تخاف خيانتهم] ، وإنما كانت خيانتهم ظاهرة [مشهورة] .

الثانية - قال ابن العربي : فإن قيل كيف يجوز نقض المهد مع خوف الخيانة ، والخوف طرد لا يقين معه ، فكيف يستعمل يقين المهد مع ظن الخيانة . فالجواب من وجهين : أحدهما - أن الخوف قد يأتي بمعنى اليقين ، كما قد يأتي الرجاء بمعنى العلم ، قال الله تعالى :

(١) الْكَلِمَةُ سَمْعُ ابْنِ مَطِيئَةَ .

« مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا » . الثاني - إذا ظهرت آثار الحياة وثبتت دلائلها، وجب نبذ المهد لئلا يقع التماهى عليه في الملكة، وبإجاز إسقاط اليقين هنا ضرورة . وأما إذا علم اليقين فيستغنى عن نبذ المهد إليهم، وقد سار النبي صلى الله عليه وسلم إلى أهل مكة عام الفتح؛ لما اشتهر منهم نقض المهد من غير أن ينبذ إليهم عهدهم . والنبذ : الرمي والرفض . وقال الأزهري : معناه إذا عاهدت قوما فعلمت منهم النقض بالمهد فلا توقع بهم سابقا إلى النقض حتى تلقى إليهم أنك قد نقضت العهد والمواعدة؛ فيكونوا في علم النقض مستويين، ثم أوقع بهم . قال النحاس : هذا من معجز ما جاء في القرآن مما لا يوجد في الكلام مثله على اختصاره وكثرة معانيه . والمعنى : وإما تخافق من قوم بينك وبينهم عهدٌ خيانة فأنبذ إليهم العهد، أى قل لهم قد نبذت إليكم عهدكم، وأنا مقاتلكم؛ ليعلموا ذلك فيكونوا معكم في العلم سواء، ولا تتألمهم وبينك وبينهم عهد وهم يتقون بك؛ فيكون ذلك خيانة وغدرا . ثم بين هذا بقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِتِينَ ﴾ .

قلت : ما ذكره الأزهري والنحاس من إنباذ العهد مع العلم بنقضه يردّه فعل النبي صلى الله عليه وسلم في فتح مكة؛ فانهم لما تقضوا لم يوجه إليهم بل قال : « اللَّهُمَّ أقطع خبرنا عنهم » وغزاهم . وهو أيضا معنى الآية؛ لأن في قطع العهد منهم ونكثه مع العلم به حصول نقض عهدهم والاستواء معهم . فأما مع غير العلم بنقض العهد منهم فلا يحل ولا يجوز . روى الترمذي وأبو داود عن سلم بن عاصم قال : كان بين معاوية والروم عهد وكان يسير نحو بلادهم ليقرب حتى إذا انقضى العهد غزاهم؛ بغناه رجل على فرس أو يردون وهو يقول : الله أكبر، الله أكبر، [وفاء لا غدرا] فنظروا فإذا هو عمرو بن عنترة، فأرسل إليه معاوية فسأله فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من كان بينه وبين قوم عهد فلا يستد عقدة ولا يخلها حتى ينقض أمدها أو ينبذ إليهم على سواء » فرجع معاوية بالناس . قال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح . والسواء : المساواة والاعتدال .

وقال الرازي :

فاضرب وجوه القدر الأعداء • حتى يجيئوك إلى السواء

وقال الكسائي : السواء العدل . وقد يكون بمعنى الوسط ومنه قوله تعالى : « في سَوَاءِ الْجَحِيمِ » . ومنه قول حسان :

يا وَجَّحَ أصحاب النبي ورهطه • بعند الخبيث في سواء الملعن

القراء : ويقال « قَانِذَ اليهم على سواء » جهراً لا سراً .

الثالثة - روى مسلم عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
 " لكل غادر لواء يوم القيامة يُرْفَعُ له بقدر غدره ، ألا ولا غادر أعظم غدرًا من أمير عاتمة " .
 قال علماؤنا رحمة الله عليهم : إنما كان الغدر في حق الإمام أعظم وأخش منه في غيره لما
 في ذلك من المفسدة ، فانهم إذا غدروا وعلم ذلك منهم ولم يندؤوا بالعهدي لم يأمنهم العدو على
 عهد ولا صلح ، فقتل شوكته وبغلم ضرره ، ويكون ذلك منقراً عن الدخول في الدين ،
 وموجباً لظم أئمة المسلمين . فاما إذا لم يكن للعدو عهد فينبغي أن يتحيل عليه بكل حيلة ،
 وتدار عليه كل خديعة . وعليه يحمل قوله صلى الله عليه وسلم : " الحزب خدعة " . وقد
 اختلف العلماء هل يجهاد مع الإمام الغادر ؟ على قولين . فذهب أكثرهم أنه لا يقاوم معه ،
 بخلاف الخائن والفاسق . وذهب بعضهم إلى الجهاد معه . والقولان في مذهبه .

قوله تعالى : وَلَا يُحْسِبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَا يُحْسِبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا ﴾ أي من أفلت من وقعة بدر سبق
 إلى الحياة . ثم استأنف فقال : ﴿ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴾ أي في الدنيا حتى يظفرك الله بهم .
 وقيل : يعني في الآخرة . وهو قول الحسن . وقرأ ابن عامر وحفص وحزرة « يحسبن »
 بالياء . والباقون بالناء ، على أن يكون في الفعل ضمير الفاعل . و ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ مفعول
 أزل . و ﴿ سَبَقُوا ﴾ مفعول ثان . وأما قراءة الياء فزعم جماعة من التحويين منهم أبو ستم

أن هذا لحن لا تحمل القراءة به ، ولا تسع لمن عَرَفَ الإعراب أو عُرِفَ . قال أبو حاتم :
لأنه لم يأت لـ « يحسبن » بمفعول وهو يحتاج إلى مفعولين . قال النحاس : وهذا تحامل
شديد ، والقراءة تجوز ويكون المعنى : ولا يحسبن من خلفهم الذين كفروا سبقوا ؛ فيكون
الضمير يعود على ما تقدم ، إلا أن القراءة بالنساء آيين . المهدوي : ومن قرأ بالياء احتمل
أن يكون في الفعل ضمير النبي صلى الله عليه وسلم ، ويكون « الذين كفروا سبقوا » المفعولين .
ويجوز أن يكون « الذين كفروا » فاعلا ، والمفعول الأول محذوف ؛ المعنى : ولا يحسبن
الذين كفروا أنفسهم سبقوا . مكي : ويجوز أن يضم مع سبقوا أن ؛ فيسد مسد المفعولين
والتقدير : ولا يحسبن الذين كفروا أن سبقوا ؛ فهو مثل « أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يَتْرَكُوا^(١) »
في سد أن مسد المفعولين . وقرأ ابن عامر « أنهم لا يعجزون » بفتح الهزلة . واستبعد
هذه القراءة أبو حاتم وأبو عبيد . قال أبو عبيد : وإنما يجوز على أن يكون المعنى : ولا تحسبن
الذين كفروا أنهم لا يعجزون . قال النحاس : الذي ذكره أبو عبيد لا يجوز عند النحويين
البصريين ، [لا يجوز] حسب زيدا أنه خارج ، إلا بكسر الألف ، وإنما لم يميز لأنه
في موضع المبتدأ ؛ كما تقول : حسب زيدا [أبوه خارج ، ولو فتحت لصار المعنى حسب
زيداً] خروجاً . وهذا محال ، وفيه أيضاً من البعد أنه لا وجه لما قاله يصح به معنى ؛
إلا أن يحمل « لا » زائدة ، ولا وجه لتوجيه حرف في كتاب الله عز وجل إلى التطويل بغير
حجة يجب التسليم لها . والقراءة جيدة على أن يكون المعنى : لأنهم لا يعجزون . مكي : فالمعنى
لا يحسبن الكفار أنفسهم فاتوا لأنهم لا يعجزون ، أي لا يفوتون . فـ « بات » في موضع
نصب بحذف اللام ، أو في موضع خفض على إعمال اللام لكثرة حذفها مع « أن » ، وهو
يُروى عن الخليل والكسائي . وقرأ الباقر بكسر « إن » على الاستئناف والقطع عما قبله ،
وهو الاختيار ؛ لما فيه من معنى التأكيد ، ولأن الجماعة عليه . وروى عن ابن محيصة أنه
قرأ « لا يعجزون » بالنشديد وكسر النون . النحاس : وهذا خطأ من وجهين : أحدهما —

(١) أول سورة المائدة .

(٢) زيادة عن إعراب القرآن للنحاس ينصها السابق .

أن معنى عجزه ضعفه وشدة أمره . والآخر - أنه كان يجب أن يكون بنونين . ومعنى أعجزه سبقه وفاته حتى لم يقدر عليه .

قوله تعالى : **وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَغْلِبُونَ** ﴿٦٩﴾

فيه ست مسائل :

الأولى - قوله تعالى : **(وَأَعِدُّوا لَهُمْ)** أمر الله سبحانه المؤمنين بإعداد القوة للاعداء بعد أن أكد تقدمه القوى . فإن الله سبحانه لو شاء لهزمهم بالكلام والتقل في وجوههم وبحفنة من تراب ، كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولكنه أراد أن يتلي بعض الناس ببعض بعامه السابق وقضائه الفاض . ولما تعداه لصديقك من خير أو لعدوك من شر فهو داخل في عذتك . قال ابن عباس : القوة هاهنا السلاح والقيس . وفي صحيح مسلم عن عقبة بن عامر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على المنبر يقول : **" وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ إِلَّا إِنْ الْقُوَّةَ الرَّمِيَّ إِلَّا إِنْ الْقُوَّةَ الرَّمِيَّ "** . وهذا نص رواه عن عقبة أبو علي ثمانية بن شفي الحمداي . وليس له في الصحيح غيره . وحديث آخر في الرمي عن عقبة أيضا قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : **" مفتح عليكم أرضون ويكفيكم الله فلا يعجزه أحدكم أن يلهو بأسهمه "** . وقال صلى الله عليه وسلم : **" كُلُّ شَيْءٍ يَلْهُو بِهِ الرَّجُلُ بَاطِلٌ إِلَّا رَمِيَهُ بِقَوْسِهِ وَتَادِيَهُ فَرَسَهُ وَمَلَاحِيَتَهُ أَهْلَهُ فَانَهُ مِنَ الْحَقِّ "** . ومعنى هذا والله أعلم : أن كل ما يلهي به الرجل مما لا يهيئه في العاجل ولا في الآجل فائدة فهو باطل ، والإعراض عنه أولى . وهذه الأمور الثلاثة فانه وإن كان يفعلها على أنه يلهي بها ويشتط ، فإنها حق يتصلها بما قد يفيد . فإن الرمي بالقوس وتاديب الفرس جميعا من تعاون القتال . وملاعبة

الأهل قد تؤدي الى ما يكون عنه ولد يوحد الله ويمده؛ فلماذا كانت هذه الثلاثة من الحق .
وفي سنن أبي داود والترمذي والنسائي عن عقبه بن عامر عن النبي صلى الله عليه وسلم :
" إن الله يدخل ثلاثة نفر الجنة بسهم واحد صانه يحتسب في صنته الخير والراي ومثله " .
وفضل الزمى عظيم ومنفته عظيمة للمسلمين ، ونكايته شديدة على الكافرين . قال صلى الله عليه وسلم :
" يا بني إسماعيل أرؤموا فإن أباكم كان راميا " . وتعلم الفروسية وأستعمل الأسلحة
فرض كفاية . وقد يتعين .

الثانية - قوله تعالى : (وَمِنْ رِبَاطِ الْحَيْلِ) وقرأ الحسن وعمر بن دينار وأبو حيوة
« وَمِنْ رُبَطِ الْحَيْلِ » بضم الراء والياء ، جمع رباط ، ككتاب وكتب . قال أبو حاتم عن ابن
زيد : الرباط من الحيل الخمس فافوقها ، وجماعته رُبط . وهي التي ترتبط ، يقال منه : ربط
يربط ربطا ، وارتبط يرتبط ارتباطا . ومربط الخيل ومرابطها وهي ارتباطها بإزاء العدو .
قال الشاعر :

امر الإله برابطها لعدوه • في الحرب إن الله خير موثق

وقال مكحول بن عبد الله :

تولم على ربط الحيات وحبسها • وقد أوصى بها الله النبي محمدا

ورباط الحيل فضل عظيم وميزة شريفة . وكان لعمدة البارقي سبعون فرسا معدة للجهاد .
والمستحب منها الإناث ؛ قاله عكرمة وجماعة . وهو صحيح ؛ فان الأثني بطنها أكثر وظهورها
عز . وفرس جبريل كان أثني . وروى الأئمة عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه
وسلم قال : " الحيل ثلاثة لرجل أحر ولرجل ستر ولرجل وزر " الحديث . ولم يخص ذكرا
من أثني . وأجودها أعظمها أجرا وأكثرها نفعا . وقد سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم :
أي الرقاب أفضل ؟ فقال : " أغلاها ثمنها وأغنىها عند أهلها " . وروى النسائي عن
أبي وهب الجشعي - وكانت له حجة - قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
نسّموا بأسماء الأنبياء وأحب الأسماء الى الله عز وجل عبد الله وعبد الرحمن وأرتبطوا بالخيل

وَأَسْجُوا بِرُؤُوسِهِمْ وَأَكْفَأُوا وَقَدَّوْهُمَا وَلَا تَقْلُدُوهُمَا الْاَوْتَارَ وَعَلَيْكُمْ بِكُلِّ كَيْتٍ أَغْرَ حُجْبَلٍ
 أَوْ اسْمَرِ أَغْرَ حُجْبَلٍ أَوْ اَدْعَمِ أَغْرَ حُجْبَلٍ . « روى الترمذى عن ابي قتادة أن النبي صلى
 الله عليه وسلم قال : « خير الخيل الأَدْعَمُ الْأَفْرَحُ [ثم الأفرح المحبيل ^(١)] طَلَّقَ الْيَمِينُ ^(٢) فَإِنْ
 لَمْ يَكُنْ أَدْعَمَ فَكَبَّيْتُ عَلَى هَذِهِ الشَّيْءِ » . ورواه الداريمى عن ابي قتادة أيضاً ، أن رجلاً قال :
 يا رسول الله ، إني أريد أن أشتري فرساً ، فأينما اشتري ؟ قال : « اشتري أَدْعَمَ أَرْثَمَ حُجْبَلًا طَلَّقَ
 الْيَدَ الْيُمْنَى أَوْ مِنَ الْكَبَيْتِ عَلَى هَذِهِ الشَّيْءِ نَعْمَ وَتَسْلَمَ » . وكان صلى الله عليه وسلم يكره الشكَّالَ
 مِنَ الْخَيْلِ . والشكَّالُ : أن يكون الفرس في رجله اليمنى بياض وفي يده اليسرى ، أو في يده
 اليمنى ورجله اليسرى . خرج به مسلم عن ابي هريرة رضى الله عنه . ويذكر أن الفرس الذى
 قُتِلَ عَلَيْهِ الْحُسَيْنُ بْنُ عَلِيٍّ رضى الله عنهما كان أشكلاً .

الثالثة - فإن قيل : إن قوله « وَأَعْدُوا لِمَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ » كان يكتفى ، فلم
 خص الزمى والخيل بالذكور ؟ قيل له : إن الخيل لما كانت أصل الحروب وأوزارها ^(٣) التى
 عُقِدَ الخِيرُ فِي نَوَاصِيهَا ، وهى أقوى القوة وأشدُّ المنة وحصون الفرسان ، وبها يمال
 فِي الْمِيدَانِ ، خصها بالذكر تشريفاً ، وأقسم ببنائها تكريماً . فقال : « وَالْمَادِيَاتِ ضَبَبًا »
 الآية . ولما كانت السهام من أنجع ما يُتَعَاطَى فِي الْحُرُوبِ وَالنَّكَايَةِ فِي الْمَدَقِّ وَأَقْرَبُهَا تَنَاولًا
 لِلْأَرْوَاحِ ، خصها رسول الله صلى الله عليه وسلم بالذكر لها والتنبيه عليها . ونظير هذا في التنزيل :
 « وَجِبْرِيلَ وَيِسْحَاقَ » ^(٤) ومثله كثير .

الرابعة - وقد استدلل بعض علمائنا بهذه الآية على جواز وقف الخيل والسلاح ،
 واتخاذ الخيل والزمان لها عِدَّةً للأعداء . وقد اختلف العلماء في جواز وقف الحيوان
 (١) الأوتار : جمع وتر (بالكسر) وهو الظم . والمعنى : لا تطيلوا عليها الأوتار والرسول الذى وترتم بها في الجاهلية .
 وقيل : جمع وتر القوس ، فانهم كانوا يعلقونها بأحبال الخواب لغض العين . وهو من شعار الجاهلية ، فذكر ذلك .
 (٢) كَبَّيْتُ (بالضم) : هو الذى لونه بين السواد والحمرة ، يسمى فيه الذكر والمؤنث . والأفرح : هو الذى
 في وجهه بياض . والمحبيل : هو الذى في قوائمه بياض .
 (٣) الأَرثَمُ : الذى أقره أبيض وشفتاه العليا . (٤) الأفرح : هو ما كان في وجهه فرجة ، وهى بياض
 يسرى في وجهه ففرس دون الفرزة . (٥) أى مطلقها ليس فيها تحبيل . (٦) أوزار الحرب : أفعالها
 من آلة الحرب وسلاح وغيره . (٧) آية ٩٨ سورة البقرة .

كان خيلس والإبل على قولين : المنع ، وبه قال أبو حنيفة . والصحة ، وبه قال الشافعي .
رسمي الله عنه . وهو أجمع ؛ لهذه الآية ، ولحديث ابن عمر في الفرس الذي حمل عليه
في سبيل الله . وقوله عليه السلام في حق خالد : ” وأما خالد فإنكم تظلمون خالدا فإنه قد
احتسب أدراعه وأعادته في سبيل الله “ الحديث . وما روى أن امرأة جمعت بعيرا في سبيل
الله ، فأراد زوجها الحج ، فسألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ” ادفعيه إليه ليحج عليه
فإن الحج من سبيل الله “ . ولأنه مال يُنفع به في وجه قرية ؛ بخلاف أن يوقف كالأربع . وقد
ذكر السهيلي في هذه الآية تسمية خيل النبي صلى الله عليه وسلم ، وآلة حربه . من أرادها
وجدتها في كتاب الأعلام .^(١)

الخامسة — قوله تعالى : (تَرْجُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ) يعني تُخَيِّفُونَ به عَدُوَّكُمْ من
اليهود وفرس وكفار العرب . (وَأَخْرَيْنَ مِنْ دُونِهِمْ) يعني فارس والروم ؛ قاله السدي .
وقيل : الجحش . وهو اختيار الطبري . وقيل : المراد بذلك كل من لا تُعرف عداوته . قال
السهيلي : قيل هم قريظة . وقيل : هم من الجحش . وقيل غير ذلك . ولا ينبغي أن يقال
فيهم شيء ؛ لأن الله سبحانه قال : « وَأَخْرَيْنَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ » ؛ فكيف
يَدْعَى أحد علما بهم ، إلا أن يصح حديث جاء في ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
وهو قوله في هذه الآية : ” هم الجحش “ . ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” إن
الشیطان لا يجلب أحدا في دار فيها فرس عتيق “ وإنما سُمي عتيقا لأنه قد تخلص من الهبانة .
وهذا الحديث أسنده الحارث بن أبي أسامة عن ابن الملقى عن أبيه عن جده عن رسول الله
صلى الله عليه وسلم . وروى : أن الجحش لا تقرب دارا فيها فرس ، وأنها تنفر من صهيل الخيل .
السادسة — قوله تعالى : (وَمَا تَتَّقُوا مِنْ شَيْءٍ) أي تَتَّقُوا ؛ وقيل : تَتَّقُوا
على أنفسكم أو خيلكم . (في سبيل الله يَوْفَ إِلَيْكُمْ) في الآخرة ، الحسنة بغير أمثالها إلى سمائة ،
إلى أضعاف كثيرة . (وَاَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) .

(١) الأضاد : آلات الحرب من السلاح والدراب وغيرها . راجع الحديث وشرحه في صحيح مسلم ، كتاب الزكاة .

(٢) هو كتاب التعريف والإعلام فيما أهم في القرآن من الأسماء . وهو كتاب مخطوط محفوظ بدور الكتب

المصرية تحت رقم ٢٣٢ و ٢٣٩ .

قوله تعالى : وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْعَلْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١١﴾
فيه مسائلان :

الأولى - قوله تعالى : (وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْعَلْ لَهَا) إنما قال « لها » لأن السلم مؤنثة . ويجوز أن يكون التأنيث للفعلة . والجنوح الميل . يقول : إن مالوا - يعنى الذين نبذ إليهم عهدهم - إلى المسألة ؛ أى الصلح ، فإل إليها . وجنح الرجل إلى الآثر : مال إليه ؛ ومنه قيل للأصلاخ جواخ ؛ لأنها مالت على الحشوة . وجنحت الإبل : إذا مالت أعناقها في السير . وقال ذو الرمة : -

إذا مات فوق الرّحل أحيت روحه • بذكرالك والعيس المراسيل جنح^(٢١)
وقال النابغة :^(٢٢)

جواخ قد أيقن أن قبيله • إذا ما اتى الجمعان أول غالب
يعنى الطير . وجنح الليل إذا أقبل وأمال أطنا به على الأرض . والسلم والسلام هو الصلح . وقرأ الاعمش وأبو بكر وابن عبيّص والمفضل « للسّلم » بكسر السين . الباقون بالفتح . وقد تقدم معنى ذلك فى « البقرة » مستوفى . وقد يكون السلام من التسليم . وقرأ الجمهور « فاجنح » بفتح النون ، وهى لغة تميم . وقرأ الأشهب العقيل « فاجنح » بضم النون ، وهى لغة قيس . قال ابن جنى : وهذه اللغة هى القياس .

الثانية - وأختلف فى هذه الآية ، هل هى منسوخة أم لا . فقال قتادة وعكرمة : نسختها « فاقبلوا المشركين حيث وجدتموهم » . « وقاتلوا المشركين كافة » وقالوا : نسخت برامة كل موادة ، حتى يقولوا لا إله إلا الله ؛ أبى عباس : النسخ لما « فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى

- (١) الحشوة (بالهم والكسر) : الأعداء . (٢) العيس : الإبل البيض . والمراسيل : سهلة السير ، وهى التى تعطيك ما عدها غنوا . وجنح : مائة صدورها إلى الأرض - وقيل : مائة فى سيرها من النشاط .
(٣) فى الأصول : « وقال عترة » والتصويب عن كتاب البحر لأبى حيان وديوان النابغة .
(٤) راجع ج ٣ ص ٢٢ طبعة أول أو ثانية . (٥) آية سورة التوبة .
(٦) آية ٣٦ سورة التوبة .

السُّلَمِ^(١) . وقيل : ليست بمنسوخة ، بل أراد قبول الجزية من أهل الجزية . وقد صالح أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في زمن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ومن بعده من الأئمة كثيرا من بلاد العجم ، على ما أخذوه منهم ، وتركهم على ما هم فيه ، وهم قادرون على استئصالهم . وكذلك صالح رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيرا من أهل البلاد على مال يؤدونه ؛ من ذلك خير ، رد أهلها إليها بعد الغلبة على أن يعملوا ويؤدوا النصف . قال ابن إسحاق : قال مجاهد عن هذه الآية قريظة ؛ لأن الجزية تقبل منهم ، فأما المشركون فلا يقبل منهم شيء . وقال السدي وابن زيد : معنى الآية إن دعوك إلى الصلح فأجبهم . ولا نسخ فيها . قال ابن العربي : وبهذا يختلف الجواب عنه ؛ وقد قال الله عز وجل : « فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ الْآخِلُونَ^(٢) وَاللَّهُ مَعَكُمْ » . فإذا كان المسلمون على عزة وقوة ومنعة ، وجماعة عديدة ، وشدة شديدة فلا صلح ؛ كما قال :

فلا صلح حتى تظعن الخليل بالقنا * وتضرب بالبيض الرقاق الجساجم
وإن كان للمسلمين مصلحة في الصلح ، لنفع يجنبونه ، أو ضرر يدفعونه ، فلا بأس أن يتدنى المسلمون إذا احتاجوا إليه . وقد صالح رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل خيبر على شروط تقضوها فنقض صلحهم . وقد صالح الضميرى^(٣) وأكيدر دومة وأهل نجران ، وقد هادن قريظا لعشرة أعوام حتى تقضوا عهده . وما زالت الخلفاء والصعابة على هذه السبيل التي شرعناها سالكة ، وبالأوجه التي شرحناها حاملة . قال القسيري : إذا كانت القوة للمسلمين فينبغي ألا تبلغ المدة سنة . وإذا كانت القوة للكفار جاز مهادتهم عشرين ، ولا تجوز الزيادة . وقد هادن رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل مكة عشرين . قال ابن المنذر : اختلف العلماء في المدة التي كانت بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين أهل مكة عام الحديبية ؛ فقال عروة : كانت أربع سنين . وقال ابن جريج : كانت ثلاث سنين . وقال ابن إسحاق : كانت

١ (١) آية ٣٥ سورة حد . (٢) الضميرى : هو عنتي بن عمرو الضميرى ؛ من بني ضمرة بن بكر . وكان هذا في غزوة الأبراء . وأكيدر : هو أكيدر بن عبد الملك ، وجبل من كعدة . ودومة : هي دومة الجندل ، مدينة قريبة من دمشق .

عشر سنين . وقال الشافعى رحمه الله : لا تجوز مهادنة المشركين أكثر من عشرين سنين ، على ما فعل النبي صلى الله عليه وسلم عام الحديبية ؛ فإن هودن المشركون أكثر من ذلك فهى متفوضة ، لأن الأصل فرض قتال المشركين حتى يؤمنوا أو يعطوا الجزية . وقال ابن حبيب عن مالك رضى الله عنه : تجوز مهادنة المشركين السنة والستين والثلاث ، وإلى غير مده . قال المهلب : إنما قاضاهم النبي صلى الله عليه وسلم هذه القضية التى ظاهرها الرهن على المسلمين ؛ لسبب حبس الله ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم عن مكة ، حين توجه إليها فبركت . وقال : "حبسها حابس الغيل" . على ما أخرجه البخارى من حديث المسورين مخزومة . ودل على جواز صالح المشركين ومهادتهم دون مال يؤخذ منهم ، إذا رأى ذلك الإمام وجهاً . ويجوز عند الحاجة للمسلمين عقد الصلح بما يبدلون له العقر ، ولو اذعة النبي صلى الله عليه وسلم عينة بن حصن الفزاري ، والحارث بن عوف المرزى يوم الأحزاب ، على أن يعطيها ثلث ممر المدينة ، وينصرفا بمن متهما من غطفان ويخذلا قريشا ، ويرجما بقومهما عنهم . وكانت هذه المقالة مراوضة^(١) ولم تكن عقدا . فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم منهما أنهما قد آثبا ورضيا استشار سعد بن معاذ وسعد بن عباد ؛ فقالا : يا رسول الله ، هذا أمر تحبه فنصنعه لك ، أو شيء أمرك الله به فنسمع له ونطيع ، أو أمر تصنعه لنا ؟ فقال : "بل أمر أصنعه لكم فإن العرب قد رمتكم عن قوس واحدة" ؛ فقال له سعد بن معاذ : يا رسول الله ، والله قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك وعبادة الأوثان ، لا نعبد الله ولا نعرفه ، وما طعموا قط أن يسألوا من ثمرة ، إلا شراه أو قرى ؛ فحين أكرمنا الله بالإسلام ، وهدانا له وأعزنا بك ، نعطيم أموانا ! والله لا نعطيم إلا السيف ، حتى يحكم الله بيننا وبينهم . فسر بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : "أتم وذاك" . وقال لمينة والحارث : "انصرفا فليس لكما عندنا إلا السيف" .. وتناول سعد الصحيفة ، وليس فيها شهادة فحماها .

(١) فى الأصول : «... بن قول » والتصويب عن كتب السيرة .

(٢) المراوضة : الهاداة والحفاة .

قوله تعالى : وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي
 أَيْدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ وَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي
 الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ
 حَكِيمٌ ﴿٧٨﴾

قوله تعالى : (وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ) أى بآن يُظهروا لك السلم ، ويُطعنوا النذر
 والخيانة ، فاجتنب وما عليك من نياتهم الفاسدة . (فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ) كافيك الله ؛ أى يتولى
 كفائتك وحياطتك . قال الشاعر :

إِن كَانَتْ الْمِجَاءُ وَالشُّقْتُ الْعَصَا • خَبَيْكَ وَالضُّعَاكَ سَيْفٌ مُهْدَدٌ

أى كافيك وكافى الضعباك سيف .

قوله تعالى : (هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِنَصْرِهِ) أى قواك بنصره . يريد يوم بدر . (وَبِالْمُؤْمِنِينَ)
 قس . نعمان بن بشير : نزلت في الأنصار . (وَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ) أى جمع بين قلوب الأوس
 والمخزرج . وكان تألف القلوب مع العصبية الشديدة في العرب من آيات النبي صلى الله عليه
 وسلم ومعجزاته ؛ لأن أحدهم كان يُلطم اللطمة فيقاتل عنها حتى يستقيدها . وكانوا أشد
 خلق الله حمية ، فألف الله بالإيمان بينهم ، حتى قاتل الرجل أباه وأخاه بسبب الدين . وقيل :
 أراد التأليف بين المهاجرين والأنصار . والمعنى متقارب .

قوله تعالى : يَأَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٩﴾
 ليس هذا تكريراً ، فإنه قال فيما سبق : « وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ » وهذه
 كفاية خاصة . وفي قوله : « يَأَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ » أراد التعميم ؛ أى حسبك الله في كل
 حال . وقال ابن عباس : نزلت في إسلام عمر ؛ فإن النبي صلى الله عليه وسلم كان أسلم معه
 ثلاثة وثلاثون رجلاً وست نسوة ؛ فأسلم عمر وصاروا أربعين . والآية مكية ، كثر
 رسول الله صلى الله عليه وسلم في سورة مدنية ؛ ذكره القشيري .

قلت : ما ذكره من إسلام عمر رضي الله عنه عن ابن عباس ؛ فقد وقع في السيرة خلافه .
عن عبد الله بن مسعود قال : ما كنا نقدر على أن نصليَ عند الكعبة حتى أسلم عمر ، فلما
أسلم قاتل قريشا حتى صلى عند الكعبة وصلينا معه . وكان إسلام عمر بعد خروج من خرج
من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الحبشة . قال ابن إسحاق : وكان جميع من لحق
بأرض الحبشة وهاجر إليها من المسلمين ، سوى آبائهم الذين خرجوا بهم صفارا أو ولدوا بها ،
ثلاثة وثمانين رجلا ، إن كان عمار بن ياسر منهم . وهو يُشكّ فيه . وقال الكلبي : نزلت
الآية باليَّداء في غزوة بدر قبل القتال .

قوله تعالى : (وَمَنْ آمَنَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ) قيل : المعنى حسبك الله ، وحسبك المهاجرون
والأنصار . وقيل : المعنى كافيك الله ، وكافي من تبعك ؛ قاله الشَّعْبِيُّ وابن زيد . والأوَّل
عن الحسن . واختاره النحاس وغيره . في « من » على القول الأوَّل في موضع رفع ، عطفا
على آسم الله تعالى . على معنى : فإن حسبك الله وأتباعك من المؤمنين . وعلى الثاني على إضمار .
ومثله قوله صلى الله عليه وسلم : « يَكْفِيهِ اللهُ وَأَبْنَاءُ قَيْلَةٍ » . وقيل : يجوز أن يكون « وَمَنْ
آمَنَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ » حسبهم الله ؛ فيضمير الخير . ويجوز أن يكون « مَنْ » في موضع نصب ،
على معنى : يكفيك الله ويكفي من آتبعك .

(١) يريد الأوس والخزرج ، فيلحق الأنصار . وقيل اسم أم لم تسم ، وهي قيلة بنت كاهل .
(٢) اضطربت عبارة الأصول هنا . والله في إعراب القرآن للنحاس : « يا أيها النبي حسبك الله . ابتداء
وخبره أي كافيك الله . ويقال : أحب إذا كفاه . » ومن آتبعك في موضع نصب مطوف على الكاف
في التاريل ؛ أي يكفيك الله من وجل ويكفي من آتبعك ؛ كما قال :

إذا كانت الهجاء وانشتت الصا • لحبك والفضاك سيف مهت

ويجوز أن « من آتبعك » في موضع رفع . ولنعوين فيه ثلاثة أقوال : قال أبو يعفر : سمعت علي بن سليمان
يقول : يكون عطفا على اسم الله جل وعز ؛ أي حسبك الله ومن آتبعك . قال : ومنه قول النبي عليه السلام :
« يكفيه الله من وجل وأبناء قيلة » .

والقول الثاني — أن يكون التقدير : ومن آتبعك من المؤمنين كذلك ؛ على الابتداء والخبر ؛ كما قال القرطبي :

وعن زمان وابن مروان لم يدع • من المال الاستحباب أو يحلف

والقول الثالث أحسن — أنه يكون على إضمار ، بمعنى وحسبك من آتبعك . وهكذا الحديث على إضمار . وركنا
القول الأوَّل ؛ لأنه قد سمع من النبي صلى الله عليه وسلم أنه نهى أن يقول : ما شاء الله وشئت . والثاني — فالتأمر
بضمير ؛ إذ كانت القصيدة مرفوعة . وإن كان فيه غير هذا .

قوله تعالى : يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ أَلَمْ تَرَ خَفَّ اللَّهُ عَنْكَ وَعَلِمَ أَنَّ فَيْكَ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفِينَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٦٦﴾

قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ) أى حَثَّهُمْ وَحَضَّهُمْ . يقال : حَارَضَ عَلَى الْأَمْرِ وَوَاظَبَ وَوَاظَبَ وَأَكْبَ بِمَعْنَى وَاحِدٍ . وَالْحَارِضُ : الَّذِي قَدْ قَارَبَ الْهَلَاكَ ، وَمَنْهُ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : « حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا » أى تَذُوبُ غَمًّا ، فَتَقَارِبُ الْهَلَاكَ فَتَكُونُ مِنَ الْمَالِكِينَ . (إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ) لَقَطَّ خَبْرًا ، ضَمَّنَهُ وَعَدَّ بِشَرْطٍ ، لِأَنَّ مَعْنَاهُ إِنْ يَصْبِرُ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ . وَعِشْرُونَ وَثَلَاثُونَ وَارْبَعُونَ كُلٌّ وَاحِدٌ مِنْهَا أَسَمٌ مَوْضُوعٌ عَلَى صُورَةِ الْجَمْعِ لِهَذَا الْعَدَدِ ، وَيَجْرَى هَذَا الْأَسْمُ بِجَرَى فِلَسْطِينَ . فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ : لَمْ تُكْسَرْ أَوَّلُ عَشْرِينَ وَفُتِحَ أَوَّلُ ثَلَاثِينَ وَمَا بَعْدَهُ إِلَى الثَّمَانِينَ إِلَّا سِتِينَ ؟ فَأَجْلُوبَابٌ عِنْدَ سَبْيِهِ أَنْ عَشْرِينَ مِنْ عَشْرَةٍ بِمِثْلَةِ اثْنَيْنِ مِنْ وَاحِدٍ ، فَكُسِرَ أَوَّلُ عَشْرِينَ كَمَا كُسِرَ اثْنَانِ . وَالِدَّلِيلُ عَلَى هَذَا قَوْلُهُمْ : سِتُونَ وَتِسْعُونَ ، كَمَا قِيلَ : سِتَّةٌ وَتِسْعَةٌ . وَرَوَى أَبُو دَاوُدَ عَنْ أَبِي عُبَاسٍ قَالَ : نَزَلَتْ « إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ » فَتَقَرَّرَ ذَلِكَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ ، حِينَ فَرَضَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ أَنْ يَفِزَ وَاحِدٌ مِنْ عَشْرَةٍ ، ثُمَّ إِنَّهُ جَاءَ التَّخْفِيفُ فَقَالَ : (أَلَا نَحْفَ اللَّهُ عَنْكُمْ) إِلَى قَوْلِهِ : (يَا مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ) . قَالَ : فَلَمَّا خَفَّ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمْ مِنَ الْعَدَدِ نَقَصَ مِنَ الصَّبْرِ بِقَدَرِ مَا خَفَّفَ عَنْهُمْ . وَقَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ : قَالَ قَوْمٌ إِنَّ هَذَا كَانَ يَوْمَ بَدْرٍ وَنُسِخَ . وَهَذَا خَطَأٌ مِنْ قَائِلِهِ . وَلَمْ يُنْقَلْ قَطُّ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ صَافُوا الْمُسْلِمِينَ عَلَيْهَا ، وَلَكِنَّ الْبَارِيَّ حَلَّ وَعَزَّ

فرض ذلك عليهم أولاً، وطأ ذلك بأنكم تحفهون ما تخالون عليه، وهو الثواب . وهم لا يعلمون ما يخالون عليه .

قلت : وحديث ابن عباس يدل على أن ذلك فرض . ثم لما شق ذلك عليهم حطَّ الفرض إلى ثبوت الواحد للأثنين ؛ تخفف عنهم وكتب عليهم ألفاً يفرمئة من مائتين ؛ فهو على هذا القول تخفيف لا نسخ . وهذا حسن . وقد ذكر القاضي ابن الطيب أن الحكم إذا نسخ بعبء أو بعض أوصافه ، أو غير عدده بغائر أن يقال إنه نسخ ؛ لأنه حينئذ ليس بالأول ، بل هو غيره . وذكر في ذلك خلافاً .

قوله تعالى : مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُخْرِجَ فِي الْأَرْضِ تَرْيُودًا عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٧﴾
فيه خمس مسائل :

الأولى - قوله تعالى : (أَسْرَى) جمع أسير ؛ مثل قاتل وقتل وجرم وجرم . ويقال في جمع أسير أيضاً : أسارى (بضم الهزاة) وأسارى (بفتحها) وليست بالعالية . وكانوا يُسَدُّونَ الأسير بالقد وهو الإسار ؛ فسُيِّمَ كل أخيد وإن لم يُوسر أسيراً . قال الأعشى :

وَقَيْدِي الشَّعْرُ فِي يَدَيْهِ * كَمَا قَيْدَ الْأَسْرَاتِ الْحِمَارِ

وقد مضى هذا في سورة « البقرة » . وقال أبو عمرو بن العلاء : الأسرى هم غير الموثقين عند ما يؤخذون ، والأسارى هم الموثقون رِبَطًا . وحكى أبو حاتم أنه سمع هذا من العرب .

الثانية - هذه الآية نزلت يوم بدر ، عتاباً من الله عز وجل لأصحاب نبيه صلى الله عليه وسلم . والمعنى : ما كان ينبغي لكم أن تفعلوا بهذا الفعل الذي أوجب أن يكون النبي

(١) هكذا في نسخ الأصل ، والذي في ابن العربي : « وعظه بأنكم ... الخ »

(٢) راجع ج ٢ ص ٢١ طبة ثانية .

صلّى الله عليه وسلم أسرى قبل الإنحان^(١) . ولم هذا الإخبار بقوله « تريدون عرض الدنيا » .
والنبيّ صلّى الله عليه وسلم لم يأمر باستبقاء الرجال وقت الحرب، ولا أراد قطع عرض الدنيا،
وإنما فعله جمهور مباشرى الحرب؛ فالتوبيخ والعتاب إنما كان متوجهاً بسبب من أشار على
النبيّ صلّى الله عليه وسلم بأخذ الفدية . هذا قول أكثر المفسرين، وهو الذى لا يصح فيه؛
وجاء ذكر النبيّ صلّى الله عليه وسلم في الآية حين لم يته عنه حين رآه من العريش وإذ كره سعد
ابن معاذ وعمر بن الخطاب وعبد الله بن رواحة، ولكنه عليه السلام شغله بفت الأمر وزول
النصر فترك النبيّ عن الاستبقاء؛ ولذلك بكى هو وأبو بكر حين نزلت الآيات . والله أعلم .
روى مسلم من حديث عمر بن الخطاب، وقد تقدم قوله في « آل عمران » وهذا تمامه .
قال أبو زَيْد : قال ابن عباس فلما أسروا الأسارى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
لأبي بكر وعمر : « ما ترون في هؤلاء الأسارى » ؟ فقال أبو بكر : يا رسول الله، هم بنو النعم
والشيرة، أرى أن تأخذ منهم فدية، فتكون لنا قوة على الكفار، فمضى الله أن يسديهم
للإسلام . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما ترى يا ابن الخطاب » ؟ قلت : لا والله
يا رسول الله، ما أرى الذى رأى أبو بكر، ولكنى أرى أن تمكنا فنضرب أعناقهم، فتمكّن
عليّ من عقيل فيضرب عنقه، وتمكّن من فلان (نسيباً لعمر) فاضرب عنقه؛ فإن هؤلاء أئمة
الكفر وصناديدها . فهوى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قال أبو بكر ولم يهو ما قلت، فلما
كان من الند جثت فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر قاعدتين يبكيان؛ فقلت
يا رسول الله، أخبرنى من أى شيء تبكى أنت وصاحبك؛ فإن وجدت بكاء بكيت، وإن لم أجد
بكاءً تبكيت لبكائكما . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أبكى للذى عرض على أصحابك
من أخذهم الفداء لقد عرض على هذابهم أدنى من هذه الشجرة » (شجرة قريبة من بني الله
صلّى الله عليه وسلم) وأتزل الله عز وجل « ما كان لى أن يكون له أسرى حتى يتبعض في الأرض »
إلى قوله تعالى : « فكلوا مما غنمتم حلالاً طيباً » فأحل الله الفتيمة لهم . وروى يزيد بن هارون

(١) الإنحان في الشر : المائلة فيه والإخمارة، والمراد به هنا : المائلة في قتل الكفار .

(٢) راجع ج ٢ ص ١٩٣ طبعة أول أو ثانية .

قال : أخبرنا يحيى قال حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن عمرو بن مرة عن أبي عبيدة عن عبد الله قال : لما كان يوم بدرجى ، بالأسارى وفيهم العباس ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما ترون في هؤلاء الأسارى " فقال أبو بكر : يا رسول الله قومك وأهلك ، استبقهم لعل الله أن يتوب عليهم . وقال عمر : كذبوك وأخرجوك وفاتلوك ، قد همهم فاضرب أعناقهم . وقال عبد الله بن رواحة : أنظر واديا كثير الخطب فاضرمه عليهم . فقال العباس وهو يسمع : فطعمت ربحك . قال : فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يرذ عليهم شيئا . فقال أناس : ياخذ بقول عبد الله بن رواحة . فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " إن الله ليأين قلوب رجال فيه حتى تكون ألين من اللبن ويشد قلوب رجال حتى تكون أشد من الحجارة . مثلك يا أبا بكر مثل إبراهيم قال « هَنَ يَمْنَى فَإِنَّهُ بَنَى وَمَنْ عَصَانِي فَأَنْتَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » ومثلك يا أبا بكر مثل عيسى إذ قال « إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَلَهُمْ عَذَابُكَ وَإِنْ تُغْفِرْ لَهُمْ فَانْتَ أَنْتَ الْغَزِيْرُ الْحَكِيمُ » . ومثلك يا عمر كمثل نوح عليه السلام إذ قال « رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ ذَرَارًا » . ومثلك يا عمر مثل موسى عليه السلام إذ قال « رَبَّنَا أَطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ » أتم عائلة فلا ينقلن أحد إلا بغداء أو ضربة عنق . فقال عبد الله : إلا سهيل بن بيضاء فلما سمعته يذكر الإسلام . فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : فما رأيتني أخوف أن تقع على الحجارة من السماء منى في ذلك اليوم . فأنزل الله عز وجل : « ما كان لبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض » إلى آخر الآيتين . في رواية فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن كاد ليصيبنا في خلاف آبن الخطاب عذاب ولو نزل عذاب ما أفلت إلا عمر " . وروى أبو داود عن عمر قال : لما كان يوم بدر وأخذ - بنى رسول الله صلى الله عليه وسلم - الغداء ، أنزل الله عز وجل « ما كان لبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض » إلى قوله « لمسك فيما أخذتم - من الغداء - عذابٌ عظيمٌ » . ثم أحل الشام . وذكر القشيري أن سعد بن معاذ قال : يا رسول الله ، إنه أول وقعة لنا مع المشركين

فَكَانَ الْإِثْخَانُ أَحَبَّ إِلَى . وَالْإِثْخَانُ : كَثْرَةُ الْقَتْلِ ، عَنْ مُجَاهِدٍ وَغَيْرِهِ . أَيْ يَبَالِغُ فِي قَتْلِ الْمَسْرُكِينَ . فَقَوْلُ الْعَرَبِ : أَخْنَحُ فُلَانٌ فِي هَذَا الْأَمْرِ أَيْ يَبَالِغُ . وَقَالَ بَعْضُهُمْ : حَتَّى يُغَيَّرَ وَيُقْتَلَ . وَأَشَدُّ الْمَفْضَلِ :

نَصَلَى الضَّحَى مَا دَعَرَهَا بِتَعَبٍ . وَقَدْ أَخْنَحْتُ فِرْعَوْنَ فِي كُفْرِهِ كَفَرَا
 وَقِيلَ : « حَتَّى يُشْخِنَ » يَخْنِكُ ، وَقِيلَ : الْإِثْخَانُ الْقُوَّةُ وَالشَّدَّةُ . فَأَعْلَمَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى
 أَنَّ قَتْلَ الْأَسْرَى الَّذِينَ قُودُوا يَسُدُّوكَانَ أَوَّلَى مِنْ قُدَامِهِ . وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ :
 كَانَ هَذَا يَوْمَ يَدْرُوُ الْمَسَامُونَ يَوْمَئِذٍ قَلِيلٌ ، فَلَمَّا كَثُرُوا وَأَشَدَّتْ سُلْطَانُهُمْ أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ
 بِعَدِّ هَذَا فِي الْأَسْرَى : « فَأَتَانَا مَتَّى بَسَدٌ وَإِنَّا فِدَاءٌ » عَلَى مَا يَأْتِي بَيَانُهُ فِي سُورَةِ « الْقَتَالِ »
 إِنَّ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى . وَقَدْ قِيلَ : إِنَّمَا عُرِيتُوا لِأَنَّ قَضِيَّةَ يَدْرُكَانَتِ عَظِيمَةُ الْمَوْقِعِ وَالتَّعْرِيفِ
 فِي صَنَادِيدِ قُرَيْشٍ وَآسَافِهِمْ وَسَادَاتِهِمْ وَأَمْوَالُهُم بِالْقَتْلِ وَالْإِسْتِرْقَاقِ وَالتَّمَلُّكِ . ذَلِكَ كُلُّهُ عِنَا
 الْمَوْقِعِ ، فَكَانَ حَقُّهُمْ أَنْ يَنْظُرُوا الرَّحَى وَلَا يُسْتَجْلَوْا ، فَلَمَّا اسْتَجْلَوْا وَلَمْ يَنْظُرُوا تَوَجَّهَ ،
 مَا تَوَجَّهَ . وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

الثالثة - أسند الطبري وغيره أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال للناس : "إن شئتم
 أخذتم فداء الأسارى ويقتل منكم في الحرب سبعون على صددهم وإن شئتم قتلوا وسلمتم" /
 فقالوا : نأخذ الفداء . ويستشهد منا سبعون . وذكر عبد بن حميد بسنده أن جبريل عليه السلام
 نزل على النبي صلى الله عليه وسلم بتغيير الناس هكذا . وقد مضى في آل عمران « القول
 في هذا » وقال عبيدة السلماني : طلبوا الخمرتين كلتيهما فقتل منهم يوم أحد سبعون .
 وينشأ هنا إشكال وهي -

الرابعة - وهو أن يقال : إنا كان التخيير فكيف وقع التوبيخ بقوله « لمستمكم »
 فالجواب - أن التوبيخ وقع أولاً لحرصهم على أخذ الفداء ، ثم وقع التخيير بعد ذلك . ومما
 يدل على ذلك أن المقداد قال حين أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتل عتبة بن أبي معيط :
 « سيري يا رسول الله » وقال مصعب بن عمير لذي أسراؤه : « حسد عليه بذلك » فإن له إنا

موسرة . إلى غير ذلك من فصصهم وحرصهم على أخذ الفداء . فلما تحمّل الأسارى وسبقوا إلى المدينة وأتخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم القتل في التضروعة وغيرهما وجعل يمتن في سائرهم نزل التخيير من الله عز وجل ؛ فاستشار رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه حينئذ ، فزعم عمر على أول رآه في القتل ، ورأى أبو بكر المصلحة في قوة المسلمين بمال الفداء . ومال رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى رأى أبي بكر . وكلا الرأيين اجتهدا بعد تخير . فلم ينزل بعد على هذا شيء من تعينته . والله أعلم .

الخامسة - قال ابن وهب : قال مالك كان بيدرس أسارى مشركون فأنزل الله « ما كان لشيء أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض » . وكانوا يومئذ مشركين وفادوا ورجعوا ، ولو كانوا مسلمين لأقاموا ولم يرجعوا . وكان عدّة من قُتل منهم أربعة وأربعين رجلاً ؛ ومثلهم ألبسوا . وكان الشهداء قليلاً . وقال عمرو بن العلاء : إن القتل كانوا سبعين ، والأسرى كذلك . وكذلك قال ابن عباس وابن المسيّب وغيرهم . وهو الصحيح كما في صحيح مسلم ؛ فقتلوا يومئذ سبعين وأسروا سبعين . وذكر البيهقي قالوا : بغيء بالأسارى وعليهم شُقران مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم تسعة وأربعون رجلاً الذين أحصوا ، وهم سبعون في الأصل ، مُجتمع عليه لاشك فيه . قال ابن العربي : إنما قال مالك « وكانوا مشركين » لأن المفسرين رَووا أن العباس قال للبيّ صلى الله عليه وسلم : إني مسلم . وفي رواية أن الأسارى قالوا للبيّ صلى الله عليه وسلم : آمنا بك . وهذا كله ضعفه مالك ، واحتج على إبطاله بما ذكر من رجوعهم وزيادة عليه أنهم غزوه في أحد . قال أبو عمر بن عبد البر : اختلفوا في وقت إسلام العباس ؛ فقيل : أسلم قبل بدر ؛ ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : " من لقي العباس فلا يقتله فإنه أنجز كرها " . وعن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يوم بدر : " إن أنا ما من بني هاشم وغيرهم قد أخرجوا كرها لا حاجة لهم بقتلنا فن لقي منكم أحدا من بني هاشم فلا يقتله ومن لقي أبا البختري فلا يقتله ومن لقي العباس فلا يقتله فإنه إنما أخرج مستكرها " وذكر الحديث . وذكر أنه أسلم حين أسروهم بدر . وذكر أنه أسلم عام خيبر ، وكان يكتب

رسول الله صلى الله عليه وسلم بإخبار المشركين، وكان يجب أن يهاجر فكتب إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أمكت بمكة فقامت بها أقع لنا".

قوله تعالى: لَوْلَا كَتَبَ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ

عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾

فيه مسائل :

الأولى - قوله تعالى: (لَوْلَا كَتَبَ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ) في أنه لا يذنب قوما حتى يبين لهم ما يتقون. واختلف الناس في كتاب الله السابق على أقوال، أحصاها ما سبق من إحلال الفنائم، فإنها كانت محزمة على من قبلنا. فلما كان يوم بدر، أسرع الناس إلى الفنائم فأنزل الله عز وجل: «لَوْلَا كَتَبَ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ» أي بتحليل الفنائم. وروى أبو داود الطيالسي في مسنده حديثا: سلام عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة قال: لما كان يوم بدر تسجل الناس إلى الفنائم فاصبوا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن النعمة لا تتجل لأحد سود الروس غيركم». فكان النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه إذا غنموا الغنيمة جمعوها ونزلت نار من السماء فاكلتها، فأنزل الله تعالى: «لَوْلَا كَتَبَ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ» إلى آخر الآيتين. وأخرجه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح، وقاله مجاهد والحسن. وعنهما أيضا وسعيد بن جبير: الكتاب السابق هو منفرة الله لأهل بدر، ما تقدم أو تأخر من ذنوبهم. وقالت فرقة: الكتاب السابق هو ضعف الله عنهم في هذا الذنب، ميثا. والمعموم أصح، لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمر بن أبي بكر: «وما يذرك لعل الله أطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم». أخرجه مسلم. وقيل: الكتاب السابق هو ألا يذنبهم ويعد عليهم السلام فيهم. وقيل: الكتاب السابق هو مما فضى الله من نحو الصفات بأجتناب الكبائر. وذهب الطبري إلى أن هذه المعاني كلها داخلية تحت اللفظ وأنه يعمها، وتكب عن تخصيص معنى دون معنى.

الثانية - أمّ البراءة: وفي الآية دليل على أن العبد إذا أقنعت ما يعتقده حراماً مما هو
 من علم الله حلال له لا عقوبة عليه ؛ كالصائم إذا قال : هذا يوم نوي فأفطر الآن . وتقول
 المرأة : هذا يوم جئني فأفطر ؛ ففعلاً ذلك ، وكان التوب والحض الموجبان للفطر . وفي المشهور
 من المذهب فيه الكفارة ، وبه قال الشافعي . وقال أبو حنيفة : لا كفارة عليه ، وهي الرواية
 الأخرى . وجه الرواية الأولى أن طرؤ الإباحة لا يثبت عذراً في عقوبة التحريم عند المنك ؛
 كما لو وطئ امرأة ثم نكحها . وجه الرواية الثانية أن حرمة اليوم ساقطة عند الله عن وجل
 فعادف المنك عللاً لا حرمة له في علم الله ؛ فكان بمنزلة ما لو قصد وطئ امرأة قد زوّت إليه
 وهو يعتقد أنها ليست بزوجه فإذا هي زوجته . وهذا أصح . والتعليل الأول لا يلزم ؛ لأن علم
 الله سبحانه وتعالى مع علمنا قد استوى في مسألة التحريم ، وفي مسئلتنا آخفت فيها علمنا وعلم
 الله فكان المعمول على علم الله . كما قال : «لولا كتاب من الله سبق لمسك فيما أخذتم عذاب عظيم» .
 قوله تعالى : فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ

غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٦٩﴾

يفتني ظاهره أن تكون النتيجة كلها للنايمين ، وأن يكونوا مشركين فيها على السواء ؛
 إلا أن قوله تعالى : «وأعلموا أنما غنمتم من شيء فإن لله ثمنه» بين وحوب إنجاح الخمس
 منه وصرفه إلى الوجوه المذكورة . وقد تقدم القول في هذا مستوفى .

قوله تعالى : يٰٓأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّمَن فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَمْثِلِ إِن
 يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُّؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أَخَذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ
 وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧٠﴾ وَإِن يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ
 فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾

به ثلاث مسائل :

(١) نرب : ما كان منك مسيرة يوم وليلة . وقيل : على ثلاثة أيام . وقيل : ما كان على فرسخين أو ثلاثة

الأولى - قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَن فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى ﴾ قيل : الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ولصحابه . وقول : له وحده . وقال ابن عباس رضي الله عنه : الأسرى في هذه الآية عباس وأصحابه . قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم : أما بما جئت به ، ونشهد أنك رسول الله ، لنصحتك لك على قومك ؛ فنزلت هذه الآية . وقد تقدم بطلان هذا من قول مالك . وفي مصنف أبي داود عن ابن عباس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم جعل فداء أهل الجاهلية يوم بدر أربعةائة . وعن ابن إسحاق : بعثت قريش إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في فداء أسراهم ؛ ففدى كل قوم أسيرهم بما رضوا . وقال العباس . يا رسول الله . إني قد كنت مسلما . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم . " الله أعلم بإسلامك فإن يكن كما نقول فانه يميزك بذلك فأما ظاهر أسرك فكان علينا فأفد نفسك وأبني أخويك نوفل بن الحارث بن عبد المطلب وعقيل بن أبي طالب وحليفك عتبة بن عمرو أخا بني الحارث بن فهر" . وقال : ما ذلك عندي يا رسول الله . قال : " فأين المال الذي دفته أنت وأم الفضل فقلت لما إن أصبت في سفرى هذا فهذا المال لبني الفضل وعبد الله وقم" ؟ فقال : يا رسول الله ، إني لأعلم أنك رسول الله ، إن هذا شيء ما علمه غيري وغير أم الفضل ، فأحسب لي يا رسول الله ما أصبتم مني عشرة أوقية من مال كان معي . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا . ذاك شيء أعطانا الله منك" . ففدى نفسه وأبني أخويه وحليفه ، وأنزل الله فيه : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَن فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى ﴾ الآية . قال ابن إسحاق : وكان أكثر الأسارى فداء العباس بن عبد المطلب ؛ لأنه كان رجلا موسرا ، فأفدى نفسه بمائة أوقية من ذهب . وفي البخاري : وقال موسى بن عقبة قال ابن شهاب : لم أذكر أنس ابن مالك أن رجالا من الأنصار استأذنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا رسول الله ، ائذن لنا فلتترك لابن أختنا عباس فداء . فقال : " لا والله لا تذكرون درهم" . وذكر النقاش وغيره أن فداء كل واحد من الأسارى كان أربعين أوقية ؛ إلا العباس فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " أضمموا الفداء على العباس" وكلف أن يفدى أبني أخويه عقيل بن أبي طالب

ونزل بن الحارث فأذى عنهما ثمانين أوقية، وعن نفسه ثمانين أوقية وأخذ منه عشرون وقت
احرب . وذلك أنه كان أحد المشركين الذين خيّموا الإطعام لأهل بدر، فبلغت النوبة إليه يوم
بدر فأقتلوا قبل أن يُطعم، وبقيت العشرون معه فأخذت منه وقت الحرب؛ فأخذ منه
يومئذ مائة أوقية وثمانون أوقية. فقال العباس النبي صلى الله عليه وسلم: لقد تركتني ما حييتُ
أسأل قريشا بكتي . فقال النبي صلى الله عليه وسلم: " ابن الذهب الذي تركته عند أمراءك
إم الفضل ؟ " فقال العباس: أي ذهب ؟ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم:
" إنك قلت لما لا أدرى ما يصيبني في وجهي هذا فإن حدث بي حدث فهو لك ولولدك " .
فقال: يأبن أمي، من أخبرك بهذا ؟ قال: " الله أخبرني " . قال العباس: أشهد أنك
صديق، وما علمت أنك رسول الله فقدّ الا اليوم، وقد علمت أنه لم يظلمك عليه إلا عالم
السراة، أشهد أن لا إله إلا الله وأنت عبده ورسوله، وكفرت بما سواه، وأمر أبي أخويه
فأسلما، ففسيما نزلت . يا أيها النبي قل لمن في أيديكم من الأمسي . وكان الذي أسر العباس
أبا الأسر كعب بن عمرو أخا بني سلمة، وكان رجلا قصيرا، وكان العباس ضحفا ملويلا؛
فأسا جاء به الى النبي صلى الله عليه وسلم قال له: " لقد أعتاك عليه ملك " .

الثانية - قوله تعالى: (إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا) أي إسلاما . (يُؤْتِكُمْ خَيْرًا)
يأخذ منكم أي من الصدقة . قبل في الدنيا . وقبل في الآخرة . وفي صحيح مسلم
أنه لما قدم على النبي صلى الله عليه وسلم مال من البحرين قال له العباس: إني قادت نفسي
وقادت عيلا . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: "خذ" فبسط نوبه وأخذ ما استطاع
أن يحمله . فخصصه . في غير الصحيح: فقال له العباس هذا خير مما أخذتني، وانا بعد أرجو
أن يغفر الله لي . قال العباس: وأعطاني زمزم، وما أحب أن لي بها جميع أموال أهل مكة .
وأستد الطبري إلى العباس أنه قال: في نزلت حين أصلمت رسول الله صلى الله عليه وسلم
بأبي، ورسائله أن يحاسبني بالعشرين أوقية التي أخذت مني قبل المفاداة فأبي . وقال:
" سمعت في " فابطلني الله من ذلك عشرين عبدا كانوا تاجر بمال . وفي مصنف أبي داود عن

عائشة رضي الله عنها قالت : لما بحث أهل مكة في فداء أسراهم بحث زينب في فداء أبي العاص
بالم ، وبحث فيه خلافة لما كانت عند خديجة أخذتها بها على أبي العاص . قالت : فلما رأنا
رسول الله صلى الله عليه وسلم رقب لما رقة شديدة وقال : ^١ « إن رأيتم أن تطلقوها أسيرها وتردوا
عليها الذي لها » فقالوا نعم ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم أخذ عليه أو وعده أن يحمل سبيل
زينب إليه . وبحث رسول الله صلى الله عليه وسلم زيد بن حارثة ووجلا من الأنصار فقال :
« كونا بطن يا حج حتى تمر بكما زينب فصحبها حتى تأتيا بها . قال ابن عباس : وذلك
بعد بدر بشهر . قال عبد الله بن أبي بكر : حدثت عن زينب بنت رسول الله صلى الله عليه
وسلم أنها قالت : لما قدم أبو العاص مكة قال لي : تجهزي ، فالجني بأبيك . قالت : فخرجت
أتهجد فالتفتي هند بنت عتبة فقالت : يا بنت عمة ، ألم يلبني إلك تريدن الحقوق بأبيك ؟ فقلت
لها : ما أردت ذلك . فقالت : أي بنت حم ، لا تفعل ، إني امرأة مؤسرة وعندى بيع من
حاجتك ، فإن أردت سلمة بتكفها ، أو قرظا من نفقة أفرضتك ، فإنه لا يدخل بين النساء
ما بين الرجال . قالت : فوالله ما أراها قالت ذلك إلا تفعل ؛ فنفقتها فكفمتها وقلت : ما أريد
ذلك . فلما فرغت زينب من جهازها أرتمت ونخرج بها حموها يقود بها نهارا فكانت بن الربيع .
وتسامع بذلك أهل مكة ، ونخرج في طلبها حبار بن الأسود ونافع بن عبد القيس الفهري ، وكان
أول من سبق إليها حبار فروضها بالرح وهي في قودجها . وبرك بكافة وتزنيه ، ثم أخذ قوسه
وقال والله لا يدنو مني رجل إلا وضعت فيه سهما . وأقبل أبو سفيان في أشراف قريش
فقال : يا هذا ، أسك عنا نبك حتى نكلك ؛ فوقف عليه أبو سفيان وقال : إنك لم تصنع
شيئا ، خرجت بالمرأة على رموس الناس ، وقد صرفت مصيبتنا التي أصابتنا يسير فظن
العرب وتحدثت أن هذا ونحن منا وضعف نروجك إليه بأخيه على رموس الناس من بين
أظهرا . أرجع بالمرأة فأقم بها أياما ، ثم سلها سلا رفيقا في الليل فالحقها بأبيها ؛ فلمصرى .

(١) الحج (كعب بن بشر وبشر) موضع بمكة .

بحسبها من أيها من حاجة ، وما لنا في ذلك الآن من ^(١)ثورة فيا أصاب منا ، فقل . فلما مر به يومان أو ثلاثة سلهما ، فانطلقت حتى قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم . فذكروا أنها قد كانت ألفت - للزومة التي أصابتها حين رؤيتها قتيار بن أم دهم - ما في بطنها .

الثالثة - قال ابن العربي : « لما أيسر من أمر من المشركين تكلم قوم منهم بالإسلام ولم يمضوا فيه عزيمة ولا اعتقوا به اعتقادا جازما . ويشبه أنهم أرادوا أن يقرؤوا من المسلمين ولا يبعدوا من المشركين . قال علماؤنا : إن تكلم الكافر بالإيمان في قلبه ولسانه ولم يمض فيه عزيمة لم يكن مؤمنا . وإذا وجد مثل ذلك من المؤمن كان كافرا ، إلا ما كان من الوسوسة التي لا يقدر على دفعها فإن الله قد عفا عنها وأسقطها . وقد بين الله لرسوله صلى الله عليه وسلم الحقيقة فقال : « وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ » أي إن كان هذا القول منهم خيانة ومكرا « فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ » بكفرهم ومكرهم بك وقتلهم لك . وإن كان هذا القول منهم خيرا وبعثه الله فيقبل منهم ذلك ويوضحهم خيرا مما نرجع عنهم ويفرلهم ما تقدم من كفرهم وخيانتهم ومكرهم . وجمع خيانة خيائن ، وكان يجب أن يقال : خوائن لأنه من ذوات الواو ، إلا أنهم فرغوا بينه وبين جمع خائنة . ويقال : خائن وخوان وخونة وخانة .

قوله تعالى : **إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوُوا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ شَيْءٍ لَخْتِى يَهَاجِرُوا وَإِنْ اسْتَنْصَرُوا فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ٥٧** وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ

إِلَّا تَزْعُمُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٦﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا
وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ
الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ
بَعْدِ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ
أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٨﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى - قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ ختم السورة بذكر الموالاة ليعلم كل فريق
وليه الذي يستعين به . وقد تقدم معنى الهجرة والجهاد لغة ومعنى . ﴿ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا ﴾
معطوف عليه . وهم الأنصار الذين تبعوا الدار والإيمان من قبلهم ، وأنضوى اليهم النبي صلى
الله عليه وسلم والمهاجرون . ﴿ أُولَئِكَ ﴾ رفع بالابتداء . ﴿ بَعْضُهُمْ ﴾ ابتداء ثانٍ ﴿ أَوْلِيَاءُ بَعْضُهُمْ ﴾
خبره ، والجميع خبر « إِيَّا » . قال ابن عباس : « أولياء بعض » في الميراث ؛ فكانوا يتوارثون
بالحجرة ، وكان لا يرث من آمن ولم يهاجر من هاجر فنسخ الله ذلك بقوله : « وأولوا الأرحام »
الآية . أخرجه أبو داود . وصار الميراث لدوى الأرحام من المؤمنين . ولا يتوارث أهل
ملتين شيئا . ثم جاء قوله عليه السلام : « اَلْحَقُوا الْفَرَاخَ بِأَهْلِهَا » على ما تقدم بيانه في آية
الموارث . وقيل : ليس هنا نسخ ، وإنما معناه في النصرة والمعونة ؛ كما تقدم في « النساء » .
﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا ﴾ ابتداء والخبر ﴿ مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ ﴾ وقرأ يحيى بن وثاب والأعمش
وحزمة « من ولايتهم » بكسر الواو . وقيل هي لغة . وقيل : هي من وليت الشيء ؛ يقال :
ولي بين الولاية . ووال بين الولاية . والفتح في هاتين وأحسن ؛ لأنه بمعنى النصرة
والنفس . وقد تطلق الولاية والولاية بمعنى الإمارة .

الثانية - قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ أَسْتَضْرِكُمْ فِي الدِّينِ ﴾ يريد إن دعوا هؤلاء المؤمنون الذين لم يهاجروا من أرض الحرب عنكم بغير أو مال لاستفادهم فأعينوهم ، فذلك فرض عليكم فلا تخذلوهم . إلا أن يستضروكم على قوم كفار بديكم وبينهم ميثاق فلا تصروهم عليهم ، ولا تنقضوا العهد حتى تتم مدته . ابن العربي : إلا أن يكونوا [أسراء] مستضعفين فإن الولاية معهم قائمة والنصرة لهم واجبة ، حتى لا تبقى مائة من تطرف حتى تخرج إلى استفادهم إن كان عدداً يحتمل ذلك ، أو تبدل جميع أموالنا في استخراجهم حتى لا يبقى لأحد درهم . كذلك قال مالك وجميع العلماء ، فإن الله وإنا إليه راجعون ، على ما حل بالخلق في تركهم إخوانهم في أمر العدو وبأيديهم خزائن الأموال ، وفضول الأحوال والقدرة والعدد والقوة والبلد . الزجاج : ويجوز « فليكن النصر » بالنصب على الإغراء .

الثالثة - قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِعَهْدِهِمْ ﴾ قطع الله الولاية بين الكفار والمؤمنين ، بفعل المؤمنين بعضهم أولياء بعض ، والكفار بعضهم أولياء بعض ، يتباصرون بدينهم ويتماطلون بإعتقادهم . قال علماؤنا في الكافرة يكون لها الأخ المسلم : لا يزوجه ، إذ لا ولاية بينهما ، ويزوجه أهل ملتها . فكذلك لا يزوجه المسلم إلا مسلم فكذلك الكافرة لا يزوجه إلا كافر قريب لها ، أو أسقف ، ولو من مسلم ، إلا أن تكون معتقة ، فإن عقد على غير المعتقة ففسخ إن كان مسلم ، ولا يمرض للنصراني . وقال أصبغ : لا يفسخ عقد المسلم أولى وأفضل .

الرابعة - قوله تعالى : ﴿ إِلَّا تَقُولُ ﴾ الضمير عائد على الموارنة والتزامها . المعنى : إلا تتكلمهم يتوارثون كما كانوا يتوارثون ، قاله ابن زيد . وقيل : هي عائدة على الناصر والموازرة والمعاونة واتصال الأيدي . ابن جرير وغيره : وهذا إن لم يفعل تقع الفتنة عنه عن قريب ، فهو أكد من الأول . وذكر الترمذي عن عبد الله بن مسلم بن هرم عن محمد وسعد أبي عبيد عن أبي حاتم المزني قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا جاءكم من نرضون

ربنه وخلقه فأتكفوه إلا تعملوه تكن فتنة في الأرض فساد كبير . قالوا : يا رسول الله ، وإن كان فيه ؟ قال : « إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فأتكفوه » ثلاث مرات . قال : حديث غريب . وقيل : يعود على حفظ العهد والميثاق الذي تضمنته قوله : « إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق » . وهذا وإن لم يفعل فهو الفتنة نفسها . وقيل : يعود على النصر للمسلمين في الدين . وهو معنى القول الثاني . قال ابن إسحاق : جعل الله المهاجرين والأنصار أهل ولايته في الذين دون من سواهم ، وجعل الكافرين بعضهم أولياء بعض . ثم قال : ﴿ إلا تعملوه ﴾ وهو أن يتوكل المؤمن الكافر دون المؤمنين . ﴿ تَكُنْ فِتْنَةً ﴾ أى محنة بالحرب ، وما أخرج منها من الفارات والجلاء والأسر . والفساد الكبير : ظهور الشرك . قال الكشاف : ويجوز النصب في قوله « تكن فتنة » على معنى تكن فعلكم فتنة وفسادا كبيرا . ﴿ حَقًّا ﴾ مصدر ، أى حققوا إيمانهم بالمجرة والنصرة . وحقق الله إيمانهم بالبشارة في قوله : « لَمْ يَغْفِرْهُ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ » أى ثواب عظيم في الجنة .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا ﴾ يريد من بعد الهدى وببيعة الرضوان . وذلك أن الهجرة من بعد ذلك كانت أقل رتبة من الهجرة الأولى . والهجرة الثانية هى التى وقع فيها الصلح ، ووضعت الحرب أوزارها نحو عامين ثم كان فتح مكة . ولهذا قال عليه السلام : « لا هجرة بعد الفتح » . فبين أن من آمن وهاجر من بعد يلحق بهم . ومعنى « متكم » أى مثلكم في النصر والموالاة .

السادسة — قوله تعالى : ﴿ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ ﴾ ابتداء . والواحد ذو ، والرحم مؤنثة ، والجمع أرحام . والمراد بها هنا المصبات دون المولود بالرحم . ومما يبين أن المراد بالرحم المصبات قول العرب : وَصَلَتْكَ رَحِمٌ . لا يريدون قرابة الأم . قالت قبيلة بنت الحارث أخت النضر بن الحارث — كذا قال ابن هشام . قال السجستاني : الصحيح أنها بنت النضر لا أخته ، كذا وقع في كتاب الدلائل — ترى أباه حين قتل النبي صلى الله عليه وسلم صبغاً . بالفراء :

يا راجئاً إن الأثيل مظنة • من صبح خاسية وأنت موفق
أبلغ بها ميتاً بأن نجية • ما إن زال بها النجائب تخفق
متى اليك وعرة مسفوحة • جادت بواكفها وأمرى تخفق
هل يسمعتي النضر إن نديته • أم كيف يسمع ميت لا ينطق
أحمد يا خير صنء كريم • في قومها والفعل فخل مرق
ما كان ضرك لو مننت وربما • من الفتى وهو المنيظ المحقق
لو كنت قابل فدية لعديته • بأعز ما يفسدى به ما ينطق
فالنضر أقرب من أسرّت قرابة • وأحقهم إن كان عتق يعتق
ظلت سيوف بنو أبيه تنوشه • لله أرحام هناك تشفق
صبراً يقاد إلى المنية متعباً • رسف المقيد وهو عان موثق

السابعة - وأختلف السلف ومن بعدهم في توريث ذوى الأرحام - وهو من لا سهم له في الكتاب - من قرابة الميت وليس بصصة؛ كأولاد البنات، وأولاد الأخوات، وبنات الأخ، والعمة والخاله، والعم أخ الأب للأُم، والجد أبي الأم، والجدّة أم الأم، ومن أذلّ بهم . فقال قوم : لا يرث من لا فرض له من ذوى الأرحام . وروى عن أبي بكر الصديق وزيد بن ثابت وابن عمر، ورواية عن عليّ، وهو قول أهل المدينة، وروى عن مكحول والأوزاعي، وبه قال الشافعي رضي الله عنه . وقال بتوريثهم : عمر بن الخطاب وابن مسعود ومعاذ وأبو الرداء وعائشة وعليّ في رواية عنه، وهو قول الكوفيين وأحمد وإسحاق . واحتجوا بالآية، وقالوا : وقد أجمع في ذوى الأرحام سببان القرابة والإسلام، فهو أولى ممن له سبب واحد وهو الإسلام . أجاب الأولون فقالوا : هذه آية مجملة جامعة، والظاهر بكل رحم قرّب أو بعد، وآيات الموارث مفسّرة والمفسّر قاض على المجمل ومبين . قالوا : وقد جعل النبي صلى الله عليه وسلم الولاء سبباً ثابتاً، أقام المولى فيه مقام المصبة فقال : " الولاء لمن

أعني“ . ونهى عن بيع الولاء وعن هبته . احتج الآخرون بما روى أبو داود والدارقطني عن
المقدام قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” من ترك مالا فليأته — وربما قال فليأله الله
وإلى رسوله — ومن ترك مالا فلورثته فإنا وارث من لا وارث له أعقل عنه وأرثه والخال
وارث من لا وارث له يعقل عنه ويرثه “ . وروى الدارقطني عن طاوس قال قالت عائشة
رضي الله عنها : ” الله مولى من لا مولى له ، والخال وارث من لا وارث له “ . موقوف .
وروى عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ” الخال وارث “ .
وروى عن أبي هريرة قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ميراث العمة والخال فقال
” لا أدري حتى يأتي جبريل “ ثم قال : ” أين السائل عن ميراث العمة والخال ؟ “ قال :
فأتى الرجل فقال : ” سألني جبريل أنه لا شيء لها “ . قال الدارقطني : لم يسنده غير مسعدة
عن محمد بن عمرو وهو ضعيف ، والصواب مرسل . وروى عن الشعبي قال قال زياد بن
أبي سفيان بليلسه : هل تدري كيف قضى عمر في العمة والخال ؟ قال لا . قال : إني لأعلم
خلق الله كيف قضى فيما عمر ، جعل الخالة بمنزلة الأم ، والعمة بمنزلة الأب .

تفسير سورة براءة

مدنية باتفاق

قوله تعالى : بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ
الْمُشْرِكِينَ ①

فيه خمس مسائل :

الأولى - في اسمائها . قال سعيد بن جبير : سألت ابن عباس رضى الله عنه عن سورة براءة فقال : تلك الفاصحة ، ما زال يقرأ : ومنهم ومنهم ، حتى خفنا ألا ندع أحدا . قال الفشيري أبو نصر عبد الرحيم : هذه السورة نزلت في غزوة تبوك ، ونزلت بعدها . وفي أوّلها نبذ عهد الكفار إليهم . وفي السورة كشف أسرار المنافقين . وتسمى الفاصحة والبحة ، لأنها تبحث عن أسرار المنافقين . وتسمى المبحرة . والمبحرة : البحث .

الثانية - وأختلف العلماء في سبب سقوط البسلة من أوّل هذه السورة على أقوال خمسة : الأول - أنه قيل كان من شأن العرب في زمانها في الجاهلية ، إذا كان بينهم وبين قوم عهد فأرادوا نقضه كتبوا إليهم كتابا ولم يكتبوا فيه بسلة ، فلما نزلت سورة براءة بنقض العهد الذي كان بين النبي صلى الله عليه وسلم والمشركين بحث بها النبي صلى الله عليه وسلم هل ابن أبي طالب رضى الله عنه ، فقرأها عليهم في الموسم ، ولم يسمل في ذلك على ما جرت به عادتهم في نقض العهد من ترك البسلة . وقول ثان - روى النسائي قال حدثنا أحد قال حدثنا محمد بن المنثري عن يحيى بن سعيد قال حدثنا عوف قال حدثنا يزيد الرقاشي قال قال

(١) في بعض الأصول : « الراسخ » . والذي في صحيح الترمذي : « الفارسي » . قال الترمذي تفسيرا عليه : « ... حسن صحيح ، لا نعرفه إلا من حديث عوف عن يزيد الفارسي عن ابن عباس ، ويزيد الفارسي قد روى عن ابن عباس خبر حديث . ويقال : هو يزيد بن هرمز ، ويزيد الرقاشي هو يزيد بن أبان الرقاشي ، ولم يدرك ابن عباس ، إنما روى عن أنس بن مالك ، وكلاهما من البصرة . ويزيد الفارسي أقدم من يزيد الرقاشي » .

لنا ابن عباس : قلت لعنّان ما حكمك إلى أن عمدتم إلى « الأنفال » وهي من المثاني ، وإلى « براءة » وهي من المئين فقرتم بينهما ؛ ولم تكتبوا سطر بسم الله الرحمن الرحيم ، ووضمموها في السبع الطول ؛ فما حكمك على ذلك ؟ قال عثان : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا نزل عليه الشيء يدعو بعض من يكتب عنده فيقول : « ضموا هذا في السورة التي فيها كذا وكذا » . وتزل عليه الآيات فيقول : « ضموا هذه الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا » . وكانت « الأنفال » من أوائل ما أنزل ، و « براءة » من آخر القرآن ، وكانت قصتها شبيهة بقصتها ، وقُبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يبين لنا أنها منها فظننت أنها منها ؛ فنمّ قرنت بينهما ولم أكتب بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم . وخرجه أبو عيسى الترمذی وقال : هذا حديث حسن . وقول ثالث - روى عن عثان أيضا . وقال مالك فيما رواه ابن وهب وابن القاسم وابن عبد الحكم : إنه لما سقط أولها سقط بسم الله الرحمن الرحيم معه . وروى ذلك عن ابن عجلان أنه بلغه أن سورة « براءة » كانت تعدل البقرة أو قرعها ، فذهب منها ؛ فلذلك لم يكتب بينهما بسم الله الرحمن الرحيم . وقال سعيد بن جبیر : كانت مثل سورة البقرة . وقول رابع - قاله خارجه وأبو عصمة وغيرهما . قالوا : لما كتبوا المصحف في خلافة عثان اختلف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال بعضهم : براءة والأنفال سورة واحدة . وقال بعضهم : هما سورتان . فتمزكت بينهما فرجة لقول من قال إنهما سورتان ، وتمزكت بسم الله الرحمن الرحيم لقول من قال هما سورة واحدة ؛ ففرضى الفريقان معاً ، وثبتت مجتمعا في المصحف . وقول خامس - قال عبد الله بن عباس . سألت علي بن أبي طالب لم لم يكتب في براءة بسم الله الرحمن الرحيم ؟ قال : لأن بسم الله الرحمن الرحيم أمان ، وبراءة تزلت بالسيف ليس فيها أمان . وروى معناه عن المبرد قال : ولذلك لم يجمع بينهما ؛ فإن بسم الله الرحمن الرحيم رحمة ، وبراءة تزلت سخطة . ومثله عُن سفيان . قال سفيان بن عيينة : إنما لم

(١) تسج الطول : سبع سور ، وهي سورة البقرة ، وآل عمران ، والتساء ، والمائدة ، والأنعام ، والأعراف فهذه ست سور طويلة . واختلفوا في السابعة ؛ فهم من قال : السابعة الأنفال وبراءة ؛ وطمحا سورة واحدة . ومنهم من جعل السابعة سورة يونس .

تكتب في صدر هذه السورة بسم الله الرحمن الرحيم لأن التسمية رحمة، والرحمة أمان، وهذه السورة نزلت في المنافقين وبالسيف، ولا أمان للمنافقين. والصحيح أن التسمية لم تكتب؛ لأن جبريل عليه السلام ما نزل بها في هذه السورة؛ قاله القشيري. وفي قول عثمان: قُضِرَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يبين لنا أنها منها، دليل على أن السور كلها انتظمت بقوله وتبينه، وأن برائة وحدها صُمِّتْ إلى الأنفال من غير عهد من النبي صلى الله عليه وسلم؛ لما حمله من الجاهل قبل تبينه ذلك. وكأنا تُدْعيان الفريقتين، فوجب أن تُجمعا وتضم إحداهما إلى الأخرى؛ للوصف الذي لزمهما من الاقتران ورسول الله صلى الله عليه وسلم حي.

الثالثة - قال ابن العربي: هذا دليل على أن القياس أصل في الدين، ألا ترى إلى عثمان وأعيان الصحابة كيف لجئوا إلى قياس الشبه عند عدم النص، ورأوا أن قصة «برائة» شبيهة بقصة «الأنفال» فألحقوها بها؛ فإذا كان الله تعالى قد بين دخول القياس في تأليف القرآن لما ظنك بسائر الأحكام.

الرابعة - قوله تعالى: ﴿بَرَاءَةٌ﴾ تقول: برئت من الشيء أبرأ براءة فإنا منه برئ، إذا أزلته من نفسك، وقطعت سبب ما بينك وبينه. و«برائة» رفع على خبر ابتداء مضمرة، تقديره هذه براءة. ويصح أن ترفع بالابتداء. والخبر في قوله: «إلى الذين». «وَجَازَ الْإِبْتِدَاءُ بِالنِّكَرَةِ لِأَنَّهَا مَوْصُوفَةٌ فَتَمَزَّجَتْ تَمَرِيفًا وَجَازَ الْإِخْبَارَ عَنْهَا». وقرأ عيسى بن عمر «برائة» بالنصب، على تقدير الترموا براءة، ففيها معنى الإغراء. وهي مصدر على فعالة؛ كالتشاة والدئامة.

الخامسة - قوله تعالى: ﴿إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ يعني إلى الذين عاهدكم رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ لأنه كان المتولَّى للمقوِّل، وأصحابه بذلك كلهم راضون؛ فكانهم عاهدوا وعاهدوا أنفسهم المقد اليهم. وكذلك ما عقده أئمة الكفر على قومهم منسوب إليهم بحسب عليهم يؤخذون به، إذ لا يمكن غير ذلك؛ فإن تحصيل الرضا من الجميع متعذر. فإذا عقد الإمام لما يراه من المصلحة أمراً لزم جميع الرعايا.

قوله تعالى : **فَيَسْجُوْا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَلَّوْا أَنْتُمْ غَيْرُ**
مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ يُخْزِي الْكَافِرِينَ ﴿٩٠﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى - قوله تعالى : (**فَيَسْجُوْا**) رجع من الخبر إلى الخطاب ، أى قُلْ لِمَ يَسْجُوْا
 أى سبوا في الأرض مقبلين ومدبرين ، آمنين غير خائفين أحدا من المسلمين بحرب ولا سلب
 ولا قتل ولا أسر . يقال : ساح فلان في الأرض يسبح يسباحة وسبوحا وسبحانا ، ومنه السبح
 في الماء الجاري المنبسط ، ومنه قول طرفة بن العبد :

لو خفتُ هذا منك ما لَئِنِّي • حتى ترى خيلا أمامي تسبح

الثانية - وأختلف العلماء في كيفية هذا التأجيل ، وفي هؤلاء الذين يرى الله منهم
 ورسوله . فقال محمد بن إسحاق وغيره : هما صنفان من المشركين ، أحدهما كانت مدة عهده
 أقل من أربعة أشهر فأهل تمام أربعة أشهر ، والآخر كانت مدة عهده بغير أجل محدود
 فقصّر به على أربعة أشهر ليرناده لنفسه . ثم هو حرب بعد ذلك لله ورسوله وللمؤمنين ، يُقتل
 حيث ما أدركه ويُؤسر إلا أن يتوب . وابتداء هذا الأجل يوم الحج الأكبر ، وانقضاؤه إلى
 عشر من شهر ربيع الآخر . فأما من لم يكن له عهد فإنما أجله انقضاء الأربعة الأشهر
 الحُرْم . وذلك خمسون يوما : عشرون من ذي الحجة والمحرّم . وقال الكلبي : إنما كانت
 الأربعة الأشهر لمن كان بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد دون أربعة أشهر ،
 ومن كان عهده أكثر من أربعة أشهر فهو الذي أمر الله أن يُتِمَّ له عهده بقوله : **فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ**
عَهْدَهُمْ إِلَى مَدَّتِهِمْ » وهذا اختيار الطبري وغيره . وذكر محمد بن إسحاق ومجاهد وغيرهما :
 أن هذه الآية نزلت في أهل مكة . وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صالح قريشا عام
 الحديبية ، على أن يضموا الحرب عشر سنين ، يأمن فيها الناس ويكف بعضهم عن بعض ،
 فدخلت نزعاة في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ودخل بنو بكر في عهد قريش ، فعمّلت

بنو بكر على خراعة وقضوا عهدهم . وكان سبب ذلك بما كان لبني بكر عند خراعة قبل الإسلام
 بمدة ، فلما كانت المدة المنتفة يوم الحديبية ، آمن الناس بعضهم بعضاً ، فأغشم بنو الدليل
 من بني بكر - وهم الذين كان الدم لم - تلك الفرصة وغفلة خراعة ، وأرادوا إدراك ثار
 بني الأسود بن دؤن ، الذين قتلهم خراعة ، فخرج نوفل بن معاوية الدليل فيمن أطاعه من بني
 بكر بن عبد مناة ، حتى يتوا خراعة واقتلوا ، وأعات قريش بني بكر بالسلاح ، وقوم من قريش
 أعانهم بأنفسهم ، فأنهزمت خراعة إلى الحرم على ما هو مشهور مسطور ، فكان ذلك نقضا
 للصلح الواقع يوم الحديبية ، فخرج عمرو بن سالم الخزاعي وبديل بن ورقاء الخزاعي وقوم من
 خراعة ، فقدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم مستغيثين به فيما أصابهم به بنو بكر وقريش ،
 وأنشد عمرو بن سالم فقال :

يا رب إني ناشدُ عَدا . جَلَفَ أَيْنا وأبيهِ الأَعدا
 كنت لنا أباً وكنا ولداً . نَمَتْ أَسْلَما ولم تَرعَ يدا
 فَأَنصَر هَذاكَ اللهُ نَصراً عَدا . وَأَدْعُ جِباةَ اللهِ يا تَوا سَدا
 فيهم رسولُ اللهِ قد تَجَرَّنا . أبيضُ مِثلَ الشَّمسِ مَحوُصَدا
 إن يَسمِ خَشفاً وجِهُه تَربَدا . في قَيلَق كالبحر يَجرى مَزيدا
 إن قَريشاً أخلقوك المَوصِدا . وقَضُوا مِثاقَكَ المَؤَكِّدا
 وذَمُّوا إن لَست تَدعُو أحدا . وهُم أدلُّ وأقلُّ عَدا
 هُم يَتَكُونُوا بالوَتير عَدا . وَقَلُّوا رَخصاً وَجَبا

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا تُصِرْتُ إن لم أنصر بني كعب " . ثم نظر إلى صحابة
 فقال : " إنَّها لتَستَهِل أنصر بني كعب " ، يعني خراعة . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) في هامش تاريخ الطبري طبع أوروبا قسم ١ ص ١٦١٩ : « دؤن » .

(٢) بيت اتوم والحدود أوقع بهم لولا . (٣) راجع تاريخ الطبري لسيرة ابن هشام في فتح مكة .

(٤) في الأصول : « الحطيم » . والتصويب من سيرة ابن هشام وتاريخ الطبري وسجع بانوت وكتب السماة

في ترجمة « عمرو بن سالم الخزاعي » . ولقوبه : اسم ماء بأخلف مكة لخراعة .

لبدل بن ورقاء ومن معه : " إن أبا سفيان ساقٍ ليشد القيد ويزيد في الصلح وسينصرف "غير حاجة". فقبلت قريش على ما فعلت ، فخرج أبو سفيان إلى المدينة ليستدبم القيد ويزيد في الصلح ، فرجع بغير حاجة كما أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، على ما هو معروف من خبره .
ويجهز رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مكة فتفتحها الله ، وذلك في سنة ثمان من الهجرة . فلما بلغ هوازن فتح مكة جمعهم مالك بن عوف النخعي ، على ما هو معروف مشهور من خزاة حنين . وساقى بعضها . وكان الظفر والنصر للمسلمين على الكافرين . وكانت وقعة هوازن يوم حنين في أول شوال من السنة الثامنة من الهجرة . وترك رسول الله صلى الله عليه وسلم قسم الفئام من الأموال والنساء ، فلم يقسمها حتى أتى الطائف ، فحاصرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بضعا وعشرين ليلة . وقبل غير ذلك . ونصب عليهم المتجنيق ورواهم به ، على ما هو معروف من تلك الخزاة . ثم أنصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الجعرانة ، وقسم غنائم حنين ، على ما هو مشهور من أمرها وخبرها . ثم أنصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم وبنو قريظة ، وأقام الجليلي قتات بن أبيد في تلك السنة . وهو أول أمير أقام الحج في الإسلام . وخرج المشركون على مشاعرهم . وكان قتات بن أبيد خيرا فاضلا ورعا . وقدم كعب بن زهير ابن أبي سلمى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأستدعه ، وأقام على رأسه بقصيدته التي أولها :

• بأت سعد قلبي اليوم متبول •

وأستدعاه إلى آخرها ، وذكر فيها المهاجرين فأتى عليهم - وكان قبل ذلك قد سخط له نجاه في النبي صلى الله عليه وسلم - فعاب عليه الأنصار إذ لم يذكرهم ، فغدا على النبي صلى الله عليه وسلم بقصيدته يتدح فيها الأنصار فقال :

من سره كرم الحياة فلا يل • في يقنن من صالحي الأنصار •
وإوتوا المكرم كبرا عن كابر • أنت الخيار لهم بنو الأخيار •
المكرهين السهري بأندع • كسواقل الهندى خير قصار •

(١) في ابن هشام : « في الآية » . (٢) القتب : الجلاء من القوارص .
(٣) السهري : الرخ . وساعة العزة : أعضاها وأصعها كعبا . والمختل : الرياح .

والناظرين بأعين عمرة • كالبتر ضير كيلة الأبصار
 والبائسين نفوسهم لنيتهم • للسوت يوم تافقي وكرار
 يظهرون برونه فكلهم • بدما من علقوا من الكفار
 دبروا كما دبرت بطن خفية • غلب الرقاب من الأسود ضوار^(١)
 وإذا حلت لينعوك اليهم • أصبحت عند معازل الأغفار^(٢)
 ضربوا عليا يوم بدر ضربة • دانت لوقتها جميع زار^(٣)
 لو يعلم الأفوام علي كنه • فيهم لصدقي الذين أماري^(٤)
 قوم إذا خوت النجوم فانهم • للطارقين النازلين مقاري^(٥)

ثم أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة بعد انصرافه من الطائف ذا الحجة والمحرّم وصفر وبيع الأول وبيع الآخر وجمادى الأولى وجمادى الآخرة، وخرج في رجب من سنة تسع بالمسلمين إلى غزوة الروم، غزوة تبوك. وهي آخر غزوة غزاها. قال ابن جرير عن جاهد: لما أنصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم من تبوك أراد الحج ثم قال: "إنه يحضر البيت عرأة مشركون يطوفون بالبيت فلا أحب أن أجمع حتى لا يكون ذلك". فأرسل أبا بكر أميرا على الحج، وبقي معه أربعين آية من صدر «براءة» ليقرأها على أهل الميّم. فلما خرج دعا النبي صلى الله عليه وسلم عليا وقال: "انرج بهذه القصّة من صدر براءة فأذن بذلك في الناس إذا اجتمعوا". فخرج عليّ على ناقة النبي صلى الله عليه وسلم القمباء حتى أدرك أبا بكر الصديق رضي الله عنهما بذى الحليفة. فقال له أبو بكر لما رآه: أيّير أوما مور؟ فقال: بل مامور ثم نهضا، فأقام أبو بكر للناس الحج على منازلهم التي كانوا عليها في الجاهلية، في كتاب النّسائي عن جابر: وأن عليا قرا على الناس «براءة» حتى ختمها قبل يوم القريّة بيوم.

(١) دبروا: اعتادوا. وخفية: موضع كثير الأسد. والقباب: القنابر الرقاب. والضواري: الحوائط كد ضرين بأكل لحوم الناس الواحد ضار. (٢) المعازل: الحصون. والأغفار: أولاد الأوربة (الوعل) واحدة ما غفر. (٣) علي: هو علي بن بكر بن وائل. ويقال: هو علي أخوه عبد شاة بن خزيمه من أمة. وقائلا: هو علي بن مسعود بن مازن. (٤) خوت: إذا لم يكن لها سطر. والمقاري: جمع مقري، الذي يقرى الضيفت.

وفي يوم غرة وفي يوم النحر عند انقضاء خطبة أبي بكر في الثلاثة الأيام . فلما كان يوم النفر
 الاول قام أبو بكر فخطب الناس ، فحدثهم كيف ينبغيون وكيف يرثون ، يعاينهم مناسكهم .
 فلما فرغ قام عليّ فقرأ على الناس « براءة » حتى ختمها . وقال سليمان بن موسى : لما خطب
 أبو بكر بعرفة قال : « قُرِّبَ عليّ » فأذ رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقام عليّ ففعل :
 قال : ثم وقع في قضبي أن جميع الناس لم يشاهدوا خطبة أبي بكر ، فجعلت أتبع الفساطيط
 يوم النحر . وروى الترمذي عن زيد بن يثيج قال : سألت عليّاً بأي شيء بُعثت في الحج ؟
 قال : بُعثت بأربع : ألا يطوف بالبيت عريان ، ومن كان بينه وبين النبي صلى الله عليه
 وسلم عهد فهو إلى ميثقه ، ومن لم يكن له عهد فاجله أربعة أشهر ، ولا يدخل الجنة إلا نفس
 مؤمنة ، ولا يجتمع المسلمون والمشركون بعد عامهم هذا . قال : ثم هذا حديث حسن صحيح .
 وخرجه النسائي وقال : فكنيت أناذي حتى تحيل صوفي . قال أبو عمر : بُعث عليّ لِيَذْ
 إلى كل ذي عهد عهده ، ويهد إليهم ألا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان .
 وقرأ الحج في ذلك العام سنة تسع أبو بكر . ثم حج رسول الله صلى الله عليه وسلم من قابل حجته
 التي لم يحج فيها من المدينة ، فوفقت حجته في ذي الحجة . فقال : « إن الزمان قد استدار »
 الحديث ، على ما يأتي في آية النبي ، بيانه . وثبت الحج في ذي الحجة إلى يوم القيامة . وذكر
 مجاهد : أن أبا بكر حج في ذي القعدة من سنة تسع . ابن العربي : وكانت الحجة في إعطاء
 « براءة » لعل أن براءة تضمنت نقض العهد الذي كان عقده النبي صلى الله عليه وسلم ، وكانت
 سيرة العرب ألا يحل العقد إلا الذي عقده ، أو رجل من أهل بيته ، فأراد النبي صلى الله عليه
 وسلم أن يقطع السنة العرب بالحجة ، ويرسل ابن عمه الحاشمي من بيته ينقض العهد ، حتى
 لا يبقى لهم متكلم . قال تعاضد الزجاج .

الثالثة — قال العلماء : وتضمنت الآية جواز قطع العهد بيننا وبين المشركين .
 ولذلك حالتان : حالة تقضى المدة بيننا وبينهم فتؤذنه بالحرب . والإيذان اختير .

(١) الصل : حدة الصوت مع بحج .

(٢) في قوله تعالى : « إنما الذرة » زيادة في الكفر ... آية ٣٧ من هذه السورة .

والثانية - أن تخلف منهم قدرا؛ فنفيذ إليهم عهدهم كما سبق . ابن عباس : والآية مبسوخة؛ فإن النبي صلى الله عليه وسلم عاهد ثم نبذ العهد لما أمر بالقتال .

قوله تعالى : وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ فيه ثلاث مسائل :

الأولى - قوله تعالى : (وَأَذَانٌ) الأذان : الإعلام لغة من غير خلاف . وهو مطلق على « براءة » . (إِلَى النَّاسِ) الناس هنا جميع الخلق . (يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ) ظرف ، والعامل فيه « أذان » . وإن كان قد وصفه بقوله : « مِّنَ اللَّهِ » ؛ فإن راحة الفعل فيه باقية ، وهي عاملة في الظروف . وقيل : العامل فيه « عَزَّيْ » . ولا يصح عمل « أذان » ؛ لأنه قد وصف فخرج عن حكم الفعل .

الثانية - وأختلف العلماء في الحج الأكبر؛ فقليل يوم حرفة . روى عن عمر وعثمان وابن عباس وطائفة وجهاد . وهو مذهب أبي حنيفة ، وبه قال الشافعي . وعن علي وابن عباس أيضا وابن مسعود وابن أبي أوفى والمثنية بن شعبة أنه يوم النحر . واختاره الطبري . وروى ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقف يوم النحر في النجدة التي حج فيها فقال : « أيُّ يوم هذا » فقالوا : يوم النحر . فقال : « هذا يوم الحج الأكبر » . أخرجه أبو داود . وخرج البخاري عن أبي هريرة قال : بعثني أبو بكر الصديق رضي الله عنه فيمن يؤذن يوم النحر يعني : لا يمحى بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان . ويومُ الحج الأكبر يومُ النحر . وإنما قيل الأكبر من أجل قول الناس : الحج الأصغر . فنذ أبو بكر إلى الناس في ذلك العام ؛ فلم يمحى عامُ حجة الوداع الذي حج فيه النبي صلى الله عليه وسلم مشرك . وقال ابن أبي أوفى : يومُ النحر يومُ الحج الأكبر ، بهراق فيه الدم ، ويوضع فيه الشعر ، ويأقي فيه التفث ،

وَيَعْلَمُ فِيهِ الْحَرَمُ . وهذا مذهب مالك ، لأن يوم النحر فيه الحج كله ؛ لأن الوقوف إنما هو في ليته ، وَالرَّمْيُ وَالنَحْرُ وَالْحُلُقُ وَالطَّوَافُ فِي صَبِيئِهِ . احتج الأولون بحديث محممة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « يَوْمُ الْحَجِّ الْأَكْبَرُ يَوْمُ عَرَفَةَ » . رواه إسماعيل القاضي . وقال الثوري وابن جريج : الحج الأكبر أيام منى كلها . وهذا كما يقال : يوم صفين ويوم الجمل ويوم بعاث ؛ فيراد به الحين والزمان لا نفس اليوم . وروى عن مجاهد : الحج الأكبر القرآن ، والأصغر الإفراق . وهذا ليس من الآية في شيء . وعنه وعن عطاء : الحج الأكبر الذي فيه الوقوف بعرفة ، والأصغر البعرة . وعن مجاهد أيضا : أيام الحج كلها . وقال الحسن وعبد الله بن الحارث بن نوفل : إنما سُمِّيَ يَوْمُ الْحَجِّ الْأَكْبَرُ لِأَنَّهُ حَجٌّ ذَلِكَ الْعَامَ الْمَسَامُونَ وَالْمَشْرُكُونَ ، وَأَفْلَحَتْ فِيهِ يَوْمَئِذٍ أَعْيَادُ الْمَلِكِ : اليهود والنصارى والمجوس . قال ابن عطية : وهذا ضميم أن يصفه الله عز وجل في كتابه بالأكبر لهذا . وعن الحسن أيضا : إنما سُمِّيَ الْأَكْبَرُ لِأَنَّهُ حَجٌّ فِيهِ أَبُو بَكْرٍ وَتُبُنْتُ فِيهِ الْيَهُودُ . وهو الذي يشبه نظر الحسن . وقال ابن سيرين : يوم الحج الأكبر العام الذي حج فيه النبي صلى الله عليه وسلم بحجة الوداع ، وحجّت معه فيه الأمم .

الثالثة — قوله تعالى : (إِنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ) « أن » بالفتح في موضع نصب . والتقدير إن الله . ومن قرأ بالكسر فذكره بمعنى قال إن الله . « برى » خبر إن . « ورسوله » عطف على الموضع ، وإن شئت على المضمر المرفوع في « برى » . كلاهما حسن ؛ لأنه قد طال الكلام ، وإن شئت على الابتداء والخبر محذوف ؛ التقدير : ورسوله برى منهم . ومن قرأ « ورسوله » بالنصب — وهو الحسن وغيره — عطف على اسم الله عز وجل

(١) جنيين (بكرتين ونشدتين) : موضع قريب للزقة على شاطئ الفرات . كان فيه رقعة بين علي رضي الله عنه وسارية في سنة ٢٧ هـ .

ويوم الجمل كان فيه رقعة بين علي وعائشة أم المؤمنين رضي الله عنهما ؛ قتل فيه عدة من الصحابة وغيرهم . وكان في سنة ٢٦ هـ .

يوم بعاث (بضم أوله واللين المهملة) وحكاها بعضهم بالتين المحببة) : موضع من المدينة على لبنتين . كانت واقع بين الأوس والخزرج في الجاهلية .

(٢) القرآن (بالكسر) : الجمع بين الحج والعمرة . والإفراد : هو أن يحرم بالحج وحده .

عَلَى الْأَمْنِ . وَفِي الشَّوَاذِ « وَرَسُولِهِ » بِالْخَفْضِ عَلَى الْقِسْمِ ، أَيْ وَحَقِّ رَسُولِهِ ، وَرُوِيَ
عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ . وَقد تقدمت قصة عمر فيها أول الكتاب . (فَإِنْ تَبَيَّنَ) أَيْ عَنِ الشَّرْكِ .
(فَأَمَّا مَن لَّكُم) أَيْ أَنْفَع لَكُمْ . (وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ) أَيْ عَنِ الْإِيمَانِ . (فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ
مُجِيرِي اللَّهِ) أَيْ فَأَتَيْنَاهُ ؛ لِأَنَّهُ حَيَّطَ بِكُمْ وَمَنَزَلَ عِقَابَهُ عَلَيْكُمْ .

قوله تعالى : (إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُواكُمْ
شَيْئًا وَلَا يُمَظِّهَرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتُوا إِلَيْنَا بَعْدَهُمْ إِلَيْنَا مَدَّتْهُمْ إِنْ
اللَّهُ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ) ①

قوله تعالى : (إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) فِي مَوْضِعٍ نَّصَبَ بِالِاسْتِثْنَاءِ الْمُتَّصِلِ ؛
الْمَعْنَى : أَنَّ اللَّهَ بَرِّئَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ إِلَّا مِنَ الْمُعَاهِدِينَ فِي مَدَّةٍ عَاهَدَهُمْ . وَقِيلَ : الْإِسْتِثْنَاءُ
مَنْعُوعٌ ؛ أَيْ أَنَّ اللَّهَ بَرِّئَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ فَتَبَيَّنُوا عَلَى الْمَهْدِ فَأَتُوا إِلَيْنَا بِمَدَّتِهِمْ .
وَقَوْلُهُ : « ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُواكُمْ » ② بِدَلٍّ عَلَى أَنَّهُ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْمَهْدِ مِنْ خَاسٍ بِعَهْدِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ تَبَيَّنَ
عَلَى الْإِيمَانِ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ سَبَّحَانَهُ لَنِيَّةٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي نَقْضِ عَهْدٍ مِنْ خَاسٍ ، وَأَمَرَ بِالْوَفَاءِ لِمَنْ
بَقِيَ عَلَى عَهْدِهِ إِلَى مَدَّتِهِ . وَمَعْنَى « لَمْ يَنْقُصُواكُمْ » أَيْ مِنْ شُرُوطِ الْمَهْدِ شَيْئًا . (وَلَمْ يُمَظِّهَرُوا)
لَمْ يَدَاوُوا . وَقَرَأَ عِكْرِمَةُ وَعَطَاءُ بْنُ يَسَارٍ « ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُواكُمْ » بِالضَّادِّ مُعْجَمَةً عَلَى حَذْفِ مُضَافٍ ؛
التَّقْدِيرُ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوا عَهْدَهُمْ . يُقَالُ : إِنَّ هَذَا مُخْصِصٌ بِرَأْدِهِ بِنَوْفَلَةٍ خَاصَّةٍ . ثُمَّ قَالَ :
(فَأَتُوا إِلَيْنَا بَعْدَهُمْ إِلَى مَدَّتِهِمْ) أَيْ وَإِنْ كَانَتْ أَكْثَرُ مِنْ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ .

قوله تعالى : (فَإِذَا أَسْلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ
وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَحْصُرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ فَإِنْ تَابُوا
وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَغَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) ③

فيه ست مسائل :

(١) خَاسٌ عَهْدُهُ وَهُوَ : قَتْلُهُ .

الأولى — قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا أَنْسَلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ ﴾ أى نخرج . وسلختُ الشهر إذا صرت فى أواخر أيامه ، أَنْسَلَخَ سلخا وسلوخا بمعنى خرجت منه . وقال الشاعر :

إذا ما سلختُ الشهرَ أهلتُ قبله ^(١) • كفى قاتلا سلخى الشهور وإهلاى

وَأَنْسَلَخَ الشهر وَأَنْسَلَخَ النهار من الليل المقبل . وسلخت المرأة درعها نزعته . وفى التنازل «وَأَيَّةٌ هُمُ اللَّيْلِ تَنْسَلُخُ مِنْهُ النَّهَارُ» . ونخلتُ مَسْلَاحًا ، وهى التى ينتربُسرُها أخضر .

والأشهر الحرم فيها للعلماء قولان : قيل هى الأشهر المعروفة ، ثلاثة مُرَدٍّ وواحد مُرَدٍّ . قال الأصم : أريد به من لا عقده له من المشركين ؛ فأوجب أن يسلك عن قتالهم حتى ينسلخ الحرم ، وهو مدة خمسين يوما على ما ذكره ابن عباس ؛ لأن النداء كان بذلك يوم النحر . وقد تقدم هذا . وقيل : شهور العهد أربعة ؛ قاله مجاهد وابن إسحاق وابن زيد وعمرو بن شبيب . وقيل لها حُرْمٌ لأن الله حرم على المؤمنين فيها دماء المشركين والتمريض لهم إلا على سبيل الخير .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ ﴾ عامٌّ فى كل مشرك ، لكن السنة خصت منه ما تقدم بيانه فى سورة « البقرة ^(٢) » من أمراء وراهب وصبي وغيرهم . وقال الله تعالى فى أهل الكتاب : « حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ » . إلا أنه يجوز أن يكون لفظ المشركين لا يتناول أهل الكتاب ، ويقضى ذلك منع أخذ الجزية من عبدة الأوثان وغيرهم ، على ما يأتى بيانه . وأعلم أن مطلق قوله : « اقتلوا المشركين » يقتضى جواز قتلهم بأى وجه كان ؛ إلا أن الأخبار وردت بالنهي عن المثلة . ومع هذا فيجوز أن يكون الصديق رضى الله عنه حين قتل أهل الزدة بالإحراق بالنار ، وبالحجارة وبالرمي من رؤوس الجبال ، والتبنكيس فى الأبار ، تعلق بمعوم الآية . وكذلك إحراق على رضى الله عنه قوما من أهل الزدة يجوز أن يكون ميلا إلى هذا المذهب ، واعتادا على عموم اللفظ . والله أعلم .

(١) فى اللسان والبحر المحيط : « أهلت مثله » . (٢) آية ٣٧ سورة يس .
(٣) راجع ج ٢ ص ٣٤٨ طبع ثانية . (٤) آية ٢٩ من هذه السورة .

الثالثة - قوله تعالى : (حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ) طَائِفٌ فِي كُلِّ مَوْضِعٍ . وَخَصَّ أَبُو حَنِيفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ ؛ كَمَا سَبَقَ فِي سُورَةِ « الْبَقَرَةِ » . ثُمَّ اخْتَلَفُوا ؛ فَقَالَ الْجَسِينُ بْنُ الْفَضْلِ : نَسَخَتْ هَذِهِ كُلُّ آيَةٍ فِي الْقُرْآنِ فِيهَا ذِكْرُ الْإِعْرَاضِ وَالصَّبْرِ عَلَى أَذَى الْأَعْدَاءِ . وَقَالَ الضَّحَّاكُ وَالسَّيِّ - وَعَطَاءٌ : هِيَ مَسْخُوحَةٌ بِقَوْلِهِ : « قَوْمًا مَنَا بَعْدَ وَإِمَا فِدَاءً » . وَآيَةُ لَا يُقْتَلُ أَسِيرٌ صَبْرًا ؛ إِمَّا أَنْ يُمَيَّنَ عَلَيْهِ وَإِمَّا أَنْ يُفَادَى . وَقَالَ مجاهد وقتادة : بَلْ هِيَ نَاصِفَةٌ لِقَوْلِهِ تَعَالَى : « قَوْمًا مَنَا بَعْدَ وَإِمَا فِدَاءً » وَأَنَّهُ لَا يَحُوزُ فِي الْأَسَارَى مِنَ الْمُشْرِكِينَ إِلَّا الْقَتْلُ . وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ : الْآيَتَانِ عَمَكَانِ . وَهُوَ الصَّحِيحُ ؛ لِأَنَّ الْمَنَ وَالْقَتْلَ وَالْفِدَاءَ لَمْ يَزَلْ مِنْ حُكْمِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيهِمْ مِنْ أَوَّلِ حَرْبِ حَارِجِهِمْ ، وَهُوَ يَوْمَ بَدْرٍ كَمَا سَبَقَ . وَقَوْلُهُ : (وَخُلُوتُكُمْ) يَنْتَلِ عَلَيْهِ . وَالْأَخْذُ هُوَ الْأَسْرُ . وَالْأَسْرُ إِنَّمَا يَكُونُ لِلْقَتْلِ أَوْ الْفِدَاءِ أَوْ . . . عَلَى مَا يَرَاهُ الْإِمَامُ . وَمَعْنَى (أَحْضَرُوهُمْ) يُرِيدُ عَنِ التَّصَرُّفِ إِلَى بِلَادِهِمْ وَالِدُخُولِ إِلَيْهِمْ ؛ إِلَّا أَنْ تَأْذَنُوا لَهُمْ فَيَدْخُلُوا إِلَيْكُمْ بِأَمَانٍ .

الرابعة - قوله تعالى : (وَأَقْبَدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ) الْمَرْصَدُ : الْمَوْضِعُ الَّذِي يُرْقَبُ فِيهِ الْعَدُوُّ ؛ يُقَالُ : رَصَدْتُ فَلَانًا أَرْصُدُهُ ، أَيْ رَقَبْتُهُ . أَيْ أَقْبَدُوا لَهُمْ فِي مَوَاضِعِ الْفِتْنَةِ حَيْثُ يُرْصَدُونَ . قَالَ عَاصِمُ بْنُ الْطُّفَيْلِ :

وَلَقَدْ عَلِمْتُ وَمَا خَالَكَ نَاسِيَا ۖ أَنِ الْمَنِيَّةَ لِلْفَقَى بِالْمَرْصَدِ

وَقَالَ عَدِيُّ ^(٢) :

أَعَاذَلْ إِنْ الْجَهْلُ مِنْ لَقَّةِ الْفَقَى ۖ وَإِنْ الْمَنِيَّةُ لِلْفَقِيسِ بِالْمَرْصَدِ

وَفِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى جَوَازِ اغْتِيَابِهِمْ قَبْلَ الدَّعْوَةِ . وَنَصَبَ « كُلَّ » عَلَى الظَّرْفِ ، وَهُوَ اخْتِيَابُ الرِّجَاجِ ؛ وَيُقَالُ : ذَهَبَ طَرِيقًا وَذَهَبَتْ كُلُّ طَرِيقٍ . أَوْ بِاسْتِقْطَاعِ الْخِلَافِضِ ؛ التَّغْدِيرُ : فِي كُلِّ مَرْصَدٍ وَعَلَى كُلِّ مَرْصَدٍ ؛ فَيُجْمَعُ الْمَرْصَدُ اسْمًا لِلطَّرِيقِ . وَخَطَأً أَبُو عَلِيٍّ الرِّجَاجَ

(١) راجع ج ٢ ص ٣٥١ طبع ثانية .

(٢) آية ٤ سورة محمد .

(٣) في الأصول : « الثانية » والتصويب من القبان .

في جعله الطريق طرفا وقال : الطريق مكان مخصوص كالبيت والمسجد ؛ فلا يجوز حذف حرف الجر منه إلا فيما ورد فيه الحذف مما ؛ كما حكى سيويه : دخلت الشام ودخلت البيت ؛ وكما قيل :

• كما عَصَلَ الطريقَ الثعلبُ ^(١) •

الخامسة — قوله تعالى : (فَإِنْ تَابُوا) أى من الشرك . (وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ تَقَرُّوا سَبِيلَهُمْ) هذه الآية فيها تأمل ؛ وذلك أن الله تعالى علق القتل على الشرك ، ثم قال : « فَإِنْ تَابُوا » . والأصل أن القتل متى كان للشرك يزول بزواله ؛ وذلك يقتضى زوال القتل بمجرد التوبة ، من غير اعتبار إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ؛ ولذلك سقط القتل بمجرد التوبة قبل وقت الصلاة والزكاة . وهذا بين في هذا المعنى ؛ غير أن الله تعالى ذكر التوبة وذكر معها شرطين آخرين ؛ فلا سبيل إلى إلغائهما . نظيره قوله صلى الله عليه وسلم : « أُمِرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِمُحْضَرٍّ أَوْ حَسْبٍ عَلَى اللَّهِ » . وقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه : والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة ؛ فإن الزكاة حق المال . وقال ابن عباس : رجم الله أبا بكر ما كان أفقهه . وقال ابن العربي : فانتظم القرآن السنة وأطردا . ولا خلاف بين المسلمين أن من ترك الصلاة وسائر الفرائض مستجلاً كفر ، ومن ترك السنن متهاونا فسق ، ومن ترك النوافل لم يتخرج ؛ إلا أن يمحذ فضلها فيكفر ، لأنه يصير راداً على الرسول عليه السلام ما جاء به وأخبر عنه . واختلفوا فيمن ترك الصلاة من غير جحد لها ولا استحلال ؛ فروى يونس ابن عبد الأعلى قال : سمعت ابن وهب يقول قال مالك : من آمن بالله وصلى المرسلين وأبى أن يصل قتل ؛ وبه قال أبو ثور وجميع أصحاب الشافعي . وهو قول حماد بن زيد ومكحول ووكيع . وقال أبو حنيفة : يسجن ويضرب ولا يقتل ، وهو قول ابن شهاب وبه يقول داود ابن علي . ومن مجتهم قوله صلى الله عليه وسلم : « أُمِرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ » .

(١) القاتل هو سامدة بن جُؤبة ؛ وتماه كما في اللسان وكتاب سيويه :

لأن يزل الكف يصل مة • فيه كما عسل

إلا الله فإذا قالوا ذلك عَصَمُوا مِنْ دِمَائِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ إِلَّا بِمَقْعَةٍ . وقالوا : حقها الثلاث التي قال النبي صلى الله عليه وسلم : " لا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ إِلَّا بِأَحَدٍ ثَلَاثٍ كُفْرٌ بَعْدَ إِيمَانٍ أَوْ زَنْ بَعْدَ إِحْصَانٍ أَوْ قَتْلُ نَفْسٍ بِغَيْرِ نَفْسٍ " . وذهبت جماعة من الصعابة والتابعين إلى أن من ترك صلاة واحدة متعمداً حتى يخرج وقتها لغير عذر ، وأبى من أدائها وقضائها وقال لا أصل فإنه كافر ، ودمه وماله حلالان ، ولا يرته ورثته من المسلمين ، ويستتاب ؛ فإن تاب وإلا قُتل ، وحُكِّمَ ماله حكم مال المرتد ؛ وهو قول إسماعيل . قال إسحاق : وكذلك كان رأى أهل العلم من لئذ النبي صلى الله عليه وسلم إلى زماننا هذا . وقال ابن خزيمة متناد : واختاف أصحابنا متى يُقتل تارك الصلاة ؛ فقال بعضهم في آخر الوقت المختار ، وقال بعضهم آخر وقت الضرورة ، وهو الصحيح من ذلك . وذلك أن يبقى من وقت المصرا أربع ركعات إلى مغيب الشمس ، ومن الليل أربع ركعات لوقت العشاء ، ومن الصبح ركعتان قبل طلوع الشمس . وقال إسحاق : وذهاب الوقت أن يؤخر الظهر إلى غروب الشمس ، والمغرب إلى طلوع الفجر .

السادسة - هذه الآية دالة على أن من قال : قد ثبت أنه لا يمتنع بقوله حتى ينضاف إلى ذلك أفعاله المحققة للتوبة ؛ لأن الله عز وجل شرط هنا مع التوبة إقام الصلاة وإيتاء الزكاة ليحقق بهما التوبة . وقال في آية الربا : « وَإِنْ تَدْرَأْهُمْ فَمَنْ دَرَأَهُمْ فَأُولَئِكَ أَعْدَاءُ اللَّهِ » . وقال : « إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنَّا » وقد تقدم معنى هذا في سورة البقرة .

قوله تعالى : وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَةَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١﴾
فيه أربع مسائل :

الأولى - قوله تعالى : (وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) أى من الذين أمرتكم بقتلهم . (اسْتَجَارَكَ) أى سأل جوارك ؛ أى أمانك وذمأمك ، فاعطه إياه ليسمع القرآن ؛ أى يفهم

أحكامه وأوامره ونواهيهِ . فإن قيل أمراً حسن . وإن أتى فترده إلى ما منه . وهذا ما لا خلاف فيه ، والله أعلم . قال مالك : إذا أُجِدَّ الحرِّي في طريق بلاد المسلمين فقال : جئت أطلب الأمان . قال مالك : هذه أمور مشتبهة ، وأرى أن يُردَّ إلى ما منه . وقال ابن القاسم : وكذلك الذي يوجد وقد نزل تاجراً باسحلتنا فيقول : ظننت ألا تعرضوا لمن جاء تاجراً حتى يبيع . وظاهر الآية إنما هي فيمن يريد سماع القرآن والنظر في الإسلام ، فاما الإجارة لغير ذلك فانما هي لمصلحة المسلمين والنظر فيما تعود عليهم به منفعته .

الثانية - ولا خلاف بين كافة العلماء أن أمان السلطان جائز ، لأنه مقدم للنظر والمصلحة ، نائب عن الجميع في جلب المنافع ودفع المضار . واختلفوا في أمان غير الخليفة ؛ فالحنابلة يفتى أمانه عند كافة العلماء . إلا أن ابن حبيب قال : ينظر الإمام فيه . وأما العبد فله الأمان في مشهور المذهب ؛ وبه قال الشافعي وأصحابه وأحمد وإسحاق والأوزاعي والثوري وأبو ثور وداود ومحمد بن الحسن . وقال أبو حنيفة : لا أمان له ؛ وهو القول الثاني لعلمائنا . والأول أصح ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم : " المسلمون لشكاف دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم " . قالوا : فلما قال " أدناهم " جاز أمان العبد ، وكانت المرأة الحرّة أخرى بذلك ، ولا اعتبار ببلّة " لا يديهم له " . وقال عبد الملك بن الميسجرون : لا يجوز أمان المرأة إلا أن يعينه الإمام ، فشذ بقوله عن الجمهور . وأما الصبي فإذا أطاق القتال جاز أمانه ؛ لأنه من جملة المغاتلة ، ودخل في الفئة الحامية . وقد ذهب الصحاك والسدي إلى أن هذه الآية منسوخة بقوله : « فاقتلوا المشركين » . وقال الحسن : هي مُحْكَمَةٌ ^(١) سُنَّةٌ إلى يوم القيامة ؛ وقاله مجاهد . وقيل : هذه الآية إنما كان حكمها باقياً مدة الأربعة الأشهر التي ضربت لهم أجلاً ، وليس بشيء . وقال سعيد بن جبير : جاء رجل من المشركين إلى علي بن أبي طالب فقال : إن أراد الرجل منا أن يأتي محمداً بعد انقضاء الأربعة الأشهر فيسمع كلام الله أو يأتيه بحاجة قتل !

(١) كما في أكثر نسخ الأصم ونسب ابن حنبل . ونسبة من الأصل : « مية » وهي غير واضحة المعنى ولم نوفق لتصويبها ، لأن هذه الكلمة غير موجودة في قول الحسن بالمصادر التي أدينا على كثرتها

مقاله علي بن أبي طالب : لا ، لأن الله تبارك وتعالى يقول : « وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ » . وهذا هو الصحيح . والآية مُحْكَمَةٌ .

الثالثة - قوله تعالى : (وَإِنْ أَحَدٌ) « أحد » مرفوع بإضمار فعل كالذي بعده . وهذا حسن في « إِنْ » وقيح في أخواتها . ومذهب سيبويه في الفرق بين « إِنْ » وأخواتها ، أنها لما كانت أم حروف الشرط خُصَّت بهذا ، ولأنها لا تكون في غيره . وقال محمد بن يزيد : أما قوله « لأنها لا تكون في غيره » فنلط ؛ لأنها تكون بمعنى (ما) ومخففة من التثنية ولكنها مبهمه ، وليس كذا غيرها . وأشد سيويه :

لا تَجْزِعْ إِنْ مُتَمَسِّحًا أَهْلَكْتَهُ . وإذا هلكَ فَمَنْ ذَلِكَ فَأَجْزِعِ^(١)

الرابعة - قال العلماء : في قوله تعالى (حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ) دليل على أن كلام الله عز وجل مسموع عند قراءة القارئ ؛ قاله الشيخ أبو الحسن والفاضل أبو بكر وأبو العباس القلانسي وابن مجاهد وأبو إسحاق الإسفراييني وغيرهم ؛ لقوله تعالى : (حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ) . فنس على أن كلامه مسموع عند قراءة القارئ لكلامه . ويدل عليه إجماع المسلمين على أن القارئ إذا قرأ فاتحة الكتاب أو سورة قالوا : سمعنا كلام الله . وفرقوا بين أن يُقرأ كلام الله تعالى وبين أن يُقرأ شعر امرئ القيس . وقد مضى في سورة « البقرة » معنى كلام الله تعالى ، وأنه ليس بحرف ولا صوت ، والحمد لله .

قوله تعالى : كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ قُلْ اسْتَفِمْوْا لَهُمْ فَاسْتَفِمْوْا هُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾

(١) البيت لغيرين قول . وصف أن امرأته لامتة عن إكلاف ماله جزاء من العفر ؛ فقال لها : لا تجزعي من أهلك لغيري المال ، فأبى كدبل بإخلاقه به الخلف ؛ وإذا هلك فاجزعي فلا خلف لك مني . (عن شرح الشواهد) .
(٢) راجع ج ٢ ص ١ طبعة ثانية .

قوله تعالى : ﴿ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ كيف هما للتعجب ؛ كما نقول : كيف يسبني فلان ! أى لا يسبني . و «عهد» اسم يكون . وفى الآية إضماره أى كيف يكون للمشركين عهد مع إسماعيل الفدر ؛ كما قال :

وَعَبَّرْتَنِي إِنَّمَا الْمَوْتُ بِالْقُرَى • فكيف وقآنًا هَضْبَةً وَكَيْبُ^(١)

التقدير : فكيف مات ؛ عن الزجاج . وقيل : المعنى كيف يكون للمشركين عهد عند الله يأمنون به عذابه غداً ، وكيف يكون لهم عند رسوله عهد يأمنون به عذاب الدنيا . ثم استثنى فقال : « إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ » . قال محمد بن إسحاق : هم بنو بكر ، أى ليس العهد إلا هؤلاء الذين لم ينقضوا ولم يتكفوا .

قوله تعالى : ﴿ قَا اسْتَغَاوْا لَكُمْ فَاسْتَغِيْمُوا لَهُمْ ﴾ أى فما أقاموا على الوفاء بهدك فأفدوا لهم على مثل ذلك . ابن زيد : فلم يستغيثوا فغضب لهم أجلاً أربعة أشهر . فاما من لا عهد له فقاتلوه حيث وجدتموه إلا أن يتوب .

قوله تعالى : كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٥﴾

قوله تعالى : ﴿ كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ ﴾ أعاد التعجب من أن يكون لهم عهد مع حيث أعمالهم ؛ أى كيف يكون لهم عهد وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلا ولا ذمة . يقال : ظهرت على فلان أى غلبته ، وظهرت البيت علوته ؛ ومنه « قَا اسْتَغَاوْا أَنْ يَظْهَرُوا »^(٢) أى يعلو عليه .

(١) كذا فى الأصول والبحر . وفى فى شواهد سيبويه وجهرة أشعار العرب : « وقليب » قال الشنفرى :
الزبيب القير ، وأمله البر . كأنه حذو من وباء الأصاير .
لا يخفى ، فقال هذا منكراً على من حذوه من الإغاة بالقرى .
(٢) آية ٩٧ سورة الكهف .

قوله تعالى: ﴿لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا ذِمَّةً﴾ «يرقبوا» يحافظوا . والرقب الحافظ . وقد تقدم . «إلا» عهدا . عن مجاهد وابن زيد . وعن مجاهد أيضا : هو آسم من أسماء الله عز وجل . ابن عباس والضحاك : قرابة . الحسن : جوارا . قتادة : حلقا ، و «ذمة» عهدا . أبو عبيدة : مينا . وعنه أيضا : إلا العهد ، والذمة التذم . الأزهرى : اسم الله بالبرانية ، وأصله من الأليل وهو البريق ، يقال : أل لونه يؤل ألا ، أى صفا ولمع . وقيل : أصله من الحدة ، ومنه الألة للحرية ، ومنه أذن مؤلة أى محددة . ومنه قول طرفة بن العبد يصف أذن ناقته بالحدة والانصاب :

مؤلتان تعرف العنق فيهما • كسامتي شاة يحومل مفرد^(١)

إذا قيل للمهد والحوار والقرابة «إل» فعناه أن الأذن تُصرف إلى تلك الجهة ، أى تتحد لها . والمهد يسمى «إلا» لصفائه وظهوره . ويجمع في القلة آلال ، وفي الكثرة الإلال . وقال الجوهري وغيره : الإل بالكسر هو الله عز وجل ، والإل أيضا العهد والقرابة . قال حسان :

لعمرك إن إلك من قريش • كأل السقب من رأل النمام^(٢)

قوله تعالى: ﴿وَلَا ذِمَّةً﴾ أى عهدا . وهى كل حُرمة يلزمك إذا ضيعتها ذنب . قال ابن عباس والضحاك وابن زيد : الذمة العهد . ومن جعل الإل العهد فالتكرير لاختلاف اللفظين . وقال أبو عبيدة معمر : الذمة التذم . وقال أبو عبيد : الذمة الأمان فى قوله عليه السلام : «ويسمى يذمتهم أذناهم» . وجمع ذمة ذمم . وبرد ذمة (بفتح الذال) قليلة الماء ، وجمعها ذمام . قال ذو الرمة :

(١) راجع ج ٥ ص ٨ طبة أول أدقانية . (٢) السامتان : الأذان . والمراد بالشاء هنا : الثور الوحش . وحومل : اسم رمة . شبه أذنها بأذن ثور وحش لتحديد ما صدق سمعها ، وأذن الوحش أصغر من عينه . وحمله «فردا» لأنه أثنى لسمه وأزياه . (عن شرح الفيروزى) .
(٣) السقب : ولد الباقة . والزال : ولد النمام .

عَلِ خَيْرِيَّاتٍ كَأَن يَعُونَهَا • ذِمَامَ الرِّكَايَا اُنْكُرْنَهَا الْمَوَاحِجُ^(١)

اُنْكُرْتَهَا اَنْعَجْتَ مَامَهَا • وَاَهْلَ الذِّمَّةِ اَهْلَ الْعَقْدِ •

قوله تعالى : (يَرْضَوْنَكُمْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا) أى يقولون بالسنتهم ما يرضى ظاهره • (وَتَابَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ) أى ناقضون العهد • وكل كافر فاسق ، ولكنه أراد هاهنا المجاهرين بالقبائح ونقض العهد •

قوله تعالى : أَشْتَرَوْا بِعَابِتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ^٢ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١﴾

يعنى المشركين فى نقضهم اليهود بأكلة أطعمهم إياها أبو سفيان ، قاله مجاهد • وقيل : إنهم استبدلوا بالقرآن منافع الدنيا • (فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ) أى أعرضوا ، من الصدود • أو منعوا عن سبيل الله ، من الصّد •

قوله تعالى : لَا يَرْجُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴿١٢﴾

قال النعمان : ليس هذا تكريرا ، ولكن الأول لجميع المشركين والثانى لليهود خاصة • والدليل على هذا « أَشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا » يعنى اليهود ، بأعوا جميع الله عز وجل وببانه بطلب الرئاسة وطمع فى شئ • (وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ) أى المجاوزون الحلال إلى الحرام بنقض العهد •

قوله تعالى : فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَأِخْوَانُنَا^٣ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾

(١) الحيريات : ابل منسوبة الى حير ، وهى قبيلة من اليمن • الركايا : جمع ركة ، وهى البئر • والموايح : جمع مانع ، وهو الذى يسق من البئر • وصف إيلاء عاترت عبرتها من الكلال •

(٢) فى الأصول : « ما لا يرضى » وهو تحريف •

قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ تَابُوا ﴾ أى عن الشرك والتزموا أحكام الإسلام . ﴿ فَأَخَذْنَاكُمْ ﴾ أى فهم إخوانكم فى الدين . قال ابن عباس : حرمت هذه دماء أهل القبلة . وقد غنم هذا المعنى . وقال ابن زيد : أقرض الله الصلاة والزكاة وأبى أن يفرق بينهما ، وأبى أن يقبل الصلاة إلا بالزكاة . وقال ابن مسعود : أمرتم بالصلاة والزكاة فمن لم يرك فلا صلاة له . وفى حديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " من فرق بين ثلاث فرق الله بينه وبين رحمته يوم القيامة من قال أطيع الله ولا أطيع الرسول والله تعالى يقول : « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول » ومن قال أطيع الله ولا أطيع الرسول والله تعالى يقول : « وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول » ومن فرق بين شكر الله وشكر والديه والله عز وجل يقول : « أن أشكر لى ولوالديك » " .

قوله تعالى : ﴿ وَتُفَصِّلُ الْآيَاتِ ﴾ أى نبيها . ﴿ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ خصمهم لأنهم هم المستفنون بها . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ نَكُنُوا مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعْنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَبِلْنَاهُمْ إِهْمَةً الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ ﴾
فيه سبع مسائل :

الأولى - قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ نَكُنُوا ﴾ التثنية النقص ، وأصله فى كل ما قيل ثم حل .
فهى فى الأيمان واليهود مستنارة . قال :

وإن حلفت لا ينقض التأبى عهدها . ليس لمحضوب البتة يمين

أى عهد . وقوله : ﴿ وَطَعْنُوا فِي دِينِكُمْ ﴾ أى بالاستنفاص والحرب وغير ذلك مما يفعله المشرك . يقال : طعنه بالرم وطعن بالقول السيئ فيه يَطْعُن ، بضم العين فيهما . وقيل : يَطْعُن بالرم (بالضم) ويَطْعُن بالقول (بالفتح) . وهى هنا استنارة ، ومنه قوله صلى الله عليه

١٠٠ من أمر أسامة : " إن تظلموا في إمارته فقد ظلمتم في إمارته إليه من قبل وأيم الله إن
 (١١) ما تظلموا في إمارته " ترجمه الصحيح .

الثانية - استدلل بعض العلماء بهذه الآية على وجوب قتل كل من ظلم في الدين ؛
 إذ هو كافر . والظلم أن ينسب إليه ما لا يليق به ، أو يعترض بالاستخفاف على ما هو من
 الدين ؛ لما ثبت من الدليل القطعي على صحة أصوله واستقامة فروعه . وقال ابن المنذر :
 أجمع عامة أهل العلم على أن من سب النبي صلى الله عليه وسلم عليه القتل . ومن قال ذلك
 مائة واليبت وأحمد وإسحاق ، وهو مذهب الشافعي . وقد حكى عن الثعلبي أنه قال :
 لا يقتل من سب النبي صلى الله عليه وسلم من أهل الذمة ؛ على ما يأتي . وروى أن رجلا
 قال في مجلس على : ما قُتل كعب بن الأشرف إلا غدرا ؛ فأمر على بضرب عنقه . وقاله
 آخر في مجلس معاوية فقام محمد بن مسلمة فقال : أيقال هذا في مجلسك ونسكت ! والله
 لا أسألك تحت سقف أبدا ، ولئن خلوتُ به لأقتلنه . قال عساؤنا : هذا يقتل ولا
 يستأب إن نسب الغدر للنبي صلى الله عليه وسلم . وهو الذي فهمه على ومحمد بن مسلمة
 رضوان الله عليهما من قاتل ذلك ؛ لأن ذلك زندقة . فإما إن نسب للبشرين لقتله بحيث
 يقول : إنهم أئمنوه ثم غدروه لكأن هذه النسبة كذبا محضا ؛ فإنه ليس في كلامهم مع ما يدل
 على أنهم أئمنوه ولا صرحوا له بذلك ، ولو فعلوا ذلك لما كان أمانا ؛ لأن النبي صلى الله عليه
 وسلم إنما وجههم لقتله لا لتأنيته ، وأذن لمحمد بن مسلمة في أن يقول . وعلى هذا فيكون
 في قتل من نسب ذلك لهم نظرو تردد . وسببه هل يلزم من نسبة الغدر لم نسبته للنبي صلى
 الله عليه وسلم ؛ لأنه قد صوب فعلهم ورضى به فيلزم منه أنه قد رضى بالغدر ومن صرح بذلك
 قتل ؛ أو لا يلزم من نسبة الغدر لم نسبته للنبي صلى الله عليه وسلم فلا يقتل . وإذا قلنا
 لا يقتل ، فلا بُد من تنجيز ذلك القاتل وعقوبته بالسجن ، والضرب الشديد والإحالة
 العظيمة .

الثالثة - فأما الذمى إذا طعن في الدين انتقض عهده في المشهور من مذهب مالك؛ لقوله : « وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ » الآية . فأمر بقتلهم وقتلهم . وهو مذهب الشافعي رحمه الله . وقال أبو حنيفة في هذا : إنه يستأب ، وإن مجزئ الطعن لا ينقض به العهد إلا مع وجود النكث ؛ لأن الله عز وجل إنما أمر بقتلهم بشرطين : أحدهما تقصدهم العهد ، والثاني طعنهم في الدين . قلنا : إن عملوا بما يخالف العهد انتقض عهدهم ، وذكر الأمرين لا يقتضي توقف قتاله على وجودهما ؛ فإن النكث يبيح لهم ذلك بانفراد عقلا وشرعا . وتفدیر الآية عدنا : فإن نكثوا عهدهم حل قتالهم ، وإن لم ينكثوا بل طعنوا في الدين مع الوفاء بالعهد حل قتالهم . وقد روى أن عمر رُفِعَ إليه : متى تحس دابة عليا امرأة مسلمة فرمحت فاستطنتها فانكشف بعض عورتها ، فأمر بصلبه في الموضع .

الرابعة - إذا حارب الذمى نقض عهده وكان ماله وولده قتيلا معه . وقال محمد ابن مسلمة : لا يؤاخذ ولده به ؛ لأنه نقض وحده . وقال : أما ماله فيؤخذ . وهذا تناقض لا يشبه منصب محمد بن مسلمة ؛ لأن عهده هو الذي حو ماله وولده ؛ فإذا ذهب عنه ماله ذهب عنه ولده . وقال أشهب : إذا نقض الذمى العهد فهو على عهده ولا يعود في الرق أبدا . وهذا من العجب ؛ وكأنهم رأى العهد معنى محسوسا . وإنما العهد حكم انتضاء النظر ، والتزيمه المسامون له ؛ فإذا نقضه انتقض كسائر العقود .

الخامسة - أكثر العلماء على أن من سب النبي صلى الله عليه وسلم من أهل الذمة ، أو عرّض أو استخف بقدره أو وصفه بغير الوجه الذي كفر به فإنه يقتل ؛ فإنما لم ينطه الذمة أو العهد على هذا . إلا أبا حنيفة والثوري وأبناهما من أهل الكوفة فإنهم قالوا : لا يقتل ، ما هو عليه من الشرك أعظم ، ولكن يؤدّب ويعزّر . والجمية عليه قوله تعالى : « وَإِنْ نَكَثُوا » الآية . واستدل عليه بعضهم بأمره صلى الله عليه وسلم بقتل كعب بن الأشرف وكان معاهدا . وتنفذ أبو بكر على رجل من أصحابه فقال أبو برة : ألا أضرب عنقه . فقال : ما كانت لأحد بد رسول الله صلى الله عليه وسلم . وروى الدارقطني عن ابن عباس : أن رجلا أعمى كانت له

أثم ولد، له منها ابنان مثل اللؤلؤتين، فكانت تشتم النبي صلى الله عليه وسلم وتقع فيه، فبناها فلم تنه، ويزجرها فلم تنجز، فلما كان ذات ليلة ذكرت النبي صلى الله عليه وسلم فلما صبر سيدها أن قام إلى مؤول فوضعه في بطنها، ثم أنكأ عليها حتى إنفذه. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «ألا أشهدوا إن دمها هدر». وفي رواية عن ابن عباس: فقتلها، فلما أصبح قيل ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم، فقام الأعمى فقال: يا رسول الله، أما صاحبها، كانت تشتمك وتقع فيك فأناها فلا تنهى، وأزجرها فلا تنجز، ولى منها ابنان مثل اللؤلؤتين، وتقع فيك وكانت بي رفيقة، فلما كان البارحة جعلت تشتمك وتقع فيك فقتلتها، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «ألا أشهدوا إن دمها هدر».

السادسة — واختلفوا إذا سبه ثم أسلم تقيّة من الفتل؛ فقيل: يسقط إسلامه قتله؛ وهو المشهور من المذهب؛ لأن الإسلام يحث ما قبله. بخلاف المسلم إذا سبه ثم تاب؛ قال الله عز وجل: «قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ». وقيل: لا يسقط الإسلام قتله؛ قاله في التبيية؛ لأنه حق للنبي صلى الله عليه وسلم وجب لانتهاؤه حرمة وفصده إلقاء التبيية والمعزة به، فلم يكن رجوعه إلى الإسلام بالذي يسقطه، ولا يكون أحسن حالا من المسلم.

السابعة — قوله تعالى: «فَقَاتِلُوا أُمَّةَ الْكُفْرِ» «أمة» جمع إمام، والمراد صناديد قريش — في قول بعض العلماء — كأبي جهل وعتبة وشيبة وأمّية بن خلف، وهذا بعيد؛ فإن الآية في سورة «براءة» وحين نزلت وقرئت على الناس كان الله قد استأصل شأفة قريش فلم يبق إلا مسلم أو مسلم؛ فيحتمل أن يكون المراد «فَقَاتِلُوا أُمَّةَ الْكُفْرِ». أمى من أقدم على نكث المهد والطنين في الدين ويكون أصلا ورأسا في الكفر؛ فهو من أمة الكفر على هذا. ويحتمل أن يعنى به المقدمون والرؤساء منهم، وأن قتالهم قتال لأتباعهم وأنهم لأحرمة لهم. والأصل أُمَّةٌ كمتال ومثلة، ثم ادغمت الميم في الميم وغلّت الحركة على الهذرة فاجتمعت.

همزتان، فابدلت من الثانية ياء . وزعم الأخفش أنك تقول : هذا آيم من هذا بالياء .
وقال المازني : أوتِم من هذا، بالواو . وقرأ حمزة « أئمة » . وأكثر النحويين يذهب إلى أن
هذا لحن ؛ لأنه جمع بين همزتين في كلمة واحدة . (إِنْهُمْ لَا آيَمَانَ لَهُمْ) أى لا عهد لهم ؛
أى ليست عهودهم صادقة يؤفون بها . وقرأ ابن عامر « لا إيمان لهم » بكسر الهمزة من
الإيمان ؛ أى لا إسلام لهم . ويحتمل أن يكون مصدر آيمته إيماناً ، من الأمن الذى ضده
الخوف ، أى لا يؤمنون ؛ من آيمته إيماناً أى أجرته ؛ فلهذا قال : « فقاتلوا أئمة الكفر » .
(لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ) أى عن الشرك ، قال الكلبي : كان النبي صلى الله عليه وسلم وادع أهل
مكة سنة وهو بالحدودية فخبسوه عن البيت ، ثم صالحوه على أن يرجع فكنثوا ما شاء الله ، ثم
قاتل حلفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم من نخاعة حلفاء بنى أمية من نخانة ، فأمدت بنو أمية
حلفاءهم بالسلاح والطعام ، فاستمات نخاعة برسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فزلت هذه الآية ،
وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يمين حلفاءه كما سبق . وروى البخاري عن زيد بن وهب
قال : كما عند حذيفة فقال ما بقي من أصحاب هذه الآية — يعنى « فقاتلوا أئمة الكفر » إنهم
لا إيمان لهم — إلا ثلاثة ، ولا بقي من المنافقين إلا أربعة . فقال أعرابي : إنكم أصحاب
جد تحبسون أخباراً لا تدري ما هي ! تزعمون ألا منافق إلا أربعة ، فما بال هؤلاء الذين يسقرون
بيوتنا ويسرقون أعلاقنا . قال : أولئك القساق . أجل ، لم يبق منهم إلا أربعة ؛ أحدهم
شيخ كبير لو شرب الماء البارد لما وجد برده .^(١)

(١) قال الزخري في كشافه : « ما نزلت كيف لفظ أئمة ؟ قلت : مرة بعدهم مرة بين بين ؛ أى بين مخرج
الهمزة والياء ، وتحقيق الهمزتين قراءة مشهورة وإن لم تكن مقبولة عند الصربين . وأما التصريح بالياء فليس بدلالة
ولا يجوز أن تكون قراءة ، ومن صرح بها فهو لا من محرف » .
ونسب على هذا أبو حنيفة في البحر فوله : « وذلك دأبه في تلحين المقرئين ، وكيف يكون ذلك لما قد قرأه
رس الصربين النعانة أبو عمرو بن العلاء ، وفاروق مكة ابن كثير ، وفاروق مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم مانع » .
وقال الأوصي في روح المسالك : « ... وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو (أئمة) بهزتين فابتهما بين بين ، أى بين
مخرج الهمزة والياء ، والألف بينهما . والكوفيون وابن ذكوان عن ابن عامر تخفيفهما من غير إدخال ألف ، ودأبه ...
كذلك إلا أنه أدخل بينهما الألف . هذا هو المشهور عن العلماء السبعة ... » .
(٢) قال الأملق : حاشى الأحوال . (٣) قال القائل : « لعداب شهوة وفادى عذبة » .
شهوة الله في الدنيا ، فلا يفرق بين الأشياء .

قوله تعالى : ﴿لَهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أى عن كفرهم وباطلهم وأذيتهم للمسلمين . وذلك . يقتضى
أن يكون الغرض من قتالهم دفع ضررهم لينتصروا عن مقاتلتنا ويدخلوا في ديننا .

قوله تعالى : أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ
الرُّسُولِ وَهُمْ بَدَأُوكَ أَوَّلَ مَرَّةٍ اتَّخَذْتَهُمْ طَبَعًا فَلِلَّهِ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ
كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾

قوله تعالى : ﴿أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ﴾ توبيع وفيه معنى التحضيض . نزلت
في كدار مكة كما ذكرنا آنفا . ﴿وَهُمْ بِإِخْرَاجِ الرُّسُولِ﴾ أى كان منهم سبب الخروج ، فاضيف
الإخراج إليهم . وقيل : أخرجوا الرسول عليه السلام من المدينة لقتال أهل مكة للنكث الذى
كان منهم ، عن الحسن . ﴿وَهُمْ بَدَأُوكَ﴾ بالنفال . ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أى نقضوا العهد وأعانوا
بنو بكر على نزاعه . وقيل : بدءكم بالنفال يوم بدر ، لأن النبى صلى الله عليه وسلم خرج للبير
ولما أحرزوا عيرهم كان يمكنهم الانصراف ، فأبوا إلا الوصول إلى بدر وشرب الخمر بها ،
كما تقدم . ﴿فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ﴾ أى تخافوا عفايه في ترك قتالهم ، من أن تخافوا أن ينالكم
في قتالهم مكره . وقيل : إخراجهم الرسول منعهم إياه من الحج والمعرة والطواف ، وهو
ابتدأهم . والله أعلم .

قوله تعالى : قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْرِجُهُمْ مِنْ صُدُورِ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيَذْهَبُ غِيظُ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ
عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾

قوله تعالى : ﴿قَاتِلُوهُمْ﴾ أمر . ﴿يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ﴾ جوابه . وهو جزم بمعنى المجازاة .
والتقدير : إن قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويذهب صدور قوم
مؤمنين . ﴿وَيَذْهَبُ غِيظُ قُلُوبِهِمْ﴾ دليل على أن غيظهم كان قد اشتد . وقال مجاهد :

بني خزاعة حنفاً رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكذا عطف . ويجوز فيه كله الرفع على القطع من الأول . ويجوز النصب على إختيار (أن) وهو الصرف عند الكوفين ، كما قال :

فإن يهلك أبو قابوس يهلك • ربيع الناس والشهر الحرام
ونأخذ بمسند يذئاب عيش • أجب الظاهر ليس له سنام^(١)

وإن شئت رقت (ونأخذ) وإن شئت نصبت . والمراد بقوله : (وَيَنْفِ صُدُورُ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ) بنو خزاعة ، على ما ذكرنا عن مجاهد . فإن قريشا أعانت بني بكر عليهم ، وكانت خزاعة حلفاء النبي صلى الله عليه وسلم . فأنشد رجل من بني بكر رجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له بعض خزاعة : لن أمدته لأكرهن فكك ، فأعاده فكسرفاه وثار بينهم قتال ، فقتلوا من الخزاعين أقواماً ، فخرج عمرو بن سالم الخزاعي في نفر إلى النبي صلى الله عليه وسلم وأخبره به ، فدخل منزل ميمونة وقال : « اسكبوا إلى ماء » فجعل يغسل وهو يقول : « لَا تُصِرْتُ إِنْ لَمْ تُصِرْ بِي كَسْبٌ » . ثم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجهز والخروج إلى مكة فكان الفتح .

قوله تعالى : (وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ) القراءة بالرفع على الاستثناء ، لأنه ليس من جنس الأول . ولهذا لم يقل « وَيُتَّبِ » بالجرم ، لأن القتال غير موجب لهم التوبة من الله جل وعز . وهو موجب لهم العذاب والخزي ، وشفاء صدور المؤمنين وذهاب غيظ قلوبهم . ونظيره « فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يُخَيِّمْ عَلَى قَلِيلٍ » ثم الكلام . ثم قال : « وَيَمْحُو اللَّهُ الْبَاطِلَ »^(٢) . والذين تاب الله عليهم مثل أبي سفيان وعكرمة بن أبي جهل وسلم بن أبي عمرو ، فإنهم أسلموا . وقرأ ابن أبي إسحاق « وَيَتُوبُ » بالنصب . وكذا روى عن عيسى التقي والأعرج ، وعليه فتكون التوبة داخلية في جواب الشرط ، لأن المعنى : إن تقاطلهم يعذبهم الله .

(١) الذئاب (بكسر الهمزة) : عقب كل شيء . ومؤنره . والأجب : الجمل المقطوع السنام . واليتان قنابة الديان . وصف مرض الثمان بن المنقر ، وأنه إن حك صار للناس بده في أسوأ حال وأضيق عيش وتحمكأه بمنزلة ذئب يبرأ جب . وفي البيت شاهد آخر . راجع خزاعة الأدب للنداء في الشاهد السادس والخمسين بعد السبعة . وشاهد بنو بجيلة ص ١٠٠ طبع بولاق . (٢) بنو كعب في خزاعة وهم قوم عمرو . (٣) آية ٢٤ سورة الشورى .

وكذلك ما عطف عليه . ثم قال : « ويتوب الله » أى إن تائبنا لهم . فجمع بين تائبينهم بأيديكم وشفاء صدوركم وإذهاب غيظ قلوبكم والتوبة عليكم . والرفع أحسن ؛ لأن التوبة لا يكون سببها القتال ؛ إذ قد توجد بغير قتال لمن شاء الله أن يتوب عليه في كل حال .

قوله تعالى : **أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَخْذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَنَّةٍ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ** (١٦)

قوله تعالى : **(أَمْ حَسِبْتُمْ)** (نروج من شئ، إلى شئ) . **(أَنْ تُتْرَكُوا)** في موضع المفعولين على قول سيبويه . وعند المبرد أنه قد حذف الثانى . ومعنى الكلام : أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا مِنْ غَيْرِ أَنْ يُبْتَلُوا بِمَا يَظْهَرُ بِهِ الْمُؤْمِنُ وَالْمُتَآمِقُ الظَّاهِرُ الَّذِى يَسْتَحِقُّ بِهِ الثَّوَابَ وَالْعِقَابَ . وقد تقدّم هذا المعنى في غير موضع . **(وَلَمَّا يَعْلَمِ)** جزم بلى وإن كانت ما زائدة ؛ فإنها تكون عند سيبويه جواباً لقولك : قد فعل ؛ كما تقدّم . وكسرت الميم لالتقاء الساكنين . **(وَلِجَنَّةٍ)** بطانة ومداخلة ؛ من الولوج وهو الدخول . ومنه سُمِّيَ الْيَكْنَسُ الَّذِى تَلْجُ فِيهِ الْوَحُوشُ تَوْبَحًا . ولج يلج ولوجاً إذا دخل . والمعنى : دخيلة مودعة من دون الله ورسوله . وقال أبو عبيدة : كل شئ أدخلته في شئ، لبس منه فهو وليجة ، والرجل يكون في القوم وليس منهم وليجة . وقال ابن زيد : الوليجة الدخيلة ، والولجاء الدخلاء ؛ فوليجة الرجل من يختص بدخلة أمره دون الناس . تقول : هو وليجى وهم وليجى ؛ الواحد وابنج فيه سواء . قال أبان بن قتيب رحمه الله :

فبئس الوليجة للهارب . والمعند وأهل الرّيب

وقيل : وليجة بطانة ؛ والمعنى واحد ؛ نظيره « لَا تَخْذُوا بِطَانَةٍ مِنْ دُونِكُمْ » . وقال الفراء : وليجة بطانة من المشركين يتخذونهم ويُفْشُونَ إِلَيْهِمْ أَسْرَارَهُمْ وَيُخْلَوْنَ بِأَمْرِهِمْ .

(١) راجع ج ٤ ص ٢٢٠ طبة اول أو ثمانية . (٢) آية ١١٨ سورة آل عمران

قوله تعالى : مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿٥٧﴾

قوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ ﴾ الجملة من « أن يعمروا » في موضع رفع اسم كان . « شاهدين » على الحال . واختلف العلماء في تأويل هذه الآية ؛ فقيل : أراد ليس لهم الحج بعد ما نودي فيهم بالمنع عن المسجد الحرام ، وكانت أمور البيت كالسدانة والسقاية والرفادة إلى المشركين ؛ فبين أنهم ليسوا أهلا لذلك ، بل أهله المؤمنون . وقيل : إن العباس لما أمر وعبر بالكفر وقطعية الرحم قال : تذكرون مساوئنا ولا تذكرون محاسننا . فقال علي : ألكم محاسن ؟ قال : نعم ، إنا نعلم المسجد الحرام ، ونحج الكعبة ، ونسقي الحاج ، ونفك العاني . فزلت هذه الآية ردا عليه . فيجب إذاً على المسلمين تولى أحكام المساجد ومنع المشركين من دخولها . وقراءة العامة « يعمر » بفتح الياء وضم الميم ؛ من عمر يعمر . وقرأ ابن السكيت بضم الياء وكسر الميم ؛ أى يعملوه عامرا أو يعمنوا على عمارته . وقرأ « مسجد الله » على التوحيد ؛ أى المسجد الحرام . وهى قراءة ابن عباس وسعيد بن جبيرة وعطاء بن أبي رباح ومجاهد وابن كثير وأبي عمرو وابن محيصن ويقوب . والباقون « مساجد » على التعميم . وهو اختيار أبي عبيد ؛ لأنه أعم والخاص يدخل تحت العام . وقد يحتمل أن يراد بقراءة الجمع المسجد الحرام خاصة . وهذا جائز فإما كان من أسماء الجنس ؛ كما يقال : فلان يركب الخيل وإن لم يركب إلا فرسا . والقراءة « مساجد » أصوب ؛ لأنه يحتمل المعنيين . وقد أجمعوا على قراءة قوله : « إنما يعمر مساجد الله » على الجمع ؛ قاله النحاس . وقال الحسن : إنما قال مساجد وهو المسجد الحرام ؛ لأنه قيلة المساجد كلها وإمامها

قوله تعالى : ﴿ شَاهِدِينَ ﴾ قيل : أراد وهم شاهدون فلما طرح (وهم) نصب . قال ابن عباس : شهادتهم على أنفسهم بالكفر بجودهم لأضنامهم ، وإقرارهم أنها مخلوقة . وقال

الشقي : شهادتهم بالكفر هو أن النصراني يقول له مدينك ؟ فيقول نصراني ، واليهودي
 فيرنى والصباي فيقول صابي . ويقال للشرك ما دينك فيقول مشرك . (أُولَئِكَ
 حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) تقدم معناه .

قوله تعالى : **إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ
 وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَحْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَئِكَ أَن
 يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ** ﴿٥٨﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : **(إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ)** دليل على أن الشهادة لتمام المساجد
 بالإيمان محبة ، لأن الله سبحانه ربطه بها وأخبر عنه بملازمتها . وقد قال بعض السلف :
 إذا رأيتم الرجل يعمر المسجد فحسبوا به الفطن . وروى الترمذي عن أبي سعيد الخدري
 أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : **” إذا رأيتم الرجل يتاد المسجد فأتهدوا له بالإيمان
 قال الله تعالى : ” إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ” .** في رواية :
” يتاد المسجد ” . قال : حديث حسن غريب . قال ابن العربي : وهذا في ظاهره الصلاح
 ليس في مقاطع الشهادات ؛ فإن الشهادات لها أحوال عند العارفين بها ، فإن منهم الله كي
 التبين المحصل لها يعلم اعتقادا وإخبارا ، ومنهم المغفل ، وكلا واحد يترك على مفرقه ويقدر
 على صفته .

الثانية — قوله تعالى : **(وَلَمْ يَحْشَ إِلَّا اللَّهَ)** إن قيل : ما من مؤمن إلا وقد خشى
 غير الله ، وما زال المؤمنون والأتباع يحشون الأعداء من غيرهم . قيل له : المعنى يعلم يحش
 إلا الله مما يهيد ؛ فإن المشركين كانوا يبدون الأوثان ويحشونها ويرجونها . جواب ثان —
 أى لم يحش في باب الدين إلا الله .

الثالثة — فإن قيل : فقد أثبت الإيمان في الآية لمن عمر المساجد بالصلاة فيها ، وتنظيها
 وإصلاح ما وهى منها ، وآمن بالله . ولم يذكر الإيمان بالرسول فيها ولا الإيمان لمن لم يؤمن

بالرسول . قيل له : دلّ على الرسول ما ذكر من إقامة الصلاة وغيرها لأنه مما جاء به ، وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة إنما يصبح من المؤمنين بالرسول ، فهذا لم يُقرده بالذكر . و « عني » من الله واجبة ؛ عن ابن عباس وغيره . وقيل : عني بمعنى خليف ؛ أبي نخلق (أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُتَّبِعِينَ) .

قوله تعالى : أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١١﴾

فيه مسائلان :

الأولى - قوله تعالى : (أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ) التقدير في العربية : أجعلتم أصحاب سقاية الحاج ، أو أهل سقاية الحاج ، مثل من آمن بالله وجاهد في سبيله . ويصح أن يفتر الحذف في « من آمن » أي أجعلتم عمل سقى الحاج كعمل من آمن . وقيل : التقدير كإيمان من آمن . والسقاية مصدر كالساية والحماية . بفعل الأسم بموضع المصدر إذ علم معناه ، مثل إنما السقاء حاتم ، وإنما الشعر زهير . وعمارة المسجد الحرام مثل « وآسأل القرية » . وفرا أبو وجزة « أجعلتم سقاية الحاج وعمرة المسجد الحرام » . سقاة جمع ساق والأصل سقبة على فُعْلَةٍ ، كذا يجمع المتل من هذا ، نحو قاض وقضاة وناس ونساء . فإن لم يكن معتلا جمع على فُعْلَةٍ ، نحو ناسي ونساء ، للذين كانوا ينسئون الشهور . وكذا قرأ ابن الزبير وصعيد بن جبير « سقاة ، وعمرة » ، إلا أن ابن جبير نصب « المسجد » على إرادة التنوين في « عمرة » ، وقال الضحاك : سقاية بضم السين ، وهي لغة . والحاج اسم جنس المجتاج . وعمارة المسجد الحرام : معاهدته والقيام بمصالحه . وظاهر هذه الآية أنها مبطلّة قول من افتخر من المشركين بسقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام ؛ كما ذكره السدي . قال : افتخر عباس بالسقاية ، وشيبة بالعمارة ، وعلى بالإسلام والجهاد ، فصديق الله دينا وكذبهما ، وأخبر أن العمارة لا تكون بالكفر ، وإنما

(١) في نسخ الأصل : « أين أبي وجزة » وعمره عريف .

تكون بالإيمان والعبادة وأداء الطاعة . وهذا بين لا غبار عليه . ويقال : إن المشركين سألوا
اليهود وقالوا : نحن سقاء الحاج وعمار المسجد الحرام ، أنحن أفضل أم عهود وأصحابه ؟
فقلت لهم اليهود عناد الرسول الله صلى الله عليه وسلم : أتم أفضل . وقد اعترض هنا إشكال ،
وهو ما جاء في صحيح مسلم عن الثمان بن بشير قال : كنت عند نير رسول الله صلى الله عليه
وسلم فقال رجل : ما أبالي ألا أعمل عملا بعد الإسلام إلا أن أسقى الحاج . وقال آخر :
ما أبالي ألا أعمل عملا بعد الإسلام إلا أن أعمر المسجد الحرام . وقال آخر : الجهاد في سبيل الله
أفضل مما قلتم . فزجرهم عمر وقال : لا ترضوا أصواتكم عند نير رسول الله صلى الله عليه وسلم .
وهو يوم الجمعة . ولكن إذا صليت الجمعة دخلت واستفتيته فيها اختلفت فيه . فأنزل الله عز وجل
« أجمعتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر » إلى آخر الآية . وهذا
المساق يقتضى أنها إنما نزلت عند اختلاف المسلمين في الأفضل من هذه الأعمال . وحيث
لا يليق أن يقال لهم في آخر الآية : « والله لا يبدى القوم الظالمين » . فحين الإشكال . وإزالته
بأن يقال : إن بعض الرواة تسامح في قوله ، فأنزل الله الآية . وإنما قرأ النبي صلى الله عليه
وسلم الآية على عمر حين سأله فظن الراوى أنها نزلت حيث . واستدل بها النبي صلى الله عليه
وسلم على أن الجهاد أفضل مما قال أولئك الذين سمعهم عمر ، فاستغنى لهم قتلا عليه ما قد كان
أزله عليه . لا أنها نزلت في هؤلاء . والله أعلم . فان قيل : فصل هذا يجوز الاستدلال على المسلمين
بما أنزل في الكافرين ، ومعلوم أن أحكامهم مختلفة . قيل له : لا يستبعد أن يترقع مما أنزل الله
في المشركين أحكام تليق بالمسلمين . وقال عمر : إنا لو شئنا لأخذنا سلاتق وشواه وتوضع مصفة
وترفع أخرى ، وليكما سمنا قول الله تعالى : « أذهبتم طغيتكم في حياتكم الدنيا واستسلمتم بها » .
وهذه الآية نص في الكفار . ومع ذلك فذهب منها عمر الزجر عما يناسب أحوالهم بعض المناسبة ،
ولم ينكر عليه أحد من الصحابة . فيمكن أن تكون هذه الآية من هذا النوع . وهذا نفيس
وبه يزول الاشكال ويرتفع الإبهام ، والله أعلم .

قوله تعالى : الَّذِينَ آمَنُوا وَهَابَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ
وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٥﴾

قوله تعالى : (الَّذِينَ آمَنُوا) في موضع رفع بالابتداء . وخبره (أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ) .
وهـ دَرَجَةٌ « نصب على اليان » أى من الذين انتصروا بالسِّبْق والمهارة . وليس للكافرين درجة
عند الله حتى يقال : المؤمن أعظم درجة . والمراد أنهم قدروا لأنفسهم الدرجة بالمهارة والسِّبْق ؛
نقاطهم على ما قدروه في أنفسهم وإن كان التقدير خطأ ؛ كقوله تعالى : « أصحاب الجنة
يومئذٍ ^{يُؤْتُونَ} خَيْرٌ مَسْكُورًا » . وقيل . « أعظم درجة » من كل ذى درجة ؛ أى لهم المزية والمرتبة
العلية . (وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ) بذلك .

قوله تعالى : يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَعَلَتْ لَهُمْ فِيهَا
نَعِيمٌ مُقِيمٌ ﴿٢٦﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٧﴾

قوله تعالى : (يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ) أى يعلمهم في الدنيا ما لهم في الآخرة من الثواب الجزيل
والنعم المقيم . والنعم : لين العيش ورغده . (خَالِدِينَ) نصب على الحال . والخلود الإقامة .
(إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ) أى أعده لهم في دار كرامته ذلك الثواب .

قوله تعالى : يَتْلَى الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخْذَواْ عَابَاءَ كُذِّرُواْ وَإِخْوَانُكُمْ
أَوْلِيَآءَ إِنِ اسْتَحَبُّواْ الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَاُولَئِكَ
هُمْ الْقَائِلُونَ ﴿٢٨﴾

ظاهر هذه الآية أنها خطاب لجميع المؤمنين كافة ، وهى باقية الحكم إلى يوم القيامة
في قطع الولاية بين المؤمنين والكافرين . ودَوَتْ فرقة أن هذه الآية إنما نزلت في الحضي
على الهجرة ورفض بلاد الكفرة . فالخطابة على هذا إنما هي للمؤمنين الذين كانوا بمكة وسائر ما

من بلاد العرب ؛ خُوطبوا بالآيالات والآباء والإخوة فيكونوا لهم تبعاً في سكنى بلاد الكفر .
 (إن استعجبوا) أى أحبوا ؛ كما يقال : استجاب بمعنى أجاب . أى لا تطيعهم ولا تخصومهم .
 وخصّ الله سبحانه الآباء والإخوة إذ لا قرابة أقرب منها . ففى الموالاة بينهم كما نفاها بين
 الناس بقوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ » ^(١) لبيان أن القرب
 قرب الأديان لا قرب الأبدان . وفى مثله تشد الصوفية :

يقولون لى دار الأُحبة قد دنت * وأمت كتيب إن ذا لمجيب
 فقلت وما تفتنى ديار قريسة * إذا لم يكن بين القلوب قريب
 فكم من بيسد الدار نال مراده * وأخرجار الجنب مات كتيب

ولم يذكر الأبناء فى هذه الآية ؛ إذ الأغلب من البشر أن الأبناء هم التبعية والآباء . والإحسان
 والهمة مستثناة من الولاية . قالت أسماء : يا رسول الله ، إن أمتى قديمت على رغبة وهى مشركة
 أفاصلها ؟ قال : « صلى الله عليه وسلم » خرجته البخارى .

قوله تعالى : (رَمَن يَتَوَلَّهُمْ يَتَوَلَّكُمْ قَالِ الَّذِينَ هُمُ الظَّالِمُونَ) قال ابن عباس : هو مشرك
 مثلهم ؛ لأن من رضى بالشرك فهو مشرك .

قوله تعالى : قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ
 وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسْكَنٌ تَرْضَوْنَهَا
 أَحَبُّ إِلَيْكُمْ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ
 اللَّهَ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ^(٢)

لما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالهجرة من مكة الى المدينة جعل الرجل يقول
 لأبيه والأب لابنه والأخ لأخيه والرجل لزوجته : إنا قد أمرنا بالهجرة ؛ ففهم من مارع

لذلك، ومنهم من أبى أن يهاجر، فيقول : والله لن لم نخرجوا إلى دار الهجرة لا إناكم ولا أنس عليكم شيئا أبدا. ومنهم من تتعلق به أمراته وولده ويقولون له : أشدك بالله أن تخرج فنضج بعدك، ففهم من يرق قِدَح الهجرة ويقم معهم، فنزلت : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ » . يقول : [إن استحبوا] الإقامة على الكفر بمكة على الإيمان بالله والمجرة إلى المدينة . « وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ » بعد نزول الآية « فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ » . ثم نزل في الذين تخلفوا ولم يهاجروا : « قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ » وهي الجماعة التي ترجع إلى عقد واحد كعقد الشرة فآزاد، ومنه الماشرة وهي الاجتماع على الشيء . « وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا » يقول : اكتسبتموها بمكة . وأصل الاقتراف انتطاع الشيء من مكانه إلى غيره . « وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا » قال ابن المبارك : هي البناات والأخوات إنكسدن في البيت لا يجدن لمن خاطبا . قال الشافعي :

كَسَدَتْ مِنَ الْفَقْرِ قَوْمُهُمْ • وقد زادهن مفاى كسودا

(وَمَا كُنْ تَرْضَوْنَهَا) يقول : ومنازل تسجكم الإقامة فيها . (أَحَبُّ إِلَيْكُمْ) من أن تهاجروا إلى الله ورسوله بالمدينة . « وَأَحَبُّ » خبر كان . ويجوز في غير القرآن رفع « أحب » على الابتداء والخبر، واسم كان مضمرة فيها . وأنشد سيويه :

إِذَا مَتَّ كَانَ النَّاسُ صِنْفَيْنِ : شَامِتٌ • وَأَنَرُ مَتْنِي بِالَّذِي كُنْتُ أَصْنَعُ

وأنشد :

هي الشفاء لمداني لو ظفرت بها • وليس منها شفاء الداء مبدول^(٢١)

وفي الآية دليل على وجوب حب الله ورسوله ، ولا خلاف في ذلك بين الأمة ، وإن ذلك مقدم على كل محبوب . وقد مضى في « آلم عمران » معنى محبة الله تعالى ومحبة رسوله . (وَجِهَادٌ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا) صيغته صيغة أمر وممناته التهديد . يقول : انتظروا . (حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ

(١) البيت لمفسر السطور . (٢) البيت لشمام أحمى ذي الرمة . (من كتاب سيويه) .

(٣) راجع ج ٤ ص ٩٩ طبعه أولى أو ثانية .

بِأَمْرِهِ) يَتَنَبَّأُ بِالْقِتَالِ وَفَتْحِ مَكَّةَ ، عَنْ مُجَاهِدٍ ، الْحَسَنُ : بِعُقُوبَةِ أَجَلَةٍ أَوْ عَاجِلَةٍ . وَفِي قَوْلِهِ : « وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ » دَلِيلٌ عَلَى فَضْلِ الْجِهَادِ ، وَإِثْرِهِ عَلَى رَاحَةِ النَّفْسِ وَعِلَاقَتِهَا بِالْأَهْلِ وَالْمَالِ . وَسَيَأْتِي فَضْلُ الْجِهَادِ فِي آخِرِ السُّورَةِ . وَقَدْ مَضَى مِنْ أَحْكَامِ الْمِجْرَةِ فِي « النَّسَاءِ » مَا فِيهِ كِفَايَةٌ ، وَالْحَمْدُ لَهُ . وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ « إِنَّ الشَّيْطَانَ قَعْدَ لَابْنِ آدَمَ ثَلَاثَ مَقَاعِدَ قَعْدَهُ فِي طَرِيقِ الْإِسْلَامِ فَقَالَ لَمْ تَذَرِ دِينَكَ وَدِينَ آبَائِكَ تَخَالَفَهُ وَأَسْلَمَ وَقَعْدَهُ فِي طَرِيقِ الْمِجْرَةِ فَقَالَ لَهُ أَتَذَرُ مَالَكَ وَأَهْلَكَ تَخَالَفَهُ وَهَاجَرْتُمْ قَعْدَهُ فِي طَرِيقِ الْجِهَادِ فَقَالَ لَهُ تَجَاهَدُ فَتُقْتَلُ فَيَنْكَحُ أَهْلَكَ وَيُقَسِّمُ مَالَكَ تَخَالَفَهُ وَجَاهَدُ لِحَقِّ عَلَى اللَّهِ أَنْ يَدْخُلَهُ الْجَنَّةَ » . وَأَخْرَجَهُ النَّسَائِيُّ مِنْ حَدِيثِ سَعِيدِ بْنِ أَبِي فَاكِهٍ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : « إِنَّ الشَّيْطَانَ ... » فَذَكَرَهُ . قَالَ الْبُخَارِيُّ : « ابْنُ الْفَارِكِ » وَلَمْ يَذْكُرْ فِيهِ اخْتِلَافًا . وَقَالَ ابْنُ أَبِي عَدَى :
يَقَالُ ابْنُ الْفَارِكِ وَابْنُ أَبِي الْفَارِكِ . أَتَمَّى .

قَوْلُهُ تَعَالَى : لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمُ مُدْبِرِينَ ﴿٦٢﴾ ثُمَّ أَزَلَّ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٦٤﴾

فِي ثَمَانِ سَأَلَاتٍ :

الْأُولَى - قَوْلُهُ تَعَالَى : (لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ) لِمَا بَلَغَ حَوَازِنَ فَتْحِ مَكَّةَ جَمْعُهُمْ مَالِكُ بْنُ عَوْفٍ التَّمَرِيُّ مِنْ بَنِي نَصْرٍ مَالِكٌ ، وَكَانَتْ الرِّيَاسَةُ فِي جَمِيعِ الْمَسْكَنِ إِلَيْهِ ،

وساق مع الكفار أموالهم ومواشيهم ونساءهم وأولادهم، وزعم أن ذلك يحى به نفوسهم وتشتت.
 في القتال عند ذلك شوكتهم . وكانوا ثمانية آلاف في قول الحسن ومجاهد . وقيل : أربعة
 آلاف من هوازن وتقيف . وعلى هوازن مالك بن عوف، وعلى تقيف بكاة بن عبد، فنزلوا
 بأوطاس^(١) . وبث رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن أبي حذرد الأسلمي حنثاً، فأناده
 وأخبره بما شاهد منهم؛ فغزم رسول الله صلى الله عليه وسلم على قصدهم، واستأمن من صفوان
 ابن أمية بن خلف الجمحي دروعاً . قيل : مائة درع . وقيل : أربعمائة درع . واستسلم
 من ربيعة المخزومي ثلاثين ألفاً أو أربعين ألفاً؛ فلما قدم قضاء إياها، ثم قال له النبي صلى الله
 عليه وسلم : " بارك الله لك في أهلك ومالك إنما جزاء السلف الوفاء والحد " خرج ابن ماجه
 في السنن . ونرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في اثني عشر ألفاً من المسابين ؛ منهم عشرة
 آلاف محبوبه من المدينة، والفاان من مُسَلِّمة الفتح وهم الطلقاء إلى من انضاف إليه من
 الأعراب ؛ من سليم وبني كلاب وبنو دحيان . واستعمل على مكة عتاب بن أسيد .
 وفي غرضه هذا رأى جهال الأعراب شجرة خضراء، وكان لهم في الجاهلية شجرة معروفة تسمى
 ذات أنواط، يخرج إليها الكفار يوماً معلوماً في السنة يحظمونها؛ فقالوا : يا رسول الله، اجعل
 لنا ذات أنواط كما لم ذات أنواط . فقال عليه السلام : " الله أكبر ، قلتم والذي نفسي
 بيده كما قال قوم موسى " اجعل لنا إلهاً كما لم إلهة قال إنكم قوم تجهلون " لتركبن سنن
 من قبلكم حدوا الفدة بالقدّة حتى أنهم لو دخلوا بحزب لدختموه " . فنهض رسول الله
 صلى الله عليه وسلم حتى أتى وادي حنين ، وهو من أودية تهامة ، وكانت هوازن قد كُنت
 في جنبتي الوادي وذلك في قبش الصبح فحملت على المسابين حملة دجل واحد ، فأنهزم
 جمهور المسابين ولم يلو أحد على أحد، وثبت رسول الله صلى الله عليه وسلم وثبت معه أبو بكر
 وعمر ، ومن أهل بيته عليّ والعباس وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وابنه جعفر ،
 وأسامة بن زيد ، وأبيمن بن عبيد — وهو أئمن بن أم أئمن قُتل يومئذ بجحينة — وربعة

(٢) أي لم يبعث ولم يسلط .

(١) أوطاس : واد في ديار هوازن ، فيه كانت ربيعة حنين .

ابن الحارث، والفضل بن عباس، وقيل في موضع جعفر بن، أبي سفيان : قُتِمَ بن العباس .
فهؤلاء عشرة رجال ؛ ولهذا قال العباس :

نصرنا رسول الله في الحرب تسعة * وقد فر من قد فر عنه وأفسدوا^(١)
وعاشرونا لأق الحام بنفسه * بما مسه في الله لا يسوِّج

وشئت أم سليم في جملة من ثبت ، مُحْتَرَمَةٌ مُسَكَّةٌ بغير لأبي طلحة وفي يدها خنجر . ولم ينهزم
رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أحد من هؤلاء ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم على بقلته
التي بها وأسمها دُلْدُل . وفي صحيح مسلم عن أنس قال عباس : وأنا أخذ بنجام بقلته رسول الله
صلى الله عليه وسلم أَكْفَهَا إِرَادَةً أَلَّا تَسِرَّ ، وأبو سفيان أخذ بِرُكَّاب رسول الله صلى الله عليه
وسلم ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” أَيُّ عَبَاسٍ نَادَى أَصْحَابَ السُّرَّةِ “ . فقال
عباس — وكان رجلاً صَيِّبًا . وروى من شدة صوته أنه أغبر يوما على مكة فنادى واصباحاه !
فأسقطت كُلَّ حَامِلٍ سمعت صوته جَنِينَهَا — فقلت بأعلى صوتي : أين أصحاب السُّرَّةِ ؟
قال : فو الله لكان عَظْمَتُهُمْ حين سَمِعُوا صوتي عَظْفَةُ البقر على أولادها . فقالوا : يَا بَلِيكُ
يَا بَلِيكُ . قال : فاقْتُلُوا والكفار ... الحديث . وفيه : « قال ثم أخذ رسول الله صلى الله عليه
وسلم حَصِيَّاتٍ فَرَمَى بِهِنَّ وجوه الكفار » . ثم قال : ” إِنهَزُوا وَرَبِّ عَهْد “ . قال :
فذهبت أنظر فإذا القتال على هيئته فيما أرى . قال : فو الله ما هو إلا أن رماهم بِحَصِيَّاتِهِ ؛
فأزلت أرى حَدَمَهُمْ كَلِيلًا وأمرهم مَذْبَرًا . قال أبو عمر : رَوَيْنَا من وجوه عن بعض من
أسلم من المشركين ممن شهد حُنَيْنًا أنه قال — وقد سئل عن يوم حُنَيْن — : لفينا المسالمين
فألبشنا أن همزناهم وأتبعناهم حتى آتينا إلى رجل راكب على بقلته بيضاء ، فلما رأنا زجرنا
زجرة وأشهرنا ، وأخذ بكفه حَصَى وترابا فرمى به وقال : ” شأته الوجوه “ . فلم يتبق عين
إلا دخلها من ذلك ، وما ملكنا أنفسنا أن رجعنا على أعقابنا . وقال سعيد بن جُبَيْر : حدثنا

(١) في الأصول : « منهم » والله ، ويب عن المراهب الدينية .

(٢) أي أصحاب الشجرة المسماة بالهمرة ، وهي الشجرة التي كانت عندها بيعة الرضوان عام الهدي .

رجل من المشركين يوم حُنين قال : لما التقينا مع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يندوا لنا حليب شاذ . متى إذا استبنا إلى صاحب البغلة الشهباء - يعني رسول الله صلى الله عليه وسلم - تلقا رجالا يبيض الوجه حسان ؛ فقالوا لنا : شامت الوجوه ، ارجعوا ، فرجعنا وركبوا أكناسها فكانت إياها . يعني الملائكة .

قلت : ولا تمارض : فانه يحتمل أن يكون شامت الوجوه من قوله صلى الله عليه وسلم ومن قول الملائكة معاً ، ويدل على أن الملائكة قاتلت يوم حنين . والله أعلم . وقُتل على رضى الله عنه يوم حنين أربعين رجلاً بيده . وسَي رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعة آلاف رأس . وقيل : ستة آلاف واثنتي عشرة ألف ناقة سوى ما لا يعلم من الغنائم .

الثانية - قال العلماء في هذه القِزاة : قال النبي صلى الله عليه وسلم : " من قتل قتيلاً عليه بَيِّنَةٌ مِله سَلِّه " . وقد مضى في « الأنفال » بيانه . قال ابن العربي : ولهذا النكتة وغيرها أدخل الأحكاميون هذه الآية في الأحكام .

قلت : وفيه أيضاً جواز استعارة السلاح وجواز الاستمتاع بما أُسْتُمِرَ إذا كان على المعهود مما يستعار له مثله ، وجواز استلاف الإمام المال عند الحاجة إلى ذلك وردّه إلى صاحبه . وحدث صفوان أصل في هذا الباب . وفي هذه القِزاة أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا تُؤْطَا حامل حتى تَضَعَ ، ولا حائل حتى تحيض حيضة . وهو يدل على أن السَّيَّ يقطع العِصْمَةَ . وقد مضى بيانه في سورة « النساء » مستوفى . وفي حديث مالك أن صفوان خرج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو كافر ، فشهد حُنيْنا والطائف وأمر أنه مسلمة . الحديث . قال مالك : ولم يكن ذلك بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا أرى أن يُستعان بالمشركين على المشركين إلا أن يكونوا حُدَمَاءَ أو ثَوَاتِيَةً . وقال أبو حنيفة والشافعي والثوري والأوزاعي :

(١) راجع المسألة الخامسة ج ٧ ص ٣٦٣ طبعه أول أو ثانية .

(٢) راجع . ٥ ص ١٢١ طبعه أول أو ثانية .

لا بأس بذلك إذا كان حكم الإسلام هو الغالب، وإنما تكرر الاستمانة بهم إذا كان حكم الشرك هو الظاهر . وقد مضى القول في الإسهام لهم في « الأنفال »^(١) .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ﴾ « حُنَيْن » وادي بين مكة والطائف، وأنصرف لأنه اسم مذكر، وهي لغة القرآن . ومن العرب من لا يصرفه، يعملها اسمًا للبقعة . وأنشد :
نَهَرُوا نَبِيَّـمَ وَشَدُّوا أَزْرَهُ • بِحُنَيْنٍ يَوْمَ تَوَاكُلَ الْأَبْطَالُ^(٢)

« ويوم » طرف، وانتصب ها على معنى : ونصركم يوم حنين . وقال الفراء : لم تنصرف « مواطن » لأنه ليس لها نظير في المفرد وليس لها جمع ؛ إلا أن الشاعر ربما اضطرر بجمع . وليس يجوز في الكلام كتاب يجوز في الشعر . وأنشد :
فَهَنَ يَطْلُكُنَّ حَدَانِدَاتِهَا •

وفال النحاس : رأيت أبا إسحاق يتمتع من هذا قال : أخذ قول الخليل وأخطأ فيه ؛ لأن الخليل يقول فيه : لم ينصرف لأنه جمع لا نظيره في الواحد، ولا يجمع جمع التكسير، وأما بالألف والتاء فلا يتمتع .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ إِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ ذُرِّيَّتِكُمْ ﴾ قيل : كانوا اثني عشر ألفا . وقيل : أحد عشر ألفا وخمسمائة . وقيل : ستة عشر ألفا . فقال بعضهم : لن يُطلب اليوم عن قلة . فَوُكِّلُوا إلى هذه الكلمة ؛ فكان ما ذكرناه من الهزيمة في الابتداء إلى أن تراجعوا، فكان النصر والظفر للمسلمين ببركة سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم . فبين الله عز وجل في هذه الآية أن الغلبة إنما تكون بنصر الله لا بالكثرة . وقد قال : « وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ »^(٣) .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿ وَضَافَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ﴾ أي من الخوف ؛ كما قال :

كَانَ بِلَادَ اللَّهِ وَهِيَ عَرِيضَةٌ • عَلَى الْخِصَافِ الْمَطْلُوبِ كِكْفَةِ حَائِلٍ^(٤)

(١) راجع المسألة الموقفة العشرين ص ١٨ من هذا الجزء . (٢) أليت لحسان بن ثابت . (٣) آية ١٩ سورة آل عمران . (٤) الكفة (بالكسر) : خيالة الهامة . والحابل : الذي ينصب الحباله .

والرُحْب (بضم الراء) السَّعة . تقول منه : فلان رُحْب الصدر . والرُّحْب (بالفتح) :
الواسع . تقول منه : بلد رُحْب ، وأرض رَحْبة . وقد رُحِبَتْ رُحْباً ورَحابة .
وقيل : الباء بمعنى مع ؛ أي مع رحبها . وقيل : بمعنى على ، أي على رحبها . وقيل : المعنى
نرحبها ؛ فـ « حا » مصدرية .

السادسة - قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْرِيْنَ ﴾ روى مسلم عن أبي إسحاق قال :
جاء رجل إلى البراء فقال : أكنتم ولَّيْتُم يوم حُتَيْن يا أبا عمار . فقال : أشهد على نبي الله
صلى الله عليه وسلم ما ولى ، ولكنه أنطلق أَخْفَاءً ^(١) من الناس ، وحسّر إلى هذا الحى من
هوازن . وهم قوم رُمَاة فرمَوْهم يرشق من نبل كأنها رجل من جراد فأنكشفوا ، فأقبل القوم
إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبوسفیان يقود به بغله ، فزل ودعا وأستنصر وهو يقول :
” أنا النبي لا كذب . أنا ابن عبد المطلب . اللَّهُمَّ نزل نصرتك “ . قال البراء : كما والله إذا
أحز البأس تنقَّى به ، وإن الشجاع منا للذى يُحاذى به ؛ بمعنى النبي صلى الله عليه وسلم .

السابعة - قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى أنزل
عليهم ما يسكنهم ويذهب خوفهم ، حتى اجتمعوا على قتال المشركين بعد أن ولوا . ﴿ وَأَنْزَلَ
جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا ﴾ وهم الملائكة ؛ يقوون المؤمنين بما يقوون في قلوبهم من الخواطر والتثيت ،
ويضعفون الكافرين بالتجيين لهم من حيث لا يرونهم ومن غير قتال ؛ لأن الملائكة لم تقاتل
إلا يوم بدر . وروى أن رجلا من بني نصر قال للمؤمنين بعد الفتح : أين الخيل البقي ،
والرجال الذين كانوا عليها بيض ، ما كانوا فيها إلا كهية الشاة ، وما كان قتلنا إلا بأيديهم .
أخبروا النبي صلى الله عليه وسلم بذلك فقال : ” تلك الملائكة “ . ﴿ وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾

(١) أخفاء : جمع خفيف كليل وأظاء . وأراد بهم المتعطين . وأظفر : جمع حافر كساجد وحيد .
وهو من لا دافع له ولا منفر . أى ليس عليهم سلاح . والرشق (بالكسر) : أرمى للبهائم التى ترميها الجماعة دفعة واحدة .
والرجل (بالكسر) : القطعة . وقوله « أحز البأس » أى أشد الحرب . (راجع شرح الزورى على صحيح مسلم
تخاطب الحنازى) .

أى بأسياكم . (وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ . ثُمَّ يَرْجُئُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ) أى على من أنهزم فبيده إلى الإسلام . كمالك بن عوف الصّرى وثيس حنين ومن أسلم معه من قومه .

الثامنة — ولما قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم غنائم حنين بالجرانة ، أناه وفد هوازن مسلمين وراغبين في العطف عليهم والإحسان إليهم ، وقالوا : يا رسول الله ، إنا خير الناس وأبرّ الناس ، قد أخذت أبناءنا ونساءنا وأموالنا . فقال لهم : " إني قد كنت استأثّيت بكم وقد وقعت المقاسم وعدى من ترون وإن خير القول أصدقه فاخاروا إما ذراريكم وإما أموالكم " . فقالوا : لا نعدل بالأنساب شيئا . فقام خطيبا وقال : " هؤلاء جاءونا مسلمين وخيرناهم فلم يعدوا بالأنساب فرضوا برذ الذرية وما كان لى ولبنى عبد المطلب وبني هاشم فهو لهم " . وقال المهاجرون والأنصار : أما ما كان لنا فهو لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأمتنع الأقرع بن حابس وعيينة بن حصن في قومهما من أن يردوا عليهم شيئا مما وقع لهم في سباهم . وأمتنع العباس بن مرداس السّلمى كذلك ، وطمّح أن يساعد قومه كما ساعد الأقرع وعيينة قومهما . فابت بنو سليم وقالوا : بل ما كان لنا فهو لرسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " مَنْ ضَنَّ مَسْكًا فِي يَدَيْهِ فَإِنَّا نَعُوْضُهُ مِنْهُ " . فردّ عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم نساءهم وأولادهم ، وعوّض من لم يَطْلُب نفسه بترك نصيبه أعواضا رضوا بها . وقال قتادة : ذكر لنا أن ظنر النبي صلى الله عليه وسلم إلى أرضعه من بني سعد ، أنه يوم حنين فسانه سبايا حنين . فقال صلى الله عليه وسلم : " إني لا أملك إلا ما يصيبني منهم ولكن إيتيني غدا ما سألتني والناس عدى فإذا أعطيتك حصتي أعطتك الناس " . فحابت الغد فبسط لها ثوبه فأقمدها عليه . ثم سأله فأعطاها نصيبه ، فلما رأى ذلك الناس أعطوها أنصباهم . وكان عدد سبي هوازن في قول سعيد بن المسيّب ستة آلاف رأس . وقيل : أربعة آلاف . قال أبو عمر : فبين السّباء أخت النبي صلى الله عليه وسلم من الرّضاة ، وهى بنت الحارث بن عبد العزّى من بني سعد بن بكر [وبنت] حلّمة السعدية ، فأكرمها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأعطاه وأحسن إليها ، ورجعت مسرورة

إلى بلادنا بدينها وبما آفاه الله عليها . قال ابن عباس : رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أوطاس امرأة تمدو وتصيح ولا تستقر ، فقال عنها قيل : فقدت بنيها . ثم رآها وقد وجدت أبنائها وهي تقبله وتدنيه ، فدعاها وقال لأصحابه : " أطارحة هذه ولدها في النار " ؟ قالوا لا . قال : " لم " ؟ قالوا : لشفتها . قال : " الله أرحم بكم منها " . وخرجه مسلم بمعناه ، والحمد لله .

قوله تعالى : **يَتَّبِعُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءِتَمَّا اللَّهُ مُشْرِكُونَ بِحَسِّ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِن شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** ﴿٢٨﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى - قوله تعالى : ﴿ يَتَّبِعُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءِتَمَّا اللَّهُ مُشْرِكُونَ بِحَسِّ ﴾ ابتداء وخبر واختلف العلماء في معنى وصف المشرك بالبحس ؛ فقال قتادة ومعمّر بن راشد وغيرهما : لأنه جُنُب ؛ إذ غلبه من الجنابة ليس بفنسل . وقال ابن عباس وغيره : بل معنى الشرك هو الذي نجسه . قال الحسن البصري : من صالح مشركا فليتوضأ . والمذهب كله على إيجاب الفسل على الكافر إذا أسلم ؛ إلا ابن عبد الحكم فإنه قال : ليس بواجب ؛ لأن الإسلام يهدم ما كان قبله . وبوجوب الفسل عليه قال أبو ثور وأحمد ، وأسقطه الشافعي . وقال : أحب إلى أن يقتل . ونحوه لأبى القاسم . ولكل قول : إنه لا يعرف الفسل ؛ رواه عنه ابن وهب وابن أبي أويس . وحديث ثمامة وقيس بن عاصم يرد هذه الأقوال . رواها أبو حاتم البستي في صحيح مستنده . وأن النبي صلى الله عليه وسلم مر ثمامة يوما فأسلم ، فبعث به إلى حائط أبي طلحة فأمره أن يقتل ، فاغتسل وصلى ركعتين . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لقد حسن إسلام صاحبكم " وأخرجه مسلم بمعناه . وفيه : أن ثمامة

لما منّ عليه النبي صلى الله عليه وسلم أنطلق إلى خيل قريب من المسجد فاغتسل . وأمر قيس ابن عاصم أن يقتبل بماء وسدر . فإن كان إسلامه قبيل احتلامه فضله . مستحب . ومضى أسلم بعد بلوغه لزمه أن ينوي بفعله الجنابة . هذا قول علمائنا . وهو تحصيل المذهب . وقد أجاز ابن القاسم للكفار أن يقتسل قبل إظهاره للشهادة بلسانه ، إذا اعتنق الإسلام بقلبه ؛ وهو قول ضعيف في النظر مخالف للأثر . وذلك أن أحدا لا يكون بالنية مسلما دون القول هذا قول جماعة أهل السنة في الإيمان : إنه قول باللسان وتصديق بالقلب ، وَيُرْكَوُ بِالْعَمَلِ قال الله تعالى : « إِلَيْهِ يُعْصَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ » .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ ﴾ « فلا يقربوا » نهى ؛ ولذلك حذفت منه النون . « المسجد الحرام » هذا اللفظ يطلق على جميع الحرم ، وهو مذهب عطاء ، فإذا يحرم تمكين المشرك من دخول الحرم أجمع . فإذا جاء رسول منهم خرج الإمام إلى الخيل ليسمع ما يقول . ولو دخل مشرك الحرم مستورا وملت نبش قبره وأخرجت عظامه . فليس لهم الاستيطان ولا الاجتياز . وأما جزيرة العرب ، وهي مكة والمدينة واليمامة واليمن وغاليفها ؛ فقال مالك : يخرج من هذه المواضع كل من كان على غير الإسلام ، ولا يمتنعون من التردد بها مسافرين . وكذلك قال الشافعي رحمه الله ؛ غير أنه استثنى من ذلك اليمن . ويضرب لهم أجل ثلاثة أيام كما ضربه لهم عمر رضي الله عنه حين أجلاهم . ولا يدفنون فيها ويلجئون إلى الحل .

الثالثة — واختاف العلماء في دخول الكفار المساجد والمسجد الحرام على خمسة أقوال ؛ فقال أهل المدينة : الآية عامة في سائر المشركين وسائر المساجد . وبذلك كتب عمر ابن عبد العزيز إلى عماله ونزع في كتابه بهذه الآية . ويؤيد ذلك قوله تعالى : ﴿ فِي بُيُوتٍ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ يُرْفَعَ وَيُرْفَعُوا فِيهَا أُسْمُهُ ﴾ . ودخول الكفار فيها منافض لتوفيها . وقد صحیح مسلم وغيره : أن هذه المساجد لا تصلح لشيء من البول والقدور . الحديث . والكافر لا يخلو من

(١) مخاليف جمع خلاف ؛ وهي قرى اليمن .

(١) آية ١٠ سورة طه .

(٢) آية ٣٦ سورة البور .

ذلك . وقال صلى الله عليه وسلم : " لا أحل المسجد لحائض ولا للجنب " والكافر جنب .
وقوله تعالى : « إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ » فمآه الله تعالى نجسا . فلا يغلو أن يكون نجس
العين أو مبعدا من طريق الحكم . وأى ذلك كان ، فتنعه من المسجد واجب ، لأن العلة وهي
النجاسة موجودة فيهم ، والحرمة موجودة في المسجد . يقال : رجل نجس ، وامرأة نجس ،
ورجلان نجس ، وامرأتان نجس ، ورجال نجس ، ونساء نجس ، لا يثنى ولا يُجمع لأنه
مصدر . فاما النجس (بكسر النون وحزم الجيم) فلا يقال إلا إذا قيل معه رجس . فاذا أُفرد
قبل نجس (بفتح النون وكسر الجيم) ونجس (بضم الجيم) . وقال الشافعي رحمه الله : الآية
عامة في سائر المشركين ، خاصة في المسجد الحرام ، ولا يمتنعون من دخول غيره ، فأباح دخول
اليهودي والنصراني في سائر المساجد . قال ابن العربي : وهذا جود منه على الظاهر ، لأن
قوله عز وجل : « إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ » تنبيه على العلة بالشرك والنجاسة . فان قيل : فقد
ربط النبي صلى الله عليه وسلم ثمة في المسجد وهو مشرك . قيل له : أجاب علمائنا عن هذا
الحديث - وإن كان صحيحا - بأجوبة : أحدها - أنه كان متقدما على نزول الآية .

الثاني - أن النبي صلى الله عليه وسلم كان قد علم بإسلامه فلذلك ربطه .

الثالث - أن ذلك قضية في عين فلا ينبغي أن تدفع بها الأدلة التي ذكرناها ؛ لكنها
مقبدة حكم القاعدة الكلية . وقد يمكن أن يقال : إنما ربطه في المسجد لينظر حسن صلاة
المسلمين واجتماعهم عليها ، وحسن آدابهم في جلوسهم في المسجد ؛ فيستأنس بذلك ويُسلم ؛
وكذلك كان . ويمكن أن يقال : إنهم لم يكن لهم موضع يربطونه فيه إلا في المسجد ؛
رواه أعلم . وقال أبو حنيفة وأصحابه : لا يُمنع اليهود والنصارى من دخول المسجد الحرام
ولا غيره ، ولا يُمنع دخول المسجد الحرام إلا المشركون وأهل الأوثان . وهذا قول يرد كل
ما ذكرناه من الآية وغيرها . قال الكيكا العنبري : ويجوز للذي دخل سائر المساجد عدد
أبي حنيفة من غير حاجة . وقال الشافعي : تعتبر الحاجة ، ومع الحاجة لا يجوز دخول المسجد
الحرام . وقال عطاء بن أبي رباح : الحُرْم كل قلة ومسد ، فينبغي أن يمتنعوا من دخول

الحَرَمُ ؛ لقوله تعالى : «سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ» . وإنما رفع من بيت أم هانئ ، وقال قتادة : لا يقرب المسجد الحرام مشرك ؛ إلا أن يكون صاحب جزية ، أو عبدا كافرا لمسلم . وروى إسماعيل بن إسحاق حدثنا يحيى بن عبد الحميد قال حدثنا شريك عن أشعث عن الحسن عن جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : «لا يقرب المسجد مشرك إلا أن يكون عبدا أو أمة فيدخله حاجة» . وبهذا قال جابر بن عبد الله ؛ فإنه قال : العموم يمنع المشرك عن قربان المسجد الحرام ، وهو مخصوص في العبد والأمة .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ فيه قولان : أحدهما — أنه سنة تسع التي حج فيها أبو بكر . الثاني — سنة عشر ؛ قاله قتادة . أبن العربي : « وهو الصحيح الذي يعطيه مقتضى اللفظ ، وإن من العجب أن يقل : إنه سنة تسع ، وهو العام الذي وقع فيه الإذنان . ولو دخل غلامٌ رجل داره يوما فقال له مولاه : لا تدخل هذه الدار بعد يومك ، لم يكن المراد اليوم الذي دخل فيه » .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَشْلَةً﴾ قال عمرو بن فائد : المعنى وإذ خفتم . وهذه محجمة ، والمعنى بارع . « إن » . وكان المسلمون لما منعوا المشركين من الموسم ، وهم كانوا يجلبون الأطعمة والتجارات ، فذف الشيطان في قلوبهم الخوف من الفقر وقالوا : من أين نميش . فوعدهم الله أن يفتيهم من فضله . قال الضحاك : ففتح الله عليهم باب الجزية من أهل الذمة بقوله عز وجل : « قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ » الآية . وقال عكرمة : أغناهم الله بإرذار المطر والنبات وخصب الأرض . فأخصبت تباله وبرش ، وحلوا إلى مكة الطعام والودك وكثرا الخير . وأسلمت العرب : أهل نجد وصنعا وغيرهم ؛ فتبادى حجهم وتجرهم . وأغنى الله من فضله بالجهاد والظهور على الأمم . والعيلة : الفقر . يقال : عال الرجل يعل إذا افتقر . قال الشاعر :

وما يدرى الفقير متى غناه • وما يدرى النفي متى يعيل^(١)

(١) الودك : هو دم الغم ودمه الذي يسرح به . (٢) هواجبة ؛ كاف اللان .

وقرأ عقمة وغيره من أصحاب ابن مسعود « عائلة » وهو مصدر؛ كقائلة من قال يقبل ،
وكالمانية . ويمتثل أن يكون متاخذون تقديره : حالا عائلة ، ومعناه خصلة شاقة .
فقال منه : عالى الأمر يعولنى ، أى شق على وأشد . وحكى الطبري أنه يقال : عال
يول إذا افتقر .

السادسة - في هذه الآية دليل على أن تعلق القلب بالأسباب في الرزق جائز وليس
ذلك بمناف للتوكل؛ وإن كان الرزق مقدرًا ، وأمر الله وقسمه ، فمفعولًا ، ولكنه علقه بالأسباب
حكمة ؛ لتعلم القلوب التي تتعلق بالأسباب من القلوب التي تتوكل على رب الأرباب . وقد
تقدم أن السبب لا ينافي التوكل . قال صلى الله عليه وسلم : " لو توكلتم على الله حق توكله
لرزقكم كما يرزق الطير تغدو نحاصًا وتروح يطانًا " ^(١) . أخرجه البخاري . فأخبر أن التوكل
الحقيقي لا يضياده الغدو والروح في طلب الرزق . ابن العربي : « ولكن شيوخ الصوفية
قالوا : إنما يندو وبروح في الطاعات ؛ فهو [السبب] الذي يجب الرزق » . قالوا : والدليل
عليه أمران : أحدهما - قوله تعالى : « وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا تَسْأَلْكَ
رِزْقًا مِّن رِّزْقِكَ » ^(٢) . الثاني - قوله تعالى : « إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ
يَرْفَعُهُ » ^(٣) . فليس يترك الرزق من عمله وهو السبب ، إلا ما يصعد وهو الذكر الطيب والعمل
الصالح ، وليس بالسبب في الأرض ؛ فإنه ليس فيها رزق . والصحيح ما أحكته السنة عند
فقهاء الظاهر ، وهو العمل بالأسباب الذنوبية ؛ من الحرث والتجارة في الأسواق ، والمهارة
للا موال وغرس الثمار . وقد كانت الصحابة تفعل ذلك والنبي صلى الله عليه وسلم بين
أظهرهم . قال أبو الحسن بن بقال : أمر الله سبحانه عباده بالإلتفات من لطبات ما كسبوا ،
إلى غير ذلك من الآي . وقال : « قَتْنٌ أَضْطَرَّ ضَيْرَ بَاجٍ وَلَا عَادٍ فَلَا يَتِمُّ عَلَيْهِ » . فاحل للضطر

(١) الخمس والمهنة : الجوع . وثيلة : ابتلاء البطن من الطعام . أى تندوبكة وهي بجاع ، وروح عناء
أوى مبتلة الأجواف . (٢) زيادة عن ابن العربي . (٣) آية ١٣٢ سورة طه ؛
(٤) آية ١٠ سورة طاهر . (٥) آية ١٧٣ سورة البقرة .

ما كان حُرْم عليه عند عدمه للغذاء الذي أمره باكتسابه والاعتناء به، ولم يأمره بانتظار طعام ينزل عليه من السماء، ولو ترك السعي في ترك ما يتغذى به لكان لنفسه قاتلاً . وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتلوى من الجوع ما يجد ما يأكله، ولم ينزل عليه طعام من السماء، وكان يذخر لأهله قوت ستة حتى فتح الله عليه الفتح . وقد روى أنس بن مالك أن رجلاً أتى النبي صلى الله عليه وسلم ببعير فقال : يا رسول الله ، أعقله وأتوكل أو أطلقه وأتوكل ؟ قال : ” أعقله وتوكل ”

قلت : ولا حجة لهم في أهل الشُّفَّة؛ فإنهم كانوا فقراء يقعدون في المسجد ما يحرقون ولا يتحرقون، ليس لهم كسب ولا مال، إنما هم ضياف الإسلام عند ضيق البلدان، ومع ذلك فإنهم كانوا يحطبون بالنهار ويسوقون الماء إلى بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويقربون القرآن بالليل ويصلون . هكذا وصفهم البخاري وغيره . فكانوا يتسببون . وكان صلى الله عليه وسلم إذا جاءته هدية أكلها معهم، وإن كانت صدقة حصم بها، فلما كفر الفتح وانتشر الإسلام خرجوا وأنفروا كالأحرار وغيره — وما قعدوا . ثم قيل : الأسباب التي يطلب بها الرزق ستة أنواع :

أعلاها كسب نبيِّنا محمد صلى الله عليه وسلم؛ قال : ” جعل رزق تحت ظل رعي وجعل الذلَّة والصُّغار على من خالف أمرى ” . خرجه الترمذي ومصححه . فجعل الله رزق نبيه صلى الله عليه وسلم في كسبه لفضله، وخصه بأفضل أنواع الكسب؛ وهو أخذ الغلبة والقهر لشرفه . الثاني — أكل الرجل من عمل يده؛ قال صلى الله عليه وسلم : ” إن أطيب ما أكل الرجل من عمل يده وإن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده ” خرجه البخاري . وفي التبريل « وَعَبَادَةُ صَنَعَةُ لَبُؤْسٍ لَكُمْ » ، وروى أن عيسى عليه السلام كان يأكل من غزل أمه . الثالث — التجارة، وهي كانت عمل جبل الصعابة رضوان الله عليهم، ولخاصة المهاجرين؛ وقد دلَّ عليها التبريل في غير موضع .

الرابع - الحوث والفرس . وقد بيناه في سورة « البقرة » ^(١) .

الخامس - إلقاء القرآن وتعليمه والرقبة ، وقد مضى في الفاتحة .

السادس - يأخذ بنية الأداء إذا احتاج ، قال صلى الله عليه وسلم : " من أخذ أموال الناس يريد إداها أدى الله عنه ومن أخذها يريد إتلافها أتلفه الله " . نرجه البخاري .
رواه أبو هريرة رضي الله عنه .

السابعة - قوله تعالى : (وَإِنْ شَاءَ) دليل على أن الرزق ليس بالاجتهاد ، وإنما هو من فضل الله تعالى قسمته بين عباده ، وذلك بين في قوله تعالى : « تَحْنُ قَسَمًا بَيْنَهُمْ مِمَّا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » الآية .

قوله تعالى : قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ^(٢)
فيه خمس عشرة مسألة :

الأولى - قوله تعالى : (قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ) لما حرم الله تعالى على الكفار أن يقرؤوا المسجد الحرام ، وجد المسلمون في أنفسهم بما قطع عنهم من التجارة التي كان المشركون يوافون بها ، قال الله عز وجل : « وَإِنْ خِفْتُمْ عِيلَةً » الآية . على ما تقدم . ثم أحل في هذه الآية الجزية وكانت لم تؤخذ قبل ذلك ، بل عليها عوضا مما منعهم من موافاة المشركين بتجارهم . فقال الله عز وجل : « قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ » الآية . وأمر سبحانه وتعالى بمقاتلة جميع الكفار لإصفاقتهم على هذا الوصف ، وخص أهل الكتاب بالذكر إكراما لكتهم . ولكونهم علمين بالتوحيد والرسول والشرائع والمثل ، وخصوصا

(١) رابع ج ٣ ص ١٧ طبعه أول أو ثانية .

(٢) آية ٣٢ سورة الزنبر .

(٣) أصغر النعم على أمر واحد : أجمعوا عليه .

ذِكْرُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَلَّتْ وَأَقْنَتْ . فلما أنكروه تأكدت عليهم الحجة وعظمت منهم الجزية؛ فنبه على ملهم ثم جعل للقتال غاية، وهي إعطاء الجزية بدلاً عن القتل . وهو الصحيح . قال ابن العربي : سمعت أبا الوفاء على بن عقیل في مجلس النظر يتلوها ويحتج بها . فقال : « قَاتِلُوا » وذلك أمر بالمعقوبة . ثم قال : « الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ » وذلك بيان للذنب الذي أوجب المعقوبة . وقوله : « وَلَا يَأْتِيهِمُ الْآخِرُ » تأكيد للذنب في جانب الاعتقاد . ثم قال : « وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ » زيادة للذنب في مخالفة الأعمال . ثم قال : « وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ » إشارته إلى تأكيد المصيبة بالاعتصاف والمعادة والأفصة عن الاستسلام . ثم قال : « مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ » تأكيد للحجة؛ لأنهم كانوا يحدونه مكتوماً عندهم في التوراة والإنجيل . ثم قال : « حَتَّى يَعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ » بين النهاية التي تمتد إليها المعقوبة، وعين البديل الذي ترضع به .

الثانية — وقد اختلف العلماء فيمن تؤخذ منه الجزية؛ فقال الشافعي رحمه الله : لا تقبل الجزية إلا من أهل الكتاب خاصة، عرباً كانوا أو عجماء هذه الآية؛ فإنهم هم الذين خصوا بالذكر فتوجه الحكم إليهم دون من سواهم؛ لقوله عز وجل : « قَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يَجِدُوا دِينَهم » . ولم يقل : حتى يعطوا الجزية كما قال في أهل الكتاب . وقال : وتقبل من المجوس بالسنة؛ وبه قال أحمد وأبو ثور . وهو مذهب الثوري وأبي حنيفة وأصحابه . وقال الأوزاعي : تؤخذ الجزية من كل عابد وثق أو نار أو جاحد أو مكذب . وكذلك مذهب مالك؛ فإنه رأى أن الجزية تؤخذ من جميع أجناس الشرك والنجس، عربياً أو عجماء، تقليداً أو قرشياً، كانوا من كان؛ إلا المرتد . وقال ابن القاسم وأشباهه ويحسون : تؤخذ الجزية من مجوس العرب والأثم كلها . وأما عبدة الأوثان من العرب فلم يستأمن الله فيهم جرة، ولا يبقى على الأرض منهم أحد، وإنما لهم القتال أو الإسلام . ويوجد لابن القاسم : أن الجزية تؤخذ منهم؛ كما يقوله مالك . وذلك في التفريق لأين الحلاب، وهو احتمال لا نص . وقال ابن وهب :

لا تقبل الجزية من مجوس العرب وتقبل من غيرهم . قال : لأنه ليس في العرب مجوسية إلا وجميعهم أسلم ، فمن وجد منهم بخلاف الإسلام فهو مرتد ، يقتل بكل حال إن لم يسلم ، ولا تقبل منهم جزية . وقال ابن الجهم : تقبل الجزية من كل من دان بغير الإسلام ؛ إلا ما أجمع عليه من كفار قريش . وذكر في تعليل ذلك أنه إكرام لهم عن الذلة والصغار ؛ لمكانهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال غيره : إنما ذلك لأن جميعهم أسلم يوم فتح مكة . والله أعلم .

الثالثة - وأما المجوس فقال ابن المنذر : لا أعلم خلافا أن الجزية تؤخذ منهم . وفي الموطأ : مالك عن جعفر بن محمد عن أبيه أن عمر بن الخطاب ذكر أمر المجوس فقال : ما أدرى كيف أصنع في أمرهم . فقال غيبة الرحمن بن عوف : أشهدُ لسمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " ستوا بهم سنة أهل الكتاب " . قال أبو عمر : يعني في الجزية خاصة . وفي قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ستوا بهم سنة أهل الكتاب " دليل على أنهم ليسوا أهل كتاب . وعلى هذا جمهور الفقهاء . وقد روى عن الشافعي أنهم كانوا أهل كتاب فبدلوا . وأظنه ذهب في ذلك إلى شيء روى عن علي بن أبي طالب بن وجه فيه ضعف ، يدور على أبي سعيد البقال ، ذكره عبد الرزاق وغيره . قال ابن عطية : وروى أنه قد كان بُعث في المجوس نبي اسمه زرادشت . والله أعلم .

الرابعة - لم يذكر الله سبحانه وتعالى في كتابه مقداراً للجزية المأخوذة منهم . وقد اختلف العلماء في مقدار الجزية المأخوذة منهم ؛ فقال عطاء بن أبي رباح : لا توقيت فيها ، وإنما هو على ما ضوّلوا عليه . وكذلك قال يحيى بن آدم وأبو عبيد والطبري ؛ إلا أن الطبري قال : أقله دينار وأكثره لا حد له . واحتجوا بما رواه أهل الصحيح عن عمرو بن عوف : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صالح أهل البحرين على الجزية . وقال الشافعي : دينار على الغنى والفقير من الأحرار البالغين لا يُنقص منه شيء ؛ واحتج بما رواه أبو داود وغيره من معاذ : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثه إلى اليمن ، وأمره أن يأخذ من كل عالم

دينارا في الجزية . قال الشافعي : وهو المئين عن الله تعالى مراده . وهو قول أبي ثور . قال الشافعي : وإن صولحوا على أكثر من دينار جاز ، وإن زادوا وطابت بذلك أنفسهم قبل منهم . وإن صولحوا على ضيافة ثلاثة أيام جاز ، إذا كانت الضيافة معلومة في الخبز والشعير والذبن والإدام ، ودكر ما على الوسط من ذلك وما على الموسر ، وذكر موضع التزول واليكن من البرد والحرق . وقال مالك فيها رواه عنه ابن القاسم وأشهب ومحمد بن الحارث ابن زنجويه : إنها أربعة دنانير على أهل الذهب وأربعون درهما على أهل الورق ، الغني والفقر سواء ولو كان محسوبا . لا يزد ولا ينقص على ما فرض عمر ، لا يؤخذ منهم غيره . وقد قيل : إن الضعيف يخفف عنه بقدر ما يراه الإمام . وقال ابن القاسم : لا ينقص من فرض عمر لمسر ولا يزد عليه الغني . قال أبو عمر : ويؤخذ من فقرائهم بقدر ما يحتملون ولو درهما . وإلى هذا رجع مالك . وقال أبو حنيفة وأصحابه ومحمد بن الحسن وأحمد بن حنبل : اثنا عشر ، وأربعة وعشرون ، وأربعون . قال الثوري : جاء عن عمر بن الخطاب في ذلك ضرائب مختلفة ، فلوالى أن يأخذ بأبها شاء ، إذا كانوا أهل ذمة . وأما أهل الصلح فاصولحوا عليه لا غير .

الخامسة - قال علماؤنا رحمة الله عليهم : والذي دل عليه القرآن أن الجزية تؤخذ من الرجال المغائلين ، لأنه تعالى قال : « قَاتِلُوا الَّذِينَ » إلى قوله - « حَتَّى يُعْطُوا الجزية » فيقتضى ذلك وجوبها على من يقاقل . ويدل على أنه ليس على العبد وإن كان مقانلا ، لأنه لا مال له ، ولأنه تعالى قال : « حَتَّى يُعْطُوا » . ولا يقال لمن لا يملك حتى يعطى . وهذا إجماع من العلماء على أن الجزية إنما توضع على مجاهم الرجال الأحرار البالغين ، وهم الذين يقاقلون دون النساء والذرية والعبيد والمجانين المغلوبين على عقولهم والشيخ الفاني . واختلف في الرهبان ، فروى ابن وهب عن مالك أنها لا تؤخذ منهم . قال مطوف وأبو المساجشون : هذا إذا لم يترهب بعد فرضها ، فإن فرضت ثم ترهب لم يسقطها ترهبه .

السادسة - إذا أعطى أهل الجزية الجزية لم يؤخذ منهم شيء من ثمارهم ولا تجارتهم ولا زروعهم ، إلا أن يجهروا في بلاد غير بلادهم التي أقروا فيها وصولحوا عليها . فإن خرجوا

تجاراً عن بلادهم التي أقروا فيها إلى غيرها أخذ منهم العشر إذا باعوا ونصّ ثمن ذلك بأيديهم، ولو كان ذلك في السنة صراراً؛ إلا في حملهم الطعام الحنطة والزيت إلى المدينة ومكة خاصة، فنه يؤخذ منهم نصف العشر على ما فعل عمر . ومن أهل المدينة من لا يرى أن يؤخذ من أهل الذمة العشر في تجارتهم الآمرة في الحول، مثل ما يؤخذ من المسلمين، وهو مذهب عمر بن عبد العزيز وجماعة من أئمة الفقهاء . والأول قول مالك وأصحابه .

السابعة - إذا أذى أهل الجزية جريتهم التي ضربت عليهم أو صولحوا عليها خلى بينهم وبين أموالهم كلها . وبين كروهمهم وعصرها ما سرتوا نخورهم ولم يملنوا بيعها من مسلم . ومنعوا من أطهار الخمر والخزير في أسواق المسلمين؛ فإن أطهروا شيئاً من ذلك أريقته الحر عنهم، وأدب من أطهر الخنزير . وإن أراقها مسلم من غير إظهارها فقد تعدّى، ويجب عليه الضمان . وقيل : لا يجب ، ولو غصبها وجب عليه ردّها . ولا يعترض لهم في أحكامهم ولا متاجرتهم فيما بينهم بالربا . فإن تعاكروا إلينا فالحاكم غير، إن شاء حكم بينهم بما أنزل الله وإن شاء أعرض . وقيل : يحكم بينهم في المظالم على كل حال، ويؤخذ من قوتهم لضعيفهم؛ لأنه من باب الدفع عنهم . وعلى الامام أن يقابل عنهم عدوهم ويستعين بهم في قتالهم . ولا حظ لهم في التّيء، وما صولحوا عليه من الكائن لم يزيدوا عليها، ولم يمنوا من إصلاح ما وهى منها، ولا سبيل لهم إلى إحداث غيرها . وياخذون من اللباس والهيئة بما يبينون به من المسلمين، ويمنعون من التشبه بأهل الاسلام . ولا بأس باشتراء أولاد العدو منهم إذا لم تكن لهم ذمة . ومن لدّ في أداء جزيته أدب على لئده وأخذت منه صاغراً .

الثامنة - اختلف العلماء فيما وجبت الجزية عنه؛ فقال علماء المالكية: وجبت بدلا عن القتل بسبب الكفر . وقال الشافعي: وجبت بدلا عن الدم وسكنى الدار . وقائدة الخلاف أنا إذا قلنا وجبت بدلا عن القتل فأسلم سقطت عنه الجزية لما مضى، ولو أسلم قبل تمام الحول يوم أو بعده عند مالك . وعند الشافعي أنها دين مستغفر في الذمة فلا يسقطه

(١) نضر المال : صاريّاً بد أن كان متاعاً .

(٢) اللد : الخصومة الشديدة .

الإسلام كأجرة الدار . وقال بعض الحنفية بقولنا . وقال بعضهم : إنما وجبت بدلا عن النصر والجهاد . واختاره القاضي أبو زيد وزعم أنه ستر الله في المسألة . وقول مالك أصح ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم : " ليس على مسلم جزية " . قال سفيان : معناه إذا أسلم الذي بعد ما وجبت الجزية عليه بطلت عنه . أخرجه الترمذي وأبو داود . قال علماؤنا : وعليه يدل قوله : « حتى يُعْطُوا الجزية عن يَدٍ وهم صاعرون » لأنَّ بالإسلام يرول هذا المعنى . ولا خلاف أنهم إذا أسلموا فلا يؤدُّون الجزية عن يَدٍ وهم صاغرون . والشافعي لا يأخذ بعد الإسلام على الوجه الذي قاله الله تعالى . وإنما يقول : إن الجزية دين ، وجبت عليه بسبب سابق وهو السكنى أو توقى شر القتل ، فصارت كالدِّين كلها .

التاسعة — لو عاهد الإمام أهل بلد أو حصن ثم نقضوا عهدهم وأمنتوا من أداء ما يلزمهم من الجزية وغيرها ، وأمنتوا من حكم الإسلام من غير أن يظلموا ، وكان الإمام غير جائر عليهم ؛ وجب على المسلمين غزوهم وقَاتِلْهُمْ مع إمامهم . فإن قَاتَلُوا وغلبوا حكم فيهم بالحكم في دار الحرب سواء . وقد قيل : هم ونسأؤهم قَهْرًا ولا تُنْهَسُ فيهم ؛ وهو مذهب .

العاشرة — فإن خرجوا متلصِّصين قاطعين الطريق فهم بمنزلة المحاربين المسلمين إذا لم يمتنعوا الجزية . ولو خرجوا متلصِّصين نُظِرَ في أمرهم ورُدُّوا إلى الذمة وأنصفوا من ظالمهم ، ولا يُسْتَرْقِ منهم أحد وهم أحرار . فإن نقض بعضهم دون بعض فن لم ينقض على عهده ، ولا يؤخذ بنقض غيره ، وتُعرف إقامتهم على العهد بإتكاثرهم على الناقضين .

الحادية عشرة — الجزية وزنها فِئلة ؛ من جزى يَجْزِي إذا كافأ عما أسدى إليه ؛ فكانهم أعطوها جزءًا ما منحوا من الأمن ، وهى كالقعدة والجلسة . ومن هذا المعنى قول الشاعر :

يَجْزِيكَ أَوْ يُثْنِي عَلَيْكَ وَإِنْ مِنْ • أَخِي عَلَيْكَ بِمَا فَعَلْتَ كَنْ جَزَى

(١) الثانية عشرة - روى مسلم عن هشام بن حكيم بن حزام ومرة على ناس من الأنباط بالشام قد أقيموا في الشمس - في رواية : وصَّب على رؤوسهم الزيت - فقال : ماشأنهم ؟ فقال يجلسون في الجزيرة . فقال هشام : أشهدُ لسمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن الله يذهب الذين يذهبون الناس في الدنيا " . في رواية : وأميرهم يومئذ عمير بن سعد على فلسطين ، فدخل عليه فخذته فأمر بهم فغلوا . قال علماؤنا : أما عقوبتهم إذا استنعموا من أدائها مع التكن بخافز ، فأما مع تبين عجزهم فلا تحل عقوبتهم ؛ لأن من عجز عن الجزيرة سقطت عنه . ولا يكلف الأغنياء أدائها عن الفقراء . وروى أبو داود عن صفوان بن سليم عن عدة من أبناء أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عن آبائهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : " من ظلم معاهدا أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ شيئا منه بغير طيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة " .

الثالثة عشرة - قوله تعالى : (عَنْ يَدٍ) قال ابن عباس : يدفعها بنفسه غير مستنيب فيها أحدا . روى أبو البخري عن سلمان قال : مذمومين . وروى معمر عن قتادة قاله و عن قهر . وقيل : « عن يد » عن إتمام منكم عليهم ؛ لأنهم إذا أخذت منهم الجزيرة فقد أنعم عليهم بذلك . عكرمة : يدفعها وهو قائم والآخذ جالس ؛ وقاله سعيد بن جبير ، ابن العربي : وهذا ليس من قوله : « عن يد » وإنما هو من قوله : « وهم صاغرون » .

الرابعة عشرة - روى الأئمة عن عبد الله بن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " اليد العليا خير من اليد السفلى واليد العليا المنفقة والسفلى السائلة " وروى " واليسر العليا هي المعطية " . فجعل يد المعطي في الصدقة عليا ، وجعل يد المعطي في الجزيرة سفلى . ويد الآخذ عليا ؛ ذلك بأنه الراجع الخافض ، يرفع من يشاء ويخفض من يشاء ، لا إله غيره .

الخامسة عشرة - عن حبيب بن أبي ثابت قال : جاء رجل إلى ابن عباس فقال : إن أرض الخراج يعجز عنها أهلها فأفعمرها وأزوعها وأؤدى نراجها ؟ فقال لا . وجاء آخر

فقال له ذلك : قتال لا ، وتلا قوله تعالى : « قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا يَوْمِ الْآخِرِ »
إلى قوله « وَهُمْ صَاغِرُونَ » أبسمد أحدكم إلى الصغار في عتق أحدهم فيترعه فيجمله
في عتقه ! وقال كليب بن وائل : قلت لابن عمر اشتريت أرضا ، قال : الشراء حسن .
قلت : فإني أعطى عن كل جريب أرض درهما وفغير طعام . قال : لا تجعل في عتقك
صغارا . وروى تميم بن مهران عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : ما ينزى أنى إلى الأرض
كلها بجزية خمسة دراهم إفر فيها بالصغار على نفسى .

قوله تعالى : وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرُ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ
ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ
قَتَلْنَاهُمْ اللَّهُ أَمْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٢٥﴾

فيه سبع مسائل :

الأول - قرأ عاصم والكسائي «عزير» ابن الله» بنون عزير . وللفصحى أن «أ» على
هذا خير ابتداء عن عزير ، و «عزير» ينصرف عجميا كان أو عربيا . وقرأ ابن كثير ونافع
وأبو عمرو وابن عامر «عزير بن» بترك التنوين لاجتماع الساكنين ، ومنه قراءة من قرأ
« قل هو الله أحد الله الصمد » . قال أبو علي : وهو كثير في الشعر . وأشد الطبری
في ذلك :

لَتَجِدَنِي بِالْأَمِيرِ بَرًّا • وبالْفَاءِ مَدْعَا مَكْرًا

• إِذْ عَطِيفُ السُّلَيْمِ قَرَا •

الثانية - قوله تعالى : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ ﴾ هذا لفظ خرج على العموم ومعناه
الخصوص ، لأن ليس كل اليهود قالوا ذلك . وهذا مثل قوله تعالى : « الَّذِينَ قَالَ لَهُمْ

(١) الجرب من الأرض : مقدار طول الذراع والمساحة . والقفيز : مكيال .

(٢) رجل مدس (بالسين والصاد) : طبا .

الأساس^(١) ولم يقل ذلك كل الناس . وقيل : إن قائل ما حكى من اليهود مسلّم بن يسلم
ومعان بن أبي أوفى وشاس بن قيس ومالك بن الصّيف ؛ قالوه النبيّ صلى الله عليه وسلم . قال
القاس : لم يبق يهودى يقولها ، بل انقضوا ؛ فإذا قالها واحد فينبوّه أن ينزم الجماعة شتمه
المقاله ؛ لأجل نباهة القائل فيهم . وأقوال النبهاء أبدا مشهورة في الناس **يُصَحِّحُ بِهَا** . فن
ها هنا صح أن تقول الجماعة قول نبيها . والله أعلم . ورؤى أن سبب ذلك القول أن اليهود
قتلوا الأنبياء بعد موسى عليه السلام ، فرغ الله عنهم التوراة وعماها من طوبهم ، فخرج عزير
يسبح في الأرض ؛ فأناه جبريل فقال : " أين تذهب ؟ " قال : أطلب العلم ؛ فعلمه التوراة
كلها بقاء عزير بالتوراة إلى بني إسرائيل فعلهم . وقيل : بل حفظها الله عزيرا كرامة منه
له ؛ فقال لبني إسرائيل : إن الله قد حفظني التوراة ، بفعلوا يدرسونها من عنده . وكانت
التوراة مدفونة ، كان دفنها علماءهم حين أصابهم من الفتن والجلاء والمرض ما أصاب ؛ **وَقِيلُ**
بُخْتَصِرَ إياهم . ثم إن التوراة المدفونة وجدت فإذا هي متساوية لما كان عزير يدرس ؛
فضلوا عند ذلك وقالوا : إن هذا لم يتهيا لعزير إلا وهو ابن الله ؛ حكاها الطبري . وظاهر
قول النصارى أن المسيح بن الله ؛ إنما أرادوا بنوة النسل ؛ كما قالت العرب في الملائكة .
وكذلك يقتضى قول الضحاك والطبري وغيرهما . وهذا أشنع الكفر ، قال أبو المعالي :
أطبقت النصارى على أن المسيح إله وأنه ابن إله . قال ابن عطية : ويقال إن بعضهم
يمنتهدا بنوة حذر ورحمة . وهذا المعنى أيضا لا يحل أن تطلق البنوة عليه ، وهو كفر .

الثالثة - قال ابن العربي : في هذا دليل من قول ربنا تبارك وتعالى على أن من
أخبر عن كفر غيره الذي لا يجوز لأحد أن يتدبّر به لاجرح عليه ؛ لأنه إنما ينطق به على معنى
الاستظام له والرد عليه ، ولو شاء ربنا ما تكلم به أحد ، فإذا مكّن من إطلاق الألسن به فقد
أذن بالإخبار عنه ؛ على معنى إنكاره بالقلب واللسان ، والرد عليه بالحق والبرهان .

الرابعة - قوله تعالى : ﴿ ذَلِكُمْ قَوْلُهُمْ يَقُولَاهُمْ ﴾ قيل : معناه التاكيد ، كما قال تعالى :
 « يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ »^(١) وقوله : « وَلَا طَائِرٌ يَطِيرُ بِحَاجَتِهِ »^(٢) وقوله : « فَإِذَا نُفِخَ
 فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ »^(٣) ومثله كثير . وقيل : المعنى أنه لما كان قولٌ ساذجٌ ليس فيه بيان
 ولا برهان ، وإنما هو قول بالتمجُّد نفَس دعوَى لا معنى تحته صحيح ؛ لأنهم معترفون بأن
 الله سبحانه لم يتخذ صاحبة فكيف يزعمون أن له ولداً ؛ فهو كذب وقولٌ لسانى فقط ، بخلاف
 الأقوال الصحيحة التى تمسكها الأدلة ويقوم عليها البرهان . قال أهل المعاني : إن الله
 سبحانه لم يذكر قولاً مقروناً بذكر الأفعاء والألسن إلا وكان قولاً زوراً ، كقوله : « يَقُولُونَ
 يَقُولَاهُمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ »^(٤) و « صَكَبَتِ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا »^(٥)
 و « يَقُولُونَ بِاللَّهِ لَيْسَ بِهِ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَئِنْ كُنَّا إِلَّا كَذِبًا »^(٦)

الخامسة - قوله تعالى : ﴿ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ ﴾ « يضاهئون »
 « يماهون » ومنه قول العرب : امرأةٌ ضهيٌّ لتي لا تحيض أو التي لا تدى لها ، كأنها أشبهت
 الرجال . وللماءاء في « قول الذين كفروا » ثلاثة أقوال : الأول - قول عبدة الأوثان : اللات
 والعزى ومناة الثالثة الأخرى . الثانى - قول الكفرة : الملائكة بنات الله . الثالث -
 قول أسلافهم . فقد دهم في الباطل وأتبعوهم على الكفر ، كما أخبر عنهم بقوله : « إِنَّا وَجَدْنَا
 آبَاءَنَا عَلَى آثَةٍ »^(٧)

السادسة - اختلف العلماء في « ضهيًا » هل يمد أم لا ، فقال ابن ولان : امرأةٌ ضهيٌّ
 وهى التى لا تحيض ، مهموز غير ممدود . ومنهم من يمد وهو سمي به فيجعلها على فعلاء بالمد ،
 والهمزة فيها زائدة لأنهم يقولون نساء ضهى ، فيحذفون الهمزة . قال أبو الحسن قال فى

- (١) آية ٧٩ سورة البقرة . (٢) آية ٢٨ سورة الأنعام . (٣) آية ١٣ سورة الحاقة .
 (٤) آية ١٦٧ سورة آل عمران . (٥) آية ٥ سورة الكهف . (٦) آية ١١ سورة الفتح .
 (٧) آية ٢٢ و ٢٣ سورة الزمر .

النَّبِيِّينَ : ضِيَاءُ الْمَدِّ وَالْمَاءِ . جَمْعُ بَيْنِ عَلَامَتَيْنِ تَأْنِيَتْ ، حَكَاهُ عَنْ أَبِي عَمْرٍو الشَّيْبَانِي فِي التَّوَلَّدِ . وَأَنْشَدَ :

• ضِيَاءُ أَوْ عَاقِرُ جَمَادٍ •

أَبْنُ عَطِيَّةٍ : مَنْ قَالَ « يَضَاهَتُونَ » مَأْخُذٌ مِنْ قَوْلِهِمْ : امْرَأَةٌ ضِيَاءٌ فَقَوْلُهُ خَطَأٌ ؛ قَالَ أَبُو عَلِيٍّ ، لِأَنَّ الْهَمْزَ فِي « ضَاهَا » أَصْلِيَّةٌ ، وَفِي « ضِيَاءٍ » زَائِدَةٌ كَمَا فِي .

السَّابِقَةُ - قَوْلُهُ تَعَالَى : (قَاتِلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ) أَيِ لِنَهْمِ اللَّهِ ، بِمَعْنَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى ، لِأَنَّ الْمَلْعُونِ كَالْمَقْتُولِ . قَالَ أَبُو بَرُّنَجٍ : « قَاتِلَهُمُ اللَّهُ » هُوَ بِمَعْنَى الْمَجْبُوبِ . وَقَالَ أَبُو عِيسَى : كُلُّ شَيْءٍ فِي الْقُرْآنِ قَتْلٌ فَهُوَ لِنِ ، وَمِنْهُ قَوْلُ أَبِي بَرْنَجٍ : تَقْتُلُ

قَاتِلَهَا اللَّهُ تَعَالَى وَقَدْ مَلَيْتُ • أَنَّى لِنَهْمِ إِنْشَادِي وَإِسْلَاحِي

وَحَكَى الْقَاسِمُ أَنَّ أَوَّلَ « قَاتِلَ اللَّهِ » الدَّمَاءُ ، ثُمَّ كَثُرَ فِي اسْتِعْلَامِهِ حَتَّى قَالُوهُ عَلَى التَّعَجُّبِ فِي الْخَبَرِ وَالشَّرِّ ، وَمَنْ لَا يَرِيدُونَ الدَّمَاءَ . وَأَنْشَدَ الْأَصْمَعِيُّ :

يَا قَاتِلَ اللَّهِ لَيْسَ كَيْفَ تَجِبُنِي • وَأَخْبَرَ النَّاسَ أَنِّي لَا أَبَالِيهَا

قَوْلُهُ تَعَالَى : اتَّخَذُوا أَسْبَارَهُمْ وَرَهْبَتَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ مُبَاحَثُهُ عَمَّا يَبْشُرُونَ ٢٥

قَوْلُهُ تَعَالَى : (اتَّخَذُوا أَسْبَارَهُمْ وَرَهْبَتَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ) الْأَسْبَارُ جَمْعُ حَبْرٍ ، وَهُوَ الَّذِي يَحْسَنُ الْقَوْلَ وَيَنْظُمُهُ وَيَقْنَنُهُ بِحَسَنِ الْبَيَانِ عَنْهُ . وَمِنْهُ تَوْبُ حَبْرَ أَيْ جَمْعُ الرِّبَاةِ . وَقَدْ قِيلَ فِي وَاحِدِ الْأَسْبَارِ : حَبْرٌ بِكَسْرِ الْحَاءِ . وَالْمَفْسُورُونَ عَلَى فَتْحِهَا . وَأَهْلُ الْكَلْبَةِ عَلَى كَسْرِهَا . قَالَ يُونُسُ : لَمْ أَصْغِهِ إِلَّا بِكَسْرِ الْحَاءِ ، وَالِدَلِيلِ عَلَى ذَلِكَ أَنَّهُمْ قَالُوا : سَبِّحْ رَبَّكَ يَدُونَ مَدَادَ عَالَمٍ ، ثُمَّ كَثُرَ الْاسْتِعْلَامُ حَتَّى قَالُوا لِمَدَادٍ حَبْرٌ . قَالَ الْقَزَّازُ : الْكُسْرُ وَالْفَتْحُ

(١) فِي الْأُمُورِ « جَدَادٌ » بِالْفَتْحِ ، وَهُوَ تَحْرِيفٌ . وَابْتِلَادٌ : الْفَاتَةُ الَّتِي لَا يَنْبَغِيهَا .

لننان . وقال ابن السكيت : الجبر بالكسر المداد ، والجبر بالفتح العالم ، والزهبان جمع زاهب مأخوذ من الزهبة ، وهو الذي حله خوف الله تعالى على أن يخلص له النية دون الناس ، ويعمل زمانه له وعمله معه وأنه به .

قوله تعالى : (أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ) قال أهل المصنف : جعلوا أحيارهم ورهبانهم كالآرباب حيث أطاعوهم في كل شيء ، ومنه قوله تعالى : « قَالَ أَتَقْنَعُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا » أي كالنار . قال عبد الله بن المبارك :

وهل أفسد الدين إلا للملوك • وأجبار سوء ورهبانا

روى الأعمش وسفيان عن حبيب بن أبي ثابت عن أبي البختري قال : سئل حذيفة عن قول الله عز وجل : « اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ » هل عبدوهم ؟ فقال لا ، ولكن أحلوا لهم الحرام فاستحلوه ، وحرموا عليهم الحلال فحرموه . وروى الترمذي عن عدي بن حاتم قال : أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وفي عنق صليب من ذهب . فقال : « ما هذا يا عدي » إطرحتك هذا الوزن « وصحته يقرأ في سورة برأه » اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ بَنَ مَرْيَمَ » ثم قال : « أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئاً استحلوه وإذا حرموا عليهم شيئاً حرموه » . قال : هذا حديث غريب لا يعرف إلا من حديث عبد السلام بن حرب . وعطيف بن أمين ليس بمعروف في الحديث .

قوله تعالى : (وَالْمَسِيحَ بَنَ مَرْيَمَ) مضى الكلام في اشتقاقه في « آل عمران » . والمسح : الفرق يسيل من الجبين . ولقد أحسن بعض المتأخرين فقال :

افرح فسوف تائف الأحرانا • إذا شهدت الحشر والميزانا

وسال من جيبك المسح • كأنه جداول تسح

ومضى في « النساء » معنى إضافة إلى مريم أمه .

(١) آية ٩٦ سورة الكهف . (٢) راجع ج ٤ ص ٨٨ طبة أبل أرطانية .

(٣) راجع ج ٦ ص ٢١ طبة أبل أرطانية .

قوله تعالى : **يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَنفُسِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ** ﴿٦٧﴾

قوله تعالى : (**يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ**) أى دلالتيه وحججه على توحيديه . جعل البراهين بمنزلة النور لما فيها من البيان . وقيل : المعنى نور الإسلام ؛ أى أن يُخَدِّدُوا دين الله بتكذيبهم . (**بِأَنفُسِهِمْ**) جمع قُوَّه على الأصل ؛ لأن الأصل في قِيم قُوَّه ، مثل حوض وأحواض . (**وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورُهُ**) يقال : كيف دخلت « إلا » وليس في الكلام حرف نفي ، ولا يجوز ضربت إلا زيدا . فزعم القراء أن « إلا » إنما دخلت لأن في الكلام طرفاً من المتحد . قال الزجاج : الحمد والتحقيق ليسا بذوى أطراف . ولدورات الحمد : ما ، ولا ، وإن ، وليست : وهذه لا أطراف لها ينطق بها ، ولو كان الأمر كما أراد لجاز كرهت إلا زيدا ، ولكن الجواب أن العرب تحذف مع أبى . والتقدير : وبأبى الله كل شيء إلا أن يتم نوره . وقال علي بن سليمان : إنما جاز هذا في « أبى » لأنها منع أو امتناع ، فصارعت النفي . قال النحاس : فهذا حسن ؛ كما قال الشاعر :

وهل لي أم قريها إن تركتها • أبى الله إلا أن أكون لما أبتما

قوله تعالى : **هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ** ﴿٦٨﴾

قوله تعالى : (**هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ**) يريد عما صلى الله عليه وسلم . (**بِالْهُدَى**) أى بالفرقان . (**وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ**) أى بالهجة والبراهين . وقد أظهره على شرائع الدين حتى لا يبقى عليه شيء منها ؛ عن ابن عباس وغيره . وقيل : « ليظهره » أى ليظهر الدين الإسلام على كل دين . قال أبو هريرة والضحاك : هذا عند نزول ميسى عليه السلام . وقال السدي : ذاك عند خروج المهدي ؛ لا يبقى أحد إلا دخل في الإسلام وأذى الجزية . وقيل : المهدي هو عيسى فقط ، وهو خير صحيح ؛ لأن الأخبار الصراح قد

نوارت على أن المهدي من عترة رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فلا يجوز حمله على عيسى .
والحديث الذي ورد في أنه لا مهدي إلا عيسى غير صحيح . قال البيهقي في كتاب البعث
والنشور : لأن راويه محمد بن خالد الجندي وهو مجهول ، يروي عن إبان بن أبي عبيد
— وهو متروك — عن الحسن بن النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو منقطع . والأحاديث التي
قبله في التنصيص على خروج المهدي ، وفيها بيان كون المهدي من عترة رسول الله صلى الله
عليه وسلم أصح إسنادا .

قلت : قد ذكرنا هذا وزدناه بيانا في كتابنا (كتاب التذكرة) وذكرنا أخبار المهدي
ست وفاة والحمد لله . وقيل : أراد « يُظهِرُهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ » في جزيرة العرب ، وقد نفل .

قوله تعالى : يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَخْبَارِ وَالرَّهْبَانِ
لَيَكُونَنَّ أَمْوَالُ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ
يَكْتَنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ
بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٦٦﴾

فيه إحدى عشرة مسألة :

الأولى — قوله تعالى : (لَيَكُونَنَّ أَمْوَالُ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ) دخلت اللام على يفعل ،
ولا تدخل على قتل ، لمضاربة يفعل الأسماء . والأخبار علماء اليهود . والرهبان مجتهدو النصارى
في العبادة . (بِالْبَاطِلِ) قيل : إنهم كانوا يأخذون من أموال أتباعهم ضرائب وفروضا باسم
الكنايس والبيع وغير ذلك ؛ مما يؤمنونهم أن الثقة فيه من الشرع والتلف إلى الله تعالى ،
وهم خلال ذلك يحبون تلك الأموال ؛ كالذي ذكره سفيان الثوري عن الراهب الذي
استخرج كتبه ؛ ذكره ابن إسحاق في السير . وقيل : كانوا يأخذون من غلاتهم وأموالهم
ضرائب باسم حماية الدين والقيام بالشرع . وقيل : كانوا يرتسون في الأحكام ؛ كما يفعله اليوم

كثير من الولاة والحكام . وقوله : (**بِالْبَاطِلِ**) يجمع ذلك كله . (**وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ**) أى يمتنعون أهل دينهم عن الدخول في دين الإسلام ، وأتباع تحمده عليه السلام .
 الثانية - قوله تعالى : (**وَالَّذِينَ يَكْتَرُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ**) الكثر أصله في الفضة الضم والجمع ، ولا يختص ذلك بالذهب والفضة . ألا ترى قوله عليه السلام : " **أَلَا أَخْبِرُكُمْ بِخَيْرِ مَا يَكْتَرُ الْمَرْءُ الْمَرْءَ الصَّالِحَةَ** " . أى يضمه لنفسه ويجمعه . قال :
 ولم تزدد من جمع الكثر . خير بخسبوت ووثبت ^(١) برز
 وقال آخر :

لَا دَرْدَرَى إِنْ أَطْعَمْتُ جَانِسَهُمْ • قَرَفَ الْحَقَّى وَعَسَدَى الْبُرِّ مَكْتَرَهُ
 قرف الحقى هو سويق المقل ^(٢) . يقول : إنه تزل بقوم فكان قراه عندهم سويق المقل ، وهو الحقى ، فلما تزلوا به قال هو : لَا دَرْدَرَى ... البيت . وخص الذهب والفضة بالذكر لأنه لا يُطْلَعُ عليه ، بخلاف سائر الأموال . قال الطبري : الكثر كل شئ مجسوع بضمه إلى بعض . في بطن الأرض كان أو على ظهرها . وسمى للذهب ذهباً لأنه يذهب ، والفضة لأنها تنفض فتفرق ، ومنه قوله تعالى : « **لَا تَنْفَقُوا مِنْ حَتَاكَ** » وقد مضى هذا المعنى في آل عمران ^(٣) .

الثالثة - واختلقت الصحابة من المراد بهذه الآية ، فذهب معاوية إلى أن المراد بها أهل الكتاب ، وإليه ذهب الأصم ، لأن قوله : « **وَالَّذِينَ يَكْتَرُونَ** » مذكور بعد قوله : « **إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَخْيَارِ وَالْإِحْبَانِ لَا يَكُونُ أَمْوَالُ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ** » . وقال أبو ذر وغيره : المراد بها أهل الكتاب وغيرهم من المسلمين . وهو الصحيح ، لأنه لو أراد أهل الكتاب خاصة لقال : **وَيَكْتَرُونَ** ، بغير والذين . فلما قال : « **وَالَّذِينَ** » فقد استأنف معنى أكثرين أنه عطف جملة على جملة . فالذين يكثران كلاماً مستأنف ، وهو دفع على الابتداء . قال السدي : عنى أهل القبلة . فهذه ثلاثة أقوال . وعلى قول الصحابة فيه دليل على أن الكفار عندهم

(١) الزيت ، البالي ، واليز : نوع من الثياب . (٢) المقل تمر خير الموم ينضج ويؤكل .

(٣) راجع ج ٤ ص ٢٤٩ طعة أول أو ثانية .

عطلون بفروع الشريعة . روى البخاري عن زيد بن وهب قال : مررت بالريذة فإذا أنا بأبي ذر قلت له : ما أترك مترك هذا ؟ قال : كنت بالشام فاخلفت أنا ومساوية في والذين يكثرون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله ، فقال معاوية : زلت في أهل الكلب . قلت : زلت فينا وفيهم ، وكان بيني وبينه في ذلك . فكتب إلى عثمان يشكوني ، فكتب إلى عثمان إن أقدم المدينة ، فقدمتها فكثر علي الناس حتى كأنهم لم يروني قبل ذلك ، فذكرت ذلك لعثمان فقال : إن شئت تحييت فكتت قريبا ، فذاك الذي أنزلني هذا المنزل ، ولو أمروا علي حبشيا لسمعت وأطعت .

الرابعة - قال ابن خزيمة متنادا : تضمنت هذه الآية زكاة العين ، وهي تحب بأربعة شروط : حرية ، وإسلام ، وحول ، ونصاب . سلم من الدين . والنصاب مائتا درهم أو عشرون ديناراً . أو يكتل نصاب أحدهما من الآخر وأخرج ربع العشر من هذا وربع العشر من هذا . وإنما قلنا إن الحرية شرط ، فلان العبد ناقص الملك . وإنما قلنا إن الإسلام شرط ، فلان الزكاة طهرة والكافر لا تلحقه طهرة ، ولأن الله تعالى قال : « وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة » فغوطب بالزكاة من غوطب بالصلاة . وإنما قلنا إن الحول شرط ، فلان النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ليس في مالي زكاة حتى يحول عليه الحول » . وإنما قلنا إن النصاب شرط ، فلان النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ليس في أقل من مائتي درهم زكاة وليس في أقل من عشرين ديناراً زكاة » . ولا يرأى كمال النصاب في أول الحول ، وإنما يرأى عند آخر الحول ، لا غافقهم أن الربح في حكم الأصل . يدل على هذا أن من كانت معه مائتا درهم فتجبر فيها فصارت آخر الحول أنفا أنه يؤدي زكاة الألف ، ولا يستأنف للربح حولا . فإذا كان كذلك لم يختلف حكم الربح ، كان صادرا عن نصاب أو دونه . وكذلك أعفوا أنه لو كان له أربعمائة من النعم ، فتوالدت له رأس الحول ثم ماتت الأمهات إلا واحدة منها . وكانت السخايل لئحة النصاب فإن الزكاة تخرج عنها .

الخامسة - وأختلف العلماء في المال الذي أدت زكاته هل يسمى كذا أم لا،
 فدل قوم نعم . ورواه أبو الضحا عن جعدة بن هبيرة عن علي رضي الله عنه، قال علي : أربعة
 آلاف فادونها نفقة، وما كثر فهو كز وإن أدت زكاته . ولا يصح . وقال قوم : ما أدت
 زكاته منه أو من غيره عنه للئس بكثر . قال ابن عمر : ما أدت زكاته فليس بكثر وإن كان
 تحت سبع أرضين، وكل ما لم يؤد زكاته فهو كز وإن كانت فوق الأرض . وبشبهه
 عن جابر، وهو الصحيح . وروى البخاري عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه
 وسلم : " من آناه الله مالا فلم يؤد زكاته مثل له يوم القيامة شجاعا أقرع له زبيران يطوقه يوم
 القيامة ثم يأخذ بلهزيمته يبنى شدقه ثم يقول أنا مالك أنا كترك - ثم تلا - « وَلَا يَحْسِبَنَّ
 الَّذِينَ يَمْلُكُونَ » الآية . وفيه أيضا عن أبي ذر، قال : انتهيت إليه - يعني النبي صلى الله
 عليه وسلم - قال : " والله يمسى بيده - أو والذي لا إله غيره أو كما حلف - ما من
 رجل تكون له إبل أو بقرا أو غنم لا يؤدى حقها إلا أتى بها يوم القيامة أعظم ما تكون وأتممة
 نملؤه بأخفافها وتنيطه بقرونها كلما جازت أنحرها رقت عليه أولاهها حتى يفضى بين
 الناس " . فدل دليل خطاب هذين الحديثين على صحة ما ذكرنا . وقد بين ابن عمر في صحيح
 البخاري هذا المعنى . قال له أعرابي : أخبرني عن قول الله تعالى : « وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ
 الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ » قال ابن عمر : من كتمها فلم يؤد زكاتها فويل له، إنما كان هذا قبل أن
 تنزل الزكاة، فلما أنزلت جعلها الله طهرا للأموال . وقيل : الكثر ما فضل عن الحاجة،
 روى عن أبي ذر . وهو ما نقل من مذهبه، وهو من شدائده وما أفرد به رضي الله عنه .
 قلت : ويحتمل أن يكون مجهول ما روى عن أبي ذر في هذا، ما روى أن الآية نزلت
 في وقت شدة الحاجة وضيق المهاجرين وقصر يد رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كفايتهم،
 ولم يكن في بيت المال ما يستقيمهم، وكانت السئون الجوائح حاجة طليم، فهو من إساءة
 شيء من المال إلا على قدر الحاجة، ولا يجوز أذخار الذهب والفضة في مثل ذلك الوقت .

ولما فتح الله على المسلمين ووسّع عليهم، وجب صلى الله عليه وسلم في ما تبي درهم نعمة دراهم، وفي شترين دينار نصف دينار؛ ولم يوجب الكل، واعتبر مدة الاستثناء؛ وكان ذلك منه بإنا صلى الله عليه وسلم. وقيل: الكثرة ما لم تؤخذ منه الحقوق العارضة؛ كعك الأسير وإطعام الجائع وغير ذلك. وقيل: الكثرة المجموع من الفقدين، وغيرهما من المال محمول عليهما بالقياس. وقيل: المجموع منهما ما لم يكن حلياً؛ لأن الحلّ مأذون في أخذه ولا حق فيه. والصحيح ما بدأنا بذكره، وإن ذلك كله يسمى كثرة لئلا يشترط ما علم. والله أعلم.

السادسة - واختلف العلماء في زكاة الحلّ؛ فذهب مالك وأصحابه وأحمد وإسحاق وأبو ثور وأبو عبيد إلى أن لا زكاة فيه. وهو قول الشافعي بالعراق، ووقف فيه بعد ذلك بمصر وقال: استغنى الله فيه. وقال الثوري وأبو حنيفة وأصحابه والأوزاعي: في ذلك كله الزكاة. احتج الأولون فقالوا: قصد التمام بوجوب الزكاة في العروض وهي ليست بحل لإيجاب الزكاة، كذلك قطع التمام في الذهب والفضة باتخاذها حلياً للقبّة يسقط الزكاة. احتج أبو حنيفة بعموم الألفاظ لإيجاب الزكاة في المعدن، ولم يفرق بين حل وغيره. وفرق الليث بن سعد فأوجب الزكاة فيما صنع حلياً ليفترقه من الزكاة، وأسقطها فيما كان منه يلبس ويصار. وفي المذهب في الحلّ تفصيل، بيانه في كتب الفروع.

السابعة - روى أبو داود عن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية «والذين يكتزون الذهب والفضة» قال: كثر ذلك على المسلمين، فقال عمر: أنا أخرج عنكم؛ فانطلق فقال: يا نبي الله، إنه كثر حل أصحابك هذه الآية. فقال: «إني الله لم يفرض الزكاة إلا ليطيب ما بقى من أموالكم وإنما فرض الموارث - وذكر كلمة - لتكون لمن بعدكم» قال: فكبر عمر. ثم قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ألا أخبرك بغير ما يكثر امرؤ الصالحة إذا نظر إليها صرته وإذا أمرها أطاعته وإذا غاب عنها حفظته». وروى

(١) ما بين الخطين موجود في نسخ الأصل، غير موجود في سنن أبي داود. والذي في كتاب الدر المنور لشيخنا: «... وإنما فرض الموارث من أموال بني بعدكم».

أخبرني عن غيره عن ثوبان أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا : قد ذم الله سبحانه بذهاب وتقصيه ، فلو علمنا أن المال حرام حتى نكسبه . فقال عمر . أنا أسأل لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأنه قال : " لسان ذاك وقلب شاكر وزوجة تعين المرء على دينه " .
قال حديث حسن .

الثامنة — قوله تعالى : ﴿ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ ولم يقل ينفقونها ، فيه أخوة ستة : الأول — قال ابن الأثير : قصد الأغلب والأعم وهي العضة ، ومثله قوله : « واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة » رد الكفاية إلى الصلاة لأنها أعم . ومثله « وإذا رأوا تجارة أو لهواً انتفضوا إليها » فأعاد اللفظ إلى التجارة لأنها الأعم ، وترك اللهاو ، قاله كثير من المفسرين . وأبى بعضهم وقال : لا يشبهها ، لأن « أوه » قد فصلت التجارة من اللهاو فحسن عود الضمير على أحدهما . الثاني — العكس ، وهو أن يكون « ينفقونها » للذهب والثاني معطوفا عليه . والذهب تزنته العرب تقول : هي الذهب الحمراء . وقد تذكر والتأنيث أشهر . الثالث — أن يكون الضمير للكنوز . الرابع — للأموال المكتوزة . الخامس — للزكاة ، التقدير ولا ينفقون زكاة الأموال المكتوزة . السادس — الاكتفاء بضمير الواحد عن ضمير الآخرا فإنهم المعنى ، وهذا كثير في كلام العرب . أشد سبويه : نحن بما عندنا وأنت بما • عندك راض والراى مختلف^(١)

ولم يقل راضون .

وقال^(٢) أجر :

رمانى بأمر كنت منه ووالدى • بريثا ومن أجل الطوى رمانى

ولم يقل بريثين . ونحوه قول حسان بن ثابت رضى الله عنه :

(١) آية ٤٥ سورة البقرة . (٢) آخر سورة البقرة . (٣) البيت لقيس بن الخطيم
(٤) هو ابن أحر ، واسم عمره . وصف في البيت ويلا كذا به . وفيه مشابهة في بحر — وهو المسمى —
فذكر أنه رماه بأمر بكه دوى أباه به على برائتها من أجل المشاورة التي كانت بينها . (من شرح الشواهد)

إن شَرَحَ الشاب والشعر الأَسَدَ • حود ما لم يُعْصَى كان جنوناً

ولم يقل يعاصيا •

التاسعة — إن قيل : من لم يكثر ولم ينفق في سبيل الله وأنفق في المعاصي • هل يكون حكمه في الوعيد حكم من كثر ولم ينفق في سبيل الله • قيل له : إن ذلك أشد • فإن من بذّر ماله في المعاصي عصى من جهنم : بالإتفاق والتناول • كشراء الخمر وشربها • بل من جهات إذا كانت المعصية مما تمتدّى • كن أعان على ظلم مسلم من قتله أو أخذ ماله إلى غير ذلك • والكاثر عصى من جهنم • وهما منع الزكاة وحبس المال لا غير • وقد لا يراعى حبس المال • والله أعلم •

العاشرة — قوله تعالى : ﴿ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ قد تقدم معناه • وقد فسّر النبي صلى الله عليه وسلم هذا العذاب بقوله : ” بَشِّرِ الْكَافِرِينَ بِكَيِّ فِي ظُهُورِهِمْ يُخْرَجُونَ مِنْ جَنُوبِهِمْ وَبَكِّيٍّ مِنْ قِبَلِ أَعْقَابِهِمْ يُخْرَجُونَ مِنْ جِبَاهِهِمْ “ الحديث • أخرجه مسلم • رواه أبو ذر في رواية : ” بَشِّرِ الْكَافِرِينَ رَضْفٌ يُخَيَّ عَلَيْهِ فِي مَرَجِهِمْ فَيُوضَعُ عَلَى حِمْلَةٍ تَدْرِي أَحَدُهُمْ حَتَّى يُخْرَجَ مِنْ تَنْصُ كَيْفِهِ وَيُوضَعُ عَلَى تَنْصُ كَيْفِهِ حَتَّى يُخْرَجَ مِنْ حِمْلَةٍ تَدْرِي فَيَقْتَرَلُ “ الحديث • قال علماءنا : نفروح الرَضْفُ من حِمْلَةٍ تَدْرِي إلى تَنْصُ كَيْفِهِ لَتَضْيَبِ قَلْبِهِ وَبِأَمْلِهِ حِينَ آمَنَّا بِالْبَرَحِ بِالْكَثَرَةِ فِي الْمَالِ وَالسُّرُورِ فِي الدُّنْيَا • فَيُوقَبُ فِي الْآخِرَةِ بِالْهَمِّ وَالْعَذَابِ •

الحادية عشرة — قال علماءنا : ظاهر الآية تعليق الوعيد على من كثر ولا ينفق في سبيل الله • ويتمرّض للواجب وغيره • غير أن صفة الكثرة لا ينبغي أن تكون معتبرة • فإن من لم يكثر ومنع الإنفاق في سبيل الله فلا بدّ وأن يكون كذلك • إلا أن الذي ينبغي تحت الأرض هو الذي يُنَجِّعُ إنفاقه في الواجبات عرفاً • فذلك خُصَّ الوعيد به • والله أعلم •

(١) الرضف : الجأزة المهمة •

(٢) التَنْصُ (بالهم والفتح) : أعلى الكتف • وقيل : هو السطح الرقيق الذي على ظهره •

قوله تعالى : يَوْمَ يُخَمَّى عَلَيْهِمْ فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَيُكَوَّى بِهَا جِبَاهُهُمْ
وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كُنْتُمْ لَا تُفْسِكُونَ فَلَدُّوْهُمَا مَا كُنْتُمْ
تَكْفُرُونَ ﴿٢٥﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى - قوله تعالى : (يَوْمَ يُخَمَّى عَلَيْهِمْ فِي نَارِ جَهَنَّمَ) « يوم » ظرفه ، والتقدير يذوقون
يوم يخمى . ولا يصح أن يكون على تقدير : فبشرهم يوم يخمى عليها ، لأن البشارة لا تكون
حينئذ . يقال : أحيت الحديد في النار ، أى أوقدت عليها . ويقال : أحيتها ، ولا يقال :
أحيت عليه . وهاتان قال عليهما ، لأنه جعل « على » من صلة معنى الإحياء ، ونحو الإحياء
الإيقاد . أى يوقد عليها فكوى . والكى : إلصاق الحار من الحديد والدار بالمضروب حتى يترق
الجلد . وإلجاء جمع الجبهة ، وهو مستوى ما بين الحاجب إلى الناحية . وجهت فلانا بكذا ،
أى استقبلته به وضربت جبهته . والجنب جمع الجنب . والكى في الوجه أشهر وأبلغ ،
وقال الجنب والظفر ألم وأوجع ، فلذلك خصها بالذكر من بين سائر الأعضاء . وقال عباس
الصوفية : لما طلبوا المال وإلجاء شان الله وجوههم ، ولما طوّروا كشحا من الفقير
إذا بالهم كويت جنوبهم ، ولما استدوا ظهورهم إلى أموالهم ثقة بها واعتادا عليها كويت
ظهورهم . وقال عباس الفاضل : إنما خص هذه الأعضاء لأن النقي إذا رأى الفقير زوى
ما بين عيذه وقبض وجهه . كما قال : ﴿٢٥﴾

يزيد بقض الطرف عن كأنما • زوى بين عيبيه على الخسائم
فلا ينسط من بين عييك ما أنزوى • ولا تفسنى إلا وأنفسك رايم
وإذا سأل طوى كشحه ، وإذا زاده في السؤال وأكتم عليه ولأه ظهره • فرتبته الله الفقيرة
على حال المعصية .

(١) طوى كشحه : إذا أمرضه . (٢) جمعه ولهم .

(٣) الفائز هو الأعمى ، كما في اللسان .

التائيسية ... واختلقت النار في كعبة الكي بذلك، فلى صحيح مسلم من حديث أبي ذر
 اذ كما من ذكر الرثيب . وفيه من حديث أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
 " ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدي منها حقها إلا إذا كان يوم القيامة صفحت له صفائح
 من نار فأحمى عليها في نار جهنم فيكوى بها جنبه وجبينه وظهره كأما مدت أعيدت له في يوم
 كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضى بين العباد فيري سبيله إما إلى الجنة وإما
 إلى النار " . الحديث ، وفي البخاري : أنه يمثل له كثره شجاع أفرع . لو قد تقدم في غير
 الصحيح عن جند الله بن مسعود أنه قال : من كان له مال فلم يؤد زكاته طوَّفه يوم القيامة
 شجاعاً أفرعاً ينفق رأسه

قلت ، ولعل هذا يكون في مواطن : موطن يمثل المال فيه ثعباناً ، وموطن يكون
 صفائح ، وموطن يكون رططاً . فتغير الصفات والجسمية واحدة ، فالشجاع جسم والمال
 جسم . وهذا التمثيل حقيقة ، بخلاف قوله : " يؤتى بالموت كأنه كبش ألبح " ، فإن تلك طريقة
 أخرى ، والله إن يفعل ما يشاء . وخُصَّ الشجاع بالذكر لأنه المدق الثاني للخلق . والشجاع
 من الحيات هو الحية المدكر الذي يواشِب الفارس والراجل ، ويقوم على ذنبه وربما بلغ الفارس ،
 ويكون في الصعاري . وقيل : هو الثعبان . قال الخليلي : يقال للحية شجاع ، وثلاثة أشجعة ،
 ثم شجعان . والإفزع من الحيات هو الذي تمعظ رأسه وأبيض من السم . في الموطأ :
 له زبيبتان ، أي نقطتان متفخضتان في شدقيه كالزغوتين . ويكون ذلك في شدق الإنسان
 إذ غضب وأكثر من الكلام . قالت [أم] عيلان بنت جربر : ربما أُنشدت أبي حتى يترتب
 شدقاي . ضرب مثلاً للشجاع الذي كثر سمه فيمثل المال بهذا الحيوان فيلبي صاحبه غضبان .
 وقال ابن قُريد : تقطنان سوداران فوق عيني . في رواية : مثل له شجاع ينهمه فيضطره
 يُعطيه ياء فيقتضهما كما يقضم الفضل . وقال ابن مسعود : والله لا يحدِّب الله أحداً بكثر
 فيمسن درهم درهم ولا دينار ديناراً ، ولكن يوسع جلده حتى يوضع كل درهم ودينار على
 حذته . وهذا إنما يصح في الكافر — كما ورد في الحديث — لا في المؤمن . والله أعلم .

الزينة - أسد الطبری - إلى أبي أمامة الباهلي قال : مات رجل من أهل الصحابة
فوجد في رده دينار . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " كَيْفَ " . ثم مات آخر موسى .
له ديناران . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " كَيْفَانِ " . وهذا إما لأهله ، كما يعبدون
من الصدقة وعدهما الثبر ، وإما لأن هذا كان في صدر الإسلام ، ثم قرر انشرح سبيل
المال وأداء حقه . ولو كان ضبط المال مموعا لكان حقه أن يُخرج كله ، وليس في الآية
من يلزم هذا . وحسبك حال الصحابة وأموالهم رضوان الله عليهم . وأما ما ذكر عن أبي ذر
هو مذهب له ؛ رضي الله عنه . وقد روى موسى بن عبيدة عن عمران بن أبي أنس عن
أبي بر أوس بن الحذثان عن أبي ذر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " من جمع
- أرا أو درهم أو قضة ولا يُعده لغريم ولا ينفقه في سبيل الله فهو كثر يُكُون به يوم
القيامة " .

قلت : هذا الذي يليق بأبي ذر رضي الله عنه أن يقول به ، وأن ما وصل عن الحاجة
ميسر يكفر إذا كان معذرا لسبيل الله . وقال أبو أمامة : من خلف يضا أو صُفراً كثرى بها
معمورا له أو غير معمور له ؛ إلا إن حلية السيف من ذلك . وروى ثوبان أن رسول الله
صلى الله عليه وسلم قال : " ما من رجل يموت وعنده أحر أو أبيض إلا جعل الله له بكل
ضباط صفحة يكوى بها من قوله إلى قدمه مغفورا له بعد ذلك أو معذبا " .

قلت : وهذا محمول على ما لم يؤد زكاته بدليل ما ذكرنا في الآية قبل هذا . فيكون
التقدير : وعنده أحر أو أبيض لم يؤد زكاته . وكذلك ما روى عن أبي هريرة رضي الله
عنه : من ترك عشرة آلاف جُلت صفائح يطب بها صاحبها يوم القيامة . أي لم يؤد زكاتها ،
لئلا تنقض الأحاديث . والله أعلم .

الرابعة - قوله تعالى : (هَذَا مَا كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) أي يقال لم هذا ما كنتم
تخفون . (فَلَوْعَلَّ مَا كُنْتُمْ تُكْذِرُونَ) أي عذاب ما كنتم تكثرون .

قوله تعالى : **إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقْتُلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ** (٢٦)

قوله تعالى : **(إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ)** فيه سبع مسائل :

الأول - قوله تعالى : **(إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ)** جمع شهر . فإذا قال الرجل لأخيه : لا أكلمك الشهر؛ وحلف على ذلك فلا يكلمه حولا؛ قاله بعض العلماء . وقيل : لا يكلمه أبدا . ابن العربي : وأرى إن لم تكن له نية أن يقتضى ذلك ثلاثة أشهر ، لأنه أقل الجمع الذى يقتضيه صيغة مفعول فى جمع مفعول . ومعنى **(عِنْدَ اللَّهِ)** أى فى حكم الله ونها كتب فى اللوح المحفوظ . **(اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا)** أعربت « اثنا عشر شهرا » دون نظائرها ، لأن فيها حرف الإعراب ودليله . وقرأ العامة « عشر » بفتح العين والشين . وقرأ أبو جعفر « عَشْر » بحزم الشين . **(فِي كِتَابِ اللَّهِ)** يريد اللوح المحفوظ . وأعاده بعد أن قال « عند الله » لأن كثيرا من الأشياء بوصف بأنه عند الله ، ولا يقال إنه مكتوب فى كتاب الله ؛ كقوله : **« إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ »** .

الثانية - قوله تعالى : **(يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ)** إنما قال « يوم خلق السموات والأرض » ليبين أن قضاءه وقدره كان قبل ذلك ، وأنه سبحانه وضع هذه الشهور وسماها بأسمائها على ما رتبها عليه يوم خلق السموات والأرض ، وأنزل ذلك على أنبيائه فى كتبه المنزلة . وهو معنى قوله تعالى : **« إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا »** . وحكمه باقى

على ما كانت عليه لم يزلها عن ترتيبها تغيير المشركين لأسمائها، وتقديم المقدم في الأمم منها .
والمقصود من ذلك اتباع أمر الله فيها ورفض ما كان عليه أهل الجاهلية من تأخير أسماء
الشهور وتسميتها ، وتعلق الأحكام على الأسماء التي رتبها عليه ؛ ولذلك قال عليه السلام
في خطبته في حجة الوداع : " أيها الناس إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات
والأرض " على ما يأتي بيانه . وأن الذي فعل أهل الجاهلية من جعل المحرم صفراً وصغيراً محترماً
نسب يتغير به ما وصفه الله تعالى . والعامل في « يوم » المصدر الذي هو « في كتاب الله » ،
وليس يعني به واحد الكتب ؛ لأن الأعيان لا تعمل في الظروف . والتقدير : فيما كتب الله
يوم خلق السموات والأرض . و « عند » متعلق بالمصدر الذي هو المدة ، وهو العامل فيه .
و « في » من قوله : « في كتاب الله » متعلقة بمحذوف ، هو صفة لقوله : « اثنا عشر » .
والتقدير : اثنا عشر شهراً معدودة أو مكتوبة في كتاب الله . ولا يجوز أن يتعلق بمدة لما
فيه من التفرقة بين الصلاة والموصول بخبر إن .

الثالثة - هذه الآية تدل على أن الواجب تعليق الأحكام من العبادات وغيرها إنما
يكون بالشهور والسنين التي تعرفها العرب ، دون الشهور التي تسميها المعجم والروم والفيط
وإن لم تزد على اثني عشر شهراً ؛ لأنها مختلفة الأعداد ، منها ما يزيد على ثلاثين ومنها ما ينقص ،
وشهور العرب لا تزيد على ثلاثين وإن كان منها ما ينقص ، والذي ينقص ليس يتعين له
شهر ، وإنما تفاوتها في النقصان والتمام على حسب اختلاف سير القمر في البروج .

الرابعة - قوله تعالى : (مِنْهَا أَرْبَعٌ حُرُمٌ) الأشهر الحرم المذكورة في هذه الآية
ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب الذي بين جمادى الآخرة وشعبان ، وهو رجب مُطَهَّر ، وقبل
له رجب مصر لأن ربيعة بن زرار كانوا يحرمون شهر رمضان ويسمونه رجباً . وكانت مصر
تحرّم رجباً نفسه ؛ لذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم فيه : « الذي بين جمادى وشعبان »
ورفع ما وقع في اسمه من الاختلال بالبيان . وكانت العرب أيضاً تسميه مُنْصِلَ^(١) الأئنة ؛

(١) منصل الأئنة : يخرجها من أمائها . كانوا إذا دخل رجب رجعوا أصلة الرياح ونصالح السام ؛ بطاء
لشأن فيه ، وقطعا لأشباب الفتن طرفة

روى البخاري عن أبي رجا المظاردي - واسمه عمران بن ملحان وقيل عمران بن تيم - قال : كنا نعبد الحجر ، فإذا وجدنا حجرا هو خير منه أنقياه وأشدنا الاخر ، فإذا لم نجد حجرا جمعنا حذوة من تراب ثم جئنا بالشاء فخلينا عليه ثم طعنا به . فدا دخل شهر رحب فلما متصل الأستة ؛ فلم ندع رجعا فيه حديدة ولا سهما ولا حديدة إلا نزعناها وألقيناها .

الخامسة - قوله تعالى : ﴿ ذَلِكِ الدِّينُ الْقِيَمُ ﴾ أى الحساب الصحيح والمعدد المستوفى . وروى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : « ذاك الدين » أى ذلك القضاء . مقال : الحق : ابن عطية : والأصوب عندى أن يكون الدين هاهنا على أشهر وجوهه ، أى ذلك الشرع والطاعة . ﴿ الْقِيَمُ ﴾ أى القام المستقيم ؛ من قام يقوم . بمنزلة سيد ؛ من ساد يسود . أصله قويم .

السادسة - قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَظْلِمُوا بَيْنَ أَنْفُسِكُمْ ﴾ على قول ابن عباس راحع إلى جميع الثمور . وعلى قول بعضهم إلى الأشهر الحرم خاصة ؛ لأنه إليها أقرب ولها منزلة في تنظيم الظلم ؛ لقوله تعالى : « فَلَا رَقَّتْ وَلَا فَسُوقٌ وَلَا جِدَالٌ فِي الْحَقِّ » لأن الظلم في غير هذه الأيام جائز على ما نبينه . ثم قيل : في الظلم قولان : أحدهما لا تظلموا بين أنفسكم بالتقال ؛ ثم نسخ بإباحة القتال في جميع الثمور ؛ قاله قتادة وعطاء الخراساني والرهرى وسفيان الثوري . وقال ابن جريج : حلف بالله عطاء بن أبي رباح أنه ما يحمل للناس أن يعزوا في الحرم ولا في الأشهر الحرم إلا أن يقاتلوا فيها ، وما نكحت . والصحيح الأول ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم غزا هوازن بمحنيين وتقيفا بالطائف . وحاصرهم في شؤال ومضى ذى القعدة . وقد تقدم هذا المعنى في البقرة . الثاني - لا تظلموا بين أنفسكم بارتكاب الذنوب ؛ لأن الله سبحانه إذا عظم شيئا من جهة واحدة صارت له حرمة واحدة ، وإذا عظمه من جهتين أو جهات صارت حرمة متعددة ؛ فبضعاف فيسه العقاب بالعمل السيئ كما بضعاف الثواب بالعمل الصالح . فان من أطاع الله في الشهر الحرام في البلد الحرام ليس

نواه ثواب من أطاعه في الشهر الحلال في البلد الحرام . ومن أطاعه في الشهر الحلال في البلد الحرام ليس نواه ثواب من أطاعه في شهر حلال في بلد حلال . وقد أشار تعالى إلى هذا حوله تعالى : « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ مَنْ أَبَتْ مِنْكَ بِقَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ يُعَاقَبُ لَهَا الْعَذَابُ بِمُضْمِرٍ » .

السابعة - وقد اختلف العلماء من هذا المعنى فمن قتل في الشهر الحرام خطأ . هل نمط عليه الدية أم لا ؟ فقال الأوزاعي : القتل في الشهر الحرام تغط فيه الدية فيما لمّا وفي الحرم فتجمل دية وثلاث . ويزاد في شبه العمدة في أسان الإبل . قال الشافعي : تغط الدية في النفس وفي الجراح في الشهر الحرام وفي البلد الحرام وذوى الرحم . وروى عن القاسم بن محمد وسالم بن عبد الله وابن شهاب وأبان بن عثمان : من قتل في الشهر الحرام أو في الحرم زيد على دينه مثل ثلثها . وروى ذلك عن عثمان بن عفان أيضا . وقال مالك وأبو حنيفة وأصحابهما وابن أبي ليلى : القتل في الحرم والحرم سواء ، وفي الشهر الحرام وغيره سواء ، وهو قول جماعة من التابعين . وهو الصحيح ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم سقّ الديات ولم يذكر فيها الحرم ولا الشهر الحرام . وأجمعوا أن الكفارة على من قتل خطأ في الشهر الحرام وغيره سواء . فالقياس أن تكون الدية كذلك . والله أعلم .

الثامنة - خصّ الله تعالى الأربعة الأشهر الحرم بالذكر ، ونهى عن الظلم فيها تشريفا لها ، وإن كان منيها عنه في كل الزمان . كما قال : « فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ » على هذا أكثر أهل التأويل . أي لا تظلموا في الأربعة الأشهر أنفسكم . وروى حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس قال : « فلا تظلموا فيهن أنفسكم » في الأئمة عشر . وروى فليس بن مسلم عن الحسن عن محمد بن الحنفية قال : فيهن كلهن . فإن قيل على القول الأول : لم قال فيهن ولم يقل فيها ؟ وذلك أن العرب يقولون لما بين الثلاثة إلى العشرة : هن وهؤلاء ، فإذا جاوزوا العشرة قالوا : هي وهذه ، إرادة أن تصرف تسمية القليل من الكثير . وروى عن الكسائي أنه قال : إني لأعجب من فعل

العرب هذا . وكذلك يقولون فيما دون العشرة من الليالي : حَلَوْنَ . وفيها فرقها خَلَّتْ . لا يقال : كيف جُصِّلَ بعض الأزمنة أعظم حرمة من بعض ؛ فإنا نقول : للبارئ تعالى أن يفعل ما يشاء ، ويخص بالفضيلة ما يشاء ، ليس لعملة حِلَّة ولا عليه حجر ، بل يفعل ما يريد بحكمته ، وقد تظهر فيه الحكمة وقد تخفى .

قوله تعالى : (وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً) فيه مسألة واحدة :

قوله تعالى : (قَاتِلُوا) أمر بالقتال . و (كَافَّةً) معناه جميعا ، وهو مصدر في موضع الحال . أى محيطين بهم ومجتمعين . قال الزجاج : مثل هذا من المصادر عاها الله غاية وما قبله عاقبة . ولا يثنى ولا يجمع ، وكذا عاتمة وخاصة . قال بعض العلماء : كان الغرض بهذه الآية قد توجه على الأعيان ثم نسخ ذلك وجعل فرض كفاية . قل ابن عطية : وهذا الذى قاله لم يعلم قط من شرع النبي صلى الله عليه وسلم أنه أزم الأمة جميعا التفرغ ، وإنما معنى هذه الآية الحضر على قتالهم والتعزب عنهم وجمع الكلمة ، ثم قيدها بقوله : « كَمَا يُهَاجِلُونَكَ كَافَّةً » فبحسب قتالهم واجتماعهم لنا يكون فرض اجتماعنا لهم . والله أعلم .

قوله تعالى : إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِعُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيَحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زَيْنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٦٦﴾

قوله تعالى : (إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ) هكذا يقرأ أكثر الأئمة . قال النحاس : ولم يرو أحد عن نافع فيما علمناه « إِنَّمَا النَّسِيءُ » بلا همز إلا ورش وحده . وهو مشتق من نساء وأنساء إذا أخره ؛ حكى اللغتين الكسائي . الجوهرى : النسئ فصيل بمعنى مفعول ؛ من قولك : نسأت الشيء فهو منسوء إذا أخره . ثم يحول منسوء إلى نسئ كما يحول مقتول إلى قتل . ورجل ناسئ وقوم نساء ، مثل فاسق وفسقة . قال الطبري : النسئ بالهمزة معناه الزيادة ؛ يقال : نسأ يسأ إذا زاد . قال : ولا يكون بترك الهمز إلا من النسيان ؛ كما قال تعالى :

«يُسَوِّدُ اللَّهُ فَنَسِيهِمْ» ، ورد على نافع قراءة ، واحتج بأن قال : إنه يتعدى بحرف الجر ، يقال : نسأ الله في أجلك كما يقول زاد الله في أجلك ، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام : «من سره أن يبسط له في رزقه وينسأ له في أثره فليصل رحمه» . قال الأزهري : أنسأت الشيء أنسأه ونسبته ، اسم وضع موضع المصدر الحقيقي . وكانوا يحزمون القتال في المحترم ، فإذا احتاجوا إلى ذلك حرموا صغراً بطله وقائلوا في المحترم . وسبب ذلك أن العرب كانت أصحاب حروب وغارات ، فكان يشق عليهم أن يمشوا ثلاثة أشهر متوالية لا يغيرون فيها ، وقالوا : لن نوات علينا ثلاثة أشهر لا نصيب فيها شيئاً لنهلكن . فكانوا إذا صدروا عن متى يقوم من بني كنانة ، ثم من بني فقيم منهم رجل يقال له القامس ، فيقول أنا الذي لا يرد لي قضاء . فيقولون : أنسأنا شهراً ، أي أترعنا حرمة المحترم واجعلها في صفر ، فيعمل لهم المحرم . فكانوا كذلك شهراً شهراً حتى استدار التحريم على السنة كلها . فقام الإسلام وقد رجع المحرم إلى موضعه الذي وضعه الله فيه . وهذا معنى قوله عليه السلام : «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض» . وقال مجاهد : كان المشركون يمحجون في كل شهر عامين ، فحجوا في ذي الحجة عامين ، ثم حجوا في المحرم عامين ، ثم حجوا في صفر عامين ، وكذلك في الشهور كلها حتى وافقت حجة أبي بكر التي حجها قبل حجة الوداع ذا القعدة من السنة التاسعة . ثم حج النبي صلى الله عليه وسلم في العام المقبل حجة الوداع فوافقت ذا الحجة ، فذلك قوله في خطبته : «إن الزمان قد استدار» الحديث . أراد بذلك أن أشهر الحج رجعت إلى مواضعها ، وعاد الحج إلى ذي الحجة وبطل النسيء . وقول ثالث - قال إياس بن معاوية : كان المشركون يسحبون السنة اثني عشر شهراً ونحسة عشر يوماً ، فكان الحج يكون في رمضان وفي ذي القعدة ، وفي كل شهر من السنة يحكم استدارة الشهر بزيادة الحنسة عشر يوماً ، فحج أبو بكر سنة تسع في ذي القعدة بحكم الاستدارة ، ولم يحج النبي صلى الله عليه وسلم ، فلما كان في العام المقبل وافق الحج ذا الحجة

(١) آية ٦٧ من هذه السورة . (٢) الأثر : الأجل ، ومنه لأنه يقع العسر ، وأصله من أثره

في الأرض ، فأن من مات لا تبق له حركة فلا يبق لأهله في الأرض أثر . (من شرح القسطلاني) .

في العشر ، ووافق ذلك الأهلة . وهذا القول أشبه بقول النبي صلى الله عليه وسلم :
 " إن الزمان قد استدار " . أي زمان الحج عاد إلى وقته الأصلي الذي عينه الله يوم خلق
 السموات والأرض بأصل المشروعية التي سبق بها علمه ، ونفذ بها حكمه . ثم قال : السنة
 اثنا عشر شهرا . يتفق بذلك الزيادة التي زادوها في السنة — وهي الخمسة عشر يوما —
 بتحكمهم ؛ فتمعين الوقت الأصلي وبطل التحكم الجوهري . وحكى الإمام المازري من الخوارج
 أنه قال : أول ما خلق الله الشمس أجراها في برج الحمل ، وكان الزمان الذي أشار به النبي
 صلى الله عليه وسلم صادف حلول الشمس برج الحمل . وهذا يحتاج إلى توقيف ؛ فإنه لا يتوصل
 إليه إلا بالنقل عن الأنبياء ، ولا نقل صحيح عنهم بذلك ، ومن ادعاه فليستد . ثم إن العقل
 يجوز خلاف ما قال ، وهو أن يخلق الله الشمس قبل البروج ، ويجوز أن يخلق ذلك كله دفعة
 واحدة . ثم إن علماء التمديل قد اختبروا ذلك فوجدوا الشمس في برج الحوت وقت قوله
 عليه السلام : " إن الزمان قد استدار " بينها وبين الحمل عشرون درجة . ومنهم من قال
 عشر درجات . والله أعلم . واختلف أهل التأويل في أول من نسا ، فقال ابن عباس وقتادة
 والضحاك : بنو مالك بن كنانة ، وكانوا ثلاثة . وروى جوير عن الضحاك عن ابن عباس
 أن أول من فعل ذلك عمرو بن لحي بن قعدة بن خثيف . وقال الكلبي : أول من فعل ذلك
 رجل من بني كنانة يقال له : نعم بن ثعلبة ، ثم كان بعده رجل يقال له : جندة بن عوف ، وهو
 الذي إدركه رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال الزهري : حم بن جندة ثم من بني قُيَم
 منهم رجل يقال له القنيس ، واسمه حذيفة بن عبيد . وفي رواية : مالك بن كنانة . وكان
 الذي يلى القنيس يظفر بالرياسة لترى العرب أيامه . وفي ذلك يقول شاعرهم :

• ومنا نامى الشهر القنيس •

وقال الكلبي :

ألسنا الناسخين على نَمَس • شهور آيال يجعلها حراما

(١) في نسخ الأصل « جريد » وهو محرف .

قوله تعالى : « (زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ) » بيان لما فعلته العرب من جمعها من أنواع الكفر؛ فإنها أنكرت وجود الباري تعالى فقالت : « وما الرحمن ^(١) » في أمح الوجوه . وأنكرت البعث فقالت : « مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ » . وأنكرت بعثة الرسل فقالوا : « أَبَشْرًا مِثًّا وَاحِدًا ^(٢) نَنْزِيلُهُ » . وزعمت أن التحليل والتحرير إليها ، فابتدعته من ذاتها مقضية لشهواتها ، فأحلت ما حرم الله . ولا مبدل لكلماته ولو كره المشركون .

قوله تعالى : « (يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحْلِلُونَ مَا مَا وَيُحَرِّمُونَ مَا مَا يُؤْطَوْنَ حِلَّةً مَا حَرَّمَ اللَّهُ فِيمَا لَهُمْ مَا حَرَّمَ اللَّهُ زَيْنَ لَمْ سَوْهُ أَعْمَالِهِمْ وَأَنَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ) » فيه ثلاث قراءات . قرأ أهل الحرمين وأبو عمرو « يُضَلُّ » وقرأ الكوفيون « يُضَلُّ » على الفعل المجهول . وقرأ الحسن وأبو رجيله « يُضَلُّ » . والقراءات الثلاث كل واحدة منها تؤدي عن معنى ، إلا أن القراءة الثالثة حذف منها المفعول . والتقدير : ويضل به الذين كفروا من قبل منهم . و « (الَّذِينَ) » في محل رفع . ويجوز أن يكون الضمير راجعا إلى الله عز وجل . التقدير : يضل الله به الذين كفروا ، كقوله تعالى : « يُضَلُّ مِنْ شَاءَ » ، وكقوله في آية الأية : « وَأَنَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ » . والقراءة الثانية « يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا » يعني المحسوب لهم ، واختار هذه القراءة أبو عبيد ، لقوله تعالى : « زَيْنَ لَمْ سَوْهُ أَعْمَالِهِمْ » . والقراءة الأولى اختارها أبو حاتم ، لأنهم كانوا ضالين به ، أي بالنسيء ، لأنهم كانوا يحسبونه فيضلون به . والماء في « يُحْلِلُونَ » ترجع إلى النسيء . وروى عن أبي رجا « يُضَلُّ » بفتح الباء والضاد . وهي لغة ، يقال : ضَلَّتْ أَضَلَّ ، وضَلَّتْ أَضَلَّ . « (يُؤْطَوْنَ) » نصب بلام كذا ، أي ليؤتوا . توافقا لقوم على كذا أي اجتمعوا عليه ، أي لم يحلوا شهرا إلا حرموا شهرا تثنى الأشهر الحرم أربعة . وهذا هو الصحيح ، لا ما يذكر أنهم جعلوا الأشهر خمسة . قال قتادة : لأنهم عدوا إلى صفر فزادوه في الأشهر الحرم ، وقرنوه بالحرم في التحريم ، وقاله عنه تطرُّب والطبري . وعليه يكون النسيء بمعنى الزيادة . والله أعلم .

(١) آية ٦٠ سورة الفرقان . (٢) آية ٧٨ سورة يس . (٣) آية ٢٤ سورة القمر .

قوله تعالى : يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنِفِرُوا
 فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنَاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَوةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ
 فَتَمْنَعُ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٢٨﴾

فيه مسائلان :

الأولى - قوله تعالى : (مَا لَكُمْ) « ما » حرف استفهام معناه التقرير والتوبيخ ؛
 القدير : أى شئ يمنكم من كذا ، كما قول : مالك من فلان معرضاً . ولا خلاف أن هذه
 الآية نزلت حثابا على تخلف من تخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك ،
 وكانت سنة تسع من الهجرة بعد الفتح بعام ، وسيأتي ذكرها في آخر السورة الحمد لله .
 والتقر : هو التثقل بسرعة من مكان إلى مكان لأمر يحدث ، يقال في ابن آدم : تقر إلى
 الأمر يتغير نفورا . وقوم هور ، ومنه قوله تعالى : « وَلَوْ اَعْلَىٰ اَذْبَارِيْمَ نُفُورًا ^(١) » . ويقال
 في العابة : تفرّت تنفر (بضم الفاء وكسرهما) نفارا ونفورا . يقال : في الدابة نفاجة وهو اسم
 مثل الحيران . ونفر الحاج من يتي نفرا .

الثانية - قوله تعالى : (إِنَاَقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ) قال المفسرون : معناه أناقلتم إلى
 نعيم الأرض ، أو إلى الإقامة بالأرض . وهو توبيخ على ترك الجهاد وعناّب على التمسك من
 المبادرة إلى الخروج . وهو نحو من أخلد إلى الأرض . وأصله لناقلتم ، أدغمت الناء في التاء
 لغيرها منها ، واحتاجت إلى ألف الوصل لتصل إلى التطق بالساكن ، ومنه « أذاركوا »
 و « أذاراهم » و « أطيننا » و « أزيّنا » . وأند الكسائي :

تولي الضجيج إذا ما أستاذها خصرًا . عذب المسذاق إذا ما أتابع الفبل ^(٢)

(١) آية ٤٦ سورة الإسراء

(٢) ساق التي يصره ويأهه سورة وماونه وأناهه ، كدشه . والحصر : الجارد من كل شئ .

وقرأ الأعمش « تناقلتم » على الأصل . حكاه المهدوي . وكانت تبرك - ودعا الناس إليها -
 في حرارة الفَيْظ وطيب النّار وبرد اللّلال - كما جاء في الحديث الصحيح على ما يأتي -
 فاستول على الناس الكسل ، فتقاعدوا وشاقوا ، فوجههم الله بقوله هذا ، وعاب عليهم الإتيار
 للدنيا على الآخرة . ومعنى (أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ) أى بدلا ، التقدير : أرضيتم
 بنعيم الدنيا بدلا من نعيم الآخرة . فـ « حين » تتضمن معنى البدل ؛ كقوله تعالى : « وَلَوْ نَشَاءُ
 لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَمْشُونَ » (١) أى بدلا منكم .
 وقال الشاعر : (٢)

فليت لنا من ماء زمزم شربة * مبردة بانّت على طهيات

ويرد : من ماء حنّان . أراد : ليت لنا بدلا من ماء زمزم شربة مبردة . والطهيات : عود
 ينصب في ناحية الدار للهواء ، يعلق عليه الماء حتى يبرد . عاتبهم الله على إتيار الراحة في الدنيا
 على الراحة في الآخرة ، إذ لا تنال راحة الآخرة إلا بنصب الدنيا . قال صلى الله عليه وسلم
 لعائشة وقد طافت رابكة : « أجرك على قدر نصيبك » . أخرجه البخاري .

قوله تعالى : إَلَّا تَتَفَرَّوْا يُعَذِّبُكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا
 غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣)

فيه مسألة واحدة - وهو أن قوله تعالى : (إَلَّا تَتَفَرَّوْا) شرط ؛ فذلك حذف منه
 الذّون . والجواب « يُعَذِّبُكُمْ » ، « وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ » وهذا تهديد شديد ووعد مؤكد
 في ترك التفرير . قال ابن العربي : ومن محققات الأصول أن الأمر إذا ورد فليس في وروده
 أكثر من اقتضاء الفعل . فاما العقاب عند الترك فلا يؤخذ من نفس الأمر ولا يقتضيه

(١) قوله : « ودعا الناس إليها » قال ابن اسحاق : ... وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما يخرج
 في غمرة الاكنى عنها وأخبر أنه يريد غير الوجه الذي يصد له ، إلا ما كان من عزرة تبرك فانه ينها الناس لبعد الشفة
 وشدة الزمان ... الخ . (٢) آية ٦٠ سورة الزخرف . (٣) هو يعل بن مسلم بن قيس الشّكري ،
 كما في السابق . وقيل أنه الأصول الكندي . (٤) حنّان : مكة .

الافضاء، وإنما يكون العذاب بالخبر عنه ؛ كقوله : إن لم تفعل كذا عذبتك بكذا ؛ كما ورد في هذه الآية . فوجب بمقتضاها العير للجهاد والخروج إلى الكفار لما بينهم على أن تكون كلمة الله هي العليا . روى أبو داود عن ابن عباس قال : « ^(١) إلا تتفروا يعدبكم عذابا أليما » و « ما كان لأهل المدينة - إن قوله - يعملون » سحتها الآية التي نهيها : « وما كان المؤمنون يتفروا كآفة » . وهو قول الصحاك والحسن وعكرمة . (عَدَّبَكُمْ) قال ابن عباس : هو حبس المطر عنهم . قال ابن العري : فإن صح ذلك عنه فهو أعم من أن قاله ، وإلا فالعذاب الأليم هو في الدنيا باستيلاء العدو وبالنار في الآخرة .

قلت : قول ابن عباس نخرجه الإمام أبو داود في سننه عن ابن سُبَيْع قال : سألت ابن عباس عن هذه الآية « ^(٢) إلا تتفروا يعدبكم عذابا أليما » قال : فأمسك عنهم المطر فكان عذابهم . وذكره الإمام أبو محمد بن عطية صرغوعا عن ابن عباس قال : استنفر رسول الله صلى الله عليه وسلم قبيلة من القبائل فعدت ، فأمسك الله عنهم المطر وعذبها به . و « أليم » بمعنى مؤلم ، أى موجه . وقد تقدم . (وَيَسْتَبْدِلُ قَوْمًا عَيْرَكُمْ) تَوَعَّدُ أَنْ يَبْدِلَ لِرَسُولِهِ قَوْمًا لَا يَمْعُدُونَ عند استنفاره إياهم . قيل : أبناء فارس . وقيل : أهل اليمن . (وَلَا تَضُرُّهُ شَيْئًا) عطف . والماء قيل لله تعالى ، وقيل للنبي صلى الله عليه وسلم . والتناقل عن الجهاد مع اظهار الكراهة حرام على كل أحد . فاما من غير كراهة فمن عبته النبي صلى الله عليه وسلم عليه التناقل وإن أمن منهما فالفرض فرض كفاية ؛ ذكره الفشيري . وقد قيل : إن المراد بهذه الآية وجوب التفير عند الحاجة وظهور الكفرة واشتداد شوكتهم . وظاهر الآية يدل على أن ذلك على وجه الاستدعاء فلي هذا لا يجبه الحمل على وقت ظهور المشركين ؛ فإن وجوب ذلك لا يختص بالاستدعاء ، لأنه متعين . وإذا ثبت ذلك فالاستدعاء والاستنفار يبعد أن يكون موجبا شيئا لم يجب من قبل ، إلا أن الإمام إذا عين قوما وندبهم إلى الجهاد لم يكن لهم أن يتناقلوا عند التعين ، ويصير تبعيته فرضا على من عبته لا لمكان الجهاد ولكن لطاعة الإمام . والله أعلم .

(١) آية ١٢٠ و ١٢١ من هذه السورة . (٢) راجع ج ١ ص ١٩٨ طبع ثانية مرة ثالثة .

فوله تعالى : **إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا**
ثَانِي آتَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا
فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ
كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةَ اللَّهِ هِيَ الْعَلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠﴾

فيه إحدى عشرة مسألة :

الأولى قوله تعالى : **(إِلَّا تَنْصُرُوهُ)** يقول : يُعينوه بالتفرع في غزوة تبوك . عاتبهم الله
 بعد انصراف نبيه عليه السلام من تبوك . قال النقاش : هذه أول آية نزلت من سورة براءة . والمعنى :
 إن تركتم نصره فانه يتكفل به ؛ إذ قد نصره الله في موطن الفلّة وأظهره على عدوّه بالعلّة
 والعزة . وقيل : فقد نصره الله بصاحبه في الغار بتأييده له وحمله على عقه . ووفائه ووفائته
 له بنفسه ومواساته له بماله . قال الليث بن سعد : ما صحب الأنبياء عليهم السلام مثل أبي بكر
 الصديق . وقال صفيان بن عُيينة : نرج أبو بكر بهذه الآية من المعاتبّة التي في قوله :
 « **إِلَّا تَنْصُرُوهُ** » .

الثانية — قوله تعالى : **(إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا)** وهو نخرج بنفسه فاراً ، لكن
 بالجهنم إلى ذلك حتى قتل ، فنسب الفعل إليهم وربّ الحكم فيه عليهم ؛ فهذا يقتل المكره
 على القتل ويضمن المال المثلث بالإكراه ؛ لإلجائه القاتل والمثلث إلى القتل والإتلاف .

الثالثة — قوله تعالى : **(ثَانِي آتَيْنِ)** أي أحد آتين . وهذا كثلث ثلاثة ورايح أربعة .
 فإذا اختلف اللفظ فقلت : راجع ثلاثة وخامس أربعة ؛ فالمنى صير الثلاثة أربعة بنفسه
 والأربعة خمسة . وهو منصوب على الحال ؛ أي أخرجوه منفرداً من جميع الناس إلا من
 أبي بكر . واليا مل فيها « نصره الله » أي نصره منفرداً ونصره أحد اثنين . وقال علي بن
 سليمان : التقدير نخرج ثاني اثنين ؛ مثل « **وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا** » . وقرأ جمهور الناس

«ثَانِي» بنصب الياء . قال أبو حاتم : لا يعرف غير هذا . وقرأت فرقة «ثَانِي» بسكون الياء . قال ابن جني : حكاهما أبو عمرو بن العلاء ، ووجهه أنه سكن الياء تشبيها لها بالالف . قال ابن عطية : فهي كقراءة الحسن «ثَانِي مِنْ رَبِّي» وكقول جرير :

هو الخليفة فأرضوا ما رضى لكم . ماضى الصيغة ماضٍ حُكْمُهُ جَنْفٌ (١٢)

الرابعة - قوله تعالى: ﴿إِذْ هَمَّ بِالنَّارِ﴾ الفار: لقب في الجبل، يعني غار ثور. ولما رأت قريش أن المسلمين قد صاروا إلى المدينة قالوا: هذا شر شافل لا يطلق، فأجمعوا أمرهم على قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم، فبيّتوه ورصدوه على باب منزله طول ليلتهم ليقتلوه إذا خرج، فأمر النبي صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب أن ينام على فراشه، ودعا الله أن يعمي عليهم أثره، فطمس الله على أبصارهم فخرج وقد غشيهم النوم، فوضع كل رؤسهم تراباً ونهض، فلما أصبحوا خرج عليهم علي رضي الله عنه وأخبرهم أن ليس في الدار أحد، فعلموا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد فات ونجا. وتواعد رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أبي بكر الصديق للهجرة، فدفعا راحتهما إلى عبد الله بن أرقط. ويقال ابن أريقط، وكان كافراً لكنهما وتقيا به، وكان دليلاً بالطرق فاستأجراه ليدل بهما إلى المدينة. وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من خَوْعة في ظهر دار أبي بكر التي في بني جمح ونهضا نحو الفار في جبل ثور، وأمر أبو بكر ابنه عبد الله أن يستمع ما يقول الناس، وأمر مولاة عاصم بن فهيرة أن يرعى غنمه ويربِّحها^(٦٦) عليهما ليلا فيأخذ منها حاجتهما. ثم نهضا فدخلا الفار. وكانت أسماء بنت أبي بكر الصديق تأتيهما بالطعام ويأتيهما عبد الله بن أبي بكر بالأخبار، ثم يتلوها عاصم بن فهيرة بالغنم فيُفتي آثارها. فلما فقدته قريش جعلت تطلبه بفانج معروف بغفاء الأثر، حتى وقف على الفار فقال: هنا انقطع الأثر. فنظروا فإذا بالعنكبوت قد نسج على فم الفار من ساعته؛ ولهذا نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن قتله. فلما رأوا نسج العنكبوت إيقنوا أن لا أحد فيه، فرجعوا وجعلوا في النبي صلى الله عليه وسلم مائة ناقة لمن رده عليهم.

الخبر مشهور . وقصة سرقة بن مالك بن جُعشم في ذلك مذكورة . وقد روى من حديث أبي الزرداء وثوبان : أن الله عز وجل أمر حمامة فباضت على نسيج المنكبوت ، وجعلت تفرد على بيضها ، فلما نظر الكفار إليها ردمهم ذلك عن النار .

الخامسة — روى البخاري عن عائشة قالت : استأجر رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر رجلا من بني الدَّيْل هاديا حريثا ، وهو على دين كفار قريش ، فدعما إليه راحلتهما وواعدها غارَ ثور بعد ثلاث ليال ، فأتاهما براحلتهما صبيحة ثلاث ، فارتحلا وارتحل معهما دُاسِر بن قُهيرة والدليل القليل ، فأخذهم طريق الساحل .

قال المهلب : فيه من الفقه اثنتان أهل الشرك على السر والمال إذا علم منهم وفاء ومروءة .
 ١- اثنتان النبي صلى الله عليه وسلم هذا المشرك على سره في الخروج من مكة وعمل الباقرين .
 ٢- قول ابن المنذر : فيه استنجار المسلمين الكفار على هداية الطريق . وقال البخاري في ترجمته :
 ٣- باب استنجار المشركين عند الضرورة أو إذا لم يوجد أهل الإسلام) . قال ابن بَزال :
 إنما قال البخاري في ترجمته (أو إذا لم يوجد أهل الإسلام) من أجل أن النبي صلى الله عليه وسلم إنما عامل أهل خيبر على العمل في أرضها إذ لم يوجد من المسلمين من ينوب مابهم في عمل الأرض ، حتى قوى الإسلام واستغنى عنهم أجلاهم عمر . وعامة الفقهاء يميزون استنجارهم عند الضرورة وغيرها . وفيه : استنجار الرجلين الرجل الواحد على عمل واحد لهما . وفيه : دليل على جواز الفرار بالدين خوفا من العدو والاستيفاء في النيران وغيرها ، ولا يلحق الإنسان بيده إلى العدو توكلا على الله واستسلاما له . ولو شاء ربكم لعصمه مع كونه معهم ، ولكنها سنة الله في الأتنياء وغيرهم ، ولن تجد لسنة الله تبديلا . وهذا أدل دليل على فساد من منع ذلك وقال : من حاف مع الله سواء كان ذلك نقصا في توكله ، ولم يؤمن بالقدر . وهذا كله في معنى الآية ، وفي الحمد والمداية .

السادسة - قوله تعالى : ﴿ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ هذه الآية تضمنت فضائل الصديق صلى الله عليه وآله روى أصبغ وابن زيد عن ابن القاسم عن مالك « ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا » هو الصديق . حقق تعالى قوله بكلامه ووصف السجدة في كتابه . قال بعض العلماء : من أكر أن يكون عمر وعثمان أو أحد من الصحابة صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو كذاب مبتدع . ومن أكر أن يكون أبو بكر رضى الله عنه صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو كافر؛ لأنه أنكر نص القرآن . ومعنى ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ أى بالنصر والراية والحفظ والكلالة . روى الترمذى والحاثر بن أبى أسامة قالأ : حدثنا عفسان قال حدثنا همام قال أخبرنا ثابت عن أنس أن أبابكر حدثه قال قلت للنبي صلى الله عليه وسلم ونحن في الغار : لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا تحت قدميه ؛ فقال : « يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما » . قال الحنابى : « يعنى مهمما بالنصر والدفاع ؛ لا على معنى ما هم به الخلاق » . فقال : « ما يكون من تجوى ثلاث إلا هو رابعهم » . فلعنا العموم أنه يسمع ويرى من الكفار والمؤمنين .

السابعة - قال ابن العربي : قالت الإلهية قبها الله : حزن أبى بكر في العار دليل على جهله وقصه ، وضعف قلبه وخرقه . وأجاب عماؤنا عن ذلك بأن إضافة الحزن إليه ليس بنقص ؛ كالم ينقص إبراهيم حين قال عنه : « نَكَّرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَحْزَنْ » . ولم ينقص موسى قوله : « فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةَ مُوسَى . قُلْنَا لَا تَحْزَنْ » . وفى لوط « وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجُوكَ وَأَهْلَكَ » . فهؤلاء المظالم صلوات الله عليهم قد وجدت عندهم التيقن نصبا ، ولم يكن ذلك طعنا عليهم ووصفا لهم بالنقص ؛ وكذلك فى أبى بكر . ثم هى عند الصديق احتمال ؛ فإنه قال : لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا . جواب ثان - إن حزن الصديق إنما كان خوفا على النبي صلى الله عليه وسلم أن يصل إليه ضرر ،

(١) آية ٧ سورة المجادلة . (٢) الترقى (بالضم) : الحق وضعف الراى .

(٣) آية ٧٠ سورة هود . (٤) آية ٦٧ سورة طه . (٥) آية ٢٣ سورة المائدة .

ولم يكن النبي صلى الله عليه وسلم في ذلك الوقت معصوماً، وإنما نزل عليه « وَاللَّهُ يَصِصُكَ مِنْ الْأَيْسِ » .

الثامنة - قال ابن العروبي : قال لنا أبو الفضائل المذلل^(٢) قال لنا جمال الإسلام أبو القاسم قال موسى صلى الله عليه وسلم : « كَلَّا إِنَّ مَيِّ رَافٍ سَيِّدِينَ^(٣) » وقال في محمد صلى الله عليه وسلم : « لَا تَحْزَنُ إِنَّ اللَّهَ مَعَا » لا يجرى لما كان الله مع موسى وحده ارتد أصحابه بعده، فرجع من عنده وبه وجودهم يبدون العجل . ولما قال في محمد صلى الله عليه وسلم « إِنَّ اللَّهَ مَعَا » بى أبو بكر مهتدياً موحداً عالماً جازماً قائماً بالأمر ولم يتطرق إليه اختلال .

التاسعة - خرج الترمذي من حديث ثُبَيْط بن شُرَيْط عن سالم بن عبيد - له محبة - قال : أغشى على رسول الله صلى الله عليه وسلم ... الحديث . وفيه : واجتمع المهاجرون يتشاورون فقالوا : انطلقوا بنا إلى إخواننا من الأنصار ندخلهم معنا في هذا الأمر . فقالت الأنصار : منا أمير ومنكم أمير . فقال عمر رضى الله عنه : من له مثل هذه الثلاث « تَأْتِي آتِينَ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَا » من « هما » ؟ قال : ثم بسط يده فبايعه وبايعه الناس بيعة حسنة جميلة .

قلت : ولهذا قال بعض العلماء : في قوله تعالى « تَأْتِي آتِينَ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ » ما يدل على أن الخليفة بعد النبي صلى الله عليه وسلم أبو بكر الصديق ؛ لأن الخليفة لا يكون أبداً إلا ثانياً . وسمعت شيخنا الإمام أبا العباس أحمد بن عمر يقول : إنما استحق الصديق أن يقال له ثانی اثنين لقيامه بعد النبي صلى الله عليه وسلم بالأمر ؛ كقيام النبي صلى الله عليه وسلم به أولاً . وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم لما مات ارتدت العرب كلها ، ولم يبق الإسلام إلا بالمدينة ومكة وجواناً ، فقام أبو بكر يدعو الناس إلى الإسلام ويقاومهم على

(١) آية ٦٧ سورة المائدة . (٢) اضطرب نسخ الأصل في هذا الاسم . والذي في كتاب

أحكام القرآن لابن العربي المطبوع : « أبو العباس بن المذلل » وفي النسخة المخطوطة « أبو الفضائل المذلل »

(٣) آية ٦٢ سورة الشعراء . (٤) موضع بالبحرنة .

الدخول في الدين كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم؛ فاستحق من هذه الجهة أن يقال في حقه ثانياً اثنين .

قلت - وقد جاء في السنة أحاديث صحيحة ، يدل ظاهرها على أنه الخليفة بعده ، وقد اتفق الإجماع على ذلك ولم يبق منهم مخالف . والقادح في خلافته مقطوع بخطئه وتفسيقه . وهل يكفر أم لا؟ يختلف فيه ، والأظهر تكفيره . وسبق لهذا المعنى مزيد بيان في سورة « الفتح »^(١) إن شاء الله . والذي يقطع به من الكتاب والسنة وأقوال علماء الأمة ويجب أن تؤمن به القلوب والأفئدة فضل الصديق على جميع الصحابة . فلا بمبالاة بأقوال أهل الشيع ولا أهل البدع ؛ فإنهم بين مكفر تضرب رقبته ، وبين مبتدع مفسق لا تقبل كلمته . ثم بعد الصديق عمر الفاروق ؛ ثم بعده عثمان . روى البخاري عن ابن عمر قال : كنا نخرج بين الناس في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم فنخبر أبا بكر ثم عمر ثم عثمان . واختلف أئمة أهل السلف في عثمان وصل ؛ فالجمهور منهم على تقديم عثمان . وروى عن مالك أنه توقف في ذلك . وروى عنه أنه رجع إلى ما عليه الجمهور . وهو الأصح إن شاء الله .

العاشرة - قوله تعالى : (فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ) في قولان : أحدهما - على النبي صلى الله عليه وسلم . والثاني - على أبي بكر . أبى العري : قال علماؤنا وهو الأقوى ؛ لأنه تخاف على النبي صلى الله عليه وسلم من القوم ؛ فأنزل الله سكينته عليه بتأمين النبي صلى الله عليه وسلم ، فسكن جأشه وزعم روعه وحصل الأمن ، وأثبت الله سبحانه ثمته ، وألمم الوكر هناك حماة ؛ وأرسل المنكبوت فنسجت بيتا عليه . فما أضعف هذه الجنود في ظاهرها الحسن وما أقواها في باطن المعنى ! ولهذا المعنى قال النبي صلى الله عليه وسلم لعمر حين تقامر مع الصديق : " هل أتم تاركوك لي صاحبي إن الناس كلهم قالوا كذبت وقال أبو بكر صدقت " رواه أبو الدرداء .

(١) في المسألة الخامسة من قوله تعالى : " محمد رسول الله والذين معه ... " آخر السورة .

(٢) انعام : ينجي معروف في البادية .

(٣) القاسمة الخامسة . راجع الحديث بطوله في صحيح البخاري في باب مناقب أبي بكر رضي الله عنه .

الحادية عشرة - قوله تعالى : ﴿ وَآيَهُ يُجَنُّدُ لَمْ تَرَوْهَا ﴾ أى من الملائكة . والكناية في قوله « وآيده » ترجع إلى النبي صلى الله عليه وسلم . والضميران مختلفان . وهذا كثير في القرآن وفي كلام العرب . ﴿ وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى ﴾ أى كلمة الشرك . ﴿ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ﴾ قيل : لا إله إلا الله . وقيل : وعد النصر . وقرا الأعمش ويعقوب « وكلمة الله » بالنصب حملا على « جعل » . والباقون بالرفع على الاستئناف . وزعم الفراء أن قراءة النصب بعيدة ؛ قال : لأنك تقول أعنى فلان غلام أبيه ، ولا تقول غلام أبي فلان . وقال أبو حاتم : نحواً من هذا . قال : كان يجب أن يقال وكأنه هي العليا . قال النحاس : الذي ذكره الفراء لا يشبه الآية ، ولكن يشبهها ما أنشد سيويه :

لا أرى الموت يسبق الموت شيء . نقص المسوت ذا النبي والفقير

فهذا حسن جيد لا إشكال فيه ، بل يقول النحويون الحدائق : في إعادة الذكر في مثل هذا فائدة . وهي أن فيه معنى التعظيم ؛ قال الله تعالى : « إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالًا ، وَانْفُرَتِ الْأَرْضُ انْفِرَالًا » فهذا لا إشكال فيه . وجمع الكلمة كليم . وتميم تقول : هي كلمة بكسر الكاف . وحكى الفراء فيها ثلاث لغات : كلمة وكلمة وكلمة مثل كبد وكبد ، وورق وورق . والكلمة : أيضا الفصيحة بطولها ؛ قاله الجوهري .

قوله تعالى : أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى - روى سفيان عن حصين بن عبد الرحمن عن أبي مالك البغاري قال : أزل ما نزل من سورة براءة « أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا » . وقال أبو الصمحا كذلك أيضا . قال : ثم نزل أولها وآخرها .

الثانية - قوله تعالى : ﴿ اِنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا ﴾ نصب على الحال ، وفيه عشرة أقوال : الأول - يذكر عن ابن عباس ^(١) « اِنْفِرُوا ثِيَابًا » : سَرَّابًا متفرقين . الثاني - روى عن ابن عباس أيضا وقادة : نشاطا وغير نشاط . الثالث - الخفيف : الخفيف ، والثقل : الثقل ، قاله مجاهد . الرابع - الخفيف : الشاب ، والثقل : الشيخ ، قاله الحسن . الخامس - مشاغل وغير مشاغل ، قاله زيد بن علي والحكم بن عتيبة . السادس - الثقل : الذي له عيال ، والخفيف : الذي لا عيال له ، قاله زيد بن أسلم . السابع - الثقل : الذي له ضيعة يكره أن يدعها ، والخفيف : الذي لا ضيعة له ، قاله ابن زيد . الثامن - الخفاف : الرجال ، والثقال : الفرسان ، قاله الأوزاعي . التاسع - الخفاف : الذين يسبقون إلى الحرب كالطلعة وهو مقدم الجيش ، والثقال : الجيش بأسره . العاشر - الخفيف : الشجاع ، والثقل : الجبان ، حكاه النقاش . والصحيح في معنى الآية أن الناس أمروا بجملة ، أي انفروا خفت عليكم الحركة أو ثقلت . وروى أن ابن أم مكتوم جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال له : « أعلّ أن انفروا ؟ فقال : " نعم " حتى أنزل الله تعالى « ليس على الأعمى حرج » . وهذه الأقوال إنما هي على معنى المثال في الثقل والخفة .

الثالثة - وأختلف في هذه الآية ، فقيل إنها منسوخة بقوله تعالى : « لَيْسَ عَلَى الضَّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى » . وقيل : الناسخ لما قوله « فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ » ، والصحيح أنها ليست بمنسوخة . روى ابن عباس عن أبي طلحة في قوله تعالى : « اِنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا » قال شيبان وكهولاً ، ماسم الله عذر أحد . فخرج إلى الشام بغاهد حتى مات رضي الله عنه . وروى حماد عن ثابت وعلي بن زيد عن أنس أن أبا طلحة قرأ سورة « براءة » فاتى على هذه الآية « اِنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا » فقال : أي بني ، جهزوني جهزوني . فقال بنوه : يرحمك الله ! قد غررت مع النبي صلى الله عليه وسلم حتى مات ، ومع أبي بكر حتى

(١) كما في جميع الأصول . ولاحظ أن المؤلف رحمه الله عرض لآية النساء ، وهو قوله تعالى : « اِنْفِرُوا ثِيَابًا » أو انفروا جميعا « آية ٧١ » وثابت : جمع ثيبة ، وهي الجملة من الناس . (٢) آية ٦١ سورة البقرة . (٣) آية ٩١ من هذه السورة . (٤) آية ١٢٢ من هذه السورة .

مات، ومع عمر حتى مات، فحن نفرو عنك . قال : لا ، جهزوني . ففزا في البحرفات
في البحر، فلم يجدوا له جزيرة يدفونه فيها إلا بعد سبعة أيام فدفنوه فيها، ولم يتغير رضى الله عنه .
وأسند الطبري عن رأى المقداد بن الأسود يحص على تابوت صرّاف ، وقد فضل على
التابوت من سيفه وهو يتجهز للزّو . فقيل له : لقد مذرك الله . فقال : أنت علينا سيرة
البعوث « إنفروا خفافا وثقالا » . وقال الزهري : خرج سعيد بن المسيّب إلى الزّو وقد
ذهب إحدى عينيه . فقيل له : إنك طيل . فقال : استغفر الله الخفيف والثقل ، فإن
لم يمكني الحرب كثرت السواد وحفظت المتاع . ورؤى أن بعض الناس رأى في غزوات
الشام رجلا قد سقط حاجباه على عينيه من الكبر ، فقال له : يا عم ، إن الله قد مذرك .
فقال : يا بن أختي ، قد أصرنا بالثغر خفافا وثقالا . ولقد قال ابن أتم مكتوم رضى الله عنه
- واسمه عمرو - يوم أحد : أنا رجل أعمى ، فسألتوا لى اللواء ، فإنه إذا انهمز حامل اللواء
انهمز بالجيش ، وأنا ما أدري من يقصدنى بسيفه فما أبرح . فأخذ اللواء يومئذ مصعب بن عمير
على ما تقدم في « آل عمران » بيانه . فلهذا وما كان مثله مما رُوى عن الصحابة والتابعين .
قلنا : إن النسخ لا يصح . وقد تكون حالة يجب فيها تغير الكل ، وهى :

الرابعة - وذلك إذا تعين الجهاد بقلة العدو على قنار من الأقطار، أو بحلوله بالمقر،
فإذا كان ذلك وجب على جميع أهل تلك الدار أن ينفروا ويخرجوا إليه خفافا وثقالا ، شبابا
وشيوخا، كل على قدر طاقته ، من كان له أب بغير إذنه ومن لا أب له ، ولا يتخلف أحد
بقدر على الخروج، من مقاتل أو مكثر . فإن عجز أهل تلك البلدة عن القيام بدورهم كان على
من قاربهم وجاورهم أن يخرجوا على حسب ما لزم أهل تلك البلدة؛ حتى يداوموا أن فيهم طاقة
على القيام بهم ومدافعهم . وكذلك كل من علم بضعفهم عن عدوهم وعلم أنه يدركهم ويمكنه
غياثهم لزمه أيضا الخروج إليهم ، فالمسلمون كلهم يد على من سواهم؛ حتى إذا قام بدفع العدو
أهل الناحية التى نزل العدو عليها واحتل بها سقط الفرض عن الآخرين . ولو قارب العدو

دار الإسلام ولم يدخلوها لزمهم أيضا الخروج إليه ، حتى يظهر دين الله ويُخَيِّبَ الْيَافِثَةَ وَتُحْفَظَ الْحَوَازَةُ وَيُخْرَجَ الْعَدُوُّ . ولا خلاف في هذا .

وقسم ثان من واجب الجهاد - فرض أيضا على الإمام إغراء طائفة إلى العدو كل سنة مرة ، يخرج معهم بنفسه ، أو يُخْرِجَ مَنْ يَتَّقِي بِهِ لِيَدْعُوهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ وَيَرْغِبَهُمْ ، ويكف أذاهم ويظهر دين الله عليهم ، حتى يدخلوا في الإسلام أو يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ .

ومن الجهاد أيضا ما هو نافلة ، وهو إخراج الإمام طائفة بعد طائفة ، وَبَثُّ السَّيْرَاءِ فِي أَوْقَاتِ الْفَتْوَةِ وَعِنْدَ إِمْكَانِ الْفُرْصَةِ ، وَالْإِرْصَادُ لَهُمُ بِالرِّبَاطِ فِي مَوْضِعِ الْخُوفِ ، وَاطِّهَارُ الْقُوَّةِ . فإن قيل : كيف يصنع الواحد إذا قَصُرَ الْجَمْعُ ، وهى : -

الخامسة - قيل له : يعمد إلى أسير واحد فيقديه ، فإنه إذا فدى الواحد فقد أذى في الواحد أكثر مما كان يلزمه في الجماعة ، فإن الأغنياء لو أقسموا فداء الأسارى ما أذى كل واحد منهم إلا أقل من درهم . ويفزو بنفسه إن قدر وإلا جهز غازيا . قال صلى الله عليه وسلم : " من جهز غازيا فقد غزا ومن خلفه في أهله بغير فقد غزا " أخرجه الصحيح . وذلك لأن مكانه لا يفتنى وماله لا يكتفى .

السادسة - روى أن بعض الملوك عاهد كفارا على ألا يحبسوا أسيرا ، فدخل رجل من المسلمين جهة بلادهم فزعل بيت مغلق ، فنادته امرأة أنى أسيرة ، فأبلغ صاحبك خبري ، فلما اجتمع به واستطعمه عنده وتجاوزا ذيل الحديث ، انتهى الخبر إلى هذه المدة ، فما أكل حديثه حتى قام الأمير على قدميه ونرج غازيا من فوره ، ومضى إلى التتر حتى أخرج الأسيرة واستولى على الموضع ، رضى الله عنه . ذكره ابن العربي وقال : « ولقد نزل بنا العدو - قصمه الله - سنة سبع وعشرين وخمسمائة ، بغاس ديارنا وأمر خيرتنا وتوسط بلادنا في عدد هال الناس عدده ، وكان كثيرا وإن لم يبلغ ما حددوه . فقلت للوال والمولى عليه : هذا عدو الله قد حصل في الشرك والشبهة ، فلنكن عندكم بركة ، ولنظهر مكم إلى نصرة الدين المتعينة عليكم حركة ، فليخرج إليه جمع الناس حتى لا يبقى منهم أحد في جميع الأقطار فيحاط .

به ، فإنه هالك لا محالة إن يسركم الله له . فغلبت الذنوب ورجفت القلوب بالمعاصي ، وصار كل أحد من الناس ثعلبا يأوى إلى جواره وإن رأى المكيدة بجاره . فلنا الله وإنا إليه راجعون . وحسبنا الله ونعم الوكيل . »

السابعة - قوله تعالى : ﴿ وَجَاهِدُوا ﴾ أمر بالجهاد ، وهو مشتق من الجهد (يَأْجِدُ الْكَمَّ وَتَأْجِدُكُمْ) روى أبو داود عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم » . وهذا وصف لأهل ما يكون من الجهاد وأفعه عند الله تعالى . فحس على كمال الأوصاف ، وقسم الأموال في الذكرا ذى أول مصرف وقت التجهيز . فربب الأمر كما هو في نفسه .

قوله تعالى : لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ أَلْسِنَةٌ وَسَبَلٌ فَأَنَّهُ لَوْ أَنَسَطْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٧﴾

لما رجع النبي صلى الله عليه وسلم من غزوة تبوك أظهر الله نفاق قوم . والعرض : ما يمرض من منافع الدنيا . والمعنى : غنمة قريبة . أخبر عنهم أنهم لو دُعُوا إلى غنمة لَاتَّبَعُوهُ . (عَرَضًا) خبر كان . (قَرِيبًا) منه . (وَسَفَرًا قَاصِدًا) عطف عليه . وحذف اسم كان لدلالة الكلام عليه . التقدير : لو كان المدعو إليه عَرَضًا قَرِيبًا وسَفَرًا قَاصِدًا - أى سهلا معلوم الطريق - لَاتَّبَعُوكَ . وهذه الكناية للنافقين كما ذكرنا ؛ لأنهم داخلون في جملة من غوطلب بالغير . وهذا موجود في كلام العرب ، يذكرون الجملة ثم يأتون بالإضمار عائدا على بعضها ، كما قيل في قوله تعالى : « وَإِنْ يَنْتَكِرْ إِلَّا وَارِدُهَا » أنها القياس . ثم قل جل وعز : « ثُمَّ تَحِيَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَغَيَّرَ الطَّالِمِينَ فِيهَا جَنًّا » يبنى جل وعز جهنم . ونظير هذه الآية من السنة في المعنى قوله عليه السلام : « لو يعلم أحدكم أنه يبعد عظمًا سمينا

أَوْ مَرَاتَيْنِ^(١) حَسْبَيْنِ لَتَشِدَّ الشَّاءُ . يقول : لو علم أحدهم أنه يحسد شيئا حاضرا معجلا يأخذه لأقَى المسجد من أجله . (وَلَكِنْ يَدْعُ طَلِبُ الشَّقَّةِ) حكى أبو عبيدة وغيره أن الشقة السفر إلى أرض بعيدة . يقال : منه شقة شاقة . والمراد بذلك كله غزوة تبوك . وحكى الكسائي أنه يقال شقة وشقة . قال الجوهري : الشقة بالضم من الثياب ، والشقة أيضا السفر البعيد وربما قالوه بالكسر . والشقة شَقِيَّةٌ تُشَقَّى من لوح أو خشبة . يقال للفضبان : احتد فطارت منه شقة ، بالكسر . (وَسَيَحْلِفُونَ بِاللهِ لَوْ اسْتَطَعْنَا) أى لو كان لنا سعة في الظهور والمال . (نَخْرِجَنَّكَ) نظيره هـ وقد حل الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا هـ فسرهما النبي صلى الله عليه وسلم فقال : " زاد وراحلة " وقد تقدم . (يُولِكونَ أَنْفُسَهُمْ) أى بالكذب والفاق . (وَاللهُ يَسْلُمُ لَهُمْ لَكَذِبُونَ) في الاعتلال .

قوله تعالى : عَفَا اللهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴿١٥﴾

قوله تعالى : (عَفَا اللهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ) قيل : هو انتساح كلام ، كما تقول : أسلمك الله وأهزك ورحمك ! كان كذا وكذا . وعمل هذا التأويل يحسن الوقف على قوله : « عفا الله عنك » ، حكاه مكِّي والمهدي والنحاس . وأخبر بالعفو قبل التنبئ لئلا يطير قلبه فرقا .^(٢) وقيل : المعنى عفا الله عنك ما كان من ذنبك في أن أذنت لهم ، فلا يحسن الوقف على قوله : « عفا الله عنك » على هذا التقدير ، حكاه المهدي واختاره النحاس . ثم قيل : في الإذن قولان : الأول - « لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ » في الخروج معك ، وفي خروجهم بلا عُدَّة ونية صادقة فساد . الثاني - « لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ » في القعود لما اعتلوا بأعذار ، ذكرهما القشيري . قال : وهذا عتاب تطفف ، إذ قال : « عفا الله عنك » . وكان عليه السلام أذن من غير وحي نزل فيه . قال قتادة وعمر بن ميمون : ثلثان فعلهما النبي صلى الله عليه وسلم لم يؤمر

(١) مراتين (بكر الميم) وقد تفتح . تنية مرعاة ، وهي ثقب الشاة ، أو ما بين ثغفيها من اللحم .

(٢) راجع ٥٤ ص ١٥٣ طبعة أول أدبانية . (٣) الفرق بالتحريك : الخوف والجرع .

بهما : إذنه لطافة من المنافقين في التخلف عنه ولم يكن له أن يمضي شيئا إلا يوحى ، وأخذه من الأسارى القديمة ؛ فتابه الله كما تسمعون . قال بعض العلماء : إنما بدر منه ترك الأولى ، فقدم الله له السهو على الخطأ الذي هو في صورة التائب .

قوله تعالى : (حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ) أى ليتبين لك من صدق من نفاق . قال ابن عباس : وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن يومئذ يعرف المنافقين ، وإنما عرفهم بعد نزول سورة التوبة . وقال مجاهد : هؤلاء قوم قالوا : نستاذن في الجلوس ، فإن إذن لنا جلسنا ، وإن لم يؤذن لنا جلسنا . وقال قتادة : نسخ هذه الآية بقوله في سورة النور : « فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِيَمُضَ شَأْنُهُمْ فَأَذَنَ لِيَن شَيْءٍ مِنْهُمْ » . ذكره النحاس في معاني القرآن له .

قوله تعالى : لَا يَسْتَفْذِكُ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَالِمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا يَسْتَفْذِكُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَآرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبٍ مِنْهُمْ لَا يَرْدُّونَ ﴿١٧﴾

قوله تعالى : (لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ) أى في القعود ولا في الخروج ، بل إذا أمرت بشيء ابتدروه ؛ فكان الاستئذان في ذلك الوقت من علامات النفاق لغير محذور ، ولذلك قال : (إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَآرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبٍ مِنْهُمْ) . روى أبو داود عن ابن عباس قال : « لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله » نسختها التي في النور « إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله - (١٦) - إلى قوله - غفور رحيم » . (أن يجاهدوا) في موضع نصب بإضمار في ، عن الزجاج . وقيل : التقدير

كراهية أن يجاهدوا ؛ كقوله : « **يَسِّرْ اللَّهُ لَكَ أَنْ تَقُتِلُوا** » . (وَأَرَاتِبْتُ قُلُوبَهُمْ) شَكَتْ
 فِي الدِّينِ . (فَهُمْ فِي دَرَجَتِهِمُ يَنْتَرِدُونَ) أى في شكهم يذهبون ويرجعون .

قوله تعالى : وَلَوْ أَرَادُوا أَنْخُرُوجَ لَأَعْدُوا لَهُ عُدَّةٌ وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ
 أَنْيَعَانَهُمْ فَتَبَطَّهْمُ وَقِيلَ أَفْعُدُوا مَعَ الْفَاعِلِينَ ﴿١٦﴾

قوله تعالى : (وَلَوْ أَرَادُوا أَنْخُرُوجَ لَأَعْدُوا لَهُ عُدَّةٌ) أى لو أرادوا الجهاد لنا هبوا
 أقبية السفر . فتركهم الاستعداد دليل على إرادتهم التخلف . (وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ أَنْيَعَانَهُمْ)
 أى نزعهم منك . (فَتَبَطَّهْمُ) أى حبسهم حبك وخذلهم ؛ لأنهم قالوا : إن لم يؤذن لنا
 في الخروج أنفسنا وحرصنا على المؤمنين . ويدل على هذا أن بعده « لَوْ تَخَرَّجُوا فِيكُم مَّا زَادَكُمْ
 إِلَّا خَبَالًا » . (وَقِيلَ أَفْعُدُوا مَعَ الْفَاعِلِينَ) قيل : هو من قول بعضهم لبعض . وقيل :
 هو من قول النبي صلى الله عليه وسلم ، ويكون هذا هو الإذن الذي تقدم ذكره . قيل :
 قاله النبي صلى الله عليه وسلم غضبا ، فأخذوا بظاهر لفظه وقالوا : قد أذن لنا . وقيل : هو
 عارة عن الخذلان ؛ أى أوقع الله في قلوبهم القعود . ومعنى (مَعَ الْفَاعِلِينَ) أى مع أولي
 الضرر والعيان والزمن والنسوان والصبيان .

قوله تعالى : لَوْ تَخَرَّجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا تُضْمِرُوا
 خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمْعُونُ حُثْمٌ وَاللَّهُ عَالِمُ بِالظَّالِمِينَ ﴿١٧﴾
 قوله تعالى : (لَوْ تَخَرَّجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا) هو تسلية للمؤمنين في تخاف
 المنافقين عنهم . والحبال : الفساد والخيمة وإيقاع الاختلاف والأراجيف . وهذا استثناء
 منقطع ، أى ما زادوكم قوة ولكن طلبوا الحبال . وقيل : المعنى لا يزيدونكم نيا يترددون
 من الرأي إلا خبالا ؛ فلا يكون الاستثناء منقطعا .

قوله تعالى : (وَلَا تُزَكُّوهُمُ إِلَّا أَنْ يُدْفِنُوا بِحَبْلٍ مُنْتَبِهَةً) (١) المعنى لا تسرعوا فيكم بالإفساد . والإيضاح :
سرعة السير . وقال الزاير :

بالبقي فيها جدع . أحب فيها وأضع

يقال : وضع البئر إذا عدا ، يضع وضعا ووضوعا إذا أسرع السير . وأوضعه حمله
على العدو . وقيل : الإيضاح سير مثل الحب . والخلل الفرجة بين التبيين ، والجمع الجلال ،
أى الفرج التي تكون بين الصفوف . أى لأوضحوا خلالكم بالتمجيد وإفساد ذات الين .
(يَتَوَضَّعُونَ الْفِتْنَةَ) مفعول ثان . والمعنى يطلبون لكم الفتنة ، أى الإفساد والتحريض . ويقال :
أبنته كذا اعتسه على طلبه ، وبقيته كذا طلبته له . وقيل : الفتنة هنا الشرك . (وَيَكْفُرُوا
بِمَا هُمْ بِهَا مُشْرِكُونَ) أى عيونهم يغفلون إليهم الأخبار منكم . فتادة : وفيكم من يقبل منهم قولهم
ويطمعهم . النعاس : والقول الأول ، لأنه الأغلب من معنيته أن معنى تتماح يسمع
الكلام : ومثله «تتماحون للكذب» . والقول الثانى - لا يكاد يقال فيه إلا سامع ،
من قائل .

قوله تعالى : لَقَدْ أَتَيْنَا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى
جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ (٢)

قوله تعالى : (لَقَدْ أَتَيْنَا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ) أى لقد طلبوا الإفساد والخلل من قبل
أن يظهر أمرهم ، وينزل الوحي بما أسروه وبما سيفعلونه . وقال ابن جرير : أراد اثنى عشر
رجلا من المنافقين ، وقفوا على ثنية الدواع ليلة العقبة ليفتكوا بالنبي صلى الله عليه وسلم .
(وَقَالُوا لَكَ الْآذَانُ) أى صرفوها وأجالوا الرأى فى إبطال ما جئت به . (حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ
وَوَضَّعَ أَمْرُ اللَّهِ) أى دينه (وَهُمْ كَارِهُونَ) .

(١) حرد بن الصمة : كما فى السان . (٢) الذى فى كتب الفقه أنه يقال : وضع البئر وضعا
وموضوعا . أما الوضع فهو من مصاد غولم : وضع الرجل نفسه وضعا ووضوعا وضعة (فتح الصاد وكسرهما) إذا أذغا .
(٣) آية ٤٢ سورة المائدة . (٤) الثنية : الطريقة فى الجبل كالقبة ، وقيل الطريق الدال به . والرداع :
واد بمكة ، وثنية الدواع مشربة إليه .

قوله تعالى : وَمِنْهُمْ مَّنْ يَقُولُ أَئِذْنَ لِي وَلَا تَفْتِنِي ۗ أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿١١﴾ إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ فَسُوءُهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ ﴿١٢﴾

قوله تعالى : (وَمِنْهُمْ مَّنْ يَقُولُ أَئِذْنَ لِي) من إذنت ياذن . وإذا أمرت زدت حمزة مكسورة وبعدها حمزة هي فاء الفعل ، ولا يجمع همزتان ، فأبدلت من الثانية ياء لكسرة ما قبلها فقلت إيدن . فإذا وصلت زالت المسلة في الجمع بين همزين ، ثم همزت فقلت : « ومنهم من يقول أئذن لي » . وروى ورش عن نافع « ومنهم من يقول أودن لي » خفف الحمزة . قال النحاس : يقال إيدن لفلان ثم إيدن له ، يهاء الأولى والثانية واحد بالف وياه قبل الفال في الخط . فإن قلت : إيدن لفلان وأذن لغيره كان الثاني بغير ياء ، وكذا الفاء . والفرق بين ثم والواو أنت ثم يوقف عليها وتنفصل ، والواو والفاء لا يوقف عليهما ولا ينفصلان . قال محمد بن إسحاق : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمحمد بن قيس أحمى بنى سامة لما أراد الخروج إلى تبوك : « يا جد ، هل لك في جلد بنى الأصفر تحذف منهم سرارى ووصفاه » فقال الجد : قد عرف قومي أحمى مفرم بالنساء ، وإني أخشى أن رأيت بنى الأصفر ألا أصبر عنهم ، فلا تفتني وأذن لي في القعود وأعينك بما لي ، فأعرض عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : « قد أذنت لك » فزلت هذه الآية . أى لا تفتني بصباحة وجوههم ، ولم يكن به حلة إلا النفاق . قال المهدوي : والأصفر رجل من الحبشة ، كانت له بنات لم يكن في وقتهن أجمل منهن ، وكان يبلاد الروم . وقيل : سُموا بذلك لأن الحبشة غلبت على الروم ، وولدت لهم بنات فأخذن من بياض الروم وسواد الحبشة ، مكن صُفْرًا لَمَسًا . قال ابن عطية : في قول ابن إسحاق فتور . وأشد الطبري أن رسول الله

(١) أى أبدا وأراد لنفسه اللام قبلها ، فخلق باللام كأنها متصلة براء الجملة . (٢) المس : سواد الحنة والشفة . وقيل : المس والشفة : سواد بملوثفة المرأة البيضاء . وقيل : هو سواد في حمرة .

صلى الله عليه وسلم قال : " اغزوا تغنموا بنات الأصفر " فقال له الجعد : إذن لنا ولا تغنمنا بالنساء . وهذا مترع غير الأول ، وهو أشبه بالثفاق والمحادة . ولما تزلت قال النبي صلى الله عليه وسلم لبني سامة - وكان الجعد بن قيس منهم : " من سيدكم يا بني سامة ؟ " قالوا : جعد بن قيس ، غير أنه بخيل جبان . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " وأتى داه أدوى^(١) من البخل بل سيدكم الفتى الأبيض بشر بن البراء بن معرور " . فقال حسان بن ثابت الأنصاري فيه :

وَسُودَ بَشْرُ بِنِ السَّاءِ بِلُحُودِهِ • وَحَقَّ لِبَشْرِ بْنِ الْبَرَاءِ أَنْ يُسَوِّدَا

إِذَا مَا أَتَاهُ الْوَفْدُ أَذْهَبَ مَالَهُ • وَقَالَ خَذُوهُ إِنِّي عَائِدٌ خَدَا

(أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا) أى فى الإثم والمصيبة وقعوا . وهى الثفاق والتخلف عن النبي صلى الله عليه وسلم . (وَأَنَّ جَهَنَّمَ لَمْ يَحِيطْهُ^٢ وَالْكَافِرِينَ) أى مسيرهم إلى النار ، فهى مُحْدَق بهم .

قوله تعالى : (إِنْ تُصِيبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ) شرط ومجازاة ، وكذا (وَأِنْ تُصِيبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلٍ وَيَتَوَلَّوْا) عطف عليه . والحسنة : الغنيمة والظفر . والمصيبة الكهزأ . ومعنى قولهم : « أخذنا أمرنا من قبل » أى احتطنا لأنفسنا ، وأخذنا بالحزم فلم نخسج إلى القتال . (وَيَتَوَلَّوْا) أى عن الإيمان . (وَهُمْ فَرِحُونَ) أى معجبون بذلك .

قوله تعالى : قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾

قوله تعالى : (قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا) قيل : فى اللوح المحفوظ . وقيل : ما أخبرنا به فى كتابه من أننا إما أن نظفر فيكون الظفر حسنى لنا ، وإما أن نقتل

(١) أى أى عيب أتبع منه . قال ابن الأثير : « والصواب أدوا بالهمز ، وموضعه أول الباب ، ولكن هكذا يروى ، إلا أن يصح من باب دوى يدوى دوا فهو دوا إذا هلك مرض باطن » .

فكون الشهادة أعظم حسنى لنا . والمعنى كل شئ بقضاء وقدر . وقد تقدم في « الأعراف »
 أن العلم والقدر والكتاب سواء . ^(١) (هُوَ مَوْلَانَا) أى ناصرنا . والتوكل تفويض الأمر إليه .
 وقراءة الجمهور « يَصِينَا » نصب بن . وحكى أبو عبيدة أن من العرب من يزم بها . وقرأ
 طلحة بن مُصَرِّف « هل يَصِينَا » . وحكى عن أُعَيْن قاضى الرى أنه قرأ « قل لن يَصِينَا »
 بنون مشددة . وهذا لحن ؛ لا يؤكده النون ما كان خبرا ، ولو كان هذا في قراءة طلحة
 لجاز . قال الله تعالى : « هَلْ يُدْرِكُهُ مَا يَفِطُّ » ^(٢)

قوله تعالى : قُلْ هَلْ تَرَبُّصُونَ إِنَّا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَنَحْنُ
 نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا
 إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ ﴿٥٧﴾

قوله تعالى : (قُلْ هَلْ تَرَبُّصُونَ إِنَّا) والكوفيون يدعون اللام في النساء . فاما لام
 المعرفة فلا يجوز إلا الإدغام ؛ كما قال جل وعز : « النائيون » لكثرة لام المعرفة في كلامهم .
 ولا يجوز الإدغام في قوله : « قل تعالوا » لأن « قل » مضى ، فلم يجمعوا عليه عتين .
 والتربص الانتظار . يقال تربص بالطعام أى انتظر به إلى حين الفلاء . والحسنى تأنيث
 الأحسن . وواحد الحسين حسنى ، والجمع الحسن . ولا يجوز أن ينطق به إلا معزفا .
 لا يقال : رأيت امرأة حسنى . والمراد بالحسنتين الفتيمة والشهادة ؛ عن ابن عباس
 وعجابه وغيرهما . واللفظ استفهام والمعنى توبخ . (وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ
 بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ) أى عقوبة تهلككم ؛ كما أصاب الأمم الخالية من قبلكم . (أَوْ بِأَيْدِينَا)
 أى يؤذّن لنا في قتالكم . (فَتَرَبَّصُوا) تهديد ووعيد . أى انتظروا مواعد الشيطان إنا
 منتظرون مواعد الله .

(١) راجع ٧ ص ٢٠٣ طبة أمدا الثانية . (٢) آية ١٥ سورة الحج .

قوله تعالى : قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ إِنْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٢﴾
فيه أربع مسائل :

الأولى - قال ابن عباس : نزلت في الجذ بن قيس إذ قال الذنلى في القعود وهذا ما لى أعلك به . ولفظ (أنفقوا) أمر ، ومعناه الشرط والجزاء . وهكذا تستعمل العرب في مثل هذا ، تأتى بأمر كما قال الشاعر :

أبى بنا أو أحسن لا ملومة • لدينا ولا مقلية إن قتل

والمعنى إن أسأت أو أحسنت فنحن على ما تعرفين . ومعنى الآية : إن أنفقتم طائعين أو مكرمين فلن يقبل منكم . ثم بين جل وعز لم لا يقبل منهم فقال : « وَمَا مَنَعُهُمْ أَنْ تُقَبَّلَ مِنْهُمْ تُقَبَّلُ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ » فكان في هذا أدل دليل وهى : -

الثانية - على أن أفعال الكافر إذا كانت راء كصلة القرابة وجير الكسيرة وإفانة الملهوف لا يثاب عليها ولا ينفع بها فى الآخرة ، بئس أنه يطعم بها فى الدنيا . دليله ما رواه مسلم عن عائشة رضى الله عنها قالت قلت : يا رسول الله ، ابن جُذعان كان فى الجاهلية يصل الرجم ويطعم المسكين ، فهل ذلك نافعه ؟ قال : « لا ينفعه ، إنه لم يقل يوما رب اغفرلى خطيئتي يوم الدين » . وروى عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله لا يظلم مؤمنا حسنة يعطى بها فى الدنيا ويؤجر بها فى الآخرة وأما الكافر فيطعم بحسنات ما عمل لله بها فى الدنيا حتى إذا أنضى إلى الآخرة لم يكن له حسنة يجزى بها » . وهذا نص . ثم قيل : هل يحكم هذا الوعد الصادق لا بد أن يطعم الكافر ويعطى بحسناته فى الدنيا ، أو ذلك مقيد بحسنة الله المذكورة فى قوله : « نَحْنُ لَهُ فِيهَا مَأْنَسَاءٌ لِيَنْزِلَ » وهذا هو الصحيح من القولين ، والله أعلم . وتسمية ما يصدر عن الكافر حسنة إنما هو بحسب

ظن الكافر، وإلا فلا يصح منه قربة؛ لعدم شرطها المصحح لها وهو الإيمان . أو شئت
حسنة لأنها تشبه صورة حسنة المؤمن ظاهرا . قولان أيضا .

الثالثة - فإن قيل : فقد روى مسلم عن حكيم بن حزام أنه قال لرسول الله صلى
الله عليه وسلم : أرى رسول الله ، أرايت أمورا كنت أتحنت بها في الجاهلية من صدقة
أو عتاقة أو صلة ربحم أفيها أجر؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أسلمت على
ما أسلفت من خير " . قلنا قوله " أسلمت على ما أسلفت من خير " يخالف ظاهره للأصول؛
لأن الكافر لا يصح منه التقرب لله تعالى فيكون مثابا على طاعته؛ لأن من شرط المتقرب
أن يكون عارفا بالمتقرب إليه، فإذا عدم الشرط انتفى صحة المشروط . فكان المعنى في الحديث :
إنك اكتسبت طباعا جميلة في الجاهلية اكتسبتك عادة جميلة في الإسلام . وذلك أن حكيم
رضي الله عنه عاش مائة وعشرين سنة؛ ستين في الإسلام وستين في الجاهلية، فاعتق
في الجاهلية مائة رقبة وحمل على مائة بعير؛ وكذلك فعل في الإسلام . وهذا واضح . وقد
قيل : لا يبعد في كرم الله أن يشبه على فعله ذلك بالإسلام، كما يسقط عنه ما ارتكبه في حال
كفره من الآثام . وإنما لا يتأب من لم يسلم ولا تاب ومات كافرا . وهذا ظاهر الحديث .
وهو الصحيح إن شاء الله . وليس عدم شرط الإيمان في عدم ثواب ما يفصله من الخير ثم
أسلم ومات مسلما بشرط عقل لا يتقبل . والله أكرم من أن يضيع عمله إذا حسن إسلامه .
وقد تأول الحربي الحديث على هذا المعنى فقال : " أسلمت على ما أسلفت " أي ما تقدم لك
من خير عملته فذلك لك . كما تقول : أسلمت على ألف درهم؛ أي على أن أحرزها لنفسه .
والله أعلم .

الرابعة - فإن قيل : فقد روى مسلم عن العباس قال : قلت يا رسول الله [إن]
أبا طالب كان يحوطك وينصرك، فهل نفعه ذلك؟ قال : " نعم، وجدته في عمرات من
النار فأخرجته إلى محضاح " . قيل له : لا يبعد أن يخفف عن الكافر بعض المذاب بما عمل

(١) التثبت : التجدد .

(٢) الصمغ في الأرض . من الماء على وجه الأرض ، ما يبلغ الكمين . فاستأثره لار .

من الخير، لكن مع انضمام شفاعته؛ كما جاء في أبي طالب . فاما غيره فقد أخبر التبريل بقوله : « قَدْ تَقَعَّمَهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ » ^(١) . وقال مجبرا عن الكافرين : « قَدْ لَنَا مِنْ شَافِعِينَ . ولا صديق حميم » ^(٢) . وقد روى مسلم عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر عنده عمه أبو طالب فقال : « لعله تنفعه شفاعتي يوم القيامة فيجعل في صحاح من النار يبلغ كمديه يَأْتِي منه دماغه » . من حديث العباس : « ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار » .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ أي كافرين .

قوله تعالى : وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ . وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَاذِبُونَ ﴿٥٥﴾

فيهم ثلاث مسائل :

الأولى — : ﴿ وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ ﴾ « أن » الأولى في موضع نصب ، والثانية في موضع رفع . والمعنى : وما مَنَعَهُمْ من أن تقبل منهم نفقاتهم إلا كفرهم . وقرأ الكوفيون « أن يُقبل منهم » بالياء ؛ لأن النقات والإنفاق واحد .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى ﴾ قال ابن عباس : إن كان في جماعة صلى وإن افترد لم يصل ، وهو الذي لا يرجو على الصلاة ثوابا ولا يخشى في تركها عقابا . فالنفاق يورث الكسل في العبادة لا بحالة . وقد تقدم في « النساء » ^(٣) القول في هذا كله . وقد ذكرنا هناك حديث العلاء مَوْعِبًا . والحمد لله .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَاذِبُونَ ﴾ لأنهم يشدونها مَقْرَمًا ومنعها مَقْنَمًا . وإذا كان الأمر كذلك فهي غير متقبلة ولا مبتاب عليها حسب ما تقدم ؛

(١) آية ٤٨ سورة المائدة . (٢) آية ١٠٠ سورة التبراء .

(٣) راجع به ٥ صفحة ٢٢٢ طبعه أول مرة ثانية . (٤) لعل صوابه : حديث الأعرابي .

قوله تعالى : فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٥٦﴾ وَيَخْلِفُونَ بِأَلْفِهِمْ لِمَنْكُرٍ وَمَا هُمْ بِمَنْكُرٍ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٧﴾

أى لا تستحسن ما أعطيناهم ولا تأمل إليه فإنه استدراج . (إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا) قال الحسن : المعنى بإخراج الزكاة والإنفاق في سبيل الله . وهذا اختيار الطبري . وقال ابن عباس وقادة : في الكلام تقديم وتأخير ، والمعنى فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم في الحياة الدنيا إنما يريد الله لعذبهم بها في الآخرة . وهذا قول أكثر أهل العربية ؛ ذكره الحاس . وقيل : يعذبهم بالنصب في الجمع . وعلى هذا التأويل وقول الحسن لا تقديم فيها ولا تأخير ، وهو حسن . وقيل : المعنى فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله لعذبهم بها في الدنيا لأنهم منافقون ، فهم ينفقون كارهين فيعذبون بما ينفقون . (وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ) نص في أن الله يريد أن يموتوا كافرين ؛ سبق بذلك الفضاء . (وَيَخْلِفُونَ بِأَلْفِهِمْ لِمَنْكُرٍ) بين أن من أخلاق المنافقين الخلف بأنهم مؤمنون . نظيره « إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ » الآية . والفرق الخوف ؛ أى يخافون أن يظهروا ما هم عليه فيقتلوا .

قوله تعالى : لَوْ يَجِدُونَ مَلَجًا أَوْ مَغْرَبًا أَوْ مَدخلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٨﴾

قوله تعالى : (لَوْ يَجِدُونَ مَلَجًا) كذا الوقف عليه . وفي الخط بالعَيْن : الأولى همزة ، والثانية عوض من التنوين ؛ وكذا [رأيت] جرما . والمَلَجُ الحصن ؛ عن قتادة وغيره . ابن عباس : الحرز ؛ وهما سواء . يقال : لجأت إليه لجأ (بالتحريك) وملجأ والتجأت إليه

(١) أول سورة المنافقون . (٢) هذه حارة الجوهرى في صحاحه . قاله في اللسان والقاموس آه يقال لجأ لجأ ، مثل مع ساء . وعلى لجأ مثل فرح مرعا .

بمَنْ . والموضع أيضا لَجًا وَلَجًا . والتَّليعة الإكراه . والجاهة إلى الشيء اضطرده إليه .
والجاءت امرئى إلى الله أسدته . وعمر بن لُحَا التيمي الشاعر ، عن الجوهرى : (أَوْ مَقَارَاتٍ)
جمع مقارة ، من غار بغير . قال الأخفش : ويجوز أن يكون من أغار بغير ، كما قال الشاعر :
المحدثه مُسَانًا وَمُصَبَّحًا^(١) .

قال ابن عباس : المقارات النيران والمراديب ، وهى المواضع التى يستتر فيها ، ومنه غار
الماء وغارت العين . (أَوْ مُدْخَلًا) مفتعل من الدخول ، أى مسلكا تخفى بالدخول فيه ،
وأعاده لاختلاف اللفظ . قال النحاس : الأصل فيه مدخَّل ، قلبت التاء دالا ، لأن الدال
مجهورة والتاء مهموسة وهما من مخرج واحد . وقيل : الأصل فيه مُدْخَلٌ عَلَى مُفْعَلٍ ، كما
فى قراءة أبى^(٢) « أَوْ مُدْخَلًا » ومعناه دخول بعد دخول ، أى قوما يدخلون معهم . المهدوى :
مدخَّلًا من تدخَّل مثل تفعل إذا تكلف الدخول . وعن أبى أيضا مُدْخَلًا من اندخَلَ .
وهو شاذ ، لأن ثلثيه غير متعذ عند سيبويه وأصحابه . وقرأ الحسن وابن أبى إسحاق
وابن محيصن^(٣) « أَوْ مُدْخَلًا » بفتح الميم وإسكان الدال . قال الزجاج : وبقرا « أَوْ مُدْخَلًا »
بضم الميم وإسكان الدال . الأول من دخل يدخل . والثانى من أدخل يدخل . كذا المصدر
والمكان والزمان كما أنشد سيبويه :

مُقَارَ آيِنِ هَمَامٍ عَلَى سَحَى خَنْعَمًا^(٤) .

وروى عن قتادة وعيسى والأعمش « أَوْ مُدْخَلًا » بتشديد الدال والحاء . والجوهر
بتشديد الدال وحدها ، أى مكانا يدخلون فيه أنفُسهم . فهذه ست قراءات . (لَوَلَوْأَ إِلَيْهِ)

(١) تكاد فى الصحاح الجوهرى « التيمى » . والصواب أنه « تيمى » . لأنه من تيم بن عبد ساء بن أذ بن طابخة .
ومات عمر بن لُحَا بالأهواز ، وكان يهاجى جريرا . (عن الشعر والشعراء) . (٢) هذا صدر بيت لأبى بن

أبى الصلت . وبجمره :
بالتخفيف ، روى وساء .

(٣) هذا محزيت لمحمد بن ثور . وصدره :
وماهى إلا فى إزار وشفة .
وصف امرأة كانت صغيرة السن كانت نفس البقرة وهى من لباس الجوارى ، وعن ثوب فتفسير بلا كين تلبسه الصبية
تلبس به ، ويقال له الألب والبقرة ، وكانت تلبس وفات امرأة ابن همام . لى . ١١١١ . وحتم تربة من البر .
(عن شرح الشواهد) .

أَيُّ لُجَعُوا إِلَيْهِ . (وَهُمْ يَخْشَوْنَ) أَيُّ يَسْرِعُونَ ، لَا يَرُدُّ وَجُوهَهُمْ شَيْءٌ . مِنْ جَمْعِ الْفَرَسِ
إِذَا لَمْ يَرِدْهُ الْجَلَامُ . قَالَ الشَّاعِرُ :

سَبَّوحًا جَمُوحًا وَإِحْضَارَهَا • كَمَمَعَةِ السَّعْفِ الْمُؤَقَّدِ^(١)

وَالْمَعْنَى : لَوْ وَجَدُوا شَيْئًا مِنْ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ الْمَذْكُورَةِ لَوَلَّوْا إِلَيْهِمْ سَرْعِينَ هَرَبًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : وَمِنْهُمْ مَّنْ يَلْتَمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا
وَإِنْ لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْتَخْطُونَ ﴿٥٨﴾

قَوْلُهُ تَعَالَى : (وَمِنْهُمْ مَّنْ يَلْتَمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ) أَيُّ يَطْلُبُنْ عَلَيْكَ عَنِ قِسَادَةِ
الْحَسَنِ : بِيَعِيكَ . وَقَالَ عَجَّازٌ : أَيُّ يَرُوزُكَ وَيَسَالُكَ . النَّعَاسُ : وَالْقَوْلُ عِنْدَ أَهْلِ اللُّغَةِ
قَوْلُ قِسَادَةِ وَالْحَسَنِ . يَقَالُ : لَمَزَهُ يَلْمِزُهُ إِذَا عَابَهُ . وَالْأَزْرُ فِي اللُّغَةِ الْعَيْبُ كُلُّ السَّرِّ . قَالَ
الْجَوْهَرِيُّ : الْأَزْرُ الْعَيْبُ ، وَأَصْلُهُ الْإِشَارَةُ بِالْعَيْنِ وَنَحْوُهَا ، وَقَدْ لَمَزَهُ يَلْمِزُهُ وَيَلْمِزُهُ وَقَرِئَ بِهِمَا
« وَمِنْهُمْ مَّنْ يَلْتَمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ » . وَرَجُلٌ لَّمَزَ وَلَمَزَهُ أَيُّ عَيَّبَ . وَيَقَالُ : لَمَزَ يَلْمِزُهُ
إِذَا دَفَعَهُ وَضَرَبَهُ . وَالْمَزْمُ مِثْلُ الْأَزْرِ . وَالْمَاهِزُ وَالْمَاهِزُ الْعَيَّبُ ، وَالْمُزْمَةُ مِثْلُهُ . يَقَالُ : رَجُلٌ مُزْمَرٌ
وَأَسْرَاءُ مُزْمَرَةٌ أَيْضًا . وَمُزْمَرٌ أَيُّ دَفَعَهُ وَضَرَبَهُ . ثُمَّ قِيلَ : الْأَزْرُ فِي الْوَجْهِ ، وَالْمَزْمُ بظُهُورِ الْقَيْبِ .
وَصَفَّ اللَّهُ قَوْمًا مِنَ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّهُمْ عَابُوا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي تَفْرِيقِ الصَّدَقَاتِ ،
وَرَعَمُوا أَنَّهُمْ فَقَرَأَ لِيَعْلَمَهُمْ . قَالَ أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ : بَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
يُقَسِّمُ مَا لَا إِذْ جَاءَهُ حُرْقُوصُ بْنُ زَهْرٍ أَصْلُ الْخَوَارِجِ ، وَيَقَالُ لَهُ ذُو الْخَوْبِصَةِ التَّيْمِيُّ ، فَقَالَ :
إِعْدِلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ . فَقَالَ : « تَوَلَّكَ وَمَنْ يَدُلُّ إِذَا لَمْ أَعْدِلْ » فَتَرَلَّتِ الْآيَةُ . حَدِيثٌ صَحِيحٌ
أُحْرِيهِ مُسْلِمٌ بِمَعْنَاهُ . وَعِنْدَهَا قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : دَعَانِي يَا رَسُولَ اللَّهِ فَأَقْتُلَ
هَذَا الْمُنَافِقَ . فَقَالَ : « مَاذَا اللَّهُ أَنْ يَحْدِثَ النَّاسُ أُنَى أَقْتُلَ أَصْحَابِي إِنَّ هَذَا وَأَصْحَابَهُ يَفْرُونَ
الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ حَتَّى جَرَعَهُمْ يَمْرُقُونَ مِنْهُ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرِّمَّةِ » .

(١) الْبَيْتُ لِأَمْرِئِ الْقَيْسِ . وَالْإِحْضَارُ : الدُّوْرُ . (٢) الرُّوزُ : الْإِسْتِغْنَاءُ وَالْفَقْدُ .

قوله تعالى : وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴿٥٩﴾

قوله تعالى : (وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ) جواب « لو » مخوف ، التقدير لكن خيرا لهم .

قوله تعالى . إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغُرَمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾
فيه ثلاثون مسألة :

الأولى - قوله تعالى : (إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ) خص الله سبحانه بعض الناس بالأموال دون بعض نعمة منه عليهم ، وجعل شكر ذلك منهم إخراج سهم يؤذونه إلى من لا مال له ، نيابة عنه سبحانه فيما ضمنه بقوله : « وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا » .

الثانية - قوله تعالى : (لِلْفُقَرَاءِ) تبيين لمصارف الصدقات والمحل ؛ حتى لا يخرج عنهم . ثم الاختيار إلى من يقسم ؛ هذا قول مالك وأبي حنيفة وأصحابهما . كما يقال : التمرج للدابة والباب للدار . وقال الشافعي : اللام لام التملك ؛ كقولك : المال يزيد وعمرو وبكر ، فلا بد من التسوية بين المذكورين . قال الشافعي وأصحابه : وهذا كما لو أوصى لأصناف معينين أو لقوم معينين . واحتجوا بالphrase « إِنَّمَا » وأنها تقتضي الحصر في وقوف الصدقات على الثمانية الأصناف ، وعضدوا هذا بحديث زياد بن الحارث الصدائي قال : أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يبعث إلى قومي جيشا فقلت : يا رسول الله ، احبس جيشك فإنا لك بإسلامهم وطاعتهم ، وكتبت إلى قومي بقاء إسلامهم وطاعتهم . فقال رسول الله صلى الله عليه

وسلم : " يا أبا سُداء المطاع في قومه " . قال : قلت بل من الله عليهم وهداهم ؛ قال : ثم جاءه رجل يسأله عن الصدقات ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله لم يرض في الصدقات بحكم نبي ولا غيره حتى جزأها ثمانية أجزاء فإن كنت من أهل تلك الأجزاء أعطيتك " رواه أبو داود والدارقطني . واللفظ للدارقطني . وحكى عن زين العابدين أنه قال : إنه تعالى علم قدر ما يدفع من الزكاة وما تقع به الكفاية لهذه الأصناف ، وجعله حقا للجميع ، فمن منهم ذلك فهو الظالم لهم ورقمهم . وتمسك علماؤنا بقوله تعالى : « إِنَّ بُدُّوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفَوْهَا وَتُؤْتَوْهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ » . والصدقة التي أطلقت في القرآن فهي صدقة الفرض . وقال صلى الله عليه وسلم : " أمرت أن آخذ الصدقة من أغنيائكم وأردها على فقرائكم " . وهذا نص في ذكر أحد الأصناف الثمانية قرآنًا وسنة ، وهو قول عمر بن الخطاب وعلي وآبن عباس وحذيفة . وقال به من التابعين جماعة . قالوا : جائز أن يذهبوا إلى الأصناف الثمانية ، وإلى أي صنف منها دفعت جاز . روى المبال بن عمرو عن زر بن حبیش عن حذيفة في قوله : « إنما الصدقات للفقراء والمساكين » قال : إنما ذكر الله هذه الصدقات لتعرف ، وأي صنف منها أعطيت أجزاءك . وروى سعيد ابن جبير عن آبن عباس « إنما الصدقات للفقراء والمساكين » قال : في أيها وضعت أجزاء عنك . وهو قول الحسن وإبراهيم وغيرهما . قال الكيكا الطبري : حتى ادعى مالك الإجماع على ذلك .

قلت : يريد إجماع الصحابة ؛ فإنه لا يعلم لهم مخالف منهم على ما قال أبو عمر ، والله أعلم . آبن العري : والذي جعلناه فصولا بيننا وبينهم أن الأمة أعتقت على أنه لو أعطى كل صنف حقه لم يجب تميمه ، فكذلك تميم الأصناف مثله . والله أعلم .

الطائفة — واختلف علماء اللغة وأهل الفقه في الفرق بين الفقير والمساكين على تسعة أموال : فنهب يعقوب بن السكيت والقبي وبنس بن حبيب إلى أن الفقير أحسن حالا من

المسكين . قالوا : الفقير هو الذي له بعض ما يكفيه وبقية ، والمسكين الذي لا شيء له ؛ واحتجوا بقول الراعي :

أما الفقير الذي كانت حلوته . وفقّ اليسال فلم يُترك له سُدُّ

وذهب الى هذا قوم من أهل اللغة والحديث منهم أبو حنيفة والقاضي عبد الوهاب ، والوفى من الموافقة بين الشئيين كالإجماع ؛ يقال : حلوته وفقّ عياله أى لما لبس قدر كفايتهم لافضل فيه ؛ من الجوهرى . وقال آخرون بالعكس ؛ فجعلوا المسكين أحسن حالا من الفقير . واحتجوا بقوله تعالى : « أَمَّا السَّيْفَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ » . فأنبر أن لم سفينة من سفن البحر . وربما ساوت جملة من المال . وعصده بما روى عن النبي صل الله عليه وسلم أنه تعوذ من الفقر . وروى عنه أنه قال : « اللَّهُمَّ احْنِنِ مَسْكِينًا وَأَمْنِي مَسْكِينًا » .

فلو كان المسكين أسوأ حالا من الفقير لتناقص الخبران ؛ إذ يستحيل أن يتعوذ من الفقر ثم يسأل ما هو أسوأ حالا منه ، وقد استجاب الله دعائه وقبضه وله مال مما أفاء الله عليه ، ولكن لم يكن معه تمام الكفاية ؛ ولذلك ردّ درعه . قالوا : وأما بيت الراعي فلا حجة فيه ؛ لأنه إنما ذكر أن الفقير كانت له حلوة في حال . قالوا : والفقير معناه في كلام العرب المفقور الذي نُزعت فقره من ظهره من شدة الفقر فلا حال أشد من هذه . وقد أخبر الله عنهم بقوله « لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ » . وأستشهدوا بقول الشاعر :

لما رأى كَيْدُ النُّسُورِ تطايرت . رفع الفوائد كالفقر الأعرل^(١)

أى لم يطق الطيران نصار بمثلة من أخطع صلبه ولبص بالأرض . ذهب الى هذا الأصمعي وغيره ، وحكاها الطحاوي عن الكوفيين . وهو أحد قولى الشافعي وأكثر أصحابه . وللشافعي

(١) السبد : الورب . وقيل الشعر . والعرب تقول : ماله سبد ولا ليد ؛ أى ماله ذوبر ولا صوف مثله ؛ ويكنى بها من الإبل والنعم . (٢) آية ٧٩ سورة الكهف . (٣) العفوة (الكسر) والعفوة والعفارة (بضمها) : ما انتخذ من عظام العشب من لدن الكاهن الى العشب . (٤) آية ٢٧٣ سورة البقرة . (٥) البيت لبيد . ولبيد : اسم أكثر شعراء بني عاذة . ساء بذلك لأنه ليد فني لا يذهب ولا يموت . والفوائد : أروح أو عشر ومشات في مقام المنافع ؛ الواحدة فائدة .

قول آخر: أن الثمير والمسكين سواء لافرق بينهما في المعنى وإن اختلفا في الاسم، وهو القول الثالث. وإلى هذا ذهب ابن القيم وسائر أصحاب مالك، وبه قال أبو يوسف.

فنت: ظاهر اللفظ يدل على أن المسكين غير الفقير، وأنهما صفتان، إلا أن أحد الصفتين أشد حاجة من الآخر، فمن هذا الوجه يقرب قول من جعلهما صنفاً واحداً، والله أعلم. ولا حجة في قول من احتج بقوله تعالى: «أَنَا الْغَنِيُّ فكَانَتِ لِمَسْكِينٍ» لأنه يحتمل تكون مستأجرة لهم، كما يقال: هذه دار فلان إذا كان ساكنها وإن كانت لميرة. وقد قال تعالى في وصف أهل النار: «وَلَهُمْ مَقَامٌ مِنْ حَيْدٍ» فأضافها إليهم. وقال تعالى: «وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ» وقال صلى الله عليه وسلم: «من باع عبداً وله مال». وهو كثير جداً يضاف الشيء إليه وليس له. ومنه قولهم: باب الدار. وجعل الدابة، وصرح العرس، وشبهه. ويجوز أن يُسموا مساكين على جهة الرحمة والاستعطاف، كما يقال لمن أمتحن نيكبة أو دفع إلى بية مسكين. وفي الحديث «مساكين أهل النار» وقال الشاعر:

مساكين أهل الحب حتى قبورهم • عليها تراب الدل بين المقابر
وأما ما أولوه من قوله عليه السلام: «اللهم أحيني مسكيناً» الحديث. رواه أنس، فليس كذلك؛ وإنما المعنى ها هنا: التواضع لله الذي لا جبروت فيه ولا نخوة، ولا كبر ولا بطر، ولا تكبر ولا أشر. ولقد أحسن أبو العاتية حيث قال:

إذا أردت شريف القوم كلهم • فأنظر إلى ملك في رضى مسكين
ذاك الذي عظمت في الله رغبته • وذلك يصلح للديار وللدين
وليس بالسائل؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم قد ذكره السؤال ونهى عنه، وقال في امرأة سوداء أبت أن تزول عن الطريق: «دَعُوها فَإِنَّهَا جَبَّارَةٌ». وأما قوله تعالى: «لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أَحْصَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ» فلا يمتنع أن يكون لهم شيء. والله أعلم. وما ذهب إليه أصحاب مالك والشافعي من أنهما سواء حسن. ويقرب منه ما قاله

(١) آية ٢١ سورة الحج: (٢) آية ٥ سورة النساء: (٣) أى مسكينة مائة.

مالك في كتاب ابن مثنون ، قال : الفقير المحتاج المتعفف ، والمسكين السائل ، وروى عن ابن عباس وقوله الزهري ، واختاره ابن سفيان وهو القول الرابع . وقول خامس — قال محمد ابن مسلمة : الفقير الذي له السكن والخادم الى من هو أسفل من ذلك . والمسكين الذي لا مال له .

قلت : وهذا القول عكس ما ثبت في صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو ، وسأله رجل فقال : ألسنا من فقراء المهاجرين ؟ فقال له عبيد الله : ألك امرأة تأوى اليها ؟ قال نعم . قال : ألك مسكن تسكنه ؟ قال نعم . قال : فأنت من الأغنياء . قال : فإن لي خادما ، قال : فأنت من الملوك . وقول سادس — روى عن ابن عباس قال : الفقراء من المهاجرين ، والمساكين من الأعراب الذين لم يجابروا ، وقوله الضحاك . وقول سابع — وهو أن المسكين الذي ينشع ويستكن وإن لم يسأل . والفقير الذي يتحصل ويقبل الشيء سرا ولا ينشع ، قاله عبيد الله بن الحسن . وقول ثامن قاله مجاهد وعكرمة والزهري — المساكين الطوائف ، والفقراء فقراء المسلمين . وقول تاسع قاله عكرمة أيضا — أن الفقراء فقراء المسلمين ، والمساكين فقراء أهل الكتاب . ومياتي .

الرابعة — وهي فائدة الخلاف في الفقراء والمساكين ، هل هما صنف واحد أو أكثر ، تظهر فيمن أوصى بثلث ماله لفلان وللفقراء والمساكين ؛ فن قال هما صنف واحد قال : يكون لفلان نصف الثلث وللفقراء والمساكين نصف الثلث الثاني . ومن قال هما صنفان يقسم الثلث بينهم اثلاثا .

الخامسة — وقد اختلف العلماء في حد الفقر الذي يجوز معه الأخذ — به لإجماع أكثر من يحفظ عنه من أهل العلم — أن من له دارا وخادما لا يستغنى عنهما أن له أن يأخذ من الزكاة ، وللعطي أن يعطيه . وكان مالك يقول : إن لم يكن في ثمن الدار والخادم فضيلة عما يحتاج اليه منهما جاز له الأخذ وإلا لم يميز ؛ ذكره ابن المنذر . ويقول مالك قال البخاري والثوري . وقال أبو حنيفة : من معه عشرون دينارا أو مائتا درهم فلا يأخذ من الزكاة .

فأعتبر الصاب لقوله عليه السلام : "أمرت أن آخذ الصدقة من أغنيائكم وأردّها في ففرائكم". وهذا واضح ، ورواه المغيرة عن مالك . وقال الثوري وأحمد وإسحاق وغيرهم : لا يأخذ من له خمسون درهما أو قدرها من الذهب ، ولا يعطى منها أكثر من خمسين درهما ، إلا أن يكون غارما ، قاله أحمد وإسحاق . وحجة هذا القول ما رواه الدارقطني عن عبد الله بن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " لا تحل الصدقة لرجل له خمسون درهما " . في إسناده عبد الرحمن بن إسماعيل ضعيف ، وعنه بكر بن خنيس ضعيف أيضا . ورواه حكيم ابن جبير عن محمد بن عبد الرحمن بن يزيد عن أبيه عن عبد الله عن النبي صلى الله عليه وسلم نحوه ، وقال : خمسون درهما . وحكيم بن جبير ضعيف تركه شعبة وغيره ، قاله الدارقطني رحمه الله . وقال أبو عمر : هذا الحديث يدور على حكيم بن جبير وهو متروك . وعن علي وعبد الله قالوا : لا تحل الصدقة لمن له خمسون درهما أو قيمتها من الذهب ، ذكره الدارقطني . وقال الحسن البصري : لا يأخذ من له أربعون درهما . ورواه الواقدى عن مالك . وحجة هذا القول ما رواه الدارقطني عن عبد الله بن مسعود قال : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : " من سأل الناس وهو غني جاء يوم القيامة وفي وجهه كدوح وخدوش " . قيل : يا رسول الله وما غناؤه ؟ قال : " أربعون درهما " . وفي حديث مالك عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن رجل من بني أسد فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " من سأل منكم وله أوقية فقد سأل إلحاما والأوقية أربعون درهما " . والمشهور عن مالك ما رواه ابن القاسم عنه أنه سئل : هل يعطى من الزكاة من له أربعون درهما ؟ قال نعم . قال أبو عمر : يحتمل أن يكون الأول قويا على الاكتساب حسن التصرف . والثاني ضعيفا عن الاكتساب ، أو من له عيال . والله أعلم . وقال الشافعي وأبو ثور . من كان قويا على الكسب والتصرف مع قوة البدن وحسن التصرف حتى ينفيه ذلك عن الناس فالصدقة عليه حرام . وأحتج بحديث النبي صلى الله عليه وسلم " لا تحل الصدقة لغني " ولا لدى مرة سوى " رواه عبد الله بن عمر ،

وأخرجه أبو داود والترمذي والذارقطني . وروى جابر قال : جاءت رسول الله صلى الله عليه وسلم صدقة فركبه الناس ، فقال : " إنما لا تصلح لثني ولا لصحيح ولا لامل " أخرجه الذارقطني . وروى أبو داود عن عبيد الله بن عدي بن الحيار قال . أخبرني رجلان أنهما أتيا النبي صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع وهو يقسم الصدقة فسألاه منها ، فرفع فينا النظر وخفضه ، فرأنا جلدتين فقال : " إن شئنا أعطيتكما ولا حظ فينا لثني ولا لقوي " مكتسب " . ولأنه قد صار غنيا بكسبه كثرني غيره بماله فصار كل واحد منهما غنيا عن المسئلة . وقاله ابن خزيمة ، وحكاه عن المذهب . وهذا لا ينبغي أن يقول عليه ، فإن النبي صلى الله عليه وسلم كان يطعمها الفقراء ويقفها على الزمن باطل . قال أبو عيسى الترمذي في جامعه : إذا كان الرجل قويا محتاجا ولم يكن عنده شيء فتصدق عليه اجزا من التصدق عند أهل العلم . ووجه الحديث عند بعض أهل العلم على المسئلة . وقال الكيال الطبري : والظاهر يقتضي جواز ذلك ، لأنه فقير مع قوته وصحة بدنه . وبه قال أبو حنيفة وأصحابه . وقال عبيد الله بن الحسن : من لا يكون له ما يكفيه وبقية سنة فإنه يعطى الزكاة . وحجته ما رواه ابن شهاب عن مالك بن أوس بن الحدثان عن عمر بن الخطاب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يذخر مما آفاه الله عليه قوت سنة ، ثم يجعل ما سوى ذلك في الكراع^(١) والسلاح مع قوله تعالى : « وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى » . وقال بعض أهل العلم : لكل واحد أن يأخذ من الصدقة فيما لا بد له منه . وقال قوم : من عنده عشاء فهو غني ، وروى عن علي . واحتجوا بحديث علي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " من سأل مسألة عن ظهر غنى استكثر بها من رشف جهنم " قالوا : يا رسول الله ، وما ظهر الغنى ؟ قال : " عشاء ليله " . أخرجه الذارقطني وقال : في إسناده عمرو بن خالد وهو متروك . وأخرجه أبو داود عن سهل بن الحنظلية عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وفيه : " من سأل وعنده ما يغنيه فلانما يستكثر من النار " . وقال الفيل في موضع آخر " من جمر جهنم " . فقالوا : يا رسول الله

(١) الكراع (بالضم) : اسم جمع الخيل . وقيل : هراس جمع الخيل والبغال .

وما نغنيه؟ وقال الثعلبي في موضع آخر: وما الثمن الذي لا تنبغي معه المسئلة؟ قال: "قدر ما ينديه ويغنيه". وقال الثعلبي في موضع آخر: "أن يكون له شبع يوم ليلة أوليلة ويوم".

قلت: فهذا ما جاء في بيان الفقر الذي يجوز معه الأخذ. ومطلق لفظ الفقراء لا يقتضي الاختصاص بالمسلمين دون أهل الذمة؛ ولكن تظاهرت الأخبار في أن الصدقات تؤخذ من أغنياء المسلمين قربة في قرائهم. وقال عكرمة: الفقراء فقراء المسلمين. والمساكين فقراء أهل الكتاب. وقال أبو بكر البهي: رأى عمر بن الخطاب ذنباً مكفوفاً مطروحاً على باب المدينة فقال له عمر: مالك؟ قال: استكروني في هذه الجزية، حتى إذا كُف بصري تركوني وليس لي أحد يعود عليّ بنى. فقال عمر: ما أيسفت إذاً، فأمر له بقوته وما يصلحه. ثم قال: هذا من الذين قال الله تعالى: «إنما الصدقات للفقراء والمساكين» الآية. وهم زعموا أهل الكتاب. ولما قال تعالى: «إنما الصدقات للفقراء والمساكين» الآية، وقابل الجملة بالجملة وهي جملة الصدقة بجملة المصرف بين النبي صلى الله عليه وسلم ذلك، فقال لما ذه حين أرسله إلى اليمن: «أخبرهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم قربة في قرائهم». فأختص أهل كل بلد بركاة بلده. وروى أبو داود أن زياداً أو بعض الأمراء بعث عمران بن حصين على الصدقة، فلما رجع قال لعمران: أين المال؟ قال: ولا لى أرسلنى! أخذناها من حيث كنا نأخذها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ووضعناها حيث كنا نضعها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم. وروى الثاقفاني والترمذي عن عوف بن أبي جميلة^(١) عن أبيه قال: قدم علينا مصنف النبي صلى الله عليه وسلم فأخذ الصدقة من أغنيائنا فجعلها في قرائنا فكنت غلاماً يتبعنا فأعطاني منها قلوصاً. قال الترمذي: وفي الباب عن ابن عباس حديث ابن أبي جهمية حديث حسن.

(١) زيادة عن سنن الدارقطني والترمذي.

السادسة - وقد اختلف العلماء في نقل الزكاة عن موضعها على ثلاثة أقوال :
 لا تنقل ؛ قاله ثُخُون وآبَن القاسم ، وهو الصحيح لما ذكرناه . قال ابن القاسم أيضا : وإن نُقل
 بمسما لضرورة رأيت صوابا ، ورؤى عن ثُخُون أنه قال : ولو بلغ الإمام أن يعمد البلاد حاجة
 شديدة جازله نقل بعض الصدقة المستحقة لغيره إليه ؛ فإن الحاجة إذا تزلت وجب تقديمها على
 من ليس يحتاج " والمسلم أخو المسلم لا يظلمه " ^(١) ، والقول الثاني تنقل . وقاله مالك أيضا .
 وحجة هذا القول ما روى أن معاذ قال لأهل اليمن : إيتوني بجحيس أو ليس أخذه منكم مكان الذرة
 والشعر في الصدقة فإنه أسرع عليكم وأنفع للمهاجرين بالمدينة . أخرجه الدارقطني وغيره .
 والجحيس لفظ مشترك ، وهو ها التوب طوله خمس أذرع . ويقال : سبي بذلك لأن أول
 من عملته الجحيس ملك من ملوك اليمن ؛ ذكره ابن فارس في المحجمل والجوهري أيضا . وفي هذا
 الحديث دليلان : أحدهما - ما ذكرناه من نقل الزكاة من اليمن إلى المدينة ؛ فيتولى النبي
 صلى الله عليه وسلم قسمها . ويتصد هذا قوله تعالى : « إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاء » ولم يفضل بين
 فقير بلد وفقير آخر . والله أعلم . الثاني - أخذ القيمة في الزكاة . وقد اختلفت الرواية عن
 مالك في إخراج القيم في الزكاة ؛ فأجاز ذلك مرة ومنع منه أخرى ، فوجب الجواز . وقال
 أبو حنيفة بهذا الحديث . وثبت في صحيح البخاري من حديث أنس عن النبي صلى الله عليه
 وسلم " من بلغت عنده [من الإبل] صدقة الجندعة وليست عنده [جذعة] ^(٢) وعنده حقة فإنه
 تؤخذ منه وما استبرأ من شاتين أو عشرين درهما " . الحديث . وقال صلى الله عليه وسلم :
 " أغنهم عن سؤال هذا اليوم " يعني يوم الفطر . وإنما أراد أن يُغنى بما يسد حاجتهم ،
 فأى شيء سد حاجتهم جاز . وقد قال تعالى : « حَتَّى مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةٌ » ولم يخص شيئا من
 شيء . ولا يدفع عند أبي حنيفة سُكْنَى دار بدل الزكاة ؛ مثل أن يجب عليه خمسة دراهم
 فأسكن فيها فقيرا شهرا فإنه لا يجوز . قال : لأن السكنى ليس بمال .

(١) أى لا يظلم مع من يؤذيه بل يجبه . (٢) الزيادة من صحيح البخاري .

(٣) في البخاري : « فأنها تغل من الحقة ويحمل بها شاتين إن استبرأنا له أو عشرين درهما » .

(٤) آية ١٠٣ من هذه السورة .

وجه قوله « لا تجزيه القيم » - وهو ظاهر المذهب - فلان النبي صلى الله عليه وسلم قال : « في خمس من الإبل شاة وفي أربعين شاة شاة » فنص على الشاة ، فإذا لم يأت بها لم يأت بأمور به ، وإذا لم يأت بالأمور به فالأمر باقي عليه .

القول الثالث - وهو أن سهم الفقراء والمساكين يقسم في الموضع ، وسائر السهام تنقل باجتهاد الإمام . والقول الأول أصح . والله أعلم .

السابعة - وهل المتبر مكان المال وقت تمام الحول فتفرق الصدقة فيه ، أو مكان المالك إذ هو المخاطب ، قولان . واختار الثاني أبو عبد الله محمد بن خُوَيْرَمَتَاد في أحكامه قال : لأن الإنسان هو المخاطب بإخراجها فصار المال تبعاً له ، فيجب أن يكون الحكم فيه بحيث المخاطبة . كإن السبل فانه يكون غنياً في بلده فقيراً في بلد آخر ، فيكون الحكم له حيث هو .

مسئلة - واختلفت الرواية عن مالك فيمن أعطى فقيراً مسلماً فأكتشف في ثاني حال أنه أعطى عبداً أو كافراً أو غنياً ، فقال مرة : تجزيه ومرة لا تجزيه . وجه الجواز - وهو الأصح - ما رواه مسلم عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « قال رجل لأتصدقن الليلة بصدقة نخرج بصدقة فوضعها في يد زانية فأصبحوا يتحدثون تُصدق الليلة على زانية قال اللهم لك الحمد على زانية لأتصدقن بصدقة نخرج بصدقة فوضعها في يد غني فأصبحوا يتصدقون تُصدق على غني قال اللهم لك الحمد على غني لأتصدقن بصدقة نخرج بصدقة فوضعها في يد سارق فأصبحوا يتحدثون تُصدق على سارق فقال اللهم لك الحمد على زانية وعلى غني وعلى سارق فأني قليل له أما صدقتك فقد قبلت أما الزانية فلملها تستعف بها عن زناها ولعل النبي يتبر فينقذ مما أعطاه الله ولعل السارق يستعف بها عن سرقته » . وروى أن رجلاً أخرج زكاة ماله فأعطاه أباه ، فلما أصبح علم بذلك ، فسأل النبي صلى الله عليه وسلم فقال له : « قد كُتِبَ لك أجر زكاتك وأجر صلة الرحم فلَكَ أجران » . ومن جهة المعنى أنه سوغ له الاجتهاد في المعطى ، فإذا اجتهد وأعطى من بطنه من أهلها فقد أتى بالواجب عليه .

ووجه قوله « لا يجزى » أنه لم يضمها في مستحقها، فأشبه العمد، ولأن العمد والخطأ في صمان الأموال واحد فوجب أن يضم ما أُلْف على المساكين حتى يوصله إليهم .

الثامنة - فإن أخرج الزكاة عند محلها فهلكت من غير تقييد لم يضم، لأنه وكيل للمنفق . فإن أخرجها بعد ذلك بمدة فهلكت حينئذٍ، لتأخيرها عن محلها فعلققت بذمته فلذلك ضمن . والله أعلم .

التاسعة - وإذا كان الإمام يعدل في الأخذ والصرف لم يَسْغ لئلا أن يتولى الصرف بنفسه في الناض ولا في غيره . وقد قيل : إن زكاة الناض على أربابه . وقال ابن المايثون : ذلك إذا كان الصرف للفقراء والمساكين خاصة، فإن احتج إلى صرفها لغيرهما من الأصناف فلا يفزق عليهم إلا الإمام . وفروع هذا الباب كثيرة، هذه أهمها .

العاشرة - قوله تعالى : (وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهِ) يعني السعاة والجبّة الذين يبعثهم الإمام لتحصيل الزكاة بالتوكّل على ذلك . روى البخاري عن أبي حميد الساعدي قال : استعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلاً من الأنشد على صدقات بني سليم يدعى ابن التنية^(١)، فلما جاء حاسبه . واختلف العلباء في المقدار الذي يأخذونه على ثلاثة أقوال : قال مجاهد والشافعي : هو الثن . ابن عمر ومالك : يُعطون قدر عملهم من الأجرة ، وهو قول أبي حنيفة وأصحابه . قالوا : لأنه عطل نفسه لمصلحة الفقراء ، فكانت كفايته وكفاية أعوانه في ما لهم ؛ كالمرأة لما عطلت نفسها لحق الزوج كانت نفقتها وأتباعها من خادم أو خادمين على زوجها . ولا تعدّر بالثن ، بل تعتبر الكفاية ثَمّاً كان أو أكثر ، كزق الفاضل . ولا تعتبر كفاية الأعوان في زماننا لأنه إسراف محض . القول الثالث - يُعطون من بيت المال . قال ابن العربي : وهذا قول صحيح عن مالك بن أنس من رواية ابن

(١) الناض من المال : هو الدرهم والدينار وإنما يسمى ناضاً إذا تحول فداً بعد أن كان متاعاً .

(٢) اختلف في ضيقه ؛ فقليل يضم اللام وسكون التاء ، وسكى ضمها . وقيل يضم اللام المتناة . والله عبد الله ، وكان من بني تميم حتى غلب الأزد . وقيل : التنية أنه .

أبي أُويس وداود بن سعيد بن زنبوعة ، وهو ضعيف دليلاً ؛ فإن الله سبحانه قد أخبر بسهمهم فيها نصّاً فكيف يخفون عنه استقراء وسبّاً . والصحيح الاجتهاد في قدر الأجرة ؛ لأن البيان في تعديد الأصناف إنما كان للعلل لا للمستحق ، على ما تقدم .

وأختلفوا في العامل إذا كان هاشمياً ؛ فمنه أبو حنيفة لقوله عليه السلام : " إن الصدقة لا تدخل لآل محمد إنما هي أوساخ الناس " . وهذه صدقة من وجه ؛ لأنها جزء من الصدقة فالحق بالصدقة من كل وجه كرامة وتزويها لقراءة رسول الله صل الله عليه وسلم عن عُصاة الناس . وأجاز عمله مالك والشافعي ، ويُعطى أجر عمّاله ؛ لأن النبي صل الله عليه وسلم بعث عليّ بن أبي طالب مصدقاً ، وبثه عاملاً إلى اليمن على الزكاة ، وولّى جماعة من بني هاشم وولّى الخلفاء بعده كذلك . ولأنه أُعير على عمل مباح فوجب أن يستوى فيه الهاشمي وغيره اعتباراً بسائر الصناعات . قالت الحنفية : حديث عليّ ليس فيه أنه فرض له من الصدقة ، فإن فرض له من غيرها جاز . وروى عن مالك .

الحادية عشرة — ودل قوله تعالى : ﴿ وَالْعَامِلِينَ فِيهَا ﴾ على أن كل ما كان من فروض الكفايات كالساعي والكاظم والقسام والمناشر وغيرهم فالتائم به يجوز له أخذ الأجرة عليه . ومن ذلك الإمامة ؛ فإن الصلاة وإن كانت متوجهة على جميع الخلق فإن تقدم بعضهم من فروض الكفاية ، فلا جرم يجوز أخذ الأجرة عليها . وهذا أصل الباب ، وإليه أشار النبي صلى الله عليه وسلم بقوله : " ما تركت بعد نفقة نسائي ومؤنة عاملي فهو صدقة " قاله ابن العربي .

الثانية عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ ﴾ لا ذكر للوظيفة فلوهم في التنزيل في غير قسم الصدقات وهم قوم كانوا في صدر الإسلام ممن يظهر الإسلام ، يتألفون بدفع سهم من الصدقة إليهم لضعف يقينهم . قال الزهري : المؤلفة من أسلم من يهودي أو نصراني وإن كان غنياً . وقال بعض المتأخرين : اختلف في صفتهم ؛ قيل : هم صنف من الكفار

يعطون لئالْفوا على الإسلام، وكانوا لا يُسلمون بالقهر والسيف، ولكن يسلمون بالعتاء والإحسان. وقيل: هم قوم أسلموا في الظاهر ولم تَسْتِيقْ قلوبهم، فَيُعْطَوْنَ لِتُمْكِنِ الإسلام في صدورهم. وقيل: هم قوم من عظماء المشركين لم أتباع يُعطون لئالْفوا أتباعهم على الإسلام. قال: وهذه الأقوال متقاربة، والقصد بجميعها الإعطاء لمن لا يُمْكِنُ إسلامه حَقِيقَةً إِلَّا بِالْعَطَاءِ؛ فكانه ضربٌ من الجهاد. والمشركون ثلاثة أصناف: صنف يرجع بإقامة البرهان. وصنف بالقهر. وصنف بالإحسان. والإمام الناظر للمسلمين يستعمل مع كل صنف ما يراه سببا لنجاته وتخليصه من الكفر. وفي صحيح مسلم من حديث أنس، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم - أَعْنَى لِلْأَنْصَارِ - : "فَإِنِّي أُعْطِي رَجُلًا حَدِيثِي عَهْدٍ بِكَفَرٍ أَنَا لَهُمْ" الحديث.. قال ابن إسحاق: أعطاهم بآلتهم ويتألف بهم قومهم. وكانوا أشرافا، فأعطى أبا سفيان بن حرب مائة بغير، وأعطى ابنه مائة بغير، وأعطى حَكِيمَ بْنَ حِرَافَةَ مائة بغير، وأعطى الحارث بن هشام مائة بغير، وأعطى سُهَيْلَ بْنَ عَمْرٍو مائة بغير، وأعطى حُوَيْطِبَ بْنَ عَبْدِ الْمُزَى مائة بغير، وأعطى صفوان بن أمية مائة بغير. وكذلك أعطى مالك بن عوف والملاء بن جارية. قال: فهؤلاء أصحاب المؤمنين. وأعطى رجلا من قريش دون المائة منهم محمرة بن نوفل الزهري، وعمر بن وهب الجني، وهشام بن عمرو العامري. قال ابن إسحاق: فهؤلاء لا أعرف ما أعطاهم. وأعطى سعيد بن رِيُوحَ بنِ عَمْرِو بْنِ عَسَا، وأعطى عباس بن مرداس السَّكَنِيَّ ابْنًا قَلِيلَةً فَخِطَلَهَا. فقال في ذلك.

كَانَتْ نِيهَاً تَلَايَتَهَا • بَجَوَى عَلَى الْمُتَهَرِّقِ الْأَجْرِ
وَأَخَاطِلِ الْقَوْمِ أَنْ يَرْفَعُوا • لَمَّا فَجَّ النَّاسَ لَمْ أَجْع
فَأَصْبَحَ نَهْيٌ وَنَهْيُ الْعَيْدِ بْنِ عَيْنَةَ وَالْأَفْرَعِ
وَقَدْ كُنْتُ فِي الْحَرْبِ فَاتَّقِرًا • فَلَمْ أَصْطَ شَيْئًا وَلَمْ أَمْنَعْ

(١) الأبرج: المكان الواسع الذي فيه حُرُوفٌ وعَشْرَةٌ. (٢) العبد (صغير): اسم فرس عباس بن مرداس. (٣) فَوَقْدَرَا (بضم الدال): أي ذو هجرم لا يتوقى ولا يهاب؛ فقه قوة على دفع أعدائه.

إِلَّا أَفَاسِلَ أُعْطِيَتْهَا • عِدِيدَ قَوَائِمِهِ الْأَرْبَعُ^(١)
 وَمَا كَانَ حِصْنٌ وَلَا حَائِصٌ • يَفْضُو قَانِ مِرْدَاسٍ فِي الْمَجْمَعِ
 وَمَا كُنْتُ دُونَ أُخْرَى مِنْهُمَا • وَمَنْ يَضَعُ الْيَوْمَ لَا يُرْقِعُ

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " اذْهَبُوا فَأَقْطَعُوا عَنِّي لِسَانَهُ " • فَأَعْقَبُوهُ حَتَّى رَضِيَ ؛
 فَكَانَ ذَلِكَ قَطْعَ لِسَانِهِ . قَالَ أَبُو عَمْرٍو : وَقَدْ ذُكِرَ فِي الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمُ النَّصِيرُ بْنُ الْحَارِثِ بْنِ عُلْقَمَةَ
 ابْنَ كَلْدَةَ ، أَخُو النَّضْرِ بْنِ الْحَارِثِ الْمَقْتُولِ بِسَدْرٍ صَبْرًا . وَذَكَرَ آخَرُونَ أَنَّهُ فِيمَنْ هَاجَرَ إِلَى
 الْحَبَشَةِ ؛ فَإِنْ كَانَ مِنْهُمْ فِعَالٌ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ ؛ وَمَنْ هَاجَرَ إِلَى أَرْضِ الْحَبَشَةِ
 فَهُوَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ الْأَوَّلِينَ مِنْ رَجْعِ الْإِيمَانِ فِي قَلْبِهِ وَقَاتَلَ دُونَهُ ، وَلَيْسَ مِنْ يُؤَلَّفَ عَلَيْهِ ،
 قَالَ أَبُو عَمْرٍو : وَاسْتَعْمَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَالِكَ بْنَ عَوْفٍ بْنِ سَعْدِ النَّضْرِيِّ
 عَلَى مَنْ أَسْلَمَ مِنْ قَوْمِهِ مِنْ قِبَائِلِ قَيْسَ ، وَامْرَأَهُ بِمُخَاوَرَةٍ ثَقِيفٍ فَفَعَلَ وَضَيَّقَ عَلَيْهِمْ ، وَحَسُنَ
 إِسْلَامُهُ وَإِسْلَامُ الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ ، حَاشَا عَيْنَةَ بْنِ حِصْنٍ فَلَمْ يَزَلْ تَقْمُوزًا عَلَيْهِ^(٢) . وَسَاطِرُ الْمُؤَلَّفَةِ
 مُتَفَاضِلُونَ ، مِنْهُمْ أَخِيرُ الْفَاضِلِ الْمَجْتَمِعِ عَلَى فَضْلِهِ ، كَالْحَارِثِ بْنِ هِشَامٍ ، وَحَكِيمِ بْنِ حِرَامٍ ،
 وَعِكْرَمَةَ بْنِ أَبِي جَهْلٍ ، وَسَبِيلَ بْنِ عَمْرٍو ، وَمِنْهُمْ دُونَ هَؤُلَاءِ . وَقَدْ فَضَّلَ اللَّهُ النَّبِيَّينَ وَسَاطِرَ
 عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَهُوَ أَعْلَمُ بِهِمْ . قَالَ مَالِكٌ : لَفَنِي أَنْ حَكِيمِ بْنِ حِرَامٍ أُخْرِجَ
 مَا كَانَ أُعْطَاهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ فَتَصَدَّقَ بِهِ بَعْدَ ذَلِكَ .

قُلْتُ : حَكِيمِ بْنِ حِرَامٍ وَحُوَيْطِبِ بْنِ عَبْدِ الْعَزْزِيِّ عَاشَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةً وَعَشْرِينَ
 سَنَةً ، سَتَيْنِ فِي الْإِسْلَامِ وَسَتَيْنِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ . وَسَمِعْتُ شَيْخَنَا الْحَافِظَ أَبَا مُحَمَّدٍ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ يَقُولُ :
 شَخْصَانِ مِنَ الصَّحَابَةِ عَاشَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ سَتِينَ سَنَةً وَفِي الْإِسْلَامِ سَتِينَ سَنَةً ، وَمَا نَا بِالْمَدِينَةِ سَنَةً
 أَرْبَعٍ وَخَمْسِينَ ؛ أَحَدُهُمَا حَكِيمِ بْنِ حِرَامٍ ، وَكَانَ مَوْلَاهُ فِي جَوْفِ الْكَعْبَةِ قَبْلَ عَامِ الْفِيلِ ثَلَاثَ
 عَشْرَةِ سَنَةً . وَالثَّانِي حَسَانُ بْنُ ثَابِتٍ بْنِ الْمَذَرِ بْنِ حِرَامِ الْأَنْصَارِيِّ . وَذَكَرَ هَذَا أَيْضًا أَبُو عَمْرٍو
 وَعِيَانُ الشَّهْرُزُورِيُّ فِي كِتَابِ مَعْرِفَةِ أَنْوَاعِ عِلْمِ الْحَدِيثِ لَهُ ، لَمْ يَذْكُرَا غَيْرَهُمَا ، وَحُوَيْطِبُ ذَكَرَهُ

(١) الْأَفَاسِلُ : صَارِدَاتُ الْإِبِلِ • (٢) الْمَقْمُوزُ : الْقَتْلُ •

أبو الفرج الجوزي في كتاب الوفا في شرف المصطفى . وذكره أبو عمر في كتاب الصحابة أنه أدرأه الإسلام وهو ابن ستين سنة ، ومات وهو ابن مائة وعشرين سنة . وذكر أيضا حمتن بن عوف أخو عبد الرحمن بن عوف ، أنه عاش في الإسلام ستين سنة وفي الجاهلية ستين سنة وقد عُدَّ في المؤلفات قلوبهم معاوية وأبوه أبو سفيان بن حرب . أما معاوية فيبعد أن يكون منهم ؛ فكيف يكون منهم وقد اثنى النبي صلى الله عليه وسلم على وحى الله وقرآته وخطه بنفسه . وأما حاله في أيام أبي بكر فاشهر من هذا وأظهر . وأما أبوه فلا كلام فيه أنه كان منهم . وفي عددهم اختلاف ، وبالجملة فكلهم مؤمن ولم يكن فيهم كافر مل ما تقدم ، والله أعلم وأحكم .

الثالثة عشرة - واختلف العلماء في بقائهم ؛ فقال عمر والحسن والشعبي وغيرهم : انقطع هذا الصنف بزم الإسلام وظهوره . وهذا مشهور من مذهب مالك وأصحاب الرأي . قال بعض علماء الحنفية : لما أعز الله الإسلام وأهله وقطع دابر الكافرين - لعنهم الله - اجتمعت الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين في خلافة أبي بكر رضى الله عنه على سقوط سهمهم . وقال جماعة من العلماء : هم باقون ؛ لأن الإمام ربما احتاج أن يستألف على الإسلام . وإنما قطعهم عمر لما رأى من إعزاز الدين . قال يونس : سألت الزهري عنهم فقال : لا أعلم نسخا في ذلك . قال أبو جعفر النحاس : فعلى هذا الحكم فيهم ثابت ، فإن كان أحد يحتاج إلى تألفه ويخاف أن تلحق المسلمين منه آفة ، أو يرجى أن يحسن إسلامه بعد دفع إليه . قال القاضي عبد الوهاب : إن احتيج إليهم في بعض الأوقات أعطوا من الصدقة . وقال ابن العربي : الذي عندي أنه إن قوى الإسلام زالوا ، وإن احتيج إليهم أعطوا سهمهم كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعطيهم ؛ فإن في الصحيح : "بدأ الإسلام غربيا وسعدو كما بدأ" .

الرابعة عشرة - فإذا فرغنا على أنه لا يُرد إليهم سهمهم فإنه يرجع إلى سائر الأصناف أو ما يراه الإمام . وقال الزهري : يُعطى نصف سهمهم لتمام المساجد . وهذا مما يدل على أن الأصناف الثانية محل لا مستحقون تسوية ؛ ولو كانوا مستحقين لنقط سهمهم بسقوطهم ولم يرجع إليهم ، كما لو أوصى لقوم معين فمات أحدهم لم يرجع نصيبه إلى من بقي منهم . والله أعلم .

الخامسة عشرة - قوله تعالى : ﴿ وَفِي الرِّقَابِ ﴾ أى فى فَكِّ الرِّقَابِ ؛ قاله ابن عباس وابن عمر ؛ وهو مذهب مالك وغيره . فيجوز للإمام أن يشتري رقياً من مال الصدقة يستفها عن المسلمين ؛ ويكون ولاؤهم لجماعة المسلمين . وإن اشتراهم صاحب الزكاة وأعتقهم جاز . هذا تحصيل مذهب مالك ، وروى عن ابن عباس والحسن ، وبه قال أحمد وإسحاق وأبو عبيد . وقال أبو ثور : لا يتناع منها صاحب الزكاة قسمة يستفها بجمرة ولا . وهو قول الشافعي وأصحاب الرأي ورواية عن مالك . والصحيح الأول ؛ لأن الله عز وجل قال : « وفي الرقاب » فإذا كان للرقاب سهم من الصدقات كان له أن يشتري رقبة فيعتفها . ولا خلاف بين أهل العلم أن للرجل أن يشتري الفرس فيحمل عليه في سبيل الله . فإذا كان له أن يشتري فرسا بالكمال من الزكاة جاز أن يشتري رقبة بالكمال ، لا فرق بين ذلك . والله أعلم .

السادسة عشرة - قوله تعالى : ﴿ وَفِي الرِّقَابِ ﴾ الأصل فى الولاة ؛ قال مالك : هى الرقبة تنقى وولاؤها للمسلمين ، وكذلك ان أعتفها الإمام . وقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن بيع الولاة وعن هبته . وقال عليه السلام : « الولاة ثمة كحمة النسب لا يباع ولا يوهب » . وقال عليه السلام : « الولاة لمن أعتق » . ولا ترث النساء من الولاة شيئاً ، لقوله عليه السلام : « لا ترث النساء من الولاة شيئاً الا ما أعتفن أو أعتق من أعتفن » وقد ورث النبي صلى الله عليه وسلم ابنة حمزة من مولى لما النصف ولابنته الصف . فإذا ترك الميت أولاداً ذكوراً وإناثاً فالولاة للذكور من ولده دون الإناث . وهو إجماع الصحابة رضى الله عنهم . والولاة إنما يورث بالنصيب المحض ، والنساء لا تنصيب فيهن فلم يرثن من الولاة شيئاً . فانهن نصيب .

السابعة عشرة - وأختلف هل يمان منها المكاتب ؛ فقبل لا . روى ذلك عن مالك ؛ لأن الله عز وجل لما ذكر الرقبة دل على أنه أراد العتق الكامل ، وأما المكاتب فإما هو داخل فى كلمة الفارين بما عليه من دين الكتابة ، فلا يدخل فى الرقاب . والله أعلم . وقد روى عن مالك من رواية المدنيين وزيد عنه : أنه يمان منها المكاتب فى آخر كتابته بما يعتق .

وعلى هذا جمهور العلماء في تأويل قول الله تعالى : « وفي الرقاب » . وبه قال ابن وهب
والشافعي والليث والتخفي وغيرهم . وحكى على بن موسى القمي الحنفى في أحكامه : أنهم
أجمعوا على أن المكاتب مراد . واختلفوا في عتق الرقاب ؛ قال ليكا الطبرى : « وذكر وجهاً^(١)
بينه في منع ذلك فقال : إن العتق إبطال ملك وليس بتملك ، وما يدفع إلى المكاتب تملك ،
ومن حق الصدقة ألا يجزى إلا إذا جرى فيها التملك . وقوى ذلك بأنه لو دفع من الزكاة عن
الغرم في دينه غير أمره لم يجزه من حيث لم يملك فلان لا يجزى ذلك في العتق أولى . وذكر
أن في العتق جزاء الولاء إلى نفسه وذلك لا يحصل في دفعه للمكاتب . وذكر أن ثمن العبد إذا
دفعه إلى العبد لم يملكه العبد ، وإن دفعه إلى سيده فقد ملكه العتق . وإن دفعه بعد الشراء
والعتق فهو قايض ديناً وذلك لا يجزى في الزكاة » .

قلت : قد ورد حديث ينص على معنى ما ذكرنا من جواز عتق الرقبة وإعانة المكاتب
مما ، أخرجه الدارقطني عن البراء قال : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : دُلِّي
على عمل يغفر بي من الجنة ويباعدني من النار . قال : « لئن كنت أقصرت الخطبة لقد
أعرضت المسألة أعتق النسمة وفك الرقبة » . فقال : يا رسول الله ، أليست واحداً ؟ قال :
« لا ، يتحقق النسمة أن تتفرد بعتقها وفك الرقبة أن تبين في ثمنها » وذكر الحديث .

الثامنة عشرة — واختلفوا في فك الأسارى منها ؛ فقال أصبغ : لا يجوز . وهو قول
ابن القاسم . وقال ابن حبيب : يجوز ؛ لأنها رقبة ملكت بملك الرق ففى تخرج من رقب إلى
عتق ، وكان ذلك أحق وأولى من فكالك الرقاب الذى بالدين ؛ لأنه إذا كان فك المسلم عن
رق المسلم عبادة وجازاً من الصدقة ، فأخرى وأولى أن يكون ذلك في فك المسلم عن رقب
الكافر وذلك .

التاسعة عشرة — قوله تعالى : (وَالْقَارِئِينَ) هم الذين ركبهم الدين ولا وفاء عندهم به ،
ولا خلاف فيه . اللهم إلا من أذن في سفاهة فإنه لا يعطى منها ولا من غيرها إلا أن يتوب .

(١) أى القسي . (٢) الذى في أحكام القرآن ليكا : « وذكر وجهاً بينة في منع ذلك ، منها أنه
العتق ... الخ » . (٣) أى جنت بالخطبة قصيرة وبالمسألة واسعة كثيرة .

وَيُعْطَى مِنْهَا مَنْ لَهُ مَالٌ وَعَلَيْهِ دَيْنٌ حَيْثُ بِهِ مَا يَفْضَى بِهِ دَيْنُهُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ مَالٌ وَعَالِيهِ دَيْنٌ فَهُوَ فَقِيرٌ وَغَارِمٌ يُعْطَى بِالْوَصْفَيْنِ . روى مسلم عن أبي سعيد الخدري قال : أصيب رجل في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم في ثمار أبتاعها فكثر دينه . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "تصدقوا عليه" . فتصدق الناس عليه فلم يبلغ ذلك وفاء دينه . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لغرمائه : "خذوا ما وجدتم لى ليس لكم إلا ذلك" .

الموقية عشرين - ويجوز للتحمل في صلاح وإن يعطى من الصدقة ما يؤذى ما تحمل به إذا وجب عليه وإن كان غنياً ، إذا كان ذلك يُخفف بماله كالغريم . وهو قول الشافعي وأصحابه وأحمد بن حنبل وغيرهم . واحتج من ذهب هذا المذهب بحديث قبيصة بن عمار قال : تحملت ^(١) حاملةً فأنبت النبي صلى الله عليه وسلم أساله فيها فقال : " أتم حتى تأتينا الصدقة فأنمر لك بها - ثم قال - يا قبيصة إن المسالة لا تحمل إلا لأحد ثلاثة رجل تحمل حاملة غلت له المسالة حتى يصيبها ثم يمك ورجل أصابته جامعة أجتاحت ماله غلت له المسالة حتى يصيب قواماً من عيش - أو قال يداً من عيش - ورجل أصابته فاقة حتى يقوم ثلاثة من ذوى النجاشة من قومه لقد أصابت فلانة فاقةً غلت له المسالة حتى يصيب قواماً من عيش - أو قال سداً من عيش - فساووهن من المسالة يا قبيصة مُحْتَأً^(٢) يأكلها صاحبها مُحْتَأً^(٣) . فقوله : " ثم يمك " دليل على أنه غني ، لأن الفقير ليس عليه أن يمك . والله أعلم . وروى عنه عليه السلام أنه قال : " إن المسالة لا تحمل إلا لأحد ثلاثة ذوى فقر مُدْقِع^(٤) أو لذى غُرْم مُقْطِع^(٥) أو لذى دم مُوجِع^(٦) . وروى عنه عليه السلام : " لا تحمل الصدقة لنفسي إلا لأخيه " الحديث . وسياق .

(١) الحالة (بالفتح) : ما يجعله الإنسان عن غيره من دية أو عرامة ؛ مثل أن تقع حرب بين فريقين تسبب فيها الدماء ، فيحمل بينهم رجل يحمل ديات القتل ليعالج ذات اللين . والتحمل : أن يحملها عنهم بل نفسه . (عن الهبة لابن الأثير) .
(٢) أى حتى يقوموا على دوس الأسياد قاطنين : إن فلا ما أصابت فافة الخ
(٣) كما رواية مسلم : أى اعتقه ستمائة أو يترك ستمائة . وفي غير مسلم راجع . (٤) الدفع : التشديد ، يقضى صاحبه إلى الفداء ، ومن الزام . وقيل : هو سوء احتمال الفقر .
(٥) المطلق : التشديد التبع .
(٦) هو أن يحمل دية فينسى بها حتى يردّها إلى أولياء القتل ؛ فإن لم يردّها قتل المتحمل عنه فيروى عنه قتله .

الحذية والمشرون - واختلوا، هل يُغنى منها دين الميت أم لا ؛ فقال أبو حنيفة : لا يؤدي من الصدقة دين ميت . وهو قول ابن المَوَاز . قال أبو حنيفة : ولا يعطى منها من عليه كفارة ونحو ذلك من حقوق الله تعالى ، وإنما العامر من عليه دين يُسجن فيه . وقال علماءنا وغيرهم : يقضى منها دين الميت لأنه من الفاسدين ، قال صلى الله عليه وسلم : "أما أولي بكل مؤمن من نفسه من ترك مالا فلاخله ومن ترك ديناً أو ضيقاً مالاً وعمل" .

الثانية والمشرون - قوله تعالى : (وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ) هم الزناة وموضع الرباط ، يعطون ما يفتقون في غزورهم كانوا أغنياء أو فقراء . وهذا قول أكثر العلماء ، وهو تحصيل مذهب مالك رحمه الله . وقال ابن عمر : الجحاح والمعار . ويؤثر عن أحمد وإسحاق رحمهما الله أنهما قالاً : سبيل الله الحج . وفي البخاري : ويذكر عن أبي لابس : حلنا إلى صلى الله عليه وسلم على إبل الصدقة للحج ، ويذكر عن ابن عباس : يُغنى من [زكاة ^(١)] مالاً ويعطى في الحج . خرج أبو محمد عبد الغني الحافظ حدثنا محمد بن محمد الخياش حدثنا أبو غسان مالك بن يحيى حدثنا يزيد بن هارون أخبرنا مهدي بن ميمون عن محمد بن أبي يعقوب عن عبد الرحمن ابن أبي نعيم ويكنى أبا الحكم قال : كنت جالسا مع عبد الله بن عمر فأنته امرأة فقالت له : يا أبا عبد الرحمن ، إن زوجي أوصى بماله في سبيل الله . قال ابن عمر : فهو كال في سبيل الله . فقلت : أما زدتها فيما سألت عنه إلا غمًّا . قال : فما تأمرني يا ابن أبي نعيم ، أمرها أن تدفعه إلى هؤلاء الجيوش الذين يخرجون في الأرض ويقطعون السبيل ! قال : قلت فما تأمرها . قال : أمرها أن تدفعه إلى قوم صالحين ، إلى حجاج بيت الله الحرام ، أولئك وفد الرحمن ، أولئك وفد الرحمن ، أولئك وفد الرحمن ، ليسوا كوفد الشيطان ، ثلاثا يقولها . قلت : يا أبا عبد الرحمن ، وما وفد الشيطان ؟ قال : قوم يدخلون على هؤلاء الأمراء فيتمون إليهم الحديث ، ويسمعون في المسامير بالكذب ، فيجازون الجوائز ويعطون عليه العطايا .

(١) الذباج (الفتح) : الديار وأصله مصدر ضاع بضع ضياعا ، معنى الديار بالمصدر كما تقول : مر مات

وزك فتراه أي فتراه . (٢) الزيادة من صحيح البخاري .

وقال محمد بن عبد الحكم : ويعطى من الصدقة في الكراع والسلاح وما يحتاج إليه من آلات الحرب ، وكف العدو عن الحوزة ؛ لأنه كله من سبيل التزود ومنفعته . وقد أعطى النبي صلى الله عليه وسلم مائة ناقة في نازلة سهل بن أبي حنيفة إطفاء للنائرة .

قلت : أخرج هذا الحديث أبو داود عن بشير بن يسار ، أن رجلا من الأنصار يقال له سهل بن أبي حنيفة أخبره أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وداه مائة من إبل الصدقة ، يعني دية الأنصاري الذي قُتل بجحر . وقال عيسى بن دينار : تحمل الصدقة لغاز في سبيل الله ، قد احتاج في غزواته وغنائمه عناه ووفره . قال : ولا تحمل لمن كان معه ماله من العزاة ، إنما تحمل لمن كان ماله غائبا عنه منهم . وهذا مذهب الشافعي وأحمد وإسحاق وجمهور أهل العلم . وقال أبو حنيفة وصاحبه : لا يُعطى الغازي إلا إذا كان فقيرا منقطعا به . وهذه زيادة على النص ، وإزالة عدد على النص نسخ ، والنسخ لا يكون إلا بقرآن أو خبر متواتر ، وذلك معدوم هنا ، بل في صحيح السنة خلاف ذلك من قوله عليه السلام : " لا تحمل الصدقة لنبي إلا نخسة لغازي في سبيل الله أو لعامل عليها أو لعارم أو لرجل اشتراها بماله أو لرجل له جار مسكين فتصدق على المسكين فأهدى المسكين للنبي " . رواه مالك مرسل عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار . ورواه معمر عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم . فكان هذا الحديث مفسرا لمعنى الآية ، وأنه يجوز لبعض الأغنياء أخذها ، ومفسرا لقوله عليه السلام : " لا تحمل الصدقة لنبي ولا لذي مِرَّة سيئة " لأن قوله هذا يحمل ليس على عمومهِ بدليل الخمسة الأغنياء المذكورين . وكان ابن القاسم يقول : لا يجوز لنبي أن يأخذ من الصدقة ما يستعين به على الجهاد وينفقه في سبيل الله ، وإنما يجوز ذلك لفقير . قال : وكذلك العارم لا يجوز له أن يأخذ من الصدقة ما بقي به ماله ويؤدى منها دينه وهو عنها غني . قال : وإذا احتاج الغازي في غزواته وهو غني له مال غاب عنه لم يأخذ من الصدقة شيئا ويستفرض ، فإذا بلغ بلده أدى ذلك من ماله . هذا كله ذكره ابن حبيب عن ابن القاسم ، وزعم أن ابن نافع وغيره خالفوه في ذلك . وروى أبو زيد وغيره

عن ابن النسيم أنه قال : يُعطى من الزكاة الفاري وإن كان معه في غزاته ما يكفيه من ماله وهو سني في بلده . وهذا هو الصحيح ؛ لظاهر الحديث : " لا تدخل الصدقة لغنى الالهة " .
وروى ابن وهب عن مالك أنه يعطى منها الغزاة ومواضع الزمات فقراء كانوا أو أعياء .
الثالثة والعشرون - قوله تعالى : (زَوَّيْنِ السَّبِيلِ) السبيل الطريق ؛ وكُسب المسافر إليها للائزمتها إياها ومرووره عليها ؛ كما قال الشاعر :

إن تسألوني عن الحموي فاما الحموي • وابن الحموي وأخو الحموي وأموه

والمراد الذي انقطعت به الأسباب في سفره عن بلده ومستقره وماله ؛ فإنه يعطى منها وإن كان غنياً في بلده ، ولا يلزمه أن يشعل ذمته بالسلف . وقال مالك في كتاب ابن محبوب : إذا وجد من يسلفه فلا يعطى . والأول أصح ؛ فإنه لا يلزمه أن يدخل تحت منة أحد وقد وجد منة الله تعالى . فإن كان له ما يقنيه في جواز الأخذ له لكونه ابن السبيل روايتان : المشهور أنه لا يعطى ؛ فإن أخذ فلا يلزمه رده إذا صار إلى بلده ولا إخراج .

الرابعة والعشرون - فإن جاء وأدعى وصفاً من الأوصاف ، هل يقبل قوله أم لا ويقال له أثبت ما تقول . فاما الدين فلا بد أن يثبت ، وأما سائر الصفات فظاهر الحال يشهد له ويمكن به فيها . والدليل على ذلك حديثان صحيحان أخرجهما أهل الصحيح ، وهو ظاهر القرآن . روى مسلم عن جرير ^(١) عن أبيه ^(٢) قال : كما عند النبي صلى الله عليه وسلم في صدر النهار ، قال : بغاء قوم حفاة عراة مجتأى الخمار ^(٣) أو القباء متقلدي السيوف ، عاتقهم من مضر بل كلهم من مضر ، فتمعر وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم لما رأى بهم من الفاقة ، فدخل ثم خرج فامر بلالا فأذن وأقام فصلى ، ثم خطب فقال : " يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم - الآية الى قوله - رقيقاً " والآية التي في الحشر " ولتنظر نفس ما قدمت لغني " تصدق رجل من ديناره من درهمه من ثوبه من صاع ره - حتى قال - ولو بشق تمرة " قال : بغاء رجل

(١) زيادة عن صحيح مسلم . (٢) اجتناب القبيص : فيه ، والنار (كسر اللون) : كل شاة محطلة من ماز والأعراب ؛ كأنها أخذت من لون النمر لها من السواد والياص . (٣) تمر : تمر .

من الأنصار بَصْرَةَ كادت كَفَّهُ تَمَيَّزَ عنها بل قد عجزت ، قال : ثم تنابح الناس حتى رأيت
كُوثَمِينَ من طعام وثياب ، حتى رأيت وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم يتהלَّى كأنه مُدْبِجَةٌ^(١)
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من سَنَّ في الإسلام سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ
عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَجُورِهِمْ شَيْءٌ وَمَنْ سَنَّ في الإسلام سُنَّةً سَيِّئَةً كَانَ عَلَيْهِ
وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوزَارِهِمْ شَيْءٌ " . فاكْنَفَى صلى الله
عليه وسلم بظَاهِرِ حَالِهِمْ وَحَثَّ عَلَى الصَّدَقَةِ ، وَلَمْ يَطْلُبْ مِنْهُمْ بَيِّنَةً ، وَلَا اسْتَقْصَى هَلْ عِنْدَهُمْ
مَالٌ أَمْ لَا . ومثله حديث أُرْصَ وَأَفْرَعُ وَأَعْمَى أخرجه مسلم وغيره . وهذا لفظه : عَنِ
أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ : " إِنْ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ أُرْصَ
وَأَفْرَعُ وَأَعْمَى فَأَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَنْتَلِيَهُمْ فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ مَلَكًا فَأَتَى الْأُرْصَ فَقَالَ أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ
فَقَالَ لَوْ أَنَّ حَسَنَ وَجِلْدِي حَسَنَ وَيَذْهَبُ عَنِّي الَّذِي قَدْ قَذَرَنِي النَّاسُ قَالَ فَسَحِهْ فَذْهَبَ عَنْهُ قَذَرُهُ
وَأَعْطَى لَوْنًا حَسَنًا وَجِلْدًا حَسَنًا قَالَ فَأَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ قَالَ الْإِبِلُ — أَوْ قَالَ الْبَقَرُ ، شَكَ
إِسْحَاقُ ، إِلَّا أَنَّ الْأُرْصَ أَوْ الْأَفْرَعَ قَالَ أَحَدُهُمَا الْإِبِلُ وَقَالَ آخَرُ الْبَقَرِ — قَالَ فَأَعْطَى نَاقَةً
عُشْرَاءُ قَالَ بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِيهَا قَالَ فَأَيُّ الْأَفْرَعِ فَقَالَ أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ قَالَ شَعْرُ حَسَنَ
وَيَذْهَبُ عَنِّي هَذَا الَّذِي قَدْ قَذَرَنِي النَّاسُ قَالَ فَسَحِهْ فَذْهَبَ عَنْهُ قَالَ فَأَعْطَى شَعْرًا حَسَنًا قَالَ
فَأَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ قَالَ الْبَقَرُ فَأَعْطَى بَقْرَةً حَامِلًا قَالَ بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِيهَا قَالَ فَأَيُّ الْأَعْمَى
فَقَالَ أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ قَالَ أَنْ يَرُدَّ اللَّهُ إِلَيَّ بَصْرِي فَأَبْصُرَ بِهِ النَّاسُ قَالَ فَسَحِهْ فَزَدَ اللَّهُ إِلَيْهِ
بَصْرَهُ قَالَ فَأَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ قَالَ النَّمْلُ فَأَعْطَى شَاةً وَالِدًا فَأَنْتَجَحَ هَذَانِ وَوَلَدَ هَذَا قَالَ
فَكَانَ لِهَذَا وَاِدٌّ مِنَ الْإِبِلِ وَلِهَذَا وَاِدٌّ مِنَ الْبَقَرِ وَلِهَذَا وَاِدٌّ مِنَ النَّمْلِ قَالَ ثُمَّ إِنَّهُ أَتَى الْأُرْصَ
فِي صُورَتِهِ وَهَيْئَتِهِ فَقَالَ رَجُلٌ بِمَكِينٍ قَدْ انْقَطَعَتْ بِي الْخِيَالُ فِي سَفَرِي فَلَا بَلَغَ لِي الْيَوْمَ إِلَّا
بِاتِهِ وَبِكَ أَسْأَلُكَ بِالَّذِي أَعْطَاكَ اللَّوْنَ الْحَسَنَ وَالْجِلْدَ الْحَسَنَ وَالْمَالَ بَعِيرًا أَنْتَلَجَ عَلَيْهِ فِي سَفَرِي

(١) أي فضة مزمزة يذهب في إثرائه . (٢) كما في الأصول وصحيح مسلم . ورواية البخاري :
« شك إسحاق في ذلك أن الأُرس » بغير لفظ « إلا » . (٣) أي صاحب الإبل والبقرة .
(٤) الخيال : جمع خيل . والمراد الأسباب التي يخطئها في طلب الرزق .

فقال له الحفوق كثيرة فقال له كَأَنِّي أَعْرِفُكَ لَمْ تَكُنْ أَبْرَصَ يَقْدَرُكَ النَّاسُ فَقِيراً فَأَعْطَاكَ اللَّهُ
فَقَالَ إِنَّمَا وَرِثْتُ هَذَا الْمَالَ كَأَيُّرًا عَنْ كَارٍ فَقَالَ إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا فَصَبْرُكَ اللَّهُ إِلَى مَا كُنْتَ
فَقَالَ وَأَيُّ الْأَفْرَعِ فِي صُورَتِهِ فَقَالَ لَهُ مِثْلَ مَا قَالَ لِهَذَا وَرَدَّ عَلَيْهِ مِثْلَ مَا رَدَّ عَلَى هَذَا فَقَالَ
إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا فَصَبْرُكَ اللَّهُ إِلَى مَا كُنْتَ تَالِ وَأَيُّ الْأَنْعَمَى فِي صُورَتِهِ وَهَيْئَتِهِ فَقَالَ رَجُلٌ مَسْكِينٌ
وَابْنُ سَبِيلٍ انْقَطَعَتْ بِي الْحَبَالُ فِي سَفَرِي فَلَا بَلَاغَ لِي الْيَوْمَ إِلَّا بِاللَّهِ ثُمَّ بَكَ أَسْأَلُكَ بِالَّذِي رَدَّ
عَلَيْكَ بِصَبْرِكَ شَاءَ أَنْتَلِجَ بِهَا فِي سَفَرِي فَقَالَ قَدْ كُنْتُ أَعْمَى فَرَدَّ اللَّهُ إِلَيَّ بَصْرِي نَفْذًا مَا شِئْتُ
وَدَعُ مَا شِئْتُ فَوَاللَّهِ لَا أَجْهَدُكَ الْيَوْمَ شَيْئًا أَخَذْتَهُ فَهُوَ فَقَالَ أُمَيْكَ مَالُكَ فَنَامَا أَبَيْتَيْتُمْ فَقَدْ رَضِيَ
عَنْكَ وَنُحِيطَ عَلَى صَاحِبَيْكَ . وفي هذا أدل دليل على أن من أَدْعَى زِيَادَةً عَلَى فَقْرِهِ مِنْ عِيَالٍ
أَوْ غَيْرِهِ لَا يَكْتَفِ عَنْهُ خِلَافًا لِمَنْ قَالَ يُكْتَفَى عَنْهُ إِنْ قَدَرَ فَإِنَّ فِي الْحَدِيثِ "فَقَالَ رَجُلٌ
مَسْكِينٌ وَابْنُ سَبِيلٍ أَسْأَلُكَ شَاءَ" وَلَمْ يَكْلَفْهُ إِثْبَاتَ السَّفَرِ . فَمَا الْمَكْتَابُ فَإِنَّهُ يَكْلَفُ إِثْبَاتَ
الْكِتَابَةِ لِأَنَّ الرِّقَّ هُوَ الْأَصْلُ حَتَّى شَتَّ الْحَرِيَّةَ .

الخامسة والعشرون - ولا يجوز أن يعطى من الزكاة من تلزمه نفقته وهم الوالدان والولد
والزوجة . وإن أعطى الإمام صدقة الرجل لولده ووالده وزوجته جاز . وأما أن يتناول ذلك
هو بنفسه فلا ؛ لأنه يسقط بها عن نفسه فرضاً . قال أبو حنيفة : ولا يعطى منها ولد ابنه
ولا ولد ابنته ، ولا يعطى منها مكاتبه ولا مدمره ولا أم ولده ولا عبداً اعتق نصفه ؛ لأنه مأمور
بالإيشاء والإخراج إلى الله تعالى بواسطة كَفِّ الْفَقِيرِ ، ومَنَعَ الْأَمْلاكِ مَشْرُوكَةً بَيْنَهُ وَبَيْنَ
هَؤُلَاءِ ؛ وَلِهَذَا لَا يَقْبَلُ شَهَادَةُ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ . قال : والمكاتب عبد ما بقي عليه درهم وربما
يسجز فيصير الكسب له . ومعتق البعض عند أبي حنيفة بمنزلة المكاتب . وعند صاحبيه أبي
يوسف ومحمد بمنزلة حر عليه دين فيجوز أداؤها إليه .

السادسة والعشرون - فإن أعطاه لمن لا تلزمه نفقته فقد اختلف فيه ؛ فمنهم من
جوزوه ومنهم من كرهه . قال مالك : خوف المحمدة . وحكى مطرّف أنه قال : رأيت
مالكا يعطى زكاته لأقاربه . وقال الواقدي . قال مالك : أفضل من وضعت فيه زكائك

قربانك الذين لا تقول . وقال صلى الله عليه وسلم لزوجة عبد الله بن مسعود : " لك أجران أجر الزانية وأجر الصدقة " . واختلفوا في إعطاء المرأة زكاتها لزوجها ، فذكر ابن حبيب أنه كان يستعين بالفقعة عليها بما يعطيه . وقال أبو حنيفة : لا يجوز ، وحالته أصحابه فقالا : يجوز . وهو الأصح لما ثبت أن زينب أمراء عبد الله أنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : إني أريد أن أنصدق على زوجي أبي حمزة ؟ فقال عليه السلام : " لك أجران أجر الصدقة وأجر القرابة " . والصدقة المثلثة هي الزكاة ، ولأنه لا نفقة للزوج عليها ؛ فكان بمنزلة الأجنبي . اعتل أبو حنيفة فقال : منافع الأملك بينهما مشتركة ، حتى لا تنقلب شهادة أحدهما لصاحبه . والحديث محمول على التطوع . وذهب الشافعي وأبو ثور وأشباه إلى إجازة ذلك ، إذا لم يصره إليها فيما يلزمه له ، وإنما يصرف ما يأخذه منها في نفقته وكسوته على نفسه وينفق عليها من ماله .

السابعة والعشرون — واختلفوا أيضا في قدر المعطى ؛ فالغارم يعطى قدر دينه ، والفقير والمسكين يعطيان كفايتهما وكفاية عياله . وفي جواز إعطاء النصاب أو أقل منه خلاف يبنى على الخلاف المتقدم في حد النفر الذي يجوز معه الأخذ . وروى علي بن زياد وابن نافع : ليس في ذلك حد ، وإنما هو على اجتهد الوالي . وقد تنقل المساكين وتكثر الصدقة فعطى الفقير قوت سنة . وروى المغيرة : يعطى دون النصاب ولا يلبسه . وقال بعض المتأخرين : إن كان في البلد زكاتان فقد حررت أخذ ما يبلغه إلى الأخرى . قال ابن العربي : الذي أراه أن يعطى نصابا ، وإن كان في البلد زكاتان أو أكثر ؛ فإن الفرض إغناء الفقير حتى يصير غنيا . فإذا أخذ ذلك فإن حضرت الزكاة الأخرى وعنده ما يكفيه أخذها غيره .

قلت : هذا مذهب أصحاب الرأي في إعطاء النصاب . وقد كره ذلك أبو حنيفة مع الجواز ، وأجازه أبو يوسف ؛ قال : لأن بعضه لحاجته مشغول للحال ، فكان الفاضل عن حاجته للحال دون المساكين ، وإذا أعطاه أكثر من مائة درهم جملة كان الفاضل عن حاجته للحال قدر المساكين فلا يجوز . ومن متأخري الحنفية من قال : هذا إذا لم يكن له عيال .

ولم يكن عليه دين، فإن كان عليه دين فلا بأس أن يعطيه مائتي درهم أو أكثر، مقدار
الوفس به دينه يبقى له دون المائتين. وإن كان مبيعاً لا بأس أن يعطيه مقدار ما لو وزع
على عياله أصاب كل واحد منهم دون المائتين، لأن التصديق عليه في المعنى تصديق عليه وعلى
ماله. وهذا قول حسن.

التامة والعشرون - اعلم أن قوله تعالى: (لِلْفُقَرَاءِ) مطابق ليس فيه شرط وتيديد،
بل فيه دلالة على جواز الصرف إلى جملة الفقراء كانوا من بني هاشم أو غيرهم؛ إلا أن السنة
وردت باعتبار شروط: منها ألا يكونوا من بني هاشم، وألا يكونوا ممن لا يلزم التصديق نفقته.
وهذا لا خلاف فيه. وشرط ثالث ألا يكون قوياً على الاكتساب، لأنه عليه السلام قال: "لا
تحل الصدقة للثني ولا لذي مرة سوى". وقد تقدم القول فيه. ولا خلاف بين علماء
المسلمين أن الصدقة المفروضة لا تحل للثني صلى الله عليه وسلم، ولا لبني هاشم ولا لمواليهم.
وقد روى عن أبي يوسف جواز صرف صدقة الهاشمي للهاشمي؛ حكاه الكيا الطبري.
وشذ بعض أهل العلم فقال: إن موالى بني هاشم لا يحرم عليهم شيء من الصدقات. وهذا خلاف
الثابت عن النبي صلى الله عليه وسلم فإنه قال لأبي رافع موله: "وإن مولى القوم منهم".

التاسعة والعشرون - واختلفوا في جواز صدقة التطوع لبني هاشم؛ فالذي عليه جمهور
أهل العلم - وهو الصحيح - أن صدقة التطوع لا بأس بها لبني هاشم ومواليهم؛ لأن علياً والعباس
وفاطمة رضوان الله عليهم تصدقوا وأوقفوا أوقافاً على جماعة من بني هاشم، وصدقائهم الموقوفة
معروفة مشهورة. وقال ابن الماسيئون ومُطَرِّف وأَصْبَغ وابن حبيب: لا يعطى بنو هاشم
من الصدقة المفروضة ولا من التطوع. وقال ابن القاسم: يعطى بنو هاشم من صدقة
التطوع. قال ابن القاسم: والحديث الذي جاء: "لا تحل الصدقة لآل عبد" إنما ذلك
في الزكاة لا في التطوع. وأختار هذا القول ابن خُوَزَيْمَتَاد، وبه قال أبو يوسف وعبد.
قال ابن القاسم: ويُعطى موالىهم من الصدقتين. وقال مالك في الواضحة: لا يعطى لآل عبد
من التطوع. قال ابن القاسم: - قيل له يعني مالكا - فواللهي؟ قال: لا أدري ما الموالى.

فاحتجبت عليه بقوله عليه السلام : "مَوَى القوم منهم" . فقال قد قال : "ابن أخت النّوم منهم" . قال أصحّ : وذلك في البرّ والحرمّة .

الموقية ثلاثين - قوله تعالى : (قَرِيبَةً مِّنَ اللَّهِ) بالنصب على المصدر عند سيبويه . أى مرض الله الصدقات فريضة . ويموز الرفع على القطع في قول الكسائي ؛ أى هن فريضة . قال الزجاج : ولا أعلم [أنه] قرئ به .

قلت : قرأ بها إبراهيم بن أبي عبلة ، جعلها خبراً ، كما تقول : إنما زيد خارج .

قوله تعالى : وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَّكَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣١﴾

بين تعالى أن في المفاقين من كان يسط لسانه بالوقعة في أذية النبي صلى الله عليه وسلم ويقول : إن عاتني حلفت له بأني ما قلت هذا فيقبله ؛ فإنه أُذُنٌ سامعة . قال الجوهري : يقال رجل أذن إذا كان يسمع مقال كل أحد ؛ يستوى فيه الواحد والجمع . وروى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى « هو أذن » قال : مستمع وقابل . وهذه الآية نزلت في عتاب بن قشير ، قال : إنما عهد أذن يقبل كل ما قيل له . وقيل : هو تبثّل بن الحارث ، قاله ابن اسحاق . وكان تبثّل رجلاً جسياً نأثر شعر الرأس والحنية ، آدم أحر العينين أسمع الخلد بن مشوة الخلقة ، وهو الذي قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم : "من أراد أن ينظر إلى الشيطان فلي نظر إلى تبثّل بن الحارث" . السّفعة (بالضم) : سواد مشرب بجمرة . والرجل أسمع ، عند الجوهري . وقرئ « أذن » بضم الدال وسكونها . (قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَّكَ) أى هو أذن خير لا أذن شر ؛ أى يسمع الخير ولا يسمع الشر . وقرأ « قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَّكَ » بالرفع والتنوين ، الحسن وعاصم في رواية أبي بكر . والباقون بالإضافة . وقرأ حمزة « ورحة » بالخفض . والباقون بالرفع عطف على « أذن » ، واتقدير : قل هو أذن خير وهو رحمة ،

أى هو مستمع خير لا مستمع شر؛ أى هو مستمع ما يجب استماعه، وهو رحمة. ومن خاضع فعل المطف على « خير ». قال النحاس : وهذا عند أهل العربية بعيد؛ لأنه قد نباعد ما بين الآتين، وهذا يقع في المخفوض المهدوى : ومن جر الرحمة فعل المطف على « خير » والمعنى مستمع خير ومستمع رحمة ؛ لأن الرحمة من الخير . ولا يصح عطف الرحمة على المؤمنين ؛ لأن المعنى يصدق بالله ويصدق المؤمنين ؛ فاللام زائدة في قول الكوفيين . ومثله « رَبِّهِمْ رَحِيمٌ » أى يرحمون ربهم . وقال أبو علي : هو كقوله « رَبِّفْ لَكُمْ »^(١) وهى عند المبرد متعلقة بمصدر دل عليه الفعل ، التقدير : إيمانه للمؤمنين ؛ أى تصديقه للمؤمنين لا للكفار . أو يكون محولا على المعنى ؛ فإن معنى يؤمن يصدق ، فعذى باللام كما عذى في قوله تعالى : « مُصَدِّقًا لِّبَيْنِ يَدَيْهِ » .

قوله تعالى : يَخْلُقُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيَرْضَوْكُمْ وَآلَهُ وَرَسُولَهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿١٦﴾
فيه ثلاث مسائل :

الأولى - روى أن قوما من المنافقين اجتمعوا ، فيهم الجلاس بن سويد ووديع بن ثابت ، وفيهم غلام من الأنصار يدعى عامر بن قيس ، فحقروه فتكلموا وقالوا : إن كان ما يقول محمد حقا لنحن شر من الخير . فغضب الغلام وقال : والله إنما يقول حق وأنتم شر من الخير ؛ فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم بقولهم ، فلفوا أن عامرا كاذب ؛ فقال عامر : هم الكذبة ، وحلف على ذلك وقال : اللهم لا تغفر بيننا حتى يتبين صدق الصادق وكذب الكاذب . فأنزل الله هذه الآية وفيها « يَخْلُقُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيَرْضَوْكُمْ » .

الثانية - قوله تعالى : (وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ) إبداء وخبر . ومذهب مبيوه أن التقدير : والله أحق أن يرضوه ورسوله أحق أن يرضوه ؛ ثم حذف ؛ كما قال :

نحن بما عندنا وأنت بما • عندك راضٍ والرائى غنيلٌ

وقال محمد بن يزيد : ليس في الكلام محذوف ، والتقدير : والله أحق أن يرضوه ورسوله ، على التقديم والتأخير . وقال الفراء : المعنى ورسوله أحق أن يرضوه ، والله أفتاح كلام ، كما تقول : ما شاء الله وشئت . قال النحاس : قول سيويه أولاهما ؛ لأنه قد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم النهي عن أن يقال : ما شاء الله وشئت ، ولا يقدر في شيء تقديم ولا تأخير ، ومعناه صحيح :

قلت : وقيل إن الله سبحانه جعل رضاه في رضاه ؛ ألا ترى أنه قال : « مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ » . وكان الزبيح بن خيثم ^(١) إذا مر بهذه الآية وقف ، ثم يقول : رَفُّ وأيمًا حرف ، فوض إليه فلا يأمرنا إلا بخير .

الثالثة — قال علماؤنا : تضمنت هذه الآية قبول بين الخالف وإن لم يلزم المحلوف له الرضا . واليمين حق للذمعي . وتضمنت أن يكون اليمين بالله عز وجل حسب . وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « مَنْ حَلَفَ فَلْيَحْلِفْ بِاللَّهِ أَوْ لَيْسَ مِنْ حَلْفٍ لَهُ فَلْيَصْطِقْ » . وقد مضى القول في الإيمان والأستثناء فيها مستوف في المسألة .

قوله تعالى : أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ ﴿١٣﴾

قوله تعالى : (أَلَمْ يَعْلَمُوا) يعني المنافقين . وقرا أين حرّموا الحسن « تعلموا » بالاء على الخطأ . (أنه) في موضع نصب بيعلموا ، والهاء كناية عن الحديث . (مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ) في موضع رفع بالابتداء . والمخاداة : وقوع هذا في حدّ ودالك في حدّ كالمشاقّة . يقال : حادّ فلان فلانا أي صار في حدّ غير حدّه . (فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ) يقال : ما بعد العاء في الشرط مبتدأ ؛ فكان يجب أن يكون « فَإِنَّ » بكسر الميمزة . وقد أجاز الحليل وسيويه « فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ » بالكسر . قال سيويه : وهو جيد وأنشد :

(١) آية ٨٠ سورة النساء . (٢) راجع ٦ ص ٢٦٤ طبعه أملا أوتانية .

وعلى إندام المياه فلم تزل . قلائص تحدى في طريق طلائع
 وأنى إذا ملت ركابي مآخها . فأنى على حظي من الأمر جاح^(١)
 إلا أن قراءة العامة «فان» بفتح الفاء . فقال الخليل أيضا وسيويه : إن «أن» الثانية مبدلة
 من الأولى . وزعم المبرد أن هذا القول مردود، وأن الصحيح ما قاله الحرشي، قال : إن
 الثانية مكررة للتوكيد لما طال الكلام، وبظيره «وعم في الآخرة هم الآخرون»^(٢) . وكذا
 «فكان عاقبتهم أنهما في النار خالدَيْن فيها»^(٣) . وقال الأخفش : المعنى فوجوب النار له .
 وانكسر المبرد وقال : هذا خطأ من أجل إن «أن» المفتوحة المشددة لا يبتدأ بها ويضمر
 الخبر . وقال علي بن سليمان : المعنى فالواجب أن له نار جهنم . فان الثانية خبر ابتداء
 محذوف . وقيل : التقدير فله أن له نار جهنم . فان مرفوعة بالاستقرار على إحصاء المجرور
 بين القباء وإن .

قوله تعالى : يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تَنْزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ
 بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزَؤْا إِنَّ اللَّهَ مُحَرِّجُ مَا تُحَدِّثُونَ ﴿١١﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأول - قوله تعالى : (يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ) خبر وليس بأمر . ويدل على أنه خبر
 أن ما بعده «إِنَّ اللَّهَ مُحَرِّجُ مَا تُحَدِّثُونَ» لأنهم كفروا عنادا . وقال السدي : قال
 بعض المنافقين والله وددت لو أنى قدمت بغلبلت مائة ولا ينزل فيسا شيء يفضحنا ؛
 فنزلت الآية . يحذر : أى يتحز . وقال الزجاج : معناه ليحذر ؛ فهو أمر ؛ كما يقال :
 يفعل ذلك .

(١) البتار لا يميل . وشاهد فيها كسر «ب» الثانية . والأندام : المياه المنيرة لقلعة الوارد ، واحدها سدم .
 وتحدى : تسرع . والطلائع : المية لطول السير . ومضى «ملت ركابي مآخها» : توالى سعيها وأراحها فيه
 وأوتخاها . والخاض : المضى على وجهه . أى لا يكسر طول السير ولكنى أمضى قدما لما أرجوه من الخلق أمرى .
 (عمر شرح التواهد) . (٢) آية سورة النمل . (٣) آية ١٧ سورة الحشر .

الثانية - قوله تعالى : (اَنْ تُرَلَّ عَلَيْهِمْ) « اَنْ » في موضع نصب ، أى من أن ترل . ويجوز على قول سيويه أن تكون في موضع خفض على حذف من . ويجوز أن تكون في موضع نصب معولة ليجذرا لأن سيويه أحاز : حذرت زيادا وأشد :

حَذَرُ أُمُورٍ لَا تَصِيرُ وَأَمْنٌ • مَا لَيْسَ مُجِيبَهُ مِنَ الْأَفْدَارِ

ولم يجزه المبدء لأن الحذر شيء في الهيئة . ومعنى (عليهم) أى على المؤمنين (سورة) في شأن المنافقين تجربهم بخازيهم ومساوئهم ومثالبهم ، ولهذا سُمِّيَت الفاحصة والمنيرة والمبصرة ، كما تقدم أول السورة . وقال الحسن : كان المسلمون يسمون هذه السورة الفارة لأنها حفرت ما في قلوب المنافقين فاطهرته .

الثالثة - قوله تعالى : (قُلْ أَسْتَزِرُّوْا) هذا أمر وعيد وتهديد . (إِنْ اللَّهُ يُخْرِجْ) أى مظهر (مَا تَحْذَرُونَ) ظهوره . قال ابن عباس : أنزل الله أسماء المنافقين وكانوا سبعين رجلا ، ثم نسخ تلك الأسماء من القرآن رافة منه ورحمة ، لأن أولادهم كانوا مسلمين والاس يعبر بعضهم بعضا . فعلى هذا قد أنجز الله وعده بإطهاره ذلك إذ قال : « إِنْ اللَّهُ يُخْرِجْ مَا تَحْذَرُونَ » . وقيل : لإخراج الله أنه عرّف نية عليه السلام أحوالهم وأسماءهم لا أنها نزلت في القرآن ، ولقد قال الله تعالى : « وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ » وهو نوع إمام . وكان من المنافقين من يتردد ولا يقطع بتكذيب محمد عليه السلام ولا بصدقه . وكان فيهم من يعرف صدقه ويعانده .

قوله تعالى : وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِإِلَهِهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٥﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى - هذه الآية نزلت في غزوة تبوك . قال الطبري وغيره عن قتادة : بينا النبي

صلى الله عليه وسلم يسير في غزوة تبوك وركب من المنافقين يسبيرون بين يديه فقالوا

(١) آية ٣٠ سورة محمد .

انظروا ، هذا يفتح قصور الشام ويأخذ حصون بني الأصفر ! فاطلمه الله سبحانه على ما في قلوبهم وما يتحدثون به ، فقال : " احبسوا على الزك - ثم اتاهم فقال - قتلتم كذا وكذا " خلفوا : ما كنا إلا نخوض ونلعب ؛ يريدون كما غير مجدين . وذكر الطبري عن عبد الله بن عمر قال : رأيت قاتل هذه المقالة ودبعة بن ثابت متعلقا بحقبة ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم يمشيها والمجارة تنكيه وهو يقول : إنما كنا نخوض ونلعب . والنبي صلى الله عليه وسلم يقول « يَا أَيُّهَا وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ » . وذكر النفاس أن هذا المتعلق كان عبد الله بن أبي بن سلول . وكذا ذكر القشيري عن ابن عمر . قال ابن عطية : وذلك خطأ ؛ لأنه لم يشهد تبوك . قال القشيري : وقبل إنما قال عليه السلام هذا لودعة بن ثابت وكان من المنافقين وكان في غزوة تبوك . والنخوض : الدخول في الماء ، ثم استعمل في كل دخول فيه تلويث وأذى .

الثانية - قاله القاضي أبو بكر بن العربي : لا يخلو أن يكون ما قالوه من ذلك جدًا أو هزلًا ، وهو كيفما كان كفر ؛ فإن الهزل بالكفر كفر لا خلاف فيه بين الأمة . فإن التحقيق أخو العلم والحق ، والهزل أخو الباطل والجهل . قال علماؤنا : انظر إلى قوله « أَتَتَّخِذُنَا هُزُوءًا قَالِ أَعِزِّدْ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ » .

الثالثة - واختلف العلماء في الهزل في سائر الأحكام كالبيع والنكاح والطلاق على ثلاثة أقوال : لا يلزم مطلقا . يلزم مطلقا . بالفرقة بين البيع وغيره . فيلزم في النكاح والطلاق ؛ وهو قول الشافعي في الطلاق قولًا واحدًا . ولا يلزم في البيع . قال مالك في كتاب محمد : يلزم نكاح المازل . وقال أبو زيد عن ابن القاسم في المتنية : لا يلزم . وقال علي بن زياد : يفسخ قبل وبعد . وللشافعي في بيع المازل قولان . وكذلك يخرج من قول علماؤنا القولان . وحكى ابن المنذر الإجماع في أن يحد الطلاق وهما له سواء . وقال بعض المتأخرين من أصحابنا : إن انفقا على الهزل في النكاح والبيع لم يلزم ؛ وإن آخفا غلب الحد الهزل . وروى أبو داود والترمذي والدارقطني عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ثلاث يمتحن

جَدَّ وَهَزَمْنِي جَدَّ النِّكَاحُ وَالطَّلَاقُ وَالرَّجْعَةُ . قَالَ الزَّمْزَمِيُّ : حَدِيثُ حَسَنِ غَرِيبٍ ،
وَالْعَمَلُ عَلَى هَذَا عِنْدَ أَهْلِ الْعِلْمِ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَغَيْرِهِمْ .

قُلْتُ : كَذَا فِي الْحَدِيثِ " وَالرَّجْعَةُ " . وَفِي مَوْطَأِ مَالِكٍ عَنْ يَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ عَنْ سَعِيدِ بْنِ
الْمُسَيْبِ قَالَ : ثَلَاثٌ لَيْسَ فِيهِنَّ لَيْبُ النِّكَاحِ وَالطَّلَاقِ وَالْعَتَقِ . وَكَذَا رَوَى عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي
طَالِبٍ وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ وَأَبِي الدَّرْدَاءِ ، كُلُّهُمْ قَالَ : ثَلَاثٌ لَا لَيْبَ فِيهِنَّ وَاللَّاعِبُ فِيهِنَّ
جَائِدُ النِّكَاحِ وَالطَّلَاقِ وَالْعَتَقِ . وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيْبِ عَنْ عُمَرَ قَالَ : أَرْبَعٌ جَائِزَاتٌ عَلَى
كُلِّ أَحَدٍ الْعَتَقِ وَالطَّلَاقِ وَالنِّكَاحِ وَالنِّذُورِ . وَعَنِ الصَّحَّاحِ قَالَ : ثَلَاثٌ لَا لَيْبَ فِيهِنَّ النِّكَاحُ
وَالطَّلَاقُ وَالنِّذُورُ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنَّ نَعْفَ عَنْ طَائِفَةٍ
مِنْكُمْ نَعْلَبُ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾

قَوْلُهُ تَعَالَى : (لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ) عَلَى جِهَةِ التَّوْبِخِ ، كَأَنَّهُ يَقُولُ :
لَا تَفْعَلُوا مَا لَا يَنْفَعُ ، ثُمَّ حَكَّمَ عَلَيْهِم بِالْكَفْرِ وَعَدَمِ الْإِعْتِذَارِ مِنَ الذَّنْبِ . وَاعْتَذَرَ بِمَعْنَى أَعْذَرَ
أَيَّ صَارَ ذَا عِذْرٍ . قَالَ لَيْدٌ :

• وَمَنْ يَبْكُ حَوْلًا كَامِلًا فَتَدَّ اعْتَذَرَ •

وَالْإِعْتِذَارُ : تَحْوُّثُ الْمَرْجُوعَةِ ، يَقَالُ : اعْتَذَرْتُ الْمَنَازِلُ دَرَسَتْ . وَالْإِعْتِذَارُ الدُّرُوسُ .
قَالَ الشَّاعِرُ :

أَمْ كُنْتُ تَعْرِفُ آيَاتِ فَقْدِ جَمَلْتُ • أَطْلَالُ الْفَيْكِ بِالْوُدَّكَاهِ تَنْذِيرُ
وَقَالَ ابْنُ الْأَعْرَابِيِّ : أَصْلُهُ الْقَطْعُ . وَاعْتَذَرْتُ إِلَيْهِ قَطَعْتُ مَا فِي قَلْبِهِ مِنَ الْمَوْجِدَةِ . وَمِنْهُ
عُدَّةُ الْعَلَامِ وَهُوَ مَا يَقْطَعُ مِنْهُ عِنْدَ الْخِتَانِ . وَمِنْهُ عُدَّةُ الْحَارِبَةِ لِأَنَّهُ يَقْطَعُ خَاتَمَ صُدْرَتِهَا .

(١) هَذَا مُجْرِبٌ ، وَمَعْنَاهُ : • إِلَى الْحَوْلِ ثُمَّ اسْمُ السَّلَامِ طَبَاكَ •

(٢) هُوَ ابْنُ أَجْرٍ الْبَاسِلِ ، كَأَنَّهُ الْبَاسِلُ مَادَّةُ « عُدَّة » .

قوله تعالى : (إِنَّ نَعْفَ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ مُعَذِّبَ طَائِفَةٍ بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ) قيل : كانوا ثلاثة نفر؛ هَزْرَى اثنان وضحك واحد؛ فالنَعْفُ عنه هو الذي ضحك ولم يتكلم . والطائفة الجماعة ، ويقال للواحد على معنى نفس طائفة . وقال ابن الأنباري : يطلق لفظ الجمع على الواحد؛ كقولك : خرج فلان على البغال . قال : ويجوز أن تكون الطائفة إذا أريد بها الواحد طائفاً ، والماء للبالغة . واخْتُلِفَ في اسم هذا الرجل الذي عُفِيَ عنه على أقوال . فقيل : نَحْيَى بن حُمَيْرٍ ، قاله ابن إسحاق . وقال ابن هشام : ويقال فيه ابن غنشى . وقال خليفة ابن خياط في تاريخه : اسمه غناش بن حُمَيْرٍ . وذكر ابن عبد البر غناش الجعري . وذكر جميعهم أنه استشهد بالجماعة ، وكان نائب ومُتَمِّي عبد الرحمن ، فدعا الله أن يُقتل شهيداً ولا يُعلم بغيره . واختلف هل كان منافقاً أو مسلماً . فقيل : كان منافقاً ثم تاب توبة نصوحاً . وقيل : كان مسلماً ، إلا أنه سمع المنافقين فضحك لهم ولم يذكر عليهم .

قوله تعالى : **الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ** (٧٧)

قوله تعالى : (**الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ**) ابتداء . (**بَعْضُهُمْ**) ابتداء ثان . ويجوز أن **أنت** يكون بدلاً ، ويكون الخبر « من بعض » . ومعنى (**بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ**) أي هم كالشيء الواحد في الخروج عن الدين . وقال الزجاج : هذا متصل بقوله : **يُخَلَفُونَ بِاللَّهِ** منهم لمنكم وما هم منكم « أي ليسوا من المؤمنين ، ولكن بعضهم من بعض ، أي متشابهون في الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف . وقبض أيديهم عبارة عن [ترك] الجهاد ، وفيما يجب عليهم من حق . والنبيان : الترك هنا أي تركوا ما أمرهم الله به فتركهم في الشك . وقيل : لأنهم تركوا أمره حتى صار كالنسي فصيرهم بمنزلة المنسي من توبه . وقال قتادة : « نسيتهم » أي من الخير ، فاما من الشر فلم ينسهم . والفسق : الخروج عن الطاعة والدين . وقد تقدم .

قوله تعالى : وَعَذَّ اللَّهُ الْمُنْتَفِقِينَ وَالْمُنْفِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعْنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴿٣٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَعَذَّ اللَّهُ الْمُنْتَفِقِينَ ﴾ : يقال : وعذ الله بالخير وعذا . وعذ بالشر ويعيدا . ﴿ خَالِدِينَ ﴾ : نصب على الحال والعامل محذوف ، أى يصلونها خالدين . ﴿ هِيَ حَسْبُهُمْ ﴾ : ابتداء وخبر ، أى هى كفاية ووفاء جزاء أعمالهم . والبن : البعد ، أى من رحمة الله ؛ وقد تقدم . ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴾ : أى واصل دائم .

قوله تعالى : كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلْقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلْقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حِطَّتْ أَعْمَالُهُمْ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٣٩﴾
فيه ثلاث مسائل :

الأولى - قوله تعالى : ﴿ كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ قال الزجاج : الكاف فى موضع نصب ، أى وعذ الله الكفار نارا جهنم وعذا كما وعذ الذين من قبلهم . وقيل : المعنى فعلتم كآفصال الذين من قبلكم فى الأمر بالمنكر والنهى عن المعروف ، لحذف المضاف . وقيل : أى أنتم كالذين من قبلكم ، فالكاف فى محل رفع لأنه خبر ابتداء محذوف . ولم ينصرف « أشد » لأنه أصل صفة ، والأصل فيه أشد ، أى كانوا أشد منكم قوة فلم يتباها لهم ولا أمكنهم رفع عذاب الله عز وجل .

الثانية - روى سعيد عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : " تأخذون كما أخذت الأمم قبلكم ذراعا بذراع وشبرا بشبر وباعا ببيع حتى لو أن أحدا من أولئك دخل

يُخْرِصُ لِدَعْلَمُوهُ . قال أبو هريرة : وإن شئتم فأقرءوا القرآن : « كالذين من قبلكم كانوا أشدَّ منكم قُوَّةً وأكثر أموالاً وأولاداً فاستمعوا بخلاتهم — قال أبو هريرة : والخلاق الذين — فاستمعتم بخلاتهم كما استمع الذين من قبلكم بخلاتهم » حتى فرغ من الآية . قالوا : يا بنى الله ، فما صنعت اليهود والنصارى ؟ قال : « وما الناس إلّا هم » . وفى الصحيح عنه من النبىِّ صلى الله عليه و لم يَنْتَقِصْ سَنَنَ مَنْ قَبْلَكُمْ شَيْراً بشراً وذراعاً بذراع حتى لو دخلوا نحر صَبَّ لدَعْلَمُوهُ . قال : يا رسول الله ، اليهود والنصارى ؟ قال : « فن » ؟ وقال ابن عباس : ما أشبه الليلة بِلَيْلَةٍ . إرحه ، هؤلاء بنو إسرائيل شهبنا بهم . ونحوه عن ابن مسعود .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ فَاسْتَمِعُوا بِخَلْقِهِمْ ﴾ أى استمعوا بنصيبهم من الدين كما دل الذين من قبلكم . ﴿ وَخَرَجُوا ﴾ خروج من الغيبة إلى الخطاب . ﴿ كَالَّذِي خَاضُوا ﴾ أى خوضهم . فالخاف في موضع نصب نعت لمصدر محذوف ، أى وخضتم خوضاً كالذين خضوا . و « الذى » اسم قص مثل من ، يعبر به عن الواحد والجمع . وقد مضى في « البقرة » . ويقال : خَضْتُ لِسَاءٍ أَخُوْضَهُ خَوْضاً وَخِيَاضاً . والموضع خَاضَةٌ ، وهو ما جاز لِسُ فيها مُنَادَةً وَرُكْبَاناً . و جمعها الخاض والخاوض أيضاً ، عن أبى زيد . وأخضت دابى في الماء . وأخاض القوم ، أى خاضت خيلهم . وخضت الفئرات : اقتحمتها . ويقال : خاضه بالسيف ، أى حرك سيفه في المصروب . وخَوَّضَ في تجميعه شدد للبالغة . والخَوْضُ للشراب كالْمُخْدِجِ للسُّوقِ ، يقال منه : خَضَتِ الشَّرَابَ . وخاض القوم في الحديث وتخاوضوا أى تفاوضوا فيه ، فالمعنى : خضتم في أسباب الدنيا باللهو واللعب . وقيل : في أمر مجد بالكذب . ﴿ أُولَئِكَ حَبِطَتْ ﴾ بطلت . وقد تقدّم . ﴿ أَعْمَالُهُمْ ﴾ حسناتهم . ﴿ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ وقد تقدّم أيضاً .

- (١) راجع ج ١ ص ٢١٢ طبة ثالثة أو ثالثة .
(٢) الجيع : الدم . وقيل المرفج خاصة .
(٣) المجدج : غشقة في رأسها خشتان مفرطتان .
(٤) راجع ج ٣ ص ٤٦ طبة أول أو ثالثة .
(٥) راجع ج ١ ص ٢٤٨ طبة ثالثة أو ثالثة .

قوله تعالى : أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَأَحْصَىٰ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُنَّ رُسُلُهُنَّ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِيَهُنَّ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُنَّ يَظْلِمُونَ ﴿٦٧﴾

قوله تعالى : (أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ) أى خبر (الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ) . والآلف لمعنى التقرير والتعذير، أى ألم يسموا إهلاك الكفار من قبل . (قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ) بدل من الذين . (وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ) أى ثمود بن كتمان وقومه . (وَأَحْصَىٰ مَدْيَنَ) اسم للبلد الذى كان فيه شعيب ، أهلكوها عذاب يوم الظلة . (وَالْمُؤْتَفِكَاتِ) قيل : يراد به قوم لوط ؛ لأن أرضهم استفكت بهم ، أى اغلقت ؛ قاله قتادة . وقيل : المؤتفكات كل من أهلك ، كما يقال : اغلقت عليهم الدنيا . (أَتَتْهُنَّ رُسُلُهُنَّ بِالْبَيِّنَاتِ) يعنى جمع الأنبياء . وقيل : أتت أصحاب المؤتفكات رسلهم ؛ فعلى هذا رسلهم لوط وحده ؛ ولكنه بحث فى كل قرية رسولا ، وكانت ثلاث قرى ، وقيل أربع . وقوله تعالى فى موضع آخر : « وَالْمُؤْتَفِكَةُ » على طريق الجنس . وقيل : أراد بالرسول الواحد ؛ كقوله « يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُّوَا مِنَ الطَّيِّبَاتِ » ولم يكن فى عصره غيره . قلت - وهذا فيه نظر ؛ للحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم : " إن الله خاطب المؤمنين بما أمر به المرسلين " الحديث . وقد تقدم فى « البقرة » . والمراد جميع الرسل ، والله أعلم . (فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِيَهُنَّ) أى ليهلكهم حتى يبعث إليهم الأنبياء . (وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُنَّ يَظْلِمُونَ) ولكن ظلموا أنفسهم بعد قيام الحجۃ عليهم .

قوله تعالى : وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضُهُمْ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٨﴾

(١) فى آية ٥٣ سورة الحج . (٢) آية ٥١ سورة المؤمنون .

فيه أربع مسائل :

الأول - قوله تعالى : (**بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ**) أى قلوبهم متحدة فى التوآد والتعاطب والتعاطف . وقال فى المتافقين « بعضهم من بعض » لأن قلوبهم مختلفة ولكن يضم بعضهم إلى بعض فى الحكم .

الثانية - قوله تعالى : (**يَا مَرْوَنَ الْمَعْرُوفَ**) أى عبادة الله تعالى وتوحيده، وكل ما أتبع ذلك . (**وَيَهْتَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ**) عن عبادة الأوثان وكل ما أتبع ذلك . وذكر الطبري عن أبى العالصة أنه قال : كل ما ذكر فى القرآن من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فهو النهى عن عبادة الأوثان والشياطين . وقد مضى القول فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى سورة المائدة وآل عمران، والحمد لله .

الثالثة - قوله تعالى : (**وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ**) تقدم فى أول « البقرة » القول فيه . وقال ابن عباس : هى الصلوات الخمس، وبحسب هذا تكون الزكاة هنا المفروضة . ابن عطية : والمدح عندى بالنوافل أبلغ ، إذ من يقيم النوافل أحرى بإقامة الفرائض .

الرابعة - قوله تعالى : (**وَيُطِيعُونَ اللَّهَ**) فى الفرائض (**وَرَسُولَهُ**) فيما سن لهم . والسين فى قوله « سيرهم الله » مدخلة فى الوعد مهلة لتكون النفوس لتتبع برهانه ، وفضله تعالى زعيم الإنجاز .

قوله تعالى : **وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسْكَنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ** ﴿٦٦﴾

(د) راجع ج ٦ ص ٣٤٢ وما بعدها . (٦) راجع ج ٤ ص ٤٧ طبعة أول أرتانية .

(ز) راجع ج ١ ص ١٦٤ طبعة ثانية أرتانية .

قوله تعالى : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ ﴾ أى بساتين ﴿ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ من تحت أشجارها وغرفها الأنهار . وقد تقدم فى « البقرة » أنها تجري منضبطة بالقدرة فى غير أخذود . ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً ﴾ قصور من الزبرجد والذَر والياقوت ينوح بلبها من مسيرة نسمائة عام . ﴿ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ﴾ أى فى دار إقامة . يقال : عدن بالمكان إذا أقام به ، ومنه المعدن . وقال عطاء الخراساني : « جات عدن » هى قسبة الجمة ، وسقفها عرش الرحمن جل وعز . وقال ابن مسعود : هى بطنان الجنة ، أى وسطها . وقال الحسن : هى قصر من ذهب لا يدخلها إلا نبي أو صديق أو شهيد أو حكم عدل ، ونحوه عن الضحاك . وقال مقاتل الكلبي : عدن أعلى درجة فى الجنة ، وفيها عين التسليم ، والجان حولها محفوفة بها ، وهى منفطة من يوم خلقها الله حتى يتركها الأنبياء والصديقون والشهداء والصالحون ومن يشاء الله . ﴿ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ أى أكبر من ذلك . ﴿ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ .

قوله تعالى : يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَا لَهُمْ جَهَنَّمَ وَيْسَ الْمَصِيرُ ﴿٣١﴾
فيه مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ ﴾ الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم وتدخل فيه أمته من بعده . قيل : المراد جاهد بالمؤمنين الكفار . وقال ابن عباس : أمر بالجهاد مع الكفار بالسيف ، ومع المنافقين باللسان وشدة الزجر والتفليظ . وروى عن ابن مسعود أنه قال : جاهد المنافقين بسيفك ، فإن لم تستطع فبلسانك ، فإن لم تستطع فأكفؤ^(١) فى وجوههم . وقال الحسن : جاهد المنافقين بإقامة الحدود عليهم وباللسان — واختاره قتادة — وكانوا أكثر من يصيب لحدود . أبى العري — « أما إقامة الحجية باللسان فكانت دائمة ، وأما بالحدود لأن أكثر إصابة الحدود كانت عندهم فدعوى لا برهان عليها ،

(١) راجع ج ١ ص ٢٣٩ طبة تانية فتر تالفة . (٢) اكهم الرجل : اذا عيس .

وليس العاصى ينافق، إنما المنافق بما يكون في قلبه من التفاف كائناً، لا بما تنلبس به الجوارح
فاهراً، وأخبار المحدودين يهتد سبيلها أنهم لم يكونوا منافقين .

الثانية - قوله تعالى : (وَأَعْلَظْ عَلَيْهِمْ) الفلظ : قبض الرأفة، وهى شدة القلب
على إحلال الأمر بصاحبه . وليس ذلك في اللسان؛ فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال :
« إذا زنت أمة أحدكم فليطلها الحد ولا يثرب عليها » . ومنه قوله تعالى : « وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا
غَلِظَ الْقَلْبُ لَا نَقُضُوا مِنْ حَوْلِكَ » . ومنه قول النسوة لعمر : أنت أظف وأغلظ من رسول الله
صلى الله عليه وسلم . ومعنى الفلظ خشونة الجانب . فهى ضد قوله تعالى : « وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ
لِمَنِ آتَيْتَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ » . « وَأَخْفِضْ لَهَا جَنَاحَ الذَّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ » . وهذه الآية نسخت
كل شئ من العفو والصلح والصفح .

قوله تعالى : يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا
بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَمَا يَسْتَأْذِنُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ
وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبُهُمُ
اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ
وَلَا نَصِيرٍ ﴿٦١﴾

(١) أى لا يبرئها ولا يقرعها بالزنى بعد الضرب . وقيل : أراد لا يفتح في عقوبتها بالثريب . بل يضربها الحد
فإن زنى الامام لم يكن عند العرب مكروها ولا مستكراً ، فأمرهم بحد الإماء كما أمرهم بحد الحرارة . (نهاية ابن الأثير) .
(٢) آية ٥٩ سورة آل عمران . (٣) روى البخارى وسلم هذا الحديث في « باب منافق عمر رضى الله
عنه » قال : « استأذن عمر بن الخطاب على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده نسوة من قريش بكلمته ويستكثره فالتفت
أوصاتين على صوته » فلما استأذن عمر فن فإدرك الجواب ، فأذن له رسول الله صلى الله عليه وسلم ودخل عمر ورسول الله
صلى الله عليه وسلم يضحك ، فقال عمر : أضحك الله منك يا رسول الله . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « عجبت من
هؤلاء إلا أنى كنى عتدى فلما ضمن صوتك استأذن الجواب » فقال عمر : أنت أحن أن يهوى يا رسول الله . ثم قال عمر :
يا عذرات أخسن ، أتهين ولا تهين رسول الله صلى الله عليه وسلم ! قلن : نعم ! أنت أظف وأغلظ من رسول الله صلى
الله عليه وسلم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إياها يابن الخطاب والناسى فسى يده ما تفرك الشيطان سالكا
بها إلا ملك يها غير يملك » . (٤) آية ٢١٥ سورة الشورى . (٥) آية ٢٤ سورة الإسراء .

فيه ست مسائل :

الأولى - قوله تعالى : ﴿ تَخَافُونَ إِلَهَ مَا قَالُوا ﴾ . روى أن هذه الآية نزلت في الجلاس ابن سويد بن الصامت ، ووديعه بن ثابت ، وقموا في النبي صلى الله عليه وسلم وقالوا : والله لن كان محمد صادقاً على إخواننا الذين هم ساداتنا وخيارنا لنحن شر من الحميز . فقال له عاصم ابن قيس : أجل ! والله إن هذا الصادق مصدق ، وإليك لشراً من حمار . وأخبر عاصم بذلك النبي صلى الله عليه وسلم . وجاء الجلاس لحلف بالله عند نبي النبي صلى الله عليه وسلم إن عاصم لا يكذب . وحلف عاصم لفسد قال ، وقال : اللهم أنزل على نبيك الصادق شيئاً ، فنزلت . وقيل : إن الذي سمعه عاصم بن عدي . وقيل حذيفة . وقيل : بل سمعه ولد امرأته واسمه عمير بن سعد ، فيما قال ابن اسحاق . وقال غيره : اسمه مصعب . فمهم الجلاس قتله لئلا يخبر بخبره ، فيه نزل : « وَهَؤُلَاءِ يَمَّا لَمْ يَنَالُوا » . قال مجاهد : وكان الجلاس لما قال له صاحبه إني سأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقولك هم يقتله ، ثم لم يفعل ، عجز عن ذلك . قال : ذلك هي الإشارة بقوله : « وَهَؤُلَاءِ يَمَّا لَمْ يَنَالُوا » . وقيل : إنها نزلت في عهد الله بن أبي ، رأى رجلاً من غفار يتقاتل مع رجل من حبيشة ، وكانت جبهة خلفاء الأنصار ، فعلا المعاري الجهنية . فقال ابن أبي : يا بني الأويس والخروج ، اصبروا أحاكم ! فواته ما مثلاً ومثل محمد إلا كما قال القائل : « سَمَنَ كَلْبُكَ بِأَكْلِكَ » ، ولئن رجعنا إلى المدينة ليُحَرِّجَنَّ الْأَعْزُ مِنْهَا الْأَذْلَ . فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم بذلك ، فجاءه عبد الله بن أبي لحلف أنه لم يقله ، قاله قتادة . وقول ثالث أنه قول جميع المنافقين ، قاله الحسن . ابن العربي : وهو الصحيح ؛ لمعوم القول بوجود المعنى فيه وفيهم ، وحمله ذلك اعتقادهم فيه أنه ليس بنبي .

الثانية - قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ قَالُوا كَبَدَةَ الْكُفْرِ ﴾ قال القاسم : تكذيبهم بما وعد الله من الفتح . وقيل : « كلمة الكفر » قول الجلاس : إن كان ما جاء به محمد حقا لنحن أشد من الحميز . وقول عبد الله بن أبي : لن رجعنا إلى المدينة ليُحَرِّجَنَّ الْأَعْزُ مِنْهَا الْأَذْلَ . قال الفشيري : كلمة الكفر سب النبي صلى الله عليه وسلم والظعن في الإسلام . ﴿ وَكُفِّرُوا

بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ ۖ أَيْ نَعْدَ الْحُكْمِ بِإِسْلَامِهِمْ . فَدَلَّ هَذَا عَلَى أَنَّ الْمُنَافِقِينَ كُفَّارٌ . وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى : « ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا » دَالِيلٌ قَاطِعٌ .

وَدَلَّتِ الْآيَةُ أَيْضًا عَلَى أَنَّ الْكُفْرَ يَكُونُ بِكُلِّ مَا يَنَافِضُ التَّصَدِيقَ وَالْمَعْرِفَةَ ؛ وَإِنْ كَانَ الْإِيمَانُ لَا يَكُونُ إِلَّا بِالْإِلَهِ إِلَّا اللَّهُ دُونَ غَيْرِهِ مِنَ الْأَفْوَالِ وَالْأَعْمَالِ إِلَّا فِي الصَّلَاةِ . قَالَ إِسْحَاقُ بْنُ رَافِعٍ : وَلَقَدْ أَجْمَعُوا فِي الصَّلَاةِ عَلَى شَيْءٍ لَمْ يَجْمَعُوا عَلَيْهِ فِي سَائِرِ الشَّرَائِعِ ؛ لِأَنَّهُمْ بِاجْمَعِهِمْ قَالُوا : مَنْ عُرِفَ بِالْكُفْرِ ثُمَّ رَأَوْهُ يَصِلُ الصَّلَاةَ فِي وَقْتِهَا حَتَّى صَلَّى صَلَوَاتٍ كَثِيرَةً ، وَلَمْ يَدْعُوا مِنْهُ إِفْرَارًا بِاللِّسَانِ أَنَّهُ يَحْكُمُ لَهُ بِالْإِيمَانِ ، وَلَمْ يَحْكُوا لَهُ فِي الصَّوْمِ وَالرَّكَاتِ بِمِثْلِ ذَلِكَ .

الثالثة - قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَهَمَّوْا بِمَا لَمْ يَأْتُوا ۖ بِغَيْرِ الْمُنَافِقِينَ مِنْ قَتْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيْلَةَ النَّفَقَةِ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ ، وَكَانُوا اثْنَيْ عَشَرَ رَجُلًا . قَالَ حَذِيفَةُ : سَمَّاهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى عَدَّاهُمْ كُلَّهُمْ . فَقُلْتُ : أَلَا تَتَّبَعُ إِلَيْهِمْ فَتَقْتُلُهُمْ ؟ فَقَالَ : « أَكْرَهُ أَنْ أَقُولَ الْعَرَبُ لَمَّا طُفِرَ بِإِسْحَاقَ أَقْبَلَ يَقْتُلُهُمْ بَلْ يَكْفِيهِمْ اللَّهُ بِالْذُّبِئِلَةِ » . قِيلَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا الذُّبِئِيلَةُ ؟ قَالَ : « شَهَابٌ مِنْ جَهَنَّمَ يَجْعَلُ عَلَى نِيَابِطِ فُؤَادِ أَحَدِهِمْ حَتَّى تَرْمُقَ نَفْسَهُ » . فَكَانَ كَذَلِكَ . فَخَرَّجَهُ مُسْلِمٌ عَمَّادٌ . وَقِيلَ قَتَلُوا بِسَيْفٍ النَّاجِ عَلَى رَأْسِ ابْنِ أَبِي لِيَحْمَعُوا عَلَيْهِ . وَقَدْ تَقَدَّمَ قَوْلُ مُجَاهِدٍ فِي هَذَا .

الرابعة - قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا تَقْدُوا إِلَّا أَنْ أَعْلَمَهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ ۖ أَيْ لَيْسَ يَتَّقُونَ شَيْئًا ، كَمَا قَالَ النَّابِغَةُ :

وَلَا تَخِيبُ فِيهِمْ غَيْرَ أَنْ سَيُفْهِمُ • بِهِمْ قُلُوبٌ مِنْ قِرَاعِ الْكُتَابِ

وَيَقَالُ تَقْمُ يَتَقِمُ ، وَتَقِيمُ يَتَقِيمُ ، قَالَ الشَّاعِرُ :

مَا يَقِيمُوا مِنْ بِيْ أَمِيَّةٍ إِلَّا • أَنَّهُمْ يَحْمِلُونَ إِنْ عَضَبُوا

وَقَالَ زُهَيْرٌ :

يُؤْتَرُ مَوْضِعٌ فِي كِتَابٍ فَيُدَخَّرُ • لِيَوْمِ الْحِسَابِ أَوْ يُعَجَّلَ يَتَقِمُ

يشد بكسر القاف وفتحها . قال الشعبي : كانوا يطلبون دية فيقضى لهم بها رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستغفروا . ذكر عكرمة أنها كانت اثني عشر ألفاً . ويقال : إن القتل كان مؤثماً الجلّاس . وقال الكلبي : كانوا قبل قدوم النبي صلى الله عليه وسلم في ضنك من العيش ، لا يركبون الخيل ولا يمحزون النخيلة ، فلما قدم عليهم النبي صلى الله عليه وسلم استغنوا بالغنائم . وهذا المثل مشهور (أتق شراً من أحسن البه) . قال الفشيري أبو نصر : قيل للبيهي أتجد في كتاب الله تعالى أتق شراً من أحسن إليه ؟ قال نعم ، « وما تقوموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله » . الخامسة - قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ يَتُوبَا يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾ روى أن الجلّاس قام حين نزلت الآية فاستغفروا ، فدل هذا على توبة الكافر الذي يسر الكفر ويظهر الإيمان ، وهو الذي يسميه الفقهاء الزنديق . وقد اختلف في ذلك العلماء ، فقال الشافعي : تقبل توبته . وقال مالك : توبة الزنديق لا تعرف ؛ لأنه كان يظهر الإيمان ويسر الكفر ، ولا يعلم إيمانه إلا بقوله . وكذلك يفعل الآن في كل حين ، يقول : أنا مؤمن وهو يضر خلاف ما يظهر ؛ فإذا عثر عليه وقال : تبت ، لم يتغير حاله عما كان عليه . فإذا جاء تائباً من قبل نفسه قبل أن يستر عليه قيلت توبته ، وهو المراد بالآية . والله أعلم . السادسة - قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ يَتُوبَا ﴾ أي يرضوا عن الإيمان والتوبة ﴿ بَعْدَهُمْ ﴾ الله عذاباً أليماً ﴿ في الدنيا بالقتل ، وفي الآخرة بالنار . ﴾ ﴿ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ دَلِيلٍ ﴾ أي مانع يمنهم ﴿ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ أي معين . وقد تقدّم .

قوله تعالى : وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَئِنْ آتَيْنَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٥٥﴾ فَلَمَّا آتَيْنَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿٥٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿٥٨﴾

فيه ثمان مسائل :

الأولى - قوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهُ ﴾ قال قتادة : هو رجل من الأنصار
قال : لأن رزقني الله شيئا لأؤدين فيه حقه ولأتصدقن ؛ فلما آتاه الله ذلك فعل ما نص
عليكم ، فاحذروا الكذب فإنه يؤدى الى الفجور . وروى على بن زيد عن القاسم عن
أبي أمامة الباهلي : أن ثعلبة بن حاطب الأنصارى (فسماه) قال للنبي صلى الله عليه وسلم :
أدع الله أن يرزقني مالا . فقال عليه السلام : " وَيُحْكَمُ يَا ثَعْلَبَةُ قَلِيلٌ تُوَدَّى شُكْرُهُ خَيْرٌ مِنْ
كَثِيرٍ لَا تَطِيقُهُ " . ثم عاد ثانيا فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " أَمَا رَضِيَ أَنْ تَكُونَ
مِثْلَ نَجِيٍّ لَوْ شِئْتُ أَنْ تَسِيرَ مَعَ الْجِبَالِ ذَهَابًا لَسَارَتْ " . فقال : والذي بعثك بالحق لأن
دعوت الله فرزقني مالا لأعطين كل ذي حق حقه . فدعاه النبي صلى الله عليه وسلم ، فاتخذ
غنا فصنت كما ينبغي الدود ، فضاقت عليه المدينة فتحت عنها ونزل واديا من أوديتها حتى يعمل
يصلى الظهر والعصر في جماعة ، وترك ما سواهما . ثم تمت وكثرت حتى ترك الصلوات
إلا الجمعة ، وهى تنهى حتى ترك الجمعة أيضا ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يَا وَجْهَ ثَعْلَبَةَ
ثَلَاثًا . ثم نزل « حُدِّثْنَا مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةٌ » . فبعث صلى الله عليه وسلم رجلين على الصدقة ،
وقال لهما : " مَرُّا بِثَعْلَبَةَ وَبِفُلَانٍ - رجل من بنى سليم - نفذا صدقاتهما " . فأتيا ثعلبة
وأقرآه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : ما هذه إلا أخت الجزية ! انطلقا
حتى نفرغوا ثم تعودا . الحديث ، وهو مشهور . وقيل : سبب غناه ثعلبة أنه ورث ابن عم
له . قال ابن عبد البر : قيل إن ثعلبة بن حاطب هو الذى نزل فيه « ومنهم من عاهد الله »
الآية ؛ إذ منع الزكاة ، فانه أعلم . وما جاء فيمن شاهد بدرا يعارضه قوله تعالى فى الآية
« فَأَعْقِبَهُمْ نِقَافًا فِي قُلُوبِهِمْ » الآية .

قلت : وذكر عن ابن عباس فى سبب نزول الآية أن حاطب بن أبى بلتعنة أبطل عنه ماله
بالشام ، خلف فى مجلس من مجالس الأنصار : إن سلم ذلك لأتصدقن منه ولأصلن منه .
فلما سلم يتل بذلك فترلت .

قلت : وثلبة بقرى أنصاري ومن شهد الله له ورسوله بالإيمان؛ حسب ما يأتي بيانه في أول المنحة؛ فاردوى منه غير صحيح . قال أبو عمر : ولعل قول من قال في ثلبة أنه مانع الزكاة الذي نزلت فيه الآية غير صحيح ، والله أعلم . وقال الضحاك : إن الآية نزلت في رجل من المنافقين يَنزِلُ فِي الْحَارِثِ وَجَدَ بَنَ قَيْسٍ وَمُتَّيِبَ بْنِ قَشِيرٍ .

قلت : وهذا أشبه بقول الآية فيهم ؛ إلا أن قوله « فاعقبهم نفاقا » يدل على أن الذي عاهد لم يكن منافقا من قبل ، إلا أن يكون المعنى : زادهم نفاقا ثبتوا عليه إلى المناب ، وهو قوله : « إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْتَهُ » على ما يأتي .

الثانية — قال علماؤنا : لما قال تعالى « ومنهم من عاهد الله » احتمل أن يكون عاهد الله بلسانه ولم يتفقده بقلبه ، واحتمل أن يكون عاهد الله بهما ثم أدركته سوء الخاتمة ؛ فإن الأعمال بخواتمها والأيام بعواقبها . و « مَنْ » رفع بالابتداء والخبر في المجرور . ولفظ ائمين ورد في الحديث وليس في ظاهر القرآن يمين إلا بمجرد الارتباط والالتزام ، أما أنه في صيغة القسم في المعنى فإن اللام تدل عليه ، وقد أتى بلامين الأولى للقسم والثانية لام الجواب ، وكلاهما للتأكيد . ومنهم من قال : إنهما لاما القسم ؛ والأول أظهر ، والله أعلم .

الثالثة — العهد والطلاق وكل حكم يتفرد به المرء ولا يفتقر إلى غيره فيه فإنه يلزمه منه ما يلتزمه بقصده وإن لم يلفظ به ؛ قاله علماؤنا . وقال الشافعي وأبو حنيفة : لا يلزم أحدا حكم إلا بعد أن يلفظ به ؛ وهو القول الآخر لما لنا . ابن العربي : والدليل على صحة ما ذهبنا إليه ما رواه أشهب عن مالك ، وقد سئل : إذا نوى الرجل الطلاق بقلبه ولم يلفظ به بلسانه فقال : يلزمه ؛ كما يكون مؤمنا بقلبه ، وكافرا بقلبه . قال ابن العربي : وهذا أصل بدعي ، وتحريره أن يقال : عقد لا يفتقر فيه المرء إلى غيره في التامه فانهقد عليه بنية . أصله الإيمان والكفر .

(١) يلاحظ أن آتى يذكره المؤلف في أول سورة المنحة إنما هو عاهد من أي فئة ؛ لا ثلبة بن حاطب .

قلت : وحجة القول الثاني ما رواه مسلم عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها ما لم تعمل أو يتكلم به". ورواه الترمذي وقول : حديث حسن صحيح ، والعمل على هذا عند أهل العلم أن الرجل إذا حدث نفسه بالطلاق لم يكن شيئا حتى يتكلم به . قال أبو عمر : ومن أعتقد بقلبه الطلاق ولم ينطق به لسانه فليس بشيء . وهذا هو الأشهر عن مالك . وقد روى عنه أنه يلزمه الطلاق إذا نواه بقلبه . كما يكفر بقلبه وإن لم ينطق به لسانه . والأوّل أصح في السطر وطريق الأثر ، لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : "تجاوز الله لأمتي عما وسوست به نفوسها ما لم ينطق به لسان أو تعمه يد" .

الرابعة — إن كان نفرا قالوا فاء بالندر واجب من غير خلاف وتركه معصية . وإن كانت ميمتا تابس الوفاء باليمين واجبا بانفاق . بيد أن المعنى فيه إن كان الرجل فقيرا لا يتعين عليه فرض الزكاة ؛ وسأل الله مالا تلزمه فيه الزكاة ويؤدي ما تعين عليه من فرضه ، فلما آناه الله ما شاء من ذلك ترك ما ألزم مما كان يلزمه في أصل الدين لو لم يلزمه ، لكن التعاطي يطلب المال لأداء الحقوق جو الذي أوطه إذ كان عليه من الله تعالى غير نية خالصة ، أو نية لكن سبقت فيه البداية المكتوب عليه فيها الشقاوة . نمود بالله من ذلك .

قلت : ومن هذا المعنى قوله عليه السلام : "إذا تمنى أحدكم فليظمر ما يتننى فإنه لا يدري ما كتب له في غيب الله عز وجل من أميته" . أي من عاقبتها ، فرب أمية يفتن بها أو يطنى فتكون ميبا للهلاك دنيا وأخرى ، لأن أمور الدنيا مبهمة عواقبها خطيرة غائلتها . وأما تمنى أمور الدين والأخرى فتمنيها محمود العاقبة محضوس عليها مدوب إليها .

الخامسة — قوله تعالى : (لَيْنَ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ) دليل على أن من قال : إن لَكَتُ كَذَا وكَذَا فهو صدقة فإنه يلزمه ؛ وبه قال أبو حنيفة . وقال الشافعي : لا يلزمه . والخلاف في الطلاق مثله ، وكذلك في العتق . وقال أحمد بن حنبل : يلزمه ذلك في العتق لا يلزمه في الطلاق ؛ لأن العتق قرينة وهي تثبت في الذمة بالنذر ؛ بخلاف الطلاق فإنه

تصرف في عمل، وهو لا يثبت في الذمة . احتج الشافعي بما رواه أبو داود والترمذي وغيرهما عن عمرو بن شبيب عن أبيه عن جده قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا نذر لابن آدم فيما لا يملك ولا عاق له فيما لا يملك ولا طلاق له فيما لا يملك " لفظ الترمذي . وقال : وفي الباب عن علي ومعاذ وجابر وابن عباس وعائشة حديث عبد الله بن عمرو حديث حسن، وهو أحسن شيء روي في هذا الباب . وهو قول أكثر أهل العلم من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وغيرهم . ابن العربي : وسرد أصحاب الشافعي في هذا الباب أحاديث كثيرة لم يصح منها شيء فلا يقول عليها، ولم يبق إلا ظاهر الآية .

السادسة - قوله تعالى : (فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ) أى أعطاهم . (يَحْسُلُوا بِهِ) أى بإعطاء الصدقة وبإنفاق المال في الخير، وبإلواء بما ضمنوا والتمروا . وقد مضى البخل في « آل عمران » . (وَتَوَلَّوْا) أى عن طاعة الله . (وَهُمْ مُعْرِضُونَ) أى عن الإسلام، أى مظهرون للإعراض عنه .

السابعة - قوله تعالى : (فَأَعْقِبَهُمْ نِقَاقًا) مفعولان ؛ أى أعقبهم الله تعالى نفاقا في قلوبهم . وقيل : أى أعقبهم البخل نفاقا ؛ ولهذا قال : « بخلوا به » . (إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ) في موضع خفض ؛ أى يلقون بخلهم، أى جزاء بخلهم ؛ كما يقال : أنت تلقى غدا عملك . وقيل : « إلى يوم يلقونه » أى يلقون الله . وفي هذا دليل على أنه مات منافقا . وهو يبعد أن يكون المتزل فيه ثعلبة أو حاطب ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال لعمر : " وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم " . وثعلبة وحاطب ممن حضر بدرا وشهدا . (يَمَّا أَظْهَرْنَا لَهُمْ مَا وَعدُوهُ وَيَمَّا كَانُوا يَكْذِبُونَ) كذبهم نقضهم العهد وتركهم الوفاء بما التزموه من ذلك .

الثامنة - قوله تعالى : (نِقَاقًا) النفاق إذا كان في القلب فهو الكفر . فاما إذا كان في الأعمال فهو مصيبة . قال النبي صلى الله عليه وسلم : " أربع من كن فيه كان منافقا خالصا

ومن كانت فيه خصلة منها كانت فيه خصلة من التفاق حتى يدّعيها : إذا اتّمن خان وإذا حدث كذب وإذا عاهد غدر وإذا حاصم فجر . ترجمه البخاري . وقد مضى في «البقرة» اشتقاق هذه الكلمة ، فلا معنى لإعادتها . واختلف الناس في تأويل هذا الحديث ؛ فقالت طائفة : إنما ذلك لمن يحدث بحديث يعلم أنه كذب ، ويعهد عهدا لا يتقصد الوفاء به ، وينتظر الأمانة للحياة فيها . وتلقوا بحديث ضعيف الإسناد ، وأن علي بن أبي طالب رضي الله عنه لقي أبا بكر وعمر رضي الله عنهما خارجين من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وهما ثقيلان فقال علي : مالي أراكما تخيلين ؟ قالوا : حديثنا سمعناه من رسول الله صلى الله عليه وسلم من خلال المنافقين إذا حدث كذب وإذا عاهد غدر وإذا اتّمن خان وإذا وعد أخلف . فقال علي : أنفلا سألناه ؟ قالوا : هبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : لكنني سأسله ؛ فدخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، خرج أبو بكر وعمر وهما ثقيلان ، ثم ذكر ما قلناه ، فقال : «قد حدثتهما ولم أضعه على الوضع الذي وضعا ولكن المنافق إذا حدث وهو يحدث نفسه أنه يكذب وإذا وعد وهو يحدث نفسه أنه يخلف وإذا اتّمن وهو يحدث نفسه أنه يخون» . ابن العربي : قد قام الدليل الواضح على أن تتمم هذه الخصال لا يكون كافرا ، وإنما يكون كافرا باعتقاد يسود إلى الجهل بالله وصفاته أو التكذيب له . وقالت طائفة : ذلك مخصوص بالمنافقين زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم . وتلقوا بما رواه مقاتل بن حيان عن سعيد بن جبير عن ابن عمر وابن عباس قالا : أتينا رسول الله صلى الله عليه وسلم في أناس من أصحابه فقلنا : يا رسول الله : إنك قلت ثلاث من كن فيه فهو منافق وإن صام وصلى وزعم أنه مؤمن إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا اتّمن خان ومن كانت فيه خصلة منها ففیه ثلاث التفاق فقلنا أنا لم نسلم منها أو من بعضهن ولم يسلم منها كثير من الناس ؛ فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : «مالكم ولهن إنما خصصت بين المنافقين كما خصهم الله في آية أما نقول إذا حدث كذب فذلك قوله عز وجل «إذا جاءك المنافقون» - الآية - أفأنتم

كذلك؟ قلنا لا . قال : " لا عليكم أتم من ذلك براء وأما قولي إذا وعد أخلف فذلك فيما أنزل الله على " ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله - الآيات الثلاث - " أفأنتم كذلك ؟ " قلنا لا ، والله لو عاهدنا الله على شيء أو فينا به . قال : " لا عليكم أتم من ذلك براء وأما قولي وإذا أنتم خان فذلك فيما أنزل الله على " إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال - الآية - فكل إنسان مؤتمن على دينه فالمؤمن يقتل من الجناية في السر والعلانية [والمنافق لا يفعل ذلك إلا في العلانية] أفأنتم كذلك ؟ " قلنا لا . قال : " لا عليكم أتم من ذلك براء " . وإلى هذا صار كثير من التابعين والأئمة . قالت طائفة : هذا فيمن كان الغالب عليه هذه الخصال . ويظهر من مذهب البخاري وغيره من أهل العلم أن هذه الخلل الذميمة منافق من انصف بها إلى يوم القيامة . قال ابن العربي : والذي عندي أنه لو غلبت عليه المعاصي ما كان بها كافرا ما لم تؤثر في الاعتقاد . قال علماؤنا : إن إخوة يوسف عليه السلام عاهدوا أباهم فأخلفوه ، وحذونه فكذبوه ، واتهمهم على يوسف بخاونه وما كانوا منافقين . قال عطاء بن أبي رباح : قد فعل هذه الخلل إخوة يوسف ولم يكونوا منافقين بل كانوا أنبياء . وقال الحسن بن أبي الحسن البصري : النفاق نفاقان ، نفاق الكذب ونفاق العمل ؛ فأما نفاق الكذب فكان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأما نفاق العمل فلا ينقطع إلى يوم القيامة . وروى البخاري عن حذيفة أن النفاق كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأما اليوم فإنما هو الكفر بعد الإيمان .

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ ﴾ هذا توبيخ ، وإن كان علما فإنه سيجازيهم .

قوله تعالى : الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الْأَصْدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ يَسَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٦﴾

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾ هذا أيضا من صفات المنافقين ، قال قتادة : « يلمزون » يعيبون . قال : وذلك أن عبد الرحمن بن عوف تصدق بنصف ماله ، وكان ماله ثمانية آلاف فتصدق منها بأربعة آلاف . فقال قوم : ما أعظم رياءه ، فانزل الله « الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ » . وجاء رجل من الأنصار بنصف صبرة من تمره فقالوا : ما أغنى الله عن هذا ، فانزل الله عز وجل ﴿وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾ . وخرج مسلم عن أبي مسعود قال : أمرنا بالصدقة — قال : كنا نحامل ، في رواية : على ظهورنا — قال : فتصدق أبو عقيل بنصف صاع . قال : وجاء إنسان بشيء أكثر منه فقال المنافقون : إن الله لغني عن صدقة هذا ، وما فعل هذا الاثر إلا رياء ، فنزلت « الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ » . يعني أبا عقيل ، واسمه الحجاب . والجهد : شيء قليل يمش به المقل . والجهد والجهد بمعنى واحد . وقد تقدم . و « يلمزون » يعيبون . وقد تقدم . و « المطويعين » أصله المتطوعين أذغمت التاء في الطاء ، وهم الذين يفعلون الشيء تبرعا من غير أن يحب عليهم . « والذين » في موضع خفض عطف على « المؤمنين » . ولا يجوز أن يكون عطفا على الاسم قبل تمامه . و « فيسخرون » عطف على « يلمزون » . ﴿يَسْخَرُ اللَّهُ مِنْهُمْ﴾ خبر الابتداء ، وهو دعاء عليهم . وقال ابن عباس : هو خبر ؛ أي يسخر منهم حيث صاروا إلى النار . ومعنى يسخر الله مجازاتهم على يسخريتهم . وقد تقدم في « البقرة » .

قوله تعالى : أَسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٨٠﴾

(١) الصبرة (بالضم) : ما جمع من الطعام بلا كيل ولا وزن بضه فوق بض . (٢) معناه : نحمل الحمل على ظهورنا بالأجرة ونصدق من تلك الأجرة أو تصدق بها كلها . (٣) راجع ج ٧ ص ٦٢ طبعه أول مرة . (٤) راجع ج ٣ ص ٢٩ طبعه أول مرة .

قوله تعالى : (اسْتَغْفِرْ لَهُمْ) يأتي بيانه عند قوله تعالى : « وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا » .

قوله تعالى : فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾

قوله تعالى : (فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ) أى بقعودهم . فقد قعدوا ومقعدا؛ أى جلس . وأقعدته غيره ؛ عن الجوهري . والمخلف المتروك؛ أى خلفهم الله ووطئهم ، أو خلفهم رسول الله والمؤمنون لما علموا تناقلهم عن الجهاد ؛ قولان . وكان هذا في غزوة تبوك . (خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ) مفعول من أجله ، وإن شئت كان مصدرا . والخلاف المخالفة . ومن قرأ « خلف رسول الله » أراد التاخر عن الجهاد . (وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ) أى قل بعضهم لبعض ذلك . (قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ) أى قل لهم يا محمد نار جهنم . (أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ) ابتداء وخبر . « حرا » نصب على البيان ؛ أى من ترك أمر الله تعرض لتلك النار .

قوله تعالى : فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾

فيه مسائل ثلث :

الأولى — قوله تعالى : (فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا) أمر ، معناه معنى التهديد وليس أمرا بالضحك . والأصل أن تكون اللام مكسورة لحذف الكسرة لقلها . قال الحسن : « فليضحكوا قليلا » في الدنيا « وليبكوا كثيرا » في جهنم . وقيل : هو أمر بمعنى انظر . إنهم سيضحكون قليلا ويبكون كثيرا . (جَزَاءً) مفعول من أجله ؛ أى الجزاء .

الثانية - من الناس من كان لا يضحك اهتماما بنفسه وفساد حاله في اعتقاده من شدة الخوف، وإن كان عبدا صالحا . قال صلى الله عليه وسلم : " والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا ولخرجتم إلى الصُّدُاتِ^(١) تجارون إلى الله تعالى لوددت أني كنت شجرة تُعَصَّدُ " ترجمه الترمذی . وكان الحسن البصري رضي الله عنه ممن قد غلب عليه الحزن فكان لا يضحك . وكان ابن سيرين يضحك ويحتج على الحسن ويقول : الله أضحك وأبكى . وكان الصحابة يضحكون ؛ إلا أن الإكثار منه وملازمته حتى يغلب على صاحبه مذموم منهي عنه ، وهو من فعل السفهاء والبطالة . وفي الخبر : " أن كثرة تيمت القلب " . وأما البكاء من خوف الله وعقابه فحمود ؛ قال عليه السلام : " ابكوا فإن لم تبكوا فبأكوا فإن أهل النار يكون حتى تسيل دموعهم في وجوههم كأنها جداول حتى تنقطع الدموع فتسيل الدماء فتفرح العيون فلو أن سُفُتًا أُجريت فيها لخرت " . ترجمه ابن المبارك من حديث أنس ، وابن ماجه أيضا .

قوله تعالى : فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَفَذُّوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ ﴿٨٤﴾

قوله تعالى : (فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ) أى المنافقين . وإنما قال : « إلى طائفة » لأن جميع من أقام بالمدينة ما كانوا منافقين ، بل كان فيهم معذورون ومن لا عذر له ، ثم عفا عنهم وتاب عليهم ؛ كالثلاثة الذين خلفوا . وسيأتى . (فَاسْتَفَذُّوكَ لِلْخُرُوجِ) فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا أى عاقبهم بالأبدا تصحبهم أبدا . وهو كما قال في سورة الفتح : « قُلْ لَنْ يُغَيِّرُوا^(٢) أَمْرًا » . و (الْخَالِفِينَ) جمع خالف ؛ كأنهم خلفوا الخارجين . قال ابن عباس :

(١) الصدات : هى الطرق ، وهى جمع صد . وصد جمع صعد ؛ كطريق وطرق وطرقات . وقيل : هى جمع صعدة كطيلة ، وهى غنا . باب الله ووزن الناس بين يديه . (٢) قال التميمي : ويرى من غير هذا الوجه أن أبا ذر قال لوددت أني كنت شجرة تعصد . (٣) آية ١٥

« الخالفين » من تخلف من المنافقين . وقال الحسن : مع النساء والضعفاء من الرجال ، فقلب المذكر . وقيل : المعنى فاقعدوا مع الفاسدين ؛ من قولهم فلان خالفة أحسن يته اذا كان فاسدا فيهم ؛ من خُلف في الصائم . ومن قولك : خلف اللبن ؛ أى فسد بطول المكث في السقاء ؛ فعلى هذا يعنى فاقعدوا مع الفاسدين . وهذا يدل على أن استصحاب المخدّل في النزوات لا يجوز .

قوله تعالى : وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ ۚ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ وَمَاتُوا وَهُمْ فَسِقُونَ ﴿٨٤﴾
فيه إحدى عشرة مسألة :

الأولى — روى أن هذه الآية نزلت في شأن عبد الله بن أبي بن سلول وصلاة النبي صلى الله عليه وسلم عليه . ثبت ذلك في الصحيحين وغيرها . وظهرت الروايات بأن النبي صلى الله عليه وسلم صلى عليه . وأن الآية نزلت بعد ذلك . وروى عن أنس بن مالك أن النبي صلى الله عليه وسلم لما تقدم ليصلي عليه جاءه جبريل بخبْر توبه وتلا عليه : « وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا » الآية ؛ فأصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يصل عليه . والروايات الثابتة على خلاف هذا ؛ ففي البخاري عن ابن عباس قال : فصلّى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم انصرف ، فلم يمكث إلا يسيرا حتى نزلت الآيتان من براءة « وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا » . ونحوه عن ابن عمر ؛ نحرجه مسلم . قال ابن عمر : لما توفّي عبد الله بن أبي بن سلول جاء ابنه عبد الله إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله أن يعطيه قميصه يكن فيه فأعطاه ثم سأله أن يصلي عليه ، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم ليصلي عليه ، فقام عمر وأخذ بثوب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، أتصلي عليه وقد نهاك الله أن تصلي عليه ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِنَّمَا خَيْرِي اللَّهُ تَعَالَى فَقَالَ : « اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً » وسأزيد على سبعين » قال : إنه

منافق . فعلى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله عز وجل « ولا تُصَلِّ على أحدٍ منهم مات أبدا ولا تَقُمْ على قبره » فترك الصلاة عليهم . وقال بعض العلماء : إنما صلى النبي صلى الله عليه وسلم على عبد الله بن أبي بنائه على الظاهر من لفظ إسلامه . ثم لم يكن يفعل ذلك لما نُهِيَ عنه .

الثانية - إن قال قائل فكيف قال عمر : أنصلي عليه وقد نهك الله أن تصلي عليه ؛ ولم يكن تقدم نهى عن الصلاة عليهم . قيل له : يحتمل أن يكون ذلك وقع له في خاطره ، ويكون من قبيل الإلهام والتحدث الذي شهد له به النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد كان القرآن يتزل على مراده ، كما قال : وافقت ربي في ثلاث . وجاء : في أربع . وقد تقدم في البقرة ، فيكون هذا من ذلك . ويحتمل أن يكون فهم ذلك من قوله تعالى : « استغفر لهم أولا » تستغفر لهم الآية . لا أنه كان تقدم نهى على ما دل عليه حديث البخاري ومسلم . والله أعلم . قلت : ويحتمل أن يكون فهمه من قوله تعالى : « مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ » لأنها نزلت بمكة . وسيأتي القول فيها .

الثالثة - قوله تعالى : (استغفر لهم) الآية . بين تعالى أنه وإن استغفر لهم لم ينفعهم ذلك وإن أكثر من الاستغفار . قال الفسيري : ولم يثبت ما يروى أنه قال : « لا يزيد على السبعين » .

قلت : وهذا خلاف ما ثبت في حديث ابن عمر « وسأزيد على سبعين » وفي حديث ابن عباس « لو أعلم أني إن زدت على السبعين ينفر لهم لزدت عليها » . قال : فعلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . نرجه البخاري .

الرابعة - واختلف العلماء في تأويل قوله : (استغفر لهم) هل هو إياس أو تخيير ؛ فقالت طائفة : المقصود به الإياس بدليل قوله تعالى : « قُلْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ » . وذكر السبعين وفاء جرى ، أو هو عادتهم في العبارة عن الكثرة والإيعاء . فإذا قال قائلهم : لا أكلمه

سبعين سنة صار عندهم بمنزلة قوله : لا أكله أبدا . ومثله في الإعياء قوله تعالى : « في سبيلهِ ذَرَعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا » ، وقوله عليه السلام : « من صام يوما في سبيل الله باعد الله وجهه عن النار سبعين خريفا » . وقالت طائفة : هو تخيير — منهم الحسن وقنادة وعروة — إن شئت استغفر لهم وإن شئت لا تستغفر . ولهذا لما أراد أن يصلي على ابن أبي قال عمر : لا تصل على عدو الله . القائل يوم كذا وكذا . فقال : « إني خيّر فاحترت » . قالوا : ثم نسخ هذا لما نزل « سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ » . « ذلك بأنهم كفروا » أي لا يفرقه لهم بكفرهم .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ ﴾ الآية . وهذه الآية نزلت بمكة عند موت أبي طالب ، على ما يأتي بيانه . وهذا يفهم منه النهي عن الاستغفار لمن مات كافرا . وهو متقدم على هذه الآية التي فهم منها التحيير بقوله : « إنما يخبرني الله » وهذا مشكل . فقيل : إن استغفاره لعمه إنما كان مقصوده استغفارا مرحوا بالإجابة حتى تحصل له المغفرة . وفي هذا الاستغفار استأذن عليه السلام ربه في أن يأذن له فيه لأنه فلم يأذن له فيه . وأما الاستغفار للنافقين الذي خبر فيه فهو استغفار لسائت لا ينفع ، وغايته تطيب قلوب بعض الأحياء من قرايات المستغفر له . والله أعلم .

السادسة — وأختلف في إعطاء النبي صلى الله عليه وسلم قيضه لعبد الله ، فقيل : إنما أعطاه لأن عبد الله كان قد أعطى العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم قيضه يوم بدر . وذلك أن العباس لما أيسر يوم بدر — على ما تقدم — وسب ثوبه رآه النبي صلى الله عليه وسلم كذلك فاشتق عليه . فطلب له فيصا فسا وجد له فيص بقادره إلا قيض عبد الله . لتقاربهما في طول القامة ، فأراد النبي صلى الله عليه وسلم بإعطاء القيض أن يرفع اليد عنه في الدنيا ، حتى لا يلقاه في الآخرة وله عليه يد يكافئه بها . وقيل : إنما أعطاه القيض إكراما لكونه وإسماعيل في طلبته وتطيبا لقلبه . والأول أصح ، خروجه البخاري عن جابر

ابن عبد الله قال : لما كان يوم بدر أتى بأسمارى وأبى العباس ولم يكن عليه ثوب ، فطلب النبي صلى الله عليه وسلم له قميصاً فوجدوا قميص عبد الله بن أبي بكر عليه ، فكساه النبي صلى الله عليه وسلم إياه ، فلذلك تزع النبي صلى الله عليه وسلم قميصه الذي ألبسه . وفي الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إن قميصي لا يفتني عنه من الله شيئاً وإنى لأرجو أن يسلم بفعل هذا ألف رجل من قومي " . كذا في بعض الروايات " من قومي " يريد من متافئ العرب . والصحيح أنه قال : " رجال من قومه " . ووقع في مغازي ابن إسحاق وفي بعض كتب التفسير : فأسلم لهذه القطعة من رسول الله صلى الله عليه وسلم ألف رجل من الخزرج .

السابعة - لما قال تعالى : ﴿ وَلَا تَصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا ﴾ قال علماءنا :

هذا نص في الامتناع من الصلاة على الكفار ، وليس فيه دليل على الصلاة على المؤمنين واختلف هل يؤخذ من مفهومه وجوب الصلاة على المؤمنين على قولين . يؤخذ لأنه على المنع من الصلاة على الكفار لكفرهم لقوله تعالى : « إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ » ؛ فلذا زال الكفر وجبت الصلاة . ويكون هذا نحو قوله تعالى : « كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ مَنجُورُونَ »^(١) يعني الكفار ؛ فدل على أن غير الكفار يرونهم وهم المؤمنون ؛ فذلك مثله . والله أعلم . أو تؤخذ الصلاة من دليل خارج عن الآية ، وهي الأحاديث الواردة في السباب ، والإجماع . وملشاً الخلاف القول بدليل الخطاب وتركه . روى مسلم عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن أحداً لكم قد مات فقوموا فصلوا عليه " قال : فقمتا نصفنا صفيين ؛ يعني النجاشي . وعن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نعى للناس النجاشي في اليوم الذي مات فيه ، فخرج بهم إلى المصلى وكبر أربع تكبيرات . وأجمع المسلمون على أنه لا يجوز ترك الصلاة على جناز للمسلمين ، من أهل الكفار كانوا أو صالحين ؛ ورواه عن نبيهم صلى الله عليه وسلم قولاً وعملاً . والحمد لله . واتفق العلماء على ذلك إلا في الشهيد كما تقدم ، وإلا في أهل البدع والبلغاة .

الثامنة - والجمهور من العلماء على أن التكبير أربع . قال ابن سيرين : كان التكبير ثلاثاً فزادوا واحدة . وقالت طائفة : يكبر تحسباً ، وروى عن ابن مسعود وزيد بن أرفم . وعن علي : ست تكبيرات . وعن ابن عباس وأنس بن مالك وجابر بن زيد : ثلاث تكبيرات والمؤول عليه أربع . روى الدارقطني عن أبي بن كعب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن الملائكة صلت على آدم فكبرت عليه أربعاً وقالوا هذه سننكم يا بني آدم " .

التاسعة - ولا قراءة في هذه الصلاة في المشهور من مذهب مالك ، وكذلك أبو حنيفة والثوري ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم : " إذا صليتم على الميت فأخلصوا له الدعاء " رواه أبو داود من حديث أبي هريرة . وذهب الشافعي وأحمد وإسحاق ومحمد بن مسلمة وأشهب من علمائنا وداود إلى أنه يقرأ بالفاتحة ؛ لقوله عليه السلام : " لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب " خلا على عمومهم . وبما خرجه البخاري عن ابن عباس وصلى على جنازة فقرأ بفاتحة الكتاب وقال : تسلموا أنها سنة . وخرج النسائي من حديث أبي أمامة قال : السنة في الصلاة على الجنازة أن يقرأ في التكبيرة الأولى بأم القرآن مخافة ، ثم يكبر ثلاثاً ، والتسليم عند الآخرة . وذكر محمد ابن نصر المروزي عن أبي أمامة أيضاً قال : السنة في الصلاة على الجنازة أن تكبر ، ثم تقرأ بأم القرآن ، ثم تهمل على النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم تخلص الدعاء لليت . ولا يقرأ إلا في التكبيرة الأولى ثم يسلم . قال شيخنا أبو العباس : وهذان الحديثان صحيحان ، وهما ما يحقان عند الأصوليين بالسند . والعمل على حديث أبي أمامة أولى ، إذ فيه جمع بين قوله عليه السلام : " لا صلاة " وبين إخلاص الدعاء لليت . وقراءة الفاتحة فيها إنما هي استفتاح للدعاء . والله أعلم .

العاشرة - وسنة الإمام أن يقوم عند رأس الرجل وعجينة المرأة ؛ لما رواه أبو داود عن أنس وصلى على جنازة فقال له الصلاة بن زياد : يا أبا حمزة ، هكذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي على الجنازة كصلاتك ، يكبر أربعاً ويقوم عند رأس الرجل وعجينة المرأة ؟ قال نعم . ورواه مسلم عن سفيان بن عيينة قال : صليت خلف النبي صلى الله عليه وسلم وصلى على أم كعب ماتت وهي نساء ، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم للصلاة عليها وسطها .

الحادية عشرة - قوله تعالى : (وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْهِ) كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دفن الميت وقف على قبره ودعا له بالثبوت ، على ما بيناه (في التذكرة) والحمد لله .

قوله تعالى : وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٨٥﴾
كرره تأكيداً . وقد تقدم الكلام فيه .

قوله تعالى : وَإِذَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمَنُوا بِهَا لِلَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أَُولُوا الطُّولِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٨٦﴾

انتدب المؤمنون إلى الإجابة وتسلل المنافقون . فالأمر للؤمنين باستدامة الإيمان وللنافقين بابتداء الإيمان . و (أَنْ) في موضع نصب ؛ أي بأن آمنوا . و (الطُّول) النفي ؛ وقد تقدم .
وخصم بالله كره لأن من لا طَوْل له لا يحتاج إلى إئْتٍ لأنه مسذور . (وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ) أي العاجزين عن الخروج .

قوله تعالى : رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَكِنَّ الرُّسُولَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمْ الْأَخْيَرُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾

قوله تعالى : (رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ) « الخوالف » جمع خالفة ؛ أي النساء والصبيان وأصحاب الأعذار من الرجال . بمقتضى يقال للرجل : خالفة وخالف أيضاً إذا كان غير نجيب ؛ على ما تقدم . يقال : فلان خالفة أهله إذا كان دونهم . قال النحاس :

وأصله من خَلَفَ اللَّبَنُ يَخْلَفُ إِذَا خُمَضَ مِنْ طَوْلٍ مَكْنَه . وَخَلَفَ فَمُ الصَّائِمُ إِذَا تَغَيَّرَ رِيحُهُ ؛ وَمِنْهُ فَلَانَ خَلْفَ سَوْءٍ ؛ إِلَّا أَنْ فَوَاعِلَ جَمْعُ فَاعِلَةٍ . وَلَا يَجْعُ « فاعل » صِفَةٌ عَلَى فَوَاعِلَ إِلَّا فِي الشَّعْرِ ؛ إِلَّا فِي حَرْفَيْنِ ، وَهِيَ فَارِسٌ وَهَالِكٌ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى فِي وَصْفِ الْمُجَاهِدِينَ : ﴿ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ ﴾ قِيلَ : الدَّاءُ الْحَسَانُ ؛ عَنْ الْحَسَنِ . دَلِيلُهُ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : « فَبَيْنَ خَيْرَاتٍ حَسَنٌ » . وَيُقَالُ : هِيَ خَيْرَةُ النِّسَاءِ . وَالْأَصْلُ خَيْرَةٌ تَخْفَفُ ؛ مِثْلُ هَيْبَةٍ وَهَيْبَةٍ . وَقِيلَ جَمْعُ خَيْرٍ . فَالْمَعْنَى لَهُمْ مَنَافِعُ الدَّارَيْنِ . وَقَدْ تَقَدَّمَ مَعْنَى الْعِلَاحِ . وَالْجَنَاحُ : الْبَسَاتِينِ . وَقَدْ تَقَدَّمَ أَيْضًا .

قوله تعالى : وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ

كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥٠﴾

قوله تعالى : (وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ) قَرَأَ الْأَعْرَجُ وَالضُّحَّاكُ « الْمُعَذِّرُونَ »

مُخَفَّفًا . وَرَوَاهُ أَبُو كَرِيبٍ عَنْ أَبِي بَكْرٍ عَنْ عَاصِمٍ ، وَرَوَاهُ أَصْحَابُ الْقُرْآنِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ . قَالَ الْجَوْهَرِيُّ : وَكَانَ ابْنُ عَبَّاسٍ يَقْرَأُ « وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ » مُخَفَّفَةً ، مِنْ أَعْذَرَ . وَيَقُولُ : وَاللَّهِ لَمْ كُنَّا أَنْزَلْتُ . قَالَ النَّحَّاسُ : إِلَّا أَنْ مَدَّارَهَا عَلَى الْكَتَافِ ، وَهِيَ مِنْ أَعْذَرَ ؛ وَمِنْهُ قَدْ أَعْذَرَ مِنْ أَعْذَرَ ؛ أَيْ قَدْ بَالِغٌ فِي الْعَذْرِ مِنْ تَقَدَّمَ إِلَيْكَ فَانْفَرَك . وَأَمَّا « الْمُعَذِّرُونَ » بِالتَّشْدِيدِ فَفِيهِ قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا أَنَّهُ يَكُونُ الْحَقُّ ؛ فَهُوَ فِي الْمَعْنَى الْمُعْتَذِرُ . لِأَنَّهُ لَهُ مَعْنَى « يَكُونُ » الْمُعَذِّرُونَ عَلَى هَذِهِ أَصْلُهُ الْمُعْتَذِرُونَ ، وَلَكِنَّ النَّاءَ قَلَبَتْ ذَالًا فَأَدْغَمَتْ فِيهَا وَجَمَلَتْ حَرَكَتَهَا عَلَى الْعَيْنِ ؛ كَمَا قُضِيَ « يَخْتَصِمُونَ » بِفَتْحِ الْخَاءِ . وَيُجُوزُ « الْمُعَذِّرُونَ » بِكسْرِ الْعَيْنِ لِاجْتِمَاعِ السَّاكِنَيْنِ . وَيُجُوزُ ضَمُّهَا لِاتِّبَاعِ اللَّيْمِ . ذَكَرَهُ الْجَوْهَرِيُّ وَالنَّحَّاسُ . إِلَّا أَنَّ النَّحَّاسَ حَكَاهُ عَنِ الْأَخْفَشِ وَالْفَرَّاءِ وَأَبِي حَاتِمٍ وَأَبِي عُبَيْدٍ . وَيُجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْأَصْلُ الْمُعْتَذِرُونَ ، ثُمَّ أَدْغَمَتْ النَّاءُ فِي الْقَالِ ؛ وَيَكُونُونَ الَّذِينَ لَهُمْ مَعْذَرَةٌ . قَالَ لَيْدٌ :

إِلِى الْحَبْسُولِ ثُمَّ أَسِمَ السَّلَامَ عَلَيْكَ • وَمِنْ يَتِّكَ تَحُولًا كَامِلًا فَقَسِدَ اعْتَذَرَ

(١) آية ٧٠ سورة الرحمن . (٢) راجع ج ١ ص ١٨٢ طبع ثانية أرتاة .

(٣) راجع ج ١ ص ٢٢٩ طبع ثانية أرتاة . (٤) آية ١٩ سورة يس .

والقول الآخر أن المعتذر قد يكون غير محق، وهو الذي يعتذر ولا عذر له. قال الجوهري: فهو المعتذر على جهة المفعّل، لأنه المرّض والمقصر يعتذر بغير عذر. قال غيره: يقال عذر فلان في أمر كذا تعذيرا، أي قصر ولم يبلغ فيه. والمعنى أنهم اعتذروا بالكذب. قال الجوهري: وكان ابن عباس يقول: لعن الله المعتذرين. كأن الأمر عنده أن المعتذر بالتشديد هو المظهر للمعذر، اعتلا من غير حقيقة له في العذر. النحاس: قال أبو العباس محمد بن يزيد ولا يجوز أن يكون الأصل فيه المعتذرين، ولا يجوز الادغام فيقع اللبس. ذكر إسماعيل بن إسحاق أن الإدغام مجتنب على قول الخليل وسيبويه، وأن سياق الكلام يدل على أنهم مذمومون لا عذر لهم، قال: لأنهم جاءوا ليؤذّن لهم، ولو كانوا من الضعفاء والمرضى والذين لا يحيدون ما ينفقون لم يحتاجوا أن يستأذّنوا. قال النحاس: وأصل المذرة والاعتذار والتعذير من شيء واحد وهو مما يصعب ويعتذر. وقول العرب: من عذّري من فلان، معناه قد أتى أمرا عظيما يستحق أن أعاقبه عليه ولم يعلم الناس به؛ (فمن يعتذري) إن عاقبته. فعل قراءة التخفيف قال ابن عباس: هم الذين تخلفوا يعتذرا فاذن لهم النبي صلى الله عليه وسلم. وقيل: هم رهن طاهر بن الطفيل قالوا: يا رسول الله، لو غزونا معك أغارت أعراب طي على حلاتنا وأولادنا ومواشيتنا، فعذرهم النبي صلى الله عليه وسلم. وعمل قراءة التشديد في القول الثاني، هم قوم من غفار اعتذروا فلم يعذرهم النبي صلى الله عليه وسلم؛ لعلمه أنهم غير محقين، والله أعلم. وقعد قوم بغير عذر أظهره جراءة على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهم الذين أخبر الله تعالى عنهم فقال: (وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ) والمراد بكذبهم قولهم: إنا مؤمنون. و (لِيُؤْذَنَ) نصب بلام تني.

قوله تعالى: لَيْسَ عَلَى الضَّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَحْدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٧﴾ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيَيْنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَرْنًا أَلَا يَحِيدُوا مَا يُنْفِقُونَ ﴿٣٨﴾

فيه ست مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ عَلَى الضَّعَفَاءِ ﴾ الآية . أصل في سقوط التكليف عن العاجز ؛ فكل من عجز عن شيء سقط عنه ، فتارة إلى بدل هو فعل ، وتارة إلى بدل هو عزم ، ولا فرق بين العجز من جهة القوة أو العجز من جهة المال ؛ ونظير هذه الآية قوله : « لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا » وقوله : « لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ » . وروى أبو داود عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لقد تركتم بالمدينة أقواما ما سرتم نسيرا ولا أنفقتم من نفقة ولا قطعتم من واد إلا وهم معكم فيه » . قالوا : يا رسول الله ، وكيف يكونون . منا وهم بالمدينة ؟ قال : « حبسهم العذر » . فثبتت هذه الآية مع ما ذكرنا من نظائرها أنه لا حرج على المسدورين ، وهم قوم عرف عندهم كارباب الزمانة والمهرم والعصى والمرج ، وأقوام لم يحدا ما ينفقون ؛ فقل : ليس على هؤلاء حرج . ﴿ إِذَا نَصَبُوا يَدَهُ وَرَسُولُهُ ﴾ إذا عرفوا الحق وأحبوا أوليائه وأبغضوا أعداءه . قال العلماء : فعذر الحق سبحانه أصحاب الأعداء . وما صبرت القلوب ؛ فخرج ابن أم مكتوم إلى أحد وطلب أن يعطى اللواء فأخذه مصعب بن عمير ، فبأه رجل من الكفار فضرب يده التي فيها اللواء فقطعها ، فامسكه باليد الأخرى فضرب اليد الأخرى فامسكه بصدرة وقرأ « وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ » . هذه عزائم القوم . والحق يقول : « لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ » وهو في الأول . « وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ » وعمر بن الخطاب من نهباء الانصار أعرج وهو في أول الجيش . قال له الرسول عليه السلام : « إن الله قد عذرك » فقال : والله لأحفرن^(١) برجلي هذه في الجنة ؛ إلى أمثالهم حسب ما تقدم في هذه السورة من ذكرهم رضى الله عنهم . وقال عبد الله بن مسعود : ولقد كان الرجل يرمى به يهادى بين الرجلين حتى يقام في الصف .

(١) آخر سورة البقرة . (٢) آية ١٤٤ سورة آل عمران . (٣) أى يمشى فيها مستندا عليها من ضعفه وخاها . (٤) قال : حفر الطريق إذا أرتبها بمشي عليها . (٥)

الثانية - قوله تعالى : (إِذَا تَصَحُّوا) النصح إخلاص العمل من الفش . ومنه التوبة النصوح . قال تَقَطَّوْهُ : نصح الشيء إذا خَلَصَ . ونصح له القول أى أخذه له .
 وفى صحيح مسلم عن تميم الداري أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " الدين النصيحة " ثلاثا . قلنا لمن ؟ قال : " لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم " . قال الدماء :
 النصيحة لله إخلاص الاعتقاد فى الوجدانية ، ووصفه بصفات الألوهية ، وتزويه عن النقائص ،
 والرغبة فى محبة والبعد من مساخطه . والنصيحة لرسوله : التصديق بنبوته ، والقيام طاعته
 فى أمره ونهيه ، وموالاة من والاه ومعاداة من عاداه ، وتوقيفه ، ومحبة آل بيته ،
 وتخليطه وتعظيم سقته ، وإحيائها بعد موته بالبحث عنها ، والتفقه فيها والذب عنها ونشرها
 والدعاء إليها ، والتخلق بأخلاقه الكريمة صلى الله عليه وسلم . وكذا النصح لكتاب الله : قرأته
 والتفقه فيه ، والذب عنه وتعليمه وإكرامه والتعلق به . والنصح لأئمة المسلمين : ترك
 الخروج عليهم ، وإرشادهم إلى الحق وتبهيهم فيما أغفلوه من أمور المسلمين ، ولزوم طاعتهم
 والقبول بواجب حقهم . والنصح للعامة : ترك معاداتهم ، وإرشادهم وحب الصالحين
 منهم ، والدعاء لجميعهم وإرادة الخير لكانتهم . وفى الحديث الصحيح " مثل المؤمنین
 فى نواصيهم و تراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد
 بالسهر والحمى " .

الثالثة - قوله تعالى : (مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ) " من سبيل " فى موضع رفع
 اسم " ما " أى من طريق إلى العقوبة . وهذه الآية أصل فى رفع العقاب عن كل محسن .
 ولهذا قال علماؤنا : الذى يقتض من قاطع يده يفيض ذلك فى السراية إلى إتلاف نفهم :
 إنه لا دية له ؛ لأنه محسن فى اقتصاصه من المعتدى عليه . وقال أبو حنيفة : نازمه الذية .
 وكذلك إذا صال قتل على رجل فقتله فى دفعه عن نفسه فلا ضمان عليه ؛ وبه قال الشافعى .
 وقال أبو حنيفة : نازمه لمالكه القيمة . قال ابن العربى : وكذلك القول فى مسائل
 الشريعة كلها .

الرابعة - قوله تعالى : (وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ) رُوي أن الآية نزلت في عِرباض بن سارية . وقيل : نزلت في عائذ بن عمرو . وقيل : نزلت في بنى مُقرن - وعلى هذا جمهور المفسرين - وكانوا سبعة إخوة ، كلهم صحبوا النبي صلى الله عليه وسلم ، وليس في الصحابة سبعة إخوة غيرهم ، وهم النعمان ومُعقل وعَقيل وسويد وسانع وساج لم يسم . بنو مقرن المزيّنون سبعة إخوة هاجروا وصحبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يشاركهم - فيما ذكره ابن عبد البر وجماعة - في هذه المكرمة غيرهم . وقد قيل إنهم شهدوا الخندق كلهم . وقيل : نزلت في سبعة نفر من بطون شتي ، وهم البكائن أنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك ليحملهم ، فلم يجد ما يحملهم عليه ، فتولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا ألا يجدوا ما ينفقون ، فسُموا البكائن . وهم سالم بن عمير من بنى عمرو بن عوف وعلبة بن زيد أخو بنى حارثة . وأبو ليل عبد الرحمن بن كعب من بنى مازن بن النجار . وعمرو بن الحُثام من بنى سلمة . وعبد الله بن المغفل المزني ، وقيل : بل هو عبد الله بن عمرو المزني . وهرم بن عبد الله أخو بنى واقف ، وعرباض بن سارية الغزاري ، هكذا سماهم أبو عمر في كتاب الدرر له . وفهم اختلاف . قال القشيري : مُعقل بن يسار وصهر بن خنساء ، وعبد الله بن كعب الأنصاري ، وسالم بن عمير ، وعلبة بن غنمة ، وعبد الله بن معقل وآثر . قالوا : يابى الله ، قد تدبنا للخروج معك ، فاحلنا على الخلفاء المرفوعة والنال المصوفة تفرمك . فقال : « لا أجد ما أحللكم عليه » فتولوا وهم ييكون . وقال ابن عباس : سأله أن يحملهم على الدواب ، وكان الرجل يحتاج إلى سبعرين ، يبيع يركبه ويبيع يحمل مائه وزاده لبعده الطريق . وقال الحسن : نزلت في أبي موسى وأصحابه أنوا النبي صلى الله عليه وسلم ليستحملوه ، ووافق ذلك منه غضبا فقال : « والله لا أحللكم ولا أجد ما أحللكم عليه » فتولوا ييكون ، فدعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأعطاهم ذودا^(١) . فقال أبو موسى :

(١) لم يذكر المؤلف غير خمسة . والذي في الفانوس (مادة فرن) : « وعبد الله وعبد الرحمن وعقيل ومُعقل والنعمان وسويد وسانع ؛ أولاد مقرن كعدت صحابيون » .
(٢) الفرد من الأبل : ما بين الثلاث إلى العشر ؛ وهي تروث لا يراحد لها من قطعها ، والكثير ازواد .

أَلَسْتَ حَلَفْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ فقال : « إِنِّي إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَا أَحْلِفُ عَلَى يَمِينٍ فَأَرَى نَجْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا إِلَّا آيَتِ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ وَكَفَرْتُ عَنْ يَمِينِي » .

قلت : وهذا حديث صحيح أخرجه البخاري ومسلم بلفظه ومعناه . وفي مسلم : فدعا بنا فأمر لنا بجَمَسِ دَوْدَ غَرَّ الدُّرَى ... الحديث . وفي آخره : « فَأَنْطَلِقُوا فَإِنَّمَا حَلَمَكُمُ اللَّهُ » . وقال الحسن أيضا و بكر بن عبد الله : نزلت في عبد الله بن مُغْفَلِ الْمُزَنِيِّ ، أتى النبي صلى الله عليه وسلم يستحمله . قال الجُرْجَانِيُّ : التقدير أى ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم وقلت لا أجد فهو مبتدأ معطوف على ما قبله بنسب واو ، والجواب « تولوا » . (وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضٌ مِنَ الدَّمْعِ) الجملة في موضع نصب على الحال . (حَزَنًا) مصدر . (أَلَّا يَجِدُوا) نصب بأن . وقال النحاس : قال الفراء يجوز أن لا يجدون ؛ يحصل لا بمعنى ليس . وهو جند البصريين بمعنى أنهم لا يجدون .

الخامسة — والجمهور من العلماء على أن من لا يجد ما ينفقه في غَرَّه أنه لا يجب عليه . وقال طبري : إذا كانت عاداته المسألة لزمه كالج وخرج على العادة لأن حاله إذا لم تتغير يتوجه الفرض عليه كتوجهه على الواجد . والله أعلم .

السادسة — في قوله تعالى : (وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضٌ مِنَ الدَّمْعِ) ما يستدل به على قرائن الأحوال . ثم منها ما يفيد العلم الضروري ، ومنها ما يحتمل التردد . فالأول كمن يمر على دار قد علا فيها النوى وتحت الخدود وحلقت الشعور وسُلبت الأصوات ونقرت الجيوب وفادوا على صاحب الدار بالثبور ؛ فيعلم أنه قد مات . وأما الثاني فكدموع الأيتام على أبواب الحكام ، قال الله تعالى مخبرا عن إخوة يوسف عليهم السلام : « وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ » . وهم الكاذبون ؛ قال الله تعالى مخبرا عنهم : « وَجَاءُوا عَلَى قِيصِهِ بِكَلْبٍ » .

(١) أى يضي الأسناء ؛ فإن «التز» جمع الأغر وهو الأبيض . والدرى : جمع ذرة ، وذرة كل شيء أعلاه .

(٢) السابق : شدة الصوت .

ومع هذا فإنها قرائن يستدل بها في الغالب فتنبئ عليها الشهادات بناء على ظواهر الأحوال وغالبها . وقال الشاعر :

إذا استبكت دموع في خدود • تبين من بكي ممن تباكي
وسباني هذا المعنى في « يوسف » مستوفى إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : **إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ** ﴿١٣﴾
قوله تعالى : **(إِنَّمَا السَّبِيلُ)** أى العقوبة والمعام . **(عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ)** والمراد المنافقون . كرر ذكرهم هنا كيد في التحذير من سوء أفعالهم .

قوله تعالى : **يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ تُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَأْنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُزَدُّونَ إِلَى عَذَابِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ** ﴿١٤﴾
قوله تعالى : **(يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ)** يعنى المنافقين . **(لَنْ تُؤْمِنَ لَكُمْ)** أى لن نصدقكم **(قَدْ نَبَأْنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ)** أى أخبرنا بسراركم . **(وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ)** فيما تستأخون **(ثُمَّ تُزَدُّونَ إِلَى عَذَابِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)** أى يمازيكم بعلمكم . وقد مضى هذا كله مستوفى .

قوله تعالى : **سَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا أَلْقَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِيُغَرَضُوا عَنْهُمْ قَافِرُصُوا عَنْهُمْ إِنَّمَا رِجْسٌ وَمَا لَهُمْ جَهَنَّمَ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ** ﴿١٥﴾

قوله تعالى : **(سَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا أَلْقَبْتُمْ إِلَيْهِمْ)** أى من يتوك . والمحلوف عليه محذوف؛ أى يخلفون أنهم ما قدروا على الخروج . **(لِيُغَرَضُوا عَنْهُمْ)** أى لتصفحو عن

لوههم . وقال ابن عباس : أى لا تكلمهم . وفى الخبر أنه قال عليه السلام لما قدم من تبوك : " ولا تجالسهم ولا تكلمهم " . (إِنْهُمْ رَجَسٌ) أى علمهم رجس ؛ والتقدير : انهم ذو رجس ؛ أى علمهم قبيح . (وَمَاوَاهُمْ جَهَنَّمُ) أى منزلهم ومكانهم . قال الجوهري : الماوى كل مكان يأوى إليه شيء ، لبلا أو نارا . وقد أوى فلان إلى منزله يأوى أبواً ، على دول ، وإواء . ومنه قوله تعالى : « سَأْوَى إِلَى جَبَلٍ يَغِيصُنِي مِنَ الْمَاءِ » . وآويته أنا إيواء . وآويته إذا أترته بك ، فملت وأضلت ، بمعنى ؛ عن أبي زيد . وماوى الإبل (بكسر الواو) لغة فى مأوى الإبل خاصة ، وهو شاذ .

قوله تعالى : يَخْلِفُونَ لَكَرَّ لِرَضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٣٦﴾

حلف عبد الله بن أبي الأخطاف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ذلك وطلب أن يرضى عنه .

قوله تعالى : الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٣٧﴾

قوله تعالى : (الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا) فيه مسائلان :

الأول - لما ذكر جل وعز أحوال المنافقين بالمدينة ذكر من كان خارجا منها ونائيا عنها من الأعراب ؛ فقال كفرهم أشد . قال قتادة : لأنهم أبعد عن معرفة السنن . وقيل : لأنهم أقسى قلبا وأجنى قولاً وأغلظ طبعاً وأبعد عن سماع التنزيل ؛ ولذلك قال الله تعالى فى حقهم : (وَأَجْدَرُ) أى أخلق . (الْأَيْسَلُونَ) « أن » فى موضع نصب بحذف الباء ؛ تقول : أنت جدير بأن تفعل وأن تفعل ؛ فإذا حذف الباء لم يصلح إلا بـ « أن » ، وإن أنيت بالباء صلح بـ « أن » وغيره ؛ تقول : أنت جدير أن تقوم ، وجدير بالقيام .

ولو قلت : أنت جدير القيام كان خطأ . وإنما صلح مع « أن » لأن أن يدل على الاستقبال فكأنها عوض من المحذوف . (حُدُودَ مَا أُنْزِلَ اللَّهُ) أى فرائض الشرع . وقيل : صميج الله فى الربوبية وبسطة الرسل لقلة نظرم .

الثانية - ولما كان ذلك ودل على قصصهم وحطهم عن المرتبة الكاملة عن سوام ترتب على ذلك أحكام ثلاثة :

أولها - لا حق لهم فى التوبة والعتبة ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم فى صحيح مسلم من حديث بريدة ، وفيه : " ثم أذهبهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين وأخرجهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين وعليهم ما على المهاجرين فإن أبوا أن يتحولوا عنها فأخرجهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين يجرى عليهم حكم الله الذى يجرى على المؤمنين ولا يكون لهم فى العتبة والتوبة شئ إلا أن يحاهدوا مع المسلمين " .

وثانيها - إسقاط شهادة أهل البادية عن الحاضرة ؛ لما فى ذلك من تحقق التهمة . وأجازها أبو حنيفة قال : لأنها لا تراعى كل تهمة ، والمسلمون كلهم عنده على العدالة . وأجازها الشافعى إذا كان عدلا مرضيا ، وهو الصحيح لما بيناه فى « البقرة » . وقد وصف الله تعالى الأعراب هنا أوصافا ثلاثة : أحدها - بالكفر والنفاق . والثانى - بأنه يتخذ ما ينفع مفرقا ويتربص بكم الدوائر . والثالث - بالإيمان بالله وباليوم الآخر ويتخذ ما ينفع قربات عند الله وصلوات الرسول ، فمن كانت هذه صفته فبعيد ألا تقبل شهادته فيلحق بالثانى والأول ، وذلك باطل . وقد مضى الكلام فى هذا فى « النساء » .

وثالثها - أن إمامتهم بأهل الحاضرة ممنوعة بلهلم بالسنة وتركهم الجمعة . وكره أبو جعفر إمامة الأعرابى . وقال مالك : لا يؤم وإن كان أقرام . وقال مسفيان الثوري والشافعى وإسحاق وأصحاب الرأى : الصلاة خلف الأعرابى جائزة . واختاره ابن المنذر إذا أقام حدود الصلاة .

قوله تعالى: ﴿ أَشَدُّ ﴾ أصله أَشَدُّدٌ وقد تقدم. ﴿ كَثَرًا ﴾ نصب على البيان. ﴿ وَيَقَافًا ﴾ عطف عليه. ﴿ وَأَجْدَرُ ﴾ عطف على أَشَدُّ، ومعناه أحقُّ، يقال: فلان جدير بكذا أى خلق به، وأنت جدير أن تفعل كذا، والمجع جدراء وجدرون. وأصله من جَدَر الحائط وهو رفعه بالبناء. فقوله: هو أجدر بكذا أى أقرب إليه وأحق به. ﴿ أَلَا يَبْقَدُوا ﴾ أى لا يملوا. والعرب: جيل من الناس، والنسبة إليهم عَرَبِيَّ بَيْنَ السُّرُوبَةِ، وهم أهل الأمصار. والأعراب منهم سكان البادية خاصة. وجاء في الشعر الفصيح أعراب والنسبة إلى الأعراب أعرابي لأنه لا واحد له، وليس الأعراب جمعاً للعرب كما كان لأتباط جمعاً لنبط، وإنما العرب اسم جنس. والعرب العاربة هم الحُصْن منهم، وأخذ من لفظه وأكده، كقولك: لَيْلٌ لائل. وربما قالوا: العرب القراء. وتعرب تشبه بالعرب. وتعرب بعد هجرته أى صار أعرابياً. والعرب المستعربة هم الذين ليسوا بخلق، وكذلك المستعربة، والعربية هى هذه اللغة. ويعرب بن خَطَّان أول من تكلم بالعربية، وهو أبو اليمن كاهنهم. والمُرب والمرب واحد، مثل المُجَم والمَجَم. والمُرب تصغير العرب، قال الشاعر:

وَمَكَّنَ الصَّبَابَ طَعَامَ المُرِّيبِ • وَلَا تَسْتَبِيهِ نَفْسُ القَعْمِ^(١)

إنما ضمهم تظليماً، كما قال: أَنَا جُدَيْلُهَا المُحَكِّكُ، وعَدِيْقُهَا المُرِّيبُ^(٢) كله عن الجوهري. وحكى القشيري وجع العربى العرب، وجمع الأعرابي أعراب وأعاريب. والأعرابي إذا قيل له يا عربى فوج، والعربى إذا قيل له يا أعرابى غضب. والمهاجرون والأنصار عرب لا أعراب. وسُميت العرب عرباً لأن ولده إسماعيل نشأوا من عربته وهى من نيامة فلقبوا إليها. وأقامت قريش بحرة وهى مكة، وانتشر سائر العرب في جزيرتها.

(١) البيت لعبد المؤمن بن عبد القدوس. والمكَّن: بض الصبة والجرادة ومحوها. (٢) الجذيل تصغير الحدل، وهو أصل الشجرة. والمحكك: الذى تتحكك به الإبل الجري، وهو عود نصب في مبارك الإبل لذلك. والعديق: تصغير الدق، وهو النخلة. والمرب: الذى جعل له روية، وهى دعامة تبنى حولها من الحجارة. وهو من قول الحباب بن المنذون الموح الأنصارى يوم السقيفة عديمة أبى بكر رضى الله عنه. يريد أنه فخرته الأمور، وله رأى وعلم يشقى بهما كما تنفى الإبل الجري باحتكاكها بالذليل.

قوله تعالى : **وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَخْذُ مَا يَبْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُرِّ الدَّوَارِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** ﴿١١﴾

قوله تعالى : (**وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَخْذُ**) «من» في موضع رفع بالابتداء . (**مَا يَبْفِقُ** مَفْرَمًا) مفعولان ، والتقدير ينفقه ، فخذت الماء لطول الاسم . (**مَغْرَمًا**) مضافاً مَغْرَمًا وخسراناً ، وأصله لزوم الشيء ، ومنه : **«إِنْ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا»** أى لازماً ، أى يرون ما ينفقونه في جهاد وصدقة غَرَمًا ولا يرجون عليه ثواباً . (**وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَارُ**) التربص الانتظار ، وقد تقدم . والدوائر جمع دائرة ، وهى الحالة المتغيرة عن النعمة الى البلية ، أى يعمدون الى الجهل بالإفراق من الدخلة ونخب القلب . (**عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ**) قرأه ابن كثير وأبو عمرو بضم السين هنا وفي الفتح ، وتحتها الباقون . وأجمعوا على فتح السين في قوله : **«مَا كَانَتْ أَبْرَأَ سَوَاءً»** . والفرق بينهما أن السوء بالضم المكروه . قال الأخفش : أى عليهم دائرة المزيمة والشر . وقال الفراء : أى عليهم دائرة العذاب والبلاء . قالوا : ولا يجوز أسراً سوء بالضم ، كما لا يقال : هو أسرؤ عذاب ولا شر . وحكى عن محمد بن يزيد قال : السوء بالفتح الرذالة . قال سيبويه : مررت برجل صدقي ، ومعناه برجل صلاح . وليس من صدق اللسان ، ولو كان من صدق اللسان لما قلت : مررت بشوبه صدقي . ومررت برجل سوء ليس هو من سوءته ، وإنما معناه مررت برجل فساد . وقال الفراء : السوء بالفتح مصدر سوءته وسوءاً وسوائية . قال غيره : والفعل منه ساء يسوء . والسوء بالضم اسم لا مصدر ، وهو كقولك : عليهم دائرة البلاء والمكروه .

قوله تعالى : **وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَخْذُ مَا يَبْفِقُ قُرْبَتْ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتُ الرَّسُولِ أَلَّا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سِذْ خَلُمُ اللَّهِ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ** ﴿١٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَبَيْنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ ﴾ أى صدق . والمراد بنو مُقَرَّن من مُزَيْنَة ، ذكره المهدوي . ﴿ قُرْبَاتٍ ﴾ جمع قُرْبَة ، وهى ما يتقرب به الى الله تعالى ، والجمع قُرْب وقُرْبَات وقُرْبَات وقُرْبَات ، حكاها النحاس . والقربات (بالضم) ما يُتَقَرَّب به الى الله تعالى ، تقول منه : قَرَّبَ لله قُرْبَانَا . والقُرْبَة بكسر القاف ما يستقى فيه الماء ، والجمع فى أدنى العدد قُرْبَات وقُرْبَات وقُرْبَات ، والكثير قُرْب . وكذلك جمع كل ما كان على فِطْلَة ، مثل بِسْطَرَة وفِطْرَة ، لك أن تفتح العين وتكسر وتسكن ، حكاها الجوهري . وقرا نافع فى رواية وَرَّش « قُرْبَة » بضم الراء وهى الأصل . والباقون بسكونها تخفيفا ، مثل كُتِبَ ورُسِّل ، ولا خلاف فى قربات . وحكى ابن سعدان أن يزيد بن القفطاع قرأ : **أَلَا إِنَّهَا قُرْبَة لَمْ** . ومعنى ﴿ وَصَلَّوْا بِرَسُولِ ﴾ استغفاره ودعاؤه . والصلاة تقع على ضروب ، فالصلاة من الله جل وعز الرحمة والخير والبركة ، قال الله تعالى : « هُوَ الَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَيَبَلِّغُكُمْ » . والصلاة من الملائكة الدعاء ، وكذلك هى من النبي صلى الله عليه وسلم ، كما قال : « وَصَلَّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ » أى دعاؤك تثبيت لهم وطمانينة . **(أَلَا إِنَّهَا قُرْبَة لَمْ)** أى تقربهم من رحمة الله ، معنى نفقاتهم .

قوله تعالى : **وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَدَّمُونَ وَالْأَنْصَارُ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَوَضَعَا عَنْهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ** (٣٣) فيه سبع مسائل :

الأولى - لما ذكر أصناف الأعراب ذكر المهاجرين والأنصار ، وبين أن منهم السابقين إلى الهجرة وأن منهم التابعين ، وأثنى عليهم . وقد اختلف فى عدد طبقاتهم وأصنافهم . ونحن نذكر من ذلك طرفا نبين الغرض فيه إن شاء الله تعالى . وروى عن عمر بن الخطاب أنه قرأ « **وَالْأَنْصَارُ** » رفعا عطفا على السابقين . قال الأخفش : الخفض فى الأنصار

الوجه؛ لأن السابقين منهما . والأنصار أسم إسلامي . قيل لأنس بن مالك : أرايت قول الناس لكم : الأنصار، اسم سماكم الله به أم كنتم تدعون به في الجاهلية ؟ قال : بل أسم سمنا الله به في القرآن؛ ذكره أبو عمر في الاستذكار .

الثانية - نص القرآن على تفضيل السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار وهم الذين صلوا إلى القبتين؛ في قول سميد بن المسيب وطائفة . وفي قول أصحاب الشافعي هم الذين شهدوا بيعة الرضوان، وهي بيعة الحُدَيْبِيَّة؛ وقاله الشعبي . وعن محمد بن كعب وعطاء بن يسار : هم أهل بدر . واتفقوا على أن من هاجر قبل تحويل القبلة فهو من الأولين من غير خلاف بينهم . وأما أفضلهم وهي :

الثالثة - فقال أبو منصور البغدادي التيمي : أصحابنا يجمعون على أن أفضلهم الخلفاء الأربعة، ثم الستة الباقون إلى تمام الشيعة، ثم البديريون ثم أصحاب أُحُد ثم أهل بيعة الرضوان بالحُدَيْبِيَّة .

الرابعة - وأما أولهم إسلاما فروى مجاهد عن الشعبي قال : سألت ابن عباس من أول الناس إسلاما ؟ قال أبو بكر، أو ما سمعت قول حسان :

إِذَا تَذَكَّرْتَ تَجَبَّوْا مِنْ أَمْرِ قَوْمٍ • فَأَذْكُرْ أَخَاكَ أَبَا بَكْرٍ بِمَا فَصَّلَا
خَيْرَ السَّيْرِ أَيْقَاسَهَا وَأَعْدَلَهَا • بَعْدَ النَّبِيِّ وَأَوْفَاَهَا بِمَا حَمَلَا
الْبَاقِيَ النَّبِيُّ الْحَمِيدُ مُشْهَدُهُ • وَأَوَّلَ النَّاسِ مِنْهُمْ صَدَقَ الرَّسُلَا

وذكر أبو الفرج الجوزي عن يوسف بن يعقوب بن الماسجشون قال : أدركت أبي وشيخنا محمد بن المنكدر وربيعة بن أبي عبد الرحمن وصالح بن كيسان وسعد بن إبراهيم وعثمان بن محمد الأخنسي وهم لا يشكون أن أول القوم إسلاما أبو بكر؛ وهو قول ابن عباس وحسان وأسماء بنت أبي بكر، وبه قال إبراهيم النخعي . وقيل : أول من أسلم علي؛ روى ذلك عن زيد ابن أرقم وأبي ذر والمقداد وغيرهم . قال الحاكم أبو عبد الله : لا أعلم خلافا بين أصحاب التواريخ أن علياً أولهم إسلاما . وقيل : أول من أسلم زيد بن حارثة . وذكر معمر بن

فذلك من الزهري . وهو غول سليمان بن يسار وعمرو بن الزبير وعمران بن أبي أنس .
وقيل . أول من أسلم خديجة أم المؤمنين ؛ روى ذلك من وجوه عن الزهري ، وهو قول
قنادة ومحمد بن إسماعيل بن يسار وجماعة ، وروى أيضا عن ابن عباس . وأدعى الثعلبي المفسر
إتفاق العلماء على أن أول من أسلم خديجة ، وأن اختلافهم إنما هو فيمن أسلم بعدها .
وكان إسماعيل بن إبراهيم بن رَاهُويَةَ الحنظلي يجمع بين هذه الأخبار ، فكان يقول : أول من أسلم
من الرجال أبو بكر ، ومن النساء خديجة ، ومن الصبيان علي ، ومن الموالى زيد بن حارثة ، ومن
العبيد بلال . والله أعلم . وذكر محمد بن سعد قال : أخبرني مصعب بن ثابت قال حدثني
أبو الأسود محمد بن عبد الرحمن بن نوفل قال : كان إسلام الزبير بعد أبي بكر وكان رابعا
أو خامسا . قال الليث بن سعد وحدثني أبو الأسود قال : أسلم الزبير وهو ابن ثمان سنين .
وروى أن عليا أسلم ابن سبع سنين . وقيل ابن عشر .

الخامسة - والمعروف من طريقة أهل الحديث أن كل مسلم رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو من أصحابه . قال البخاري في صحيحه : من صحب النبي صلى الله عليه وسلم أو رآه
من المسلمين فهو من أصحابه . وروى عن سعيد بن المسيب أنه كان لا يقبض الصحابي إلا من
أقام مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سنة أو سنتين ، وغزا معه غزوة أو غزوتين . وهذا
القول إن صح عن سعيد بن المسيب يوجب ألا يعد من الصحابة جرير بن عبد الله البجلي .
أو من شاركه فيه فقد ظاهر ما اشترطه فيهم مما لا تعرف خلافا في عده من الصحابة .

السادسة - لا خلاف أن أول السابقين من المهاجرين أبو بكر الصديق . قال
ابن العري : السبق يكون بثلاثة أشياء : الصفة وهو الإيمان ، والزمان ، والمكان . وأفضل
هذه الوجوه سبق الصفات ؛ والدليل عليه قوله صلى الله عليه وسلم في الصحيح : "نحن الآخرون
الأولون بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيتنا من هدمهم فهذا يومهم الذي اختلفوا فيه فهذانا
الله له فاليهود غدا والنصارى بعد غد" . فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن من سبقنا من الأمم
بالزمان سبقناهم بالإيمان والامتثال لأمر الله تعالى والالتقياد إليه ، والاستسلام لأمره والرضا

بتكليفه والإحتمال لوظائفه، لا نعترض عليه ولا نخشاه، ولا نبذل بالرأى شريعته كما فعل أهل الكتاب؛ وذلك بتفوق الله لما قضاه، وتيسيره لما رجاه؛ وما كنا لنتهدى لولا أن هدانا الله .

السابعة - قال ابن خُوَزَمَدَاد : تضمنت هذه الآية تفصيل السابقين إلى كل منقبة من مناقب الشريعة، في علم أو دين أو شجاعة أو غير ذلك، في العطاء في المال والربة في الإكرام . وفي هذه المسألة خلاف بين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما . واختاف العلماء في تفصيل السابقين بالعطاء على غيرهم؛ فروى عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه كان لا يفضل بين الناس في العطاء بعضهم على بعض بحسب السابقة . وكان عمر يقول له : اتجمل ذا السابقة كن لاسابقة له ؟ فقال أبو بكر : إنما عملوا لله وأجرهم عليه . وكان عمر يفضّل في خلافه؛ ثم قال عند وفاته : لئن عشت إلى غد لألحق أسفل الناس بأعلامهم؛ فأت من ليته . واختلاف إلى يومنا هذا على هذا الخلاف .

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ ﴾ فيه مسألتان :

الأولى - قرأ عمر « والأنصار » رفعا . « الذين » بإسقاط الواو نعتا للأنصار؛ فراجعهم زيد بن ثابت، فقال عمر أبي بن كعب فصديق زيدا؛ فرجع إليه عمر وقال : ما كنا نرى إلا أنا رفعا رفعة لا ينالها منا أحد . فقال أبي : مصداق ذلك في كتاب الله في أول سورة الجمعة : « وَاتَّبَعِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْعَقُوا لَهُمْ^(١) » وفي سورة الحشر : « وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ^(٢) » . وفي سورة الأنفال بقوله : « وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ^(٣) » . فتبنت القراءة بالواو . وبين تعالى بقوله : ﴿ بِإِحْسَانٍ ﴾ ما يتبعون فيه من أفعالهم وأقوالهم، لا فيما صدر عنهم من المحفوات والزلات؛ إذ لم يكونوا معصومين رضي الله عنهم .

الثانية - واختاف العلماء في التابعين؛ وصرانهم؛ فقال الخطيب الحافظ : التابعي من حسب الصحابي؛ ويقال للواحد منهم : تابع وتابى . وكلام الحاكم أبي عبيد الله وغيره

مُشعر بأنه يكنى فيه أن يسمع من الصحابي أو يلقاه وإن لم توجد الصحبة العرفية . وقد قيل : إن أسم التابعين ينطلق على من أسلم بعد الحُدُويَّة ؛ كخالد بن الوليد وعمرو بن المأص ومن دأبهم من مُسامة الفتح ؛ لما ثبت أن عبد الرحمن بن عوف شكاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد ؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم لخالد : " دَعُوا لِي أَصْحَابِي فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَفْقَى أَحَدُكُمْ كُلَّ يَوْمٍ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مَدَّ إِحْدَهُمْ وَلَا نَفْسُهُ " . ومن المعجب عَدَّ الحَاكِمُ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ التَّمَامَ وَسُوَيْدًا ابْنِي مُقَرَّنَ الزُّنَى فِي التَّابِعِينَ عِنْدَ مَا ذَكَرَ الْإِخْوَةَ مِنَ التَّابِعِينَ ، وَهَما صَحَابِيَانِ مَعْرُوفَانِ مَذْكُورَانِ فِي الصَّحَابَةِ ، وَقَدْ شَهِدَا الْخَنْدَقَ كَمَا تَقْدِمُ . وَاقْه أَعْلَمُ . وَأكْبَرُ التَّابِعِينَ الْفَتَاهَا السَّبْعَةُ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ ، وَهَمَّ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ ، وَالْقَاسِمُ بْنُ مُحَمَّدٍ ، وَعُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ ، وَخَارِجَةُ بْنُ زَيْدٍ ، وَأَبُو سَلَمَةَ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ ، وَهَمَّ سَعِيدُ بْنُ مَسْعُودٍ ، وَسُلَيْمَانُ بْنُ يَسَارٍ . وَقَدْ نَظَّمَهُمْ بِبَعْضِ الْأَجَلَةِ فِي بَيْتٍ وَاحِدٍ فَقَالَ :

نَظَّمَهُمْ عِيْدُ اللَّهِ عُرْوَةُ قَاسِمٌ • سَعِيدٌ أَبُو بَكْرٍ سُلَيْمَانُ خَارِجَةُ

وَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ : أَفْضَلُ التَّابِعِينَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ ؛ فَقِيلَ لَهُ : فَمَلَقْمَةُ وَالْأَسْوَدُ . فَقَالَ : سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ وَعَلَقْمَةُ وَالْأَسْوَدُ . وَعَنهُ أَيْضًا أَنَّهُ قَالَ : أَفْضَلُ التَّابِعِينَ قَيْسُ وَأَبُو عَثَانَ وَعَلَقْمَةُ وَمَسْرُوقٌ ، هَؤُلَاءِ كَانُوا قَاضِلِينَ وَمِنْ عِلَّةِ التَّابِعِينَ . وَقَالَ أَيْضًا : كَانَ عَطَاءُ مَقِيٍّ مَكَّةَ وَالْحَسَنُ مَقِيٍّ الْبَصْرَةَ ، فَهَذَانِ أَكْثَرُ النَّاسِ عَنْهُمْ ، وَأَبُو بَكْرٍ عَنْ أَبِي دَاوُدَ قَالَ : سَيِّدَتَا التَّابِعِينَ مِنَ النِّسَاءِ حَفْصَةُ بِنْتُ سِيرِينَ وَعُمَرَةُ بِنْتُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ ، وَثَانَتُهُمَا - وَلَيْسَتْ كَهُمَا - أُمُّ الْقُرْدَاءِ . وَرَوَى عَنْ الْحَاكِمِ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ قَالَ : طَبَقَةُ تَعَدُّ فِي التَّابِعِينَ وَلَمْ يَصْغَحْ سَمَاقٌ أَحَدَهُمْ مِنَ الصَّحَابَةِ ؛ مِنْهُمْ إِبْرَاهِيمُ بْنُ سُوَيْدٍ التَّخَمِيّ - وَلَيْسَ بِإِبْرَاهِيمَ بْنِ يَزِيدٍ التَّخَمِيّ الْفَقِيهَ ، وَبَكِيرُ بْنُ أَبِي السَّمِيطِ ، وَبَكِيرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْأَشَجِّ . وَذَكَرَ غَيْرُهُمْ قَالَ : وَطَبَقَةُ عَدَدَهُمْ عِنْدَ النَّاسِ فِي أَتْبَاعِ التَّابِعِينَ ، وَقَدْ لَقُوا الصَّحَابَةَ مِنْهُمْ أَبُو الزِّنَادِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ دُثْرَانَ ، لَقِيَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ وَأَنْسَا . وَهَشَامُ بْنُ عُرْوَةَ ، وَقَدْ أُدْخِلَ عَلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ ،

(١) هو عبد الله بن عبد الله بن عتبة . (٢) هو أبو بكر بن عبد الرحمن .

(٣) في التفریب : « السميطة بنتع المهلة » ويقال بانصم .

وجابر بن عبد الله وموسى بن عتبة، وقد أدرك أنس بن مالك . وأُمّ خالد بنت خالد بن سعيد .
 وفي التابعين طبقة تسمى بالمختصرين ، وهم الذين أدركوا الجاهلية وحياة رسول الله صلى الله
 عليه وسلم وأسلموا ولا صحبة لهم . واجدهم مخضرم (بفتح الراء) كأنه خضيرم ، أى قطع عن
 نظرائه الذين أدركوا الصحبة وغيرها . وذكرهم مسلم فبلغ بهم عشرين نفساً ، منهم أبو عمرو
 الشيباني ، وسويد بن غفلة الكندي ، وعمرو بن سميون الأودي ، وأبو عثمان النهدي ،
 وعبد خير بن يزيد الخيراني (بفتح الخاء) ، بلن من همدان ، وعبد الرحمن بن مل . وأبو الحلال
 العنكي ربيعة بن زُرارة . ومن لم يذكره مسلم ، منهم أبو مسلم الخولاني عبد الله بن ثوب ،
 والأحنف بن قيس . فهذه نبذة من معرفة الصحابة والتابعين الذين نطق بفضلهم القرآن
 الكريم ، وضوان الله عليهم أجمعين . وكفانا نحن قوله جل وعز : « كنتم خير أمة أخرجت للناس »
 على ما تقدم . وقوله عز وجل : « وكذلك جعلناكم أمة وسطاً » الآية . وقال رسول الله صلى
 الله عليه وسلم : « وددت أنا قد رأيت إخواننا ... » الحديث . بلغنا إخوانه ، إن اتقينا الله
 واتقينا آثاره حشرنا الله في زمرة ولا حاد بنا عن طريقته وملت بحق عهد وآله .

قوله تعالى : وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُتَشَفُّونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ
 مَرَدُّو عَلَى الْإِتِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ مِّنْهُمْ مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يَرَدُّونَ
 إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾

قوله تعالى : (وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُتَشَفُّونَ) ابتداء وخبر . أى قوم منافقون ؛
 بنى حُرينة وجهينة وأسلم وغفار وأتخيم . (وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُّو عَلَى الْإِتِّفَاقِ) أى قوم
 مردوا على الاتفاق . وقيل : « مردوا » من نعت المنافقين ؛ فيكون في الكلام تقديم وتأخير ،
 المعنى . ومن حولكم من الأعراب منافقون مردوا على الاتفاق ، ومن أهل المدينة مثل ذلك .
 ومعنى : « مردوا » أقاموا ولم يتوبوا ، عن ابن زيد . وقال غيره : بلجأ فيه وأبوا غيره .

والمعنى متقارب . وأصل الكلمة من اللين والملاسة والتجود ؛ فكأنهم تجزؤوا للنفاق . ومنه
وملة مرداء لا نبت فيها . وعصن أمردًا لا ورق عليه . وفوس أمردًا لا شعر على ثنته .
وغلام أمرد بين المرد ، ولا يقال جارية مرداء . وتجريد البناء تليسه ؛ ومنه قوله : « صرَّحُ
مُزْد . » وتجريد المعن تجريده من الورق . يقال مرد مردودا ومبرادة .

قوله تعالى : (لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ) هو مثل قوله « لَا تَعْلَمُهُمْ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ » على
ما تقدم . وقيل : المعنى لا تعلم يا محمد عاقبة أهلكم وإنما نخضع نحن بعلماها ؛ وهذا يمنع
أن يحكم على أحد بجنة أو نار .

قوله تعالى : (سَتَعْلَمُهُمْ مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ) قال ابن عباس :
بالأمرض في الدنيا وعذاب الآخرة . فرض للمؤمن كفارة ، ومرض للكافر عتوبة .
وقيل : العذاب الأول الفضيحة بأطلاع النبي صلى الله عليه وسلم عليهم ؛ على ما يأتي بيانه
في المنافقين . والعذاب الثاني عذاب القبر . الحسن وقادة : عذاب الدنيا وعذاب القبر .
ابن زيد : الأول بالمصائب في أموالهم وأولادهم ، والثاني عذاب القبر . مجاهد : الجوع
والقتل . الفراء : القتل وعذاب القبر . وقيل : السباء والقتل . وقيل : الأول أخذ الزكاة
من أموالهم وإجراها الحسدود عليهم . والثاني عذاب القبر . وقيل : أحد العذابين . ما قال
تعالى : « فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ » إلى قوله — إنما يريد الله ليُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .
والغرض من الآية اتباع العذاب ، أو تضعيف العذاب عليهم .

قوله تعالى : وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرًا
سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنْ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٠١﴾

أى ومن أهل المدينة ومن حولكم قوم أقروا بذنوبهم ، وآخرون مرجون لأمر الله يحكم
فيهم بما يريد . فالنصف الأول يحتمل أنهم كانوا منافقين وما مردوا على النفاق ، ويحتمل

(١) التوبة : مؤخر الرغب ، وهي شجرات مدلاة مشرقا من خلف
(٢) آية ١١ سورة النمل .
(٣) من بار نصر وكرم . (٤) آية ٣ سورة الأفعال
(٥) آية ٥٥ من هذه السورة .

أنهم كانوا مؤمنين . وقال ابن عباس : نزلت في عشرة تحفظوا عن غزوة تبوك ؛ فأوتى سبعة منهم أنفسهم في سواري المسجد . وقال بنحوه قتادة وقال : وفيهم نزل « خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً » ؛ ذكره المهدوي . وقال زيد بن أسلم : كانوا ثمانية . وقيل كانوا ستة . وقيل خمسة . وقال مجاهد : نزلت الآية في أبي لبابة الأنصاري خاصة في شأنه مع بني قريظة ؛ وذلك أنهم كتموه في النزول على حكم الله ورسوله صلى الله عليه وسلم فأشار لهم إلى حلقه . يريد أن النبي صلى الله عليه وسلم يذبحهم إن نزلوا ، فلما انفضح تاب وندم وربط نفسه في سارية من سواري المسجد ، وأقسم ألا يطعم ولا يشرب حتى يغفر الله عنه أو يموت ؛ ففكت كذلك حتى عفا الله عنه ، ونزلت هذه الآية ، وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بحقه ؛ ذكره الطبري عن مجاهد ، وذكره ابن اسحاق في السيرة أَوْعَبَ مِنْ هَذَا . وقال أشهب عن مالك : نزلت « وآخرون » في شأن أبي لبابة وأصحابه ، وقال حين أصاب الذنب : يا رسول الله ، أجاورك وأغلق من مالي ؟ فقال : « يميزك من فلك التث وقد قال تعالى : « خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا » » ورواه ابن القاسم وأبن وهب عن مالك . والجمهور أن الآية نزلت في شأن المتخلفين عن غزوة تبوك ، وكانوا ربطوا أنفسهم كما فعل أبو لبابة ، وعاهدوا الله ألا يطلقوا أنفسهم حتى يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم يطلقهم ويرضى عنهم ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « إنا أنعم بالله لا أطلقهم ولا أعذرهم حتى أؤمر بإطلاقهم رغبوا حتى وتحققوا من الغزو مع المسلمين » فانزل الله هذه الآية ؛ فلما نزلت أرسل اليهم النبي صلى الله عليه وسلم فاطلقهم وعذرهم . فلما أطلقوا قالوا : يا رسول الله ، هذه أموالنا التي خلقتنا عنك ، فصتق بها عنا وطهرنا . واستغفر لنا . فقال : « ما أمرت أن أخذ من أموالكم شيئا » فانزل الله تعالى « خذ من أموالهم صدقة » . قال ابن عباس : كانوا عشرة أنفسهم منهم أبو لبابة ؛ فأخذ ثلث أموالهم وكانت كفارة الذنوب التي أصابوها . فكان علمهم السيئ التخلف بإجماع من أهل هذه المقالة . واختلفوا في الإصلاح ؛ فقال الطبري وغيره : الاعتراف والتوبة والندم . وقيل : علمهم الصالح الذي عملوه أنهم لحقوا برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وربطوا

أنفسهم بسواى المسجد وقالوا : لا تحرب أهلا ولا ولدا حتى ينزل الله عذونا . وقالت فرقة : بل العمل الصالح غرؤهم فياسلف من غزو النبي صلى الله عليه وسلم . وهذه الآية وإن كانت نزلت في أعراب فهي عامة إلى يوم القيامة فيمن له أعمال صالحة وسيئة ، فهي ترى . ذكر الطبري عن حجاج بن أبي زئب قال : سمعت أبا عثمان يقول : ما في القرآن آية أرى عندى لهذه الأمة من قوله تعالى « وَأَخْرَجُوا عَنْ دِينِهِمْ ضَلُّوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَسِيًّا » . وفي البخارى عن سمر بن جندب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لنا : « إنا نى الليلة آيات فانتشأنى فانتشأنى إلى مدينة مبنية بآيين ذهب ولآين فضة فلقنا رجال شطرن من خلقهم كأحسن ما أنت راء وشطرن كأفجع ما أنت راء قالوا لم أذهبوا فقموا فى ذلك النهر فوقوا فيه ثم رجعوا إلنا قد ذهب ذلك السوء عنهم فصاروا فى أحسن صورة قالوا لى هذه جنة مدن وهذاك . فذلك قالوا أما القوم الذى كانوا شطرن منهم حسن وشطرن منهم فبيع فلانهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا تجاوز الله عنهم » . وذكر البيهقي من حديث الزبيد بن أنس عن أبى هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم حديث الإسراء وفيه قال : « ثم صعد بى إلى السماء ... » ثم ذكر الحديث إلى أن ذكر صعوده إلى السماء السابعة فقالوا : « حياه الله من أخ وخليفة ، نعم الأخ ونعم الخليفة ونعم المهيى جاء فإذا برجل أشمط جالس على كرسى عند باب الجنة وعنده قوم بيض الوجوه وقوم سود الوجوه وفى ألوانهم شىء فأتوا نهرأ فاغتسلوا فيه فخرجوا منه وقد خآص من ألوانهم شىء ثم إنهم أتوا نهرأ آخر فاغتسلوا فيه فخرجوا منه وقد خلص من ألوانهم شىء ثم دخلوا النهر الثالث فخرجوا منه وقد خلصت ألوانهم مثل ألوان أصحابهم فجلسوا إلى أصحابهم فقال يا جبريل من هؤلاء بيض الوجوه وهؤلاء الذين فى ألوانهم شىء فدخلوا النهر وقد خلصت ألوانهم فقال هذا أبوك إبراهيم هو أول رجل شتم على الأرض وهؤلاءا بيض الوجوه قوم لم يلبسوا إيمانهم بظلم — قال — وأما هؤلاء الذين فى ألوانهم شىء خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا فأتوا كتاب الله عليهم . فاما النهر الأول فرحمة الله وأما النهر الثانى فنعمة الله .

(١) الشمط : يبيض شعر الرأس بخالط سواده .

وأما النهر الثالث فسقام بهم شرباً طهوراً وذكر الحديث . والواو في « وآخر سينا » قبل
هي بمعنى الباء . وقيل بمعنى مع ؛ كقولك استوى الماء والخشب . وانكر ذلك الكوفيون وقالوا :
لأن الخشب لا يجوز تقديمها على الماء ، و « آخر » في الآية يجوز تقديمه على الأول ؛ فهو
بمثلة خاطت الماء بالين .

قوله تعالى : **خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ**
عَلَيْهِمْ إِنَّ ضَلَاَتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩١﴾
فيه سبع مسائل :

الأول - قوله تعالى : **(خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً)** اختلف في هذه الصدقة المأمور بها ؛
ف قيل : هي صدقة الفرض ؛ قاله جوير عن ابن عباس ، وهو قول عكرمة فيما ذكره القشيري .
وقيل : هو مخصوص بمن نزل فيه ؛ فإن النبي صلى الله عليه وسلم أخذ منهم ثلث أموالهم ،
وليس هذا من الزكاة المفروضة في شيء ؛ ولهذا قال مالك : إذا تصدق الرجل بجميع ماله أجراه
إخراج الثلث ؛ متمسكاً بحديث أبي لبابة . وعلى القول الأول فهو خطاب للنبي صلى الله عليه
وسلم يقتضى بظاهره اقتصاره عليه فلا يأخذ الصدقة سواه ، ويلزم على هذا سقوطها بسقوطه
وزوالها بموته . وبهذا تعلق مانع الزكاة على أبي بكر الصديق وقالوا : إنه كان يعطينا عوضاً
منها التطهير والتركية والصلاة علينا وقد عدتها من غيره . ونظم في ذلك شاعرهم فقال : -

أعلمنا رسول الله ما كان بيننا • فيا عجيباً ما بال ملك أبي بكر
وان الذي سألوكم فنعمتم • لكأنتم أو أهلك لديهم من النعم
سئمهم ما دام فينا بقية • كرام على الضراء في السر واليسر

وهذا صنف من القائلين على أبي بكر امتناعهم طريقة ، وفي حقهم قال أبو بكر : والله لأفانئن
من نزق بين الصلاة والزكاة . ابن العربي : أما قولهم إن هذا خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم
لا يلتحق به غيره فهو كلام جاهل بالقرآن غافل عن مأخذ الشريعة متلاعب بالدين ؛ فإن
لخطاب في القرآن لم يرد بأب واحد ولكن اختلفت موارد على وجوه ؛ فنحن خطاب توجه إلى

جميع الأمة كقوله : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ » وقوله « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ » ونحوه . ومنها خطاب خُصَّ به ولم يشركه فيه غيره لفظا رلا معنى كقوله : « وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ » وقوله : « خَالِدَةً لَّكَ » . ومنها خطاب خُصَّ به لفظا وشركه جميع الأمة معنى وفصيلا كقوله : « أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِكَ الشَّمْسِ » الآية . وقوله : « فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ » وقوله : « وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ » . فكل من ذَكَرَتْ عليه الشمس مخاطب بالصلاة . وكذلك كل من قرأ القرآن مخاطب بالاستعاذة . وكذلك من خاف بقم الصلاة [بتلك الصفة] . ومن هذا القليل قوله تعالى : « خذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا » . وعلى هذا المعنى جاء قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ آتِيَ اللَّهُ » و « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَقْتَ النِّسَاءَ » .

الثانية - قوله تعالى : (مِنْ أَمْوَالِهِمْ) ذهب بعض العرب وهو رموس : إلى أن المسال الثياب والمتاع والمروض . ولا تسمى العين مالا . وقد جاء هذا المعنى في السنة الثابتة من رواية مالك عن نُوَيْرِ بْنِ زَيْدٍ الدَّبَلِيِّ عَنْ أَبِي الْفَيْثِ سَالِمٍ مَوْلَى أَبِي مَطْبِيعٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَامَ خَيْبَرَ فَلَمْ نَعْمَ ذَهَابًا وَلَا وَرِقًا إِلَّا الْأَمْوَالُ الثِّيَابُ وَالْمَتَاعُ . الحديث . وذهب غيرهم إلى أن المسال الصامت من الذهب والورق . وقيل : الإبل خاصة . ومنه قولهم : المسال الإبل . وقيل جميع المشاشية . وذكر ابن الأثير عن أحمد بن يحيى النحوي قال : ما قصر عن بلوغ ما يجب فيه الزكاة من الذهب والورق فليس بمسال . وأنشد :

وَأَنَّهُ مَا بَلَغَتْ لِي قَطْعُ مَا شِئْتُ ۖ حَذَّ الزَّكَاةَ وَلَا إِبِلَ وَلَا مَالَ

قال أبو عمر : والمعروف من كلام العرب أن كل ما يُمْتَلَكُ وَهُوَ مَالٌ ، لقوله صلى الله عليه وسلم : « يَقُولُ ابْنُ آدَمَ مَالِي وَمَالِي وَإِنَّمَا مَالُهُ مِنْ مَالِهِ مَا أَكَلَ فَأَقْبَى أَوْ لَبِسَ فَأَبْلَى أَوْ تَصَدَّقَ

- | | | |
|--------------------------|---------------------------|---------------------------|
| (١) آية ٦ سورة المائدة . | (٢) آية ١٨٣ سورة البقرة . | (٣) آية ٧٨ سورة الاسراء . |
| (٤) آية ٩٨ سورة النحل . | (٥) آية ١٠٢ سورة النساء . | (٦) أول سورة الأحزاب . |
| (٧) أول سورة الطلاق . | | |

فأمضى . وقال أبو قتادة : فأعطاني الدرع فاجتمعت به تخمراً في بني سلمة ، فإنه لأول مال تأمّنته في الإسلام . فمن حلف بصدقة ماله كله فذلك على كل نوع من ماله ، سواء كان مما تجب فيه الزكاة أو لم يكن ، إلا أن ينوي شيئاً بعينه فيكون على ما نواه . وقد قيل : إن ذلك على أموال الزكاة . والعلم محيط واللسان شاهد بأن ما تملك يسمى مالا . والله أعلم .

الثالثة - قوله تعالى : (خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً) مطلق غير مقيد بشرط في المأخوذ والمأخوذ منه ، ولا تبيين مقدار المأخوذ ولا المأخوذ منه ؛ وإنما بيان ذلك في السنة والإجماع ، حسب ما نذكره . فتؤخذ الزكاة من جميع الأموال . وقد أوجب النبي صلى الله عليه وسلم الزكاة في المواشي والحبوب والعين ، وهذا مالا خلافاً فيه . واختلفوا فيما سوى ذلك كالخيل وسائر العروض . وسيأتي ذكر الخيل والعسل في « النحل » إن شاء الله . روى الأئمة عن أبي سعيد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " ليس فيما دون خمسة أوسق من التمر صدقة وليس فيما دون خمس أواق من الوريق صدقة وليس فيما دون خمس ذود من الإبل صدقة " . وقد مضى الكلام في « الأنعام » في زكاة الحبوب وما تنبت الأرض مستوفى . وفي المعادن في « البقرة » وفي الحل في هذه السورة . وأجمع العلماء على أن الأوقية أربعون درهماً ، فإذا ملك الحر المسلم مائتي درهم من فضة مضروبة - وهي الخمس أواق المنصوصة في الحديث - حولاً كاملاً فقد وجبت عليه صدقتها ، وذلك ربع عشرها خمسة دراهم . وإنما اشترط الحول لقوله عليه السلام : " ليس في مال زكاة حتى يحول عليه الحول " . أخرجه الترمذي . وما زاد على المائتي درهم من الورق فيحسب ذلك في كل شيء منه ربع عشره قل أو أكثر ؛ هذا قول مالك والليث والشافعي وأكثر أصحاب أبي حنيفة وابن أبي ليلى والثوري والأوزاعي وأحمد بن حنبل وأبي ثور وإسحاق وأبي عبيد . وروى ذلك عن علي وابن عمر . وقالت طائفة : لا شيء فيما زاد على المائتي درهم حتى تبلغ الزيادة أربعين درهماً ، فإذا بلغت

(١) الحرف (بالفتح) : القطعة الصغيرة من النحل ، ست أوسق يشتر بها الرجل حفرة (لجن) . وقيل : من جماعة الصنف ما يلتصق . (٢) تأمل مالا : اكتسب واتخذته ومعه (٣) رابع ج ٧ ص ٩٨ وما بعدها طيبة أملاً أو ثمانية : (٤) رابع ج ٣ ص ٣٢١ وما بعدها .

كان فيها درهم وذلك ربع عشرها . هذا قول سعيد بن المسيب والحسن وعطاء وطلوس والشعبي والزهرى ومكحول وعمرو بن دينار وأبى حنيفة .

الرابعة - وأما زكاة الذهب فالجمهور من العلماء على أن الذهب إذا كان عشرين ديناراً قيمته مائتا درهم فإن زاد أن الزكاة فيها واجبة؛ على حديث على، أخرجه الترمذى عن حمزة والحارث عن على . قال الترمذى : سألت محمد بن اسماعيل عن هذا الحديث فقال كلاهما عندى صحيح عن أبى اسحاق؛ يحتمل أن يكون عنهما جميعاً . وقال الباقى فى المتقى : وهذا الحديث ليس بإسناده هناك ، غير أن اتفاق العلماء على الأخذ به دليل على صحة حكمه ، والله أعلم . وروى عن الحسن والثورى ، وإليه مال بعض أصحاب داود بن على - على أن الذهب لا زكاة فيه حتى يبلغ أربعين ديناراً . وهذا يردّه حديث على - وحديث ابن عمر وعائشة أن النبى - صلى الله عليه وسلم كان يأخذ من كل عشرين ديناراً نصف دينار ، ومن الأربعين ديناراً ديناراً ، على هذا جماعة أهل العلم إلا من ذكر .

الخامسة - اتفقت الأمة على أن ما كان دون خمس دنانير من الإبل فلا زكاة فيه . فإذا بلغت خمسا ففها شاة . والشاة تقع على واحدة من الفم ، والفم الضأن والمز جميعاً . وهذا أيضا اتفاق من العلماء أنه ليس فى خمس إلا شاة واحدة ؛ وهى فريضتها . وصدقة المواشى مينة فى الكتاب الذى كتبه الصديق لأنس لما وجهه إلى البحرين ؛ أخرجه البخارى وأبو داود والدارقطنى والنسائى وابن ماجه وغيرهم ، وكله متفق عليه . والخلاف فيه فى موضعين ؛ أحدهما فى زكاة الإبل ، وهى إذا بلغت إحدى وعشرين ومائة فقال مالك : المصدق بالخيار إن شاء أخذ ثلاث بنات لبون ، وإن شاء أخذ حقتين . وقال ابن القاسم : وقال ابن شهاب فيها ثلاث بنات لبون إلى أن تبلغ ثلاثين ومائة فيكون فيها حقة وأبنا لبون . قال ابن القاسم : ورأى على قول ابن شهاب . وذكر ابن حبيب أن عبد العزيز بن أبى سلمة وعبد العزيز بن أبى

(١) ابن لوط : وله اثنتان إذا استكمل الة الثانية ، ودخل فى الثالثة . والحق (بالكر) : الذى استكمل

ثلاث سنين ودخل فى الرابعة .

حازم وابن دينار يقولون بقول مالك . وأما الموضع الثاني فهو في صدقة النعم ، وهي إذا زادت على ثلثائة شاة وشاة ؛ فإلى الحسن بن صالح بن حماد قال : فيها أربع شياه . وإذا كانت أربعائة شاة وشاة ففيها خمس شياه ؛ وهكذا كلما زادت ، في كل مائة شاة . وروى عن إبراهيم النخعي مثله . وقال الجمهور : في مائة شاة وثلاثة وثلاثين شياه ، ثم لا شيء . فيها إلى أربعائة فيكون فيها أربع شياه ، ثم كلما زادت مائة ففيها شاة ؛ إجماعا واختفا . قال ابن عبد البر : وهذه مسألة ويهم فيها ابن المنذر ، وحكى فيها عن العلماء الخطأ ، وغلط وأكثر الغلط .

السادسة - لم يذكر البخاري ولا مسلم في صحيحهما تفصيل زكاة البقر . ونزجه أبو داود والترمذي والنسائي والدارقطني ومالك في مؤلفه وهي مرسلة ومقطوعة وموقوفة . قال ابن عمر : وقد رواه قوم عن طاوس عن معاذ ، إلا أن الذين أرسلوه أثبت من الذين أسندوه . ومن أسنده بقية عن المسعودي عن الحكم عن طاوس . وقد اختلفوا فيما ينزج به بقية عن الثقات . ورواه الحسن بن عمار عن الحكم كما رواه بقية عن المسعودي عن الحكم ، والحسن مجتمع على ضعفه . وقد روى هذا الخبر بإسناد متصل صحيح ثابت من غير رواية طاوس ، ذكره عبد الزاق قال : أخبرنا معمر والثوري عن الأعشى عن أبي وائل عن مسروق عن معاذ بن جبل قال : ^(١) يعني رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى النبي ، فأمره أن يأخذ من كل ثلاثين بقرة بقرتين أو ثلثية ، ومن أربعين مئنتة ^(٢) ، ومن كل حالم ديناراً ^(٣) [أو عدله معافراً] ذكره الدارقطني وأبو عيسى الترمذي وصححه . قال أبو عمر . ولا خلاف بين العلماء أن الزكاة في زكاة البقر عن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ما قال معاذ بن جبل : في ثلاثين بقرة بقرتين . وفي أربعين مئنتة ، إلا شيء روى عن سعيد بن المسيب وأبي قلابة والزهرى وقنادة ، فأنهم يوجبون في كل خمس من البقر شاة إلى ثلاثين . فهذه جملة من تفصيل الزكاة بأصولها وقرورها في كتب الفقه . ويأتي ذكر الخلطة في سورة « ص » إن شاء الله تعالى .

(١) البقرة : هذه البقرة في أربعة : والمسن : ما أرفق سنين ودخل في الثالثة . (٢) زيادة عن صحيح الدارقطني والترمذي . (٣) الحافر : يروى باليمن منسوبة إلى معافراً ، وهي قبيلة باليمن . (٤) في قوله تعالى : « وإن كثيرا من الخلطاء ليبغي بعضهم على بعض » آية ٢٤ .

السابعة - قوله تعالى : (صَدَقَ) مأخوذ من الصدق ؛ إذ هي دليل على صحة إيمانه وصدق باطنه مع ظاهره ، وأنه ليس من المنافقين الذين يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ . (تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا) حَالِينَ لِلْمَخَاطِبِ ؛ التقدير : خذها مطهرة لهم وَمُزَكِّيًا لهم بها . ويجوز أن يجعلها صفتين للصدقة ؛ أي صدقة مطهرة لهم مُزَكِّيَّةٌ ، ويكون فاعل تزكيتهم المخاطب ، ويعود الضمير الذي في « بها » على الموصوف المتكر . وحكى النحاس وَمَكِّيَّ أَنَّ « تطهرهم » من صفة الصدقة « وتزكيتهم بها » حال من الضمير في « خُذْ » وهو النبي صلى الله عليه وسلم . ويحتل أن تكون حالا من الصدقة ، وذلك ضعيف لأنها حال من نكحة . نال الزجاج : والأجود أن تكون المخاطبة للنبي صلى الله عليه وسلم ؛ أي فإنك تطهرهم وتزكيتهم بها ، على القطع والاستئناف . ويجوز الجزم على جواب الأمر ، والمعنى : إن تأخذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيتهم ؛ ومنه قول امرئ القيس :

• قفا نكب من ذكرى حبيب ومثل •

وقرأ الحسن تطهيرهم (بسكون الطاء) وهو متغول بالهمزة من طَهَّرَ وأطهرته ، مثل ظهر وأظهرته .

الثامنة - قوله تعالى : (وَصَلَّ عَلَيْهِمْ) أصل في فعل كل إمام يأخذ الصدقة أن يدعو لتصدق بالبركة . روى مسلم عن عبد الله بن أبي أوفى قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أتاه قوم بصدقتهم قال : « اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَيْهِمْ » فأتاه ابن أبي أوفى بصدقته فقال : « اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى آلِ أَبِي أَوْفَى » . ذهب قوم إلى هذا ، وذهب آخرون إلى أن هذا منسوخ بقوله تعالى : « وَلَا تَصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا » . قالوا : فلا يجوز أن يصل على أحد إلا على النبي صلى الله عليه وسلم وحده خاصة ؛ لأنه خُصَّ بذلك . واستدلوا بقوله تعالى : « لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا » الآية . وبأن عبد الله بن عباس كان يقول : لا يصل على أحد إلا على النبي صلى الله عليه وسلم . والأول أصح ؛ فإن الخطاب ليس مقصورا عليه كما تقدم ؛ وبأن في الآية جدد هذا . فيجب الاقتداء برسول الله صلى الله

عليه وسلم ، والناسي به ؛ لأنه كان يمثل قوله : « وَصَلَّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ » أي إذا دعوت لهم حين يأتون بصدقاتهم سَكَنَ ذلك قلوبهم وفريحوا به . وقد روى جابر ابن عبد الله قال : أتاني النبي صلى الله عليه وسلم فقلت لأمرأتى : لا تسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا ؛ فقالت : يخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من عندنا ولا نسأله شيئا ؛ فقالت : يا رسول الله ، صل على زوجى . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « صل الله عليك وعلى زوجك » . والصلاة هنا الرحمة والترحيم . قال النحاس : وحكى أهل اللغة جيما فيها علمناه أن الصلاة في كلام العرب الدعاء ؛ ومنه الصلاة على الجنائز . وقرأ حفص وحزرة والكشاف : « إن صلاتك » بالتوحيد . وجمع الباقون . وكذلك الاختلاف في « أصلاتك تأمرك » وقرئ : « سَكَنَ » بكون الكاف . قال قتادة : معناه وقار لهم . والسكن : ما تسكن به النفوس وتطمئن به القلوب .

قوله تعالى : **أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ أَتَوْابُ الرَّحِيمِ** (١)

فيه مسائل :

الأولى - قيل : قال الذين لم يتوبوا من المتخلفين : هؤلاء كانوا معنا بالأمس ، لا يكفون ولا يحالسون ، فما لم الآن ؟ وما هذه الخاصة التي خصوا بها دوننا ؟ فترأت : « ألم يعلموا » ، فالضمير في « يعلموا » عائد إلى الذين لم يتوبوا من المتخلفين . قال معناه ابن زيد . ويحتمل أن يعود إلى الذين تابوا وربطوا أنفسهم . وقوله تعالى « هو » تأكيد لأفراد الله سبحانه وتعالى بهذه الأمور . وتحقيق ذلك أنه لو قال : أن الله يقبل التوبة لاحتمال أن يكون قبول رسول الله قولاً منه ؛ ثبتت الآية أن ذلك مما لا يصل إليه نجا ولا ملك .

الثانية - قوله تعالى : ﴿ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ ﴾ هذا نص صريح في أن الله تعالى هو الأخذ لها والمثيب عليها وأن الحق له جل وعز، والتي صلى الله عليه وسلم واسطة، فإن توفى فمأله هو الواسطة بعده، والله عز وجل حي لا يموت . وهذا بين أن قوله سبحانه وتعالى « خذ من أموالهم صدقة » ليس مقصورا على النبي صلى الله عليه وسلم . روى الترمذي عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله يقبل الصدقة ويأخذها بيته فيريها لأحدكم كما يري أحدكم مئره حتى أن اللقمة لتصبح مثل أحد وتصدق ذلك في كتاب الله وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات ويحق الله الربا ويرى الصدقات . " قال : هذا حديث حسن صحيح . وفي صحيح مسلم : " لا يتصدق أحد بتمرة من كسب طيب إلا أخذها الله بيته - في رواية - قترى في حكتف الرحمن حتى تكون أعظم من الجبل " الحديث . وروى " إن الصدقة لتقع في كف الرحمن قبل أن تقع في كف السائل فيريها كما يري أحدكم قلوباً أو قصيبه والله يضاعف لمن يشاء " . قال علماؤنا رحمة الله عليهم في تأويل هذه الأحاديث : إن هذا كناية عن القبول والجزاء عليها ، كما كنى بنفسه الكريمة المقدسة عن المريض تعظفاً عليه بقوله : " يابن آدم مرّضت فلم تمّدي " الحديث . وقد تقدم هذا المعنى في « البقرة » . وخصّ اليمين والكف إذ كل قابل لشيء إنما يأخذه بكفه ويبيته أو يوضع له فيه ، فخرج على ما يعرفونه ، والله جل وعز مئره عن الجارحة . وقد جاءت يمين في كلام العرب بغير معنى الجارحة ، كما قال الشاعر :

إذا ما راية رفعت لمجد • تطلقها هراية باليمين

أي هو مؤهل للمجد والشرف ، ولم يرد بها يمين الجارحة ، لأن المجد معنى فاليمين التي تتلقى به رأيته معنى . وكذلك اليمين في حق الله تعالى . وقد قيل : إن معنى " قترى في كف الرحمن " عبارة عن كفة الميزان التي توزن فيها الأعمال ، فيكون من باب حذف المضاف ، كأنه قال : قترى في كفة ميزان الرحمن . وروى عن مالك والثوري وأبن المبارك أنهم قالوا في تأويل هذه

الأحاديث وما شابهها : أَمْرُهَا بِلَا كَيْفَ ، قاله الترمذى وغيره . وهكذا قول أهل العلم من أهل السنة والجماعة .

قوله تعالى : وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلِّمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾

قوله تعالى : (وَقُلْ أَعْمَلُوا) خطاب للجميع . (فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ) أى باطلاعه إياهم على أعمالكم . وفي الخبر : " لو أن رجلا عمل في صحفة لا باب لها ولا كوة لمخرج عمله إلى الناس كانتا ما كان "

قوله تعالى : وَآخِرُونَ مُّرْجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَبْتَلِيهِمْ يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾

نزلت في الثلاثة الذين تيب عليهم : كعب بن مالك وهلال بن أمية من بنى واقف ومُرة ابن الربيع ، وقيل ابن ربيعة القمري ، ذكره المهدوي . كانوا قد تخلفوا عن تبوك وكانوا يأسرون على ما يأتي من ذكركم . والتقدير : ومنهم آخرون مُرْجُونَ ، من أرجأه أى أخرته . ومنه قيل : مُرْجئة ، لأنهم أخروا العمل . وقرا حزة والكسائي « مُرْجُونَ » بغير همز ، فقيل : هو من أرجئته أى أخرته . وقال المبرد : لا يقال أرجئته بمعنى أخرته ، ولكن يكون من الرجاء . (إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَبْتَلِيهِمْ) « إِمَّا » في العربية لأحد أمرين ، والله عز وجل عالم بمصير الأشياء ، ولكن المخاطبة للمباد على ما يعرفون ، أى ليكن أمرهم عندكم على الرجاء لأنه ليس للمباد أكثر من هذا .

قوله تعالى : وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِصْرًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٠٧﴾

فيه عشر مسائل :

مسألة الأولى - قوله تعالى : (وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا) معطوف ، أى ومنهم الذين اتخذوا مسجداً ، عطف جملة على جملة . ويجوز أن يكون رفعا بالابتداء والخبر محذوف كأنه « بعدون » أو نحوه . ومن قرأ « الذين » بغير واو وهى قراءة المدنيين فهو عنده رفع بالابتداء ، والخبر لا تقم : التفسير : الذين اتخذوا مسجدا لا تقم فيه أبداً ، أى لا تقم في مسجدهم ، قاله البكائي . وقال النحاس : يكون خبر الابتداء « لا يزال بنيانهم الذى بنوا ريبةً في قلوبهم » . وقيل « بعدون » كما تقدم . ونزلت الآية فيما روى في أبى عامر الراهب ؛ لأنه كان خرج إلى قيصر وتضرع وهدمهم فيصر أنه مبانيتهم ، فبنوا مسجد القيصر يرسدون بحبه فيه ؛ قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة وغيرهم ، وقد تقدمت قصته في الأعراف . وقال أهل التفسير : إن بنى عمرو بن عوف اتخذوا مسجد قباء ومثوا للنبي صلى الله عليه وسلم أن يأتيتهم فأنهم فصل فيهم ، فهدمهم إخوانهم بنو عُم بن عوف وقالوا : بنى مسجداً ونسب إلى النبي صلى الله عليه وسلم يأتينا فيصل لنا كما صلى في مسجد إخواننا ، ويصل في أبى عامر إذا قدم من الشام ، فأتوا النبي صلى الله عليه وسلم وهو يجهبز إلى تبوك فقالوا : يا رسول الله ، قد بنينا مسجداً لذي الحاجة ، والملة والائلة المطيرة ، ونحب أن نصل لنا فيه وتدعو بالبركة ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " إني على سفر وحالي شغل فلو قدمنا لأتيناكم وصلينا لكم فيه " . فلما انصرف النبي صلى الله عليه وسلم من تبوك أتوه وقد فرغوا منه وصلوا فيه الجمعة والسبت والأحد ، فدعا بقميصه ليلبسه ويأتيتهم فزل عليه الفران بنهر مسجد القيصر ؛ فدعا النبي صلى الله عليه وسلم مالك بن النخشم ومعن بن عدي وعامر بن السخن وخشياً قاتل حمزة ، فقال : " انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدموه وأحرقوه " فخرجوا مسرعين ، وأخرج مالك بن النخشم من منزله شملة فار ، وتهضوا فأحرقوا المسجد وهدموه ، وكان الذين بنوه آخى عشر رجلا : خذام بن خالد من بنى عبيد بن زيد أحد بنى عمرو بن عوف

ومن داره أخرج مسجد الضرار ، ومعتب بن قُشير ، وأبو حبيبة بن الأذعر ، وعَبَاد ابن حُنيف أخو سهل بن حنيف من بني عمرو بن عوف . وجارية بن عامر ، وابناء جُمجع وزيد بن جارية ، وتَبَل بن الحارث ، وبَجَزَج ، وبَجَاد بن عُثَان ، وودبعة بن ثابت ، وعلبة ابن حاطب مذكور فيهم . قال أبو عمر بن عبد البر : وفيه نظر ؛ لأنه شهد بدرًا . وقال عكرمة : سأل عمر بن الخطاب رجلا منهم بماذا أعنت في هذا المسجد ؟ فقال : أعنت فيه بسارية . فقال : أبشرها ! سارية في عنقك من نار جهنم .

الثانية - قوله تعالى : ﴿ ضَرَارًا ﴾ مصدر مفعول من أحله . (وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا) عطف كله . وقال أهل التأويل : ضرارًا بالمسجد ، وليس للمسجد ضرار ، إنما هو لأهله . وروى التذوقُطِيُّ عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا ضَرَر ولا ضِرَار مَنْ ضَارَّ ضَرَّ الله به ومن شاقَّ شاقَّ الله عليه " . قال بعض العلماء : الضرر : الذي لك به منفعة وعلى جارك فيه مضرة . والضَّرَر : الذي ليس لك فيه منفعة وعلى جارك فيه المضرة . وقد قيل هما بمعنى واحد ، تكلم بهما جميعا على جهة التأكيد .

الثالثة - قال علماؤنا : لا يجوز أن يُبنى مسجد إلى جنب مسجد ، ويجب هدمه ؛ والمنع من بنائه لئلا ينصرف أهل المسجد الأول فيبقى شاغرا ، إلا أن تكون المحلة كبيرة فلا يكفي أهلها مسجد واحد فيبنى حينئذ . وكذلك قالوا : لا يَبْنَى أن يبنى في المصر الواحد جامعان وثلاثة ، ويجب منع الثاني ؛ ومن صلى فيه الجمعة لم يُجزئه . وقد أحرق النبي صلى الله عليه وسلم مسجد الضَّرَار وهدمه . وأسند الطبري عن شقيق أنه جاء ليصلي في مسجد بني غاضرة فوجد الصلاة قد فاتته ؛ فقبل له : إن مسجد بني فلان لم يصل فيه بعد ؛ فقال : لا أحب أن أصلي فيه ؛ لأنه بُني على ضرار . قال علماؤنا : وكل مسجد بني على ضرار أو رياء وشُيعة فهو في حكم مسجد الضرار لا تجوز الصلاة فيه . وقال النقاش : يلزم من هذا ألا يصل في كنيسة ونحوها ؛ لأنها بنيت على شر .

(١) كذا في بعض الأصول ، وفي البعض الآخر : « بنى عامرة » . والذي في الطبري : « بنى عامر » .

قالت : هذا لا يلزم ؛ لأن الكنيسة لم يقصد بنائها الضرر بالغير ، وإن كان أصل بنائها على شر ، وإنما اتخذ النصارى الكنيسة واليهود البيعة موضعاً يتعبدون فيه بزعمهم كالمسجد لنا فافترقا . وقد أجمع العلماء على أن من صلى في كنيسة أو بيعة على موضع طاهر أن صلاته ماضية جائزة . وذكر البخاري أن ابن عباس كان يصلي في البيعة إذا لم يكن فيها غائيل . وذكر أبو داود عن عثمان بن أبي العاص أن النبي صلى الله عليه وسلم أمره أن يجعل مسجد الطائف حيث كانت طواغيتهم .

الرابعة - قال العلماء : إن من كان إماماً لظالم لا يصلي وراءه ، إلا أن يظهر عنده أو يتوب ؛ فإن بنى عمرو بن عوف الذين بنوا مسجد قباء سألوا عمر بن الخطاب في خلافته بإذن لمجمع بن جارية أن يصلي بهم في مسجدهم ، فقال : لا ولا نعمة عين ! ليس بإمام مسجد الضرار ! فقال له مجمع : يا أمير المؤمنين ، لا تعجل علي ، فوالله لقد صليت فيه وأنا لا أعلم ما قد أضمرنا عليه ، ولو علمت ما صليت بهم فيه ، كنت غلاماً قارناً للقرآن ، وكانوا شيوخاً قد عاشوا على جاهليتهم ، وكانوا لا يقرءون من القرآن شيئاً ، فصليت ولا أحسب ما صنعتُ إنما ، ولا أعلم بما في أنفسهم ؛ فذره عمر وصدقه وأمره بالصلاة في مسجد قباء .

الخامسة - قال علماؤنا رحمة الله عليهم : وإذا كانت المسجد الذي يتخذ للعبادة وحسن الشرع على بنيائه فقال : " من بنى لله مسجداً ولو كَفَحَ قَطَاةً بنى الله له بيتاً في الجنة " يهدم ويتزعج إذا كان فيه ضرر بغيره ، فما ظنك بسواه ! بل هو أحرى أن يزال ويهدم حتى لا يدخل ضرر على الأقدم . وذلك كمن بنى قوماً أو رعي أو حفر بئراً أو غير ذلك مما يدخل به الضرر على الغير . وضابط هذا الباب : أن من أدخل على أخيه ضرراً منع . فإن أدخل على أخيه ضرراً بفعل ما كان له فعله في ماله فأضر ذلك بجاره أو غير جاره نظر إلى ذلك الفعل ؛ فإن كان تركه أكبر ضرراً من الضرر الداخل على الفاعل قطع أكبر

(١) الموضع الذي نجّم فيه وتبييض .

الضررين وأعظمهما حرمة في الأصول . مثال ذلك : رجل فتح كُوزة في منزله يطلع منها على دار أخيه وفيها العيال والأهل ، ومن شأن النساء في بيوتهن إلقاء بعض ثيابهن والانتشار في حوائجهم ، ومعلوم أن الإطلاع على المورات محرم وقد ورد النهي فيه ؛ فحرمة الإطلاع على المورات رأى العلماء أن يلقوا على فاعح الباب والكوزة ما فتح مما له فيه منفعة وراحة وفي ظفقه عليه ضرر ، لأنهم قصدوا إلى قطع أعظم الضررين ، إذ لم يكن يد من قطع أحدهما . وهكذا الحكم في هذا الباب ، خلافاً للشافعي ومن قال بقوله . قال أصحاب الشافعي : لو حفر رجل في ملكه بئر وحفر آخر في ملكه بئر يسرق منها ماء البئر الأولى جائز ، لأن كل واحد منهما حفر في ملكه فلا يمنع من ذلك . ومثله عندهم : لو حفر إلى جنب بئر جاره كيفية يُسده عليه لم يكن له منه ، لأنه تصرف في ملكه . والقرآن والسنة يردان هذا القول . وبالله التوفيق .

ومن هذا الباب وجه آخر من الضرر منع العلماء منه ، كدخان القرن والحمام وغيرها ^(١) الأندر والدود المتولد من الزبل المسبوط في الزحاب ؛ وما كان مثل هذا فإنه يقطع منه ما بان ضرره وخشي تهاديه . وأما ما كان ساعة خفيفة مثل ففض الثياب والحصر عند الأبواب ؛ فإن هذا مما لا يخفى بالناس عنه ، وليس مما يستحق به شيء ، فنفي الضرر في منع مثل هذا أعظم وأكبر من الصبر على ذلك ساعة خفيفة . ولجاء على جاره في أدب السنة أن يصبر على أذاه على ما يقدر ، كما عليه ألا يؤذيه وأن يحسن إليه .

السادسة - ومما يدخل في هذا الباب مسألة ذكرها إسماعيل بن أبي أويس عن مالك أنه سئل عن امرأة عرّض لها ، يعني تساً من الجن ، فكانت إذا أصابها زوجها وأجبت أو دنا منها يشتد ذلك بها . فقال مالك : لا أرى أن يقربها ، وأرى للسلطان أن يحول بينه وبينها .

(١) الأندر : اليدرة ، وهو الموضع الذي ينداس فيه الطعام .

السابعة - قوله تعالى : (وَكُفِّرَا) لما كان اعتقادهم أنه لا حرمة لمسجد قُباء ولا لمسجد النبي صلى الله عليه وسلم كفروا بهذا الاعتقاد؛ قاله ابن العربي. وقيل : «وكفرا» أى بالنبي صلى الله عليه وسلم وبما جاء به؛ قاله القشيري وغيره .

الثامنة - قوله تعالى : (وَتَقَرَّبَا إِلَى الْمُؤْمِنِينَ) أى يفزقون به جماعتهم ليتخلف أقوام عن النبي صلى الله عليه وسلم . وهذا يدل على أن المقصد الأكبر والغرض الأظهر من وضع الجماعة تأليف القلوب والكلمة على الطاعة، وعقد الذمام والحرمة بفعل الديانة حتى يقع الأئس بالمخالطة، وتصفو القلوب من وضر الأحقاد .

التاسعة - تفضل مالك رحمه الله من هذه الآية فقال : لا يصل جماعتان في مسجد واحد بإمامين؛ خلافا لسائر العلماء . وقد روى عن الشافعي المنع؛ حيث كان تشيئا للكلمة وإطلالا لهذه الحكمة وذريعة إلى أن يقول : من يريد الأفراد عن الجماعة كان له عذر فيقيم جماعته ويقدم إمامته فيقع الخلاف ويبطل النظام ، وخفى ذلك عليهم . قال ابن العربي : وهذا كان شأنه معهم، وهو أثبت قلما منهم في الحكمة وأعلم بمقاطع الشريعة .

العاشرة - قوله تعالى : (وَأَرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ)^(١) يعني أبا عامر الراهب، وسمى بذلك لأنه كان يتعبد ويتمس العلم فأتى كافرين يفسرون بدعوة النبي صلى الله عليه وسلم، فانه كان قال للنبي صلى الله عليه وسلم : لا أجد قوما يقاقلونك إلا قاتلتك معهم؛ فلم يزل يقاقله إلى يوم حنين . فلما انهزمت هوازن خرج إلى الروم يستنصر، وأرسل إلى المنافقين وقال : استمدوا بما استطعتم من قوة وسلاح، وأهبوا مسجدا فاني ذاهب إلى قيصرقأت يجند من الروم لأخرج محمدا من المدينة؛ فبنوا مسجد الضرار . وأبو عامر هذا هو والد حنظلة^(٢) غسيل الملائكة . والإرصاد : الانتظار؛ تقول : أرصدت كذا إذا أمددته مرتقبا له به . قال أبو زيد : يقال رصده وأرصدته في الخير، وأرصدت له في الشر . وقال ابن الأعرابي :

(١) فسر ابن بكسر الهمزة وضع ثابته وتشديده ويكسر : كورة بالثام . (٢) سمى غسيل الملائكة لأنه استنجد يوم أحد وغسله الملائكة؛ وذلك أنه كان قد ألم بأمله في حين نروجه إلى أحد، ثم هجم عليه من الخرج في القبر ما أنشأ السيل وأبعدهم؛ فلما قاتل شيئا أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن الملائكة غسلته . (من الاستنباط) .

لا يقال إلا أرصدت، ومعناه ارتقت . وقوله تعالى : (مِنْ قَبْلُ) أى من قبل بناء مسجد الضرار . (وَلِيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحَسَنَ) أى ما أردنا ببنائه إلا القيلة الحسى، وهى الرفق بالمسلمين كما ذكروا لدى العلة والحاجة . وهذا يدل على أن الأفعال تختلف بالمقصود والإرادات ؛ ولذلك قال وليحلفن إن أردنا إلا الحسى . (وَاللَّهُ يَشْهَدُ أَنَّهُمْ لَكَذِبُونَ) أى يعلم خُبْرَ ضاررهم وكذبهم فيما يحلفون عليه .

قوله تعالى : لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لِمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ . فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ ﴿٢٥﴾

فيه إحدى عشرة مسألة :

الأولى - قوله تعالى : (لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا) ببنى مسجد الضرار؛ أى لا تقم فيه للصلاة . وقد عبر عن الصلاة بالقيام؛ يقال : فلان يقوم الليل أى يصل؛ ومنه الحديث الصحيح : " من قام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه " . أخرجه البخارى عن أبى هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ...؛ فذكره . وقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما نزلت هذه الآية كان لا يمر بالطريق التى فيها المسجد، وأمر بموضعه أن يتخذ مكانة تلقى فيها الجليف والأقذار والقمامات .

الثانية - قوله تعالى : (أَبَدًا) « أبدا » ظرف زمان . وظرف الزمان على قسمين : ظرف مقرر كالיום، وظرف مبهم كالحين والوقت؛ والأبد من هذا القسم، وكذلك الدهر . وتنشأ هنا مسألة أصولية، وهى أن « أبدا » وإن كانت ظرفا مبهما لا عموم فيه ولكنه إذا اتصل بلا النافية أفاد العموم، فلو قال : لا تقم، لكفى فى الانكشاف المطلق . فإذا قال : « أبدا » فكأنه قال فى وقت من الأوقات ولا فى حين من الأحيان . فاما النكرة فى الإثبات إذا كانت خبرا عن واقع لم تعم، وقد فهم ذلك أهل اللسان وقضى به فقهاء الإسلام فقالوا : لو قال رجل لامرأته أنت طالق أبدا طلقت طلقة واحدة .

الثالثة - قوله تعالى : (**لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى**) أى بُيِّتَ جُدْرُهُ وَرُفِعَتْ قواعده . والأُسُّ أصل البناء ؛ وكذلك الأساس . والأسس مفعول منه . وجمع الأسس أساس ؛ مثل عُسٍّ وعِساس . وجمع الأساس أسُس ؛ مثل قَذال وقُدُل . وجمع الأسس أساس ؛ مثل سبب وأسباب . وقد أسست البناء تأمينا . وقولهم : كان ذلك على أُسِّ الدهر ، وأُسِّ الدهر ، وإسِّ الدهر ؛ ثلاث لغات ؛ أى على قِدم الدهر ووجه الدهر . واللام في قوله « **للمسجد** » لام قَسَم . وقيل لام الابتداء ؛ كما تقول : لزيد أحسن الناس فعلا ؛ وهى مفتضية تأكيداً . (**أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى**) نعت لمسجد . (**أَحَقُّ**) خبر الابتداء الذى هو « **للمسجد** » . ومعنى التقوى هنا الخصال التى تُتَّقَى بها العقوبة ، وهى فعلٌ من وقَّيت ، وقد قَدَّمُ .

الرابعة - واختلف العلماء في المسجد الذى أُسِّس على التقوى ؛ فقالت طائفة : هو مسجد قباء ؛ يروى عن ابن عباس والضحاك والحسن . وتعلقوا بقوله : « من أول يوم » ، ومسجد قباء كان أسس بالمدينة أول يوم ؛ فإنه بُنِيَ قبل مسجد النبي صلى الله عليه وسلم ؛ قاله ابن عمر وابن المسيب ، ومالك فيها رواه عنه ابن وهب وأشهب وابن القاسم . وروى الترمذى عن أبي سعيد الخدري : قال تَمَارَى رجلان في المسجد الذى أُسِّس على التقوى من أول يوم ؛ فقال رجل هو مسجد قباء ، وقال آخر هو مسجد النبي صلى الله عليه وسلم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « هو مسجدى هذا » . حديث صحيح . والقول الأول أتبع بالفصة ؛ لقوله « فيه » وخمير الظرف يقتضى الرجال المطهرين ؛ فهو مسجد قباء . والدليل على ذلك حديث أبي هريرة قال : نزلت هذه الآية في أهل قباء « فيه رجال يَحْيُونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا والله يحب المطَّهَّرِينَ » قال : كانوا يستنجون بالماء فنزلت فيهم هذه الآية . قال الشعبي : هم أهل مسجد قباء ، أنزل الله فيهم هذا . وقال قتادة : لما نزلت هذه الآية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأهل قباء : « إن الله سبحانه قد أحسن عليكم الشاء في التطهر

فما تصنعون؟ قالوا : إنا نقتل أثر الفاط والبول بالماء؛ رواه أبو داود . وروى الدارقطني عن طلحة بن نافع قال : حدثني أبو أيوب وجابر بن عبد الله وأنس بن مالك الأنصاريون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذه الآية « فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين » فقال : « يا معشر الأنصار إن الله قد أثنى عليكم خيرا في الطهور فا طهروكم هذا » ؟ قالوا : يا رسول الله، نتوضأ للصلاة ونقتل من الجنابة . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « فهل مع ذلك من غيره » ؟ فقالوا : لا غير ، إن أحدا إذا خرج من الفاط أحب أن يستنجي بالماء . قال : « هو ذلك فليكن » . وهذا الحديث يقتض أن المسجد المذكور في الآية هو مسجد قباء ، إلا أن حديث أبي سعيد الخدري نص فيه النبي صلى الله عليه وسلم على أنه مسجده فلا نظر منه . وقد روى أبو كريب قال : حدثنا أبو أسامة قال حدثنا صالح بن حي أن قال حدثنا عبد الله بن بريدة في قوله عز وجل « فِي بُيُوتٍ أَذْنُ اللَّهِ أَنْ تَرْفَعَ وَيُذَكَّرَ فِيهَا أَسْمَاءُ » قال : إنما هي أربعة مساجد لم يتبين إلا نبي : الكعبة بناها إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ، وبيت أريحا بيت المقدس بناه داود وسليمان عليهما السلام ، ومسجد المدينة ومسجد قباء اللذين أسسا على التقوى ، بناهما رسول الله صلى الله عليه وسلم .

الخامسة - (مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ) « من » عند التحويين مقابلة منذ ، فند في الزمان بمنزلة من في المكان . فقول : إن معناها هنا معنى منذ ، والتقدير : منذ أول يوم ابتدئ بنيانه . وقيل : المعنى من تأسيس أول الأيام ، فدخلت على مصدر الفعل الذي هو أسس كما قال :

لمن الديار بقنسة الخجير • أقوين من يجمع ومن قفير^(١)

(١) هذا البيت مطلع قصيدة لزهير بن أبي سلمى مدح بها هرم بن سنان . والفتنة (بالضم) : أهل الجبل ، وأراد بها هنا ما أشرقت من الأرض . والجهر (بكسر الحاء) : سائر قوم بتاحية الشام عند وادي القري . وأقوين : علون وأضرن . والجمع : السور . (راجع هذا البيت والكلام عليه في الشاهد الرابع والسبعين بعد السجدة من نزاهة الأدب الهنداوي) .

أى من مَرَّ حَجَّج ومن مَرَّ دَهْر . وإنما دعا إلى هذا أن من أصول التحوين أن « من لا يُجْزِئها الأزمان ، وإنما تُجْزِئ الأزمان بمنزلة » تقول ما رأيته منذ شهر أو سنة أو يوم ، ولا تقول : من شهر ولا من سنة ولا من يوم . فإذا وقعت في الكلام وهى عليها زمن فيقدر مضمر يلحق أن يُجْزِئ من ، كما ذكرنا في تقدير البيت . ابن عطية . ويحسن عندي أن يستغنى في هذه الآية عن تقديره ، وأن تكون « من » تجر لفظه « أول » لأنها بمعنى البداءة ؛ كأنه قال : من مبتدأ الأيام .

السادسة - قوله تعالى : (أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ) أى بان تقوم ؛ فهو في موضع نصب . « وأحق » هو أفعل من الحق ، وأفعل لا يدخل إلا بين شيئين مشتركين ، لأحدهما في المعنى الذى اشتركا فيه مَرَبَّة على الآخر ؛ فسجد الضرار وإن كان باطلا لا حق فيه ، فقد اشتركا في الحق من جهة اعتقاد بانيه ، أو من جهة اعتقاد من كان يظن ان القيام فيه جائز للعبودية ؛ لكن أحد الاعتقادين باطل باطنا عند الله ، والآخر حق باطنا وظاهرا ؛ ومثل هذا قوله تعالى : « أَفَتُحِبُّ الْجَنَّةَ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا » ومعلوم أن الخيرية من النار مبعودة ، ولكنه جرى على اعتقاد كل فرقة أنها على خير وأن مصيرها إليه خير ؛ إذ كل حزب بما لديهم فرحون . وليس هذا من قبيل : العسل أحل من الخلل ؛ فإن العسل وإن كان حلوا فكل شيء ملأتم فهو حلوا ؛ ألا ترى أن من الناس من يقدم الخلل على العسل مفردا بمفرد ومضافا إلى غيره بمضاف .

السابعة - قوله تعالى : (فِيهِ) من قال : إن المسجد يراد به مسجد النبي صلى الله عليه وسلم فالحق في « أَحقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ » عائذ إليه ، و « فيه رجال » له أيضا . ومن قال : إنه مسجد قباء ، فالضمير في « فيه » عائذ إليه على الخلاف المتقدم .

الثامنة - أثنى الله سبحانه وتعالى في هذه الآية على من أحب الطهارة وآثر النظافة ، وهى مُروءة آدمية ووظيفة شرعية ، وفى الترمذى عن عائشة أنها قالت : مُرَرْنَا زَوَاجَكُنْ أَنْ يَسْتَيْطِبُوا بِالْمَاءِ فَإِنِّي أَسْتَحْبِبُّ . قال : حديث صحيح . وثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم

كان يحمل الماء معه في الاستنجاء، فكان يستعمل الحجارة تخفيفاً والماء تطهيراً. أبى العرب :
وقد كان علماء القيروان يتخذون في متوضّاتهم أحجاراً في تراب يتقون بها ثم يستنجون بالماء .
التاسعة - اللازم من نجاسة المخرج التخفيف ، وفي نجاسة سائر البدن والتوب
التطهير . وذلك رخصة من الله لعباده في حالتي وجود الماء وعدمه ؛ وبه قال عامة العلماء .
وشدّ ابن حبيب فقال : لا يستجمر بالأحجار إلا عند عدم الماء . والأخبار الثابتة
في الاستنجار بالأحجار مع وجود الماء زوّده .

العاشرة - اختلف العلماء من هذا الباب في إزالة النجاسة من الأبدان والثياب ،
بعد إجماعهم على التجاوز والعفو عن دم البراغيث ما لم يتفاحش على ثلاثة أقوال : الأول -
أنه واجب فرض ، ولا تجوز صلاة من صلى بثوب نجس عالمًا كان بذلك أو ساهياً ؛ روى
عن ابن عباس والحسن وابن سيرين ، وهو قول الشافعي وأحمد وأبي ثور ، ورواه ابن وهب
عن مالك ، وهو قول أبي الفرج المالكي والطبري ؛ إلا أن الطبري قال : إن كانت النجاسة
قدر الدرهم أعاد الصلاة . وهو قول أبي حنيفة وأبي يوسف في مراعاة قدر الدرهم قياساً على
حلقية الدرهم . وقالت طائفة : إزالة النجاسة واجبة بالنسبة من الثياب والأبدان ، وجوب سنة
وليس بفرض . قالوا : ومن صلى بثوب نجس أعاد الصلاة في الوقت فإن خرج الوقت فلا
شيء عليه ؛ هذا قول مالك وأصحابه إلا أبا الفرج ، ورواية ابن وهب عنه . وقال مالك
في يسير الدم : لا تعاد منه الصلاة في وقت ولا بعده ، وتعاد من يسير البول والغائط ؛ ونحو
هذا كله من مذهب مالك قول القيث . وقال ابن القاسم عنه : تجب إزالتها في حالة الذكر
دون النساء ، وهي من مفرداته . والقول الأول أصح إن شاء الله ؛ لأن النبي صلى الله عليه
وسلم مرّ على قبرين فقال : «إنهما ليمدبان وما يمدبان في كبير إنما أحدهما فكان يمتنئ بالقيمة
وأما الآخر فكان لا يستتر من بوله» . الحديث ، خرجه البخاري ومسلم ، وحسبك . وسيأتي
في سورة « سبحان » . قالوا : ولا يمدب الإنسان إلا على ترك واجب ؛ وهذا ظاهر .

(١) في قوله تعالى : « وإن من شيء إلا يسبح بحمده ... » آية ٢١

وروى أبو بكر بن أبي شيبة عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « أكثر عذاب القبر في البول » . احتج الآخرون بملح النبي صلى الله عليه وسلم عليه في الصلاة لما أعلمه جبريل عليه السلام أن فيهما قدرا وأدى ... الحديث . نرجعه أبو داود وغيره من حديث أبي سعيد الخدري ، وسيأتي في سورة « طه » إن شاء الله تعالى . قالوا : ولما لم يُمد ما صل دل على أن إزالتهاسة وصلاته صحيحة ، ويمد ما دام في الوقت طلبا للكمال . والله أعلم .

الحادية عشرة - قال القاضي أبو بكر بن العربي : وأما الفرق بين القليل والكثير بقدر الدرهم البغلي ؛ [يعني كجار الدراهم التي هي على قدر استدارة الدينار] قياسا على المسربة ففاسد من وجهين ؛ أحدهما - أن المقدرات لا تثبت قياسا فلا يقبل هذا التقدير . الثاني - أن هذا الذي خُف عن المسربة رخصة للضرورة ، والحاجة والرخص لا يقاس عليها ؛ لأنها خارجة عن القياس فلا تُرتد إليه .

قوله تعالى : أَفَنُؤَسِّسُ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقَوًى مِّنْ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٍ أَمْ مِّنْ أَسَاسٍ بُنْيَانُهُ عَلَى شَقٍّ جُرُفٍ هَارٍ فَاتَّهَارَ بِهِ فِي نَارٍ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى - قوله تعالى : ﴿ أَفَنُؤَسِّسُ ﴾ أى أصَّل ، وهو استفهام معناه التقرير . و « مِّن » بمعنى اللذين ، وهى في موضع رفع بالابتداء ، وخبره « خير » . وقرأ نافع وابن عامر وجماعة « أَسَّسُ بُنْيَانَهُ » على بناء أسس للقول ورفع ببيان فيها . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحسرة والكسائي « أَسَّسُ بِنْيَانَهُ » على بناء الفعل للفاعل ونصب بِنْيَانَهُ فيها ، وهى اختيار أبي عبيد نخرفة من قرأ به ، وأن الفاعل سَمَّى فيثبه . وقرأ نصر بن عاصم وابن على « أفن

(١) في المسألة الثانية من قوله تعالى : « فاخلع نعليك انك بالراوى المقدس طوى » آية ١٢

(٢) دراهم صربيا رأس البغل لسيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه . (٣) زيادة عن ابن العربي .

(٤) المسربة (بنوع الراى وضها) : بحرى الحدث من الدهر يريد أن الحقة .

أُسُسُ» بالرفع «بُيَانُهُ» بالخفض . وعنه أيضا «أَسَاسُ بَيَانِهِ» وعنه أيضا «أُسُ بَيَانِهِ» بالخفض . والمراد أصول البناء كما تقدم . وحكى أبو حاتم قراءة سادسة وهى «أَفْسُ أَسَاسُ بَيَانِهِ» . قال النحاس : وهذا جمع أُسٍّ كما يقال : خف وأخفاف ، والكثير «إساس» مثل يخاف . قال الشاعر :

أصبح الملكُ ثابتَ الأساس . فى البَهاِيسِلم من بنى القَباسِ^(١)

الثانية - قوله تعالى : (عَلَى قَوَى مِنَ اللَّهِ) قراءة عيسى بن عمر - فيها حكي سيويه - بالتونين ، والألف ألف الحلق كأنف تَتَرَى فيما تَوْنُ ، وقال الشاعر^(٢) :

يَسْتَنُّ فى عِلْقٍ وفى مُكُورٍ^(٣) .

وانكر سيويه التونين ، وقال : لا أدرى ما وجهه . (عَلَى شَفَا) الشفا : الحرف والحد ، وقد مضى فى «آل عمران» مستوف . و(جُرْفٌ) قرئ برفع الزاء ، وأبو بكر وحزمة بإسكانها ، مثل الشُّغْل والشُّغْل ، والرُّسْل والرُّسْل ، يبنى جُرْفًا ليس له أصل . والجُرْفُ : ما يُخْرَفُ بالسيل من الأودية ، وهو جوانبه التى تتحفر بالماء ، وأصله من الجَرْفِ والاجتراف ، وهو اقتلاع الشيء من أصله . (هَارٍ) ساقط ؛ يقال : تهوّر البناء إذا سقط ، وأصله هائر ، فهو من المقلوب قلب وتؤخرهاؤها ، فيقال : هارٍ وهائر ، قاله الزجاج . ومثله لَابَ الشيء به إذا دار ، فهو لَابٍ أى لاثت . وكما قالوا : شاكى السلاح وشائك . قال المصباح :

لَابَ به الأشياء والصُّبْرَى .

الأشياء النخل ، والصُّبْرَى السُّدْر الذى على شاطئ الأنهار . ومعنى لاث به مطيف به . وزعم أبو حاتم أن الأصل فيه هاوز ، ثم يقال هائر مثل صائم ، ثم قلب فيقال هارٍ . وزعم الكسائى أنه من ذوات الواو ومن ذوات الياء ، وأنه يقال : تهوّر وتهير . قلت : ولهذا يمال ويقتح .

(١) وراجع هذا البيت وشرحه فى الأمان ج ٤ ص ٤٤ طبع دار الكتب المصرية . (٢) هو المصباح . وصف ثورا يرمى فى ضرب من الشجر ، واللقن والمكود : غرابان من الشجر . ومعنى يستن : يرمى ، ومن الماشية رعبا . (عن شرح الشواهد) . (٣) وراجع ج ٤ ص ١٦٤ طبة أول أو ثانية .

الثالثة - قوله تعالى : ﴿ فَأَنهَارُهُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ﴾ فاعل أنهار الجحيم؛ كأنه قال : فأنهار الجحيم بالبيان في النار؛ لأن الجحيم مذكور . ويجوز أن يكون الضمير في به يعود على من وهو الباني؛ والتقدير : فأنهار من أسس بنيانه على غير تقوى . وهذه الآية ضرب منسبل لهم . أي من أسس بنيانه على الإسلام خير أم من أسس بنيانه على الشرك والفساق . ومن أن بناء الكافر كبناء على جحيم جهنم يتوزر بأهله فيها . والشفا : الشفير . وأشقى على كذا أي دنا منه .

الرابعة - في هذه الآية دليل على أن كل شيء ابتدئ بنية تقوى الله تعالى والفصد لوجهه الكريم فهو الذي يبق ويتعد به صاحبه ويصعد إلى الله ويرفع إليه ، ويغير عنه بقوله : ﴿ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ على أحد الوجهين . ويغير عنه أيضا بقوله : ﴿ وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ ﴾ على ما يأتي بيانه إن شاء الله تعالى .

الخامسة - واختلف العلماء في قوله تعالى : ﴿ فَأَنهَارُهُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ﴾ هل ذلك حقيقة أو مجاز على قولين ؛ الأول - أن ذلك حقيقة وأن النبي صلى الله عليه وسلم إذا أرسل إليه فهدم رؤى الدخان يخرج منه ؛ من رواية سعيد بن جبير . وقال بمصهم : كان الرجل يدخل فيه سفة من سعف النخل فيخرجها سوداء محترقة . وذكر أهل التفسير أنه كان يحفر ذلك الموضع الذي أنهار فيخرج منه دخان . وروى عاصم بن أبي النجود عن زاذ بن حبيش عن ابن مسعود أنه قال : جهنم في الأرض ، ثم تلا « فأنهار به في نار جهنم » . وقال جابر ابن عبد الله : أنا رأيت الدخان يخرج منه على عبد رسول الله صلى الله عليه وسلم . والثاني - أن ذلك مجاز ، والمعنى : صار البناء في نار جهنم ، فكانه أنهار إليه وهوى فيه ؛ وهذا كقوله تعالى : ﴿ قَامَهُ هَاوِيَةٌ ﴾ . والظاهر الأول ، إذ لا إحالة في ذلك . والله أعلم .

قوله تعالى : لَا يَرَأَى بُيُوتُهُمُ اللَّذِي بَنَوْا رِيسَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾

قوله تعالى : ﴿ لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا ﴾ يعني مسجد الضرار . ﴿ رِيَّةٌ ﴾ أى شكاً في قلوبهم ونفاقاً ، فإله ابن عباس وقادة والضحاك . وقال النابغة :
 حلفتُ فلم أترك لنفسك رِيَّةً . وليس وراء الله لآله مذهبٌ

وقال الكلبي : حسرة وندامة ، لأنهم ندموا على بنيانه . وقال السدي وحبيب والمبرد :
 « رِيَّة » أى حزازة وغيظاً . ﴿ إِلَّا أَنْ تَقْطَعَ قُلُوبُهُمْ ﴾ قال ابن عباس : أى تنصدع قلوبهم فيموتوا ، كقوله : « لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ » لأن الحياء تنقطع بانقطاع الوتين^(١) ، وقالة قسادة والضحاك ومجاهد . وقال سفيان : إلا أن يتوبوا . عكرمة : إلا أن تقطع قلوبهم في قبورهم ، وكان أصحاب عبد الله بن مسعود يقرءونها : رية في قلوبهم ولو قطعت قلوبهم . وقرأ الحسن ويعقوب وأبو حاتم « إلى أن تقطع » على الغاية ، أى لا يزالون في شك منه إلى أن يموتوا فيستيقنوا ويتبينوا ، واختلف القراء في قوله « تَقْطَعُ » فالجمهور « تَقْطَعُ » بضم التاء وفتح القاف وشدة الطاء على الفعل المجهول . وقرأ ابن عامر وحزمة وحفص ويعقوب كذلك إلا أنهم فتحوا التاء . وروى عن يعقوب وأبي عبد الرحمن « تَقْطَعُ » على الفعل المجهول مخففة القاف . وروى عن شبيل وابن كثير « تَقْطَعُ » خفيفة القاف « قلوبهم » نصبا ، أى أنت تفعل ذلك بهم . وقد ذكرنا قراءة أصحاب عبد الله . ﴿ وَأَلَّهُ عَالِمُ حَكِيمٌ ﴾^(٢) تسلم .

قوله تعالى : إِنْ أَلَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمْ الْجَنَّةُ يَقْتُلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنْ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِمَا كُنْتُمْ آلِدِي بَايَعْتُمْ بِهِ . وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٣١﴾

(١) آية ٤٦ سورة الحاقة . (٢) راجع ج ١ ص ٢٨٧ طبع ثانية أرفأفة .

فيه من مسائل :

الأول - قوله تعالى : (إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ) قيل : هذا تمثيل ؛
مثل قوله تعالى : « أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى »^(١) . ونزلت الآية في البيعة الثانية ؛
وهي بيعة العقبة الكبرى ، وهي التي أناف فيها رجال الأنصار على السبعين ، وكان أصغرهم
سَيِّدُ عُبَيْدِ بْنِ عَمْرٍو ؛ وذلك أنهم اجتمعوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم عند العقبة ، فقال
عبد الله بن رَوَاحَةَ للنبي صلى الله عليه وسلم : اشترط لربك ولنفسك ما شئت ؛ فقال النبي صلى
الله عليه وسلم : « اشترطُ لربي أن تبذروه ولا تشركوا به شيئا واشترط لنفسي أن تمنعوني
عما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم » . قالوا : فإذا فعلنا ذلك فما لنا ؟ قال : « الجنة » قالوا :
رَبِّحِ الْبَيْعَ ، لَا تُفِيلُ وَلَا تُسْقِلُ ، فتركت : « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن
لهم الجنة » الآية . ثم هي بعد ذلك عانة في كل مجاهد في سبيل الله من أمة محمد صلى الله
عليه وسلم إلى يوم القيامة .

الثانية - هذه الآية دليل على جواز معاملة السيد مع عبده ، وإن كان الكل للسيد
لكن إذا ملكه غامله فيما جعل إليه . وجائز بين السيد وعبده مالا يجوز بينه وبين غيره ؛ لأن
ماله له وله اتراحه .

الثالثة - أصل الشراء بين الخلق أن يقوضوا عما خرج من أيديهم ما كانت أنفع
لهم أو مثل ما خرج عنهم في النفع ؛ فأشترى الله سبحانه من العباد لثلاث أنفسهم وأموالهم
في طاعته ، وإهلاكها في مرضاته ، وأعطاهم سبحانه الجنة عوضا عنها إذا فعلوا ذلك . وهو
عوض عظيم لا يدانيه المعوض ولا يقاس به ، فأجرى ذلك على مجاز ما يتعارفونه في البيع
والشراء ، فمن العبد تسليم النفس والمال ، ومن الله الثواب والنوال ؛ فسمى هذا شراء .
وروى الحسن قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن فوق كل برٍّ برٌّ حتى يبذل العبد
دمه فإذا فعل ذلك فلا برٍّ فوق ذلك » . وقال الشاعر :

الجود بالمال جود فيه مكربة • والجود بالنفس أقصى غاية الجود

(١) آية ١٦ سورة البقرة .

وَأَشَدُّ الْأَصْحَىٰ بِمُغْفَرِ الصَّادِقِ رَضَىٰ اللَّهُ عَنْهُ :

أَتَأْمِنُ بِالنَّفْسِ الْفَاسِدَةِ وَبِهَا • وليس لما في الخلق كلِّهم ثَمَنٌ
بِهَا تُشْتَرَى الْخَلَاءُ ، إِنْ أَبَيْتُمْ • بَنَى سِوَاهَا إِنْ ذَلِكُمْ غَيْرُ
لَنْ ذَهَبَتْ قَسَىٰ بَدْنِيَا أَصْبَتْهَا • لَقَدْ ذَهَبَتْ قَسَىٰ وَقَدْ ذَهَبَ الثَّمَنُ

قال الحسن : ومَرَّ أَعْرَابِيٌّ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يَقْرَأُ هَذِهِ الْآيَةَ : « إِنْ اللَّهُ
اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ » فَقَالَ : كَلَامٌ مِّنْ هَذَا ؟ قَالَ : « كَلَامُ اللَّهِ » قَالَ : بَيْعٌ وَاللَّهُ
مُرْتَبِعٌ لَا تُقْبَلُ وَلَا تُسْتَفِيلُ • فَنُفِرَ إِلَى الْفَزْوِ وَاسْتَشْهِدَ •

الرابعة — قال العلماء : كما اشترى من المؤمنين بالدين المكلفين كذلك اشترى من
الأطفال قائلهم وأسقمهم ؛ لما في ذلك من المصلحة وما فيه من الاعتبار للبالغين ، فإنهم
لا يكونون عند شيء أكثر صلاحاً وأقل فساداً منهم عند أئم الأطفال ، وما يحصل للوالدين
الكاثرين من الثواب فيما ينالهم من الهَمِّ ويتعلق بهم من التربية والكفالة • ثم هو عز وجل
يؤمِّن هؤلاء الأطفال عوضاً إذا صاروا إليه • ونظير هذا في الشاهد أنك تكثري الأجير لِيَتَنَّى
وَيَسْتَعْلِ السَّرَابَ وَفِي كُلِّ ذَلِكَ لَهُ أَلَمٌ وَأَذَى ، وَلَكِنْ ذَلِكَ جَائِزٌ لِمَا فِي عَمَلِهِ مِنَ الْمَصْلَحَةِ
وَلِمَا يَصِلُ إِلَيْهِ مِنَ الْأَجْرِ •

الخامسة — قوله تعالى : ﴿ يَقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ بيان لما يقاتل له وعليه ؛ وقد
نقدم • ﴿ يَقَاتِلُونَ وَيُقَاتَلُونَ ﴾ فَرَأَى النَّحْيَ وَالْأَعْمَشَ وَحِمَزَةَ الْكِبَايَ وَخَلَّفَ بِتَقْدِيمِ الْمَفْعُولِ
عَلَى الْفَاعِلِ ؛ وَمِنْهُ قَوْلُ أَمْرِئِ الْقَيْسِ :

• فَإِنْ تَقَاتَلْنَا تَقَاتَلْكُمْ ... •

أَيُّ إِنْ تَقَاتَلُوا بَعْضُنَا بِبَعْضِنَا • وَقَرَأَ الْبَاقُونَ بِتَقْدِيمِ الْفَاعِلِ عَلَى الْمَفْعُولِ •

السادسة — قوله تعالى : ﴿ وَوَعَدْنَا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ ﴾ إخبار من
الله تعالى أن هذا كان في هذه الكتب ، وأن الجهاد ومقاومة الأعداء أصله من عهد موسى
عليه السلام • و « وَعَدْنَا » و « حَقًّا » مصدران مؤكَّدان •

السابعة - قوله تعالى : (وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنْ اللَّهِ) أى لا أحد أوفى بعهده من الله ، وهو يتضمن الوفاء بالوعد والوعيد ، ولا يتضمن وفاء الباري بالكل ، فأما وعده فلجميع ، وأما وعيده فمخصوص ببعض المذنبين وبعض الذنوب وفى بعض الأحوال . وقد تقدم هذا المعنى مستوف .

الثامنة - قوله تعالى : (فَاسْتَبِشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ) أى اظهروا السرور بذلك . والبشارة إظهار السرور فى البشارة . وقد تقدم . وقال الحسن : والله ما على الأرض مؤمن إلا يدخل فى هذه البيعة . (وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) أى الظفر بالجنة والخلود فيها .

قوله تعالى : اَلتَّائِبُونَ الْعَبِيدُونَ الْحَمِيدُونَ السَّابِحُونَ الزَّكِيُّونَ السَّاجِدُونَ الْآمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَيَبْشِرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٦﴾
فيه ثلاث مسائل :

الأولى - قوله تعالى : (التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ) التائبون هم الراجعون عن الحالة المذمومة فى معصية الله إلى الحالة المحمودة فى طاعة الله . والتائب هو الراجع . والراجع إلى الطاعة هو أفضل من الراجع عن المعصية لجمعه بين الأمرين . (الْعَابِدُونَ) أى المطيعون الذين قصدوا بطاعتهم الله سبحانه . (الْحَامِدُونَ) أى الزاؤون بقضائه المصروفون نعمته فى طاعته ، الذين يمدون الله على كل حال . (السَّابِحُونَ) الصائمون ؛ عن ابن مسعود وأبن عباس وغيرهما . ومنه قوله تعالى : « عَابِدَاتٍ سَاجِدَاتٍ » . وقال سفيان بن عيينة : إنما قيل للصائم سائح لأنه يترك لذات كلها من الطعام والمشرب والنكاح . وقال أبو طالب :
وبالسائحين لا يذوقون فطرة • لربهم والفاكرات العواميل

وقال آخر :

بِرَأْيِ بَصَلِّ لِسَلِّ وَنَهَارَهُ • يَطَّلُ كَثِيرَ الذِّكْرِ لَلَّهِ سَاعِهَا

وروى عن عائشة أنها قالت : سياحة هذه الأمة الصيام ، أسنده الطبري . ورواه أبو هريرة مرفوعاً عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " سياحة أمتي الصيام " . قال الزجاج : ومذهب الحسن أنهم الذين يصومون الفرض . وقد قيل : إنهم الذين يدعون الصيام . وقال عطاء : السائحون المجاهدون . وروى أبو أمامة أن رجلاً استأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم في السياحة فقال : " إن سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله " . صححه أبو محمد عبد الحق . وقيل : السائحون المهاجرون ، قاله عبد الرحمن بن زيد . وقيل : هم الذين يسافرون لطلب الحديث والعلم ، قاله عكرمة . وقيل : هم الجائلون بأفكارهم في توحيد ربهم وملكوته ، وما خلق من العبر والعلامات الدالة على توحيده وتظيمه ، حكاه النقاش . وحكى أن بعض العباد أخذ القدح ليتوضأ لصلاة الليل فادخل أصبعه في أذن القدح وتمد يفكر حتى طلع الفجر ، فقيل له في ذلك فقال : أدخلت أصبعي في أذن القدح فذكرت قول الله تعالى : « إِذْ الْأَغْلَافُ فِي غَمَاقِهِمْ وَالسَّالِيلُ ^(١) » وذكرت كيف أغلق الغل وبقيت ليل في ذلك أجمع .

قلت : لفظ « سائح » يدل على محبة هذه الأقوال ، فإن السياحة أصلها الذهاب على وجه الأرض كما يسبح الماء ، فالصائم مستمر على الطاعة في ترك ما يتركه من الطعام وغيره ، فهو بمنزلة السائح . والمتفكرون تجول قلوبهم فيما ذكر . وفي الحديث : " إن لله ملائكة سياحين متشائمين في الآفاق يلقونني صلاة أمتي " وروى " صياحين " بالصاد ، من الصياح . (الرَّائِكُونَ السَّاجِدُونَ) يعني في الصلاة المكتوبة وغيرها . (الْآيَمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ) أي بالسنة . وقيل بالإيمان . (وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ) قيل عن البدعة . وقيل عن الكفر . وقيل : هو عموم في كل معروف ومنكر . (وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ) أي القائمون لمسا أمر به والمنتهون عما نهى عنه .

الثانية - واختلف أهل التأويل في هذه الآية، هل هي متصلة بما قبل أو منفصلة، فقال جماعة : الآية الأولى مستقلة بنفسها، يقع تحت تلك المباشرة كلُّ وُحْد قاتل في سبيل الله تكون كلمة الله هي العليا، وإن لم يتصف بهذه الصفات في هذه الآية الثانية أرباباً كثراً، وقالت فرقة : هذه الأوصاف جاءت على جهة الشرط، والآيتان مرتبطتان، فلا يدخل تحت المباشرة إلا المؤمنون الذين هم على هذه الأوصاف ويبدلون أنفسهم في سبيل الله، قاله الضحاك . قال ابن عطية : وهذا القول تخرج وتفريق، ومعنى الآية على ما تقتضيه أقوال العلماء والشرع أنها أوصاف الكفاية من المؤمنين، ذكرها الله ليسبق إليها أهل التوحيد حتى يكونوا في أعلى مرتبة . وقال الزجاج : الذي عندي أن قوله « التائبون العابدون » رفع بالابتداء وخبره مضمرة، أي التائبون العابدون - إلى آخر الآية - لم الجنة أيضاً وإن لم يجاهدوا، إذا لم يكن منهم عناد وقصد إلى ترك الجهاد، لأن بعض المسلمين يجزى عن بعض في الجهاد . واختار هذا القول القشيري وقال : وهذا حسن، إذ لو كان صفة للمؤمنين المذكورين في قوله : « اشترى من المؤمنين » لكان الوعد خاصاً لأجاهددين . وفي مصحف عبد الله « التائبين العابدون » إلى آخرها، ولذلك وجهان : أحدهما العطف للتأنيب على الإجماع . والثاني النصب على المدح .

الثالثة - واختلف العلماء في الوار في قوله : « وَالنَّامُوسَ مِنَ الْمُنْكَرِ » فقيل : دخلت في صفة التائبين كما دخلت في قوله تعالى : « حَسْبُكَ تَزِيلُ الْيَكَاظِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ . قَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ » فذكر بعضها بالواو والبعض بغيرها . وهذا سائغ معتاد في الكلام ولا يطلب لئله حكمة ولا علة . وقيل : دخلت لمصاحبة التامى عن المنكر الأمر بالمعروف فلا يكاد يذكر واحد منهما مفرداً . وكذلك « تَيَّابَاتٍ وَأَبْكَارًا » . ودخلت في « وَالْحَافِظُونَ » لقربه من المعطوف . وقد قيل : إنها زائدة، وهذا ضعيف لا معنى له . وقيل : هي و التائبة، لأن السبعة عد العرب عدد كامل صحيح . وكذلك قالوا في قوله : « تَيَّابَاتٍ وَأَبْكَارًا »

وقوله في أبواب الجنة : « وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا » وقوله : « وَهُمْ يَدْعُونَ سَبْعَةً وَثَانِيَهُمْ كَلِمَةً »^(٢)
وقد ذكرها ابن خالويه في مناظرته لأبي علي الفارسي في معنى قوله : « وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا »
وأَنكرها أبو علي . قال ابن عطية : وحديث أبي رضى الله عنه عن الأستاذ النحوى أبي
عبد الله الكفيع المالكى ، وكان ممن استوطن غرناطة وأقرأ فيها في مدة ابن حبّوس أنه
قال : هي لغة فصيحة لبعض العرب ، من شأنهم أن يقولوا إذا عدوا : واحد اثنان ثلاثة أربعة
خمس ستة سبعة وثمانية تسعة عشرة ؛ وهكذا هي لغتهم . ومنى جاء في كلامهم أمر بمائة
أدخلوا الواو . قلت : هي لغة قريش . وسيأتى بيانه ونقصه في سورة « الكهف »^(٣) إن شاء
الله تعالى وفي الزمر .^(٤)

قوله تعالى : مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ
وَلَوْ كَانُوا أَوْلَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١٧﴾
فيه ثلاث مسائل :

الأولى — روى مسلم عن سعيد بن المسيّب عن أبيه قال : لما حضرت أبا طالب
الوفاة جاءه رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجد عنده أبا جهل وعبد الله بن أبي أمية
ابن المغيرة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا عم ، قل لا إله إلا الله كلمة أشهد لك
بها عند الله » فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية : يا أبا طالب ، أترغب عن ملة عبد المطلب .
فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يُعرضها عليه ويبعده له تلك المقالة حتى قال أبو طالب
آخراً كلمتهم : هو على ملة عبد المطلب ، وأبى أن يقول لا إله إلا الله . فقال رسول
الله صلى الله عليه وسلم : « أما والله لأستغفرن لك ما لم أُنْهَ عك » فأقر الله عز وجل
« مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أَوْلَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ
أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ » . وأُنزل الله في أبي طالب فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِنَّكَ

(١) آية ٧٣ سورة الزمر . (٢) آية ٢٢ سورة الكهف . (٣) في قوله تعالى : « يستغفرون »
ثلاثة وأربعين كلمة ... آية ٢٢ (٤) في قوله تعالى : « وسبق الذين انقروا بهم ... » آية ٧٣

لَا تَهْدِي مَنْ أَحَبَّتْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ^(١) . فالآية على هذا ناسخة لاستغفار النبي صلى الله عليه وسلم لعمه ؛ فإنه استغفر له بعد موته على ما روى في غير الصحيح . وقال الحسين بن الفضل : وهذا بعيد ؛ لأن السورة من آخر ما نزل من القرآن ، ومات طالب في عفوان الإسلام والنبي صلى الله عليه وسلم بمكة .

الثانية - هذه الآية تضمنت قطع موالاة الكفار حبيهم ومبتهم ؛ فإن الله لم يجعل للمؤمنين أن يستغفروا للمشركين ؛ فطلبُ الغفران للمشرك مما لا يجوز . فان قيل : فقد سمح أن النبي صلى الله عليه وسلم قال يوم أحد حين كسروا ربابيته وتجهوا وجهه : ” اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ” فكيف يمنع هذا مع منع الله تعالى رسوله والمؤمنين من طلب المغفرة للمشركين . قيل له : إن ذلك القول من النبي صلى الله عليه وسلم إنما كان على سبيل الحكاية عمن تقدمه من الأنبياء ؛ والدليل عليه ما رواه مسلم عن عبد الله قال : كأني أنظر إلى النبي صلى الله عليه وسلم يحكى نبياً من الأنبياء ضربه قومه وهو يمسح الدم عن وجهه ويقول : ” رَبِّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ” . وفي البخاري أن النبي صلى الله عليه وسلم ذكر نبياً قبله نتجه قومه فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يخبر عنه بأنه قال : ” اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ” .

قلت : وهذا صريح في الحكاية عن قبله ؛ لا أنه قاله ابتداء عن نفسه كما ظنه بعضهم . والله أعلم . والنبي الذي حكاه هو نوح عليه السلام ؛ على ما يأتي بيانه في سورة « هود » إن شاء الله . وقيل : إن المراد بالاستغفار في الآية الصلاة . قال بعضهم : ما كنت لأدع الصلاة على أحد من أهل القبلة ولو كانت حبشية حبل من الزن ؛ لأني لم أسمع الله سبحانه يحجب الصلاة إلا عن المشركين بقوله : « مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ » الآية . قال عطاء بن أبي رباح : الآية في النهي عن الصلاة على المشركين ، والاستغفار هنا يراد به الصلاة . جواب ثالث - وهو أن الاستغفار للأحياء جائز ؛ لأنه مرجو إيمانهم ، ويمكن

نالهم بالقول الجليل وترغيم في الذين . وقد قال كثير من العلماء : لا بأس أن يدعو الرجل لأبيه الكافرين ويستغفر لها مادام حين . فاما من مات فقد انقطع عنه الرجاء فلا يدعى له . قال ابن عباس : كانوا يستغفرون لموتاهم فتركت ، فاسكوا عن الاستغفار ولم ينهم أن يستغفروا للأحياء حتى يموتوا .

الثالثة - قال أهل المعاني : « ما كان » في القرآن يأتي على وجهين : على النفي نحو قوله : « مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا » ، « وَمَا كَانَ لَنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ » . والآخر بمعنى النهي كقوله : « وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ » ، و « مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلشَّركِينَ » .

قوله تعالى : وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴿١١١﴾
فيه ثلاث مسائل :

الأولى - روى النسائي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : سمعت رجلا يستغفر لأبيه وما مشركان ، فقلت : استغفر لها وما مشركان؟ فقال : أو لم يستغفر إبراهيم عليه السلام لأبيه . فأنيت النبي صلى الله عليه وسلم فذكرت ذلك فتركت (وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ) . والمعنى لا حجة لكم أيها المؤمنون في استغفار إبراهيم الخليل عليه السلام لأبيه ، فإن ذلك لم يكن إلا عن عِدَةٍ . قال ابن عباس : كان أبو إبراهيم وعد إبراهيم الخليل أن يؤمن بالله ويخلع الأنداد ، فلما مات على الكفر علم أنه عدو الله ، فترك الدعاء له ، فالكنية في قوله : « إياه » ترجع إلى إبراهيم ، والواعد أبوه . وقيل : الواعد إبراهيم ، أي وعد إبراهيم إياه أن يستغفره فأغلبا مات مشركا تبأ منه . ودل على هذا الوعد قوله : « سَأَسْتَغْفِرُكَ رَبِّي » . قال القاضي أبو بكر بن العربي : تعلق النبي صلى الله عليه عليه وآله وسلم على أبيه .

(١) آية ٦٠ سورة النمل . (٢) آية ١٤٥ سورة آل عمران . (٣) آية ٥٣ سورة الأواب . (٤) آية ٤٧ سورة ص .

وسلم في الاستغفار ذنب طالب بقوله تعالى : « ساستغفر لك ربّي » فأخبره الله تعالى أن استغفار إبراهيم لأبيه كان وعدا قبل أن يتبين الكفر منه ، فلما تبين له الكفر منه تبرأ منه ، فكيف تستغفر أنت لملك يا محمد وقد شاهدت موته كافرا .

الثانية - ظاهر حالة المرة عند الموت يُحكم عليه بها ، فإن مات على الإيمان حكم له به ، وإن مات على الكفر حكم له به ، وربك أعلم بباطن حاله ؛ بيد أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له العباس : يا رسول الله ، هل نعت عمك بشئ ؟ قال : « نعم » . وهذه شفاعته في تخفيف العذاب لا في الخروج من النار ، على ما بيناه في كتاب « التذكرة » .

الثالثة - قوله تعالى : (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ) اختلف العلماء في الأَوْاه على خمسة عشر قولاً : الأول - أنه الدَّعاء الذي يكثر الدعاء ؛ قاله ابن مسعود وعبيد بن عمير . الثاني - أنه الرحيم عباد الله ؛ قاله الحسن وقتادة ، وروى عن ابن مسعود . والأول أصح إسناداً عن ابن مسعود ؛ قاله النحاس . الثالث - أنه الموقن ؛ قاله عطاء وعكرمة ، ورواه أبو ظبيان عن ابن عباس . الرابع - أنه المؤمن بلسنة الحبشة ؛ قاله ابن عباس أيضاً . الخامس - أنه المسبح الذي يذكر الله في الأرض الفقر الموحشة ؛ قاله الكلبي وسعيد ابن المسيب . السادس - أنه الكثير الذكر لله تعالى ؛ قاله عقبة بن عامر ، وذكر عند النبي صلى الله عليه وسلم رجل يكثر ذكر الله ويسبح فقال : « إنه لأَوَّاه » . السابع - أنه الذي يكثر تلاوة القرآن . وهذا مروى عن ابن عباس .

قلت : وهذه الأقوال متداخلة وتلاوة القرآن يجمعها . الثامن - أنه المتأوه ؛ قاله أبو نذر . وكان إبراهيم عليه السلام يقول : « آه من النار قبل ألا تنفع آه » . وقال أبو نذر : كان رجل يكثر الطواف بالبيت ويهول في دعائه : أَوْه أَوْه ؛ فشكاه أبو نذر إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : « دعه فإنه أَوَّاه » فخرجت ذات ليلة فإذا النبي صلى الله عليه وسلم يدفن ذلك الرجل ليلاً ومعه المصباح . التاسع - أنه الفقيه ؛ قاله مجاهد والنخعي . العاشر - أنه المتضرع الخاشع ؛ رواه عبد الله بن شداد بن الحاد عن النبي صلى الله عليه وسلم . وقال أنس : تكلمت امرأة عند النبي صلى الله عليه وسلم بكراهة فنهاها عمر فقال النبي صلى الله عليه وسلم

وسلم : « دَعَوْهَا فَلَهَا أَرْزَاعَةٌ » قيل : يا رسول الله ، وما الأَرْزَاعَةُ ؟ قال : « الخِشَاشَةُ » .
 الحادى عشر — أنه الذى إذا ذكر خطاياهُ استغفرَ منها ؛ قاله أبو أيوب . الثانى عشر —
 أنه الكثيرُ النَّازَةِ مِنَ الذُّنُوبِ ؛ قاله الفراء . الثالث عشر — أنه المعلمُ ^{للذِّكْرِ} ؛ قاله سعيد
 ابن جبير . الرابع عشر — أنه الشَّفِيقُ ؛ قاله عبد العزيز بن يحيى . وكان أبو بكر الصديق
 رضى الله عنه يُسَمَّى الأَرْزَاءَ لشفقته ورأفته . الخامس عشر — أنه الراجعُ عن كل ما يكرهه الله
 تعالى ؛ قاله عطاء . وأصله من النَّازَةِ ، وهو أن يُسمع للصدر صوت من تنفس الصَّعْدَاءِ .
 قال كعب : كان إبراهيم عليه السلام إذا ذكر النار نازَه . قال الجوهري : قولهم عند الشكَاية
 أَوْه من كَذَا (ساكنة الواو) إنما هو تَوَجُّع . قال الشاعر :

فأَوْهَ لَدَ كَرَاهَا إِذَا مَا ذَكَرْتَهَا • وَمِنْ جُدِ أَرْضِ بَيْنَنَا وَحِمَا

وربما قبلوا الواو ألفا فقالوا : آه من كَذَا . وربما شذَّذوا الواو وكسروها وسكنوا المَاءَ
 فقالوا : أَوْه من كَذَا . وربما حذفوا مع التشديد المَاءَ فقالوا : أَوْ من كَذَا ؛ فلا مد .
 وبعضهم يقول : أَوْه ، بالمد والتشديد وفتح الواو ساكنة المَاءَ لتطويل الصوت بالشكَاية .
 وربما أدخلوا فيها التاء فقالوا : أَرْزَاءَ ؛ بمد ولا يمد . وقد أَوْه الرجل تَأْوِيَهَا تَأْوَاهُ تَأْوَاهَا إِذَا
 قَالَ أَوْه . والاسم منه الآه بالمد . قال المُنْتَقِبُ البَيْهَقِيُّ :

إِذَا مَا قُتُّ أَرْحَلَهَا بِلِيلٍ • تَأْوَهُ أَمَةٌ الرَّجُلِ الْحَزِينِ

والحليم : الكثيرُ الحلم ، وهو الذى يصفح عن الذُّنُوبِ ويصبر على الأذى . وقيل : الذى لم
 يعاقب أحدا قط إلا فى الله ولم ينصر لأحد إلا الله . وكان إبراهيم عليه السلام كذلك ،
 وكان إذا قام يصلى سَمِعَ وَجِبَّ قَلْبُهُ عَلَى مِيلِينَ .

قوله تعالى : وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَهُمْ حَتَّى يَسِيرَ
 لَهُمْ مَا يَشْتَقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٥﴾ إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ
 وَالْأَرْضِ يُحْيِيهِ وَيُمِيتُهُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٦﴾

(٢) وجب القلب : خفقانه واضطرابه .

(١) سلم كل شئ : مثله .

قوله تعالى : (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ) أي ما كان الله ليوقع الضلالة في قلوبهم بعد الهدى حتى يبين لهم ما يتقون فلا يتقوه ، فبعد ذلك يستحقون الإضلال . قلت : ففي هذا أدل دليل على أن المعاصي إذا ارتكبت واشتبهت بها كانت سببا إلى الضلالة والردى ، وسلما إلى ترك الرشاد والهدى . نسأل الله السداد والتوفيق والرشاد بمنه . وقال أبو عمرو بن العلاء رحمه الله في قوله « حتى يبين لهم » : أي حتى يجمع عليهم بأسره ، كما قال : « وإذا أردنا أن نريك قرية أو مدينا أو مدينا فسوفها فيها » وقال مجاهد : « حتى يبين لهم » أي أمر إبراهيم ، أي لا يستغفروا للشركين خاصة وبين لهم الطاعة والمعصية عامة . وروى أنه لما نزل تحريم الخمر وشد فيها سالوا النبي صلى الله عليه وسلم عن مات وهو يشربها ، فأنزل الله تعالى « وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ » وهذه الآية رد على المعتزلة وغيرهم الذين يقولون بخلق كلامهم وإيمانهم ، كما تقدم .

قوله تعالى (إِنَّ اللَّهَ يَكُلُّ شَيْءًا فُلِيًّا . إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ) تقدم معناه غير مرة .

قوله تعالى : لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٦٦﴾

روى الترمذي حدثنا عبد بن حديد حدثنا عبد الرزاق أخبرنا معمر عن الزهري عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن أبيه قال : لم تخلف عن النبي صلى الله عليه وسلم في غزوة غزاهما حتى كانت غزوة تبوك إلا بدرا ، ولم يخلف النبي صلى الله عليه وسلم أحدا تخلف عن بدرا ، إنما خرج يريد البصرة فخرجت فريش مؤتمنين لبيدهم ، فالتقوا عن غير مؤيد ؛

(١) آية ١٦٦ سورة الاسراء . (٢) راجع ١ ص ١٤٩ ، ١٨٦ طبع ثانية أمانة .

(٣) راجع ١ ص ٢٤٩ ، ٢٦١ . راجع ٢ ص ٦٩ طبع ثانية أمانة .

كما قال الله تعالى ؛ ولعمري إن أشرف مشاهيد رسول الله صلى الله عليه وسلم في الناس لبدر ، وما أحب أنى كنت شهدت ما كان بيعتي ليلة العقبة حين تواقنا على الإسلام ، ثم لم أتخلف بعد عن النبي صلى الله عليه وسلم حتى كانت غزوة تبوك ، وهى آخر غزوة غزاها ، وأذن النبي صلى الله عليه وسلم بالرحيل ؛ فذكر الحديث بطوله قال : فأطلقني إلى النبي صلى الله عليه وسلم فإذا هو جالس في المسجد وحوله المسلمون ، وهو يستنير كاستنارة القمر ، وكان إذا سُرَّ بالأمر استأثر ؛ فثقت بخلست بين يديه فقال : ” أبشر يا كعب بن مالك بنخبر بمرم أتى عليك منذ ولدتك أمك “ فقلت : يا نبي الله ، أمن عند الله أم من عندك ؟ قال : ” بل من عند الله — ثم تلا هذه الآية — ” لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة — حتى بلغ — إن الله هو التواب الرحيم “ قال : وفيما أنزلت أيضا « اتقوا الله وكونوا مع الصادقين » وذكر الحديث . وسأنى مكثاً في صحيح مسلم في قصة الثلاثة إن شاء الله تعالى .

واختلف العلماء في هذه التوبة التي تابها الله على النبي والمهاجرين والأنصار على أقوال ؛ فقال ابن عباس : كانت التوبة على النبي لأجل إذنه للنافقين في القعود ؛ دليله قوله : « عفا الله عنك لم يذُنْ لهم » وعمل المؤمنين من ميل قلوب بعضهم إلى التخلف عنه . وقيل : توبة الله عليهم استغفارهم من شدة العسرة . وقيل : خلاصهم من نكاية العدو ؛ وعبر عن ذلك بالتوبة وإن خرج عن صرفها لوجود معنى التوبة فيه ، وهو الرجوع إلى الحالة الأولى . وقال أهل المعاني : إنما ذكر النبي صلى الله عليه وسلم في التوبة لأنه لما كان سبب توبتهم ذكر معهم ؛ كقوله « فإن الله تحمسه وللرسول » .

قوله تعالى : (الَّذِينَ آمَنُوا فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ) أى في وقت العسرة ، والمراد جميع أوقات تلك الفزاة ولم يرد ساعة بعينها . وقيل : ساعة العسرة أشد الساعات التي صرت بهم في تلك الفزاة . والعسرة صعوبة الأمر . قال جابر : اجتمع عليهم عسرة الظهور وعسرة الزاد

وعسرة الماء . قال الحسن : كانت العسرة من المسلمين يخرجون على بصير يستغيثونه بينهم ، وكان زادهم اثم المتوسوس والشتمير المتغير والإهالة المتينة ، وكان الثغر يخرجون ما معهم إلا التمرات بينهم ، فإذا بلغ الجوع من أحدهم أخذ التمرة فلاكها حتى يجد طعمها ، ثم يعطيها صاحبه حتى يشرب عليها جرعة من ماء كذلك حتى تاتي على آخرهم ، فلا يبقى على التمرة إلا النواة ، فقصوا مع النبي صلى الله عليه وسلم على صدقهم ويقينهم رضى الله عنهم . وقال عمر وقد سئل عن ساعة العسرة : نخرجنا في قبض شديد فنزلنا متقلا أصابنا فيه عطش شديد حتى ظننا أن رقابنا ستقطع من العطش ، وحتى أن الرجل ليعثر بعيره فيعصر قرنته فيشربه ويعمل ما يتي على كبده . فقال أبو بكر : يا رسول الله ، إن الله قد عودك في الداء خيرا فادع لنا . قال : " أحب ذلك ؟ " قال نعم ، فرفع يديه فلم يرجعهما حتى أظلت السماء ثم سكت فلوأ ما معهم ، ثم ذهبنا ننظر فلم نجد ما جازت العسكر . وروى أبو هريرة وأبو سعيد قالا : كما مع النبي صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك فأصاب الناس مجاعة وقالوا : يا رسول الله ، لو أذنت لنا فنخرجنا نواصحا فأكلنا وأذهبنا . [فقال : رسول الله صلى الله عليه وسلم " ائملوا "] . [فبأن عمر وقال : يا رسول الله إن ضلوا قل الظهور ، ولكن أذهبهم بفضل أزوادهم فادع الله عليها بالبركة لعل الله أن يعمل في ذلك . قال " نعم " ثم دعا بنطح ^(١) بسط ، ثم دعا بفضل الأزواد ، فجلس الرجل يحس بكف ذرة ، ويحس الآخر بكف تمر ، ويحس الآخر بكسرة حتى اجتمع على النطح من ذلك شيء يسير . قال أبو هريرة : طهرته فإذا هو قدر رُبعة ^(٢) العنز ، فعدا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبركة : ثم قال : " خذوا في أوامركم " فآخذوا في أواميرهم حتى والذى لا إله إلا هو ما بقي في السكروعاء إلا طشوه ، وأكل القوم حتى شبعوا ، وفضلت فضلة فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله لا يأتي الله بهما عبد غير شاك فيهما فيُحجب عن الجنة " . نرجه مسلم في صحيحه

(١) الإهالة : الشتم . (٢) هربت : السرجين (الزبل) ما دام في الكرش .

(٣) الناضح : البعير يستعمل في كل سير وإن لم يحمل الماء . (٤) زيادة عن صحيح مسلم .

(٥) النطح : بساط من الأدم . (٦) ربيعة العنز (بعير الزاد ، وتكسر) : جنباً إذا بركت .

بلفظه ومعناه، والحمد لله . وقال ابن عرفة : سُمِّيَ جيشُ تيوك جيشَ العُسرة لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم نَدَّبَ الناسَ إلى الهِزْوِ في حِمَاةِ القَيْظِ، فَنَلِظَ عَلَيْهِمْ وَعَسَّرَ، وَكَانَ إِيَّانَ ابْتِغَاءِ الْغَزْوِ . قَالَ : وَإِنَّمَا ضُرِبَ الْمَثَلُ بِجَيْشِ الْعُسْرَةِ لِأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يَزِرْ قَبْلَهُ فِي عِدَدٍ مِثْلَهُ ؛ لِأَنَّ أَصْحَابَهُ يَوْمَ بَدْرَ كَانُوا ثَلَاثَةً وَبِضْعَةَ عَشَرَ، وَيَوْمَ أُحُدٍ سَبْعَانًا، وَيَوْمَ خَيْبَرَ أَلْفًا وَخَمْسِينَ، وَيَوْمَ الْفَتْحِ عَشْرَةُ آلَافٍ، وَيَوْمَ حُنَيْنٍ اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفًا، وَكَانَتْ جَيْشُهُ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ ثَلَاثِينَ أَلْفًا وَزِيَادَةً، وَهِيَ آخِرُ مَغَازِيهِ . وَنُحِرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي رَجَبٍ وَأَقَامَ بِتَبُوكَ سَبْعَانًا وَأَيَّامًا مِنْ مِضَانَ، وَبَتَّ مِرَابِيهَ وَصَالَحَ أَقْوَامًا عَلَى الْحِزْيَةِ . وَفِي هَذِهِ الْغَزَاةِ خَلَّفَ طَلِيقًا عَلَى الْمَدِينَةِ فَقَالَ الْمُنَاقِقُونَ : خَلَفَهُ بِنُضَالِهِ ؛ فَخَرَجَ خَلْفَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَخْبَرَهُ ، فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : ” أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ مَنِي بَمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى “ ، وَبَيَّنَ أَنْ قَمُودَهُ بِأَمْرِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ يُوَازِي فِي الْأَجْرِ خُرُوجَهُ مَعَهُ ؛ لِأَنَّ الْمَجْدَارَ عَلَى أَمْرِ الشَّارِعِ . وَإِنَّمَا قِيلَ لَهَا غَزْوَةُ تَبُوكَ لِأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَأَى قَوْمًا مِنْ أَصْحَابِهِ يُؤَكِّدُونَ حَتَّى تَبُوكَ، أَيْ يَدْخُلُونَ فِيهِ الْقُدْحَ وَيَحْرُكُونَهُ لِيُخْرِجَ الْمَاءَ، فَقَالَ : ” مَا زِلُمْ تَبُوكُونَهَا بَوَكًا “ فَسَمِيَتْ تِلْكَ الْغَزْوَةُ غَزْوَةَ تَبُوكَ . الْحَسِيُّ (بِالْكَسْرِ) مَا تَنْشَفُهُ الْأَرْضُ مِنَ الرَّمْلِ ، فَإِذَا صَارَ إِلَى صَلَابَةِ أَسْكَنْتُهُ، تَعَفَّرَ عَنْهُ الرَّمْلُ فَتَسْتَعْرِجُهُ، وَهُوَ الْإِحْسَاءُ ؛ فَقُلْتُ الْجَوْهَرِيُّ .

قوله تعالى : (مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَرِيحُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ) « قُلُوبُ » وَفِعُّ يَرِيحُ ، عِنْدَ سِيَوِيَّةٍ ، وَيَضْمَرُ فِي « كَادَ » الْحَدِيثُ تَشْبِيهًا بِكَانَ ؛ لِأَنَّ الْخَبَرَ يَلْزِمُهَا كَمَا يَلْزِمُ كَانَ . وَإِنْ شَلَّتْ رَفْعَهَا بِكَادَ ، وَيَكُونُ التَّقْدِيرُ : مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ تَرِيحُ . وَفَرَا الْإِعْشَشُ وَحِزَّةٌ وَحَفْصٌ « تَرِيحُ » بِالْيَاءِ ، وَزَعَمَ أَبُو حَاتِمٍ أَنَّ مَنْ قَرَأَ « تَرِيحُ » بِالْيَاءِ فَلَا يَحْوِزُ لَهُ أَنْ يَرِيحَ الْقُلُوبَ بِكَادَ . قُلْتُ الْمُنَاسُ : وَالَّذِي لَمْ يَحْزَرْ جَائِزٌ عِنْدَ غَيْرِهِ عَلَى تَذْكِيرِ الْجَمْعِ . حَكَى الْفَرَّازِيُّ : رَحَّبَ الْبِلَادَ وَأَرْحِجَ ، وَرَحَّبْتُ لَمَعَةً لِمَلِ الْجَمَلُ ، وَتَخَلَّفَ فِي مَعْنَى تَرِيحَ ، غَقِيلٌ : تَنَلَفَ بِالْجَهْدِ وَالْمَشَقَّةِ وَالشَّدَةِ . وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : تَعَدَّلُ - أَيْ تَمِيلُ - عَنِ الْحَقِّ فِي الْمُسَامَاةِ وَالنَّصَرَةِ

وقيل : من بعد ما هم فريق منهم بالخلف والعصيان ثم لحقوا به . وقيل : هموا بالفقول
فتاب الله عليهم وأمرهم به .

قوله تعالى : (ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ) قيل : توبته عليهم أن تدارك قلوبهم حتى لم تَزِغْ ،
وذلك سنة الحق مع أوليائه إذا أشرفوا على العطب ، ووطئوا أنفسهم على الهلاك أمطر عليهم
سحاب الجود فأحيا قلوبهم . وينشد :

منك أرجو ولست أعرف رباً • يُرَتِّجِي مِنْهُ بَعْضُ مَا مَكَ أَرْجُو
وإذا اشتدت الشدائد في الأثر • ضل على الخلق فاستغاثوا وعُجُّوا
وابتليت العباد بالخوف والجو • ع وصرُوا على الذنوب ولبَّجُوا
لم يكن لي سواك ربِّي ملاذ • فَنَقِصْتُ أُنَى بِكَ أَتَجُو

وقال في حق الثلاثة « ثم تاب عليهم ليتوبوا » فقيل : معنى « ثم تاب عليهم » أى وفقههم
للتوبة ليتوبوا . وقيل : المعنى تاب عليهم ؛ أى تسح لهم ولم يعجل عقابهم ليتوبوا . وقيل :
تاب عليهم ليتوبوا . على التوبة . وقيل : المعنى تاب عليهم ليرجعوا إلى حال الرضا عنهم . وبالجملة
فلولا ما سبق لهم في علمه أنه قضى لهم بالتوبة ما تابوا ؛ دليله قوله عليه السلام : « اعملوا
فكل ميسر لما خلق له » .

قوله تعالى : وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ
الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنْ اللَّهِ
إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١١٨)

قوله تعالى : (وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا) قيل : عن التوبة ؛ عن مجاهد وأبى مالك .
وقال قتادة : عن غزوة تبوك . وحكى عن محمد بن زيد معنى « خَلَفُوا » تركوا ؛ لأن معنى خَلَفَتْ
فلانا تركته وفارقه فاعدا عما نهضت فيه . وقرأ عكرمة بن خالد « خَلَفُوا » أى أقاموا بعبادة

ويُبدل الله صلى الله عليه وسلم . وروى عن جعفر بن محمد أنه قرأ « خالفوا » . وقيل . « خلفوا »
 أى أرجئوا وأُخروا عن المفاخر فلم يُفَضَّ فيهم بشئ . . وذلك أن المنافقين لم يقبل توبتهم ،
 واعتذر أقوام فقبل عذرهم ، وأُخر النبي صلى الله عليه وسلم هؤلاء الثلاثة حتى نزل فيهم القرآن .
 وهذا هو الصحيح لما رواه مسلم والبخاري وغيرهما . واللفظ لمسلم قال كعب : كنا خلفنا
 أيها الثلاثة عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حين حلفوا له
 فبأيهم وأستغفر لهم ، وأرجأ رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرنا حتى قضى الله فيه ؛ فبذلك
 قال الله عز وجل : « وعلى الثلاثة الذين خلفوا » وليس الذي ذكر الله مما خلفنا تخلفنا
 عن النزول ، وإنما هو تخلفه إيانا وإرجأؤه أمرنا عن حلف له واعتذره إليه فقبل منه .
 وهذا الحديث فيه طول ، هذا آخره ^(١) .

والثلاثة الذين خلفوا هم : كعب بن مالك ، ومُصَرَّاة بن دبيعة العامري ، وهلال
 ابن أبيه الواقفي ، وكلهم من الأنصار . وقيد خرج البخاري ومسلم حديثهم ، فقال مسلم
 عن كعب بن مالك قال : لم تخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة غزاهما قط
 إلا في غزوة تبوك ، غير أني قد تخلفت في غزوة بدر ولم يعاتب أحدا تخلف عنه ، إنما خرج
 رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون يريدون عير قريش ، حتى جمع الله بينهم وبين مدوهم
 على غير ميعاد ، ولقد شهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة حين تواثقنا
 على الإسلام ، وما أحب أن لي بها شهيد بدر ، وإن كانت بدر أدرك في الناس منها ، وكان
 من خبري حين تخلفت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك : أني لم أكن
 قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنه في تلك الغزوة ، والله ما جمعت قبلها راحلتين
 قط حتى جمعتهما في تلك الغزوة ؛ فنزاهما رسول الله صلى الله عليه وسلم في حر شديد ، واستقبل
 سفرا بعيدا ومفازا ، واستقبل عدوا كثيرا ، بغلا للسلبين أمرهم لينأهبوا أمة غزوهم فأخبرهم
 بوجهه الذي يريد ، والمسلمون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم كثير ، ولا يجمعهم كتاب حافظ

(١) رابع صحيح مسلم كتاب التوبة .

— يريد بذلك الديوان — قال كعب : فقل رجل يريد أن يتقيب ، يظن أن ذلك سيخفى له ما لم يتل فيه . ومن الله تعالى ، وغزا رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك الغزوة حين طابت الشار والظلال ، فاما إليها أَصْمَرُ ، فتجهز إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون معه ، وطفقت أغدو لكي أتجهز معهم فأرجع ولم أقبض شيئا ، وأقول في نفسي : أنا قادر على ذلك إذا أردت ! فلم يزل ذلك يتجادى بي حتى استمر بالناس الجدة ، فأصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم غازيا والمسلمون معه ولم أقبض من جهازى شيئا ، ثم غدوت فرجعت ولم أقبض شيئا ، فلم يزل كذلك يتجادى بي حتى أمرعوا وتفارت الغزوة ، فهممت أن أرحل فأدركهم ، فباليتهى فعلت ! ثم لم يقدر ذلك لي فطفقت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم يحزني أني لا أرى لي أسوة إلا رجلا مغموصا عليه في النفاق ، أو رجلا ممن قدر الله من الضعفاء ، ولم يذكرني رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بلغ تبوك ، فقال وهو جالس في القوم بتبوك : ” ما فعل كعب بن مالك ؟ ” فقال رجل من بني سلمة : يا رسول الله ، همسه برداه والطر في عطفه . فقال له معاذ بن جبل : بش ما قلت ! والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيرا . فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبينما هو على ذلك رأى رجلا مبيضا يزول به الشراب ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” كن أبا خيثمة ” ؛ فإذا هو أبو خيثمة الأنصاري ، وهو الذي تصدق بصاع التمر حتى لمزّه المنافقون . فقال كعب بن مالك : فلما بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد توجه قافلا من تبوك حضرنى بئى ، فطفقت أتذكر الكذب وأقول : بم أخرج من تحت عدا ، وأستعين على ذلك كل ذي رأى من أهل ؛ فلما قيل لي : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أطل قادمًا زاح عن الباطل حتى عرفت أني لن أنجو منه بئى أبدا ، فأجمعت صدفه ، وصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم قادمًا ، وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فركب فيه

(١) أى أميل . (٢) أى سطوا عليه في دينه ، منها بالمعاق . (٣) هذا كناية عن كونه معجبا بنفسه ، دأزه وتكبر . (٤) الميئس (بكر اليا) : لابس الياض . والشراب : ما يظهر في الحواجر في البرارى كآله الماء . ويؤول أى يشرك .

ركبتين ثم جلس للناس ، فلما فعل ذلك جاءه المتخلفون فطفقوا يبتذرون إليه ويحلفون له ، وكانوا بضعة وثمانين رجلا ، فقبل منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم علانيتهم وبايعهم واستغفر لهم ووثق سرائرهم إلى الله ، حتى جثت فلما سلمت تبسم تبسم المغضب ، ثم قال : " تعال " فجلست أمشي حتى جلست بين يديه ، فقال لي : " ما خفك ألم تكن قد أبغيت ظهرك " ؟ قال : قلت يا رسول الله ، إني والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لأريت إني سأخرج من تحطه بعدد ، ولقد أعطيت جدلا ، ولكني والله لقد علمت لن حديثك اليوم حديث كذب ترضى به عني ليوشكن الله أن يسخطك علي ، ولئن حدثتك حديث صدق يجحد علي فإني لأرجو فيه عفي الله ، والله ما كان لي عذر ، والله ما كنت قط أفقر ولا أيسر مني حين تخلفت عنك . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أما هذا فقد صدق فقم حتى يعفي الله فبك " . فقامت وثار رجال من بني سلمة فاتبوني فقالوا لي : والله ما علمناك أذنبت ذنبا قبل هذا ! لقد عجزت في ألا تكون اعتذرت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بما اعتذر به إليه المتخلفون ، فقد كان كافيك ذنبك استغفار رسول الله صلى الله عليه وسلم لك ! . قال : خولفه ما زالوا يؤنبوني حتى أردت أن أرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأكذب نفسي . قال : ثم قلت لهم هل أتى هذا معي من أحد ؟ قالوا : نعم ! لقيه معك رجلان قال أحدهما ما قلت ، فقبل لها مثل ما قيل لك . قال قلت : من هما ؟ قالوا : جبرارة بن ربيعة العامري وهلال : أمية الواقفي . قال : فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بدرا فيهما أسوة ، قال : فضيت حين ذكروهما لي . قال : ونبي رسول الله صلى الله عليه وسلم المسامين عن كلامنا آيها الثلاثة من بين من تخلف عنه . قال فاجتنبنا الناس ، وقال : تتقروا لنا ، حتى شكرت لي في نفسي الأرض ، فما هي بالأرض التي أعرف ، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة ، فأما صاحبنا فمات في بيوتها بيسان ، وأما أنا فكنت أشب القوم وأجلبهم ، فكنت أخرج فأنشد الصلاة وأطوف في الأسواق ولا يكلني أحد ، وآتى

(١) أي فضاة وقوة كلام بحيث اتزعج من عهدنا ينسب لي بليقل ولا يرد . (٢) تجه : تعصب .

(٣) أي وثقوا علي .

رسول الله صلى الله عليه وسلم وأسلم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة، فأقول في نفسي : هل حرك شفتيه برد السلام أم لا ! ثم أصلى قريبا منه وأساربه النظر، فإذا أقبلت على صلاتي نظر إلى وإذا التفت نحوه أعرض عني ، حتى إذا طال ذلك علي من جفوة المسلمين مشيت حتى تسورت جدار حائط أبي قتادة ، وهو ابن عتي وأحب الناس إلي فسلمت عليه ، فوالله ما رد علي السلام ، فقلت له : يا أبا قتادة أئشدك بالله ! هل تعلمن أن أحب الله ورسوله ؟ قال : فسكت ، مددت فناشدته فسكت ، فعدت فناشدته فقال : الله ورسوله أهم ! ففاضت عيناى ، ونويت حتى تسورت الجدار ، فينا أنا أمسى في سوق المدينة إذا نبطي من نبط أهل الشام بمن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول : من يدل على كعب بن مالك ؟ قال : فطيق الناس يسكرون له إلى حتى حان دفعه إلى أبا من ملك عتات ، وكنت كاتبها فقراءه فإذا فيه : أما بعد ! فإنه قد بلغنا أن صاحبك قد جفاك ، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيق فالحق بشارتوك . قال فقلت حين قرأتها : وهذه أيضا من اللاء ! فبانت بها التور فجرحته بها ، حتى إذا مضت أربعون من الخمين وأستلبت الوحى إذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتي فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم بأمرك أن تعزل أمراك ، قال فقلت : أطلقها أم ماذا أفعل ؟ قال : لا ، بل اعزليها فلا تفرتها . قال : فأرسل إلى صاحبي بمنزل ذلك . قال فقلت لأمرأتى : ألحقني بأهلك ، فكوني عندهم حتى يقضى الله في هذا الأمر . قال : بغامت امرأة هلال بن أمية رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت له : يا رسول الله ، إن هلال بن أمية شيخ ضائع ليس له خادم ، فهل نكره أن نخدمه ؟ قال : " لا ولكن لا يقربك " فقالت : إنه والله ما به حركة إلى شيء ! والله ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا . قال : فقال بعض أهل لو استأذنت رسول الله صلى الله عليه وسلم في أمراك ، فقد أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه . قال فقلت : لا أستأذن فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما يدرينى ماذا يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا

(١) أى أوقدة بالصيغة . (٢) قال الرازى هذا الرسول هو حريز بن ثابت .

استأذنته فيها وأنا رجل شاب ! قال : فليئت بذلك عشر إيال ، فكل لنا نحسون ليلة من حين
يُرى عن كلاتنا . قال : ثم صليت صلاة الفجر صباح نحسين ليلة على ظهر بيت من بيوتنا ،
فبينما أنا جالس على الحال التي ذكر الله منا قد ضاقت على نفسي وضافت على الأرض بم
رَجَبٍ سمعت صوت صارخ أوقى على سَلَحٍ^(١) يقول بأعلى صوته : يا كعب بن مالك أئسر .
قال : ففتررت ساجدا ، وعرفت أن قد جاء فرج . قال : فاذن رسول الله صلى الله عليه وسلم
الناس بتوبة الله علينا حين صلى صلاة الفجر ؛ فذهب الناس يشروننا ، فذهب قيل صاحبي
مُشَرُون ، وركض رجل إلى فرسا ، وسعى ساجع من أسلم قبلي وأوقى الجبل ، فكان الصوت
أسرع من الفرس ؛ فلما جاءني الذي سمعتُ صوته يشترى نزع له ثوبي فكسوته إياها
بشارته ، والله ما أملك غيرها يومئذ ، واستعرت ثوبين فلبستهما ، فأطلقت أئام رسول الله
صلى الله عليه وسلم ، فلتقاني الناس فوجا فوجا ، يهتفون بالتوبة ويقولون : لَيْتَ نَسَكَ توبة
الله عليك ، حتى دخلت المسجد فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس في المسجد وحوله
الناس ، فقام طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صاغني وهتاني ، والله ما قام رجل من المهاجرين
غيره . قال : فكان كعب لا ينساها للطلحة . قال كعب : فلما سلمت على رسول الله صلى الله
عليه وسلم قال وهو يبرق وجهه من السرور ويقول : " أئسر بخير يوم صرت عليك منذ ولدتك
أمك " . قال : فقلت أئمن عند الله يا رسول الله أم من عندك ؟ قال : " لا بل من عند الله " .
وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سُر استنار وجهه حتى كأن وجهه قطعة قمر . قال :
وكما تعرف ذلك . قال : فلما جلست بين يديه قلت : يا رسول الله ، إن من توبة الله علي
أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسوله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أميسك
عليك بمص مالك فهو خير لك " . قال فقلت : فإني أسسك سَهْمِي الذي يُخْبِر . قال
وقلت : يا رسول الله ، إن الله إنما أنجاني بالصدق ، وإن من توبتي ألا أحدث إلا صدقا
ما بقيت . قال : فوافقه ما علمت أحدا من المسلمين إبلاء الله في صدي الحديث منا : كرتُ

(١) أي أغرق على جبل سلع . قال الواقدي : هو أبو بكر الصديق رضي الله عنه .

ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم إلى يوم هذا أحسن مما أبلاني الله به، والله ما تعدت
 كذبة منذ قلت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم إلى يوم هذا، وإنه لأرجو الله أن يحفظني.
 فيما بقي، فأترى الله عز وجل: «لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ
 فِي سَاعَةِ الْمُنْجَى - حتى بلغ - إنه يومٌ معروفٌ. وحج - وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا
 ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم - حتى بلغ - اتقوا الله وكونوا
 مع الصادقين». قال كعب: والله ما أنتم الله على من نعمة قط بعد إذ هداني الله للإسلام
 أعظم من نفسي من صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أن يكون كذبته فأهلك كما هلك الذين
 كذبوا، إن الله قال للذين كذبوا حين أنزل الوحي شر ما قال لأحد، وقال الله تعالى:
 «سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لَنُغَرِّبَنَّكُمْ فَاعْرِضُوا عَنْهُمْ وَإِنْهُمْ رِجْسٌ وَمَا لَهُمْ
 جِزَاءٌ إِذَا كَانُوا بِكَيْبُوتِهِمْ» يحلفون لكم ليرضوا عنهم فإن رضوا عنهم فإن الله لا يرضي عن
 القسوم الفاسقين». قال كعب: كما خلفنا أيها الثلاثة عن أمر أولئك الذين قيل منهم
 رسول الله صلى الله عليه وسلم حين حللوا له فيأثمهم وأستغفر لهم، وأرجأ رسول الله صلى الله
 عليه وسلم أمرنا حتى قضى الله فيه. بذلك قال الله عز وجل: «وعلى الثلاثة»، وليس
 الذي ذكر الله مما خلفنا تخلفا عن العزو، وإنما هو تخليفه إيانا وإرجاؤه أمرنا من حلف
 له وأخذه إليه فنقبل منه.

قوله تعالى: (وَضَافَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ) أي بما اتسعت، يقال: مثل
 رحب ورحيب ورحاب. و«ما» مصدرية، أي ضاقت عليهم الأرض برحبها، لأنهم
 كانوا مهجورين لا يمانلون ولا يكفون. وفي هذا دليل على هجران أهل المعاصي حتى يتوبوا.
 قوله تعالى: (وَضَافَتْ عَلَيْهِمُ أَنْفُسُهُمْ) أي ضاقت صدورهم بالهم والوخشة، وبما
 لقوه من الصعابة من الجفوة. (وَوَطَّأُوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ) أي نيقوا أن لا ملجأ
 يلجئون إليه في الصفح عنهم وقبول التوبة منهم إلا إليه. قال أبو بكر الوراق: التوبة التصريح
 أن تضيق على التائب الأرض بما رحبت. ونضيق عليه نفسه، كقوله كعب وصاحبه.

قوله تعالى : (ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ) فبدأ بالتوبة منه .
قال أبو زيد : غُفِلَتْ في أربعة أشياء : في الابتداء مع الله تعالى ، وظننت أني أحبه فإذا
هو أحسن ؛ قال الله تعالى : « يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ » . وظننت أني أرضى عنه فإذا هو قد رضى
عني ؛ قال الله تعالى : « رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ » . وظننت أني أذكره فإذا هو يذكرني ؛
قال الله تعالى : « وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ » . وظننت أني أتوب فإذا هو قد تاب عليّ ؛ قال الله
تعالى : « ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا » . وقيل : المعنى ثم تاب عليهم ليثبتوا على التوبة ؛ كما قال
تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا » . وقيل : أي فصح لهم ولم يجعل عقابهم كما فعل بخيرهم ؛
قال جل ومنز : « فَيُظِلُّمِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا طَيِّبًا طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ »

قوله تعالى : يَتَابِعُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَتَقُوا اللَّهَ وَكُنْتُمْ مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿١١٩﴾

فيه مسائل :

الأولى - قوله تعالى : (وَكُنْتُمْ مَعَ الصَّادِقِينَ) هنا الأمر بالكون مع أهل الصدق
حسن بعد قصة الثلاثة حين تقههم الصدق ونُهب بهم عن منازل المنافقين . قال مُطَرِّف :
سمعت مالك بن أنس يقول : فلما كان رجلاً صادقاً لا يكذب إلا متع سفله ولم يعبه
ما يصيب غيره من الحرم والحرف .

واختلف في المراد هنا بالمؤمنين والصادقين على أقوال ؛ قيل : هو خطاب لمن آمن من
أهل الكتاب . وقيل : هو خطاب لجميع المؤمنين ؛ أي اتقوا مخالفة أمر الله . (وَكُنْتُمْ مَعَ
الصادقين) أي مع الذين خرجوا مع النبي صلى الله عليه وسلم لا مع المنافقين . أي كونوا
على مذهب الصادقين وسيلهم . وقيل : هم الأنبياء ؛ أي كونوا معهم بالأعمال الصالحة في الجنة .
وقيل : هم المراد بقوله : « لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ » - الآية إلى قوله - أولئك الذين
صدقوا . - وقيل : هم المؤمنون بمآ عاهدوا ؛ وذلك لقوله تعالى : « وَجَاءَ صَدُقُوا مَا عَاهَدُوا »

الله عليه . . . وقيل : هم المهاجرون ، لقول أبي بكر يوم السقيفة : إن الله سمانا الصادقين فقال : « للفقراء المهاجرين » الآية ، ثم سماكم بالمفلسين فقال : « والذين يتوبوا الدار والدين » الآية . وقيل هم الذين استوت ظواهرهم وبواطنهم . قال ابن العربي : وهذا القول هو الحقيقة والغاية التي إليها انتهى ، فإن هذه الصفة يرتفع بها الخلق في العقيدة والخلافة في الفعل ، وصاحبها يقال له الصديق كأبي بكر وعمر وعثمان ومن دونهم على منازلهم وأزمانهم . وأما من قال إنهم المراد بآية البقرة فهو معظم الصدق وبقية الأهل وهو معنى آية الأحزاب . وأما تفسير أبي بكر الصديق فهو الذي يتم الأقوال كلها ، فإن جميع الصفات فيهم موجودة .

الثانية - حتى من فهم عن الله وعقل عنه أن يلزم الصدق في الأقوال ، والإخلاص في الأعمال ، والصفات في الأحوال ، فمن كان كذلك لحق بالإبرار ووصل إلى رضا الغفار ، قال صلى الله عليه وسلم : « عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر وإن البر يهدي إلى الجنة وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقا » . والكذب من الصد من ذلك ، قال صلى الله عليه وسلم : « إياكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور وإن الفجور يهدي إلى النار وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا » . نثرجه مسلم . فالكذب طار وأعله مسلوب الشهادة ، وقد رذ رسول الله صلى الله عليه وسلم شهادة رجل في كذبه كذبا . قال معمر : لا أدري أكذب على الله أو كذب على رسوله أو كذب على أحد من الناس . وسئل ثورث بن عبيد الله قيل له : يا أبا عبد الله ، رجل سمعته يكذب متعمدا أوصل خلفه ؟ قال لا . وعن أبي سعيد قال : إن الكذب لا يصلح منه جد ولا هزل ، ولا أن يمد أحدا شيئا ثم لا ينجزه ، أقروا إن شئتم « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين » على نزول في الكذب وخاصة ؟ وقال مالك : لا يقبل خبر الكاذب في حديث الناس وإن صدق في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال فيه : يقبل حديثه . والصحيح أن الكاذب لا يقبل شهادته ولا خبره لما ذكرناه ، فإن القبول مرتبة عظيمة ودلالة شريفة لا تكون إلا لمن تكملت خصاله ولا خصلة هي أكثر من الكذب فهي تعزل الولايات وتبطل الشهادات .

قوله تعالى : مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَخْلِفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظُلْمٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخَصَّةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْعُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوِّ نِيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَمْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾

فيه ست مسائل :

الأولى - قوله تعالى : (مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَخْلِفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ) ظاهره خبر ومناه أمر ، كقوله : « وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله » وقد تقدم . (أَنْ يَخْلِفُوا) في موضع رفع اسم كان . وهذه معاتبه للذين من أهل يثرب . وقبائل العرب المجاورة لها ، كجزيرة وجهينة وأضجع وغفار وأسلم حل الخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك . والمعنى : ما كان هؤلاء المذكورين أن يخلفوا ، فإن الضمير كان فيهم ، بخلاف فيهم فإنهم لم يُستغفروا ، في قول بعضهم . ويحتمل أن يكون الاستغفار في كل مسلم ، ونخص هؤلاء بالتاب لقريرهم وجوارهم ، فإنهم أحق بذلك من غيرهم .

الثانية - قوله تعالى : (وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ) أي لا يرضوا لأنفسهم بالانفص والعدة ورسول الله صلى الله عليه وسلم في المشقة . يقال رغبت عن كذا أي تركت عنه .

الثالثة - قوله تعالى : (ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظُلْمٌ) أي عطش ، وقرا حيند ابن عمير « ظلم » بالمد . وهما لغتان مثل خطأ وخطأ . (وَلَا نَصَبٌ) حلف ، أي نسب ، ولا زائفة للتوكيد . وكذا (وَلَا مَخَصَّةٌ) أي مجاعة . وأصله ضمور البطن ، ومنه زبل يميم

وأمرأة ثعممانية . وقد تقدم . (في سبيل الله) أى فى طاعته . (وَلَا يَتَّبِعُونَ مَوْثِقًا)
أى أرضاً . (يَنْفِطُ الْكُفَّارَ) أى يوطئهم إياها ، وهو فى موضع نصب لأنه نعت للوطئ ،
أى طائفاً . (وَلَا يَتَّالُونَ مِنْ عُذُوِّ قَيْلٍ) أى قتلا وهزيمة . وأصله من ثلث الشيء أنال
أى أصبت . قال الكسائى : هو من قولهم أمر متبل منه ، وليس هو من التناول ، إنما
التناول من ثلثة العطية . قال غيره : ثلث أنول من العطية ، من الواو والنبى من الباء ، تقول :
ثلثه فأنال ، أدركته . (وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا) العرب تقول : وادى وأودية ، كل غير قياس .
قال النحاس : ولا يعرف فيما عدا ذلك فاعل وأصله سواء ، والقياس أن يجمع وادى ، فأستقلوا
الجمع بين وادين وهم يستقلون واحدة ، حتى قالوا : اقتت فى وقت . وحكى الخليل وسيبويه
فى تصغير واصل اسم رجل أو يصل فلا يقولون فيه . وحكى الفراء فى جمع واد أدواء .

قلت : وقد جمع أدواء ، قال جرير :

عرفت بريقة الأدواء ريشاً • • • يجلب طال تهلك من رسوم

(الْأَكْثَبَ لَمْ) قال ابن عباس : بكل روعة تنال فى سبيل الله سبعون ألف حسنة .
وفى الصحيح : " الخيل ثلاثة ... - وفيه - وأما التى هى له أجر فرجل رجلها فى سبيل الله
لأهل الإسلام فى مخرج أو روضة فما أكلت من ذلك المخرج أو الروضة إلا كتب له عدد
ما أكلت حسنة وكتب له عدد أدوائها وأبرها حسنة " . الحديث . وهذا هو
فى مواضعها فكيف إذا أدرب بها .

الراصة - استدل بعض العلماء بهذه الآية على أن النية تستحق بالإدراك والكون
فى بلاد العدو ، فإن مات بعد ذلك فله سهم ، وهو قول أشهب وعبد الملك ، وأحد قول
الثانى . وقال مالك وأبو القاسم : لا شيء له ، لأن الله عز وجل إنما ذكر فى هذه الآية
الأجر ولم يذكر السهم .

(١) راجع ٦٥ ص ٦٤ طبة أول أو ثالثة : (٢) فى «براهن وسيم البلدان لما فوت» «دبرة البقاء»
والفراد : زاد أطله لى العدة والقيم ، وأسفه لى كلب وضية . (٣) المخرج : عرض القرباب .
(٤) أدرب القوم : جعلوا أرض العدو .

قلت - الأول أصح لأن الله تعالى جعل وطه ديار الكفار بشابة القبل من أموالهم وإخراجهم من ديارهم ، وهو الذي ينفظهم ويدخل القل طيسم ، فهو بمحلة تيسل القيمة والقتل والأسر ، وإذا كان كذلك فالقيمة تستحق بالإدواب لا بإلحازة ، ولذلك قال علي رضي الله عنه : ما وطن قوم في عقر دارهم إلا دلوا ، والله أعلم

الخامسة - هذه الآية منسوخة بقوله تعالى : « وَمَا كَانَ لِلْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَتَغَيَّرُوا كَأَنَّهُ » وأن حكمها كان حين كان المسلمون في قلة ، فلما كثروا شمت وأباح الله التخليق لمن شاء ، قاله آين زيد . وقيل مجاهد : بعث النبي صلى الله عليه وسلم قوما إلى البوادي ليملأوا الناس فلما نزلت هذه الآية خافوا ورجعوا ، فانزل الله : « وما كان للمؤمنين ليغيروا كَأَنَّهُ » . وقال قتادة : كان هذا خاصا بالنبي صلى الله عليه وسلم ، إذا غزا بنفسه فليس لأحد أن يتخلف عنه إلا بعذر ، فاما غيره من الأئمة والولاة فلن شاء أن يتخلف خلقه من المسلمين إذا لم يكن بالناس حاجة إليه ولا ضرورة . وقول ثالث - أنها محكمة ، قال الوليد بن مسلم : سمعت الأوزاعي وآين المبارك والفراري والسيبي وسعيد بن عبد العزيز يقولون في هذه الآية إنها لأول هذه الأمة وآخرها

قلت - قول قتادة حسن ، بدليل غزاة تبوك ، والله أعلم .

السادسة - روى أبو داود عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لقد تركتم بالمدينة أهوا ما يهرم سبيرا ولا أتعلم من حفة ولا قطعتم ولديا من واد الأوم معكم فيه » قالوا : يا رسول الله ، وكيف يكون معنا وهم بالمدينة . ؟ قال : « حسبهم المذر » . ترجمه سلم من حيث جابر قال : كساح رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزاة فقال : « إن بالمدينة لرحالا ما يهرم سبيرا ولا قطعتم ولديا إلا كانوا معكم حسبهم المرض » . فأعطى صلى الله عليه وسلم المنصور من الأجر مثل ما أعطى للقوى العامل . وقد قال بعض الناس : إنما يكون الأجر للمصور غير مضاعف ، ويضاعف للعامل المبشر . قال آين العربي : وهذا محكم على الله تعالى ونصيب لسة رحمته ، وقد طالب بعض الناس فقال :

لهم يعطون الثواب مضاعفا فطما، ونحن لا تقطع بالتضييف في موضع فإنه مبنى على مقدار
 النيات، وهذا أمر متيقن، والذي يقطع به أن هناك تضييفا وربك أعلم بمن يستحقه
 قلت : الظاهر من الأحاديث والآي المساواة في الأجر، منها قوله عليه السلام : " من
 دلَّ على خير فله مثل أجر فاعله " وقوله : " من توبنا وخرج إلى الصلاة فوجد الناس قد صلوا
 أعطاه الله مثل أجر من صلاها وحضرها " . وهو ظاهر قوله تعالى : « وَمَنْ يُخْرِجْ مِنْ بَيْتِهِ
 مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ » . وبدليل أن النية الصادقة
 هي أصل الأعمال، فإذا صحت في فعل طاعة فجزئ عنها صاحبها لمناج مع منها فلا يبعد
 في مساواة أجر ذلك الماجر لأجر القادر القائل ويزيد عليه ؛ لقوله عليه السلام : " نية
 المؤمن خير من عمله " . والله أعلم .

قوله تعالى : « وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ
 مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَى الْبَيْتِ
 لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ » (١٣٦)

فيه ست مسائل :

الأولى - قوله تعالى : « وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ » وهي أن الجهاد ليس على الأعيان وأنه
 فرض كفاية كما تقدم ؛ إذ لو نفر الكل لضاع من وراهم من العيال، فيخرج فريق منهم
 للجهاد ولقيم فريق يتفقهون في الدين ويحفظون الحريم، حتى إذا عاد الفانون أعلمهم المقيمون
 ما تعلموه من أحكام الشرع، وما تجدد نزوله على النبي صلى الله عليه وسلم . وهذه الآية ناسخة
 لقوله تعالى : « إِلَّا تَنْفِرُوا » ولاية التي قبلها ؛ على قول مجاهد وأبو زيد .

الثانية - هذه الآية أصل في وجوب طلب العلم ؛ لأن المعنى : وما كان المؤمنون
 لينفروا كافة والله صلى الله عليه وسلم مقيم لا يتغير بغيره وحده . (قلولا نفر) بعد ما علموا
 أن النفير لا يسع جميعهم . (مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ) وتبقى بقية ما مع النبي صلى الله عليه

وسلم ليحملوا عنه الدين ويتفقوا؛ فإذا رجع النافرون إليهم أخبروهم بما سمعوا وعلموه؛ وفي هذا إعجاب النفع في الكتاب والسنة، وأنه على الكفاية دون الأعيان. ويدل عليه أيضا قوله تعالى: «فَأَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ»^(١). فدخل في هذا من لا يعلم الكتاب والسنة

الثالثة - قوله تعالى: «فَلَوْلَا نَفَرَ» قال الأخفش: أى نفلا نفرا. (من كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ) الطائفة في اللغة الجماعة، وقد تقع على أقل من ذلك حتى تبلغ الرجلين، وللواحد على معنى نفس طائفة. وقد تقدم أن المراد بقوله تعالى: «إِنْ نَعُفْ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ تُغْضِبْ طَائِفَةٌ»^(٢) رجل واحد. ولا شك أن المراد ها جماعة لوجهين؛ أحدهما عقلا، والآخر لغة. أما المقتل فلا أن العلم لا يحصل بواحد في الغالب، وأما اللغة فقوله «لِيَتَفَقَّهُوا» في الدين وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ» بقاء ضمير الجماعة. قال ابن العربي: والفاضل أبو بكر والشيخ أبو الحسن قبله يرون أن الطائفة ها هنا واحد، ويتضمنون فيه بالدليل على وجوب العمل بغير الواحد، وهو صحيح لا من جهة أن الطائفة تنطلق على الواحد ولكن من جهة أن خبر الشخص الواحد أو الأشخاص خبر واحد، وأن مقابله وهو التواتر لا ينحصر.

قلت: أنص ما يستدل به على أن الواحد يقال له طائفة قوله تعالى: «وإن طائفتان من المؤمنين أقتلتا»^(٣) ببنى تميم. دليله قوله تعالى: «فأصليحوا بين أئمتكم» بقاء بلفظ التنبيه، والضمير في «أقتلتا» وإن كان ضمير جماعة فأقل الجماعة اثنان في أحد القولين للعامة.

الرابعة - قوله تعالى: «لِيَتَفَقَّهُوا» (الضمير في «لِيَتَفَقَّهُوا» وَلِيُنْذِرُوا» للقبين مع النبي صلى الله عليه وسلم، قاله قتادة ومجاهد. وقال الحسن: هما للفرقة النافرة؛ واختاره الطبري. ومعنى «لِيَتَفَقَّهُوا في الدين» أى يتبصروا ويتقنوا بما يريهم الله من الظهور على

(١) آية ٢٣ سورة التوبة. (٢) آية ٦٦ من هذه السورة. (٣) في الاسود: «ويعصرون»

على صاحب الحق الخ. والمخرجين إلى الفرد. (٤) آية ٤ سورة الحرات م

المشركين ونصرة الدين . (ولْيَتْلُوا قُرْآنَهُمْ) من الكفار . (وَإِنَّا وَجَّهْنَا إِلَيْهِمْ) من الجهاد
ليخبروهم بنصرة الله تعالى نية والمؤمنين ، وأنهم لَا يَدَانِ ^(١) لَهُمْ يَتَقَالَمُ وَقِتَالُ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ
عليه وسلم ؛ فَيَقْتُلُ بِهِمْ مَا نَزَلَ بِأَصْحَابِهِمْ مِنَ الْكُفَّارِ .

قَالَ : قول مجاهد وقادة آيين ، أَيْ لَتَنْفَعَهُ الْعِلْمُ النَّاتِجَةُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ مِنَ الْغُزَى فِي السَّرْيَاءِ . وَهَذَا يَقْتَضِي الْحْتَ عَلَى طَلَبِ الْعِلْمِ وَالْعَدَبِ إِلَيْهِ دُونَ الْوَجُوبِ
وَالْإِثْرَامِ ؛ إِذْ لَمْ يَكُنْ فِي قُوَّةِ الْكَلَامِ ، وَإِنَّمَا أَرَادَ طَلَبُ الْعِلْمِ بِأَدَبِهِ ، قَالَ أَبُو بَكْرٍ الْمُرَوِّي .
الْخَامِسَةُ - طَلَبُ الْعِلْمِ يَنْتَسِمُ ثَلَاثِينَ : فَرَضٌ عَلَى الْأَخْيَانِ ؛ كَالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالصَّيَامِ -

قَالَ - وَقَدْ هَذَا الْمَعْنَى جَاءَ الْحَدِيثُ الْمُرَوِّى ^(٢) " إِنْ طَلَبَ الْعِلْمَ فَرِيضَةٌ " . رَوَى
عَبْدُ الْقُدُّوسِ بْنُ حَبِيبٍ أَبُو سَعِيدٍ الْوُحَاظِيُّ عَنْ حَمَّادِ بْنِ أَبِي سُلَيْمَانَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ التَّخَفِيُّ
قَالَ ضَمَّتْ أَنْسُ بْنُ مَالِكٍ يَقُولُ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : " طَلَبُ الْعِلْمِ
فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ " . قَالَ إِبْرَاهِيمُ : لَمْ أَجْعَلْ مِنْ أَنْسُ بْنُ مَالِكٍ إِلَّا هَذَا الْحَدِيثَ .

وَفَرَضٌ عَلَى الْكُفَايَةِ ؛ كَتَحْصِينِ الْحَصُونِ وَإِقَامَةِ الْحُدُودِ وَالْفَصْلِ بَيْنَ الْمُحْصُومِ وَمُحْرَمِهِ ؛
إِذَا لَاصَحَ أَنْ يَتَلَمَّهَ جَمِيعُ النَّاسِ يَنْضِجُ أَحْوَالُهُمْ وَأَحْوَالُ سَوَامِهِمْ وَتَقْلُصُ وَتَبْطُلُ مَا يَنْتَسِمُ ؛
فَتَمَيِّزُ بَيْنَ الْحَالَيْنِ أَنْ يَسُومَ بِهِ الْبَعْضُ مِنْ غَيْرِ تَمَيِّيزٍ ، وَفَلِكَ بِحَسَبِ مَا يَمُرُّ اللَّهُ لِعِبَادِهِ
وَقَسَمَهُ بَيْنَهُمْ مِنْ رَحْمَةٍ وَحِكْمَةٍ بِسَائِرِ قُدْرَتِهِ وَكُنْهَتِهِ .

الْسادِسَةُ - طَلَبُ الْعِلْمِ فَضِيلَةٌ عَظِيمَةٌ وَمَرْتَبَةٌ شَرِيفَةٌ لَا يُوَازِيهَا عَمَلٌ ؛ رَوَى التِّرْمِذِيُّ
مِنْ حَدِيثِ أَبِي الثَّرَدَاءِ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : " مَنْ سَلَكَ
طَرِيقًا يَتَمَسَّكُ فِيهِ بِعِلْمٍ سَلَكَ اللَّهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ وَإِنْ الْمَلَائِكَةُ تَضَعُ أَجْصَعَتَهَا رِضًا
لِطَالِبِ الْعِلْمِ وَإِنَّ الْعَالَمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فِي جُوفِ الْمَاءِ
وَإِنْ فَتَسَلَ الْعَالَمَ عَلَى الْعَابِدِ فَفَضْلُ الْقُرْآنِ لِيَسْلَةَ الْبَدْرُ عَلَى مَائَةِ الْكَوَاكِبِ وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ
الْأَنْبِيَاءِ وَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُورَثُوا بِأَيْتَارًا وَلَا دُوحًا إِنَّمَا وَرَثُوا الْعِلْمَ فَمَنْ أَخَذَ بِهِ أَخَذَ بِحِطَّةٍ

(١) قَالَ : مَا لِي بِلَاغٍ هَذَا أَيْ طَلَبُهُ . (٢) فِي الْأَسْمَاءِ : « كَتَبْتُ لِلْمُطَرِّقَةِ » .

وافر". وروى البخاري أبو محمد في مسنده قال: حدثنا أبو المغيرة حدثنا الأوزاعي عن الحسن قال مثل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن رجلين كانا في بني إسرائيل، أحدهما كان عالما يصلي المكتوبة ثم يجلس فيعلم الناس الخير، والآخر يصوم النهار ويقوم الليل، أيهما أفضل؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "فضل هذا العالم الذي يصلي المكتوبة ثم يجلس فيعلم الناس الخير على العابد الذي يصوم النهار ويقوم الليل كفضل على أدناكم". أسنده أبو عمر في كتاب (بيان الصلوة) عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "فضل العالم على العابد كفضل على أمي". وقال ابن عباس: أنفضل الجهاد من بقى مسجدا يعلم فيه القرآن والتفقه والسنة". رواه شريك عن ليث بن أبي سليم عن يحيى بن أبي كثير عن علي الأزدی قال: أردت الجهاد فقال لي ابن عباس: ألا أدلك على ما هو خير لك من الجهاد، تأتي مسجدا تقرأ فيه القرآن وتعلم فيه الفقه، وقال الربيع سمعت الشافعي يقول: طلب العلم أوجب من الصلاة النافلة، وقوله عليه السلام: "إن الملائكة لتضع أجنحتها" الحديث يحتمل وجهين: أحدهما - أنها تعطف عليه وترحمه، كما قال الله تعالى: فيا وصى به الأولاد من الإحسان إلى الوالدین بقوله: "وأخفض لهم جناح النحل من الرحمة" أي تواضع لها. والوجه الآخر - أن يكون المراد بوضع الأجنحة فرشها؛ لأن في بعض الروايات: "وإن الملائكة تفرش أجنحتها" أي إن الملائكة إذا رأت طالب العلم يطلبه من وجهه ابتغاء مرضات الله وكانت سائر أحواله مشاكلة لطلب العلم فرشت له أجنحتها في رحلته ورحلته عليها؛ فمن هناك يسم فلا يتقى إن كان ماشيا ولا يتيأ، وتقرب عليه الطريق البعيدة، ولا يصيبه ما يصيب المسافر من أنواع الضرر كالمرض ونعاب المال وضلال الطريق.

وقد مضى شيء من هذا المعنى في "آل عمران" عند قوله تعالى: "شهد الله" الآية.

وروى عمران بن حصين قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة". قال يزيد بن هارون: إن لم يكونوا أصحاب الحديث

فلا أدري من هم.

قلت : وهذا قول عبد الرزاق في تأويله الآية ، إنهم أصحاب الحديث ؛ ذكره الثعلبي . سمعت شيخنا الأستاذ المقرئ النحوي المحدث أبا جعفر أحمد بن محمد بن محمد الفيضي القرطبي المعروف بأبن أبي حجة رحمه الله يقول في تأويل قوله عليه السلام : " لا يزال أهل الغرب ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة " : إنهم العلماء ؛ قال : وذلك أن الغرب لفظ مشترك يطلق على الذل والكثرة وعلى مغرب الشمس ، ويطلق على قبضة من الدمع . معنى " لا يزال أهل الغرب " أى لا يزال أهل قبض الدمع من خشية الله عن علم به وبأحكامه ظاهرين ؛ الحديث . قال الله تعالى : « إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ » .

قلت : وهذا التأويل يتعضده قوله عليه السلام في صحيح مسلم : " من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين ولا تزال عصاة من المسلمين يقاثلون على الحق ظاهرين على من ناوهم إلى يوم القيامة " . وظاهر هذا المساق أن أوله مرتبط بآخره . والله أعلم .

قوله تعالى : يَتَّخِذُ الَّذِينَ آمَنُوا قِتْلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلَيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (١٢٦)

فيه مسألة واحدة - وهو أنه سبحانه عرّفهم كيفية الجهاد وأن الابتداء بالأقرب فالأقرب من العدو؛ ولهذا بدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحرب ، فلما فرغ قصد الروم وكانوا بالشام . وقال الحسن : زلت قبل أن يؤمر النبي صلى الله عليه وسلم بقتال المشركين ؛ فهي من التدرج الذي كان قبل الإسلام . وقال ابن زيد : المراد بهذه الآية وقت نزولها العرب ، فلما فرغ منهم زلت في الروم وغيرهم : « فاقبلوا الذين لا يؤمنون بالله » . وقد روى عن ابن عمر أن المراد بذلك الذين . وروى عنه أنه سئل بمن يبدأ بالروم أو بالذي ؟ فقال بالروم . وقال الحسن : هو قتال الذين والترك والروم . وقال قتادة : الآية على العموم في قتال الأقرب فالأقرب ، والأدنى فالأدنى .

قلت : قول قتادة هو ظاهر الآية ، واختار ابن العربي أن يُبدأ بالروم قبل الدلم ، على ما قاله ابن عمر لثلاثة أوجه . أحدها - أنهم أهل كتاب ، فالحجة عليهم أكثر وأكثر .
الثاني - أنهم إلى أقرب ، أعني أهل المدينة . الثالث - أن بلاد الأندلس في بلادهم أكثر فاستفادها منهم أوجب . والله أعلم .

(وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً) أى شدة وقوة وحجة . وروى الفضل عن الأعمش وعاصم « غِلْظَةٌ » بفتح النون وإسكان اللام . قال الفراء : لغة أهل الحجاز وبني أسد بكسر النون ، ولغة بني تميم « غِلْظَةٌ » بضم النون

قوله تعالى : وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هِذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢١﴾

« ما » صلة ، والمراد المنافقون . (أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هِذِهِ إِيمَانًا) قد تقدم القول في زيادة الإيمان وقصائده في سورة « آل عمران » . وقد تقدم معنى السورة في مقدمة الكتاب ^(١) ، فلا معنى للإعادة . وكتب الحسن إلى عمر بن عبد العزيز ^(٢) « إن الإيمان سنا وفرائض من استكملها فقد استكمل الإيمان ومن لم يستكملها لم يستكمل الإيمان » . قال عمر بن عبد العزيز : فإن أبعث فسا بيننا لكم ، وإن امت فسا أنا على محبتكم بحريص » . ذكره البخاري . وقال ابن المبارك : لم أجد بئنا من أن أقول بزيادة الإيمان ، وإلا رددت القرآن .

قوله تعالى : وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَاْفِرُونَ ﴿١٢٢﴾

(١) جامع - ٤ ص ٢٨٠ طعة أول أو ثانية . (٢) جامع - ١ ص ١٠ طعة ثانية أو ثالثة .

(٣) القى في البخاري ، وكتب عمر بن عبد العزيز إلى علي بن علي - « الخ » فراجع في كتاب الإيمان .

احتدوا لكان ذلك الوقت مظنة لإيمانهم؛ فهم إذ يصممون على الكفر ويتكبرون فيه كأنهم انصرفوا عن تلك الحال التي كانت مظنة النظر الصحيح والاعتناء، ولم يسمعوا قراءة النبي صلى الله عليه وسلم تتابع من يتدبره وينظر في آياته؛ «إِنْ شَرَّ الدَّوَابِّ عَنْهُ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ» . «أَمَّا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالًا»^(١)
 قوله تعالى : (صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ) فيه ثلاث مسائل :

الأولى - قوله تعالى : (صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ) دعاء عليهم ، أى قولوا لهم هنا . ويمحوز أن يكون حبرا عن صردها عن الخير مجازاة على فعلهم . وهى كلمة يدعى بها ، كقوله : « فاتاهم الله » . والباء فى قوله : « بأنهم » صلة لـ « صرف » .

الثانية - قال ابن عباس : يكره أن يقال انصرفنا من الصلاة ؛ لأن قوما انصرفوا فصرف الله قلوبهم ، ولكن قولوا قضينا الصلاة ؛ أسنده الطبرى عنه . قال ابن العربى : وهذا فيه نظر وما أظنه بصحيح ؛ فإن نظام الكلام أن يقال : لا يقل أحد انصرفنا من الصلاة ؛ فإن قوما قيل فيهم : « ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم » . أخبرنا محمد بن عبد الملك القيسى الواعظ حدثنا أبو الفضل الجوهري - سمعنا منه يقول : كان فى جنازة فقال المنذر بها : انصرفوا رحمكم الله ! فقال : لا يقل أحد انصرفوا فإن الله تعالى قال فى قوم ذمهم : « ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم » ولكن قولوا : اقبلوا رحمكم الله ؛ فإن الله تعالى قال فى قوم مدحهم : « فَأَقْبَلُوا بِحِمَّةٍ مِنْ اللَّهِ وَفَضَّلَ لَهُمْ بِحَسَبِ سَوْءِهِ » .

الثالثة - أخبر الله سبحانه تعالى فى هذه الآية أنه صارف القلوب ومصرفها وقالها ومقلبها ؛ رقا على القدرة فى اعتقادهم أن قلوب الخلق بأيديهم وجوارحهم يحكمهم ، يشرفون بمشيتهم ويحكمون بإرادتهم واختيارهم ؛ ولذلك قال مالك فيما رواه عنه أشهب : ما أرى هذا فى الرد على القدرة « لا يزال بُعْثُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ » . وقوله عز وجل لنوح : « أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ » فهذا لا يكون أبدا ولا يرجع ولا يزول .

(١) أولئك فى الأمر إذا وقع به وشك ولم يخلص . (٢) آية ٢٤ - سورة الأحقاف

(٣) آية ٢٤ سورة محمد . (٤) آية ١٧١ سورة آل عمران . (٥) آية ٣٦ سورة مود .

قوله نعال : لَقَدْ جَاءَكَ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكَ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢١﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٢٢﴾

هاتان الآيتان في قول أبي أقرب القرآن بالساء عهدا . وقول سعيد بن جبير : آخر ما نزل من القرآن « وأتوا يوما ترجعون فيه إلى الله » على ما تقدم . ويحتل أن يكون قول أبي أقرب القرآن بالساء عهدا بعد قوله : « وأتوا يوما ترجعون فيه إلى الله » . والله أعلم . واخطاب للمسلم في قول الجمهور ، وهذا على جهة تسديد الممة عليهم في ذلك ؛ إذ جاء بلسانهم وبما يفهمونه ، وشرفوا به غابر الأيام . وقال الزجاج : هي مخاطبة بجمع العالم ؛ والمعنى : لقد جاءكم رسول من البشر ؛ والأول أصوب . قال ابن عباس : ما من قبيلة من العرب إلا ولدت النبي صلى الله عليه وسلم ؛ فكانه قال : يا معشر العرب ؛ لقد جاءكم رسول . من بني إسماعيل . والقول الثاني أؤكد للجمعة ؛ أي هو بشر مطلق لفهموا عنه وتأنوا به .

قوله تعالى : ﴿ مِنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ يقتضي مدحا لنسب النبي صلى الله عليه وسلم وأنه من ضميم العرب وخالصها . وفي صحيح مسلم عن واثلة بن الأسقع قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل واصطفى قريشا من كنانة واصطفى من قريش بني هاشم واصطفاني من بني هاشم » . وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إني من نكاح ولست من سفاح » . معناه أن نسبه صلى الله عليه وسلم إلى آدم عليه السلام لم يكن الفسل فيه إلا من نكاح ، ولم يكن فيه زنى . وفرا عبد الله بن قسيط المكي من « أَنفُسِكُمْ » يفتح الفاء من الفاسدة ؛ ورويت عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن فاطمة رضي الله عنها ؛ أي جاءكم رسول من أشرفكم وأفضلكم ؛ من قولك : بني ، فليس إذا كان من نوبها فيه . وقيل : من اسمكم ؛ أي أكثركم طاعة .

قوله تعالى : (عَزِزْتُ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّ) أى عَزِزْتُ عَلَيْهِ شَيْئَكُمْ . وَالْعَنْتُ : الْمَشَقَّةُ ؛ حَقُّهُمْ : أُنْكَمَةُ عَوَتْ إِذَا كَانَتْ شَاقَّةً مَهْلِكَةً . وقال ابن الأنباري : أصل العنت التشديد ؛ فَإِذَا قَالَتِ الْعَرَبُ : فَلَانِ بَعِثْتَ فَلَانًا وَيُعِثُّهُ فَرَادَهُمْ بَشَدَّ عَلَيْهِ وَبَزَمَهُ بِمَا يَصْعَبُ عَلَيْهِ أَدَاؤُهُ . وقد تقدم في « البقرة » . « وما » في « عَنِتُّ » مصدرية ، وهى ابتداء ، و « عزيز » خبر مقدم . ويجوز أن يكون « ما عَنِتُّ » فاعلا بعزيز ، و « عزيز » صفة للرسول ، وهو أصوب . وكذا « حَرِصْتُ عَلَيْكُمْ » وكذا « رهوف رحيم » رفع على الصفة . قال الفراء : ولو قرئ عزيزا عليه ما عَنِتُّ حربصا رهوفا رحيا ، نصبا على الحال جاز . قال أبو جعفر النحاس : وأحسن ما قيل في معناه مما يوافق كلام العرب ما حدثنا أحمد بن محمد الأزدي قال حدثنا عبد الله بن محمد الخزازي قال سمعت عمرو بن علي يقول : سمعت عبد الله بن داود الخريبي يقول في قوله عز وجل « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عَنِتُّ » قال : أن تدخلوا النار ، « حَرِصْتُ عَلَيْكُمْ » قال : أن تدخلوا الجنة . وقيل : حَرِصْتُ عَلَيْكُمْ أَنْ تَزْنُوا . وقال الفراء : شحيح بأن تدخلوا النار . والحرص على الشيء : التَّحُصُّ عَلَيْهِ أَنْ يَضِيعَ وَيَتَلَفَ ؛ (الْمُؤْمِنِينَ رَهَوْفٌ رَحِيمٌ) الرهوف : المبالغ في الرأفة والشفقة . وقد تقدم في « البقرة » معنى « رهوف رحيم » مستوف . وقال الحسين بن الفضل : لم يجمع الله لأحد من الأنبياء آسمين بن اسمائه إلا للنبي محمد صلى الله عليه وسلم ؛ فإنه قال : « الْمُؤْمِنِينَ رَهَوْفٌ رَحِيمٌ » وقال : « إِنْ أَرَادَ اللَّهُ بِالنَّاسِ لِرَهَوْفٍ رَحِيمٍ » . وقال عبد العزيز بن يحيى : نظم الآية لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز حريص بالمؤمنين رهوف رحيم ، عزيز عليه ما عَنِتُّ لاهمة إلا شائكم ، وهو قائم بالشفاعة لكم فلا تنهتوا بما عَنِتُّ ما أقمت على سنته ؛ فإنه لا يرضيه إلا دخولكم الجنة .

قوله تعالى : (فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ) أى إِنْ أَهْمَرَضَ الْكُفَّارُ يَا مُحَمَّدٌ بِهَذِهِ النِّعَمِ الَّتِي مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ بِهَا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ ؛ أى كَافَى اللَّهُ تَعَالَى . (لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ) أى اعتمدت ، وإليه فوّضت جميع أمورى . (وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ) خص العرش

(١) وابع ٣-٦٦ طيبة أمل أو ثانية . (٢) رابع ٢-١٥٨ طيبة ثانية ١٥ و ١٦

(٣) آية ١٤٢ سورة البقرة .

ص ١٠٣ طيبة ثانية أو ثالثة .

لأنه أعظم المخلوقات فيدخل فيه ما دونه إذا ذكره . وفراة العامة بخصه العظيم . معنا
 للعرش . وقرئ بالرفع صفة للرب ، رويت عن ابن كثير ، وهي قراءة ابن محيتم . وفي كتاب
 ابن داود عن أبي الدرداء قال : من قال إذا أصبح وإذا أمسى حسبي الله لا إله إلا هو عليه
 توكلت وهو رب العرش العظيم سبع مرات ، كفاه الله ما أهمه صادقاً كان بها أو كاذباً .
 وفي تولد الأصول عن بريدة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من قال عشر
 كلمات عند دبر كل صلاة وجد الله عندهن مكيفاً مجزياً نعمساً للدنيا ونعمساً للآخرة حسبي
 الله لديني حسبي الله لدينبي حسبي الله لما أهمني حسبي الله لمن بنى علي حسبي الله لمن
 جسدني حسبي الله لمن كادني بسوء حسبي الله عند الموت حسبي الله عند المسألة في القبر
 حسبي الله عند الميزان حسبي الله عند الصراط حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وإليه
 أنيب " . وحكى النقاش عن أبي بن كعب قال : أقرب القرآن عهداً بالله تعالى هاتان
 الآيتان « لقد جاءكم رسول من أنفسكم » إلى آخر السورة ، وقد بيناه . وروى يوسف بن
 مهران عن ابن عباس أن آخر ما نزل من القرآن « لقد جاءكم رسول من أنفسكم » وهذه
 الآية ، ذكره الماوردي . وقد ذكرنا عن ابن عباس خلافاً ، على ما ذكرناه في البقرة ، وهو
 أصح . وقال مقاتل : تقدم نزولها بمكة . وهذا فيه بعد ، لأن السورة مدنيصة ، والله أعلم .
 وقال يحيى بن جعدة : كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه لا يثبت آية في المصحف حتى
 يشهد عليها رجلان ، بغاء رجل من الأنصار بالآيتين من آخر سورة براءة « لقد جاءكم رسول
 من أنفسكم » فقال عمر : والله لا أسالك عليهما بينة ، كذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم ،
 فأنتهما . قال علي بن أبي طالب : الرجل هو خزيم بن ثابت ، وإنما أنتهما عمر رضي الله عنه
 بشهادته وحده اقيام الدليل على صحته في صفة النبي صلى الله عليه وسلم ؛ فهي قرينة ثبوت
 طلب شاهد آخر ، بخلاف آية الأحزاب « رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه » فإن تلك ثبتت
 بشهادة زيد وخزيمة لهما إياها من النبي صلى الله عليه وسلم . وقد تقدم هذا المعنى
 في مقدمة الكتاب . والحمد لله .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تفسير سورة يونس عليه السلام

سورة يونس عليه السلام مكية في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر . وقال ابن عباس :
إلا ثلاث آيات من قوله تعالى : «فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍّ إِلَى آخِرِينَ» . وقال مقاتل : إلا آيتين
وهي قوله : «فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍّ» ^(١) زالت بالمدينة . وقال الكلبي : مكية إلا قوله :
«وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ» ^(٢) زالت بالمدينة في اليهود . وقالت فرقة : زلت
من أولها نحو من أربعين آية بمكة وبألفها بالمدينة .

قوله تعالى : اَلرَّسُولُ اَنْزَلَ اِلَيْكَ اَلْكِتَابَ اَلْحَكِيمَ ①

قوله تعالى : (الر) قال النحاس : قرئ على أبي جعفر أحمد بن شبيب بن علي بن
الحسين بن حريث قال : أخبرنا علي بن الحسين عن أبيه عن يزيد أن عكرمة حدثه عن
ابن عباس : الر ، وهم ، ونون [حروف] الرحمن مفترقة ، غُذت به الأعمش فقال : عندك
أشياء هذا ولا تخبرني به . وعن ابن عباس أيضا قال : معنى «الر» أنا الله أرى . قال
النحاس : ورويت أبا إسحاق يميل إلى هذا القول ؛ لأن سيبويه قد حكى مثله عن العرب وأنشد :
بالخبر خيرات وإن شراً فآ . ولا أريد الشر إلا أن تأ

وقال الحسن وعكرمة : «الر» قسم . وقال سعيد عن قتادة : «الر» اسم للسورة ؛ قال :
وكذلك كل جهاد في القرآن . وقال مجاهد : هي فوائج السور . وقال محمد بن يزيد : هي تنبيه ،
وكذا حروف التهجى . وقرئ «الر» من غير إمالة . وقرئ بالإمالة ثلاثاً ما ولا من
الحروف .

(١) قية ٤٠

(٢) كما في نسخ الأمل وتفسير ابن عطية .

(١) قية ٩٤

(٤) أبزك بالخبر حرات وإن كان منك شركاء من مثله ، ولا أريد الشر إلا أن تشاء . (عن شرح الشواهد)

قوله تعالى : (تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ) ابتداء وحبر؛ أى تلك التى جرى ذكرها
آيات الكتاب الحكيم . قال مجاهد وقتادة : أراد التوراة والإنجيل والكتب المتقدمة ؛ فإن
« تلك » إشارة إلى غائب مؤنث . وقيل : « تلك » بمعنى هذه ؛ أى هذه آيات الكتاب
الحكيم . ومنه قول الأعشى :

تلك خيلي منه وتلك ركابي • هن صُفْرُ أولادها كالزبيب

أى هذه خيلي . والمراد القرآن وهو أولى بالصواب ؛ لأنه لم يمر للكتب المتقدمة ذكر ،
ولأن « الحكيم » من نعت القرآن . دليله قوله تعالى : « الرِّكَابُ أَحَكَّتْ آيَاتُهُ » وقد
تقدم هذا المعنى في أول سورة « البقرة » . والحكيم : الحكم بالحلل والحرام والحدود والأحكام ؛
قاله أبو عبيدة وغيره . وقيل : الحكيم بمعنى الحاكم ؛ أى أنه حاكم بالحلل والحرام ، وحاكم
بين الناس بالحق ؛ فعيل بمعنى فاعل ، دليله قوله : « وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيُحْكَمَ بَيْنَ
النَّاسِ فِيهَا اخْتَلَفُوا فِيهِ » . وقيل : الحكيم بمعنى المحكوم فيه ؛ أى حكم الله فيه بالعدل
والإحسان وبرئائه ذى القربى ، وحكم فيه بالنهى عن الفحشاء والمنكر ، وبالجنة لمن أطاعه
وبالنار لمن عصاه ؛ فهو فعيل بمعنى المفعول ؛ قاله الحسن وغيره . وقال مقاتل : الحكيم بمعنى
الحكم من الباطل لا كذب فيه ولا اختلاف ؛ فعيل بمعنى مفعول ، كقول الأعشى يذكر
قصيدته التى قالها :

وغريبة تأتى الملوك حكيمة • قد قلها ليقال من ذا قالها

قوله تعالى : أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ
النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ
إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ ①

(٢) راجع ١٥ ص ١٥٧ وما بعدها طبع ثانية أو ثالثة .

(١) أول سورة هود .

(٢) آية ١١٣ سورة البقرة .

قوله تعالى : ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا ﴾ استفهام معناه التفرير والتوبيخ . و « عجا » خبر كان ، واسمها ﴿ أَنَّا أَوْحَيْنَا ﴾ وهو في موضع رفع ، أى كان إيماننا عجبا للناس . وفي قراءة عبد الله « عجب » على أنه اسم كان . والخبر « أَنَّا أَوْحَيْنَا » . ﴿ إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ ﴾ قرئ « رَجُلٌ » بـ اسكن الجسيم . وسبب الدول فيما روى عن ابن عباس أن الكفار قالوا لما بُعث محمد : إن الله أعظم من أن يكون رسوله بشرا . وقالوا : ما وجد الله من رسله إلا يتيم أبى طالب ؛ فنزلت : « أَكَانَ لِلنَّاسِ » ببنى أهل مكة « عجا » . وقيل : إنما تعجبوا من ذكر البعث .

قوله تعالى : ﴿ أَنَّا أَنْذَرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ في موضع نصب على إسقاط الخافض ؛ أى بان أنذر الناس ؛ وكذا ﴿ أَنَّا لَمْ قَدَّمْ صِدْقِي ﴾ . وقد تقدم معنى التذارة والبشارة وغير ذلك من الفاظ الآية . واختلف في معنى « قَدَّمْ صِدْقِي » فقال ابن عباس : قدم صدق منزلى صدق ؛ دليله قوله تعالى : « وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقِي » . وعنه أيضا : أجرا حسنا بما قدموا من أعمالهم . وعنه أيضا « قدم صدق » سبق السعادة في الذكر الأول ؛ وقاله مجاهد . الزجاج : درجة عالية . قال ذو الرمة :

لَكَ قَدَمٌ لَا يَنْعَكِرُ النَّاسُ أَنَهَا • مع الحساب العالي طَمَّتْ عَلَى الْبَحْرِ

قناة : سلف صدق . الربيع : ثواب صدق . عطاء : مقام صدق . يَمَسُّنِ : إيمان صدق . وقيل : دعوة الملائكة . وقيل : وَلَدٌ صَالِحٌ قَدَمُوهُ . المساورى : أن يوافق صدق الطاعة صدق الجزاء . وقال الحسن وقناة أيضا : هو عهد صلى الله عليه وسلم ؛ فإنه شفيح مطاع يتقنهم ؛ كما قال : « أَمَا قَرَأْتُمْ عَلَى الْخَوْضِ »^(١) . وقد سئل صلى الله عليه وسلم فقال : « هِيَ شِفَاعَتِي تَوَسَّلُونَ بِي إِلَى رَبِّكُمْ » . وقال الترمذى للحكيم : قدمه صلى الله عليه وسلم في المقام الم محمود . وعن الحسن أيضا : مصيبتهم في النسي صلى الله عليه وسلم . وقال

(١) راجع ج ١ ص ١٨٤ ومن ٢٣٨ طبعة ثانية أو ثالثة - (٢) آية ٨٠ سورة الإسراء .

(٤) أى متقدمكم إليه .

(٢) في ديوانه وتفسير الطبري « العادى » .

عبد العزيز بن يحيى : « قِيمَ صَدَقَ » قوله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ يَتَا الْحَسَنَى أُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ مَسْكُونُونَ » . وقال مقاتل : أعمالاً قسماً ما؛ واختاره الطبري . قاله الواحش :

صَلَّ لَدَى الْمَرْثِ وَأَخَذَ قَدَمًا . تَحْبِيكَ يَوْمَ الْبِشَارِ وَالرُّل

وفيل : هو تقديم الله هذه الأمة في الحشر من القبر وفي إدخال الجنة . كما قال : « نحن الآخرون السابقون يوم القيامة المقضى لهم قبل الخلائق » . ونحقيقه أنه كتابة عن السبي والعلل الصالح ، فكفى عنه بالقدم كما يتكفى عن الإنعام باليد وعن التناء باللسان . وأشد حسان : لنا القدم الملبا إليك وحققنا . لأؤلنا في طاعة الله تابع .

يريد السابعة بإخلاص الطاعة ، والله أعلم . وقال أبو عبيدة والكناني : كل سابق من حبر أو شر فهو عند العرب قدم ؛ يقال : فلان قدم في الإسلام ، وله عندى قدم صديق وقدم شر وقدم حبر . وهو طفت وقد يذكرك ؛ يقال أقدم حسن وقدم صالحه . وقال ابن الأعرابي : القدم التقدّم في الشرف ؛ قال الصّباح .

زَلْ بِنُو الْعَوَامِ عَنِ آلِ الْحَكَمِ . وَتَرْكُوا الْمُلْكَ لِمَنْ ذِي قَدَمِ

وفي الصّباح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « في خمسة أسماء . أنا محمد وأما المساح الذي يحو الله في الكفر وأنا الخاشع الذي يُحْشَرُ النَّاسُ مِنْ قَدَمِي وأنا العاقب » يريد آخر الأبناء ؛ كما قال تعالى : « وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ » .

قوله تعالى : (قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لِبَشَرٌ مِثْلُكُمْ) فَرَأَى ابْنُ تَيْمِيَّةٍ وَأَبْنُ كَثِيرٍ وَالْكَوْفِيُّونَ عَاصِمٌ وَحِزَّةٌ وَالْكَنَانِيُّ وَحَلْفٌ وَالْأَعْمَشُ « لَسَابِر » نَسَا (رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . وَفَرَأَى الْبَاقُونَ « لَسَحَر » نَسَا لِلْقُرْآنِ . وَفَدِ تَقْدِمَ مَعْنَى السَّحَرِ « الْبُتْرَةِ » .

قوله تعالى : إِنَّ رَبَّكَ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُبْرِئُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٠١﴾

(١) آية ١٠١ سورة الأنعام . (٢) آية ٤٠ سورة الأحزاب . (٣) جامع ج ٢ ص ٢٤ طبعنا في . . .

قوله تعالى : (إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ) تقدم في الأعراف . (يَذُرُّ الْأَمْسِرَ) ^(١) قَالَ مجاهد : يقضيه ويقدره وحده . ابن عباس : لا يشركه في تدبير خلقه أحد . وقيل : بيعت بالأمسر . وقيل : يجرل به . وقيل : يأمر به ويمضيه ، والمعنى متقارب . جبريل للوحى ، وميكائيل للقطر ، وإسرافيل للصّور ، وعزرائيل للقبض . وحقيقته تنزيل الأمور في مراتبها على أحكام عواقبها ، واستشفافه من الدُّر . والأمر اسم لجنس الأمور . (مَا مِنْ شَيْعٍ) في موضع رفع ، والمعنى ما شفيع ^(٢) (إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ) وقد تقدم في « البقرة » معنى الشفاعة . فلا يشفع أحد نبي ولا غيره إلا بإذنه سبحانه . وهذا رد على الكفار في قولهم فيما عبده من دون الله : « هَؤُلَاءِ شُعْمَانَا عِنْدَ اللَّهِ » فأعلمهم الله أن أحدا لا يشفع لأحد إلا بإذنه ، فكيف بشفاعة أصنام لا تعقل .

قوله تعالى : (ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ) أى ذلكم الذى فصل هذه الأشياء من خلق السموات والأرض هو ربكم لا رب لكم غيره . (بَأَعْبُدُوهُ) أى وحدوه وأخلصوا له العبادة . (أَفَلَا تَذَكَّرُونَ) أى بخلافاته فتسلولوا بها عليه .

قوله تعالى : إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٦﴾

قوله تعالى : (إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ) رفع بالابتداء . (جَمِيعًا) نصب على الحال . ومعنى الرجوع إلى الله الرجوع إلى جزائه . (وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا) مصدران ، أى وعد الله ذلك وعدا وحقيقته « حقا » صدقا لا خلف فيه . وقرأ إبراهيم بن أبي عبلة « وَعَدَّ اللَّهُ حَقَّ » على الاستئناف .

(١) راجع ٧ ص ٢١٨ طبة أول اراتانية . (٢) راجع ٣ ص ٢٧٣ طبة أول اراتانية .

(٣) آية ١٨ من هذه السورة .

قوله تعالى : (إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ) أى من التراب . (ثُمَّ يُعِيدُهُ) إليه . مجاهد : يشته ثم يميت ثم يحييه البعث ، أو يشته من الماء ثم يعيده من حال إلى حال . وقرأ يزيد ابن الققاع : أنه يبدأ الخلق ، تكون « أن » في موضع نصب ، أى وعدمكم أنه يبدأ الخلق . ويجوز أن يكون التقدير لأنه يبدأ الخلق ، كما يقال : ليكن أن الحمد والنعمة لك ، والكسر أجود . وأجاز الفراء أن تكون « أن » في موضع رفع فتكون أسما . قال أحمد ابن يحيى : يكون التقدير حقا إبداءه الخلق .

قوله تعالى : (لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ) أى بالعدل . (وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ نَجِيمٍ) أى ماء حار قد انتهى حره ، والحجيمة مثله . يقال : حمت الماء أحته فهو حميم ، أى محوم ؛ فبيل بمعنى مفعول . وكلُّ سُحْنٍ عند العرب فهو حميم . (وَعَذَابٌ أَلِيمٌ) أى موبع ، يخلص وجهه إلى قلوبهم . (بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ) أى يكفرهم ، وكان معظم فرس يصفون بأن الله خالقهم ، فاحتج عليهم بهذا فقال : من قدر على الابتداء قدر على الإعادة بعد الإفناء أو بعد تفريق الأجزاء .

قوله تعالى : هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ①

قوله تعالى : (هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً) معمولان ، أى مضيئة ، ولم يؤت لأنه مصدر ، أو ذات ضياء . (وَالْقَمَرَ نُورًا) عطف ، أى مبرا ، ألوانا نور . فالضياء ما بهى الأشياء ، والنور ما بين يضى ؛ لأنه من الناز من أصل واحد . والضياء جمع ضوء ؛ كالسباط والمبايض جمع سوط وحوض . وقرأ قتيل عن ابن كثير : ضياء . يهز الباء ولا وجه له ؛ لأن ياء كانت وأوا مفتوحة وهى عين الفعل ، أصلا ضواء فقلت وجعلت ياء كما جعلت فى الصيام والقيام . قال المهدوى : ومن قرأ ضياء بالمعز فهو مغلوب ، فتمت

تلعن التي بعد الاف اصابته قبل الاف فكلوا ضايا، ثم قلت الياء حمزة لوقوعها بعد
الف لثمة . وكذلك ان قدوت ان الياء حين طلعت وجئت الى الواو التي انتقلت عنها
فانها قلب حمزة ايضا لولائه فلاح مغلوب من فعال . ويقال : ان الشمس والقمر تغني
وجوههما لأهل السموات السبع وتظهرهما لأهل الأرضين السبع .

قوله تعالى : (وَفَدَّرَهُ مَنَازِلَ) أي فدا منازل ، أو قدَّر له منازل . ثم قيل : المعنى
وقدَّرهما ، فوجد إيجازا واختصارا ، كما قاله . . وَإِذَا مَا رَأَى تَبَاجَةً أَوْ لَمَعًا أَفْقَضُوا إِلَيْهَا . .
وكما قاله .

فمن بما حسده وانت بما . حسده وايش والراى مخيف
وقيل : إن الإخهار من القمر وحده ؛ إذ به تحصى الشهور التي عليها العمل في المعاملات
ونحوها ، كما تقدم في « البقرة » . وفي سورة يس : (وَالْقَمَرَ قَدَرًا مَنَازِلَ) أي على عدد
الشهر ، وهو عمانية وعشرون منزلا . ويرمان للتقصان والحاق ، وهناك يأتي بيانه .

قوله تعالى : (لِيَسْأَلُوا مَتَى السَّيِّئِ وَالْحَسَبِ) قاله آبن عباس : لوجعل شمسين
شمسا بالنهار وشمسا بالليل ليس فيما ظلمة ولا ليل ، لم يعلم عدد السيئ وحساب الشهور .
وواحد « السيئ » سنة ، ومن السريب من يقول : سنوات في الجمع . ومنهم من يقول :
سنهات . والتصغير سنيّة وسنينة .

قوله تعالى : (مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ) أي ما أراد الله عز وجل بخلق ذلك
إلا الحكمة والصواب ، وإظهارا لصنفته وحكمته ، ودلالة على قدرته وعلمه ، ولن تجزى كل
تس بما كتبت ؛ فهذا هو الحق .

قوله تعالى : (يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) تفصيل الآيات تبيينها ليسندل بها على
قدرته تعالى ، لا اختصاص الليل بظلامه والنهار بضياءه من غير استحقاق لما ولا إيجاب ؛

(١) آخر سورة البقرة . (٢) راجع ج ٢ ص ٢٤١ وما بعدها طابة ناهة . (٣) آية ٢٩ .

(٤) الحاق (بنة) ، آخر الشهر إذا قضى أعماله في يوم .

فيكون هذا لم يدلل على أن ذلك بإرادة مريد . وقرا ابن كثير وأبو عمرو وحفص وبغويوب
« بفصل » بالياء ، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم ، لقوله من قبله : « مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ
إِلَّا بِالْحَقِّ » وبسده « وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » فيكون متبعا له . وقرا
ابن السكيت « تَفْصِل » بضم التاء وفتح الصاد على الفعل المجهول ، و « الآيات » رفعا .
الباقون « تفصل » بالنون على التعظيم .

قوله تعالى : **إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ
فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ** ﴿٢٦﴾

تقدم في « البقرة » وغيرها معناه ، والحمد لله . وقد قيل : إن سبب نزولها أن أهل مكة
سالوا آية فزدهم إلى تأمل مصنوعاته والنظر فيها ؛ قاله ابن عباس . ﴿ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ أى
الشرك ؛ فاما من أشرك ولم يستدل الآية له آية .

قوله تعالى : **إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا
وَاطْمَأْنَنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَابَتِنَا غَافِلُونَ** ﴿٢٧﴾ **أُولَٰئِكَ مَا لَهُمْ
النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكُونُونَ** ﴿٢٨﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ﴾ « يرجون » يخافون ؛ ومنه قول الشاعر :
إذا نسخت النحل لم يرج لسمها . وحالها في بيت ثوب عواسل

وقيل يرجون يطعمون ؛ ومنه قول الآخر :

أرجو بنو مروان سمى وطاعنى . وقسوى نيم والقلاة وراثتى

(١) راجع ج ٣ ص ٦٩١ طبعه تايه . (٢) البيت لأبي ذؤيب . وقوله : « وحالها » بالهاء المعجمة :
حالها أى حالها أى عابثة ترضى . ويرى « وحالها » بالهمزة أى لارها . والوب : النحل ؛ لأنها ترضى ثم تنوب
إلى موضها . ويرى : « عواسل » بال « عواسل » وهى التى تعمد النمل وتشمع . (ح) شرح ديوان أبي ذؤيب .

فألجأه بكون بمعنى الخوف والطعم؛ أى لا يخافون عقاباً ولا يرجون نواباً. وجعل لقاء المذاب والتواب لقاءً لله فتعجبا لها. وقيل: يجرى اللقاء على ظاهره، وهو الرؤية؛ أى لا يطعمون في رؤيتنا. وقال بعض العلماء: لا يقع الرجاء بمعنى الخوف إلا مع التجدد؛ كقوله تعالى: «مَالِكُمْ لَا تَرْجُونَ فِيهِ وَقَارًا» . وقال بعضهم: بل يقع بمعناه في كل موضع دل عليه المعنى. قوله تعالى: «وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا» أى رَضُوا بها عوضاً من الآخرة فعملوا لها. «وَأَطَاعُوا رَبَّهَا» أى فرحوا بها وسكنوا إليها، وأصل أطاعان طامن طُمَائِنَةً، فقدمت ميمه وزيدت نون والف وصل؛ ذكره القرطبي. «وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا» أى عن أدلتنا «غَائِلُونَ» لا يعتبرون ولا ينفكرون. «أُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ» أى مَنَازِلهم ومَقَامهم. «الْأَرْضِ مِمَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ» أى من الكفر والتكذيب.

قوله تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ» ⑤

قوله تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا» أى صدَّقوا. «وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ» أى يزيدهم هداية؛ كقوله: «وَالَّذِينَ اخْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى» . وقيل: «يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ» إلى مكان تجرى من تحتهم الأنهار. وقال أبو روق: يهديهم ربهم بإيمانهم إلى الجنة. وقال عطية: «يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ وَيُجْزِيهِمْ» . وقال مجاهد: «يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ» بالنور على الصراط إلى الجنة، يعمل لهم نوراً يمشون به. ويروى عن النبي صلى الله عليه وسلم ما يقوى هذا أنه قال: «يتلقى المؤمن عمله في أحسن صورة فيؤنسه ويهديه. ويتلقى الكافر عمله في أقبح صورة فيوحشه وبضله». هذا معنى الحديث. وقال ابن جريح: يعمل عملهم هادياً لهم. الحسن: «يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ»

قوله تعالى: «تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ» قيل: في الكلام وار محذوفة، أى وتجرى من تحتهم، أى من تحت بساطتهم. وقيل: من تحت أسيرتهم؛ وهذا أحدان في الزعة وانعرجة.

قوله تعالى : دَعَوْنَهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ فِيهَا سَلَامٌ وَأَبْرُ
دَعَوْنَهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٥﴾

قوله تعالى : (دَعَوْنَهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ) دعواهم ، دعاؤهم ، والدعوى مصدر
دعا يدعو ، كالشكوى مصدر شكى يشكو ، أى دعاؤهم فى الجنة أن يقولوا سبحانك اللهم .
وقيل : إذا أرادوا أن يسألوا شيئا أنرجوا السؤال بلفظ التسبيح ويحتمون بالحمد . وقيل :
فدأؤهم الخدم لياؤهم بما شاءوا ثم سبحوا . وقيل : إن الدعاء هنا بمعنى التمنى ، قال الله تعالى :
وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ۖ أَيْ مَا تَمْنُونَ . والله اعلم .

قوله تعالى : (وَبِحَمْدِكَ فِيهَا سَلَامٌ) أى تحية الله لهم أو تحية الملك أو تحية بعضهم
لجميع : سلام . وقد مضى فى « النساء » معنى التحية مستوفى . والحمد لله .

فوقه تعالى : (وَأَبْرُ دَعَوْنَهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) فيه أربع مسائل :

الأولى - قيل : إن أهل الجنة إذا مرت بهم الطير وأشتهوا قالوا : سبحانك اللهم ، فيأتيهم
الملك بما اشتبهوا ، فإذا أكلوا حمدوا الله ، وسألهم بلفظ التسبيح والحمد بلفظ الحمد . ولم يحك
أبو عبيد إلا تخفيف « أن » وروى ما بعدها ، قال : وإنما زاهم اختاروا هذا وقرئوا بينها
وبين قوله عز وجل « أن لمة الله » وه « أن غضب الله » لأنهم أرادوا الحكاية حين يقال :
الحمد لله . قال النحاس : منعب الخليل وسيبويه أن « أن » هذه غفقة من التثنية ،
والمنى أنه الحمد لله . قال محمد بن يزيد : ويجوز « أن الحمد لله » يعملها خفيفة عملها ثقلية ،
والرفع أثقل . قال النحاس : وحكى أبو حاتم أن بلال بن أبى ردة قرأ « وأبر دعوهم أن
الحمد لله رب العالمين » .

قلت : وهى لقراءة ابن محيصن ، حكاهما التزويج - لأنه يحكى عنه .

الثانية - التسبيح والحمد والتبجيل قد يُسمى دعاء؛ روى مسلم والبخاري عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول عند الكرب: "لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا الله ربُّ العرش العظيم، لا إله إلا الله ربُّ السموات وربُّ الأرض وربُّ العرش الكريم". قال القسيري: كان السلف يدعون بهذا الدعاء ويسمونه دعاء الكرب. وقال ابن عبيدة وقد سئل عن هذا فقال: أما علمت أن الله تعالى يقول "إذا سئل عبيد تنازعوا عن سئتي أعطيتهم أفضل ما أعطى السائلين". والذي يقطع النزاع وإن هذا يسمى دعاء وإن لم يكن فيه من معنى الدعاء شيء وإنما هو تعظيم لله تعالى وثناء عليه ما رواه النسائي عن سعد ابن أبي وقاص قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "دعوة ذي النون إذ دعا بها في بطن الحوت لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين" فإنه إن يدعو بها مسلم في شيء إلا استجيب له.

الثالثة - من السنة لمن بدأ بالآكل أن يسمي الله عند أكله وشربه ويحمده عند فراغه اقتداء بأهل الجنة؛ وفي صحيح مسلم عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الله يرضى عن العبد أن يأكل الأكلة ويحمده عليها أو يشرب الشربة فيحمده عليها".

الرابعة - يستحب للداعي أن يقول في آخر دعائه كما قال أهل الجنة: وأتردعوهم أن الحمد لله رب العالمين؛ وحسن أن يقرأ آخر الصفات فأيها حمت تنزيه الباري تعالى عما نسب إليه، والتسليم على المرسلين، والتمن بالحمد لله رب العالمين.

قوله تعالى: وَلَوْ يُعِجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتَعْبَاهُمْ بِأَخْبَرٍ لَفُضِّىَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٣١﴾

(أ) حرفه تعالى: «سبحانك رب العزة عما يصفون» ملاحى المرسلين وأما في رب العالمين.

قوله تعالى : (وَلَوْ يَسْأَلُ اللَّهُ النَّاسَ النَّارَ اسْتَجَابَتْ لَهُمْ النَّارُ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ)
فيه ثلاث مسائل :

الأول - قوله تعالى : (وَلَوْ يَسْأَلُ اللَّهُ النَّاسَ النَّارَ) قيل : معناه ولو عجل الله للناس العقوبة كما يستجيبون التواب والخير لماتوا ، لأنهم خلقوا في الدنيا خلقا ضعيفا ، وليس هم كذا يوم القيامة ، لأنهم يوم القيامة يخلقون للبقاء . وقيل : المعنى لو فصل الله مع الناس في إجابته إلى المكروه مثل ما يريدون فعله معهم في إجابته إلى الخير لأهلكهم ، وهو معنى « لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ » . وقيل : إنه خاص بالكافر ، أى ولو يسأل الله للكافر العذاب هل كفره كما نزل له خير الدنيا من المال والولد لمعجل له قضاء أجله لتعجل عذاب الآخرة ، قاله ابن اسحاق . ومفائل : هو قول النضر بن الحارث : اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا جَارِدًا مِنَ السَّمَاءِ فَاَوْعَجِلْ لِمِ هَذَا لِهَلْكَوْا . وقال مجاهد : نزلت في الرجل يدعو على نفسه أو ماله أو ولده إذا غضب : اللَّهُمَّ أَهْلِكْهُ ، اللَّهُمَّ لَا تَبَارِكْ لَهُ فِيهِ وَأَلْهَمْهُ ، أو نحو هذا ، فلو استجيب ذلك منه كما يستجاب الخير لقضى إليهم أجلهم . فالآية نزلت خاتمة شئق ضم هو في بعض الناس يدعو في الخير فيريدون تسجيل الإجابة ثم يحملهم أحيانا سوء الخلق على الدعاء في النار ، فلو عجل لهم هللكوا

الثانية - وكيف في إجابة هذا الدعاء ، فروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إِنْ سَأَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَلَا يَسْتَجِيبُ دَعَاءَ حَبِيبٍ عَلَى حَبِيبِهِ » . وقال شمر ابن حوشب : فرأت في بعض الكتب أن الله تعالى يقول لللائكة الموكنين بالمعبد : لَا تَكْتُبُوا عَلَى عَبْدِ فِي حَالِ خَيْرِهِ شَيْئًا ، لَظْفًا مِنْ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِ . قال بعضهم : وقد يستجاب ذلك الدعاء ، واحتج بحديث جابر الذي رواه مسلم في صحيحه أنه قال جابر : سمنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة بطن بواط . وهو يطلب التحدي بن عمرو الجهمي

(١) بواط (بضم الواو) : جبل من جبال جهينة بناحية رضى (جبل بالهبة عند ينبع) ، غزاها النبي صلى الله عليه وسلم في شهر ربيع الأول في السنة الثامنة من الهجرة يريد فريشا

وَكَانَ السَّامِخُ يَتَّبِعُهُ مَا الْخَمْسَةُ وَالسَّتَةُ وَالسَّبْعَةُ ، فَدَارَتْ عَقِبَهُ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ عَلَى تَاضِعٍ لَهُ
فَأَنَاحَهُ فَرَكَبَ ، ثُمَّ مَشَى فَلَمَّذَنَ عَلَيْهِ بَعْضُ التَّلَذُّنِ ؛ فَقَالَ لَهُ : شَأْ ، لِمَنْكَ اللَّهُ ! فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " مَنْ هَذَا اللَّاعِنُ بِمِيرَةٍ " ؛ قَالَ : أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ ، قَالَ : " أَنْزِلْ عَنْهُ
فَلَا نَصَحْبًا ، يَلْمُونَ لَا تَدْعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ وَلَا تَدْعُوا عَلَى أَوْلَادِكُمْ وَلَا تَسْعُوا عَلَى أَمْوَالِكُمْ لَا تَوَافِقُوا
مِنْ اللَّهِ سَاعَةً يُبَالُ فِيهَا عَطَاءٌ فَيَسْتَجِيبُ لَكُمْ "

في غير مسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم كان في سفر فظن رجل ناقته فقال : " أين الذي
لمن ناقته ؟ " فقال الرجل : أنا هذا يا رسول الله ؛ فقال : " أنترها عنك فقد أُجبت فيها " .
ذكره الحلي في منهاج الدين . « شا » يروى بالسین والشين ، وهو زجر للبحير بمعنى يبر .
الثالثة - قوله تعالى : (وَلَوْ يُعِجِّلُ اللَّهُ) قال العلماء : التعجيل من الله ،
والاستعجال من العبد . وقال أبو علي : « ما من الله ، وفي الكلام حذف ؛ أي ولو يعجل
الله للناس الشر تعجيلا مثل استعجالهم بالخير ، ثم حذف تعجيلا وأقام صفته مقامه ،
ثم حذف صفته وأقام المضاد إليه مقامه ؛ هذا مذهب الخليل وسيبويه . وحل قول الأخصر
والفراء كاستعجالهم ، ثم حذف الكاف ونصب . قال الفراء : كما تقول ضربت زيدا ضربة ،
أي كضربة . وقرأ ابن عامر « لَقَضَى إِلَيْهِمْ أَسْلَهُمْ » . وهي قراءة حسنة ؛ لأنه متصل
بقوله « ولو يعجل الله للناس الشر » .

قوله تعالى : (فَتَدْرُ الْبَئِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا) أي لا يعجل لهم الشر فرجما يتوب منهم
ثائب ، أو يخرج من أصلهم مؤمن . (فِي طُنُجَاتِهِمْ يَسْمُومُونَ) أي يسممون . والطنان :
المرق والارتفاع ، وقد تقدم في « البقرة » . وقد قيل : إن المراد بهذه الآية أهل مكة ، وإنما
نزلت حين قالوا : « اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ » الآية ، على ما تقدم والله أعلم .

(١) أي يشالده في الركوب وأشد بعد واحد . والنفقة : النوبة . (٢) تلذذ : تلاكذ ونوف ولم يثبت .
(٣) راجع ١ ص ٢٠٩ طبع ثانية مرة . (٤) ٧ ص ٢٩٨ طبع أول مرة .

قوله تعالى : وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَاَ لِحَبِيْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرِّ مَسٍّ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾

قوله تعالى : (وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَاَ لِحَبِيْبِهِ) قيل : المراد بالإنسان هنا الكافر ، قيل : هو أبو حذيفة بن اليمية المشرك ، تصيبه البأساء والشدة والجهد . (دَعَاَ لِحَبِيْبِهِ) أي مل حبيبه مضطجعا . (أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا) وإنما أراد جميع حالاته ؛ لأن الإنسان لا يبدو في إحدى هذه الحالات الثلاثة . قال بعضهم : إنما بدأ بالمضطجع لأنه بالضرر أشد في غالب الأمر ، فهو يدعو أكثر ، واجتهاده أشد ، ثم القاعد ثم القائم . (فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ) إلى استمر على كفره ولم يشكر ولم يتنظ .

قلت : وهذه صفة كثير من الخلق الموحدين ، إذا أصابته العافية مرة على ما كان عليه من المعاصي ؛ فالآية تم الكافر وفيه . (كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا) قال الأخفش : هي « كأن » التعلية تخفت ؛ والمعنى كأنه ؛ وأشد .

وَيَ كَانَ مِنْ يَكُنْ لَهُ تَنَسُّبٌ يَمْ . جَنَّهُ وَمِنْ يَنْقَرِ يَمْشِ يَمْشِ ضَرُّ
(كَذَلِكَ زُيِّنَ) أي كازين لهذا الداء عند البلاء والإعراض عند الرخاء (زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ) أي للشركين أعمالهم من الكفر والمعاصي . وهذا الترتيب يجوز أن يكون من الله ، ويجوز أن يكون من الشيطان ، وإضلاله دعائه إلى الكفر .

قوله تعالى : وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونََ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾
قوله تعالى : (وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونََ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا) يعني الأمم الماضية من قبل أهل مكة أهلكتهم (لَمَّا ظَلَمُوا) أي كفروا وأنكروا . (وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ)

(لَمَّا) الجاء زيد من محمد بن عبد الله في رواية الأديب في نسخة القاموس والسجدة يد الأربعة .

أى بالمعجزات الواححات والبراهين الثابتة . (وَمَا كَانُوا يُؤْمِنُوا) أى أهلكهم لعلنا أنهم لا يؤمنون . يخوف كفار مكة عذاب الأمم الماضية ؛ أى نحن قادرون على إهلاك هؤلاء . بتكذيبهم معنا حصل الله عليه وسلم ، ولكن نعلمهم لعلنا بأن فهم من يؤمن ، أو يخرج من أصلاهم من يؤمن . وهذه الآية نزلت على أهل الضلال القائلين بخلق المدى والإيمان . وقيل : معنى « وما كانوا يؤمنوا » أى جازاهم على كفرهم بأن طبع على قلوبهم ، وبدل على هذا أنه قال : (كذلك نجزي الزوم المجرمين)

قوله تعالى : ثُمَّ جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾

قوله تعالى : (ثُمَّ جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً) مفعولان . والخلائف جمع خليفة ، وقد تقدم آخر « الأمام » أى جعلناكم سكانا في الأرض (مِنْ بَعْدِهِمْ) أى من بعد القرون المهلكة . (لِنَنْظُرَ) نصب بلام كي ، وقد تقدم بظايره وأمثاله ؛ أى لينظر منكم ما تستحقون به الثواب والعقاب ، ولم ينزل بلامه غيبا . وقيل : يعاملكم معاملة المختبر إظهارا للمعدل . وقيل : النظر راجع إلى الرسل ؛ أى ليطر رسلنا وأولياؤنا كيف أعمالكم . و« كيف » نصب بقوله تعملون ؛ لأن الاستفهام له صدر الكلام فلا يعمل فيه ما قبله .

قوله قال : وَإِذَا نُنَادِي عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ أَوْ يَدُلُّهُ قُلٌّ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُنْبِئَهُمْ مِنْ بَلَقَائِي نَفْسِي إِنْ أُتِيعَ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَىٰ إِيَّائِي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٢﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى - قوله تعالى : (وَإِذَا نُتِلَ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا) « نزل » « قرأ » ، و « ينات » نصب على الحال ؛ أى واضحات لا لبس فيها ، لا إشكال . (قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَانَا) يعنى لا يخافون يوم البعث والحساب ولا يرجون الثواب . قال قتادة : يعنى مشرك أهل مكة . (أَنْتَ يُقْرَأُ قَبْرًا قَبْرًا أَوْ بَلَاءً) والفرق بين تبديله والإتيان بغيره أن تبديله لا يجوز أن يكون معه ، والإتيان بغيره قد يجوز أن يكون معه ؛ وفي قولهم ذلك ثلاثة أوجه :

أحدها - أنهم سأله أن يحول الوعد ويبدل الوعد وعدا ، والحلال حراما والحرام حلالا ، قاله ابن جرير الطبري .

الثانى - سأله أن يسقط ما فى القرآن من حيب أمتهم ونسفيه أحلامهم ؛ قاله ابن عباس .

الثالث - أنهم سأله إسقاط ما فيه من ذكر البعث والنشور ؛ قاله الزجاج .

الثانية - قوله تعالى : (قُلْ مَا يَكُونُ لِي) أى قل يا محمد ما كان لى (أَنْ أَبْدِلَهُ مِنْ تِلْكَ نَفْسًا) ومن عندى ، كما ليس لى أن ألقاه بالرة والتكذيب . (إِنْ أُنِيعَ إِلَّا مَا يُوَسَّوْنِ إِلَى) أى لا أنبج إلا ما اتلوه عليكم من وعد ووعيد ، وتحزيم وتحليل ، وأمر ونهى . وقد يستدل بهذا من يمنع نسخ الكتاب بالسنة ؛ لأنه تعالى قال : « قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَبْدِلَهُ مِنْ تِلْكَ نَفْسًا » وهذا فيه بعد ؛ فإن الآية وردت فى طلب المشركين مثل القرآن نظما ، ولم يكن الرسول صلى الله عليه وسلم قادرا على ذلك ، ولم يسأله تبديل الحكم دون اللفظ ؛ ولأن الذى يقوله الرسول صلى الله عليه وسلم إذا كان وجبا لم يكن من تلقاء نفسه . بل كان من عند الله تعالى .

الثالثة - قوله تعالى : (إِنْ أَتَاكَ إِثْرُ غَصَّةٍ دُونِ) أى إن خالفت فى تبديله

وتغيره أو فى ترك العمل به (مَلَأَ بِحَرَمٍ عَظِيمٍ) يعنى يوم القيامة .

قوله تعالى : قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُمْ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَسْتُكُمْ بِهِ .
فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١١﴾

قوله تعالى : (قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُمْ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَسْتُكُمْ بِهِ) أى لو شاء الله ما أرسلنى إليكم فتلوت عليكم القرآن ، ولا أعلمكم الله ولا أخبركم به ، يقال : دريت الشيء ، وأدراى الله به ، ودريته ودريت به . وفى الدراية معنى الخلل ، ومنه دريت الرجل أى خلته ، ولهذا لا يطلق الدراى فى حق الله تعالى وأيضاً عدم فيه التوقيف . وقرا ابن كثير « ولا أدراكم به » بغير ألف بين اللام والمهمزة ، والمعنى : لو شاء الله لأعلمكم به من غير أن أظنه عليكم ، فهى لام التأكيد دخلت على ألف أعمل . وقرا ابن عباس والحسن « ولا أدراكم به » بتحويل الياء ألفاً ، على لغة بنى عقييل ، قال الشاعر :

لعمرك ما أغشى التصلك ما بينى • على الأرض قبيس يسوق الأباصر

وقال آخر .

ألا أدت أهل الجلالة طيى • بحرب كاصات الأغر المنهر

قال أبو حاتم : سمعت الأعمشى يقول سألت أبا عمرو بن العلاء : هل لقراءة الحسن « ولا أدراكم به » وجه ؟ فقال لا . وقال أبو عبيد : لا وجه لقراءة الحسن « ولا أدراكم به » إلا اللط . قال الجاس : معنى قول أبى عبيد « لا وجه » إن شاء الله على الغلط ، لأنه يقال : دريت أى علمت ، وأدريت فبرى ، ويقال : درأت أى دفعت ، فبمع الغلط بين دريت ودرأت . قال أبو حاتم : يريد الحسن فيما أحسب « ولا أدريتكم به » ما بدل من الياء ألفاً على لغة بنى الحارث بن كعب ، يبدلون من الياء ألفاً إذا افتتح ما قبلها ، مثل « إن هذان لساحران » . قال المهدوى : ومن قرأ « أدراكم » فوجهه أن أصل المهمزة ياء ، فاصلة « أدريتكم » فقلبت الياء ألفاً وإن كانت ساكنة ، كما قال : يابن فى يس وطاين فى طيى ، ثم قلبت الألف

هزة على لغة من قال في العالم العالم وفي الخاتم الخاتم . قال النحاس : وهذا غلط ، والرواية عن الحسن « ولا أدراككم » بالهزة ، وأبو حاتم وغيره تكلم أنه خبر هز ، ويموز أن يكون من دوات أى دفت ، أى ولا إمرتكم أن تدفوا فتكروا الكفر بالقرآن .

قوله تعالى : (قَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا) ظرف ، أى مقداراً من الزمان وهو أربعون سنة . (مِنْ قَبْلِهِ) أى من قبل القرآن ، تحرفون بالصدق والأمانة ، لا أفرا ولا أكتب ، ثم جئكم بالمعجزات . (أَفَلَا تَعْلَمُونَ) أن هذا لا يكون إلا من عند الله لا من قبل . وقيل : معنى « لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا » أى لبث فيكم مدة شبابي لم أعص الله ، أقربدون مني الآن وقد بلغت أربعين سنة أن أخالف أمر الله ، وأغير ما يقوله علي . قال قتادة : لبث فيهم أربعين سنة ، وأقام ستين يرى رؤيا الأنبياء ، وتوفى صلى الله عليه وسلم وهو ابن اثنين وستين سنة .

قوله تعالى : فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾

هذا استفهام بمعنى الجحد ، أى لا أحد أظلم ممن افتري على الله الكذب ، وبطل كلامه وإضاف شيئا إليه مما لم يقوله . وكذلك لا أحد أظلم منكم إذا أنكرتم القرآن وأفترتم على الله الكذب ، وقتلتم ليس هذا كلامه . وهذا مما أمر به الرسول صلى الله عليه وسلم أن يقول لهم . وقيل : هو من قول الله ابتداء . وقيل : المبتدئ للمشرك ، والمكذب بالآيات أهل الكتاب . (إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ) .

قوله تعالى : وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتَدْعُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾

قوله تعالى : (وَيَسْأَلُونَكَ مَنْ تُؤْتِي مَالًا لَا بَصَرًا لَهُمْ وَلَا يَتَفَقَهُونَ) يريد الأصنام .
 (وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ) وهذه غاية الجهالة منهم ؛ حيث ينظرون الشفاعة
 في المسأل من لا يوجد منه نفع ولا ضرر في الحال . وقيل : « شفعاؤنا » أى تسمع لنا عند
 الله في إصلاح معاشنا وديننا . (قُلْ أَتُحِبُّونَ اللَّهَ يَمَّا لَا يَمْلِكُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ)
 قراءة العامة « تنبتون » بالتشديد . وقرا أبو السَّيَّالِ الْقَدَوِيُّ « أتعينون الله » غفغا ، من أنبا
 ينبي . وقراءة العامة من نبأ ينبي تنبئة ؛ وهما بمعنى واحد ، جمعها قوله تعالى : « من أنبأك
 هَذَا قَالَ نَبَايَ الْعَالَمِ الْخَبِيرُ » أى انخبرون الله أن له شريكا في ملكه أو شفيعا بنير إلهه ، والله
 لا يعلم نفسه شريكا في السموات ولا في الأرض ؛ لأنه لا شريك له فذلك لا يعلمه . نظيره
 قوله : « أَمْ تُتَّبِعُونَهُ يَمَّا لَا يَمْلِكُ فِي الْأَرْضِ » ثم تزههه وقدسها عن الشرك فقال : (سُبْحَانَهُ
 وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ) أى هو أعظم من أن يكون له شريك . وقيل : المعنى أى يعبدون
 ما لا يسمع ولا يبصر ولا يميز « ويقولون هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ » فيكذبون ؛ وهل ينبيأ لكم
 أن تنتهوا عما لا يعلم ، سبحانه وتعالى عما يشركون ! . وقرا حمزة والكسائي « تتركون »
 بالياء ، وهو اختيار أبي عبيد . الباقر بالياء .

قوله تعالى : وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ
 سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ فَيَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١﴾

تقدم في « البقرة » معناه فلا معنى للإعادة . وقال الزجاج : هم العرب كانوا على الشرك .
 وقيل : كل مولود يولد على الفطرة ، فاختلغوا عند البلوغ . (وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ
 لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ فَيَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ) إشارة إلى القضاء والقدر ، أى لولا ما سبق في حكمة أنه لا يقضى
 بينهم فيما اختلفوا فيه بالنواب والمقاب دون القيامة لفضى بينهم في الدنيا ، فدخل المؤمنين
 الجنة بأعمالهم والكاثرين النار بكفرهم ، ولكنه سبق من الله الأجل مع علمه بصينهم بفعل

موعدهم القيامة؛ قاله الحسن . وقال أبو روق : « لَقِىَ بِهِمْ » لأقام عليهم الساعة . وقيل :
 لفرغ من هلاكهم . وقال الكلبي : « الكلمة » أن الله أقر هذه الأمة فلا يهلكهم بالعذاب
 في الدنيا إلى يوم القيامة ، فلولاً هذا التأخير لفعي بينهم بتزول العذاب أو بإقامة الساعة .
 والآية تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم في تأخير العذاب عن كفره . وقيل : الكلمة السابقة
 أنه لا يأخذ أحداً إلا بحجة وهو إرسال الرسل؛ كما قال : « وما كنا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ
 رَسُولاً » وقيل : الكلمة قوله : « سَبَقَتْ رَحْمَتِي غَضَبِي » ولولا ذلك لما أقر العصاة إلى
 التوبة . وقرا عيسى « لَقِىَ » بالفتح .

قوله تعالى : وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا
 الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴿١٥﴾

يريد أهل مكة؛ أى هلاً أنزل عليه آية، أى معجزة عير هذه المعجزة، فيجعل لنا الجبال
 ذهباً ويكون له بيت من زئرف، ويحيى لنا من مات من آبائنا . وقال الصالح : عصا كعصا
 موسى . (قُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ) أى قل يا محمد إن نزول الآية غيب . (فَانْتَظِرُوا) أى
 ترحبوا . (إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ) لتزولها . وقيل : انتظروا قضاء الله بيننا بإظهار الحق
 على المبطل .

قوله تعالى : وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَاءَ مَسْتَهْمِمْ
 إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلْ أَلَسْتُ بِرَسُولٍ أَنْزَلَ إِلَهُ مَكْرًا إِنْ رُسُلُنَا يَكْتُوبُونَ
 مَا تَمْكُرُونَ ﴿١٦﴾

يريد كفار مكة . (رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَاءَ مَسْتَهْمِمْ) قيل : رضاء بعد شدة، وخصب بعد
 جئب . (إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا) أى استهزاء وتكذيب . وجواب قوله « وإذا أذقا » : « إذا
 لهم » على قول الخليل وسيبويه . (قُلْ أَلَسْتُ بِرَسُولٍ) ابتداء وجوب . (مَكْرًا) على البيان ، أى

اعجل عقوبة على جزاء مكرم، أى أن ما يأتينهم من العذاب أسرع في إهلاكهم مما أتوه من المكروه. (إِنْ رُسُلًا يَكْتُبُونَ مَا تَكْفُرُونَ) يعنى بالرسل الحفظة . وقراءة العامة « تكفرون » بالناء خطاها . وقرا يعقوب في رواية رؤيس وأبو عمرو في رواية هارون التميمي « يكفرون » بالياء ، لقوله : « إذا لم تكفروا في آياتنا » قيل : قال أبو سفيان لحظنا بدعائك فإن سقينا صدقك؛ فسقوا بأنساقه صلى الله عليه وسلم فلم يؤمنوا، فهذا مكرم .

قوله تعالى : هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرْنَ بَصَمَ يَبْرِجَ طَيْفٌ وَقَرَّحُوا بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْغَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أُخِيتْنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا أُخِيتُهُمْ إِذَا هُمْ يَبْتَغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ بَنَاتِياً تَالُتِ الْنَاسُ إِنَّمَا بِغَيْرِكُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ مَتَاعٌ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٢﴾

قوله تعالى : (هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرْنَ بَصَمَ) أى يملككم في البر على الدواب وفي البحر على الفلك . وقال الكلبي : يحفظكم في السير . والآية تتضمن تهديد الهم فيها هي الحبال بسبيله من ركوب الناس الدواب والبحر . وقد مضى الكلام في ركوب البحر في « البقرة » . و (يُسَيِّرُكُمْ) قراءة العامة . ابن عامر « ينشركم » بالنون والشين ، أى ينشكهم ويفزقكم . والفلك يقع على الواحد والجمع ، وبذكر ويؤنث ، وقد تقدم القول فيه . وقوله (وَجَرْنَ بَصَمَ) خروج من الخطاب الى الغيبة ، وهو في القرآن وأشعار العرب كثير؛ قال النابغة :

بَادِرَ مَيَّةَ بِالْقَبَاءِ فَالْجَدُّ أَفَوْتُ وَطَالَ عَلَيْهَا سَالِفُ الْأَمَدِ

قال ابن الأنباري : وحازنى اللغة أن يرجع من خطاب النبىء إلى لفظ المواجهة بالخطاب ، قال الله تعالى : « وَنَقَامُ رَبِّهِمْ شَرًّا طَهُورًا إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا » فابدل الكاف من الميم .

قوله تعالى : ﴿ يَرْيَحُ طَبَّيَّةً وَفَرَحُوا بِهَا ﴾ تقدم الكلام فيها فى البقرة . ﴿ جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ ﴾ الصميرى « جأتها » للسفينة . وقيل للريح الطيبة . والعاصف الشديدة ؛ يقال : عاصفت الريح وأعصفت . فهى عاصف ومُعَصِف ومُعَصِفة أى شديدة ، قال الشاعر :
حتى إذا أعصفت ريح مَرَعِيزَةٍ • فيها قطار ورعد صوته زحَل

وقال « عاصف » بالتذكير لأن لفظ الريح مذكر ، وهى القاصف أيضا . والطيبة غير عاصف ولا بطيئة . ﴿ وَجَاءَهُمُ الْمَرْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ ﴾ والموج ما ارتفع من الماء . ﴿ وَطُنُّوا ﴾ أى أيقنوا ﴿ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ﴾ أى أحاط بهم البلاء ، يقال لمن وقع فى بلية : قد أحيط به ، كأن البلاء قد أحاط به ؛ وأصل هذا أن العدو إذا أحاط بموضع فقد هلك أهله . ﴿ دَعَا اللَّهُ الْمُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ أى دعوه وحده وتركوا ما كانوا يعبدون . وفى هذا دليل على أن الخلق جُبلوا على الرجوع إلى الله فى الشدائد ، وأن المضطر يحتاج دعائه وإن كان كافرا ؛ لانقطاع الأسباب ورجوعه إلى الواحد رب الأرباب ؛ على ما يأتى بيانه فى « النمل » ان شاء الله تعالى .
وقال بعض المفسرين . إنهم قالوا فى دعائهم أهيا شرهيا ؛ أى يا حى يا قيوم ؛ وهى لغة المعجم .

مسألة - هذه الآية تدل على ركوب البحر مطلقا ، ومن السنة حديث أبى هريرة وفيه : إنا نركب البحر ونحمل معنا القليل من الماء ... الحديث . وحديث أنس فى قصة أم حرام يدل على جواز ركوبه فى الفَرَزْ ، وقد مضى هذا المعنى فى « البقرة » مستوفى والحمد لله . وقد تقدم فى آخر « الأعراف » حكم راكب البحر فى حال ارتجاعه وغيبانه ، هل حكه حكم الصحيح أو المريض المحجور عليه ؛ فتأمل ذلك^(١)

(١) آية ٢١ سورة الإنسان . (٢) راجع ج ٢ ص ١٩٧ طبة ثانية . (٣) فى قوله تعالى :
امن بحجب المضط إذا دعه ... آية ٦٢ (٤) راجع ج ٢ ص ١٩٥ طبة ثانية . (٥) راجع ج ٢ ص ٣٤١ طبة أول أربعة .

قوله تعالى : (زَيْنًا نَّبِينًا مِّنْ ذَٰلِكَ) أى من هذه الشرائع والأحوال . وقال الكلبي :
 من هذه الریح . (لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ) أى من العالمين بطاعتك على نعمة الخلاص . و
 (فَلَمَّا أَتَيْنَاهُمْ) أى خلصهم وأقذهم . (إِذَا هُمْ يَنْتَوُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ) أى يعملون
 في الأرض بالفساد والمخاصى . والبنى : الفساد الشرى من بغي الحرج إذا فسد ، وأصله الطلب ،
 أى يطلبون الاستعلاء بالفساد . (وَبِغَيْرِ الْحَقِّ) أى بالكذب ، ومنه بَغَتْ المرأة طلبت غير زوجها .
 قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَيَّعْتُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ) أى والله عائد عليكم ، وتم الكلام ،
 ثم ابتداء فقال : (مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) أى هو متاع الحياة الدنيا ، ولا بقاء له . قال
 النحاس : « بَيْعُكُمْ » رفع بالابتداء وخبره « متاع الحياة الدنيا » . و « على أنفسكم » مفعول
 معنى فصل البنى . ويجوز أن يكون خبره « على أنفسكم » وتضمر مبتدا ، أى ذلك متاع
 الحياة الدنيا ، أو هو متاع الحياة الدنيا ؛ وبين المعنيين فرق لطيف ، إذا رفعت متاعا على أنه خير
 « بَيْعِكُمْ » فالمنى إنما بَقِيَ بعضكم على بعض ؛ مثل « فسلّموا على أنفسكم » وكذا « لقد جاءكم
 رسول من أنفسكم » . وإذا كان الخبر « على أنفسكم » فالمنى إنما فسادكم راجع عليكم ؛ مثل
 « وإن أسأمت فلها » . وروى عن صفيان بن عينة أنه قال : أراد أن البنى متاع الحياة الدنيا ،
 أى عقوبته تعجل لصاحبه في الدنيا ؛ كما يقال : البنى مَصْرَعَةٌ . وقرأ ابن أبي عمير « متاع »
 بالنصب على أنه مصدر ؛ أى تختمون متاع الحياة الدنيا . أو بزعم الحافض ، أى لمتاع . أو مصدر
 بمعنى المفعول على الحال ، أى متممين . أو هو نصب على الظرف ، أى في متاع الحياة الدنيا .
 ومتعلق الظرف والجار والحال معنى الفعل في البنى . و « على أنفسكم » مفعول ذلك المنى .
 قوله تعالى : (إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أُنزِلْنَاهُ مِنْ السَّمَاءِ
 فَاتَّخِذْ بِهِ ثَمَرًا ثُمَّ الْآرْضُ يَمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخْذَتِ
 الْآرْضُ زُرْحُهَا وَأَزْبَنَتْ وَظَنَ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُوا عَلَيْهَا إِنَّمَا بُعِثْنَا
 لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبِ الْآمِسَ كَذَٰلِكَ نَفْصِلُ
 الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾)

قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أُنْزِلَتْ مِنْ السَّمَاءِ ﴾ معنى الآية التشبيه والنميل، أى صفة الحياة الدنيا فى فنائها وزوالها وقلة خطرهما والملاذ بها كماء، أى مثل ماء، فالكاف فى موضع رفع. وسيأتى لهذا التشبيه مزيد بيان فى «الكهف»^(١) إن شاء الله تعالى. ﴿ أُنْزِلَتْ مِنْ السَّمَاءِ ﴾ نعت لماء. ﴿ فَأَخْتَلَطَ ﴾ وروى عن نافع أنه وقف على «فأختلط» أى فاختلط الماء بالأرض، ثم ابتدأ «به نبات الأرض» أى بالماء نبات الأرض، فأخرجت ألوانا من النبات، فنبات على هذا ابتداء، وعلى مذهب من لم يقف على «فأختلط» مرفوع باختلط، أى اختلط النبات بالمطر، أى شرب منه فتندى وحسن وأخضر. والاختلاط تداخل الشيء بعمقه فى بعض.

قوله تعالى: ﴿ عَمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ ﴾ من الحبوب والثمار والبقول. ﴿ وَالْأَنْعَامُ ﴾ من الكلا والبين والشمير. ﴿ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا ﴾ أى حشنها وزينتها. والزخرف كمال حسن الشيء، ومنه قيل للذهب زخرف. ﴿ وَأَزْيَنْتَ ﴾ أى بالحبوب والثمار والأزهار، والأصل تزينت أدمعت التاء فى الزاى وجىء بالف الوصل، لأن الحرف المدغم مقام حرفين الأول منهما ساكن والساكن لا يمكن الابتداء به. وقرأ ابن مسعود وأبو ابن كعب «وتزينت» على الأصل. وقرأ الحسن والأعرج وأبو العالية «وأزيت» أى أنت بالزينة عليها، أى العلة والزرع، وجاء بالفعل على أصله ولو أعله لقال وأزانت. وقال عوف ابن أبي جيلة الأعرابي: قرأ أشياخنا «وأزيات» وزنه اسواذت. وفى رواية المقدمي «وأزانت» والأصل فيه تزينت، وزنه نقاعست ثم أدهم. وقرأ الشعبي وقادة «وأزيت» مثل أنفلت. وقرأ أبو عثمان النهدي «وأزيت» مثل أنفلت، وعنه أيضا «وأزيات» مثل انفلت، وروى عنه «أزيات» بالهمزة ثلاث قراءات.

قوله تعالى: ﴿ وَظَنَّ أَهْلُهَا ﴾ أى أيقن. ﴿ أَنَّهُمْ قَائِمُونَ عَلَيْهَا ﴾ أى على حصادها والانتفاع بها، أخبر عن الأرض والمعنى النبات إذ كان مفهوما وهو منها. وقيل: ردة.

إلى العلة، وقيل إلى الرية. (أَنَاها أَمْرًا) أى عذابا، أو أمرًا يهلكها. (بَلَا أَوْتَارًا) طرفان. (بَلَعَلَّاهَا حَبِيدًا) مفعولان، أى عصودة مقطوعة لانشيئ فيها. وقال «حصيد» ولم يؤت لأنه فاعيل بمعنى مفعول. قال أبو عبيد: الحصيد المتناصل. (كَأَنَّ لَمْ تَقَنَّ بِالْأَمْسِ) أى لم تكن عامرة، من غنى إذا أقام فيه عمره. والمغنى فى اللغة: المنزل التى يعمرها الناس. وقال قتادة: كأن لم تنعم. قال لبيد:

وَعَبَّتْ سَبْتًا قَبْلَ بَجَرَى دَاحِسٍ • لَوْ كَانَ لِلنَّفْسِ الْفُجُوجُ خُلُودٌ^(١)

وقراءة السامة «تن» بالناء ثنائيت الأرض. وقرا قتادة «بن» بالياء، يذهب به إلى الزحف، يعنى فكما يهلك هذا الرزع هكذا كذلك الدنيا. (تَفَصَّلُ الْآيَاتِ) أى نيتها. (لَقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) فى آيات الله.

قوله تعالى: وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى

صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾

قوله تعالى: (وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى دَارِ السَّلَامِ) لما ذكر وصف هذه الدار وهى دار الدنيا وصف الآخرة فقال: ان الله لا يدعوكم إلى جمع الدنيا بل يدعوكم إلى الطاعة لتصيروا إلى دار السلام، أى إلى الجنة. قال قتادة والحسن: السلام هو الله، وداره الجنة، وميمت الجنة دار السلام لأن من دخلها سلم من الآفات. ومن أسمائه سبحانه السلام؛ وقد بناه فى (الكتاب الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى). ويأتى فى سورة «الحشر» إن شاء الله. وقيل: المعنى والله يدعو إلى دار السلامة. والسلام والسلامة بمعنى كالأرضاع والرصاعة؛ قاله الزجاج. قال الشاعر:

نَحْنُ بِالسَّلَامَةِ أُمٌّ بِكَيْرٍ • وَهَلْ لَكَ بَعْدَ قَوْمِكَ مِنْ سَلَامٍ

(١) البيت: المروءة من الدهر. وداحس: اسم الفرس. (٢) وقوله تعالى: «هو الله الذى

وقيل : أراد الله يدعو إلى دار النجاة ؛ لأن أهلها ينالون من الله النجاة والسلام . وذلك من الملائكة . قال الحسن : إن السلام لا ينقطع عن أهل الجنة ، وهو تحييتهم ؛ كما قال : « وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ » . وقال يحيى بن معاذ : يابن آدم ، دعاه الله إلى دار السلام فانظر من أين تحييه ، فإن أجبت من ذيك دخلتها ، وإن أجبت من فرك مُعْتَبَا . وقال ابن عباس : الجنان سبع ، دار الجلال ، ودار السلام ، وجة عدن ، وجة المأوى ، وجة الخلد ، وجة الفردوس ، وجة النعم .

قوله تعالى : (وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) عم بالدعوة لإظهار الجنة ، وخصص بالمداية استغناء عن خلقه . والصراط المستقيم ، قيل : كتاب الله ؛ رواه علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " الصراط المستقيم كتاب الله تعالى " . وقيل الإسلام ؛ رواه النزاس بن سيمان عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقيل الحق ؛ قاله قتادة ومجاهد . وقيل : رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبه من بعده أبو بكر وعمر رضي الله عنهما . وروى جابر بن عبد الله قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما فقال " رأيت في المنام كأن جبريل عند رأسي . ويكاثيل عند رجل فقال أحدهما لصاحبه اضرب له مثلا فقال له أسمع سمعت أذنك وأعقل عقل قلبك إنما مثلك ومثل أمثك كمثل ملك اتخذ دارا ثم بنى فيها بيتا ثم جعل فيها مائدة ثم بعث رسولا يدعو الناس إلى طعامه ففهم من أجاب الرسول ومنهم من تركه فافهم الملك والدار الإسلام والبيت الجنة وأنت يا محمد الرسول فن أجابك دخل في الإسلام ومن دخل في الإسلام دخل الجنة ومن دخل الجنة أكل ما فيها — ثم تلا بني رسول الله صلى الله عليه وسلم — « ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم » . وقال قتادة ومجاهد : « والله يدعو إلى دار السلام » . وهذه الآية بنية الجنة والرد على القدورية ؛ لأنهم قالوا : هدى الله الخلق كلهم إلى صراط مستقيم ، والله قال : « ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم » فردوا على الله نصوص القرآن .

قوله تعالى : لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٥﴾

قوله تعالى : ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ روى من حديث أنس قال : مثل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله تعالى «وزيادة» ، قال : «لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْعَمَلُ فِي الدُّنْيَا لَهُمُ الْحُسْنَىٰ وَهِيَ الْجَنَّةُ وَالزِّيَادَةُ الْبَقَرَةُ إِلَىٰ وَجْهِ اللَّهِ الْكَرِيمِ» . وهو قول أبي بكر الصديق وعليّ ابن أبي طالب في رواية ، وحذيفة وعبد الله بن الصامت وكعب بن عُجْرَةَ وأبي موسى وصُبيح وابن عباس في رواية ، وهو قول جماعة من التابعين ، وهو الصحيح في الباب . وروى مسلم في صحيحه عن صُبيح عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : «إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى تَزِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ يَقُولُونَ أَلَمْ تَبَيِّضْ وَجُوهَنَا أَلَمْ تَدْخُلْنَا الْجَنَّةَ وَتَجْعَلْنَا مِنَ النَّارِ قَالَ فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّارِ أَوْ يَجْعَلُ عَنْ وَجْهِهِمْ - وفي رواية ثم تلا - لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ» . وخرجه النسائي أيضا عن صُبيح قال قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : هذه الآية «لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ» قال : «إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ وَأَهْلُ النَّارِ النَّارَ نَادَىٰ مَنَادٌ يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ إِنَّ لَكُمْ مَوْعِدًا عِنْدَ اللَّهِ يَرِيدُ أَنْ يُخَيَّرَكُمْ قَالُوا أَلَمْ يَبَيِّضْ اللَّهُ وَجُوهَنَا وَيُثْقِلْ مَوَازِينَنَا وَيُجَرِّمَنَا مِنَ النَّارِ قَالَ فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ فَيَنْظُرُونَ إِلَيْهِ فَوَاقَهُ مَا أُعْطَاهُم اللَّهُ شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّارِ وَلَا أَقْرَبَ لِعَيْنِهِمْ» . وخرجه ابن المبارك في دقائقه عن أبي موسى الأشعري موقوفا ، وقد كتبناه في كتاب التذكرة ، وذكرنا هناك معنى كشف الحجاب ، والحمد لله . وخرج الترمذي الحكيم أبو عبد الله رحمه الله : حدثنا علي بن حجر حدثنا الوليد بن مسلم عن زُهَيْرٍ عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ عَنْ أَبِي بَكْرٍ كَعْبٍ قَالَ : سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الزِّيَادَةِ فِي كِتَابِ اللَّهِ ، فِي قَوْلِهِ «لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ» قَالَ : «النَّظَرُ إِلَىٰ وَجْهِ الرَّحْمَنِ» . وعن قوله «وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ» قَالَ :

«خبروا أبا». وقد قيل : إن الزيادة أن تصاعف الحصة عشر حساب إلى أكثر من ذلك ، روى عن ابن عباس . وروى عن علي رضي الله عنه : الزيادة غرة من ثلثة واحدة لها أربعة آلاف باب . وقال مجاهد : الحسنى حصنة مثل حسنة ، والزيادة مغفرة من الله ورضوان . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : الحسنى الجنة ، والزيادة ما أعطاهم الله في الدنيا من فضله لا يحاسبهم به يوم القيامة . وقال عبد الرحمن بن سابط : الحسنى البشرية ، والزيادة النظر إلى وجه الله الكريم ، قال الله تعالى : «وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة»^(١) . وقال يزيد بن شجرة : الزيادة أن تمر السحابة بأهل الجنة فتمطرهم من كل النواكه التي لم يروها ، وتقول : يا أهل الجنة ، ما تريدون أن أمطركم ؟ فلا يريدون شيئا إلا أمطرهم إياه . وقيل : الزيادة أنه ما يتر عليهم مقدار يوم من أيام الدنيا إلا حتى يطيف بمثل أحدهم سبعون ألف ملك ، مع كل ملك هدايا من عند الله ليست مع صاحبه ، ما رأوا مثل تلك الهدايا قط ، فسبحان من لا تنأى مقدوراته . وقيل : «أحسنوا» أي معاملة الناس . والحسنى : شفاعتهم . والزيادة : إذ الله تعالى فيها وقوله .

قوله تعالى : ﴿وَلَا يَرْهَقُ﴾ قيل : ممتد يلعق ، ومنه قيل : علام مرافق إذا لحق بالرجال . وقيل يعلو . وقيل يفتنى ، والمعنى متناوب . ﴿قَتَرٌ﴾ عار . ﴿وَلَا ذَلَّةٌ﴾ أي مذلة ، كما يلحق أهل السار ، أي لا يلحقهم عار في محشرهم إلى الله ولا تشاهم ذلة . وانفسد أبو عبيدة للمعزدي .

مُسَوِّجٌ برداء الملك يتبعه . مَوْج ترى فوقه الرايات والفترا

وقرأ الحسن «قَتَرٌ» بإسكان التاء . والقَتَرُ والقَتْرَةُ والقَتْرَةُ بمعنى واحد ، قاله الجاس . وواحد القَتَرُ قَتْرَةٌ ، ومنه قوله : «تَرْهَقُهَا قَتْرَةٌ» أي تغلواها عبة . وقيل : قَتْرٌ كَأَبَةٍ وكسوف . آخر عباس : القَتْرُ سواد الوجه . ابن جرير : دحان النار . ومنه قَتْرُ القَدْرِ . وقال ابن أبي ليلى : هو بعد نظرهم إلى ربهم عز وجل .

قلت : هذا فيه طعن ، لأن الله عز وجل يقول : « إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون . - إلى قوله - لَا يَحْزَنُهُمُ الْعَرْجُ الْأَكْبَرُ » وقال في غير آية : « ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » وقال : « إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا » . وهذا عام فلا يتميز بفضل الله في موطن من المواطن لا قبل النظر ولا بعده وجه الحسن بسواد من كآبة ولا حزن ، ولا يعلوه شيء من دخان جهنم ولا غيره ، « وأما الذين أبيضت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون » .

قوله تعالى : « وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ يَمْثِلُهَا وَتَرْهُهُمْ ذِلَّةً مَّا لَهُمُ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَمْثَلِ أَغْشَيْتِ وَجُوهَهُمْ قِطْعًا مِنْ أَلْبِلٍ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ » (١٧)

قوله تعالى : « وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ » أي عملوا المعاصي . وقيل الشرك . « جَزَاءُ سَيِّئَةٍ يَمْثِلُهَا » جزاء مرفوع بالابتداء ، وخبره يمثليها . قال ابن كيسان : الباء زائدة ، والمعنى جزاء سيئة مثله . وقيل : الباء مع ما بعدها الخبر ، وهي متصلة محذوف قامت مقامه ، والمعنى : جزاء سيئة كائن يمثليها ، كنوك : إنما أنا بك ، أي إنما أنا كائن بك . ويجوز أن تتعلق بجزاءه ، التقدير : جزاء سيئة يمثليها كائن ، لحذف خبر المبتدأ . ويجوز أن يكون « جزاء » مرفوعا على تقدير فلهم جزاء سيئة ، فيكون مثل قوله « فعدة من أيام أخر » أي عليه عدة ، وشبهه ، والباء على هذا التقدير تتعلق بمحذوف ، كأنه قال لم جزاء سيئة ثابت يمثليها ، أو تكون مؤكدة أو زائدة .

ومعنى هذه المثلية أن ذلك الجزاء مما يعد مائلا لذنوبهم ، أي هم غير مظلومين ، وفعل الرب غير معقل بعله . « وَتَرْهُهُمْ ذِلَّةً » أي يشاهم هوان وخزي . « مَا لَهُمُ مِنَ اللَّهِ » أي من عذاب الله . « مِنْ عَاصِمٍ » أي مانع يمنعهم منه . « كَأَمْثَلِ أَغْشَيْتِ » أي ألبست .

(١) آية ١٠١ سورة الأنبياء . (٢) آية ٣٠ سورة ص . (٣) آية ١٠٧ سورة آل عمران .

(وَجُوعَهُمْ قَطْعًا) جمع قطعة، وعل هذا يكون « مظلماً » حال من الليل؛ أى اغشى وجوعهم قطعاً من الليل في حال ظلمته . وقرأ الكسائي وابن كثير « قطعاً » بإسكان الطاء؛ « مظلماً » على هذا نص، ويجوز أن يكون جالاً من الليل . والقطع اسم ما قطع فسقط . وقال ابن السكيت : القطع طائفة من الليل، وسيأتي في « هود » إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائُكُمْ فَرَيْلًا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَائُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِلَّا بَنَاتُنَا تَعْبُدُونَ (٢١) قوله تعالى : (وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ) أى نجعلهم، والحشر الجمع . (جَمِيعًا) حال . (ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا) أى اتخذوا مع الله شركاء . (مَكَانَكُمْ) أى الزموا وأتبعوا مكانكم، وقهوا مواضعكم . (أَنْتُمْ وَشُرَكَائُكُمْ) وهذا وعيد . (فَرَيْلًا بَيْنَهُمْ) أى فرقاً وفتناً ما كان بينهم من التواصل في الدنيا؛ يقال : زينة قريل، أى فرقته ففرق، وهو قلت ؛ لأنك تقول في مصدره تريلاً، ولو كان قيلت لقلت زيلة . والمزايلة المفارقة؛ يقال : زايه الله مزايلة وزيلاً إذا فارقه . والترايل التباين . قال الفراء : وقرأ بعضهم « فزايلاً بينهم »؛ يقال : لا أزايل فلاناً، أى لا أفرقه؛ فإن قلت : لا أزاوله فهو بمعنى آخر، معناه لا أخانله . (وَقَالَ شُرَكَائُهُمْ) عني الشركاء الملائكة . وقيل الشياطين، وقيل الأصنام؛ فيقطعها الله تعالى فتكون بينهم هذه المحاورة . وذلك أنهم أدعوا على الشياطين الذين أطاعوهم والأصنام التي عبدوها أنهم أمرهم بعبادتهم ويقولون ما عبادناكم حتى أمرتمونا . قال مجاهد : ينطق الله الأوثان فتقول ما كنا نعبدكم إيانا تعبدون، وما أمرناكم بعبادتنا . وإن حمل الشركاء على الشياطين فالمنى أنهم يقولون ذلك دعشاً، أو يقولون كذباً واحتيالاً للخلاص، وقد يجري مثل هذا دعاء؛ وإن صارت المعارف ضرورية .

قوله تعالى : فَكُنْ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكَ
لَغَافِلِينَ (٢٢)

(١) في قوله تعالى : « فأمر بأهلك بقطع من الليل » آية ٨١

قوله تعالى : (فَكُنْ بِاللهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ) «شهداء مفعول، أى كفى الله شهداء»
أو تميز، أى اكتب به شهادتنا وبينكم إن كنا أمرناكم بهذا أو رضىناه منكم . (إِنْ كُنَّا)
أى ما كنا (عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَائِلِينَ) إلا غافلين لا نسمع ولا نبصر ولا نمقل ، لأننا كنا جمانا
لأرواح نيا .

قوله تعالى : هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ
مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ وَصَلَ عَنْهُمْ مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٠﴾

قوله تعالى : (هُنَالِكَ) فى موضع نصب على الظرف . (تَبْلُو) أى فى ذلك الوقت ،
«تبلو» أى تذوق . وقال الكلبي : تعلم . مجاهد : تختبر . (كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ) أى جزاء
ما عملت وقدمت . وقيل : تسلم ، أى تسلم ما عليها من الحقوق إلى أربابها بغير اختيارها .
وقرأ حمزة والكسائي « تئلو » أى تقرأ كل نفس كتابها الذى كتب عليها . وقيل « تسلو »
تبيع ، أى تبع كل نفس ما قدمت فى الدنيا ، قاله السدي . ومه قول الشاعر :

إِنَّ الْمُرِيْبَ يَتَّبِعُ الْمُرِيْبَ • كَمَا رَأَيْتَ الذَّبَّ يَتْلُو الذَّبِيَّ

قوله تعالى : (وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ) بالخفض على البدل أو الصفة . ويجوز
نصب الحق من ثلاث جهات ؛ يكون التقدير : وردوا حقاً ثم جاء بالألف واللام . ويجوز
أن يكون التقدير : مولاكم حقاً لا ما يعبدون من دونه . والوجه الثالث أن يكون مدحاً ، أى
أعنى الحق . ويجوز أن يرفع « الحق » ، ويكون المعنى مولاكم الحق — على الابتداء والخبر ،
والقطع مما قبل — لا ما يشركون من دونه . ووصف نفسه سبحانه بالحق لأن الحق منه
كما وصف نفسه بالعدل لأن العدل منه ؛ أى كل مدل وحق فإن قبله . وقال ابن عباس :
« مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ » أى الذى يمازىهم بالحق . (وَصَلَ عَنْهُمْ) أى بطل . (مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ)
« يفترون » فى موضع رفع وهو بمعنى المصدر ، أى انتراؤهم . فإن قيل كيف قال : وردوا
إلى الله مولاكم الحق وقد أجبر أن الكافرين لا مولى لهم . قيل : ليس بمولاهم فى النصرة
والمعونة ، وهو مولى لهم فى الرزق وإدراج النعم .

قوله تعالى : قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَتَنْبِئُكُمْ بِمَلِكٍ
الَسَّمْعِ وَالْأَبْصَرِ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ
الْحَيِّ وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ فَيَقْبُولُونَ اللَّهَ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٦﴾

المراد بمساق هذا الكلام الرُّدُّ على المشركين وتقرير الحجّة عليهم ، فمن أعترف منهم بالحجة
ظاهرة عليهم ، ومن لم يعترف فيقرر عليه أن هذه السموات والأرض لا بد لها من خالق ؛
ولا يتسارى في هذا عاقل . وهذا قريب من مرتبة الضرورة . (مِنَ السَّمَاءِ) أى بالمطر .
(وَالْأَرْضِ) بالنبات . (أَتَنْبِئُكُمْ السَّمْعِ وَالْأَبْصَرِ) أى من جعلهما وحافهما لكم .
(وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ) أى النبات من الأرض ، والإنسان من النطفة ، والسَّيِّئَةَ
من الحبة ، والطير من البيضة ، والمؤمن من الكافر . (وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ) أى يقدره ويقضيه .
(فَيَقْبُولُونَ اللَّهَ) لأنهم كانوا يعفدون أن الخالق هو الله ، أو سيفعلون هو الله إن فكروا
وأصفوا فقل لهم يا محمد (أَفَلَا تَتَّقُونَ) أى أهلا تخافون عقابه ويقضه في الدنيا والآخرة .

قوله تعالى : قَدْ لَكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ قَدْ آذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ
فَإِنْ تُصْرَفُونَ ﴿٢٧﴾

قوله تعالى : (قَدْ لَكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ قَدْ آذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ) فيه ثمان مسائل :
الأولى : قوله تعالى : (قَدْ لَكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ) أى هذّا الذى يعمل هذه الأشياء
هو ربكم الحق ، لا ما أشركتم معه . (قَدْ آذَا بَعْدَ الْحَقِّ) « ذا » أى ما بعد عبادة
الإله الحق إذا تركت عبادته إلا الضالّ . وقال بعض المهتدين : ظاهر هذه الآية يدل
على أن ما بعد الله هو الضلال ، لأن أولها « فذلّم الله ربكم الحق » وآخرها « فآذا بعد
حق إلا الضلال » فهذا في الإنسان والكفر ليس في الأعمال . وقال بعضهم : أن الكفر
تعصية الحق ، وكل ما كان نير الحق جرى هذا المجرى ، والحرام ضلال والمباح هدى ، فإن الله

هو المسيح والمحرّم. والصحيح الأول؛ لأن قبل « قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ » ثم قال « فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ » أي هذا الذي رزقكم، وهذا كله فعله هو. (رَبُّكُمُ الْحَقُّ) أي الذي تحقق له الألوهية ويستوجب العبادة، وإذا كان ذلك فتشربك فيه ضلال وغير حق.

الثانية - قال علماؤنا: حكمت هذه الآية بأنه ليس بين الحق والباطل منزلة ثالثة في هذه المسألة التي هي توحيد الله تعالى، وكذلك هو الأمر في نظائرها، وهي مسائل الأصول التي الحق فيها في طرف واحد؛ لأن الكلام فيها إنما هو في تحديد وجود ذات كيف هي، وذلك بخلاف مسائل الفروع التي قال الله تعالى فيها: « لِكُلِّ جَعَلْنَا بَيْنَكُمْ شُرْعَةً وَمِنْهَا جُزْءٌ » وقوله عليه السلام: « الْحَلَالُ بَيْنَ الْحَرَامِ بَيْنَ وَبَيْنَهُمَا أُمُورٌ مُتَشَابِهَاتٌ ». والكلام في الفروع إنما هو في أحكام طارئة على وجود ذات مقررة لا يختلف فيها وإنما يختلف في الأحكام المتعلقة بها.

الثالثة - ثبت عن عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا قام إلى الصلاة من جوف الليل قال: « اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ » الحديث. وفيه « أَنْتَ الْحَقُّ وَوَعْدُكَ الْحَقُّ وَقَوْلُكَ الْحَقُّ وَلِفَاؤُكَ الْحَقُّ وَالْجَنَّةُ حَقٌّ وَالنَّارُ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ حَقٌّ وَالنَّبِيُّونَ حَقٌّ وَمُحَمَّدٌ حَقٌّ » الحديث. فقول « أَنْتَ الْحَقُّ » أي الواجب الوجود، وأصله من حَقَّ الشيء أي ثبت ووجب. وهذا الوصف لله تعالى بالحقيقة إذ وجوده بنفسه لم يسبقه عدم ولا يلحقه عدم، وما عداه مما يقال عليه هذا الاسم مسبوق بعدم، ويموز عليه لحاق عدم، ووجوده من موجد لا من نفسه. وباعتبار هذا المعنى كان أصدق كلمة قالها الشاعر، كلمة لبيد:

« أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَقَ اللَّهُ بَاطِلٌ »

وإليه الإشارة بقوله تعالى: « كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ».

الرابعة - مقابلة الحق بالضلال عرف لنة وشها، كما في هذه الآية. وكذلك أيضا مقابلة الحق بالباطل عرف لنة وشرا، قال الله تعالى: « ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ

ما يَدْعُونَ مِنْ دُونِ هُوَ الْبَاطِلُ . والضلال خفيته النعاب عن الحق ، أخذ من ضلال الطريق ، وهو المدول عن شئ . قال ابن حرفة : الضلالة عند العرب سلوك غير سبيل الفصد ، يقال : صل عن الطريق وأضل الشيء إذا أضاعه . وخُص في الشرع بالعبادة عن السداد في الاعتقاد دون الأعمال ، ومن غريب أمره أنه يعبر به عن عدم المعرفة بالحق سبحانه إذا قابله غفلة ولم يقرن بعدمه جهل أو شك ، وعليه حمل العلماء قوله تعالى : « وَوَجَدَكَ ضَالًّا قَهْدً » أي غافلاً ، في أحد التأويلات ، يحققه قوله تعالى : « مَا كُنْتُمْ تَدْرُونَ مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ » .

الخامسة - روى عبد الله بن عبد الحكم وأشبه عن مالك في قوله تعالى : « فإذا بعد الحق إلا الضلال » قال : اللَّيْبُ بِالْشُّطْرَيْجِ والتَّزْدِجُ مِنَ الضَّلَالِ . وروى يونس عن ابن وهب أنه سئل عن الرجل يلعب في بيته مع امرأته بأربع عشرة ، فقال مالك : ما يصحني ! وليس من شأن المؤمنين ، يقول الله تعالى : « فإذا بعد الحق إلا الضلال » . وروى يونس عن أشبه قال : سئل - بنى مالكا - عن اللعب بالشطرنج فقال : لا خير فيه ، وليس بشئ وهو من الباطل ، واللعب كله من الباطل ، وأنه لينبئ لدى القتل أن تنهأ الحياة والشب عن الباطل . وقال الزهري لما سئل عن الشطرنج : هي من الباطل ولا أحبها .

السادسة - اختلف العلماء في جواز اللعب بالشطرنج وغيره إذا لم يكن على وجه الفحار ، فتحصل مذهب مالك وجهود الفقهاء في الشطرنج أن من لم يقامر بها ولعب مع أهله في بيته مستترا به مرة في الشهر أو العام ، لا يُطْلَع عليه ولا يُعْلَم به أنه مَعْفُو عنه غير محرم عليه ولا مكروه له ، وأنه إن تَخَلَّعَ به واشتهر فيه سقطت مروءته وعدالته ورُدَّتْ شهادته . وأما الشافعي فلا تسقط في مذهب أصحابه شهادة اللاعب بالتزدد والشطرنج ، إذا

(١) آية ٦٢ سورة الحج . (٢) آية ٥٢ سورة نوري . (٣) تطلع في التراب : انهد به ولازمه بلا دنهار .

كان عدداً في جميع أعضائه ، ولم يظهر منه سمه ولا ريسه ولا كبرية الا أن يلبس به قماراً ، فان لعب بها قماراً وكان بذلك معروفاً سقطت عدالته وسقط نفسه لأكله المال بالباطل . وقال أبو حنيفة : يكره اللعب بالشطرنج والنرد والأربعة عشر وكل الهوى ، من لم تظهر من اللاعب بها كبرية وكانت محاسنه أكثر من مساويه قبلت شهادته عنهم . قال ابن العربي : قالت الشافعية إن الشطرنج يخالف الرد لأن فيه إكداد الفهم واستعمال القرعة . والنرد قمار حَرَر لا يعلم ما يخرج له فيه كالمستقسام بالأزلام .

السابعة - قال علماؤنا : النرد قطع مملوءة من حشب البقر ومن عظم العبل ، وكذا هو الشطرنج إذ هو أخوه عُذَى ليلانه . والنرد هو الذي يعرف بالظبل ويعرف بالكباب ويعرف في الجاهلية أيضاً بالأرز ويعرف بالنردشير . وفي صحيح مسلم عن سليمان بن بريدة عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " من لعب بالنردشير فكأنما غمس يده في لحم خنزير ودمه " . قال علماؤنا : ومعنى هذا أي هو كمن غمس يده في لحم الخنزير يبيته لأن يأكله ، وهذا الفعل في الخنزير حرام لا يجوز ؛ بينه قوله صلى الله عليه وسلم : " من لعب بالنرد فقد عصى الله ورسوله " رواه مالك وغيره من حديث أبي موسى الأشعري وهو حديث صحيح ، وهو يحرم اللعب بالنرد جملة واحدة . وكذلك الشطرنج . لم يستثن وقتاً من وقت ولا حالاً من حال ، وأخبر أن فاعل ذلك عاص لله ورسوله ، إلا أنه يحتل أن يكون المراد باللعب بالنرد المنهي عنه أن يكون على وجه القمار ، لما روي من إجازة اللعب بالشطرنج عن التابعين على غير قمار . وحمل ذلك على العموم قماراً وغير قمار أولى وأحوط إن شاء الله . قال أبو عبد الله الحلي في كتاب منهاج الدين : وما جاء في الشطرنج حديث يروي فيه كما يروي في النرد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " من لعب بالشطرنج فقد عصى الله ورسوله " . وعن علي رضي الله عنه أنه صلى على مجالس من جئ تميم وهم يلعبون بالشطرنج فوقف عليهم فقال : " أما والله لنغير هذا خلقكم ! أما والله أولا أن تكون سة لضربت به وجوهكم " . وعنه رضي الله عنه أنه مر بقوم يلعبون بالشطرنج فقال : ما هذه التماثيل التي أتت لها عاكفون ؛ لأن يمس أحدكم

(١) اضطربت الأصول في كتابة هذه الأسماء ؛ ومنهبت إلى وجه الصواب فيها .

جرا حتى يطفأ خير من أن يحسها . وسئل ابن عمر عن الشطرنج فقال : هي شر من الرد .
وقال أبو موسى الأشعري : لا يلعب بالشطرنج إلا خاطئ . وسئل أبو جعفر عن الشطرنج
فقال : دعونا من هذا ، نبوية . وفي حديث طويل عن النبي صلى الله عليه وسلم : « وأن
من لعب بالرد والشطرنج والجلوز والكناب مقلته الله ومن جلس إلى من يلعب بالرد والشطرنج
ينظر إليهم بحيث عنه حسنه كلها وصار من مقلته الله » . وهذه الآثار كلها تدل على تحريم
اللعب بها بلا قيار ، والله أعلم . وقد ذكرنا في « المسألة » بيان تحريمها وأنها كالخمر في التحريم
لاقتنائها به ، والله أعلم . قال ابن العربي في قبسه : وقد جوزه الشافعي ، وأتبعه حال بعضهم
إلى أن يقول : هو مندوب إليه ، حتى المتخوف في المدرسة ، فإذا أعيى الطالب من القراءة لعب
به في المسجد . وأستدوا إلى قوم من الصعابة والتابعين أنهم لعبوا بها ، وما كان ذلك قط !
وثالثه ما سنها يد تقي . ويقولون إنها تشجذ الذهن ، والبيان يكذبهم ، ما تجر فيها قط رجل
له ذهن . سمعت الإمام أبا الفضل عطاء المقدسي يقول بالمسجد الأقصى في المناظرة : إنما
تعلم الحرب . فقال له الطرطوشي : بل تفسد تدبير الحرب ، لأن الحرب المقصود منها الملك
واغتياله ، وفي الشطرنج تقول : شاه إياك : الملك تحم عن طريق ، فاستضحك الحاضرين .
ونارة شدد فيها مالك وحرّمها وقال فيها : « فإذا بعد الحق إلا الضلال » . ونارة استهان
بالقليل منها والأهون ، والقول الأول أصح والله أعلم . فإن قال قائل : روى عن عمر
ابن الخطاب رضي الله عنه أنه سئل عن الشطرنج فقال : وما الشطرنج ؟ ف قيل له : إن امرأة
كان لها ابن وكان مليكا فأصيب في حرب دون أصحابه ، فقالت : كيف يكون هذا أروني
حيانا ، فعمل لها الشطرنج ، فلما رأته تسلت بذلك . ووصفوا الشطرنج لعمر رضي الله عنه
فقال : لا بأس بما كان من آلة الحرب ، ف قيل له : هذا لا حجة فيه لأنه لم يقل لا بأس
بالشطرنج وإنما قال لا بأس بما كان من آلة الحرب . وإنما قال هذا لأنه شبه عليه أن اللعب
بالشطرنج مما يستعان به على معرفة أسباب الحرب ، فلما قيل له ذلك ولم يحط به عليه قال :

لا بأس بما كان من آله الحرب، إن كان كما نقولون فلا بأس به، وكذلك من روى عنه من الصحابة أنه لم ينه عنه، وإن ذلك محمول منه على أنه ظن أن ذلك ليس ينتهي به، وإنما يراد به التسبب إلى علم القتال والمضاربة فيه، أو على أن الخبر المستند لم يبلغهم. قال الحليسي: وإذا صح الخبر فلا حجة لأحد معه، وإنما الحجّة فيه على الكافة.

الثامنة - ذكر ابن وهب بإسناده أن عبد الله بن عمر مرّ بغلمان يلعبون بالكعبة، وهما حفر فيها حصيّ يلعبون بها، قال فسأها ابن عمر ونهاهم عنها. وذكر الهروي في باب (الكاف مع الجيم) في حديث ابن عباس: في كل شيء فإرحني في لعب الصبيان بالكعبة، قال ابن الأعرابي: هو أن يأخذ الصبي خرقة فيدورها كأنها كرة، ثم يتفصرون بها. وكعب إذا لعب بالكعبة.

قوله تعالى: ﴿فَأَيُّ كَيْفٍ تَصْرَفُونَ﴾ أي كيف تصرفون عنولكم إلى عبادة ما لا يرزق ولا يحيي ولا يميت.

قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ حَقَّتْ كَيْفَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٣٣)

قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ حَقَّتْ كَيْفَتُ رَبِّكَ﴾ أي حكمه وفصاؤه وعلمه السابق. ﴿عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا﴾ أي خرجوا عن الطاعة وكفروا وكذبوا. ﴿أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي لا يصدقون. وفي هذا أدق دليل على القدرية. وقرأ نافع وابن عامر ها وى آخرها «كذلك حَقَّتْ كَلِمَاتُ رَبِّكَ» وفي سورة غافر بالجمع في الثلاثة. الباقون بالزبراد. و«أَنْ» في موضع نصب، أي بأنهم أو لأنهم. قال الزجاج: ويجوز أن تكون في موضع رفع على البدل من كلمات. قال الفراء: يجوز «إنهم» بالكسر على الاستئناف.

قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُمْ قُلْ اللَّهُ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُمْ فَأَيُّ تَوَفَّكُونَ﴾ (٣٤)

قوله تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ ﴾ أى الهنكم ومعبودانكم . ﴿ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ أى قل لم يا محمد ذلك على جهة التوبيخ والتقرير ؛ فإن أجابوك وإلا فـ ﴿ قُلْ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ وليس غيره يفعل ذلك . ﴿ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴾ أى وكيف تنقلبون وتنصرفون عن الحق إلى الباطل .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَّنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلْ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُبْعَثَ أَمَّنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يَهْدِي قَا لَكَ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَّنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ ﴾ يقال : هذاه الطريق وإلى الطريق بمعنى واحد ، وقد تقدم . أى هل من شركائكم من يرشد إلى دين الإسلام ، فإن قالوا لا ولا بد منه فقل لهم ﴿ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ ﴾ ثم قل لهم موجبا ومقرا ﴿ أَفَمَنْ يَهْدِي ﴾ أى يرشد ﴿ إِلَى الْحَقِّ ﴾ وهو الله سبحانه وتعالى . ﴿ أَفَمَنْ يَبْعَثُ أَمَّنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يَهْدِي ﴾ يريد الأصنام التى لا تهدي أحدا ، ولا تمنى إلا أن تُفعل ، ولا تنقل عن مكانها إلا أن تنقل . قال الشاعر ^(١) :

للفتى عسل يعيش به • حيث تهدي ساقه قدمه

وقيل : المراد الرضاء والمضلون الذين لا يرشدون أنفسهم إلى هدى إلا أن يرشدوا .

وفى « يَهْدِي » قراءات ست :

الأولى - قرأ أهل المدينة إلا وُرثا « يَهْدِي » بفتح الياء وإسكان الهاء وتشديد الدال ؛ فجمعوا فى قراءتهم بين ساكنين كما فعلوا فى قوله « لَا تَعْدُوا » وفى قوله « يَحْصِمُونَ » . قال النحاس : والجمع بين الساكنين لا يقدر أحد أن ينطق به . قال محمد بن يزيد : لا بد لمن وام مثل هذا أن يحرك حركة خفية إلى الكسر ، وسيبويه يسمى هذا اختلاس الحركة .

(١) راجع ١٤ ص ١٦٠ طبع ٢٢٩٠ أرتاة .

(٢) حوطة : كفى السان .

(٣) راجع ١٦ ص ١٧ طبع ٢٢٩٠ أرتاة .

الثابٲة - قرأ أبو عمرو وقالون في رواية بين الفتح والإسكان، عل نغهم والاختفاء والاختلاس .

الثالثة - قرأ ابن عامر وابن كثير وورش وابن محبصن « يَهْدَى » بفتح الياء والمهاء وتشديد الدال . قال النحاس : هذه القراءة بينة في العربية، والأصل فيها يَهْدَى أدغمت التاء في الدال وقلبت حركتها عل المهاء .

الرابعة - قرأ حفص ويعقوب والأعشى عن أبي بكر مثل قراءة ابن كثير، إلا أنهم كسروا المهاء، قالوا : لأن الجزم إذا كُسُطِرَ إلى حركته حُكِرَ إلى الكسر . قال أبو حاتم : هي لغة سُفُل مضر .

الخامسة - قرأ أبو بكر عن عاصم « يَهْدَى » بكسر الياء والمهاء وتشديد الدال، كل ذلك لإتباع الكسر الكسر كما تقدم في البقرة في « يَخْطَفُ^(١) » . وقيل : هي لغة من قرأ « نَسْتَبِينَ^(٢) » و« لن نَمُنَا النار » ونحوه . وسيبويه لا يميز « يَهْدَى » ويميز « يَهْدَى » و« يَهْدَى » و« هَدَى » قال : لأن الكسرة في الياء تنقل .

السادسة - قرأ حمزة والكسائي وخلف ويحيى بن وثاب والأعشى « يَهْدَى » بفتح الياء وإسكان المهاء وتخفيف الدال؛ من هَدَى يَهْدَى . قال النحاس : وهذه القراءة لها وجهان في العربية وإن كانت بييدة، واحد الوجهين أن الكسائي والقراء قالوا : « يَهْدَى » بمعنى يَهْدَى . قال أبو العباس : لا يعرف هذا، ولكن التقدير أن لا يَهْدَى غيره، ثم الكلام، ثم قال ، « إلا أن يَهْدَى » استأنف من الأول، أى لكنه يحتاج أن يَهْدَى؛ فهو استثناء منقطع، كما تقول : فلان لا يُسمع غيره إلا أن يُسمع، أى لكنه يحتاج أن يُسمع . وقال أبو إسماعيل : « فإلى لك » كلام تام، والمعنى : فأى شىء لك في عبادة الأولان . ثم قيل لهم : (كَيْفَ تَحْكُمُونَ) أى لأنفسكم وتفتنون بهذا الباطل الصراح، تبديون آلهة لا تنفى عن أنفسنا شيئاً إلا أن يُفعل بها، والله يفعل ما يشاء فتروكون عبادته؛ فوضع « كيف » نصب بدونه تكون .

(١) راجع ج ١ ص ٢٢٢ طبعة ثانية أدلة . (٢) راجع ج ١ ص ١٤٦ طبعة ثانية أدلة .

قوله تعالى : وَمَا يَنْبِغُ أَكْثَرُكُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٦٦﴾

قوله تعالى : (وَمَا يَنْبِغُ أَكْثَرُكُمْ إِلَّا ظَنًّا) يريد الرؤساء منهم ؛ أى ما يقيمون إلا حسنا وتخريصا فى أنها آلهة وأنها تشفع ، ولا حجة معهم . وأما اتباعهم فيتعلمونهم تقليدا . (إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا) أى من عذاب الله ؛ فالحق هو الله . وقيل : « الحق » هنا اليقين ؛ أى ليس الظن كاليقين . وفي هذه الآية دليل على أنه لا يُكْتَفَى بِالظَّنِّ فِي الْمَقَائِدِ . (إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ) من الكفر والتكذيب ، خرجت مخرج التهديد .

قوله تعالى : وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْأَعْلِيِّنَ ﴿٦٧﴾

قوله تعالى : (وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ) « أن » مع « يفترى » مصدر ، والمعنى : وما كان هذا القرآن افتراء ؛ كما نقول : فلان يحب أن يركب ، أى يحب الركوب ؛ قاله الكشاف . وقال الفراء : المعنى وما ينبغي لهذا القرآن أن يفترى ؛ كقوله « وَمَا كَانَ لَيْتَ أَنْ يَبْلُغَ » « وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً » . وقيل : « أن » بمعنى اللام ، تقديره : وما كان هذا القرآن ليفترى . وقيل : بمعنى لا ، أى لا يفترى . وقيل : المعنى ما كان يتبها لأحد أن يأتي بمثل هذا القرآن من عند غير الله ثم ينسبه إلى الله تعالى لإعجازه ؛ لوصفه ومعانيه وتأليفه . (وَلَكِنْ تَصْدِيقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ) قال الكشاف والفراء وعبد ابن سمدان : التقدير ولكن كان تصديق ؛ ويوزع عندهم الرفع بمعنى : ولكن هو تصديق . (الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ) أى من التوراة والإنجيل وغيرهما من الكتب ، فإنها قد بشرت به بقاء

مصدقاً لما في تلك البشارة، وفي الدعاء إلى التوحيد والإيمان بالقيامة . وقيل : المعنى ولكن تصديق النبي الذي بين يدي القرآن وهو محمد صلى الله عليه وسلم ، لأنهم شاهدوه قبل أن يسموا به القرآن . « وتفصيل » بالنصب والرفع على الوجهين المذكورين في تصديق . وتفصيل : التبيين ، أى بين ما في كتب الله المقدمة . والكتاب أسم الجنس . وقيل : أراد بتفصيل الكتاب ما بين في القرآن من الأحكام . (لَا رَيْبَ فِيهِ) الهاء عائدة للقرآن ، أى لا شك فيه . أى في نزوله من قبل الله تعالى .

قوله تعالى : أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٨﴾

قوله تعالى : (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ) أم هاهنا في موضع الف الاستفهام لأنها اتصلت بما قبلها . وقيل : هى أم المنقطعة التى تفقد معنى بل والهمزة ، كقوله تعالى : ه ألم تنزل الكتاب لأرب فيه من رب العالمين . أم يقولون افتراه . أى بل يقولون افتراه . وقال أبو عبيدة : أم بمعنى الواو ، مجازة : ويقولون افتراه . وقيل : الميم صلة ، والتقدير : يقولون افتراه ، أى اختلق محمد القرآن من قبل نفسه ، وهو استفهام منناه التفریع . (قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ) ومعنى الكلام الاحتجاج ، وإن الآية الأولى دلت على كون القرآن من عند الله ، لأنه مصدق الذى بين يديه من الكتب وموافق لما من غير أن يتكلم عند طيه السلام عن أحد . وهذه الآية إزاهم بأن يأتوا بسورة مثله إن كان معترى . وقد مضى القول فى إعجاز القرآن ، وأنه معجز فى مقدمة الكتاب ، والحمد لله .

قوله تعالى : بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعَلِيهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾

قوله تعالى : (بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحَيِّطُوا بِهِ) أى كذبوا بالقرآن وهم جاهلون بمعانيه وتفسيره ، وعليهم أن يعلموا ذلك بالسؤال ؛ فهذا يدل على أنه يجب أن ينظر في التأويل . وقوله : (وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ) أى ولم يأتهم حقيقة ناقة التكذيب من نزول العذاب بهم . أركبوا بما في القرآن من ذكر البعث والجنة والنار ، ولم يأتهم تأويله أى حقيقة ما وعدوا في الكتاب ؛ قاله الضحاك . وقيل للحسين بن الفضل : هل تجد في القرآن (من جهل شيئا عاده) قال نعم ؛ في موضعين : « بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحَيِّطُوا بِهِ » وقوله « وَإِذْ لَمْ يَتَدَّوْا بِهِ فَيَسْأَلُونَكَ هَذَا لِمَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ » يريد الأمم الخالية ، أى كذا كانت سبيلهم . والكاف في موضع نصب . (فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ) أى أخذهم بالمهلك والعذاب .

قوله تعالى : (وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ ، وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ)

قوله تعالى : (وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ) قيل : المراد أهل مكة ، أى ومنهم من يؤمن به في المستقبل وإن طال تكذيبه ؛ علمه تعالى السابق بهم أنهم من أهل السعادة ، و « مَنْ » وقع بالابتداء والخبر في الجزور . وكذا (وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ) والمعنى ومنهم من يصبر على كفره حتى يموت ؛ كآبى طالب وأبى لهب ونحوهما . وقيل : المراد أهل الكتاب . وقيل : هو عام في جميع الكفار ؛ وهو الصحيح . وقيل : إن الضمير في « به » يرجع إلى عبد الله عليه وسلم ؛ فأعلم الله سبحانه أنه إنما أنذر العقوبة لأن منهم من سيؤمن . (وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ) أى من يصبر على كفره ؛ وهذا تهديد لهم .

قوله تعالى : (وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ إِنَّمَا تَعْمَلُونَ)
(إِنَّمَا أَعْمَلُ وَإِنَّمَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ)
(١) آية ١٨ سورة الأحقاف .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَذَابِي ﴾ رفع بالابتداء ، والمعنى : لى ثواب عملي في التبليغ والإنذار والطاعة لله تعالى . ﴿ وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ﴾ أى جزاؤه من الشرك . ﴿ أَنْتُمْ بَرِيدُهُ ﴾ مما أعمل وأنا برىء مما تعملون ﴿ مثله ؛ أى لا يؤاخذ أحد بذنب الآخر . وهذه الآية منسوخة بآية السيف ؛ فى قول مجاهد والكلبي ومقاتل وابن زيد .

قوله تعالى : وَمِنْهُمْ مَّنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْأَعْمَى وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ﴾ يريد بظواهرهم ، وقلوبهم لا تبنى شيئا مما يقوله من الحق ويتلوه من القرآن ؛ ولهذا قال : ﴿ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴾ أى لا تسمع ؛ فظاهره الاستفهام ومعناه النفي ، وجعلهم كالصم لثقتهم على قلوبهم والطبع عليها ، أى لا تقدر على هداية من أصمه الله عن سماع الهدى . وكذا المعنى فى : ﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْأَعْمَى وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ ﴾ ؛ أخبر تعالى أن أحدا لا يؤمن إلا بتوفيقه وهدايته . وهذا وما كان مثله يرد على القدريه قولهم ؛ كما تقدم فى غير موضع . وقال : « يستمعون » على معنى « من » و « ينظر » على اللفظ ؛ والمراد تسليمة النبي صلى الله عليه وسلم ؛ أى كما لا تقدر أن تسمع من سب السمع ولا تقدر أن تتلقى للأعمى بصرا بهتدى به ، فكذلك لا تقدر أن توفق هؤلاء للإيمان وقد حكم الله عليهم ألا يؤمنوا . ومعنى : ﴿ يَنْظُرُ إِلَيْكَ ﴾ أى يديم النظر إليك ؛ كما قال : « يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْتَنَبُ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ » قيل : إنها نزلت فى المستزئيين ، والله أعلم .

قوله تعالى : إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ الْنَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ الْنَّاسَ أَنْفُسَهُمْ

يَظْلِمُونَ ﴿١٩﴾

لما ذكر أهل النفاق ذكر أنه لا يظلمهم، وأن تقدير النفاق عليهم وسببه سمع القلب وبصره ليس ظلما منه؛ لأنه تصرف في ملكه بما شاء، وهو في جميع أعماله عادل. (ولكن الناس أنفسهم يظلمون) بالكفر والمعصية ومخالفة أمر خالقهم. وقرأ حمزة والكسائي «ولكن» مخففا «الناس» رفعا. قال التماس: زعم جماعة من التحوين منهم الفراء أن العرب إذا قالت «ولكن» بالواو أثرت التشديد، وإذا حذفوا الواو أثرت الخفيف، واعتل في ذلك فقال: لأنها إذا كانت بغير واو أشبهت بل نفعوها ليكون ما بعدها كما بعد بل، وإذا جاءوا بالواو خالفت بل فشددوها ونصبوا بها، لأنها «إن» زبدت عليها لام وكاف وصيرت حرفا واحدا؛ وأنشد:

• لكنني من حبا لعمبد •

بغاه باللام لأنها «إن» •

قوله تعالى: وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٥﴾

قوله تعالى: (وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا) بمعنى كأنهم تخففت، أي كأنهم لم يلبثوا في قبورهم. (إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ) أي قدر ساعة؛ يعني أنهم استقصروا طول مقامهم في القبور ل هول ما يرون من البحث؛ دليله قولهم: «لَيْتَنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ». وقيل: إنما قصرت مدة لبثهم في الدنيا من هول ما استقبلوا لا مدة كونهم في القبر. ابن عباس: وأما أن طول أعمارهم في مقابلة الخلود كساعة. (يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ) في موضع نصب على الحال من الماء والميم في «يُحْشَرُهُمْ». ويجوز أن يكون مقطعا، فكأنه قال فهم يتعارفون. قال الكلبي: يعرف بعضهم بعضا كمرقتهم في الدنيا إذا خرجوا من قبورهم؛ وهذا التعارف تعارف توبيخ وافتضاح؛ يقول بعضهم لبعض: أنت أضللتني وأغرقتني وحملتني على الكفر؛ وليس

تعارف شفقة ورافة وعطف . ثم تنقطع المعرفة إذا ما ينوا أحوال يوم القيامة كما قال :
 « وَلَا يَسْأَلُ حِمِيمٌ حَمِيماً » . وقيل : يبقى تعارف التوبيخ ؛ وهو الصحيح لقوله تعالى : « وَلَوْ تَرَى
 إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ - إِلَى قَوْلِهِ - وَجَعَلْنَا الْأَعْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا » ، وقوله :
 « كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا » الآية ، وقوله : « رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَاءَنَا » الآية .
 فاما قوله « وَلَا يَسْأَلُ حِمِيمٌ حَمِيماً » وقوله « فَإِذَا نَفَخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ » فعناه
 لاياله سؤال رحمة وشفقة ، والله أعلم . وقيل : القيامة مواطن . وقيل : معنى « يتعارفون »
 يتسألون ، أى يتسألونكم لهتهم ، كما قال « وَأَقْبَلْ بِمَعْصِيَّتِهِمُ عَلَى بَعْضٍ يَسَاءَلُونَ » وهذا حسن .
 وقال الضحاك : ذلك تتعارف تعاطف المؤمنين ، والكافرون لا تعاطف عليهم ، كما قال
 « فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ » . والأقول أظهره ، والله أعلم .

قوله تعالى : (قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِإِلْقَاءِ اللَّهِ) أى بالمرض على الله . ثم قيل :
 يجوز أن يكون هذا إخباراً من الله عز وجل بعد أن دل على البعث والنشور ، أى خسروا
 ثواب الجنة . وقيل خسروا فى حال لقاء الله ؛ لأن الخسران إنما هو فى تلك الحالة التى
 لا يرجى فيها إغالة ولا تنفع توبة . قال النحاس : ويجوز أن يكون المعنى يتعارفون بينهم ،
 يقولون هذا . (وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ) يريد فى علم الله .

قوله تعالى : (وَإِنَّمَا تَرِيَّتْكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتُوفِينَكَ) فَإِلَيْنَا
 مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ ﴿١١﴾

قوله تعالى : (وَإِنَّمَا تَرِيَّتْكَ) نرط . (بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ) أى من إظهار دينك
 فى حياتك . وقال المفسرون : كان البعض الذى وعدهم قتل من قتل وأمر من أمر بيده .
 (أَوْ نَتُوفِينَكَ) عطف على « تريتك » أى أو نتوفيك قبل ذلك . (فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ) جواب

(١) آية ١٠ سورة المارج . (٢) آية ٣١ روم سورة سبأ . (٣) آية ٣٨ سورة الأعراف .

(٤) آية ٦٧ سورة الأنزاب . (٥) آية ١٠١ سورة المؤمنون . (٦) آية ٢٧ سورة الصافات .

« إنا » - والمقصود إن لم تنقم منهم ما جلا استقامتهم أحلا . (ثُمَّ اللَّهُ شَهِدَ) أى شاهد لا يحتاج إلى شاهد (عَلَى مَا يَفْعَلُونَ) من محاربتك وتكذيبك . ولو قيل : « ثم الله شهيد » بمعنى هناك ، جاز .

قوله تعالى : وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٧﴾

قوله تعالى : (وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ) يكون المعنى : ولكل أمة رسول شاهد عليهم ، فإذا جاء رسولهم يوم القيامة قضى بينهم ، مثل « فكيف إذا جئتنا من كل أمة بشهيد » . وقال ابن عباس : سكر الكفار غدا عجب ، الرسل اليهم ، فيؤتى بالرسول فيقول قد أبلغتكم الرسالة ؛ حينئذ يقضى عليهم بالعذاب . دليله قوله : « وَيَكُونُ الرَّسُولُ طَيْبًا شَهِيدًا » . ويجوز أن يكون المعنى أنهم لا يعذبون في الدنيا حتى يرسل اليهم ، فمن آمن فاز ونجا ، ومن لم يؤمن هلك وعُذِّب . دليله قوله تعالى : « وَمَا نُنَا مُعْذِرِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا » . والقسط : العدل . (وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ) أى لا يعذبون بغير ذنب ، ولا يؤاخذون بغير حجة .

قوله تعالى : وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦٨﴾

يريد كفار مكة لقرط إنكارهم واستعجالهم العذاب ؛ أى متى العقاب أو متى القيامة التى بعدنا محمد . وقيل : هو عوام في كل أمة كذبت رسوله

قوله تعالى : قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَعْجِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦٩﴾

قوله تعالى : (قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا) لما استعجلوا النبي صلى الله عليه وسلم بالعذاب قال الله له قل لهم يا محمد لا أملك لنفسي ضرا ولا نفعاً أى ليس ذلك لى ولا لغيرى .
 (إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ) أن أملكه وأقدر عليه ، فكيف أقدر أن أملك ما استعجلتم فلا تستعجلوا .
 (لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ) أى هلاكهم وعذابهم وقت معلوم فى علمه سبحانه . (إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ)
 أى وقت انقضاء أجلهم . (فَلَا يَسْتَأْذِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ) أى لا يمكنهم أن يستأخروا ساعة باقن فى الدنيا ولا يتقدمون فيؤخرون .

قوله تعالى : قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ يَكُونُ أَوْ يَنْتَهِرُ مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٥﴾

قوله تعالى : (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيِّنًا أَوْ نَهَارًا) ظرفان ، وهو جواب لقولهم : « متى هذا الوعد » وتفسيره لأرائهم فى استعجالهم العذاب ؛ أى إن أتاكم العذاب فاستعجلوا فيه ، ولا ينفعكم الإيمان حينئذ . (مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ) استفهام معناه التوبيخ والتعظيم ؛ أى ما أعظم ما يستعجلون به ؛ كما يقال لمن يطلب أمرا يستوخم عاقبته : ماذا تنجي على نفسك ! والضمير فى « منه » فيل يعود على العذاب ، وقيل يعود على الله سبحانه وتعالى . قال النحاس : إن جعلت الهاء فى « منه » تعود على العذاب كان لك فى « ماذا » تقديران : أحدهما أن يكون « ما » فى موضع رفع بالابتداء ، و « ذا » بمعنى الذى ، وهو خبر « ما » والعائد محذوف . والتقدير الآخرا أن يكون « ماذا » اسما واحدا فى موضع رفع بالابتداء ، والخبر فى الجملة ؛ قاله الزجاج . وإن جعلت الهاء فى « منه » تعود على اسم الله تعالى جعلت « ما » و « ذا » شيئا واحدا ، وكانت فى موضع نصب بـ « يستعجل » ؛ والمعنى : أى شئ يستعجل منه المجرمون من الله عز وجل .

قوله تعالى : ائْتِمُوا إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنْتُمْ بِهِ ؕ ءَلَمْ تَكُنْ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ

تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥٦﴾

قوله تعالى : (اَنْتُمْ اِذَا مَا وَقَعَ اَمْسَمْتُمْ بِهِ الْاَن) في الكلام حذف ، والتقدير : اناستون ان ينزل بكم العذاب ثم يقال لكم انما حل : اَلان اَمْسَمْتُمْ بِهِ ؟ قيل : هو من قول الملائكة استهزاء بهم . وقيل : هو من قول الله تعالى ، ودخلت اَنْف الاستفهام على « ثم » والمعنى التقرير والتوبيخ ، وليسدل على ان معنى الجملة الثانية بعد الأولى . وقيل : ان « ثم » ها هنا بمعنى « ثم » بفتح التاء ، فتكون طرفا ، والمعنى اهانالك ، وهو مذهب الطبري ، وحينئذ لا يكون فيه معنى الاستفهام . و « الْاَن » قيل : اصله فعل مبنى مثل حان ، والالف واللام لتحويله إلى الاسم . الخليل : بنيت لانتفاء الساكنين ، والالف واللام للمهد والإشارة إلى الوقت ، وهو حد الزمانين . (وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ) أى بالعذاب (تَسْتَعْبِلُونَ) .

قوله تعالى : ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ اِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾

قوله تعالى : (ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا) أى نقول لهم خزنة جهنم . (ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ) أى الذى لا ينقطع . (هَلْ تُجْزَوْنَ اِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ) أى جزاء كفركم

قوله تعالى : وَيَسْتَنْبِطُونَكَ اَحَقُّ هُوَ قُلْ اِى وَرَبِّ اِنَّهُ لَحَقُّ

وَمَا اَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾

قوله تعالى : (وَيَسْتَنْبِطُونَكَ) أى يستنبطونك يا محمد عن كون العذاب وقيام الساعة . (اَحَقُّ) ابتداء . (هُوَ) سدد الخبر ، وهذا قول سيويه . ويجوز ان يكون « هو » مبدا ، و « اَحَقُّ » خبره . (قُلْ اِى) « اى » كلمة تحقيق وإيحاء وتأكيده بمعنى نعم . (وَرَبِّ) قسم . (اِنَّهُ لَحَقُّ) جوابه ، أى كان لا شك فيه . (وَمَا اَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ) أى فائتين من مثابه ومجازاته .

قوله تعالى : وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ
وَأَسْرَوْا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَفُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ ﴾ أى اشركت وكفرت ﴿ مَا فِي الْأَرْضِ ﴾
أى ملكا ﴿ لَافْتَدَتْ بِهِ ﴾ أى من عذاب الله ، يعنى ولا يقبل منها ، كما قال : « إن الذين
كفروا وماتوا وهم كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَى بِهِ » . وقد تقدم .

قوله تعالى : ﴿ وَأَسْرَوْا النَّدَامَةَ ﴾ أى أخفوها ، يعنى رؤسهم ، أى اخفوا ندامتهم عن
اتباعهم . ﴿ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ ﴾ وهذا قبل الإحراق بالنار ، فاذا وقوا في النار انهم النار
عن التصع ، بدليل قولهم « رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا » . فبين أنهم لا يكتفون ما بهم .
وقيل : « أَسْرَوْا » اظهروا ، الكلمة من الأضداد ، ويدل عليه أن الآخرة ليست دار تجلده
وتصبر . وقيل : وجنوا ألم الحسرة في قلوبهم ، لأن الندامة لا يمكن إظهارها . قال كثير :

فأسررت الندامة يوم نادى • برّد جمال غاضرة المنادى

وذكر المبرد فيه وجها ثالثا - أنه بدت بالندامة أسرة وجوههم ، وهى تكاسير الجبهة ، واحدا
سِرَار . والندامة : الحسرة لوقوع شئ أو فوت شئ ، وأصلها اللزوم ، ومنه الندم لأه بلازم
المجالس . وفلان نادم سادم . والسدم اللهب بالنش . ويندم وتندم بالنش أى اهتم به . قال
الجوهري : السدم (بالتحريك) الندم والحزن ، وقد سديم بالكسر أى اهتم وحزن . ورجل
نادم سادم ، وندمان سدمان ، وقيل هو اتباع . وماله ثم ولا سدم إلا ذلك . وقيل : الندم
مقلوب البن ، والندم اللزوم ، ومنه فلان مدمن الخمر . والقم : ما اجتمع في الدار وتلبّد
من الأبول والأبمار ، سمي به للزومه . والتمنة : الحقد الملازم للصدر ، والجمع دمن . وقد
دمنت قلوبهم بالكسر ، يقال : دمنت على فلان أى صيحت .^(١) ﴿ وَفُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ ﴾
أى بين الرؤساء والسّل بالعدل ﴿ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾

(١) واجب - ٤ ص ١٢١ ، خط أدل اراءه • (٢) آية ١٠٠ سورة القصص .

قوله تعالى : **أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ إِنَّا نَعِدُهُ لَاحِقًا حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ** ﴿٥٥﴾

« ألا » كلمة تنبيه للسامع تراد في أول الكلام ؛ أي انتبهوا لما أقول لكم : إن لله ما في السموات والأرض ألا إن وعد الله حق ، له ملك السموات والأرض فلا مانع يمنعه من إنفاذ وعده . ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ذلك .

قوله تعالى : **هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** ﴿٥٦﴾

بين المعنى ، وقد تقدم .

قوله تعالى : **يَأْتِيَا النَّاسَ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ** ﴿٥٧﴾

قوله تعالى : ﴿ يَأْتِيَا النَّاسَ ﴾ يعني فرشتاه . ﴿ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ ﴾ أي وعظ . ﴿ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ يعني القرآن ، فيه مواعظ وحكم . ﴿ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ ﴾ أي من الشك والعاق والحلاف والشقاق . ﴿ وَهُدًى ﴾ أي ورشدا لمن اتبعه . ﴿ وَرَحْمَةٌ ﴾ أي نعمة . ﴿ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ خصهم لأنهم المتفعلون بالإيمان ، والكل صفات القرآن : والعطف لتأكيد المدح . قال الشاعر :

إلى الملك القرم وابن الهمام • وليت الكتيبة في المزدحم

قوله تعالى : **قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ** ﴿٥٨﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ ﴾ قال أبو سعيد الخدري وابن عباس رضي الله عنهما : فضل الله القرآن ، ورحمة الإسلام . وعنهما أيضا : فضل الله القرآن ، ورحمة أن جعلكم من أهله . وعن الحسن والضحاك ومجاهد وقتادة : فضل الله الإيمان ، ورحمة القرآن ؛ على العكس من القول الأول . وقيل غير هذا . ﴿ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا ﴾ إشارة إلى الفضل والرحمة . والعرب تأتي « بذلك » للواحد والاثنتين والجمع . وروى عن النبي صل

الله عليه وسلم أنه قرأ « فبذلك فليفرحوا » بالياء ؛ وهي قراءة يزيد بن القعقاع ويعقوب وغيرهما ؛ وفي الحديث « لآخذوا مصافكم » . والفرح لغة في القلب بإدراك المحبوب . وقد ذم الفرخ في مواضع ؛ كقوله : « لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ » ^(١) وقوله : « إِنَّهُ لَفَسِيحٌ نَقُورٌ » ولكنه مطلق . فإذا قيد الفرخ لم يكن ذمًا ؛ لقوله : « فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ » وهاتنا قال تبارك وتعالى : « فبذلك فليفرحوا » أى بالقرآن والإسلام فليفرحوا ؛ فعيد . قال هارون : وفي حرف أبي « فبذلك فافرحوا » . قال النحاس : سبيل الأمر أن يكون باللام ليكون معه حرف جازم كما أن مع النهي حرف ؛ إلا أنهم يحذون من الأمر للخطأ استغناء بخاطبته ، وربما جاءوا به على الأصل ؛ منه « فبذلك فلفرحوا » . (هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ)^(٢) يعنى في الدنيا . وقراءة العامة بالياء في الفعلين ؛ وروى عن ابن عامر أنه قرأ « فليفرحوا » بالياء « يجمعون » بالياء ؛ خطابا للكافرين . وروى عن الحسن أنه قرأ بالياء في الأول ، و « يجمعون » بالياء على العكس . وروى أبان عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من هداه الله للإسلام وعلمه القرآن ثم شكا الفاقة كتب الله الفقيرين عيبه إلى يوم يلقاه » ثم تلا : « قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ » .

قوله تعالى : قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَلًا قُلْ إِنَّ اللَّهَ أَذِنَ لَكُمْ أَنْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٦﴾

قوله تعالى : (قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَلًا)

فيه مسائل ثلاث :

الأولى — قوله تعالى : (قُلْ أَرَأَيْتُمْ) يخاطب كفار مكة . (مَا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ) « ما » في موضع نصب بأرأيت . وقال الزجاج : في موضع نصب بانزل . (وَأَنزَلَ) بمعنى خلق ؛ كما قال : « وَأَنزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ » ^(١) . « وَأَنزَلْنَا الْحَبِيدَ فِيهِ »

(١) آية ٧٦ سورة القصص . (٢) آية ١٠ سورة هود . (٣) آية ١٧٠ سورة آل عمران .

(٤) آية ٦ سورة الزمر .

بِأَسْ شَيْدٍ . فيجوز أن يعبر عن الخلق بالإنزال ؛ لأن الذي في الأرض من الرزق إنما هو بما ينزل من السماء من المطر . (بِجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا) قال مجاهد : هو ما حكوا به من تحريم البحيرة والسائبة والوصيلة والحمام . وقال الضحاك : هو قول الله تعالى : « وجعلوا لله يما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا » . (قُلْ اللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ) أى فى التحليل والحريم . (أَمْ عَلَى اللَّهِ) « أم » بمعنى بل . (تَقْتَرُونَ) هو قولهم إن الله أمرنا بها .

الثانية - استدلل بهذه الآية من نفي القياس ، وهذا بعيد ؛ فإن القياس دليل الله تعالى ، فيكون التحليل والتحرير من الله تعالى عند وجود دلالة نصها الله تعالى على الحكم ، فإن خالف فى كون القياس دليلا لله تعالى فهو خروج عن هذا الفرض ورجوع إلى غيره .

قوله تعالى : وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَهُ فَضْلٌ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٥٠﴾

قوله تعالى : (وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) « يوم » منصوب على الظرف ، أو بالظن ؛ نحو ما ظنك زيدا ، والمعنى : ايمسبون أن الله لا يؤاخذهم به . (إِنَّ اللَّهَ لَهُ فَضْلٌ عَلَى النَّاسِ) أى فى التأخير والإمهال . وقيل : أراد أهل مكة حين جعلهم فى حرم آمن . (وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ) بنى الكفار . (لَا يَشْكُرُونَ) الله على نعمه ولا فى تأخير العذاب عنهم . وقيل : « لا يشكرون » أى لا يوحّدون .

قوله تعالى : وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٥١﴾

(١) آية ٢٥ سورة الحديد . (٢) راجع ج ١ ص ٢٢٥ طبعه أول مرة ١٠

(٣) راجع ج ٧ ص ٨٩ طبعه أول مرة .

فقره تعالى : ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ ﴾ « ما » للبعد ، أى لست فى شأن ، يعنى من عبادة أو غيرها إلا والرب مطلع عليك . والشأن الخطب ، والأمر ، وجمعه شؤون . قال الأخفش : تقول العرب ما شئتُ شأنه ، أى ما عملت عمله . ﴿ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ ﴾ قال الفراء والزجاج : الخاء فى « منه » تعود على الشأن ، أى يحدث شأنا فيتل من أجله القرآن فيعلم كيف حكمه ، أو يترل فيه قرآن فيتل . وقال الطبرى : « منه » أى من كتاب الله تعالى . ﴿ مِنْ قُرْآنٍ ﴾ أعاد تفعيلا ، كقوله : « إِنِّى أَنَا اللَّهُ » . ﴿ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ ﴾ يخاطب النبي صلى الله عليه وسلم والأمة . وقوله : « وما تكون فى شأن » خطاب له والمراد هو وأمته ، وقد يخاطب الرسول والمراد هو وأتباعه . وقيل : المراد كفار قريش . ﴿ إِنَّا نَتْلُو عَلَيْكُمْ شُورًا ﴾ أى نعلمه ، ونظيره « مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَاسِعُهُمْ » . ﴿ إِذْ يُفِيضُونَ فِيهِ ﴾ أى تأخذون فيه ، والماء عائدة على العمل ، يقال : أفاض فلان فى الحديث والعمل إذا اندفع فيه . قال الراعى :

فَانْفَضَّ بِسَدِّ كُطُومِيهِمْ بِحِزَّةٍ • مِنْ ذَى الْأَبَاطِحِ إِذْ رَتَيْنَ حَقِيلًا

ابن عباس : « يُفِيضُونَ فِيهِ » ففعلونه . الأخفش : تتكلمون . ابن زيد : تخوضون . ابن كيسان : تنشرون القول . وقال الضحاك : الماء عائدة على القرآن المعنى : إذ تشيعون فى القرآن الكذب . ﴿ وَمَا يَعْرُبُ عَنْ رَبِّكَ ﴾ قال ابن عباس : يذهب . وقال أبو روق : يبعد . وقال ابن كيسان : يذهب . وقرأ الكسائي : « يميز » بكسر الراء حيث وقع ؛ وضم الباقون ، وهما لثتان فصيحتان ؛ نحو يعرش ويعرش . ﴿ مِنْ مِثْقَالِ ﴾ « من » صلة ؛ أى وما يميز عن ربك مثقال ذرة ؛ أى وزن ذرة ، أى بحيلة حراء صغيرة ، وقد تقدم فى « النساء » . ﴿ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْفَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ ﴾ عطاف على لفظ مثقال ، وإن شئت على ذرة . وقرأ يعقوب وحسرة برفع الراء فهما عطفا على موضع مثقال لأن من زائدة لتأكيد . وقال الزجاج : ويجوز الرفع على الإشباه ، وخبره ﴿ إِذْ

فِي كِتَابٍ مَّبِينٍ) يعنى اللوح المحفوظ مع علم الله تعالى به . قال الجرجاني : « إلا » بمعنى واو النسق ، أى وهو فى كتاب مبين ، كقوله تعالى : « إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَى الْمَرْسُوتِ . إِلَّا مَنْ ظَلَمَ » أى ومن ظلم . وقوله : « لَنْتَلَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ »^(١٧) أى والذين ظلموا منهم ، فـ « إلا » بمعنى واو النسق ، وأصغر هو بعده ، كقوله : « وقولوا حِطَّةٌ » أى هى حطة . وقوله : « وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ »^(١٨) أى هم ثلاثة . ونظير ما نحن فيه : « وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَدْرُسُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مَبِينٍ »^(١٩) وهو فى كتاب مبين .

قوله تعالى : **أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ** ﴿٢٠﴾
قوله تعالى : **(أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ)** أى فى الآخرة . (وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) لفقد الدنيا . وقيل : « لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » أى من تولاه الله تعالى وتولى حفظه وحياطته ورضى عنه فلا يخاف يوم القيامة ولا يحزن ، قال الله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا أَى عَنْ جَهَنَّمَ - مُبْعَدُونَ - أَلِى قَوْلِهِ - لَا يَحْزَنُهُمُ الْقَرْعُ إِلَّا كَبْرٌ »^(٢١) . وروى سعيد بن جبير أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل : مَنْ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ؟ فقال : « الَّذِينَ يَذْكُرُ اللَّهَ بِرُؤْيِهِمْ . وقال عمر بن الخطاب فى هذه الآية : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إِنْ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ عِبَادًا مَا هُمْ بِأَبْيَاءَ وَلَا شُهَدَاءَ تَقْطَعُهُمُ الْأَبْيَاءُ وَالشُّهَدَاءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِمَكَانِهِمْ مِنْ اللَّهِ تَعَالَى » . قيل : يا رسول الله ، خبرنا من هم وما أعمالهم فلما نجبهم . قال : « هم قوم تحابوا فى الله على غير أرحام بينهم ولا أموال يتعاطون بها فوالله إِنْ وَجَّهَهُمْ لِنُورٍ وَلِهَسَمَ عَلَى مَنَابِرٍ مِنْ نُورٍ لَا يَخَافُونَ إِذَا خَافَ النَّاسُ وَلَا يَحْزَنُونَ إِذَا حَزَنَ النَّاسُ - ثُمَّ قَرَأَ - أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ » . وقال

(١) آية ١٠ سورة النمل . (٢) آية ١٥٠ سورة البقرة . (٣) آية ٥٨ سورة البقرة .
(٤) آية ٥٩ سورة البقرة . (٥) آية ٥٩ سورة الأنعام . (٦) آية ١٠١ سورة مائدة .
سورة الأعراف .

على بن ابي طالب رضى الله عنه : أولياء الله قوم صفر الوجوه من السم، تمسح العيون من
الغبر، تخلص البطون من الجوع، يُيسر الشفاء من الدوى . وقيل : « لا خوف عليهم »
في ذريتهم، لأن الله يتولاهم . (وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) على دينهم لتعويض الله إياهم في أولادهم
وأحرامهم لأنه وليهم ومولاهم

قوله تعالى : الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾

هذه صفة أولياء الله تعالى؛ فيكون «الدين» في موضع نصب على البدل من اسم «إن»
وهو «أولياء» . وإن شئت على أعتى . وقيل : هو ابتداء، وخبره «لهم البشرى في الحياة
الدنيا وفي الآخرة» ؛ فيكون مفعولاً مما قبله . أى يتقون الشرك والمعاصى .

قوله تعالى : لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ
لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٣٣﴾

قوله تعالى : (لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) عن أبي الذرداء قال : سألت رسول الله
صل الله عليه وسلم عنها فقال : « ما سألتني أحد عنها غيرك منذ أنزلت هي الرؤيا الصالحة
يرأها المسلم أو ترى له » أخرجه الترمذى في جامعه . وقال الزهري وعطاء وقتادة : هي
البشارة التي تبشر بها الملائكة المؤمن في الدنيا عند الموت . وعن محمد بن كعب القرظي
قال : إذا استفتحت نفس العبد المؤمن جاءه ملك الموت فقال « السلام عليك ولى الله الله
يقربك السلام » . ثم نزع بهذه الآية « الذين نتوفاهم الملائكة طيبين يقولون - سلام عليكم »
ذكره ابن المبارك . وقال قتادة والضحاك : هي أن يسلم ابن هو من قبل أن يموت . وقاله
الحسن : هي ما يشهرهم الله تعالى في كتابه من جنته وكريم ثوابه . لقوله : « يُشْرَهُمْ رَبُّهُمْ

(١) ذرى السوء والفضل بذرى دأباً وذرباً ؛ كلاهما ذيل ، فهو ظاهر ، وهو ألا يصحبه راء بشره المذنب في ذرى نفسه

(٢) أى إذا اجتمعت فيه تريد المذبح كما يستفتح المبال في قرآنه ، فأولها نفس الروح : (لأن الأتمة) .

(٣) آية ٣١ سورة النمل .

برحمته منه ورضوان^(١) » ، وقوله : « وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات^(٢) » .
 وقوله : « وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون » ولهذا قال : « لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ »
 أي لا خلف لمواعيده ، وذلك لأن مواعيده بكلماته . (وفي الآخرة) قيل : بالجنة إذا خرجوا
 من قبورهم . وقيل : إذا خرجت الروح بُشِّرَتْ برضوان الله . وذكر أبو إسحاق الثعلبي :
 سمعت أبا بكر محمد بن عبد الله الجوزقي يقول : رأيت أبا عبد الله الحافظ في المنام راكبا
 رتقوا عليه طليسان وعمامة ، فسألت عليه وقلت له : أهلاً بك ، إنا لا نزال نذكرك ونذكر
 محاسنك ؛ فقال : ونحن لا نزال نذكرك ونذكر محاسنك ، قال الله تعالى : « لم ألم البشرى
 في الحياة الدنيا وفي الآخرة » الثناء الحسن ، وأشار بيده . (لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ) أي
 لا خلف لوعده . وقيل : لا تبديل لأخباره ، أي لا ينسخها بشيء ، ولا تكون إلا كما قال .
 (ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) أي ما يصير إليه أولياؤه فهو الفوز العظيم .

قوله تعالى : وَلَا يَحْزُنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ

الْعَلِيمُ ﴿٥٠﴾

قوله تعالى : (وَلَا يَحْزُنُكَ قَوْلُهُمْ) ثم الكلام ، أي لا يحزنك اقترائهم وتكذيبهم لك ،
 ثم ابتدأ فقال (إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ) أي القوة الكاملة والغلبة الشاملة والقدرة التامة لله وحده ؛
 فهو ناصرك ومعينك وامتك . (جَمِيعًا) نصب على الحال ، ولا يعارض هذا قوله : « وَهُوَ
 الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلَّذِينَ آمَنُوا » فإن كل عزة بالله فهي كلها لله ؛ قال الله سبحانه : « سُبْحَانَ رَبِّكَ
 رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ » . (هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) السميع لأقوالهم وأصواتهم ، العليم بأعمالهم
 وأفعالهم وجميع حركاتهم .

(١) آية ٤١ سورة الفرقان . (٢) آية ٢٥ سورة البقرة . (٣) آية ٣٠ سورة نعت .

(٤) طائفة من الجوزقة (بضم) بلدة بجايزة . (٥) آية ٨ سورة المائدة .

(٦) آية ١١ سورة المائدة .

قوله تعالى : **أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ مَا يَبْسُغُ**
الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ ۚ إِنَّهُمْ يَدْعُونَ إِلَّا أَلْطَنَ وَإِنَّهُمْ
إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾

قوله تعالى : ﴿ **أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ** ﴾ أى يحكم فيهم بما يريد ،
 ويفعل منهم ما يشاء ، سبحانه ! .

قوله تعالى : ﴿ **وَمَا يَبْسُغُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ** ﴾ « ما » للسبغ ،
 أى لا يتبعون شركاء على الحقيقة ، بل يظنون أنها تنفع أو تنفع . وقيل : « ما » استفهام ،
 أى أى شئ يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء نفعيا لنفعهم ، ثم أجاب بقوله :
 ﴿ **إِنَّهُمْ يَدْعُونَ إِلَّا أَلْطَنَ وَإِنَّهُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ** ﴾ أى يُعِدِّسون ويكذبون ، وقد تقدم .

قوله تعالى : **هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ**
مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُسْمِعُونَ ﴿٦٧﴾

قوله تعالى : ﴿ **هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ** ﴾ بين أن الواجب عبادة من يقدر
 على خلق الليل والنهار لا عبادة من لا يقدر على شئ . ﴿ **لِتَسْكُنُوا فِيهِ** ﴾ أى مع أزواجكم
 وأولادكم ليزول التعب والكلال بكم . والسكون : الهدوء عن اضطراب .

قوله تعالى : ﴿ **وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا** ﴾ أى مضئاً لتتبدوا به في حوائجكم . والمبصر : الذى
 يبصر ، والنهار مبصر فيه . وقال : « مبصر » مجوزاً وتوسماً على عادة العرب في قولهم « ليل
 قائم ، ونهار صائم » . وقال جرير :

لقد ملئنا بألم غيلان في السرى • ونيت وما ليل المقليل بنائم
 وقال قطرب : يقال أظلم الليل أى صار ذا ظلمة ، وأضاء النهار وأبصر أى صار ذا سباه وبصر .

قوله تعالى : (إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ) أى علامات ودلالات . (لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ)
أى سماع اعتبار .

قوله تعالى : قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ ط هُوَ الْغَنِيُّ قُلْ مَا فِي
السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطٰنٍ بِهٰذَا أُنْقُلُونَا عَلَى
اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٧﴾

قوله تعالى : (قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا) بنى الكفار . وقد تقدم . (سُبْحَانَهُ) تزه نفسه
عن الصاحبة والأولاد وعن الشركاء والأنداد . (هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ)
ثم أخبر بصفاته المطلق ، وأن له ما فى السموات والأرض ملكا وخلقاً عبداً ؛ « إِنْ كُلُّ
مَنْ فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمٰنِ عَبْدًا » . (إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطٰنٍ بِهٰذَا)
أى ما عندكم من حجة بهذا . (أُنْقُلُونَا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ) من إثبات الولد له ، والولد
يقتضى المحاسبة والمثابة والله تعالى لا يحاسب شيئاً ولا يشابه شيئاً .

قوله تعالى : قُلْ إِنْ الَّذِينَ يَقْتُرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١٦٨﴾
مَتَّعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا
يَكْفُرُونَ ﴿١٦٩﴾

قوله تعالى : (قُلْ إِنْ الَّذِينَ يَقْتُرُونَ) أى يختفون . (عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ)
أى لا يفوزون ولا يأمنون ؛ وتم الكلام . (مَتَّعٌ فِي الدُّنْيَا) أى ذلك متاع ، أو هو متاع
فى الدنيا ؛ قاله الكسائى . وقال الأخفش : لهم متاع فى الدنيا . قال أبو إسحاق : ويجوز
النصب فى غير القرآن على معنى يتمتعون بمتاعاً (ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ) أى أرجوعهم . (ثُمَّ
نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ) أى العليظ (بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ) أى بكفرهم .

قوله تعالى : وَأَنْتَ عَلَيْنَهُمْ نَبَأٌ نُوْجٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَنْقُومُ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذَكَّرِي بِحَاثَتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءُكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تَنْظُرُونَ ﴿٧١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَأَنْتَ عَلَيْنَهُمْ نَبَأٌ نُوْجٍ ﴾ أمره عليه السلام أن يذكرهم أفاقيص المفسدين ، ويخوفهم العذاب الأليم على كفرهم . وحذفت الواو من « انتل » لأنه أمر ؛ أي أفروا عليهم خبر نوح . ﴿ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ﴾ « إذ » في موضع نصب . ﴿ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ ﴾ أي عظم وتغل عليكم . ﴿ مَقَامِي ﴾ المقام (فتح الميم) : الموضع الذي يقوم فيه . والمقام (بالضم) الإقامة . ولم يُقرأ به فيما علمت ؛ أي إن طال عليكم لُثِّي فيكم ، ﴿ وَتَذَكَّرِي ﴾ إياكم ، ونحوي لكم ﴿ بِحَاثَتِ اللَّهِ ﴾ وعزمته على قتل وطردى ﴿ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ أي اعتمدت . وهذا هو جواب الشرط ، ولم يزل عليه السلام متوكلا على الله في كل حال ، ولكن بين أنه متوكل في هذا على الخصوص ليعرف قومه أن الله يكفبه أمرهم ؛ أي إن لم تنصروني فإني أنوكل على من ينصروني .

قوله تعالى : ﴿ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ﴾ قراءة العامة « فأجمعوا » بقطع الألف « وشركاءكم » بالنصب . وقرأ عاصم الجحدري « فأجمعوا » بوصل الألف وفتح الميم ؛ من جمع يجمع . « شركاءكم » بالنصب . وقرأ الحسن وابن أبي إسحاق وبقوب « فأجمعوا » بقطع الألف « شركاءكم » بالرفع . فاما القراءة الأولى من أجمع على الشيء إذا هزم عليه . وقال الفراء : أجمع الشيء أعده . وقال الموزج : أجمعت الأمر أفصح من أجمعت عليه . وأنشد :

بأبت شعري والمثي لا تنفع • هل أقفون يوما وأمرى يُجسَعُ

قال النحاس : وفي نصب الشركاء على هذه القراءة ثلاثة أوجه ؛ قال الكسائي والقراء : هو بمعنى وأدعوا شركاءكم لنصرتكم ؛ وهو منصوب عندهما على إسماعيل هذا الفعل . وقال محمد بن يزيد : هو معطوف على المعنى ؛ كما قال :

يأليت زوجه في الوغى • متقلداً سيفاً ورُمحاً

والرّيح لا يُتقلدُ ، إلا أنه محمول كالسيف . وقال أبو إسحاق الزجاج : المعنى مع شركائكم على تناصركم ؛ كما يقال : التقي الماء والخشبة . والقراءة الثانية من الجمع ، اعتباراً بقوله تعالى : « يَجْمَعُ كَيْدَهُ ثُمَّ آتَى » . قال أبو ماز : ويجوز أن يكون معنى جمع وأجمع بمعنى واحد ، « وشركاءكم » على هذه القراءة عطف على « أمركم » ، أو على معنى فاجمعوا أمركم واجمعوا شركاءكم ، زان شئت بمعنى مع . قال أبو جعفر النحاس : وسعت أبا إسحاق يحيز قام زيد وعمرأ . والقراءة الثالثة على أن يعطف الشركاء على المضمر المرفوع في أجمعوا ، وحسن ذلك لأن الكلام قد طال . قال النحاس وغيره : وهذه القراءة تبعده ؛ لأنه لو كان مرفوعاً لوجب أن تكتب بالواو ، ولم يرفى المصاحف وأوفى قوله « وشركاءكم » ، وأيضاً فإن شركاءهم الأصنام ، والأصنام لا تصنع شيئاً ولا فعل لها حتى تُجسِّع . قال المهدوي : ويجوز أن يرتفع الشركاء بالابتداء والخبر محذوف ، أي وشركاءكم ليجمعوا أمرهم ، ونسب ذلك إلى الشركاء وهي لا تسمع ولا تبصر ولا تميز على جهة التوبيخ لمن عبدها .

قوله تعالى : (ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُهُمْ عَلَيْهِمْ غَمَّةً) اسم يكن وخبها . وغمّة وغم سواء ، ومعناه التفتية ؛ من قولهم : غمّ الهلال إذا استترى ؛ أي ليكن أمركم ظاهراً منكشفاً فتتمكنون فيه مما شئتم ؛ لا تكن يغنى أمره فلا يقدر على ما يريد . قال طرفة :

لعمرك ما أمرى على بئمة • نهاري ولا ليلي على بئمة

الزجاج : غُفّة دافم ، والنم والنعمة كالكَرْب والكربة . وقيل . إن النعمة ضيق الأمر الذي
يوجب النعم فلا يتبين صاحبه لأمره مصدرا لينفزع عنه ما يُعْتَم . وفي الصحاح : والنعمة
الكربة . قال المصباح :

لو شهدت الناس إذ تُكْوَا^(١) . بِنِعْمَةٍ لَوْ لَمْ تُفْرَجْ عُشْوَا

يقال : أمرٌ غُفّة ، أى مُهمّ ملتبس ، قال تعالى : « ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً » . قال
أبو عبيدة : مجازها ظلمة وضيق . والنعمة أيضا : قمر النحر وغيره . قال غيره : وأصل هذا
كله مشتق من الغامة .

قوله تعالى : (ثُمَّ أَفْضُوا إِلَى وَلَا تَنْظُرُونَ) ألف « أفصوا » ألف وصل ، من قضى
بفضى . قال الأخفش والكسائي : هو مثل « وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ » أى أتيناه إليه
والمفناه إياه . وروى عن ابن عباس « ثم أفصوا إلى ولا تنظرون » قال : أمضوا إلى
ولا تؤخرون . قال النحاس : هذا قول صحيح في اللغة ؛ ومنه : قَضَى المِيت أى مضى .
وأعلمهم بهذا أنهم لا يصلون إليه ، وهذا من دلائل النبوات . وحكى الفراء عن بعض القراء
« ثم أفصوا إلى » بالفاء وقطع الألف ، أى توجهوا ، يقال : أنفضت الخلافة إلى فلان ،
وأفصى إلى الوجع . وهذا إخبار من الله تعالى عن نبيه نوح عليه السلام أنه كان ينصر الله
واتقا ، ومن كيدهم غير خائف ؛ يعلمنا منه بأنهم وآلهتهم لا يتفعون ولا يضرون . وتغزى لنيه
صلى الله عليه وسلم وتقوية لقلبه .

قوله تعالى : فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ مَّا سَأَلْتُمْ مِنْ آبِحِرٍ إِنْ آبِحِرَى إِلَّا عَلَى
اللَّهِ وَأَمَرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٧٦﴾

قوله تعالى : (فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَسْأَلُكُمْ مِنْ أَمْرِ إِبْرَاهِيمَ) أى إن أمرضتم عما جئكم به فليس ذلك لأنى سألتكم إبراهيم فبقل عليكم مكافأتى . (إِنْ أُجِرَى إِلَّا عَلَى اللَّهِ) فى تبليغ رسالته . (وَأَيُّسِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ) أى الموحدين لله تعالى . فتح أهل المدينة وأبو عمرو وابن عامر وحفص ياء « اجرى » حيث وقع ، واسكن الباقون .

قوله تعالى : فَكَذَّبُوهُ فَجَعَلْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي أُلْفِكَ وَجَعَلْنَاهُمْ خُلَفَاءَ وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَاَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْذَرِينَ ﴿٦٥﴾

قوله تعالى : (فَكَذَّبُوهُ) بنى نوحا . (فَجَعَلْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ) أى من المؤمنين . (فِي أُلْفِكَ) أى السفينة ، ومبائى ذكرها . (وَجَعَلْنَاهُمْ خُلَفَاءَ) أى سكان الأرض وحفّا ممن غيرى . (فَاَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْذَرِينَ) بنى أحرار الذين أنذرهم الرسل فلم يؤمنوا .

قوله تعالى : ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا إِلَى قَوْمِهِمْ بِخَاءُؤُهُمْ وَالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا وَمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبِئُ عَلَى قُلُوبِ الْمُتَعَسِّدِينَ ﴿٦٦﴾

قوله تعالى : (ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ) أى من بعد نوح . (رَسُولًا إِلَى قَوْمِهِمْ) كهود وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب وغيرهم . (بِخَاءُؤُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ) أى بالمعجزات . (فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا وَمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ) التقدير : بما كذب به قوم نوح من قبل . وقيل : « بما كذبوا به من قبل » أى من قبل يوم النور ، فإنه كان فيهم من كذب بقلبه وإن قال الجميع بلى . قال النحاس : ومن أحسن ما قيل فى هذا أنه لقوم بإعائهم ، مثل « أنذرتم أم لم تنذرهم لا يؤمنون » . (كَذَلِكَ نَطْبِئُ) أى نختم . (عَلَى قُلُوبِ الْمُتَعَسِّدِينَ) أى المجاوزين الحجة فى الكفر والتكذيب فلا يؤمنوا . وهذا يرد على القدرة قولهم كأنهم .

قوله تعالى : ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ
بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾

قوله تعالى : ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم﴾ أى من بعد الرسل والائمة . (مُوسَى وَهَارُونَ .
إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ) أى اشراف قومه . (بِآيَاتِنَا) يريد الآيات التسع ؛ وقد تقدم ذكرها .
(فَاسْتَكْبَرُوا) أى عن الحق . (وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ) أى مشركين .

قوله تعالى : فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ
مُبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسْحَرُ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ
السَّاحِرُونَ ﴿٧٧﴾

قوله تعالى : ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا﴾ يريد فرعون وقومه . (قَالُوا إِنَّ هَذَا
لَسِحْرٌ مُّبِينٌ) حملوا المعجزات على السحر . قال لهم موسى (أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسْحَرُ
هَذَا) قيل : فى الكلام حذف ، المعنى : أنقولون للحق هذا سحر . فـ«أقولون» إنكار وقولهم
محذوف أى هذا سحر ، ثم استأنف إنكاراً آخر من قبله فقال أسحر هذا ! . فحذف قولهم الأول .
اكتفاءً بالثانى من قولهم ، منكر على فرعون وملئه . وقال الأخفش : هو من قولهم ، ودخلت
الألف . كناية لقولهم ، لأنهم قالوا أسحر هذا . فقيل لهم : أنقولون للحق لما جاءكم أسحر
هذا ؛ وروى عن الحسن . (وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ) أى لا يفلح من أتى به .

قوله تعالى : قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَكَ عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَكُنُوزُ
كَأَكْبَرِيَاءٍ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا أَجِئْنَا لِنُلْقِيَ فِي أَهْلِ بَيْتِهِ إِذَا لَوْاهِ وَصْرَفَهُ . قَالَ الشَّاعِرُ :

نَلَقْتُ نَحْسَ الْحَيِّ حَتَّى رَأَيْتُنِي . وَجِئْتُ مِنَ الْإِسْهَاءِ لِيَأْخُذَنِي

وَمِنْ هَذَا أَلْفَتْ إِنَّمَا هُوَ عَدْلٌ عَنِ الْجَهَةِ الَّتِي بَيْنَ يَدَيْهِ . ﴿ زَعَمًا وَجَدْنَا عَلَيْهِ أَلْمَامًا ﴾ يريد من عبادة الأصنام . ﴿ وَتَكُونُ لَكُمْ أَلِكِبْرِيَاءُ ﴾ أى العظمة والملك والسفطان . ﴿ فِي الْأَرْضِ ﴾ يريد أرض مصر . وَيُقَالُ لِلْكَأْ كِبْرِيَاءَ لِأَنَّهُ أَعْظَمُ مَا يَطْلُبُ فِي الدُّنْيَا . ﴿ وَمَا نَحْنُ لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ وفرا بن مسعود والحسن وغيرهما « ويكون » بالياء لأنه تائب غير حقيق وقد فصل بينهما . وحكى سيبويه : حضر القاضي اليوم أمرانان .

قوله تعالى : وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتُنَبِّئُنِي بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٍ ﴿٧٨﴾

إنما قاله لما رأى العصا والبدر البيضاء واعتقد أنهما سحر . وقرأ حمزة والكسائي وابن وثاب والأعمش « سحر » . وقد تقدم في الأعراف القول فيها .

قوله تعالى : فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ ﴿٨٠﴾

أى اطرحوا على الأرض ما معكم من جبالكم وعصاكم . وقد تقدم في الأعراف القول في هذا مستوفى .

قوله تعالى : فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السَّحَرُ إِنَّ اللَّهَ سَابِقُ الْعَذَابِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾

(١) البيت لصحة التشديد . والأصنام . الجبل . والبيت (بالكسر) . صفة الحق . والأندلس . عرق في صفة الحق .

(٢) راجع ج ٧ ص ٢٥٧ وما بعدها طبعه أول أو ثانية .

قوله تعالى : ﴿ مَا أَتَوْا قَالَ مَوْسَىٰ مَا جِئْتُمْ بِهِ السَّحَرُ ۖ تَكُونُ ۚ مَا ۚ ﴾ في موضع رفع بالابتداء ، والخبر « جئتم به » ، والتقدير : أي شيء جئتم به ، على التوبيخ والتصغير لما حووا به من السحر . وقراءة أبي عمرو « آلسحر » على الاستفهام على إختار مبتداً والتقدير أمو السحر . ويجوز أن يكون مبتداً والخبر محذوف ، التقدير : السحر جئتم به . ولا تكون « ما » على قراءة من استفهم بمعنى الذي ، إذ لا خبر لها . وقرأ الباقون « السحر » على الخبر ، ودليل هذه القراءة قراءة ابن مسعود « ما جئتم به سحر » . وقراءة أبي « ما أتيتهم به سحر » ، فدحا بمعنى الذي ، و « جئتم به » الصلة ، وموضع « ما » رفع بالابتداء ، والنجر خبر الابتداء . ولا تكون « ما » إذا جمعتهما بمعنى الذي نصبا لأن الصلة لا تعمل في الموصول . وأجاز الفراء نصب السحر بنظم ، وتكون ما للشرط ، وجئتم في موضع جزم بما وألفاء محذوفة ، التقدير : فإن الله سيطله . ويجوز أن ينصب السحر على المصدر ، أي ما جئتم به سحرا ، ثم دخلت الألف واللام زائدين ، فلا يحتاج على هذا التقدير إلى حذف الفاء . واختار هذا القول النحاس ، وقال : حذف الفاء في المجازة لا يجره كثير من النحويين إلا في ضرورة الشعر ، كما قال :

• من يفعل الحسنات الله يشكرها •

بل ربما قال بعضهم : إنه لا يجوز البتة . وسمعت علي بن سليمان يقول : حدثني محمد ابن يزيد قال حدثني المازني قال سمعت الأصمعي يقول : غير النحويون هذا البيت ، وإنما الرواية

• من يفعل الخير فالرحمن يشكره •

وسمعت علي بن سليمان يقول : حذف الفاء في المجازاة جائز . قال : والدليل على ذلك «وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كُنْتُمْ آيْدِيكُمْ» . وما أصابكم من مصيبة بما كسبت أيديكم . فقرأتان مشهورتان معروفتان . (وَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي السَّحَرَاءَ) يعني السحر . قال ابن عباس : من أخذ مضجعه من الليل ثم تلا هذه الآية «ما جئتم به السحر إن الله سيطيئه إن الله لا يصلح عمل المفسدين» لم يضره كيد ساحر . ولا تكتب على مسحور إلا دفع الله عنه السحر .

قوله تعالى : وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨٧﴾
 قوله تعالى : (وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ) أى بينه وبوضحه . (وَيَكَلِّمُهُ) أى بكلامه وحججه
 وبراهينه . وقيل : بعداته بالنصر . (وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ) من آل فرعون .

قوله تعالى : فَآمَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةً مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ
 مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ
 لِمَنَ الْأُسْرِفِينَ ﴿٨٨﴾

قوله تعالى : (فَآمَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةً مِّن قَوْمِهِ) الهاء غائدة على موسى . قال مجاهد :
 أى لم يؤمن منهم أحد ، وإنما آمن أولاد من أرسل موسى إليهم من بنى اسرائيل ، لطول
 الزمان هلك الآباء وبقي الأبناء فأمنوا ، وهذا اختيار الطبرى . والذرية أعقاب الإنسان ،
 وقد تكثر . وقيل : أراد بالذرية مؤمنى بنى اسرائيل . قال ابن عباس : كانوا ستمائة ألف ،
 وذلك أن يعقوب عليه السلام دخل مصر فى اثنين وسبعين إنسانا فتوالدوا بمصر حتى بلغوا
 ستمائة ألف . وقال ابن عباس أيضا : « من قومه » يعنى من قوم فرعون ، منهم مؤمن
 آل فرعون وخازن فرعون وأمرأته وماشطة أبنته وامرأة خازنه . وقيل : هم أقوام آبائهم
 من القبط ، وأمهايتهم من بنى اسرائيل فسموا ذرية كما يسمى أولاد الفرس الذين توالدوا
 باليمن و بلاد العرب الأبناء ، لأن أمهايتهم من غير جنس آبائهم ، قاله الفراء . وعلى هذا فالكتابة
 فى « قومه » ترجع إلى موسى للقرابة من جهة الأمهايت ، وإلى فرعون إذا كانوا من القبط .

قوله تعالى : (عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ) لأنه كان مسلطا عليهم عاتيا . (وَمَلَئِهِمْ)
 ولم يقل ولته ، وعنه ستة أجوبة : أحدها - أن فرعون لما كان جارا أخبر عنه بفعل
 الجميع . الثانى - أن فرعون لما ذكر علم أن معه غيره ، فعاد الضمير عليه وعليهم ، وهذا
 أحد قولى الفراء . الثالث - أن تكون الجماعة سميت بفرعون مثل نود . الرابع - أن يكون
 التقدير : على خوف من آل فرعون ، فيكون من باب حذف المضاف مثل « واسئل القرية » ،

وهو القول الثاني للفزاء . وهذا الجواب على مذهب سبويه والحليل خطأ ، لا يجوز عدها قامت هند ، وأنت تريد فلامها . الخامس - مذهب الأخفش سعيد أن يكون الضمير يعود على الذرية ، أى ملا الذرية ، وهو اختيار الطبرى . السادس - أن يكون الضمير يعود على قومه . قال الحاس : وهذا الجواب كأنه ألفها . (أَنْ يَقْنِئَهُمْ) وحده « بفتحهم » على الإخبار عن فرعون ، أى يصرفهم عن دينهم بالعقوبات ، وهو فى موضع خفض على أنه بدل اشتمال . ويجوز أن يكون فى موضع نصب بـ « حَوْف » . ولم ينصرف فرعون لأنه اسم أعجمى وهو معرفة . (وَإِنْ فِرْعَوْنُ لَمَّا لِي فِي الْأَرْضِ) أى عاتى متكبر . (وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ) أى المجاوزين الحد فى الكفر ، لأنه كان عبداً فادعى الربوبية .

قوله تعالى : وَقَالَ مُوسَى يَلْقَوْمُ إِنْ كُنْتُمْ ءَامَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ ﴿٤١﴾ فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٢﴾

قوله تعالى : (وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ ءَامَنْتُمْ) أى صدقتم . (بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا) أى اعتمدوا . (إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ) كمر الشرط تأكيداً ، وبين أن كمال الإيمان بتفويض الأمر إلى الله . (فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا) أى أسلمنا أمورنا إليه ، ورضينا بقضائه وقدره ، وأنهبنا إلى أمره . (رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) أى لا تنصرهم علينا ، فيكون ذلك فتنة لنا عن الدين ، أولاً تمنحنا بأن نعذبنا على أيديهم . وقال مجاهد : المعنى لا تهلكنا بأيدي أعدائنا ، ولا تعذبنا بعداب من عندك ، فيقول أعداؤنا لو كانوا على حق لم نسلط عليهم ؛ فبُعثوا . وقال أبو بحر وأبو الصحا : يعنى لا تظهرهم علينا فيروا أنهم حبر منا فيزدادوا طغياناً .

قوله تعالى : وَبِحَنٍّ بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٤٣﴾

قوله تعالى : (وَبِحَنٍّ بِرَحْمَتِكَ) أى حلصنا (مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ) أى من فرعون وقومه ؛ لأنهم كانوا يأخذونهم بالأعمال الشاقة .

قوله نال : وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكَ مِمَّصَرَّ يَبُوتًا
وَأَجْعَلُوا يَبُوتَكُمْ قِبْلَةً وَاقِيمُوا الصَّلَاةَ وَابْتَئِرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكَ مِمَّصَرَّ يَبُوتًا ﴾ فيه خمس مسائل :

الأولى - قوله تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا ﴾ أى آتَيْنَا . ﴿ لِقَوْمِكَ مِمَّصَرَّ يَبُوتًا ﴾ يقال : بَوَّأت زيدا مكانا ، وبَوَّأت لزيد مكانا . والمبَوَّأ المنزل المأزوم ؛ ومنه بَوَّأه الله منزلا ، أى أَرزَمه إياه وأَسكنه ؛ ومنه الحديث : " من كَذَبَ عَلَىٰ مُتَعَمِّدٍ فَلْيَبُوتَا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ " قال الرازي :

نحن بنو عدنان ليس شك • شِئُوا المجد بنا والملك

ومصر في هذه الآية هي الإسكندرية ؛ في قول مجاهد . وقال الضحاك : إنه البلد المسمى مصر ، ومصر ما بين البحر إلى أسوان ، والإسكندرية من أرض مصر :

الثانية - قوله تعالى : ﴿ وَأَجْعَلُوا يَبُوتَكُمْ قِبْلَةً ﴾ قال أكثر المفسرين : كان بنو إسرائيل لا يصلُّون إلا في مساجدهم وكائسهم وكانت ظاهرة ، فلما أُرسل موسى أمر فرعون بمساجد بني إسرائيل فخرَّب كلها ومنعوا من الصلاة ؛ فأوحى الله إلى موسى وهارون أن اتَّخِذُوا وَتَحِيْرًا ابْنِي إِسْرَائِيلَ يَبُوتًا مِمَّصَرَّ ، أى مساجد ، ولم يرد المنازل المسكونة . هذا قول إبراهيم وآبن زيد والزيَّع وآبى مالك وآبن عباس وغيرهم . وروى عن ابن عباس وسعيد بن جبير أن المعنى : واجعلوا يَبُوتَكُمْ يقابل بعضها بعضا . والقول الأول أصح ؛ أى اجعلوا مساجدكم إلى القبلة ؛ قيل : بيت المقدس ، وهي قبلة اليهود إلى اليوم ؛ قاله ابن بحر . وقيل الكعبة . عن ابن عباس قال : وكانت الكعبة قبلة موسى ومن معه ، وهذا يدل على أن القبلة في الصلاة كانت شرعا لموسى عليه السلام ، ولم تغل الصلاة عن شرط الطهارة وسر العورة واستقبال القبلة ؛ فإن ذلك المبلغ في التكليف وأوفر للعبادة . وقيل : المراد صلُّوا في يَبُوتَكُمْ سرا لأنتموا ؛ وذلك حين أخافهم فرعون فأمرهم بالصبر واتَّخَذَ المساجد في البيوت ، والإقدام

عل الصلاة ، والنداء إلى أن يجبر الله وعده ، وهو المراد بقوله : « قال موسى لِقَوْمِهِ أَتُمِيتُونَا وَتُحْيُونَ أَمْ يَحْيُوا » الآية . وكان من بينهم أنهم لا يصلون إلا في السج والكناس ما داموا على أمن ، فإذا خافوا قد أذن لهم أن يصلوا في بيوتهم . قال ابن العربي : والأول أظهر القولين ؛ لأن الثاني دعوى .

قلت : قوله « دعوى » صحيح ؛ فإن في الصحيح قوله عليه السلام : « حملت لي الأرض مسجداً وطهوراً » وهذا لما حُص به دون الأعياء ؛ فحين يجمد الله بطنى والمسجد والبيوت ، وحيث أدركتنا الصلاة ؛ إلا أن النافلة في المنازل أفضل منها في المسجد ، حتى الركوع قبل الجمعة وبعدها . وقيل الصلوات المفروضة وبعدها ؛ إذ الواجب يحصل فيها الرياء ، والفرائض لا يحصل فيها ذلك ، وكلما خَلَص العمل من الرياء كان أوزن وأزلب عند الله سبحانه وتعالى . روى مسلم عن عبد الله بن شقيق قال : سألت عائشة عن صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم عن تطوعه قالت : كان يصلى في بيتي قبل الظهر أربعاً ، ثم يخرج فيصل بالناس ، ثم يدخل فيصل ركعتين ، وكان يصلى بالناس المغرب ، ثم يدخل فيصل ركعتين ، ثم يصلى بالناس العشاء ، ويدخل بيتي فيصل ركعتين ... الحديث . وعن ابن عمر قال : صليت مع النبي صلى الله عليه وسلم قبل الظهر بمجدين وبعدها بمجدين وبعدها المغرب بمجدين ؛ فإما المغرب والعشاء والجمعة فصلت مع النبي صلى الله عليه وسلم في بيته . وروى أبو داود عن كعب بن عُجرة أن النبي صلى الله عليه وسلم أتى مسجد بني الأشهل فصل في المغرب ؛ فلما قضوا صلاتهم وأمر يسبحون بعدها فقال : « هذه صلاة البيوت » .

الثالثة — واختلف العلماء من هذا الباب في قيام رمضان ، هل إقامته في البيت أفضل أو في المسجد ؟ فذهب مالك إلى أنه في البيت أفضل لمن قوى عليه ، وبه قال أبو يوسف وبعض أصحاب الشافعي . وذهب ابن عبد الحكم وأحمد وبعض أصحاب الشافعي إلى أن حضورها في الجماعة أفضل . وقال الليث : لو قام الناس في بيوتهم ولم يقيم أحد في المسجد

لا ينبغي أن يخرجوا إليه . واجبة لمسالك ومن قال بقوله صلى الله عليه وسلم في حديث زيد بن ثابت : " فليكن بالصلاة في بيوتكم فإن خير صلاة المرء في بيته إلا المكتوبة " خرجه البخاري . احتج المخالف بأن النبي صلى الله عليه وسلم قد صلاها في الجماعة في المسجد ، ثم أخبر بالمساج التي منع منه على الدوام على ذلك ، وهو خشية أن يفرس عليهم فذلك قال لهم : " فليكن بالصلاة في بيوتكم " . ثم إن الصحابة كانوا يصلونها في المسجد أو زوا متفرقين ، لك أن جمعهم عمر على قارى واحد فاستقر الأمر على ذلك وثبت سنة .

الرابعة - وإذا نزلنا على أنه كان أيسر لهم أن يصلوا في بيوتهم إذا خافوا على أنفسهم مستند به على أن المنفور بالخوف وغيره يجوز له ترك الجماعة والجمعة . والعذر الذي يبيح له ذلك المرض الخايب ، أو خوف زيادته ، أو خوف جور السلطان في مال أو بدن دون القضاء عليه بحق . والمطر الوابل مع الوحل عذر إن لم ينقطع ، ومن له ولي حميم قد حضرته الوفاة ولم يكن عنده من يرضه ؟ وقد صل ذلك ابن عمر .

الخامسة - قوله تعالى : (وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ) قبل : الخطاب لمحمد صلى الله عليه وسلم . وقيل لموسى عليه السلام ، وهو أظهر ، أي بشر بني إسرائيل بأن الله سيظهرهم على مسلمهم .

قوله تعالى : وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٥٥﴾ قوله تعالى : (وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ) « آتيت » أي أعطيت . (زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) أي مال الدنيا ، وكان لهم من فسطاط مصر إلى أرض الحبشة حبال فيها معادن الذهب والفضة والزرجد والزمرد والياقوت .

قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا يُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ ﴾ اختلف في هذه اللام ، وأصح ما قيل فيها - وهو قول الخليل وسيبويه - أنها لام العاقبة والصدورة ؛ وفي الخبر " إن لله تعالى ملكا ينادي كل يوم لِدُورِ الموت وابنوا الخراب " . أى لما كان عاقبة أمرهم إلى الضلال صار كأنه أعطاهم لِيضِلُّوا . وقيل : هي لام كن ، أى أعطيتهم لكي يضلوا ويقتروا ويتكبروا . وقيل : هي لام أجل ، أى أعطيتهم لأجل إعراضهم عنك فلم يخافوا أن تعرض عنهم . وزعم قوم أن المعنى : أعطيتهم ذلك لكلا يضلوا ، خذفت لاء كما قال عز وجل : ﴿ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا ﴾ . والمعنى : لكلا تضلوا . قال النحاس : ظاهر هذا الجواب حسن ، إلا أن العرب لا تخفف « لا » إلا مع أن ؛ فوه صاحب هذا الجواب بقوله عز وجل « أن تضلوا » . وقيل : اللام للدعاء ، أى أبتلهم بالضلال عن سبيلك ؛ لأن بعده « أطمس على أموالهم وأشدد » . وقيل : الفعل معنى المصدر أى إضلالهم ؛ كقوله عز وجل « لئترضوا عنهم » . قرأ الكوفيون « لِيُضِلُّوا » بضم الياء من الإضلال ، وفتحها بالفاء .

قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا أَطْمَسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ ﴾ أى عاقبهم على كفرهم بإهلاك أموالهم . قال الزجاج : طَمَسَ الشيء إذا هابه عن صورته . قال ابن عباس وشهد بن كعب : صارت أموالهم ودرامهم حجارة متفوشة كهيئة حجاج وأثلاثا وأنصافا ، ولم يبق لهم مدد إلا طمس الله عليه فلم ينفع به أحد بعد . وقال قتادة : بلغنا أن أموالهم وزروعهم صارت حجارة . وقال مجاهد وعطية : أهلكها حتى لا ترى ؛ يقال : عين مطموسة ، وطمس الموضع إذا عفا ودرس . وقال ابن زيد : صارت دنائيرهم ودرامهم ومرشهم وكل شيء لهم حجارة . شهد ابن كعب : وكان الرجل منهم يكون مع أهله وفراشه وقد صاروا حجرين ؛ قال : وصالي عمر بن عبد العزيز ذكرت ذلك له فدعا بخريطة أصيبت بمصر فأخرج منها الفواكه والدرام والدنانير وإنها حجارة . وقال السدي : وكانت إحدى الآيات التسع « وأشدد على قلوبهم » . قال ابن عباس : أى اسمعهم الإيمان . وقيل : فسأ وأطمع عليها حتى لا تنزع للإيمان ؛ والمعنى

واحد - (فَلَا يُؤْمِنُوا) قيل : هو عطف على قوله « ليضلوا » أى آتيتهم العم ليضلوا ولا يؤمنوا ،
قاله الزجاج والمبرد . وعلى هذا لا يكون فيه من معنى الدعاء شئ . وقوله « ربنا اطمس ،
واشدد » كلام معتز . وقال الفراء والكشاف وأبو عبيدة : هو دعاء ، فهو فى موضع جزم
عندهم ، أى اللهم فلا يؤمنوا ، أى فلا آمنوا . ومنه قول الأعشى :

فلا ينسط من بين عينك ما أتروى • ولا تلقى إلا وأنتك راغم

أى لا أنسط . ومن قال « ليضلوا » دعاء - أى ابتلهم بالصلال - قال : عطف عليه
« فلا يؤمنوا » . وقيل : هو فى موضع نصب لأنه جواب الأمر . أى واشدد على قلوبهم
فلا يؤمنوا . وهذا قول الأحفش والفراء أيضا ، وأشد الفراء :

ياناق سبرى عتقا فسيحا • إلى سليمان فستريحا

فصل هذا حذف النون لأنه منصوب - (تَحَى يَرُو الْقَدَابَ الْأَلِيمَ) قال ابن عباس : هو
الفرق . وقد استشكل بعض الناس هذه الآية فقال : كيف دعا عليهم وحكم الرسل استدعاء
إيمان قومهم ، فالجواب أنه لا يحسب أن يدعو نبي على قومه إلا بإذن من الله ، وإعلام أنه
ليس فيهم من يؤمن ولا يخرج من أصلابهم من يؤمن ، دليله قوله لنوح عليه السلام : « أنه
لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن » وعند ذلك قال : « رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنْ
السَّكَافِرِينَ دِيَارًا » . والله أعلم .

قوله تعالى : قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَجِبَا وَلَا تَلْبِسَا سَبِيلَ

الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾

قوله تعالى : (قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا) قال أبو العالية : دعا موسى وأمن هارون ،
وقد آمن على الدعاء داعيا . التأمين على الدعاء أن يقول آمين ، فقولك آمين دعاء ، أى رب

استجب لي . وقيل : دعا هارون مع موسى أيضا . وقال أهل المعاني : ربما خاصبت العرب الواحد بخطاب الاثنين ، قال الشاعر :

فكنت لصاحبي لا تُجيبنا • بترع أصوله فأجتر بيننا

وهذا على أن آمين ليس بدعاء ، وأن هارون لم يدع . قال النحاس : سمعت علي بن سليمان يقول : الدليل على أن الدعاء لما قول موسى عليه السلام « وينا » ولم يقل رب . وقرأ علي والسُّلَمِيُّ « دعوا نكاحا » بالجمع . وقرأ ابن السَّمِيعِ « أجبت دعوتكما » خبرا عن الله تعالى ، ونصب دعوة بعده . وتقدم القول في « آمين » في آخر الفاتحة مستوف . وهو مما خص به نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وهارون وموسى عليهما السلام . روى أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ^١ « إن الله قد أعطى أتتى ثلاثا لم تُعط أحدًا قبلهم السلام وهي تحية أهل الجنة وصفوف الملائكة وآمين إلا ما كان من موسى وهارون » ذكره الترمذي الحكيم في نوادر الأصول . وقد تقدم في الفاتحة .

قوله تعالى : (فَاسْتَجِبْ) قال الفراء وغيره : أمر بالاستقامة على أمرها والثبات عليه من دعاء فرعون وقومه إلى الإيمان ، إلى أن يأتيها ناوليل الإجابة . قال محمد بن علي وابن جرير : مكث فرعون وقومه بعد هذه الإجابة أربعين سنة ثم أهلكوا . وقيل : « استجب » أي على الدعاء ، والاستقامة في الدعاء ترك الاستعجال في حصول المقصود ، ولا يسقط الاستعجال من القلب إلا باستقامة السكينة فيه ، ولا تكون تلك السكينة إلا بالرضا الحسن لجميع ما يبدو من النيب . (وَلَا تَبْتَغِ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَحْسَبُونَ) بتشديد النون في موضع جزم على النهي ، والنون للتوكيد وحركت لالتقاء الساكنين واختير لها الكسر لأنها أشبهت نون الكسبيين . وقرأ ابن ذكوان بتخفيف النون على النني . وقيل : هو حال من استقيا ، أي استقيا غير متبين ، والممنى لا تسلكا طريق من لا يعلم حقيقة وعدى ووعدى .

قوله تعالى : وَجُوزْنَا بِدِينِ إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ
بَغْيًا وَعَدُوا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ ءَاصِنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي
ءَاصِنْتُ بِهِ بَنُوا إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩﴾

قوله تعالى : (وَجُوزْنَا بِدِينِ إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ) تقدم القول فيه في « البقرة » في قوله
« وَلَئِذَا فَرَغْتَ بِكُمُ الْبَحْرَ » . وقرا الحسن « وجوزنا » وما لفتان . (فَأَتَبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ)
يقال : تبع وتبع بمعنى واحد ، إذا لحقه وأدركه . وأنشع (بالتشديد) إذا سار خلفه . وقال
الأصمعي : أتبعه (بقطع الألف) إذا لحقه وأدركه ، وأتبعه (بوصل الألف) إذا أتبع أثره ،
أدركه أو لم يدركه . وكذلك قال أبو زيد . وقرا قتادة « فأتبعهم » بوصل الألف . وقيل :
« أتبعه » (بوصل الألف) في الأمر اقتدى به . وأتبعه (بقطع الألف) خيرا أو شرا ؛ هذا قول
أبي عمرو . وقد قيل هما بمعنى واحد . فخرج موسى بنى إسرائيل وهم سائة ألف وعشرون ألفا ،
وتبعه فرعون مَصِيبًا في ألفي ألف وسبعمائة ألف . وقد تقدم . (بَغْيًا) نصب على الحال .
(وَعَدُوا) معطوف عليه ، أى في حال بغي واعتداء وظلم ؛ يقال : هذا يعدو عدواً ، مثل غزا يغزو
غزواً . وقرا الحسن « وعدوا » بهم الدين والبال وتشديد الواو ؛ مثل علا يملو علواً . وقال
المفسرون : « بغيا » طلبا للاستعلاء بغير حق في القول ، « وعدوا » في العمل ؛ فهما نصب على
المفعول له . (حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ) أى ناله ووصله . (قَالَ ءَاصِنْتُ) أى صدقت . (أَنَّهُ)
أى بانه . (لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آتَتْ بِهِ بَنُوا إِسْرَءِيلَ) فلما حذف الخافض تعدى الفعل منصوب .
وقرى بالكسر ؛ أى صرت مؤنثا غم استأنف . وزعم أبو حاتم أن القول عذوف ، أى أمنت
قلت إنه ، والإيمان لا ينفع حينئذ ؛ والتوبة مقبولة قبل رؤية البأس ، وأما بعدها وبعد
المخالطة فلا تغيل ، حسب ما تقدم في « النساء » . بيانه . ويقال : إن فرعون هاب دخول

(٢) راجع ١ ص ٢٨٧ طبة ثانية أو تالثة .

(١) راجع ١ ص ٢٨٧ طبة ثانية أو تالثة .

(٢) راجع ١ ص ٢٨٧ طبة ثانية أو تالثة .

البحر وكان على حصان آدم ولم يكن في خيل فرعون فرس أتى ؛ بلقاء جبريل على فرس ويدق
 — أى شبي — في صورة هامان وقال له : تقدم ، ثم خاض البحر فقبعا حصان فرعون ،
 وميكائيل بسوقهم لا يسد منهم أحد ؛ فلما صار آخرهم في البحر وهم أولم أن يخرج أطلق
 عليهم البحر ، وألهم فرعون الفرق فقال : آمنت بالذي آمنت به بنو إسرائيل ؛ فدى جبريل
 في فمه حال البحر . وروى الترمذي عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " لما
 أغرق الله فرعون قال آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل قال جبريل يا محمد فلو
 رأيته وأنا أخذ من حال البحر فأدسه في فيه غائبة أن تذكره الرحمة " . قال أبو عيسى ،
 هذا حديث حسن . حال البحر : الطين الأسود الذي يكون في أرضه ؛ قاله أهل اللغة . وعن
 ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه ذكر : " أن جبريل جعل يدس في في فرعون
 الطين خشية أن يقول لا إله إلا الله فيرحمه الله أو خشية أن يرحمه " . قال : هذا حديث حسن
 ضريب صحيح . وقال عون بن عبد الله : بلغني أن جبريل قال للنبي صلى الله عليه وسلم ما ولد
 إبليس أبغض إلى من فرعون ، فإنه لما أدركه الفرق قال « آمنت » الآية ، فخشيت أن يقولها
 فيرحم ، فأخذت تربة أو طينة فخشوتها في فيه . وقيل : إنما فعل هذا به عقوبة له على عظيم
 ما كان يأتي . وقال كعب الأحبار : أمسك الله نيل مصر عن البحر في زمانه ، فقالت له
 القبط : إن كنت ربنا فأجرنا الماء ؛ فركب وأمر بجنوده فأندأ فأندأ وجعلوا يفتنون على
 درجاتهم وفتنوا حيث لا يرونه وتزل عن دابته وليس ثيابا له أخرى ومجد وتضرع لله تعالى
 فأجرى الله له الماء ، فأناه جبريل وهو وحده في هيئة مستفتت وقال : ما يقول الأسير
 في رجل له عبد قد نسا في نعمته لاستدله فيه ، فكفر بيمينه وبمجد حقه وأدعى السيادة بونه ؛
 فكذب فرعون : يقول أبو المباس الوليد بن مصعب بن الريان جزاءه أن يترك في البحر ؛
 فأخذ جبريل ومرة فلما أدركه الفرق ناوله جبريل عليه السلام خطه . وقد مضى هذا
 في « البقرة » عن عبد الله بن عمرو بن المباس وابن عباس مسندا ؛ وكان هذا في يوم عاشوراء
 حل ما تقدم بيانه في « البقرة » أيضا فلا معنى للإعادة .

قوله تعالى : ﴿ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ أى من الموحدین المستسلمين بالانقياد والطاعة .

قوله تعالى : ﴿ الْفِتْنِ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾

قيل : هو من قول الله تعالى . وقيل هو من قول جبريل . وقيل ميكائيل ، صلوات الله عليهم ، أو غيرها من الملائكة صلوات الله عليهم . وقيل : هو من قول فرعون في نفسه ، ولم يكن ثم قول باللسان بل وقع ذلك في قلبه فقال في نفسه ما قال حيث لم تنفعه الندامة ، ونظيره « إِنَّا نَطْلِمُكَ لِوَجْهِ اللَّهِ » أى عليهم الرب بما في ضميرهم لا أنهم قالوا ذلك بلغظهم ، والكلام الحقيق كلام القلب .

قوله تعالى : ﴿ قَالَتِ يَوْمَ تَحْيَاكَ يَبْدَنُكَ لَتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً وَإِنْ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنِ أَيْلَانًا لَّغَفْلُونَ ﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالَتِ يَوْمَ تَحْيَاكَ يَبْدَنُكَ ﴾ أى تليق على نجوة من الأرض . وذلك أن بني إسرائيل لم يصدقوا أن فرعون غرق ، وقالوا : هو أعظم شأنا من ذلك ، فالفاه الله على نجوة من الأرض ، أى مكان مرتفع من البحر حتى شاهدوه . قال أوس بن حجر يصف مطرا :
فَرَأَى بِقُوَّتِهِ كُنْ بِتَجَسُّوْتِهِ • وَالتَّسْتَكُنْ كُنْ يَتَنَّى بِفُرُوجِ

وفرا الزيدى وابن السبتيق « تفبك » بالهاء من التنجية ، وحكاها علقمة عن ابن مسعود ؛ أى تكون على ناحية من البحر . قال ابن جريح : فرى به على ساحل البحر حتى رآه بنو إسرائيل ، وكان قصيرا أحمر كأنه ثور . وحكى طقمة عن عبد الله أنه فرأ « بدناك » من النداء . قال أبو بكر الأنباري : وليس بخالف لهواه مصحفنا ، إذ سبيله أن يكتب بياه وكاف بعد الدال ؛ لأن الألف تسقط من فداك في ترتيب خط المصحف كما سقطت من الظلمات والسموات . فإذا وقع بها الحذف استوى هجا بدك ونداك ، على أن هذه القراءة مرغوب عنها لشذوذها وخلافها ما عليه عامة المسلمين ؛ والقراءة سئة يأخفها آخر عن أول ، وفي معناها نقص عن

(١) للقرعة والطفة ؛ الساسة وما سول الدار والهة ؛ وجمعها قلد . والقرواح ؛ الأرض الهاربة للفسر .

زاول إسرائيل، إذ ليس فيها للدع ذكر، الذي تثابت الآثار بأن بني إسرائيل اختلوا في غربي فرعون، وسألو الله تعالى أن يرهم إياه غريقاً فلقوه على تجوة من الأرض يسدنه هو درعه التي يلبسها في الحروب. قال ابن عباس ومحمد بن كعب القرظي: وكانت درعه من لؤلؤ مغلوم. وقيل من الذهب وكان يعرف بها. وقيل من حديد؛ قاله أبو حنيفة. واليدن الدرع القصيرة. وأشد أبو عبيدة للأعنى:

ويضاء كاللّهي مؤؤونة • لما قوتس فوق جيب اليدن

وأشد أيضاً لمروين معد يركب:

ومضى نساؤهم بكل مفاضة • جدلاء سابتة بالأبدان^(١)

وقال كعب بن مالك:

نرى الأبدان فيها مسبات • على الأبطال واليِّب الحصينة

أراد بالأبدان الدروع، واليِّب الدروع الخالية، كانت تتخذ من الجلود يخرز بعضها إلى بعض؛ وهو اسم جلس الواحد يلبه. قال عمرو بن كلثوم:

ملينا اليِّص واليِّب إيماناً • وأسباب يقن ويتعيناً

وقيل: «بدنك» يحسد لا روح فيه؛ قاله مجاهد. قال الأخفش: وأما قول من قال بدرك فليس بشيء. قال أبو بكر: لأنهم لما ضرعوا إلى الله يسألونه مشاهدة فرعون غريقاً أبرزه لهم جسداً لا روح فيه، فلما رآه بنو إسرائيل قالوا نعم! يا موسى هذا فرعون وقد غرق؛ فخرج الشك من قلوبهم وأبطل البحر فرعون كما كان. فقل هذا «تحيك بدنك» احمل معنيين: أحدهما — تحريك على تجوة من الأرض. والثاني — نظهر جسدك الذي لا روح فيه. والقراءة الثالثة «بندالك» يرجع معناها إلى معنى قراءة الجماع؛ لأن النداء يفسر تفسيرين، أحدهما — تحريك بصياحك كلمة التوبة، وقولك بعد أن أخلق باباً ومضى

(١) البعاد: الدرع والهي (بالفتح والكسر)؛ كقوله وكل موضع يجتمع فيه الماء. والمؤؤونة: الدرع القصيرة. واللاؤنس: أمل يمتد في المدة. (٢) المفاضة (بضم الفاء): الدرع الواصلة. والجدلاء:

المرح المحكة تصح.

وقت قبولها « آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين » على موضع
وَفِيهِ . والآخر - فاليوم تنزلك عن عاصم البحر بذاتك لما قالت أنا ربكم الأعلى ؛ فكانت
تجنيه بالبدن معاقبة من رب السالمين له على ما قرط من كسره الذي منه نداه الذي أوتى
فيه ربهت ، وأدعى القدرة والأمر الذي يعلم أنه كاذب فيه وعاجز عنه وغير مستحق له . قل
أبو بكر الأنباري : فقرأنا لفضن ما في القراءة الشاذة من المعاني وتزید عليها .

قوله تعالى : (لَتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَ آيَةً) أى لى إسرائيل ولن ين من قوم فرعون
من لم يلدكه النوق ولم يسه إليه هذا الخبر . (وَإِنْ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَذَالُونَ)
أى معرضون عن تأمل آياتنا والتفكر فيها . وقرئ « لمن خَلَقَ » (بفتح اللام) ؛ أى لمن
بنى بحدك يخلقك فى أرضك . وقرأ علي بن أبى طالب « لمن خلقت » بالفاء ؛ أى تكون
آية لخالقك .

قوله تعالى : وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مَبُوءًا صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ
الطَّيِّبَاتِ مَا أَخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ
الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٣٧﴾

قوله تعالى : (وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مَبُوءًا صِدْقٍ) أى منزل صدق محمود بخسار ،
بمضى مصر . وقيل الأردن وفلسطين . وقال الضحاك : هى مصر والشام . (وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ
الطَّيِّبَاتِ) أى من الثمار وغيرها . وقال ابن عباس : يعنى قُرْبَطَةً والنَّضِيرَ وأهل عصر النبي
صل الله عليه وسلم بنى إسرائيل ؛ فانهم كانوا يؤمنون بحمد صل الله عليه وسلم وينظرون
خروجه ، ثم لما خرج حسدوه ؛ ولذا قال : (مَا أَخْتَلَفُوا) أى فى أمر محمد صل الله عليه
وسلم . (حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ) أى القرآن وعهد صل الله عليه وسلم . والعلم يعنى المعلوم ؛ لأنهم
كانوا يعلمونه قبل خروجه ؛ قاله ابن جرير الطبري . (إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ) أى يحكم بينهم
وفصل . (يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ) فى الدنيا ، فينبى الطائع وبغاب العاصي .

قوله تعالى : فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍ مِمَّا أُنزِلْنَا إِلَيْكَ فَسْئَلِ الَّذِينَ
يُقرءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ
مِنَ الْمُتَمَرِّينَ ﴿١١﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِبَيِّنَاتٍ اللَّهِ فَتَكُونَنَّ
مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٢﴾

قوله تعالى : (فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍ مِمَّا أُنزِلْنَا إِلَيْكَ) الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم
والمراد غيره ، أى لست فى شك ولكن غيرك شك . قال أبو عمر محمد بن عبد الواحد الزاهد
سمعت الإمامين ثعلباً والمبرد يقولان : معنى « فإن كنت فى شك » أى قل يا محمد للكافر
فإن كنت فى شك مما أنزلنا إليك . (فأسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك) أى يا عابد
الوثن إن كنت فى شك من القرآن فأسأل من أسلم من اليهود ، يعنى عبد الله بن سلام وأمثاله ،
لأن عبدة الأوثان كانوا يقرءون لليهود أنهم أعلم منهم من أجل أنهم أصحاب كتاب ، فدعاهم
الرسول صلى الله عليه وسلم إلى أن يسألوا من يقرءون بأنهم أعلم منهم ، هل يثبت الله برسول
من بعد موسى . وقال الفتي : هذا خطاب لمن كان لا يقطع بتكذيب محمد ولا بتصديقه
صلى الله عليه وسلم ، بل كان فى شك . وقيل : المراد بالخطاب النبي صلى الله عليه وسلم لا غيره
والحقى : لو كنت ممن يلحقك الشك فيما أخبرناك به فسألت أهل الكتاب لأزالوا عنك الشك
وقيل : الشك ضيق الصدر ، أى إن ضاق صدرك بكفر هؤلاء فاصبر ، وأسأل الذين
يقرءون الكتاب من قبلك يخبروك خبر الأنبياء من قبلك هل أذى قومهم وكيف عاقبتهم
أمرهم . والشك فى اللغة أصله الضيق ، يقال : شك التوب أى ضمه يخلل حتى يصير
كالوعاء . وكذلك السفرة ^(١) تمتد ملائقها حتى تنقبض ، فالشك يقبض الصدر ويضمه حتى
يضيق . وقال الحسين بن الفضل : الفاء مع حروف الشرط لا توجب العمل ولا تنبذ
والدليل عليه ما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لما نزلت هذه الآية : « واقف لا

أشك - ثم استأنف الكلام فقال - لقد جاءك الحق من ربك فلا تكون من المتقين
 أى الشاكن المرتابين . (وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ)
 والخطاب فى هاتين الآيتين للنبى صلى الله عليه وسلم والمراد غيره .

قوله تعالى : إِنْ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٦﴾
 وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾

قوله تعالى : (إِنْ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ) تقدم القول فيه فى هذه
 السورة . قال قتادة : أى الذين حق عليهم غضب الله وخطبه بمعصيتهم لا يؤمنون . (وَلَوْ جَاءَتْهُمْ
 كُلُّ آيَةٍ) أنت « كلاً » على المعنى ؛ أى ولو جاءتهم الآيات (حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ) فليست
 يؤمنون ولا يفهمهم .

قوله تعالى : فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَتْ إِيمَنُهَا إِلَّا قَوْمٌ
 يُونُسَ لَمْ ءَامِنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
 وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٨﴾

قوله تعالى : (فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ) قال الأخفش والكسائى : أى مهلا .
 ون مصحف أبى وابن مسعود « فهلا » وأصل لولا فى الكلام التحضيض ، أو الدلالة على
 منع أمر لوجود غيره . ومفهوم من معنى الآية نفي إيمان أهل القرى ثم استثنى قوم يونس ؛ فهو
 بحسب اللفظ استثناء منقطع ، وهو بحسب المعنى متصل ؛ لأن تقديره ما أنس أهل قرية
 إلا قوم يونس . والنصب فى « قوم » هو الوجه ، وكذلك أدخله سيويه فى (باب ما لا يكون
 إلا منصوباً) . قال النحاس : « إلا قوم يونس » نصب لأنه استثناء ليس من الأول ،
 أى لكن قوم يونس ؛ هذا قول الكسائى والأخفش والناه . ويجوز « إلا قوم يونس »

بالرفع ، ومن أحسن ما قيل في الرفع ما قاله أبو إسحاق الزجاج قال : يكون المعنى غير قوم
يونس ، فلما جاء بآلاء أعرب الاسم الذي بعدهما بإعراب غير ، كما قال :

وكلُّ أُنحٍ معارِفُه أخوه • لعمركَ إِيَّاكَ إلَّا القَرَقَدَانِ

وروى في قصة قوم يونس عن جماعة من المفسرين : أن قوم يونس كانوا يسيرون من أرض
الموصل وكانوا يعبدون الأصنام ، فأرسل الله إليهم يونس عليه السلام يدعوهم إلى الإسلام
وترك ما هم عليه فأبوا ، فقل : إنه أقام يدعوهم تسع سنين فيس من إيمانهم ؛ فقبل له :
أخبرهم أن العذاب مصيَّبهم إلى ثلاثِ ففعل ، وقالوا : هو رجل لا يكذب فأرقيوه فإن
أقام معكم وبين أظهركم فلا عليكم ، وإن أَرْتَحِلْ عَمَّكَ فهو زول العذاب لا شك ؛ فلما كان
الليل تزود يونس وخرج عنهم فأصبحوا فلم يجدوه فابوا ودعوا الله وليسوا بالمُسوح وتزفوا
بين الأمهات والأولاد من الناس والبهائم ، وردوا المظالم في تلك الحالة . وقال ابن مسعود :
وكان الرجل يأتي الحجر قد وضع عليه أساس بنيانه فيقتله يردّه ؛ والعذاب منهم فيما روى عن
ابن عباس على ثلثي ميل . وروى على ميل . وعن ابن عباس أنهم عشيبة طُلَّة وفيها حرة
فلم تزل تدنو حتى وجدوا حُرَّها بين أكتافهم . وقال ابن جبير : عشيبة العذاب كما يغشى
الثوب القبر ، فلما صحت توبتهم رفع الله عنهم العذاب . وقال الطبري : خص قوم يونس من
بين سائر الأمم بأن تيب عليهم بعد معاناة العذاب ؛ وذكر ذلك عن جماعة من المفسرين .
وقال الزجاج : إنهم لم يقع بهم العذاب ، وإنما رأوا العلامة التي عمل على العذاب ، ولو رأوا
حين العذاب لما فزعهم الإيمان .

قلت : قول الزجاج حسن ؛ فإن المعاناة التي لا تنفع التوبة معها هي التلبس بالعذاب كقصة
فرعون ، ولهذا جاء بقصة قوم يونس على إثر قصة فرعون لأنه آمن حين رأى العذاب فلم
ينفمه ذلك ، وقوم يونس تابوا قبل ذلك . ويخصّ هذا قوله عليه السلام : " إن الله يقبل توبة
العبد ما لم يترعرع " . والترعرع المحترجة ، وذلك هو حال التلبس بالموت ، وأما قبل ذلك فلا .
والله أعلم . وقد روى معنى ما قلناه عن ابن مسعود ، وأن يونس لما وصمهم العذاب إلى ثلاثة

ايام نوح عنهم فاصبحوا لهم يحذره فتابوا وفرغوا بين الامهات والاولاد ، وهذا يدل على توبتهم قبل رؤية علامة العذاب . وسياتي مستدا ميثا في سورة « الصافات » ان شاء الله تعالى . ويكون معنى (كَتَفَتَا عَنْهُمْ مَذَابَ الْخِزْيِ) أى المَذَاب الذى وعدم به يونس انه يتكلم بهم ، لانهم راوه حياتا ولا محاولة ، وعلى هذا الإشكال لا تمارض ولا خصوص ، والله اعلم . وبالجملة فكان أكل ينزوى في سابق العلم من السعداء ، وروى عن علي رضي الله عنه انه قال : إنه الحذر لا يرد القدر ، وإن السوء لا يرد القدر . وذلك أن الله تعالى يقول : « إِنْ قَوْمٌ يُؤْسِرُوا لِمَا آمَنُوا كَتَفَتَا عَنْهُمْ مَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » . قال علي رضي الله عنه : وذلك يوم عاشوراء . قوله تعالى : (وَتَتَنَبَّأُ إِلَى جِبِينِ) قيل للملأ اجلهم ، قاله السدي . وقيل : الى أن يصيروا الى الجنة أو النار ، قاله ابن عباس .

قوله تعالى : وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُنْكِرُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾

قوله تعالى : (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا) أى لا اضطرهم اليه . «كُلَّهُمْ» تأكيد لمن . «جميعا» عند سيوفه نصب على الحال . وقال الاخفش : جاء بقوله جميعا بعد كل تأكيد ، كقوله : «لَا تَقْبَلُوا إِلَيْنِ أَتَيْنَ» .

قوله تعالى : (أَفَأَنْتَ تُنْكِرُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ) قال ابن عباس : كان النبي صلى الله عليه وسلم جريصا على إيمان جميع الناس ، فأخبره الله تعالى انه لا يؤمن إلا من سبقت له السعادة في الذكر الأول ، ولا يضل إلا من سبقت له الشقاوة في الذكر الأول . وقيل : المراد بالناس هنا أبو طالب ، وهو من ابن عباس أيضا .

قوله تعالى : وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَجِيْعَلُ الْارْتِسَاسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٥٦﴾

قوله تعالى : (وَمَا كَذِبْتُمْ أَنْ تُثِيرَ الْإِبْرَافِيَّةَ) « ما » تى ، أى ما يبنى أن تؤمن
نفس إلا بقضائه وقدره ومشيئته وإرادته . (وَتَجْعَلُ الرِّجْسَ) وقرا الحسن وأبو بكر والمنفصل
« وتجعل » بالنون على التثنية . والرَّجْسُ : العذاب ؛ بضم الراء وكسرهما لتنان . (عَلَى الَّذِينَ
لَا يَتَّقُونَ) أمر الله عز وجل ونبيه .

قوله تعالى : قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي
الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾

قوله تعالى : (قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) أمر للكفار بالأخبار والنظر
في المصنوعات الدالة على الصانع والقادر على الكمال . وقد تقدم القول في هذا المعنى في غير
موضع مستوفى . (وَمَا تُغْنِي) « ما » تى ، أى ولن تغنى . وقيل استغماية ؛ التطهير أى
شئ تغنى . (الْآيَاتُ) أى الدلالات . (وَالنُّذُرُ) أى الرسل ، جميع نذير ، وهو الرسول
صل الله عليه وسلم . (عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ) أى عن سبى له في علم الله أنه لا يؤمن .

قوله تعالى : قَهْلَ يَنْظُرُونَ إِلَّا مِثْلَ آبَائِهِمُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ
قُلْ فَانظُرُوا إِلَى مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴿١١٢﴾

قوله تعالى : (قَهْلَ يَنْظُرُونَ إِلَّا مِثْلَ آبَائِهِمُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ) الأيام هنا بمعنى
الوقائع ؛ يقال : فلان عالم أيام العرب أى يوقاتهم . قال قتادة : بنى وقائع الله في يوم
نوح وعاد ونمود وضرهم . والعرب تسمى العذاب أياما والنسم أياما ؛ كقوله تعالى : « وَذَكَّرَهُمْ
بِأَيَّامِ اللَّهِ » . وكل ما مضى لك من خير أو شر فهو أيام . (فَانظُرُوا) أى ترمضوا ،
وهذا تهديد ووعيد . (إِلَى مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ) أى المترشحين لموعده ربي .

قوله تعالى : ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٦﴾

قوله تعالى : (ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا) أى من سقنا إذا أنزلنا بقوم هذا أخرجنا من بينهم الرسل والمؤمنين ، و « ثُمَّ » منناه ثم أعلموا أنا ننجي رسلا . (كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا) أى واجبا علينا ، لأنه أخبر ولا خُف في خبره . وقرأ يعقوب « ثُمَّ نُنَجِّي » غنفا . وقرأ الكسائي وحفص ويعقوب « نُنَجِّي الْمُؤْمِنِينَ » غنفا ، وشدد الباقون ، وما لثان فصيحان : أنجي يُنْجِي إجماع ، ونجي يُنْجِي تحية بمعنى واحد .

قوله تعالى : قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأَمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٧﴾

قوله تعالى : (قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ) يريد كفار مكة . (إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي) أى في ريب من دين الإسلام الذى ادعواكم إليه . (فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ) من الأوثان التى لا تدل . (وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ) أى يمتكم ويفض ارواحكم . (وَأَمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) أى المصدقين بآيات ربه .

قوله تعالى : وَأَنْتَ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٥٨﴾ وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٥٩﴾

قوله تعالى : (وَأَنْتَ أَقِمْ وَجْهَكَ) « أَنْ » عطف على « أَنْ أَكُونَ » أى قبل لى كن من المؤمنين واقم وجهك . قال ابن عباس : عملك ، وفيل نفسك ، أى استقم بإقبالك على ما

أمرت به من الدين . (حَنِيفًا) أى قويمًا به ما تلا عن كل دين . قال حمزة بن عبد المطلب :

حَدَّثَ اللَّهُ حِينَ هَدَىٰ قَوَادِي • مِنَ الْإِشْرَاقِ لِلدِّينِ الْحَنِيفِ

وقد مضى في « الأنعام » اشتقاقه والحمد لله . (وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ) أى وقبل لى لا تشرك ، والمخاطب له والمراد غيره ؛ وكذلك قوله : (وَلَا تَدْعُ) أى لا تعبد . (مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ) إن عبده (وَلَا يَضُرُّكَ) إن عصيته (فَإِنْ قُلْتَ) أى عبت غير الله (فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ) أى الواضعين العبادة في غير موضعها .

قوله تعالى : وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (١٧)

قوله تعالى : (وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ) أى يصيبك به (فَلَا كَاشِفَ) أى لا دافع (لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ) أى يصيبك بخير ونعمة (فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ) أى بكل ما أراد من الخير والشر (مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ) لذنوب عباده وخطاياهم (الرَّحِيمُ) بأوليائه في الآخرة .

قوله تعالى : قُلْ يَٰأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَنْتَعِلُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ (١٨)

قوله تعالى (قُلْ يَٰأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ) أى القرآن . وقيل الرسول صلى الله عليه وسلم . (مَنْ رَجَعَ فَمِنْ اهْتَدَى) أى صلتى بمحمد وآمن بما جاء به (فَإِنَّمَا يَنْتَعِلُ لِنَفْسِهِ)

(١) راجع ج ٧ ص ٢٨ . وقد تكلم على المؤلف في الفترة سنون فراجعه في ج ٢ ص ١٢٩ طبع ثانياً

أى خلاص نفسه (وَمَنْ قَتَلَ) أى ترك الرسول والقرآن وأتبع الأصنام والأوثان (فَأَنفَا
يَسُدُّ نَفْسَهُ) أى وبال ذلك على نفسه (وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ) أى بحفيظ أعمالكم
إنما أنا رسول ، قال ابن عباس : فسبها آفة السيف .

قوله تعالى : وَأَتَّبِعْ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ اللَّهِ
وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿١٧١﴾

قوله تعالى : (وَأَتَّبِعْ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ وَأَصْبِرْ) قيل : فسبح بآفة القتال . وقيل : ليس
مفسوخا ، ومعناه اصبر على الطاعة وعن المعصية . وقال ابن عباس : لما زلت جمع النهي صل
الله عليه وسلم الأنصار ولم يجمع معهم غيرهم فقال : " إنكم متجددون بعدى أَتْرَافُ فاصبروا حتى
تلقون على الخوض " . وعن أس بن جندب ، ثم قال أس : فلم يصبروا فاصبرم بالصبر كما
أمره الله تعالى ، وفي ذلك يقول عبد الرحمن بن حسان :

ألا أبلغ معاوية بن حرب • أسير المؤمنين تَتَا مَلَامِي^(١)

بأننا صابرون ومنظرونكم • إلى يوم الثغابين والخصام

• (حَتَّى يُحْكَمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ) ابتداء وحبر ، لأنه عز وجل لا يحكم إلا بالحق .

نعت سورة يونس ، والحمد لله وحده

(١) أى هتافكم بصل بكم و نصيب من امر . (٢) التاء والكلام يطلق على التبع والحقن .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة هود عليه السلام

مكية في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر . وقال ابن عباس وقائدة : إلا آية ؛ وهي قوله تعالى : « وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرُقَ النَّهَارِ » . وأسند أبو محمد النّازمي في مسنده عن كعب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أَقْرَبُوا سُورَةَ هُودِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ » . وروى الترمذي عن ابن عباس قال قال أبو بكر رضي الله عنه : يا رسول الله قد شُهِتَ ! قال : « شَيْئَتِي هُودٌ وَالرَّاقِعَةُ وَالْمُرْسَلَةُ وَعَمَّ يَسْأَلُونَ وَإِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ » . قال : هذا حديث حسن غريب ، وقد رَوَى شَيْءٌ مِنْ هَذَا مُرْسَلًا . وأخرجه الترمذي المحكم أبو عبد الله في « نوادر الأصول » : حدثنا سفيان بن وكيع قال حدثنا محمد بن بشر عن علي بن صالح عن أبي إسحق عن أبي مجبهة قال : قالوا يا رسول الله نراك قد شُهِتَ ! قال : « شَيْئَتِي هُودٌ وَأَخَوَاتُهَا » . قال أبو عبد الله : فالفرع يورث الشيب وذلك أن الفرع يُذْهِلُ النَّفْسَ فَيُنْشَفُ رَطوبَةُ الْجَسَدِ ، وَلَمْ تَكُ كُلُّ شَعْرَةٍ مَتَبَعٌ ، وَمِنْهُ يَبْرُقُ ، فَإِذَا نَشَفَ الْفَرْعُ وَطَوَيْتَهُ يَبَسَتِ الْمَنَاجِلُ لَيْسَ الشَّعْرُ فَأَبْيَضَ ؛ كَمَا تَرَى الزَّرْعَ الْأَخْضَرَ يَبْقَاهُ ، فَإِذَا ذَهَبَ يَبْقَاهُ يَبَسَ فَأَبْيَضَ ؛ وَإِنَّمَا يَبْيَضُ شَعْرُ الشَّيْخِ لِنَهَابِ رَطوبته وَيُبَسُّ جِلْدُهُ ، فَالْنَفْسُ تَذْهِلُ بِرُوحِ اللَّهِ ، وَأَحْوَالُ مَا جَاءَ بِهِ أَخْبَرُ مِنْ اللَّهِ ، فَتَذْهِلُ ، وَيُنْشَفُ مَا مَعَهَا ذَلِكَ الْوَعْدُ وَالْمَوَلُ الَّذِي جَاءَ بِهِ ؛ فَهُوَ تَشْبِيهُ . وقال الله تعالى : « يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا » فإِذَا شَابُوا مِنَ الْفَرْعِ . وأما سورة « هود » فإِذَا فِيهَا ذِكْرُ الْأُمَمِ ، وَمَا حَلَّ بِهِمْ مِنْ عَاجِلٍ بِأَسِ اللَّهِ تَعَالَى ، فَاهْلُ الْبَيْتِ إِذَا تَلَوْهَا تَرَاهُمْ عَلَى قُلُوبِهِمْ مِنْ مَلَكَةٍ وَسُلْطَانَةٍ وَلِحَظَاتِهِ الْبَطْشُ بِأَعْمَانِهِ ، فَلَوْ مَا تَوَانَا مِنَ الْفَرْعِ لَمْ يَلْمِ ، وَلَوْ كُنَّ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَسْمَهُ يَلْطَفُ بِهِمْ فِي تِلْكَ الْأَحْيَانِ حَتَّى يَهْرُمُوا كَلَامَهُ . وأما أَخَوَاتُهَا فَأَشْبَهَهَا مِنَ السُّورِ ؛ مِثْلُ « الْحَاقَّةِ » وَ « سَالِیِّ » وَ « إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ »

وه القارعة ، ففى تلاوة هذه السورة ما يكشف لقلوب العارفين سلطانه ويطهسه فنذهل منه النفوس ، وتشتب منه العيوس . وقد قيل إن الذى شيب النبي صلى الله عليه وسلم من سورة « هود » قوله : « فَأَسْتَفِيمُ كَمَا أَمَرْتُ » على ما يأتى بيانه إن شاء الله تعالى . وقال يزيد بن أبان : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى منامى فقرأت عليه سورة « هود » فلما ختمها قال : « يا يزيد هذه القراءة فأين البكاء » . قال علمائنا قال أبو جعفر النحاس : يقال هذه هود فاعلم بغير تنوين على أنه أسم للسورة ؛ لأنك لو سميت امرأة يزيد لم تصرف ؛ وهذا قول الخليل وسيبويه . وعيسى بن عمر يقول : هذه هود بالتونين على أنه أسم للسورة ؛ وكذا إن سمي امرأة يزيد ؛ لأنه لما سكن وسطه خف فصرف ، فإن أردت الحذف صرفت على قول الجميع ، فقلت : هذه هود وأنت تريد سورة هود ؛ قال سيبويه : والدليل على هذا أنك تقول هذه الرحمن ، فلو لا أنك تريد هذه سورة الرحمن ما قلت هذه .

قوله تعالى : **الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْحِكْمُ** ، أى كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْحِكْمُ ، ثُمَّ فَصَّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ① **أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ** ، إِنَّنِي لَكُم مِّنْ نَّذِيرٍ وَبَشِيرٍ ② **وَإِنْ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ** ، ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُغْفِرْ لَكُمْ مَتَّعًا حَسَنًا **إِلَّا أَجَلَ مَعْمُورٍ** ، وَنُزِّلَتْ كُلُّ ذِي فَضْلٍ فَضْلُهُ ، وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ③ **إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ** ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ④

قوله تعالى : **الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْحِكْمُ** ، تقدم القول فيه . (كُتِبَ) بمعنى هذا كتاب . (أُنْزِلَتْ) أى كُتِبَتْ آيَاتُهُ فى موضع رفع نعت لكتاب . وأحسن ما فى معنى « أُنْزِلَتْ آيَاتُهُ » قول قتادة ، أى جعلت بحكمة كتابها لا خلل فيها ولا باطل . والإحكام منع التول من الفساد ، أى نظمت نظاماً عاكساً لا يبلدتها تناقض ولا خلل . وقال ابن عباس : أى لم يسخرها كتاب ، بخلاف التوراة والإنجيل . وعلى هذا فالعنى : أحكم بعض آياته بأن جعل ناسخاً غير منسوخ . وقد تقدم القول فيه . (١) راجع تفسير الآية الأولى من سورة « يونس » . (٢) راجع ١٠ ص ١٠ طبة اولى اوتانية .

وقد يقع اسم الجنس على السوء ؛ فيقال : أكلت طعاماً زيد ؛ أى بعض طعامه . وقال الحسن وأبو العباس : « أَحْكَيْتُ آيَاتَهُ » بالأمس والنهى (ثُمَّ فُصِّلَتْ) بالوعد والوعيد والنواب والمقاب . وقال قتادة : أحكمها الله من الباطل ، ثم فصلها بالحلل والحرام . مجاهد : أحكت جملة . ثم بُيِّنَتْ بذكريّة آية يجمع ما يحتاج إليه من الدليل على التوحيد والنبوة والبعث وغيرها . وقيل : جُمِعَتْ في اللوح المحفوظ ، ثم فُصِّلَتْ في التزويل . وقيل : « فُصِّلَتْ » نزلت فجاءت لتُذَيِّرُ . وقرأ عكرمة « فُصِّلَتْ » مخففاً أى حَكَتْ بالحق . (مَنْ لَدُنْ) أى من عند . (فِي حَكِيمٍ) أى حكيم للأموار . (خَيْرٍ) بكل كان وغير كان .

قوله تعالى : (أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ) قال الكلباني والفراء : أى بالآ ، أى أحكمت ثم فصلت بالآ تعبدوا إلا الله . قال الزجاج : لئلا ؛ أى أحكمت ثم فصلت لئلا تعبدوا إلا الله . قيل : أمر رسوله أن يقول للناس ألا تعبدوا إلا الله . (إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ) أى من الله . (نَذِيرٌ) أى مخوف من عذابه وسطوته لمن عصاه . (وَيَشِيرُ) بالرضوان والجنة لمن أطاعه . وقيل : هو من قول الله أولاً وآخراً ؛ أى لا تعبدوا إلا الله إني لكم منه نذير ، أى الله نذير لكم من عبادة غيره ، كما قال : « وَيَحْدَرُ لَكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ » .

قوله تعالى : (وَإِنْ أَسْتَفِرُّوا رَبَّكُمْ) عطف على الأزل . (ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ) أى أرجعوا إليه بالطاعة والعبادة . قال الفراء : « ثم » هنا بمعنى الواو ؛ أى وتوبوا إليه ؛ لأن الاستغفار هو التوبة ، والتوبة هي الاستغفار . وقيل : استغفروهم من سائر ذنوبكم ، وتوبوا إليه من المستأنف متى وقعت منكم . قال بعض الصلحاء : الاستغفار بلا إفلاح توبة الكذابين . وقد تقدم هذا المعنى في « آل عمران » مستوف . وفي « البقرة » عند قوله : « وَلَا تَقْبَلُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا » . وقيل : إنما قدم ذكر الاستغفار لأن المغفرة هي الغرض المطلوب ، والتوبة هي السبب إليها ؛ فالمغفرة أول في المطلوب وآخر في السبب . ويحتمل أن يكون المعنى استغفروهم من الصغائر ، وتوبوا إليه من الكبائر . (يُمَتِّعُكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا)

هذه ثمرة الاستغفار والتوبة ، أى يمتنع بالمنافع من سعة الرزق ورغد العيش ، ولا يستأصلكم
بالعذاب كما فعل بمن أهلك قبلكم . وقبل : يمتنع يمتنعكم ؛ وأصل الإمتناع الإطالة ، ومنه أمتنع
الله بك ومنع . وقال سهل بن عبد الله : المتاع الحسن ترك الخلق والإقبال على الحق .
وقيل : هو القناعة بالموجود ، وترك الحزن على المفقود . (إلى أجل مُسمى) قيل : هو الموت .
وقيل : القيامة . وقيل : دخول الجنة . والمتاع الحسن على هذا وقاية كل مكروه فأمر بخوف ،
فما يكون في السرور وغيره من أهوال القيامة وكربها ؛ والأول أظهر لقوله في هذه السورة :
« وَيَأْتُوا أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيُرْدِّكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ »
وهذا ينقطع بالموت وهو الأجل المسمى . والله أعلم . قال مقاتل : فابوا فدعا عليهم رسول الله
صلى الله عليه وسلم ، فابتكوا بالحق سبع سنين حتى أكلوا العظام المحرقة والقدر والجيف
والكلاب . (وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ) أى يؤت كل ذي عمل من الأعمال الصالحات
جزاء عمله . وقيل : ويؤت كل من فضلت حسنة على سيئاته « فَضْلَهُ » أى الجنة ،
وهى فضل الله ؛ فالكلية فى قوله : « فَضْلَهُ » ترجع إلى الله تعالى . وقال مجاهد : هو
ما يحسبه الإنسان من كلام يقوله بلسانه ، أو عمل يعمل به بيده أو رجله ، أو ما تطوع به من
ماله فهو فضل الله ، يؤت به ذلك إذا آمن ، ولا يتقبله منه إن كان كافرا . (وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي
أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ) أى يوم القيامة ، وهو كبير لما فيه من الأهوال . وقيل :
اليوم الكبير هو يوم بدر وغيره : و « تَوَلَّوْا » يحسوز أن يكون ماضيا ويكون المعنى : وإن
تَوَلَّوْا فقل لهم إني أخاف عليكم . ويحسوز أن يكون مستقبلا حدثت منه إحدى التامين
والمعنى : قل لهم إني تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ .

قوله تعالى : (إِلَى اللَّهِ تَرْجِعُكُمْ) أى بعد الموت . (وَمَوْجِلُ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) من
تواب ومطاب .

قوله تعالى : (أَلَا إِنَّهُمْ يَدْعُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ
يَسْتَفْشِنُونَ شَيْأَنَهُمْ يَعْلَمُ مَا يَسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُمْ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ)

قوله تعالى : (**أَلَا إِنَّهُمْ يَنْتُونُ صُدُورَهُمْ لِتَشْفُوا مِنْهُ**) أخرجه عن معاذة
المشركين للنبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ، ويطنون أنه تخفى على الله أحوالهم . « ينتون
صدورهم » أي يطونونها على عداوة المسلمين فيه هذا الحنف ، قال ابن عباس : ينتفون
ما في صدورهم من الشحنة والعداوة ، ويظهرون خلافه . نزلت في الأخنس بن شريق ،
وكان رجلا حلو الكلام حلو المنطق ، يأتي رسول الله صلى الله عليه وسلم بما يحب ،
وينطوي له بقلبه على ما يسوء . وقال مجاهد : « **يَنْتُونُ صُدُورَهُمْ** » شكاً وأتراء . وقال
الحسن : ينتونها على ما ليس من الكفر . وقيل : نزلت في بعض المنافقين ، كان إذا أمر
بالنبي صلى الله عليه وسلم تحق صدره وظهره ، وطأطأ رأسه وغطى وجهه ، ليكلا يراه
النبي صلى الله عليه وسلم فيدعوه إلى الإيمان ، حكى معناه عن عبد الله بن شداد فاهاه
في « منه » تعود على النبي صلى الله عليه وسلم . وقيل : قال المنافقون إذا غلبنا أبوانا ،
واستغنيا ثيابنا ، وتبيننا صدورنا على عداوة محمد فن يعلم بنا ؟ فنزلت الآية . وقيل :
إن قوما من المسلمين كانوا يتشكون بسوء أبدانهم ولا يكشفونها تحت السماء ، فين الله
تعالى أن التمسك ما آسخت عليه قلوبهم من منفذ ، وأظهروه من قول وعمل . وروى
ابن جرير عن محمد بن عباد بن جعفر قال سمعت ابن عباس رضي الله عنهما يقول : « **أَلَا إِنَّهُمْ
يَنْتُونُ صُدُورَهُمْ لِتَشْفُوا مِنْهُ** » قال : كانوا لا يبايعون النساء ، ولا ياتون الفاسط
وهم يقضون إلى السماء ، فنزلت هذه الآية . وروى غير محمد بن عباد عن ابن عباس :
« **أَلَا إِنَّهُمْ يَنْتُونُ صُدُورَهُمْ** » بغير نون بعد الواو ، في وزن تنطوى ، ومعنى « **يَنْتُونُ** »
والقراءتين الأخرين متقاربتان ؛ لأنها لا يَنْتُونُ حتى يَنْتَوْها . وقيل : كان بعضهم يخفي كل بعض
يساره في الظن على المسلمين ، ويبلغ من جهلهم أن توهموا أن ذلك يخفى على الله تعالى .

(١) في الأصل : « **يَنْتُونُ** » بغير نون بعد الواو في وزن تنطوى ، وهو بخلاف ما في صحيح البخاري وتصغير
الطبري من محمد بن عباد ، فهذا صوابهما ، وأما رواية « **يَنْتُونُ** » الله ككرة بالأصل فقد نسبها ابن عطية إلى ابن
عينة ، ويضده ما في (إعراب القرآن للحاس) حيث قال : وروى غير محمد بن عباد عن ابن عباس « **أَلَا إِنَّهُمْ يَنْتُونُ
صُدُورَهُمْ** » بغير نون بعد الواو في وزن تنطوى الخ ، وهي العبارة الآية بالأصل . وتعقب بعض المحققين هذه
القراءة بأنها غلط في النقل لا تنجبه . وأرجع روح المعاني والبحر وتصغير ابن عطية .

« لِيَسْتَحْفُوا » أى ليتواروا عنه ، أى عن عبد أو عن الله . (الأَجِينِ يَسْتَفْتُونَ نِيَابَهُمْ)
أى يُسْئَلُونَ رُؤسَهُمْ نِيَابَهُمْ . قال قتادة : أخفى ما يكون العبد إذا حتى ظهره ، واستخفى
نوبه ، واضمر في نفسه همه .

قوله تعالى : وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ
مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعُهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٦﴾

قوله تعالى : (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا) « ما » نفي و « من » زائدة
و « دابة » في موضع رفع ، التقدير : وما دابة . « إِلَّا عَلَى اللَّهِ » « عل » بمعنى « من » ، أى
من الله رزقها ، يدل عليه قول مجاهد : كُلُّ مَا جَاءَهَا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ . وقيل : « عل الله » أى
لفضلا لا وجوبا . وقيل : وعدا منه حقا . وقد تقدم بيان هذا المعنى في « النساء » وأنه
سبحانه لا يجب عليه شيء . « رِزْقُهَا » رفع بالابتداء ، وعند الكوفيين بالصفة ، وظاهر الآية
العموم ومناها الخصوص ؛ لأن كثيرا من الدواب هلك قبل أن يُرْزَقَ . وقيل : هي عامة ،
وكل دابة لم تُرْزَقْ رزقا تعيش به فقد رُزِقَتْ رُوحَهَا ، ووجه النظم بما قبل : أنه سبحانه أخبر
برزقكم ؛ وأنه لا يفعل عن تربيته ، فكيف تخفى عليه أحوالكم يا معشر الكفار وهو
رُوحه ونمائه جسده . ولا يجوز أن يكون الرزق بمعنى الملك ؛ لأن البهائم تُرْزَقُ وليس يصح
وصفها بأنها مالكة لآلئها ؛ وهكذا الأطفال تُرْزَقُ اللبن ولا يقال إن اللبن الذى فى الثدي
ملك للطفل . وقال تعالى : « وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ » وليس لنا فى السماء ملك ؛ ولأن الرزق
لو كان ملكا لكان إذا أكل الإنسان من ملك غيره أن يكون قد أكل من رزق غيره ، وذلك
محال ؛ لأن العبد لا يأكل إلا رزق نفسه . وقد تقدم فى « البقرة » هذا المعنى والحمد لله .
وقيل لبعضهم : من أين تأكل ؟ فقال : الذى خلق الرزق يأتينا بالطعنين ، والذى شق

(١) راجع ج ٥ ص ٢٧٣ طبة أول أربعة .

(٢) راجع ج ١ ص ١٧٧ وما بعدها طبة ثانية أربعة .

الأشدان موخاقي الأرزاق . وقيل لأبي أسيد : من أين تأكل ؟ فقال : سيعان الله والله أكبر ! إن الله يرزق الكلب أملا يرزق أبا أسيد ! . وقيل لحاتم الأصم : من أين تأكل ؟ فقال : من عند الله ؛ ف قيل له : الله ينزل لك دنائير ودرهم من السماء ؟ فقال : كأن ما له إلا السماء ! يا هذا الأرض له والسماء له ؛ فإن لم يؤتى رزق من السماء سافه لي من الأرض ؛ وأنفسد :

وكيف أخاف الففسر والله رازقي . ورازق هذا الخلق في السمير والبشير
تَكْفُلُ بِالْأَرْزَاقِ لِحَقْنِي كُلَّهُمْ . وللقُصْبُ فِي الْبَيْدَاءِ وَالْحَوِثُ فِي الْبَحْرِ

وذكر الترمذي الحكيم في « نوادر الأصول » بإسناده عن زيد بن أسلم : أن الأشعرين
أبا موسى وأبا مالك وأبا عامر في نفر منهم ، لما هاجروا وقدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم
في ذلك وقد أُرْمِلُوا من الزاد ، فأسروا رجلا منهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يسأله ،
فلما انتهى إلى باب رسول الله صلى الله عليه وسلم سمعه يقرأ هذه الآية « وَمَا مِنْ ذَابِقَةٍ
فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ » فقال الرجل :
ما الأشعريون بأهون الدواب على الله ؛ فرجع ولم يدخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛
فقال لأصحابه : أبشروا أتاكم الثَّوْتُ ، ولا يظنون إلا أنه قد كلم رسول الله صلى الله عليه وسلم
فوعده ؛ فبينما هم كذلك إذ أتاهم رجلان يحملان قَصْعَةً بينهما مملوءة خبزا ولهما فأكلوا منها
ما شاموا ، ثم قال بعضهم لبعض : لو أنا رددنا هذا الطعام إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم
لبقي به حاجته ؛ فقالوا للرجلين : أذهبنا بهذا الطعام إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنا
قد قضينا منه حاجتنا ؛ ثم أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا رسول الله ما أرينا
طعاما أكثر ولا أطيب من طعام أرسلت به ؛ قال : « ما أرسلت إليكم طعاما » فأخبروه
أنهم أرسلوا صاحبهم ، فسأله رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره ما صنع ، وما قال لهم ؛ فقال
رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ذلك شيء رزقكوه الله » .

(١) أرسلوا من الزاد ؛ أي قد زادهم ؛ وأسلمه من الزاد . كأنهم لصقوا بالزل ، كائيل لقتير الحرب .

قوله تعالى : ﴿ وَبَلِّغْهُمْ مَقَرَّهَا ﴾ أى من الأرض حيث نأوى إليه . ﴿ وَاسْتَوْدِعْهَا ﴾ أى الموضع الذى تموت فيه قذفن ، فانه يطم عن ابن عباس رضى الله عنهما . وقال الربيع ابن أنس : « مستقرها » أيام حياتها . « واستودعها » حيث تموت وحيث تبعث . وقال سعيد بن جبيرة عن ابن عباس : « مستقرها » فى الرِّيح . « واستودعها » فى الصُّلب . وقيل : « يطم مستقرها » فى الجنة أو فى النار . « واستودعها » فى القبر ، يدل عليه قوله تعالى فى وصف أهل الجنة وأهل النار : « حَتَّى تَسْتَقَرَّ وَمَقَامًا » « وَسَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمَقَامًا » . ﴿ كُلٌّ فِي تَكْوِينٍ ﴾ أى فى اللوح المحفوظ .

قوله تعالى : وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَكِنْ قُلْتُ إِنَّمَا مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولُنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِسْحَارٌ مِمَّنْ ﴿١﴾
قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ تقدم فى « الأعراف » بيانها والحمد لله . ﴿ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ ﴾ بين أن خلق العرش والماء قبل خلق الأرض والسماء . قال كعب : خلق الله يافوثة خضراء فنظر إليها بالمية فصارت ماء يرتعد من غلظة الله تعالى ؛ لذلك يرتعد الماء إلى الآن وإن كان ساكنا ، ثم خلق الريح بفعل الماء على متنها ، ثم وضع العرش على الماء . وقال سعيد بن جبيرة عن ابن عباس : إنه مثل من قوله عز وجل : « وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ » فقال : على أى شىء كان الماء ؟ قال : على متن الريح . وروى البخارى عن عمران بن حصين . قال : كنت عند النبي صلى الله عليه وسلم إذ جاءه قوم من بنى تميم فقال : « آقبوا البشرى يا بنى تميم » قالوا : بَشَرْتَنَا فَأَعِطْنَا [هَرَيْنَ] فدخل ناس من أهل اليمن فقال : « آقبوا البشرى يا أهل اليمن إذ لم يقبلها بنو تميم » قالوا : قَبِلْنَا ، جئنا لتفقه فى الدين ، ولنسالك عن هذا الأمر ما كان ؟ قال : « كَانَ اللَّهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ غَيْرُهُ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ ثُمَّ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَكَتَبَ »
(١) وابع ٧ ص ٢١٨ وما بعدها طيبة الأولى أو ثانية . (٢) الزيادة عن صحيح البخارى .

في الله كُفْلُ شَيْءٍ" ثم أتاني رجل فقال : يا عمران أدرك ناقلك فقد ذهبت ، فانطلقت
أطلبها فإذا هي يقطعُ دونها السرابُ ، وأيم الله لو دِدْتُ أنها قد ذهبت لم أقم :

قوله تعالى : ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ أي خلق ذلك لِيَبْلِيَ عِبَادَهُ بِالْإِعْتِبَارِ
وَالِاسْتِدْلَالِ عَلَى كَمَالِ قُدْرَتِهِ وَعَلَى الْبَعثِ . وقال قَتَادَةُ : معنى « أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا » أتمَّ
عَمَلًا . وقال الحسن وسفيان الثوري : أَيُّكُمْ أَزْهَدُ فِي الدُّنْيَا . وذكر أن عيسى عليه السلام
مرَّ بِرَجُلٍ نائمٍ فقال : يا نائم قم فمبْدُ ، فقال : ياروح الله قد تعبْتُ ، فقال : « وما تعبْتُ » ؟
قال : قد تركت الدنيا لأهلها ، قال : ثمَّ قد فُتتِ العابدين . الضحك : أَيُّكُمْ أَكْثَرُ شُكْرًا .
مقاتل : أَيُّكُمْ أَتْقَى اللَّهَ . ابن عباس : أَيُّكُمْ أَعْمَلَ بِطَاعَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ . وروى عن ابن عمر
أن النبي صلى الله عليه وسلم تلا « أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا » قال : « أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا » وأروى
عن حماد بن عمار أن سمعَ الله وأمرع في طاعة الله " فجمع الأفاضل كلها ، وسبَّغَ في « الكهف » هذا أيضًا
إن شاء الله تعالى . وقد تقدَّم معنى الابتلاء . ﴿ وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ ﴾ أي دللت يا محمد
على البعث ﴿ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ ﴾ وذكر ذلك للمشركين لعلوا : هذا حمر . وكثير « إن »
لأنها بعد القول مبتدأة . وخشى سيويه الفتح . ﴿ لَيَقُولُنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ ففتح اللام لأنه
فعل متقدم لا ضمير فيه ، وبعده « لَيَقُولُنَّ » لأن فيه ضميرًا . و « يَجْرُؤُ » أي غرور باطل ،
لِبَطْلَانِ السَّحَرِ عِنْدَهُمْ . وقرأ حمزة والكسائي « إِنَّ هَذَا إِلَّا سَاحِرٌ مُسِينٌ » كناية عن النفي صلى
الله عليه وسلم .

قوله تعالى : وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ
مَا يَخْبِئُهُ إِلَّا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَّ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ
يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ ﴾ اللام في « لَئِنْ » لانسف
والجواب « لَيَقُولُنَّ » . ومعنى « إِلَى أُمَّةٍ » إلى أجل مَّصْدُودٍ وَحِينٍ مَّصْلُومٍ ؛ فالأمة هنا

(١) راجع المسئلة الثانية في تفسير قوله تعالى : « إِنَّا جَاءُوا بِمَا نَعْلَمُ الْأَرْضَ زِينَةً لَهَا » آية ٧

الملة ، قاله ابن عباس ومجاهد وقادة وجهور المفسرين . وأصل الأمة الجماعة ، فغير من
الحين والسنين بالأمة لأن الأمة تكون فيها . وقيل : هو كل حذف المضاف ، والمعنى
إلى محي . أمة ليس فيها من يؤمن فيستحقون الهلاك . أو إلى أقراض أمة فيها من يؤمن
الأيمن بعد أقراضها من يؤمن . والأمة أمة مشترك يقال على ثمانية أوجه ، فالأمة
تكون الجماعة ، كقوله تعالى : « وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِّنَ النَّاسِ » . والأمة أيضا اتباع
الأنبياء عليهم السلام . والأمة الرجل الجامع تحبب الذي يقتدى به ، كقوله تعالى : « إِنَّ
إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا » . والأمة الدين والملة ، كقوله تعالى : « إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى
أُمَّةٍ » . والأمة الحين والزمان ، كقوله تعالى : « وَلَئِن أَتَرْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مُّعَدَّةٍ »
وكذلك قوله تعالى : « وَأَدْرَكَ بَعْدَ أُمَّةٍ » . والأمة القامة ، وهو طول الإنسان وارتفاعه ، يقال من
ذلك : فلان حسن الأمة أى القامة . والأمة الرجل المنفرد بدينه وحده لا يشركه فيه أحد ،
قال النبي صلى الله عليه وسلم : « يُبَيِّتُ زَيْدُ بْنُ عَمْرٍو بِنَفْسِهِ أُمَّةً وَحِدَةً » . والأمة الأم ؛ يقال :
هذه أمة زيد ، يعنى أم زيد . (لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ) يعنى العذاب ؛ وقالوا هذا إما تكذبا للعذاب
لتأخره عنهم ، أو استعجالا واستهزاء ؛ أى مالى يحبسها عا . (أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا
عَنَّهُمْ) قيل : هو قتل المشركين بدمهم ، وقتل جبريل المستهزين على ما بآتى . (وَحَاقَ بِهِمْ)
أى نزل وأحاط . (مَا كَانُوا يَسْتَزِيدُونَ) أى جزاء ما كانوا يستهزون ، والمضارع محذوف .
قوله تعالى : وَلَئِن أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ زَكَّرْنَاهَا مِنْهُ
إِنَّهُ لَكَشُوفٌ فَغُورٌ ① وَلَئِن أَذَقْنَاهُ نِعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَاءٍ مِّثْنَهُ لَيَقُولُنَّ
دَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ② إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ③

قوله تعالى : (وَلَئِن أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً) الإنسان أمة شائع للناس ذ حجب

الكفار . ويقال : إن الإنسان هنا الوليد بن المغيرة وفيه نزلة . وقيل : في عبد الله بن أبي

(١) (بيت زيد أمة) لأنه كان نيرا من أديان المشركين ، وأمن بالنبي صلى الله عليه وسلم قبل بيعة

أَبَةِ إِبْرَاهِيمَ . « رَحْمَةً أَى نِعْمَةً » (ثُمَّ زَعَّمَا مِيثَ) أَى سَلَبْنَاهَا لِإِبَاهِ . (إِنَّهُ لَبُؤْسٌ)
أَى بَانِسٌ مِنَ الرَّحْمَةِ (كُفُورٌ) لَنَحْنِ حَاجِدُهَا ، قَالَ ابْنُ الْأَعْرَابِيِّ . النَّعَاسُ : « لَبُؤْسٌ »
مِنْ يَبُوسَ يَبُؤَسُ ، وَحِكْيُ سَبِيوَيْهِ يَبُوسَ يَبُؤَسُ عَلَى قِيلٍ يَقُولُ ، وَنَظِيرُهُ حَسِبَ يَحْسِبُ وَيَتِمُّ
يَتِمُّ ، وَيَأْسُ يَبُوسُ ، وَبَعْضُهُمْ يَقُولُ : يَبُوسَ يَبُوسُ ، لَا يَصْرِفُ فِي الْكَلَامِ إِلَّا هَذِهِ الْأَرْبَعَةُ
الْأَحْرَفُ مِنَ السَّالِمِ جَاءَتْ عَلَى قِيلٍ يَقُولُ ، وَفِي وَاحِدٍ مِنْهَا اخْتِلَافٌ . وَهُوَ يَبُوسُ وَ « بُؤْسٌ » عَلَى
التَّكْسِيرِ كَمُغْشَرٍ لِلْبَالِغَةِ .

قوله تعالى : (وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نِعْمَاءَ) أَى مَحَبَّةَ وَرَحَاءَ وَسَمَةَ فِي الرِّزْقِ . (بَعْدَ ضَرَاءٍ
مَسَتْهُ) أَى بَعْدَ ضَرْوفٍ وَشَدَّةٍ . (لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي) أَى الْخَطَايَا الَّتِي تَسُوهُ
صَاحِبُهَا مِنَ الضَّرِّ وَالْفَقْرِ . (إِنَّهُ لَنَفِيرٌ يَغُورُ) أَى يَفْرَحُ وَيَفْخَرُ بِمَا نَالَهُ مِنَ النِّعَةِ وَيُنْسِي
شُكْرَ اللَّهِ عَلَيْهِ ، يُقَالُ : رَجُلٌ فَاحِرٌ إِذَا افْتَحَرَ - وَغُورٌ لِلْبَالِغَةِ - قَالَ يَعْقُوبُ الْقَارِي : وَقُرَأَ
بَعْضُ أَهْلِ الْمَدِينَةِ « لَنَفْرَحُ » بِغَمِّ الرَّاهِ كَمَا يُقَالُ : رَجُلٌ فَطَنٌ وَحَذَرٌ وَتَدَسُّ . وَيُجُوزُ فِي كِلْتَا
الْمَقَالَتَيْنِ الْإِسْكَانُ لِنَقْلِ الضَّمَّةِ وَالْكَسْرَةِ .

قوله تعالى : (إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا) بِمَعْنَى الْمُؤْمِنِينَ ، مَدَحَهُمْ بِالصَّبْرِ عَلَى الشَّدَائِدِ . وَهُوَ
فِي مَوْضِعٍ نَصَبٍ . قَالَ الْأَخْفَشُ : هُوَ اسْتِنَاءٌ لَيْسَ مِنَ الْأَوَّلِ ، أَى لَكِنْ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ فِي حَالِ النِّعَةِ وَالْمَحَبَةِ . وَقَالَ الْفَرَّاءُ : هُوَ اسْتِنَاءٌ مِنْ « وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ » أَى مِنْ
الْإِنْسَانِ ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ بِمَعْنَى النَّاسِ ، وَالنَّاسُ يَشْمَلُ الْكَافِرَ وَالْمُؤْمِنَ ، فَهُوَ اسْتِنَاءٌ مُتَصِلٌ
وَهُوَ حَسَنٌ . (أَوَّلَيْكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ) أَبْدَأَهُ وَخَبَرَ . (وَأَبْرُ) مَعْطُوفٌ . (كَبِيرٌ) صِفَةٌ .

قوله تعالى : فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ
أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كِتَابٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ
وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٦﴾ أَمْ يَقُولُونَ أَفَنُزِّلُهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشِيرٍ
سُورٍ مِثْلِهِ مَفْتَزِينَ وَأَدْعُوا مَنْ أَسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ
صَادِقِينَ ﴿١٧﴾

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا تَرَأَتْهُ لَكَ بَعْضَ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ ﴾ أى قد ان لعظم ما تراه منهم من الكفر والتكذيب تتوهم أنهم يزولونك عن بعض ما أنت عليه . وقيل : إنهم لما قالوا « قَوْلًا أَنْزَلَ عَلَيْهِ كَثْرًا أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ » هم أن يدع سب آلهتهم فزلت هذه الآية ؛ فالكلام معناه الاستفهام ؛ أى هل أنت تارك ما فيه سب آلهتهم كما سالوك ؟ وتأكد عليه الأمر في الإبلاغ ؛ كقوله : « يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ » . وقيل : معنى الكلام النفي مع استبعاد ؛ أى لا يكون منك ذلك ، بل تبلغهم كل ما أنزل إليك ؛ وذلك أن مشرك مكة قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم : لو أتيتنا بكتاب ليس فيه سب آلهتنا لاتبعناك . فهم النبي صلى الله عليه وسلم أن يدع سب آلهتهم ؛ فزلت .

قوله تعالى : ﴿ وَضَاقَ بِهِ صَدْرُكَ ﴾ عطف على « تارك » و « صدرك » مرفوع به ، والماء في « به » تعود على « ما » أو على بعض ، أو على التبليغ ، أو التكذيب . وقال : « ضائق » ولم يقل ضيق ليشاكل « تارك » الذى قبله ؛ ولأن الضائق عارض ، والضيق أزم منه . ﴿ زِنْ أَنْ يَقُولُوا ﴾ في موضع نصب ؛ أى كراهية أن يقولوا ، كقوله : « يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا » أى لتلا تضلوا ، أو لأن يقولوا . ﴿ قَوْلًا ﴾ أى هلا ﴿ أَنْزَلَ عَلَيْهِ كَثْرًا أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ ﴾ يصدقه ؛ قاله عبد الله بن أبى أمية بن المغيرة الخزومي ؛ فقال الله تعالى : يا محمد ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ ﴾ إنما عليك أن تنذرهم ، لا بأن تأتيهم بما يفترونه من الآيات . ﴿ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ أى حافظ وشهيد . قوله تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ اقْرَأْهُ ﴾ « أم » بمعنى بل ، وقد تقدم في « يونس » أى قد أزعجت عيبتهم وإشكالم في نبؤتك بهذا القرآن ، وحببتهم به ؛ فإن قالوا : اقتربه - أى أخلفته - فليأتوا بمثله مفرى برعهم . ﴿ وَأَدْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ أى من لا ينفعهم من دون الله من الكهنة والأخوان .

قوله تعالى : ﴿ فَلِمَ تَسْتَعْجِلُونَ لَكَ فَاغْتَبَرُوا أَمْ مَا أَنْزَلَ يَعْلَمُ اللَّهُ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ (١)

(١) في تفسيره قوله تعالى : « أم يقولون اقترأه ... » آية ٢٨

قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ مِنْ آيٍ فِي الْمَارِضَةِ وَلَمْ يَتَّيَّنُوا لَمْ يُقَدِّمُوا عَلَيْهِمْ
الْحِجَّةَ إِذْ هُمْ عَلَى الشَّرَفِ الْبُغَاءِ وَاصْحَابُ الْأَلْسِنِ الْفَصَاءِ . ﴾ (فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أَنْزَلَ يَعْلَمُ اللَّهُ)
وَأَعْلَمُوا صَدَقَ جِدِّي ، وَأَعْلَمُوا ﴿ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ قَبْلَ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ ، اسْتَفْهَمُوا مَعْنَى الْأَمْرِ .
وَقَدْ تَقَدَّمَ الْقَوْلُ فِي مَعْنَى هَذِهِ الْآيَةِ ، وَأَنَّ الْفَرَادَ مَعْجَزٌ مَقْدَمَةُ الْكَلَامِ . وَالْحَمْدُ لِلَّهِ ، وَقَالَ :
« قُلْ فَأَتُوا » وَبَعْدَهُ « فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ » وَلَمْ يَهْدِلْ لَكَ ، فَقِيلَ : هُوَ عَلَى تَعْوِيلِ الْحَاطَةِ
مِنَ الْإِنْفَادِ ، إِلَى الْجَمْعِ تَعْطِيًا وَتَضْيِيقًا ، وَقَدْ يَخَاطَبُ الرَّئِيسَ بِمَا يَخَاطَبُ بِهِ الْجَمَاعَةَ . وَقِيلَ :
الضَّمِيرُ فِي « لَكُمْ » وَفِي « فَأَعْلَمُوا » الْجَمْعُ ، أَيْ فَلْيَعْلَمِ الْجَمْعُ « أَنَّمَا أَنْزَلَ يَعْلَمُ اللَّهُ » ، قَالَ بِمُجَاهِدٍ .
وَقِيلَ : الضَّمِيرُ فِي « لَكُمْ » وَفِي « فَأَعْلَمُوا » لِلشَّرَكِيِّينَ ، وَالْمَعْنَى : فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِبْ لَكُمْ مِنْ تَدْعُوئِهِ
إِلَى الْمَعَاوَةِ ، وَلَا نِيَّاتٍ لَكُمْ الْمَارِضَةَ « فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أَنْزَلَ يَعْلَمُ اللَّهُ » . وَقِيلَ : الضَّمِيرُ فِي « لَكُمْ »
لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْمُؤْمِنِينَ ، وَفِي « فَأَعْلَمُوا » لِلشَّرَكِيِّينَ .

قوله تعالى : ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ
أَعْمَلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُنْحَسُونَ ١١٩ ﴾
فِيهِ ثَلَاثُ مَسَائِلَ :

الأولى - قوله تعالى : ﴿ مَنْ كَانَ ﴾ كَلِمَةٌ زَائِدَةٌ ، وَلِهَذَا جُزِمَ الْجَوَابُ فَقَالَ :
﴿ نُوَفِّ إِلَيْهِمْ ﴾ قَالَ الْفَرَاءُ . وَقَالَ الزَّجَّاجُ : « مَنْ كَانَ » فِي مَوْضِعِ جَزْمٍ بِالشَّرْطِ ، وَجَوَابُهُ
« نُوَفِّ إِلَيْهِمْ » أَيْ مِنْ يُمْكِنُ يَرِيدُ ، وَالْأَوَّلُ فِي اللَّفْظِ مَاضٍ وَالثَّانِي مُسْتَقْبَلٌ ، كَمَا قَالَ زُهَيْرٌ :

وَمَنْ هَابَ أَسْبَابَ الْمُنَى يَلْقَاهَا • وَلَوْ رَامَ أَسْبَابَ السَّيِّئِ بُسْلُمًا

وَاخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي تَأْوِيلِ هَذِهِ الْآيَةِ ، فَقِيلَ : نَزَلَتْ فِي الْكُفَّارِ ، قَالَ الضَّعَافُ ، وَاخْتَارَهُ
النَّحَّاسُ ، بِدَلِيلِ الْآيَةِ الَّتِي بَعْدَهَا « أُولَئِكَ الَّذِينَ لَا يَسْتَمِعُونَ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارَ » أَيْ مِنْ آتَى
مِنْهُمْ بِصَلَةِ رَجِيمٍ أَوْ صَدَقَةٍ نَكَاتَتْهَا بِهَا فِي الدُّنْيَا ، بِصَلَةِ الْجَسَمِ ، وَكَثْرَةِ الرِّزْقِ ، لَكِنْ لَا حَسَنَةَ

(١) قَالَ فِي الْبَحْرِ : وَلَعَلَّ لَا يَصِحُّ إِذْ هِيَ كَلِمَةٌ زَائِدَةٌ لِكَانَ فَهِيَ الشَّرْطُ « يَرِيدُ » ، وَكَانَ يَكُونُ مُجْزِئًا .

له في الآخرة . وقد تقدم هذا المعنى في « براءة » مستوف . وقيل المراد بالآية المؤمنون ؛ أي من أراد بعمله ثواب الدنيا عُجِّلَ له الثواب ولم يُنْقَصْ شيئاً في الدنيا ، وله في الآخرة العذاب لأنه جرد قصده إلى الدنيا ، وهذا كما قال صلى الله عليه وسلم : « إنما الأعمال بالنيات » فليبدل إنما يُعطى على وجه قصده ، ويحكم ضميره ؛ وهذا أمر متفق عليه في الأهم بين كل ملة . وقيل : هو لأهل الرياء ؛ وفي الخبر أنه يقال لأهل الرياء « شتم وصليتم وتصدقتم وجاهدتم وقرأتم يقال ذلك فقد قيل ذلك » ثم قال : « إن هؤلاء أولُ من تستعربهم النار » . رواه أبو هريرة ، ثم بكى بكاء شديداً وقال : صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال الله تعالى : « مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّهَا » وقرأ الآيتين ، نرحمه مسلم بعبارة الترمذي أيضاً . وقيل : الآية عامة في كل من ينوى بعمله غير الله تعالى ، كان معه أصل إيمان أو لم يكن ؛ فله محاهد وميؤن بن مهران ، وإليه ذهب معاوية رحمه الله تعالى . وقال ميؤن بن مهران : ليس أحد يعمل حسنة إلا وُقِّي ثوابها ؛ فإن كان مسلماً مخلصاً وُقِّي في الدنيا والآخرة ، وإن كان كافراً وُقِّي في الدنيا . وقيل : من كان يريد [الدنيا] بغزوه مع النبي صلى الله عليه وسلم ونُيِّها ، أي وُقِّي أجر الغزاة ولم يُنْقَصْ منها ؛ وهذا حصص والصحيح العموم .

الثانية — قال بعض العلماء : معنى هذه الآية قوله عليه السلام : « إنما الأعمال بالنيات » . وتدل هذه الآية على أن من صام في رمضان لا عن رمضان لا يبع عن رمضان ، وتدل على أن من توجَّه للتباعد والتنظف لا يقع قربة عن جهة الصلاة ، وهكذا كل ما كان في معناه .

الثالثة — ذهب أكثر العلماء إلى أن هذه الآية مطلقة ، وكذلك الآية التي في « الشورى » « مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا » الآية . وكذلك « مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا » فيدعها وفسرها التي في « سبحان » « مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ نَجِّنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ » إلى قوله : « محطوا » . فأخبر سبحانه أن العبد ينوي ويريد والله سبحانه يحكم ما يريد ، وروى الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما

(١) راجع المسئلة الثانية من تفسير قوله تعالى : « قل أفقرأ طوما أركوما » آية ٥٥ .

في قوله : « مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا » أنها منسوخة بقوله : « مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاقِبَةَ » .
والصحيح ما ذكرناه ، وأنه من باب الإطلاق والتقييد ؛ ومثله قوله : « وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي
عَنِّي فَاِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ » فهذا ظاهره خبر عن إجابة كل داع داعا
على كل حال ، وليس كذلك ؛ لقوله تعالى : « فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَاءَ » . والنسخ
في الأخبار لا يجوز ؛ لاستحالة تبديل الواجبات العقلية ، ولا استحالة الكذب على الله تعالى ؛
فأما الأخبار عن الأحكام الشرعية فيجوز نسخها على خلاف فيه ، على ما هو مذكور
في الأصول ؛ ويأتي في « النحل » بيانه إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : **أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحِطَّ
مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ** (١)

قوله تعالى : ﴿ **أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ** ﴾ إشارة إلى التحديد ، والمؤمن
لا يَحُدُّه ؛ لقوله تعالى : « **إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ** » الآية . فهو
محمول على ما لو كانت موافقة هذا المرائي على الكفر . وقيل : المعنى ليس لهم إلا النار في أيام
معلومة ثم يخرج ؛ إما بالشفاعة ، وإما بالقبضة . والآية تقتضي العود بسلب الإيمان ؛
وفي الحديث [**الْمَاضِي**] ^(١) يريد الكفر وخاصة الرياء ، إذ هو شرك على ما تقدم بيانه في « النساء »
ويأتي في آخر « الكهف » . ﴿ **وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ ابتداء وخبر ؛ قال أبو حاتم :
وحذف الهاء ؛ قال النحاس : هذا لا يحتاج إلى حذف ؛ لأنه بمعنى المصدر ؛ أي وباطل عمله .
وفي حرف أبي وعبد الله « **وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ** » وتكون « ما » زائدة ؛ أي وكانوا
يعملون باطلا .

(١) في المسئلة الثانية من تفسير قوله تعالى : « ومن نمرات الخيل والأهاب تتقدفون من سكا ... » آية ٦٧ .

(٢) في الأصل (**المساعي**) وهو تحريف ، والمراد بالحديث الماضي حديث أبي هريرة المتقدم في عمل المرائي
« **صم وصمتم ...** » (٣) راجع ج ٥ ص ٤٢٢ طبعه أهل أوثانية

(٤) في تفسير قوله تعالى : « فمن كان يجرؤ لقائه ريبه فليصل على صاحبا ... » آية ١١٠ .

قوله تعالى : أَقْنِ كَانَ عَلَى بَيْتَةِ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ
وَمِنْ قَبْلِهِ كَتَبْتُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ
يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ
مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٧﴾

قوله تعالى : (أَقْنِ كَانَ عَلَى بَيْتَةِ مِنْ رَبِّهِ) أَبْتَدَاهُ وَأَخْبَرَ عَذُوفَ ؛ أَيْ أَقْنِ كَانَ عَلَى
بَيْتَةِ مِنْ رَبِّهِ فِي أَتْبَاعِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَمَعَهُ مِنَ الْفَضْلِ مَا تَبَيَّنَ بِهِ كَفَرِهِ مِنْ يَرِيدُ
الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزَيَّنَتْهَا ؟ ! عَنْ عَلِي بْنِ الْحُسَيْنِ وَالْحَسَنِ بْنِ أَبِي الْحَسَنِ . وَكَذَلِكَ قَالَ أَبُو زَيْدٍ :
إِنَّ الَّذِي عَلَى بَيْتَةِ مَنْ أَتْبَعَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . (وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ) مَنْ اللَّهُ ؛ وَهُوَ
النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . وَقِيلَ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ : « أَقْنِ كَانَ عَلَى بَيْتَةِ مِنْ رَبِّهِ » النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَالْكَلَامُ رَاجِعٌ إِلَى قَوْلِهِ : « وَصَاحِبِي بِهِ صَدْرُكَ » ؛ أَيْ أَقْنِ كَانَ مَعَهُ بَيَانٌ مِنَ اللَّهِ ،
وَمَعْجَزَةٌ كَانَتْ قُرْآنًا ، وَمَعَهُ شَاهِدٌ بِجَبْرِيلَ - عَلَى مَا بَأَى - وَقَدْ بَشَّرَتْ بِهِ الْكُتُبُ السَّالِفَةُ بِضَيْقِ
صَدْرِهِ بِالْإِبْلَاحِ ، وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ لَا يُسَلِّمُهُ . وَالْهَاءُ فِي « رَبِّهِ » تَمَوُّدٌ عَلَيْهِ . وَقَوْلُهُ :
« وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ » رَوَى عِكْرَمَةُ عَنْ أَبِي عَبَّاسٍ أَنَّهُ جَبْرِيلُ ؛ وَهُوَ قَوْلُ مُجَاهِدٍ وَالْبُخَارِيِّ .
وَالْهَاءُ فِي « مِنْهُ » اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ؛ أَيْ وَيَتْلُو الْبَيَانَ وَالْبَرْهَانَ شَاهِدٌ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ .
وَقَالَ مُجَاهِدٌ : الشَّاهِدُ مَلَكٌ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ يَحْفَظُهُ وَيُسَدِّدُهُ . وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ وَقَادَهُ :
الشَّاهِدُ لِسَانُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ بْنِ الْحَدَفَةِ : قُلْتُ لِأَبِي أَنْتَ
الشَّاهِدُ ؟ قَالَا : وَدِدْتُ أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ ، وَلَكِنَّهُ لِسَانُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .
وَقِيلَ : هُوَ عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ؛ رَوَى عَنْ أَبِي عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ : هُوَ عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ؛
وَرَوَى عَنْ عَلِيٍّ أَنَّهُ قَالَ : مَا مِنْ رَجُلٍ مِنْ قُرَيْشٍ إِلَّا وَقَدْ أُرِلَتْ فِيهِ الْآيَةُ وَالْآيَاتَانِ ؛ فَقَالَ
لَهُ رَجُلٌ : أَيْ شَيْءٌ نَزَلَ فِيكَ ؟ فَقَالَ عَلِيٌّ : « وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ » . وَقِيلَ : الشَّاهِدُ هُوَ
صُورَةُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَوَجْهُهُ وَخَاتَمُهُ ؛ لِأَنَّهُ مِنْ كَانَ لَهُ فَضْلٌ وَعَقْلٌ فَسُيِّرَ إِلَى

النبي صلى الله عليه وسلم علم أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فالحاء على هذا ترجع إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، على قول ابن زيد وغيره . وقيل : الشاهد القرآن في نظمه وبلاغته ، والمعاني الكثيرة منه في اللفظ الواحد ؛ قاله الحسين بن الفضل ، فالحاء في « مه » للقرآن . وقال الفراء قال بعضهم : « وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ » الإنجيل ، وإن كان قبله فهو يتلو القرآن في التصديق ؛ والحاء في « مه » لله عز وجل . وقيل : البينة معرفة الله التي أشرقت لها القلوب ، والشاهد الذي يتلوه العقل الذي رُكِبَ في دماغه وأشرق صدره بنوره . (وَمِنْ قَبْلِهِ) أى من قبل الإنجيل . (كِتَابُ مُوسَى) رفع بالابتداء ، قال أبو إسحق الزجاج : والمعنى ويتلوه من قبله كتاب موسى ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم موصوف في كتاب موسى « يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ » . وحكى أبو حاتم عن بعضهم أنه قرأ « وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى » بالنصب ؛ وحكاها المهدوي عن الكوفي ؛ يكون معطوفا على الحاء في « يتلوه » والمعنى : ويتلو كتاب موسى جبريل عليه السلام ؛ وكذلك قال ابن عباس رضى الله عنهما ؛ المعنى من قبله كتاب موسى جبريل عليه السلام ؛ ويحوز على ما ذكره ابن عباس أيضا من هذا القول أن يُرفع « كتاب » على أن يكون المعنى : ومن قبله كتاب موسى كذلك ؛ أى تلاه جبريل على موسى كما تلا القرآن على محمد . (إِمَامًا) نصب على الحال . (وَرَحْمَةً) معطوف . (أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ) إشارة إلى بنى إسرائيل ، أى يؤمنون بما في التوراة من البشارة بك ؛ وإنما كفر بك هؤلاء المتأخرون فهم الذين موعدهم الارب ؛ جباهه التشبيهي . والحاء في « به » يحوز أن تكون للقرآن ، ويحوز أن تكون للنبي صلى الله عليه وسلم . (وَمَنْ يَشْكُرْهُ) أى بالقرآن أو بالنبي عليه السلام . (مِنْ الْأَحْزَابِ) بنى من الملل كلها ؛ عن قتادة ؛ وكذا قال سعيد بن جبير : « الأحزاب » أهل الأديان كلها ؛ لأنهم يُمَيَّزُونَ . وقيل : فريش وحلفاؤهم . (فَأَنذَرْتُ مُوْعِدَهُ) أى هو من أهل النار ؛ وأند

حسان :

أوردتموها حياض الموت ضاحية . فالأر موعدها والموت لانها

وفي صحيح مسلم من حديث أبي يونس عن النبي صلى الله عليه وسلم : " والذي نفس عبد
 بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني [ثم يموت] ولم يؤمن بالذي أرسلتُ
 به إلا كان من أهل النار " . (فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ) أى فى شك . (مِنْهُ) أى من القرآن .
 (إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ) أى القرآن من الله ؛ قاله مقاتل . وقال الكلبي : المعنى فلا تك
 فى مرية فى أن الكافر فى النار . هـ إِنَّهُ الْحَقُّ « أى القول الحق الكائن ؛ والخطاب للنبي صلى
 الله عليه وسلم ، والمراد جميع المكلفين .

قوله تعالى : وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ
 عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ أَلْأَشْهَدُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَّبُوا عَلَى رَبِّهِمْ آلَا لَعْنَةُ
 اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿٣٨﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ
 بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٩﴾

قوله تعالى : (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا) أى لا أحد أظلم منهم لأنفسهم
 لأنهم افتروا على الله كذبا ، فاضنوا كلامه إلى غيره ، وزعموا أن له شريكا ولدا ، وقالوا
 للأصنام هؤلاء شفعاؤنا عند الله . (أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ) أى يحاسبهم على أعمالهم .
 (وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ) يعنى الملائكة الحافظة ؛ عن مجاهد وغيره ؛ وقال سفيان : سألت الأعمش
 عن « الأشهاد » فقال : الملائكة . الضعاف : هم الأنبياء والمرسلون ؛ دليله قوله : « فَكَفَّ
 إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا » . وقيل : الملائكة والأنبياء والعلماء
 الذين بنوا الرسالات . وقال قتادة : عنى الخلاق أجمع . وفي صحيح مسلم من حديث
 صفوان بن يحيى عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وفيه قال : ٢ « وأما الكفار
 والمنافقون فينادى بهم على رهوس الخلاق هؤلاء الذين كذبوا على الله » . (أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ
 عَلَى الظَّالِمِينَ) ، أى بدمه وسخطه وإبعاده من رحمته على الذين وضعوا العبادة فى غير موضعها .

قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ يجوز أن تكون « الذين » في موضع خفض نصا للطالين ، ويجوز أن تكون في موضع رفع ؛ أي هم الذين . وقيل : هو ابتداء خطاب من الله تعالى ؛ أي الذين يصدون أنفسهم وغيرهم عن الإيمان والطاعة . ﴿ وَيَقْتُلُوا عِوَجًا ﴾ أي يبدلون بالناس عنها إلى المعاصي والشرك . ﴿ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾ أعاد لفظ « هم » تأكيداً .

قوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانْ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ﴾

قوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ ﴾ فائتين من عذاب الله . وقال ابن عباس : لم يعجزوا أن أسر الأرض فتجسف بهم . ﴿ وَمَا كَانْ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ﴾ يعني أنصاراً ، و « مِنْ » زائدة . وقيل : « ما » بمعنى الذي تقديره : أولئك لم يكونوا معجزين لا هم ولا الذين كانوا لهم من أولياء من دون الله ؛ وهو قول ابن عباس رضي الله عنهما . ﴿ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ ﴾ أي على قدر كفرهم ومعاصيهم . ﴿ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ ﴾ « ما » في موضع نصب على أن يكون المعنى : بما كانوا يستطيعون السمع . ﴿ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ﴾ ولم يستعملوا ذلك في استماع الحق وإبصاره . والعرب تقول : جزيت ما فعلت وبما فعلت ؛ فيحذفون الباء مرة ويثبتونها أخرى ؛ وأنشد سيبويه :

أَمْرُكَ الْخَيْرُ فَأَفْعَلُ مَا أَمَرْتُ بِهِ • فَقَدْ تَرَكْتُ ذَا مَالٍ وَذَا نَسَبٍ

ويجوز أن تكون « ما » ظرفاً والمعنى : يضاعف لهم أبداً ، أي وقت استطاعتهم السمع والبصر ، والله سبحانه يجعلهم في جهنم مستطبي ذلك أبداً . ويجوز أن تكون « ما » نافية لا موضع لها ، إذ الكلام قد تم قبلها ، والوقف على العذاب كافٍ ؛ والمعنى : ما كانوا

(١) البيت لسردين مدي كرب الأريدي . أراد (بالعبر) لحذف ووصل الفعل ونصب . والنصب : المال الثابت كالضبايع وغيرها . وقيل : النصب جمع المال ؛ فيكون حله على الأثرل مبالغة رداً كيدا . (شواهد سيبويه) .

يستطيعون في الدنيا أن يسمعوا سماعاً يشعرون به، ولا أن يهتدوا بصار مهتد . قال الفراء :
 ما كانوا يستطيعون السمع ؛ لأن الله أضلهم في اللوح المحفوظ . وقال الزجاج : لبغضهم النبي
 صلى الله عليه وسلم وعداوتهم له لا يستطيعون أن يسمعوا منه ولا يفقهوا عنه . قال النحاس :
 وهذا معروف في كلام العرب ؛ يقال : فلان لا يستطيع أن ينظر إلى فلان إذا كان ذلك
 نفياً عليه .

قوله تعالى : **أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا
 يَفْعَلُونَ** ﴿٢٢﴾ **لَا يَجْرَمُ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْأَخْسَرُونَ** ﴿٢٣﴾
 قوله تعالى : **(أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ)** ابتداء وخبر . **(وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا
 يَفْعَلُونَ)** أي ضاع عنهم أفعالهم وتبلف .

قوله تعالى : **(لَا يَجْرَمُ)** للعلماء فيها أقوال ؛ فقال الخليل وسيبويه : « لا يجرم » بمعنى
 حق ، « فلا » و « جرم » عندهما كلمة واحدة ، و « أن » عندهما في موضع رفع ؛ وهذا قول الفراء
 ومحمد بن زيد ؛ حكاه النحاس . قال المهدوي : وعن الخليل أيضاً أن معناها لا بهذ ولا محالة ،
 وهو قول الفراء أيضاً ؛ ذكره الثعلبي . وقال الزجاج : « لا » هاهنا نفى ؛ وهو رد لقولهم :
 إن الأصنام تنفعهم ؛ كأن المعنى لا ينفعهم ذلك ، وجرم بمعنى كسب ؛ كسب ذلك العمل
 لم الخسران ، وفاعل كسب مضمر ، و « أن » منصوبة بجرم ، كما تقول : كسب جفاؤك
 زيداً غضبه عليك ؛ وقال الشاعر :

نصبنا رأسه في جذع نخيل • بما جرمت يده وما اعتدينا
 أي بما شئت . وقال الكسائي : معنى « لا يجرم » لا صدد ولا منع عن أنهم . وأبو بيل :
 المعنى لا قطع قاطع ، لحذف الفاعل حين كثرة استعماله ، والجزم القطع ؛ وقد جرم النخل
 وأجرته أي صرته فهو جارم ، وقوم جرم وجزام وهذا زمن الجرام والجرام ، وجرمت صوف
 الشاة أي جززته ، وقد جرمت منه أي أخذت منه ؛ حصل جلت الشيء جلتاً أي قطعت ،

وجئت الجزور أجلبها جالباً إذا أخذت ما على عظامها من اللحم، وأخذت الشيء بجملة -
 ساكنة اللام - إذا أخذته أجمع، وهذه جملة الجزور - بالتحريك - أى لحما أجمع؛
 قاله الجوهري. قال النحاس: وزعم الكسائي أن فيها أربع لغات: لا بحر، ولا عن ذا بحر،
 ولا أن ذا بحر، قال: وناس من قرارة يقولون: لا بحرأنهم بغير ميم. وحكى الفراء فيه
 لغتين آخرين قال: بنو عامر يقولون لا ذا بحر، قال: وناس من العرب يقولون: لا بحر
 بضم الجيم.

قوله تعالى: **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ**
أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٦﴾

قوله تعالى: **(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا)** «الذين» اسم «إن» و«آمنوا» صلة: أى
 صدقوا. **(وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ)** عطف على الصلة. قال ابن عباس:
 أخبتوا أتوا. مجاهد: أطاعوا. قتادة: خضعوا وخضعوا. مقاتل: أخلصوا. الحسن:
 الإخبات الخشوع للخافة النابتة في القلب؛ وأصل الإخبات الاستواء، من الخبت وهو
 الأرض المستوية الواصلة؛ فالإخبات الخشوع والاطمئنان، أو الإجابة إلى الله عز وجل
 المستمرة ذلك على استواء. «إلى ربهم» قال الفراء: إلى ربهم ولربهم واحد، وقد يكون
 المعنى: وجهوا إختابهم إلى ربهم. **(أُولَٰئِكَ)** خبر «إن».

قوله تعالى: **مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصْمَىٰ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ**
هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾

قوله تعالى: **(مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ)** ابتداء، والخبر **(كَالْأَعْمَىٰ)** وما بعده. قال الأخفش:
 أى كمثل الأعمى. النحاس: التقدير مثل فريق الكافر [كالأعمى] والأصم، ومثل فريق
 المؤمن كالسميع والبصير، ولهذا قال: **(هَلْ يَسْتَوِيَانِ)** فرد إلى الفريقين وهما أثنان؛

وروى معناه عن قتادة وغيره . قال الضحاك : الأعمى والأعمى مثل للكافر . والسمع والبصير مثل للأمن . وقيل : المعنى هل يستوى الأعمى والبصير ، وهل يستوى الأعمى والسمع .
(مثلاً) منصوب على التمييز . (أفلا تذكرون) في الوصفين وتظنون .

قوله تعالى : وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾
أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ الْبَاسِ ﴿١٦﴾

قوله تعالى : (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ) ذكر سبحانه قصص الأنبياء عليهم السلام للنبي صلى الله عليه وسلم تنبيها له على ملازمة الصبر على أذى الكفار إلى أن يكفيه الله أمرهم .
(إِنِّي) أى فقال : إني ؛ لأن في الإرسال معنى القول . وقرا ابن كثير وأبو عمرو والكاساني « أَنِّي » بفتح الحمة ؛ أى أرسلناه إني لكم نذير مبين . ولم يقل « إنه » لأنه رجع من النية إلى خطاب نوح لقومه ، كما قال : « وَكُنَّا لَهُ فِي الْأَوَّاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ » ثم قال : « نَحْنُهَا بِقُوَّةٍ » .
قوله تعالى : (لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ) أى أتركوا الأصنام فلا تعبدها ، وأطيعوا الله وحده . ومن قرأ « إِنِّي » بالكسر جملة معترضا في الكلام ، والمعنى أرسلناه بالاعتساف .
[إلا الله] . (إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ الْبَاسِ) .

قوله تعالى : فَقَالَ الْأَمْثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا تَرَكْ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا تَرَكْ أَتَّبِعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادْنَا بِأَدَى الْأَرَائِ وَمَا زَرَىٰ لَكَ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَنْظُرُكَ مُنْذِرِينَ ﴿١٧﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : (فَقَالَ الْمَثَلُ) قال أبو إسحق الزجاج : المثل الرؤساء ؛ أى هم ملثون بما يقولون . وقد تقدم هذا في « البقرة » وغيرها . (مَا تَرَكْ إِلَّا بَشَرًا) أى

(١) قال ابن عطية : وفي هذا نظر ، وإنما هي حكاية غاطية لقومه ؛ وليس هذا حقيقة الخروج من غيبة إلى غاطية ، ولو كان الكلام أن أندم أو نحوه لصح ذلك .

(٢) راجع ٣ ص ٢٤٣ طبعه أهل أوتانية .

آدمياً. (مَثَلًا) (١) نصب على الحال. و «مثلاً» مصاف إلى معرفة وهو نكرة يقدر فيه التنوين كما قال الشاعر :

يَا رَبِّ مِثْلِكَ فِي النِّسَاءِ غَيْرَةٌ •

الثانية - قوله تعالى : ﴿وَمَا تَرَأَيْتَ أَتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَأَدُوا أَن يُرَازِلُوا﴾ جمع أرذل وأرذل جمع رذل ، مثل كُتِبَ وأُكْتُبَ وأُكَلِّبَ . وقيل : الأراذل جمع الرذل ، كسواد جمع الأسود من الخيت . وأرذل الرذل ، أرادوا أتبعك أخسارنا وسفطنا وسفطنا . قال الزجاج : نسبهم إلى الخيابة ؛ ولم يعلموا أن الصناعات لا أثر لها في الدبابة . قال الحاس : الأراذل هم الفقراء ، والذين لا حسب لهم ، والخسيس الصناعات . وفي الحديث "إهم كانوا حاككة وحنجابين" . وكان هذا جهلا منهم ؛ لأنهم عابوا نبي الله صلى الله عليه وسلم بما لا عيب فيه ، لأن الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ، إنما عليهم أنف يأثوا بالبراهين والآيات ، وليس عليهم تغيير الصور والميئات ، وهم يرسلون إلى الناس جميعا ، فإذا أسلم منهم الذي لم يلحقهم من ذلك قصاص ؛ لأن عليهم أن يقبلوا إسلام كل من أسلم منهم .

قلت : الأراذل هما هم الفقراء والضعفاء ؛ كما قال هرقل لأبي سفيان : أشراف الناس أتبعوه أم ضعفاؤهم ؟ فقال : بل ضعفاؤهم ؛ فقال : هم أتباع الرسل . قال عياض : إنما كان ذلك لاستيلاء الزباسة على الأشراف ، وصعوبة الاعتكاك عنها ، والأئمة من الأعياد للغير ؛ والفقر حتى عن تلك الموانع ، فهو سريع إلى الإجابة والأخذ . وهذا غالب أحوال أهل الذنوب .

الثالثة - اختلف العلماء في تعيين السفلة على أقوال ؛ فذكر ابن المبارك عن سفيان أن السفلة هم الذين يَنْفَلِسُونَ ، ويأتون أبواب القضاة والسلاطين يطلبون الشهادات .

(١) هو أبو يحيى النخعي ، وقام البيت :

• يضاء قد منمها بطلاق •

الفرقة : المقرة بين الحبش . ومنها : أعطاهما نستع به عت طلائها •

(٢) الخليل : استبال الولاية عت لدرهم بأصاف المهر •

ر قال ثعلب عن ابن الأعرابي: السِّفلة الذي يأكل الدنيا بدينه؛ قيل له: فمن سفلة السفلة؟ قال: الذي يصلح دنياه غيره بفساد دينه. ومثل على رضي الله عنه عن السفلة فقال: الذين إذا اجتمعوا غلبوا، وإذا تفرقوا لم يعرفوا، وقيل لمالك بن أنس رضي الله عنه: من السفلة؟ قال: الذي يسب الصعابة. وروى عن ابن عباس رضي الله عنهما: الأرذلون الحاكمة والجمامون. يحيى بن أكرم: الدُّبَّاعُ والكَّاس إذا كان من غير العرب.

الرايسة - إذا قالت المرأة لزوجها: يا سِفلة، فقال: إن كنتُ منهم فأنت طالق؛ خفي النقاش أن رجلا جاء إلى الترمذى فقال: إن امرأتى قالت لى يا سِفلة، فقلت: إن كنتُ سِفلة فأنت طالق؛ قال الترمذى: ما صاعتك؟ قال: سمأك؛ قال: سِفلة والله، سِفلة والله.

قلت: وعلى ما ذكره ابن المبارك عن صفيان لا تطلق، وكذلك على قول مالك وابن الأعرابي لا يلزمه شيء.

قوله تعالى: ﴿بَادِيَ الرَّأْيِ﴾. أى ظاهر الرأى، وباطنهم على خلاف ذلك. يقال: بدايسدو إذا ظهر؛ كما قال:

• فالיום حين بدّون للظّار •

ويقال للبرية بادية لظهورها. وبدى أن أفعل كذا، أى ظهر لى رأى غير الأول. وقال الأزهري: معناه فيما يسدو لنا من الرأى. ويجوز أن يكون «بَادِيَ الرَّأْيِ» من بدا يبدأ وحذف الهزمة. وحقق أبو عمرو الهزمة فقرا «بَادِيَ الرَّأْيِ» أى أقول الرأى؛ أى أتبعوك حين أتبدءوا ينظرون، ولو أمعنوا النظر والفكر لم يتبعوك؛ ولا يختلف المعنى هنا بالهمز وترك الهمز. وانتصب على حذف «فى» كما قال عز وجل: «وَآخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ». ﴿وَمَا زِلْ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ﴾ أى فى اتباعه؛ وهذا مجدهم لنبوته. ﴿بَلْ نَقُفُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾ الخطاب لنوح ومن آمن معه.

قوله تعالى : قَالَ يَقَوْمِ اَرَأَيْتُمْ اِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَيْتُ
رَحْمَةً مِّن عِندِي فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ اَتُزْمِكُمُوهَا وَاَنْتُمْ لَهَا كَاذِبُونَ ﴿٢٨﴾
وَيَقَوْمِ لَا اَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا اِنْ اَجَرْتُمْ اِلَّا عَلَىٰ اَللّٰهِ وَمَا اَنَا بِطَارِدٍ لِلَّذِيْنَ
ءَامَنُوا اِنْهُمْ مَّلَكُوا رَبَّهُمْ وَلَكِنِّيْ اَرْسَلْتُكُمْ قَوْمًا يَّجَاهِلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَقَوْمِ
مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اَللّٰهِ اِنْ طَرَدْتُمْهُمُ افْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَا اَقُولُ لَكُمْ
عِندِي خَزَائِنُ اَللّٰهِ وَلَا اَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا اَقُولُ اِنِّيْ مَلَكٌ وَلَا اَقُولُ
لِلَّذِيْنَ يَزْدَرِيْنَ اَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اَللّٰهُ خَيْرًا اَللّٰهُ اَعْلَمُ بِمَا فِيْ اَنْفُسِهِمْ
اِنِّيْ اِذَا لَمِنَ الظَّالِمِيْنَ ﴿٣١﴾

قوله تعالى : (قَالَ يَا قَوْمِ اَرَأَيْتُمْ اِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي) اى على يقين ، قاله
ابو عمران الجوني . وقيل : على معجزة ، وقد تقدم في « الأسماء » هذا المعنى . (وَآتَايَ
رَحْمَةً مِّن عِندِي) اى نبوة ورسالة ، عن ابن عباس ، وهى رحمة على الخلق . وقيل : الهداية
إلى الله بالبراهين . وقيل : الإيمان والإسلام . (فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ) اى غيبت عليكم الرسالة
والهداية فلم تفهموها . يقال : غيبت عن كذا ، ونحى على كذا اى لم أفهمه . والمعنى : فغيبت
الرحمة ، فقيل : هو مقلوب ، لأن الرحمة لا تمنى إنما يسعى عنها ، فهو كقولك : أدخلت
في القلنسوة رأسي ، ودخل الحرف في رجل . وفراها الأعمش وحزرة والكشاف : فَعُمِّيَتْ .
بضم العين وتشديد الميم على ما لم يسم فاعله ، اى فعمماها الله عليكم ، وكذا في قراءة ابن « فعمماها »
ذكرها السامري . (اَتُزْمِكُمُوهَا) قيل : شهادة أن لا اله الا الله . وقيل : الماء ترجع
إلى الرحمة . وقيل : إلى البينة ، اى المرمك فيوها ، وأوحىها إليكم ؟ ! وهو استفهام بمعنى
الإنكار ، اى لا يمكن أن اضطركم إلى المعرفة بها ، وإنما قصد نوح عليه السلام بهذا القول

أن يرد عليهم . وحكى الكسافى والفراء « أَنْزَلْنَاهُمْ بِإِسْكَانِ الْمِيمِ الْأُولَى تَخْفِيفًا ، وَفَدَّ أَجَازَ مِثْلَ هَذَا سِيَوِيهِ ، وَأَنْشَدَ :

فَالْيَوْمَ أَنْتَرَبْ غَيْرُ مُسْتَحْفِيفٍ • إِنَّمَا مِنْ اللَّهِ وَلَا وَاعِلٍ

وقال النحاس : ويجوز على قول يونس [فى غير القرآن] أَنْزَلْنَاهُمْ بِإِسْكَانِ الْمِيمِ الْمَصْدَرِ بِمَعْرِى الْمَطْرُوبَةِ ، كَمَا يَقُولُ : أَنْزَلْنَاهُمْ ذَلِكَ . (وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ) أى لا يصح قبولكم لها مع الكراهة عندها . قال قتادة : والله لو استطاع نبي الله نوح عليه السلام لألزمها قومه ، ولكنه لم يملك ذلك .

قوله تعالى : (وَيَأْقُومُ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ) أى على التبليغ ، والدعاء إلى الله ، والإيمان به (مَالًا) فيقبل عليكم . (إِنْ أَنْجَرْتَنِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ) أى نوابى فى تبليغ الرسالة . (وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا) سألوه أن يطرد الأراذل الذين آمنوا به ، كما سألت قريش النبي صلى الله عليه وسلم أن يطرد الموالي والفقراء ، حسب ما تقدم « فى الأعمام » بيانه ، فأجابهم بقوله : (وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا) إِيَّاهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ (يحتمل أن يكون قال هذا على وجه الإِعْظَام لهم بقاء الله عز وجل ، ويحتمل أن يكون قاله على وجه الاختصاص ، أى لو فعلت ذلك لخاصمتنى عند الله ، فيجازيهم على إيمانهم ، ويجازى من طردهم . (وَلَكِنِّي أَرَأَيْتُمْ قَوْمًا تَهْتَفُونَ) فى استزدالك لهم ، وسؤالكم طردهم .

قوله تعالى : (وَيَأْقُومُ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ) قال الفراء : أى يمننى من عذابه . (إِنْ طَرَدْتَهُمْ) أى لأجل إيمانهم . (أَفَلَا تَذَكَّرُونَ) أذعبت النساء فى القول . ويجوز حذفها فنقول : تذكرون .

قوله تعالى : (وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ) أخبر بتذللّه وتواضعه لله عز وجل ، وأنه لا يدعى ما ليس له من خزائن الله ، وهى إنامه على من يشاء من عباده .

(١) البيت لاسمى القيس ، والشاهد فيه تسكين الباء من قوله (أنشرب) فى حال الرفع والوصل . - انشرب الإثم واستعبدته احتمله . والرائل الماحل على الشراب ولم يدعه . - يقول : حلت لي الخمر فلا آمن شرها . - قد رغب بنزول فيها . وكان قد نفرا لأشربها حتى يهلك ناراً .

(٢) الزيادة من النحاس . (٣) راجع ج ٦ ص ٤٢١ وما بعدها طبعه اهل اورشليم .

وأما لا يعلم الغيب ، لأن الغيب لا يعلمه إلا الله عز وجل . (وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ) أى لا أقول إن منزلي عند الناس منزلة الملائكة . وقد قالت العلماء : الفائدة في الكلام الدلالة على أن الملائكة أنصّل من الأنبياء ، لدوامهم على الطاعة ، وأنصّل عبادتهم إلى يوم القيامة ، صلوات الله عليهم أجمعين . وقد تقدم هذا المعنى في « البقرة » . (وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدِرِي أَعْيُنُكُمْ) أى تستغل وتحتقر أعينكم ، والأصل تزدريهم حذف الهاء والميم لطول الأسم . والدال مبذلة من تاء ، لأن الأصل و تزدري تزدري ، ولكن التاء تبدل بعد الأزاي دالا ، لأن الأزاي مجهورة والتاء مهموسة ، فأبدل من التاء حرف مجهور من مخرجها . ويقال : أَوْرَبْتُ عليه إذا عيته . وَذَرَيْتُ عليه إذا حقّرته . وأنشد الفراء :

يُأَعِدُّهُ الصَّدِيقُ وَتَزْدِرِيهِ • حِيلَتْهُ وَبَنَتْهُ الصَّغِيرُ

(لَنْ يُؤْيِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا) أى ليس لاحترامكم لم تبطل أجورهم ، أو ينقص نوابهم . (اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ) فيجازيهم عليه ويؤاخذهم به . (إِنِّي إِذَا لَبِنَ الظَّالِمِينَ) أى إن قلت هذا الذى تقدم ذكره . « وإذا » ملناة ، لأنها متوسطة .

قوله تعالى : قَالُوا يَنْحُوحُ قَدْ جَدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدْلَنَا قَائِنًا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيَكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٢٣﴾ وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أُرِدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرَّهُ قُلْ إِنْ أَفْتَرَيْتُهُ فَعَلَى إِجْرَائِي وَأَنَا بِرِيءٌ مِمَّا تَحْمِلُونَ ﴿٢٥﴾

قوله تعالى : (قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدْلَنَا) أى خاصمتنا فاكثرت

خصوصتنا وبالفيت فيها . والجدل في كلام العرب المبالغة في الخصومة ، مشتق من الجدل

وهو شدة القتل ، ويقال للصقر أيضا أجْدَلُ لشدة في الطير ؛ وقد مضى هذا المعنى في « الأنعام »^(١)
 بأشبع من هذا . وقرا ابن عباس « فَأَكْثَرَتْ جَدَلًا » ذكره الحاس . والجدل في الدين
 مجرّد ، ولهذا جادل نوح والأنبياء قومهم حتى يظهر الحق ، من قبله نوح وأفلح ، ومن رده
 خاب وخسر . وأما الجدال لغير الحق حتى يظهر الباطل في صورة الحق فمذموم ، وصاحبه
 في الذارين ملوم . (فَأَنَّا إِنَّمَا تَعِدُّهُ) أى من العذاب . (وَإِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ) أى قولك .
 قوله تعالى : (قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ) أى إن أراد إهلاككم عذبكم .
 (وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ) أى بفائتين . وقيل : بفالين بكثرتم ، لأنهم أعجبوا بذلك ، كانوا
 ملأوا الأرض سهلاً وجبلاً على ما يأتى .

قوله تعالى : (وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي) أى إبلاغى وأجتهادى فى إيمانكم . (إِنْ أَرَدْتُ
 أَنْ أَصْبَحَ لَكُمْ) أى لأنكم لا تقبلون نصحا ، وقد تقدّم فى « برأه » معنى النصح لغة . (إِنْ كَانَ
 اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ) أى يضلكم . وهذا مما يدل على بطلان مذهب المعتزلة والقدرية ومن
 وافقهما ؛ إذ زعموا أن الله تعالى لا يريد أن يصي العاصي ، ولا يكفر الكافر ، ولا يغوى
 الغاوى ؛ وأنه يفعل ذلك ، والله لا يريد ذلك ؛ فردّ الله عليهم بقوله : « إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ
 يُغْوِيَكُمْ »^(٢) . وقد مضى هذا المعنى فى « الفاتحة » وغيرها . وقد أكذبوا شيخهم اللعين إبليس على
 ما بيناه فى « الأعراف » فى إغواء الله تعالى إياه حيث قال : « فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي » ولا يحصى
 لهم عن قول نوح عليه السلام : « إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ » فأضاف إغواءهم إلى الله
 سبحانه وتعالى ؛ إذ هو الهادى المضلّ ، سبحانه عما يقول الجاحدون والظالمون علواً كبيراً .
 وقيل : « أَنْ يُغْوِيَكُمْ » يهلككم ؛ لأن الإضلال يُفضى إلى الهلاك . الطبرى : « يغويكم »
 يهلككم بعذابه ؛ حكى عن طى : أصبح فلان غاوياً أى مريضاً ، وأغويته أهلكتهم ومنه
 « قَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا » . (هُوَ رَبُّكُمْ) قاله الإغواء ، وإليه الهداية . (وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)
 تهديد ووعيد .

(١) راجع ٧٠ ص ٧٧ طبة أول أوثانية . (٢) فى تفسير قوله تعالى : « ليس على الضعفاء ... »

آية ٥٤ (٣) راجع ١٠ ص ١٤٩ طبة ثانية أول طبة ١٠ ص ٢٠ طبة أول أوثانية

قوله تعالى : ﴿ اَمْ يَقُولُونَ اقْرَأْهُ ﴾ يعنون النبي صلى الله عليه وسلم . اقترى اقبل ؛ أى اختلق القرآن من قبل نفسه ، وما اخبر به عن نوح وقومه ؛ قاله مقاتل . وقال ابن عباس : هو من عبادة نوح لقومه وهو أظهر ؛ لأنه ليس قبله ولا بعده إلا ذكر نوح وقومه ؛ فالخطاب منهم ولم . ﴿ قُلْ إِنْ أَقْرَبْتُهُ ﴾ أى اختلقته واقتلته ، يعنى الوحي والرسالة . ﴿ قُلْ إِبْرَاهِيمَ ﴾ أى عقاب إبراهيم ، وإن كنت حقا فإيا أقوله فعليكم عقاب تكذيبى . والإجرام مصدر أجرم ؛ وهو اقتراف السيئة . وقيل : المعنى أى جزاء جرئى وكسبى . وجرم وأجرم بمعنى ؛ عن الناس وغيره . قال :

طريدٌ عشيرة ورهينُ جُرم • بما جرمت يدي وحقى لسانى

ومن قرأ « وأبراهيم » بفتح الميم ذهب إلى أنه جمع جُرم ؛ وذكره النحاس أيضا . ﴿ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا يُجْرِمُونَ ﴾ أى من الكفر والتكذيب .

قوله تعالى : ﴿ وَأَوْحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَهِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ ١ وَأَصْنَعِ الْفُلَكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ ﴾ ٢

قوله تعالى : ﴿ وَأَوْحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ ﴾ « أنه » فى موضع رفع على أنه اسم ما لم يُسم فاعله . ويموز أن يكون فى موضع نصب ، ويكون التقدير بأنه . و « آمن » فى موضع نصب « يؤمن » ومعنى الكلام الإياس من إيمانهم ، واستدامة كفرهم ، تحقيقا لنزول الوعيد بهم . قال الضحاك : فدعا عليهم لما أخبر بهذا فقال : « رَبِّ لَا تَقْرَ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دِيَارًا » الآيتين . وقيل : إن رجلا من قوم نوح حمل ابنه على كتفه ، فلما رأى السبى نوحا قال لأبيه : أعطنى حجرا ، فأعطاه حجرا ، ورى به نوحا عليه السلام فأدماه ؛ فأوحى الله تعالى إليه « أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ »

(١) البيت المبردان السدى أحد لصوص بن سعد . (اللسان) .

آمن . (فَلَا تَبْكِينَ يَا كَاثِرَاتُ الْقُلُوبِ) أى فلا تنتم بهلاكهم حتى تكون إناء أى حزينا .
والبلوس الحزن؛ ومنه قوله الشاعر :

وكم من خليل أو حميم رزنته • فلم أبنتس بالرزء فيه جليل
يقال أبئاس الرجل إذا بلغه شئ يكرهه • والأبئاس جزى فى أمتكاته •

قوله تعالى : (وَأَصْنَعُ الْفُلَكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيُنَا) أى أعجل السفينة لتركبها أنت ومن آمن
ملك . « بأعيننا » أى بمرأى منا وحيث نراك . وقال الربيع بن أنس : بحفظنا إياك حفظ
من يراك . وقال ابن عباس رضى الله عنهما : بحراستنا؛ والمعنى واحد؛ فبهر معنى الرؤية
بالأعين؛ لأن الرؤية تكون بها . ويكون جمع الأعين للعظمة لا للتكثير؛ كما قال تعالى : « قَتِمَ
الْقَادِرُونَ » « قَتِمَ الْمُسَاهِدُونَ » « وَإِنَّا لَمُوسِمُونَ » . وقد يرجع معنى الأعين فى هذه الآية
وغيرها إلى معنى عين؛ كما قال : « وَلَتَصْنَعَنَّ عَلَى عَيْنِي » وذلك كله عبارة عن الإدراك والإحاطة
وهو سبحانه ممتد عن الحواس والتشبيه والتكليف؛ لا رب غيره . وقيل : المعنى « بأعيننا »
أى بأعين ملائكتنا الذين جعلناهم عيوناً على حفظك ومعونتك ؛ فيكون الجمع على هذا التكثير
على بابيه . وقيل : « بأعيننا » أى بعلما؛ قاله مقاتل : وقال الضحاك وسفيان : « بأعيننا »
بأمرنا . وقيل : بإرجينا . وقيل : بمعونتنا لك على صنعها . « ووحينا » أى على ما أوحينا
إليك من صنعها . (وَلَا تَحْطِطِي فِي الدِّينِ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُخْرَقُونَ) أى لا تطلب إهمالهم فإني
مفسرهم •

قوله تعالى : وَيَصْنَعُ الْفُلَكَ وَكَلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ بَخْرُوًا
مِنْهُ . قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٧﴾ فَسَوْفَ
تَعْلَبُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحْمِلْ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴿٣٨﴾ حَتَّى إِذَا
جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ
إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٩﴾

فوله تعالى: ﴿ وَبَصَّعُ الْفَلَكِ ﴾ أى وطلق بصنع . قال زيد بن أسلم : مكث نوح صلى الله عليه وسلم مائة سنة يفرس الشجر ويقطعها ويبسها ، ومائة سنة يعملها . وروى ابن القاسم عن ابن أشرس عن مالك قال : بلغني أن قوم نوح ملأوا الأرض ، حتى ملأوا السهل والجبل ، فما يستطيع هؤلاء أن ينزلوا إلى هؤلاء ، ولا هؤلاء أن يصعدوا إلى هؤلاء ، فكث نوح يفرس الشجر مائة عام لعمل السفينة ، ثم جمعها ببسها مائة عام ، وقومه يسخرون ، وذلك لما راوه يصنع من ذلك ، حتى كان من قضاء الله بهم ما كان . وروى عن عمرو بن الحارث قال : عمل نوح سفينة ببقاع دمشق ، وقطع خشبها من جبل لبنان . وقال القاضي أبو بكر بن العربي : لما استنفذ الله سبحانه وتعالى من في الأصلاب والأرحام من المؤمنين أوصى الله إليه « أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فأصنع الملك » قال : يارب ما أنا بخيار ، قال : « بل فإن ذلك بعني » فأخذ القدم جفله بسده ، وجعلت يده لا تمطط ، فجعلوا يمزون به ويقولون : هذا الذي يزعم أنه نبي صار نجاراً ، فعملها في أربعين سنة .

وحكى الثعلبي وأبو نصر الفشيري عن ابن عباس قال : اتخذ نوح السفينة في ستين . زاد الثعلبي : وذلك لأنه لم يعلم كيف صنعة الفلك ، فأوصى الله إليه أن أصنعها بكؤجؤ الطائر . وقال كعب : بناها في ثلاثين سنة ، والله أعلم . المهدوي : وجاء في الخبر أن الملائكة كانت تلمه كيف يصنعها ، وأختلفوا في طولها وعرضها ، فمن ابن عباس رضى الله عنهما كان طولها ثلثمائة ذراع ، وعرضها خمسون ، وسبكها ثلاثون ذراعاً ، وكانت من خشب الساج . وكذا قال الكلبي وقبادة وعكرمة كان طولها ثلثمائة ذراع . والذراع إلى المنكب قاله سلمان الفارسي . وقال الحسن البصري : إن طول السفينة ألف ذراع ومائتا ذراع ، وعرضها ثلثمائة ذراع . وحكاها الثعلبي في كتاب المرائس . وروى جلي بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس قال قال الحواريون لعيسى عليه السلام : لو بعثت لنا رجلاً شهد السفينة بمحدثنا عنها ، فأطلق بهم حتى أتى إلى كتيب من زراب فأخذ كفاً من ذلك التراب ، قال أندرون ما هذا :

قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : [هذا كعب^(١) حام بن نوح] قال فصرّب الكتيب بمصاه
وقال : ثم بلّذني الله فإذا هو قائم ينفذ التراب من رأسه ، وقد شاب ، فقال له عيسى :
أحكدا هلكت ؟ قال : لا بل مت وأما شاب ، ولكنني ظننت أنها الساعة فنمّ شيت . قال :
أخبرنا عن سفينة نوح ؟ قال : كان طولها ألف ذراع ومائتي ذراع ، وعرضها ستائة ذراع ،
وكانت ثلاث طبقات ، طبقة فيها الدواب والوحش ، وطبقة فيها الإنس ، وطبقة فيها الطير .
وذكر باقي الخبر على ما يأتي ذكره إن شاء الله تعالى . وقال الكلبّي^(٢) : فيها حكاك النقاش : ودحل
الماء فيها أربعة أذرع ، وكان لها ثلاثة أبواب ، باب فيه السباع والطير ، وباب فيه الوحش ،
وباب فيه الرجال والنساء . ابن عباس : جعلها ثلاث بطون ، البطن الأسفل للوحوش
والسباع والدواب ، والأوسط للطعام والشراب ، وركب هو في البطن الأعلى ، وحمل معه
جسد آدم عليه السلام معترضا بين الرجال والنساء ، ثم دفنه بعد بيت المقدس ، وكان إبليس
صهم في الكونل^(٣) . وقيل : جاءت الحية والمقرب لدخول السفينة فقال نوح : لا أحلكما ،
لأنكما سبب الضرر والبلاء ، فقالتا : احملنا فنحن نضمن لك ألا نضر أحدا ذكرك ، فن
قرأ حين يخاف مضرتهما « سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ » لم نضره ، ذكره الفسيري . وفيه .
وذكر الحافظ بن عساكر في التاريخ له مرفوعا من حديث أبي أمامة قال قال رسول الله صلى
الله عليه وسلم : " من قال حين يمسي صلى الله على نوح وعلى نوح السلام لم تلدغه عقرب
تلك الليلة " . قوله تعالى : (وَكَلَّمَا طُوفُ .) (مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ) .
قال الأخفش واليكساقي يقال : سَخِرْتُ به ومنه . وفي سخرتهم منه قولان : أحدهما - أنهم
كانوا يرونه يبنى سفينة في البر ، فيسخرّون به ويستهزئون ويقولون : يا نوح صرت بعد النبوة
نجارا . الثاني - لما راوه يبنى السفينة ولم يشاهدوا قبلها سفينة بنيت قالوا : يا نوح

(١) كعب في الطبري والدر المنثور والكشاف ، وفي الأصل (فيرسام بن نوح) .

(٢) جاء في البحر : وأحفظوا في ميتنا من التريب وفطروا ، وفي مقصد ارمدة عملها ، وفي المكان الذي عملت
فيه ، ومقدار طولها وعرضها على أقوال متعارضة لم يصح منها شيء .

وقال الصخر الرازي : اعلم أن هذه المباحث لا تستحق ، لأنها أمور لا حاجة إلى معرفتها أبنة ، ولا ينبغي يسمونها
قاعدة أصلا . (٣) الكونل : مؤنر السفينة وفيه يكون الملاصقون ومناعهم . وقيل : هم السكان .

ما تصنع ؟ قال : أتيتي بيتا يمضى على الماء ؛ ففجأوا من قوله وسخروا منه . قال ابن عباس : ولم يكن في الأرض قبل الطوفان نهر ولا بحر ؛ فلذلك سخروا منه ؛ ومياه البحار هي بقية الطوفان . (قَالَ إِنَّ تَسْحَرُوا مِنَّا) أى من فعلنا اليوم عند بناء السفينة . (فَأَنَّا نَسْحَرُ مِنْكُمْ) غدا عند الفرق . والمراد بالسخرية هنا الاستهجال ؛ ومعناه إن تستجهلونا فإنا نستجهلكم كما تستجهلونا .

قوله تعالى : (فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مِّنْ بَآئِهِ عَذَابٌ مُّخِيزٌ) تهديد ، و « مِّنْ » متصلة بـ « سوف تعلمون » و « تعلمون » هنا من باب التصدي إلى مفعوله ؛ أى فسوف تعلمون الذى يأتيه العذاب . ويجوز أن تكون « مِّنْ » استفهامية ؛ أى آتينا بآتيه العذاب ؟ . وقيل : « مِّنْ » في موضع رفع بالأستدراك و « يأتيه » الخبر ، و « مخيزه » صفة لعذاب . حكى الكسائي أن أناسا من أهل الحجاز يقولون : سوف تعلمون ؛ وقال من قال : « ستعلمون » أسقط الواو والفاء جميعا . وحكى الكوفيون : سَفَ تعلمون^(١) ؛ ولا يعرف البصريون إلا سوف تفعل ، وستفعل لثان ليست لإحداهما من الأخرى . (وَيَحْمِلُ عَلَيْهِ) أى يحميه عليه ويترك به . (عَذَابٌ مُّقيمٌ) أى دائم ، يريد عذاب الآخرة .

قوله تعالى : (حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَقَارَ التَّوْرُ) اختلف في التور على أقوال صبعة ؛ الأول — أنه وجه الأرض ، والعرب تسمى وجه الأرض تنورا ؛ قاله ابن عباس وعكرمة والزهرى وابن عيسى ؛ وذلك أنه قيل له : إذا رأيت الماء على وجه الأرض فأركب أنت ومن معك . الثانى — أنه تنور الخبز الذى يخبزه ؛ وكان تنورا من حجارة ؛ وكان لحواه حتى صار لنوح ؛ فقيل له : إذا رأيت الماء يغور من التنور فأركب أنت وأصحابك . وأنبج الله الماء من التنور ، فعملت به أمراته فقالت : يا نوح فار الماء من التنور ، فقال : جاء وعد ربى حقا . هذا قول الحسن ؛ وقاله بخاشد وعطية عن ابن عباس ؛ الثالث — أنه

(١) ورد في اللسان : قد قالوا سويكون لحذفوا اللام ، وما يكون لحذفوا اللام ؛ يقولون العين طلب الحذف ؛ وصف يكون لحذفوا العين .

موضع اجتماع الماء في السفينة ، عن الحسن أيضا . الرابع - أنه طلوع الفجر ، وورد
الصبح ، من قولهم تور الفجر تنويرا ؛ قاله علي بن أبي طالب رضي الله عنه . الخامس -
أنه مسجد الكوفة ؛ قاله علي بن أبي طالب أيضا ، وقاله مجاهد . قال مجاهد : كان ناحية
التور بالكوفة . وقال : اتخذ نوح السفينة في جوف مسجد الكوفة ، وكان التور على يمين
الدخل مما على كعنة . وكان دوران الماء منه علما لنوح ، ودليلا على هلاك قومه . قال
الشاعر وهو أمية :

فار تنوهم وجاش بماء • صار فوق الجبال حتى علاها

السادس - أنه أعلى الأرض ، والمواضع المرتفعة منها ؛ قاله قتادة .

السابع - أنه المين التي بالجزيرة « عين الورد » رواه عكرمة . وقال مقاتل : كان
ذلك تور آدم ، وإنما كان بالشام بموضع يقال له « عين وردة » . وقال ابن عباس أيضا .
فار تنور آدم بالمند . قال النحاس : وهذه الأقوال ليست بمناقضة ؛ لأن الله عز وجل أخبرنا
أن الماء جاء من السماء الأرض ؛ قال : « ففتحت أبواب السماء بماء منهمر . وفجرنا الأرض
عيونا » . فهذه الأقوال تجتمع في أن ذلك كان علامة . والفوران الفلاني . والتور اسم الجمع
عربته العرب ، وهو على بناء فاعل ؛ لأن أصل بنائه تور ، وليس في كلام العرب نون قبل
راء . وقبل : معنى « فار التور » التمثيل لحضور العذاب ؛ كقولهم حيي الوطيس إذا أشد
الحرب . والوطيس التور . ويقال : فارت قدر القوم إذا أشد حربهم ؛ قال : سمرتم :
تركتم قدركم لشيء . فيها • وقدر القوم حاميه تور

قوله تعالى : ﴿ قُلْنَا اخْلُفْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ آثِنٍ ﴾ يعني ذكرنا وأثنى ، لبقاء أصل
النسل بعد التوفان . وقرا حفص « مِنْ كُلِّ زَوْجٍ آثِنٍ » تنوين « كل » أي من كل شيء .
زوجين . والقرءان ترجعا إلى معنى واحد معه آخر لا يستغنى عنه . ويقال : آثنين : هما
زوجان ، في كل آثين لا يستغنى أحدهما عن صاحبه ؛ فإن تعرب تسمى كل واحد منهما
زوجا . يدل : له زوجا نعل إذا كان له نعلان . وكذلك عند زوجا حجام ، وعليه زوجا

قِيُودٌ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : « وَابْنَهُ حَتَّى الزَّوْجَيْنِ اللَّهُ تَرَوَاتْنِي » . ويقال للزوجة هي زوج الرجل ، وللرجل هو زوجها . وقد يقال للاتنين هما زوج ، وقد يكون الزوجان بمعنى الشريين والصفيين ، وكل منسرب يدعى زوجا ، قال الله تعالى : « وَأَنْبِئْتُ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَيسِجٍ » . أى من كل لون وصف . وقال الأعشى :

وَكُلُّ زَوْجٍ مِنَ الدِّيَسَاجِ يَلْبِسُهُ • أَبُو قُدَامَةَ عَجَزَ بِذَلِكَ مَعَا

أراد كل ضرب ولون . و « مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ » في موضع نصب بـ « أحمل » . « أَنْبِئ » تأكيد . « وَأَهْلَكَ » أى وأهل أهلك . « إِلَّا مَنْ سَبَقَ » . « مَنْ » في موضع نصب بالاستثناء . « عَلَيْهِ الْقَوْلُ » منهم أى بالملاك ؛ وهو أبنت كنان وأمرأته وأصله كانا كافرين . « وَبَيْنَ آمَنَ » قال الضحاك وابن جرير : أى أحمل من آمن بى ، أى من صدقت ؛ فد « مَنْ » في موضع نصب بـ « ما حمل » . « وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ » قال ابن عباس رضى الله عنهما : آمن من قومه ثمانون إنسانا ، منهم ثلاثة من بنيهم ، سام وحام ويافث ، وثلاث كانين له . ولما خرجوا من السفينة بنوا قرية وهى البسوم تدعى قرية الثمانين بناحية الموصل . وورد في خبر أنه كان في السفينة ثمانية أنفس ؛ نوح وزوجه غير التى عوقبت ، وبنوه الثلاثة وزوجاتهم ؛ وهو قول قتادة والحكم بن عديّة وابن جرير ومحمد بن كعب ؛ فاصاب حام أمرأته في السفينة ، فدعا نوح الله أن ينير نطفته بغياه بالسودان . قال عطاء : ودعا نوح على حام ألا يحدو شعر أولاده أذنانهم ، وأنهم حينما كان ولده يكونون عبيدا لولد سام ويافث . وقال الأعشى : كانوا سبعة ؛ نوح وثلاث كانين وثلاثة بنين ؛ وأسقط امرأة نوح . وقال ابن إسحق : كانوا عشرة سوى نساءهم ؛ نوح وبنوه سام وحام ويافث ، وستة أناس ممن كان آمن به ، وأزواجهم جميعا . و « قَلِيلٌ » رفع بآمن ، ولا يجوز نصبه على الاستثناء ؛ لأن الكلام قبله لم يمت ، إلا أن القائمة في دخول « إلا » و « ما » أنك لو قلت : آمن معه فلان وفلان جاز أن يكون غيرهم قد آمن ؛ فإذا جئت بما وإلا ، أوجبت لما بعد إلا ونفيت عن غيرهم .

قوله تعالى : وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ تَجْرِبْنَهَا وَمُرسَهَا إِنَّ رَبِّي لَنَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٠﴾ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَبْنَىٰ أَرَكَبَ مَعَنَا وَلَا تَكُن مَعَ الْكَافِرِينَ ﴿١١﴾ قَالَ سَوَاوَىٰ لِيَ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿١٢﴾ وَقِيلَ يٰنَارُضْ أَبْلَغِي مَاءَكَ وَيَسْمَأْ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا ﴾ أمر بالركوب ؛ ويحتمل أن يكون من الله تعالى ، ويحتمل أن يكون من نوح لقومه . والركوب الملقى على ظهر الشيء . ويقال : ركبته الدين . وفي الكلام حذف ؛ أي أركبوا الماء في السفينة . وقيل : المعنى أركبوها . و « في » للتأكيد كقوله تعالى : « إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ » وفائدة « ي » أنهم أمروا أن يكونوا في جوفها لا على ظهرها . قال عكرمة : ركب نوح عليه السلام في الفلك لعشر خلون من رجب ، واستوت على الجودي لعشر خلون من المحرم ؛ فذلك سنة أشهر ؛ وقاله قتادة وزاد ؛ وهو يوم عاشوراء ؛ فقال لمن كان معه : من كان صائما فليتم صومه ، ومن لم يكن صائما فليصمه . وذكر الطبري في هذا حديثا عن النبي صلى الله عليه وسلم أن نوحا ركب في السفينة أول يوم في رجب ، وصام الشهر أجمع ، وجرت بهم السفينة إلى يوم عاشوراء ، فيه أرسلت على الجودي ، فصام به نوح ومن معه . وذكر الطبري عن ابن إسحق ما يقتضي أنه أقام على الماء نحو السنة ، ومرت بالبيت فطافت به سبعا ، وقد رفعها الله عن الترق فلم يتلها غرق ، ثم مضت إلى اليمن ، ورجعت إلى الجودي فاستوت عليه .

قوله تعالى : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ تَجْرِبْنَهَا وَمُرسَهَا ﴾ قراءة أهل الحرمين وأهل البصرة بضم الميم فيهما إلا من شذ ، على معنى بسم الله إجراؤها وإرساؤها ؛ فُجراها ومُرساها في موضع رفع

بالابتداء ؛ ويجوز أن تكون في موضع نصب ، ويكون التقدير : بسم الله وقت إبحارها
ثم حذف وقت ، وأقيم « مجراها » مقامه . وقرأ الأعمش وحزرة والكسان « بسم الله تجريها »
بفتح الميم و « مرساها » بضم الميم . وروى يحيى بن عيسى عن الأعمش عن يحيى بن وثاب
« بسم الله تجرّأها ومرسأها » بفتح الميم فيها ؛ على المصدر من جرت تجرى جريا وتجرى ،
ورست رسوا ومرسى إذا ثبتت . وقرأ مجاهد وسليمان بن جندب وعاصم الجحدري وأبو رجا
الطحايري « بسم الله تجريها ومرسبها » نعت لله عز وجل في موضع جر . ويجوز أن يكون
في موضع رفع على إضمار مبتدأ ؛ أي هو تجريها ومرسبها . ويجوز النصب على الحال . وقال
السحاك : كان نوح عليه السلام إذا قال بسم الله تجراها جرت ، وإذا قال بسم الله مرساها
رست . وروى مروان بن سالم عن طاحه بن عبيد الله بن كزيع عن الحسين بن علي عن النبي
صلى الله عليه وسلم قال : « أمان لأمتي من الفزع إذا ركبوا في الفلك بسم الله الرحمن الرحيم
« وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ
سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ » « بسم الله تجريها ومرسأها إن ربي لغفور رحيم » . وفي هذه
الآية دليل على ذكر البسملة عند ابتداء كل فعل ؛ كما يثناه في البسملة ، وألحمد لله . (إن ربي
لغفور رحيم) أي لأهل السفينة . وروى عن ابن عباس قال : لما كثرت الأرواث والأفئدة
أوحى الله إلى نوح أعز ذنب الفيل ، فوقع منه خنزير وخنزيرة فأقبل على الروث ؛ فقال نوح :
لو غمزت ذنب هذا الخنزير ! ففعل ، فخرج منه فار وفارة فلما وقعا أقبل على السفينة وجالها
تفريضا ، وتفرض الأمتة والأزواد حتى خافوا على جبال السفينة ؛ فأوحى الله إلى نوح أن أسبح
جبهة الأسد ففعلها ، فخرج منها سوران فأكلا القنبرة ، ولما حمل الأسد في السفينة قال :
يارب من أين أطعمه ؟ قال : سوف أشغله ، فأخذته الحصى ؛ فهو الدهر محوم . قال ابن عباس :
وأكل ما حمل نوح من البهائم في الفلك حمل الأوزة ، وأحرما حمل الحمام ؛ قال : وتعلق
إيليس بذنبه ، ويدها قد دخلتا في السفينة ، ورجلاه خارجة ممدد ، فيحمل الحمام يضطرب

ولا يستطيع أن يدخل ، فصاح به نوح : أدخل وملك ! فجعل يضطرب ، فقال : أدخل وملك ! وإن كان معك الشيطان ، كلمة زلت على لسانه ، فدخل ووثب الشيطان فدخل ، ثم إن نوحا رآه بنى في السفينة . فقال له : يا لعين ما أدخلك بيتي ؟! قال : أنت أذنت لي ، فذكر له ، فقال له : قم فأخرج . قال : مالك بد في أن تحملني معك ، فكان فيا يزعمون في ظهر الفلك . وكان مع نوح عليه السلام خرزتان مضيئتان ، واحدة مكان الشمس ، والأخرى مكان القمر . ابن عباس : إحداهما بيضاء كياض النهار ، والأخرى سوداء كسواد الليل ، فكان يعرف بهما مواقيت الصلاة ، فإذا أمسوا غلب سواد هذه بياض هذه ، وإذا أصبحوا غلب بياض هذه سواد هذه ، على قدر الساعات .

قوله تعالى : ﴿ وَيَمْحِجْ بِهِنَّ فِي مَوْجٍ كَأَلْبَالٍ ﴾ الموج جمع موجة ، وهي ما أرتفع من جملة الماء الكثير عند اشتداد الريح . والكاف للتشبيه ، وهي في موضع خفض نعت للموج . وجاء في التفسير أن الماء جاوز كل شيء بخمسة عشر ذراعا . ﴿ وَتَأْدَى نُوحٌ أَبْنَاهُ ﴾ قيل : كان كافرا وأسمه كنعان . وقيل : يام . ويمحوز على قول سيبويه « ونادى نوح ابنه » بحذف الواو من « ابنه » في اللفظ ، وأنشد :

لَهُ زَجَلٌ كَأَنَّهُ صَبُوتٌ حَادٍ .

فأما « وَتَأْدَى نُوحٌ أَبْنَاهُ وَكَانَ » فقرة شاذة ، وهي مروية عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ، وعروة بن الزبير . وزعم أبو حاتم أنها تمحوز على أنه يريد « ابنها » حذف الألف كما تقول : « ابنه » ، فتحذف الواو . وقال النحاس : وهذا الذي قاله أبو حاتم لا يجوز على مذهب سيبويه ، لأن الألف خفيفة فلا يجوز حذفها ، والواو ثقيلة يجوز حذفها . ﴿ وَكَانَ فِي مَقَرٍّ ﴾ أي من دين أبيه . وقيل : عن السفينة . وقيل : إن نوحا لم يعلم أن ابنه كان كافرا ، وأنه

(١) البيت منفتح ، والشاهد في (كأنه) حيث حذف الواو ضرورة . وقامه :

• إِذَا طَلَبَ الْوَسِيَّةَ أَوْ زَمِعَ •

يصف حار وحش غائبا يطلب وميتا ، وهي أثناء التي يهجمها ويحميها من رقت الشيء . أي حمته . (شواهد سيبويه) .

ظن أنه مؤمن، ولذلك قال له : (وَلَا تَكُن مَعَ الْكَافِرِينَ) وسيأتي . وكان هذا النداء من قبل أن يستيقن القوم الغرق، وقبل رؤية اليأس ، بل كان في أول ما قار التنور، وظهرت العلامة لنوح . وقرا عاصم (يَا بُنَيَّ أَرَأَيْتَ مِمَّا بَنَعَ الْبَاءُ ، والياقون بكسرهما . وأصل « يا بنى » أن تكون بثلاث ياءات ؛ ياء التصغير، وياء الفعل ، وياء الإضافة ؛ فأدغمت ياء التصغير في لام الفعل ، وكسرت لام الفعل من أجل ياء الإضافة ، وحذفت ياء الإضافة لوقوعها موقع التنوين ، أو لسكونها وسكون الراء في هذا الموضع ؛ هذا أصل قراءة من كسر الباء ، وهو أيضا أصل قراءة من فتح ؛ لأنه قلب ياء الإضافة ألفا خلفه الألف ، ثم حذف الألف لسكونها عوضا من حرف يحذف ، أو لسكونها وسكون الراء . قال النحاس : أما قراءة عاصم فمشككة ؛ قال أبو حاتم : يريد يا بنيَّ ثم يحذف ؛ قال النحاس : رأيت علي بن سليمان يذهب إلى أن هذا لا يجوز ؛ لأن الألف خفيفة . قال أبو جعفر النحاس : ما علمت أن أحدا من النحويين جوز الكلام في هذا إلا أبا إسحق ؛ فإنه زعم أن الفتح من جهتين ، والكسر من جهتين ؛ فالفتح على أنه يدل من الياء ألفا ؛ قال الله عز وجل إخبارا : « يا ويلتنا » وكما قال الشاعر :

• يَا عَجَابًا مِنْ رَحْلِهَا الْمُتَحَلِّلِ •

فيريد يا بنيَّ ، ثم حذف الألف لالتقاء الساكنين ، كما تقول جاءني عبدا الله في التثنية . والجهة الأخرى أن تحذف الألف ؛ لأن النداء موضع حذف . والكسر على أن تحذف الياء للنداء . والجهة الأخرى على أن تحذفها لالتقاء الساكنين .

قوله تعالى : (قَالَ سَآوِي) أى أرجع وأنضم . (إِلَى جَبَلٍ يَعْصِي) أى بمعنى من المساء فلا أغرق . (قَالَ لَأَعِصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ) أى لا مانع ؛ فإنه يوم حق فيه المذاب على الكفار . وأنتصب « عاصم » على التبرئة . ويجوز « لا عاصم اليوم » تكون لا بمعنى ليس . (إِلَّا مَنْ رَجِمَ) في موضع نصب استثناء ليس من الأول ؛ أى لكن من رحمه الله فهو يعصمه ؛ قاله الزجاج . ويجوز أن يكون في موضع رفع ، على أن عاصما بمعنى معصوم ، مثل « ماء دافق » أى مدفوق ؛ فالاستثناء على هذا متصل ، قال الشاعر :

بَطْنِ الْقِيَامِ وَخَيْمِ الْكَلَا • عِ امْتَنَى فَوَادِي بِهِ مَائِيسَا

أَي مَقْتُونَا • وَقَالَ آخَرُ:

دَجَّ الْمَكَارِمَ لَا تَهْبُضْ لِبَيْتِهَا • وَأَقْعَدَ وَأَلَّتْ أَنْتَ الطَّاعِمُ الْكَاسِي

أَي الْمَطْعُومُ الْمَكْسُورُ • قَالَ النَّحَاسُ : وَمَنْ أَحْسَنَ مَا قِيلَ فِيهِ أَنْ تَكُونَ «مَنْ» فِي مَوْضِعٍ رَفِيعٍ ؛ بِمَعْنَى لَا يَصْعَقُ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا الرَّاحِمُ ؛ أَيْ إِلَّا اللَّهُ • وَهَذَا اخْتِبَارُ الطَّبَرِيِّ • وَيُحَسِّنُ هَذَا أَنْكَ لَمْ يَجْعَلْ عَامِمًا بِمَعْنَى مَعْصُومٍ فَتُخْرِجُهُ مِنْ بَابِهِ ، وَلَا «إِلَّا» بِمَعْنَى «لَكِنِّي» • (وَسَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ) بِمَعْنَى بَيْنَ نُوْحٍ وَأَبْنِهِ • (فَكَانَ مِنَ الْمُعْرِقِينَ) قِيلَ : إِنَّهُ كَانَ رَاكِبًا عَلَى فَرَسٍ قَدْ بَطَرَ بِنَفْسِهِ ، وَأَعْجَبَ بِهَا ؛ فَلَمَّا رَأَى الْمَاءَ جَاءَ قَالُ : يَا أَبْتَ فَارِ التَّنُورِ ؛ فَقَالَ لَهُ أَبُوهُ : «يَا بَنِي أَرْكَبْ مَعَنَا» فَمَا اسْتَمْتُمْ الْمَرَاةُ حَتَّى جَاءَتْ مَوْجَةٌ عَظِيمَةٌ فَالْتَقَمَتْهُ هُوَ وَفَرَسُهُ ، وَحِيلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ نُوْحٍ فَفَرَّقَ • وَقِيلَ : إِنَّهُ اخْتَذَ لِنَفْسِهِ بَيْتًا مِنْ زَبَاجٍ يَحْتَصِّنُ فِيهِ مِنَ الْمَاءِ ، فَلَمَّا فَارَ التَّنُورَ دَخَلَ فِيهِ وَأَقْفَلَهُ عَلَيْهِ مِنْ دَاخِلٍ ، فَلَمْ يَزَلْ يَسُوِّطُ فِيهِ وَيَبُولُ حَتَّى غَرِقَ بِذَلِكَ • وَقِيلَ : إِنْ الْجَبَلِ الَّذِي آوَى إِلَيْهِ «هُلُورِسِيْنَاءُ» •

قَوْلُهُ تَعَالَى : (وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلُغِي مَاءَكَ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِي) هَذَا بِمَازَلٍ لَهَا مِنْ مَوَاتٍ • وَقِيلَ : جَعَلَ فِيهَا مَا يُعْزِزُ بِهِ • وَالَّذِي قَالَ إِنَّهُ بِمَازَلٍ قَالُ : لَوْ قُتِلَ كَلَامُ الْعَرَبِ وَالْعِجْمِ مَا وَجَدَ فِيهِ مِثْلَ هَذِهِ الْآيَةِ عَلَى حَسَنِ نَظْمِهَا ، وَبَلَاغَةِ رَصْفِهَا ، وَاشْتِمَالِ الْمَعَانِي فِيهَا • وَفِي الْأَثَرِ : أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَجْعَلُ الْأَرْضَ مِنْ مَطَرٍ فِي عَامٍ أَوْ عَامَيْنِ ، وَأَنَّهُ مَازَلُ مِنَ السَّيَاءِ مَا فَطَرَ إِلَّا لِيَحْفَظَ مَلَكُ مَوْجَلٍ بِهِ إِلَّا مَا كَانَ مِنْ مَاءِ الطُّوفَانِ ؛ فَإِنَّهُ نَجَحَ مِنْهُ مَا لَا يَحْفَظُهُ الْمَلَكُ • وَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : «إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ» بَغَرَتْ بِهِمُ السَّفِينَةُ إِلَى أَنْ تَنَاهَى الْأَمْرُ ؛ فَاصْرَأَتِ الْمَاءُ الْمُنْهَمَرُ مِنَ السَّمَاءِ بِالْإِسْكَاسِ ، وَأَمَرَ اللَّهُ الْأَرْضَ بِالْإِبْتِلَاعِ • يَقَالُ : بَلَغَ الْمَاءُ بَيْلَهُ مِثْلَ مَنْعٍ يَنْعَى وَيَلْعَى بَيْلَهُ مِثْلَ مَنْعٍ يَلْعَى ؛ لِتَنَاقُضِ حِكَايَاهَا الْكَسَائِي وَالْقَزَازَةَ • وَالْبَالُوغَا

الموضع الذي يشرب الماء . قال ابن العربي : التقي المسامان على أمر قد قدير ، ما كان في الأرض وما نزل من السماء ، فأمر الله ما نزل من السماء بالإقلاع ، فلم تخص الأرض منه قطرة ، وأمر الأرض بابتلاع ما خرج منها فقط . وذلك قوله تعالى : « وَيَقِيلُ يَا أَرْضُ ابْلَيْي مَالِكَ وَيَأْتِمَاءُ أَقْلِي وَيَغِيضُ الْمَاءَ » . وقيل : ميز الله بين الماءين ، فما كان من ماء الأرض أمرها قبلته ، وصار ماء السماء بحارا .

قوله تعالى : (وَيَغِيضُ الْمَاءَ) أى قصص ، يقال : غاض الشيء ، وغضته أنا ، كما يقال : قص بنفسه ونقصه غيره ، ويجوز « غيض » بضم النون . (وَيَقِيلُ الْأَمْرُ) أى أحكم وفرغ منه ، يعنى أهلك قوم نوح على تمام وإحكام . ويقال : إن الله تعالى أعظم أرحامهم أى أرحام ناسهم قبل الفرق بأربعين سنة ، فلم يكن فيمن هلك صغير . والصحيح أنه أهلك الرلدان بالطوفان ، كما هلكت الطير والسباع ، ولم يكن الفرق عقوبة للصبيان والبهائم والطير ، بل ماتوا بأجلهم . وسكى أنه لما كثرت المياه في السكك خشيت أم صبي عليه ، وكانت تحبه حبا شديدا ، فخرجت به إلى الجبل ، حتى بلغت ثلثه ، فلما بلغها المياه خرجت حتى بلغت ثلثيه ، فلما بلغها المياه آستوت على الجبل ، فلما بلغ المياه رقبته رفعت يديها بأبنا حتى ذهب بها الماء ، فلورحم الله منهم أحدا لرحم أم الصبي .

قوله تعالى : (وَأَسْتَوَتْ عَلَى الْجُودَى وَيَقِيلُ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) أى هلاكاً لهم . الجودى جبل يقرب الموصل ، استوت عليه في العاشر من المحرم يوم عاشوراء ، فصامه نوح وأمر جميع من معه من الناس والوحش والطير والدواب وغيرها فصاموه ، شكر الله تعالى ، وقد تقدم هذا المعنى . وقيل : كان ذلك يوم الجمعة . وروى أن الله تعالى أوحى إلى الجبال أن السفينة ترسى على واحد منها فتناولت ، وبقي الجودى لم يتناول تواضعا لله ، فاستوت السفينة عليه ، وبقيت عليه أعوادها . وفي الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " لقد بقي منها شيء أدركه أوائل هذه الأمة " . وقال مجاهد : شاخت الجبال وتناولت ثلاثا ينالها الفرق ، فعلا .

(١) أى بأشام الكسرة الصم .

الماء فوقها خمسة عشر ذراعاً، وتطامن الجودي، وتواضع لأمر الله تعالى فلم يفرق، ودرست السفينة عليه . وقد قيل : إن الجودي أسم لكل جبل ، ومنه قول زيد بن عمرو بن نفيل ^(١) :
سُبْحَانَهُ ثُمَّ سُبْحَانَا يَوْمُ لَهُ • وَقَبْلَنَا سَبَّحَ الْجُودَى وَالْجُودَى

ويقال : إن الجودي من جبال الجنة ؛ فلها اسمت عليه . ويقال : أكرم الله ثلاثة جبال ثلاثة نفر؛ الجودي بنوح، وطور سيناء بموسى، وحراء بمحمد صلى الله عليه وسلم .

قلت : لما تواضع الجودي وخضع عزاً ، ولما أرفع غيره وأستل ذل ، وهذه سنة الله في خلقه ، يرفع من يخضع ، ويضع من ترفع ، ولقد أحسن القائل ،

وَإِذَا تَذَلَّلَ الرَّقَابُ تَخَضُّعًا • مِنَّا إِلَيْكَ فَيَعِزُّهَا فِي ذُلِّهَا

وفي صحيح البخاري ومسلم عن أنس بن مالك قال : كانت ناقة للنبي صلى الله عليه وسلم تُسمى الغنمباء ، وكانت لا تُسقى ؛ بغناه أعرابي على فعود له فسبقها ، فاشتد ذلك على المسلمين ؛ وقالوا : سبقت الغنمباء ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن حقاً على الله ألا يرفع شيئاً من الدنيا إلا وضعه " . وخرج مسلم عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ما نقصت صدقة من مال وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله " . وقال صلى الله عليه وسلم : " إن الله أوحى إلي أن تواضعوا حتى لا يفني أحد على أحد ولا يفتخر أحد على أحد " . أخرجه البخاري .

مسألة : — نذكر فيها من قصة نوح مع قومه وبعض ذكر السفينة . ذكر الحافظ ابن حساكر في التاريخ له عن الحسن أن نوحاً أقبل رسول بعثه الله إلى الأرض ؛ فذلك قوله تعالى : « وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا » . وكان قد كثرت فيهم المعاصي ، وكثرت الجبابة وعتوا عتواً كبيراً ، وكان نوح يدعوهم ليلاً ونهاراً ، سرّاً وعلانية ، وكان صبوراً حليماً ، ولم يلق أحد من الأتباء أشد مما لقي نوح ؛ فكانوا يدخلون عليه

(١) شبه اللسان لأية بن أبي العتات ، وفي (معجم ياقوت) : هو زيد بن عمرو ، وقيل لورقة بن نوفل . والجند مكث : جبل لبي نصر بن عبد

فيخفونه حتى يترك وليداً، ويضربونه في المجالس ويطرد، وكان لا يدعو على من يصنع به بل يدعوهم ويقول: «رَبِّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَمْلِكُونَ» فكان لا يزيدهم ذلك إلا فراراً منه، حتى أنه ليكلم الرجل منهم فيلث رأسه بثوبه، ويجعل أصبعه في أذنيه ليكلم لئلا يسمع شيئاً من كلامه؛ فذلك قوله تعالى: «وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ». وقال مجاهد وعبد بن عمر: كانوا يضربونه حتى يفتني عليه فإذا أتاه قال: «رَبِّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَمْلِكُونَ». وقال ابن عباس: إن نوحاً كان يضرب ثم يُلث في ليد يلقى في يثته يرون أنه قد مات، ثم يخرج فيدعوم؛ حتى إذا بئس من إيمان قومه جاءه رجل ومنه أبنة وهو يتوكأ على عصا، فقال: يا بُنَيَّ أنظر هذا الشيخ لا يغرتك، قال: يا أبت أحكيتني من العصا، فأخذ العصا ثم قال: ضعني في الأرض فوضعه، فثنى إليه بالعصا فضربه فشبجه شجرة موصحة في رأسه، وسالت السماء؛ فقال نوح: «رَبِّ قَدْ تَرَى مَا يَفْعَلُ بِي جِهَادُكَ فَإِنَّ يَدَكَ لَكَ فِي عِبَادِكَ خَيْرٌ مِنْ قَوْمِي وَإِنْ يَكُ غَيْرُ ذَلِكَ فَصَبِّرْ نِي إِلَى أَنْ تَحْكُمَ وَأَنْتَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ» فأوحى الله إليه وأبسه من إيمان قومه، وأخبره أنه لم يبق في أصلاب الرجال، ولا في أرحام النساء مؤمن؛ قال: «وَأُوحِيَ إِلَيَّ نُوحٌ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ»؛ أي لا تحزن عليهم؛ «وَأَصْحَ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا» وَوَحْيَنَا قال: يارب رابض الخشب؟ قال: أغرس الشجر. قال: فغرس الساج عشرين سنة؛ وكف عن الدعاء، وكفوا عن الاستهزاء، وكانوا يسخرون منه؛ فلما أدرك الشجر أمره ربه فقطعها وجففها، فقال: يارب كيف أتخذ هذا البيت؟ قال: أجعله على ثلاثة صفوف؛ رأسه كراس الديك، وجوؤه كجوؤ الطير، وذنبه كذنب الديك؛ وأجعلها مطبقة وأجعل لها أبواباً في جنبها، وشدها بدسّر، بنى مسامير الحديد. ولعبث الله جبريل فعلمه صنعة السفينة، وجعلت يده لا تهطل. قال ابن عباس: كانت دار نوح عليه السلام دمشق، وأنشأ سفينة من خشب لبنان بين زمزم وبين الركن والمقام، فلما كملت حمل فيها السباع والدواب في الباب الأفل، وجعل الوحش والطير في الباب الثاني، وأطبق عليهما،

وجعل أولاد آدم أربعين رجلا وأربعين امرأة في الباب الأعلى وأطبق عليهم، وجعل الذر معه في الباب الأعلى لضمفها ألا يطاها الدواب .

قال الزهري : إن الله عز وجل بعث ريمحا فحمل إليه من كل زوجين اثنين ، من السباع والطير والوحش والبهائم . وقال جعفر بن محمد : بعث الله جبريل فخرهم ، فحمل يضرب يديه على الزوجين فتقع يده اليمنى على الذكر واليسرى على الأنثى ، فيدخله السفينة . وقال زيد بن ثابت : استصعبت على نوح الماعزة أن تدخل السفينة ، فدفنها بيده في ذنبا ، فمن ثم انكسر ذنبا فصار معقوبا وبدا حياؤها . ومضت النعجة حتى دخلت ففسح على ذنبا فستر حياها ، قال إسحق : أخبرنا رجل من أهل العلم أن نوحا حمل أهل السفينة ، وجعل فيها من كل زوجين اثنين ، وحمل من المهدد زوجين ، فأتت المهددة في السفينة قبل أن تظاها الأرض ، فحملها المهدد فطاف بها الدنيا ليصيب لها مكانا ، فلم يجد طينا ولا ترابا ، فرحمه وبه لحفر لها في قفاه فبرا فدفنها فيه ، فذلك الريش النازي في قفا المهدد موضع القبر ، فذلك ثنات أफीة المعاهد . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " كان حمل نوح معه في السفينة من جميع الشجر وكانت العجوة من الجنة مع نوح في السفينة " ، وذكر صاحب كتاب « العروس » وغيره أن نوحا عليه السلام لما أراد أن يبعث من يأتيه بغير الأوض قال الذجاج : أنا ، فأخذها وختم على جناحها وقال لها : أنت غثومة بختامى لا تطيرى أبدا ، أنت ينتفع بك أمى ، فبعث للفراب فأصاب جيفة فوق عليها فاحتبس فلمته ، ولذلك يقتل في الحرم ، ودعا عليه بالخوف ؛ فذلك لا يأنف البيوت . وبعث الحمامة فلم تجمد فقرارا فوقت على شجرة بارض سبا فحملت ورقة زيتونة ، ورجعت إلى نوح فلم أنها لم تسمكن من الأرض ، ثم بعثا بعد ذلك فطاررت حتى وقعت بواى الحرم ، فإذا الماء قد نصب من مواضع الكعبة ، وكانت طليتها حمراء ، فأخضمت وجلالا ، ثم جاءت إلى نوح عليه السلام فقالت : بشراى منك أن تهب لى اللطوق فى عنى ، والخصاب فى رجلى ، وأسكن الحرم ، ففسح يده على عنقا وطوقها ، ووهب لها الحرة فى رجليها ، ودعا لها ولنريتها بالبركة . وذكر الطبري أنه بعث بعد الفراب

الَّذِينَ هُمْ عَنْ آلِهَتِهِمْ تَبَتُّوا ۚ قَالَ : إِنَّكَ مُنْجَرِئٌ مِمَّا تُفْتَرِى ۚ فَأَصْلَحَ الْخَصْمَةَ وَالْفَرْجَةَ
فَلَمْ يَرْجِعْ ، وَأَخَذَ أَولَادَهُ عِنْدَ رَعَاهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ .

قوله تعالى : وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ
وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴿٦٥﴾ قَالَ يَنْتَوِخُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ
أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تُسْئَلَنَ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي
أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْخٰٓفِلِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ
مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَرَحْمَتِي أَكُنَ مِنَ الْخٰٓسِرِينَ ﴿٦٧﴾
فيه خمس مسائل :

الأولى - قوله تعالى : (وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ) أى دماه . (فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي)
أى من أهل الذين وعدتهم أن تتبهم من الفرق ؛ ففى الكلام حذف . (وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ)
يعنى الصدق . وقال علماؤنا : وإنما سمى نوح ربه أبنيه لقوله : « وأهلك » وترك قوله :
« إلا من سبق عليه القول » فلما كان عنده من أهله قال : « رب إن أبى من أهل » يدل
على ذلك قوله : « ولا تكن مع الكافرين » أى لا تكن بمن لست منهم ؛ لأنه كان عنده مؤمنا
فى ظنه ، ولم يك نوح يقول لربه : « إن أبى من أهل » إلا وذلك عنده كذلك ؛ إذ حال
أن يسأل هلاك الكفار ، ثم يسأل فى إجماع بعضهم ؛ وكان أبوه يُسر الكفر ويظهر الإيمان ؛
فأخبر الله تعالى نوحا بما هو مفرد به من علم الغيوب ؛ أى علمت من حال أبئك ما لم تعلمه
أنت . وقال الحسن : كان ساقيا ؛ ولذلك استعمل نوح أن يسأله . وعنه أيضا : كان
أبى أمراته . دليله قراءة على « ونادى نوح أبنا » . (وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ) ابتداء وخبر .
أى حكمت على قوم بالنجاة ، وعلى قوم بالفرق .

(١) اللوح كصحح : طائر يردى الناساتين بأصوات طيبة ؛ وهو طير بلاد فارس . (حياة الحيوان) .

الثانية - قوله تعالى : (قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ) الذين وعدهم أن
أنجبهم ، قاله سعيد بن جبير . وقال الجمهور : ليس من أهل دينك ولا ولايتك ، فهو من
حذف مضاف ، وهذا يدل على أن حكم الاتفاق في الدين أقوى من النسب . (إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ
صَالِحٍ) فقرأ ابن عباس وعروة وعكرمة ويعقوب والكسائي : « إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ » أى من
الكفر والتكذيب ، وأخاره أبو عبيد . وقرأ الباقون « عَمَلٌ » أى ابنك ذو عمل غير صالح
ملطف المضاف ، قاله الزجاج وغيره . قَالَ :

تَرَجُّعٌ مَا رَمَتْ حَتَّى إِذَا أَذْكَرْتُ . فَأَمَّا هِيَ إِقْبَالٌ وَإِدْبَارٌ

أى ذات إقبال وإدبار . وهذا القول والذي قبله يرجع إلى معنى واحد . ويحوز
أن تكون المساء للسؤال ، أى إن سؤالك لىأى أن أنجبه عمل غير صالح . قاله قتادة . وقال
الحسن : معنى عمل غير صالح أنه ولد على فراشه ولم يكن أبنه . وكان لنير رشفة ، وقاله
أيضا مجاهد . قال قتادة سألت الحسن عنه فقال : والله ما كان أبنه ، قلت إن الله أخبر من
نوح أنه قال : « إن أبى من أهل » فقال : لم يقل منى ، وهذه إشارة إلى أنه كان ابن
أمرأته من زوج آخر ، فقلت له : إن الله حكى عنه أنه قال : « إن أبى من أهل » ونادى
نوح أبنه . ولا يختلف أهل الكلايين أنه أبنه ، فقال الحسن : ومن يأخذ دينه من أهل
الكتاب ! إنهم يكذبون . وقرأ « غفانتها » . وقال ابن جرير : ناداه وهو يحسب أنه
أبنه ، وكان ولد على فراشه ، وكانت أمرأته خاتنته فيه ، ولهذا قال : « غفانتها » . وقال ابن
عباس : ما بنت امرأة نجي قط ، وأنه كان أبنه لصلبه . وكذلك قال الضعاف وعكرمة وسعيد
ابن جبير وميمون بن مهران وغيرهم ، وأنه كان أبنه لصلبه . وقيل لسعيد بن جبير يقول نوح :
« إن أبى من أهل » أكان من أهله ؟ أكان أبنه ؟ فسبح الله طويلا ثم قال : لا إله إلا الله !
يحدث الله عبادا صلى الله عليه وسلم أنه أبنه ، وتقول إنه ليس أبنه ! نعم كان أبنه ، ولكن
كان مخالفا في النية والعمل والدين ، ولهذا قال الله تعالى : « إنه ليس من أهلك » ، وهذا

(١) البيت لمنساء نصف فاة ذهب منها وله ها ، وهو من نصيدة ترفيا أخاها حمرا .

هو الصحيح في الباب إلى شاء الله تعالى بخلافه من قال به؛ وإن قوله : « إنه ليس من أهلك » ليس مما ينفي عنه أنه أبنة . وقوله : « غفائهما » يعني في الدين لا في الفرائض ، وذلك أن هذه كانت تحبر الناس أنه مجنون ، وذلك أنها قالت له : أما ينصرك ربك ؟ فقال لها : نعم . قالت : فمى ؟ قال : إذا فار التور ، فخرجت تقول لقومها : يا قوم والله إنه مجنون ، يزعم أنه لا ينصره الله إلا أن يفور هذا التور ، فهذه خيالاتها . وخيانة الأخرى أنها كانت تدل على الأضياف على ما سياتي إن شاء الله . والله أعلم . وقيل : الولد قد يسمى عملا كما يسمى كسبا ، كما في الخبر « أولادكم من كسبكم » . ذكره القشيري .

الثالثة - في هذه الآية تسلية للخلق في فساد أبنائهم وإن كانوا صالحين . وروى أن ابن مالك بن أنس نزل من فوق ومعه حمام قد فطاه ، قال فسلم مالك أنه قد فهمه الناس . فقال مالك : الأدب أدب الله لا أدب الآباء والأمهات ، والخبر خير الله لا خير الآباء والأمهات . وفيها أيضا دليل على أن الأكر من الأهل لفة وشرطا ، ومن أهل البيت ، فمن وصى لأهله دخل في ذلك أبنة ، ومن تضمنه منزله ، وهو في حياله . وقال تعالى في آية أخرى : « وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَيْتَ الْمُجِيبِينَ . وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ » فسمى جميع من ضمنه منزله من أهله .

الرابعة - ودلت الآية على قول الحسن وبجاهد وغيرهما أن الولد للفراش ؛ ولذلك قال نوح ما قال أخذا بظاهر الفرائض . وقد روى صفيان بن عُيينة عن عمرو بن دينار أنه سمع عبيد بن عمير يقول : نرى رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما قضى بالولد للفراش من أجل ابن نوح عليه السلام ؛ ذكره أبو عمر في كتاب « التمهيد » . وفي الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « الولد للفراش وللماهر الحجر » يريد الخلية . وقيل : الرجم بالحجارة . وقرا عروة بن الزبير « ونهاى نوح أبنها » يريد أبن أمهاته ، وهي ضمير القراءة المتقدمة عنه وعن علي رضي الله عنه ، وهي حجة للحسن وبجاهد ؛ إلا أنها لقراءة شاذة . فلا ترك المتفق عليها . والله أعلم .

الخامسة - قوله تعالى : (إِنْ أَعْطَاكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ) أى أنهلك من هذا السؤال ، وأحذر لك لئلا تكون ، أو كراهية أن تكون من الجاهلين ، أى الآثمين . ومنه قوله تعالى : « يَعْظُمُكَ اللَّهُ أَنْ تَعُدُّوا لِمَنْزِلَةِ أَبَدًا » أى يحذركم الله ويهاجمكم . وقيل : الذى أودعك أن تكون من الجاهلين . قال ابن العربي : وهذه زيادة من الله وموعظة يرفع بها نوسا عن مقام الجاهلين ، ويعليه بها إلى مقام العلماء والعارفين ، فقال نوح : (رَبِّ إِنِّي أَسْأَلُكَ أَنْ تُؤَدِّيَ لِي مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ) وهذه ذنوب الأنبياء عليهم السلام ، ف شكر الله تفضله وتواضعه . (وَإِلَّا تَتَغَيَّرْ لِي) ما فرط من السؤال . (وَتَزَيَّجَنِي) أى بالتوبة . (أَكُنْ مِنَ الْخَائِبِينَ) أى أعمالا . فقال : « يا نوح أهبط بسلام منا » .

قوله تعالى : قِيلَ يَنْتُحِ أَهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنَمَتُهُمْ ثُمَّ يَمْسَعُهُمْ مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾

قوله تعالى : (قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا) أى قالت الملائكة ، أو قال الله تعالى له : أهبط من السفينة إلى الأرض ، أو من الجبل إلى الأرض ، فقد أبتلغت الماء وجفت . « بسلام منا » أى بسلامة وأمن . وقيل : بحسنة . (وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ) أى نعم ثابتة ، مشتق من برك الجبل وهو ثبوته وإقامته . ومنه البركة لثبوت الماء فيها . وقال ابن عباس رضي الله عنهما : نوح آدم الأصغر ، بجميع الخلائق الآن من نسله ، ولم يكن معه في السفينة من الرجال والنساء إلا من كان من ذريته ، على قول قتادة وغيره ، حسب ما تقدم ، وفي التذييل « وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ » . (وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ) قيل : دخل في هذا كل مؤمن إلى يوم القيامة . ودخل في قوله : (وَأُمَمٌ سَنَمَتُهُمْ ثُمَّ يَمْسَعُهُمْ مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ) كل كان إلى يوم القيامة ، روى ذلك عن محمد بن كعب . والتقدير على هذا : وعلى ذرية أم من معك ، وذرية أم ستمتهم . وقيل : « من » للتبويض ، وتكون لبيان الجنس . « وَأُمَمٌ سَنَمَتُهُمْ » ارتفع « وأم » على معنى وتكون أم . قال الأخفش معيدا كما تقول : كملت زيدا وعصرو جالس . وأجاز الفراء في غير القراءة وأما ، وتهديره : ونفع أمما . وأجبت « على » مع

« أم » لأنه مخطوف على الكاف من « عليك » وهي ضمير المجرور، ولا يعطف على ضمير المجرور إلا بإعادة الجار على قول سيويه وغيره. وقد تقدم في « النساء » بيان هذا مستوى في قوله تعالى : « وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ » بالخفض . والباء في قوله : « بسلام » متعلقة بمحذوف ؛ لأنها في موضع الحال ؛ أى أهبط مسأماً عليك . و « مِنَّا » في موضع خبر متعلق بمحذوف ؛ لأنه نصت للبركات . « وعلى أمم » متعلق بما تعلق به « عليك » ؛ لأنه أعيد من أجل المخطوف على الكاف . و « من » في قوله « ممن معك » متعلق بمحذوف ؛ لأنه في موضع جر نعت للأمم . و « معك » متعلق بفعل محذوف ؛ لأنه صلة « لمن » أى ممن استقر معك ، أو آمن معك ، أو ركب معك .

قوله تعالى : تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَذِيبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١١﴾

قوله تعالى : (تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ) أى تلك الأنباء ؛ وفي موضع آخر « ذلك » أى ذلك النبأ والقصص من أنباء ما غاب عنك . (نُوحِيهَا إِلَيْكَ) أى لنفث عليها . (مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ) أى كانوا غير عارفين بأمر الطوفان ؛ والمجوس الآن ينكرونه . وقيل : أراد جهلهم بقصة ابن نوح وإن سمعوا أمر الطوفان على الجملة . (فَاصْبِرْ) أى اصبر يا محمد على القيام بأمر الله بتليغ رسالته ، وما تلقى من أذى العرب الكفار ، كما صبر نوح على قومه . (إِنَّ الْعَاقِبَةَ) في الدنيا بالظفر ، وفي الآخرة بالفوز . (لِلْمُتَّقِينَ) عن الشرك والمعاصي .

قوله تعالى : وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَقَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ۖ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُقْتِرُونَ ﴿١٢﴾ يَقَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجَرْتُمْ ۖ وَلَا عَلَىٰ الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣﴾ وَيَقَوْمِ اسْتَغْفِرُوا

رَبِّكَ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى
قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴿٥٦﴾ قَالُوا يَشْهَدُ مَا جِئْنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ
بِتَارِكِي الْمُنَافَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ إِنْ نَقُولُ
إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي
رَبِّي قَالُوا مَا تَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾ مِنْ دُونِهِ فَكَيْدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونَ ﴿٥٩﴾
إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا
إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٦٠﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ
إِلَيْكُمْ وَبَسْخُفَ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا إِنْ رَبِّي عَلَى
كُلِّ شَيْءٍ حَفِظٌ ﴿٦١﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ
رَحْمَةً مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٦٢﴾ وَتِلْكَ ءَادٌ جَدُّوهُ بَايَعَتْ
رَبَّهُمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٦٣﴾ وَاتَّبَعُوا
فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا ءَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا بَعْدًا
لِعَادٍ قَوْمٍ هُودٍ ﴿٦٤﴾

قوله تعالى : (وَإِلَى ءَادٍ أَنَّهُمْ هُودًا) أي وأرسلنا ؛ فهو معطوف على « أرسلنا
نوحا » . وقيل له أخوهم لأنه منهم ، وكانت القبيلة تجمعهم ؛ كما نقول : يا أخانيم . وقيل :
إنما قيل له أخوهم لأنه من بني آدم كما أنهم من بني آدم ؛ وقد تقدم هذا في « الأعراف »
وكانوا عبدة الأوثان . وقيل : هم عادان ، عاد الأولى وعاد الأخرى ، فهو لا . هم الأولى ؛
وأما الأخرى فهو شقار ولهم المذكوران في قوله تعالى : « إِبْرَاهِيمَ ذَاتَ الْعِمَادِ » . وعاد آسم

رجل ثم استمر على قوم آمنسوا إليه . (قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ) بالخفض على اللفظ ، و « غيره » بالرفع على الموصوع ، و « غيره » بالنصب على الاستثناء . (إِنَّ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ) أى ما أنتم فى اتخاذكم إلهاً غيره إلا كاذبون عليه جل وعز .

قوله تعالى : (يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا عَلَى الَّذِي تَقْرَنَ) تقدم معناه . والبطرة ابتداء الخلق . (أَفَلَا تَعْقِلُونَ) ما جرى على قوم نوح لما كذبوا الرسل .

قوله تعالى : (وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ) تقدم أول السورة . (يُرْسِلُ السَّمَاءَ) جزم لأنه جواب وفيه معنى المجازاة . (عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا) نصب على الحال ، وفيه معنى الكثير ، أى يرسل السماء بالمطر متتابعاً يتلو بعضه بعضاً ، والعرب تحذف الهاء فى يفعل على النسب ، وأكثر ما يأتى يفعل من أنزل ، وقد جاء هاهنا من قلل ، لأنه من دوت السماء تَدِرُ وتَدِرُ فهو مدرار . وكان قوم هود أعنى عاداً أهل بساتين وزروع وعمارة ، وكانت مساكنهم الرمال التى بين الشام واليمن كما تقدم فى الأعراف . (وَيزِدُكُمْ) حطف على يرسل . (قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ) قال مجاهد : شدة على شدتكم . الضعالك : خصباً إلى خصبكم . على بن عيسى : عزاً على عزكم . حكمة : ولذا إلى ولدكم . وقيل : إن الله حبس عنهم المطر ثلاث سنين فلم يولد لهم ولد ، فقال لهم هود : إن أنتم أحبى الله ببلادكم وورثكم المال والولد ، تلك النسوة . وقال الزجاج : المعنى يزدكم قوة فى النعم . (وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ) أى لا تعرضوا عما أذعنكم إليه ، وتقيموا على الكفر .

قوله تعالى : (قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ) أى حجة واضحة . (وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤَيِّنِينَ) إصرار منهم على الكفر .

قوله تعالى : (إِنْ تَقُولُ إِلَّا أُتْرَاكَ) أى أصابك . (بِمَضَى إِلَهِنَا) أى أصابنا . (يُسْأَلُ) أى يجازى لسبب إيحائه عن ابن عباس وغيره . يقال : عمراه الأمر واشتراه إذا ألم به . ومنه : يسأوا القانص والمُعتر . (قَالَ إِنِّى أَنشَيْدُكُمْ) أى على راس .

﴿ وَأَشْهَدُوا ﴾ أى وأشهدكم ، لأنهم كانوا أهل شهادة ، ولكن نهاية للتغريب ، أى لعرفوا
 ﴿ إِنِّي بَرِيٌّ مِمَّا تُشِيرُونَ ﴾ أى من عبادة الأصنام التى تصدونها . ﴿ فَيَكِيدُونِي جَمِيعًا ﴾ أى لآلئتم
 وأوتانكم فى عدوان وضرى . ﴿ ثُمَّ لَا تَنْظُرُونَ ﴾ أى لا تأنحرون . وهذا القول مع كثرة
 ارتدءاء يدل على كمال ثقة بنصر الله تعالى ، وهو من أعلام النبوة ، أن يكون الرسول وضده
 يقول تقومه : « فَيَكِيدُونِي جَمِيعًا » . وكذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم لقريش ، وقال نوح
 صلى الله عليه وسلم : « فَأَجْعُوا قَوْمَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ » الآية

قوله تعالى : ﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ ﴾ أى رضيت بحكمه ، ووثقت بنصره .
 ﴿ مَا مِنْ دَابَّةٍ ﴾ أى حى تدب على الأرض ، وهو فى موضع رفع بالابتداء . ﴿ إِلَّا هُوَ آخِذٌ
 بِنَاصِيَتِهَا ﴾ أى يصرفها كيف يشاء ، ويمنها بما يشاء ، أى فلا تصلون إلى صرى . وكل ما فيه
 روح يقال له داب وداية ، والماء للبالغة . وقال الفراء : مالكتها ، والقادر عليها . وقال
 القتيبي : قاهرها ، لأن من أخذت بناصره فقد قهرته . وقال الضحاك : يحبسها ثم يمتتها ،
 والمضى متقارب . والناصية قصاص الشعر فى مقدم الرأس . ونصوت الرجل أنصوه نصوا
 أى مددت ناصيته . قال ابن جريج : إنما خص الناصية ، لأن العرب تستعمل ذلك إذا
 وصفت إنسانا بالقلّة والخضوع ، فيقولون : ما ناصية فلان إلا يسد فلان ، أى أنه مطيع له
 يصرفه كيف يشاء . وكانوا إذا أسروا أسيرا وأرادوا إطلاقه والمضى عليه جزوا ناصيته ليعرف
 بذلك نفرا عليه ، فطاطهم بما يعرفونه فى كلامهم . وقال الترمذى : الحكيم فى « نوادر الأصول »
 قوله تعالى : « مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا » وجهه عندنا أن الله تعالى قدر مقادير أعمال
 البعاد ، ثم نظر إليها ، ثم خلق خلقه ، وقد أخذ بصره فى جميع ما هم فيه عاملون من قبل أن
 يخلقهم ، فلما خلقهم وضع نور تلك النظرة فى نواصيتهم ، فذلك النور أخذ بنواصيتهم ، يحرمهم
 إلى أعمالهم المقتدة عليهم يوم المقادير . وخلق الله المقادير قبل أن يخلق السموات والأرض
 بحسين ألف سنة ، ورواه عبد الله بن عمرو بن العاص قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم
 يقول : « قدر الله المقادير قبل أن يخلق السموات والأرض بحسين ألف سنة » . ولهذا

فَوَيْتَ الرُّسُلَ وَاصَرُوا مِنْ أَوَّلِ الْعَزْمِ لِأَنَّهُمْ لَاحْظُوا تَوَرُّ النِّوَاصِي ، وَأَيَقَنُوا أَنَّ جَمِيعَ خَلْقِهِ
مُتَقَادُونَ بِتِلْكَ الْأَتْرَادِ إِلَى مَا نَقَضَ بَصَرَهُ فِيهِمْ مِنَ الْأَعْمَالِ ، فَأَوْفَرَهُمْ حَقًّا مِنَ الْمُلَاحَظَةِ أَقْوَامَ
فِي الْعَزْمِ ، وَلِذَلِكَ مَا قَوَّى هُودَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى قَالَ : « فَيَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ
لَا يَنْظُرُونَ . إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هِيَ آخِذَةٌ بِنَاصِيَتِهَا » . وَإِنَّمَا
سَمِيَتْ نَاصِيَةً لِأَنَّ الْأَعْمَالَ قَدْ نَقَضَتْ وَبَرَزَتْ مِنْ غَيْبِ النَّيْبِ فَصَارَتْ مُتَنَوِّصَةً فِي الْمَقَادِيرِ ،
لَقَدْ نَقَضَ بَصَرُ الْخَلْقِ فِي جَمِيعِ حَرَكَاتِ الْخَلْقِ بِقُدْرَةِ ، ثُمَّ وَضَعَتْ حَرَكَاتُ كُلِّ مَنْ دَبَّ عَلَى
الْأَرْضِ حَيًّا فِي جِهَتِهِ بَيْنَ عَيْنَيْهِ ، فَسَمِيَ ذَلِكَ الْمَوْضِعُ مِنْهُ نَاصِيَةً ؛ لِأَنَّهَا تَتَصَّصُ حَرَكَاتُ الْعِبَادِ
بِمَا قَدَّرَ ، فَالْنَاصِيَةُ مَأْخُذَةٌ بِمَنْصُوصِ الْحَرَكَاتِ الَّتِي نَظَرَ اللَّهُ تَعَالَى إِلَيْهَا قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَهَا .
وَوَصَفَ نَاصِيَةَ أَبِي جَهْلٍ فَقَالَ : « نَاصِيَةٌ كَاذِبِيَّةٌ خَاطِلِيَّةٌ » . يُخْبِرُ أَنَّ النِّوَاصِي فِيهَا كَاذِبَةٌ
خَاطِلِيَّةٌ ، فَعَلَى سَبِيلِ مَا نَأْوِلُهُ يَسْتَحِيلُ أَنْ تَكُونَ النَاصِيَةُ مَنصُوبَةً إِلَى الْكُذْبِ وَالْخَطَا . (إِنَّ
رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) قَالَ النَّحَّاسُ : الْقَصْرُاطُ فِي اللُّغَةِ الْمُنْهَاجُ الْوَاضِحُ ، وَالْمَعْنَى أَنَّ اللَّهَ جَلَّ
شَأْنُهُ وَإِنْ كَانَ يَنْقُصُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ فَإِنَّهُ لَا يَأْخُذُهُمْ إِلَّا بِالْحَقِّ . وَقِيلَ : مَعْنَاهُ لَا خَلَلَ
فِي تَدْبِيرِهِ ، وَلَا تَخَاوُتَ فِي خَلْقِهِ سِبْطَانَهُ .

قوله تعالى : (فَإِنْ تَوَلَّوْا) فِي مَوْضِعٍ جَرَمَ ؛ فَذَلِكَ حَذَفَ مِنْهُ النُّونَ ، وَالْأَصْلُ تَوَلَّوْا ،
لَحَذَفَتْ النِّسَاءُ لِاجْتِمَاعِ تَأْوِيلِ . (فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أَرْسَلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ) بِمَعْنَى قَدْ بَيَّنْتُ لَكُمْ .
(وَيَسْتَنْتِفِثُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ) أَيِ يَهْلِكُكُمْ وَيَخْلُقُ مِنْ هُوَ أَطْلُوعُ لَهُ مِنْكُمْ يُوَحِّدُونَهُ وَيَعْبُدُونَهُ .
« وَيَسْتَنْتِفِثُ » مَقْطُوعٌ مَا قَبْلَهُ فَلِذَلِكَ أَرْفَعُ ، أَوْ مَقْطُوفٌ عَلَى مَا يَجِبُ فَيَأْبَدُ النَّفْسُ مِنْ قَوْلِهِ ؛
« فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ » . وَرَوَى عَنْ حُفْصِ بْنِ غَاصِمٍ « وَيَسْتَنْتِفِثُ » بِالْجُزْمِ حَمَلًا عَلَى مَوْضِعِ
النَّفْسِ وَمَا بَعْدَهَا ، مِثْلُ « وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ » .

قوله تعالى : (وَلَا تَضُرُّهُ شَيْءٌ) أَيِ سُبُولِكُمْ وَإِعْرَاضِكُمْ . (إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ
شَيْءٍ حَفِيفٌ) أَيِ لِكُلِّ شَيْءٍ حَافِظٌ . « عَلَى » بِمَعْنَى الْإِلَامِ ، فَهُوَ يَعْنِي أَنَّ تَأْوِيلَ بَسْمِهِ .

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا ﴾ أى عذابنا بهلاك عاد . ﴿ نَجَّيْنَا هُودًا وَالدِّينَ آمَنُوا مَعَهُ رَحْمَةً مِنَّا ﴾ لأن أحدا لا ينجو إلا برحمة الله تعالى ، وإن كانت له أعمال صالحة . وفي صحيح مسلم والبخارى وغيرهما عن النبي صلى الله عليه وسلم " لن يُنجى أحدا منكم عمله " قالوا ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : " ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته " . وقيل : معنى « برحمة منا » بأن ينالهم الهدى الذى هو رحمة . وكانوا أربعة آلاف . وقيل : علامة الآلاف . ﴿ وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ مَّذَابٍ قَلِيلٍ ﴾ أى عذاب يوم القيامة . وقيل : هو الریح المقيم كما ذكر الله في « الذاريات » وغيرها وسياق . قال القشيري أبو نصر : والعذاب الذى يتوعد به النبي أمته إذا حضره نجيى الله منه النبي والمؤمنين معه ؛ نعم ! لا يبعد أن ينزل الله نيا وقومه فيجمعهم بلاء . فيكون ذلك عقوبة للكافرين ، وتحريصا للمؤمنين ، إذا لم يكن مما توعدهم النبي به .

قوله تعالى : ﴿ وَبَلَّغْ عَادَ ﴾ ابتداء وخبر . وحكى الكاسى أن من العرب من لا يصرف « عادا » فيجمله أسماء لليلة . ﴿ تَجَدَّوْا يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا بِالْمُعْجَزَاتِ وَأَنْكِرُوهَا . ﴾ (وَعَصَوْا رُسُلَهُ) أى هودا وحده ، لأنه لم يرسل إليهم من الرسل سواه . ونظيره قوله تعالى : « يا أيها الرسل كلوا من الطيبات » أى النبي صلى الله عليه وسلم وحده ؛ لأنه لم يكن في عصره رسول سواه ، وإنما جمع هذا لأن من كذب رسولا واحدا فقد كفر بجميع الرسل . وقيل : عصوا هودا والرسل قبله ، وكانوا يبحث لو أرسل إليهم ألف رسول لمجدوا الكل . ﴿ وَأَتَّبِعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ أى أتبع سقاظهم رؤساءهم . والجبار المتكبر . والعنيد الطاغى الذى لا يقبل الحق ولا يذعن له . قال أبو عبيد : العنيد والمنزود والعنيد والمعاند المعارض بالخلاف . ومنه قيل لليرق الذى يتفجر بالدم عائد . قال الرازي :

• إِنَّ كِبِيرًا لَا أُطِيقُ التَّنَادَ •

قوله تعالى : ﴿ وَاتَّبِعُوا فِي هَيْدِهِ الدُّنْيَا لَعَنَ ﴾ أى ألحقوها . ﴿ رَّبِّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ أى وأتبعوا يوم القيامة مثل ذلك ، فالنصام على قوله : « ويرم القيامة » . ﴿ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا ﴾

رَبِّهِمْ ﴿ قَالَ الْفَرَزْدَاقُ : أَيْ كَفَرُوا نِعْمَةً رَحِمَهُمْ ۚ قَالَ ۚ وَبِالْكَفَرَةِ وَكَفَرَتْ بِهِ ۚ مِثْلُ شُكْرِهِ وَشُكْرَتْ لَهُ ۚ ﴾ (الْأَعْبَادُ لِأَعْدَاءِ قَوْمِ هُودٍ) أَيْ لَا زَالُوا مُبْعِدِينَ عَنْ رَحْمَةِ اللَّهِ ۚ وَابْعَدَ الْهَلَاكَ ۚ وَابْعَدَ التَّبَاعِدَ مِنَ الْخَيْرِ ۚ يُقَالُ : بَعْدَ يَبْعُدُ بَعْدًا إِذَا تَأَخَّرَ وَتَبَاعَدَ ۚ وَيَبْعُدُ بَعْدًا إِذَا هَلَكَ ۚ قَالَ : لَا يَبْعُدَنَّ قَوْمِي الَّذِينَ خُمُ ۚ سَمِ السُّدَّةُ وَآفَةُ الْخُسْرِ

وقال النابغة :

فَلَا تَبْعُدَنَّ إِنَّ النِّيَّةَ مَنُوبٌ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ يَوْمًا بِهِ الْحَالُ زَائِلٌ
قوله تعالى : وَإِلَىٰ مُؤَدَّي أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَقُومُ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ۚ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ
ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ ﴿١١﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى - قوله تعالى : (وَإِلَىٰ مُؤَدَّي أَخَاهُمْ) أَيْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ مُؤَدَّي أَخَاهُمْ) أَيْ فِي النَّسَبِ (صَالِحًا) ۚ وَقَرَأَ يَحْيَىٰ بْنُ وَثَابٍ « وَإِلَىٰ مُؤَدَّي » بِالتَّنْوِينِ فِي كُلِّ التَّوَارِكِ ۚ وَكَذَلِكَ رَوَى عَنْ الْحَسَنِ ۚ وَأَخْتَلَفَ سَائِرُ الْفَرَزْدَاقِ فِيهِ نَصْرُوهُ فِي مَوْضِعٍ وَلَمْ يَصْرَفُوهُ فِي مَوْضِعٍ ۚ وَزَعَمَ أَبُو عُبَيْدَةَ أَنَّهُ لَوْلَا عِصْيَانُ السَّوَادِ لَكَانَ الْوَجْهَ تَرَكَ الصَّرْفَ ۚ إِذَا كَانَ الْأُغْلَبُ عَلَيْهِ الْبَائِثُ ۚ قَالَ النُّعْمَانُ : الَّذِي قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ - رَحِمَهُ اللَّهُ - مِنْ أَنَّ الْغَالِبَ عَلَيْهِ الْبَائِثُ كَلَامُ مُرْدُودٍ ۚ لِأَنَّ مُؤَدَّيًّا يُقَالُ لَهُ سَيٌّ ۚ وَيُقَالُ لَهُ قَبِيلَةٌ ۚ وَلَيْسَ الْغَالِبُ عَلَيْهِ الْقَبِيلَةُ ۚ بَلِ الْأَمْرُ عَلَىٰ ضِدِّ مَا قَالَتْ عِنْدَ سَيُوبَةَ ۚ وَالْأَجُودُ عِنْدَ سَيُوبَةَ فِيمَا لَمْ يُقَلِّ فِيهِ بَنُو فُلَانٍ الصَّرْفُ ۚ نَحْوُ قَرِيشٍ وَتَقِيفٍ وَمَا أَشْبَهَهُمَا ۚ وَكَذَلِكَ مُؤَدَّيٌّ ۚ وَالْعِلَّةُ فِي ذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا كَانَ التَّذْكِيرُ الْأَصْلُ ۚ وَكَانَ يَقَعُ لَهُ مَذْكَرٌ وَمَوْثٌ كَانَ الْأَصْلُ الْأَخْفَ أَوَّلًا ۚ وَالتَّائِيثُ جِدُّ بِالْعَيْنِ حَسَنٌ ۚ وَأَنْشَدَ سَيُوبَةُ فِي التَّائِيثِ
ظَلَبَ الْمَسَامِيحَ الْوَلِيدَ سَمَاعَةَ ۚ وَكَفَىٰ قَرِيشَ الْمُعْضَلَاتِ وَمَادَهَا

(١) تقدم شرح البيت في هامش ج ٦ ص ١٤

(٢) البيت لعمري بن الزجاج يمدح الوليد بن عبد الملك ۚ والشاهد فيه ترك صرف قريش حلالاً على معنى التثنية ۚ والصرف فيها أكثر وأحرز لأنهم تصدوا بيا قصد الحى ۚ وظب ذلك عليها - (شواهد سيبويه) ۚ

الثانية - قوله تعالى : ﴿ قَالِ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ ﴾ تقدم ،
 ﴿ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِّنَ الْأَرْضِ ﴾ أى ابتداء خلقكم من الأرض ، وذلك أن آدم خلق من الأرض
 على ما تقدم في « البقرة » و « الأنعام » وهم منه . وقيل : أنشأكم في الأرض . ولا يجوز
 إدغام الماء من « غيره » في الماء من « هو » إلا على لغة من حذف الواو في الإدراج .
 ﴿ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ أى جعلكم عمَّارها وسكَّانها . قال مجاهد : ومعنى « استعمركم » أعمركم .
 من قوله : أعمر فلان فلانا داره ؛ فهى له عمري . وقال قتادة : أسكنكم فيها ؛ وعلى هذين
 القولين تكون استعمل بمعنى أفل ، مثل استجاب بمعنى أجب . وقال الضحاك : أطال
 أعماركم ، وكانت أعمارهم من ثمانية إلى ألف . ابن عباس : أعاشكم فيها ؛ زيد بن أسلم :
 أمركم بعمارة ما تحتاجون إليه فيها من بناء مساكن ، وغرس أشجار . وقيل : المعنى أهلكم
 عمارتها من الحرث والفرس وحفر الأنهار وغيرها .

الثالثة - قال ابن العربي قال بعض علماء الشافعية : الاستمرار طلب المارة ،
 والطلب المطلق من الله تعالى على الوجوب ؛ قال القاضي أبو بكر : تأتي كلمة استعمل في لسان
 العرب على معان : منها ؛ استعمل بمعنى طلب الفعل كقوله : استعملته أى طلبت منه حملا ؛
 وبمعنى اعتقد ، كقولهم : استعملت هذا الأمر أعتقدته سهلا ، أو وجدته سهلا ،
 واستعملته أى أعتقدته عظيما ووجدته ؛ ومنه استعملت بمعنى أصبت ، كقولهم : استعملته
 أى أصبته جيدا ؛ ومنها بمعنى فعل ، كقوله : قر في المكان واستقر ؛ وقالوا وقوله :
 « يستهزئون » « ويستسخرون » منه ؛ فقوله تعالى : « استعمركم فيها » خلقكم لمبارتها ،
 لا على معنى استجدته واستعملته ؛ أى أصبته جيدا وسهلا ، وهذا يستحيل في الخلق ، فيرجع
 إلى أنه خلق ؛ لأنه الفائدة ، وقد يعبر عن الشيء بفائدته مجازا ؛ ولا يصح أن يقال إنه طلب
 من الله تعالى لمبارتها ، فإن هذا اللفظ لا يجوز في حقه ، أما أنه يصح أن يقال أنه استدعى

(٢) راجع ج ١ ص ٣٨٧ وما بعدها

(١) راجع ج ١ ص ٢٧٩ وما بعدها طيبة ثانية أو ثالثة .

عما رتبها فإنه جاء بلفظ استعمل، وهو استنداء الفعل بالقول ممن هو دونه إذا كان أمرا،
وطلب الفعل إذا كان من الأدنى إلى الأعلى [رغبة ^(١)] .

قلت : لم يذكر استعمل بمعنى أفعل، مثل قوله : استوقد بمعنى أوقد، وقد ذكرناه ^(٢)، وهي :

الرائضة - ويكون فيها دليل على الإسكان والعمرى وقد مضى القول في « البقرة »
في السكنى والزقي . وأما العمرى فاختلف العلماء فيها على ثلاثة أقوال : أحدها - أنها تملك لخاصة
الزينة حياة المعمر مدة عمره، فإن لم يذكر عقبا فمات المعمر رجعت إلى الذي أعطاه أو لورثته ؛
هذا قول القاسم بن محمد ويزيد بن قسيط واليث بن سعد، وهو مشهور مذهب مالك، وأحد
أقوال الشافعي، وقد تقدم في « البقرة » حجة هذا القول . الثاني - أنها تملك الزينة ومنافها
وهي هبة مبتولة ^(٣)، وهو قول أبي حنيفة والشافعي وأصحابهما والثوري والحسن بن حي وأحد
ابن حنبل وأبو شربة وأبو عبيد، قالوا : من أعمار رجلا شيئا حياته فهو له حياته، وبعد
وفاته لورثته، لأنه قد ملك رقبته، وشرط المولى الحياة والعمر باطل، لأن رسول الله صلى
الله عليه وسلم قال : « العمرى جائزة » و « العمرى لمن وُهبته له » . الثالث - إن قال
عمرتك ولم يذكر العقب كان كالقول الأول، وإن قال لعقبك كان كالقول الثاني، وبه قال
الزهري وأبو نوح وأبو سامة بن عبد الرحمن وابن أبي ذئب، وقد روى عن مالك ؛ وهو
ظاهر قوله في الموطأ . والمعروف عنه وعن أصحابه أنها ترجع إلى المعمر ؛ إذا انقضى
عقب المعمر ؛ إن كان المعمر نجيا، وإلا فال من كان حيا من ورثته، وأول الناس
بميراثه . ولا يملك المعمر بلفظ العمرى عند مالك وأصحابه رغبة شيء من الأشياء،
وإنما يملك بلفظ العمرى المنفعة دون الرقة . وقد قال مالك في الحبس أيضا : إذا حبس
على رجل وعقبه أنه لا يرجع إليه . وإن حبس على رجل بينه وبينه حيا من ورثته، وكذلك
العمرى قياسا، وهو ظاهر الموطأ . وفي صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله أن رسول الله صلى الله

(١) الزيادة عن ابن العربي . (٢) راجع ج ١ ص ٢١٢ طبع ثانية أو تالفة . (٣) راجع ج ١
ص ٢٩٩ وما بعدها طبع ثانية أو تالفة . (٤) مبتولة : ماضية غير راجعة إلى الواجب .

عليه وسلم قال : ^{٢٢} « يَا رَجُلُ أَغْمِرْ رَجُلًا تُعْمَرُ لَهُ وَلَعَلَّيْهِ فَقَالَ قَدْ أُعْطِيَتْكَهَا وَعَقَبَكَ مَا بَقِيَ مِنْكَ أَحَدٌ فَإِنَّهَا لَمْ تُعْطِهَا وَأَنَّهَا لَا تَرْجِعُ إِلَى صَاحِبِهَا مِنْ أَجْلِ أَنَّهُ أُعْطِيَ عَطَاءً وَقَعَتْ فِيهِ الْمَوَارِيثُ » . وعنه قال : إن العمري التي أجاز رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقول : هي لك ولعقبك ، فاما إذا قال : هي لك ما عشت فإنها ترجع إلى صاحبها ، قال معمر : وبذلك كان الزهري يفتي .

قلت : معنى القرآن يجرى مع أهل القول الثاني ؛ لأن الله سبحانه قال : « وَأَسْتَعْمِرَكُمْ » بمعنى أعمركم ؛ فأعمر الرجل الصالح فيها مدة حياته بالعمل الصالح ، وبعد موته بالذكر الجليل والنساء الحسن ، وبالعكس الرجل الفاجر ؛ فالله ينسأ طرف لما حياة وموتا . وقد يقال : إن الثناء الحسن يجرى بجرى العقب ، وفي التزييل : « وَأَجْمَلُ لِي إِسَانُ صِدْقِي فِي الْآخِرِينَ » أي ثناء حسنا . وقيل : هو عهد صلى الله عليه وسلم . وقال : « وجعلنا ذريته هم الباقيين » وقال : « وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِخْتَقٍ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ » .

الخامسة - قوله تعالى : ﴿ قَاَسْتَغْفِرُوهٗ ﴾ أي سلوه المغفرة من عبادة الأصنام . ﴿ ثُمَّ تَوَبُّوا إِلَيْهِ ﴾ أي أرجعوا إلى عبادته . ﴿ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ ﴾ أي قريب الإجابة لمن دعاه . وقد مضى في « البقرة » عند قوله : « إِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ » القول فيه .

قوله تعالى : قَالُوا يَنْصَلِحْ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ ﴿٢٢﴾ قَالَ يَقَوْمِ أَأَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّنْ رَبِّي وَآتَيْتُ مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ قَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَحْسِيرٍ ﴿٢٣﴾ وَيَقَوْمِ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ ءَايَةٌ فَذُرُّوْهَا تَأْكُلُ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا

يُسْوَءُ فَيَاخْذُكَ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿١١﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ۖ وَعَدَّ غَيْرَ مَكْذُوبٍ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِن خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿١٣﴾ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْعَةَ فَاصْبُحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَثِيمِينَ ﴿١٤﴾ كَأَن لَّرِ يَغْنَوْنَا فِيهَا ۖ آلَا إِنَّا تَمُودًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ ۖ أَلَا بُعْدًا لِّتَمُودَ ﴿١٥﴾

قوله تعالى : (قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا) أى كانوا يرجون أن تكون فينا سيِّداً قبل هذا ؛ أى قبل دعوتك النبوة . وقيل كان صالح يبيع لهمهم ويشترها ، وكانوا يرجون رجوعه إلى دينهم ، فلما دعاهم إلى الله قالوا : انقطع رجائنا منك . (أَتَنَاهَا) استفهام معناه الإنكار . (أُنْ تَبَيْدَ) أى عن أن تبتد . (مَا كَانَ بَعْدَ آبَائِنَا) فان في عمل نصب بإسقاط حرف الجر . (وَإِنَّا لَنَبِيُّكَ) وفى سورة « إبراهيم » : « وَإِنَّا » والأصل وَإِنَّا ؛ فاستغل ثلاث نونات فأسقط الثالثة . (يَمَّا تَدْعُونَا) الخطاب لصالح . وفى سورة « إبراهيم » : « تَدْعُونَا » لأن الخطاب للرسل . (إِلَيْنَا مُرِيبٌ) من أربته فإنا أربيه إنا صلت به فعلا يوجب لديه الرية . قال المحدث :

كُنْتُ إِذَا أَوْتُهُ مِنْ حَيْبٍ • يَتِمُّ عِطْفِي وَيَسْبِرُّ قَوِي
كَأَنَّمَا أَرَبُّهُ رَبِّي •

قوله تعالى : (قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي كُنْتُ عَلَىٰ بَنِي مِنْ رَبِّي وَأَنبِئِي مِنْهُ رَحْمَةً) تقدم معناه في قول نوح . (قَمِنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ) استفهام معناه التنى ؛ أى لا ينصرني منه إن عصيته أحد . (لَمَّا تَرِيدُونَنِي غَيْرَ تَحْسِيرٍ) أى تضليل وإبعاد من الخير ؛ قاله الفراء .

(١). هو خاله بن زعيم المحدث كافي اللسان ؛ وصدر البيت الأول ؛

• باسمهم ما رأيا مذقوب •

(٢) (يزنوني) : يحمله إليه •

والحسير لم لاله صلى الله عليه وسلم، مكانه قال : غير تخسير لكم لالى . وقيل : المعنى ما تريدونى باحتجاجكم بدين آباءكم غير بصيرة بخسارتكم، عن ابن عباس .

قوله تعالى : ﴿ وَيَأْتُونَ هَذِهِ نَافَةَ اللَّهِ ﴾ ابتداء وخبر . ﴿ لَكُمْ آيَةٌ ﴾ نصب على الحال ، والماثل معنى الإشارة أو التنبيه في « هذه » . وإنما قيل نافة الله ؛ لأنه أخرجها لهم من جبل — على ما طلبوا — على أنهم يؤمنون . وقيل : أخرجها من حفرة سماه منفردة في ناحية الجحش يقال لما الكافية ، فلما خرجت النافة — على ما طلبوا — قال لهم صالح : « هذه نافة الله لكم آية » . ﴿ فَذَرُّوْهَا تَآكُلْ ﴾ أمر وجوابه ؛ وحذفت النون من « فذرُّوها » لأنه أمر . ولا يقال وذّر ولا واذر إلا شذ . وللتعويين فيه قولان ؛ قال نيبويه : استنوا عنه بذلك . وقال غيره : لما كانت القواويل قليلة وكان في الكلام قيل بمناه لا واو فيه النوه ؛ قال أبو إسحق الزجاج : ويجوز رفع « تاكل » على الحبل والاستشاف . ﴿ وَلَا تَمْسُوْهَا ﴾ جزم بالنهي . ﴿ وَاسْمُوْا ﴾ قال الفراء : يقر . ﴿ يَأْخُذْكُمْ ﴾ جواب النهي . ﴿ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴾ أى قريب من عقربها .

قوله تعالى : ﴿ مَعْقُرُوْهَا فَيَآئِلُ فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ﴾ فيه مستطان : الأول — قوله تعالى : ﴿ مَعْقُرُوْهَا ﴾ إنما عقربها بعضهم ؛ وأضيف إلى الكل لأنه كان برضا السابقين . وقد تقدم الكلام في عقربها في « الأعراف » . ويأتى أيضا . ﴿ فَيَآئِلُ ﴾ يآئِلوا أى قال لهم صالح فتمتعوا ؛ أى بنتم الله عز وجل قبل العذاب . ﴿ فِي دَارِكُمْ ﴾ أى في بلدكم ، ولو أراد المثل لقال في دوركم . وقيل : أى يجمع كل واحد منكم في داره ومسكنه ؛ كقوله : « يخرجكم طفلا » أى كل واحد طفلا . وعبر عن التمتع بالحياة لأن الميت لا يتلذذ ولا يمتع بشئ ؛ فمقرت يوم الأربعاء ، فاقاموا يوم الخميس والجمعة والسهب وإناهم العذاب يوم الأحد . وإنما أقاموا ثلاثة أيام ؛ لأن ذلك الفصل رفا ثلاثا على ما تقدم في « الأعراف » . فاصفرت ألوانهم في اليوم الأول ، ثم أحمرت في الثاني ، ثم أسودت في الثالث ، وهلكوا في الرابع ؛ وقد تقدم في « الأعراف » .

الثانية - استدلل عليا بما يوجب انه العذاب عن قوم صالح ثلاثة ايام على أن المسافر إذا لم يجتمع على إقامة اربع ليل قصر؛ لأن الثلاثة الأيام خارجة عن حكم الإقامة. وقد تقدم في النساء ما للعلاء في هذا.

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ وَهْدٌ غَيْرُ مَكْنُوبٍ﴾ أي غير كذب. وقيل: غير مكذوب فيه.
قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ أي عذابنا. ﴿فَنَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾
هتدم. ﴿وَمِن نِّجْزِي يَوْمَئِذٍ﴾ أي ونجبتهم من نجزي يومئذ. أي من فضيحة وذلة.
وقيل: الواو زائدة؛ أي نجبتهم من نجزي يومئذ. ولا يجوز زيادتها عند مبيوه وأهل
البصرة، وعند الكوفيين يجوز زيادتها مع «لما» و«حتى» لا غير. وقرا نافع والكسائي
«يَوْمَئِذٍ» بالنصب. الباقرن بالكسر على إضافة «يوم» إلى «إذ». وقال أبو حاتم:
حنسأ ابو زيد عن أبي عمرو أنه قرا «ومن نجزي يَوْمَئِذٍ» ادغم الياء في الياء، وأضاف،
وكسر الميم في «يومئذ». قال النحاس: الذي يرويه الحريون - مثل مبيوه ومن
قاربه عن أبي عمرو في مثل هذا - الإخفاء؛ فاما الإدغم فلا يجوز، لأنه يفتي ما كان،
ولا يجوز، كسر الزاي.

قوله تعالى: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْعَةَ﴾ أي في اليوم الرابع صبح بهم لما تروا؛
وذكر لأن الصيحة والصباح واحد. قيل: صيحة جبريل. وقيل: صيحة من السماء فيها
صوت كل صاعقة، وصوت كل شيء في الأرض، تضطعت قلوبهم وماتوا. وقال هنا:
«وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْعَةَ» وقال في «الأعراف» «فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ» وقد تقدم
بيانه هناك. وفي التفسير: أنهم لما ايقنوا بالعذاب قال بعضهم لبعض ما مقامكم أن ياتيكم
الأمم بنسبة؟ قالوا: فما نضع؟ فأخذوا سيوفهم ورماحهم ومعدنهم، وكانوا فيما يقال
أثنى عشر ألف قبيلة، في كل قبيلة اثنا عشر ألف مقاتل، فوقفوا على الطرق والعياج
لزعزعة يلاقون العذاب؛ فأوحى الله تعالى إلى الملك الموكل بالشمس أن يسخمهم يحرقها
(١) نافع ٢٠٧ ص ٢٠٧ طبة أدلة أدانية. (٢) بايع ٢٠٧ ص ٢٠٧ طبة أدلة أدانية.

فأدناها من رؤسهم فاشتوت أيديهم ، وتدلت السقيم على صدورهم من العطش ، ومات كل ما كان معهم من البهائم . وجعل الماء يتفوز من تلك العيون من غلبانه حتى يبلغ السماء ، لا يسقط على شيء إلا أهلكه من شدة حره ، فما زالوا كذلك ، وأوحى الله إلى ملك الموت ألا يقبض أرواحهم تعذيباً لهم إلى أن غربت الشمس ، فصيح بهم فأهلكوا . (فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَائِعِينَ) أي سافطين هل وجوعهم ، قد لصقوا بالتراب كالطير إذا جئمت . (أَلَا إِنَّ عَمُودَ كَعْبُرُوا بِهِمْ أَلَا بَعْدَ يَتُودَ) تقدم مناه .

قوله تعالى : وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَالَتْ أَنْ جَاءَ بِعَجَلٍ حَنِيدٍ ﴿١١﴾ فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَيْكَ قَوْمَ لُوطٍ ﴿١٢﴾ وَأَمْرُهُمْ قَائِمَةٌ فَضَحِكْتُمْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءَهُ يَاقُوبَ ﴿١٣﴾ يَعْقُوبَ ﴿١٤﴾

قوله تعالى : (وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرَى) هذه قصة لوط عليه السلام ، وهو ابن عم إبراهيم عليه السلام ، وكانت فرى لوط بنواص الشام ، وإبراهيم ببلاد فلسطين ، فلما أزل الله الملائكة بعباد لوط مراً بإبراهيم وزلوا عنده ، وكان كل من نزل عنده يحسن قراه ، وكانوا مراً بشارة إبراهيم ، فظنهم أضيافاً . وهم جبريل وميكائيل وإسراييل عليهم السلام ، قاله ابن عباس . الضحاك : كانوا تسعة . البشري : أحد عشر ملكاً على صورة الغلمان الحسن الوجوه ، ذوو وضاعة وجمال بارع . (وَالْبَشْرَى) قيل : بالولد . وقيل : بإهلاك قوم لوط . وقيل : بشره بأنهم رسل الله عز وجل ، وأنه لا خوف عليه . (قَالُوا سَلَامًا) نصب بوقوع الفعل عليه ، كما تقول : قالوا خبوا . وهذا اختيار الطبري . وأما قوله : « سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ » فالثلاثة أمم غير مقول . ولو رُفعا جميعاً

أو نصباً جميعاً قالوا سلاماً قال سلام « جاز في العرية . وقيل : أنصب على المصدر .
 وقيل : « قالوا سلاماً » أي فاتحوه بصواب من القول . كما قال : « وإذا خاطبهم الجاهلون
 قالوا سلاماً » أي صواباً ؛ فيلما معنى قولهم لا لفظه ؛ قال معناه آتت العربى وأختره .
 قال : ألا ترى أن الله تعالى لما أراد ذكر اللفظ قاله بعينه فقال غيراً عن الملائكة : « سلام
 عليكم بما صبرتم » « سلام عليكم طيبم » . وقيل : دَعَوَاهُ ؛ والمعنى سَلِمْتِ سَلَامًا . (١) قال
 سلام ؛ في رُفْعِهِ وَجِهَان - أحدهما - على إضمار مبتدأ أي هو سلام ، وامرئى سلام .
 والآخر بمعنى سلام عليكم إذا جعل بمعنى التحية ؛ فاضمر الخبر . وجاز سلام على التكرير لكنه
 استعمله ، فحذف الألف واللام كما حذف من لاهم في قولك اللهم . وفري « سلم » قال
 الفراء : السَّلم والسَّلام بمعنى ؛ مثل الحِلِّ والحلال .

قوله تعالى : ﴿ قَالَتْ أَنْ جَاءَ يُعْمِلُ حَنِيدٌ ﴾ فيه أربع عشرة مسألة :^(١)

الأولى - قوله تعالى : ﴿ قَالَتْ أَنْ جَاءَ ﴾ « أن » بمعنى حتى ، قاله كبار
 النحويين ؛ حكاه ابن العربي . التقدير : فإبت حتى جاء . وقيل : « أن » في موضع
 نصب يسقط حرف الجر ؛ التقدير : فإبت عن أن جاء ، أي ما أبطل عن مجيئه بعمل ؛
 فلما حذف حرف الجر بين « أن » في محل نصب . وفي « لبث » ضمير اسم إبراهيم .
 و « ما » نافية ؛ قاله سيوطي . وقال الفراء : فإبت مجيء ؛ أي ما أبطل مجيئه ؛ فإبت
 في موضع رفع ، ولا ضمير في « لبث » ، و « ما » نافية ؛ ويصح أن تكون « ما » بمعنى الذي ،
 وفي « لبث » ضمير إبراهيم . و « أن جاء » خبر « ما » أي فإبت لبث إبراهيم هو مجيء بعمل
 حنيد . و « حنيد » مشوي . وقيل : هو المشوي بمجر المجارة من غير أن تسم النار .
 يقال : حنذت الشاة أحنذها حنذاً أي شويتها ، وجعلت فوقها سجارة تحتمل لتضجها فهي
 حنيد . وحنذت القرمس أحنذها حنذاً ، وهو أن تحضره شوطاً أو شوطين ثم تظاهر عليه
 الجلال في الشمس ليمرق ، فهو يحنوذ وحنيد ؛ فإن لم يمرق قيل كذا . وحنذ موضع قريب

(١) كان الأصل والمائل المذكورة في آية ٧٠ و ٧١ أيضاً لأن هذه الآية لحسب .

من المدينة . وقيل : الحنيد السبيط . ابن عباس وغيره : حنيد نضيج . وحنيد بمعنى
مخوذ؛ وإنما جاء بسجل لأن البقر كانت أكثر أمواله .

الثانية - في هذه الآية من أدب الضيف أن يسجل قراه ، فيقدم الموجود الميسر
في الحال ، ثم يتبعه بغيره إن كان له جدة ، ولا يتكلف ما يضر به . والضيافة من مكارم
الأخلاق ، ومن آداب الإسلام ، ومن خلق النبيين والصالحين . وإبراهيم أول من أضاف
على ما تقدم في « البقرة » وليست بواجبة عند عامة أهل العلم ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم :
« الضيافة ثلاثة أيام وجائزة يوم وليلة فإنا كان وراء ذلك فهو صدقة » . والجائزة العطية
والصلة التي أصلها على النسيب . وقال صلى الله عليه وسلم : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر
فليكرم جاره ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه » . وإكرام الجار ليس بواجب
إجماعاً ، فالضيافة مثله . والله أعلم . وذهب الليث إلى وجوبها تمسكاً بقوله صلى الله عليه
وسلم : « لبلة الضيف حق » إلى غير ذلك من الأحاديث . وفيها إشراك إليه كفاية ، والله
الموفق للهداية . قال ابن العربي : وقد قال قوم : إن وجوب الضيافة كان في صدر
الإسلام ثم نسخ ، وهذا ضعيف ؛ فإن الوجوب لم يثبت ، والناسخ لم يرد ؛ وذكر حديث
أبي سعيد الخدري نحوه الأئمة ، وفيه : « فاستضافهم فأبوا أن يضيّفوا فلدغ سيد ذلك
الحية » الحديث . وقال هذا ظاهر في أن الضيافة لو كانت حقاً لآلّم النبي صلى الله عليه وسلم
للقوم الذين أبوا ، ولين لم ذلك .

الثالثة - اختلف العلماء فيمن يخاطب بها ؛ فذهب الشافعي ومحمد بن عبد الحكم
إلى أن المخاطب بها أهل الحضر والبادية . وقال مالك : ليس على أهل الحضر ضيافة . قال
شحنون : إنما الضيافة على أهل القرى ، وأما الحضر فالتصدق يتدل فيه المسافر . واحتجوا
بحديث ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الضيافة على أهل الوبر وليست على
أهل المتدبر » . وهذا حديث لا يصح ، وإبراهيم ابن أبي عبد الزاق متروك الحديث منسوب

إلى الكذب ، وهذا مما أفرد به ، ونسب إلى وضعه ، قاله أبو عمر بن عبد البر . قال ابن العربي : الضيافة حقيقة فرض على الكفاية ، ومن الناس من قال : إنها واجبة في القرى حيث لا طعام ولا مأوى ، بخلاف الحواضر فإنها مشحونة بالمأواة والأقوات ، ولا شك أن نبيف كريم ، والضيافة كرامة ؛ فإن كان غريبا فهي فريضة .

الرابعة — قال ابن العربي قال بعض علمائنا : كانت ضيافة إبراهيم قليلة فشكرها الحبيب من الحبيب ، وهذا حكم بالظن في موضع القطع ، وبالقياص في موضع النقل ، من أين علم أنه قليل ؟ ! بل قد نقل المفسرون أن الملائكة كانوا ثلاثة ؛ جبريل وميكائيل وإسرافيل صلى الله عليهم وسلم ؛ وعجل الثلاثة عظيم ؛ فما هذا التفسير لكاتب الله بالزأى ؟ ! هذا بأمانة الله هو التفسير المذموم فاجتنبوه فقد علمتموه .

الخامسة — السنة إذا قدم للضيف الطعام أن يبادر المقدم إليه بالأكل ، وإن كرامة الضيف تعجيل التقديم ، وكرامة صاحب المنزل المبادرة بالقبول ، فلما قبضوا أيديهم تكرم إبراهيم ؛ لأنهم خرجوا عن العادة ، وخالفوا السنة ، وخاف أن يكون ورامهم مكروه يقصدونه . وروى أنهم كانوا يكتنون بقداح كانت في أيديهم في اللحم ولا تصل أيديهم إلى اللحم ، فلما رأى ذلك منهم " تَكْرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً " أي أضر . وقيل : أحسن ، والوجوس المخول ؛ قال الشاعر :

جاء السريد بقرطاس يحب به • فاوجس القلب من قرطاسه جرعا

وخيفة خوفا ؛ أي فرعا . وكانوا إذا أداوا الصيف لا يأكل ظنوا به شرا ؛ فقالت الملائكة (لَا تَحْزَنْ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ) .

السادسة — من أدب الطعام أن لصاحب الضيف أن ينظر في ضيفه هل يأكل أم لا ؟ وذلك ينبغي أن يكون بتلفت ومشاركة لا بتعديد النظر . روى أن أعرابيا أكل مع

(١) قداح (جمع قدح بالكسر) : السهم قبل أن يدخل ويراث .

سليمان بن عبد الملك، فرأى سليمان في لقمة الأعرابي شعرة فقال له: أزل الشعرة عن لقمته؛ فقال له: أنتظر إلى نظريمن يرى الشعرة في لقمتي؟ والله لا أكلت منك.

قلت: وقد ذكر أن هذه الحكاية إنما كانت مع هشام بن عبد الملك لا مع سليمان، وأن الأعرابي خرج من عنده وهو يقول:

ولسوت خير من [زيارة] باخل^(١) * يلاحظ أطراف الأكل على عمد

السابعة - قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا يَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ﴾ يقول أنكرهم؛ تقول: نكرت وأنكرتك واستنكرتك إذا وجدته على غير ما عهدته؛ قال الشاعر:

وأنكرني وما كنت الذي نكرت * من الحوايت إلا الشيب والصلفا

بجمع بين اللتين. ويقال: نكرت لما تراه بينك. وأنكرت لما تراه بقلبك.

الثامنة - قوله تعالى: ﴿وَأَمْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ﴾ ابتداء وخبر، أي قائمة بحيث ترى الملائكة. قيل: كانت من وراء الستر. وقيل: كانت تخدم الملائكة وهو جالس. وقال محمد بن إسحق: قائمة تصل. وفي قراءة عبد الله بن مسعود «وَأَمْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ وهو قاعد».

التاسعة - قوله تعالى: ﴿فَضَحِكْتُ﴾ قال مجاهد وعكرمة: حاضت، وكانت آيسة؛ تحقيقاً للبشارة؛ وأنشد على ذلك الثوريون:

وإني لآتي العرس عند طهورها * وأهجرها يوماً إذا تك ضاحكا

وقال آخر،

وضحك الأرنب فوق الصفا * كتل دم الجحوف يوم القفا

والعرب تقول: ضحك الأرنب إذا حاضت؛ وروى عن ابن عباس رضي الله عنهما وعكرمة؛ أخذ من قولهم: ضحكت الكافورة - وهي قشرة الطلعة - إذا انشقت. وقد أنكر بعض الثوريين أن يكون في كلام العرب ضحكت بمعنى حاضت. وقال الجمهور: هو الضحك المعروف، واختلفوا فيه؛ فقيل: هو ضحك التبعجب؛ قال أبو ذؤيب

(١) كما في الفقه الفريد، وفي الأصول (زيارة) - (٢) البيت لا معنى.

نجاء يمزج لم ير الناس مثله . هو الضحك إلا أنه عمل النمل

وقال مقاتل : ضحك من خوف إبراهيم ، وعدته من ثلاثة نفر ، وإبراهيم في حشمه وخدمته . وكان إبراهيم يقسم وحده بمائة رجل . قال : وليس الضحك الحيف في اللغة بمستقيم . وأنكر أبو عبيد والفراء ذلك ؛ قال الفراء : لم أسمعه من ثفة ؛ وإنما هو كناية . وروى أن الملائكة مسحت العجل ، فقام من موضعه فلحق بأمه ، فضحكت سارة عند ذلك فيقروها بإحق . ويقال : كان إبراهيم عليه السلام إذا أراد أن يكرم أضيافه أقام سارة تخدمهم ، فذلك قوله : « وأمرأته قائمة » أى قائمة في خدمتهم . ويقال : « قائمة » لروح إبراهيم « فضحكت » لفسولهم : « لا تخف » سرورا بالأمن . وقال الفراء : فيه تقديس وتأخير ؛ المعنى : فبشرناها بإحق فضحكت ؛ أى ضحكت سرورا بالولد ، وقد هيرمت ؛ والله أعلم أى ذلك كان . قال النحاس فيه أقوال : أحسنها - أنهم لما لم يأكلوا أنكرهم وخافهم ؛ فلما قالوا لا تخف ، وأخبروه أنهم رُسل ، فرح بذلك ، فضحكت أميراته سرورا بفرحه . وقيل : إنها كانت قالت له : أحسب أن هؤلاء القوم سيبتل بهم عذاب فطم لوطا إليك ، فلما جاءت الرسل بما قاله سرت به فضحكت ؛ قال النحاس : وهذا إن صح إسناده فهو حسن . والضحك أنكشف الأسنان . ويجوز أن يكون الضحك إشراف الوجه ؛ يقول : رأيت فلانا ضاحكا ؛ أى مشرقا ، وأتيت على روضة تضحك ؛ أى مشرقة . وفي الحديث « إن الله يبعث السحاب بمصحك أحسن الضحك » . جعل أنجلاء عن البرق ضحكا ؛ وهذا كلام مستعار . وروى عن رجل من قراء مكة يقال له محمد بن زياد الأعرابي « فضحكت » بفتح الحاء ؛ قال المهدوي : وفتح « الحاء » من « فضحكت » غير معروف . وضحك يضحك وضحكا وضحكا وضحكا [أربع لغات ^(١)] . والضحكة المرة الواحدة ، ومنه قول كثير : غَلَقْتُ لَضَحَكِيهِ رِقَابُ الْمَالِ .

قاله الجوهري :

(١) الزيادة من كتب اللغة :

(١) ومنه الضحك هنا بالصل أو التهد . راجع الحاء مادة (ضحك)

• عمر الزهد إذا تبسم ضاحكا •

(٢) صدر البيت :

العاشرة - وروى مسلم عن سهل بن سعد قال : دعا أبو أسيد الساعدي رسول الله صلى الله عليه وسلم في عرسه ، فكانت أسرته يومئذ خادهم وهي العروس . قال سهل : أتدرون ما سقت رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ أفتعت له تمرات من الليل في تور^(١) ، فلما أكل سقته إياه . وأخرجه البخاري وترجم له « باب قيام المرأة على الرجال في العرس وخدمتهم بالنفس » ، قال علماؤنا : فيه جواز خدمة العروس زوجها وأصحابه في عرسها . وفيه أنه لا بأس أن يمرض الرجل أهله على صالح إخوانه ، ويستخدمهم لهم . ويحتمل أن يكون هذا قبل نزول المجانب . والله أعلم .

الحادية عشرة - ذكر الطبري أن إبراهيم عليه السلام لما قدم العجل قالوا : لا تأكل طعاما إلا بئنا ، فقال لهم : « نعم أن تذكروا الله في أكله وتعبدوه في آخره » فقال جبريل لأصحابه : بحق أخذ الله هذا خيلا . قال علماؤنا : ولم يأكلوا لأن الملائكة لا تأكل . وفيه كان من الجائز كما يتر الله للملائكة أن يشتكوا في صفة الآدمي جسدا وهيئة أن ينسب لهم أكل الطعام ؛ إلا أنه في قول العلماء أرسلهم في صفة الآدمي وتكلف إبراهيم عليه السلام الضيافة [حتى إذا رأى التوقف وخاف جاءته البشري بخاة^(٢)] .

الثانية عشرة - ودل هذا على أن التسمية في أكل الطعام ، والحمد في آخره مشروع في الأئمة قبلنا ؛ وقد جاء في الإسرائيليات أن إبراهيم عليه السلام كان لا يأكل وحده ؛ فإذا حضر طعامه أرسل يطلب من يأكل معه ، فلقى يوما رجلا ؛ فلما جلس معه على الطعام ، قال له إبراهيم : سمع الله ، قال الرجل لا أدرى ما الله ؟ فقال له : فانخرج عن طعامي ، فلما خرج نزل إليه جبريل فقال له يقول الله : إنه يرزقه على كفره مدى عمره وأنت تجلت عليه بلقمة ؛ فخرج إبراهيم فرعا يحتر دما ، وقال : أرجع ، فقال : لا أرجع حتى تخبرني لم تردني لغير معنى ؟ فأخبره بالأمر ؛ فقال : هذا رب كريم ، آمنت ؛ ودخل وسقى الله وأكل مؤمنا .

(١) التور : إياه كسرت فيه العرب ، وقد يترنأ منه ؛ ويصنع من صفراء جارة .

(٢) التوراة من ابن شريك .

الثالثة عشرة - قوله تعالى : ﴿ فَبَشِّرْهُمَا بِمَا كَسَبَا ﴾ لما ولد لإبراهيم اسمعيل من هاجر تمت سارة أن يكون لها ابن ، وأُنسيت لكبر سنهما ، فبشرت بولد يكون نيا وولد نيا ، فكان هذا بشارة لها بأن ترى ولد ولدهما .

الرابعة عشرة - قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يُعْقِبُ ﴾ قرأ حمزة ووبد الله بن عامر « يعقوب » بالنصب . ورفع الباقون ، فالرفع على معنى : ويحدث لها من وراء إسحاق يعقوب . ويجوز أن يرفع بالفعل الذي يعمل في « من » كأن المعنى : وثبت لها من وراء إسحاق يعقوب . ويجوز أن يرفع بالأستداء ، ويكون في موضع الحال ، أى بشروها بإسحاق مقابلا له يعقوب . والنصب على معنى : ووهبنا لها من وراء إسحاق يعقوب . وأجاز الكسائي والأخفش وأبو حاتم أن يكون « يعقوب » في موضع جر على معنى : وبشرناها من وراء إسحاق يعقوب . قال الفراء : ولا يجوز النقص إلا بإعادة الحرف الخافض ، قال سيبويه ولولت : مررت بزيد أول من أمس وأمس عمرو كان قبيحا ، لأنك فرقت بين المجرور وما يشركه وهو الواو ، كما تفرق بين الجار والمجرور ، لأن الجار لا يفصل بينه وبين المجرور ، ولا بينه وبين الواو .

قوله تعالى : قَالَتْ يَنْتَوِيْلُنِيْ اٰلِدِىْ وَاَنَا عَجُوْزٌ وَّهٰذَا بَعْلِىْ شَيْخًا ۚ اِنْ

هٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيْبٌ ﴿٥٦﴾

فيه مستثنان :

الأولى - قوله تعالى : ﴿ يَا وَيْلَتَا ۚ قَالَ الزَّجَاجُ : أَصْلَهَا يَا وَيْلَتَا ، فأبدل من الباء ألف ، لأنها أخف من الباء والكسرة ، ولم ترد الدعاء على نفسها بالويل ، ولكنها كلمة تخفف على أفواه النساء إذا طرا عليهن ما يصعب منه ، وعجبت من ولادتها وكون بعلا شيخا لخروجه عن العادة ، وما خرج عن العادة مستغرب ومستنكر . و﴿ اَلِدِىْ ﴾ استفهام معناه التحجب . ﴿ وَاَنَا عَجُوْزٌ ﴾ أى شيخنة . ولقد تجزأت تميز تجزأ وتجزأت تميزا ، أى طعنت في السن .

(١) والوجه منه (وأمس عمرو) .

وقد يقال : عجوزة أيضا . وعجزت المرأة بكسر الجيم ، عظمت عجيزتها عجزاً وتعجزاض العين ونحوها . قال مجاهد : كانت بنت تسع وتسعين سنة . وقال ابن إسحق : كانت بنت تسعين . وقيل غير هذا .

الثانية - قوله تعالى : (وَهَذَا بَلَىٰ) أي زوحي . (شَيْخًا) نصب على الحال ، والعامل فيه التنبيه أو الإشارة . « وهذا بلى » ابتداء وخبر . وقال الأخفش : وفي قراءة ابن مسعود وأبي « وهذا على شيخ » قال النحاس : كما تقول هذا زيد قائم ، فزيد بدل من هذا ، وقائم خبر الابتداء . ويجوز أن يكون « هذا » مبتدأ « وزيد قائم » خبرين ، وحكى صيبويه : هذا حلوقاصص . وقيل : كان إبراهيم ابن مائة وعشرين سنة . وقيل : ابن مائة ، فكان يزيد عليها في قول مجاهد سنة . وقيل : إنها عرّضت بقولها : « وهذا بلى شيخا » أي عن ترك غشيانها لها . وسأزة هذه امرأة إبراهيم بنت هاران بن ناحور بن شاروع بن ارغون فالغ ، وهي بنت حم إبراهيم . (إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ) أي الذي يشرعوني به لشيء عجيب . قوله تعالى : قَالُوا اتَّعَجِبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمَ اللَّهُ وَبَرَكَتُهُ . لَيْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ﴿٦٣﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى - قوله تعالى : (قَالُوا اتَّعَجِبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ) لما قالت : « وأنا عجوز وهذا بلى شيخا » وتعجبت أنكرت الملائكة عليها تعجبها من أمر الله ، أي من فضائه وقدره ، أي لا عجب من أن يرزقك الله الولد ، وهو إسحق . وبهذه الآية استدل كثير من العلماء على أن الذبيح إسحاق ، وأنه أسر من إسحق ، لأنها بشرت بأن إسحق يعيش حتى يولد له يعقوب . وسياق الكلام في هذا ، ويانه في « الصافات » إن شاء الله تعالى .

(١) في تفسير قوله تعالى : « فلما بلغ معه السعي » آية ١٠٢ إلى قوله تعالى : « ومن ذريتهما محسن وظالم » ضربه بين آية ١١٣ .

الثانية - قوله تعالى : (رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ) مبتدأ ، والخبر (عَلَيْكُمْ) . وحكى
سيبويه « عليكم » بكسر الكاف لمجاورها الياء . وهل هو خبر أو دعاء ؟ وكونه إخبارا أنشرف ،
لأن ذلك يقتضى حصول الرحمة والبركة لهم ، المسمى : أوصل الله لكم رحمته وبركاته أهل
البيت . وكونه دعاء إنما يقتضى أنه أمر يُترجى ولم يتحصل بعد . ونصب « أهل البيت »
على الاختصاص ، وهذا مذهب سيبويه . وقيل على النداء .

الثالثة - هذه الآية تمنى أن زوجة الرجل من أهل البيت ؛ فدل هذا على أن أزواج
الأنبياء من أهل البيت ؛ فأنشأ رضى الله عنها وغيرها من جملة أهل بيت النبي صلى الله عليه
وسلم ؛ ممن قال الله فيهم : « وَبُطِّهَرُكُمْ تَطَهُّرًا » وسيأتى .

الرابعة - ودلت الآية أيضا على أن منتهى السلام « وبركاته » كما أخبر الله عن صالح
عاده « رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت » . والبركة انمو والزيادة ؛ ومن تلك البركات أن
جميع الأنبياء والمرسلين كانوا في ولد إبراهيم وسارة . وروى مالك عن وهب بن كيسان عن
أبي سعيد عن محمد بن عمرو بن عطاء قال : كنت جالسا عند عبد الله بن عباس فدخل عليه
رجل من أهل اليمن فقال : السلام عليك ورحمة الله وبركاته ؛ ثم زاد شيئا مع ذلك ؛ فقال
أبو عباس - وهو يومئذ قد ذهب بصره - من هذا ؟ فقالوا اليه : الذى يشاك ؛ فمزقوه
أياه ، فقال : إن السلام انتهى إلى البركة . وروى عن علي رضى الله عنه أنه قال : دخلت
المسجد فإذا أنا بالنبي صلى الله عليه وسلم فى عصبة من أصحابه ، فقلت : السلام عليكم ؛
فقال : « وعليك السلام ورحمة الله عشرون لى وعشرون لك » . قال : ودخلت الثانية ؛ فقلت :
السلام عليكم ورحمة الله فقال : « وعليك السلام ورحمة الله وبركاته ثلاثون لى وعشرون لك » .
فدخلت الثالثة فقلت : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ؛ فقال : « وعليك السلام ورحمة الله
وبركاته ثلاثون لى وثلاثون لك أما وأنت فى السلام سواء » . (إنه حميد مجيد) أى محمود
مأجد . وقد بينهما فى « الأسماء » .

قوله تعالى : فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبَشَرَىٰ يُجَادِلُنَا
 فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّهٌ مُنِيبٌ ﴿٧٧﴾ يَدْعُو إِبْرَاهِيمُ أُعْمِرْ
 عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ لَنَايِمٌ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٨﴾
 قوله تعالى : (فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ) أى الخوف ، يقال : ارتاع من كذا إذا
 خاف ، قال اللبابة :

فارتاع من صَوِيَّتِ كَلَابٍ فَبَاتَ لَهُ . طرَعَ الشَّوَابِتُ من خوف ومن صَدَ
 (وَجَاءَتْهُ الْبَشَرَى) أى يأتى ويقبض . وقال قتادة : بشره بأنهم إنما أتوا بالعباد
 إلى قوم لوط ، وأنه لا يخاف . (يُجَادِلُنَا) أى يجادل رسلنا ، وأضاف إلى نفسه ، لأنهم زلوا
 بأسره . وهذه المجادلة رواها حميد بن هلال عن جندب عن حذيفة ، وذلك أنهم لما قالوا :
 « إنا مهلكو أهل هذه القرية » قال لهم : أرايتم إن كان فيها خمسون من المسلمين
 أتاكمونهم ؟ قالوا : لا . قال : فأربعون ؟ قالوا : لا . قال : فتلاثون ؟ قالوا : لا . قال :
 فمئرون ؟ قالوا : لا . قال : فإن كان فيها عشرة - أو خمسة شك حميد - قالوا : لا .
 قال قتادة : نحووا منه ، قال فقال بنى إبراهيم : قوم ليس فيهم عشرة من المسلمين لا خير
 فيهم . وقبل إن إبراهيم قال : أرايتم إن كان فيها رجل مسلم أتاكمونها ؟ قالوا : لا . فقال
 إبراهيم عليه السلام : « إن فيها لوطا قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجيه وأهله إلا أمرأته
 كانت من الغابرين » . وقال عبد الرحمن بن سُمرة : كانوا أربعمائة ألف . ابن جرير : وكان
 في قرى قوم لوط أربعة آلاف ألف . ومنه الألف والالف والكسائي أن « يجادلنا » في موضع
 « جادلنا » . قاله النحاس : لما كان جواب « لما » يجب أن يكون بالماضي جعل المستقبل
 مكانه ، كما أن الشرط يجب أن يكون بالمستقبل فجعل الماضي مكانه . وفيه جواب آخر - أن
 يكون « يجادلنا » في موضع الحال ، أى أقبل يجادلنا ؛ وهذا قول القراء . (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ)
 (١) الكلاب : صاحب الكلاب . يصف الشاعر نورا وحشا بأنه بات من الخوف الذى أدركه ، والرد الذى
 أصابه ميت سوء ، ويصفه على ذلك الحال يصر أصداءه .

أَوَاهُ مُنِيبٌ ﴿١١﴾ تَقَسَّمُ فِي « بَرَاءةٍ » مَعْنَى « لَأَوْفَاهُ حَلِيمٌ » .. وَالْمُنِيبُ الرَّاجِعُ ؛ يُقَالُ : أَنَابَ إِذَا رَجَعَ . وَإِبْرَاهِيمُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ رَاجِعًا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فِي أُمُورِهِ كُلِّهَا . وَقِيلَ : الْأَوْفَا الْمُنَازَعَةُ اسْتِغْلَالًا عَلَى مَا قَدَفَتْ قَوْمُ لُوطٍ مِنَ الْإِيمَانِ .

قوله تعالى : ﴿ يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا ﴾ أَيْ دَعْ عَنْكَ الْجِدَالَ فِي قَوْمِ لُوطٍ . ﴿ إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ ﴾ أَيْ عَذَابُهُ لَهُمْ . ﴿ وَإِنَّهُمْ أَتِيهِمْ ﴾ أَيْ نَازِلٌ بِهِمْ . ﴿ عَذَابٌ غَيْرُ مُرَدِّدٍ ﴾ أَيْ غَيْرُ مُعْصِرٍ مِنْهُمْ وَلَا مُدْفُوعٍ .

قوله تعالى : وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيقًا بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿١٢﴾ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَنْفِرُونَ هُنَا لَوْلَا بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ﴿١٣﴾ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿١٤﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوَى إِلَيَّ رُكْنٌ شَدِيدٌ ﴿١٥﴾ قَالُوا يَنْلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصْلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أُمَّرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿١٦﴾ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَابًا مِنْ سِجِّيلٍ مُنْقُودٍ ﴿١٧﴾ مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿١٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيقًا بِهِمْ ﴾ لَمَّا خَرَجَتْ الْمَلَائِكَةُ مِنْ عِنْدِ إِبْرَاهِيمَ ، وَكَانَ بَيْنَ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمِهِ لُوطٌ أَرْبَعَةً فَرَاخَ بَصُرَتْ بَنَاتُ لُوطٍ - وَهِيَ تَسْتَقْبِلُهُنَّ - بِالْمَلَائِكَةِ

ورأنا هيئة حسنة؛ فقالنا: ما شأنكم؟ ومن أين أنقلبتم؟ قالوا: من موضع كنا نريد هذه القرية.
فأنا: فإن أهلها أصحاب الفواحش؛ فقالوا: أيها من يضيفنا؟ قالنا: نعم! هذا الشيخ؛
وأشارنا إلى لوط؛ فلما رأى لوط هيئةهم خاف قومه عليهم. ﴿يَسَى يَوْمَ﴾ أى ساء مجيئهم؛
يقال: ساء يسوء فهو لازم، وساء يسوء فهو متعد أيضا، وإن شئت ضمنت السين؛ لأن
أصلها الضم، والأصل سَوَّى بهم من السَّوَّى؛ قلبت حركة الواو على السين فانقلبت ياء،
وإن خففت الهمزة ألقبت حركتها على الياء فقلت: «يَسَى يَوْمَ» غنفا، ولغة شاذة بالتشديد.
﴿وَضَاقَ يَوْمَ ذَرْعًا﴾ أى ضاق صدره بجيئهم وكرهه. وقيل: ضاق وسعه وطاقته. وأصله
أن يذرع البعير بيديه في سيره ذَرْعًا على قدر سعة خطوه؛ فإذا حِيلَ على أكثر من طَوْفه ضاق
عن ذلك، وضمف ومدّ عنقه؛ فضيق الذرع عبارة عن ضيق الوسع. وقيل هو من ذَرَّه
التي أى غلبه؛ أى ضاق عن حبه المكروه في نفسه، وإنما ضاق ذرعه بهم لما رأى من
جألمهم، وما يعلم من فسق قومه. وقال: ﴿هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ أى شديد في الشر. وقال
الشاعر:

وإِنَّكَ إِلَّا تُرِضَ بَكْرَ بْنَ وَاثِلٍ • يَكُنْ لَكَ يَوْمٌ بِالْعِرَاقِ عَصِيبٌ

وقال آخر:

يَوْمٌ عَصِيبٌ يَعَصِبُ الْأَبْطَالَ • عَصَبَ الْقَوَى السَّمَّ الطَّوَالِ

و يقال: عَصِيبٌ وَعَصَبٌ عَلَى التَّكْثِيرِ؛ أى مكروه مجتمع الشر. وقد عَصَبَ؛ أى عَصَبَ
بانتشر عَصَابَةٍ؛ ومنه قيل: عَصَبَةٌ وَعَصَابَةٌ أى مجتمعو الكلمة، مجتمعون في أنفسهم.
وعَصَبَةُ الرَّحْلِ المتجمعون معه في السب؛ وتَعَصَّبَ لِفُلَانٍ صرَّتْ كعصيته، ورحل معصوب،
أى مجتمع الخلق.

قوله تعالى: ﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾ في موضع الحال. «يهْرعون» أى يسرعون.
إن الكسائي والفراء وغيرهما من أهل اللغة: لا يكون الإهراع إلا إسرعا مع رعدة؛ يقال:
أهرع الرجل إهرعا أى أسرع في رعدة من برد أو غضب أو حُمى، وهو مهرع؛ قال مهلهل:

لجاءوا يهرعون ومم أسرَى • تقودهم على رغيم الأنوف

وقال آخر :

• بمجلات نحوه مهارج •

وهذا مثل : أولع فلان بالأسر ، وأريد زيد ، وزهى فلان . ونجى . ولا تستعمل إلا على هذا الوجه . وقيل : أهرع أى أهرمه حرصه ، وعلى هذا « يهرعون » أى يستحثون عليه . ومن قال بالأول قال : لم يسمع إلا أهرع الرجل أى أسرع ، على لفظ ما لم يسم فاعله . قال ابن القوطية : هرع الإنسان هرعاً ، وأهرع : سبق وأستعجل . وقال المروى : يقال : هرع الرجل وأهرع أى استعج . قال ابن عباس وقتادة والسدي : « يهرعون » يهرولون . الضحالك : يسعون . ابن صينية : كأنهم يدفعون . وقال شمر بن عطية : هو مثنى بين الهولة والجزى . وقال الحسن : مثنى بين مشين ، والمعنى متقارب . وكان سبب إسرعهم ما روى أن امرأة لوط الكافرة ، لما رأت الأضياف وجمالهم وعببتهم ، خرجت حتى أنت مجالس قومها ، فنالت لهم : إن لوطاً قد أضاف الليلة فتية ما رؤى مثلهم جمالاً ، وكذا وكذا ، فحينئذ جاءوا يهرعون إليه . ويذكر أن الرسل لما وصلوا إلى بلد لوط وجدوا لوطاً في حرث له . وقيل : وجدوا أبنته تستقي ماء في نهر سدوم ، فسألوها الدلالة على من يضيفهم ، ورأت هيتهم نخافت عليهم من قوم لوط ، وقالت لهم : مكانكم ! وذهبت إلى أبيها فأخبرته ، فخرج إليهم ، فقالوا : نريد أن تضيفنا الليلة ، فقال لهم : أوما سمعتم بعمل هؤلاء الذوم ؟ فقالوا : وما عملهم ؟ فقال أشهد بالله إنهم لشر قوم في الأرض — وقد كان الله عز وجل قال لما لم يكن لا تمذوبهم حتى يشهد لوط عليهم أربع شهادات — فلما قال لوط هذه المقالة ، قال جبريل لأصحابه : هذه واحدة ، وتردد القول بينهم حتى كرر لوط للشهادة أربع مرات ، ثم دخل بهم المدينة .

قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ قَبْلِ ﴾ أى ومن قبل عيسى الرسل . وقيل : من قبل لوط . ﴿ كَانُوا يَمَكُونُ السَّبَاتِ ﴾ أى كانت ذنوبهم إتيان الرجال . فلما حاولوا إلى لوط وقصدوا أضيافه

قام اليهم لوط مدافعا ، وقال : (هَؤُلَاءِ بَنَاتِي) ابتداء وخبر . وقد اختلف في قوله : « هَؤُلَاءِ بَنَاتِي » فقيل : كان له ثلاث بنات من صلبه . وقيل : بنان ، رثيا وزعوراء . فقيل : كان لم سيدان مطاعين فأراد أن يزوجهما أختيه . وقيل : نديهم في هذه الحالة إلى النكاح ، وكانت مستهم جوائز نكاح الكافر المؤمنة ، وقد كان هذا في أول الإسلام جائزا ثم نسخ ؛ فزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم بنتا له من عتبة بن أبي لهب . والأخرى من أبي العاص بن الربيع قبل الوحي ، وكانا كافرين . وقالت فرقة - منهم مجاهد وسعيد بن جبيرة - أشار بقوله : « بَنَاتِي » إلى النساء جملة ؛ إذ نبي القوم أب لهم ، ويقوى هذا أن في قراءة ابن مسعود « النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم وهو أب لهم » . وقالت طائفة : إنما كان الكلام مدافعة ولم يرد إحصاءه ؛ روى هذا القول عن أبي عبيدة ؛ كما يقال لمن ينهى عن أكل مال الغير : الخنزير أحل لك من هذا . وقال عكرمة : لم يمرض عليهم بناته ولا بنات أمه ، وإنما قال لهم هذا لينصرفوا .

قوله تعالى : (هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ) ابتداء وخبر ؛ أي أزوجكموهن ؛ فهو أطهر لكم مما تريدون ، أي أحل . والتطهر التزّه عما لا يحل . وقال ابن عباس : كان رؤسائهم خطبوا بناته فلم يجبهن ، وأراد ذلك اليوم أن يفدى أضيافه ببناته . وليس ألف « أطهر » للتفضيل حتى يتوهم أن في نكاح [الرجال] طهارة ، بل هو كقولك : الله أكبر وأعلى وأجل ، وإن لم يكن تفضيلا ؛ وهذا جائز شائع في كلام العرب ، ولم يكابر الله تعالى أحد حتى يكون الله تعالى أكبر منه . وقد قال أبو سفيان بن حرب يوم أحد : أَعْلَى هُبَلٌ أَعْلَى هُبَلٌ ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم لعمر : « قل الله أعلى وأجل » . وهبل لم يكن قط عاليا ولا جليلا . وقرأ العامة برفع الراء . وقرأ الحسن وعيسى بن عمرو « هُنَّ أَطْهَرُ » بالنصب على الحال . و « هن » عماد . ولا يميز الخليل وسيبويه والأخفش أن يكون « هن » هاتنا عمادا ، وإنما يكون عمادا فيما لا يتم الكلام إلا بما بعدها ، نحو كان زيد هو أخاك ، لتدل بها على أن الأخ ليس بنت .

قال الزجاج : ويدل بها على أن كان تحتاج إلى خبر . وقال غيره : يدل بها على أن الخبر معرفة أو ما قاربها .

قوله تعالى : (فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزَوْا فِي صُنِيِّ) أي لا تهينوا ولا تذلوا . ومه قول حسن :

فانزلك ربي يا عتب من مالك . ولقائك قبل الموت إحدى الصواعق
مددت يميناً للنبي تمسكها . وديت فاه قطعت بالسوارق
ويجوز أن يكون من الخزيّة ، وهو الحياء ، والمجمل ، قال ذو الرمة :
خزيّة أدركته بعد جويليه . من جانب الحبلى مخلوطاً بها النصب

وقال آخر :

من البيض لا تخزي إذا الریح ألفت هم بها مرطها أو زایل الخلل جيدها
وضيف يقع للأثنين والجميع على لفظ الواحد ؛ لأنه في الأصل مصدر ، قال الشاعر
لا تصدني الدهر يسفار الجازير . للضيف والضيف أحق زائر
ويجوز فيه التثنية والجمع ، والأول أكثر كقولك : رجلاً صوّم وفطر وزوّر . وتخزي
الرجل خزيّة ، أي استعيا نسل ذل وهان . وتخزي خزيّاً إذا اقتضح ؛ يخزي فيهما جميعاً .
ثم ويجهم بقوله : (أليس منكم رجل رشيد) أي شديد بأس بالمعروف وينهى عن المنكر .
وقيل : « رشيد » أي ذو رشد . أو بمعنى راشد أو مرشد ، أي صالح أو مصلح . ابن
عباس : مؤمن . أبو مالك : ناه عن المنكر . وقيل : الرشيد معنى الرشاد ؛ والرشاد والرشاد الهدى
والاستقامة . ويجوز أن يكون بمعنى المرشد ؛ كالحكيم بمعنى الحكيم .

قوله تعالى : (قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكُمْ مِنْ حَقٍّ) روى أن قوم لوط خطبوا
بناته فزعم ، وكانت ستمهن أن من ردّ في حطبة امرأة لم تحمل له أبداً ، فذلك قوله تعالى :

(١) (خزيّة) أي من الخزيّة . والحيل هو حيل الزبل . والكلام في وصف تور حشيت طارده الكلاب . وفيه :
حق لهذا قوم في الأرض واجبه . كيم ولو شاء يحيى منسب العرب
بني أن هذرا تأف من العرب فرجع إل الكلاب .

« فَاَلَا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ » وبعد ألا تكون هذه الخاصية فوجهُ الكلام أنه ليس لنا إلى بناتك تعلق، ولا من قصدنا، ولا لنا عادة نطلب ذلك . (وَأَنْتَ لَتَعْلَمُنَّ مَا تُرِيدُ) إشارة إلى الأضياف .

قوله تعالى : (قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ) لما رأى استمرارهم في غيهم ، وضعف عنهم ، ولم يقدر على دفعهم ، غنى لو وجد عوناً على دفعهم ، فقال على جهة التفجع والاعتكابة : « لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَيْ أَنْصَارًا وَأَعْوَانًا . وقال ابن عباس : أراد الولد . و « أَنْ » في موضع رفع بفعل مضارع ، تقديره : لو اتفق أو وقع . وهذا يطرد في « أَنْ » التابعة لـ « لَوْ » . وجواب « لَوْ » محذوف ، أي رددت أهل الفساد ، وحلت بينهم وبين ما يريدون . (أَوْ أَرَادَى إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ) أي الجحيم وأنصوى . وقري . « أَوْ أَرَادَى » بالنصب عطفًا على « قُوَّةٌ » كأنه قال : لو أن لي بكم قُوَّةٌ أَوْ إِيَّاهُ إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ ، أَيْ وَأَنْ أَرَادَى ، فهو منصوب بإصيار « أَنْ » ومراد لوط بالركن الشجرة ، والمثناة بالكثرة . وبلغ به قبيح ما هم إلى قوله هذا مع علمه بما عند الله تعالى ، فيروى أن الملائكة وجدت عليه حين قال هذه الكلمات ، وقالوا : إن رُكْنَكَ لشديد . وفي البخاري عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « رَحِمَ اللَّهُ لُوطًا لَفَسَدَ كَانَ يَأْتِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ » الحديث ، وقد تقدم في « البقرة » . وحرجه الترمذي وزاد « مَا بَعَثَ اللَّهُ بَعْدَهُ نَبِيًّا إِلَّا فِي ثُرَّةٍ مِنْ قَوْمِهِ » . قال محمد بن عمرو : والثروة الكثرة والمثناة حديث حسن . و يروى أن لوطاً عليه السلام لما غلبه قومه ، وهُمُوا بِكُسر السَّابِ وهو يمسكه ، قالت له الرسل : تَخُذْ عَنِ الْبَابِ ، فَتَنَحَّى وَانْفَتَحَ الْبَابُ ، فَصَرَّيْهِمْ جَرِيلاً يَمْنَحُهُ فَطَمَسَ أَعْيُنُهُمْ ، وَعَمُوا وَانصرفوا على أعقابهم يقولون : النجاء ، قال الله تعالى : « وَلَقَدْ رَاودُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ » . وقال ابن عباس وأهل التفسير : أغلق لوط بابَه والملائكة معه في الدار ، وهو يناظر قومه ويناشدهم من وراء الباب ، وهم يصلحون تموز الجدار ، فلما رأت الملائكة ما لقي من الجهد والكره والنصب بسببهم ، قالوا : يا لوط إن رُكْنَكَ لشديد ، وإنهم آتيهم عذاب غير مردود ،

وإنا رسل ربك ، فافتح الباب ودعنا وإياهم ، ففتح الباب فصر بهم جبريل بجماعه
على ما تقدم . وقيل : أخذ جبريل قبضة من تراب وأذراها في وجوههم ، فأوصل الله إلى عين
من بعد ومن قرب من ذلك التراب فطمس أعينهم ، فلم يعرفوا طريقا ، ولا أهدتوا إلى بيوتهم ،
وجعلوا يقولون : النجاء النجاء ! إن في بيت لوط قوما هم أسحار من على وجه الأرض ، وقد سمعونا
فأعما أبصارنا . وجعلوا يقولون : يا لوط كما أنت حتى تصبح فستري ؟ يتوعدونه

قوله نضالى : ﴿ قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ ﴾ لما رأت الملائكة حرمة وأصطرابه
ومدافعتة عرفوه بأفئسهم ، فلما علم أنهم رسل مكن قومه من الدحول ، فأمر جبريل عليه
السلام يده على أعينهم فعموا ، وعلى أيديهم فجفت : ﴿ لَنْ يَصْلَوْا إِلَيْكَ ﴾ أى بكمزه . ﴿ فَأَسْرَ
يَاهِلِكَ ﴾ قرئ « فاسر » بوصل الألف وقطعها ، لفنان فصيحتان . قال الله تعالى :
« واللَّيْلُ إِذَا يَمِيرُ » وقال : « سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى » . وقال الباقية : بجمع بين اللتين :
أُسْرَتْ عليه من الجوزاء سارية . تُرِجُ التَّهَالُ عَلَيْهِ جامد البرد
وقال آخر :

حَى الصَّيْرَةِ رَمَّةَ الْخُسْدِرِ • أُسْرَتْ إِلَيْكَ وَلَمْ تَكُنْ تَسْرَى
وقد قيل : « فَأَسْرَ » بالمطع إذا سار من أول الليل ، وسرى إذا سار من آخره ، ولا يقال
في النهار إلا سار . وقال لبيد :

إِذَا الْمَرْءُ أَسْرَى لَيْلَةً طَفَرُ أَثَرُهُ • فَصَى عَمَلًا وَالْمَرْءُ مَا عَاشُ عَامِلُ
وقال عذافه بن رَوَاحَةَ :

عَدُ الصَّبَاحِ يَحْمَدُ الْقَوْمُ السَّرَى • وَتَحْمَلِي عِشْمَ غَيَابَاتِ الْكَرَى
﴿ يَقْطَعُ مِنَ اللَّيْلِ ﴾ قال ابن عباس : بطائفة من الليل . الصَّحَاكُ : بقية من الليل .
قَتَادَةُ : بعد معنى صدر من الليل . الْأَحْمَشُ : بُعْدُ جِجْعٍ مِنَ اللَّيْلِ . ابْنُ الْأَعْرَابِيِّ : بساعة
من الليل . وَفِي : بطنامة من الليل . وَقِيلَ : بَعْدَ هَدْيٍ مِنَ اللَّيْلِ . وَقِيلَ : هَزِيعٌ مِنْ

(١) وروى (حرث) . يقول : إذا الساعة سرت في الجوزاء ، فذلك شبهها بالجوزاء .

الليل . ولها متفاربة ؛ وقيل : إنه نصف الليل ؛ مأخوذ من قطعه نصفين ؛ ومنه قول الشاعر :

وَنَائِمَةٌ تَنُوحُ بِقَطْعِ لَيْلٍ • عَلَى وَجْهِ بَقَاعَةِ الصَّعِيدِ

من قيل : السرى لا يكون إلا بالليل ، فالمعنى « يقطع من الليل » ؟ فأجواب : أنه لو لم يقل : « يقطع من الليل » جار أن يكون أوله . (وَلَا يَتَقَتُّ مِنْكُمْ أَحَدٌ) أى لا يسطر وراءه منكم أحد ؛ قاله مجاهد . ابن عباس : لا يختلف منكم أحد . على بن عيسى : لا يشعل منكم أحد بما يخلعه من مال أو متاع . (إِلَّا أَمْرَأَتُكَ) بالنصب ؛ وهى السراة الواحدة البينة المعنى ؛ أى فاسر بأهلك إلا أمرأتك . وكذا فى قراءة أن مسعود « فاسر بأهلك إلا أمرأتك » هو استثناء من الأهل . وعلى هذا لم يخرج بها معه . وقد قال الله عز وجل : « كَانَتْ مِنَ الْعَاكِرِينَ » أى من الباقين . وقرأ أبو عمرو وآبن كثير « إِلَّا أَمْرَأَتُكَ » بالرفع على البدل من « أحد » . وأنكر هذه القراءة جماعة منهم أبو عبيد ؛ وقال : لا يصح ذلك إلا برفع « يلتفت » ويكون معنا ؛ لأن المعنى بصير - إذا أبدلت وحزمت - أن المرأة أبيع لها الالتفات ، وليس المعنى كذلك . قال النحاس : وهذا الحمل من أبى عبيد وغيره على مثل أبى عمرو مع جلالة وعمله من العربية لا يجب أن يكون ؛ والرفع على البدل له معنى صحيح ، وإننا ويل له على ما حكى محمد بن الوليد عن محمد بن يزيد أن يقول الرجل لحاجبه : لا يخرج فلان ؛ فلفظ النهى لفلان ومعناه للحاطب ؛ أى لا تدعه يخرج ؛ ومثله قولك : لا يبق أحد إلا زيد ؛ يكون معناه : انهم عن القيام إلا زيدا ؛ وكذا النهى للوط ولفظه لنريد ؛ كأنه قال : إيهام لا يلتفت منهم أحد إلا أمرأتك . ويجوز أن يكون استثناء من النهى عن الالتفات لأنه كلام تام ؛ أى لا يلتفت منكم أحد إلا أمرأتك فإنها تلتفت وتهلك ، وأن لوطا خرج بها ، ونهى من معه ممن أسرى بهم ألا يلتفت ، فلم يلتفت منهم أحد سوى زوجته ؛ فإنها لما سمعت هذه المناب التفت وقالت : واقوماه ! فأدركها حجر فقتلها . (إِنَّهُ مُصِيبُهَا)

أى من العذاب . والكافية في « إنه » ترجع إلى الأمر والشأن ؛ أى فإن الأمر والشأن
والقصة . (زُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ) لما قالت الملائكة : « إِنَّا مُهْلِكُو
أَهْلَ جِدَّةِ الْقَرْيَةِ » قال لوط : الآن الآن . استعملهم بالعذاب ليعظه على قومه ؛ فقالوا :
(أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ) وقرأ عيسى ابن عمر « أَلَيْسَ الصُّبْحُ » بضم الباء وهى لنة . ويحمل
أن يكون جعل الصبح ميقاتاً لحلاكهم ؛ لأن النفوس فيه أودع ، والناس فيه أجمع . وقال
بعض أهل التفسير : إن لوطاً خرج بابنته ليس معه غيرها عند طلوع الفجر ، وأن الملائكة
فالت له : إن الله قد وكل بهذه القرية ملائكة معهم صوت رعد ، وخطف برق ، وصواعق
عظيمة ، وقد ذكرنا لم أن لوطاً سيخرج فلا تؤذوه ؛ وأما ربه أنه لا يلتفت ، ولا تفتت أبنائه
فلا يهولئك ما ترى ؛ فخرج لوط وطوى الله له الأرض في وقته حتى نجا ووصل إلى إبراهيم .
قوله تعالى : (فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا) أى صأبنا . (جَعَلْنَا عَالِيَهَا شَاقِلًا) وذلك أن جبريل
عليه السلام أدخل جناحه تحت قرى قوم لوط ، وهى خمس : سدوم - وهى القرية
العلوى - وعامورا ، ودادوما ، وضموه ، وقم ، فرفعها من تخوم الأرض حتى أدناها من
السماء بما فيها ؛ حتى سمع أهل السماء نقيق حرهم وصياح ديكهم ، لم تنكفى لهم جرة ، ولم
ينكسر لهم إناء ، ثم نكسوا على رؤوسهم ، وأتبعهم الله بالبحارة . مقاتل : أهلك أربعة ،
ونجت ضموه . وقيل : غير هذا ؛ والله أعلم .

قوله تعالى : (وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا مِنْ سَجِيلٍ) دليل على أن من فعل فعلهم حكمة
الرحم ؛ وقد تقدم في « الأعراف » . وفى التفسير : أمطرت في العذاب ، ومطرت في الرحمة .
وأما كلام العرب يقال : مطرت السماء وأمطرت ، حكاه المروى . واختلف في « السجيل »
فقال النحاس : السجيل الشديد الكثير ؛ وسجيل وصيبن اللام والنون أختان . وقال
أبو صيدة : السجيل الشديد الكثير ؛ وأشد :
• ضَرَبًا تَهَاقَى بِهِ الْأَبْطَالُ سَجِيًّا •

(١) في ضبط هذه القرى اختلاف ؛ لا أحمل ذكرها بعض المفسرين . (٢) راجع ٧ ص ٢٤٣ طبة أملا
ارتانية . (٣) كما في بعض الأصول ، وفى البعض الآخر (البشارى) . (٤) سائر البيت يتأخر في ص ٥٤٢ .

قال النحاس : ورد عليه هذا القول عبد الله بن مسلم وقال : هنا يحين وذلك بحبل فكيف يستشهد به ؟ قال النحاس : وهذا الرد لا يلزم ؛ لأن أبا عبيدة ذهب إلى أن اللام تبذل من التون لقرب إحداهما من الأخرى ؛ وقول أبي عبيدة ردة من جهة أخرى ؛ وهي أنه لو كان على قوله لكان حجارة بحبلا ؛ لأنه لا يقال حجارة من شديد ؛ لأن شديدا نعت . وحكى أبو عبيدة عن الفراء أنه قد يقال لحجارة الأرحاء بحبل . وحكى عنه محمد بن الجهم أن بحبلا طين يطبخ حتى يصير بمنزلة الأرساء . وقالت طائفة منهم ابن عباس وسعيد بن جبير وابن إسحق : إن بحبلا لفظة غير عربية عُرِّبَتْ ، أصلها سَنَجٌ وِجِلٌ . ويقال : سَنَكٌ وِجِلٌ ؛ بالكاف . وضع الجم ، وهما بالفارسية حجر وطين عربتهما العرب فجعلتهما اسما واحدا . وقيل : هومن لغة العرب . وقال قتادة وعكرمة : السجبل الطين بدليل قوله : « لا ترسل طينهم بحجارة من طين » . وقال الحسن : كان أصل الحجارة طينا ففسدت . والسجبل عدد للعرب كل شديد صلب . وقال الضمك : يعنى الآجر . وقال ابن زيد : طين طبخ حتى كان كالآجر ؛ وعنه أن بحبلا أسم السماء الدنيا ؛ ذكره الهروي ؛ وحكاه النعماني عن أبي العالية ؛ وقال ابن عطية : وهذا ضعيف رده وصفه بـ « منضود » . وعن عكرمة أنه بحر معلق في الهواء بين السماء والأرض منه زلت الحجارة . وقيل : هي جبال في السماء ، وهي التي أشار الله تعالى إليها بقوله : « ويترن من السماء من جبال فيها من ردة » . وقيل : هو مما يحبل لهم أى كتب لهم أن يصيبهم ؛ فهو في معنى يحين ؛ قال الله تعالى : « وَمَا أَذْرَاكَ مَا يَحْيِيَنَّ . كَتَبُ مَرْقُومٌ » قاله الزجاج وأختره . وقيل : هو فيل من أبعثه أى أرسله ؛ فكانها مرسله عليهم . وقيل : هو من أبعثه إذا أعطيته ؛ فكانها عذاب أعطوه ؛ قال :

مَنْ يُسَاجِلُنِي يُسَاجِلُنِي مَا جِئْتُ • يَمْلَأُ الدُّلُو إِلَى عَقْدِ الْكَرْبِ

(١) البيت للفعل بن عباس بن عتبة بن أبي لهب . وأصل المسألة أن يستقن سائبان فيخرج كل واحد منهما في جملة (دله) مثل ما يخرج الآخراهما بكل قد طب ؛ ففرضه الرب مثلا لقنانه . والكرب : الحبل الذي يشد على اللو بعد الحين وهو الحبل الأول .

وقال أهل المغانى ، السجيل والسجين الشديد من الحجر والقرب ؛ قال ابن منبجل ،

ورجله يضربون البيض ضاحية ^(١) . ضرباً تَوَاحَى بِهِ الْأَبْطَالُ سِجِيًّا

(منضود) قال ابن عباس : متاع . وقال قتادة : نُضِدَ بعضها فوق بعض . وقال

الزبيج : نُضِدَ بعضه على بعض حتى صار جسداً واحداً . وقال عكرمة : منصقوف . وقال

بعضهم مرصوص ، والمعنى متقارب . يقال : نُضِدْتَ المتاع واللين إذا جعلت بعضه على

بعض ، فهو منضود ونضيد ونضدٌ قال ،

• وروفته إلى السجفين فالنضيد •

وقال أبو بكر الهذلي : مُعَدٌ ، أى هو ما أعده الله لأعدائه الظالمة . (مُسَوِّمَةٌ) أى معلمة ،

من السِّبَا وهى العلامة ؛ أى كان عليها أمثال الخواتيم . وقيل : مكتوب على كل حجر أسم من

رُئِيَ بِهِ ، وكانت لآس كل حجارة الأرض . وقال الفراء : زعموا أنها كانت مخططة بحمرة وسواد

في بياض ، فذلك تسويمها . وقال كعب : كانت معلمة بياض وحمرة ، وقال الشاعر :

غلامٌ رماه الله بالحسنِ يافماً • له سِمْيَاءٌ لَا تَشُقُّ عَلَى الْبَصَرِ

و «مُسَوِّمَةٌ» من نعت حجارة . و «منضود» من نعت «سجيل» . وفي قوله : (عند

رَبِّكَ) دليل على أنها لبست من حجارة الأرض ؛ قاله الحسن . (وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ سِجِيًّا)

يعنى قوم لوط ؛ أى لم تكن تخطنهم . وقال مجاهد : يُرْهَبُ فَرِيشًا ؛ المعنى : ما الحجارة من

ظالمى قومك يا محمد ببعد . وقال قتادة وعكرمة : يعنى ظالمى هذه الأمة ؛ والله ما أجاز الله

منها ظالماً بعد . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : «سيكون فى آخر أمتى قوم

يكنى رجالهم بالرجال ونسأؤهم بالنساء فإذا كان ذلك فارتقوا عذاب قوم لوط أن يرسل

الله عليهم حجارة من سجيل» ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم «وما هى من الظالمين

(١) يدرى في اللسان : (يصر من البيض من حرص)

(٢) البيت لأبيد بن خلف الفراءى يمدح عميلة حين قاسم ماله ؛ وبعده :

كأن الرأيا بلغت فرق بحمره • رؤا جيله الشعرى وفي وجهه القمر

وقوله : (له سِمْيَاءٌ لَا تَشُقُّ عَلَى الْبَصَرِ) أى يرحم به من يراه

بيعد . وفي رواية عنه عليه السلام " لا تذهب الليالي والأيام حتى تستحل هذه الأمة
أدبار الرجال كما استحلوا أدبار النساء فتصيب طوائف هذه الأمة حجارة من ربك " . وقيل :
للمعنى ما هذه القرى من الظالمين بيعد ، وهي بين الشام والمدينة . وجاء « بيعد » مذكرا
على معنى بمكان بعيد . وفي الحجارة التي أمطرت قولان : أحدهما - أنها أمطرت على المدن
حين رفعها جبريل . الثاني - أنها أمطرت على من لم يكن في المدن من أهلها وكان خارجا عنها .
قوله تعالى : وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۖ قَالَ يَبْقَوْمُ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ وَلَا تَقْصُصُوا أَلْمِيزَانَ ۖ إِنِّي أُرْسِلُكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي
أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ يُحِيطُ ﴿٨٤﴾ وَيَقَوْمُ أُوفُوا أَلْمِيزَانَ ۖ وَالْمِيزَانَ
بِالْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخُسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ
مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَتْ إِلَهُ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ۖ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ
بِحَفِيفٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا يَشْعِيبُ أَصْلَحْتَكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا
أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَسْتَوْا بِكَ ۖ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ
يَبْقَوْمُ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا
وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَيْنِ مَا أَنْتُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ
مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾
وَيَبْقَوْمُ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ
أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَاسْتَغْفِرُوا
رَبَّكُمْ ثُمَّ تَوَبُّوا إِلَىٰهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ قَالُوا يَشْعِيبُ مَا نَفَقَهُ
كَثِيرًا ۖ مَا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرُّكَ فِيْنَا ضَعِيفًا وَلَوْ لَا رَهْمُكَ لَرَجَمْنَاكَ

وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بَعِزٌّ ﴿١١﴾ قَالَ يَقَوْمِ اأَرْهَيْتُ أَنْتُمْ عَلَيَّكُمْ مِنَ اللَّهِ
وَأَخَذْتُمُوهُ وَرَاءَ ظَهْرِي إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٢﴾ وَبَشِّرِ
الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَمِلْتُ سَوَافٍ تَعْمَلُونَ مِنْ بَيْنِهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ
وَمَنْ هُوَ كَذِبٌ وَأَرْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿١٣﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا
شُعَيْبًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ
فَأَصْبَحُوا فِي دِيبَرِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿١٤﴾ كَانُوا لَا يَفْقَهُوا فِيهَا إِلَّا بُعْدًا لِمَدِينٍ
كَمَا بَعْدَتْ ثُمُودُ ﴿١٥﴾

قوله تعالى : (وَإِلَىٰ مَدِينٍ أَخَاهُمْ شُعَيْبٌ) أي وأرسلنا إلى مدنين ، ومدنين هم قوم
شعيب . وفي تسميتهم بذلك قولان : أحدهما — أنهم بنو مدنين بن إبراهيم ؛ فقيل : مدنين
والمراد بنو مدنين ، كما يقال مضر والمراد بنو مضر . الثاني — أنه أسم مدنيّتهم ، ففسر
إليها . قال النحاس : لا ينصرف مدنين لأنه أسم مدينة ؛ وقد تقدم في « الأعراف » هذا
المننى وزيادة . (قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ) تقدم . (وَلَا تَتَّبِعُوا الْبَيْهَاقَ
وَالْمُزْنَ) كانوا مع كفرهم أهل بخس وتطفيف ؛ كان إذا جاءهم البائع بالطعام أخذوا بكل
زائد ، وأسستوه بناية ما يقدرون وظلموا ؛ وإن جاءهم مشتر للطعام باعوه بكل ناقص ؛
وتحجوا له بناية ما يقدرون ؛ فأمروا بالإيمان إغلاعا عن الشرك ، وبالوفاء نهيًا عن التطفيف .
(إِنِّي أَرَأَيْتُمْ يَتَخِرُّ) أي في سعة من الرزق ، وكثرة من اللّهم . وقال الحسن : كان سعرهم
رخيصا ، (وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٌ) وصف اليوم بالإحاطة ، وأراد وصف ذلك
اليوم بالإحاطة بهم ؛ فإن يوم العذاب إذا أحاط بهم فقد أحاط بالعذاب بهم ، وهو كقولك :
يوم شديد ؛ أي شديد حره . واختلف في ذلك العذاب ؛ فقيل : هو عذاب النار في الآخرة .

وقيل : مذاب الاستئصال في الدنيا . وقيل : غلاء السحر ؛ روى معناه عن ابن عباس .
وفي الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم : " ما أظهر قوم البحر في المكيال والميزان
إلا ابتلاهم الله بالفحط والفناء " . وقد تقدم .

قوله تعالى : ﴿ وَبِأَقْوَمُ أَوْدُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِنِصْفِ أَمْرِ الْإِنْفَاءِ ﴾ بعد أن نهى عن
التعطيف تأكيداً . والإبقاء الإنعام . « بالنفط » أى بالعدل والحق ، والمقصود أن يصل
كل ذى نصيب إلى نصيبه ، وليس يريد إبقاء المكيال والموزون لأنه لم يقل : أوفوا بالمكيال
والميزان ؛ بل أراد لا تنقصوا حجم المكيال عن المعهود ، وكذا الصنجات . ﴿ وَلَا تَحْسَبُوا النَّاسَ
أَشْيَاءَهُمْ ﴾ أى لا تفصوهم مما استحقوه شيئاً . ﴿ وَلَا تَتَوَّا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ بين أن
الخطيئة في المكيال والميزان مبالغة في الفساد في الأرض ؛ وقد مضى في « الأعراف » زيادة
لهذا ، والحمد لله .

قوله تعالى : ﴿ بَقِيَّةَ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ أى ما يبقيه الله لكم بعد إيفاء الحقوق بالنفط أكثر
بركة ، وأحد عاقبة مما يتقونه أتم لأفسحكم من فضل التطفيف بالجبر والظلم ؛ قال معناه العنبري
وغیره . وقال مجاهد : « بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ » يريد طاعته . وقال الزبيح : وصية الله . وقال
القزواء : مراقبة الله . بن زيد : رحمة الله . فتادة والحسن : حظكم من ربكم خير لكم . وقال
ابن عباس : رزق الله خير لكم . ﴿ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ شرط هذا لأنهم إنما يعرفون صحة هذا
إن كانوا مؤمنين . وقيل : يحتمل أنهم كانوا يعترفون بأن الله خالقهم فخطبهم بهذا . ﴿ وَمَا أَنَا
عَلَيْكُمْ بِحَافِظٍ ﴾ أى رقيب أرفقكم عند كلكم ووزنكم ؛ أى لا يمكنني شهود كل معاملة تصدر
مكم حتى أؤاخذكم بإبقاء الحق . وقيل : أى لا يتنبأ لي أن أحفظكم من إرالة نعم الله عليكم
بمعاصيكم .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا يَا شُعْبُ أَصَلَوْنَاكَ ﴾ وقرئ « أَصَلَاتُكَ » من غير جمع . ﴿ تَأْمُرُكَ أَنْ
تَتْرَكَ مَا يَعْجُدُ آبَاؤُنَا ﴾ « أن » في موصح نصير ؛ قال الكسائي : موضعها خفض على إسماء الباء .

وروى أن شعيبا عليه السلام كان كثير الصلاة، مواظبا على العبادة فرضها وفلها ويقول :
 الصلاة تنهى عن الفحشاء والمكر؛ فلما امرهم ونهاهم عيروه بما رأوه يستتر عليه من كثرة الصلاة،
 واستهزؤا به فقالوا ما أخبر الله عنهم . وقيل : إن الصلاة هنا بمعنى القراءة ؛ قاله سفيان
 عن الأعمش ، أى قراءة تأسرك ؛ ودل هذا على أنهم كانوا كفارا . وقال الحسن لم يبعث
 الله نبيا لإفرض عليه الصلاة والزكاة . (أَوْ أَنَّ تَفَعَّلَ فِي أَمْوَالًا مَا نَشَاءُ) زعم الفراء أن التقدير :
 أو تنها أن تفعل في أموالنا ما نشاء . وقرأ السلمي والضحالك ابن قيس « أو أن تفعل في أموالنا
 ما نشاء » بالثاء في الفعلين ، والمعنى : ما نشاء أنت يا شعيب . وقال النحاس : « أو أن » على هذه
 القراءة معطوفة على « أن » الأولى . وروى عن زيد بن أسلم أنه قال : كان مما هاجم عنه حذف^(١)
 الدراهم . وقيل : معنى « أو أن تفعل في أموالنا ما نشاء » إذا تراضينا فيما بيننا بالبحس فلم
 تمنعنا منه ١٩ . (إِنَّكَ لَأَنْتَ الْخَلِيمُ الرَّشِيدُ) يعنون عند نفسك بزعمك ؛ ومثله في صفة أبى
 جهل : « ذق إنك أنت العزيز الكريم » أى عند نفسك بزعمك . وقيل : قالوه على وجه
 الاستهزاء والسخرية ، قاله قتادة . ومنه قوله للعبثى : أبو البيضاء ، ولأبييض أبو الجحون ؛
 ومنه قول خنزة جهنم لأبى جهل : « ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ » . وقال سميان بن عُبَيْة :
 العرب تصف الشيء بضده للتطير والتفاؤل ؛ كما قيل لِلدِّغِ سَلِيمٌ ، وللغلاة مَفَاةٌ . وقيل : هو
 تعريض أرادوا به السب ؛ وأحسن من هذا كله ، ويدل ما قبله على صحته ، أى إنك أنت
 الحليم الرشيد حقا ، فكيف تأمرنا أن نترك ما يعبد آبائنا ! ويدل عليه « أسألتك تأمرتك
 أن تترك ما يعبد آبائنا » أنكروا لما رأوا من كثرة صلاته وعبادته ، وأنه حليم رشيد بأن يكون
 بأمرهم بترك ما كان يعبد آبائهم ، وبعده أيضا ما يدل عليه « قَالَ يَأْقُومُ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى نَدْيَةٍ
 مِنْ رَيٍّ وَرَزَقْتَنِي مِنْهُ رِزْقًا جَسًّا » أى أفلا أنهاركم عن الضلال ؟ ! وهذا كله يدل على أنهم قالوه
 على وجه الحقيقة ، وأنه اعتقادهم فيه . وبشيء هذا المعنى قول اليهود من بنى قُرَيْظَةَ للنبي صلى
 الله عليه وسلم حين قال لهم : « يا إخوة الفردة » فقالوا : يا محمد ما علمناك جهولا !

(١) حذف الشيء . فاعلمه من أمثاله . (٢) الجحون ها الأسود .

مسئلة - قال أهل التفسير: كان مما بينهما عنة، وعُذِّبوا لأجله قطع الدنانير والدراهم، كانوا يقرضون من أطراف الصحاح لتصل لهم الفُرَاضة، وكانوا يتأملون على الصحاح عداً، وعلى المقرضة وزناً، وكانوا يخشون في الوزن. وقال ابن وهب قال مالك: كانوا يكسرون الدنانير والدراهم، وكذلك قال جماعة من المفسرين المتقدمين كسميع بن المسيَّب، وزيد بن أسلم وغيرهما، وكسرهما ذنب عظيم. وفي كتاب أبي داود عن علقمة بن عبد الله عن أبيه قال: نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تكسر سكة المسلمين الجائزة بينهم إلا من بأس، فإنها إذا كانت صحاحاً قام معناها، وظهرت فائدتها، وإذا كسرت صارت يلعسة، وبطلت منها الفائدة؛ فأضر ذلك بالناس، ولذلك حرم. وقد قيل في تأويل قوله تعالى: «وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون» أنهم دسروا الدراهم؛ فله زيد بن أسلم. قال أبو عمر بن عبد البر: زعموا أنه لم يكن بالمدينة أعلم بتأويل القرآن من أبيه بن أسلم بعد محمد بن كعب القرظي.

مسئلة: قال أصبغ قال عبد الرحمن بن القاسم بن خالد بن جنادة مولى زيد بن الحارث التقي: من كسرها لم تقبل شهادته، وإن اعتذر بالجهالة لم يعذر، وإيس هذا موضع حذر؛ قال ابن العربي: أما قوله: لم تقبل شهادته فلائنه أتى كبيرة، والكبائر تسقط العدالة دون الصغائر؛ وأما قوله: لا يقبل عذره بالجهالة في هذا فلائنه أمرين لا يخفى على أحد، وإنما يقبل العذر إذا ظهر الصدق فيه، أو خفي وجه الصدق فيه، وكان الله أعلم به من العبد؛ كما قال مالك.

مسئلة: إذا كان هذا معصية وفساداً ترد به الشهادة فإنه يعاقب من فعل ذلك. ومرة ابن المسيَّب رجل قد جلد فقال: ما هذا؟ قال: رجل يقطع الدنانير والدراهم؛ قال ابن المسيَّب: هذا من الفساد في الأرض؛ ولم ينكر جلده، ونحوه عن سفيان. وقال أبو عبد الرحمن النجدي: كنت قاعداً عند عمر بن عبد العزيز وهو إذ ذاك أمير المدينة فأتني رجل وقد شُهد عليه فصر به وحلقه، وأمر فطيف به، وأمره أن يقول: هذا جزاء من يلع

الدرهم ؛ ثم أمر أن يرد إليه ؛ فقال : إنه لم يمتنى أن أقطع يدك إلا أنى لم أكن تقدمت في ذلك قبل اليوم ، وقد تقدمت في ذلك فن شاء فليقطع . قال القاضي أبو بكر بن العربي : أما أدبه بالمعروف فلا كلام فيه ، وأما حلقه فقد فعله عمر ؛ وقد كنت أيام الحكم أضرب وأحلق ، وإنما كنت أفعل ذلك بمن يرى شعره عوناً له على المعصية ، وطريقاً إلى التوجمل به في الفساد ، وهذا هو الواجب في كل طريق للمصيبة ، أن يقطع إذا كان غير مؤثر في البدن ، وأما قطع يده فإنما أخذ ذلك عمر من فصل السرقة ؛ وذلك أن فرض الدرهم غير كسرهما ، فإن الكسر إفساد الوصف ، والقرض تنقيص للقدر ، فهو أخذ مال على جهة الاختفاء ؛ فإن قيل : أليس الجزأ أصلاً في القطع ؟ قلنا : يحتمل أن يكون عمر يرى أن تهيتها للفصل بين الخلق ديناراً أو درهمين جزأها ، وجرز كل شيء على قدر حاله ؛ وقد أخذ ذلك ابن الزبير ، وقطع يد رجل في قطع الدنانير والدرهم . وقد قال علماءنا المالكية : إن الدنانير والدرهم خواتيم الله عليهما اسمه ؛ ولو قطع على قول أهل التأويل من كسر خاتمة الله كان أهلاً لذلك ، أو من كسر خاتم سلطان عليه اسمه أذنب ؛ وخاتم الله يقضى به الحوائج فلا يستويان في العقوبة . قال ابن العربي : وأرى أن يقطع في قرضها دون كسرهما ، وقد كنت أفعل ذلك أيام توليت الحكم ، إلا أنى كنت محفوفاً بالجهال ، فلم أجب بسبب المقال للمعدة الضلال ، فن قدر عليه يوماً من أهل الحق فليفعله أحسباً بالله تعالى .

بقوله تعالى : ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُمْ عَلَىٰ بَيْتَةٍ مِّن رَّبِّي تَقُومُونَ ﴾ (وَرَزَقْنَاهُ مِن رَّبِّكَ حَسَنًا) أى واسماً حلالاً ؛ وكان شميم عليه السلام كثير المال ؛ قاله ابن عباس وغيره . وقيل : أراد به الهدى والتوفيق ، والعلم والمعرفة ؛ وفي الكلام حذف ، وهو ما ذكرناه ؛ أى أفلا أنبأكم عن الضلال ! وقيل : المعنى « أرايتم إن كنت على بيعة من ربي » اتبع الضلال . وقيل : المعنى « أرايتم إن كنت على بيعة من ربي » أأمروني بالمصيان في البخس والتطفيف ، وقد أغثنى الله . ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكَكُمْ ﴾ في موضع نصب به « ما أريد » . ﴿ إِلَىٰ مَا أَنْتُمْ كُنتُمْ ﴾ أى ليس أنبأكم عن شيء وأرتبكم ، كما لا أترك ما أمرتكم به . ﴿ إِن أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ ﴾

مَا اسْتَغْنَتْ ﴿١﴾ أى ما أريد إلا فعل الصلاح؛ أى أن تصلحوا دنياكم بالعدل، وآخرتكم بالمعادية؛ وقال: «ما استطعت» لأن الاستطاعة من شروط الفعل دون الإرادة. و«ما» مصدرية؛ أى إن أريد إلا الإصلاح جهدى واستطاعى. ﴿وَمَا تَوْفِيقِي﴾ أى رضى، والتوفيق الرشد. ﴿إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ أى آمنت. ﴿وَالِيهِ أُنِيبُ﴾ أى أرجع فيما يتزل من جميع التوابع. وقيل: إليه أرجع فى الآخرة. وقيل: إن الإنابة الدعاء؛ ومعناه وله أدمو.

قوله تعالى: ﴿وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ وقرا يحيى بن وثاب «يُجْرِمَنَّكُمْ». ﴿شِقَاقِي﴾ فى موضع رفع. ﴿أَنْ يُصِيبَكُمْ﴾ فى موضع نصب؛ أى لا يهلككم معاداتى على ترك الإيمان فيصيبكم ما أصاب الكفار؛ قاله الحسن وقتادة. وقيل: لا يكسبكم شقاقى إصابتكم العذاب، كما أصاب من كان قبلكم؛ قاله الزجاج. وقد تقدم معنى «يجرمكم» فى «المائدة» و«الشقاق» فى «البقرة»^(١) وهو هنا بمعنى العداوة؛ قاله السدى؛ ومنه قول الأخطل:

أَلَا مَنِ مَبْلُغٌ عَنِّي رَسُولًا • فَكَيْفَ وَجَدْتُمْ طَعْمَ الشَّقَاقِ

وقال الحسن: إضرارى. وقال قتادة: يراقى. ﴿وَمَا قَوْمٌ لَوْ طَمَعُكُمْ بَعِيدٌ﴾ وذلك أنهم كانوا حديثى عهد بهلاك قوم لوط. وقيل: وما ديار قوم لوط متكم ببعيد؛ أى بمكان بعيد؛ فلذلك وحده البعيد. قال الكسائى: أى دورهم فى دوركم.

قوله تعالى: ﴿وَأَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ تقدم. ﴿إِنَّ رَبِّيَ رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ آسمان من أسمائه سبحانه، وقد بيناهما فى كتاب «الأسنى فى شرح الأسماء الحسنى». قال الجوهرى: ويددت الرجل أودته وإذا أحبته، والودود المحب، والود والودع والودعة المحبة. وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا ذكر شعيبا قال: «ذاك خطيب الأنبياء»

(١) راجع ج ٦ ص ٤٤ وما بعدها طيبة أول أو ثانية.

(٢) راجع ج ٢ ص ١٤٢ طيبة ثانية.

(٣) الرسول هنا معنى الرسالة.

قوله تعالى : (قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا يَمَا تَقُولُ) أى ما نفقهم ؛ لأنك تحملنا على أمور غائبة من البعث والنشور ، وتمطنا بما لا عهد لنا بمثله . وقيل : قالوا ذلك إعراضا عن سماعه ، واحتقارا للكلام ؛ يقال : فقهه يفقهه إذا فهم فقهها ؛ وحكى الكسائى فقه فقهها وقبرا إذا صار فقها . (وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِتْنًا ضَعِيفًا) قيل : إنه كان مصابا ببصره ؛ قاله سعيد ابن جبير وقتادة . وقيل : كان ضعيف البصر ؛ قاله الثورى ، وحكى عنه النحاس مثل قول سعيد بن جبير وقتادة . قال النحاس : وحكى أهل اللغة أن حمير تقول للأعمى ضعيف ؛ أى قد ضعف بذهاب بصره ؛ كما يقال له ضرير ؛ أى قد ضر بذهاب بصره ؛ كما يقال له : مكفوف ؛ أى قد كف عن النظر بذهاب بصره . قال الحسن : معناه مهين . وقيل : المعنى ضعيف البدن ؛ حكاه على بن عيسى . وقال السدى : وحيدا ليس لك جند وأعوان تقدر بها على مخالفتنا . وقيل : قليل المعرفة بمصالح الدنيا وسياسة أهلها . « وضعيفا » نصب على الحال . (وَلَوْلَا رَحْمَتُكَ) رفع بالابتداء ؛ ورهط الرجل عشيرته الذى يستند إليهم ويتقوى بهم ؛ ومنه الراحطاء بطحير الأربوع ؛ لأنه يتوقى به ويحبا فيه ولده . ومعنى (لَرَحْمَتُكَ) لفلانك بالزجر ؛ وكانوا إذا قتلوا إنسانا رجوه بالمجاعة ، وكان رهطه من أهل ملتهم . وقيل : معنى « لرحمتك » لثمتناك ؛ ومنه قول الجعدى :

تراجعتنا بمز القبول حتى . نصير كأننا قرسا رهان

والرحيم أيضا اللعن ؛ ومنه الشيطان الرحيم . (وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ) أى ما أنت علينا بفالق ولا قاهر ولا منجع .

قوله تعالى : (قَالَ يَأْقُومُ أَزْهَقِي) « أزهي » رفع بالابتداء ؛ والمعنى أرهطى فى قلوبكم (أَعَزَّ عَلَيْكُمْ مِنْ اللَّهِ) وأعظم وأجل وهو علىكم . (وَاتَّخَذُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرًا) أى اتخذتم ما جئكم به من أمر الله ظهورا ؛ أى جعلتموه وراء ظهوركم ، وامتنتم من قتلى مخافة قومي ؛

(١) عبارة الأصول هنا مضطربة ، وصوبت عن كتب الله ؛ وعبارة الأصل : فقهه إذا فهم فقهها وقها ،

سكى الكسائى فيها ، رقهه فقهها إذا صار فقها .

يقال : جعلت امره يظهر إذا فصرت فيه ، وقد مضى في « البقرة » . (إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ)
 أي من الكفر والمعصية . (حَيْطَرٌ) أي طيم . وقيل : حفيظ .

قوله تعالى : (وَيَأْتِيهِمْ آيَاتُنَا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِلَىٰ غَائِلٍ سَوْفَ تَعْلَمُونَ) تهديد ووعد ؛
 وقد تقدم في « الأنعام » . (مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ) أي يذمكه . و « من » في موضع
 نصب ، مثل « يَسْلُمُ الْمُفِيدِينَ الْمُصْلِحِينَ » . (وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ) عطف عليها . وقيل :
 أي وسوف تعلمون من هو كاذب منا . وقيل : في محل رفع ؛ تقديره : ويخزي من هو
 كاذب . وقيل : تقديره ومن هو كاذب فيعلم كذبه ، ويذوق وبال امره . وزعم الفراء
 أنهم إنما جاءوا به ، هو « في » ومن هو كاذب « لأنهم لا يقولون من قائم ؛ إنما يقولون :
 مَنْ قام ، وَمَنْ يقوم ، وَمَنْ القائم ، فزادوا « هو » ليكون جملة تقوم مقام فعل ويقبل . قال
 النحاس : ويدل على خلاف هذا قوله :

مَنْ رَسُولِي إِلَى الثَّوْرِيَا يَأْتِي . ضُفْتُ ذَرْعًا يَهْجِرُهَا وَالْيَكْبَابُ

(وَأَذْتَبُوا إِلَىٰ مَعَكُمْ رَقِيبٌ) أي انتظروا العذاب والسخط ، فإني منتظر النصر والرحمة .

قوله تعالى : (وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا) قيل : صاح بهم جبريل صيحة فخرجت أرواحهم
 من أجسادهم . (نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ) أي
 صيحة جبريل . وأنت الفعل على لفظ الصيحة ، وقال في قصة صالح : « وأخذ الذين ظلموا
 الصيحة » فذكر على معنى الصباح . قال ابن عباس : ما أهلك الله أمتين بعدذاب واحد إلا
 قوم صالح وقوم شعيب ، أهلكهم الله بالصيحة ؛ غير أن قوم صالح أخذتهم الصيحة من
 تحتهم ، وقوم شعيب أخذتهم الصيحة من فوقهم . (فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ، كَذَّبُوا
 بِمَا فِيهَا إِلَّا بَعْدَ الْمَدِينِ كَمَا بَدَأْتُ نَمُودُ) تقدم معناه . وحكى اللكساني أن أبا عبد الرحمن
 السلمي قرأ « كما بدئت نمود » بضم العين . قال النحاس : المعروف في اللغة أنه يقال بعدد

(١) راجع ج ٢ ص ٤٠ طبة ثانية .

(٢) راجع ج ٧ ص ٨٩ طبة أول أرتانية .

(٣) مؤخرين إلى ربيعة .

يَعُدُّ بَعْدًا وَيُعَدُّ إِذَا هَلَكَ . وقال المهدوى : من ضم العين من « بعدت » فهي لغة تستعمل في الخير والشر ، ومصدرها البُعد ؛ وبيدت تستعمل في الشر خاصة ؛ يقال : بعد يبعد بعداً ؛ فالبعد على قراءة الجماعة بمعنى اللبنة ؛ وقد يجتمع معنى اللتين لتقاربهما في المعنى ؛ فيكون مما جاء مصدره على غير لفظه لتقارب المعاني .

قوله تعالى : وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿١٦٦﴾
إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَأَتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿١٦٧﴾
يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَيَسَّ الْأَوْرَدَ الْمُورَدُ ﴿١٦٨﴾
وَاتَّبَعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَهُ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَسَّ الْأَوْرَدَ الْمُرْفُودُ ﴿١٦٩﴾

قوله تعالى : (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا) بين أنه أتبع النبي النبي لإقامة الحجّة ، وإزاحة كل علة « آيَاتِنَا » أي بالتوراة ، وقيل : بالمعجزات . (وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ) أي حجة بينه ؛ يعني النصا . وقد مضى في « آل عمران » معنى السلطان واشتقاقه فلا معنى للإعادة . (إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَطَلَبِهِ فَأَتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ) أي شأنه وحاله ، حتى أخذوه لها ، وخالفوا أمر الله تعالى . (وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ) أي بسديد يؤدي إلى صواب . وقيل : « رشيد » أي بمشرد إلى خيبر .

قوله تعالى : (يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) يعني أنه يتقدمهم إلى النار إذ هو رئيسهم . يقال : قدهم بقدهم قدماً وقُدُوماً إِذَا تَقَدَّمَهُمْ . (فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ) أي أدخلهم فيها . تُؤَكِّدُ بلفظ الماضي ؛ والمعنى فيوردهم النار ؛ وما تحقق وجوده فكانه كأنّ ؛ فلهاذا عبر عن المستقبل بالماضي . (وَيَسَّ الْأَوْرَدَ الْمُورَدُ) أي يسّ المدخل المدخول ؛ ولم يقل بسّ لأنّ الكلام يرجع إلى المورود ؛ وهو كما تقول : تم المتزل دارك ، ونعمت المتزل دارك . والمورود الماء الذي يورد ، والموضع الذي يورد ؛ وهو بمعنى المفعول .

قوله تعالى: (وَاتَّبِعُوا فِي هَذِهِ لِمَنَّمَ) أى فى الدنيا . (وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ) أى ولعنة يوم القيامة ؛ وقد تقدم هذا المعنى . (يَبْسُ الرُّفْدُ الْمَرْفُودُ) حكى الكسانى وأبو عبيدة : رَفَدْتُهُ أَرَفَدْتُهُ رَفْدًا ؛ أى أعته وأعطيته . وأسم العطية الرُّفْدُ ؛ أى يبس العطاة والإعانة . والرَّفْدُ أيضا القُدَحُ الضخم ؛ قاله الجوهري ، والتقدير : يبس الرُّفْدُ رَفْدُ المَرْفُودِ . وذكر الماوردى أن الرَفْدَ يفتح الراء القُدَحُ ، والرَّفْدُ بكسرهما ما فى القُدَحِ من الشراب ؛ حكى ذلك عن الأصمى ؛ فكانه ذم بذلك ما يسقونه فى النار . وقيل : إن الرَفْدَ الزيادة ؛ أى يبس ما يرفدون به بعد الفرق النار ؛ قاله الكلبي .

قوله تعالى : ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْفُرْقَانِ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٤٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمْ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٤١﴾ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْفُرْقَانِ وَهِيَ ظَلِيلَةٌ ۖ إِنَّهَا اخْذَتْهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٤٢﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ۚ ذَلِكَ يَوْمٌ تَجْمَعُ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ ﴿١٤٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُعَدَّدٍ ﴿١٤٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٤٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٤٦﴾ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ ﴿١٤٧﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا فِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ۚ عَطَاءٌ غَيْرُ مَجْدُودٍ ﴿١٤٨﴾ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ ۚ وَإِنَّا لَمَوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ ﴿١٤٩﴾

قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْفُرَى نَقَصُهُ لِيَكَّ ﴾ « ذلك » رجع على إضمار مبتدأ ، أى الأمر ذلك . وإن شئت بالابتداء ؛ والمعنى : ذلك النبا المتقدم من أنباء القرى قصصه عليك . ﴿ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴾ قال قتادة : القائم ما كان خاويًا على عروشه ، والحصيد ما لا أثر له . وقيل : القائم العاصم ، والحصيد الخراب ؛ قاله ابن عباس . وقال مجاهد : قائم خاوية على عروشها ، وحصيد مستأصل ؛ يعنى محصودا كالزروع إذا حصد ؛ قال الشاعر :

والناس في قسم المنية بينهم • كالزروع منه قائمٌ وحصيدٌ

وقال آخر :^(١)

إنما نحن مثل خامة زرع • ففى يأت يأت عصيدُه

قال الأخفش سعيد : حصيد أى محصود ، وجمعه حصدى وحصاد مثل مرضى ومرضى ؛ قال : يكون فيمن يعقل حصدى ، مثل قتييل وقتل . ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ ﴾ أصل الظلم فى اللغة وضع الشيء فى غير موضعه ، وقد تقدم فى « البقرة » مستوفى . ﴿ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ﴾ بالكفر والمعاصى . وحكى سيبويه أنه يقال : ظلم إياه . ﴿ فَمَا أَغْنَتْ ﴾ أى دفنت . ﴿ عَنْهُمْ أَلِهَتُهُمْ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ فى الكلام حذف ؛ أى التى كانوا يدعون ؛ أى يعبدون . ﴿ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْنِيبٍ ﴾ أى غير تحسير ؛ قاله مجاهد وقاتدة .

وقال ليلى :

فلقد يلى وكل صاحب جدية • ليسلى يعود وذاكم التنيب

والتنيب الهلاك والخسران ، وفيه إضمار ؛ أى ما زادتهم عبادة الأصنام ، لحذف المضاف ؛ أى كانت عبادتهم آياتها قد خسرتهم ثواب الآخرة .

قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخَذُ رَبُّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى ﴾ أى كما أخذ هذه القرى التى كانت لنوح وعاد ونمود يأخذ جميع القرى الظالمة . ونحراً عاصم المجدرى - وطلحة بن مصرف « وكذلك أَخَذَ رَبُّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى » . وعن المجدرى أيضا « وكذلك أَخَذَ رَبُّكَ » كالجماعة « إِذَا أَخَذَ

(١) البيت للمراح ؛ كما فى اللسان . (٢) راجع ج ١ ص ٣٠٩ وما بعدها طيبة ثانية أرنالته .

القرى . قال المهدوي : من قرأ « وكذلك أخذ ربك إذا أخذ » فهو إخبار عما جاءت به العادة في إهلاك من تقدم من الأمم ؛ والمعنى : وكذلك أَخَذَ ربك من أخذه من الأمم المهلكة إذا أخذهم . وقراءة الجماعة على أنه مصدر ، والمعنى : كذلك أخذ ربك من أراد إهلاكه متى أخذه ؛ فإذا مضى ، أى حين أخذ القرى ؛ وإذا لتقبل . (وَيَحْيَ ظَالِمَةٌ) أى وأهلها ظالمون ؛ فحذف المضاف مثل : « وأسأل القرية » . (إِنَّ أَخَذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ) أى عقوبته لأهل الشرك موجبة غليظة . وفي صحيح مسلم والترمذي من حديث أبي موسى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله تعالى يمل للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته » ثم قرأ « وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى » الآية . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح غريب .

قوله تعالى : (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً) أى لعبرة وموعظة . (لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ) . (ذَلِكَ يَوْمٌ) ابتداء وخبر . (مَجْمُوعٌ) من نعمته . (لَهُ النَّاسُ) أسم ما لم يسم فاعله ؛ ولهذا لم يقل مجوعون ؛ فإن قدرت ارتفاع « الناس » بالابتداء ، والخبر « مجموع له » فإنما لم يقل : مجموعون على هذا التقدير ؛ لأن « له » يقوم مقام الفاعل . والجمع الحشر ؛ أى يحشرون لذلك اليوم . (وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ) أى يشهده البر والفاجر ، ويشهده أهل السماء . وقد ذكرنا هذين اليمين مع غيرهما من أسماء القيامة في كتاب « التذكرة » وبيناهما والحمد لله .

قوله تعالى : (وَمَا تَوْفِيقِي) أى ما توفرك لك اليوم . (إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعَدودٍ) أى لأجل سبق به قضاء ، وهو معدود عندنا . (يَوْمَ يَأْتِي) وقرئ « يوم بات » لأنه الياء تنحذف إذا كانت قبلها كسرة ؛ تقول : لا أدر ؛ ذكره القشيري . قال النحاس : قرأه أهل المدينة وأبو عمرو والكسائي بآببات الياء في الإدراج ، وحذفها في الوقف ؛ وروى أن أبا وابن مسعود قرأا « يوم يأتى » بالياء في الوقف والوصل ؛ وقرأ الأعمش وحزرة « يوم يأت » بغير ياء في الوقف والوصل ؛ قال أبو جعفر النحاس : الوجه في هذا ألا يوقف عليه ، وأن يوصل بالياء ؛ لأن جماعة من التحوين قالوا : لا تنحذف الياء ، ولا يحزم الشيء بغير جازم ؛ فاما الوقف بغير ياء ففيه قول الكسائي ؛ قال : لأن الفعل السالم يوقف عليه كالمحزوم ، فحذف الياء ، كما

تحذف الضمة. وأما قراءة حمزة فقد احتج أبو عبيد لحذف الياء في الوصل والوقف بحجتين؛ أحدهما - أنه زعم أنه رآه في الإمام الذي يقلل له إنه مصحف عثمان رضي الله عنه بنير ياء. والنجمة الأخرى - أنه حكى أنها لغة هذلي؛ تقول: ما أدري؛ قال النحاس: أما حجتنا بمصحف عثمان رضي الله عنه فشيء يرده عليه أكثر العلماء؛ قال مالك بن أنس رحمه الله: سألت عن مصحف عثمان رضي الله عنه فقيل لي ذهب؛ وأما حجتنا بقولهم: «ما أدري» فلا حجة فيه؛ لأن هذا الحذف قد حكاه النحويون القدماء، وذكروا علته، وأنه لا يقاس عليه. وأشد القراءة في حذف الياء:

كَفَّكَ مَا يَلْقَى دِرْهَمًا • جُودًا وَآخَرَى تُعْطَى بِالسِّيفِ الدِّمَاءَ

أنى تعطى، وقد حكى سيويه والخليل أن العرب تقول: لا أدري، فتحذف الياء وتجتزئ بالكسرة، إلا أنهم يزعمون أن ذلك لكثرة الاستعمال. قال الزجاج: والأجود في النحو إثبات الياء؛ قال: والذي أراه اتباع المصحف وإجماع القراء؛ لأن القراءة سنة؛ وقد جاء مثله في كلام العرب. (لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ) الأصل تتكلم؛ حذف إحدى التامين تخفيفاً. وفيه إضمار، أى لا تتكلم فيه نفس إلا بالماذون فيه من حسن الكلام؛ لأنهم ملجئون إلى ترك التبيح. وقيل: المعنى لا تكلم بحجة ولا شفاعاة إلا بإذنه. وقيل: إن لهم في الموقف وقتاً يمدون فيه من الكلام إلا بإذنه. وهذه الآية أكثر ما يسأل عنها أهل الإلحاد في الدين، فيقول لم قال: «لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ» و«هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ. وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ». وقال في موضع من ذكر القيامة: «وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَامَتُونَ». وقال: «يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ بِجَانِبِهَا عَنْ نَفْسِهَا». وقال: «وَقَفَّوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْكُوفُونَ». وقال: «فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ». والجواب ما ذكرناه، وأنهم لا يتلقون بحجة تجب لهم وإنما يتكلمون بالإقرار بذنوبهم، ولوم بعضهم بعضاً، وطرح بعضهم الذنوب على بعض؛ فاما التكلم والتعلق بحجة لهم فلا؛ وهذا كما تقول للذي يخاطبك كثيراً، وخاطبه فارغ من اللمعة: ما تكلمت بشيء، وما نطقت بشيء؛ فمضى من يتكلم بلا حجة فيه له غير منكم. وقال

قوم : ذلك اليوم طويل ، وله مواطن ومواقف في بعضها يمتنون من الكلام ، وفي بعضها يطاول لم الكلام . فهذا يدل على أنه لا تتكلم نفس إلا بإذنه . (فَيَنْهَمُ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ) أى من الأنفس ، أو من الناس ؛ وقد ذكروهم في قوله : « يوم مجموع له الناس » . والشقي الذي كتب عليه الشقاوة ، والسعيد الذي كتب عليه السعادة ؛ قال ليبيد :

فَنَهَمَ سَعِيدٌ أَخَذَ يَنْصِيهِهِ • وَمِنْهُمْ شَقِيٌّ بِالْمَعِيشَةِ قَانِعٌ

وروى الترمذي عن ابن عمر عن عمر بن الخطاب قال : لما نزلت هذه الآية « فَيَنْهَمُ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ » سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت : يا نبي الله فعلام نعمل ؟ على شيء قد فرغ منه ، أو على شيء لم يفرغ منه ؟ فقال : « بل على شيء قد فرغ وجرى به الأقدام يا عمر ولكن كل ميسر لما خلق له » . هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه لا نعرفه إلا من حديث عبد الله بن عمر ؛ وقد تقدم في « الأعراف » .

قوله تعالى : (فَأَمَّا الَّذِينَ شَفُوا) ابتداء . (فَيَقِي النَّارَ) في موضع الخبر ، وكذا (لَمْ يَمُتْ) فيها زَيْفٌ وَشَيْبٌ . قال أبو العالية : الزفير من الصدر ، والشبيق من الحلق ؛ وعنه أيضاً ضد ذلك . وقال الزجاج : الزفير من شدة الأنف ، والشبيق من الأنف المرتفع جداً ؛ قال : وزعم أهل اللغة من الكوفيين والبصريين أن الزفير بمنزلة ابتداء صوت الخمر في الشبيق ، والشبيق بمنزلة [آخر] صوت الحمار في الشبيق . وقال ابن عباس عكسه ؛ قال : الزفير الصوت الشديد ، والشبيق الصوت الضعيف . وقال الضحاك ومقاتل : الزفير مثل أول نهيق الحمار ، والشبيق مثل آخره حين فرغ من صوته ؛ قال الشاعر :

حَسَّرَجَ بِالْجُوفِ يَحِيلًا أَوْ شَبَقِي • حَتَّى يُقَالَ نَاهَسَقُ وَمَاتَهَقِي

وقيل : الزفير إخراج النفس ، وهو أن يمتلئ الجوف غمًا فيخرج بالنفس ، والشبيق رد النفس . وقيل : الزفير ترديد النفس من شدة الحزن ؛ مأخوذ من الزفر وهو الحمل على الظهر لشدة

(١) راجع ج ٧ ص ٣١٤ طبعة أول أو ثانية . (٢) هو العجاج واليت من فصيحة له يصف فيها الحازنة طليها ؛

وقام الأصمخ حاضي الخرق • مثله الأعلام لماع الخفس

(٣) السجل : الصوت الذي يهوى في صدر الحمار .

والشمس الطويل الممتد؛ مأخوذ من قولهم : جبل شاقق ؛ أى طويل ، والرفير والشريق من أصوات المحزونين .

قوله تعالى : ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ ﴾ « ما دامت » في موضع نصب على الظرف ؛ أى دوام السموات والأرض ، والتقدير : وقت ذلك . واختلف في تاويل هذا ؛ فقالت طائفة منهم الضعباك : المعنى ما دامت سموات الجنة والنار وأرضهما . والسماء كل ما علاك فأظلك ، والأرض ما استقر عليه قدمك ؛ وفي التزويل : « وأورثنا الأرض نبيؤا من الجنة حيث نشاء » . وقيل : أراد به السماء والأرض المهودتين في الدنيا ، وأجرى ذلك على عادة العرب في الإخبار عن دوام الشيء وتأبيده ؛ كقولهم : لا آتيك ما جنُّ ليلٍ ، أو مآل سبيلٍ ، وما اختلف الليل والنهار ، وما ناح الحمام ، وما دامت السموات والأرض ، ونحو هذا مما يريدون به طولاً من غير نهاية ؛ فأوجههم الله تخليد الكفرة بذلك ، وإن كان قد أخبر بزوال السموات والأرض . وعن ابن عباس أن جميع الأشياء المخلوقة أصلها من نور العرش ، وأن السموات والأرض في الآخرة تزقان إلى النور الذي أخذنا منه ؛ فهما دائماً أبداً في نور العرش .

قوله تعالى : ﴿ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ﴾ في موضع نصب ؛ لأنه استثناء ليس من الأول ؛ وقد اختلف فيه على أقوال عشرة : الأول — أنه استثناء من قوله : « ففى النار » كأنه قال : إلا ما شاء ربك من تأخير قوم عن ذلك ؛ وهذا قول رواه أبو نضرة عن أبي سعيد الخدري أو جابر رضى الله عنهما . وإنما لم يقل من شاء ؛ لأن المراد العدد لا الأشخاص ؛ كقوله : « ما طاب لكم » . وعن أبي نضرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « إلا من شاء إلا يدخلهم وإن شقوا بالمعصية » . الثانى — أن الاستثناء إنما هو للمعصاة المؤمنين في إخراجهم بعد مدة من النار ؛ وعلى هذا يكون قوله : « فأما الذين شقوا » عاماً في الكفرة والمعصاة ، ويكون الاستثناء من « خالدين » ؛ قاله قتادة والضعباك وأبو سنان وغيرهم . وفى الصحيح من حديث أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بدخل

ناس جهنم حتى إذا صاروا كالحممة ^{وَاللَّيْلِ} أخرجوا منها ودخلوا الجنة فيقال هؤلاء الجنةيون " وقد تقدم هذا المعنى في « النساء » وغيرها . الثالث - أن الاستثناء من الزفير والشيق ؛ أى لم فيها زفير وشيق إلا ما شاء ربك من أنواع العذاب الذى لم يذكره ، وكذلك لأهل الجنة من النعيم ما ذكره ، وما لم يذكره . حكاه ابن الأثير . الرابع - قال ابن مسعود : « خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ » لا يموتون فيها ، ولا يخرجون منها « إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ » وهو أن يامر النار فأكلمهم وتنفيمهم ، ثم يجدد خلقهم .

قلت : وهذا القول خاص بالكافر ، والاستثناء له في الأكل ، وتجديد الخلق . الخامس - أن « إِلَّا » بمعنى « سوى » كما تقول في الكلام : ما معى رجل إلا زيد ، ولى عليك ألفا درهم إلا الألف التى لى عليك . قيل : فالمعنى ما دامت السموات والأرض سوى ما شاء ربك من الخلود . السادس - أنه استثناء من الإخراج ، وهو لا يريد أن يخرجهم منها ، كما تقول في الكلام : أردت أن أفعل ذلك إلا أن أشاء غيره ، وأنت مقيم على ذلك الفعل ، فالمعنى أنه لو شاء أن يخرجهم لأخرجهم ؛ ولكنه قد أعلمهم أنهم خالدون فيها ؛ ذكر هذين القولين الزجاج عن أهل اللغة ؛ قال : ولأهل المعاني قولان آخران ؛ فأحد القولين : « خالدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ » إلا ما شاء ربك « من مقدار موقفهم على رأس قبورهم ، وللحاسبة ، وقدر مكثهم في الدنيا ، والبرزخ ، والوقوف للحساب . والقول الآخر - وقوع الاستثناء في الزيادة على النعيم والعذاب ، وتقديره : « خالدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ » إلا ما شاء ربك « من زيادة النعيم لأهل النعيم ، وزيادة العذاب لأهل الجحيم .

قلت : فالاستثناء في الزيادة من الخلود على مدة كون السماء والأرض المهوديتين في الدنيا ؛ واختاره الترمذى الحكيم أبو عبد الله محمد بن على ؛ أى خالدِينَ فِيهَا مَقْطَارَ دَوَامِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وذلك مدة العالم ، وللسماوات والأرض وقت يتغيران فيه ؛ وهو قوله : « يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ » تغلق الله سبحانه الآدميين وعالمهم ، وأشترى منهم أنفسهم وأموالهم

بالجنة ، وعلى ذلك بايعهم يوم الميثاق ، فمن وفى بالعهده فله الجنة ، ومن ذهب بريقته يخلد
 في النار بمقدار دوام السموات والأرض ، فإنما دامت للعامة ، وكذلك أهل الجنة خلود
 في الجنة بمقدار ذلك ، فإذا تمت هذه المعاملة وقع الجميع في مشيئة الله ، قال الله تعالى :
 « وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ . مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ » فيخلد أهل
 الدارين بمقدار دوامهما ، وهو حق الربوبية بذلك المقدار من العظمة ، ثم أوجب لهم الأبد
 في كلتا الدارين لحق الأبدية ، فمن لقيه موحدا لأحدثه بقى في داره أبدا ، ومن لقيه مشركا أحدثه
 لهسا بقى في السجن أبدا ، فأعلم الله العباد مقدار الخلود ، ثم قال : « إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ » من
 زيادة المدة التي نعجز القلوب عن إدراكها لأنه لا غاية لها ، فبالاعتقاد دام خلودهم في الدارين
 أبدا . وقد قيل : إن « إِلَّا » بمعنى الواو ، قاله الفراء وبعض أهل النظر وهو — الثامن —
 والمعنى : وما شاء ربك من الزيادة في الخلود على مدة دوام السموات والأرض في الدنيا .
 وقد قيل في قوله تعالى : « إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا » أى ولا الذين ظلموا . وقال الشاعر :

وكلُّ أحمٍ مفارقه أخوه . كتمر أريك إلا الفرقدان

أى والفرقدان . وقال أبو محمد مكي : وهذا قول بعيد عند البصريين أن تكون « إلا »
 بمعنى الواو ، وقد مضى في « البقرة »^(١) بيانه . وقيل : معناه كما شاء ربك ، كقوله تعالى :
 « وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ » أى كما قد سلف ، وهو — التاسع —
 العاشر — وهو أن قوله تعالى : « إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ » إنما ذلك على طريق الاستثناء الذى
 تدب الشرع إلى استماله في كل كلام ، فهو على حد قوله تعالى : « تَذَكَّرْنَا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ
 إِنَّ شَاءَ اللَّهُ آمِينَ » فهو استثناء في واجب ، وهذا الاستثناء في حكم الشرط كذلك ، كأنه
 قال : إن شاء ربك ، فليس يوصف بمتصل ولا متقطع ، ويؤيده وقوله تعالى :
 « عَطَاءٌ غَيْرُ مَجْذُوذٍ » ونحوه عن أبي عبيد قال : خذمت عزيمة المشيئة من الله تعالى

(١) البيت لسروبن مدي كرب . وقيل : هو لخضرى بن عامر . ويميز أن تكون « إلا » ها بمعنى غير .
 قال سيوريه : كأنه قال وكل أحمٍ غير الفرقدان مفارقه أخوه ، فقد نبت « كلا » بها . (٢) زابع ٢٠

في خلود الفريقين في الدارين ؛ فوقع لفظ الاستثناء ، والمزية قد تقدمت في الخلود ، قال : وهذا مثل قوله تعالى : « لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِينَ » وقد علم أنهم يدخلونه حتماً ، فلم يوجب الاستثناء في الموضوعين خياراً ؛ إذ المشيئة قد تقدمت بالمزية في الخلود في الدارين والدخول في المسجد الحرام ؛ ونحوه عن الفراء ، وقول - حادى عشر - وهو أن الأشقياء هم السعداء ، والسعداء هم الأشقياء لاغيرهم ، والاستثناء في الموضوعين راجع إليهم ؛ وبيانه أن « ما » بمعنى « من » ، « آستنى الله عز وجل من الداخلين في النار المخلدين فيها الذين يخرجون منها من أمة محمد صلى الله عليه وسلم بما معهم من الإيمان » وآستنى من الداخلين في الجنة المخلدين فيها الذين يدخلون النار بذنوبهم قبل دخول الجنة ثم يخرجون منها إلى الجنة ، وهم الذين وقع عليهم الاستثناء الثاني ؛ كأنه قال تعالى : فأما الذين شقوا في النار لهم فيها زفير وشهيق خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك ألا يخذه فيها ، وهم الخارجون منها من أمة محمد صلى الله عليه وسلم بإيمانهم وشفاعته محمد صلى الله عليه وسلم ؛ فهم بدخولهم النار يسمون الأشقياء ، وبدخولهم الجنة يسمون السعداء ؛ كما روى الطبري عن ابن عباس إذ قال : الذين سجدوا شقوا بدخول النار ثم سجدوا بالخروج منها ودخولهم الجنة .

وقرأ الأعمش وحفص وحمزة والكسائي « وَأَمَّا الَّذِينَ سُيِّدُوا » بضم السين ، وقال أبو عمرو : والدليل على أنه سجدوا أن الأول شقوا ولم يقل أشقوا . قال النحاس : ورايت علي بن سليمان يشجب من قراءة الكسائي « سجدوا » مع علمه بالعربية ؛ إذ كان هذا خطأ لا يجوز ؛ لأنه إنما يقال : سيد فلان وأسعد الله ، وأسعد مثل أميرض ؛ وإنما احتج الكسائي بقولهم : مسعود ولا حجة له فيه ؛ لأنه يقال : مكان مسعود فيه ، ثم يحذف فيه ويسمى به . قال المهدوي : ومن ضم السين من « سيئوا » فهو محمول على قولهم : مسعود ، وهو شاذ قليل ؛ لأنه لا يقال سجد الله ، إنما يقال : أسعد الله . وقال الحلبي : « سجدوا » بضم السين أى رزقوا السعادة ؛ يقال : سيد وأسعد بمعنى واحد . وقرأ الباقون « سجدوا » بفتح

السين قياساً على «شَقُوا» وأختره أبو عبيد وأبو حاتم . وقال الجوهري : والسعادة خلاف الشقاوة ؛ تقول : منه سَعِدَ الرجل بالكسر فهو سعيد ، مثل سَلِمَ فهو سليم ، وسُعِدَ فهو مسعود ؛ ولا يقال فيه مُسَعَّد ، كأنهم استعموا عه بمسعود . وقال الفسيري : أبو نصر عبد الرحيم : وقد ورد سَعَدَهُ الله فهو مسعود ، وأسعده الله فهو مسعد ؛ فهذا يقوى قول الكوفيين . وقال سيويه : لا يقال سَعِدَ فلان كما لا يقال شُقِي فلان ؛ لأنه مما لا يتعدى . (عَطَاءٌ غَيْرُ مُجْدُوذٍ) : أى غير مقطوع ، من جَذَهُ يَجْذُهُ أى قطعهُ ؛ قال النابغة :

تَجَذُّ السُّلُوقُ الْمُضَاعَفَ تَسْبَهُ . وَتُوْقِدُ الصُّفَاحُ نَارَ الْحُبَابِ ^(١)

قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَكُ ﴾ جزم بالنهي بموحذفت الون لكثرة الآتال . (في مِرْيَةٍ) أى فى شك . (لِمَا يَبْعُدُ هَؤُلَاءِ) من الآلة أنها باطل . وأحسن من هذا : أى قل يا عجد لكل من شك « لأنك فى مِرْيَةٍ مما يبعد هؤلاء » أن الله عز وجل ما أمرهم به ، وإنما يبعدونها كما كان آبائهم يفعلون تقليدا لهم . (وَإِنَّا لَمُوقِنٌهُمْ نَصِيبُهُمْ غَيْرُ مَقْصُورٍ) فيه ثلاثة أقوال : أحدها - نصيبهم من الرزق ؛ قاله أبو العالية . الثانى - نصيبهم من العذاب ؛ قاله ابن زيد . الثالث - ما وُعدوا به من خير أو شر ؛ قاله ابن عباس رضى الله عنهما . قوله تعالى : وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ^(٢)

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ ﴾ الكلمة : أن الله عز وجل حكم أن يؤخرهم إلى يوم القيامة لما علم فى ذلك من الصلاح ؛ ولولا ذلك لقصى بينهم أهلهم بأن يثبت المؤمن وبعاقب الكافر . قيل المراد بين المختلفين فى كتاب موسى ؛ فإنهم كانوا بين مصدق ومكذب . وقيل : بين هؤلاء المختلفين فيك يا عجد بتمجيل المقاب ، ولكن سبق

(١) البيت للناطقة الله يأتى يصف فيه السيف . ويرى (ويروى) . والسلوق : الدرع المنسوب إلى سلوق ؛

قرية باليمن . والمضاعف : الذى تسج سلقين . والصفاح : المجاعة . الراض : ذباب له شعاع بالليل ، وتؤل : نار الحباب ما انتفع من شره النارى الهواء بتصادم جهرين .

الحكم بتأخير العقاب عن هذه الأمة إلى يوم القيامة . (وَأَيُّهُمْ لَنِي شَكٌّ مِنْهُ مُرِيبٌ) إن حلت على قوم موسى؛ أي لني شك من كتاب موسى فهم في شك من القرآن .
قوله تعالى : وَإِنْ كَلَّا لَمَا لَبِوْفَيْتَهُمْ رَبُّكَ أَعْمَلَهُمْ إِنَّهُمْ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾

قوله تعالى : (وَإِنْ كَلَّا لَمَا لَبِوْفَيْتَهُمْ رَبُّكَ أَعْمَلَهُمْ) أي إن كلا من الأسم التي عددها هم يرون جزاء أعمالهم، فكل ذلك قومك يا محمد . وأختلف القراء في قراءة (وَإِنْ كَلَّا لَمَا) فقراء أهل الحرمين - نافع وابن كثير وأبو بكر معهم - «وَإِنْ كَلَّا» بالتخفيف، على أنها «إن» المخفضة من التثنية معاملة؛ وقد ذكر هذا الخليل وسيبويه، قال سيبويه : حدثنا من أتق به أنه سمع العرب تقول : إن زيدا لمطلقاً؛ وأنشد قول الشاعر^(١)
كَأَنَّ ظِلَّةً تَقْطُو إِلَى وَارِقِ السَّلَمِ •

أراد كأنها ظلية تخفف ونصب ما بعدها، والبصريون يجوزون تخفيف «إن» المشددة مع إعمالها، وأنكر ذلك الكسائي وقال : ما أدري على أي شيء قرئ «وَإِنْ كَلَّا» ! وزعم الفراء أنه نصب «كَلَّا» في قراءة من خفف بقوله : «لَبِوْفَيْتَهُمْ» أي وإن لبو فئتهم كَلَّا؛ وأنكر ذلك جميع النحويين، وقالوا : هذا من كبر الخط ؛ لا يجوز عند أحد زيدا لأخريته . وشدد الباقون «إن» ونصبوا بها «كَلَّا» على أصلها . وقرأ عاصم وحزمة وابن عاصم «لَمَا» بالتشديد، وخففها الباقون على معنى : وإن كَلَّا لبو فئتهم، جعلوا «ما» صلة . وقيل : دخلت لفصل بين اللامين اللتين تنقلبان الفهم ، وكلاهما مفتوح ففصل بينهما بـ «ما» . وقال الزجاج : لام «لَمَا» لام «إن» و «ما» زائدة مؤكدة؛ تقول : إن زيدا لمطلقاً؛ فإن

(١) هو : ابن صريم الشكري؛ وصدر البيت :

• • • وهوما توافينا بوجه قسم • • •

يجوز نصب الظية بكان شبيهاً بالفعل إذا حذف وعمل ، والتخفيف محذوف لعدم السامح . ويجوز جر الظية على تقدير : ظلية ، وإن زائدة مؤكدة . (٢) قال الطبري : وذلك أن العرب لا تنصب بفعل بعد لام إيمان أصلاً قبلها .

نغمسى أنت يدخل على حبرها أو أسمها لام كقولك : إن الله لنفسور رحيم ، وقوله : « إن في ذلك لذكرى » . واللام في « ليوفينهم » هي التي يتلقى بها القسم ، وتدخل على الفعل ويلزمها النون المشددة أو المحففة ، ولما اجتمعت اللامان فصل بينهما بـ « ما » و « ما » زائدة مؤكدة . وقال الفراء : « ما » بمعنى « من » كقوله : « وَإِنْ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَيِّنَنَّ » أى وإن كلا لمن ليوفينهم ، واللام في « ليوفينهم » للقسم ، وهذا يرجع معناه إلى قول الزجاج ، غير أن « ما » عند الزجاج زائدة وعند الفراء اسم بمعنى « من » . وقيل : ليست بزائدة ، بل هي اسم دخل عليها لام التأكيد ، وهي خبر « إن » و « ليوفينهم » جواب القسم ، والتقدير : وإن كلا خلق ليوفينهم ربك أعمالهم . وقيل : « ما » بمعنى « من » كقوله : « فَأَيُّ كُفْرًا مَّا طَلَبَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ » أى من ، وهذا كله هو قول الفراء بعينه . وأما من شدد « لما » وقرأ « وَإِنْ كُلاًّ مَّا » بالتشديد فيهما — وهو حمزة ممن واقفه — فقيل : إنه لحن ، حكى عن محمد بن يزيد أن هذا لا يجوز ، ولا يقال : إن زيدا إلا لضربته ، ولا مئاً لضربته . وقال الكسائي : الله أعلم بهذه القراءة ، وما أعرف لها وجها . وقال أيضا هو وأبو على الفارسي : التشديد فيهما مشكل . قال الحاس وغيره : وللتحويين في ذلك أقوال : الأول — أن أصلها « لمن ما » فقلبت النون ميما ، واجتمعت ثلاث ميما ، فحذفت الوسطى فصارت « لما » و « ما » على هذا القول بمعنى « من » تقديره : وإن كلا لمن الذين ، كقولهم :

وَيَأْتِي لَمَّا أَصْدِرُ الْأَمْرَ وَجْهَهُ • إذا هو أعتا بالسبيل مَصَادِرُهُ

وزيف الزجاج هذا القول ، وقال : « من » اسم على حرفين فلا يجوز حذفه . الثانى — أن الأصل لَمَنْ ، فحذفت الميم المكسورة لأجتماع الميماء ، والتقدير : وإن كُلاًّ لَمَنْ خَلَقَ ليوفينهم . وقيل : « لَمَّا » مصدر « لَمَّ » وجاءت بغير تنوين حملا للوصل على الوقف ؛ فهي على هذا كقوله : « وَتَأْكُلُونَ الثَّرَاتِ أَكْثَلًا مَّا » أى جامعا لسال المأكول ، فالتقدير على هذا : وإن كلا ليوفينهم ربك أعمالهم توفية لَمَّا ؛ أى جامعة لأعمالهم جمعا ، فهو كقولك : قياما لأقومن . وقد قرأ الزهرى « لَمَّا » بالتشديد والتنوين على هذا المعنى . الثالث —

أن « لما » بمعنى « إلا » حكى أهل اللغة : سألته بألفه لما قلت ، بمعنى إلا قلت ؛ ومثله قوله تعالى : « إِنَّ كُلَّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ » أى إلا عليها ؛ فمضى الآية : ما كل واحد منهم إلا ليوفينهم ؛ قال القشيري : وزيف الزجاج هذا القول بأنه لا تقي لقوله : « وَإِنْ كَلَّا لَمَّا » حتى . فقدر « إلا » ولا يقال : ذهب الناس لما زيد . الرابع . — قال أبو عثمان المازني : الأصل وإن كَلَّا لَمَّا بخفيف « لما » ثم نقلت ، كقوله :

لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ أَرَى جَدًّا * فِي عَامِنَا ذَا بَعْدِ مَا أَخْصَبَا

وقال أبو إسحق الزجاج : هذا خطأ ؛ إنما يخفف المتقل ، ولا يتقل الخفيف . الخامس . — قال أبو عبيد القاسم بن سلام . يجوز أن يكون التشديد من قولهم : لَمْتُ الشيءَ لَمًّا إذا جمعت ، ثم بنى منه فعلٌ ، كما قرئ « ثُمَّ أَرْسَلْنَا رَسُولًا نَقَرَى » بنير تنوين وبتنوين ؛ فالألف على هذا للتأنيث ، وتعال على هذا القول لأصحاب الإمامة ؛ قال أبو إسحق : القول الذى لا يجوز غيره عندى أن تكون مخففة من الثقيلة ، وتكون بمعنى « ما » مثل : « إن كل نفس لما عليها حافظ » وكذا أيضا تشدد على أصلها ، وتكون بمعنى « ما » و « لما » بمعنى « إلا » حكى ذلك الخليل وسبويه وجميع البصريين ؛ وأن « لما » يستعمل بمعنى « إلا » .

قلت : هذا القول الذى ارتضاه الزجاج حكاه عنه النحاس وغيره ؛ وقد تقدم مثله وتضعيف الزجاج له ، إلا أن ذلك القول « إِنَّ » فيه نافية ، وهنا مخففة من الثقيلة فافترا . وبتيت قراءتان ؛ قال أبو حاتم : وفي حرف أبي « وَإِنْ كُلٌّ إِلَّا لِيُوفِينَهم » . وروى عن الأعمش « وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا » بخفيف « إن » ورفع « كل » وبتشديد « لما » . قال النحاس : وهذه القراءات المخالفة للسواد تكون فيها « إن » بمعنى « ما » لا غير ، وتكون على التفسير ؛ لأنه لا يجوز أن يقرأ بما خالف السواد إلا على هذه الجهة . (إِنَّهُ يَمَّا يَعْمَلُونَ كَبِيرٌ) تهديد ووعيد .

(١) البيت لزجة .

(٢) وردت العبارة الآتية بإحدى النسخ تصويبا لعبارة القرطبي ، وبزيادة كلمة

(حاشية) : (صواب ما ذكره الشيخ رحمه الله أن يقول : إلا أن هذا القول « إن » فيه نافية والقول المنقح « إن » به مخففة من الثقيلة فافترا) .

قوله تعالى : فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا
إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾

قوله تعالى : (فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ) الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ولغيره . وقيل :
له والمراد أمته ؛ قاله السدي . وقيل : « استقم » أطلب الإقامة على الدين من الله وآله
ذلك . فتكون السنين بين السؤال ، كما نقول : استغفر الله أطلب الغفران . والاستقامة
الاستمرار في جهة واحدة من غير أخذ في جهة اليمين والشمال ؛ أي فاستقم على امتثال أمر الله .
وفي صحيح مسلم عن سفيان بن عبد الله الثقفي قال : قلت يا رسول الله قل لي في الإسلام
قولا لا أسأل عنه أحدا بعدك ! قال : ” قل آمنت بالله ثم استقم “ . وروى الذاريين أبو محمد
في مسنده عن عثمان بن حاضر الأزدي قال : دخلت على ابن عباس فقلت أوصني ! فقال :
نعم ! عليك بتقوى الله والاستقامة ، أتسع ولا تنبدع . (وَمَنْ تَابَ مَعَكَ) أي استقم أنت
وهم ؛ يريد أصحابه الذين تابوا من الشرك ومن بعده ممن أتبعه من أمته . قال ابن عباس :
ما نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم آية هي أشد ولا أشق من هذه الآية عليه ؛ ولذلك
قال لأصحابه حين قالوا له : لقد أسرع إليك الشيب ! فقال : ” شيبني هود وأحواتها “ وقد
تقدم في أول السورة . وروى عن أبي عبد الرحمن السلمي قال سمعت أبا علي السري يقول :
رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في المنام فقلت : يا رسول الله ! روى عنك أنك قلت :
” شيبني هود “ فقال : ” نعم “ فقلت له : ما الذي شيبك منها ؟ فقص الأنبياء وهلاك
الأمم ؟ فقال : ” لا ولكن قوله : « فاستقم كما أمرت » “ . (وَلَا تَطْغَوْا) هي عن
الطغيان . والطغيان مجاوزة الحد ؛ ومه « يَا نَسَاطَتِ الْمَاءِ » . وقيل : أي لا تتعبروا على أحد .

قوله تعالى : وَلَا تَرْكُنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسْكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم

مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾

(١) في الأصل (الثنوي) و صوب عن (الهارثي) .

فيه أربع مسائل :

الأولى - قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَرْكُنُوا إِلَى الرُّكُونِ حَقِيقَتُهُ الْإِسْتِنَادُ وَالْاعْتِمَادُ وَالسَّكُونُ إِلَى الشَّيْءِ وَالرِّضَا بِهِ ۚ قَالَ قَتَادَةُ : مَعْنَاهُ لَا تَوَدُّهُمْ وَلَا تَطِيعُهُمْ . أَيْنَ جَزِيحٌ : لَا تَيْمَلُوا إِلَيْهِمْ . أَبُو الْعَالِيَةِ : لَا تَرْضُوا أَعْمَالَهُمْ ۚ وَكَلِمَةُ مُتَقَارِبٌ . وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ : « الرُّكُونُ هُنَا الْإِدْهَانُ وَذَلِكَ أَلَّا يَشْكُرَ عَلَيْهِمْ كُفْرَهُمْ .

الثانية - قرأ الجمهور « تَرْكُنُوا » بفتح الكاف ۚ قال أبو عمرو : هي لغة أهل الحجاز . وقرأ طلحة بن مُصَرِّفٍ وَقَتَادَةُ وَغَيْرُهُمَا « تَرْكُنُوا » بضم الكاف ۚ قال الفراء : وهي لغة تميم وقيس . وجوز قوم رَكَنَ يَرْكَنُ مِثْلَ مَنَعَ يَمْنَعُ .

الثالثة - قوله تعالى : ﴿ إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا ۚ قِيلَ : أَهْلُ الشَّرْكِ . وَقِيلَ : عَامَّةٌ فِيهِمْ وَفِي الْعَصَاةِ عَلَى نَحْوِ قَوْلِهِ تَعَالَى : « وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا » الآية ۚ وقد تقدم . وهذا هو الصحيح في معنى الآية ۚ وأنها دالة على هجران أهل الكفر والمعاصي من أهل البدع وغيرهم ۚ فإن محبتهم كفر أو معصية ۚ إذ الصَّحْبَةُ لَا تَكُونُ إِلَّا عَنْ مَوَدَّةٍ ۚ وقد قال حكيم :^(٢)

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه ۚ فكلُّ فريقٍ بالمقارِبِ يفتدي
فإن كانت الصحبة عن ضرورة وثيقة فقد مضى القول فيها في « آل عمران » و « المائدة » .^(١)
وصحبة الظالم على الثقة مستثناة من النهي بحال الاضطراب . والله أعلم .

الرابعة - قوله تعالى : ﴿ فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ ۚ أَى تَحْرَقَكُمْ بِخَالِطَتِهِمْ وَمَصَاحِبَتِهِمْ وَمَلَأَتْهُمْ عَلَى أَعْرَاضِهِمْ وَمَوَاقِفَتِهِمْ فِي أُمُورِهِمْ .

قوله تعالى : وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفَا مِنْ أَلَيْلٍ إِنَّ أَحْسَنَ لِبُذْهِبِنَ الْكَسَائِدِ ذَلِكَ ذِكْرٌ لِلَّذِينَ
﴿ ١١١ ﴾

(١) الإدعان : المصانة . * (٢) هو طرفة بن العبد . (٣) راجع ج ٤ ص ٥٧ وما بعدها
طبعة أول أرتانية . (٤) راجع ج ٦ ص ٢١٧ طبعة أول أرتانية .

فيه ست مسائل :

الأولى - قوله تعالى : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرِيقَ النَّهَارِ ﴾ لم يختلف أحد من أهل التأويل في أن الصلاة في هذه الآية يراد بها الصلوات المفروضة ؛ وخصها بالذكر لأنها ثمانية الإيمان ، وإليها يُفزع في النواصب ؛ وكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة . وقال شيخ الصوفية : إن المراد بهذه الآية استغراق الأوقات بالعبادة فرضا ونفلا ؛ قال ابن العربي : وهذا ضعيف ؛ فإن الأمر لم يتناول ذلك لا واجبا [فإنها خمس صلوات ^(١)] لا نفلا فإن الأوقات معلومة ، وأوقات التوافل المرغب فيها محصورة ، وما سواها من الأوقات يسترسل عليها التنب على البذل لا على العموم ، وليس ذلك في قوة بشر .

الثانية - قوله تعالى : ﴿ طَرِيقَ النَّهَارِ ﴾ قال مجاهد : الطرف الأول صلاة الصبح ، والطرف الثاني صلاة الظهر والعصر ؛ واختاره ابن عطية . وقيل : الطرفان الصبح والمغرب ؛ قاله ابن عباس والحسن . وعن الحسن أيضا : الطرف الثاني العصر وحده ؛ وقاله قتادة والضحاك . وقيل : الطرفان الظهر والعصر . والرّف المغرب والعشاء والصبح ؛ كأن هذا القائل راعى جهرا القراءة . وحكى الماوردي : أن الطرف الأول صلاة الصبح بانفصاح .

قلت : وهذا الاتفاق ينفضه القول الذي قبله . ورجح الطبري أن الطرفين الصبح والمغرب ، وأنه ظاهر ؛ قال ابن عطية : ورد عليه بأن المغرب لا تدخل فيه لأنها من صلاة الليل . قال ابن العربي : والمعجب من الطبري الذي يرى أن طرفي النهار الصبح والمغرب وهما طرفا الليل ! فقلب القوس رَكْوَةً ، وحاد عن البرجاس غلو . قال الطبري : والدليل عليه إجماع الجميع على أن أحد الطرفين الصبح ، فدلّ على أن الطرف الآخر المغرب ؛ ولم يجمع منه على ذلك أحد .

(١) (حزبه) : زل به . مهم ، أو أصابه ع . (٢) الزيادة عن ابن العربي . (٣) لهذا المثل كما في الصحاح وغيره (حارت القوس ركوة) و يضرب في الأدبار وأغلاب الأمور . (٤) البرجاس (: مهم) : غرض على رأس ربح أو نحوه موكه . والعروة : قدر ربة بينهم .

قلت : هذا تحامل من ابن العربي في الرد ، وأمه لم يجمع معه على ذلك أحد ، وقد ذكرنا عن مجاهد أن الطرف الأول صلاة الصبح ، وقد وقع الاتفاق — إلا من شذ — بأن من أكل أو شرب بعد طلوع العجر متعمدا أن يومه ذلك يوم فطره ، وعليه القضاء والكفارة ، وما ذلك إلا وما بعد طلوع العجر من النهار ، فدل على صحة ما قاله الطبري في الصبح ، وتيق عليه المغرب والرد عليه فيه ما تقدم . والله أعلم .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ وَزُلْفًا مِنَ اللَّيْلِ ﴾ أي في زلف من الليل ، والزلف الساعات القريبة بعضها من بعض ، ومنه سميت المزدلفة ، لأنها منزل بعد عرفة بقرب مكة . وقرأ ابن القمقاع وابن أبي إسحق وغيرهما « وَزُلْفًا » بصم اللام جمع زَلَفٍ لأنه قد نطق بزلف ، ويجوز أن يكون واحده « زُلْفَةٌ » لغة ، كبُسْرَةٍ وبُسْرٍ ، في لغة من صم السين . وقرأ ابن محيصن « وَزُلْفًا » من الليل بإسكان اللام ، والواحدة زُلْفَةٌ تجمع جمع الأجسام التي هي أشخاص كدُرَّةٍ ودُرٍّ وْبُرَّةٍ وْبُرٍّ . وقرأ مجاهد وآس محيصن أيضا « زُلْفَى » مثل قُرْبَى . وقرأ الباقر « وَزُلْفًا » بفتح اللام كغرفة وغُرْف . قال ابن الأعرابي : الزلف الساعات ، واحدها زُلْفَةٌ . وقال قوم : الزلّة أول ساعة من الليل بعد مغيب الشمس ، فعل هذا يكون المراد بزلف الليل صلاة النعمة ، قاله ابن عباس . وقال الحسن : المغرب والعشاء . وقيل : المغرب والعشاء والصبح ، وقد تقدم . وقال الأخفش يعني صلاة الليل ولم يعين .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ﴾ ذهب جمهور المتأولين من الصحابة والتابعين إلى أن الحسنات هاهنا هي الصلوات الخمس . وقال مجاهد : الحسنات قول الرجل سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ، قال ابن عطية : وهذا على جهة المثال في الحسنات ، والذي يظهر أن اللفظ عام في الحسنات خاص في السيئات ، لقوله صلى الله عليه وسلم : « مَا أَجْتَنَّبْتُ الْبُكَارَ » .

قلت : سبب النزول يعصده قول الجمهور ، نزلت في رجل من الأنصار ، قيل : هو أبو اليسر بن عمرو . وقيل : اسمه عباد ، خلا بأمراء فقبلها وتلد بها فيا دون الفرح . روى

الترمذى من عبد الله قال : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : " إني عاجلٌ امرأة في أقصى المدينة وإني أصبت منها ما دون أن أسمها وأما هذا فاقض في " ما شئت فقال له عمر : لقد سترك الله ! لو سترت على نفسك فلم يرد عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا ، فانطلق الرجل فاتبعه رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا فدعاه ، فقال عليه : « أقيم الصلاة طرُق النهار وولغا من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكركم للذاكرين » إلى آخر الآية ، فقال رجل من القوم : هذا له خاصة ؟ قال : " [لا] بل للناس كافة " . قال الترمذى : حديث حسن صحيح . ونرجع أيضا عن ابن مسعود أن رجلا أصاب من امرأة قبله حرام فأبى النبي صلى الله عليه وسلم فسأله عن كفارتها فتركت « أقيم الصلاة طرُق النهار وولغا من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات » فقال الرجل : ألي هذه يا رسول الله ؟ فقال : " لك ولن عمل بها من أمتي " . قال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح . وروى عن أبي اليسر قال : أتت امرأة بتاع تمرا فقلت : إن في البيت تمرا أطيب من هذا فدخلت معي في البيت فأمويت إليها فقبلتها ، فأتيت أبا بكر فذكرت ذلك له فقال : استر على نفسك وثب ولا تخبر أحدا فلم أصبر ، فأتيت عمر فذكرت ذلك له فقال : استر على نفسك وثب ولا تخبر أحدا فلم أصبر . فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكرت ذلك له فقال : " أخلقت غازيا في سبيل الله في أهله بمنزل هذا " حتى تمنى أنه لم يكن إلا تلك الساعة ، حتى ظن أنه من أهل النار . قال : وأطرق رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أوحى الله إليه « أقيم الصلاة طرُق النهار وولغا من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكركم للذاكرين » . قال أبو اليسر : فأتته فقرأها على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أصحابه : يا رسول الله ! إلهنا خاصة أم للناس عامة ؟ فقال : " بل للناس عامة " . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن ^(١) . وقيل بن الربيع ضعفه وكيع وغيره ، وقد روى أن النبي صلى الله عليه وسلم أعرض عنه ، وأقيمت صلاة العصر فلما فرغ منها نزل جبريل عليه السلام عليه بالآية فدعاه فقال له :

(١) الزيادة من الترمذى . (٢) الذي في صحيح الترمذى (صحيح) بدل (غريب) .

« أشهدت معنا الصلاة » قال نعم ؛ قاله : « أذهب فإنها كفارة لما ضلت » . وروى أن النبي صلى الله عليه وسلم لما تلا عليه هذه الآية قال له : « قم فصل أربع ركعات » . والله أعلم . ونرجح الترمذى الحكيم في « نواتر الأصول » من حديث ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لم أر شيئا أحسن طلبا ولا أسرع إدراكا من حسنة حديثة لذنب قديم ، « إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين » » .

الخامسة - دلت الآية مع هذه الأحاديث على أن القبلة الحرام واللس الحرام لا يجب فيهما الحد ؛ وقد يستدل به على أن لا حد ولا أدب على الرجل والمرأة وإن وجدا في ثوب واحد ، وهو اختيار ابن المنذر ؛ لأنه لما ذكر اختلاف العلماء في هذه المسئلة ذكر هذا الحديث مشيرا إلى أنه لا يجب عليهما شيء ، وسيأتي ما للعلماء في هذا في « النور »^(١) إن شاء الله تعالى .

السادسة - ذكر الله سبحانه في كتابه الصلاة بركوعها وسجودها وقيامها وقراءتها وأسمائها فقال : « أقيم الصلاة » الآية . وقال : « أقيم الصلاة لدلوك الشمس » الآية . وقال : « فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون . وله الحمد في السموات والأرض وحشا وحين تظهرون » . وقال : « وسبح بحميد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها » . وقال : « واركعوا واجهدوا » . وقال : « وقوموا لله قانتين » . وقال : « وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا » على ما تقدم . وقال : « ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها » أى بقراءتك ؛ وهذا كله مجمل أحمله في كتابه ، وأحال على نبيه في بيانه ؛ فقال جل ذكره : « وأزلنا إليك الذكر لئيب للناس ما نزل إليهم » فبين صلى الله عليه وسلم مواقيت الصلاة ، وعدد الركعات والسجرات ، وصفه جميع الصلوات فرضها وستيا ، وما لا تصح إلا به من القرائن ، وما يستحب فيها من السنن والفضائل ؛ فقال في صحيح البخارى : « صلوا كما رأيتموني أصلي » . وتدل ذلك عنه الكفاة عن الكفاة ، على ما هو معلوم ، ولم يمت النبي صلى الله عليه وسلم حتى

(١) راجع المسئلة السابقة في تسمية آية ٢ .

بَيْنَ مَجِيعٍ مَا بِالنَّاسِ الْحَاجَةُ إِلَيْهِ؛ فَكُلَّ الدِّينِ، وَأَوْضَحَ السَّبِيلَ؛ قَالَ اللهُ تَعَالَى: «الْيَوْمَ أَكَلْتُ
لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا» .

قوله تعالى : (ذَلِكَ ذِكْرَى لِلَّذِينَ) أى القرآن موعظة وتوبة لمن انمط
وتذكره ، وخص بالذكر الذين بالذکر لأنهم المستفدون بالذکرى . والذکرى مصدر جاء
بالف التانيث .

قوله تعالى : وَأَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾ فَلَوْلَا
كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكَ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ
إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا
مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾

قوله تعالى : (وَأَصْبِرْ) أى على الصلاة ؛ كقوله : «وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا» .
وقيل : المعنى وأصبر يا محمد على ما تلقى من الأذى . (فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ)
يعنى المصلين .

قوله تعالى : (فَلَوْلَا كَانَ) أى هلا كان . (مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكَ) أى من الأمم التى
قبلكم . (أُولُوا بَقِيَّةٍ) أى أصحاب طاعة ودين وعقل وبصر . (يَنْهَوْنَ) قومهم . (عَنِ الْفَسَادِ
فِي الْأَرْضِ) لما أعطاهم الله تعالى من العقول وأراهم من الآيات ؛ وهذا توبيخ للكفار .
وقيل : لولا هاهنا للنفي ؛ أى ما كان من قبلكم ؛ كقوله : فلولا كانت قرية آمنت أى ما كانت .
(إِلَّا قَلِيلًا) استثناء منقطع ؛ أى لكن قليلا . (مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ) نها عن الفساد فى الأرض .
قيل : هم قوم يونس ؛ لقوله : « إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ » . وقيل : هم أتباع الأنبياء وأهل الحق .
(وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا) أى أشركوا وعصوا . (مَا أُتْرِفُوا فِيهِ) أى من الاشتغال بالمال
واللذات ، وإيثار ذلك على الآخرة . (وَكَانُوا مُجْرِمِينَ) .

قوله تعالى : وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصَادِقُونَ ﴿١١٧﴾ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَرَاؤُونَ مَخْلَفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا مَلَأَ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾

قوله تعالى : (وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى) أى أهل القرى . (بِظُلْمٍ) أى بشرك وكفر . (وَأَهْلُهَا مُصَادِقُونَ) أى فيما بينهم فى تماطى الحقوق ؛ أى لم يكن ليهلكهم بالكفر وحده حتى يضاف إليه المساد ، كما أهلك قوم شعيب بغش الميالك والميزان ، وقوم لوط بانواط ؛ ودل هذا على أن المعاصى أقرب إلى عذاب الاستئصال فى الدنيا من الشرك ، وإن كان عذاب الشرك فى الآخرة أصعب . وفى صحيح الترمذى من حديث أبى بكر الصديق رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بغباب من عنده " ، وقد تقدم . وقيل : المعنى وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مسلمون ، فإنه يكون ذلك ظلما لهم ونقصا من حقهم ، أى ما أهلك قوما إلا بعد إغذار وإنذار . وقال الزجاج : يجوز أن يكون المعنى ما كان ربك ليهلك أحدا وهو يظلمه وإن كان على نهاية الصلاح ؛ لأنه تصرف فى ملكه ؛ دليله قوله : « إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا » . وقيل : المعنى وما كان الله ليهلكهم بذنوبهم وهم مصلحون ؛ أى مخلصون فى الإيمان . فالظلم المعاصى على هذا .

قوله تعالى : (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً) قال سعيد بن جبير : على ملة الإسلام وحدها . وقال الضحاك : أهل دين واحد ، أهل ضلالة أو أهل هدى . (وَلَا يَرَاؤُونَ مَخْلَفِينَ) أى على أديان شتى ، قاله مجاهد وقادة . (إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ) استثناء منقطع ؛ أى لكن من رحم ربك بالإيمان والهدى فإنه لم يختلف . وقيل : مختلفين فى الرزق ، فهذا

غنى وهذا فقير « إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ » بالقناعة؛ قاله الحسن . (وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ) قال الحسن ومقاتل وعطاء : إيماء الإشارة للاختلاف؛ أى وللإختلاف خلقهم . وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك : ولرحمته خلقهم؛ وإنما قال : « ولذلك » ولم يقل ولتلك، والرحمة مؤنثة لأنه مصدر؛ وأيضا فإن تأنيث الرحمة غير حقيقى، فحملت على معنى الفضل . وقيل: الإشارة بذلك للاختلاف والرحمة، وقد يشار به «ذلك» إلى شيئين متضادين؛ كقوله تعالى : « لَا فَاْرِضْ وَلَا يَكُفُّ عَوَاكُنَّ ذَلِكَ » ولم يقل بين ذنبك ولا تينك، وقال : « وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا » وقال : « وَلَا يَجْهَرُونَ بِصَلَاتِكَ وَلَا خَافَتْ بِهَا وَأَتَتْ بَيْنَ ذَلِكَ سَيْلًا » وكذلك قوله : « قُلْ يَفْضِلُ اللَّهُ وَرَحْمَتَهُ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا » وهذا أحسن الأقوال إن شاء الله تعالى؛ لأنه يعم، أى ولي ذكر خلقهم؛ وإلى هذا أشار مالك رحمه الله فيما روى عنه أشهب؛ قال أشهب : سألت مالكا عن هذه الآية قال: خلقهم ليكون فريق فى الجنة وفريق فى السعير؛ أى خلق أهل الاختلاف للاختلاف، وأهل الرحمة للرحمة . وروى عن ابن عباس أيضا قال : خلقهم فريقين؛ فريقا يرحمه وفريقا لا يرحمه . قال المهدوى : وفى الكلام على هذا التقدير تقديم وتأخير؛ المعنى : ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك، وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين؛ ولذلك خلقهم . وقيل هو متعلق بقوله : « ذَلِكَ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ النَّاسَ وَذَلِكَ يَوْمَ مَشْهُودٌ » والمعنى : ولشهود ذلك اليوم خلقهم . وقيل هو متعلق بقوله : « قَسَمْتُ لَهُمْ شِعْرَ وَبَعِيدٌ » أى سعادة والشقاوة خلقهم .

قوله تعالى : (وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ) معنى : تمت . ثبت ذلك كما أخبر وقد نزل . تمام الكلمة أمتناعها عن قبول التغير والتبديل . (لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ) جمع . « من » لبيان الجنس؛ أى من جنس الجنة وجنس الناس . « أجمعين » تأكيد . « بَلَا » تارة كذلك أخبر على لسان نبيه أنه علا جته بقوله : « ولكل واحدة منكم نوحه البحارى » من حديث أبى هريرة وقد تقدم .

قوله تعالى : **وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُنِثِي بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ** ﴿١١٠﴾

قوله تعالى : **(وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ)** « كلا » نصب به « نقص » معناه وكل الذي يحتاج إليه من أنباء الرسل قصص عليك . وقال الأخفش : « **كُلًّا** » حال مقدمة ، كقولك : **كُلًّا** ضربت القوم . **(عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ)** أى من أخبارهم وصبرهم على أذى قومهم . **(مَا نُنِثِي بِهِ فُؤَادَكَ)** أى على أداء الرسالة ، والصبر على ما ينالك فيها من الأذى . وقيل : تزيدك به تثبيتاً ويقينا . وقال ابن عباس : ما نُنِثِي به قلبك . وقال ابن جريج : نُصَبِر به قلبك حتى لا يتزعزع . وقال أهل المعاني : نُطِيب ، والمعنى متقارب . و« ما » بدل من « كلا » المعنى : نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك . **(وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ)** أى فى هذه السورة ؛ عن ابن عباس وأبى موسى وغيرهما ؛ وخص هذه السورة لأن فيها أخبار الأنبياء والجنة والنار . وقيل : خصها بالذكريا كيدا وإن كان الحق فى كل القرآن . وقال قتادة والحسن : المعنى فى هذه الدنيا يريد النبوة . **(وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ)** الموعظة ما يمتنع به من إهلاك الأمم الماضية ، والقرون الخالية المكذبة ؛ وهذا تشریف لهذه السورة ؛ لأن غيرها من السور قد جاء فيها الحق والموعظة والذكر ولم يقل فيها كما قال فى هذه على التخصيص . **(وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ)** أى يتذكرون ما نزل بمن هلك فيتوبون ؛ وخص المؤمنين لأنهم المتعظون إذا سمعوا قصص الأنبياء .

قوله تعالى : **وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَمِلُونَ** ﴿١١١﴾ **وَاتَّظَرُوا إِنَّا مُنْتَظَرُونَ** ﴿١١٢﴾ **وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ** ﴿١١٣﴾

قوله تعالى: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَائِكُمْ﴾ تهديد ووعيد. ﴿إِنَّا عَامِلُونَ .
وَأَنْتُمْظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ﴾ تهديد آخر، وقد تقدم معناه .

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أى غيبهما وشهادتهما؛ فحذف لدلالة
المعنى . وقال ابن عباس : خزائن السموات والأرض . وقال الضحاك : جميع ما غاب عن
العباد فيهما . وقال الباقون : غيب السموات والأرض نزول العذاب من السماء وطلوعه
من الأرض . وقال أبو على الفارسي : « وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ » أى علم ما غاب
فيهما؛ أضاف الغيب وهو مضاف إلى المفعول توسعاً؛ لأنه حذف حرف الجر؛ فنول :
غبت في الأرض وغبت ببسلك كذا . ﴿وَالِيهِ يَرْجِعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ﴾ أى يوم القيامة؛ إذ ليس
لمخلوق أمر إلا بإذنه . وقرأ نافع وحفص «يَرْجِعُ» بضم الياء وفتح الجيم؛ أى يَرُدُّ . ﴿فَاعْبُدْهُ
وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ أى ألبأ إليه وثق به . ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أى يجازى كلأ بعمله .
وقرأ أهل المدينة والشام وحفص بإثناء على المخاطبة . الباقون بياء على الخبر . قال الأخفش
سعيد : «يعملون» إذا لم يخاطب النبي صلى الله عليه وسلم معهم؛ قال : وقال بعضهم «تعملون»
بإثناء لأنه خاطب النبي صلى الله عليه وسلم وقال : قل لهم « وما ربك بغير غافل عما تعملون » .
وقال كعب الأحبار : خاتمة النوراة خاتمة «هود» من قوله : « وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ » إلى آخر السورة . تمت سورة «هود» ويتلوها سورة «يوسف» عليه السلام .

• • • • •

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة يوسف عليه السلام

ومى مكية كلها . وقال ابن عباس وقسادة : إلا أربع آيات منها . وروى أن اليهود سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قصة يوسف فترتل السورة ؛ وسيأتي . وقال سعد ابن أبي وقاص : أنزل القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم ففلاه عليهم زمانا فقالوا : لو قصصت علينا ؛ فترتل « نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ » ففلاه عليهم زمانا فقالوا : لو حدثنا ؛ فأنزل : « اللَّهُ تَزَلَّ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ » . قال العلماء : وذكر الله أفاضل الأنبياء في القرآن وكثرها بمعنى واحد في وجوه مختلفة ، بالفاظ متباينة على درجات البلاغة ، وقد ذكر قصة يوسف ولم يكررها ، فلم يقدر مخالف على معارضة ما تكثر ، ولا على معارضة غير المتكرر ، والإعجاز لمن تأمل .

قوله تعالى : **الَّذِي تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ** ﴿١﴾

قوله تعالى : (الَّذِي) تقدم القول فيه ؛ والتقدير هنا : تلك آيات الكتاب ، على الابتداء والخبر . وقبل : « الرَّبِّ » اسم السورة ؛ أى هذه السورة المسماة « الر » . (تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ) يعنى القرآن المبين ؛ أى المبين حلاله وحرامه ، وحدوده وأحكامه وهُداه وبركته . وقبل : أى هذه تلك الآيات التى كنتم توعدون بها فى التوراة .

قوله تعالى : **إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ** ﴿٢﴾

قوله تعالى : (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا) يجوز أن يكون المعنى : إنا أنزلنا القرآن عربيا ؛ نصب « قرآن » على الحال ؛ أى مجوعا . و « عربيا » نعت لقوله قرآن . ويجوز أن يكون توطئة للحال ، كما نقول : صررت بزيد رجلا صالحا ، و « عربيا » على الحال ،

أى يُقرأ بفتحك يا معشر العرب . أَعْرَبَ يَنْ ، ومنه « أَلَيْبُ قُرْبٍ عَنْ نَفْسِهَا » .
 (لَمَلَكُمْ تَقُولُونَ) أى لكى تملوا معانيه ، وتفهموا ما فيه . وبعض العرب يأتى بإن
 مع « لعل » تشبيها بحسبى . واللام فى « لعل » زائدة للتوكيد ؛ كما قال الشاعر^(١) :
 • يَا أَبَتَا عَلِكَ أَوْ عَسَاكَ •

وقيل : « لَمَلَكُمْ تَقُولُونَ » أى تكونوا على رجاء من تدبره ؛ فيعود معنى الشك اليهم لا إلى
 الكتاب ، ولا إلى الله عز وجل . وقيل : معنى « أزلناه » أى أزلنا خبر يوسف ؛ قال
 النحاس : وهذا أشبه بالمعنى ؛ لأنه يروى أن اليهود قالوا : سلوه لم أنتقل آل يعقوب من
 الشام إلى مصر ؟ وعن خبر يوسف ؛ فأنزل الله عز وجل هذا بمكة موافقا لما فى التوراة ،
 وفيه زيادة ليست عندهم . فكان هذا للنبي صلى الله عليه وسلم - إذ أخبرهم ولم يكن يعرفوا
 كتابا ولا هو فى موضع شك - بمنزلة إحياء عيسى عليه السلام الميت على ما يأتى فيه .

قوله تعالى : نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ
 هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴿٣١﴾

قوله تعالى : (نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ) ابتداء وخبر . (أَحْسَنَ الْقَصَصِ) بمعنى المصدر ،
 والتقدير : قصصنا أحسن القصص . وأصل القصة تتبع الشيء ، ومنه قوله تعالى : « وَقَالَتْ
 لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ » أى تبنى أثره ؛ فالقاص يتبع الآثار فيخبر بها . والحسن يعود إلى القصة
 لا إلى القصة . يقال : فلان حسن الاقتصاص للحديث أى جيد السأفة له . وقيل :
 القصة ليس مصدرا ، بل هو فى معنى الاسم ؛ كما يقال : الله رجاؤنا ، أى مرجؤنا ؛ فالمنى
 على هذا : نحن نخبرك بأحسن الأخبار . (بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ) أى بوحينا فى « ما » مع الفعل
 بمنزلة المصدر . (هَذَا الْقُرْآنَ) نصب القرآن على أنه نعت لهذا ، أو بدل منه ، أو عطف
 بيان . وأجاز الفراء الخفض ؛ قال : على التكرير ؛ وهو عند البصريين على البدل من « ما » .

(١) الرجل للمباح ؛ وصدر البيت .

• قوله تعالى قد أنى أما كا •

وأجاز أبو إسحق الرغف على إضمار مبتدأ، كأن سائلا سألته عن الوحى فقيل له : هو القرآن .
 ﴿ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قِبَلِهِ لَمَنِ الْقَائِلِينَ ﴾ أى من الغافلين عما عرفناك .

مسئلة - واختلف العلماء لم تسميت هذه السورة أحسن القصص من بين سائر الأناصيص ؟
 فقيل : لأنه ليست قصة فى القرآن تتضمن من العبر والحكم ما تتضمن هذه القصة ، وببإيه
 قوله فى آخرها : « لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولَى الْأَلْبَابِ » . وقيل : سماها أحسن القصص
 بحسن مجازة يوسف عن إخوته ، وصبره على أذاهم ، وعفوه عنهم - بعد إلفانهم - عن ذكر
 ما تعاطوه ، وكرمه فى العفو عنهم ، حتى قال : « لَا تَتْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ » . وقيل : لأن فيها
 ذكر الأنبياء والصالحين والملائكة والشياطين ، والجن والإنس والأنعام والطير ، وسير الملوك
 والملوك ، والتجار والعلماء والجهال ، والرجال والنساء وجملتهم ومكرمهم ، وفيها ذكر التوحيد
 والفقه والسير وتعمير الرؤيا ، والسياسة والمعاشره وتدمير المعاش ، وجمل الفوائد التى تصلح
 للدين والدنيا . وقيل : لأن فيها ذكر الحبيب والمحبوب وسيرهما . وقيل : « أحسن » هنا
 بمعنى أعجب . وقال بعض أهل المعانى : إنما كانت أحسن القصص لأن كل من ذكر فيها
 كان مآله السعادة ، انظر إلى يوسف وأبيه وإخوته ، وأمرأة العزيز ؛ قيل : ولذلك أيضا أسلم
 بيوسف وحسن إسلامه ، ومستبهر الرؤيا السابق ، والشاهد فيما يقال ، فسا كان أمر الجميع
 إلا إلى خير .

قوله تعالى : إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّ رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ
 كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴿١٠﴾

قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ ﴾ « إذ » فى موضع نصب على الظرف ؛ أى اذ كرهم حين
 قال يوسف . وقراءة العامة بضم السين . وقرأ طلحة ابن مُصَرِّف « يُوسُف » بالهمزة وكسر
 السين . وحكى أبو زيد « يُوسُف » بالهمزة وفتح السين . ولم ينصرف لأنه أعجمى ؛ وقيل :
 هو عبرى . وسئل أبو الحسن الأقطع - وكان حكيما - عن « يوسف » فقال : الأسف فى اللغة

أبيه . (رَأَيْتَهُمْ) نوکید . وقال : « رَأَيْتَهُمْ لِي سَاجِدِينَ » بقاء مذكرا ، فالقول عند الخليل وسيبويه أنه لما أخبر عن هذه الأشياء بالطاعة والسجود وهما من أفعال من يعقل أخبر عنهما كما يخبر عن يعقل . وقد تقدّم هذا المعنى في قوله : « وَرَأَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ » . والعرب تجمع ما لا يعقل جمع من يعقل إذا أنزلوه منزله ، وإن كان خارجا عن الأصل .

قوله تعالى : قَالَ يَبْنِي لَكَ تَقْصُصَ رُءُوبِكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٥٠﴾
فيه إحدى عشرة مسألة :

الأولى — قوله تعالى : (يَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا) أى يحسبوا فى هلاكك ، لأن تأويلها ظاهر ، فربما يحملهم الشيطان على قصدك بسوء حينئذ . واللام فى « لك » تأكيد ، كقوله : « إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ » .

الثانية — الرؤيا حالة شريفة ، ومنزلة رفيعة ؛ قال صلى الله عليه وسلم : « لم يبق بعدى من المبشرات إلا الرؤيا الصالحة الصادرة يراها الرجل الصالح أو ترى له » . وقال : « أصدقكم رؤيا أصدقكم حديثا » . وحكم صلى الله عليه وسلم بأنها جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة ، وروى من حديث ابن عباس رضى الله عنهما « جزء من أربعين جزءا من النبوة » . ومن حديث ابن عمر « جزء من تسعة وأربعين جزءا » . ومن حديث العباس « جزء من خمسين جزءا من النبوة » . ومن حديث أنس « من ستة وعشرين » وعن عبادة بن الصامت « من أربعة وأربعين من النبوة » . والصحيح منها حديث الستة والأربعين ، ويتلوه فى الصحة حديث السبعين ؛ ولم يخرج مسلم فى صحيحه غير هذين الحديثين ، وأما سائرهما فن أحاديث الشيخ ؛ قاله ابن بطال . قال أبو عبد الله المازرى : والأكثر والأصح عند أهل الحديث « من ستة وأربعين » . قال الطبري : والصواب أن

يقال إن عامة هذه الأحاديث أو أكثرها صحاح، ولكل حديث منها مخرج معقول، فاما قوله :
 "إنها جزء من سبعين جزءا من النبوة" فإن ذلك قول عام في كل رؤيا صالحة صادقة، ولكل
 مسلم رآها في منامه على أى أحواله كان، وأما قوله : "إنها من أربعين - أو - ستة وأربعين"
 فإنه يريد بذلك من كان صاحبها بالحال التي ذكرت عن الصديق - رضى الله عنه - أنه
 كان بها، فمن كان من أهل إسباج الوضوء في السبرات^(١)، والصبر في الله على المكروهات،
 وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فرؤياه الصالحة - إن شاء الله - جزء من أربعين جزءا من
 النبوة، ومن كانت حاله في ذاته بين ذلك فرؤياه الصادرة بين الجزئين، ما بين الأربعين
 إلى الستين، لا تنقص عن سبعين، وتزيد على الأربعين، وإلى هذا المعنى أشار أبو عمر بن
 عبد البر فقال : اختلاف الآثار في هذا الباب في عدد أجزاء الرؤيا ليس ذلك عندى اختلاف
 تضاد وتنافع - والله أعلم - لأنه يحتمل أن تكون الرؤيا الصالحة من بعض من يراها على
 حسب ما يكون من صدق الحديث، وأداء الأمانة، والدين المتين، وحسن اليقين، فعلى قدر
 اختلاف الناس فيها وصفنا تكون الرؤيا منهم على الأجزاء المختلفة العدد، فمن خلصت نيته
 في عبادة ربه وبقية وصدق حديثه، كانت رؤياه أصدق، وإلى النبوة أقرب، كما أن الأنبياء
 يتفاضلون، قال الله تعالى : « وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ » .

قلت : فهذا التأويل يجمع شتات الأحاديث، وهو أولى من تفسير بعضها دون بعض
 وطرحه، ذكر أبو سعيد الأسفائقي عن بعض أهل العلم قال : معنى قوله : "جزء من ستة
 وأربعين جزءا من النبوة" فإن الله تعالى أوحى إلى محمد صلى الله عليه وسلم في النبوة
 ثلاثة وعشرين عاما - فيما رواه عكرمة وعمرو بن دينار عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما -
 فإذا نسبنا ستة أشهر من ثلاثة وعشرين عاما وجدنا ذلك جزءا من ستة وأربعين جزءا،
 وإلى هذا القول أشار المازري في كتابه «المعجم»، واختاره القوتوبى في تفسيره من سورة
 « يونس » عند قوله تعالى : « لم البشرى » . وهو فاسد من وجهين : أحدهما - ما رواه

(١) السبرات (جمع سبرة) يسكون الياء : شدة البرد .

أبو سلمة عن ابن عباس وعائشة أن مدة الوحي كانت عشرين سنة ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم بعث على رأس أربعين ، فأقام بمكة عشرين ، وهو قول عمرو والشعبي وابن شهاب والحسن وعطاء الخراساني وسعيد بن المسيب على اختلاف عنه ، وهي رواية ربيعة وأبي غالب عن أنس ، وإذا ثبت هذا الحديث بطل ذلك التأويل : الثاني - أن سائر الأحاديث في الأجزاء المختلفة تنقضي بغير معنى .

الثالثة - إنما كانت الرؤيا جزءا من النبوة ؛ لأن فيها ما يعجز ويمتنع كالطيران ، وقلب الأعيان ، والاطلاع على شيء من علم الغيب ؛ كما قال عليه السلام : " إنه لم يبق من مبشرات النبوة إلا الرؤيا الصادقة في النوم " الحديث . وعلى الجملة فإن الرؤيا الصادقة من الله ، وأنها من النبوة ؛ قال صلى الله عليه وسلم : " الرؤيا من الله والحلم من الشيطان " وأن التصديق بها حق ، ولها التأويل الحسن ، وربما أغنى بعضها عن التأويل ، وفيها من بدع الله ولطفه ما يزيد المؤمن في إيمانه ؛ ولا خلاف في هذا بين أهل الدين والحق من أهل الرأي والأثر ، ولا ينكر الرؤيا إلا أهل الإلحاد وشذوذة من المعتزلة .

الرابعة - إن قيل : إذا كانت الرؤيا الصادقة جزءا من النبوة فكيف يكون الكفار والكاذب والمخلف أهلا لها ؟ وقد وقعت من بعض الكفار وغيرهم ممن لا يرضى دينه منامات صحيحة صادقة ؛ كنাম رؤيا الملك الذي رأى سبع بقرات ، ومنام الفتين في السجن ، ورؤيا ^{يوسف} بنمصر ، الذي فسر لها دانيال في ذهاب ملكه ، ورؤيا كسرى في ظهور النبي صلى الله عليه وسلم ، ومنام عائكة ، عمه رسول الله صلى الله عليه وسلم في أمره وهي كافرة ، وقد ترجم البخاري " باب رؤيا أهل السجن " فأجواب - أن الكافر والفاجر والفاسق والكاذب وإن صدقت رؤياهم في بعض الأوقات لا تكون من الوحي ولا من النبوة ؛ إذ ليس كل من صدق في حديث عن غيب يكون خبره ذلك نبوة ؛ وقد تقدم في " الأنعام " أن الكاهن وغيره قد يخبر بكلمة الحق فيصدق ، لكن ذلك على التدور والقلعة ، فكذلك رؤيا هؤلاء ، قال المهلب : إنما ترجم البخاري

بهذا لجواز أن تكون رؤيا أهل الشرك رؤيا صادقة، كما كانت رؤيا الفتيين صادقة، إلا أنه لا يجوز أن تصاف إلى النبوة إضافة رؤيا المؤمن إليها، إذ ليس كل ما يصح له تأويل من الرؤيا حقيقة يكون جزءا من النبوة.

الخامسة - الرؤيا المضافة إلى الله تعالى هي التي خلصت من الأضغاث والأوهام، وكان تأويلها موافقا لما في اللوح المحفوظ، والتي هي من خبر الأضغاث هي الحلم، وهي المضافة إلى الشيطان، وإنما سميت ضغنا؛ لأن فيها أشياء متضادة؛ قال معناه المهلب. وقد قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم الرؤيا أقساما ثلثي عن قول كل قائل؛ روى عوف بن مالك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "الرؤيا ثلاثة منها أهوئيل الشيطان ليحرن ابن آدم ومنها ما يتم به في قفلة فيراه في منامه ومنها جزء من سنة وأربعين جزءا من النبوة". قال قلت: سمعت هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال: نعم! سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم.

السادسة - قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَفْضُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ﴾ الآية. الرؤيا مصدر رأى في المنام رؤيا على وزن فُعِلَ كالسُفيا والبُشرى؛ وألفه للتأنيث ولذلك لم ينصرف. وقد اختلف العلماء في حقيقة الرؤيا؛ فقيل: هي إدراك في أجزاء لم تحلها آفة، كالنوم المستغرق وغيره؛ ولهذا أكثر ما تكون الرؤيا في آخر الليل لقلة غلبة النوم، فيخلق الله تعالى للرأى علما ناشئا، ويخلق له الذي يراه على ما يراه ليصح الإدراك؛ قال ابن العربي: ولا يرى في المنام إلا ما يصح إدراكه في اليقظة، ولذلك لا يرى في المنام شخصا قائما قاعدا بحال، وإنما يرى الجائزات المعطادات. وقيل: إن الله ملكا يعرض الرئيات على المحل المدرك من النائم، فيمثل له صوراً محسوسة؛ فتارة تكون تلك الصور أمثلة موافقة لما يقع في الوجود، وتارة تكون لمعانى معقولة غير محسوسة، وفي الحالتين تكون مبشرة أو منذرة؛ قال صلى الله عليه وسلم في صحيح مسلم وغيره: "رأيتُ سوداء^(١) نائرة الرأس تخرج من المدينة إلى مَهْجَةٍ فَأَوَّلُهَا الْحَمَى^(٢)".

(١) أي امرأة سوداء، كما في رواية السنان. (٢) المهجة: هي الجلفة، مبات أهل الشام.

و"رأيت سبى قد أقطع صدره وقرأ تحرق فأولتهما رجل من أهل بيتي يُقتل بالفر نفر من أصحابي يقتلون". و"رأيت أني ادخلت يدى ودرج حصينة فأولتها المدينة". و"رأيت يدي سوارين فأولتهما كذابين يحرجان بعدى". إلى غير ذلك مما صرحت له الأمثال، ومنها ما يظهر معناه أولاً، ومنها ما لا يظهر إلا بعد الفكر؛ وقد رأى النائم في زمن يوسف عليه السلام بقرا فأولها يوسف السنين، ورأى أحد عشر كوكبا والشمس والقمر فأولها بإخوته وأبويه.

السابعة - إن قيل: إن يوسف عليه السلام كان صغيراً وقت رؤياه، والصغير لا حكم لعمله، فكيف تكون له رؤيا لها حكم حتى يقول له أبوه: « لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ »؟ فالجواب - أن الرؤيا إدراك حقيقة على ما قدمناه، فتكون من الصغير كما يكون منه الإدراك الحقيقى فى اليقظة، وإذا أخبر عما رأى صدق، فكذلك إذا أخبر عما يرى فى المنام؛ وقد أخبر الله سبحانه عن رؤياه وأنها وجدت كما رأى فلا اعتراض؛ روى أن يوسف عليه السلام كان ابن أنثى عشرة سنة.

الثامنة - هذه الآية أصل فى ألا تقص الرؤيا على غير شقيق ولا ناصح، ولا على من لا يحسن التأويل فيها؛ روى أبو رزين الثقفى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "الرؤيا جزء من أربعين جزءاً من النبوة والرؤيا معلقة برجل طائر ما لم يحدث بها صاحبها فإذا حدث بها وقعت فلا تحدثوا بها إلا عاقلاً أو محباً أو ناصحاً". أخرجه الترمذى وقال فيه: حديث حسن صحيح؛ وأبو رزين أسمه لقيظ بن عامر. وقيل لسالك: أيعبر الرؤيا كل أحد؟ فقال: أيا النبوة يُلعب؟ وقال مالك: لا يعبر الرؤيا إلا من يحسنها، فإن رأى خيراً أخبر به، وإن رأى مكروهاً فليقل خيراً أو ليصمت؛ قيل: فهل يعبرها على الخير وهى عنده على المكروه لقول من قال إنها على ما تأولت عليه؟ فقال: لا! ثم قال: الرؤيا جزء من النبوة فلا يتلاعب بالنبوة.

التاسعة - وفى هذه الآية دليل على أن مباح أن يحذر المسلم أخاه المسلم من يخافه عليه، ولا يكون داخلًا فى معنى النبوة؛ لأن يعقوب - عليه السلام - قد حذر يوسف أن

يقص رؤياه على إخوته فيكيدوا له كيدا، وفيها أيضا ما يدل على جواز ترك إظهار النعمة عند من تخشى غائلته حسدا وكيدا، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: "استعينوا على [إنجاح] حوائجكم بالكتمان فإن كل ذي نعمة محسود". وفيها أيضا دليل واضح على معرفة يعقوب عليه السلام بتأويل الرؤيا؛ فإنه علم من تأويلها أنه سيظهر عليهم، ولم يبال بذلك من نفسه؛ فإن الرجل يود أن يكون ولده خيرا منه، والأخ لا يود ذلك لأخيه. ويدل أيضا على أن يعقوب عليه السلام كان أحسن من بنيه حسد يوسف وبغضه؛ فنهأ عن قصص الرؤيا عليهم خوف أن يتل بذلك صدورهم، فيعملوا الحيلة في هلاكه؛ ومن هذا ومن فعلهم بيوسف يدل على أنهم كانوا غير أنبياء في ذلك الوقت، ووقع في كتاب الطبري لابن زيد أنهم كانوا أنبياء، وهذا يرد القطع بعصمة الأنبياء عن الحسد الدنيوي، وعن عقوب الآباء، وتعرض مؤمن للهلاك، والتأمر في قتله، ولا التفات لقول من قال إنهم كانوا أنبياء، ولا يستحيل في العقل زلة نبي، إلا أن هذه الزلة قد جمعت أنواعا من الجائر، وقد أجمع المسلمون على عصمتهم منها، وإنما اختلفوا في الصغائر على ما تقدم وياتي.

العاشرة - روى البخاري عن أبي هريرة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "لم يبق من النبوة إلا المبشرات" قالوا: وما المبشرات؟ قال: "الرؤيا الصالحة" وهذا الحديث بظاهره يدل على أن الرؤيا بشرى على الإطلاق وليس كذلك؛ فإن الرؤيا الصادقة قد تكون منذرة من قبل الله تعالى لا تسررائها، وإنما يربها الله تعالى المؤمن رفقا به ورحمة؛ ليستعد لتزول البلاء قبل وقوعه؛ فإن أدرك تأولها بنفسه، وإلا سأل عنها من له أعلىة ذلك. وقد رأى الشافعي رضي الله عنه وهو بمصر رؤيا لأحمد بن حنبل تدل على مجته فكتب إليه بذلك ليستعد لذلك، وقد تقدم في «يونس» في تفسير قوله تعالى: «لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا» أنها الرؤيا الصالحة. وهذا وحديث البخاري أخرجه على الأغلب، والله أعلم:

الحادية عشرة - روى البخارى عن أبى سلمة قال : لقد كنت أرى الرؤيا فتدركنى حتى سمعت أبا قتادة يقول : وأنا كنت لأرى الرؤيا فتدركنى حتى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " الرؤيا الحسنة من الله فإذا رأى أحدهم ما يحب فلا يحدث به إلا من يحب وإذا رأى ما يكره فليتعوذ بالله من شرها وليتفل ثلاث مرات ولا يحدث بها أحدا فإنها لن تضره " . قال علماؤنا : جعل الله الاتساع منها مما يرفع أذاها ، ألا ترى قول أبى قتادة : إني كنت لأرى الرؤيا هي أنفل على من الجبل ، لما سمعت بهذا الحديث كنت لا أعدها شيئا . وزاد مسلم من رواية جابر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " وإذا رأى أحدهم الرؤيا يكرهها فليصق عن يساره ثلاثا وليتعوذ بالله من الشيطان ثلاثا وليتعوذ عن جنبه الذى كان عليه " . وفى حديث أبى هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إذا رأى أحدهم ما يكره فليقم فليصل " . قال علماؤنا : وهذا كله ليس بمتعارض ، وإنما هذا الأمر بالتعوذ ، والصلاة زيادة ، فعل الرائي أن يفعل الجميع ، والقيام إلى الصلاة يشمل الجميع ، لأنه إذا صلى تضمن فعله للصلاة جميع تلك الأمور ، لأنه إذا قام إلى الصلاة تحوّل عن جنبه ، وإذا تمضيض ثقل وصق ، وإذا قام إلى الصلاة تعوذ ودعا وتصرع لله تعالى في أن يكفيه شرها في حال هي أقرب الأحوال إلى الإجابة ، وذلك السحر من الليل .

قوله تعالى : **وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُمِيتُ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَاسْتَحَقَّ إِنَّ رَبَّكَ عَلَيْكَ حَكِيمٌ ۝١٠**

قوله تعالى : (وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ) الكاف في موضع نصب ؛ لأنها نعت لمصدر محذوف ، وكذلك الكاف في قوله : « كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ » و « مَا » كافة . وقيل : « وكذلك » أى كما أكرمك بالرؤيا فكذلك يجتبيك ، ويحسن إليك بتحقيق الرؤيا . قال مقاتل : بالسجود لك . الحسن : بالنبوة . والأجتياء اختيار معالى الأمور للجنى ، وأصله من جيت

الشيء أى حصته ، ومنه جَبِثَ الماءُ فى الحوض ؛ قاله الناس . وهذا ثناء من الله تعالى على يوسف عليه السلام ، وتعدد فيها عدده عليه من النعم التى أنعم الله تعالى ، التمكن فى الأرض ، وتعليم تأويل الأحاديث ؛ وأجمعوا أن ذلك فى تأويل الرؤيا . قال عبد الله بن شداد بن الحاد : كان تفسير رؤيا يوسف صلى الله عليه وسلم بعد أربعين سنة ؛ وذلك منتهى الرؤيا . وعنى بالأحاديث ما يراه الناس فى المنام ، وهى معجزة له ؛ فإنه لم يلحقه فيها خطأ . وكان يوسف عليه السلام أعلم الناس بتأويلها ، وكان نبينا صلى الله عليه وسلم نحو ذلك ، وكان الصديق رضى الله عنه من أعب الناس لها ، وحصل لابن سيرين فيها التقدم العظيم ، والطبع والإحسان ، ونحوه أو قريب منه كان سعيد بن المسيب فيها ذكروا . وقد قيل فى تأويل قوله : ﴿ وَبَعَثْنَا مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾ أى أحاديث الأمم والكُتُب ودلائل التوحيد ، فهو إشارة إلى النبوة ، وهو المقصود بقوله : ﴿ وَبِئْسَ نِعْمَتُهُ عَلَيْكَ ﴾ أى النبوة . وقيل : بإخراج إخوتك إليك ؛ وقيل : بإيجائك من كل مكروه . ﴿ كَمَا أَتَمَّمَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ ﴾ ، وإيجائهما من النار ﴿ وَاتَّقِ اللَّهَ ﴾ بالنبوة . وقيل : من الذبح ؛ قاله عكرمة . وأعلمه الله تعالى بقوله : ﴿ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ ﴾ أنه سيمطى بن يعقوب كلهم بالنبوة ؛ قاله جماعة من المفسرين . ﴿ إِنْ رَبُّكَ عَلِيمٌ ﴾ بما يعطيك . ﴿ حَكِيمٌ ﴾ فى فعله بك .

قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلِّسَّائِلِينَ ﴾ ٧
إِذْ قَالُوا لِيُوسُفَ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْنَا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا
لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ٨ أَفْتَنُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَحْمِلُ لَكُمْ وَجْهَهُ
أَيْبُكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ٩

قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَتْ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلِّسَّائِلِينَ ﴾ يعنى من سأل عن حديثهم . وقرأ أهل مكة « آية » على التوحيد ؛ واختار أبو عبيد « آيات » على الجمع ؛ قال : لأنها خبر كثير . قال الناس : و « آية » هنا قراءة حسنة ، أى لقد كان للذين سألوها عن خبر

يوسف آية فيها خبروا به؛ لأنهم سألوا النبي صلى الله عليه وسلم وهو بمكة فقالوا: أخبرنا عن رجل من الأنبياء كان بالشام أخرج أبنته إلى مصر، فبكى عليه حتى عمى؟ - ولم يكن بمكة أحد من أهل الكتاب، ولا من يعرف خبر الأنبياء، وإنما وجه اليهود من المدينة يسألونه عن هذا - فأنزل الله عز وجل سورة « يوسف » جملة واحدة؛ فيها كل ما في التوراة من خبر وزيادة؛ فكان ذلك آية للنبي صلى الله عليه وسلم، بمنزلة إحياء عيسى بن مريم عليه السلام الميت . « آيات » موعظة؛ وقيل : عبة . وروى أنها في بعض المصاحف « عبة » . وقيل : بضمة . وقيل : عجب ؛ تقول فلان آية في العلم والحسن أى عجب . قال الثعلبي في تفسيره : لما بلغت الرثا إخوة يوسف حسدوه؛ قال ابن زيد : كانوا أنبياء، وقالوا: ما يرضى أن يسجد له إخوته حتى يسجد له أبواه! فغوه بالعداوة، وقد تقدم رد هذا القول . قال الله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ ﴾ وأسمائهم : روبيل وهو أكبرهم، وشمعون ولاوى ويهوذا وزبالون ويساسر، وأهمهم ليا بنت لئان، وهى بنت خال يعقوب، وولد له من سريتين أربعة نفر؛ دان ونفثالى وجاد وأشر؛ ثم توفيت ليا فزوج يعقوب أختها راحيل، فولدت له يوسف وبنيامين، فكان بنو يعقوب اثنى عشر رجلاً . قال السهيلي : وأم يعقوب أسمها رافا، وراحيل ماتت في نفاس بنيامين، وليا بن ناهر بن أزر هو خال يعقوب . وقيل : في أسم الأمتين ليا وثنا، كانت إحداهما لراحيل، والأخرى لأختها ليا، وكانتا قد وهبتهما ليعقوب، وكان يعقوب قد جمع بينهما، ولم يحل لأحد بعدهم ؛ لقول الله تعالى : «وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ» . وقد تقدم الرد على ما قاله ابن زيد، والحمد لله .

قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ ﴾ « يُوسُفُ » رفع بالابتداء، واللام للتأكيد، وهى التى يتلقى بها القسم، أى والله ليوسف . ﴿ وَأَخُوهُ ﴾ عطف عليه . ﴿ أَحَبُّ إِلَى آبَائِنَا ﴾ خبره، ولا يتلقى ولا يجمع لأنه بمعنى الفعل؛ وإنما قالوا هذا لأن خبر المنام بلغهم فتألموا في كيدته . ﴿ وَتَحْنُ حُصْبَةً ﴾ أى جماعة، وكانوا عشرة . والمصبة ما بين الواحد إلى العشرة، وقيل : إلى الخمسة عشر . وقيل : ما بين الأربعين إلى العشرة؛ ولا واحد لها من لفظها كالنفر

والرهط . (إِنَّ أَبَانَا لَنِي ضَلَّالٌ مُبِينٌ) لم يريدوا ضلال الدين ، إذ لو أرادوه لكانوا كفارا ؛ بل أرادوا لنى ذهاب عن وجه التدبير ، في إثبات اثنين على عشرة مع استوائهم في الانتساب إليه . وقيل : لنى خطأ بين بإيثارة يوسف وأخاه علينا .

قوله تعالى : (أَقْتُلُوا يُوسُفَ) في الكلام حذف ؛ أى قال قائل منهم : « أقتلوا يوسف » ليكون أحسن لمسادة الأمر . (أَوْ أَطْرَحُوهُ أَرْضًا) أى في أرض ، فاسقط الخافض وانتصب الأرض ؛ وأنشد سيويه فيا جذف منه « في » :
لَذَنْ بَرَّزَ الْكَفَّيْ يَفِئِلُ مَنَّهُ • فِيهِ كَمَا عَمَلُ الطَّرِيقِ الشَّعْبِ^(١)

قال النحاس : إلا أنه في الآية حسن كثير ؛ لأنه يتعدى إلى مفعولين ، أحدهما بحرف ، وإذا حذف الحرف تعدى الفعل إليه . والقائل قيل : هو شمعون ؛ قاله وهب بن منبه . وقال كعب الأنبار ؛ دان . وقال مقاتل : روبييل ؛ والله أعلم . والمعنى أرضا تبعد عن أبيه ؛ فلا بد من هذا الإحصار لأنه كان عند أبيه في أرض . (يَحُلْ) جزم لأنه جواب الأمر ؛ معناه : يخلص ويصفو (لَكُمْ وَجْهٌ أَيْبَكُمْ) فيقبل عليكم بكتبه . (وَتَكُونُوا مِنْ بَصِيدِهِ) أى من بهمد الذئب . وقيل : من بهمد يوسف . (قَوْمًا صَالِحِينَ) أى تائبين ؛ أى تحمدوا توبة بعد ذلك فيقبلها الله منكم ؛ وفي هذا دليل على أن توبة القاتل مقبولة ، لأن الله تعالى لم ينكر هذا القول منهم . وقيل : « صالحين » أى يصلح شأنكم عند أبيكم من غير أثره ولا تفضيل .

قوله تعالى : قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَالْقَوَّةُ فِي غَيْبَتِ الْحَبِيبِ يَلْتَقِطُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٥٥﴾

(١) البيت لمساعدة بن جزيه وقد وصف فيه دحاليب الحز ؛ فكتبه اضطرابه في نفسه أوفى حاله من بسلان الشعب في سيرة ؛ والصلان ؛ سبر سريع في اضطراب ؛ واللدن : الناعم اللين . ويرى : لذى أى مستطد عند الخزلية . (شواهد سيويه) .

فيه ثلاث عشرة مسألة :

الأولى — قوله تعالى : (قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ) القائل هو يهوذا، وهو أكبر ولد يعقوب؛
قاله ابن عباس. وقيل: روبيل، وهو ابن خالته، وهو الذي قال : « فلن أرح الأرض » .
وقيل: شمعون . (وَالْقَوَّةُ فِي غِيَابَةِ الْجُبِّ) قرأ أهل مكة . وأهل البصرة . وأهل الكوفة
« في غِيَابَةِ الْجُبِّ » . وقرأ أهل المدينة « في غِيَابَاتِ الْجُبِّ » . واختار أبو عبيد التوحيد؛ لأنه
على موضع واحد القوه فيه ، وأنكر الجمع لهذا . قال النحاس : وهذا تضيق في اللغة ؛
« وغيابات » على الجمع [يحوز من وجهين] : حكى سيويه سير عليه عشيائات وأصيلات،
يريد عشيّة وأصيلا، فجعل كل وقت منها عشيّة وأصيلا ، فكذا جعل كل موضع مما يُقْبَب
غِيَابَةً . [والآخر — أن يكون في الجب غيابات (جماعة) . ويقال : غاب يقيب] غِيَا وغِيَابَةٌ
وغِيَابًا ، كما قال الشاعر :

أَلَا قَالِبًا شَهْرَيْنِ أَوْ نَصَفَ نَالٍ • أَنَا ذَا كُنَّا قَدْ غَيَّبْتَنِي غِيَابًا

قال المروى : والغِيَابَةُ شبه الجَفِيفِ أو طاق في البئر فوق الماء، ويقبب الشيء عن العين .
وقال أبو عريز : كل شيء غيب عنك شيئا فهو غِيَابَةٌ . قلت : ومنه قيل للقبر غِيَابَةٌ ؛
قال الشاعر :

فَإِن أَنَا بَوْمًا غَيَّبْتَنِي غِيَابَتِي • فَيَسِّرُوا بَسِيرِي فِي الْمَشِيرَةِ وَالْأَهْلِ

والجب الركية التي لم تُطَوَّ، فإذا طُويت فهي بئر؛ قال الأضنى :

لئن كنت في جُبِّ مَعَانِينَ قَامَةً • وَرُقِيتْ أَسْبَابُ السَّمَاءِ بِسُلَّمٍ

وسميت جبًا لأنها قُطِعَتْ في الأرض قطعًا، وجمع الجب جِبَّةٌ وجِبَابٌ وأجباب؛ وجمع بين
الغِيَابَةِ والجِبِّ لأنه أراد القوه في موضع مظلم من الجب حتى لا يلمحظه نظر الناظرين . قيل :

(١) الزيادة عن النحاس . (٢) الجب : الناحية من الحوض أو البئر يأكله الماء فيسمى كالكمهف .

(٣) بمده :

لَيْسَتْ دِرْهَمُكَ الْفَوْزُ حَتَّى تَهْرَهُ • وَتَسْلَمَ أَنِّي عَنْكَ فِرْطِيمُ
وَتُثَرِّقَ بِالْقَوْلِ الَّذِي قَدْ أَذَتْ • كَأَن تَرَقَّ حِدَارُ الْقَاعِ مِنَ الدِّمِ

هو بئر بيت المقدس ، وقيل : هو بالأردن ، قاله وهب بن منبه . مقاتل : هو على ثلاثة فراع من منزل يعقوب .

الثانية - قوله تعالى : (يَلْقَاهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ) جزم على جواب الأمر . وقرا مجاهد وأبو رجاء والجبين وقناة : « تَلْقَاهُ » بالياء ، وهذا محمول على المعنى ؛ لأن بعض السَّيَّارَةِ سَيَّارَةٌ ، وقال سيويه : سقطت بعض أصابعه ، وأنشد :
وَتَشْرِقُ بِالْقَوْلِ الَّذِي قَدْ أَذَعْتَهُ • كَمَا تَبْرِقُ صَدْرُ الْقَنَاةِ مِنَ الدَّمِ

وقال آخر :

أَرَى مَرَّ السَّيِّئِ أَخَذَنِي • كَمَا أَخَذَ السَّرَّارُ مِنَ الْحِلَالِ

ولم يقبل شريق ولا أخذت . والسَّيَّارَةُ الجمع الذين يسرون في الطريق للسفر ، وإنما قال الغائل هذا حتى لا يحتاج إلى حمله إلى موضع بعيد ويحصل المقصود ؛ فإن من التقطه من السَّيَّارَةِ يحمله إلى موضع بعيد ، وكان هذا وجهها في التدبير حتى لا يحتاجوا إلى الحركة بأنفسهم ، فربما لا ياذن لهم أيومهم ، وربما يطلع على قصدهم .

الثالثة - وفي هذا ما يدل على أن إخوة يوسف ما كانوا أنبياء لا أولا ولا آخرا ؛ لأن الأنبياء لا يدبرون في قتل مسلم ، بل كانوا مسلمين ، فارتكبوا معصية ثم تابوا . وقيل : كانوا أنبياء ، ولا يستحيل في العقل زلة نبي ، فكانت هذه زلة منهم ؛ وهذا يرده أن الأنبياء معصومون من الجائر على ما قدمناه . وقيل : ما كانوا في ذلك الوقت أنبياء ثم نبأهم الله ؛ وهذا أشبه ، والله أعلم .

الرابعة - قال ابن وهب قال مالك : طرح يوسف في الحب وهو غلام ، وكذلك يروي ابن القاسم عنه ، يعني أنه كان صغيرا ؛ والدليل عليه قوله تعالى : « لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَقْرَبَهُ »

- (١) البيت اللاعن ، وهو يخاطب يزيد بن سهر الشيباني ، وكانت بينهما مياينة ومهاجاة ؛ فيقول له : يهود عليك مكره ما أذعت عني من القول ونسبت إلي من القبيح ، فلا تجهد مني غلظا . والشرق بالماء كالنمص بالعلماء .
(٢) مرار الشمر (فتح السين المهملة وكسرها) وسره : أكثر ليلة به .

فِي غَيَاةِ الْحُبِّ يَلْتَقِطُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ » قال : ولا يلتقط إلا الصغير ؛ وقوله : « وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذَّنَبُ » وذلك يختص بالصغار ؛ وقولهم : « أَرْسَلَهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَقِ وَيَلْمِزُ وَإِنَّا لَهُ لَحَاقِفُونَ » .

الخامسة - الالتقاط تناول الشيء من الطريق ؛ ومنه اللقيط واللقطة ؛ ونحن نذكر من أحكامها ما دلت عليه الآية والسنة ، وما قال في ذلك أهل العلم واللغة ؛ قال ابن عرفة : الالتقاط وجود الشيء على غير طلب ؛ ومنه قوله تعالى : « يَلْتَقِطُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ » أي يجده من غير أن يحنث به . وقد اختلف العلماء في اللقيط ؛ فقيل : أصله الحرية لغلبة الأحرار على العبيد ؛ وروى عن الحسن بن علي أنه قضى بأن اللقيط حر ، ونلا « وَشَرُّهُ يَتَمَنَّى يَتَمَنَّى دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ » وإلى هذا ذهب أشهب صاحب مالك ؛ وهو قول عمر بن الخطاب ، وكذلك روى عن علي وجماعة . وقال إبراهيم التيمي : إن نوى رقه فهو مملوك ، وإن نوى الحسبة فهو حر . وقال مالك في موطنه : الأمر عندنا في المنبذ أنه حر ، وإن ولّاه لجماعة المسلمين ، هم يرثونه ويعقلون عنه ، وبه قال الشافعي ؛ واحتج بقوله عليه السلام : « وَإِنَّمَا الْوَلَاءُ لِمَنْ أَتَقَى » قال : نفى الولاء عن غير المتيق . وافق مالك والشافعي وأصحابهما على أن اللقيط لا يؤلى أحدا ، ولا يرثه أحد بالولاء . وقال أبو حنيفة وأصحابه وأكثر الكوفيين : اللقيط يؤلى من شاء ، فمن والاه فهو يرثه ويعقل عنه ؛ وعند أبي حنيفة له أن يتقل بولائه حيث شاء ، ما لم يعقل عنه الذي والاه ؛ فإن عقل عنه جناية لم يكن له أن يتقل عنه بولائه أبدا . وذكر أبو بكر بن أبي شيبة عن علي رضي الله عنه : المنبذ حر ، فإن أحب أن يؤلى الذي التقطه والاه ، وإن أحب أن يؤلى غيره والاه ؛ ونحوه عن عطاء ، وهو قول ابن شهاب وطائفة من أهل المدينة ، وهو حر . قال ابن العربي : إنما كان أصل اللقيط الحرية لغلبة الأحرار على العبيد ، ففضى بالغالب ، كما حكم أنه مسلم أخذاً بالغالب ؛ فإن كان في قرية فيها نصارى ومسلمون قال ابن القاسم : يحكم بالأغلب ؛ فإن وجد عليه زنى اليهود فهو يهودي ، وإن وجد عليه زنى النصارى فهو نصراني ، وإلا فهو مسلم ، إلا أن يكون أكثر أهل القرية

على غير الإسلام . وقال غيره : لو لم يكن فيها إلا مسلم واحد قضى للقيط بالإسلام تنظرا لحكم الإسلام الذي يعلم ولا يعلم عليه ، وهو مقتضى قول أشهب ؛ قال أشهب ؛ هو مسلم فلا بد ، لأن أجمعه مسلما على كل حال ، كما أجمعه حرا على كل حال . واختلف الفقهاء في المنهوذ تدل البيّنة على أنه عبد ، فقالت طائفة من أهل المدينة : لا يقبل قولها في ذلك ، وإلى هذا ذهب أشهب لقول عمر هو حر ؛ ومن قضى بحريته لم تقبل البيّنة في أنه عبد . وقال ابن القاسم : تقبل البيّنة في ذلك ؛ وهو قول الشافعي والكوفي .

السادسة - قال مالك في القليط إذا أنفق عليه الملقط ثم أقام رجل البيّنة أنه أبنه فإن الملقط يرجع على الأب إن كان طرعه متممدا ، وإن لم يكن طرعه ولكنه ضلّ منه فلا شيء على الأب ، والملقط مطروح بالنفقة . وقال أبو حنيفة : إذا أنفق على القليط فهو مطروح ، إلا أن يأسره الحاكم . وقال الأوزاعي : كل من أنفق على من لا يجب له عليه نفقة رجع بما أنفق . وقال الشافعي : إن لم يكن للقليط مال وجبت نفقته في بيت المال ، فإن لم يكن ففيه قولان : أحدهما - يستقرض له في ذمته . والثاني - يقط على المسلمين من غير عوض .

السابعة - وأما اللقطة والضوأل فقد اختلف العلماء في حكمهما ؛ فقالت طائفة من أهل العلم : اللقطة والضوأل سواء في المعنى ، والحكم فيهما سواء ؛ وإلى هذا ذهب أبو جعفر الطحاوي ، وأما قول أبي عبيد القاسم بن سلام - أن الضالة لا تكون إلا في الحيوان واللقطة في غير الحيوان - وقال هذا غلط ؛ واحتج بقوله صلى الله عليه وسلم في حديث الإنك للمسلمين : « إن أنتم ضلّتم فلا تدنوها » فاطلق ذلك على الفلاة .

الثامنة - أجمع العلماء على أن اللقطة مالم تكن نافتها يسيرا أو شيئا لا يقاها لها فإنها تُعرف حولا كاملا ، وأجموا أن صاحبها إن جاء فهو أحق بها من منقطعها إذا ثبت له أنه صاحبها ، وأجموا أن منقطعها إن أكلها بعد الحول وأراد صاحبها أن يضمّه فإن ذلك له ، وإن تصدق بها فصاحبها غير بين التضمن وبين أن يترد على أحرارها ، فأى ذلك تحوير كان ذلك له بإجماع ؛

ولا تنطلق يد ملتقطها عليها بصدقة، ولا تصرف قبل الحل . وأجمعوا أن ضالة الغنم المخوف عليها أن له أكلها .

التاسعة - وأختلف الفقهاء في الأفضل من تركها أو أخذها؛ فمن ذلك أن في الحديث دليلا على إباحة التقاط اللقطة وأخذ الضالة ما لم تكن إبلا . وقال في الشاة: " لك أو لأخيك أو للذئب " يحضه على أخذها ، ولم يقل في شيء دعوه حتى يضيع أو يأتسه ربه . ولو كان ترك اللقطة أفضل لأمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم كما قال في ضالة الإبل ، والله أعلم . وجملة مذهب أصحاب مالك أنه في سعة ، إن شاء أخذها وإن شاء تركها ؛ هذا قول إسماعيل ابن إسحق رحمه الله . وقال المزني عن الشافعي : لا أحب لأحد ترك اللقطة إن وجدها إذا كان أميناً عليها ؛ قال : وسواء قليل اللقطة وكثيرها .

العاشرة - روى الأئمة مالك وغيره عن زيد بن خالد الجهني قال : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فسأله عن اللقطة فقال : " أعرف عفاصها ويكأها ثم عرفها سنة فإن جاء صاحبها والإفشاءك بها " قال : فضالة الذئب يا رسول الله ؟ قال : " لك أو لأخيك أو للذئب " قال : فضالة الإبل ؟ قال : " ما لك ولها معها سقاؤها وحذاؤها ترد الماء وتاكل الشجر حتى يلقاها ربها " . وفي حديث أبي قال : " أحفظ عددها وولدها ويكأها فإن جاء صاحبها وألا فاستمتع بها " ففي هذا الحديث زيادة العدد ؛ نحرجه مسلم وغيره . وأجمع العلماء أن عفاص اللقطة ويكأها من إحدى علاماتها وأدلتها عليها ؛ فإذا أتى صاحب اللقطة بجميع أوصافها دفعت له ؛ قال ابن القاسم : يجبر على دفعها ؛ فإن جاء مستحق يستحقها بيئته أنها كانت له لم يضمن الملتقط شيئا ، وهل يخلف مع الأوصاف أو لا ؟ قولان : الأول لأشهب ، والثاني لابن القاسم ، ولا يلزمه بيئته عند مالك وأصحابه وأحمد بن حنبل وغيرهم . وقال أبو حنيفة والشافعي : لا تدفع له إلا إذا أقام بيئته أنها له ؛ وهو بخلاف نص الحديث ؛

(١) شفاص : الرعاء الذي يكون به اللقطة ؛ هذا كان أو غيره . والوكاء هو الخط الذي يشده بالوعاء . والمراد بشفاف الوكاء أن يلم الملتقط صدق وأصفا من كذبه ؛ وبالحذا ، خفها ؛ فهي تقوى بأخفافها على الب . وورد الماء والتعير .

ولو كانت البيّنة شرطاً في التّفع لما كان لذكر العِفاص والوكاء والتّدّد معنى ؛ فإنه يستحقها بالبيّنة على كل حال ؛ ولما جاز سكوت النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك ، فإنه تأخير البيان عن وقت الحاجة . والله أعلم .

الحادية عشرة - نص الحديث على الإبل والغنم وبين حكمهما ، وسكت عما عداهما من الحيوان . وقد اختلف علماؤنا في البقر هل تلحق بالإبل أو بالغنم ؟ قولان ؛ وكذلك اختلف ائمتنا في النّقاط الخليل والبنال والحير ، وظاهر قول ابن القاسم أنها تنقطع ، وقال أشهب وابن بكّانة : لا تنقطع ؛ وقول ابن القاسم أصح لقوله عليه السلام : " أحفظ على أخيك المؤمن ضأنه " .

الثانية عشرة - واختلف العلماء في النفقة على الضّوّال ؛ فقال مالك فيما ذكر عنه ابن القاسم : إن أنفق الملتقط على الدوابّ والإبل وغيرها فله أن يرجع على صاحبها بالنفقة ، وسواء أنفق عليها بأمر السلطان أو بغير أمره ؛ قال : وله أن يجبس بالنفقة ما أنفق عليه ويكون أحق به كالرهن . وقال الشافعي : إذا أنفق على الضّوّال من أخذها فهو متطوع ؛ حكاه عنه الزبيعي . وقال المزني عنه : إذا أمره الحاكم بالنفقة كانت ديناً ، وما أَدعى قبل منه إذا كان مثله قصداً . وقال أبو حنيفة : إذا أنفق على اللقطة والإبل بغير أمر القاضي فهو متطوع ، وإن أنفق بأمر القاضي فذلك دين على صاحبها إذا جاء ، وله أن يجبسها إذا حضر صاحبها . والنفقة عليها ثلاثة أيام ونحوها ، حتى يأمر ^بانشاءً وما أشبهها وبقي بالنفقة .

الثالثة عشرة - ليس في قوله صلى الله عليه وسلم في اللقطة بعد التعريف : " فاستمتع بها " أو " فاشأك بها " أو " فهي لك " أو " فاستنفقها " أو " ثم كُفها " أو " فهو مال الله يؤتبه من يشاء " على ما في صحيح مسلم وغيره ما يدل على التملك ، وسقوط الضمان عن الملتقط إذا جاء ربه ؛ فإن في حديث زيد بن خالد الجهني عن النبي صلى الله عليه وسلم : " فإن لم تعرف ^(١)

(١) (إن لم تعرف) : أي إن لم تعرف صاحبها .

فاستغفها ولكن وديعة عندك فإن جاء صاحبها يوما من الدهر فأدّها إليه " في رواية " ثم كلّها فإن جاء صاحبها فأدّها إليه " أخرجه البخاريّ ومسلم . وأجمع العلماء على أن صاحبها منى جاء فهو أحق بها ، إلا ما ذهب إليه داود من أن الملتقط يملك اللقطة بعد التعريف ؛ لنك الظواهر ، ولا الثقات لقوله ، لخالفه الناس ، ولقوله عليه السلام : " فأدّها إليه " .

قوله تعالى : قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسَلَهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَقِ وَيَلْعَبُ وَإِنَّا لَهُ لَنَحْفُظُونَ ﴿١٢﴾

قوله تعالى : (قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ) قيل للحسن : أيمسك المؤمن ؟ قال : ما أنسك بنى يعقوب ! ولهذا قيل : الأب جلاب والأخ سلاب ؛ فعند ذلك أجمعوا على التفريق بينه وبين ولده بصرب من الاحتيال . وقالوا ليعقوب : « يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ » وقيل : لما تناوضوا واقتروا على رأى المتكلم الشائى عادوا إلى يعقوب عليه السلام وقالوا هذا القول . وفيه دليل على أنهم سألوه قبل ذلك أن يخرج معهم يوسف فأبى على ما يأتى . قرأ يزيد بن القعقاع وعمرو بن عبيد والزهرى - « لَا تَأْمَنَّا » بالإدغام ، وبغير إشمام وهو القياس ؛ لأن سبيل ما يدغم أن يكون ساكنا . وقرأ طلحة بن مُصَرِّف « لَا تَأْمَنَّا » بنونين ظاهرين على الأصل . وقرأ يحيى بن وثاب وأبو رزين - وروى عن الأعمش - « لَا تَيْمَنَّا » بكسر التاء ، وهى لغة تميم ؛ يقولون : أنت تضرب ؛ وقد تقدم . وقرأ سائر الناس بالإدغام والإشمام ليدل على حال الحرف قبل إدغامه . (وَإِنَّا لَهُ لَنَحْفُظُونَ) أى فى حفظه وغفلته حتى نردّه إليك . قال مقاتل : فى الكلام تقديم وتأخير ؛ وذلك أن إخوة يوسف قالوا لأبيهم : « أَرْسَلَهُ مَعَنَا غَدًا » الآية ؛ فحينئذ قال أبوهم : « إِنِّى لَنَجُوزِيْى أَنْ تَذْهَبُوا بِهٖ » فقالوا حينئذ جوابا لقوله : « مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ » الآية . (أَرْسَلَهُ مَعَنَا غَدًا) إلى الصحراء (يَرْتَقِ وَيَلْعَبُ) « غدا » ظرف ، والأصل عند سيويه غَدُوْ ، وقد نطق به على الأصل ؛ قال النضر بن شميل : ما بين الفجر وصلاة الصبح يقال له غَدُوْ ،

وكذا بكرة . « يرتع وتلعب » بالنون وإسكان العين قراءة أهل البصرة . والمعروف من قراءة أهل مكة « ترتع » بالنون وكسر الدين . وقراءة أهل الكوفة « يرتع وتلعب » بالياء وإسكان الدين . وقراءة أهل المدينة بالياء وكسر العين ؛ والقراءة الأولى من قول العرب رَتَعَ الإنسان والبعير إذا أَكَلَا كيف شاء ؛ والمعنى : تنسج في الحِصْب ؛ وكل مَخِصْب رانع ؛ قال :

• فَأَرْنَى فَرَارَةً لَأَهْلِكَ الْمَرْتَعُ •

وقال آخر^(٢١) :

تَرْتَعُ مَا غَفَلْتُ حَتَّى إِذَا أَذْكَرْتُ • فَأَيْمًا هِيَ إِبْسَالٌ وَإِدْبَارُ

وقال آخر^(٢٢) :

اكَفَرًا بِمَدِّ رَدِّ الْمَوْتِ عَنِّي • وَبِمَدِّ عَطَائِكَ الْمَسَاءَةَ الزَّانِعَا

أى الزائفة لكثرة المرمى . وروى معمر عن قتادة « ترتع » تسمى ؛ قال النحاس : أخذه من قوله : « إنا ذهبتنا نستيق » لأن المعنى : نستبق في البَدْو إلى غاية بينهما ؛ وكذا « يرتع » بإسكان العين ، إلا أنه ليوسف وحده صلى الله عليه وسلم . « ويرتع » بكسر العين من رعى الغنم ، أى ليتدرب بذلك ويرتجل ؛ فترت يرتع ، وصره يلعب لصغره . وقال الفُتَيْي « يرتع » تتعارس وتتخافض ، ويرعى بعضها بعضاً ؛ من قولك : رعاك الله ، أى حفظك . « وتلعب » من اللعب . وقيل لأبى عمرو بن العلاء : كيف قالوا « وتلعب » وهم أنبياء ؟ فقال : لم يكونوا يومئذ أنبياء . وقيل : المراد باللعب المباح من الانبساط ، لا اللعب المحظور الذى هو ضد الحق ؛ ولذلك لم ينكر يعقوب قولهم « وتلعب » . ومنه قوله عليه السلام : « فَهَلَّا يَكْرًا تُلَاعِبُهَا وَتُلَاعِبُكَ^(٢٣) » .

(١) فى الأصل (فاريق) وهو محريف - (٢) البيت لنفسه من قصيدة روى بها أخاها حمزرا . ومعنى (ترتع) ترمى . نصف ناقة أو بخصرة فقدت ولدها ، فكذلك غفلت عن رعت ، فإذا أدركته حنت إليه فأقبلت وأدبرت ؛ فصر بها مثلا لقلدها أخاها حمزرا . - (٣) هو القطار . (٤) انطباع بطارين عبد الله ؛ وذكر ملا عل عن الطيبي : أن الملاحة عبارة عن الألفة التامة ، فإن التيب قد تكون معلقة القلب بالزوج الأول ، فلم تكن محبة كاملة ، بخلاف البكر .

وقرأ مجاهد وقادة : « يُرْتَع » على معنى يُرْتَع مطبته ، فلفظ المفعول ؛ « ويلعب » بالرفع على الاستئناف ؛ والمعنى : وهو ممن يلعب . (وَإِنَّا لَهُ لَحَافِتُونَ) من كل ما تخاف عليه . ثم يحتمل أنهم كانوا يخرجون ركبانا ، ويحتمل أنهم كانوا رجالة . وقد نقل أنهم حلوا يوسف على أكافهم ما دام يعقوب يراهم ، ثم لما ذابوا عن عينه طرحوه ليعدو معهم إضراراً به .

قوله تعالى : قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّبُّ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا لَيْنَ أَكَلَهُ الذِّبُّ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذَا نَلْعَسِرُونَ ﴿١٧﴾

قوله تعالى : (قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ) في موضع رفع ؛ أي نهابكم به . أخبر عن حزنه لغيبه . (وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّبُّ) وذلك أنه رأى في منامه أن الذئب شق على يوسف ، فذلك خافه عليه ؛ قاله الكلبي . وقيل : إنه رأى في منامه كأنه على ذروة جبل ، وكان يوسف في بطن الوادي ، فإذا عشرة من الذئاب قد أحتوشته تريد أكله ، فداراً عنه واحد ، ثم انشقت الأرض فتواري يوسف فيها ثلاثة أيام ؛ فكانت العشرة أخوته ، لما تماكشوا حل قتله ، والذي دافع عنه أخوه الأكبر يهوذا ، وتواريه في الأرض هو مقامه في الحب ثلاثة أيام . وقيل : إنما قال ذلك لخوفه منهم عليه ، وأنه أرادهم بالذئب ؛ فخوفه . إنما كان من قتلهم له ، فكفى بهم بالذئب مسارة لم ؛ قال ابن عباس : فسماهم ذئابا . وقيل : ماخافهم عليه ، ولو خافهم ما أرسله معهم ، وإنما خاف الذئب ؛ لأنه أغلب ما يخاف في الصبأري . والذئب مأخوذ من تذأبت الريح إذا جاءت من كل وجه ؛ كذا قال أحمد بن يحيى ؛ قال : والذئب مهموز

(١) يرتع من ارتع ؛ وقد ورد في الأصول بالياء ؛ والذي في تفسير ابن عطية والأوسى رأى حبان من مجاهد وقادة هو (بالنون) وجرم (كتب) قال ابن عطية : (وقراءة مجاهد وقادة « يرتع » بضم النون وكسر الراء ، و « كتب » بالنون والجزم) . (٢) ورد في روح المعاني أن هذا الاشتقاق منه الوضئى ، وقال الأصمى : إن ثلاث مشتق من الذئب ؛ لأن الذئب يقطه في عدوه ؛ وتكتب بأن أخذ القمل من الأسماء الجاعدة قليل غائض لقياس .

لأنه يحيى من كل وجه . وروى ورش عن نافع « الذَّيْبُ » بغير هـ ، لما كانت الحمزة ساكنة وقبلها كسرة تخففها صارت ياء . (وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَائِلُونَ) أى مشتغلون بالرعى .

قوله تعالى : (قَالُوا لَيْنَ أَكَلَهُ الذَّيْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ) أى جماعة نرى الذئب ثم لا نراه عنه . (إِنَّا إِذَا نَخَّاسِرُونَ) فى حفظنا أغنامنا ؛ أى إذا كنا لا نقدر على دفع اللذئب عن أغنامنا فنحن أعجز أن ندفعه عن أغنامنا . وقيل : « نخاسرون » يلاحظون بحقه . وقيل لما جازون .

قوله تعالى : فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِمْ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيْبَتِ أَهْلِ حَبْشَ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾

قوله تعالى : (فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِمْ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ) « أن » فى موضع نصب ، أى على أن يجعلوه فى غيبة الحبش . قيل فى القصة : إن يعقوب عليه السلام لما أرسله معهم أخذ عليهم ميثاقاً غليظاً ليحفظوه ، وسلمه إلى روبييل وقال : يا روبييل ! إنه صغير ، وتعلم يا بنى شفتى عليه ، فإن جاع فاطعمه ، وإن عطش فأسقه ، وإن أضيأ فاحمله ثم عجل برده إلى . قال : فآخذوا يحملونه على أكتافهم ، لا يضعه واحد إلا رفعه آخر ، ويعقوب يسيرهم ميلاً ثم رجع ، فلما انقطع بصر أيهم عنهم رماه الذى كان يحمله إلى الأرض حتى كاد ينكسر ، فالتجأ إلى آخر فوجد عند كل واحد منهم أشد مما عند الآخر من الفيظ والمصف ، فاستغاث بروبييل وقال : « أنت أكبر إخوتى ، والخليفة من بعد والدى على » ، وأقرب الأخوة إلى ، فارحمنى وأرحم ضعى » فلطمه لطمه شديدة وقال : لا قرابة بينى وبينك ، فإدع الأحاد عشر كوتجاً فلتنكح منى ، فلم أن حقد من أجل رؤياه ، فتملق بأخيه يهوذا وقال : يا أنسى ! أرحم ضعى وتجزى وحدانية سنى ، وأرحم قلب أبيك يعقوب ، فما أسرع ما تناسيت وصيته ونقست عهدك ، ففرق قلب يهوذا فقال : والله لا يصلون إليك أبداً مادمت حياً ، ثم قال : يا إخوتاه ! إن قتل النفس التى حرم الله من أعظم الخطايا ، فردوا هذا الصبي إلى أبيه ، ونماجده

ألا يحدث والده بشئ مما جرى أبداً ، فقال له إخوته : والله ما تريد إلا أن تكون لك
المكانة عند يعقوب ، والله إن لم تدعه لنقتلك معه ، قال : فإن أبيتم إلا ذلك فهأنا هذا
الجبّ الموحش القفر ، الذى هو ماوى الحيات والحوام فألقوه فيه ، فإن أصيب بشئ من ذلك
فهو المراد ، وقد استرحم من دمه ، وإن انفلت على أيدى سياره يذهبون به إلى أرض فهو
المراد ، فأجمع رأيهم على ذلك ، فهو قول الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَاجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ
فِي غِيَابَةِ الْجَبِّ ﴾ وجواب « لما » محذوف ، أى فلما ذهبوا به واجمعوا على طرحه فى الجب
عظمت فنتهم . وقيل : جواب « لما » قولهم : « قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ » . وقيل
التقدير : فلما ذهبوا به من عند أبيهم واجمعوا أن يجعلوه فى غيابة الجب جعلوه فيها ، هذا
على مذهب البصريين ، وأما على قول الكوفيين فالجواب « أوحينا » والواو مقحمة ، والواو
عندهم تزد مع لما وحتى ، قال الله تعالى : « حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا » أى فتحت ،
وقوله : « حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ » أى فار . قال امرئ القيس :

فَلَمَّا أَجْرْنَا سَاعَةَ الْحَيِّ وَانْقَضَى ^(١)

أى انقضى ، ومنه قوله تعالى : « فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ » وَتَلَّيْنَاهُ أى ناديناه . وفى قوله :
﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ ﴾ دليل على نبوته فى ذلك الوقت . قال الحسن ومجاهد والضحاك وقتادة :
أعطاه الله النبوة وهو فى الجبّ على حجر مرفوع عن الماء . وقال الكلبي : ألقى فى الجبّ وهو
ابن ثمانى عشرة سنة ، فما كان صغيراً ومن قال كان صغيراً فلا يبعد فى العقل أن يتنبأ الصغير
فربوحى إليه . وقيل : كان وحى إلهام كقوله : « وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّعْلِ » . وقيل : كلن
منا ، والأوّل أظهر — والله أعلم — وأن جبريل جاءه بالوحى .

قوله تعالى : ﴿ لَنُنَبِّئَنَّكُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا ﴾ فيه وجهان : أحدهما — أنه أوحى إليه أنه
سيقام ويوبخهم على ما صنعوا ، فعلى هذا يكون الوحى بعد إلقائه فى الجبّ تقوية لقلبه ،
وتبشيراً له بالسلامة . الثانى — أنه أوحى إليه بالذى يصنعون به ، فعلى هذا الوحى قبل إلقائه

(١) تمام البيت : • يا جبرئيل عبت ذى ضفاف عقتل •

في الحب انذاره . (وَمَنْ لَا يَشْعُرُونَ) انك يوسف ؛ وذلك ان الله تعالى امره لما اعنى
 اليه الامر بمصر الا يجرب اياه واخوته بمكانه . وقيل : بوحى الله تعالى بالنبوة ؛ قاله ابن عباس
 ومجاهد . وقيل : « الهاء » يعقوب ؛ اوحى الله تعالى اليه ما فعلوه بيوسف ، وأنه سيرفهم
 بامرهم ، وهم لا يشعرون بما اوحى الله اليه ، والله أعلم . وما ذكر من قصته إذ أتى في الحب -
 ما ذكره السدى وغيره - أن إخوته لما جعلوا يدلونه في البئر تلقى بشفير البئر ، فربطوا
 يديه ورتعوا قيصة ؛ فقال : يا إخوتاه ! ردوا على فيسي أتوارى به في هذا الحب ؛ فإن مت
 كان كفى ، وإن حشيت أوارى به عورى ؛ فقالوا : أدع الشمس والقمر والأحد عشر
 كوكبا فتؤفك وتكسك ؛ فقال : إني لم أر شيئا ، فلو في البئر حتى إذا بلغ نصفها القوه
 لإرادة أن يسقط فيموت ؛ فكان في البئر ماء فسقط فيه ، ثم أوى إلى صخرة فقام عليها .
 وقيل : إن شمعون هو الذى قطع الحب لإرادة أن يتفتت على الصخرة ، وكان جبريل تحت
 ساق العرش ، فأوحى الله اليه أن أدرك عيسى ؛ قال جبريل : فأمرعت وهبطت حتى
 مارضته بين الرمي والوقوع فأقمته على الصخرة سالما . وكان ذلك الحب ماوى الهوام ؛
 فقام على الصخرة وجعل يبيى ، فنادوه ، فظن أنها رحمة عليه أدركتهم ، فأجابهم ؛
 فأرادوا أن يرضخوه بالصخرة ففهم يهوذا ، وكان يهوذا يأتيه بالطعام ؛ فلما وقع عريانا نزل
 جبريل اليه ؛ وكان إبراهيم حين أتى في النار عريانا أنه جبريل بقيص من حرير الجنة
 فالبسه إياه ، فكان ذلك عند إبراهيم ، ثم ورثه إسحق ، ثم ورثه يعقوب ، فلما شب يوسف
 جعل يعقوب ذلك القميص في تعويذة وجعله في عنقه ، فكان لا يفارقه ؛ فلما أتى
 في الحب عريانا أخرج جبريل ذلك القميص فالبسه إياه . قال وهب : فلما قام على
 الصخرة قال : يا إخوتاه ! إن لكل ميت وصية ، فاسمعوا وصيتي ، قالوا : وما هي ؟ قال :
 إذا اجتمعتم كلكم فأنس بعضكم بعضا فاذكروا وحشتي ، وإذا أكلتم فاذكروا جوعى ،
 وإذا شربتم فاذكروا عطشى ، وإذا رأيتم غريبا فاذكروا غريبى ، وإذا رأيتم شابا فاذكروا
 شبابى ؛ فقال له جبريل : يا يوسف ! كُف عن هذا واشتغل بالدعاء ، فإن الدعاء عندا

بمكان ، ثم علمه فقال : قل اللهم يا مؤنس كل غريب ، يا صاحب كل وحيد ، يا ملجأ كل خائف ، يا كاشف كل كربة ، يا عالم كل نجوى ، يا منتهى كل شكوى ، يا حاضر كل ملأ ، يا حي يا قيوم ! أسألك أن تهذب رجاءك في قلبي ، حتى لا يكون لي هم ولا شغل غيرك ، وأن تجعل لي من أمرى فرجا ومخرجا ، إنك على كل شيء قدير ، فقالت الملائكة : الحمد ! نسمع صوتا ودعاء ، الصوت صوت صبي ، والدعاء دعاء نبي . وقال الضحاك : نزل جبريل عليه السلام على يوسف وهو في الحب فقال له : ألا أعلمك كلمات إذا أنت قلتن عجل الله لك الخروجك من هذا الحب ؟ فقال : نعم ! فقال له : قل يا صانع كل مصنوع ، يا جابر كل كثير ، يا شاهد كل تجوى ، يا حاضر كل ملأ ، يا مفرج كل كربة ، يا صاحب كل غريب ، يا مؤنس كل وحيد ، آتني بالفرج والرجاء ، واقذف رجاءك في قلبي حتى لا أرجو أحدا سواك ، فرددها يوسف في ليلته مرارا ، فأخرجه الله في صبيحة يومه ذلك من الحب .

قوله تعالى : **وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ** ﴿٣٦﴾

فيه مسئلتان :

الأولى — قوله تعالى : « **وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً** » أى ليلا ، وهو ظرف يكون في موضع الحال ، وإنما جاءوا عشاء ليكونوا أقدر على الاعتذار في الظلمة ، ولذا قيل : لا تطلب الحاجة بالليل ، فإن الحباء في العيين ، ولا تعتذر بالنهار من ذنب فتتلجج في الاعتذار ، فروى أن يعقوب عليه السلام لما سمع بكاءهم قال : ما بكم ؟ أجرى في الغم شيء ؟ قالوا : لا . قال : فآين يوسف ؟ قالوا : ذهبنا نستقي فأكله الذئب ، فبكى وصاح وقال : أين قبضه ؟ على ما يأتى بيانه . وقال السدي وابن حبان : إنه لما قالوا أكله الذئب خرم مغشيا عليه ، فافاضوا عليه الماء فلم يتحرك ، ونادوه فلم يجب ، نال وهب : ولقد وضع يهودا يده على مخارج نفس يعقوب فلم يحس بنفس ، ولم يتحرك له عرق ، فقال لهم يهودا : ويل لنا من ديان يوم الدين ! ضيعنا أمانا ، وقتلنا أبانا ، فلم يبق يعقوب إلا يردد السبحر ، فافاق ورأسه في حجر روبيل ،

فقال : يا روبريل ! ألم آتتك على ولدي ؟ ألم أعهد إليك عهدا ؟ فقال : يا أبت ! كُفْ عَنِّي بكاءك أحبرك ، فكُفْ يعقوب بكاءه فقال : يا أبت « إنا ذهبنا نَسْتَبِقُ وتركنا يوسف عند معانا فأكله الذئب » .

الثانية - قال علماؤنا : هذه الآية دليل على أن بكاء المرة لا يدل على صدق مقاله ، لاحتمال أن يكون تصمتا ، فن الخلق من يقدر على ذلك ، ومنهم من لا يقدر . وقد قيل : إن الدمع المصنوع لا يخفى ، كما قال حكيم :

إِذَا أَغْنَيْتَكَ دَمُوعٌ فِي حُدُودٍ • تَيَّنَ مِنْ بَكِيٍّ مِمَّنْ تَبَاكَ

قوله تعالى : قَالُوا يَبْنَابَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴿١٧﴾
فيه سبع مسائل :

الأولى - قوله تعالى : « نستبق » فتعل ، من المسابقة . وقيل : أى تَتَفَضَّلُ ، وكذا في قراءة عبد الله « إنا ذهبنا تَتَفَضَّلُ » وهو نوع من المسابقة ، قاله الزجاج . وقال الأزهري : التَّضَالُ في السَّهَام ، والرَّهَانُ في الخيل ، والمسابقة تجمعهما . قال القشيري أبو نصر : « نستبق » أى في الزَّيْمِ ، أو على الفرس ، أو على الأقدام ، والفرض من المسابقة على الأقدام تدريب النفس على العدو ، لأنه الآلة في قتال العدو ، ودفع الذئب عن الأغنام . وقال السيدي وابن حبان : « نستبق » فستد جريا ترى أينما سبق . قال ابن العربي : المسابقة شريعة في الشريعة ، وتخصلة بديعة ، وتكون على الحرب ، وقد فعلها صلى الله عليه وسلم بنفسه وبجيله ، وسابق عائشة رضي الله عنها على قدميه فسبقها ، فلما كبر رسول الله صلى الله عليه وسلم سابقها فسبقته ، فقال لها : « هذه بتلك » .

قلت : وسابق سلمة بن الأكوع رجلا لما رجعا من ذى قرد إلى المدينة فسبقه سلمة ، نرجه مسلم .

الثانية - وروى مالك عن نافع عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سابق بين الخليل التي قد أُضْمِرَتْ^(١) [من الحَفَاءِ^(٢)] وكان أمدُها ثِيَّةُ الْوَدَاعِ^(٣)، وسابق بين الخليل التي لم تُضْمَرْ من الثِيَّةِ إلى مسجد بنى زريق، وأن عبد الله بن عمر كان من سابق بها، وهذا الحديث مع صحته في هذا الباب تضمن ثلاثة شروط؛ فلا تجوز المسابقة بدونها، وهي: أن المسافة لا بد أن تكون معلومة. الثاني - أن تكون الخليل متساوية الأحوال. الثالث - ألا يسابق المضمّر مع غير المضمّر في أمد واحد وغاية واحدة. والليل التي يجب أن تُضْمَرَ ويسابق عليها، وتقام هذه السّنة فيها هي الخليل المعدّة لجهاد العدو لا لقتال المسلمين في الفتن.

الثالثة - وأما المسابقة بالتّصال والإبل، فروى مسلم عن عبد الله بن عمرو قال: سافرنّا مع رسول الله عليه وسلم فقلنا منزلاً فإنا من يصلح خبّاه، ومنا من يتّصل، وذكر الحديث. وخرج النسائي عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "لا سَبَقَ^(٤) إلا في فصل أو خُفّ أو حافر". وثبت ذكر التّصل من حديث ابن أبي ذئب عن نافع بن أبي نافع عن أبي هريرة، ذكره النسائي، وبه يقول فقهاء الحجاز والعراق. وروى البخاري عن أنس قال: كان للنبي صلى الله عليه وسلم ناقة تسمى الغنّاء لا تُسَبَقُ - قال حميد: أو لا تكاد تُسَبَقُ - بغاء أعرابي على قومود فسبقها، فنشق ذلك على المسلمين حتى عرفه، فقال: "حق على الله ألا يرتفع شيء من الدنيا إلا وضعه".

الرابعة - أجمع المسلمون على أن السّبق لا يجوز على وجه الرّهان إلا في الخلف والحافر والتّصل؛ قال الشافعي: ما عدا هذه الثلاثة فالسّبق فيها إجمار. وقد زاد أبو البتري

(١) ضمير الخيل؛ هو أن يظهر عليها باللف حتى تسنن، ثم لا تطف إلا فرات لتنف. وقيل: تشد عليها مروبها، وتجعل بالأجلة حتى تمرق تحتها، فيذهب وعلها ويستند لها، ويكون ذلك لفرار سباق.

(٢) الزيادة عن (موطأ مالك). والحفّاء (بالدخض): موضع بالمدنية بين وبين ثية الوداع ستة أميال أو سبعة.

(٣) الثّية في الجليل كالغلبة فيه، وقيل: هو الطريق العالي فيه، وقيل: أعلى المسيل في رأسه؛ وثية الوداع مشقة على المدينة سميت بذلك؛ لأن من سافر إلى مكة كان يودع ثمّ، ومنها إلى مسجد بنى زريق ميل.

(٤) «لا سبق»: هو يفتح الياء، ما يجعل للسابق على سبقه من المال؛ وبالسكون مصدر. قال الخطابي: الصحيح رواية التّفتح؛ أي لا يجعل أخذ المال بالمسابقة إلا في هذه الثلاثة.

القاضي في حديث الخلف والحافر والتصل «أوجناح» وهي أفضلة وضعها للرشد، فترك العلماء حديثه لذلك ولغيره من موضوعاته؛ فلا يكتب العلماء حديثه بحال. وقد روى عن مالك أنه قال: لا سبق إلا في الخيل والرمي؛ لأنه قوة على أهل الحرب؛ قال: وسبق الخيل أحب إلينا من سبق الرمي. وظاهر الحديث يسوى بين سبق على الجنب وسبق على الخيل. وقد منع بعض العلماء الزهان في كل شيء إلا في الخيل، لأنها التي كانت عادة العرب المراهنة عليها. وروى عن عطاء أن المراهنة في كل شيء جائزة؛ وقد تؤول قوله؛ لأن عمله على العموم يؤدي إلى إجازة القمار، وهو محرم باتفاق.

الخامسة - لا يجوز سبق في الخيل والإبل إلا في غاية معلومة وأمد معلوم، كما ذكرنا؛ وكذلك الرمي لا يجوز سبق فيه إلا بغاية معلومة ورشق معلوم، ونوع من الإصابة؛ مشتركاً أو إصابة بغير شرط.. والأسباق ثلاثة: سبق يعطيه الوالي والرجل غير الوالي من ماله متطوعاً فيجعل للسابق شيئاً معلوماً؛ فمن سبق أخذه. وسبق يخرج به أحد المتسابقين دون صاحبه، فإن سبقه صاحبه أخذه، وإن سبق هو صاحبه أخذه، وحسن أن يمضيه في الوجه الذي أخرجه له، ولا يرجع إلى ماله؛ وهذا مما لا خلاف فيه. والسبق الثالث - اختلف فيه؛ وهو أن يخرج كل واحد منهما شيئاً مثل ما يخرج صاحبه، فأيهما سبق أحرز سبقه وسبق صاحبه؛ وهذا الوجه لا يجوز حتى يدخل بينهما محلاً لا يأمن أن يسبقهما؛ فإن سبق المحلل أحرز السبقين جميعاً وأخذهما وحده، وإن سبق أحد المتسابقين أحرز سبقه وأخذ سبق صاحبه، ولا شيء للحلل فيه، ولا شيء عليه. وإن سبق الثاني منهما الثالث كان كن لم يسبق واحد منهما. وقال أبو علي بن خيران - من أصحاب الشافعي - : وحكم الفرس المحلل أن يكون مجهولاً جريحاً؛ ونسب محلاً لأنه محلل السبق للتسابقين أوله. وأتفق العلماء على أنه إن لم يكن بينهما محل واشترط كل واحد من المتسابقين أنه إن سبق أخذ سبقه وسبق صاحبه أنه قارء، ولا يجوز. وفي سنن أبي داود عن أبي هريرة عن النبي صلى الله

(١) عشق السهم وتوق إذا أصاب الرمية وقد نها.

عليه وسلم قال : " من أدخل فرسا بين فرسين وهو لا يامن أن يسبق فليس يقار ومن أدخله وهو يامن أن يسبق فهو قار " . وفي الموطأ عن سعيد بن المسهب قال : ليس برهان الخليل بأس إذا دخل فيها محلل ، فإن سبق أخذ السبق ، وإن سبق لم يكن عليه شيء ، وبهذا قال الشافعي وجمهور أهل العلم . واختلف في ذلك قول مالك ، فقال مرة لا يجب المحلل في الخليل ، ولا نأخذ فيه بقول سعيد ، ثم قال : لا يجوز إلا بالمحلل ، وهو الأجود من قوله .

السادسة - ولا يخل على الخليل والإبل في المسابقة إلا محتمل ، ولو ركبها أربابها كان أولى ، وقد روى عن عمر بن الخطاب أنه قال : لا يركب الخليل في السباق إلا أربابها . وقال الشافعي : وأقل السبق أن يسبق بالهادي أو بعضه ، أو بالكفل أو بعضه ، والسبق من الرماة على هذا النحو عنده ، وقول محمد بن الحسن في هذا الباب نحو قول الشافعي .

السابعة - روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه سابق أبا بكر وعمر ، فسبق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصلى أبو بكر وثلاث عمره ، ومعنى صلى أبو بكر : يعني أن رأس فرسه كان عند صلا فرس رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والصّلوان موضع العجز .

قوله تعالى : (وَرَكَعَا يُدْفِعُ عِنْدَ مَتَاعِنَا) أي عند ثيابنا وأفشنتنا حارسا لها . (فَأَكَلَهُ الذَّبَابُ) وذلك أنهم لما سمعوا إياهم يقول : « وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذَّبَابُ » أخذوا ذلك من فيه فتحزموا به ؛ لأنه كان أظهر المخاوف عليه . (وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا) أي بمصدق . (وَلَوْ كُنَّا) أي وإن كنا ؛ قاله المبرد وآبن إسحق . (صَادِقِينَ) في قولنا ؛ ولم يصدقهم يعقوب لما ظهر منهم من قوة التهمة ، وكثرة الأدلة ، على خلاف ما قالوه ؛ على ما يأتي بيانه . وقيل : « ولو كنا صادقين » أي ولو كنا عندك من أهل الثقة والصدق ما صدقنا ، ولا تهمتنا في هذه القضية ، لشدة محبتك في يوسف ؛ قال منناه الطبري والزجاج وغيرهما .

(١) الهادي : المتى لقفه ؛ والجمع (هواد) .

قوله نعال : وَجَاءُوا عَلَى قَيْصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ
 أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾
 قوله تعالى : (وَجَاءُوا عَلَى قَيْصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ) .

فيه ثلاث مسائل :

الأولى - قوله تعالى : « بِدَمٍ كَذِبٍ » قال مجاهد : كان دم تَحْلَةٍ أو جدى ذبحوه .
 وقال قتادة : كان دم ظبية ؛ أى جاءوا على قيصه بدم مكذوب فيه ؛ فوصف الدم بالمصدر ،
 فصار تقديره : بدم ذى كذب ؛ مثل : « وأسأل القرية » والفاعل والمفعول قد يسميان
 بالمصدر ؛ يقال : هذا ضَرْبُ الأمير ، أى مضروبه ، وماء شَكْبِ أى مسكوب ، وماء غُورٍ
 أى غائر ، ورجل عدل أى عادل .

وقرأ الحسن وعائشة : « بِدَمٍ كَذِبٍ » بالذال غير المعجمة ، أى بدم طرى ؛ يقال
 للدم الطرى الكذيب . وحكى أنه المنغير ؛ قاله الشعبي . والكذبُ أيضا البياض الذى يخرج
 فى أظفار الأحداث ؛ فيجوز أن يكون شبه الدم فى القميص بالبياض الذى يخرج فى الظفر
 من جهة اختلاف اللونين .

الثانية - قال علماؤنا رحمه الله عليهم : لما أرادوا أن يجمّلوا الدم علامة على صدقهم
 قرّن الله بهذه العلامة علامة تعارضا ، وهى سلامة القميص من التّيب ؛ إذ لا يمكن أفتراس
 الذّيب ليوسف وهو لابس القميص ويسلم القميص من التخريق ؛ ولما تأمل يعقوب عليه
 السلام القميص فلم يجد فيه تحرقا ولا أثرا استدل بذلك على كذبهم ، وقال لهم : متى كان هذا
 الذّيب حكيما يأكل يوسف ولا يخرق القميص ! قاله ابن عباس وغيره ؛ روى إسرائيل عن
 يسماك بن حرب عن عكرمة عن ابن عباس قال : كان الدم دم تَحْلَةٍ . وروى سفيان عن يسماك
 عن عكرمة عن ابن عباس قال : لما نظر إليه قال كذبت ؛ لو كان الذّيب أكله لحرق القميص .
 وحكى الماوردى أن فى القميص ثلاث آيات : حين جاءوا عليه بدم كذب ، وحين قدّ
 قيصه من دبر ، وحين ألقى على وجه أبيه فارتد بصيرا .

قلت : وهذا مردود ؛ إن القميص الذي جاءوا عليه بالدم غير القميص الذي قُذِّ ، وغير القميص الذي أتاه البشير به . وقد قيل : إن القميص الذي قُذِّ هو الذي أتى به فارتد بصيرا ، على ما يأتي بيانه آخر السورة إن شاء الله تعالى . وروى أنهم قالوا له : بل للصمص قتلوه ؛ فاحلف قولهم ، فأتهمهم ، فقال لم يعقوب : تزعمون أن الذئب أكله ، ولو أكله لشق قبيصه قبل أن يفضي إلى جلده ، وما أرى بالقميص من شق ، وتزعمون أن للصمص قتلوه ، ولو قتلوه لأخذوا قبيصه ؛ هل يريدون إلا ثيابه ؟ ! فقالوا عند ذلك : « وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ » عن الحسن وغيره ؛ أي لو كنا موصوفين بالصدق لاتهمنا .

الثالثة : استدلل الفقهاء بهذه الآية في إعمال الأمارات في مسائل من الفقه كالقَسَامَةِ وغيرها ، وأجمعوا على أن يعقوب عليه السلام استدلل على كذبهم بصحة القميص ؛ وهكذا يجب على الناظر أن يلحظ الأمارات والعلامات إذا تعارضت ، فما ترجح منها فضى بجانب الترجيح ، وهي قوة التهمة ؛ ولا خلاف بالحكم بها ، قاله ابن العربي .
قوله تعالى : ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَبِيلٌ ﴾ .
فيه ثلاث مسائل :

الأولى — روى أن يعقوب لما قالوا له : « فأكله الذئب » قال لهم : لم يترك الذئب له عضوا فتأثرت به أسنانه به ؟ ! ألم يترك لي ثوبا أشم فيه رائحته ؟ قالوا : بلى ! هذا قبيصه ملطوخ بدمه ؛ فذلك قوله تعالى : « وَجَاءُوا عَلَى قَبْصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ » فبكى يعقوب عند ذلك وقال لبنيه : أروني قبيصه ، فأروه فشمه وقبله ، ثم جعل قلبه فلا يرى فيه شقا ولا تمزيقا ؛ فقال : والله الذي لا إله إلا هو ما رأيت كاليوم ذئبا أحكم منه ؛ أكل أبي واخلسه من قبيصه ولم يمزقه عليه ؛ وعلم أن الأمر ليس كما قالوا ، وأن الذئب لم يأكله ، فأعرض عنهم كالمنضرب باكيا حزينا وقال : يا معشر ولدي ! دلوني على ولدي ؛ فإن كان حيا رددته إلى ، وإن كان ميتا كفتته ودفنته ؛ فقبيل قالوا حينئذ : ألم تروا إلى أينما كيف يكذبنا في مقاتلتنا ! تعالوا نخرجه من الحب وقطعه عضوا عضوا ، ونأت أبانا بأحد أعضائه فنبصلقنا

في مقالنا ويقطع بأحسه ؛ فقال يهوذا : والله لئن فعلتم لأكونن لكم عدوا ما بقيت ، ولا خيرن
أناكم بسوء صنيعكم ؛ قالوا : فإذا سعنا من هذا ففعلوا نصطد له ذنبا ، قال : فاصطادوا
ذنبا واطخوه بالدم ، وأوتقوه بالحبال ، ثم جاءوا به يعقوب وقالوا : يا أبانا ! إن هذا الذنب
الذي يحل بأغنامنا ويقتربها ، ولعله الذي أجبنا بأخيها لا ننتك فيه ، وهذا دمه عليه ؛ فقال
يعقوب : أطلقوه ؛ فأطلقوه ، وتبصص له الذنب ، فأقبل يدنو ويعقوب بقول له : آدن
آدن ؛ حتى ألصق خده بخده فقال له يعقوب : أيها الذنب ! لم بلغتني بولدي وأورثني
حرا طويلا ؟ ؛ ثم قال : اللهم أنطقه ، فأنطقه الله تعالى فقال : والهي اصطفاك نيا ما أكلت
لحمه ، ولا مرقت جلده ، ولا نفت شعرة من شعراته ، ووالله ! مالى بولدك عهد ، وإنما
أنا ذنب غريب أقبلت من نواحي مصر في طلب أخ لي فُقد ، فلا أدرى أحي هو أم ميت ،
واصطادني أولادك وأوتقوني ، وإن لحوم الأنبياء حرمت علينا وعلى جميع الوحوش ، والله !
لا أفت في بلاد يكذب فيها أولاد الأنبياء على الوحوش ؛ فأطلقه يعقوب وقال : والله لقد
أينم بالجمعة على أنفسكم ؛ هذا ذنب بهم نخرج يتبع ذمام أخيه ، وأنتم ضيعتم أخاكم ، وقد علمت
أن الذنب برى مما جنتم به . (قُلْ سَوَّلَتْ) أى زينت . (لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً) غير ما تصفون
وتذكرون . ثم قال توطئة لنفسه : (فَصَبْرٌ جَمِيلٌ) وهى :

الثانية - قال الزجاج : أى فشاني والذي اعتقده صبر جميل . وقال قُطْرُب :
أى فصبرى صبر جميل . وقيل : أى فصبر جميل أولى بى ؛ فهو مبتدأ وخبره محذوف .
ويروى أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن الصبر الجميل فقال : " هو الذى لا شكوى
معه " . وصياتى له مزيد بيان آخر السورة إن شاء الله . قال أبو حاتم : قرأ عيسى بن عمر
فما زعم سهل بن يوسف « فصبرا جميلا » قال : وكذا قرأ الأزهري العَقِيل ؛ قال وكذا
قال مصحف أنس وأبى صالح . قال المبرد « فَصَبْرٌ جَمِيلٌ » بالرفع أولى من النصب ؛ لأن
المعنى : قال رب عندى صبر جميل ؛ قال : وإنما النصب على المصدر ، أى فلا صبرت صبرا
جيلا ؛ قال :

شَكَاَ إِلَىٰ جَلِيسٍ طَوَّلَ الشَّرَى • صَبْرًا جِيلًا فَيَكْلَلَانَا مُبْتَلًى

والصبر الجليل هو الذي لا يزعج فيه ولا شكوى • وقيل : المعنى لا أعاشركم على كتابة الوجه وعبوس الجبين ، بل أعاشركم على ما كنت عليه معكم ، وفي هذا ما يدل على أنه صفا عن مواضعهم • وعن حبيب بن أبي ثابت أن يعقوب كان قد سقط حاجباه على عينيه ، فكان يرفهما بمنقعة ، ف قيل له : ما هذا ؟ قال : طول الزمان وكثرة الأحران ، فأوحى الله إليه أنشكروا يعقوب ؟ قال : يارب ! خطيئة أخطأتها فاغفر لي • (وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ) ابتلاء وخبر • (تَلَّ مَا يَصِفُونَ) أى على احتمال ما تصفون من الكلام •

الثالثة — قال ابن أبي رفاعه : ينبغي لأهل الراى أن يتهموا رأيهم عند ظن يعقوب صل الله عليه وسلم وهو نبى ؟ حين قال له بنوه : « إِنَّا ذَهَبًا نَسْتَبِقُ وَتَرْتَبُّكَ يُوسُفُ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكْلُهُ الدُّبُّ » قال : « بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا قَصَبَ جِيلٌ » فاصاب هنا ، ثم قالوا له : « إِنْ أَنْتَ سَرَقْتَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ » قال : « بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا » فلم يصب •

قوله تعالى : وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَبُشْ رَيْئُ هَٰذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّهُ بِضْعَةً ۖ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾

قوله تعالى : (وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ) أى رفقة مازة يسيرون من الشام إلى مصر فاخططوا الطريق وهاموا حتى نزلوا قريبا من الجب ، وكان الجب في قفرة بعيدة من العمران ، إنما هو المازعة والمجاز ، وكان ماؤه ملحا فعنقب حين أتى فيه يوسف • (فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ) فذكر على المعنى ، ولو قال : فأرسلت وأردتها لكان على اللفظ ، مثل « وجاءت » • والوارد الذى يرد الماء يستق للقوم ؛ وكان اسمه — فيما ذكر المفسرون — مالك بن دعر ،

(١) ويرى (عبر جميل) في البيت ، ويحمل على اختيار مبتدا أوزير • ويرى (عبر جميل) على نداء الجبل •

(٢) دعر : هو بالهال المهملة وبالذال تصحيف كما في القاموس •

من العرب العاربة . (فَأَدْلَى دَوْلَهُ) أى أرسله ؛ يقال : أدلى دلوه إذا أرسلها ليلأها ، ودلّأها أى أخرجها ؛ عن الأصمعي وغيره . ودلّا - من ذوات الواو - يدلو دلوأ ، أى جذب وأخرج ، وكذلك أدلى إذا أرسل ، فلما نقل ردوه إلى الباء ، لأنها أخف من الواو ؛ قاله الكوفيون . وقال الخليل وسيبويه : لما جاوز ثلاثة أحرف رجع إلى الباء ؛ اتباعا للمستقبل . وجمع دَلْوٍ أقل العدد أدلّ فإذا كثرت قلت : دُلّ - ودِلّ - ؛ فقلت الزاوياء ، إلا أن الجمع بابه التنكير ، ويفرق بين الواحد والجمع ؛ ودلّأ أيضا . فخلق يوسف بالجبل ، فلما خرج إذا غلام كالقمر ليلة البدر ، أحسن ما يكون من الغلمان . قال صلى الله عليه وسلم في حديث الإصراء من صحيح مسلم : " فإذا أنا بيوسف إذا هو قد أعطى شَطْرَ الحسن " . وقال كعب الأحبار : كان يوسف حسن الوجه ، جعد الشعر ، خضم العينين ، مستوى الخلق ، أبيض اللون ، فليظ الساعدين والمضدين ، تبيض البطن ، صغبر الشرة ، إذا انقسم رأيت النور من ضواحه ، وإذا تكلم رأيت في كلامه شجاع الشمس من شياها ، لا يستطيع أحد وصفه ؛ وكان حسنه كضوء النهار عند الليل ، وكان يشبه آدم عليه السلام يوم خلقه الله ونفخ فيه من روحه قبل أن يصيب المصيبة . وقيل : إنه ورث ذلك الجمال من جدته سارة ؛ وكانت قد أعطيت سدس الحسن ؛ فلما رآه مالك بن دُعر قال : « يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ » هذه قراءة أهل المدينة وأهل البصرة ؛ إلا أن ابن أبي إسحق فإنه قرأ « يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ » فقلب الألف ياء ، لأن هذه الياء يكسر ما قبلها ، فلما لم يميز كسر الألف كان قلبها عوضا . وقرأ أهل الكوفة « يَا بُشْرَى » غير مضاف ؛ وفي معناه قولان : أحدهما - أسم الغلام ، والثاني - يا أيها البشري هذا حيثك وأوانك . قال قتادة والسدي : لما أدلى المذلي دلوه تلاق بها يوسف فقال : يا بشري هذا غلام ؛ قال قتادة : بشر أصحابه بأنه وجد عبدا . وقال السدي : نادى رجلا أسمه بشري . قال النحاس : قول قتادة أولى ؛ لأنه لم يأت في القرآن تسمية أحد إلا يسيرا ؛ وإنما يأتي بالكناية كما قال عز وجل : « وَيَوْمَ يَبْصُرُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ » وهو عتبة ابن أبي معيط ، وبعده « يَا لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فَلَانًا خَلِيلًا » وهو أمية

ابن خلف ؛ قاله النحاس والمعنى في نداء البشرى : التبشير لمن حضر ؛ وهو أوكب من قولك تبشرت ، كما تقول : يا عجباه ! أى يا عجب هذا من أيامك ومن آياتك ، فاحضر ؛ هذا مذهب سيويه ، وكذا قال السهيلي . وقيل هو كما تقول : واسروراه ! وأن البشرى مصدر من الاستبشار ؛ وهذا أصح لأنه لو كان اسما علما لم يكن مضافا إلى ضمير المتكلم ؛ وعلى هذا يكون « بشرى » في موضع نصب ؛ لأنه نداء مضاف ؛ ومعنى النداء ها هنا التنبيه ، أى انتبهوا لفرحتى وسرورى ؛ وعلى قول السدى يكون في موضع رفع كما تقول : يا زيد هذا غلام . ويحوز أن يكون محله نصبا كقولك ياربلا ، وقوله : « يَا خَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ » ولكنه لم ينون « بشرى » لأنه لا ينصرف . (وَأَسْرُوهُ بَضَاعَةً) المراء فكناية عن يوسف عليه السلام ؛ فأما الواو فكناية عن إخوته . وقيل : عن التجار الذين اشتروه ، وقيل عن الوارد وأصحابه . « بضاعه » نصب على الحال . قال مجاهد : أسرته مالك بن دعر وأصحابه من التجار الذين معهم في الرقعة ، وقالوا لم : هو بضاعه استبضعناها بعض أهل الشام أو أهل هذا الماء إلى مصر ؛ وإنما قالوا هذا خيفة الشركة . وقال ابن عباس أسرته إخوة يوسف بضاعه لما استخرج من الحب ؛ وذلك أنهم جاءوا فقالوا : بشس ما صنعتم ! هذا عبد لنا أبى ، وقالوا ليوسف بالعبرانية : إما أن تُفتر لنا بالعبودية فنبيعك من هؤلاء ، وإما أن نأخذك فنفقتك ؛ فقال : أنا أفر لكم بالعبودية ، فأقر لهم فباعوه منهم . وقيل : إن يهوذا وصى أخاه يوسف بلسانهم أن أعترف لأخوتك بالعبودية فإني أخشى إن لم تفعل قتلوك ؛ ففعل الله أن يحصل لك مغربا ، وتنجو من القتل ، فكتم يوسف شأنه مخافة أن يقتله إخوته ؛ فقال مالك : والله ما هذه ممة العبيد ؛ قالوا : هو تربى في مجورتنا ، وتخلق بأخلاقنا ، وتأدب بآدابنا ؛ فقال : ما تقول يا غلام ؟ قال : صدقوا ! تربيت في مجورهم ، وتخلقت بأخلاقهم ؛ فقال مالك : إن بتموه منى أشتريته منك ؛ فباعوه منه ؛ فذلك :

قوله تعالى : وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ

الزَّاهِدِينَ ﴿١٢٥﴾

فيه ست مسائل :

الأولى - قوله تعالى : (وَتَرَوْهُ) يقال : شريت بمعنى اشتريت ، وشريت بمعنى
بعت لغة ؛ قال الشاعر ^(١) :

وَشَرَيْتُ بُرْدًا لَيْسَنِي • مِنْ بَعِيدٍ بُرْدٌ كُنْتُ هَامَهُ

أى بعت . وقال آخر :

فَلَمَّا شَرَاهَا فَاضَيْتِ الْمَيْنُ عَبْرَةً • وَفِي الْقَصْدِ حُرَّازٌ مِنَ اللُّوْحِ حَامِرٌ ^(٢)

(وَتَجَنَّبَ بَيْعَ) أى نقص ، وهو هنا مصدر وضع موضع الاسم ؛ أى باعوه بجن مبخوس ،
أى منقوص . ولم يكن قصد إخوته ما يستفيدونه من ثمنه ، وإنما كان قصدهم ما يستفيدونه
من خلق وجه أبيهم عنه . وقيل : إن يهوذا رأى من بعيد أن يوسف أخرج من الحب فأخبر
إخوته بفاعوا وباعوه من الواردة . وقيل : لا ! بل عادوا بعد ثلاث إلى البشر يتعزفون الخبر ،
فروا أثر السيارة فاتبعوهم وقالوا : هذا عبدنا أبق منا فباعوه منهم . وقال قتادة : « بئس »
ظلم . وقال الضحاك ومقاتل والسدى وابن عطاء : « بئس » حرام . وقال ابن العربى :
ولا وجه له ، وإنما الإشارة فيه إلى أنه لم يستوف ثمنه بالقيمة ؛ لأن إخوته إن كانوا باعوه
فلم يكن قصدهم ما يستفيدونه من ثمنه ، وإنما كان قصدهم ما يستفيدون من خلق وجه أبيهم
عنه ؛ وإن كان الذين باعوه الواردة لأنهم أخفوه مقتطعا ، أو قالوا لأصحابهم : أرسل معنا
بضاعة فراءوا أنهم لم يعطوا عنه ثمننا وأن ما أخذوا فيه ربح كله .

قلت : قوله « وإنما الإشارة فيه إلى أنه لم يستوف ثمنه بالقيمة » يدل على أنهم لو أخذوا
القيمة فيه كاملة كان ذلك جائزا وليس كذلك ؛ فدل على صحة ما قاله السدى وغيره ؛ لأنهم
أوقفوا البيع على نفس لا يجوز بيعها ، فلذلك كان لا يحل لهم ثمنه . وقال عكرمة والشعبي :
قليل . وقال ابن حبان : زيف . وعن ابن عباس وابن مسعود باعوه بعشرين درهما أخذ
كل واحد من إخوته درهمين ، وكانوا عشرة ؛ قاله قتادة والسدى . وقال أبو العالية

(١) هو : يزيد بن فرغ الحميرى ؛ و (برد) اسم جده كان له ندم على بيعه .
(٢) البيت الشاعى ، قاله
في رجل باع قوسه من رجل . وحامز : حاسر ، وقيل : أى مضى بحرق . (اللسان) .

ومقاتل : اثنين وعشرين درهما ، وكانوا أحد عشر أخذ كل واحد درهمن ، وقاله مجاهد .
وقال عكرمة : أربعين درهما ؛ وما روى عن الصحابة أولى . و « بنيس » من سمت
« ثني » . « دراهم » على البدل والتفسير له . ويقال : دراهم على أنه جمع درهم ، وقد
يكون اسما لمجمع عند سيوييه ، ويكون أيضا عنده على أنه مذ الكسرة فصارت ياء ، وليس
هذا مثل مذ المقصور ؛ لأن مذ المقصور لا يجوز عند البصريين في شعر ولا غيره . وأنشد
النحويون :

تَنبِيْ بِدَاهَا الْحَقِيْ فِي كُلِّ حَاجِرَةٍ • قَتَى الدَّرَاهِمِ تَنَقَّادُ الصَّبَارِيْفِ^(١)

(مَعْدُوْدَةٌ) نمت ؛ وهذا يدل على أن الأثمان كانت تجري عندهم عمدا لا وزنا بوزن . وقيل :
هو عبارة عن قلة الثمن ؛ لأنها دراهم لم تبلغ أن توزن لقلتها ؛ وذلك أنهم كانوا لا يزنون
ما دون الأوقية ، وهي أربعون درهما .

الثانية — قال القاضي ابن العربي : وأصل التقدين الوزن ؛ قال صلى الله عليه وسلم :
« لا تبعوا الذهب بالذهب ولا الفضة بالفضة إلا وزنا بوزن من زاد أو أزداد فقد أرى » .
والزينة لا فائدة فيها إلا المقدار ؛ فأما عنها فلا منفعة فيه ، ولكن جرى فيها العد تخفيفا عن
الخلق لكثرة المعاملة ، فيشق الوزن ؛ حتى لو ضرب متاعيل أو دراهم بلأزبيع بعضها ببعض
عدا إذا لم يكن فيها نقصان ولا رجحان ؛ فإن نقصت عاد الأمر إلى الوزن ؛ ولأجل ذلك
كان كسرها أو فرضها من الفساد في الأرض حسب ما تقدم .

الثالثة — وأختلف العلماء في الدرهم والدنانير هل ثمنين أم لا ؟ وقد اختلفت
الرواية في ذلك عن مالك ؛ فذهب أشهب إلى أن ذلك لا يثمين ، وهو الظاهر من قول
مالك ؛ وبه قال أبو حنيفة . وذهب ابن القاسم إلى أنها ثمنين ، وحكى عن الكشي ؛ وبه
قال الشافعي . وفاطمة الخلاف أنا إذا قلنا لا ثمنين فإذا قال : بئسك هذه للدنانير بهذه

(١) البيت للزبدقي ؛ وصف ناقة مربية البير في المواجر ؛ فذهب خروج الحصى من تحت مناسمها بإرتفاع الدرهم
عن الأصابع إذا حلت .

الدرهم تملقت الدنانير بذمة صاحبها، والدرهم بذمة صاحبها، ولو تميت ثم تلفت لم يتعلق
بذمتها شيء، وبطل العقد كبيع الأعيان من المروض وغيرها .

الرابعة - روى عن الحسن بن علي رضي الله عنهما أنه قضى في اللقيط أنه حر،
وقرأ : « وَشَرُّهُ يَحْنِي بِحَسِّ دَرَاهِمٍ مَعْدُودَةٍ » وقد مضى القول فيه .

الخامسة - قوله تعالى : (وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ) قيل : المراد إخوته . وقيل :
السيارة . وقيل : الواردة ؛ وعلى أي تقدير فلم يمكن عدم غيبطها ، لا عند الإخوة ؛ لأن
المقصد زواله عن أبيه لا ماله ، ولا عند السيارة لقول الأخوة إنه عبد أبي منا - والرهدة
المرغبة - ولا عند الواردة لأنهم خافوا اشتراك أصحابهم معهم ، وراوا أن القليل من ماله
في الأفراد أولى .

السادسة - وفي هذه الآية دليل واضح على جواز شراء الشيء الخطيئة بالتمن البسر ،
ويكون البيع لازماً ؛ ولهذا قال مالك : لو باع دُرَّة ذات خطر عظيم بدينار ثم قال لم أعلم أنها
دُرَّة وحسبها تحشلبة^(١) لزم البيع ولم يلتفت إلى قوله . وقيل : « وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ » أي
في حسبه ؛ لأن الله تعالى وإن أعطى يوسف شطر الحسن صرف عنه دواهي نفوس القوم
إليه إكراماً له . وقيل : « وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ » لم يعلموا منزله عند الله تعالى . وحكي
سبويه والكسائي زهدت وزهدت بكسر الميم وقتعها .

قوله تعالى : وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ
عَسَى أَنْ يَفْعَلَنَا أَوْ يَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ
وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ
النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٢١﴾

(١) الخشلة : خرز أيضاً يشاكل التوت .

قوله تعالى : (وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِأَمْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ) قيل : الاشتراء هنا بمعنى الاستبدال ، إذ لم يكن ذلك عقداً ، مثل : « أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهَدْيِ » . وقيل : إنهم ظنوه في ظاهر الحال اشتراء ، بخفى هذا اللفظ على ظاهر الظن . قال الضحاك : هذا الذي اشتراه ملك مصر ، ولقيه العزيز . السبيل : وأسمه قطفير . وقال ابن إسحاق : إطفير بن رويحب اشتراه لأمرأته راعيل ، ذكره الماوردي . وقيل : كان اسمها زليخا . وكان الله ألقى حبة يوسف على قلب العزيز ، فأوصى به أهله ، ذكره القشيري . وقد ذكر القبولين في اسمها الثعلبي وغيره . وقال ابن عباس : إنما اشتراه قطفير وزير ملك مصر ، وهو الريان بن الوليد . وقيل : الوليد بن الريان ، وهو رجل من الهلقة . وقيل : هو فرعون موسى ؛ لقول موسى : « وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلِ الْبَيِّنَاتِ » وأنه عاش أربعمائة سنة . وقيل فرعون موسى من أولاد فرعون يوسف ، على ما يأتي في « غافر »^(١) . بيانه . وكان هذا العزيز الذي اشترى يوسف على خزان الملك ، واشترى يوسف من مالك بن دُعر بن عشرين ديناراً ، وزاده حلة وتعين . وقيل : اشتراه من أهل التوفة . وقيل : تزايدوا في ثمنه فبلغ أضعاف وزنه مسكاً وعنباً وحريراً وورقا وذهبا ولآلئاً وجواهر لا يعلم قيمتها إلا الله ؛ فأبتاعه قطفير من مالك بهذا الثمن ؛ قاله وهب بن منبه . وقال وهب أيضا وغيره : ولما اشترى مالك بن دُعر يوسف من إخوته كتب بينهم وبينه كتاباً : « هذا ما اشترى مالك بن دُعر من بني يعقوب ، وهم فلان وفلان مملوكاً لم بعشرين درهما ، ولقد شرطوا له أنه أبى ، وأنه لا ينقلب به إلا مقيدا مسلسلا ، وأعطاهم على ذلك عهد الله » قال : فودعهم يوسف عند ذلك ، وجعل يقول : حفظكم الله وإن ضيعتموني ، نصركم الله وإن خذلتموني ، ربحكم الله وإن لم ترحموني ؛ قالوا : فآلفت الأغنام ما في بطونها دما عيطا لشدة هذا التوديع ، وحمله على قتب بنير غطاء ولا وطاء ، مقيدا مكبلا مسلسلا ، فز على مقبرة آل كنعان فرأى قبر أمه — وقد كان وكل به أسود يحرسه ففعل الأسود — فآلقى يوسف نفسه على قبر أمه وجعل يتخرف

ويعتق القبر ويضطرب ويقول : يا أناه ! أرفى رأسك ترى ولدك مكبلا مقيدا مسلسلا
مفلولا ، تفروا بيني وبين والدي ، فاسأل الله أن يجمع بيننا في مستقر رحمته إنه أرحم الراحمين ،
فتفقد الأسود على البعير فلم يره ، فقفا أثره ، فإذا هو بياض على قبر ، فقامله فلذا هو إياه ، فركضه
برجله في التراب ومرغه وضربه ضربا وجيعا ، فقال له : لا تفعل ! والله ما هربت ولا أبيت ،
وانما مررت بقبر أمي فأحببت أن أودعها ، ولن أرجع إلى ما تكهون ، فقال الأسود :
والله إنك لعبد سوء ، تدعو أباك مرة وأملك أخرى ! فهلا كان هذا عند مواليك ، فرفع يديه
إلى السماء وقال : اللهم إن كنت لي عندك خطيئة أخلقت بها وجهي فاسألك بحق آبائي
إبراهيم وإسماعيل ويعقوب أن تغفر لي وترحمني ، فضجت الملائكة في السماء ، ونزل جبريل
فقال له : يا يوسف ! غص صوتك فلقد أنكيت ملائكة السماء ! أقر يد أن قلب الأرض
فاجعل عاليها سافلها ؟ قال : ثبت يا جبريل ، فإن الله حلیم لا يعجل ، فضرب الأرض بجناحه
فاظلمت ، وارتفع الغبار ، وكسفت الشمس ، وبقيت القافلة لا يعرف بعضها بعضا ، فقال
رئيس القافلة : من أحدث منكم حدثا ؟ - فإني أسافر منذ كنت وكيث ما أصابني قطرٌ مثل
هذا - فقال الأسود : أنا لطمت ذلك الغلام العبراني فرفع يده إلى السماء وتكلم بكلام لا أعرفه ،
ولا أشك أنه دعا علينا ، فقال له : ما أردت إلا هلاكا ! آيتنا به ، فأنابه ، فقال له :
يا غلام ! لقد لطمتك بغاءنا ما رأيت ، فإن كنت تهتص فأقص من شئت ، وإن كنت تمغو
فهو الظن بك ، قال : قد عفوت رجاء أن يعفو الله عني ، فانبجست النيرة ، وظهرت الشمس ،
وأضاء مشارق الأرض ومغاربها ، وجعل التاجر يزوره بالغداة والعشي ويكرمه ، حتى وصل إلى
مصر فاغتسل في نيلها وأذهب الله عنه كآبة السفر ، ورتد عليه جماله ، ودخل به البلد نهارا -
فسطع نوره على الجدران ، وأوقفوه للبيع فاشتراه قطفير وزير الملك ، قاله ابن عباس على
ما تقدم . وقيل : إن هذا الملك لم يمت حتى آمن وأتبع يوسف على دينه ، ثم مات الملك
ويوسف يومئذ على خرائن الأرض ، فلك بسده قابوس وكان كافرا ، فدعاه يوسف إلى
الإسلام فأبى . « اكريمى متواه » أى منزله ومقامه بطيب المطعم واللباس الحسن ، وهو

ماخوذ من توى بالمكان أى أقام به؛ وقد تقدم فى « آل عمران » وغيره. (عسى أن ينفعنا)
 أى يكفينا بعض المهمات إذا بلغ . (أو تحبّه ولداً) قال ابن عباس : كان حصّورا
 لا يولد له ، وكذا قال ابن إسحق : كان قطيع لا يأتى النساء ولا يولد له . فإن قيل : كيف
 قال « أو تحبّه ولداً » وهو ملكه ، والولدية مع العبدية لتناقض ؟ قيل له : ينتقم ثم يتخذ
 ولداً بالتبني ؛ وكان التبنى فى الأمم معلوما عندهم ، وكذلك كان فى أول الإسلام ، على ما يأتى
 بيانه فى « الأحزاب »^(١) إن شاء الله تعالى . وقال عبد الله بن مسعود : أحسن الناس فراسة
 ثلاثة ؛ العزير حين تمزق فى يوسف فقال : « عسى أن ينفعنا أو تحبّه ولداً » ، وبنو
 شيب حين قالت لأبيها فى موسى « استأجره إن خير مني استأجرت القوى الأيمن » ، وأبو بكر
 حين استخلف عمر . قال ابن السري : عجبا للفسرين فى اتفاقهم على جلب هذا الخبر !
 والفراسة هى علم غريب على ما يأتى بيانه فى سورة « الحجر »^(٢) وليس كذلك فيما نقلوه ؛ لأن
 الصديق إنما ولى عمر بالتجربة فى الأعمال ، والمواطبة على الصحة وطولها ، والاطلاع
 على ما شاهد منه من العلم والمئة ، وليس ذلك من طريق الفراسة ؛ وأما بنت شيب فكانت
 معها العلامة البينة على ما يأتى بيانه فى « القصص »^(٣) . وأما امر العزير فيمكن أن يجعل فراسة ؛
 لأنه لم يكن معه علامة ظاهرة . والله أعلم .

قوله تعالى : (وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ) الكاف فى موضع نصب ؛ أى وكما
 أنقذناه من إخوته ومن الجب فكذلك مكّاه ؛ أى عطفنا عليه قلب الملك الذى اشتراه حتى
 تمكن من الأمر والنهى فى البلد الذى الملك مستول عليه . (وَلِتَعْلَمَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ)
 أى فعلنا ذلك تصديقا لقول يعقوب : « وَبَعْلُكُم مِّنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ » . وقيل : المعنى
 مكّاه لنوحى إليه بكلام منا ، وتعلمه تأويله وتفسيره ، وتأويل الرؤيا ، وتم الكلام . (وَآفَهُ
 غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ) الهاء راجعة إلى الله تعالى ؛ أى لا يغلب الله شىء ، بل هو الغالب على أمر

(١) راجع ج ٤ ص ٢٣٢ طبع أول أورثانية . (٢) راجع المسئلة الأولى والثانية فى تفسيرة .

(٣) راجع تفسيرة ٧٥٠ . (٤) راجع تفسيرة ٢٦ .

نفسه فيما يريد أن يقول له : كن فيكون . وقيل : ترجع إل يوسف ؛ أي الله غالب على أمر يوسف يدبره ويحوطه ولا يهلكه إلى غيره ، حتى لا يصل إليه كيد كاند . (وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) أي لا يظلمون على غيبه . وقيل : المراد بالأكثر الجميع ؛ لأن أحدا لا يعلم الغيب . وقيل : هو مجرى على ظاهره ؛ إذ قد يُطْلَع من يريد على بعض غيبه . وقيل : المعنى « وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ » أن الله غالب على أمره ، وهم المشركون ومن لا يؤمن بالقدر . وقالت الحكماء في هذه الآية : « وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ » حيث أمره يعقوب ألا يقص رؤياه على إخوته فغلب أمر الله حتى قص ، ثم أزداد إخوته قتله فغلب أمر الله حتى صار ملكا ومجودا بين يديه ، ثم أراد الإخوة أن يخلوهم وجه أبيهم فغلب أمر الله حتى ضاق عليهم قلب أبيهم ، وأفنكه بعد سبعين سنة أو ثمانين سنة ، فقال : « يَا أَسَفًا عَلَى يُوسُفَ » ثم تدبروا أن يكونوا من بعده قوما صالحين ، أي تائبين فغلب أمر الله حتى نسوا الذنب وأصروا عليه حتى أقرؤا بين يدي يوسف في آخر الأمر بعد سبعين سنة ، وقالوا لأبيهم : « يَا أَبَانَا خَاطِئِينَ » ثم أرادوا أن يخدعوا أباهم بالبكاء والقميص فلم يخدع وقال : « بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً » ثم احتالوا في أن تزول محبة من قلب أبيهم فغلب أمر الله فازدادت المحبة والشوق في قلبه ، ثم دبرت امرأة العزيز أنها إن أتدبرته بالكلام غلبه ، فغلب أمر الله حتى قال العزيز : « أَسْتَغْفِرُ لِنَفْسِي إِنَّكَ كُنْتَ مِنَ الْخَاطِئِينَ » ، ثم دبر يوسف أن يتخلص من السجن بذكر الساق فغلب أمر الله فنسى الساق ، ولبت يوسف في المحن بضع سنين .

قوله تعالى : وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ۖ وَآتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۖ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٦﴾

قوله تعالى : (وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ) « أَشُدَّهُ » عند سيوويه جمع ، واحده شِدَّة . وقال الكسائي : واحده شَدٌّ ؛ كما قال الشاعر :

عَهْدِي بِهِ شِدَّةُ النَّهَارِ كَأَمَّا • خُصِبَ اللَّبَانُ وَرَأْسُهُ بِالْعِظْلَمِ

(١) هو حنزة العيسى . وشد الهاء : أي أشده ، من أعلاه . واللبان : الصدر ، وقيل : وسطه ، وقيل : ما بين الثديين ، وروى : « اللبان » . والعظم عبارة عن عظم أو نبت يصنع به ، أو الومضة ، وهي شجرة ورغها خضاب .

وزعم أبو عبيد أنه لا واحد له من لفظه عند العرب؛ ومعناه استكمال القوة ثم يكون النقصان بعد . وقال مجاهد وقادة : الأشد ثلاث وثلاثون سنة . وقال ربعة وزيد بن أسلم ومالك ابن أنس : الأشد بلوغ الحلم؛ وقد مضى ما للعلماء في هذا في «النساء» و «الألغام» مستوفى .
 (آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا) قيل : جعلناه المسئول على الحكم ، فكان يحكم في سلطان الملك ؛ أى وآتيناه علما بالحكم . وقال مجاهد : العقل والفهم والنبوة . وقيل : الحكم النبوة ، والعلم علم الدين ؛ وقيل : علم الرؤيا ؛ ومن قال أوتي النبوة صبا قال : لما بلغ أشده زدها فهما وعلمها . (وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ) يعنى المؤمنين . وقيل . الصابرين على النوائب كما صبر يوسف ؛ قاله الضحاك . وقال الطبري : هذا وإن كان أخرجه ظاهرا على كل محسن فالمراد به محمد صلى الله عليه وسلم ؛ يقول الله تعالى : كما فعلت هذا بيوسف بعد أن قامى ما قامى ثم أعطيته ما أعطيته ، كذلك أنجيتك من مشركى قومك الذين يقصدونك بالعداوة ، وأمكن لك فى الأرض .

قوله تعالى : (وَرَأَوْنَهُ أَتَيْنَا فِي بَيْتِنَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَقَتِ الْأَبْوَابُ وَقَالَتْ هَيْبَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ) وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَاهُ بُرْهَنَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِيَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ)

قوله تعالى : (وَرَأَوْنَهُ أَتَيْنَا فِي بَيْتِنَا عَنْ نَفْسِهِ) وهى امرأة العزيز ، طلبت منه أن يوافقها . وأصل المارودة الإرادة والطلب برفق ولين . والرؤود والرياد طلب الكلاء ؛ وقيل : هى من رؤيد ؛ يقال : فلان يمتى رؤيدا ، أى برفق ؛ والمرادة الرقيق فى الطلب ؛ يقال

(١) رابع به ص ٣٤ وما بعدها طبة أول أوتانية . (٢) رابع به ص ٧ وما بعدها طبة أول أوتانية .

والرجل : راودها عن نفسها ، وفي المرأة راودته عن نفسه . والرود الثاني ؛ يقال : أرودني أمهلي . (وَتَلَقَّيْتُ الْأَبْوَابَ) علق للكثير ، ولا يقال : علق الباب ؛ وأُغْلِقُ يقع للكثير والقليل ؛ كما قال الفرزدق في أبي عمرو بن العلاء :

مَا زِلْتُ أُغْلِقُ أَبْوَابًا وَاتَّحَصَّهَا ۖ حَتَّى أَتَيْتُ أَبَا عَمْرٍو بْنِ عَمِيرٍ

يقال : إنها كانت سبعة أبواب غلقتها ثم دعه إلى نفسها . (وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ) أَيْ هَلُمَّ وأقبل وتعال ؛ ولا مصدر له ولا تصرف . قال النحاس : فيها سبع قراءات ؛ فمن أجل ما فيها وأصحها إسنادا ما رواه الأعمش عن أبي وائل قال : سمعت عبد الله بن مسعود يقرأ « هَيْتَ لَكَ » قال فقلت : إن قوما يقرءونها « هيت لك » فقال : إنما أقرأ كما علمت . قال أبو جعفر : وبعضهم يقول عن عبد الله بن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا يبعد ذلك ؛ لأن قوله ؛ إنما أقرأ كما علمت يدل على أنه مرفوع ، وهذه القراءة بفتح التاء والهاء هي الصحيحة من قراءة ابن عباس وسعيد بن جبيرة والحسن ومجاهد وعكرمة ؛ وبهاقرأ أبو عمرو بن العلاء وعاصم والأعمش وحزرة والكسائي . قال عبد الله بن مسعود : لا تقطعوا في القرآن ؛ فإنما هو مثل قول أحدكم : هَلُمَّ وَتَعَالَ . وقرأ ابن أبي إسحق النحوي « هَيْتَ لَكَ » بفتح الهاء وكسر التاء . وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي وآبن كثير « هَيْتَ لَكَ » بفتح الهاء وضم التاء ؛ قال طرفة :

لَيْسَ قَوْمِي بِالْأَبْعَدِينَ إِذَا مَا ۖ قَالَ دَاغَ مِنَ الْعَشِيرَةِ هَيْتُ

فهذه ثلاث قراءات الهاء فيهن مفتوحة . وقرأ أبو جعفر وشيبة ونافع « وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ » بكسر الهاء وفتح التاء . وقرأ يحيى بن وثاب « وَقَالَتْ هَيْتُ لَكَ » بكسر الهاء وبعدها ياء ساكنة والتاء مضمومة . وروى عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه وآبن عباس ومجاهد وعكرمة « وَقَالَتْ هَيْتُ لَكَ » بكسر الهاء وبعدها همزة ساكنة والتاء مضمومة . وعن ابن عاصم وأهل الشام « وَقَالَتْ هَيْتُ » بكسر الهاء وبالمعزة وفتح التاء ؛ قال أبو جعفر : « هَيْتُ لَكَ » بفتح التاء لانقضاء الساكنين ، لأنه صوت نحو مة وصنة يجب ألا يعرب ،

والفتح خفيف ، لأن قبل التاء ياء مثل أين وكيف ؛ ومن كسر التاء فإنما كسرهما لأن الأصل الكسر ، لأن الساكن إذا حرك حرك إلى الكسر ، ومن ضم فلأن فيه معنى الغاية ؛ أى قالت : دعائى لك ، فلما حذفت الإضافة بنى على الضم ؛ مثل حيث وبعد . وقراءة أهل المدينة فيها قولان : أحدهما - أن يكون الفتح لالتقاء الساكنين كما مر . والآخر - أن يكون فعلا من هاء ييىء مثل جاء ييىء ؛ فيكون المعنى فى « هِئْت » أى حسنت هيئتك ، ويكون « لَكَ » من كلام آخر ، كما نقول : لك أعنى . ومن همز وضم التاء فهو فعل بمعنى تهيأت لك ؛ وكذلك من قرأ « هِئْتُ لَكَ » . وأنكر أبو عمرو هذه القراءة ؛ قال أبو عبيدة - معمر بن المثنى : سئل أبو عمرو عن قراءة من قرأ بكسر المياء وضم التاء مهموزا فقال أبو عمرو : باطل ؛ جعلها من تهيأت ! اذهب فاستعرض العرب حتى تنتهى إلى الذين هل تعرف أحدا يقول هكذا ؟ ! وقال الكسائى أيضا : لم تحك « هِئْتُ » عن العرب . قال عكرمة : « هِئْتُ لَكَ » أى تهيأت لك وترينت وتحسنت ، وهى قراءة غير مرضية ، لأنها لم تسمع فى العربية . قال النحاس : وهى جيدة عند البصريين ؛ لأنه يقال : هَاءَ الرجل يهأ ويهأه هياء فهأ يهأ مثل جاء ييىء ، وهِئْتُ مثل جئت . وكسر المياء فى « هيت » لفظة لقوم يؤثرون كسر المياء على فتحها . قال الزجاج : أجود القراءات « هِئْتُ » بفتح المياء والتاء ؛ قال طرفة :

ليس قومي بالأبعدين إذا ما • قال داغ من العشرة هِئْتُ بفتح المياء والتاء .

وقال الشاعر فى على بن أبى طالب رضى الله عنه :

أبلغ أمير المؤمنين أخا العراق إذا أتيت
إن العراق وأهلته • سلم إليك تهيت هيتا

قال ابن عباس والحسن : « هيت » كلمة بالسريانية تدعوه إلى نفسها . وقال السدى : معناها بالقبطية هم لك . قال أبو عبيد كان الكسائى يقول : هم لفظة لأهل حوران وقعت إلى أهل الحجاز معناه تمال ؛ قال أبو عبيد : فسألت شيخنا عالما من حوران فذكر أنها

لنتمهم ؛ وبه قال عكرمة . وقال مجاهد وغيره : هي لغة عربية تدعوه بها إلى نفسها ، وهي كلمة حَتَّ وإقبال على الأشياء ؛ قال الجوهري : يقال حَوَّتْ به وهَبَتْ به إذا صاح به ودعاه ؛ قال :

قد رَأَيْتُ أَنْ الْكَرَى أَسْكَا • لو كَانَتْ مَعْنَاهَا لَمَيَّنَا

أى صاح ، وقال آخر :

• يَتَدَوَّبُهَا كُلُّ فَنٍّ حَيَاتٍ •

قوله تعالى : (قَالَ مَآذَ اللَّهِ) أى أعوذ بالله واستجير به بما دعوتنى إليه ؛ وهو مصدر ، أى أعوذ بالله مَآذًا ؛ فيحذف المفعول وينصب المصدر بالفعل المحذوف ، ويضاف المصدر إلى اسم الله كما يضاف المصدر إلى المفعول ، كما تقول : صررت بزيد مرور عمرو أى كمرورى بعمرو . (إِنَّهُ رَبِّى) بنى زوجها ، أى هو سيدي أكرمنى فلا أخونه ؛ قاله مجاهد وابن إسحق والسدى . وقال الزجاج : أى إن الله ربى تولانى بطفه ، فلا أركب ما حرّمه . (إِنَّهُ لَا يَفْلِحُ الظَّالِمُونَ) وفى الخبر أنها قالت له : يا يوسف ! ما أحسن صورة وجهك ! قال : فى الرِّحْمِ صَوْرَتِى رَبِّى ؛ قالت : يا يوسف ما أحسن شَعْرَكَ ! قال : هو أول شئ يَسْتَلِى مِنِّى فى قبرى ، قالت : يا يوسف ! ما أحسن عينيك ؟ قال : بهما أنظرنى إلى ربِّى . قالت : يا يوسف ! أرفع بصرَكَ فانظرنى وجهى ، قال : لى أخاف العى فى آخرتى . قالت : يا يوسف ! أدن منك وتباعد منى ؟ قال : أريد بذلك القرب من ربى . قالت : يا يوسف ! الْقَيْطُونُ قَادِخٌ مَعِ ، قال : الْقَيْطُونُ لَا يَسْتَرِنِى مِنْ رَبِّى . قالت : يا يوسف ! فراش الحرير قد فرشته لك ، قم فاقتض حاجتى ، قال : إِذَا يَذْهَبُ مِنَ الْجَنَةِ نَصِيبِ ؛ إلى غير ذلك من كلامها وهو يراجعها ؛ إلى أن همَّ بها . وقد ذكر بعضهم ما زال النساء يَمْلُنَ إلى يوسف مَيْلَ شهوة حتى نبأ الله ، فألقى عليه هبة النبوة ؛ فشلت هيبته كل من رآه عن حسنه . وأختلف العلماء فى همه ؛ ولا خلاف أن همها كان المعصية ، وأما يوسف ذمَّ بها

(١) القيطون : الخدع ، العجى ، وقيل : بلة أهل مصر وبربر

(لَوْلَا أَنْ رَأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ) ولكن لما رأى البرهان ما هم؟ وهذا لوجوب المعصية للأنياء؟ قال الله تعالى: (كَذَٰلِكَ لِنُصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ) فلذا في الكلام تقديم وتأخير؛ أي لولا أن رأى برهان ربه هم بها. قال أبو حاتم: كنت أقرأ بحرب القرآن على أبي عبيدة فلما أتيت على قوله: «وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا» الآية، قال أبو عبيدة: هذا على التقديم والتأخير؛ كأنه أراد ولقد همت به ولولا أن رأى برهان ربه لم يهمل بها. وقال أحمد بن يحيى: أي همت زليخا بالمعصية وكانت مصرة، وهم يوسف ولم يواقع ما هم به، فبين الممتنين فرق، ذكر هذين القولين المروى في كتابه. قال جميل:

هَمَّتْ بِهَمٍّ مِنْ بُيُوتِنَا لَوْ بَدَا • شَفِيتُ غِيَلَاتِ الْهَوَىٰ مِنْ فُؤَادِيَا

أخسر:

هَمَّتْ وَلَمْ أَصِلْ وَكَدْتُ وَلَيْتَنِي • تَرَكْتُ عَلَى غِيَاثِ تَبْكِي حَلَالَتُهُ

فهذا كله حديث نفس من غير عزم. وقيل: هم بها تمنى زوجيتها. وقيل: هم بها أي بغيرها ودفعها عن نفسه، والبرهان كفه من الضرب؛ إذ لو ضربها لأوهم أنه فسد بها بالحرام فامتعت فضر بها. وقيل: إن هم يوسف كان معصية، وأنه جلس منها مجلس الرجل من أمراته؛ وإلى هذا القول ذهب معظم المفسرين وطائفة، فبما ذكر التفسير: أبو نصر، وابن الأنباري، والنحاس، والمالودي، وفيزم. قال ابن عباس: حلَّ الحِمَيَّانُ^(١) وجلس منها مجلس الختان، وعنه: استلقت على قفاها وقعد بين رجلها يترع ثيابها. وقال سعيد ابن جبير: أطلق يَكَّةَ سراويله. وقال مجاهد: حلَّ السراويل حتى بلغ الأليتين، وجلس منها مجلس الرجل من أمراته. قال ابن عباس: وما قال: «ذَٰلِكَ لَعَلَّمَ أَنَّ لِمَ أَخُوهُ بِالْقَيْبِ» قال له جبريل: ولا حين همت بها يا يوسف؟ فقال عند ذلك: «وَمَا أُبْرَىٰ نَفْسِي». قالوا: والاكتفاف في مثل هذه الحالة دالٌّ على الإخلاص، وأعظم للثواب.

قلت : وهذا كان سبب ثناء الله تعالى على ذى الكمّل حسب ما يأتي بيانه في «ص»^(١)
 إن شاء الله تعالى . وجواب «اولا» على هذا محذوف ؛ أى لولا أن رأى برهان ربه لأضى
 ما هم به ؛ ومثله «كَلَّا لَوْ تَتَّمَتُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ» وجوابه لم تتقاسموا ؛ قال ابن عطية : روى هذا
 القول عن ابن عباس وجماعة من السلف ، وقالوا : الحكمة في ذلك أن يكون مثلاً للذين يروا
 أن توبتهم ترجع إلى عفو الله تعالى كما رجعت ممن هو خير منهم ، ولم يوبقه القرب من الذنب ،
 وهذا كله على أن هم يوسف بلغ فيما روت هذه الفرقة إلى أن جلس بين رجل زليخا وأخذ في حل
 ثيابه ويكته ونحو ذلك ، وهي قد أسلفت له ؛ حكاه الطبري . وقال أبو عبيد القاسم بن سلام :
 وابن عباس ومن دونه لا يختلفون في أنه هم بها ، وهو أعلم بالله ويتأويل كتابه ، وأشدّ تعظيماً
 للأنبياء من أن يتكلموا فيهم بغير علم . وقال الحسن : إن الله عز وجل لم يذكر معاصي
 الأنبياء ليعيهم بها ، ولكنه ذكرها لئلا يهلسوا من التوبة . الفزوي : مع أن زلة الأنبياء حكاية ؛
 زيادة الوجل ، وشدة الحياء بالجل ، والتغنى عن عجب العمل ، والتلذذ بنعمة العفو بعد
 الأمل ، وكونهم أمة رجاء أهل الزلل . قال القشيري أبو نصر : وقال قوم جرى من يوسف
 هم ، وكان ذلك حركة طبع من غير تصميم للمقد على الفعل ؛ وما كان من هذا القبيل لا يؤخذ
 به العبد ، وقد يخطر بقلب المرء وهو صائم شرب الماء البارد ، وتناول الطعام اللذيذ ، فإذا
 لم يأكل ولم يشرب ، ولم يصمم عزمه على الأكل والشرب لا يؤخذ بما هجس في النفس ؛
 والبرهان صرفه عن هذا المم حتى لم يصبر عزما مصمما .

قلت : هذا قول حسن ؛ ومن قال به الحسن . قال ابن عطية : الذى أقول به في هذه
 الآية إن كون يوسف في هذه النازلة لم يصح كونه نبيا ، ولا تظاهرت به رواية ؛ ولذا كان
 كذلك فهو مؤمن قد أوتى حُكماً وعلماً ، ويمحوز عليه المم الذى هو إرادة الشيء دون موافقته
 وأن يستصحب الخاطى الردى على ما في ذلك من الخطيئة ؛ وإن فرضناه نبيا في ذلك الوقت
 فلا يمحوز عليه عندى إلا المم الذى هو خاطر ، ولا يصح عليه شيء مما ذكر من حل يكتنه

(١) راجع تفسير آية ٤٨ من السورة المذكورة ، آية ٨٥ من سورة «الأنبياء» .

ونحوه؛ لأن المصمة مع النبوة ، وما روى من أنه قيل له : « تكون في ديوان الأنبياء وتفعل فعل الأنبياء » فإنما معناه العدة بالنبوة فيما بعد .

قلت : ما ذكره من التفصيل صحيح ؛ لكن قوله تعالى : « وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ » يدل على أنه كان نبياً على ما ذكرناه ، وهو قول جماعة من العلماء ؛ وإن كان نبياً فلم يبق إلا أن يكون المهمل الذي هم به ما يخطر في النفس ولا يثبت في الصدر ؛ وهو الذي رفع الله فيه الموازنة عن الخلق ، إذ لا قدرة للكلف على دفعه ؛ ويكون قوله : « وَمَا أَرَبَى نَفْسِي » — إن كان من قول يوسف — أي من هذا المهمل ، ويكون ذلك منه على طريق التواضع والاعتراف ، لمخالفة النفس لما زكّي به قبل وبرئ ؛ وقد أخبر الله تعالى عن حال يوسف من حين بلوغه فقال : « وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا » على ما تقدم بيانه ، وخبر الله تعالى صدق ، ووصفه صحيح ، وكلامه حق ؛ فقد عمل يوسف بما علمه الله من تحريم الزنى ومقدماته ، وخيانة السيد والجار والأجنبي في أهله ؛ فما تعرض لأمرأة العزيز ، ولا أجاب إلى المراودة ، بل أدبر عنها وفزع منها ؛ حكمة خُص بها ، وعملًا بمقتضى ما علمه الله . وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " قالت الملائكة رب ذاك عبدك يريد أن يعمل سيئة وهو أبصر به فقال آرقبوه فإن عملها فاكذبوها له بمثلها وإن تركها فاكذبوها له حسنة إنما تركها من جرائي " . وقال عليه السلام خبرنا عن ربه : " إذا هم عبدى بسيئة فلم يعملها كتبت حسنة " فإذا كان ما هم به العبد من السيئة يكتب له بتركها حسنة فلا ذنب ؛ وفي الصحيح : " إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت به نفسها ما لم تتدلى أو تكلم به " وقد تقدم . قال ابن العربي : كان بمدينة السلام إمام من أئمة الصوفية ، — وأى إمام — يعرف بابن عطاء ؛ تكلم يوما على يوسف وأخبره حتى ذكر تبرئه عما نسب إليه من مكروه ؛ فقام رجل من آخر مجلسه وهو مشحون بالخلقة من كل طائفة فقال : يا شيخ ! يا سيدنا ! فإذا يوسف هم وما تم ؟ قال : نعم ! لأن العناية من تم . فانظر إلى حلاوة العالم والمتعلم ، وانظر إلى فطنة العاقل في سؤاله ،

(١) بن جري : أى من أبلي ؛ وفي نسخة من صحيح مسلم " من جرائي " .

وجواب العالم في اختصاره واستيفائه؛ ولذلك قال علماء الصوفية : إن قائدة قوله « وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَوِسْطًا » إنما أعطاه ذلك إبان غلبة الشهوة لتكون له سببا للعصمة .

قلت : وإذا تفردت عصمته وبرائه ببناء الله تعالى عليه فلا يصح ما قال مُصْعَبُ بْنُ عَثَانَ : إن سليمان بن يسار كان من أحسن الناس وجها ، فاشتاقته امرأة فسامته نفسها فامتنع عليها وذكرها ، فقالت : إن لم تعمل لأشهرتك ، نخرج وتركها ، فرأى في منامه يوسف الصديق عليه السلام جالسا فقال : أنت يوسف ؟ فقال : أنا يوسف الذي هممت ، وأنت سليمان الذي لم تهتم ؟ ! فإن هذا يقتضى أن تكون درجة الولاية أرفع من درجة النبوة وهو محال ؛ ولو قد رآنا يوسف غير نبى فدرجته الولاية ، فيكون محظوظا كهو ؛ ولو غفلت على سليمان الأبواب ، وروجع في المقال والمحطاب ، والكلام والجواب مع طول الصحبة خليف عليه الفتنه ، وعظيم المحنة ، والله أعلم .

قوله تعالى : (لَوْلَا أَن رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ) والجواب محذوف لعلم السامع ؛ أى لكان ما كان . وهذا البرهان غير مذكور في القرآن ؛ فروى عن علي بن أبي طالب رضى الله عنه أن زليخا قامت إلى صنم مكالم بالذئب والياقوت في زاوية البيت فسترته بثوب ، فقال : ما تصنعين ؟ قالت : أستحي من إلهي هذا أن يراني في هذه الصورة ؛ فقال يوسف : أنا أولى أن أستحي من الله ؛ وهذا أحسن ما قيل فيه ، لأن فيه إقامة الدليل . وقيل : رأى مكتوبا في سقف البيت « وَلَا تَقْرُبُوا الزَّيْنَةَ كَانَتْ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَيْلًا » . وقال ابن عباس : بدت كف مكتوب عليها « وَإِن عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ » وقال قوم : تذكر عهد الله وميثاقه . وقيل : نودى يا يوسف ! أنت مكتوب في الأنبياء وتعمل لجمال السفهاء ؟ ! وقيل : رأى صورة يعقوب على الجدران عاضا على أتمله يتوعده فسكن ، ونجرت شهيته من أنامله ؛ قاله قتادة ومجاهد والحسن والضحاك وأبو صالح وسعيد بن جبير . وروى الأعمش عن مجاهد قال : حل سراويله فتمثل له يعقوب ، وقال له : يا يوسف ! فولى هاربا . وروى سفيان عن أبي حصين عن سعيد بن جبير قال : مثل له يعقوب فضرب

صدره فخرجت شهوته من أنامله ، قال مجاهد : فولد لكل واحد من أولاد يعقوب أنثى عشر ذكرا إلا يوسف لم يولد له إلا غلامان ، ونقص بتلك الشهوة ولده ، وقيل غير هذا . وبالجملة : فذلك البرهان آية من آيات الله أراها الله يوسف حتى قوى إيمانه ، وأمنع عن المعصية .

فوله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ لَيَصْرِفُ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ ﴾ الكاف من « كذلك » يجوز أن تكون رفعا ، بأن يكون خبر ابتداء محذوف ، التقدير : البراهين كذلك ، ويكون نعتا لمصدر محذوف ، أى أرىنا البراهين رؤية كذلك . والسوء الشهوة ، والفحشاء المباشرة . وقيل : السوء التناء القبيح ، والفحشاء الزنى . وقيل : السوء خيانة صاحبه ، والفحشاء ركوب الفاحشة . وقيل : السوء عقوبة الملك العزيز . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر « المخلصين » بكسر اللام ، وتاويلها الذين أخلصوا طاعة الله . وقرأ الباقر بفتح اللام ، وتاويلها : الذين أخلصهم الله لرسالته ، وقد كان يوسف صلى الله عليه وسلم بهاتين الصفتين ؛ لأنه كان مخلصا فى طاعة الله تعالى ، مستخلصا لرسالة الله تعالى .

فوله تعالى : ﴿ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٥٥ ﴾

فوله تعالى : ﴿ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ ﴾ .

فيه مستثنان :

الأولى :- فوله تعالى : ﴿ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ ﴾ قللت العلماء : وهذا من اختصار القرآن المعجز الذى يجتمع فيه المعانى ؛ وذلك أنه لما رأى برهان ربه هرب منها فعناديا ، هى لترده إلى نفسها ، وهو ليهرب عنها ، فأدركته قبل أن يخرج « وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ » أى من خلفه ، قبضت فى أعلى قميصه فتخزق القميص عند طوقه ، ونزل التخريق إلى أسفل القميص .

والاستناق طلب السبق إلى الشيء ؛ ومنه السَّباق . والفظة القطع ، وأكثر ما يستعمل فيما كان طولاً ؛ قال الباقية ^(١) :

تَقْدُّ السُّلُوقِ الْمُضَاعَفَ تَسْبُجُهُ • وَتَوْقُدُ الصُّفَاحَ نَارَ الْحُبَّاحِيبِ

والقَطُّ بالطاء يستعمل فيما كان عَرْضاً . وقال المفضل بن حرب : قرأت في مصحف « فلماً رأى قَيْصُهُ عَطً مِنْ دُبُرٍ » أى شئ . قال يعقوب : العَطُّ الشئ في الجهد الصحيح والثوب الصحيح . وحذفت الألف من « استبقا » في اللفظ لسكونها وسكون اللام بعدها ؛ كما يقال : جاءني عبدا الله في الثانية ؛ ومن العرب من يقول : جاءني عبدا الله بإثبات الألف بغير همز ، ويجمع بين ساكتين ؛ لأن الثاني مدغم ، والأول حرف مد ولين . ومنهم من يقول : عبدا الله بإثبات الألف والهمز ، كما تقول في الوقف .

الثانية — في الآية دليل على التماس والاعتبار ، والعمل بالعرف والعادة ؛ لما ذكر من قد التميمص مقبلا ومدبرا ، وهذا أمر أنفرد به المالكية في كتبهم ، وذلك أن التميمص إذا جُذِ من خلف تمزق من تلك الجهة ، وإذا جُذِ من قدام تمزق من تلك الجهة ، وهذا هو الأغلب .

قوله تعالى : ﴿ وَأَلْقَا سِدَّهُمَا لِذِي الْقَبَابِ ﴾ أى وجدا العزيز عند الباب ، وعنى بالسيد الزوج ؛ والقبط يسمون الزوج سيدا . يقال : ألقاه وصادفه ووارطه ووالطه ولاطه كله بمعنى واحد ؛ فلما رأيت زوجها طلبت وجهها لليلة وكادت فقلت : ﴿ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا ﴾ أى زنى . ﴿ إِلَّا أَنْ يُسَجَّنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ تقول : يضرب ضربا وجيعا . و « ما جزاء » ابتداء ، وخبره « أن يسجن » . « أو عذاب » عطف على موضع « أن يسجن » لأن المعنى : إلا السجّن . ويجوز أو عذابا أيما معنى : أو يعذب عذابا أيما ؛ قاله الكسائي .

(١) يصف السيوف ، وقد تقدم شرح البيت يامش من ١٠٣ من هذا الجزء .

(٢) كذا العبارة في الأصل وفي « البحر المحيط » ، ولم تقف على مادة (وارط ووالط ولاط) بمعنى (الزنى) ،

في معاجم اللغة .

قوله تعالى : قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا
 إِنْ كَانَ قَبِيضُهُ قُدًّا مِنْ قَبْلِ فَصَدَقْتَ وَهُوَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٦﴾
 وَإِنْ كَانَ قَبِيضُهُ قُدًّا مِنْ دُبُرٍ فَكَذَّبْتَ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣٧﴾
 فَلَمَّا رَأَىٰ قَبِيضَهُ قُدًّا مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ
 عَظِيمٌ ﴿٣٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ
 مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴿٣٩﴾

قوله تعالى : (قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا) .
 فيه ثلاث مسائل :

الأولى - قال العلماء : لما برأت نفسها ؛ ولم تكن صادقة في حبه - لأن من شأن
 المحبة إظهار المحبوب - قال « هي راودتني عن نفسي » نطق يوسف بالحق في مقابلة بهت
 وكذب عليه . قال نوف الثامي وغيره : كان يوسف عليه السلام لم يبن عن كشف القضية ،
 فلما بَغَتْ به غضب فقال الحق .

الثانية - (وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا) لأنهما لما تمارضا في القول أحتاج الملك إلى
 شاهد يعلم الصادق من الكاذب ، فشهد شاهد من أهلها ، أى حكم حاكم من أهلها ، لأنه
 حكم منه وليس بشهادة . وقد اختلف في هذا الشاهد على أقوال أربعة : الأول - أنه
 طفل في المهد تكلم ؛ قال السهيلي : وهو الصحيح ؛ للحديث الوارد فيه عن النبي صلى الله عليه
 وسلم ، وهو قوله : « لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة » وذكر فيهم شاهد يوسف ؛ وقال
 التميمي أبو نصر : قيل كان صبيا في المهد في الدار وهو ابن خالته ؛ وروى سعيد بن
 جببر عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « تكلم أربعة وهم صغار » فذكر
 منهم شاهد يوسف ؛ فهذا قول - الثاني - أن الشاهد قد القميص ؛ رواه ابن أبي نجیح
 عن مجاهد ، وهو مجاز صحيح من جهة اللغة ؛ فإن لسان الحال أبلغ من لسان المقال ؛

وقد تصيف العرب الكلام إلى الجمادات وتخب عنها بما هي عليه من الصفات ، وذلك كبير في أشعارها وكلامها ؛ ومن أحلاه قول بعضهم : قال الحائط لاوتد لم تَشْقَى ؟ قال له : سَلْ من يَدْفِي . إلا أن قول الله تعالى بعد « من أهلها » يطل أن يكون القميص . الثالث - أنه خَلَقَ من خَلَقَ الله تعالى ليس بإنسى ولا يحنى ؛ قاله مجاهد أيضا ؛ وهذا يرد قوله : « من أهلها » . الرابع - أنه رجل حكيم ذو عقل كان الوزير يستشير في أموره ، وكان من جملة أهل المرأة ، وكان مع زوجها فقال : قد سمعت الاستبداد والجلبة من وراء الباب ، وشق القميص ، فلا يدرى أبكا كان قدام صاحبه ؛ فإن كان شق القميص من قدامه فانت صادقة ، وإن كان من خلفه فهو صادق ؛ فنظروا إلى القميص فإذا هو مشقوق من خلف ؛ هذا قول الحسن وعكرمة وقتادة والضحاك ومجاهد أيضا والسدى . قال السدى : كان ابن عباس وروى عن ابن عباس ، وهو الصحيح في السبب ، والله أعلم . وروى عن ابن عباس - رواه إسرائيل عن سماك عن عكرمة - قال : كان رجلا ذا حية . وقال سفيان عن جابر عن ابن أبي مليكة عن ابن عباس أنه قال : كان من خاصة الملك . وقال عكرمة : لم يكن بصبي ، ولكن كان رجلا حكما . وروى سفيان عن منصور عن مجاهد قال : كان رجلا . قال أبو جعفر النحاس : والأشبه بالمعنى - والله أعلم - أن يكون رجلا عاقلا حكما شاوره الملك بقاء بهذه الدلالة ؛ ولو كان طفلا لكانت شهادته ليوسف صلى الله عليه وسلم نفى عن أن يأتى بدليل من العادة ؛ لأن كلام الطفل آية معجزة ، فكانت أوضح من الاستدلال بالعادة ؛ وليس هذا بخالف للحديث " تكلم أربعة وهم صغار " منهم صاحب يوسف ؛ يكون المعنى : صنيرا ليس بشيخ ؛ وفي هذا دليل آخر وهو : أن ابن عباس رضى الله عنهما روى الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد تواترت الرواية عنه أن صاحب يوسف ليس بصبي .

قلت : قد روى عن ابن عباس وأبي هريرة وابن جبير وهلال بن يساف^(١) والضحاك أنه كان صبيا في المهد ؛ إلا أنه لو كان صبيا تكلم لكان الدليل نفس كلامه ، دون أن يحتاج إلى

(١) هو الأكبر وقد فتح .

استدلال بالقميص، وكان يكون ذلك خرق عادة، ونوع معجزة؛ والله أعلم. وسيأتي من تكلم في المهتمن الصبيان في سورة « البروج » إن شاء الله.

الثالثة — إذا نزلنا على أن يكون الشاهد طفلاً صغيراً فلا يكون دلالة على العمل بالأمارات كما ذكرنا؛ وإذا كان رجلاً فيصح أن يكون حجة بالحكم بالعلامة في اللقطة وكثير من المواضع؛ حتى قال مالك في اللصوص: إذا وجدت معهم أمتعة بغشاء قوم فأدعوها، وليست لهم بينة فإن السلطان يتلوم لهم في ذلك؛ فإن لم يأت غيرهم فدفعها إليهم. وقال محمد في متاع البيت إذا اختلفت فيه المرأة والرجل: إن ما كان للرجل فهو للرجل، وما كان للنساء فهو للمرأة، وما كان للرجل والمرأة فهو للرجل. وكان شريح وإياس بن معاوية يعملان على العلامات في الحكومات؛ وأصل ذلك هده الآيات، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ﴾ كان في موضع جزم بالشرط، وفيه من العجز ما يشكل؛ لأن حروف الشرط تترد الماضي إلى المستقبل، وليس هذا في كان؛ فقال المبرد محمد بن يزيد: هذا لقوة كان، وأنه يعبر بها عن جميع الأفعال. وقال الزجاج: المعنى إن يكن؛ أي إن يعلم، والعلم لم يقع، وكذا التكون لأنه يؤدي عن العلم. «قُدَّ مِنْ قُبُلٍ» نفبر عن «كان» بالفعل الماضي؛ كما قال زهير:

وكان طوى كشفاً على مُسْتَكِنَةٍ . فلا هو أبداً ولم يتَقَدَّمْ^(٢)

وقرأ يحيى بن يعمر وأبى إسحق: «مِنْ قُبُلٍ» بضم القاف والباء واللام، وكذا «دُبُرٍ» قال الزجاج: يعملهما غايتين كقبْلُ وبعْدُ؛ كأنه قال: من قُبُلِهِ ومن دُبُرِهِ، فلما حذف المضاف إليه — وهو صمد — صار المضاف غاية نفسه بعد أن كان المضاف إليه غاية له. ويجوز «مِنْ قُبُلٍ» «ومن دُبُرٍ» بفتح الراء واللام تشبيهاً بما لا ينصرف؛ لأنه معرفة وصرف عن بابه. وروى محبوب عن أبي عمرو «مِنْ قُبُلٍ» «ومن دُبُرٍ» غفغان مجروران.

(١) التلوم: النظر للأمر ترديد. (٢) الكشح: الخشب؛ ويقال: طوى كشفاً على كذا إذا أضرمه. والمستكنة: الحفدة. ويرى: (ولم يجسم).

قوله تعالى : (فَلَمَّا رَأَى قَيْصَهُ قَدْ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ) قيل : قال لما ذلك العزيز عند قولها « مَا جَاءَهُ مِنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا » . وقيل : قاله لها الشاهد . والكيد : المكر والحيلة ، وقد تقدم في « الأنفال » . (إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ) وإنما قال « عظيم » لعظم فتنته وأحباطه في التخلص من ورطته . وقال بقاتل عن يحيى بن أبي كثير عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن كيد النساء أعظم من كيد الشيطان لأن الله تعالى يقول « إن كيد الشيطان كان ضعيفا » وقال « إن كيدكن عظيم » .

قوله تعالى : (يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا) القائل هذا هو الشاهد . و « يوسف » نداء مفرد ، أى يا يوسف ، غذف . « أَعْرِضْ عَنْ هَذَا » أى لا تذكره لأحد وأكتمه . ثم أقبل عليها فقال : وَأَنْتَ (أَسْتَغْفِرُ لَذَنبِكَ) يقول : استغفرى زوجك من ذنبك لا بما قبلك . (إِنَّكَ كُنْتَ مِنَ الظَّالِمِينَ) ولم يقل من المخططات لأنه قصد الإخبار عن المذكر والمؤنث ، فنقلب المذكر ، والمعنى : من الناس المخططين ، أو من القوم المخططين ؛ مثل « إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ » « وَكَانَتْ مِنَ الْفَاسِقِينَ » . وقيل : إن القائل يوسف أعرض ولما استغفرى زوجها الملك ؛ وفيه قولان : أحدهما - أنه لم يكن غيورا ؛ فذلك كان سائكا . وعدم الغيرة في كثير من أهل مصر موجود . الثاني - أن الله تعالى سلبه النية وكان فيه لطف بيوسف حتى كفى بادرته وعفا عنها .

قوله تعالى : وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَنَّهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٥٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَكَعًا وَهَاتَتْ كُلَّ وَحْدَةٍ مِنْهِنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ امْكُرْجِ عَلَيْنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ

وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾ قَالَتْ
فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ^ط وَلَئِنْ
لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَ وَلَيَكُونَنَّ مِنَ الصَّغِيرِينَ ﴿٢٧﴾

قوله تعالى : (وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ) ويقال : « نِسْوَةٌ » بضم النون ، وهي قراءة الأعمش
والمفضل والسامى ، والجمع الكثير نساء . ويجوز : وقالت نسوة ، وقال نسوة ، مثل قالت
الأعراب وقال الأعراب ؛ وذلك أن القصة أنتشرت في أهل مصر فتحدث النساء . قيل :
أمرأة ساقى العزيز ، وأمرأة خبازه ، وأمرأة صاحب دوابه ، وأمرأة صاحب سمه . وقيل :
أمرأة الخاجب ؛ عن ابن عباس وغيره . (تَرَاوَدُّ قَتَاها عَنْ نَفْسِهِ) الفتى في كلام العرب
الشاب ، والمرأة فتاة . (قَدْ شَفَّعَهَا حُبًّا) قيل : شفعها فليها . وقيل : دخل حبه في شفافها ؛
عن مجاهد وغيره . وروى عمرو بن دينار عن عكرمة عن ابن عباس قال : دخل تحت شفافها .
وقال الحسن : الشَّفَفَ باطن القلب . السدى وأبو عبيد : شفاف القلب غلافه ، وهو جلدة
عليه . وقيل : هو وسط القلب ؛ والمعنى في هذه الأقوال متقارب ، والمعنى : وصل حبه إلى
شفافها فغلب عليه ؛ قال النابغة :

وقد حال هم دون ذلك داخل • دخول الشفاف تبنيه الأصابع^(١)

وقد قيل : إن الشفاف داء ؛ وأشد الأسمى للراجز :

• يلهمها وهي له شفاف •

وقرأ أبو جعفر بن محمد وآبن عيسى والحسين « شَفَّعَهَا » بالعين غير معجمة ، قال ابن الأعرابي :
معناه أحرق حبه قلبها ؛ قال : وعلى الأول العمل . قال الجوهري : وشَفَّعه الحب أحرق
قلبه . وقال أبو زيد : أمرضه . وقد شَفَّيف بكذا فهو مشعوف . وقرأ الحسن « قَدْ شَفَّعَهَا »
قال : بَطَّنَهَا حُبًّا . قال النحاس : معناه عند أكثر أهل اللغة قد ذهب بها كل مذهب ؛

(١) يعنى أصابع الطبيب ؛ يقول : قد حال عن البكاء على الله يارهم دخل في القوادى حتى أصابه به داء .

لأن شِعَافَ الجبال أعاليها ، وقد شُغِفَ بذلك شَغْفًا بإسكان الفين إذا أُلوع به ، إلا أن
أبا عبيدة أشد بيت أمرئ القيس :

لَتَقْتُلِي وقد شَغَفْتُ فؤادها • كَمَا شَغَفَ الْمَهْنُوءُ الرَّجُلُ الطَّالِي

قال : فشبهت لوحة الحب وجواه بذلك . وروى عن الشعبي أنه قال : الشَّغْفُ بالفين
المعجمة حب ، والشَّغْفُ بالفين غير المعجمة جنون . قال النحاس : وحكى « قد شَغَفَهَا »
بكسر الفين ، ولا يعرف في كلام العرب إلا « شَغَفَهَا » بفتح الفين ، وكذا « شَغَفَهَا » أى تركها
مشغوفة . وقال سعيد بن أبي عمرو بن العباس : الشَّغَافُ حجاب القلب ، والشَّغَافُ
سور يداه القلب ، فلو وصل الحب إلى الشَّغَاف لمات ، وقال الحسن : ويقال إن
الشَّغَاف الجلدة اللاصقة بالقلب التى لا ترى ، وهى الجلدة البيضاء ، فلصق حبه بقلها كصوص
الجلدة بالقلب .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ أى فى هذا العمل . وقال قتادة : « فناها »
وهو قى زوجها ، لأن يوسف كان عندهم فى حكم المالك ، وكان ينفذ أمرها فيه . وقال
مقاتل عن ابن عباس التَّهْدِي من سلمان الفارسى قال : إن امرأة العزيز استوهبت زوجها
يوسف فوجه لها ، وقال : ما تصنعين به ؟ قالت : أتأخذ ولدًا ، قال : هو لك ، فربته حتى
أبغى وفى نفسها منه ما فى نفسها ، فكانت تنكشف له وتترين وتدعوه من وجه اللطف
فمعصمه الله .

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لِمَكَرِهِنَّ ﴾ أى ببيتهن إياهما ، وأحباهن فى ذمهما . وقيل .
إنها أطلعتن واستأمنتن فأشدين سرها ، فسمى ذلك مكرا . وقوله : ﴿ أُرْسِلَتْ إِلَيْنِ ﴾
فى الكلام حذف ، أى أرسلت إليهن تدعوهم إلى وليمة لتوقعن فيها وقتت فيه ، فقال مجاهد
عن ابن عباس إن امرأة العزيز قالت لزوجها : إني أريد أن أتخذ طعاما فأدعو هؤلاء النسوة ،
فقال لها : افعل ، فأتخذت طعاما ، ثم تجددت لهن البيوت ، تجددت أى زينت ، والتجدد ما تجدد

(١) المهودة : المطلة بالقطران ، وإذا هى البحر بالقطران تعدله لذة مع حرقه ، كحرقه الحوى مع لذته .

به البيت من المتاع أى يُزَيَّن، والجمع جُود؛ عن أبى حنيفة؛ والتجيد التزين؛ وأرسلت إليهن
أن يحضرن طعامها، ولا تختلف منكن امرأة من حيث . قال وهب بن منبه : إهن كن
أربعين امرأة بخن على كثره منهن، وقد قال فيهن أُمّية بن أبى الصلت ،
حتى إذا جثها قسرا . ومهدت لمن أنضادا وكبابا^(١)

وَرَوَى أَنَسُطَا . قال وهب : بخن وأخذن بالهن . (وَأَعْدَتْ لهن مَنَكًا)
أى هبات لمن يجالس يتكن عليها . قال ابن جبير : فى كل مجلس جَاءَ فيه صل، وأُتْرَجَ
وسكّن حاد . وقرا مجاهد وسعيد بن جبیر « مَنَكًا » مخففا غير مهموز، والمَنَك هو الأترج
بلغة القبط، وكذلك فسره مجاهد . روى سفيان عن منصور عن مجاهد قال : المَنَك منقلا
الطعام، والمَنَك مخففا الأترج؛ وقال الشاعر ،

تَشْرَبُ الإِثْمَ بِالصُّوَاغِ جِهَارًا • وَتَرَى المَنَكَ بَيْنَنَا مُسْتَعَارًا

وقد تقول أَرَدْتُ شَوْهَةً : الأترجة المَنَكَة؛ قال الجوهري : المَنَك ما تُبْقِيه الخالصة . وأصل
المَنَك الزَّمَاوَرْدُ^(٢) . والمَنَك من النساء التى لم تُخَفَض . قال الفراء : حدثنى شيخ من قنات أهل
البصرة أن المَنَك مخففا الزَّمَاوَرْد . وقال بعضهم : إنه الأترج؛ حكاه الأخفش . بن زيد ،
أترجا فعلا يؤكل به؛ قال الشاعر :

فَيُظَلَّنْ بِنَعْمَةٍ وَأَتَسْكَأَنَّ • وَتُشْرَبُ الحَلَالُ مِنْ قُلَّةِ

أى أكلنا .

النحاس : قوله تعالى : (وَأَعْدَتْ) من اللَّتَاد؛ وهو كل ما جعلته عُدَّة لشيء . (مَنَكًا)
أصح ما قيل فيه ما رواه علي بن أبى طلحة عن ابن عباس قال : مجلسا ، وأما قوله : (وَأَعْدَتْ)
من أهل التفسير إنه الطعام فيجوز على تقدير : طعام مَنَكًا ، مثل « وَأَسْأَلُ الْقُرْبَةَ » ؛ ودل على

(١) كذا البنية الأصل . (٢) الزمورد بالزاف المقوف بالهمز، أو مرمرى، بنه الأترج .

(٣) يخفف الجارية، خنبا، وكذا العبي، والأمر أن الخفض جارية والخلف العبي . (٤) هو جبل

ابن سمر، ما نقل جمع لله ، والله الحب العظيم . دليل : الحبرة الكيرة . دليل : الكوز اليسير . دليل : من ذلك .

هذا الخلف « وَأَنْتَ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سَكِينًا » لأن حضور النساء معهن سكاكين إنما هو لطعام يقطع بالسكاكين ، كذا قال في كتاب « إعراب القرآن » له . وقال في كتاب « معاني القرآن » : « وروى مفسر عن قتادة قال : « المتكا » الطعام . وقبل : « المتكا » كل ما أتكى عليه عند طعام أو شراب أو حديث ؛ وهذا هو المعروف عند أهل اللغة ، إلا أن الروايات قد صحت بذلك . وحكى اللقيمي أنه يقال : أتكانا عند فلان أى أكلنا ، والأصل في « متكا » مونكا ، ومثله مكرن ومتمد ، لأنه من وزنت ووصدت ووكت ، ويقال : أتكا يتكى أتكا . (كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سَكِينًا) مفعولان ، وحكى اللسان والفراء أن السكين يذكر ويؤنث ، وأنشد الفراء ،

فَبَيْتٌ فِي السَّامِ خِدَاةٌ قُرٌّ • بِسَكِينٍ مُوقِفَةُ النُّصَابِ

الجوهري : والغالب عليه التذكير ، وقال :

يَرَى نَاصِحًا مِمَّا بَدَأَ إِذَا خَلَا • فَذَلِكَ سَكِينٌ عَلَى الْحَلِيِّ حَاقِقٌ

الأصمعي : لا يعرف في السكين إلا التذكير .

قوله نعال : (وَقَالَتْ أَخْرِجْ عَلَيْنِ) بضم الاء لانتفاء الساكنين ؛ لأن الكسرة تنقل إذا كان بعدها ضمة ، وكسرت الاء على الأصل . قيل إنها قالت لمن : لا تقطن ولا تأكلن حتى أعلمكن ، ثم قالت لخادمها : إذا قلت لك أدع لي إبلا فادع يوسف ؛ وإبل : صم كانوا يبدونه ، وكان يوسف عليه السلام يعمل في الطين ، وقد شد يتره ، وحسرت من ذراعيه ؛ فقالت لخادم : أدع لي إبلا ، أى أدع لي الرب ، وإبل بالعبرانية الرب ، قال : فتمحجب النسوة وقلن : كيف يحيى ؟ ! فصعدت الخادم فهدت يوسف ، فلما انحدر قالت لمن : أقطنن ما يمكن . (فَلَمَّا رَأَيْتُهُ أَكْبَرْتُهُ وَقَطَعْنَ أَيْدِيَّ) بالمدى حتى بلغت السكاكين إلى العظم ، يقال وهب بن مئنه . سعيد بن جبير : لم يخرج عليهن حتى زيته ، فخرج عليهن بخاة فدهشن فيه ، وتحجبن لحسن وجهه وزيته وما عليه ، فجعلن يقطعن أيديهن ، ويحسبن أنهن يقطعن الأثرج ، واختلف

(١) صحت في السام بالسكين أثر .

في معنى « أَكْبَرُهُ » فروى جَوَيْر عَنْ الضَّحَّاك عَنْ أَبِي عُبَيْسٍ : اعظمته وحبته ، و« هُنَّ أَيْضًا أَنْتَبِينَ وَأَمْذِينَ مِنَ الدَّهَشِ » ، وقال الشَّامِي :

إِذَا مَا رَأَيْنَ الْفَعْلَ مِنْ فَوْقِ قَارِيَةٍ • صَبَلْنَ وَأَكْبَرْنَ الْمَنَى الْمُدْقَا

وقال ابن سمان عن عدة من أصحابه : إنهم قالوا أمذين عشقا ، وهب بن منبه : عشقه حتى مات منهن عشرة في ذلك المجلس دهشا وحيرة ووجدنا يوسف . وقيل : معناه حضن من الدهش ، قاله قتادة ومقاتل والسدي ، قال الشَّامِي :

نَاقَى النِّسَاءَ عَلَى أَطْهَارِهِنَّ وَلَا • نَاقَى النِّسَاءَ إِذَا أَكْبَرْنَ لِإِكْبَارِ

وأنكر ذلك أبو عبيدة وغيره وقالوا : ليس ذلك في كلام العرب ، ولكنه يجوز أن يكنى حضن من شدة إعظامهن له ، وقد تخرج المرأة فتسقط ولدها أو تحيض . قال الزجاج : يقال أكبرنه ، ولا يقال حضنه ، فليس الإكبار بمعنى الحبض ، وأجاب الأزهرى فقال : يجوز أكبرت بمعنى حاضت ، لأن المرأة إذا حاضت في الابتداء خرجت من حيز الصغر إلى الكبر ، قال : والماء في « أكبرنه » يجوز أن تكون هاء الوقف لا هاء الكناية ، وهذا مزيف ، لأن هاء الوقف تسقط في الوصل ، وأمثلة منه قول ابن الأثيري : إن الماء كناية عن مصدر الفعل ، أي أكبرن إكبارا ، بمعنى حضن حضا . وعلى قول ابن عباس الأول تعود الماء إلى يوسف ، أي أعظمن يوسف وأجللته .

قوله تعالى : (وَقَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ) قال مجاهد : قطعنها حتى الفينا . وقيل : خدشنها . وروى ابن أبي تيجان قال : حُرًّا بالسكين ، قال الشَّامِي : يريد مجاهد أنه ليس قطعاً تبيين منه اليد ، إنما هو خدش وحز ، وذلك معروف في اللغة أن يقال إذا خدش الإنسان يد صاحبه قطع يده . وقال مكرمة : « إيهين » أكملهن ، وفيه بحد . وقيل : أناملهن ، أي ما وجدن الما في القطع والجرح ، أي لشغل قلوبهن بيوسف ، والقطع يتبر إلى الكثرة ، فيمكن أن ترجع الكثرة إلى واحدة جرحت بها في مواضع ، ويمكن أن يرجع إلى معدن .

(١) قتادة : الجبل الذي انقطع عن إبليل ، بليل ، هضبة الشفة ، وليل حمراء

قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ﴾ أى معاذ الله. وروى الأصمعي عن نافع أنه فرأى فرأى
أبو عمرو بن العلاء: «وَقُلْنَ حَاشًا لِلَّهِ» بـثلاث الألف وهو الأصل، ومن حذفها جعل اللام
في الله «عرضا منها». وفيها أربع لغات، يقال: حَاشَاكَ وَحَاشَا لَكَ وَحَاشَا لَكَ.
وبال: حَاشًا زَيْدٌ وَحَاشَا زَيْدًا، قال النحاس: وصحمت على بن سليمان يقول سمعت محمد بن
يزيد يقول: النصب أولى؛ لأنه قد صح أنها قُلْ لقولهم حاش زيدا، والحرف لا يحذف منه،
وقد قال الناجية:

«وَلَا أَحَاتِي مِنَ الْأَقْوَامِ مَنْ أَحْبَذَ»

وقال بعضهم: حاش حرف، وأحاشى فعل. وبدل على كون حاشا فعلا وقوع حرف الجر
بعدها. وحكى أبو زيد عن أصمعي: اللهم أغفر لي ولن يسمع، حاشا الشيطان وأبا الأصمعي؛
فنصب بها. وقرأ الحسن «وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ» بإسكان الشين، وعنه أيضا «حاش الإله».
ابن مسعود وأبو: «حَاشَ اللَّهُ» بغير لام، ومنه قول الشاعر:

حَاشَا ابْنِ قُورَيْبَانَ إِنَّ بِهِ حَاشًا عَنِ الْمَلْعَةِ وَالشَّمِّ

قال الزجاج: وأصل الكلمة من الحاشية، والحاشية معنى الناحية، تقول: كنت في حاشا
فلان أى في ناحيته؛ فيقولك: حاشا لزيد أى تحتى زيد من هذا وتباعد عنه، والاستثناء
إنجاء وتخية عن جملة المذكورين. وقال أبو علي: هو فاعل من الحاشاة؛ أى حاشا يوسف
وصاري حاشية وناحية مما تُعرف به، أو من أن يكون بشرا، فحاشا وحاش في الاستثناء حرف
جزء عند سبويه، وعلى ما قال المبرد وأبو علي: فعل.

قوله تعالى: ﴿يَا هَذَا بَشَرًا﴾ قال الخليل وسيبويه: «ما» بمنزلة ليس؛ تقول: ليس
زيد قائما، «و» ما هَذَا بَشَرًا «و» ما هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ. وقال الكوفيون: لما حدثت الباء

(١) حذراني، ولا يرى فاعلا في الناس ينيه.

وهو من فصيحة يمدح بها النعمان وينتد إليه - (٢) كلام مشهور - (٣) حوسوة بن حمزة
الأندلسي، وليل، هو جميع الأندلس، واسمه مفضل بن الطالح. والمعاذ: الغرم.

نصبت؛ وشرح هذا - فيما قاله أحمد بن يحيى - أنك إذا قلت : ما زيد بمنطلق، فوضع الباء موضع نصب، وهكذا سائر حروف الخفض؛ فلما حذفت الباء نصبت لتدل على محلها، قال : وهذا قول الفراء، قال : ولم تصل «ما» شيئا، فإلزامهم البصريون أن يقولوا : زيد القمر؛ لأن المعنى كالقمر ! فرد أحمد بن يحيى بأن قال : الباء أدخل في حروف الخفض من الكاف؛ لأن الكاف تكون أسما . قال النحاس : لا يصح إلا قول البصريين؛ وهذا القول ينافي؛ لأن الفراء أجاز ما بمنطلق زيدا، وأنشد :

أَمَا وَاللَّهِ أَن لَوْ كُنْتُ حُرًّا • وَمَا بِالْحُرِّ أَنْتَ وَلَا النَّبِيُّ

وسمع نصا للنصب؛ ولا نعلم بين النحويين اختلافا أنه جائز : ما فيك براغب زيدا، وما إليك بقاصد عمرو، ثم يحدفون الباء ويرفعون . وحكى البصريون والكويتون ما زيدا منطلقا بالرفع، وحكى البصريون أنها لغة تميم، وأنشدوا

أَتَيْتُمَا تَجْمَلُونِ إِلَى نَيْدَا • وَمَا تَيْمٌ لِيَدِي حَسْبَ نَيْدٍ

النَّد والنَّدِيد والنَّدِيدَةُ المِثْل والنَّظِير . وحكى الكسائي أنها لغة تيمامة ونجد . وزعم الفراء أن الرفع أقوى الوجهين؛ قال أبو إسحق : وهذا غلط؛ كتاب الله عز وجل ولغة رسول الله صلى الله عليه وسلم أقوى وأولى

قلت : وفي مصحف حفصة رضى الله عنها «ما هذا بَشِير» ذكره الفَرَزْدِيُّ . قال القُشَيْرِيُّ أبو نصر : وذكرَت النسوة أن [صورة] يوسف أحسن من صورة البشر، بل هو في صورة ملك، وقال الله تعالى : «لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ» والجمع بين الآيتين أن قولهم : «حاش لله» تجربة ليوسف عما رمت به أمراء العزيز من المزاودة؛ أي بعد يوسف من هذا؛ وقولهم : «هه» أي لحوفه، أي برأيه الله من هذا؛ أي قد تجاوز يوسف من ذلك، فليس هذا من الصورة في شيء؛ والمعنى : أنه في التهيئة من المماضي كاللائكة؛ فعل هذا لاتافض . وقيل : المراد تنزيهه عن مشابهة البشر في الصورة، ليرط جماله . وقوله : «هه» تأكيد لهذا المعنى؛ فعل هذا المعنى قالت النساء ذلك ظنا منهن أن صورة الملك أحسن، وما يفتنن قوله

تعالى : «لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ» فإنه من كتابنا . وقد ظن بعض الضممة أن هذا القول لو كان ظنا باطلاً منه لوجب على الله أن يردّ عليهن ، ويبين كذبهن ، وهذا باطل ؛ إذ لا وجوب على الله تعالى ، وليس كل ما يخبر به الله سبحانه من كفر الكافرين وكذب الكاذبين يجب عليه أن يقرن به الرد عليه ؛ وأيضاً أهل العرف قد يقولون في الصحيح كأنه شيطان ، وفي الحسن كأنه ملك ، أي لم ير مثله ، لأن الناس لا يرون الملائكة ، فهو بناء على ظن في أن صورة الملك أحسن ، أو على الإخبار بطهارة أخلاقه ومعه عن التهم . (إن هذا ^(١) إِلَّا مَلَكٌ) أي ما هذا إِلَّا ملك ، وقال الشاعر :

فَلَسْتُ لِأَنْسَى وَلَكِنْ لِمَلَايِكَةٍ . تَسْتَلِّ مِنْ جُودِ السَّمَاءِ بِصُوبٍ

وروي عن الحسن « مَا هَذَا بِشَيْءٍ » بكسر الباء والشين ، أي ما هذا عبداً مشتقاً ، أي ما ينبغي لمثل هذا أن يباع ، فوضع المصدر موضع اسم المفعول ، كما قال : « أَجَلٌ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ » أي مصيده ، وشبهه كثير . ويجوز أن يكون المعنى : ما هذا بجن ، أي مثله لا بجن ولا يقزم ، فيراد بالشراء على هذا الجن المشتري به ، كقولك : ما هذا بألف إذا نقيت قول القائل هذا بألف ، فالباء على هذا متباعدة بمحذوف هو الخبر ، كأنه قال : ما هذا مقفراً بشراء . وقراءة العامة : أشبه ؛ لأن بعده « إِنَّ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ » مبالغة في تفضيله في جنس الملائكة تعظيماً لشأنه ، ولأن مثل « بِشَيْءٍ » يكتب في المصحف بالياء

قوله تعالى : (فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ) لما رأت آتمتان بيوسف أظهرت مدر نفسيهما بقولها : ولتنتق فيه ، أي نجبه ، و « ذلك » بمعنى « هذا » وهو اختيار الطبري . وقيل : الهاء الحب ، و « ذلك » مل بابه ، والمعنى : ذلك الحب الذي لمتني فيه ، أي حب هذا هو ذلك الحب . والدرم الوصف بالقيح . ثم أقرت وقالت : (وَلَقَدْ رَآوْنَهُ قَبْلَ قِيَامِهِ فَأَتَعْتُمْ) أعم أمتنع ،

(١) هو رجل من عبد القيس جاهل ، يدعى بهن الهوك ، قيل : هو الهبان ، وقال ابن السكيت ، هو لأبي وجرة يدعى : مد الله بن الرز . وذلك - كما قال السكيت - لأنه لماك يتقدم الهزة من الألوكة ، وهي الرسالة ، لم تكتب ذلكت اللام قبل ، وذلك : لم تزك من كثرة الاستعمال طيلة ذلك ، فلما جمعه وجرعوا الله ضالوا ، حللته وملاكه أيضاً . (الهبان) .

وسميت المصصة عصمة لأنها تمنع من ارتكاب المصيبة. وقيل : « استعصم » أى استعصى ، والمعنى واحد . (وَلَيْتَ لَمْ يَقُلْ مَا أَمَرَهُ لَيَبْجَنَّ) بآودته المراودة بمحض منتهى، وهتكت جلياب الحياء ، ووعدت بالسجن إن لم يفعل ، وإنما فعلت هذا حين لم تخش الموت ولا مقالا خلاف أول أمرها إذ كان ذلك بينه وبينها . (وَلَيَكُونَنَّ مِنَ الصَّاهِرِينَ) أى الإذلاء . وخط المصحف « وليكونا » بالألف وتقرأ بنون غنقة للتأكيد ، ونون التأكيد تنقل وتخفف والوقف على قوله : « ليسجن » بالنون لأنها مقبلة ، وعلى « ليكونا » بالألف لأنها غنقة ، وهى تنسبه نون الإعراب فى قولك : رأيت رجلا وزيدا وعمرا ، ومثله قوله : « لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ » ونحوها الوقف عليها بالألف ، كقول الأعشى :

وَلَا تَمِيدُ الشَّيْطَانُ وَاللَّهِ قَاعِيدًا ١

أراد قاعيدًا ، فلما وقف عليه كان الوقف بالألف .

قوله نسال : قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْخٰسِرِينَ ٢٣ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهٗ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ٢٤

قوله نصال : (قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ) أى دخول السجن ، مخفف المضاف ، قاله الزجاج والنحاس . « أحب إلى » أى أسهل على وأهون من الوقوع فى المصيبة ؛ لا أن دخول السجن مما يَحِبُّ على التحقيق . وحكى أن يوسف عليه السلام لما قال : « السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ » أوصى الله إليه « يا يوسف ! أنت حسيت فضلك حيث قلت السجن أحب إلى ، ولو قلت العافية أحب إلى لموفيت » . وحكى أبو حاتم أن عثمان ابن عفان رضى الله عنه قرأ « السِّجْنُ » بفتح السين وحكى أن ذلك قراءة بن أبى إسحق

(١) صدوقيت ، وهذا نصب المنصوب لا تنكس .

مع من تصدق بفتح يا بعد واو رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وعبد الرحمن الأعرج ويقوب، وهو مصدر تجنه تجنًا . (وَالْأَتَصَرَّفُ عَنْ كَيْدَهُنَّ) أى
كيد النسوان . وقيل : كيد النسوة اللاتي رأينه؛ فإنهن أمرنه بمطامعة امرأة العزيز، وفان
له : هى مظلومة وقد ظلمتها . وقيل : طليت كل واحدة أن تخلو به للنصيحة فى امرأة
العزيز؛ والقصد بذلك أن تعدله فى حقها، وأمره بمساعدتها، فلهه يجب، فصارت كل
واحدة تخلو به على حدة فتقول له : يا يوسف ! أقض لى حاجتى فأنا خير لك من سيدتك،
تدعوه كل واحدة لنفسها وتراوده؛ فقال : يا رب كانت واحدة فصرن جماعة . وقيل : كيد
أمرأة العزيز فيها دعه إله من الفاحشة؛ وكفى عنها بخطاب الجمع إما لتعظيم شأنها فى الخطاب،
وإما ليعدل عن التصريح إلى التريص . والكيد الاحتيال والاجتهاد؛ ولهذا سميت الحرب
كيدا لاحتيال الناس فيها؛ قال عمر بن لُحما :

تَرَامَتْ كَيْ تَكِيدَكَ أُمُّ يَشِيرَ • وَكَيْدُ النَّسْرِجِ مَا تَكِيدُ •

(أَصْبُ إِلَيْنِ) جواب الشرط، أى أيل إلين، من صبا يصبو - إذا مال واشتاق -
صَبَاً وَصَبَوَةً، قَالَ :

إِلَى هِنْدٍ صَبَاً طَلِي • وَعِنْدُ يَتْلُهَا بُصِي

أى إن لم تطفئ بى فى اجتناب المصيبة وقعت فيها . (وَأَتَكُنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ) أى من
يرتكب الإثم ويستحق الدم، أو ممن يعمل عمل الجاهل؛ ودل هذا على أن أحدا لا يتنع عن
معصية الله إلا بعون الله؛ ودل أيضا على قبح الجهل والذم لصاحبه .

قوله تعالى : (فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ) لِمَا قَالَ . (وَالْأَتَصَرَّفُ عَنْ كَيْدَهُنَّ)
نمض للدعاء، وكأنه قال : اللهم أصرف عني كيدهن؛ فاستجاب له دعاه، ولطف به
وعصمه عن الوقوع فى الزنى . (كَيْدَهُنَّ) قيل : لأنهن جمع قد راودنه عن نفسه .
وقيل : يعنى كيد النساء . وقيل : يعنى كيد امرأة العزيز، على ما ذكر فى الآية قبل؛
والمعوم أولى .

قوله تعالى : ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا آيَاتٍ لِيَسْجُنَّهُ

حَتَّى حِينٍ ﴿٥٠﴾

فيه أربع مسائل .

الأولى - قوله تعالى : (ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ) أى ظهر للعزیز وأهل مشورته من بعد أن رأوا علامات براءة يوسف - من قَدِّ القميص من در ، وشهادة الشاهد ، وَخَرَّ الأيدي ، وقلة صبرهن عن لقاء يوسف - إن يسجنوه كثرةً للقصة إلا تشيع في العامة ، وللهلولة بينه وبينها .
وقيل : هي البركات التي كانت تنفتح عليهم ما دام يوسف فيهم ، والأول أصح . قال مقاتل : من مجاهد عن ابن عباس في قوله : « ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا آيَاتٍ » قال : القميص من الآيات ، وشهادة الشاهد من الآيات ، وقطع الأيدي من الآيات ، وإعظام النساء إياه من الآيات . وقيل : أبلغها الجمل من الناس ، والوجل من اليأس إلى أن وضيت بالحجاب مكان خوف الذهاب ، لتشتفى إذا شئت من نظره ، قال :

وما صَبَابُهُ مشتاقٍ على أمل . من اللقاء كمشاقٍ بلا أمل

أو كادت رجاء أن يَمْلَ حبه فيذل نفسه .

الثانية - قوله تعالى : (لِيَسْجُنَّهُ) « يسجنه » في موضع الفاعل ، أى ظهر لهم أن يسجنوه ، هذا قول سيبويه . قال المبرد : وهذا غلط ، لا يكون الفاعل جملة ، ولكن الفاعل ما دل عليه « بدا » وهو المصدر ، أى بدا لهم بَدَأُ ، وحذف لأن الفعل يدل عليه ، كما قال الشاعر :

وحق لمن أبو موسى أبوه . يُوقِّفه الذي نصب الجبالا

أى وحق الحق ، وحذف . وقيل : المعنى ثم بدا لهم رأى لم يكونوا يعرفونه ، وحذف هذا لأن في الكلام دليلا عليه ، وحذف أيضا القول ، أى قالوا : ليسجنه ، واللام جواب ليمين مضمرة ، قاله اللزاه ، وهو فعل مذكر لا فصل مؤنث ، ولو كان فعلا مؤنثا لكان يسجنانه ،

و يدل على هذا قوله «لم» ولم يقل لمن ، فكانه أخبر عن النسوة وأعراسهن ملب المدكر ،
قاله أبو علي . وقال السدي : كان سبب حبس يوسف أن امرأه العزيز شكت إليه أنه
شهرها ونشر خبرها ، فالضمير على هذا في «لم» لذلك .

الثالثة - قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ أي إلى مدة غير معلومة ، قاله كثير من
المفسرين . وقال ابن عباس : إلى انقطاع ما شاع في المدينة . وقال سعيد بن جبير :
سنة أشهر . وحكي اليك أنه عني ثلاثة عشر شهرا ، عكرمة : تسع سنين . الكلبي : خمس
سنين . مقاتل : [أنقضى عشرة سنة] . وقد مضى في «البقرة» القول في الحبس وما يرتبط
به من الأحكام . وقال وهب : أقام في السجن اثني عشرة سنة . و «حتى» بمعنى إلى ،
كقوله : «حتى مطلع قبوري» . وجعل الله الحبس نظيرا ليوسف من همّه بالمرأة . وكان
العزيز - وإن صرف راحة يوسف - أطلع المرأة في حين يوسف . قال ابن عباس : عثر
يوسف ثلاث عثرات : حين همّ بها فسجن ، وحين قال للفتى : «أذكرني عند ربك» فلبث
في السجن بضع سنين ، وحين قال لأخوته : «إنكم لتسارقون» فقالوا : «إن نسرقي فقد
سرق أخ لك من قبل» .

الرابعة - أكره يوسف عليه السلام على الفاحشة بالسجن ، وأقام محبة أعوام ،
وما رضى بذلك لعظيم منزلته وشريف قدره ، ولو أكره وجعل بالسجن على الزنى ما جاز له
إجماعا . فإن أكره بالضرب فقد اختلف فيه العلماء ، والصحيح أنه إذا كان فادحا فإنه
يسقط عنه إثم الزنى وحده . وقد قال بعض علمائنا : إنه لا يسقط عنه الحد ، وهو ضيف ،
فإن الله تعالى لا يجمع على عبده المذابين ، ولا يصرفه بين بلاءين ، فإنه من أعظم أخرج
في الدين «وما جعل عليكم في الدين من حرج» . وبإتيان بيان هذا في «النمل» إن شاء الله .
وصبر يوسف ، وأستعان به من الكيد ، فاستجاب له على ما تقدم .

(١) الزيادة من (روح البیان) وتفسير (شعر الراری) . (٢) راجع ج ١ ص ٢٢١ وما بعدهما

قوله تعالى : وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانٌ قَالَ لَاحِدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أُحْمَلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ
الطَّيْرُ مِنْهُ نَبْتَنَا يَتَّوِيلُهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا
طَعَامٌ تَرْزُقَانِهِ إِلَّا نَبَاتَكُمَا يَتَّوِيلُهُ قَبْلُ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكَمَا عَلَّمْنِي
رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ ﴿٦٦﴾
وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ
بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ
النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٧﴾

قوله تعالى : (وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانٌ) . فتيان = شفيه قتي ؛ وهو من ذوات البهائم
وقولهم : الْفَتَى شَاذٌ . قال وهب وغيره : حمل يوسف إلى السجن مقيدا على حمار ، ويطف
به . هذا جزء من بعضي سيده . وهو يقول : هذا أسير من مقطعات النيران ،
وسرايل الفطران ، وشرب الخمر ، وأكل الزقوم ؛ فلما انتهى يوسف إلى السجن وجد فيه
نوما قد أقطع رجاؤهم ، واشتد بلاؤهم ؛ فجعل يقول لهم : أصبروا وأبشروا تؤجروا ؛
فقالوا له : يا قتي ! ما أحسن حديثك ! لقد بورك لنا في جوارك ، من أنت يا قتي ؟ قال :
أنا يوسف ابن سفي الله يعقوب ، ابن ذبيح الله إسحق ، ابن خليل الله إبراهيم . وقال
ابن عباس : لما قالت المرأة زوجها إن هذا العبد العبراني قد فضحني ، وأنا أريد أن تسجنه ،
فسجنه في السجن ؛ فكان يمزى فيه الحزين ، ويسود فيه المريض ، ويلوى فيه الجريح ،
ويصل الليل كله ، ويبكي حتى تبيك معه جدران البيوت وسقفها والأبواب ، ويطهر به السجن ،
واسأله به أشمل السجن ؛ فكان إذا خرج الرجل من السجن رجع حتى يمس في السجن
(١) مقطعات البران : من عمل نحو قوله تعالى : « قطعت لهم ثياب من نار » أي غطت وسويت وجلت لباسا لهم .

مع يوسف، وأخيه صاحب السجن فوسع عليه فيه، ثم قال: يا يوسف ألقِ الدُّعَاءَ أَحَبُّكَ حَبَا
 لَمْ أَحِبَّ شَيْئًا حَبَكَ، فَقَالَ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ حَبِكَ، قَالَ: وَلَمْ ذَاكَ؟ فَقَالَ: أَحِبُّنِي أَيْ فَعَلْ
 بِي إِخْوَتِي مَا فَعَلُوهُ، وَأَحْبَبْتَنِي سِدْقِي قَتَلَ بِي مَاتَرِي، فَكَانَ فِي حَبِّهِ حَتَّى غَضِبَ الْمَلِكُ عَلَى
 خِزَانِهِ وَصَاحِبِ شِرَابِهِ، وَذَلِكَ أَنَّ الْمَلِكَ حُمِّرَ فِيهِمْ قُلُوبُهُ، فَدَسُّوا إِلَى خِزَانِهِ وَصَاحِبِ شِرَابِهِ
 أَنَّ يَسَاءَ جَمِيعًا، فَأَجَابَ الْخِزَانُ وَأَبَى صَاحِبَ الشَّرَابِ، فَانْطَلَقَ صَاحِبُ الشَّرَابِ فَأَخْبَرَ
 الْمَلِكَ بِذَلِكَ، فَأَمَرَ الْمَلِكُ بِحَبْسِهِمَا، فَاسْتَأْنَسَا بِيُوسُفَ، فَذَكَرَ قَوْلَهُ: «وَدَخَلَ مَعَهُ السَّجْنُ
 قَتِيلَانِ» وَقَدْ قِيلَ: إِنَّ الْخِزَانُ وَضَعَ السَّمَّ فِي الطَّعَامِ، فَلَمَّا حَضَرَ الطَّعَامُ قَالَ السَّاقُ: أَيُّهَا الْمَلِكُ!
 لَا نَأْكُلُ إِنْ الطَّعَامُ مَسْهُومٌ. وَقَالَ الْخِزَانُ: لَا تَشْرَبْ! فَإِنَّ الشَّرَابَ مَسْهُومٌ، فَقَالَ الْمَلِكُ
 لِلْسَّاقِ: أَشْرَبْ! فَشَرِبَ فَلَمْ يَضُرَّهُ، وَقَالَ الْخِزَانُ: كُلْ، فَأَبَى، فَغَزَبَ الطَّعَامُ عَلَى حَيَوَانِ
 فَتَفَقَّ مَكَانَهُ، فَحَبَسَهُمَا سِتَّةَ، وَبَقِيَ فِي السَّجْنِ تِلْكَ الْمُدَّةَ مَعَ يُوسُفَ. وَأَسَمَ السَّاقُ مِنْجَا،
 وَالْآخَرُ مَجْلَتْ، ذَكَرَهُ التَّعْلِيْقُ عَنْ كَعْبٍ. وَقَالَ النِّقَاشُ: اسْمُ أَحَدِهِمَا شَرْمٌ، وَالْآخَرُ
 مَرْمٌ، الْأَوَّلُ بِالْشَيْنِ الْمَعْجَمَةُ، وَالْآخَرُ بِالسَيْنِ الْمَهْمَلَةُ. وَقَالَ الطَّبْرِيُّ: الَّذِي رَأَى أَنَّهُ
 يَمُصُّ نَحْمًا هُوَ بَنُوهُ، قَالَ السَّهْلِيُّ: وَذَكَرَ اسْمَ الْآخَرِ وَلَمْ أَقْبِدْهُ. وَقَالَ «قَتِيلَانِ» لِأَنَّهُمَا كَانَا
 حَبِيدَيْنِ، وَالْبَسْدُ يُسَمَّى قَتًى، صَغِيرًا كَانَ أَوْ كَبِيرًا، ذَكَرَهُ الْمَاسُودِيُّ. وَقَالَ الْقُتَيْبِيُّ:
 وَلَمَّا لَمَسَ الْقَتَى كَانَ اسْمًا لِلْعَبْدِ فِي عَرَفِهِمْ، وَلِهَذَا قَالَ: «تَرَاوَدَّ قَتَاهَا عَنْ تَحْمِيهِ». وَيَحْتَمِلُ
 أَنْ يَكُونَ الْقَتَى اسْمًا لِلْحَادِمِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مَمْلُوكًا. وَيُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ حَبْسَهُمَا مَعَ حَبْسِ يُوسُفَ
 أَوْ بَعْدَهُ أَوْ قَبْلَهُ، فَبَدَّلْتُ دَخْلًا مَعَهُ الْبَيْتَ الَّذِي كَانَ فِيهِ. «قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَأَيْتُ أُغَصِّرُ
 نَخْرًا» أَيْ عِنَا، كَانَ يُوسُفُ قَالَ لِأَهْلِ السَّجْنِ: إِنِّي أَعْبَرُ الْأَحْلَامَ، فَقَالَ أَحَدُ الْفَتَيْنِ
 لِصَاحِبِهِ: تَمَالُ حَتَّى نَجْزِبَ هَذَا الْعَبْدَ الْبَرَّانِي، فَسَلَاةٌ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ رَأْيَا شَيْئًا، قَالَ
 أَبُو مَسْعُودٍ: وَحَكِيَ الْقُتَيْبِيُّ أَنَّهُمَا سَلَاةٌ عَنْ عَالِمِهِ فَقَالَ: إِنِّي أَعْبَرُ الرُّؤْيَا، فَسَلَاةٌ عَنْ
 رُؤْيَاهُمَا. قَالَ أَبُو عَبَّاسٍ وَجَاهِدٌ: كَانَتْ رُؤْيَا صَدَقَ رَأْيَاهَا وَسَلَاةٌ عَنْهَا، وَلِذَلِكَ صَدَقَ
 تَأْوِيلُهَا. وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَصْدَقَكُمْ رُؤْيَا أَصْدَقَكُمْ

حديثاً . . . وقيل : إنها كانت ورقاً ككتب صلاة فيها تحميد ، وهذا قول ابن مسعود
والسدي . . . وقيل : إن المصلوب منها كان كافياً ، والآخر صادقاً ، قاله أبو جحز . . . وروى
الترمذي عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من تحمّل كافياً كلّف يوم القيامة
أن يعقد بين شيعتين [ولن يعقد بينهما] » . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح .
ومن عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من كتب في حمله كلّف يوم القيامة صد شعبة » .
قال : حديث حسن . قال ابن عباس : لما رأوا رؤياهما أصبحا مكروبين ، فقال لما يوسف
مالي أراكا مكروبين ؟ قال : يا سيدنا ! إنا رأينا ما كرهنّا ، قال : فقصّ عليّ ، فقصّ عليه .
قالا : نبشّابتا ويل مارأينا ، وهذا يدلّ على أنها كانت ورقاً حتام . (إِنَّا نَزَّلْنَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ)
فأحسانه ما كان يعود المرضى ويدأبهم ، ويُبْرِئُ الْحَزَنَاءِ ، قال الضحاك : كان إذا مرض
الرجل من أهل السبع قام به ، وإذا ضاق وسّع له ، وإذا احتاج جمع له ، وسأل له .
وقيل : « من المحسنين » أي العالمين الذين أحسنوا العلم ، قاله الفراء . وقال ابن إسحق :
« من المحسنين » لنا إن قسّمته ، كما تقول : فعل كذا وأنت عمن . قال : فما رأينا ؟
قال الخياط : رأيت كأني اختبرت في ثلاثة تناير ، وجهك في ثلاث سلال ، فوضعت على رأسي ،
بفاه الطير فأكل منه . وقال الآخر : رأيت كأني أخذت ثلاثة عناقيد من جنب أبيض ،
فصعرتني في ثلاث أوان ، ثم صفيت فسقيت الملك كمداد في مضى ، فذلك قوله : « إِنِّي
أَرَأَيْتُ أُعْصِرُ تَمْرًا » أي عنبا ، بفتح عمان ، قاله الضحاك . وقرأ ابن مسعود : « إِنِّي أَرَأَيْتُ
أُعْصِرُ عَنَبًا » . وقال الأصمعي : أخبرني المعتمر بن سليمان أنه لقي أعرابيا ومعه عنب فقال
له : ما مأك ؟ قال : تمر . وقيل : معنى « أعصر تمرا » أي عنب تمر ، لجفاف المضاف .
ويقال : نخرة ونخرو ونخجور ، مثل نخرة ونخرو ونخور . « قال » لما يرهف : (لَا يَأْكُلُ كَيْفًا عَطَامٌ)

(١) الزيادة من صحيح الترمذى، كمال شامخ: لما ثبت نظري ظهر إلى أن الحق بما لم يرد من الكلام هذا
 وأظلم لم يشر به أى لم يجه، نقول لا أحد من شمرين ولا ينفذ ذلك أبداً، فقرة إضحية بين كلمات لم يكن بها
 هي: لتكون القوة من جنس الحصة ..

تَرْزُقَانِ) (بني لا يبيحكما هذا طعام من منزلنا) (إِلَّا يَأْتِيَكُمَا بِتَآوِيلِهِ) لتعلموا أي أطعم تاوليل
 رؤياكما ، فقالا : لفضل ! فقال لهما : يبيحكما كذا وكذا ، فكان كل ما قال ، وكان هذا من
 علم النبي خُصَّ به يوسف . وبين أن الله خَصَّ بهذا العلم . لأنه ترك ملة قوم لا يؤمنون بالله ،
 يعني دين الملك . ومعنى الكلام عندى : العلم بتأويل رؤياكما ، والعلم بما يأتيكما من طعامكما
 والعلم بدين الله ، فاسمعوا أولاً ما يتفق بالدين لتتهدوا ، ولهذا لم يصبر لهما حتى دعاهما
 إلى الإسلام ، فقال : « يَا صَاحِبَي الشَّجَرِ أَأَرَبَّابٌ مَتَفَرِّقُونَ سِيرَتِ اللَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ .
 مَا تَعْبُدُونَ » الآية كلها ، على ما يأتي . وقيل : علم أن أحدهما مقتول فدعاهما إلى الإسلام
 ليستعده به . وقيل : إن يوسف كره أن يصبر لهما ما سلاه لما علمه من المكروه على أحدهما
 فأعرض عن سؤالهما ، وأخذ في غيره فقال : « لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تَرْزُقَانِيهِ » في النوم « إِلَّا يَأْتِيَكُمَا »
 بتفسيره في البقرة ، قاله السدي ، فقال له : هذا من فعل الترافيز والكهنة ، فقال لهما
 يوسف عليه السلام : ما أنا بكاهن ، وإنما ذلك مما علمني ربى ، إني لا أخبركما به تنكها
 وتعبها ، بل هو يوحى من الله عز وجل . وقال ابن جرير : كان الملك إذا أراد قتل إنسان
 صنع له طعاما مرفوفا فإرسل به إليه ، فإلغى : لا يأتيكما طعام تَرْزُقَانِيهِ في البقرة ، فعل هذا
 « تَرْزُقَانِيهِ » أى يهرى عليكما من جهة الملك أو غيره . ويحصل يرزقكما الله . قال الحسن :
 كان يخبرهما بما غاب ، كيمسى عليه السلام . وقيل : إنما دعاهما بذلك إلى الإسلام ،
 وجعل المعجزة التي يستدلان بها لإخبارهما بالنبوة

فوله تعالى : (وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ) لأنهم أنبياء على الحق .
 (مَا كَانَ) أى ما يلينى . (لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِإِلَهِ مِنْ شَيْءٍ) « من » للتأكيد ، كقوله : ما جاءنى
 من أحد . وقوله تعالى : (ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا) إشارة إلى عصمته من الزنى .
 (وَعَلَى النَّاسِ) أى على المؤمنين الذين عصمهم الله من الشرك . وقيل : « ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ
 اللَّهِ عَلَيْنَا » إذ جعلنا أنبياء ، « وَعَلَى النَّاسِ » إذ جعلنا الرسل إليهم . (وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ
 لَا يَشْكُرُونَ) على نعمه بالتوحيد والإيمان .

قوله تعالى : **يَصْنَعِي السِّجْنَ** «أرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار» ﴿٣٩﴾ **مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ** **مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ** **ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ** ﴿٤٠﴾

قوله تعالى : **(يَصْنَعِي السِّجْنَ)** أى يماكنى السجن؛ وذكر الصيغة لطول مقامها فيه، كقولك : أصحاب الجنة، وأصحاب النار . **(أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ)** أى فى الصغر والكبر والمتوسط ، أو متفرقون فى العدد . **(خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ)** وقيل : الخطاب لها ولأهل السجن ، وكان بين أيديهم أصنام يبدونها من دون الله تعالى ، فقال ذلك إلزاما للحجة ؛ أى آلهة شتى لا تضر ولا تنفع «خير أم الله الواحد القهار» الذى قهر كل شئ . نظيره «الله خير مما يُشِيرُونَ» . وقيل : أشار بالترفع إلى أنه لو تمدد الإله لتفرقوا فى الإرادة ولعلا بعضهم على بعض ، وبين أنها إذا غزقت لم تكن آلهة .

قوله تعالى : **(مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ)** بين عجز الأصنام وضعفها فقال : «ما تعبدون من دونه» أى من دون الله إلا ذوات أسماء لا معانى لها . **(سَمَّيْتُمُوهَا)** من تلقاء أنفسكم . وقيل : عني بالأسماء المسميات ؛ أى ما تعبدون إلا أصناما ليس لها من الإلهية شئ ، إلا الاسم ؛ لأنها جمادات . وقال : «ما تعبدون» وقد ابتدا بخطاب الاثنين ؛ لأنه قصد جميع من هو على مثل حالهما من الشرك . **(إِلَّا أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ)** حذف المفعول الثانى للدلالة ؛ والمعنى : سميتموها آلهة من عند أنفسكم . **(مَا أَنْزَلَ اللَّهُ)** ذلك فى كتاب . قال سعيد بن جبير : **(مِنْ سُلْطَانٍ)** أى من حجة . **(إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ)** الذى هو خالق الكل . **(أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ)** . **(ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ)** . أى الصويم . **(وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)** .

قوله تعالى : **يَتَصَحَّجِي السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ نَعْرًا**
وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصَلِّبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ
تَسْتَفْتِيَانِ (١)

فيه ستان :

الأول - قوله تعالى : (**أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ نَعْرًا**) أى قال للساق : إنك تَرُدُّ
 على عملك الذى كنت عليه من سقى الملك بعد ثلاثة أيام ، وقال للآخر : وأما أنت فتُدعى
 إلى ثلاثة أيام فتصلب فتأكل الطير من رأسك ، قال : والله ما رأيت شيئا ، قال : رأيت
 أو لم تر (**قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ**) . رحى أهل اللغة أن سقى وأسقى لسان بمعنى
 واحد ، كما قال الشاعر (٢) :

سَقَى قَوْمِي نَبِيَّ جَمِيدٍ وَأَسْقَى • نُسَيْبًا وَالْقَبَائِلَ مِنْ هَلَالِ

قال النحاس : الذى عليه أكثر أهل اللغة أن معنى سقاء ناوله فشرب ، أو صب الماء فى حلقه ،
 ومعنى أسفاه جعل له سقيا ، قال الله تعالى : **وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فَرَاتًا** .

لثانية - قال صلواتنا : إن قيل من كذب فى رؤياه ففسرها الما بوله يلزمه حكما ؟
 قلنا : لا يلزمه ، وإنما كان ذلك فى يوسف لأنه نبي ، وتفسير النبي حكم ، وقد قال ،
 إنه يكون كذا وكذا فأوجد الله تعالى ما أخبر كما قال تحقيقا لنبؤته ، وإن قيل : فقد روى
 عبد الرزاق عن معمر بن قنادة قال : جاء رجل إلى عمر بن الخطاب فقال : إني رأيت كذا
 أعشيت ثم أجبت ثم أحشيت ثم أجبت ، فقال له عمر : أنت رجل تؤمن ثم تكفر ، ثم تؤمن
 ثم تكفر ، ثم تموت كافرا ، فقال الرجل : ما رأيت شيئا ، فقال له عمر : قد قُضِيَ لَكَ مَا نُبِئَ
 لصاحب يوسف ، قلنا : لو لم يأت أحد بعد عمر ، لأن عمر كان محدثا ، وإذا تكلم به وقع ،

(١) حريدة ، ومعج ، أيتيم بن غالب بن فهر ، وهو أم كلاب وكليب بن ربيعة . وعلق سق حراطل -

(٢) محدث : ملهم ، أو يلقى فى روجه النسي ، أو يجرى الصواب على لسانه من غير قصد . (القسطلان) .

هل ما ورد في أحباره ، وهي كثيرة ، منها - أنه دخل عليه رجل فقال له : أظنك كاهن
فكان كما ظن ، خرج به البخاري . وسها - أنه سأل رجلا عن اسمه فقال له أسماء فبها النار
كلها ، فقال له : أدرك أهلك فقد أحترقوا ، فكان كما قال ، خرج به الموطأ . وسأني لهذا مزيد
بيان في سورة «الحجر» إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا أذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ
فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿١٢﴾
فيه خمس مسائل :

الأولى - قوله تعالى : (وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ) «ظن» هنا بمعنى أيقن ، في قول أكثر المفسرين .
وفسره قتادة هل الظن الذي هو خلاف اليقين ، قال : إنما ظن يوسف نجاته لأن العابر بطن
ظنا وربك يخفى ما يشاء ، والأول أصح وأشبه بحال الأنبياء ، وإن ما قاله للفتين في تعبير الرؤيا
كان من وحى ، وإنما يكون ظنا في حكم الناس ، وأما في حق الأنبياء فإن حكمهم حق
كيفما وقع .

الثانية - قوله تعالى : (أذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ) أى سيدك ، وذلك معروف في اللغة :
أن يقال للسيد رب ، قال الأعشى :

رَبِّي كَرِيمٌ لَا يُكَدِّرُ نِعْمَةً • وَإِنَّا تُتَوِّشِدُ فِي الْمَهَارِقِ أَنْشَادًا

أى أذكركم ما رأيته ، وما أنا عليه من عبارة الرؤيا لللك ، وأخبره أنى مظلوم محبوس بلا ذنب .
وفي صحيح مسلم وفيه عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لَا يَقُلْ
أَحَدُكُمْ أَسْتَيْ وَبِكَ أَطْعَمَ رَبِّي وَضَعُ رَبِّي وَلَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ رَبِّي وَلِيَقُلْ مِثْلَ وَلَا يَقُلْ
أَحَدُكُمْ عَيْدِي أَنْتُمْ وَلِيَقُلْ قَتَايَ قَتَايَ ظَلَامِي " . وفي القرآن : « أذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ » « إلى

(١) في تفسير قوله تعالى : « إن في ذلك لآيات لِّمَن عَمِل » آية ٧٠ .

(٢) مرادى (رأى بالهاتق) بقوله : إذا فرشت بما في الكتب أجاب ، أى إذا سئل أعطى . والمهرق : الصمغة .

وَلَيْتَهُ هَلْهُ رُبِّي أَحْسَنَ مَتَوَاتٍ أَيْ صَاحِبِي ، بِعَنِي الْعَزِيزُ . وَيُقَالُ لِكُلِّ مَنْ قَامَ بِإِصْلَاحِ شَيْءٍ . وَإِسْمَاعِيلُ قَدْرِيَّةُ بَرِيَّةُ ، فَهُوَ رَبُّ لَه . قَالَ الْعُلَمَاءُ قَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ : "لَا يَقُولُ أَحَدُكُمْ" "وَلَيْتَ" مِنْ بَابِ الْإِرْشَادِ إِلَى إِطْلَاقِ اسْمِ الْأَوَّلَى ؛ لِأَنَّهُ إِطْلَاقُ ذَلِكَ الْاسْمِ عَزَمَ ، وَلَئِنْ قَدْ جَاءَ عَنْهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ "أَنَّ تَيَّ الْأُمَّةُ رَبَّهَا" أَيْ مَالِكُهَا وَسَيِّدُهَا ، وَهَذَا مُوَافِقٌ لِلْقُرْآنِ فِي إِطْلَاقِ ذَلِكَ اللَّفْظِ ، فَكَانَ عَمَلُ النَّبِيِّ فِي هَذَا الْبَابِ أَلَّا تَتَّخِذَ هَذِهِ الْأَسْمَاءُ عَادَةً فَتَرُكَ الْأَوَّلَى وَالْأَحْسَنَ . وَقَدْ قِيلَ : إِنَّهُ قَوْلُ الرَّجُلِ جَدِي وَأُمِّي يَجْمَعُ مَعْنَيْنِ : أَحَدُهُمَا - أَنَّ الْعَبوديةَ بِالْحَقِيقَةِ إِنَّمَا هِيَ قَدِ تَعَالَى ، فَكَيْ قَوْلُ الْوَاحِدِ مِنَ النَّاسِ لِمُلُوكِهِ عِبْدِي وَأُمِّي مُعْظَمٌ عَلَيْهِ ، وَإِضَافَةُ لَهُ لِي نَفْسِهِ بِمَا أَضَافَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ إِلَى نَفْسِهِ ، وَذَلِكَ غَيْرُ جَائِزٍ . وَالثَّانِي - لَأَنَّ الْمُلُوكَ يَدْخُلُهُ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ فِي اسْتِصْخَارِهِ بِتِلْكَ التَّسْمِيَةِ ، فَيُجْعَلُهُ ذَلِكَ عَلَى سَوَاءِ الطَّاعَةِ . وَقَالَ ابْنُ شُبَّانٍ فِي "الزَّاهِي" "لَا يَقُولُ السَّيِّدُ عِبْدِي وَأُمِّي وَلَا يَقُولُ الْمَلُوكُ رَبِّي وَلَا رَبِّي" وَهَذَا مُحْوَلٌ عَلَى مَا ذَكَرْنَاهُ . وَقِيلَ : إِنَّمَا قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "لَا يَقُولُ الْعَبْدُ رَبِّي وَلِيَقُولَ سَيِّدِي" لِأَنَّ الرَّبَّ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى الْمُسْتَعْمَلَةِ بِالْإِتِّفَاقِ ، وَأَخْتَلَفَ فِي السَّيِّدِ هَلْ هُوَ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى أَمْ لَا ؟ فَإِذَا قُلْنَا لَيْسَ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ فَالْفَرْقُ وَاضِحٌ ، إِذَا لَا التَّيَاسُّ وَلَا إِشْكَالٌ ، وَإِذَا قُلْنَا إِنَّهُ مِنْ أَسْمَاءِهِ فَلَيْسَ فِي الشُّبُهَةِ وَلَا الْاسْتِغْمَالِ كَلْفِظِ الرَّبِّ ، فَيُحْصَلُ الْفَرْقُ . وَقَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ : يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ جَائِزًا فِي شَرْحِ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ .

الثَّالِثَةُ - قَوْلُهُ تَعَالَى : (فَأَنسَأُ الشَّيْطَانَ ذِكْرَ رَبِّي) الضَّمِيرُ فِي «فَأَنسَأُ» فِيهِ . فَيُؤَلَّنُ أَحَدُهُمَا - أَنَّهُ حَانِدٌ إِلَى يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، أَيْ أَنَسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ اللَّهِ عَنْ وَجَلٍ ، وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا قَالَ يُوسُفَ لِسَاقِ الْمَلِكِ - حِينَ عَلِمَ أَنَّهُ سَيُجِوُّ وَيُؤَدُّ إِلَى حَالَتِهِ الْأَوَّلَى مَعَ الْمَلِكِ - «أَذْكُرُنِي عِنْدَ رَبِّكَ» نَسِيَ فِي ذَلِكَ الْوَقْتُ أَنْ يَشْكُو إِلَى اللَّهِ وَيُسْتَعِينُ بِهِ ، وَجَنَحَ إِلَى الْإِعْصَامِ بِخَلْقٍ ، فَوَقَّبَ بِالْأَيْتِ . قَالَ صَبْدُ الْعَزِيزِ بْنِ عُمَرَ الْيَكْنَدِيُّ : دَخَلَ جَبْرِيلُ عَلَى يُوسُفَ النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي الْمَجْنُونِ فَعَرَفَهُ يُوسُفَ ، فَقَالَ : يَا أَخَا الْمُنْذَرِينَ ! مَا أَوَّلُكَ يَنْبَغُ الْخَاطِئِينَ ؟ ! فَقَالَ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ : يَا طَاهِرُ الطَّاهِرِينَ ! يَغْرُوكَ

السلام رب العالمين و يقول ، أما استعيت إذ استغثت بالآدميين ؟ ! و مررتي إلى أهلك
في السجن بضع سنين ، فقال : يا جبريل ! أهو عني راضي ؟ قال : نعم ! قال : لا أبالي
الساعة . و روى أن جبريل عليه السلام جاءه فعاتبه عن الله تعالى في ذلك وطول محبة ،
وقال له : يا يوسف ! من خلّصك من القتل من أيدي إخوانك ؟ قال : الله تعالى ، قال :
من أنجرك من الحب ؟ قال : الله تعالى ، قال : من عصمك من الفاحشة ؟ قال :
الله تعالى ، قال : من صرف عنك كيد النساء ؟ قال : الله تعالى ، قال : فكيف وثقت
بخلوق و تركت ربك فلم تسأله ؟ ! قال : يا رب كلمة زلت مني ! سألت بالله إبراهيم وإسماعيل
والشيخ يعقوب عليهم السلام أنت ترحمني ، فقال له جبريل : فإن عفوتك أن تلبث
في السجن بضع سنين . و روى أبو سلمة عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه
وسلم : " رحم الله يوسف لولا الكلمة التي قال ما أذكرني عند ربك " ما لبث في السجن بضع
سنين " . وقال ابن عباس : عوقب يوسف بطول المحبس بضع سنين لما قال للذي نجا منهما
" أذكرني عند ربك " و لو ذكر يوسف ربه خلّصه . و روى إسماعيل بن إبراهيم عن يونس
عن الحسن قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لولا كلمة يوسف — يعني قوله
" أذكرني عند ربك " — ما لبث في السجن ما لبث " قال : ثم يبكي الحسن ويقول :
يحن ينزل بسا الأمر فنشكو إلى الناس . وقيل : إن الهاء تعود على الجاني ، فهو الناسي ؛
أي أنسى الشيطان السابق أن يذكر يوسف ربه ، أي لسببه ؛ وفيه حذف ، أي
إساءة الشيطان ذكره ربه ، وقد رجع بعض العلماء هذا القول فقال : لولا أن الشيطان أنسى
يوسف ذكر الله لما استحق العقاب باللبث في السجن ؛ إذ الناسي غير مؤاخذ . وأجاب أهل
القول الأول بأن النسيان قد يكون بمعنى الترك ، فلما ترك ذكر الله ودعاء الشيطان إلى ذلك
عوقب ؛ رد عليهم أهل القول الثاني بقوله تعالى : « وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَآذَرَ بَعْدَ أَمْنٍ »
فدل على أن الناسي السابق لا يوسف ؛ مع قوله تعالى : « إِنَّ حَيَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ »
فكيف يصح أن يضاف نسيانه إلى الشيطان ، وليس له على الأنبياء سلطنة ؟ ! قيل : أما

السيان فلا عصمة لأتباعه إلا في وجه واحد، وهو الخبر عن الله تعالى فيما يلقونه، فإنهم معصومون فيه؛ وإذا وقع منهم السيان حيث يجوز وقوعه فإنه ينسب إلى الشيطان إطلافاً، وذلك إنما يكون فيما أخبر الله عنهم، ولا يجوز لنا نحن ذلك فيهم؛ قال صلى الله عليه وسلم: "نسي آدم فلسيت ذريته". وقال: "إنما أنا بشر أنسى كما تنسون". وقد تقدم.

الرابعة - قوله تعالى: (قَالَتْ فِي السَّجْنِ يَضَعُ سِنَّ) (الوضع قطعة من الدهر مختلف فيها، قال بقوب عن ابن زيد: يقال بضع وبضع بفتح الباء وكسرهما، قال أكثرهم، ولا يقال بضع ومائة، وإنما هو إلى التسمين. وقال المروزي: العرب تستعمل البضع فيما بين الثلاث إلى التسع. والبضع والبضعة واحد، ومعناها القطعة من السدد. وحكى أبو عبيدة أنه قال: البضع مادون نصف العقدة، يريد ما بين الواحد إلى أربعة، وهذا ليس بشيء. وفي الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأبي بكر الصديق رضي الله عنه: "وكم البضع" فقال: ما بين الثلاث إلى السبع، فقال: "أذهب فرائد في الخطار"^(١). وعمل هذا أكثر المفسرين، أن البضع سبع، حكاه الثعلبي. قال المساوردي: وهو قول أبي بكر الصديق رضي الله عنه وقطرب. وقال مجاهد: من ثلاث إلى تسع، وقاله الأصمعي. ابن عباس: من ثلاث إلى عشرة. وحكى الزجاج أنه ما بين الثلاث إلى الخمس. قال الفسزاه: والبضع لا يؤد كإلا مع العشرة والعشرين إلى التسمين، ولا يؤد كبعد المائة. وفي المدة التي لبث فيها يوسف مسجوناً ثلاثة أقاويل: أحدها - سبع سنين، قاله ابن جرير وقادة وهوب بن منته، قال وهب: أقام أيوب في البلاء سبع سنين، وأقام يوسف في السجن سبع سنين. الثاني - اثنتا عشرة سنة، قاله ابن عباس. الثالث - أربع عشرة

(١) الخطر (بالضرب) : الزمن والمط. والحديث في شأن مراعاة أبي بكر رضي الله عنه لقريش على ظنة الروم، وكان المظنون يعجبون ظنة الروم على فارس، لأهم وزيادهم أهل كتاب، وكانت قريش لا تحب ذلك، لأنهم وادس ليسوا أهل كتاب ولا إيمان بيت، وقد جعل أبو بكر الأجل يمه وبنهم ست سنين على رواية، وثلاث سنين من أخرى، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: "أذهب فرائد في الخطر ومادد في الأجل" وكان ذلك قبل تحريم الزمان. راجع صحيح الترمذي في خبره قوله تعالى: «ألم علمت الروم...» الآية.

سنة، قاله الضحاك . وقال مقاتل من مجاهد عن ابن عباس قال : مكث يوسف في السجن تسعاً وبعشاً . وأشفاقه من بضت الشيء أى قطعته ، فهو قطعة من المعد ، فمقاب الله يوسف بأن حبس سبع سنين أو تسع سنين بعد الخمس التي مضت ، فالبضع مدة العقوبة لا مدة الحبس كله . قال وهب ابن منبه : حبس يوسف في السجن سبع سنين ، ومكث أيوب في البلاء سبع سنين ، وعُذِبَ يُخْتَصَرُ بالمسخ سبع سنين . وقال عبدالله بن راشد البصري عن سميد بن أبي عمرو : إن البضع ما بين الخمس إلى الاثنتي عشرة سنة .

الخلاصة - في هذه الآية دليل على جواز التعلق بالأسباب وإن كان اليقين حاصلًا ، فإن الأمور بيد مسببها ، ولكنه جعلها سلسلة ، ورُكِبَ بعضها على بعض ، فتحرى بها سنة ، والتعويل على المنتهى يقين . والذي يدل على جواز ذلك نسبة ما جرى من النسيان إلى الشيطان كما جرى لموسى في لقاء الخضر ، وهذا بين فأملوه .

قوله تعالى : وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعٌ سُذُبَاتٍ حُخْرٍ وَأُخْرٍ بِأَسْسٍ يَنَابُهَا أَلْمَلَأُ أَفْسُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبِرُونَ ﴿١٣﴾

قوله تعالى : (وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ) لما دنا فرج يوسف عليه السلام رأى الملك رؤياه ، فترق جبريل فسلم على يوسف وبشره بالفرج وقال : إن الله مخرجك من سجنك ، وتمكن لك في الأرض ، بذل لك ملوكها ، وبطبيخ جابرتها ، ومعطيك الكلمة العليا على اخوتك ، وذلك بسبب رؤيا رآها الملك ، وهي كيت وكيت ، وتأويلها كذا وكذا ، لما لبث في السجن أكثر مما رأى الملك الرؤيا حتى خرج ، فجعل الله الرؤيا أولاً ليوسف بلاء وشدة ، وجعلها آخراً بشري ورحمة ، وذلك أن الملك الأكبر الرئان بن الوليد رأى في نومه كأنما خرج من نهر يابس سبع بقرات سمان ، في أرض سبع عجاف - أى مهازيل - وقد أقيمت البعاف على اللسان فأخذن بأذانهن فاكلنهن ، إلا القرنين ، ورأى سبع سبلات حُخْرٍ قد أقبل

طعين سبع يابست فأكلن حتى أتيت طعين فلم يبق منهن شيء . ومن يابسات ، وكذلك البقر
كن عجافاً فلم يزد لهن شيء من أكلهن السبان ، فهاتك الرؤيا ، فأرسل إلى الناس وأهل العلم
منهم والبصر بالكهانة والنجامة والعرافة والسحر ، وأشرف قومه ، فقال : « يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَتَوْنِي
فِي رُؤْيَايَ » ففحص عليهم ، فقال القوم : « أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ » قال ابن جرير قال لي عطاه :
إن أضغاث الأحلام للكاذبة المختلة من الرؤيا . وقال جرير عن الضحاك عن ابن عباس
قال : إن الرؤيا منها حق ، ومنها أضغاث أحلام ، بنى بها الكاذبة . وقال المروزي : قوله
تعالى « أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ » أي اختلاط أحلام . والضغث في اللغة الحزمة من الشيء كالقليل
والكلا وما أشبههما ، أي قالوا : ليست رؤياك بيينة ، والأحلام الرؤيا المختلة . وقال مجاهد :
أضغاث الرؤيا أحلوها . وقال أبو حبيدة : الأضغاث مالا تأويل له من الرؤيا .

قوله تعالى : (« سَجَّ بَقَرَاتٍ سِمَانًا ») حذفت الهاء من « سبع » فراقين المذكر والمؤنث .
« سمان » من نعت البقرات ، ويموز في غير القرآن سَجَّ بَقَرَاتٍ سِمَانًا ، نعت للسبع ، وكذا
خُضْرًا ، قال الفراء : ومثله « سَجَّ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا » . وقد مضى في سورة « البقرة » اشتقاقها
ومعناها . وقال علي بن أبي طالب رضى الله عنه : المميز والبقر إذا دخلت المدينة فإن كانت
سماناً نهى سبى رضاء ، وإن كانت عجافاً كانت شداداً ، وإن كانت المدينة مدينة بمر وإبان
سفر قدمت سمن على عدها وحالها ، وإلا كانت فتناً مترادفة ، كأنها وجوه البقر ، كما في الخبر
« يشبه بعضها بعضاً » . وفي خبر آخر في الفتن « كأنها صياض البقر » يريد لتشابهها ، إلا أن
تكون حُمْراً كلها فإنها أمراض تدخل على الناس ، وإن كانت مختلفة الألوان ، شليمة القرون
وكان الناس يشفون منها ، أو كان النار والدخان يخرج من أفواهها فإنه عسكراً أو غارة ، أو عدو
يضرب عليهم ، ويترل بساحتهم . وقد نزل البقرة على الزوجة والخدام والفلذة والسنة كما يكون
فيها من الولد والفلذة والنبات . (« يَا أَكْلَهُنَّ سَجَّ سِجَافٍ ») من تجف تجفف ، على وزن عظم
يعظم ، وروى تجفف تجفف على وزن حمد يحمده .

(١) باجم ١٦ ص ٢١٦ طبة ذائبة أو ناقة . (٢) صياض البقر : غردتها .

قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا الْمَلَأَ الْأَعْيُنَ فِي رُؤْيَايَ) جمع الرؤيا رَوَى ، أى أخبرنى بحكم هذه الرؤيا . (إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ) العبارة مشتقة من عبور النهر، بمعنى عبرت النهر، بلغت شاطئه ، فاعبر الرؤيا بغير ما يؤول إليه أمرها . واللام في « للرؤيا » لتبيين ، أى إن كنتم تعبرون ، ثم بين فقال : للرؤيا ، فانه الزواج .

قوله تعالى : قَالُوا أَضْغَاتُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ

يَعْلَمِينَ ﴿٤٤﴾

فيه مستطان :

الأول - قوله تعالى : (أَضْغَاتُ) قال الفراء : ويجوز « أضغاث أحلام » قال النحاس : النصب جيد ، لأن المعنى : لم تر شيئا له تأويل ، إنما هي أضغاث أحلام ، أى أخطاط وواحد الأضغاث ضف ، يقال لكل مختلط من نخل أو حبش أو غيرها ضف ، قال الشاعر ، كيف ضف علم غر منه حاله .

قوله تعالى : (وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِأَلَمِينَ) قال الزجاج : المعنى بتأويل الأحلام المختلطة ، تفوا عن أنفسهم علم ما لا تأويل له ، لا أنهم تفوا عن أنفسهم علم التأويل . وقيل : معوا عن أنفسهم علم التفسير . والأضغاث على هذا الجماعات من الرؤيا التى منها صحيحة ومنها باطلة ، ولهذا قال الساقى : « أَنَا أَنْبِئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ » فلم أن القوم عجزوا عن التأويل ، لا أنهم أذعوا ألا تأويل لها . وقيل : أنهم لم يقصدوا تفسيراً ، وإنما أرادوا محوها من صدر الملك حتى لا تشغل باله ، وعلى هذا أيضاً فعندهم علم . و « الأحلام » جمع حلم ، والحلم بالض ما يراه النائم ، نقول منه حلم بالفتح وآحلم ، ونقول : حلمت بكنا وحلمتهم ، قال :

حَلَمْتُهَا وَبَنُو رَيْدَةَ دُونَهَا • لَا يَبْعَدَنَّ خَيْالُهَا الْمُحَلَمُ

وأصله الإثارة ، ومن الحلم ضد الطيش ، فقيل لما يرى في النوم حلم لأن النوم حالة أناة وسكون ودعة .

(١) ريدته ، أى من العرب ، يقال هم الريدات ، كما يقال لآلة مرة الميراث . الحان

القائمة - في الآية دليل على بطلان قول من يقول : إن الرؤيا على أول ما تتبرء ، لأن القوم قالوا : « انقضت أحلام » ولم تقع كذلك ، فإن يوسف فسرها على سبيل الجدب والخسب ، فكان كما جاء ، وفيها دليل على فساد أن الرؤيا على رجل طائر ، فإذا عبرت وقعت .

قوله تعالى **وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنْتِظَمُ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ** (١٠) **يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعُ عِجَافٍ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ** (١١)

قوله تعالى : **(وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا)** يعني ساقى الملك . « وادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ » أي بعد حين ، من ابن عباس وغيره ؛ ومنه « إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ » وأصله الجملة من الحين . وقال ابن درستويه : والأمة لا تكون الحين إلا على حذف مضاف ، وإقامة المضاف إليه مقامه ، كأنه قال - والله أعلم - : وادَّكَرَ بعد حين أُمَّةٍ ، أو بعد زمن أُمَّةٍ ، وما أشبه ذلك ؛ والأمة الجماعة الكثيرة من الناس . قال الأخفش : هو في اللفظ واحد ، وفي المعنى جمع ، وكل جنس من الحيوان أُمَّةٌ ، وفي الحديث : « لولا أن الكلاب أُمَّة من الأنعم لأمرت بقتلها » .

قوله تعالى : **(وَادَّكَرَ)** أي تذكر حاجة يوسف ، وهو قوله : « أَذْكُرُنِي عِنْدَ رَبِّكَ » . وقرا ابن عباس - فيما روى عفاً عن همام عن قتادة عن مكرمة : « وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ » . النحاس : والمعروف من قراءة ابن عباس وعكرمة والضحاك « وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ » ، بفتح المعزة وتخفيف الميم ؛ أي بعد نسيان ؛ قال الشاعر :

أَيْهَتُ وَكُنْتُ لَا أُنْسِي حَدِيثًا • كَنَالَكِ الدَّهْمُ يَوْدِي بِالْعُقُولِ

وعن شبيل بن حنيرة الضبي « بعد أُمَّةٍ » بفتح الألف وإسكان الميم وهاء خالصة ؛ وهو مثل الأُمَّة ، وهما لغتان ، ومعناها النسيان ؛ ويُقال : أُمَّةٌ يَأْمُهُ أَمَّا إِذَا نَسِيَ ؛ فعل هذا

(١) هو عبد الله بن جعفر بن درستويه (بضم الدال والراء) وضبطه ابن ماكولا (بفتحهما) .

« وَادَّكَرَ بَعْدَ أَمْرِهُ » ؛ ذكره الناس ؛ ورجل أمره ذاهب العقل . قال الجوهري : وأما ما في حديث الزهري « إيمه » بمعنى أقر وأعترف فهي لغة غير مشهورة . وقرأ الأزهبي العقلي - « بَعْدَ أَمْرِهِ » أي بعد نعمة ؛ أي بعد أن أنعم الله عليه بالنجاة . ثم قيل : نسي التي يوسف لقضاء الله تعالى في بقاءه في السجن مدة . وقيل : ما نسي ، ولكنه خاف أن يذكر الملك الذنب الذي بسببه حبس هو والنجار ؛ فقلوه : « وادكر » أي ذكر وأخبر . قال الناس : أصل اذكر اذكر ؛ والذال فريضة المخرج من التاء ؛ ولم يميز إدغامها فيها لأن الذال مجهورة ؛ والتاء مهموسة ؛ فلو ادغموا ذهب ألبس ، فأبدلوا من موضع التاء حرفا مجهورا وهو الدال ؛ وكان أولى من الطاء لأن الطاء مطبقة ؛ فصار اذكر اذكر ، فادغموا الذال في الدال لراحة الدال ولينها ؛ ثم قال : « أَنَا أَنبَأُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ » أي أنا أخبركم . وقرأ الحسن « أَنَا أَنبَأُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ » وقال : كيف ينشئهم البليغ ؟ ! قال الناس : ومعنى « أنبئكم » صحيح حسن ؛ أي أنا أخبركم إذا سألت . « فَأَرْيَاكُمُ » خاطب الملك ولكن بلفظ التعظيم ، أو خاطب الملك وأهل مجلسه . « يُوسُفَ » نداء مفرد ، وكذا « الصديق » أي الكثير الصدق . « أَقْبَيْنَا » أي فأسلوه . بقاء إلى يوسف فقال : أيها الصديق ! وسأله من رؤيا الملك . « لَمَّا أَتَيْتُ إِلَى النَّاسِ » أي إلى الملك وأصحابه . « لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ » التعبير ، أو « لعلهم يعلمون » مكانك من الفضل والعلم فتخرج . ويحتمل أن يريد بالناس الملك وحده تعظيما له .

قوله تعالى : قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا مَّا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلَةٍ إِلَّا قَلِيلًا مَّا تَأْكُلُونَ ﴿١٧﴾

فيه مستثنات

الاولى - قوله تعالى : (قَالَ تَزْرَعُونَ) لما أعلمه بالرؤيا جعل يفسرها له ، فقال : السبع من البزات البهتان والسبلات الخضر سبع سنين غصبات ؛ وأما البزات البهتان

(١) البليغ ، الفكر ، وهم

والسبلات - اليابسات فسج سنين مجديات ، فذلك قوله : (تَرْعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأْبًا) أى ، متوالية متتابعة ، وهو مصدر على غير المصدر ، لأن معنى « ترعون » تدأبون كما تدرك فى الزراعة سبع سنين . وقيل : هو حال فى أى دائتين . وقيل : صفة لسبع سنين ، أى دائية . وحكى أبو حاتم عن يعقوب « دَأْبًا » بتحريك الهززة ، وكذا روى حفص عن ماص ، وهما لغتان ، وفيه قولان قول أبو حاتم : إنه من دَيْب . قال النحاس : ولا يعرف أهل اللغة إلا تَأْب . والقول الآخر - إنه حُرِّكَ لأن فيه حرفا من « روف الحلق » قاله الفراء ، قال ، وكذلك كل حرف نُفِخَ أوله وسكن ثانيه فتفخيله جائز إذا كان ثانيه هززة ، أو هاء ، أو عينا ، أو غينا ، أو خاء ، أو ضاء ، وأصله العادة ، قال (١) :

« تَدَأْبُكَ مِنْ أُمِّ الْحَوَارِثِ قَبْلَهَا » .

وقد مضى فى « آل عمران » القول فيه . (قَدْ حَصَدْتُمْ قَدْرَهُ فِي سَنِيهِ) قيل : لتلايسوس ، وليكون أبى ، ومكانا الأمر فى ديار مصر . (إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ) أى استخرجوا ما تحتاجون إليه بقدر الحاجة ، وهذا القول منه أم - والأول خبر . ويحتمل أن يكون الأول أيضا أمراء ، وإن كان الأطهر منه الخبر ، فيكون المعنى : « ترعون » أى أزرعوا .

• الثانية - هذه الآية أصل فى القول بالمصالح الشرعية التى هى حفظ الأديان والنفس والمقولات والأنساب والأموال ، فكل ما تضمن تحصيل شيء من هذه الأمور فهو مصلحة ، وكل ما يَفُوتُ شيئا منها فهو مفسدة ، ودفعه مصلحة ، ولا خلاف أن مقصود الشرائع إرشاد الناس إلى مصالحهم الدنيوية ، ليحصل لهم التمكن من معرفة الله تعالى وعبادته الموصلة إلى السعادة الآخروية ، وصراعاة ذلك فضل من الله عز وجل ورحمة رحم بها عباده ، من غير وجوب عليه ، ولا استحقاق ، لهذا مذهب كافة المحققين من أهل السنة أجمعين ، وبسطه فى أصول الفقه .

(١) اللتان « دَأْبًا » بفتح الهززة و « دَأْبًا » بفتح الدال وهى قراءة الجمهور من البتة كما فى تفسير ابن عطية .

(٢) هو كسر الدال ، وقام البيت : • وجارتها أم الرباب بـجـاسـل •

(٣) ما جمع • • • • • وما ينسأ طبة أبلد أو ثابة •

قوله تعالى : ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعَ شِدَادٍ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ
إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْصِنُونَ ﴿١٥﴾

فيه مستطاف :

الأولى - قوله تعالى : (سَبْعَ شِدَادٍ) بنى السنين العديبات . (يَأْكُلْنَ) مجاز ،
والمعنى يأكل أهلهم . (مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ) أى ما اذخرتم لأجلهن ، ونحو قول القائل
نهارك يا مغرور سهو وغفلة . وَلَيْكَ نَوْمٌ وَالرَّدَى لَكَ لَازِمٌ

والنهار لا يسيو ، والليل لا ينام ، وإنما يسهى فى النهار ، ويثام فى الليل . وحكى زيد
ابن أسلم عن أبيه : أن يوسف كان يضع طعام الاثنين فيقربه إلى رجل واحد فيأكل
بعضه ، حتى إذا كان يوم قربه له فأكله كله ، فقال يوسف : هذا أول يوم من السبع
الشداد . (إِلَّا قَلِيلًا) نصب على الاستثناء . (مِمَّا تَحْصِنُونَ) أى مما تحبسون لترعوا ،
لأن فى استنباط البذر تحصين الأفوات . وقال أبو عبيدة : تحززون . وقال قتادة :
" تحصنون " تذكرون ، والمعنى واحد ، وهو يدل على جواز احتكار الطعام إلى وقت
الطجاجة .

الثانية - هذه الآية أصل فى حجة رؤيا الكافر ، وأنها تخرج على حسب ما رأى ،
لأسيا إذا تملت بمؤمن ، فكيف إذا كانت آية لنبي ، ومعجزة لرسول ، ونصديقاً لمصطفى
التبليغ ، وحجة للواسطة بين الله - جل جلاله - وعباده .

قوله تعالى : ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ ظَامٌّ فِيهِ يُفَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ
يُعَصِّرُونَ ﴿١٦﴾

قوله تعالى : (ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ ظَامٌّ) هذا خبر من يوسف عليه السلام مما لم يكن
فى رؤيا الملك ، ولكنه من علم النبي الذى آواه الله . قال قتادة : فانه الله يعلم سعة لم يسأله

هنا إظهارا لفضله ، وإعلاما لمكانه من العلم ومعرفته . (فِيهِ بُقَاتُ النَّاسِ) من الإغاة
أو الفوت ، عَوَتْ الرجل قال واغواته ، والأسم القَوْتُ والقَوَا . تَوَاتٌ واستغاثي فلان
فأعنت ، والأسم اليقات ؛ صارت الواو باء لكسرة ما قبلها . والنيث المطر؛ وقد غاث النيث
الأرض أى أصابها ؛ وغاث الله البلادَ يَبِثُّها غَيْثًا ، وغيثت الأرضُ غُثًا غَيْثًا ، فهي أرض
غَيْثِيَّةٌ ومُغَيِّثَةٌ ؛ ولغنى « بقات الناس » يُمَطِّرون . (وَفِيهِ يَمِصُّونَ) قال ابن عباس : يمصرون
الأحاب والذهب ؛ ذكره البخارى . وروى حجاج عن ابن جريح قال : يمصرون العنب نمرا
والسَّمُ دُهْنًا ، والزيتون زَيْتًا . وقيل : أراد حلب الألبان لكثرتها ، ويدل ذلك على كثرة
النبات . وقيل : « يمصرون » أى يَبْثُون ؛ وهو من المَصْرَةِ ، وهي المتجاة . قال أبو حنيفة :
والعصر بالتحريك المَلْجَا والمتجاة ، وكذلك المَصْرَةُ ؛ قال أبو زيد :

صَادِبًا يَسْتَبِثُ غَيْرَ مَنَاقِبَ . وَلَقَدْ كَانَ عَصْرَةَ الْمُنَجَّودِ

والمُنَجَّودُ الْفَرِيعُ . واعتصرتُ فلان وتَصَرَّتْ أى التجأت إليه . قال أبو الفوت : « يَمِصُّونَ »
يَسْتَنْقِلُونَ ، وهو من عصر العنب . واعتصرت ماله أى استخرجته من يده . وقرأ جيسى
« يَمِصُّونَ » بضم التاء وفتح الصاد ، ومعناه : يُمَطِّرون ، من قوله : « وَأَتَرَلْنَا مِنَ الْمُمِصَّاتِ
مَاءَ تَجَابَا » وكذلك معنى « يَمِصُّونَ » بضم التاء وكسر الصاد ، فيمن قرأه كذلك .

قوله نسي : وَقَالَ أَمْلِكْ أُنْتَوَى بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرُّسُولُ قَالَ أَرْجِعْ
إِلَى رَبِّكَ فَسَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ الَّتِي قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْفَاتٍ
عَلِيمٌ ۝ قَالَ مَا خَطْبُكُمْ إِذْ رَاودْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ
لِلَّهِ مَا عَلَيْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْفَزَيْرِ الْأَنْثَى حَضَّحَصَ الْحَقُّ
أَنَا رَاودُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ۝

(١) قاله في رواية ، ابنه أمته وكان مات حيا في طريق مكة .

قوله تعالى : (وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْتِيهِ بِهِ) أى فذهب الرسول فأخبر الملك ، فقال : آتوني به . (فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ) أى يأمره بالخروج قال : (أَرْجِعْ إِلَى رَبِّكَ قَائِلًا مَا بَالَ النِّسْوَةِ) أى حال النسوة . (اللَّاتِي قَطَعْنَ آيَاتِي) فإني أن يخرج إلا أن تصح راءته لك مما قُذِفَ به ، وأنه جهس بلا جرم . روى الترمذى عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم [ابن الكريم ^(١)] يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم — قال — ولو لبثت في السجن ما لبثت ثم جاءني الرسول أجبت — ثم قرأ — « فلما جاءه الرسول قال ارجع إلى ربك فأسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن » — قال — ورحمة الله على لوط لقد كان يأوى إلى ركن شديد [إذ قال « لو أن لي بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد ^(٢)] فلما بعث الله من بعده نبيا إلا في ذروة من قومه " . وروى البخارى عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يرحم الله لوطا لقد كان يأوى إلى ركن شديد ولو لبثت في السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعى ونحن أحق من إبراهيم إذ قال له « أؤلم تؤمن قال بلى ولكن ليطمنن قلبي » " وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " يرحم الله أحمى يوسف لقد كان صابرا حلما ولو لبثت في السجن ما لبثت أجبت الداعى ولم أقمس المُنذر " . وروى نحوه هذا الحديث من حديث عبد الرحمن بن القاسم صاحب مالك ، في كتاب التفسير من صحيح البخارى ، وليس لأبن القاسم في الديوان غيره . وفي رواية الطبرى " يرحم الله يوسف لو كنت أنا المهبوس ثم أرسل إلى فخرجت مريضا أن كان لجليا فا إناة " . وقال صلى الله عليه وسلم : " لقد عجبت من يوسف وصبره وكرمه والله ينفرله حين سئل عن البقرات لو كنت مكانه لما أخبرتهم حتى أشتط أن يخرجوني ولقد عجبت منه حين أتاه الرسول ولو كنت مكانه لبادتهم الباب ^(٣) . قال ابن عطية : كان هذا الفعل من يوسف عليه السلام إناة وصبرا ، وطلب لبراة الساحة ، وذلك أنه — فيما روى — خشي أن يخرج ويثال من الملك

(١) الزيادة من صحيح الترمذى .

(٢) الزيادة من صحيح الترمذى

(٣) الحديث في نسخ الطبرى يختلف في القصة صاها

مرتبة ويسكت عن أمر ذنبه صفحا فبراه الناس بتلك العين أبدا ويقولون : هذا الذي راود
 امرأة مولاة ، فأراد يوسف عليه السلام أن يبين برأيه ، ويحقق مقلته من العفة والخير ،
 وحيلته يخرج للأحظاء والمثلة ؛ فلهمنا قال الرسول : أرجع إلى ربك وقل له ما بال النسوة ،
 ولعمري يوسف عليه السلام إنما كان : وقل له يستقصي عن ذنبه ، وينظر في أمره هل
 سمحت بحق أو ظلم ، ونكّب عن امرأة العزيز حسن عشرة ، ورعاية لزمام الملك العزيز له .
 فإن قيل : كيف مدح النبي صلى الله عليه وسلم يوسف بالصبر والأمانة وترك المبالغة إلى الخروج ،
 ثم هو يذهب بنفسه عن حالة قد مدح بها غيره ؟ فالوجه في ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم
 إنما أخذ لنفسه وجهاً آخر من الرأي ، له جهة أيضا من الجودة ، يقول : لو كنت أنا لبادرت
 بالخروج ، ثم حاولت بيانه مفرى بعد ذلك ، وذلك أن هذه القصص والنوازل هي معترضة
 لأن يقتدى الناس بها إلى يوم القيامة ، فأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم حل الناس على
 الأخزم من الأمور ، وذلك أن ترك الخزم في مثل هذه النازلة ، التارك فرصة الخروج من مثل
 ذلك السجن ، وربما نتج له البقاء في سجنه ، وانصرفت نفس مخرجه عنه ، وإن كان يوسف
 عليه السلام آمن من ذلك بعلمه من الله ، فغيره من الناس لا يأمّن ذلك ، فالحالة التي ذهب
 النبي صلى الله عليه وسلم بنفسه إليها حالة حزم ، وما فعله يوسف عليه السلام صبر عظيم وجلد .

قوله تعالى : (فَأَسْأَلُ مَا بَالَ النَّسْوَةِ) ذكر النساء جملة ليخبر فيهنّ امرأة العزيز منخل
 المعموم بالتلويح حتى لا يقع عليها تصريح ، وذلك حسن عشرة وأدب ، وفي الكلام محذوف .
 أي فأسأله أن يتعرف ما بال النسوة . قال ابن عباس : فأرسل الملك إلى النسوة وإلى امرأة
 العزيز - وكان قد مات العزيز - فندما من قرا (قَالَ مَا خَطْبُكِ) أي ما شأنك ؟ (إِذْ تَلَقَّيْنِ
 يُوسُفَ عَنْ قَبَائِهِ) وذلك أن كل واحدة منهنّ كتبت يوسف في حق نفسها ، على ما علمه
 أو أراد قول كل واحدة قد ظلمت امرأة العزيز ، فكان ذلك مرادة منهنّ . (لَكُنْ حَافِظَةً
 لِّنَفْسِكَ) أي ماذ الله . (مَا عَلِمْتُ عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ) أي زنى . (قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْاِنْ خُصِمْتُ
 لِمَثَلٍ) لمساوات أقوام من جماعة يوسف ، وبنات ابن يشهد عليها أن تكونت لغير

هي أيضا؛ وكان ذلك لطفًا من الله بيوسف . و « حَصَّصَ الْحَقُّ » أي تَبَيَّنَ وظهر؛
وأصله حَصَصَ ، ففعل : حَصَّصَ ؛ كما قال : كَبِكُوا فِي كَبِوَا ، وكَفَكَفَ فِي كَفَفَ ،
قاله الزجاج وغيره . وأصل الحَصَّصَ استعْمال الشيء ؛ يقال : حَصَّ شَعْرَهُ إِذَا اسْتَأْصَلَهُ جَزَأً ؛
قال أبو قيس بن الأسَدِ :

قَدْ حَصَّتِ الْبَيْضَةُ رَأْسِي قَسَا • أَطْعَمْتُ نَوْمًا غَيْرَ تَهْجِجٍ^(١)

وَسَنَةُ حَصَّاهُ أَي جَرَّاهُ لَا خَيْرَ فِيهَا ، قَالَ بَرِّيرُ :

يَأْوِي إِلَيْكَ بَلَاءٌ مِّنْ وَلَا تَجِدُ • مِنْ سَائِفَةِ السَّنَةِ الْحَصَّاءِ وَالذَّيْبِ

كَأَنَّهُ أَرَادَ أَنْ يَقُولَ : وَالضَّبْعُ ، وَهِيَ السَّنَةُ الْمُجْدِبَةُ ؛ فَوَضَعَ الذَّنْبَ مَوْضِعَهُ لِأَجْلِ الْقَائِيَةِ ؛
فَعَنَى « حَصَّصَ الْحَقُّ » أَي أَفْطَحَ عَنِ الْبَاطِلِ بظهوره وثباته ؛ قَالَ :

أَلَّا مَن مَّيْلُغٌ عَنِّي خِدَاشًا فَإِنَّهُ • كَذُوبٌ إِذَا مَا حَصَّصَ الْحَقُّ ظَالِمٌ

وقيل : هُوَ مُشْتَقٌّ مِنَ الْحِصَّةِ ؛ فَاَلْعَنَى : بَانَتِ حِصَّةُ الْحَقِّ مِنْ حِصَّةِ الْبَاطِلِ . وَقَالَ بِجَاهِدٍ
وَقَتَادَةَ : وَأَصْلُهُ مَاخُذٌ مِنْ فَوَلَمَ : حَصَّ شَعْرَهُ إِذَا اسْتَأْصَلَ قَطْعَهُ ؛ وَمِنَ الْحِصَّةِ مِنَ الْأَرْضِ
إِذَا قُطِعَتْ مِنْهَا . وَالْحِصْيُ حَصٌّ بِالْكَسْرِ الْغَرَابُ وَالْمَجَارَةُ ؛ ذَكَرَهُ الْجَوْهَرِيُّ . (أَنَا رَأَوْدَتُهُ عَنْ
نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَيَنَّ الصَّادِقِينَ ؛ وَهَذَا الْقَوْلُ مِنْهَا - وَإِنْ لَمْ يَكُنْ سَالٍ عَنْهُ - إِنْظَاهَرُ ثَوْبَيْهَا وَتَحْقِيقُ
لِصَدَقِ يَوْسُفَ وَكَرَامَتِهِ ؛ لِأَنَّهُ إِفْرَارُ الْمُفَرِّجِ عَلَى نَفْسِهِ أَقْوَى مِنَ الشَّهَادَةِ عَلَيْهِ ؛ فَجَمَعَ اللَّهُ تَعَالَى
لِيُيَسِّرَ لِإِظْهَارِ صِدْقِهِ الشَّهَادَةَ وَالْإِفْرَارَ ؛ حَتَّى لَا يَخَافَ نَفْسًا ظَنَ ، وَلَا يَخَالُهَا شَكٌّ .
وَشَدَّدَتْ التَّوْبَةَ فِي « خَطْبُكُنَّ » وَ « رَأَوْدَتُنَّ » لِأَنَّهُمَا بِمَقَرَّةِ الْمِيمِ وَالْوَاوِ فِي الْمَذْكُورِ .

قوله تعالى : ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي
كَيْدَ الْخَائِبِينَ ﴿٥٦﴾ وَمَا أَبْرَأُ نَفْسِي إِنِّي النَّفْسُ لَا مَأْرَةَ بِالسُّوءِ
إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥٧﴾

قوله تعالى : (ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ) اختلف فيمن قاله ، فقيل : هو من قول امرأة العزيز ، وهو متصل بقولها : « الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ » أى اقررت بالصدق ليعلم أنى لم أخنه بالكذب عليه ، ولم أذكره بسوء وهو غائب ، بل صدقت وحدت من انليانة ، ثم قالت : « وَمَا أَرَى نَفْسِي » بل أنا راودته ، وعلى هذا هى كانت مقبولة بالصام ، ولهذا قالت : « إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ » . وقيل : هو من قول يوسف ، أى قال يوسف ذلك الأمر الذى فعلته ، من رد الرسول « لِيَعْلَمَ » العزيز « أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ » قاله الحسن وقتادة وغيرهما . ومعنى « بالغيب » وهو طائب . وإعما قال يوسف ذلك بحضرة الملك ، وقال : « ليعلم » على العاتب توفيرا لذلك . وقيل : قاله إذ عاد إليه الرسول وهو فى السجن يده ، قال ابن عباس : جاء الرسول إلى يوسف عليه السلام بالخبر وجبريل معه يحدثه ، فقال يوسف : « ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ » أى لم أخن سيدى بالغيب ، فقال جبريل عليه السلام : يا يوسف ! ولا حين حلت الإزار ، وجلست مجلس الرجل من المرأة ؟ ! فقال يوسف : « وَمَا أَرَى نَفْسِي » الآية . وقال السدي : إنما قالت له امرأة العزيز ولا حين حلت سراويلك يا يوسف ؟ ! فقال يوسف : « وَمَا أَرَى نَفْسِي » . وقيل : « ذَلِكَ لِيَعْلَمَ » من قول العزيز ، أى ذلك ليعلم يوسف أنى لم أخنه بالغيب ، وأنى لم اغفل من مجازاته على أمانته . (وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ) معناه : أن الله لا يهدي الخائنين بكبهم

قوله تعالى : (وَمَا أَرَى نَفْسِي) قيل : هو من قول المرأة . وقال القشيري : فالظاهر أن قوله « ذَلِكَ لِيَعْلَمَ » وقوله : « وَمَا أَرَى نَفْسِي » من قول يوسف .

قلت : إذا احتمل أن يكون من قول المرأة فالقول به أولى حتى يرمى يوسف من حل الإزار بالسراويل ، وإذا قدرناه من قول يوسف فيكون مما خطر بقلبه ، على ما قدمناه من القول المختار فى قوله : « وَمَعَهَا » . قال أبو بكر الأنباري : من الناس من يقول : « ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ » إلى قوله : « إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ » من كلام امرأة العزيز ،

لأنه متصل بقوله : « أَنَا رَأَوْنَهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُنَادِقِينَ » وهذا مذهب الذين ينفون
 العلم عن يوسف عليه السلام ، فمن جنى على قولهم قال : من قوله « قَالَتْ أَمْرَأَةُ الْعَزِيزِ » إلى
 قوله : « إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ » كلام متصل ببعضه ببعض ، ولا يكون ليه وقف تام على
 حقيقة ، ولستأ نختار هذا القول ولا نذهب إليه . وقال الحسن : لما قال يوسف « ذَلِكَ لَيْلَتَمْ
 أَنَّى لَمْ أَخُنْهُ وَالْقَبِيلَ » كره نبي الله أن يكون قد زنى نفسه فقال : « وَمَا أُبْرئُ نَفْسِي » وتركبة
 النفس مذمومة ، قال الله تعالى : « فَلَا تَرْكَبُوا أُنفُسَكُمْ » وقد بيناه في « النساء » . وقيل :
 هو من قول العزيز : « أَيُّ مَا أُبْرئُ نَفْسِي مِنْ سَوْءِ الظَّنِّ بِيُوسُفَ » (إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ)
 أى مشتبهة له . (إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي) في موضع نصب بالاستثناء ، و « مَا » بمعنى مَنْ ،
 أى إلا مَنْ رحم ربى فمقصده ، و « مَا » بمعنى مَنْ كثير ، قال الله تعالى : « فَأَتَيْنَهُمَا مَا لَآبَا
 لَكُم مِّنَ النَّسَاءِ » وهو استثناء مقطوع ، لأنه استثناء المرحوم بالمعصية من النفس الأمارة
 بالسوء ، وفي الخبر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « مَا تَعْمَلُونَ فِي صَاحِبِ لَكُمْ إِنْ
 أَتَمَّ أَكْرَمْتُمُوهُ وَأَطَعْتُمُوهُ وَكَسَبْتُمُوهُ أَفْضَى بِكُمْ إِلَى شَرِّ غَايَةٍ وَإِنْ أَهْتُمُوهُ وَأَعْرَبْتُمُوهُ وَاجْتَمَعُوا
 أَفْضَى بِكُمْ إِلَى خَيْرِ غَايَةٍ » قالوا : يا رسول الله ! هذا شر صاحب في الأرض . قال :
 « فوالذي نفسي بيده إنها لفوسكم التي بين جنوبيكم » .

قوله تعالى : وَقَالَ أَمْلِكُ آتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ
 قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥١﴾

قوله تعالى : (وَقَالَ أَمْلِكُ آتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي) لما ثبت لك برأيه مما نسب
 إليه ، وتحقيق في القصة أمانته ، وفهم أيضا صبره وجأده عظمت منزلته عنده ، وتيقن حسن
 جلاله قال : « آتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي » فانظر إلى قول الملك أولا - حين تحقق عنده -
 « آتُونِي بِهِ » فقط ، فلما فعل يوسف ما فعل ثانيا قال : « آتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي »
 روى عن وهب بن منبه قال : لما دعى يوسف وقف بالباب . روى عن ربي من حبه ،

فَرَجَلَهُ، وَجَلَّ ثَوْبَهُ وَلَا إِلَهَ فِيهِ؛ ثُمَّ دَخَلَ فَلَمَّا نَظَرَ إِلَى الْمَلِكِ نَزَلَ عَنْ سَرِيرِهِ فَخَرَّ لَهُ سَاجِدًا،
 ثُمَّ انْعَمَدَ لِلْمَلِكِ مَعَهُ عَلَى سَرِيرِهِ فَقَالَ - (إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدِينَا بِمِكَائِيلَ أُيُنُّ) - (قَالَ) لَهُ يَوْسُفُ:
 (أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ مُحْتَصِنٌ) فَخَزَانُ (عَلِيمٌ) بِوُجُوهِ تَعْرِفَاتِهَا . وَقِيلَ : حَافِظُ
 لِحَسَابِ، عَلِيمٌ بِالْأَكْسَنِ . وَفِي الْخَبَرِ : "بَرِحَ اللَّهُ أَنْبَى يَوْسُفَ لَوْ لَمْ يَقُلْ أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ
 لَا تَسْتَعْمَلُهُ مِنْ سَاعَتِهِ وَلَكِنْ أَتْرُكَكَ سَنَةً" . وَقِيلَ : إِنَّمَا تَأْتِرُ تَعْلِيكَ إِلَى سَنَةٍ لِأَنَّهُ لَمْ يَقُلْ
 إِنْ شَاءَ اللَّهُ . وَقَدْ قِيلَ فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ : إِنْ يَوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا دَخَلَ عَلَى الْمَلِكِ قَالَ :
 اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِخَيْرِكَ مِنْ خَيْرِهِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهِ وَشَرِّ فِيهِ؛ ثُمَّ سَلَّمَ عَلَى الْمَلِكِ بِالْعِبْرَانِيَّةِ
 فَقَالَ : مَا هَذَا اللِّسَانُ ؟ قَالَ : هَذَا لِسَانُ عَمِّي إِسْمَاعِيلَ ، ثُمَّ دَعَا بِالْعِبْرَانِيَّةِ فَقَالَ : مَا هَذَا
 اللِّسَانُ ؟ قَالَ : لِسَانُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ؛ وَكَانَ الْمَلِكُ يَتَكَلَّمُ بِسَبْعِينَ لِسَانًا ،
 فَكَلَّمَا كَلَّمَ يَوْسُفَ لِسَانًا أَجَابَهُ يَوْسُفُ بِذَلِكَ اللِّسَانِ ، فَأَعْجَبَ الْمَلِكُ أَمْرَهُ ، وَكَانَ يَوْسُفُ
 إِذْ ذَاكَ أَمِنَ ثَلَاثِينَ سَنَةً ؛ ثُمَّ أَجْلَسَهُ عَلَى سَرِيرِهِ وَقَالَ : أَحَبُّ أَنْ أَسْمَعَ مِنْكَ رُؤْيَايَ ، قَالَ
 يَوْسُفُ : نَعَمْ أَيُّهَا الْمَلِكُ ! رَأَيْتُ سَبْعَ بَقَرَاتٍ يَمِينًا شُهْبًا غُرًّا حَسَنًا ، كَشَفَ لَكَ عَنْهُنَّ النَّيْلُ
 فَطَلَمُنَ عَلَيْكَ مِنْ شَاطِئِهِ قَسَحَ أَخْلَافُهَا لَنَا ؛ فَبَيْنَا أَنْتَ تَنْتَظِرُ الْبَهْنَ وَتَتَعْجَبُ مِنْ حَسَنَتِنَ
 إِذْ نَقَبَ النَّيْلُ فَغَارَ مَائُوهُ ، وَبَدَأَ أَشْعَى ، فَخَرَجَ مِنْ تَحْتِهِ وَوَحَلَهُ سَبْعَ بَقَرَاتٍ يَغْجَافُ شُعْتُ
 خُبُرِ مُقْلَصَاتِ الطُّوْنِ ، لَيْسَ لَهَا مِنْ ضُرُوعٍ وَلَا أَخْلَافَ ، لَهَا أَنْيَابٌ وَأَضْرَاسُ ، وَأَكْفُ
 كَأَكْفِ الْكِلَابِ وَنَوْرَاطِيمِ نَوْرَاطِيمِ السَّبَاعِ ، فَاخْتَلَطْنَ بِالْبَهَانِ فَافْتَرَسَتْهُنَّ اقْتِرَاسَ السَّبَاعِ ،
 فَأَكَلْنَ لِحُومَهُنَّ ، وَمَرَّتَيْنِ جُلُودَهُنَّ ، وَحَطَمْنَ عِظَامَهُنَّ ، وَشَمَشْنَ عَنَقَهُنَّ ؛ فَبَيْنَا أَنْتَ تَنْتَظِرُ
 وَتَتَعْجَبُ كَيْفَ غَلِبَتْهُنَّ وَهَنَ مَهَازِيلَ ! ثُمَّ لَمْ يَظْهَرْ مِنْهُنَّ يَمِينٌ وَلَا زِيَادَةٌ بَعْدَ أَكْلِهِنَّ !
 إِذَا بَسِيعُ سَائِلٍ خَضِرَ طَرِيَاتِ نَاعِمَاتٍ ، مُمْتَلِكَاتِ حَبَا وَمَاءٍ ، وَإِلَى جَانِبَيْنِ سَبْعَ يَابِسَاتٍ لَبِيسٍ ،
 فَبَيْنَ مَاءٍ وَلَا خَضِرَةٍ فِي مَمْتٍ وَاحِدٍ ، عَرَوْقَهُنَّ فِي الْقَرَى وَالْمَاءِ ، فَبَيْنَا أَنْتَ تَعْوَلُ فِي نَفْسِكَ :
 أَى شَيْءٍ هَذَا ؟ ! هَؤُلَاءِ خَضِرَ مَمْتَرَاتٍ ، وَهَؤُلَاءِ سَوْدَ يَابِسَاتٍ ، وَالْمَمْتُ وَاحِدٌ ، وَأَصُولُهُنَّ

في السماء، إذ هبت ريح ففرت الأوراق من اليابسات السود على الخضرة الثمرات، فانتبت
 فيها الفسار فارتقت، فصرت سودا مغبغات، فانتبت ملحوبا أيا تلك، فقال الملك،
 والله ما شأن هذه الرؤيا وإن كان عجايا عجب مما سمعت منك، أفا ترى في رؤياي أيا
 الصديق؟ فقال يوسف: أرى أن تجمع الطعام، وتزود زردا كثيرا في هذه السنين المفضية،
 فإنك لو زدت على حجر أو قدر لنت، وأظهر الله فيه السماء والبركة، ثم ترفع الزرع في قصبه
 وسبله تبنى له المخازن العظام، فيكون القصب والسبل ملقا للدواب، وحبه للناس، وتأسر
 الناس فيرفعون من طعامهم إلى أمراك الخنثى، فيكفيك من الطعام الذي جمعت لأهل مصر
 ومن حولها، ويأتيك الخلق من النواحي يتأرون منك، ويجتمع عندك من الكنوز ما لا يجتمع
 لأحد قبلك، فقال الملك: ومن لي بتدبير هذه الأمور؟ ولو جمعت أهل مصر جميعا
 ما أطاقوا، ولم يكونوا فيه أمناه، فقال يوسف عليه السلام: «أجعلني مل خزائن الأرض»
 أي مل خزائن أرضك، وهي جمع خزائنه، ودخلت الألف واللام عوضا من الإضافة، لقول
 النابغة:

لَمْ شَيْعَةً لَمْ يُبَطِّحْهَا اللَّهُ خَيْرَهُمْ • مِنْ الْجُودِ وَالْأَعْلَامِ غَيْرَ كَوَاذِبٍ

قوله تعالى: (أَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِي) جزم لأنه جواب الأمر، وهذا يدل على أن قوله،
 ذَلِكَ لِيَعْلَمَ جري في السجن. ويحتمل أنه جرى عند الملك، ثم قال في مجلس آخر،
 «أَتُؤَيِّنِي بِهِ» تأكيد. «أَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِي» أي أجعله حاليا لنفسي، أفوض إليه أمر
 ملكتي، فذهبوا بجانها به، ودلت على هذا (قَالَ كَلِمَةً) أي كلم الملك يوسف، وسأله
 عن الرؤيا فأجاب يوسف، ذ (قَالَ) الملك: (إِنَّكَ الْقَوْمَ تَدِينَا مَكِينٌ أَمِينٌ) أي منكن
 لهذا لقول، «أمين» لا تخاف فذرا.

قوله تعالى: قَالَ أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

الأول - قوله تعالى : (قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَازِنٍ مِّنَ الْأَرْضِ) قال سعيد بن منصور : سمعت مالك بن أنس يقول : مصر خزانة الأرض ، أما سمعت إلى قوله : « اجْعَلْنِي عَلَى خَازِنٍ مِّنَ الْأَرْضِ » أى على حفظها ، لحلف المضاف . (**إِنِّي خَفِيفٌ**) لما وُتِّبَ (**عَلِيمٌ**) بأمره . وفي التفسير : إلى حاسب كاتب ، وأنه أول من كتب في القراطيس . وقيل : « خَفِيفٌ » تقدير الأوقات - علم . بسنى الجماعات . قال جوير عن الضحاك عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « رحم الله أنس يوسف لولم يقل اجْعَلْنِي عَلَى خَازِنٍ الْأَرْضِ لاسْتَعْمَلَهُ مِنْ سَاعَتِهِ وَلَكِنْ أَثَرُ ذَلِكَ عَنْهُ سَنَةٌ » . قال ابن عباس : لما انصرفت السنة من يوم سأل الإمارة دعاه الملك فَوَجَّهَ وَدَّاهُ بِسَيْفِهِ ، ووضع له سررا من ذهب ، مكلا بالدر والياقوت ، وضرب عليه حلة من إستبرق ، وكان طول السرير ثلاثين فراسا ومعرضه حشرة أذرع ، عليه ثلاثون فراشا وستون مرتقة ، ثم أمره أن يفرج ، ففرج متوجا ، لونه كالنخع ، ووجهه كالقصر ، يرى الناظر وجهه من صفاء لون وجهه ، بغلس على السرير ودانت له الملوك ، ودخل الملك بيته مع نسائه ، وفوض إليه أمر مصر ، وعزل قطيفر عما كان عليه ، وجعل يرسف مكانه . قال ابن زيد : كان لفرعون ملك مصر خزان كثيرة غير الطعام ، فسلم سلطانه كله إليه ، وهلك قطيفر تلك الليالي ، فزوج الملك يوسف راعيل امرأة العزيز ، فلما دخل عليها قال : أليس هذا خيرا مما كنت تريدن ؟ ! فقالت : أيها الصديق لا تلبسني ، فإن كنت امرأة حسنة ناعمة كما ترى ، وكان صاحبي لا يأتي النساء ، وكنت كما جعلك الله من الحسن فقلبتى نفسى ، فوجدتها يوسف عذراء فأصابتها فولدت له وجلين : إفرائيم ابن يوسف ، ومنشا بن يوسف . وقال وهب بن منبه : إنما كان ترويضه زليخا امرأة العزيزين دخلت الإخوة ، وذلك أن زليخا مات زوجها ويوسف في السجن ، وذهب ماله ، وعسى يسرها بكاء على يوسف ، فصارت تكفف الناس ، ففهم من ربحها ومنهم من لا يرحمها ،

(٢) الرفقة (بالكسر) : الشكا والمحنة .

(١) وداه بسيفه : قله به .

وكان يوسف ركب في كل أسبوع مرة في موكب يزعمه مائة ألف من عظماء قومه ، فقبل لها : لو تعرضت له لعله يسمعك بشئ ، ثم قبل لها : لا تغفل ، فربما ذكر بعض ما كان منك من المراودة والسجس فبسيء إليك ، فقالت : أنا أعلم بمخلق حبيبي منك ، ثم تركته حتى إذا ركب في موكبه ، عادت بأعلى صوتها : سبحان من جعل الملوك عبيدا بمصيبتهم ، وجعل العبيد مالوكا بطاعتهم ، فقال يوسف : ما هذه ؟ فاتوا بها ، فقالت : أنا التي كنت أخدمك على صدور قديمي ، وأُرسلتُ جئتُك بدي ، وزيت في يدي ، وأكرمت مثوك ، لكن فرط ما فرط من جهل وعنوى فذقت وبال أسرى ، فذهب مالي ، وتضعف ركني ، وطال ذلّي ، وعيى بصري ، وبعد ما كنت مضبوطة أهل مصر صرت مرحومة ، أنكفأ الناس ، ففهم من برحني ، ومنهم من لا يرحمني ، وهذا جزاء المفسدين ، فبكى يوسف بكاء شديدا ، ثم قال لها : هل بقيت تجددين مما كان في نفسك من حيك لي شيئا ؟ فقالت : والله نظرة إلى وجهك أحب إلي من الدنيا بمخاضها ، لكن ثاويتي صدر سوطك ، فتناولها فوضعتها على صدرها ، فوجد للسوط في يده اضطرابا وارتعاشا من خفقان قلبها ، فبكى ثم مضى إلى منزله فأرسل إليها رسولها : إن كنت أيمنا تزوجتك ، وإن كنت ذات بعل أغنيك ، فقالت للرسول : أعوذ بالله أن يستزني بي الملك ! لم يُرفق أيام شبابي وغياي ومالي وعزّي أفيريدني اليوم وأنا عجوز عماء فقيرة ؟ فأعلمه الرسول بمقاتلتها ، فلما ركب في الأسبوع الثاني تعرضت له ، فقال لها : ألم يلقك الرسول ؟ فقالت : قد أخبرتك أن نظرة واحدة إلى وجهك أحب إلي من الدنيا وما فيها ، فأمر بها فأصطح من شأنها وهبئت ، ثم زُقت إليه ، فقام يوسف بصلّى ويدعو الله ، وقامت وراءه ، فسأل الله تعالى أن يعيد إليها شبابها وجهها وبصرها ، فرد الله عليها شبابها وجهها وبصرها حتى عادت أحسن ما كانت يوم راودته ، إلكراما ليوسف عليه السلام لما عَفَّ عن عذار الله ، فأصابها فإذا هي عذراء ، فسألها ، فقالت : يا بني الله إن زوجي كان عينا لا يأتي النساء ، وكنت أنت من الحسن والجمال بما لا يوصف ، قال فضأنا في خفض عيش ، كل يوم يحمّد الله لما خيها ، وولدت له ولدين ، إفرانيم ومنشا . وفيها روى

أن الله أتى في قلب يوسف من محبتها أضعاف ما كان في قلبها ، فقال لها : ما شئت لا تحيطني كما كنت في أول مرة ؟ قالت : لما ذلت عبدة الله تعالى شغلني ذلك عن كل شيء .

الثانية - قال بعض أهل العلم : في هذه الآية ما يوجب للرجل الفاضل أن يعمل للرجل الفاجر ، والسلطان الكافر ، بشرط أن يعلم أنه يفوض إليه في فعل لا يمارسه فيه ، فيصالح منه ما شاء ، وأما إذا كان عمله بحسب اختيار الفاجر وشهواته وبلوره فلا يجوز ذلك . وقال قوم : إن هذا كان ليوسف خاصة ، وهذا اليوم غير جائز ، والأول أولى إذا كان على الشرط الذي ذكرناه . والله أعلم . قال المساوردي : فإن كان المولى ظالماً فله اختطف الناس في جواز الولاية من قبله على قولين : أحدهما - جوازها إذا عمل بالحق فيها تهليده ، لأن يوسف وُلِّي من قبل فرعون ، ولأن الاعتبار في حقه بفعله لا بفعل غيره . الثاني - أنه لا يجوز ذلك ، لما فيه من تولي الظالمين بالمعونة لهم ، وتكثيفهم بتفقد أعمالهم ، فأجلب من نهب إلى هذا المنهب عن ولاية يوسف من قبل فرعون يهوياين : أحدهما - أن فرعون يوسف كان صالحاً ، وإنما الطاغى فرعون موسى . الثاني - أنه نظر في أملاكه دون أعماله ، فزالت عنه التهمة فيه . قال المساوردي : والأصح من إطلاق هذين القولين أن يفصل ما يتولاه من جهة الظالم على ثلاثة أقسام : أحدها - ما يجوز لأهله فعله من غير اجتهاد في تنفيذه كالصدقات والزكوات ؛ فيجوز توليته من جهة الظالم ، لأن النصب على مستحقه قد أغنى عن الاجتهاد فيه ، وجواز تغرد أربابه به قد أغنى عن التقليد . والقسم الثاني - ما لا يجوز أن يتغردوا به ويلزم الاجتهاد في مصرفه كأموال القى . فلا يجوز توليته من جهة الظالم ؛ لأنه يتصرف بغير حق ، ويحتد فيما لا يستحق . والقسم الثالث - ما يجوز أن يتولاه لأهله ، والاجتهاد فيه مدخل كالقضايا والأحكام ، فمقد التقليد محلل ، فإن كان النظر تهقيقاً للحكم بين متراضين ، وتوسطاً بين مجبورين جاز ، وإن كان يلزم إجبار لم يحز .

الثالثة - ودلت الآية أيضاً على جواز أن يضطرب الإنسان عملاً يكون له أملاً ، فإن قيل : فقد روى مسلم عن عبد الرحمن بن سمره قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

“ يا عبد الرحمن لا تسأل الإمارة فإنك إن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها وإن أعطيتها عن غير مسألة أعنت عليها ” . وعن أبي بردة قال قال أبو موسى : أنبئت إلى النبي صلى الله عليه وسلم ومعي رجلان من الأشرعيين ، أحدهما عن يميني والآخر عن يساري ، فكلاهما سأل العمل ، والنبي صلى الله عليه وسلم يستاك ، فقال : “ ما تقول يا أبا موسى — أو يا عبد الله بن قيس — ” قال قلت : والذى بعتك بالحق ما أظلماني على ما في أخصهما ، وما شعرت أنهما يطلبان العمل ، قال : وكأني أنظر إلى سؤا كه تحت شفته وقد قلصت ^(١) ، قال : “ لن — أو — لا نستعمل على عملنا من أراد ” وذكر الحديث ؛ وخرجه مسلم أيضا وفيه غلطابواب : أولا — أن يوسف عليه السلام إنما طلب الولاية لأنه علم أنه لا أحد يقوم مقامه في العدل والإصلاح وتوصيل الفقراء إلى حقوقهم ، فرأى أن ذلك فرضا متبعا عليه ، فإنه لم يكن هناك غيره ، وكنا الحكم اليوم ، لو علم إنسان من نفسه أنه يقوم بالحق في القضاء أو الحسبة ولم يكن هناك من يصلح ولا يقوم مقامه لتعين ذلك عليه ، ووجب أن يتولاها ويسأل ذلك ، وينجز بصفاته التي يستحقها به من العلم والكفاية وغير ذلك ، كما قال يوسف عليه السلام ، فاما لو كان هناك من يقوم بها ويصلح لها وعلم بذلك فالأولى ألا يطلب ، لقوله عليه السلام لعبد الرحمن : “ لا تسأل الإمارة ” فإن في سؤالها والحرص عليها مع العلم بكثرة آفاتنا وصعوبة التخلص منها دليل على أنه يطلبها لنفسه ولا غرضه ، ومن كان هكذا يوشك أن تطلب عليه نفسه فيهلك ، وهذا معنى قوله عليه السلام : “ فُرِكَلْ إِلَيَّا ” ومن أباحا لطلبه بآفاتنا ، ونلونه من التقصير في حقوقها فزمنها ، ثم إن أنبئ بها فيرجى له التخلص منها ، وهو معنى قوله : “ أَيْقِنْ عَلَيْهَا ” . الثاني — أنه لم يقل : إني حبيب كريم ، وإن كان كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : “ الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم ” فلا قال ، إني جليل ملبس ، إنما قال : إني حفيظ طيب . فسألها بالحفظ والعلم ، لا بالنسب والجمال . الثالث — إنما قال ذلك عند من لا يعرفه فأراد تعريف نفسه ، وصار ذلك مستثنى من قوله

تعالى : « لَا تَرْثُوا أَمْثَلَكُمْ » . الرابع - أنه رأى ذلك فرسا متعبا عليه ، لأنه لم يكن هناك غيره ، وهو الإظهار ، والله أعلم . ودلت الآية أيضا على أنه يجوز للإنسان أن يصف نفسه بما فيه من علم وفضل ، قال الماوردي : وليس هذا على الإطلاق في عموم الصفات ، ولكنه مخصوص بما أقترن بوصلة ، أو تعلق بطاهر من مكسب ، ومنوع منه فيما سواه ، لما فيه من تركية وصرامة ، ولومنه الفاضل عنه لكان أليق بفضله ، فإن يوسف دعه الضرورة إليه لما سبق من حاله ، ولما يرجو من الظفر بأهله .

قوله تعالى : وَكَذَلِكَ مَكَا يُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنَّمَا حَبَتْ
نِسَاءُ نَصِيبُ يَرْحَمَنَّا مَن نَّسَاءُ وَلَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَا أَجْرُ
الْأَيُّرَةِ خَيْرَ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾

قوله تعالى : (وَكَذَلِكَ مَكَا يُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنَّمَا حَبَتْ نِسَاءُ) أي ومثل هذا الإنعام الذي أنعمنا عليه في تفرجه إلى قلب الملك ، وإتباعه من السجن مكانه في الأرض ، أقدمناه على ما يريد . وقال اليك الطبري قوله : « وَكَذَلِكَ مَكَا يُوسُفَ فِي الْأَرْضِ » دليل على إجازة الحيلة في التوصل إلى المباح ، وما فيه النبطة والصلاح ، واستخراج الحقوق ، ومثله قوله تعالى : « وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنُتْ » وحديث أبي سعيد الخدري : في عامل خير ، والذي أذاه من التمر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما قاله .

قلت : وهذا مردود على ما يأتي . يقال : مَكَاهُ وَمَكَالُهُ ، قال الله تعالى : « مَكَامُ فِي الْأَرْضِ مَالٌ مَّمَكُكُمْ كَلَمْ » . قال الطبري : استخلف الملك الأكبر الوليد بن الزيان يوسف على عمل قطيف وعزله ، قال مجاهد : وأسلم على يديه . قال ابن عباس : ملكه بعد سنة

(١) الحديث : هو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم استعمل رجلا على خير ، لجاه بمر جنب ، وهو نوح جبه من أنوع النصر ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم ، " كل تمر خير هكذا " فقال : لا والله يا رسول الله ، إلا لأخاه الصاع من هذا الصاعين بالثلاثة ، فقال : " لا تقل بيع الجمع بالهوام ثم ابتع بالهوام جنيا " . (الهاربي) .

ونصف . وروى حافل أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " لو أن يوسف قال إني حفيظ
 طيم إن شاء الله الملك في وقته " . ثم مات إطفير فزوجه الوليد بزوجة إطفير راعيل ، فدخل
 بها يوسف فوجدتها عذراء ، وولدت له ولدين : إنرايم ومنشا ، أبني يوسف ، ومن زعم أنها زليخا
 قال : لم يترجها يوسف ، وأنها لما رآته في موكبها بكت ، ثم قالت : الحمد لله الذي جعل الملوكة
 حبيدا بالمعصية ، والحمد لله الذي جعل العبيد بالطاعة ملوكا ، فضمها إليه ، فكانت من عياله
 حتى ماتت عنده ، ولم يترجها ، ذكره المساوردي ، وهو خلاف ما تقدم عن وهب ، وذكره
 الثعلبي ، فافقه أعلم . ولما فرض الملك أمر مصر إلى يوسف تلطف بالناس ، وجعل يدهم
 إلى الإسلام حتى آمنوا به ، وأقام فيهم العدل ، فأحببه الرجال والنساء ، قال وهب والشدي
 وابن عباس وغيرهم : ثم دخلت السنون الخبيصة ، فأمر يوسف بإصلاح المزارع ، وأمرهم
 أن يتوسعوا في الزراعة ، فلما أدركت القلة أمر بها بجمع ، ثم بنى لها الأهرام ، فجمعت
 فيها في تلك السنة قلة ضاقت فيها المخازن لكثرتها ، ثم جمع عليه قلة كل سنة كذلك ، حتى إذا
 انقضت السبع الخبيصة وجاءت السنون المجيدة نزل جبريل وقال : يا أهل مصر جوعوا ، فإن
 الله سلط عليكم الجوع سبع سنين . وقال بعض أهل الحكمة : للجوع والقحط علامتان ،
 أحدهما - أن النفس محب الطعام أكثر من العادة ، ويسرع إليها الجوع خلاف ما كانت
 عليه قبل ذلك ، وتأخذ من الطعام فوق الكفاية . والثانية - أن يفقد الطعام فلا يوجد راسا
 ويمز إلى الناية ، فاجتمعت هاتان العلامتان في عهد يوسف ، فأنبه الرجال والنساء والصبيان
 ينادون الجوع الجوع ! ! وإياكون ولا تبسبون ، وأنبه الملك ينادى الجوع الجوع ! !
 قال : ففدا له يوسف فأبراه الله من ذلك ، ثم أصبح ينادى يوسف في أرض مصر كلها ،
 معاشر الناس ! لا يزرع أحد زروا فيضيع البذر ولا يطلع شيء . وجاءت تلك السنون بهول
 عظيم لا يوصف ، قال ابن عباس : لما كان ابتداء القحط بينا الملك في جوف الليل أصابه
 الجوع في نصف الليل ، فهتف الملك يا يوسف ! الجوع الجوع ! ! فقال يوسف : هذا
 أوان القحط ، فلما دخلت أول سنة من سني القحط هلك فيها كل شيء . أعدوه في السنين

القصيدة : **يُحْلِلُ أَهْلَ مِصْرٍ يَتَعَوَّنُ الطَّعَامُ مِنْ يَوْسُفَ** ؛ **وَبَاعَهُمْ** أَوَّلَ سَنَةِ الْفَقْرِ ؛ **حَتَّى**
لَمْ يَبْقَ مِصْرٌ دِينَارٌ وَلَا دِرْهَمٌ إِلَّا قَبْضُهُ ؛ **وَبَاعَهُمْ** فِي السَّنَةِ الثَّانِيَةِ بِالْحَلِيِّ وَالْجَوَاهِرِ ؛ **حَتَّى** لَمْ يَبْقَ
 فِي أَرْضِ النَّاسِ مِنْهَا شَيْءٌ ؛ **وَبَاعَهُمْ** فِي السَّنَةِ الثَّالِثَةِ بِالْمَوَاشِيِّ وَالذَّوَابِ ؛ **حَتَّى** آخَرَى طَعْمًا
 لِرَمْعٍ ؛ **وَبَاعَهُمْ** فِي السَّنَةِ الرَّابِعَةِ بِالْبَيْسِ وَالْإِمَاءِ ؛ **حَتَّى** آخَرَى عَلَى الْكُلِّ ؛ **وَبَاعَهُمْ** فِي السَّنَةِ
 الْخَامَةِ بِالْعَقْدِ وَالْقَبِيحِ ؛ **حَتَّى** مَلَكَهَا كُلُّهَا ؛ **وَبَاعَهُمْ** فِي السَّنَةِ السَّادَةِ بِأَوْلَادِهِمْ وَنِسَائِهِمْ
 لِمَا تَرَفُّعَهُمْ جَمِيعًا ؛ **وَبَاعَهُمْ** فِي السَّنَةِ السَّابِعَةِ بِرِقَابِهِمْ ؛ **حَتَّى** لَمْ يَبْقَ بِمِصْرٍ حُرٌّ وَلَا عَبْدٌ إِلَّا صَارَ
 عَبْدًا لَهُ ؛ **فَقَالَ** النَّاصِرُ دَوْلَةُ مَا رَأَيْتُمْ مَلَكَكُمْ أَجَلٌ وَلَا أَقْضَى مِنْ هَذَا ؛ **فَقَالَ** يَوْسُفُ لِمَلِكِ مِصْرَ
 كَيْفَ رَأَيْتَ صُنْعَ رَبِّي فِيمَا خَوَّلَنِي ! **وَالْآنَ** كُلُّ هَذَا لَكَ ، **فَأَتَرَى** فِيهِ ؟ **فَقَالَ** : **فَوَضِعْتُ** إِلَيْكَ
 الْأُمُورَ فَاقْضُ مَا شِئْتَ ، **وَأَنَا** نَحْنُ لَكَ تَبِعٌ ؛ **وَمَا** أَنَا بِالَّذِي يَسْتَنْكَفُ مِنْ عِبَادَتِكَ وَطَاعَتِكَ
 وَلَا أَنَا إِلَّا مِنَ بَعْضِ عَالِيكَ ، **وَخَوَّلَ** مِنْ خَوَّلِكَ ؛ **فَقَالَ** يَوْسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ : **إِنِّي** لَمْ أَعْطِهِمْ
 مِنَ الْجُوعِ لَأَسْتَعْبِدَهُمْ ، وَلَمْ أَجْعَلْ مِنَ الْبَلَاءِ لَأَكُونَ عَلَيْهِمْ بَلَاءً ؛ **وَأِنِّي** أَشْهَدُ أَنَّكَ أَشْهَدُكَ
 أَنِّي أَخَذْتُ أَهْلَ مِصْرَ عَنْ أَعْرَافِهِمْ ، وَرَدَدْتُ عَلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَأَمْلَأْتُكُمْ ، وَرَدَدْتُ عَلَيْكَ مَلَكَكَ
 بِشَرْطِ أَنْ تَسْتَنْ بَسْتِي . **وَيُرْوَى** أَنَّ يَوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ لَا يَشْبَعُ مِنْ طَعَامٍ فِي نَفْسِهِ
 السَّنِينَ ، **فَقِيلَ** لَهُ : **أَتَجْعَلُ** وَبِيدَكَ خَزَائِنَ الْأَرْضِ ؟ **فَقَالَ** : **إِنِّي** أَخَافُ أَنْ شَبِعْتُ أَنْ
 أَنْسِيَ الْجَائِعَ ؛ **وَأَمَرَ** يَوْسُفُ طَبَاخَ الْمَلِكِ أَنْ يَحْمِلَ غَدَامَهُ نِصْفَ النَّهَارِ ، **حَتَّى** يَنْزِلَ الْمَلِكُ
 طَعْمَ الْجُوعِ ، **فَلَا** يَنْسِي الْجَائِعِينَ ؛ **فَمَنْ** ثُمَّ جَعَلَ الْمُلُوكُ غَدَامَهُمْ نِصْفَ النَّهَارِ .

قوله تعالى : **(يُصِيبُ بِرَحْمَتٍ مِّنْ تَعَالَى)** أَي بِإِحْسَانَاتِهِ وَالرَّحْمَةُ النِّعْمَةُ وَالْإِحْسَانُ .
(وَلَا يُفَيْعُ أَهْلَ الْمُحْسِنِينَ) أَي ثَوَابِهِمْ . **وَقَالَ** أَبُو حَاسٍ وَوَهْبٌ : **بَعْنِي** الصَّابِرِينَ ؛ **لِصَّبِهِ**
 فِي الْجَلْبِ ، **وَفِي الرِّقِّ** ، **وَفِي السَّجَنِ** ، **وَفِي صَبْرِهِ** عَنْ مَحَارِمِ اللَّهِ عَمَّا دَخَلَهُ إِلَيْهِ الْمَرَأَةُ . **وَقَالَ**
 الْمَاوَرْدِيُّ : **وَأَخْلَفَ** فِيمَا لَوَبَّيْهُ يَوْسُفُ مِنْ هَذِهِ الْحَالِ عَلَى قَوْلَيْنِ : أَحَدُهُمَا - أَنَّهُ ثَوَابُ
 مِنْ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى مَا أَبْتَلَاهُ . الثَّانِي - أَنَّهُ أَنْصَرَّ عَلَيْهِ بِفَيْدِكَ تَفَضُّلاً مِنْهُ عَلَيْهِ ، وَثَوَابُهُ بِأَنَّهُ عَلَى
 حَالِهِ فِي الْآخِرَةِ .

قوله تعالى: (وَلَا تُجْرِ الْآخِرَةُ خَيْرٌ) أى ما تنطوي في الآخرة خيراً كثيراً أعطياه في الدنيا؛ لأن أجر الآخرة دائم، وأجر الدنيا ينقطع؛ وظلمه الآية للعوام في كل مؤمن متقٍ؛ والشهداء؛ أما في رسول الله يوسف أسوة • لملك محبوساً على الظلم والإنكاف؛ أقام جميل القصر في الحبس أربعة • قال به القصر الجميل إلى الملك وكتب بعضهم إلى صديق له: •

وراء مضيي الخوف مُنْعُ الأَمْنِ • وأزل مغسوح به آخر الحزن
فلا تيسر فاته ملك يوسفًا • خرائته بند الخلاص من السجن
وأشد بعضهم:

إذا الحادثات بلغت أسمى • وكانت عقوب لمس المهج
وحل البلاد وقيل الفزاه • فسد التماسي يكون الفرج
والشعر في هذا المعنى كثير •

قوله تعالى: (وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ) ١٨
قوله تعالى: (وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ) يوسف (وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ)
وهذا من اختصار القرآن المعجز • قال ابن عباس وغيره: لما أصاب الناس القحط والشدة، ونزل ذلك بأرض كنعان بعث يعقوب عليه السلام ولده للبيعة، وذاع أمر يوسف عليه السلام في الآفاق، لبته وغمره ورحمته ورأفته وعذله وسعيه؛ وكان يوسف عليه السلام حين نزلت الشدة الناس يحس عند البيع بنفسه، فيعطونهم من الطعام على عدد وجوههم، لكل رأس وسقا. (١٨) (وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ) يوسف (وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ)
لأنهم خلقوه صبياً، ولم يتوهموا أنه بند العبودية يبلغ إلى تلك الحال من التهمكة، مع طول المدة؛ وهي أربعون سنة. وقيل: أنكره لأنهم اعتقدوا أنه ملك كافر؛ وغيره: رآه لابس حرير، وفي عنقه طوق ذهب، وعلى رأسه تاج، وقد تراءى بزي فرعون مصر؛ ويوسف (١) الرمن ستون صاعاً، والأصل في الرمن الحل.

بأنهم على ما كان معهم من اللبس والخلية . ويحمل أنهم رأوه وراء ستر ظم يرفوه . وقيل :
أنكره لأمه خاف كتماناً آمنه الله به يعقوب .

قوله تعالى : وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ قَالِ أَتُوتُنِي بِأَنْجٍ لَّكُمْ مِنْ أَيْمُنٍ
أَلَّا تَرَوْنَ أَنِّي أَوْفِي الْكَيْلِ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴿٥٦﴾ فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ
فَلَا يَكِلْ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٥٧﴾ قَالُوا سَنُرَوِّدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴿٥٨﴾
قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ ﴾ يقال : جهَّزْتُ القوم تجهيزاً أي تكلفت لهم
بجهَّازهم للسفر ، وجهَّاز العروس ما يحتاج إليه عند الإهداء إلى الزوج ، وجوز بعض
الكوفيين الجهَّاز بكسر الجيم ، والجهَّاز في هذه الآية الطعام الذي أنشروه من عنده .
قال السدي : وكان مع إخوة يوسف أحد عشر بصيراً ، وهم عشرة ، فقالوا ليوسف ه
إِنْ لَنَا أَمَّا نَخْلَفُ عَنْهُ ، وبغيره معنا ، فسألم لم نخلف ؟ فقالوا : لحب أبيه إياه ، وذكروا
له أنه كان له أخ أكبر منه نفخ إلى البرية فهلك ، فقال لهم : أردت أن أرى أناكم هنا
الذي ذكركم ، لأعلم وجه محبة أبيكم إياه ، وأعلم صدقكم ، وروى أنهم تركوا عنده شمعون
وهبة ، حتى باتوا بأخيه بنيامين . وقال ابن عباس : قال للرجل قل لهم : لستم مخالفين
للنساء ، وزينكم مخالف لزيننا ، فلملك جواسيس ، فقالوا : والله ! ما نحن بجواسيس ، بل نحن
بنسأب واحد ، فهو شيخ صدقي ، قال : فكم عدتكم ؟ قالوا : ثمانى عشر فنذهب أخ
لنا إلى البرية فهلك فيها ، قال : فابن الآخر ؟ قالوا عند أبينا ، قال : فمن يعلم صدقكم ؟
قالوا : لا يعرفنا هاتنا أحد ، وقد عرفناك أنسابنا ، فبأي شيء تسكن نفسك إلينا ؟
فقال يوسف : ﴿ أَتُوتُنِي بِأَنْجٍ لَّكُمْ مِنْ أَيْمُنٍ ﴾ الخ كتم صادقين ، فإنا أرضى بذلك
« أَلَّا تَرَوْنَ أَنِّي أَوْفِي الْكَيْلِ » أي أتمه ولا أجهله ، وأزيدكم حمل بصير لا خيكم .
« فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا يَكِلْ لَكُمْ عِنْدِي » نوعدهم ألا يبيعهم الطعام إن لم يأتوا به .
قوله تعالى : ﴿ أَلَّا تَرَوْنَ أَنِّي أَوْفِي الْكَيْلِ ﴾ يحتمل وجهين : أحدهما - أنه رخص
لهم في السعر فصار زيادة في الكيل ، والثاني - أنه كال لهم بمكيل وإنه . ﴿ وَأَنَا خَيْرُ

الْمُتَرَلِّينَ) فيه وجهان : أحدهما أنه خير المضيقين ، لأنه أحسن ضيقهم ، قاله مجاهد .
الثاني — وهو عتمل ، أي خير من نزلت عليه من المأمونين ، وهو على التأويل الأول مأخوذ
من التزل وهو الطعام ، وعلى الثاني من التزل وهو النار .

قوله تعالى : (فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي) أي فلا أبيعكم شيئاً فيما بعد ،
لأنه قد وقّاهم كيلهم في هذه الحال . (وَلَا تَقْرَبُونِ) أي لا تأزلكم عندي منزلة القريب ،
ولم يرد أنهم يبعدوا منه ولا يهودوا إليه ، لأنه على العود حتم . قال السدي : وطلب منهم
وجبة حتى يرجعوا ، فارتب شمعون عنده ، قال الكلبي : إنما اختار شمعون منهم لأنه كان يوم
الحب أجملهم قولا ، وأحسنهم رأيا . و« تقرّبون » في موضع جزم بالنهي ، فلذلك حذف
منه الياء ، لأنه رأس آية ، ولو كان خبرا لكان « تقرّبون » بفتح النون .

قوله تعالى : (قَالُوا سَوَاءٌ مِنْهُ أَبَاهُ) أي سطلبه منه ، ونسأله أن يرسله معنا .
(وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ) أي لعاثون النجى ، به ، و« عاثلون » في ذلك .

مسئلة — إن قيل تتركب استجاز يوسف إدخال الحزن على أبيه بطلب أخيه ؟
قيل له : عن هذا أربعة أجوبة : أحدها — يجوز أن يكون الله عز وجل أمره بذلك
أبتلاء ليعقوب ، ليعظم له الثواب ، فاتبع أمره فيه . الثاني — يجوز أن يكون أراد بذلك
أن يبه بمقسوب على حال يوسف طبعه السلام . الثالث — لتضاعف المصرة ليعقوب
يرجع ولديه إليه . الرابع — ليقدم سرور أخيه بالاجتماع معه قبل أخوته ، لئلا كان منه
إليه ، والأول أظهر ، والله أعلم .

قوله تعالى : (وَقَالَ لِفَتْنَتِهِ أَجْعَلُوا بِضْعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّاهُمْ
يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَيْكَ أَهْلُهُمْ لَعَلَّاهُمْ يَرْجِعُونَ)

قوله تعالى : (وَقَالَ لِفَتْنَتِهِ) هذه قراءة أهل المدينة وأبي عمرو وطام ، وهو اختيار
أبي حاتم والنحاس وغيرهما . وقرا سائر الكوفيين « لِفَتْنَتِهِ » وهو اختيار أبي عبيد ، قال :

وهو في مصحف عبد الله كذلك . قال قتبي : وهما لثان جيدتان ، مثل الصبيان والصبي .
 قل القلمس ، و تشبهه . مختلف السود لأعلم ، لأنه في السود لا ألف فيه ولا نون ،
 ولا يترك السود للجنح طيه لهذا الإسناد للقطع ، وأيضا لأن فيه أشبه من فتيان ، لأن فيه
 عند العرب لأقل العدد ، والقليل بأن يعملوا البضاعة في الرجال أشبه . وكان هؤلاء الفتيان
 يسؤون جهلهم ، ولهذا أمكنهم جعل بضاعتهم في رحالم . ويبرز أن يكونوا أحرارا ،
 وكانوا أحرارا له ، وبضاعتهم أمان ما أكثره من الطعام . وقيل : كانت دواهم ودنانير .
 وقال ابن عباس : النعال والأدم ومناع للمسافر ويسى رحلا ، قال ابن الأنباري :
 يقال للوعاء رحل ، ولبيت رحل . وقال : (تَلَهُمْ يَرْفُوتَهَا) بلولز الأ نسل في الطريق .
 وقيل : إنما فعل فك ليرجوا إذا وجدوا فك ، لعله أنهم لا يقبلون الطعام إلا بجنه .
 وقيل : ليستينوا بذلك على الرجوع لشراء الطعام . وقيل : استنجح أن يأخذ من أبيه وإخوته
 فن الطعام . وقيل : ليروا فضله ، ويرغبوا في الرجوع إليه .

قوله نعال : فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ آبَائِهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ
 فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخَنَانَا نَكْبَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿١٥﴾ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ
 إِلَّا كَمَا ءَامَنُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ قَالَهُ خَيْرٌ حَفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ
 الرَّاحِمِينَ ﴿١٦﴾ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا
 يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَنَانَا
 وَتَزَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿١٧﴾

قوله نعال : (فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ آبَائِهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ) لأنه قال لهم :
 « فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي » واخبروه بما كان من أمرهم وإكرامهم إياه ،
 وأن شعمون مرتهن حتى يعلم صدق قولهم . (فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَنَانَا نَكْبَلُ) أى قالوا عند ذلك :

« فَاَرْسَلْنَا مُوسَىٰ اِذَا كَانَ بِآيَاتِنَا كَانَ لِاَخِي وَاهْلِهِ وَاهْلِهِمْ مِنْ اَمْرِ عَمْرٍو وَوَعَدْنَا نَحْنُ بِالْاَمْرِ » وحذفت الضمة من الهمزة ، وحذفت الألف لاختفاء الساكنين . وفراة أهل الحرمين وأبي عمرو وعاصم « نكل » بالنون ، وقرا سائر الكوفيين « يكل » بالياء ، والأزول اختيار أبي عبيد ، ليكونوا كلهم داخلين فيمن يكل ، وزعم أنه إذا كان بالياء كان للأخ وحده . قال النحاس : وهذا لا يلزم ، لأنه لا يخلو الكلام من أحد جهتين ، أن يكون المعنى : فَاَرْسَلْنَا مُوسَىٰ اِذَا كَانَ بِآيَاتِنَا يَكُلُ لِحَبِيبِهِ ، أو يكون التقدير على غير التقديم والتأخير ، فيكون في الكلام دليل على الجميع ، انتهى : « فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا يَكُلْ لَكُمْ عِنْدِي » . (وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) من أن يناله سوء .

قوله تعالى : (قَالَ هَلْ أُسْكِنُ عَلَيْهِ إِلَّا مَا آتَيْنَاكَ عَلَىٰ أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ) أي قد فرطتم في يوسف فكيف أنسكم على أخيه ! . (فَاللهُ خَيْرٌ حَفِظًا) نصب على البيان ، وهذه قراءة أهل المدينة وأبي عمرو وعاصم . وقرا سائر الكوفيين « حَافِظًا » على الحال . وقال الزجاج : على البيان ، وفي هذا دليل على أنه أجابهم ملك إرماله معهم ، ومعنى الآية : حفظ الله له خير من حفظكم إياه . قال كعب الأحبار : لما قال يعقوب : « فاقه خير حافظا » قال الله تعالى : وعزقني وجلال لأرقق عليك آبنك كليهما بعد ما توكلت عليّ .

قوله تعالى : (وَلَمَّا قَسَحُوا مَتَاعَهُمْ) الآية ليس فيها معنى يشكل . (مَا نَبِيٍّ) « ما » استفهام في موضع نصب ، والمعنى : أي نبي يطلب وراء هذا ؟ أو في لنا الكيل ، ونية علينا النبي ، أرادوا بذلك أن يطبوا نفس أبيهم . وقيل : هي نافية ، أي لا نبي منك دراهم ولا بضاعة ، بل تكفينا بضاعتنا هذه التي رقت إلينا . وروى عن علقمة « رَدَّتْ إِلَيْنَا » بكسر الزاء ، لأن الأصل رُدَّتْ ، لما ادعت قلبت حركة اللام إلى الزل . وقوله : (وَتَمِيرُ أَهْلَنَا) أي تجلب لهم الطعام ، قال الشاعر :

بِمَتْنِكَ مَا تَرَا فَكُنْتُ حَقُولًا . متى يأتي غيائك من نُبَيْتُ

وقرا السامى ضم النون ، أي نبيهم على اليرة . (وَتَزِدُّهُ كَيْلَ بَيْعٍ ذَلِكَ كُلُّ يَسِيرٍ) أي جزل مير لبياسين .

فله نبال ، قَالَ تَنْ أُرْسِلُهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنْ اللَّهِ
لِنَأْتِيَنِي بِهِ ، إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ
وَكَيْلٌ ﴿٥٧﴾

فيه مستثنان

الأول - قوله تعالى : (تُوْتُونَ) أى تعطون - (مَوْثِقًا مِنْ اللَّهِ) أى عهدا يوثق به .
قال السدي : حلفوا بالله ليردنه إليه ولا يسلمونه ، واللام في (لِنَأْتِيَنِي) لام القسم .
(إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ) قال مجاهد : إلا أن تملكونا أو تعوتوا ، وقال قتادة : إلا أن تغلبوا عليه .
قال الزجاج : وهو في موضع نصب . (فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ) قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكَيْلٌ (أى حافظ للخلق . وقيل : حفيظ للمهد قائم بالتدبير والعدل .

الثانية - هذه الآية أصل في جواز الجمالة بالعين والوثيقة بالنفس ، وقد اختلف
العلماء في ذلك ، وقال مالك وجميع أصحابه وأكثر العلماء : هي جائزة إذا كان المحتمل به
مالا . وقد ضعف الشافعي الجمالة بالوجه في المال ، وله قول كقول مالك . وقال ضياف النبي ،
إذا تكفل بنفس في قصاص أو جراح فإنه إن لم يحن به لزمه الدية وأرض الجراح ، وكانت
له في مال الجاني ، إذ لا قصاص على الكفيل ، فهذه ثلاثة أقوال في الجمالة بالوجه .
والصواب تفرقة مالك في ذلك ، وأنها تكون في المال ، ولا تكون في جد أو نزع ، على
ما أتى بيانه .

فله نبال ، وَقَالَ يَنْبَغِي لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَحِيدٍ وَادْخُلُوا مِنْ
أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أَغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ
تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٥٨﴾

فيه سبع مسائل :

الأول - لما عزموا على الخروج خشي عليهم العيين ، فأمرهم ألا يدخلوا مصر من باب واحد ، وكانت مصر لها أربعة أبواب ، وإنما خاف عليهم العيين لكونهم أحد عشر رجلا لرجل واحد ، وكانوا أهل جمال وكال وبسطة ، قاله ابن عباس والضحاك وقتادة وغيرهم .

الثاني - وإنما كان هذا معنى الآية فيكون فيها دليل على التحرز من العيين ، والعيين حق ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن العيين لنُدخل الرجل القبر والجمل القنبر " . وفي تمؤذه عليه السلام : " أعوذ بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامة " ما يدل على ذلك . وروى مالك عن محمد بن أبي أمامة بن سهل بن حنيف أنه سمع أبا يقول : أفضل أبو سهل بن حنيف بالأنوار ^(١) فترج حبة كانت عليه ، وعامر بن ربيعة ينظر ، قال ، وكان سهل رجلا أبيض حسن الجلد ، قال فقال له عامر بن ربيعة : ما رأيت كاليوم ولا جلد صفراء ، فوعدك سهل مكانه وأشدت وعك ، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبر أن سهلا ورك ، وأنه غير راض منك يا رسول الله ، فأتاه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخبره سهل بالذي كان من شأن عامر ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " علام يقتل أحدكم أخاه ألا بركت إن العيين حق تروا له " فتروا له عامر ، فراح سهل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس به بأس ، في رواية " أفضل " فنسل له عامر وجهه ويديه وصرقته وركبته وأطراف وجبه وداخل أذنيه في قنح ثم صب عليه ، فراح سهل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس به بأس . وركب سعد بن أبي وقاص يوما فنظرت إليه امرأة فقالت : إن أميركم هذا يعلم أنه أعض الكشميين ، فرجع إلى قتله فسقط ، فبلغه ما قالت المرأة ، فأرسل إليها فنسلت له ، فقى هذين الحديثين أن العيين حق ، وأنها تقتل كما قال صلى الله عليه وسلم ، وهذا قول علماء الأئمة ، ومنه أهل السنة ، وقد أنكره طوائف من المعتزلة ، وهم عجوجون بالسنة وإجماع علماء هذه الأئمة ، وما يشاهد من ذلك في الوجود ، فكيف من وجعل

(١) الأنوار ، ما بالهنية . (٢) برك ، قال يارك الله فيه ، وهذا القول يطل عليه العيين وسال سله .

ادخلته العين القبر ، وكمن جل ظهر ادخلته القبر ، لكن ذلك بمشيئة الله تعالى كما قال :
« وَمَا مِمَّنْ بَضَائِعُ مِنْهُ مِنْ أُسْدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ » . قال الأصمعي : رأيت رجلاً صوّماً سمع بقرة
تعلب فأعجبه فتبعها فقال : أين هذه ؟ فقالوا : الغلانية لبقرة أخرى يورون عنها ، فهلكت
جيباً ، المورى بها والمورى عنها . قال الأصمعي : وسمعت يقول : إذا رأيت النوى بعجني
وجدت حرارة تخرج من عيني .

الثالثة - واجب على كل مسلم أعجبه شيء أن يُبرِّك ، فإنه إذا دعا بالبركة صرف
الصدور لا محالة ، إلا ترى قوله عليه السلام لعاصم : « أَلَا بَرَكْتُ » فدل على أن العين لا تصرف
ولا تمدو إذا برك العائن ، وأنها إنما تمدو إذا لم يُبرِّك . والتبريك أن يقول : تبارك الله
أحسن الخالقين ! اللهم بارك فيه .

الرابعة - العائن إذا أصاب عينه ولم يُبرِّك فإنه يؤمر بالافتسال ، ويحبر على ذلك
إن أباه ، لأن الأمر على الوجوب ، لاسيما هذا ، فإنه قد يخاف على أئمة الملوك ، ولا ينبغي
لأحد أن يمنع أخاه ما ينفع به أخيه ولا يضره هو ، ولا سيما إذا كان بسببه وكان الجاني عليه .
الخامسة - من عرف بالإصابة بالعين منع من مداخلة الناس دفعا لضرره ، وقد

قال بعض العلماء : يأمره الإمام بلزوم بيته ، وإن كان فقيرا رزقه ما يقوم به ، ويكف
أذاه عن الناس ، وقد قيل : إنه ينبغي ، وحديث مالك الذي ذكرناه يرد هذه الأقوال ، فإنه
عليه السلام لم يأمر في حاصر بحبس ولا بنى ، بل قد يكون الرجل الصالح عائداً ، وأنه لا يقدح
فيه ولا يشق به ، ومن قال بحبس ويؤمر بلزوم بيته فذلك احتياط ودفع ضرر ، والله أعلم .

السادسة - روى مالك عن حميد بن قيس المكي أنه قال : دُخل على رسول الله
صلى الله عليه وسلم بأبي جعفر بن أبي طالب فقال لحاضتهما : « مالي أراهما ضارعين »
فقالا لحاضتهما : يا رسول الله ! إنه تسرع إليهما العين ، ولم يمنعهما أن تسترق لهما إلا أنه
لا ندري ما يوافقك من ذلك ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « استترقا لهما فإنه

(١) الحاض : الضيف .

لو مرق فيه القدر صيته للعين . وهذا الحديث مقطع ، ولكنه محفوظ لاسمه بنت
 تمس لتفتنمية من الهى صلى الله عليه وسلم من وجوه ثابتة حصلة صحاح ، وفيه أن الرقى
 مما يستدفع به البلاء ، وإن العين تؤزق الإنسان وتضرعه أى تضعفه وتقله ، وذلك بقضيه
 الله تعالى وقدره . ويقال : إن العين أسرع إلى الضلار منها إلى الكبار ، والله أعلم .

المائة - أمر صلى الله عليه وسلم فى حديث أبى أمامة الثامنى بالانفصال للعين .
 وأمر حن بالانفصال ، قال ملائكة : إنما يترق من العين إذا لم يعرف العائز ، وأما إذا عرف
 الذى أحابه بعينه فإنه يؤمر بالوضوء على حديث أبى أمامة ، والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَتَيْنَا بِكَ مِنْ بَشَرٍ ﴾ أى من نبي ، أحلده عليه ،
 لى لا يفتع الحذر مع القدر . ﴿ إِنِ الْحُكْمُ ﴾ أى الأمر والقضاء . ﴿ لَآ إِلَهَ إِلَّآ اللَّهُ ﴾
 لى أحصلت ووقفت ﴿ عَلَيْهِ تَلْبِيتُ كُلِّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ .

قوله تعالى : وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي
 عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةٌ فِي نَفْسٍ يَفْقَهُونَ قَضَاهَا وَإِنَّهُمْ
 لَغَوَّابٌ خَلِجُوا وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا
 عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَهِسْ وَبِمَا كَانُوا
 يَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ
 ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَتَيْنَا الْعِبرُ إِنَّا كَرُ لَسِرُفُونَ ﴿٤٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ ﴾ أى من أبواب شتى . ﴿ مَا كَانَ
 يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ أى أراد إقناع مكروه بهم . ﴿ إِلَّا حَاجَةٌ ﴾ استثناء ليس من
 الأول . ﴿ فِي نَفْسٍ يَفْقَهُونَ قَضَاهَا ﴾ أى خاطره خاطره قلبه ، وهو وصيته أن يغفروا ،
 قال مجاهد ، خشية العين ، وقد تقدم القول فيه . وقيل : ثلاث يرى الملك عندهم وتزيم

فيطش بهم حسداً أو حذراً، قاله بعض المفسرين، واختاره النحاس، وقال : ولا معنى للسبع هاهنا . ودلت هذه الآية على أن المسلم يجب عليه أن يحذر أخاه بما يخاف عليه، ويرشده إلى ما فيه طريق السلامة والنجاة؛ فإن الدين النصيحة، والمسلم أخو المسلم .

قوله تعالى : (وَإِنَّهُ) يعني يعقوب . (لَدُوْعِي لِمَا عَلَّمْتَهُ) أى بأمر دينه . (وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) أى لا يعلمون ما يعلم يعقوب عليه السلام من أمر دينه . وقيل : و لدو علم ، أى عمل ، فإن العلم أول أسباب العمل ، فسمى ما هو بسببه .

قوله تعالى : (وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ) قال قتادة : منه إليه، وإنزله معه . وقيل : أمر أن يقر كل اثنين في منزل ، فبق أخوه منفرداً فضمه إليه وقال : أشفقت عليه من الوحدة ، وقال له سراً من إخوته : (إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئْسْ) أى لا تخزن (يَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) .

قوله تعالى : (فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِجَهَنَّمَ جَعَلَ الْقَائِلَ فِي رَجُلٍ أُخِيهِ) لما عرف بنيامين أنه يوسف قال له : لا تردني إليهم ، فقال : قد علمت اعتماد يعقوب بي فيزداد غمّه ، فأبى بنيامين الخروج ، فقال يوسف : لا يمكن حملك إلا بعد أن أنسبك إلى ما لا يميل بك : فقال : لا أبالي ! فدفن الصاع في رحله ، إما بنفسه من حيث لم يتطع عليه أحد ، أو أمر بعض خواصه بذلك . والتجهيز التبريع وتبوير الأمر ، ومنه تجهز على الجريح أى قتله ، ويجهز أمره . والسقاية والصواع شيء واحد ، إناؤه رأسان في وسطه مقيض ، كان الملك يشرب منه من الرأس الواحد ، ويكال الطعام بالرأس الآخر ، قاله القشاش عن ابن عباس ، وكل شيء يشرب به فهو صواع ، وأنشد :

• شَرِبْتُ الخمرَ بالصواعِ جَهَارًا •

واختلف في جلسه ؛ فروى شعبة عن أبي بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : كان صواع الملك شيء من فضة يشبه المكوك ، من فضة مريض بالجوهري ، يحصل من الرأس ،

وكان للباس واحد في الجامعة، وسأله مالك بن الأوزق ما الصواع؟ قال : الإماء؛
قال فيه الأعشى :

لَه دَرَسْتُ فِي رَأْسِهِ وَمَشَارِبُ • وَقَدَرْتُ وَطَبَّاعُ صَاعٌ وَدَبَّاسُ

وقال عكرمة : كان من فصه . وقال عبد الرحمن بن زيد : كان من ذهب ، وبه كال طعامهم
مبالغة في إكرامهم . وقيل : إنما كان يكال به لعزة الطعام . والصاع يذكر ويؤث ويؤثت ، فمن
أنته قال : أَوْصُوعٌ ، مثل أَدْوَرُ ، ومن ذكره قال أَوْصُوعٌ ، مثل أنواب . وقال مجاهد
وأبو صالح : الصاع الطَّرِجَمَالَةُ بلفظة خبير . وفيه قراءات : « صُوعٌ » قراءة السامة ؛
و « صُوعٌ » بالنون المعجمة ، وهي قراءة يحيى بن يعمر ؛ قال : وكان إناء أصبح من ذهب .
« وَصُوعٌ » بالعين غير المعجمة قراءة أبي رجا . « وَصُوعٌ » بصاد مضمومة وواو ساكنة
وعين غير معجمة قراءة أبي . « وَصَبَاعٌ » بياء بين الصاد والالف ؛ قراءة سعيد بن جبير .
« وصاع » بالفاء بين الصاد والعين ؛ وهي قراءة أبي هريرة .

قوله تعالى : (ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَتَيْنَاهُ أَلْيَرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ) أى نادى مناد واعلم . « وَأَذَّنَ »
للتكثير ؛ فكانه نادى صراخا « أَتَيْنَاهُ أَلْيَرُ » . والير ما أتمر عليه من الجير والإبل والبغال .
قال مجاهد : كان جريم حيرا . قال أبو صيدة : الير الإبل المرحولة المركوبة ، والمعنى :
يا أصحاب الير ، كقوله : « وأسأل القرية » ويا خيل الله اركبي : أى أصحاب خيل الله ،
وسبأى . وهنا اعتراضان : الأول - إن قيل : كيف رضى بنيامين بالتعود طوعا وفيه حقوق
الأب بزيادة الحزن ، وواقفه على ذلك يوسف ؟ وكيف نسب يوسف السرقة إلى إخوته
وهم براء وهو - الثاني - فالجواب عن الأول : أن الحزن كان قد غلب على يعقوب
بحيث لا يؤثر فيه فقد بنيامين كل التأثير ، ألا تراه لما فقدته قال : « يا أسفا على يوسف »
ولم يترج على بنيامين ، ولعل يوسف إنما واقفه على التعود بوسى ، فلا اعتراض . وأما نسبة

(١) البيت : عنوان من فصح . والبيت من قصيدة يمدح بها الحق طلمبا .

أرئت وما هذا الهاد السؤر ؟ وما بين من سقم وما بين مشق

وصف السرقه الى اخوته قاجواب : ان القوم كانوا قد سرقوه من ابيه فاقوه في الحب ،
ثم دعوه ، فابتعدوا هذا الاثم بذلك الفعل ، فصلى اطلاق ذلك طبعه . جواب آخر -
وهو انه اخط ابنها كغيره حاله لسرقه ، والمعنى : ان شيئا لنترك صار عندكم من غير
رضا للملك ولا لله . جواب آخر وهو ان ذلك كان حيله لا اجتماع شمله باخيه ، وفصله
عنهم اليه ، وهذا بناء على ان بنيامين لم يعلم يدس الصاع في رحله ، ولا اخبره بنفسه . وقد
قبل : ان معنى الكلام الاستغناء ، اى اريدكم لسارقون ، كقوله : هـ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ لِّى
لَوْ تِلْكَ نِعْمَةٌ مِنِّىْ هَلْ ؟ والغرض الا يرمى الى يوسف للكتب .

قوله تعالى : قَالُوا وَاقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٦٦﴾ قَالُوا نَقْضُ
صَوَاعَكَ عَلَيْنَا وَلَمْ يَجَأْ بِهِمْ حِمْلٌ بَعِيرٌ وَأَنَا بِهِمْ زَعِيمٌ ﴿٦٧﴾

له سبع سائل

الاول : قوله تعالى : (وَلَمْ يَجَأْ بِهِمْ حِمْلٌ بَعِيرٌ وَأَنَا بِهِمْ زَعِيمٌ) . الجبر هنا الجمل في قول اكمة
المفسرين . وقيل : انه الخمار ، وهى لغة لبعض العرب ، قاله مجاهد واختاره . وقال مجاهد
الزعم هو اللؤلؤ الذى قال : هـ ابنا العير . والزعم والكفيل والميل والضمين والقبيل
سواء . والزعم الزمى .

تعالى

مَا نَزَعْتُمْ مِنْهُ لَمْ يَحْتِمْ لَكُمْ . بغير تى به الفرائى انذوا

(١) حرامه القيس . وهراوى : سبع سبع ورت . جدى الأسد كان يند السارح . وهو فارس
سريع . بالازدور . للطاق في شدة . اى ان ملكه يصرق له سببا شديدا . بل من العراق من
قله الباب .

وقالت ليل الأخبيلة ترى أحامها^(١)

وَعُخْرِي عَنْ الْقَبْرِ تَحَالُهُ • يَوْمَ الْقِيَامِ مِنَ الْحَيَاءِ سَيِّئًا
حَسْبِيَ إِذَا رَفَعَ اللّٰوَاءَ رَأَيْتُهُ • [تَحْتَ اللّٰوَاءِ] عَلَى الْخَيْسِ زَيْبًا

الثانية - إن قيل: كيف ضمن حمل البعير وهو مجهول، وضمان المجهول لا يصح؟ قيل له: حمل البعير كان معينا معلوما عندهم كالنوق؛ فصح ضمانه، غير أنه بدل مال للسارق، ولا يحمل للسارق ذلك، ففعله كان يصح في شرعهم، أو كان هذا جملة، وبذل مال لمن يفتش ويطلب.

الثالثة - قال بعض العلماء: في هذه الآية دليلان: أحدهما - جواز الحمل وقد أجاز للضرورة؛ فإنه يجوز فيه من الجهالة ما لا يجوز في غيره؛ فإذا قال الرجل: من فصل كذا فله كذا صح. وشأن الحمل أن يكون أحد الطرفين معلوما والآخر مجهولا للضرورة إليه، بخلاف الإجارة؛ فإنه يتقدر فيها العوض والمعوض من الجهتين؛ وهو من العقود الجائزة التي يجوز لأحدهما فسخه، إلا أن المجهول له يجوز أن يفسخه قبل الشروع بعده، إذا رضى بإسقاط حقه، وليس للفاعل أن يفسخه إذا شرع المجهول له في العمل. ولا يشترط في عقد الحمل حضور المتعاقدين، كسائر العقود؛ فقله: «وَلَيْسَ جَاءَ بِهِ حِلٌّ يَبِيرُ» وبهذا كله قال الشافعي.

الرابعة - متى قال الإنسان: من جاء بعبدى الآبق فله دينار لزمه ما جعله فيه إذا جاء به، فلو جاء به من غير ضمان لزمه إذا جاء به حل طلب الأجرة؛ وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من جاء بآبق فله أربعمائة درهم» ولم يفصل بين من جاء به من عقد ضمان أو غير عقد. قال ابن خزيمة: «ولم يثبت أن الأجر لغيره»؛ لأن من فعل بالإنسان ما يجب عليه أن يفعله بنفسه من مصالحه لزمه ذلك، وكان له أجر مثله إن كان ممن يفضل ذلك بالأجر.

قلت: وخالفنا في هذا كله الشافعي.

(١) كذا في الأصل ولله تروية - وفي هفتة عرق القبيص أقوال: الأول - أن ذلك إشارة إلى جلب العاقلة - الثاني - أنه يؤثر بجهد يابه يكسوها ويكنى بمأزما - الثالث - أنه عبط المالك؛ وإذا كان كذلك أسرع الخرق إلى قبضه - الرابع - أنه كثير الزروات متصل الأسفار؛ فقصه منخرق لذلك.

(٢) كذا في «أمال القائل» «وقلنر والنمر» «والحاسة» وفي الأصول: يوم المباح.

قائمة - الليل الثاني - جواز الكفالة على الرجل ؛ لأن المؤذن الصائم هو
 في يومه عليه السلام . قال جماعة : إذا قال الرجل تحملت أو تكفلت أو صمت أو ما
 تحيل لك أو زعم أو تكفيل أو ضمان أو قيسل ، أو هو لك عندى أو على أو إلى أو قبل
 فنكاح كله حسمالة لازمة . وقد اختلف الفقهاء فيمن تكفل بالنفس أو بالوجه ؛ هل يلزمه
 ضمان المال أم لا ؟ فقال الكوفيون : من تكفل بنفس رجل لم يلزمه الحق الذي على المطلوب
 إن مات ؛ وهو أحد قولى الشافعى في المشهور عنه . وقال مالك والليث والأوزاعى : إذا
 تكفل بنفسه وعليه مال فإنه إن لم يأت به غرم المال ، ويرجع به على المطلوب ؛ فإن اشترط
 ضمان نفسه أو وجهه وقال : لا ضمن المال فلا شيء عليه من المال ؛ والجمعة لمن أوجب
 غرم المال أنه الكفيل قد علم أن المضمون وجهه لا يطلب بدم ، وإنما يطلب بمال ؛
 فإذا ضمنه له ولم يأت به فكأنه فوته عليه ، وعزه منه ؛ فذلك لزمه المال . وأخرج الطحاوى
 للكوفيين فقال : أما ضمان المال يموت المكفول فلا معنى له ؛ لأنه إنما تكفل بالنفس
 ولم يتكفل بالماله ؛ فحال أن يلزمه ما لم يتكفل به .

السادسة - واختلف العلماء إذا تكفل رجل عن رجل بمال ؛ هل للطالب أن يأخذ
 من شاء منهما ؟ فقال الثوري والكوفيون والأوزاعى والشافعى وأحمد وإسحق : يأخذ من
 شاء حتى يستوفى حقه ؛ وهذا كان قول مالك ثم رجع عنه فقال : لا يؤخذ الكفيل إلا أن
 يفسس الغرم أو يغيب ؛ لأن التبديء بالذى عليه الحق أولى ؛ إلا أن يكون معدما فإنه يؤخذ
 من الحيل ، لأنه معذور في أخذه في هذه الحالة ؛ وهذا قول حسن . والقياس أن للرجل
 مطالبة أى الرجلين شاء . وقال ابن أبى ليلى : إذا ضمن الرجل عن صاحبه ما لا تحول على
 للكفيل وبرئ صاحب الأصل ، إلا أن يشترط المكفول له عليهما أن يأخذ منهما شاء ؛
 وأخرج جماعة المبت من الذين بضمان أبى قتادة ؛ ونحوه قال أبو ثور .

(١) الحديث ؛ ودى سقن الأكرح أن لقي صل الله عليه وسلم آتى بختارة فقال : " هل عليه من دين ؟ " قالوا :
 " لا " ، قال : " هل ترك شيئا ؟ " قالوا : " لا " ، قال : " صلوا على صاحبكم " قال أبو قتادة : صل عليه يا رسول الله
 وعلى دينه ؛ فصل عليه .

السابعة - الزمانة لا تكون إلا في المحسوف التي تجسوذ النابة فيها ، ها يتلقى بالذمة من الأموال ، وكان ثابتاً مستقراً ، فلا تصح الجمالة بالكتابة لأنها ليست بدين ثابت مستقر ، لأن العبد إن عجز رقب وأقصخت الكتابة ، وأما كل حق لا يقوم به أحد من أحد كالحدود فلا كفالة فيه ، ويسجن المدعى عليه الحد ، حتى ينظر في أمره . وشذ أبو يوسف وعبد فاجازا الكفالة في الحدود والقصاص ، وقالوا : إذا قال المذنبوف أو المدعى القصاص بيتى حاضرة كفه ثلاثة أيام ، وأخرج لهم الطعاوى بما رواه حمزة ابن عمرو عن عمرو ابن مسعود وجرير بن عبد الله والأشعث أنهم حكوا بالكفالة بالنفس بمحض الصحابة .

قوله تعالى : **قَالُوا تَاللّٰهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ** (٢٠) **قَالُوا قَسَا جَزَاءُہٗ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ** (٢١) **قَالُوا جَزَاءُہٗ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِہٖ فَہُوَ جَزَاءُہٗ كَذٰلِكَ نَجْزِی الظَّالِمِیْنَ** (٢٢) قوله تعالى : (**قَالُوا تَاللّٰهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ**) يروى أنهم كانوا لا ينزلون على أحد ظلماء ، ولا يرعون زرع أحد ، وأنهم جمعوا على أفواء إبلهم ألا تكة لئلا تميت في زروع الناس . ثم قال : (**وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ**) يروى أنهم رذوا البضاعة التي كانت في رحالهم ، أى لمن رذ ما وجد فكيف يكون سارقاً ؟ !

قوله تعالى : (**قَالُوا قَسَا جَزَاءُہٗ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ**) المعنى : فما جزاء الفاعل إن بان كذبكم ؟ فاجاب إخوة يوسف : (**جَزَاءُہٗ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِہٖ فَہُوَ جَزَاءُہٗ**) أى يستعبد أو ترق . « جزاءه » مبتدأ ، و « مَن وُجِدَ فِي رَحْلِہٖ » خبره ، والتقدير : جزاءه استعبد من وُجِدَ فِي رَحْلِہٖ ، فهو كناية عن الاستعبد ، وفي الجملة معنى التوكيد ، كما تقول : جزاء من سرق القطع فهذا جزاءه . (**كَذٰلِكَ نَجْزِی الظَّالِمِیْنَ**) أى كذلك فعل في الظالمين إذا سرقوا أن يُسْتَرْقُوا ، وكان هذا من دين يعقوب عليه السلام وحكمه . وقولهم هذا قول من لم يتقرب بنفسه

لأنهم التزموا استرقاق من وجد في رحله ، وكان حكم السارق عند أهل مصر أن يرمى ضحي ما أخذ ؛ قاله الحسن والسدي وغيرهما .

مسئلة - قد عذم في سورة المائدة أن القبط في السرقة ناسخ لما عذم من الشرائع ، لو لما كان في شرع يعقوب من استرقاق السارق ، والله أعلم .

قوله تعالى : قَبْدًا بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كَدْنَا لْيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ تَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٦١﴾

قوله تعالى : (قَبْدًا بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ) إنما بدأ يوسف برحالم لنفى التهمة والزينة من قلوبهم إن بدأ بوعاء أخيه . والوعاء يقال بضم الواو وكسرهما ، لنتان ؛ وهو ما يحفظ فيه المتاع ويصونه . (ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ) بنى بنيامين ؛ أى استخرج السقاية أو الصواع حد من رؤيت ، وقال : « ولئن جاء به » فذكر ؛ فلما رأى ذلك إخوته نكسوا وجوههم وظنوا للظنون كلها ، وأقبلوا عليه وقالوا : وطك يا بنيامين ! ما رأينا كاليوم قط ، ولست لك « لمسيل » آخرين لصين ! قال لهم أخوهم : والله ما سرقه ، ولا علم لي بين وضعه في متاعى . وروى أنهم قالوا له : يا بنيامين ! أسرقت ؟ قال : لا والله ؛ قالوا : فن جمل الصواع في رحلك ؟ قال : الذى جعل البضاعة في رحالك . ويقال : إن المفضش كان إذا فرغ من رحل رجل استخراقه من رحل نائب من فعله ذلك ، وظاهر كلام قتادة وغيره أن هذا تخفف كان يوسف ؛ لأنه كان يفتشهم ويسلم أين الصواع حتى فرغ منهم ، وأتى إلى رحل بنين فقال : ما أظن هذا الفتى رضى بهذا ولا أخذ شيئا ، فقال له إخوته : والله لا نبيع حتى نخففه ؛ فهو أطيب لتسك ونفوسنا ؛ ففتش فأخرج السقاية ؛ وهذا التفتيش من يوسف يقتضى لأن المؤذن سرقهم برأيه ؛ فيقال : إن جميع ذلك كان بأسر من الله تعالى ؛ ويغوى ذلك قوله تعالى : « كَذَلِكَ كَدْنَا لْيُوسُفَ » .

قوله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ يَكُونُ يُوسُفَ ﴾ .

فيه ثلاث مسائل :

الأولى - قوله تعالى : « كَذْنَا » معناه صنعنا ؛ عن ابن عباس . الفتنى : دبرنا .
ابن الأنبارى : أردنا ؛ قال الشاعر :

كادت وكدت وتلك خير إرادة • لو عاد من عهد الصبا ما قد مضى

وفيه جواز التوصل إلى الأغراض بالحيل إذا لم تخالف شريعة ، ولا هدمت أصلا ، خلافا
لأبي حنيفة في تجويزه الحيل وإن خالفت الأصول ، وتحرمت التحيل .

الثانية - أجمع العلماء على أن للرجل قبل حلول الحول التصرف في ماله بالبيع
والهبة إذا لم ينو الفرار من الصدقة ؛ وأجمعوا على أنه إذا حال الحول وأظن الساعى أنه لا يميل
له التحيل ولا التقصان ، ولا أن ينفق بين مجتمع ، ولا أن يحسب بين منفرد . وقال مالك :
إذا فوت من ماله شيئا ينوى به الفرار من الزكاة قبل الحول بشهر أو نحوه لم يمت الزكاة عند
الحول ، أخذنا منه بقوله عليه السلام : « خَشِيَ الصَّدَقَةَ » . وقال أبو حنيفة : إن نوى
بتفريقه الفرار من الزكاة قبل الحول يوم لا يصره ؛ لأن الزكاة لا يلزم إلا بتمام الحول ،
ولا يتوجه إليه معنى قوله : « خَشِيَ الصَّدَقَةَ » إلا حينئذ . قال ابن العربي : سمعت أبا بكر
محمد بن الوليد الفهري وغيره يقول : كان شيخنا قاضي الفضاة أبو عبد الله محمد بن علي
الذامغانى صاحب عشرات آلاف من المال ، فكان إذا جاء رأس الحول دعا به فقال له :
كبرت سننى ، وضعت فوقى ، وهذا مال لا احتاجه فهو لك ، ثم يخرج به يحمله الرجل على
أعناقهم إلى دور فيه ؛ فإذا جاء رأس الحول ودعا به لأمر قالوا : يا أبانا ! إنما لنا حياتك ،
وأما المال فامنى رضى لنا فيه مادمت حيا ؛ أنت ومالك لنا ، نخفف إليك ، ووصل الرجل
به حتى يضمه بين يديه ، فيرده إلى موضعه ؛ ثم يبدل الملك إسقاط الزكاة على رأى أبي
حنيفة في التفرق بين المجتمع ، والجمع بين المنفرد ، وهذا خطب طبع ؛ وقد صف البخارى
رضي الله عنه في جملة كاذبا مفسونا فقال : « كذب الحيل » .

قلت : وزعم فيه إربابا منها : « باب الزكاة والافترق بين مجتمع ولا يجمع بين متفرق خشة الصدقة » . وأدخل فيه حديث أنس بن مالك ، وأن إبا بكر كتب له فريضة الصدقة ، وحديث طلحة بن عبيد الله أن أعرابيا جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فآثر الرأس ، الحديث ؛ وفي آخره : « أطلع إن صدق » أو « دخل الجنة إن صدق » . وقال بعض الناس : في حشرين ومائة بغير حقتان ، فإن أهلكها متعمدا أو وهبها أو احتال فيها فرارا من الزكاة فلا شيء عليه ؛ ثم أورد في بحيت أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يكون كثر أحدكم يوم القيامة شجاعا أقرع له زببتان ويقول أنا كثر » الحديث . قال المهلب : إنما قصد البخاري في هذا الباب أن يعرف أن كل حيلة يتحيل بها أحد في إسقاط الزكاة فإن إثم ذلك عليه ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم لما منع من جمع النعم وتغريها خشة الصدقة فهم منه هذا المعنى ، وفهم من قوله : « أطلع إن صدق » أن من رام أن ينقص شيئا من فرائض الله بحيلة يمتثلها أنه لا يفلح ، ولا يقوم بذلك عند الله ؛ وما أجازة الفقهاء من تصرف صاحب المال في ماله قرب حلول الحول إنما هو ما لم يرد بذلك الحسب من الزكاة ؛ ومن نوى ذلك فالإثم عنه غير سافط ، والله حسيه ؛ وهو كن فر من صيام رمضان قبل رؤية الهلال بيوم ، وأستعمل سفرا لا يحتاج إليه ؛ وغبة عن فرض الله الذي كتبه الله على المؤمنين ؛ فالوعيد متوجه عليه ؛ ألا ترى عقوبة من منع الزكاة يوم القيامة بأى وجه متعمدا كيف نظوه الإبل ، ويمثل له ماله شجاعا أقرع ؟ وهذا يدل على أن القراء من الزكاة لا يحل ، وهو مطالب بذلك في الآخرة .

ثالثة - قال ابن العربي : قال بعض علماء الشافعية في قوله تعالى « وَكَذَلِكَ نُكَفِّرُ يَوْسُفَ فِي الْأَرْضِ » دليل على وجه الحيلة إلى المباح ، واستخراج الحقوق ؛ وهذا وهم عظيم ، وقوله تعالى : « وَكَذَلِكَ نُكَفِّرُ يَوْسُفَ فِي الْأَرْضِ » قبل فيه : كما مكث يوسف بئس منه من أمراء العزيز سبحانه يئس الأرض عن العزيز ، أو مثله مما لا يشبه ما ذكره . قال الشافعي ، ومثله قوله عز وجل : « وَخَذَ يَدُكَ يَمِينًا فَانْحَرْبِ يَدَ وَلَا تَحْتَسِبْ » وهذا ليس

حيلة ، إنما هو حمل لليمين على الأيسر أو على المقاصد . قال الشعوى : ومثله حديث أبى سعيد الخدرى في عامل حير أنه أتى النبي صلى الله عليه وسلم بتمر جنيب ، الحديث ، ومقصود الشافية من هذا الحديث أنه عليه السلام أمره أن يبيع جمعا ويتاع جنيبا من الذى باع منه الجمع أو من غيره . وقالت المسكية : معناه من غيره ؛ لئلا يكون جنيبا بجمع ، والدراهم ربا ، كما قال ابن عباس : جريرة بجريرة والدراهم ربا

قوله تعالى : (في ذي النون) أى سلطانها ، عن ابن عباس . ابن عيسى : عاده ، أى بظلم بلا حجة . مجاهد : في حكمه ، وهو استرقاق الثبراق . (إلا أن يشاء الله) أى إلا بأن يشاء الله أن يجعل السقاية في رحله ثملة وعدرا له . وقال قتادة : بل كان حكم الملك الضرب والفرم صغيفين ، ولكن شاء الله أن يجرى على الستم حكم بنى إسرائيل ، على ما تقدم .

قوله تعالى : (ترفع درجات من نشأ) أى بالمعلم والإيمان . وقرئ « نرفع درجات من نشأ » بمعنى : نرفع من نشأ درجات ؛ وقد مضى في « الأعمام » وقوله : (و فوق كل ذي علم عليم) روى إسرائيل عن يثاك عن عكرمة عن ابن عباس قال : يكون ذا علم من ذا ، وذا أعلم من ذا ، والله فوق كل عالم . وروى سفيان عن عبد الأعلى عن سعيد بن جبيرة قال : كما عند ابن عباس رحمه الله فتحدث بحديث فتعجب منه رجل فقال : سبحان الله ! وفوق كل ذي علم عليم ، فقال ابن عباس : بنس ما قلت ؛ الله العليم وهو فوق كل عالم .

قوله تعالى : قالوا إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل فأسرها يوسف في نفسه . ولم يبيدها لهم قال أنتم شر مكانا والله أعلم بما تصفون ﴿٧٦﴾ قالوا يتأبها العزيز إن له أبا شيئا كبيرا فعخذ أحدها مكانه ﴿٧٧﴾ إنا نراك من المحسنين ﴿٧٨﴾ قال معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده ﴿٧٩﴾ إنا إذا لظالمون ﴿٨٠﴾

(١) الجمع آخر غلط من أنواع عسرة ، وليس مرعيا له . (٢) كما في الأصل على إسكان هراء ومن هراء . (٣) تابع ٧٧ ص ٢٠ وما بعدها على أصله ٢٠٤

قوله تعالى : (قَالُوا إِنَّ يَسْرِقَ قَدْ سَرَقَ أَخٌ لهُ مِنْ قَبْلُ) المعنى : اى اقتدى
 بآخيه ، ولو اقتدى بما سارق ، وإنما قالوا ذلك ليرموا من فعله ، لأنه ليس من أمهم ،
 وأنه ابن سرق فقد جدبه عرق أخيه السارق ، لأن الاشتراك فى الأسباب يشاكل
 فى الأخلاق . وقد اختلفوا فى السرفة التى نسبوا إلى يوسف ، فروى عن مجاهد وغيره
 أن عمه يوسف بنت إسمحق كانت أكبر من يعقوب ، وكانت حارث إليها منطقة إسمحق لسنها ،
 لأنهم كانوا يتوارثون بالسرة ، وهذا مما يسيخ حكمه بشرعنا ، وكان من سرق استعبد .
 وكانت عمه يوسف حضنته وأحبته حباً شديداً ، فلما زرع وشب قال لها يعقوب : سلى
 يوسف إلى ، فقلت أقدر أن يغيب عنى ساعة ، فولمت به ، واشغفت من فراقه ، فقالت له :
 دعه عندي أيا ما أنظر إليه . فلما خرج من عندها يعقوب عمدت إلى منطقة إسمحق فخرمتها
 حل يوسف من تحت ثيابه ، ثم قالت : لقد فقدت منطقة إسمحق ، فانظروا من أخذها ومن
 أصابها ، فالتفت ثم قالت : اكشفوا أهل البيت فكشفوا ، فوجدت مع يوسف . فقالت :
 إنه والله لى سلم أصنع فيه ما شئت ، ثم أتتها يعقوب فأخبرته الخبر ، فقال لها : أنت وذلك ،
 إن كان فعل ذلك فهو سلم لك ، فأسكنته حتى ماتت ، فبذلك عبرة إخوته فى قولهم : وإن يسرق
 فقد سرق أخ له من قبل . ومن هاهنا تعلم يوسف وضع السقاية فى رجلي أخيه كما عملت به
 عمته . وقال سعيد بن جبير : إنما أسرته أن يسرق صفاً كان يلتمه إلى أمه ، فسرفة وكسره وألقاه
 على الطريق ، وكان ذلك منهما تنبيهاً للكر ، فرموه بالسرفة وعبروه بها ، وقاله قتادة . وفى كتاب
 الزجاج أنه كان صنم ذهب . وقال عطية التوفى : إنه كان مع إخوته على طعام فنظر إلى عرق^(١)
 نخباء فعبّوه بذلك . وقيل : إنه كان يسرق من طعام المساندة للساكنين ، حكاه ابن عيسى .
 وقيل : إنهم كذبوا عليه فيما نسبوا إليه ، قاله الحسن .

قوله تعالى : (فَأَتَرَهَا يَوْسُفُ فِي قَبْرِهِ وَلَمْ يُنَبِّحْهَا لَمَّا) اى أسرني فسه فوهم :
 « إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل » قاله ابن حجر وابن عيسى . وقيل : إنه أسرني فسه

قوله : « أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانٍ » ثم جهر فقال : « والله أعلم بما تصفون » أى الله أعلم أن ما قلتم كذبى وإن ، فكانت لله رضا . وقد قيل : إن إخوة يوسف في ذلك الوقت ما كانوا أنبياء .
قوله تعالى : (قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ) عاطبوه باسم العزيز إذ كان في تلك اللحظة بمنزل الأول^(١) أو موته . وقولهم : « إن له أباً شيخاً كبيراً » لغة كبير القدر ، ولم يريدوا كبر السن ، لأن ذلك معروف من حال الشيخ . « فخذ أحداً مكانه » أى عبداً بدلاً ، وقد قيل : إن هذا مجاز ، لأنهم يعلمون أنه لا يصح أخذ حريستى بدلاً من قد أحكت السنة عندهم رقه ، وإنما هذا كما تقول لمن نكره فعله : أقتنى ولا تفعل كذا وكذا ، وأنت لا تريد أن يفتلك ، ولكنت مبالغ في استزاله . ويحتمل أن يكون قولهم : « فخذ أحداً مكانه » حقيقة ، وسيد عليهم وهم أنبياء أن يروا استرقاق حرم ، فلم يبق إلا أن يريدوا بذلك طريق الحسالة ، أى خذ أحداً مكانه حتى ينصرف إليك صاحبك ، ومقصدهم بذلك أن يصل بنيامين إلى أبيه ، ويعرف بقبوع جلية الأمر ، فنع يوسف عليه السلام من ذلك ، إذ الحسالة في الحدود ونحوها — معنى إحضار المضمون فقط — جائزة مع التراضى ، فيلزم إذا أبى الطالب ، وإما الحسالة في مثل هذا على أن يلزم الحبيب ما كان يلزم المضمون من عقوبة ، ولا يجوز إجماعاً ، وفي « الواحصة » أن الحسالة في الوجه فقط في الحدود جائزة ، إلا في النفس . وجمهور الفقهاء على جواز الكفالة في النفس . واختلف فيها عن الشافعى ، فترى ضعفها وصرحة أجازها .

قوله تعالى : (إِنْ تَرَأَيْتَ مِنَ الْمُتْحَسِنِينَ) يحتمل أن يريدوا وصفه بما رأوا من إحسانه في جميع أعماله مهم ، ويحتمل أن يريدوا : إنا نرى لك إحساناً علينا في هذه اليد إن أسديتنا إليك ، وهذا تأويل آين أحسن .

قوله تعالى : (قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ) مصدر . (أَنْ تَأْخُذَ) في موضع نصب ، أى من آت تأخذ . (إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا) في موضع نصب « نأخذ » . (مَتَاعًا هُنَا) أى معاذ الله إن تأخذ البرى ، بالمجرم ، ويخالف ما نعاقدنا عليه . (إِنْ أَلْمَأَزَمُوا) أى أن تأخذ فيه

قوله تعالى : فَلَمَّا اسْتَيْسَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوَثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِىَ أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لى وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٥﴾

قوله تعالى : (فَلَمَّا اسْتَيْسَسُوا مِنْهُ) أى يسوا ، مثل غيب واستمع ، وتيسر واستنخر . (خَلَصُوا) أى أفردوا وليس هو معهم . (نَجِيًّا) نصب على الحال من المصدر . فى . خلصوا . وهو واحد يؤذى عن جمع ، كما فى هذه الآية ، ويقع على الواحد كقوله تعالى : وَفَرَّقْنَاهُ نَجِيًّا . وجمعه أنجيه ، قال الشاعر :

إِنْ إِنَّا مَا الْقَوْمُ كَانُوا أَنْجِيَةً . وَأَضْطَرَبَ الْقَوْمُ اضْطِرَابَ الْأَرِيَّةِ
هَئَاكَ أَرِيْسَنِي وَلَا تُوصِي بِهِ .

وفرا ابن كثير : استأيسوا . ولا تأيسوا . إنه لا يأيس . أقلم يأيس . بالف من غير همز على القلب ، فقلت الهزمة وأثرت الياء ، ثم قلت الهزمة ألفا لأنها ساكنة قبلها تنص ، والأصل قراءة الجماعة ، لأن المصدر ما جاء إلا على تقديم الياء - ياسا - والإيأيس ليس بمصدر أيس ، بل هو مصدر أئسه أوأا وإيأسا أى أعطيه . وقال قوم : أيس ويسل لثان ، أى فلما يسوا من رذ أخيم إليهم تساوروا فيما بينهم لا يخالطهم غيرهم من الناس ، يتناجون فيما عرض لهم . والنجى قيل بمعنى الناس .

قوله تعالى : (قَالَ كَبِيرُهُمْ) قال قتادة : هو روبيل ، كان أكبرهم فى السن . مجاهد : هو شمعون ، كان أكبرهم فى الرأى . وقال الكلبي : يونا ، وكان أعظمهم . وقال عبد بن كعب وابن إسحق : هو لادى ، وهو أبو الأنبياء . (أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ)

(٨٥) هو صهيون بن روبيل الذى يرمى بحد ثوبا اسمه همد والسر ، فهدا بل ركام ، واضطربوا طيا ، وهدا هدم على فاعلة مضارع . دليل . إنما هدمه فلا قول الأمر المهم . والاربية لالحال أى يسل بها ، والمراد الله المتسلط على من لا يرمى (أى لادى) باليد لا بالخطوة .

مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ) أى عهدا من الله فى حفظ أبنه؛ وردّه إليه. (وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ)
« ما » فى عمل نصب عتقا على « أَنْ » والمعنى : ألم تعلموا أن أياكم قد أخذ عليكم موقعا
من الله، وتعلموا تفريطكم فى يوسف؛ ذكره النحاس وغيره. و « مِن » فى قوله : « وَمِن
قَبْلُ » متعلقة بهتعلما. ويجوز أن تكون « ما » زائدة؛ فيتعلق الظرفان اللذان هما « من قبل »
و « فى يوسف » بالفعل وهو « فرطتم ». ويجوز أن تكون « ما » والفعل مصدرا، و « من
قبل » متعلقا بفعل مضمر؛ التقدير : تفريطكم فى يوسف واقع من قبل؛ فالفعل
فى موضع رفع بالابتداء، والخبر هو الفعل المضمر الذى يتلقى به « من قبل ». (فَلَمَّا أَتَتْ
الْأَرْضَ) أى الزمها، ولا أبرح مقيا فيها؛ يقال : بَرِحَ بَرَّاحًا وَبُرُوحًا أى زال، فإذا دخل
النفى صار مثبتا. (حَتَّى بَازَّذَ لِي أَبِي) بالرجوع فإني استحي منه. (أَوْ يَحْكُمُ اللَّهُ لِي) بالمر
مع أمي فأضى معه إلى أبي. وقيل : المعنى أو يحكم الله لي بالسيف فأحارب وأخذ أمي،
أو أعجز فأصرف بعذر، وذلك أن يعقوب قال : «لئلا تأتي بي إلا أن يحاط بكم» ومن حاربه
وتعجز فقد أحبط به؛ وقال ابن عباس : وكان يهودا إذا غضب وأخذ السيف فلا يرده وجهه
مائة ألف؛ يقوم شعره فى صدره مثل المسأل فتنفذ من ثيابه. وجاء فى الخبر أن يهودا قال
لأخوته — وكان أشدّهم غضبا — : إما أن تكفوني الملك ومن معه أكفكم أهل مصر؛
وإما أن تكفوني أهل مصر أكفكم الملك ومن معه؛ قالوا : بل أكفنا الملك ومن معه تكفك
أهل مصر؛ فبعت واحدا من إخوته فعدوا أهواق مصر فوجدوا فيها تسعة أسواق؛ فأخذ
كل واحد منهم سوقا؛ ثم إن يهودا دخل على يوسف وقال : أيها الملك ! لئن لم تخنل معنا
أخانا لأصيحن صبيحة لا تبقي فى مدينتك حاملا إلا أسقطت ما فى بطنها؛ وكان ذلك خاصا
فيهم عند الغضب؛ فأغضبه يوسف واسمعه كلمة، فنضب يهودا وأشدّ غضبه، وأنشجت
شعراته؛ وكذا كان كل واحد من بني يعقوب؛ كان إذا غضب، أفسدت جلده، وانتفخ جسده،
وظهرت شعراته ظهره من تحت التوب، حتى تهر من كل شعرة قطرة دم؛ وإذا ضرب
الأرض برجله ترتلت وتبهت البليان، وإن صاح صبيحة لم تسمع حامل من النساء واليهائم

والداير إلا وضعت ماني بطنها، تماما أو غير تمام؛ ولا يهدأ غضبه إلا أن يسبك دما، ارتسكه يد من قتل يعقوب، فلما علم يوسف أن غضب أخيه هوذا قد تم وكل كظم ولدا له صغيرا بالقبطية، وأمره أن يضع يده بين كفتي هوذا من حيث لا يراه، ففعل ففكن غضبه وألقت السيف، فالتفت يمينا وشمالا لعله يرى أحدا من إخوته فلم ير؛ فخرج مسرعا إلى إخوته وقال: هل حضرتي منكم أحد؟ قالوا: لا! قال: فأين ذهب شمسو؟ قالوا: ذهب إلى الجبل؛ فخرج فلقبه، وقد أحتمل صخرة عظيمة؛ قال: ما تصنع بهذه؟ قال: أذهب إلى السوق الذي وقع في نصبي أشدخ بها رهوس كل من فيه؛ قال: فارجع فردّها أو ألقها في البحر، ولا تحدث حديثا؛ فوالذي أخذ إبراهيم خيلا! لقد سئى كُف من قتل يعقوب، ثم دخلوا على يوسف، وكان يوسف استنهم بطشا، فقال: يا مشر العبرانيين! أنظنون أنه ليس أحد أشد منكم قوة، ثم عمد إلى سحجر عظيم من حمارة الطاحون فركّه برجله فدحا به من خلف الجدار سائر كل الضرب بالرجل الواحدة؛ وقد ركة ركة؛ قاله الجوهري - ثم أمسك هوذا بإحدى يديه فصرعه، وقال: هات الخنطادين أقطع أيديهم وأرجلهم وأضرب أعناقهم، ثم صعد على سريره، وجلس على فراشه، وأمر بصواعه فوضع بين يديه، ثم قرع لقرع فخرج طينه، فالتفت إليهم وقال: أندرون ما يقول؟ قالوا: لا! قال: فإنه يقول: إنه ليس على قلب أبي هؤلاء هم ولا غم ولا كرب إلا بسببهم، ثم قرع قرع ثانية وقال: إنه يخبرني أن هؤلاء أخذوا أخا لهم صغيرا غسدهوه وزعوه من أيهم ثم ألقوه؛ فقالوا: أيها العزيز! أكثر علينا سر الله عليك، وأمن علينا من الله عليك؛ ففسره قرع ثالثة وقال إنه يقول: إن هؤلاء طرحوا صغيرهم في الجلب، ثم باعوه بيع الميّد بجن بخس، وزعموا لأبيهم أن الذئب آكله؛ ثم قرع رابعة وقال: إنه يخبرني أنكم أذنبتم قتيلا متين سنة لم تستغفروا الله عنه، ولم تتوبوا إليه؛ ثم قرع خامسة وقال إنه يقول: إن أخاهم الذي دعوا أنه هلك لن تذهب الأيام حتى يرجع فيخبر الناس بما صنعوا، ثم قرع سابعة وقال إنه يقول: لو كنتم كأيديكم لو كنتم ما كنتم ولا عفتكم والدكم، لأجهلكم نكالا للمالئين - كثيرى الخنطادين أقطع

نعم أن أبتك يسرق ويصير أمرنا إلى هدا، وإعسا فلنا : يحفظ أخانا فيا تطيق . وقال
أبن عباس : يمتون أنه سرق لبلا وهم نيام، والنيب هو اللبل بلفظ جبر ، وعنه : ما كنا نعلم
ما يصنع في ليلة ونهاره وذهابه وإياه . وقيل : ما دام يبرأى منا لم يجر حلال ، فلما قاب عنا
خفيت عنا حالته . وقيل معناه : قد أخذت السرقة من رحله ، ونحن أخرجناها وننظر إليها ،
ولا علم لنا بالنيب ، فلملم سرقه ولم يترك .

الثانية - تضمنت هذه الآية جواز الشهادة بأى وجه حصل العلم بها ، فإن الشهادة
مرتبطة بالعلم عقلا وشرعا ، فلا تسمع إلا ممن علم ، ولا تقبل إلا منهم ، وهذا هو الأصل
في الشهادات ؛ ولهذا قال أصحابنا : شهادة الأعمى جائزة ، وشهادة المستمع جائزة ، وشهادة
الأخروس إذا فهمت إشارته جائزة ؛ وكذلك الشهادة على الخطأ - إذا تبين أنه خطئ أو خطئ
فلان - صحيحة ؛ فكل من حصل له العلم بشئ جاز أن يشهد به وإن لم يشهده المشهود عليه ؛
قال الله تعالى : هـ **إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ** ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
« **لَا أَخْبِرُكُمْ بِخَيْرِ الشَّهَادَةِ الَّذِي يَأْتِي بِشَهَادَتِهِ قَبْلَ أَنْ يُسَالِمَا** » وقد مضى
في « البقرة » .

الثالثة - اختلف قول مالك في شهادة المروء وهو أن يقول : صرحت بفلان لمسمته
يقول كذا ؛ فإن استوعب القول شهد في أحد قوله ، وفي القول الآخر لا يشهد حتى يشهد ؛
والصحيح أن الشهادة عند الاستيعاب ؛ أو به قال جماعة العلماء ، وهو الحق ؛ لأنه حصل المطلوب
وتبين عليه إناه العلم ؛ فكان خبر الشهادته إذا أعلم المتهود له ، وشهر الشهادته إذا اكتمها .
الرابعة - إذا اتقى رجل شهادة لا يحتملها عمره وفدت ؛ لأنه أدعى باطلا فأكفره
الليكن ظاهرا

قوله تعالى : وَمَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ فَلْيُحْسِنُوا لَهُ كَنْزًا فِيهِ وَلِكُلِّ مَن قَرَأَ مِنْهُ آيَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ

وَأَنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٨٧﴾

(١) طبع ٢٠٠٠ م ١٤٢١ هـ

فيه مستثنان

الاول - قوله تعالى : ﴿ وَأَسْأَلُ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ ﴾ حَقَّقُوا بها نهادتهم عنده ، ورفضوا النعمة عن أنفسهم لئلا يتهمهم بقولهم - « وأسأل القرية » أى أهلها ، لحذف ، ويريدون بالقرية مصر . وفيل : قرية من قرأها زلوا بها وأماناروا منها . وقيل المعنى : « وأسأل القرية » وإن كانت حمادا ، فأتى الله ، وهو يطق الجداد لك ، وعمل هذا فلاحا جنة إلى اصحابه ، قال سبويه : ولا يجوز كَأَمْ هَذَا وأت تريد غلام هدى ، لأن هذا يُسْكَل . والفول في العير كالقول في القرية سواء . ﴿ وَإِنَّا لَعَصَادِقُونَ ﴾ في قولنا

الثانية - في هذه الآية من الفقه أن كل من كان على حق ، وعلم أنه قد يطق به أنه على خلاف ما هو عليه أو يتوهم أن يرفع النعمة وكل رتبة عن نفسه ، ويصرح بالحق الذي هو عليه ، حتى لا يبقى لأحد منكم ، وقد فعل هذا نبينا محمد صلى الله عليه وسلم بقوله للرجلين الذين مرآ وهو قد نرج مع صفة يَفْلُهَا من المسجد هل رسلكما إنما هي صفة بنت حُجِّي فقالا : سبحان الله ! وكبر عليهما ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " إن الشيطان يبلغ من الإنسان مبلغ الدم وإنى خَشِيتُ أن يَفْذِفَ في قلوبكما شيئا " رواه البخارى ومسلم

قوله تعالى : قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى

أَلَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٨٢﴾

فيه مستثنان

الاول - قوله تعالى : ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ ﴾ أى زَيَّنَتْ . ﴿ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ ﴾ إن أبى سرق وما سرق ، وإنما ذلك لأمر يريده الله . ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ أى فتانى صبر جميل ، أو صبر جميل اولى ، على ما تقدم أول السورة .

الثانية - الواجب على كل مسلم إذا أصيب بمكره في نفسه أو ولده أو ماله أن يتلقى ذلك بالصبر الجميل، والرضا والسيام بحريه عليه وهو العليم الحكيم، ويتقوى بمعنويات وسائر الدين، صلوات الله عليهم. وقال سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن الحسن قال: ما من جرعتين يتجزعهما العبد أحب إليه من جرعة مدينية يتجزعها العبد بعسن صبر وحسن نرا، وجرعة غيظ يتجزعها العبد بعلم وعمو. وقال ابن جريج عن مجاهد في قوله تعالى: «صبر جميل» أي لا تشكو ذلك إلى أحد، وروى مقاتل بن سليمان عن عطاء بن أبي رباح عن أنس هرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «مَنْ بَثَّ لَمْ يَصْبِرْ». وقد نفهم في «البره» أن الصبر عند أول الصدمة، وثواب من ذكر مصيبته وأسترجع وإن تقادم عهدا. وقال جوير عن الضحاك عن ابن عباس قال: إن يعقوب أعطى على يوسف أجرة مائة شهيد، وكذلك من أحسن من هذه الأمة في مصيبته له أجرة يعقوب عليه السلام.

قوله تعالى: ﴿عَسَىٰ أَنَّهُ يَأْتِيَنِي يَوْمَ حِمْيَا﴾ لأنه كان عده أن يوسف صلى الله عليه وسلم لم يمت، وإنما غاب عنه خبره، لأن يوسف جميل وهو عبد لا يملك نفسه شيئا، ثم اشتراه الملك فكان في داره لا يظهر للسان، ثم حبس، فلما تمكن أحتال في أن يعلم أبوه خبره، ولم يوجه برسول لأنه كره من إخوانه أن يعرفوا ذلك، فلا يدعوا الرسول بصل إليه. وقال: «هم» لأنهم ثلاثة، يوسف وأخوه، والمتحلف من أجل أخيه، وهو القائل: «فلن أبيع الأرض» - ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ﴾ بحال. ﴿الْحَكِيمُ﴾ فيما يقضى.

قوله تعالى: وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَأْسَفُ عَلَيَّ يَوْسُفَ وَأَيُّضْتُ عَلَيْهِ

مِنَ الْحُزَنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٦﴾

بِسْمِ ثَلَاثِ سَالِي

الأولى - قوله تعالى: ﴿تَوَلَّى عَنْهُمْ﴾ أي أعرض عنهم؛ وذلك أن يعقوب لما علم أنه خبر بقاء يوسف تمام حزنه، وبلغ جهده، وجند الله مصيبته له في يوسف فقال: ﴿يَا أَسَفَا

قَالَ يُوسُفُ (وَنَسِيَ أَبَهُ بِيَامِهِ فَلَمْ يَدْكُرْ) مِنْ أَبِي حَبَاسٍ - وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ (لَمْ يَكُنْ)
 حَسْبُ مَقْرُوبٍ مَا وَرَثْنَا مِنَ الْاِسْتِرْحَاعِ ، وَلَوْ كَانَ حَسْبُهُ لَمَا قَالَ : « يَا أَسْفَا عَلَى يَوْسُفَ » .
 قَالَ قَادَةُ وَالْحَسَنُ : وَالْمَعْنَى يَا حَزَنَاهُ ! وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَالضَّحَّاكُ « يَا جُرْءَاهُ ! » قَالَ كُتَيْبٌ ،
 يَا أَسْفَا لِلْقَلْبِ كَيْفَ أَصْرَاهُ • وَلِلْقَيْسِ لَمَّا سُلِّتَ قَتْسِلَتْ

وَالْأَسْفُ شِدَّةُ الْحُزْنِ عَلَى مَا فَاتَ . وَالِدَاءُ عَلَى مَعْنَى : نَعَالٍ يَا أَسْفُ فَإِنَّهُ مِنْ أَوْفَاكَ .
 وَقَالَ الرَّاحِ : الْأَصْلُ يَا أَسْفَى ، فَأُدِّلَ مِنَ الْبَاءِ أَلْفٌ لِحِفَةِ الْفَتْحَةِ . (وَأَبْيَضْتُ عَيْنَاهُ مِنْ
 الْحُزَنِ) قِيلَ : لَمْ يَصِرْهُمَا سَتَّ سَيْنَ ، وَأَمَّهُ عَمَى ، قَالَهُ مُقَاتِلٌ . وَقِيلَ : قَدْ تَبَيَّضَ الْعَيْنِ
 وَبَيَّضَ شَيْءٌ مِنَ الرُّؤْيَا ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِعَالِ يَعْقُوبَ ، وَإِنَّمَا أَبْيَضَتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْبُكَاءِ ، وَلَكِنْ سَبَبُ
 الْبُكَاءِ الْحُزَنُ ، فَهَذَا قَالَ : « مِنَ الْحُزَنِ » . وَقِيلَ : إِنْ يَعْقُوبُ كَانَ يَصِلُ ، وَيُوسُفُ فَإِنَّمَا
 مَعْرُوفًا بَيْنَ يَدَيْهِ ، هَمَطٌ فِي رُؤُوسِهِ ، فَالْتَفَتَ بِعُقُوبٍ إِلَيْهِ ، ثُمَّ غَطَّ ثَانِيَةً فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ ، ثُمَّ غَطَّ
 ثَالِثَةً فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ سُرُورًا بِهِ وَخُطْبَةً ، وَأَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى إِلَى مَلَائِكَتِهِ « أَنْظِرُوا إِلَى صَغِيرِ
 وَأَبْنِ حَبِيلٍ فَأَمَّا فِي سَاحَتِي بَلَّتْ إِلَى فَبَرَى ، وَغَزَزَتِي وَجَلَّالِي ! لَا تَزْعُمِ الْخَدَقَيْنِ اللَّتَيْنِ
 أَنْفَتَ بِهِمَا ، وَلَا تَفَرَّقْ بِهِ وَبَيْنَ مِنَ الْبَعَثِ إِلَيْهِ عَائِنِ سَتَ ، لِيَعْلَمَ الْعَالَمُونَ أَنَّ مِنْ قَامِ يَوْمِ
 يَدَى يَجِبُ عَلَيْهِ مِرَاقِيَةٌ نَظَرِي » .

الثانية - هذا يدل على أن الالتفات في الصلاة - وإن لم يُبطل - يدل على العقوبة
 عليها ، والقص فيها ، وقد روى البخاري عن عائشة قالت : سألت رسول الله صلى الله عليه
 وسلم عن الالتفات في الصلاة فقال : « هو اختلاس يختل به الشيطان من صلاة العبد » .
 وسألت ما للعلماء في هذا في أول سورة « المؤمن » . موعبا إن شاء الله تعالى .

الثالثة - قال الحاس : فإن سأل قوم عن معنى شدة حزن يعقوب - صلى الله عليه
 وآله وسلم وعلى نبينا - فلهامباء في ههنا ثلاثة أجوبة : منها - أن يعقوب صلى الله عليه
 وسلم لما علم أن يوسف صلى الله عليه وسلم حُفَّ خَافَ عَلَى دِينِهِ ، فَانْتَدَّ حُزْنُهُ لَذَلِكَ . وَقِيلَ :
 إِنَّمَا حُزِنَ لِأَنَّهُ سَلَّمَ إِلَيْهِمْ صَغِيرًا ، فَدُمَّ عَلَى ذَلِكَ . وَالْجَوَابُ الثَّالِثُ - وَهُوَ إِنَّمَا عَهْوَانُ

الحزن ليس بمحسوس، وإنما المحسوس الوَلْوَلَةُ وشق الثياب، والكلام بما لا يبى . وقال النبي
صل الله عليه وسلم : " تَدْبِعُ الْعَيْنُ وَتَحْرِنُ الْقَلْبُ وَلَا يَقُولُ مَا يُحْسِطُ الرَّبُّ " . وقد بين الله
حَلَّ وَعَزَّ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ : ﴿ هُوَ كَيْفَ ﴾ أى مكطوم مملوء من الحزن مسك عليه لا يته، ومه
كُتِمَ الْبَيْطُ وَهُوَ إِحْفَاؤُهُ ؛ فَالْمَكْطُومُ الْمَسْدُودُ عَلَيْهِ طَرِيقُ حَرْنِهِ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : « إِذْ نَادَى
وَهُوَ مَكْطُومٌ » أى مملوء كرباً . وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمَكْطُومُ بِمَعْنَى الْكَاطِمِ ؛ وَهُوَ الْمَشْتَمَلُ عَلَى
حَرْنِهِ . وَعَنْ أَبِي عِيَّاسٍ : كُتِمَ مَغْمُومٌ ؛ قَالَ الشَّاعِرُ :

فَإِنْ أُنْكَ كَاطِمًا يُحْصَايْ شَايِسَ • فَاتَى الْيَوْمَ سَطَاقٌ لِسَانِي

وقال ابن جُرَيْجٍ عن مجاهد عن أبي عبيد قال : ذهب عينا من الحزن « فهو كطيم »
قال : « فهو مكروب » . وقال مقاتل بن سليمان عن عطاء عن أبي عبيد في قوله : « فهو كطيم »
قال : « فهو كيد » يقول : يعلم أن يوسف حى ، وأنه لا يدري أين هو ؛ فهو كيد من ذلك .
قال الجوهري : الكد الحزن المكتوم ؛ يقول منه كيد الرجل فهو كيد وكيد . الحاس :
يقال فلان كطيم وكطيم ؛ أى حزين لا يشكو حربه ؛ قال الشاعر :

لَحَفَضْتُ قَوْمِي وَأَحْبَبْتُ قِنَاهُمْ • وَالْقَوْمُ مِنْ خَوْفِ الْمَنَاءِ كُطِمَ

قوله تعالى : قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَضُوا تَذَكُّرُ يَوْسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا
أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ
مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَضُوا تَذَكُّرُ يَوْسُفَ ﴾ أى قال له ولده : « ناه الله فتنا تذكر يوسف »
قال الكاسي : فَتَأْتُ وَفِيَتْ أَفْضَلَ ذَلِكَ ؛ أى مازلت . وزعم الفراء أن « لا » مصره ؛ أى
لا فتنا ، وَأَشْدُّ :

فَقُلْتُ بَيْنَ اللَّهِ أَرْحُ قَاعِدًا • وَلَوْ قَطَعُوا رَأْسِي لَدَيْكَ وَأَوْصَالِي

(١) الْبَيْتُ لَا مَرَى الْفَيْسُ وَ « بَيْنَ » بِالرَّعْيِ عَلَى الْأَشْدَادِ . وَاصْطَارَ الْخَلْعُ ؛ وَالْقَدِيرُ : بَيْنَ اللَّهِ لِأَنَّهُ لَا يَزْنِي ؛
وَالْعَبَّ عَلَى إِصْطَارِ الْفُلِ ؛ وَهُوَ كَثِيرُ كَلَامِ الرَّبِّ كَقَوْلِهِمْ : أَمَانَةُ اللَّهِ . وَقَدْ رُفِصَ أَنَّهُ طَرِقَ بِحُزْنِهِ نَفْرَتَهُ الرِّبَا .
وَأَمْرُهُ بِالْانْقِرَافِ ، قَالَ فَاهَذَا ، وَأَرَادَ ، لَا أَرْحُ لِحَذَفِ « لَا » . وَالْأَرْصَالُ (جَمْعُ رَصَلٍ) وَهِيَ الْمَقَاصِلُ .

أى لا أريج ، قال النحاس : والذى قال حسن صحيح . وزم الخليل وسيويه أن «لا» تضر
في القسم ، لأنه ليس فيه إشكال ، ولو كان واجبا لكان باللام والتون ، وإنما قالوا له ذلك
لأنهم علموا باليقين أنه يداوم على ذلك ، يقال : ما زال يفعل كذا ، وما قفى وقتاً فهما لفتان ،
ولا يستعملان إلا مع الجحد ، قال الشاعر^(١) :

لما قَبِلْتُ حَتَّى كَانَ حَبَارَهَا • مُرَادِيَّ يَوْمَ ذِي رَجَبِ تُرَعِ

أى ما برحت ففتنا تبرح . وقال ابن عباس : تزال . (حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا) أى تالفا . وقال
ابن عباس وبجاءه : ذنبا من المرض ، وهو ما دون الموت ، قال الشاعر :

مَرَى مَرَى فَمَرَضَنِي • وَقَدَّمَا زَادَنِي مَرَضًا

كذلك الحب قبل البس . ح ما يؤرث المرض

وقال قتادة : هيرما . الضحاك : بالياء دائرا . محمد بن إسحق : فاسدا لا عقل لك . الفراء :
الحارض للفاسد الجسم والعقل ، وكذا الحرض . ابن زيد : الحرض الذى قد ردة إلى أهله المعسر
الربيع بن أنس : يابس الجلد على العظم . المؤرج : ذائبا من الغم ، وقال الأخفش : ذاهيا .
ابن الأنباري : هالكا ، وكلها مقاربة . وأصل الحرض الفساد في الجسم أو العقل من الحزن
أو العشق أو الهرم ، عن أبي عبيدة وغيره ، وقال العرجي :

إِنِّي أَمْرُؤٌ بَخِي • حُبٌّ فَأَحْرَضَنِي • حَتَّى بَلَيْتُ وَحَتَّى شَفَنِي السَّهْمُ

قال النحاس : يقال تَرَضَّ حَرَضًا وَحَرَضَ حُرُوضًا وَحُرُوضَةً إِذَا بَلَ وَصِيمٌ ، وَجِيلٌ
حَارِضٌ وَحَرِضٌ ، إِلا أَنْ حَرَضًا لَا يَتَى وَلَا يَجْعُ ، وَمِثْلُهُ قَيْنٌ وَحَرِيٌّ لَا يَتَلَيَانُ وَلَا يَجْعَانُ .
الطائي : ومن العرب من يقول حارِضٌ للذكر ، والمؤنثة حَارِضَةٌ ، فَإِذَا وَصَفَ بِهَذَا اللَّفْظَ حَتَّى
وَجَعَ وَانْت . وقال : حَرِضٌ يَحْرَضُ حَرَضَةً فَهُوَ حَرِضٌ وَحَرِضٌ . ويقال : وجِلَ تَحْرَضَ ،
ويَنْشَدُ :

طَلَبْتُهُ الْخَيْلُ يَوْمًا كَامِلًا • وَلَوْ أَلَقْتُ لَأَتَيْتُ عَصْرَتَهَا

وقال أمرؤ القيس :

أرى المرة ذا الأذواد بصبغ محرمًا • كالحرايض ينكم في الديار مريض^(١)

قال النحاس : وحكى أهل اللغة أحرضه المم إذا أسقمه ، ورجل حارض أى أحق . وقرا أنس «حرمًا» بضم الحاء وسكون الراء ، أى مثل عود الأشتان . وقرا الحسن بضم الحاء والراء . قال الجوهري : الحَرَض والحُرَض الأشتان . (أو تَكُونُ مِنَ الْمَالِكِينَ) أى الميتين ، وهو قول الجميع ، وغرضهم منع يعقوب من البكاء والحزن شفقة عليه ، وإن كانوا السبب في ذلك .

قوله تعالى : (قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي) حقيقة البث في اللغة ما يرد على الإنسان من الأشياء المهلكة التي لا يتباليه أن يخفيها ، وهو من بثنه أى فرقته ، فسببت المصيبة بئاً مجازاً ، قال ذوالرمة :

وَقَفْتُ عَلَى رَجٍ يَلِيَّةٌ نَاقَتِي • فَأَزَلْتُ أَبْيَاحَهُ وَأَخَاطِبَهُ
وَأُسَيْفِيهِ حَتَّى كَادَ مِنْهَا أُبْشِي • تُكَلِّمُنِي أَتْجَارُهُ وَمَلَايِعُهُ

وقال ابن عباس : « بَثِّي » قمتى . الحسن : حاجتى . وقيل : أشد الحزن ، وحقيقته ما ذكرناه . (وَحَزَنِي إِلَى اللَّهِ) معطوف عليه ، أعاده بغير لفظه . (وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ) أى أعلم أن رؤيا يوسف صادقة ، وأنى ساجد له . قاله ابن عباس . وقناة : إلى أعلم من إحسان الله تعالى إلى ما يوجب حسن ظنى به . وقيل : قال يعقوب الملك الموت هل قبضت روح يوسف ؟ قال : لا ، فأكد هذا وجاءه . وقال السدى : أعلم أن يوسف حى ، وذلك أنه لما أخبره ولده بسيرة الملك وصله وخلفه وقوله أحست نفس يعقوب أنه ولده فطمع ، وقال : لعله يوسف .

قوله تعالى : يَبْنِي أَذْهَبُوا فَتَحَسُّوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْيَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْيَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴿٦٧﴾

(١) الأفراد : جمع فرد ، وهو القطيع من الإبل الثلاث إلى التسع . والبكر : التي من الإبل ؛ يقول : أبه المرة إذا المال ببركة الحرم والمريض ، وهما : به ذلك فلا تنف كثره ماله ، كما أن البكر يدرك ذلك .
(٢) أسفه ، لعمركم أنها .

قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّهُ يَفْضِلُ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا)
 حياته ، إما بالزوايا ، وإما بإطلاق لله تعالى الذنب كما في أول القصة ، وإما بإخبار ملك
 الموت لإياه بأنه لم يقبض رُوحه ؛ وهو أظهر . والتحشُّ طلب الشيء بالحواس ؛ فهو نفعل
 من الحس ، أى أذهبوا إلى هذا الذى طلب منكم إضاحكم ، وأحال عليكم فيهاخذ فاسألوا عنه
 وعن مذهبه ؛ ويروى أن ملك الموت قال له : أطلبه من هاهنا ؛ وأشار إلى ناحية مصر .
 وقيل : إن يعقوب تنبه على يوسف برِّ البضاعة ، وأحبَّاس أخيه ، وإظهار الكرامة ؛ فذلك
 رجَّهم إلى جهة مصر دون غيرها . (وَلَا تَيْسَّرُوا مِنْ رَّوْحِ اللَّهِ) أى لا تخطوا من فرج
 الله ؛ قاله ابن زيد ؛ يريد : أن المؤمن يرجو فرج الله ، والكافر يقبض في الشدة . وقال قتادة
 والضحاك : من رحمة الله . (إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ) دليل على أن
 القنوط من الكبار ، وهو اليأس ، وسبأى في « الزمر » بيانه إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسْنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ
 وَرَجَعْنَا بِبُضْغَةٍ مُزْجِجَةٍ فَاتُفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي
 الْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٢٨﴾

قوله تعالى : (فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ) أى المتع . (مَسْنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ)
 هذه المرة الثالثة من عودهم إلى مصر ، وفي الكلام جذف ، أى خرجوا إلى مصر ، فلما دخلوا
 على يوسف قالوا : « مَسْنَا » أى أصابنا « وَأَهْلَنَا الضُّرُّ » أى الجوع والحاجة ؛ وفي هذا دليل
 على جواز الشكوى عند الضر ، أى الجوع ؛ بل واجب عليه إذا خاف على نفسه الضر من الفقر
 بوقوعه أن يسدى حاله إلى من يرجو منه النفع ؛ كما هو واجب عليه أن يشكو ما به من الألم
 إلى الطبيب لإعجاله ؛ ولا يكون ذلك قدسها في التوكل ، وهذا ما لم يكن التشكى على سبيل
 التسخيط ؛ والصبر والتجهد في الثواب أحسن ، والتعفف عن المسئلة أفضل ؛ وأحسن الكلام

(١) في تفسير قوله تعالى : « قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّهُ يَفْضِلُ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا »

فِي الشُّكْرِ - وَالْمَوْلُ زَوَالُ الْبُلُو ، وَذَلِكَ قَوْلُ بَعُوبَ : هَذَا أَشْكُرُ فِي وَحْيٍ
إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنْ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ - أَيْ مِنْ جِبِلِّ صَنْعِهِ ، وَصَرْبِ لُطْفِهِ ، وَبَانِدَتِهِ عَلَى
عِبَادِهِ ، فَأَمَّا الشُّكْرُ عَلَى غَيْرِ شَيْءٍ فَهُوَ الْبُغْه ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ عَلَى وَجْهِ الْبَيْتِ وَالنَّسْلِ ؛
كَمَا قَالَ ابْنُ دُرَيْدٍ :

لَا تَحْسَبَنَّ يَادَهُ أَيْ صَارِعَ • لِكَيْ تَعْرِفُنِي عَرَقَ الْمُسَدَى
مَارَسَتْ مَنْ هَوَتْ الْأَمْلَاقُ مِنْ • جَوَانِبِ الْجَوْ عَلَيْهِ مَا شَكَ
لِكُنْهَا تَفْشَةً مُصَدُّورًا إِذَا • جَاشَ لِنَامٍ مِنْ نَوَاحِيهَا عَمَّا

قوله تعالى : (وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ) الْبِضَاعَةُ الْقِطْعَةُ مِنَ الْمَالِ يَقْصَدُ بِهَا شِرَاءُ شَيْءٍ ؛
تَقُولُ : أَبْضَعْتُ الشَّيْءَ وَأَسْتَبْضَعْتُهُ أَيْ جَعَلْتُهُ بِضَاعَةً ؛ وَفِي الْمَثَلِ : كَسْتَبْضِعُ الْقَمَرُ
إِلَى حَمْرٍ .

قوله تعالى : (مُرْجَاةٌ) صِفَةُ لِبِضَاعَةٍ ؛ وَالْإِزْجَاءُ السُّوقُ بِدَفْعٍ ؛ وَمَنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى :
وَالَّذِينَ يَتَّبِعُونَ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُمْ مَخْرَجًا • وَالَّذِينَ لَا يَتَّبِعُونَهُ يَجْعَلْ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا • قَالَ تَعَالَى :
الْبِضَاعَةُ الْمَرْجَاةُ الْبَاقِيَّةُ غَيْرُ الْبَائِتَةِ • وَأَخْتَلَفَ فِي تَعْيِينِهَا ؛ فَقِيلَ : كَانَتْ قَدِيدَةً وَحَشٍ ؛ ذَكَرَهُ
الْوَاقِدِيُّ عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ • وَقِيلَ : حَلَقُ الْقَرَارِ وَالْحِيلَالِ ؛ رَوَى عَنْ
أَبْنِ عَبَّاسٍ • وَقِيلَ : مَتَاعُ الْأَعْرَابِ صَوْفٍ وَسَمْنٍ ؛ قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْحَارِثِ • وَقِيلَ : الْحَبَّةُ
الْخَضْرَاءُ وَالصُّوْبُ وَهُوَ الْبَطْمُ ، حَبُّ شَجَرٍ بِالشَّامِ ، يُؤْكَلُ وَيَعَصَّرُ الزَّيْتُ مِنْهُ لِعَمَلِ الصَّابُونِ ؛
قَالَ أَبُو صَالِحٍ ؛ فَبَاعَوْهَا بِدِرَاهِمٍ لَا تَنْفَقُ فِي الطَّعَامِ ، وَتَنْفَقُ فِيَا بَيْنَ النَّاسِ ؛ فَقَالُوا : أَخَذْنَاهَا مِنْ
أَحْسَابِ جِبَادٍ تَنْفَقُ فِي الطَّعَامِ • وَقِيلَ : دِرَاهِمُ رَدِيئَةٍ ؛ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ أَيْضًا • وَقِيلَ : لَيْسَ
رَطْبُهَا صَوْرَةُ يَوْسُفَ ، وَكَانَتْ دِرَاهِمُ مَصْرَ طَلِيحًا صَوْرَةُ يَوْسُفَ • وَقَالَ الضَّحَّاكُ : النَّعَالُ
قَوْلُ الْأَدَمِ ؛ وَهِيَ كَانَتْ سَوِيْقًا مُتَخَلًّا • وَاقِهِ أَعْلَمُ .

(١) النِّعَامُ : الْزَيْدُ ؛ وَهُوَ مَا يَلْقَى الْبَعِيرَ مِنْ لَدُنْهُ . وَهَذَا : يَحَالُ بِطَبِيعِ الزَّيْدِ إِذَا رَمَاهُ شَحْصٌ رَاجِعٌ

وَمِنْهُوَ (٢) حَمْرٌ مَدِينَةُ الْبَحْرَيْنِ •

قوله تعالى : (فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا) .

فيه أربع مسائل :

الأولى - قوله تعالى : « فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ » يريدون كما يبيع بالدرهم الجياد لا تقصنا بمكان دراهمنا ، هذا قول أكثر المفسرين . وقال ابن جرير : « فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ » يريدون الكيل الذي كان قد كاله لأخيهم . « وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا » أى تفضل علينا بما بين سر الجياد والردية ، قاله سعيد بن جبير والسدى والجنس ، لأن الصدقة تحرم على الأنبياء . وقيل المعنى : « تصدق علينا » بالزيادة على حقنا ، قاله سفيان بن عيينة . قال مجاهد : ولم تحرم الصدقة إلا على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم . وقال ابن جرير : المعنى « تصدق علينا » بزيادة أخينا إلينا . وقال ابن خزيمة : « تصدق علينا » بمجاوزتنا ، واستشهد بقول الشاعر :

تَصَدَّقْ عَلَيْنَا يَا ابْنَ صَفَانَ وَاحْتَسِبْ . وَأَمْرٌ عَلَيْنَا الْأَنْسَرِيُّ لَبِائِلًا

(إِنَّ اللَّهَ يَمْيِزُ الْمُتَصَدِّقِينَ) بيني والآخرة ، يقال : هذا من سائر بض الكلام ، لأنه لم يكن عندهم أنه على دينهم ، فلذلك لم يقولوا : إن الله يميزك بصدقتك ، فقالوا لفظاً يوهمه أنهم أرادوه ، وهم يصح لهم إخراجهم بالتأويل ، قاله النقاش . وفي الحديث : «^١ إن في المعاريض لمنهوسة من الكذب » .

الثانية - استدل مالك وغيره من العلماء على أن أجرة الكيل على البائع ، قال ابن القاسم وأبو نافع قال مالك : قالوا ليوسف « فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ » فكان يوسف هو الذي يكيل ، وكذلك الوزان والميزان وغيرهم ، لأن الرجل إذا باع حقة معلومة من طعامه ، وأوجب للمدعي عليه ، وحسب عليه أن يبرزها ويميز حق المشتري من حقه ، إلا أن يبيع منه مغبناً - صبرة أو مالا حق توفيقه - غلّ بينه وبينه ، فما جرى على المبيع فهو على المبتاع ، وليس كذلك ما فيه حق توفيق من كيل أو وزن ، ألا ترى أنه لا يستحق البائع الثمن إلا بعد التوفيق ، وإن تلف فهو منه قبل التوفيق .

(١) المعاريض : جمع معارض ، من معر بس وهو خلاف المصريح من القول .

الثالثة - وأما أجرة التقدير البائع ؛ لأن المبتاع النافع لمراميه يقول : إنها مليّة ،
فأنت الذي تدعى الرذاعة فأطرد نفسك ؛ وأيضا فإن النفع يقع له فصار الأجر عليه ، وكذلك
لا يجب على الذي عليه النقصان ؛ لأنه لا يجب عليه أن يقطع يد نفسه ، إلا أن يتمكن من
ذلك طامعا ؛ ألا ترى أن فرضا عليه أن يندى يده ، ويصالح عليه إذا طلب المقتص ذلك
منه ، فأجر القطاع على المقتص . وقال الشافعي في المشهور عنه : إنها على المقتص منه كالبائع .

الرابعة - يكره للرجل أن يقول في دعائه : اللهم نصنق على ؛ لأن الصدقة إنما
تكون من يحنى الثواب ، والله تعالى متفضل بالتواب بجميع النعم لا رب غيره ؛ وسمع الحسن
وجلا يقول : اللهم نصنق على ؛ فقال الحسن : يا هذا ! إن الله لا يتصدق إنما يتصدق
من يحنى الثواب ؛ أما سمعت قول الله تعالى : « إن الله يحصي المتصدقين » قل : اللهم
اعطني وتفضل علي .

قوله تعالى : قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ
جَاهِلُونَ ﴿٨٨﴾ قَالُوا أَنْتَ لَا تَعْلَمُ يُونُسَ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي
قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مِنْ يَتَّى وَبَصِيرَ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَضِيعُ أَمْرٌ
الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٩﴾ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكُمُ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَطِئِينَ ﴿٩٠﴾
قَالَ لَا تَتَرَبَّصُوا بِكُمُ الْيَوْمَ يَنْفَعُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٩١﴾
أَذْمَبُوا بِقَبِيصٍ هَذَا فَالْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأَتُونِي بِأَهْلِكُمْ
لِجَمْعٍ ﴿٩٢﴾

قوله تعالى : (قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ) استفهام بمعنى التذكير
والنهي ، وهو الذي قال الله : « لَتَنْبِتَنَّهُمْ يَامَرْيَمُ » . (إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ) دليل على أنهم

(١) لم يولدوا في قوله الله ، كما قد تفسر الصنفين

كانوا صغارا وقت احدم لبوسف، صرايياء، لانه لا يوصف بالجهل الا من كنت منه صفة، وبذل كل انه حلت عالم الآن، اى صمى ذلك اذ اتم صغار جهال، قال معناه ابن عباس والحسن، ويكون قولهم : « وإن كنا لحاطين » على هذا، لانهم كبروا ولم يخبروا أباهم بما فعلوا حياء وخوفا منه . وقيل : جاهلون بما تؤول إليه العاقبة . والله أعلم .

قوله تعالى : (قَالُوا إِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ) لما دخلوا عليه فقالوا : « مَسْنَا وَأَهْلُنَا النَّارَ نَحْنُ وَمَا نَفْعُنا له وتواضعا رفق لهم، وعرفهم بنفسه، فقال : « هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه » فتنبهوا فقالوا : « إِنَّكَ لَأَنْتَ يَوْسُفُ » قاله ابن إسحق . وقيل : إن يوسف تسم فشيءه يوسف واستفهموا . قال ابن عباس لما قال لهم : « هل علمتم ما فعلتم بيوسف » الآية، ثم تسم يوسف - وكان إذا تسم كان ثيابه اللؤلؤ المنظوم - فشيءه يوسف، فقالوا له على جهة الاستفهام : « إِنَّكَ لَأَنْتَ يَوْسُفُ » . وعن ابن عباس أيضا إن أخوته لم يعرفوه حتى وضع التاج عنه، وكان في قرنه علامة، وكان يعقوب مثلها شبه الشامة، فلما قال لهم : « هل علمتم ما فعلتم بيوسف » وضع التاج عنه فعرفوه، فقالوا : « إِنَّكَ لَأَنْتَ يَوْسُفُ » . وقال ابن عباس : كتب يعقوب إليه يطلب رذائيه، وفي الكتاب : من يعقوب صني الله ابن إسحق ذبيح الله ابن إبراهيم خليل الله إلى عزيز مصر - أما بعد - فإنا أهل بيت بلاه ونحن، ابتلى الله جذى إبراهيم بمرود وثاره، ثم ابتلى أبى إسحق بالذبح، ثم ابتلى بولد كان لي أحب أولادى إلى حتى كُف بصرى من البكاء، وإني لم أسرق ولم ألد سارقا والسلام . فلما فرأ يوسف الكتاب أرتدت مفاصله، واقتصر جلده، وأرضى عينه بالبكاء، وعجل صبره فباح بالسز . وقرأ ابن كثير « إِنَّكَ » على الخبر، ويجوز أن تكون هذه القراءة استفهاما كقوله : « وَتِلْكَ نِعْمَةٌ » . (قَالَ أَنَا يُوسُفُ) أى أنا المظلوم والمراد نفسه، ولم يلل أنا هو تعظيما للقصة. (قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا) أى بالجاه والملك (إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ) أى يتق الله ويصبر على المصائب وعن المعاصى : (فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ) أى الصابرين فى بلانه، الفاعلين بطاعته . وقرأ ابن كثير « إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ » بإثبات الياء، والقراءة به جائز على أن تجعل

منه بمنى للصحاح وتحتل . يتن . والصلوة ، فقلت قبل لا يحرم ، ونفع . وصبر . وله
 بهذا أنه يجزم . وصبر . هل أن نجعل . يتن . في موضع جزم . ومن . للشرط . وتحت
 الياء ، وتجعل علامة الجزم حذف الضمة التي كانت في الياء على الأصل ، كما قال ،
 ثم نأدي إذا دخلت دمشقا . يا يزيد بن خالد بن يزيد

وقال آخره

الم ياتيك والانباء تنبي . بما لاقت لبون بني زياد

وقراءة الجماعه ظاهرة ، والهاء في « إنه » كناية عن الحديث ، والجملة الخبر .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آتَيْنَاكَ اللَّهُ عَلَيْنَا ﴾ الأصل هزتان خففت الثانية ، ولا يوزن
 تحقيقها ، وأسم الفاعل مؤنر ، والمصدر إينار . ويقال آتيت التراب إنارة فاما مشير ، وهو
 أيضا هل أنقل ثم أيل ، والأصل أثير فقلت حركة الياء على التاء ، فانقلبت الياء ألهاء ثم حذفت
 لاختفاء الساكنين . وآتيت الحديث على فقلت فاما آثر ، والمعنى : لقد فصلك الله عليا ،
 واختارك بالعلم والحلم والحكم والعقل والملك . ﴿ وَإِنْ كُنَّا نَخَاطِئُهُ ﴾ أى مذبذبين من حيطان
 خطا إذا أتى الخطيئة ، وفى ضمن هذا سؤال العفو . وقيل لابن عباس : كيف قالوا
 « وإن كنا نخطيئهم » وقد تعمدوا لذلك ؟ قال : وإن تعمدوا لذلك ، وما تعمدوا حتى أخطئوا ؟
 الحق ، وكذلك كل من أتى ذنبا تخطئ المنهاج الذى عليه من الحق ، حتى يقع في الشبهة والمعصية .

قوله تعالى : ﴿ لَا تُتْرَبُ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ ﴾ أى قال يوسف - وكان حليما موقفا - :
 « لا تتركب عليكم اليوم » وتم الكلام . ومعنى « اليوم » : الوقت . والتتركب التبعير
 والتوبيخ ، أى لا تبعيروا ولا توبيخ ولا لوم عليكم اليوم ، فانه سفيان الثورى وغيره ؛ ومنه قوله
 عليه السلام : « إنا نزلت أمة أحكم فيجلدها الحد ولا يترب عليها » أى لا يتركبها ؛ وقال بشر:
 ففوت عنهم عفو غير مترب . وتركهم لعقاب يوم مسبرم

(١) كذا في الأصل وإعراب القرآن للعاص . ولاحظ أن من القمل وادلاها . وطه لأصل آتيت ، قلت حركة
 الزايل ما فيها فقلت ألهاء ، ثم حذفت - هذه اتصال الفعل بصبر متحرك - لاختفاء الساكنين .

وقال الاتمى : تَرَبُّتْ عليه وَعَرِّتْ عليه ببنى إنا فَبَحَثْ عليه فعله . وقال الزجاج : للحنى لا إفساد لما بنى وبينكم من الحرمة ، وحق الإخوة ، ولكم عندى العفو والصفح ، وأصل التريب الإفساد ، وهى لفة أهل الجواز . وعن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ بَعْضَ أَتَى الباب يوم فتح مكة ، وقد لَآذَ النَّاسُ بِأَيْتِ فَقَالَ : « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَّقَ وَعْدَهُ وَنَصَرَ عَبْدَهُ وَهَزَمَ الْأَحْزَابَ وَحْدَهُ » ثم قال : « مَاذَا تَنْظُرُونَ يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ » قالوا : خيراً ، أخ كريم ، وابن أخ كريم وقد قَدَّرْتَ ، قال : « وَأَنَا أَقُولُ كَمَا قَالَ أَنَسُ بْنُ يَوْسُفَ » لا تَرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ « فقال عمر رضى الله عنه : فَيَضُتُّ عَرَقًا مِنَ الْحَيَاءِ مِنْ قَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ذَلِكَ أَيْ كُنْتُ قَدْ قُلْتُ لَهُمْ حِينَ دَخَلْتُ مَكَّةَ : الْيَوْمَ نَتَعَمَّقُ مِنْكُمْ وَنَفْعَلُ ، فَلَمَّا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا قَالَ اسْتَحْيَيْتُ مِنْ قَوْلِ « يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ » مُسْتَبِيلٌ فِيهِ مَعْنَى الدُّعَاءِ ، سَأَلَ اللَّهُ أَنْ يَسْتَرَّ عَلَيْهِمْ وَيَرْحَمَهُمْ . وَأَجَازَ الْأَخْفَشُ الْوَقْفَ عَلَى « عَلَيْكُمْ » وَالْأَوَّلُ هُوَ الْمُسْتَعْمَلُ ، فَإِنْ فِي الْوَقْفِ عَلَى « عَلَيْكُمْ » وَالْإِبْتِدَاءُ بِ« الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ » جَرَمٌ بِالْمُفَرَّةِ فِي الْيَوْمِ ، وَذَلِكَ لَا يَكُونُ إِلَّا عَنْ وَحْيٍ ، وَهَذَا يَتَّبِعُ . وَقَالَ عَطَاءُ الْخِرَاسَانِي : طَلَبَ الْحَوَائِجُ مِنَ الشَّبَابِ أَهْلَهُ مِنْ الشُّيُوخِ ، أَلَمْ تَرْقُلْ يَوْسُفَ : « لَا تَرِيبَ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ » وَقَالَ بِعُقُوبَ : « سَوْفَ اسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي » .

قوله تعالى : ﴿ أَذْهَبُوا بِقِصَّتِي هَذَا ﴾ هت للقِصص ، والقِصص مذكر ، فأما قول الشاعر ،

تَدْعُو هَوَازَانَ وَالْقِصَصُ مُفَاصَّةٌ . فَوْقَ النَّطَاقِ تُشَدُّ بِالْأَزْوَاجِ

فتنديره : [وَالْقِصَصُ] ذِرْعُ مُفَاصَّةٍ . قاله الحاس . وقال ابن السدى عن أبيه عن مجاهد : قَالَ لَهُمْ يَوْسُفُ « أَذْهَبُوا بِقِصَّتِي هَذَا فَالْقَوَّةُ عَلَى وَجْهِ إِي بَاتٍ بِصِيْرَا » قَالَ : كَانَ يَوْسُفُ أَعْلَمَ بَأَنَّهُ مِنْ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ قِصَّةَ يَزْدُ عَلَى بِعُقُوبَ بَصْرَةَ ، وَلَكِنْ ذَلِكَ قِصَّةُ إِبْرَاهِيمَ الَّذِي أَلْهَمَهُ اللَّهُ فِي النَّارِ مِنْ حَرِّ الرَّجْنَةِ ، وَكَانَ كَسَاهُ إِسْحَاقُ ، وَكَانَ إِسْحَاقُ كَسَاهُ بِعُقُوبَ ، وَكَانَ بِعُقُوبَ أَدْرَجَ ذَلِكَ الْقِصَصَ فِي قِصَّةِ مَنْ فُضِّضَ وَعُلِّقَ فِي عُنُقِ يَوْسُفَ ، لِأَنَّكَ كَانَ يُخَافُ عَلَيْهِ مِنْ

فحين، وأخبره جبريل أن أرسل قبضك فإن فيه ريح الجنة، وريح الجنة لا يبع مل طعم ولا مَبْلٌ إلا حرق . وقال الحسن : لولا أن الله تعالى أعلم يوسف بذلك لم يعلم أنه يرجع إليه بصره، وكان الذي حمل قميصه يهودا، قال ليوسف : أنا الذي حملت إليه قبضك بدم كذب فاحزنه، وأنا الذي أحله الآن لأنته، واجود إليه بصره، فحمله، حكاه السدي . (وأتوني بأهلكم أجمعين) لتحنوا مهر دارا . قال مسروق : فكانوا ثلاثة وتسعين . ما بين رجل وأمرأة . وقد قيل : إن القميص الذي بثته هو القميص الذي قد من ذبوه، ليعلم بقبوب أنه يحرم من الرزق، والقول الأول أصح . وقد روى مرفوعا من حديث أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم، ذكره الفُتُورِيُّ والله أعلم .

قوله تعالى : وَلَمَّا فَصَلَ الْغَيْرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تَفْنَدُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا قَالَهُ إِنَّكَ لَنِي ضَلُّكِ الْقَدِيمِ ﴿١٦﴾ فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْفَهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَرَأَيْتُمْ لَكُمُ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٧﴾ قَالُوا بَلْأَنَّا أَسْتَفْغِرُ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴿١٨﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَفْغِرُ لَكُمُ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٩﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَى إِلَيْهِ أَبْوَهُ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٢٠﴾

قوله تعالى : (وَلَمَّا فَصَلَ الْغَيْرُ) أى خرجت مطلقا من مصر إلى الشام، يقال : فَصَلَ مُصَوِّلا، وَفَصَلَتْهُ فَصَلًا، فهو لازم ومتعد . (قَالَ أَبُوهُمْ) أى قال لمن حضر من قرابته ممن لم يخرج إلى مصر وهم ولد ولده : (إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ) . وقد يعمل أن يكون خرج بعض بنيه، فقال لمن بقى : (إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تَفْنَدُونَ) . قال ابن عباس : هاجت ريح خلعت ريح قبض يوسف إليه، وبينهما مسيرة ثمان لبال . وقال الحسن : مسيرة غير لبال،

وعنه أيضا مسيرة شهر . وقال مالك رضي الله عنه : إنما أوصل ريحه من أوصل عرش
لقميس فيل أن يرتد إلى سليمان عليه السلام طرفه . وقال مجاهد : حَبَّت رِيحٌ فَصَفَقَتِ الْقَمِيصَ^(١)
فغراحت روائح الجنة في الدنيا واتصلت بيمقوب ، فوجد ريح الجنة فلم أنه ليس في الدنيا من
ريح الجنة إلا ما كان من ذلك القميص ، فنشد ذلك قال : «إني لأجد أئثم ؛ فهو وجود
حاسة الشم . (لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونَ) قال ابن عباس ومجاهد : لولا أن تُفَنِّدُونَ ؛ ومنه قول النابغة :
إِلَّا سُلَيْمَانَ إِذْ قَالَ لِلْمَلِكِ لَهُ • قُمْ فِي الْبَرِّيَةِ فَأَحْدِثْهَا عَيْنَ الْقَنَدِ^(٢)
أى من السَّفَه . وقال سعيد بن جبيرة والضحاك : لولا أن تكذبون . والفند الكذب . وقد
أَفَنَدَ إِفْنَادًا كَذَبًا ؛ ومنه قول الشاعر :

هل في أفتار الكريم من أود • أم هل لقول الصدوق من فند

أى من كذب . وقيل : لولا أن تُفَنِّدُونَ ؛ قاله أبو عمرو ، والفند التفتيح ، قال الشاعر :
يا صاحبي دعا لومي وتفنيدى • فليس ما فات من أمري بمرود
وقال ابن الأعرابي : «لولا أن تُفَنِّدُونَ» لولا أن تُضَعِّفُوا رَأْيِي ؛ وقاله ابن إسحق . والفند
ضعف الرأي من كبر . وقول راجع : تُضَلِّلُونَ ، قاله أبو عبيدة . وقال الأخفش : تلوموني ؛
والتفنيد اللوم وتضعيف الرأي . وقال الحسن وقتادة ومجاهد أيضا : تُهَرِّمُونَ ؛ وكله متفارب
المعنى ، وهو راجع إلى التعجيز وتضعيف الرأي ؛ يقال فَنَدَ تَفْنِيدًا إِذَا عَجَّزَهُ ، كما قال :

• أهلكني باللوم والتفنيد •

وبقال : أفند إذا تكلم بالخطأ ؛ والفند الخطأ في الكلام والرأي ، كما قال النابغة :

... فَأَحْدِثْهَا عَيْنَ الْقَنَدِ

أى أمنعها عن التمسد في العقل ، ومن ذلك قيل : اللوم تفنيد ؛ قال الشاعر

يا عاتل - دَعَا الْمَلَأَمَ وَأَقْصَرَ • طَالَ أَمْسِي وَأَطْلَمَ الْتَفْنِيدُ

(١) صفت الريح التي وصفته إذا قلته بيا وحسلا وردته . (٢) شبه الشاعر سليمان بسيد الملوك
عليه السلام لطم ملكه ؛ وقيل البيت :

ولا أرى قاعلا في الناس بشيه • ولا أحاسن من الأعرام من أحد

(٢) اوده ؛ موح .

ويقال : أُنْذِرْ دُلًّا دَهْرًا إِذَا أَسَدَ . ومه قول ابن مَيْل :

دَجَّ الدَّهْرُ يَجَلُّ مَا أَرَادَ أَنَّهُ . إِذَا كَلَّفَ الْإِنْفَادَ الْبَاسَ أُنْذِرًا

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا تَأْتِيهِمْ لَيْلٌ ضَالِكَةٌ كَالْغَيْمِ ﴾ أى لى دهاب عن طريق الصواب . وقال ابن عباس وابن زيد : لى حطبك المصطفى من حب يوسف لانفاه . وقال سعيد بن جبير : لى جنونك القديم . قال الحسن : وهذا غفوف . وقال قتادة وسفيان : لى محبتك القديمة . وقيل : إنما قالوا هذا ؛ لأن يوسف عندهم كان قد مات . وقيل : إن الذى قال له ذلك من بنى معه من ولده ولم يكن عندهم الخبر . وقيل : قال له ذلك من كان معه من أهله وقربائه . وقيل : بنو بنيه وكانوا صغارا ؛ فأنه أعلم .

قوله تعالى : ﴿ قُلْنَا إِنَّ جَاءَ الْبَشِيرَ الْفَأْهَ عَلَى وَجْهِهِ ﴾ أى على عينيه . ﴿ فَأَرْتَدَّ بِصِيرًا ﴾ « أَنَّهُ زَائِدَةٌ ، والبشير قيل هو شمعون . وقيل : يهوذا قال : أنا أذهب بالقميص اليوم كما ذهبت به مُطْعَمًا بِالْقَمِّ ؛ قاله ابن عباس . وعن السدى أنه قال لإخوته : قد علمتم أنى ذهبت إليه بقميص الترحمة فلعنوا أذهب إليه بقميص الفرحه . وقال يحيى بن يمان عن سفيان : لما جاء البشير إلى يعقوب قال له : على أى دين تركت يوسف ؟ قال : على الإسلام ؛ قال : الآن تمت النعمة ؛ وقال الحسن : لما ورد البشير على يعقوب لم يجد عنده شيئا يشبه به ؛ فقال : والله ما أصبتُ عندنا شيئا ، وما خبرنا شيئا منذ صبح ليل ، ولكن هوذا الله عليك سكرات الموت .

قلت : وهذا الدعاء من أعظم ما يكون من الجوائز ، وأفضل المطايا والذخائر . ودلت هذه الآية على جواز البذل والميات عند البشار . وفى الباب حديث كعب بن مالك - الطويل - وفيه : « فلما جاءنى الذى سمعت صوته يشترى زرع ثوبى فكسوتهما إياه بشارته » وذكر الحنبل ، وقد تقدم بك أنه فى قصة الثلاثة الذين خلفوا^(١) ، وكسوة كعب ثوبيه للبشير مع كونه ليس له غيرهما دليل على جواز مثل ذلك إذا أخرجى حصول ما يستشربه ، وهو دليل على

جواز إظهار الفرح عند زوال الغم والنَّجَح . ومن هذا الباب جواز حَقَاقَةِ الصَّيَانِ ، وإطعام الطعام فيها ، وقد تحرَّع عمر بعد سورة «الفرقة» جَزُوراً . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ذَكَّرَهُمْ قَوْلَهُ : « إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ »

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴾ في الكلام حذف ، التقدير : فلما رجعوا من مصر قالوا يا أبانا ، وهذا يدل على أن الذي قال له : « تالله إنك لفي ضلالك القديم » بنو يسه أو غيرهم من قرابته وأهله لأولاده ، فإنهم كانوا غُيَّياً ، وكان يكون ذلك زيادة في العتوق . والله أعلم . وإنما سالوه المغفرة ، لأنهم لدخلوا عليه من ألم الحزن ما لم يسقط الماتم عنه إلا بإحلاله .

قلت : وهذا الحكم ثابت فيمن آذى مسلماً في نفسه أو ماله أو غير ذلك ظالماً له ، فإنه يجب عليه أن يُعْطَلَ له ويُجبره بالمظلمة وقدرها ، وهل ينفعه التحليل المطلق أم لا ؟ فيه خلاف ، والصحيح أنه لا ينفع ، لأنه لو أصره بمظلمة لما قدر وتألَّو بما لم تطب نفس المظلوم في التحل منها . والله أعلم . وفي صحيح البخاري وغيره عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من كانت له مظلمة لأخيه من عرضة أو شيء فليحللها منه اليوم قبل ألا يكون دينار ولا درهم إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته وإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فليحلل عليه » قال المهلب فقوله صلى الله عليه وسلم : « أخذ منه بقدر مظلمته » يجب أن تكون المظلمة معلومة القدر مشارة إليها مبيّنة ، والله أعلم

قوله تعالى : ﴿ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي ﴾ قال ابن عباس : أتردعاه إلى السحر . وقال المثنى بن الصباح عن طاوس قال : تحرَّ ليلَةَ الجمعة ، ووافق ذلك ليلة عاشوراء . وفي دعاء الجعيط — من كتاب الترمذي — عن ابن عباس أنه قال : بينا نحن عند رسول الله

صلى الله عليه وسلم إذ جاءه على بن أبي طالب - رضى الله عنه - فقال: - باني انت وأمي -
 تَمَلَّتْ هَذَا الْقُرْآنَ مِنْ صَدْرِي ، فَا أَجِدُنِي أَقْدَرُ عَلَيْهِ ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :
 « أَفَلَا أَعْلَمُكَ كَلِمَاتٍ يَخْتَكُ اللَّهُ بَيْنَ وَبَيْنَ وَيَنْفَعُ بَيْنَ مِنْ عِلْمِهِ وَبُيِّنَتْ مَا تَعَلَّمْتَ فِي صَدْرِكَ »
 قَالَ : **أَجَلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ ! قُلْنِي** ، قَالَ : « إِذَا كَانَ لَيْلَةُ الْجُمُعَةِ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَقُومَ فِي ثَلَاثِ
 اللَّيْلِ الْآخِرَةِ فِيهَا سَاعَةٌ مَشْهُودَةٌ وَالِدَعَاءِ فِيهَا مُسْتَجَابٌ وَقَدْ قَالَ أَنَسٌ يَقُوبُ لَبْنِهِ « سَوْفَ
 اسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي » يَقُولُ حَتَّى تَأْتِيَ لَيْلَةُ الْجُمُعَةِ » وَذَكَرَ الْحَدِيثَ . وَقَالَ أَيُّوبُ بْنُ أَبِي نَيْمَةَ
 السُّجُتِيَّانِيُّ عَنْ مَعْبُدِ بْنِ جُبَيْرٍ قَالَ : « سَوْفَ اسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي » فِي اللَّيَالِي الْبَيْضِ ، فِي الثَّلَاثَةِ عَشْرَةِ ،
 وَالرَّابِعَةِ عَشْرَةِ ، وَالْخَامِسَةِ عَشْرَةِ فَإِنَّ الدَّعَاءَ فِيهَا مُسْتَجَابٌ . وَعَنْ عَامِرِ الشَّعْبِيِّ قَالَ : « سَوْفَ
 اسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي » أَيْ أَسْأَلُ يَوْسُفَ إِنْ عَفَا عَنْكُمْ اسْتَغْفَرْتُ لَكُمْ رَبِّي ؛ وَذَكَرَ سُبَيْدُ بْنُ دَاوُدَ
 قَالَ : حَدَّثَنَا هِشَامٌ قَالَ حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ إِسْحَاقَ عَنْ مَحَارِبِ بْنِ دِينَارٍ عَنْ عَمِّهِ قَالَ :
 كُنْتُ آتَى الْمَسْجِدَ فِي السَّحَرِ فَأَمَّرَ بَدَارَ بْنَ مَسْعُودٍ فَأَسَمِعَهُ يَقُولُ : اللَّهُمَّ إِنَّكَ أَمْرٌ نَحْنُ
 فَأَطَعْتُ ، وَدَعَوْتُنِي فَأَجَبْتَ ، وَهَذَا سَحَرٌ فَأَغْفِرْ لِي ؛ فَلَقِيْتُ أَبْنَ مَسْعُودٍ فَقُلْتُ : كَلِمَاتُ اسْمِكَ
 تَقُولُنَّ فِي السَّحَرِ ؟ فَقَالَ : إِنْ يَقُوبُ أَحْرَبِيهِ إِلَى السَّحَرِ يَقُولُهُ : « سَوْفَ اسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي » .
 قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ﴾ أَيْ قَصْرًا كَانَ لَهُ هُنَاكَ . ﴿ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ ﴾
 قِيلَ : إِنْ يَوْسُفَ بَعَثَ مَعَ الْبَشِيرِ مَائَتِي رَاغِلَةً وَجَهَازًا ، وَسَأَلَ يَقُوبَ أَنْ يَأْتِيَهُ بِأَهْلِهِ وَوَلَدِهِ
 جَمِيعًا ؛ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ ، أَيْ ضَمَّ ؛ وَيَعْنِي بِأَبَوَيْهِ أَبَاهُ وَخَالَتَهُ ، وَكَانَتْ أُمُّهُ
 قَدْ مَاتَتْ فِي وَلَادَةِ أَخِيهِ بَنَامِينَ . وَقِيلَ : أَحْبَبَا اللَّهُ أُمُّهُ تَحْقِيقًا لِلرُّؤْيَا حَتَّى مَجَّدَتْ لَهُ ، فَالَهُ
 الْحُسْنُ ؛ وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي « الْبَقَرَةِ » أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَحْبَبَ لِنَبِيِّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَبَاهُ وَأُمُّهُ فَأَمَّا بِهِ .
 قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِينَ ﴾ قَالَ أَبُو جَرِيحٍ : أَيْ سَوْفَ اسْتَغْفِرُ لَكُمْ
 رَبِّي إِنْ شَاءَ اللَّهُ ؛ قَالَ : وَهَذَا مِنْ تَقْدِيمِ الْقُرْآنِ وَتَأْخِيرِهِ ؛ قَالَ النَّحَاسُ : يَدْبَحُ أَبُو جَرِيحٍ إِلَى أَنْهُمْ
 قَدْ دَخَلُوا مِصْرَ فَكَيْفَ يَقُولُ : « ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ » . وَقِيلَ ثَانِيًا قَالَ « إِنْ شَاءَ اللَّهُ »
 تَهْنِئَةً وَتَعَزُّيًا . « كَسِبَ » مِنْ الْفَطْحِ ، لَوْ مِنْ فَرْصَةٍ ، وَكَانُوا لَا يَبْطَلُونَ إِلَّا بِمِثَالِهِ .

قوله تعالى : وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَأْبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُءُوسِي مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَعَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَسَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿١١﴾

قوله تعالى : (وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ) قال قتادة : يريد السرير ، وقد تقدمت ترجمته ؛ وقد يُعبر بالعرش عن الملك والملك سبحانه ومنه قول النافعة الدُّبَيَّاتِي :

• عُرُوشٌ تَفَاوَأَ بَعْدَ عِزٍّ وَأَمْنَةٍ •

(١١)
وقد تقدم .

قوله تعالى : (وَوَخَّرُوا لَهُ سُجَّدًا) .

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : «وَوَخَّرُوا لَهُ سُجَّدًا» الهاء في «وَوَخَّرُوا لَهُ» قيل : إنها تعود على الله تعالى ؛ اللغوي : وَوَخَّرُوا شكرًا لله سبحانه ؛ ويوسف كالقبلة لتحقيق رؤياه ، وروى عن الحسن ؛ قال القاسم : وهذا خطأ ؛ والهاء راجعة إلى يوسف لقوله تعالى في أول السورة : «رَأَيْتُمْ لِي سَاجِدِينَ» . وكان تحيتهم أن يسجدوا للوضع الشريف ، والصغير للكبير ؛ محمد بمقوب وخاتمه وإخوته ليوسف عليه السلام ، فاقشعرت جلده وقال : «هذا تأويل رؤيائي من قبل» وكان بين رؤيا يوسف وبين تأويلها اثنتان وعشرون سنة . وقال سلمان الفارسي : وعبد الله بن شداد : أربعون سنة ؛ قال عبد الله بن شداد : وذلك آخر ما تبطل الرؤيا . وقال قتادة : خمس وثلاثون سنة . وقال السدي وسعيد بن جبلة وعكرمة : ست وثلاثون سنة . وقال الحسن وجابر ابن زرقدة ونُضَيْل بن عِيَّاض : ثمانون سنة . وقال وهب بن منبه : أثنى يوسف في الحب وهو ابن سبع عشرة سنة ، وقاب عن أبيه ثمانين سنة ، وحاش بعد أن التقي بآبيه ثلاثًا وخمسين

سنة، ومات وهو ابن مائة وعشرين سنة. وفي التوراة مائة وست وعشرون سنة. وولد ليوسف من امرأة العزيز افرائيم ومنشا ورحمة امرأة ايوب . وبين يوسف وموسى أر مائة سنة .
وقيل : إن يعقوب بن عبد يوسف عشرين سنة ، ثم توفى صلى الله عليه وسلم . وقيل : أقام عنده ثمانى عشرة سنة . وقال بعض المحدثين : بضعا واربعين سنة ؛ وكان بين يعقوب ويوسف ثلاث وثلاثون سنة حتى جمعهم الله . وقال ابن إسحق : ثمانى عشرة سنة ، والله أعلم .
الثانية - قال سعيد بن جبيرة عن قتادة عن الحسن - في قوله « وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا » - قال : لم يكن سجودا ، ولكنه سنة كانت فيهم ، يؤمنون بربهم إيماء ، كذلك كانت تحيتهم . وقال الثوري والضحاك وغيرهما : كان سجودا كالسجود للمهود عدنا . وهو كان تحيتهم . وقيل : كان انحناء كالركوع ، ولم يكن خرورا على الأرض ؛ وهكذا كان سلامهم بالكسفى والانحناء ، وقد نسخ الله ذلك كله في شرعا ، وجعل الكلام بدلا عن الانحناء . وأجمع المفسرون أن ذلك السجود على أى وجه كان فإنما كان تحية لاعادة ؛ قال قتادة : هذه كانت تحية الملوك عندهم ؛ وأعطى الله هذه الأمة السلام تحية أهل الحمة .

قلت : هذا الانحناء والكسفى الذى نسخ عنا قد صار عادة بالديار المصرية ، وعند السجم ، وكذلك قيام بعضهم إلى بعض ؛ حتى أت أحدهم إذا لم يقم له وجده في معه كانه لا يؤبه به ، وأنه لا قدر له ؛ وكذلك إذا ألتفوا أحنى بعضهم لبعض ، عادة مستمرة ، ووراة مستقرة ، لا سيما عند الفناء الأمراء والرؤساء ؛ نكبوا عن السير ، وأعرضوا عن استن .
وروى أنس بن مالك قال : قلنا يا رسول الله ! أيجبى بعضنا إلى بعض إذا أنفينا ؟ قال : « لا » ؛ قلنا : أيجبى بعضنا بعضا ؟ قال « لا » . قلنا : أفبصالح بعضنا بعضا ؟ قال « نعم » .
حرمه أبو عمر في « التمهيد » . - فإن قيل : فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قوموا إلى سيدكم وخيركم » - يعنى سعد بن معاذ - قلنا : ذلك مخصوص بسعد لنا نفذه الحال المعينة ؛ وقد قيل : إنما كان قيامهم ليتزله عن الحمار ؛ وأيضا فإنه يجوز للرحل الكبير إذا لم يؤثر ذلك في نفسه فإن أثر فيه وأعجب به ورأى لنفسه خطئا لم يحزنونه على ذلك ؛

لقوله صلى الله عليه وسلم : " من سرته أن يتنفل له الناس قياما فليتبوأ مقعده من النار " وحاء عن السعابة رضوان الله عليهم أجمعين أنه لم يكن وجه أكرم عليهم من وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما كانوا يقومون له إذا رأوه ، لما يعرفون من كراهته لذلك

الثالثة - فإن قيل : فما نقول في الإشارة بالإصبع ؟ قيل له : ذلك مما إذا بعد صك ، نعين له به وقت السلام ، فإن كان ذاتياً فلا ، وقد قيل بالتمتع في القرب والبعد ، لما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " من تشبه بفيرنا فليس منا " . وقال : " لا تسلموا تسليم اليهود والنصارى فإن تسليم اليهود بالأكف والنصارى بالإشارة " . وإذا سلم فإنه لا يتحنى ، ولا أن يقبل مع السلام يده ، ولأن الانحناء على معنى التواضع لا يبنى إلا لله . وأما قبيل البد فإنه من فعل الأعاجم ، ولا يتبعون على أنفعلهم التي أحدثوها تعظيماً منهم لكبرائهم ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : " لا تقوموا عند رأسى كما تقوم الأعاجم عند رموس أكاسرتهم " فهذا مثله . ولا بأس بالمصافحة ، فقد صاغ النبي صلى الله عليه وسلم جعفر ابن أبي طالب حين قدم من الحبشة ، وأمر بها ، وندب إليها ، وقال : " تصالحوا بذهب النيل " وروى غالب التمار عن الشعبي أن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كانوا إذا انفقوا تصالحوا ، وإذا قدموا من سفر تصالحوا ، فإن قيل : فقد كره مالك المصافحة ؟ قلنا : روى ابن وهب عن مالك أنه كره المصافحة والمعاقبة ، وذهب إلى هذا سحنون وغيره من أصحابنا ، وقد روى عن مالك خلاف ذلك من جواز المصافحة ، وهو الذي يدل عليه معنى ما في الموطأ ، وعمل جواز المصافحة جماعة العلماء من السلف والخلف . قال ابن العربي : إنما كره مالك المصافحة لأنه لم يرها أمراً عاماً في الدين ، ولا منقولاً نقل السلام ، ولو كانت منه لاستوى معه .

قلت : قد جاء في المصافحة حديث يدل على الترغيب فيها ، والآداب عليها والمحافظة ، وهو ما رواه البراء بن عازب قال : لقيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذ يدي فقلت : يا رسول الله ! أن كنت لأحسب أن المصافحة للأعاجم ؟ فقال : " نحن أحق بالمصافحة منهم ما من مسلمين يلتقيان فيأخذ أحدهما بيد صاحبه مودةً بينهما ونصيحةً إلا ألقيت ذنوبهما بينهما " .

قوله تعالى : ﴿ وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ ﴾ ولم يقل من الحب استملا للكرم ، لئلا يذكر إخوته صنيعهم بعد عفوهم بقوله : « لا تريب عليكم » .

قلت : وهذا هو الأصل عند مشايخ الصوفية : ذكر الجفا في وقت الصفا جفاً ، وهو قول صحيح دل عليه الكتاب . وقيل : لأن في دخوله السجن كان باختياره بقوله : « رَبِّ السِّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونِي إِلَيْهِ » وكان في الحب بارادة الله تعالى له . وقيل : لأنه كان في السجن مع النصوص والمصاة ، وفي الحب مع الله تعالى ، وأيضاً فإن الميتة في التجاة من السجن كانت أكبر ، لأنه دخله بسبب أمرهم به ، وأيضاً دخله باختياره إذ قال : « رَبِّ السِّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ » فكان الكرب فيه أكثر ، وقال فيه أيضاً : « أذكرني عند ربك » فوجب فيه . ﴿ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدَا ﴾ يروي أن سكن يعقوب كان بارض كنعان ، وكانوا أهل مواش وبرية ، وقيل : كان يعقوب تحول إلى بادية وسكنها ، وأن الله لم يبعث نبياً من أهل البادية . وقيل : أنه كان خرج إلى بدا ، وهو موضع ، وإياه عن جبل بقوله :

وَأَنْتَ الَّتِي حَبِطَ شِفَاؤُهَا إِلَى بَدَا . إلى وأوطاني بلاد شواحي

فيعقوب بهذا الموضع مسجد تحت جبل . يقال : بدأ القوم بدأوا إذا أتوا بداً ، كما يقال : قَارُوا غَوْرًا أي أتوا الغور ، والمعنى : وجاء بكم من مكاتب بدأ ، ذكره القشيري ، وحكاها المساوردي عن الضحاك عن ابن عباس . ﴿ مِنْ بَعْدِ أَنْ تَزَعَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ﴾ وإيقاع الحسد ، قاله ابن عباس . وقيل : أفسد ما بيني وبين إخوتي ، أحال ذنبهم على الشيطان مكرماً منه . ﴿ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ ﴾ أي رفيق بعباده . وقال الخطابي : اللطيف هو البر بعباده الذي يلطف بهم من حيث لا يسمون ، وبسبب هم مصالحهم من حيث لا يحسبون ، كقوله : « الله لطيف بعباده يرفق من يشاء » . وقيل : اللطيف العالم بدقائق الأمور والكرامات والإكرام والرفق . قال قتادة : لطيف بخرجه من السجن ، وجاءه بأهله من البدو ، وزرع من قلبه نزع الشيطان . يروي أن يعقوب لما قدم بأهله وولده وشارف أرض مصر وبلغ ذلك يوسف استأذن فرعون - واسمه الريان - أن يأذن الله في تلقى أبيه يعقوب ، وأخبره

بذلك ، فسمح له الله تعالى ، واسم يوسف يوسف .

بقدمه فأذن له ، وأمر الملا من أصحابه بالركوب معه ، فخرج يوسف والملاك معه في أربعة آلاف من الأمراء مع كل أمير خلق الله أعلم بهم ، وركب أهل مصر معهم يتلقون يعقوب ، فكان يعقوب يمشي متكئا على يد يهوذا ، فنظر يعقوب إلى الخليل والناس والساكر فقال : يا يهوذا ! هذا فرعون مصر ؟ قال : لا ، بل هذا ابنك يوسف ، فلما دنا كل واحد منهما من صاحبه ذهب يوسف ليبدأه بالسلام ففزع من ذلك ، وكان يعقوب أحق بذلك منه وأفضل ، فابتدأ يعقوب بالسلام فقال : السلام عليك يا مذهب الأحرار ، وبكى وبكى معه يوسف ، فبكى يعقوب فرحا ، وبكى يوسف لما رأى أبيه من الحزن ، قال ابن عباس : فالبكاء أربعة : بكاء من الخوف ، وبكاء من الجزع ، وبكاء من الفرح ، وبكاء رياء . ثم قال يعقوب : الحمد لله الذي أقر عيني بعد المموم والأحرار ، ودخل مصر في اثنين وعشرين من أهل بيته ، فلم يخرجوا من مصر حتى بلغوا ستمائة ألف ونيف ألف ، وقطعوا البحر مع موسى عليه السلام ، ورواه جريرمة عن ابن عباس . وحكى ابن مسعود أنهم دخلوا مصر وهم ثلاثة وتسعون إنسانا ما بين رجل وامرأة ، وخرجوا مع موسى وهم ستمائة وسبعون ألفا . وقال الربيع بن خثيم : دخلوا وهم اثنان وسبعون ألفا ، وخرجوا مع موسى وهم ستمائة ألف . وقال وهب : دخل يعقوب وولده مصر وهم تسعون إنسانا ما بين رجل وامرأة وصغير ، وخرجوا منها مع موسى فرارا من فرعون ، وهم ستمائة ألف وخمسمائة وبضع وسبعون رجلا مقاتلين ، سوى الذرية والمرءى والزمنى ، وكانت الذرية ألف ألف ومائتي ألف سوى المقتلة . وقال أهل التواريخ : أقام يعقوب بمصر أربعة وعشرين سنة في أفضط حال ونعمة ، ومات بمصر ، وأوصى إلى ابنه يوسف أن يحمل جسده حتى يدفنه عند أبيه إصحق بالشام ففعل ، ثم أنصرف إلى مصر . قال سعيد ابن جبير : قل يعقوب صلى الله عليه وسلم في تابوت من صاج إلى بيت المقدس ، ووافق ذلك يوم مات يعصو ، فدفن في قبر واحد ، فمن ثم تنقل اليهود موتاهم إلى بيت المقدس ، فمن قبل ذلك منهم ، وولد يعقوب ويعصو في بطن واحد ، ودفن في قبر واحد ، وكان عمرهما جميعا مائة وسبعاً وأربعين سنة .

(١) أي من يعقوب عليه السلام لأن الله عز وجل قال في سورة يوسف : . . .

... يعقوب من الله .

قوله تعالى : رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيَّ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿١٢٨﴾

قوله تعالى : (رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ) قال قتادة ، لم يمت الموت أحد ، نبي ولا غيره إلا يوسف عليه السلام ، حين تكلمت عليه النعم وجمع له الشمل أشاق إلى لقاء ربه عز وجل . وقيل : إن يوسف لم يمت الموت ، وإنما تمى الوفاة على الإسلام ، أى إذا جاء أجل توفى مسلما ، وهذا قول الجمهور . وقال سهل بن عبد الله الشَّسْتَرِي : لا يمتي الموت إلا ثلاث : رجل جاهل بما بعد الموت ، أو رجل فتر من أقدار الله تعالى عليه ، أو مشتاق محب للقاء الله عز وجل ، وثبت في الصحيح عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا يمتي أحدكم الموت لضُرَّ نزل به فإن كان لابد متحيا فليقل اللهم أحيني ما كانت الحياة خيرا لي وتوفني إذا كانت الوفاة خيرا لي " رواه مسلم . وفيه عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا يمتي أحدكم الموت ولا يدع به من قبل أن يأتيه إنه إذا مات أحدكم أقطع عمله وإنه لا يزيد المؤمن عمره إلا خيرا "

وإذا ثبت هذا فكيف يقال : إن يوسف عليه السلام تمتى الموت والخروج من الدنيا وقطع للعمل ؟ هذا بعيد ! إلا أن يقال : إن ذلك كان جائزا في شرعه ، أما أنه يجوز معنى الموت والدعاء به عند ظهور الفتن وغلبتها ، وخوف ذهاب الدين ، على ما بيناه في كتاب « التذكرة » . « ومن » من قوله : « مِنَ الْمُلْكِ » للتبعية ، وكذلك قوله : « وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ » لأن ملك مصر ما كان كل الملك ، وعلم التفسير ما كان كل العلوم . وقيل : « مِنْ » للجنس ، كقوله : « فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ » . وقيل : للتأكيد . أى آتيتنى الملك وعلمتني تأويل الأحاديث .

(١٢٨) ليل ، وجه صحة كل قسم من حيث أنه مبنى على . وقال ابن جرير : فيه إيهام أن التأويل انتهى على ما به ، ويكرهه جمع من لقي حلف الله ولما به .

قوله تعالى : ﴿ فَاطْرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ نصب على النعت للنساء ، وهو رب ،
وهو نداء مضاف ، والتقدير : يارب ! ويجوز أن يكون نداء ثانيا . والفاطر الخالق ؛ فهو
مبناه فاطر الموجودات ، أى خالقها ومبناها ومنشئها وغترعها على الإطلاق من غير شيء ؛
ولا مثال سبق ؛ وقد تقدم هذا المعنى فى « البقرة » مستوفى ؛ عند قوله : « بَدِيعُ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ » وزدناه بيانا فى الكتاب الأسنى فى شرح اسماء الله الحسنى . (أَنْتَ وَلِيِّىَ) أى ناصرى
ومتولى أمورى فى الدنيا والآخرة . (تَوَكَّلْ عَلَىَّ) أى تَوَكَّلْ عَلَىَّ بِالصَّالِحِينَ يريد آباءه الثلاثة ؛ إبراهيم
وإسماعيل ويعقوب ، فتوفاه الله — طاهرا طيبا صلى الله عليه وسلم — بمصر ، ودفن فى النيل
فى صندوق من رخام ؛ وذلك أنه لما مات تشاحَّ الناس طلبة ؛ كُلُّ يَحِبُّ أَنْ يَدْفِنَ فِي مَحْتَمِهِ ،
لِما يرجون من ركنه ؛ وأجمعوا على ذلك حتى همَّوا بالقتال ، فأروا أن يدفونه فى النيل من
حيث مَفَرِقُ الماء بمصر يَمُزِّجُ عليه الماء . ثم يتفرق فى جميع مصر ، فيكونوا فيه شَرِعا ففعلوا ؛
فلما خرج موسى بنى إسرائيل أخرجه من النيل ، ونقل تابوته بعد أر بعانة سنة إلى بيت
المقدس ، فدفنوه مع آبائه لدعوته : « وَأَلْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ » وكان عمره مائة عام وسبعة
أعوام . وعن الحسن قال : أُلْقِيَ يوسف فى الحبِّ وهو ابنُ سَبْعِ عشرة سنة ، وكان فى العبودية
والسجن والملك ثمانين سنة ، ثم جُمع له شمله فعاش بعد ذلك ثلاثا وعشرين سنة ؛ وكان له
من الولد إفرائيم ، ومنشا ، ورحمة ، زوجة أبوب ؛ فى قول ابن خَلِّيعَة . قال الزهرى : وولد
لإفرائيم — ابن يوسف — نون بن إفرائيم ، وولد لنون يوشع ؛ فهو يوشع بن نون ، وهو
نقى موسى الذى كان معه صاحب أمره ، ونبأه الله فى زمن موسى عليه السلام ؛ فكان بعده
نيئا ، وهو الذى أفتح أريحا ، وقُتل من كان بها من الجبابرة ، واستوقت له الشمس حسب
ما تقدم فى « المائدة » . وولد لمنشا بن يوسف موسى بن منشا ، قبل موسى بن عمران ؛
وأهل التوراة يزعمون أنه هو الذى طلب العالم ليتعلم منه حتى أدركه ، والعالم هو الذى خرق

(٢) راجع ج ١ ص ١٤٠ وما بعدها طيبة

(١) راجع ج ٢ ص ٨٦ وما بعدها طيبة .

السفينة، وقتل الفلاح، وبنى الجدار، وموسى بن منشا معه حتى بلغ معه حيث بلغ؛ وكان
 كهن عباس ينكر ذلك؛ ولحق الذي قاله ابن عباس؛ وكذلك في القرآن . ثم كان بين يوسف
 وموسى أم وقرونه وكان نيا بينهما شعب، صلوات الله عليهم أجمعين .

قوله تعالى . ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ
 لَتَدِيرَهُمْ إِذْ أَتَوْا مُرَمَّمًا فَبَيَّنَّا لَهُمْ مَا كَانُوا يُكْرُؤُونَ ﴿١٥٦﴾ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ
 وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٧﴾ وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ
 لِلْعَالَمِينَ ﴿١٥٨﴾

قوله تعالى : (ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ) ابتداء وخبر . (نُوحِيهِ إِلَيْكَ) خبر ثان .
 قال الزجاج : ويجوز أن يكون « ذلك » بمعنى الذي ، و « نوحيه إليك » خبره ؛ أى الذى
 من أنباء النبي نوحيه إليك ؛ معنى هو الذى قصصنا عليك يا محمد من أمر يوسف من أخبار
 للنبي « نوحيه إليك » أى تعلمك بوحى هذا إليك . (وَمَا كُنْتَ لَتَدِيرَهُمْ) أى مع اخوة
 يوسف (إِذْ أَتَوْا مُرَمَّمًا) فى إلقاء يوسف فى الحب . (وَهُمْ يَكْرُؤُونَ) أى بيوسف
 فى إلقاءه فى الحب . وقيل : « يكرون » يعقوب حين جاءوه بالقميص ملطحا بالدم ؛
 أى ما شاهدت تلك الأحوال، ولكن الله أطلعك عليها .

قوله تعالى : (وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ) ظن أن العرب لما سألته
 عن هذه القصة وأخبرهم يؤمنون ، فلم يؤمنوا ؛ فنزلت الآية تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم ؛
 أى ليس تقدر على هداية من أردت هدايته ؛ تقول : حرص يحرس ، مثل : ضرب يضرب .
 وفى لغة ضعيفة حرص يحرس مثل حديد يحمّد . والحرس طلب الشيء باختيار .

قوله تعالى : (وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ) من صلة ؛ أى ما تسألهم جُملًا . (إِنْ هُوَ)
 أى ما هو ؛ معنى القرآن والوحى . (إِلَّا ذِكْرٌ) أى حظة وتذكرة (لِلْعَالَمِينَ) .

قوله تعالى : وَكَانَ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴿١٧﴾ أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَنَ اللَّهُ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٩﴾

قوله تعالى : (وَكَانَ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) قال الخليل وسيويه : هي « آية » دخل عليها كاف التشبيه وبنيت معها ، فصار في الكلام معنى كَم ، وقد مضى في « آل عمران » القول فيها مستوفى . ومضى القول في آية « السموات والأرض » في « البقرة » . وقيل : الآيات آثار عقوبات الأمم السالفة ؛ أي هم غافلون معرضون عن تأملها . وقيل : حكمة وعمرور بن فائد « وَالْأَرْضِ » رعباً أبشداً ، وخبره « يَمُرُّونَ عَلَيْهَا » . وفرا السدى « وَالْأَرْضِ » نصباً بإضمار فعل ، والوقف على هاتين القراءتين على « السموات » . وقرأ ابن مسعود « يمشون عليها » .

قوله تعالى : (وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ) نزلت في قوم أفزون بالله خالفهم وخالق الأشياء كلها ، وهم يعبدون الأوثان ؛ قاله الحسن ومجاهد وعاصم والشعبي وأكثر المفسرين . وقال عكرمة هو قوله : « وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ » ثم يصفونه بغير صفته ويعطون له أنناداً ؛ وعن الحسن أيضاً أنهم أهل كتاب منهم شرك وإيمان ، آمنوا بالله وكفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم ، فلا يصح إيمانهم ؛ حكاه ابن الأنباري . وقال ابن عباس : نزلت في تلبية مشركي العرب : لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك . وعنه أيضاً أنهم النصارى . وعنه أيضاً أنهم المشجعة ، آمنوا بمجلا وأشركوا

(١) جامع ٤٥ ص ٢٢٥ وما بعدها طبعه أدلر تانية .

(٢) طبع ٢٦ ص ١٩٢ وما بعدها طبعه ثلثة .

مَفْصَلًا . وقيل : نزلت في المنافقين ؛ المعنى : « وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ » أى باللسان إلا وهو كافر بقلبه ؛ ذكره الماوردي عن الحسن أيضا . وقال عطاء . : هذا في الدعاء ؛ وذلك أن الكفار ينفون ربهم في الرخاء ، فإذا أصابهم البلاء اخلصوا في الدعاء ؛ بيانه : « وَظَنُوا أَنَّهُمْ آخِظٌ بِهِمْ » الآية . وقوله : « وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَا لِحَبِيْبِهِ » الآية ؛ وفي آية أخرى « وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ دَعَا عَرِيْبِيْضَ » . وقيل : معناها أنهم يدعون الله يحيمهم من الملكة ، فإذا انجاهم قال قائلهم : لولا فلان ما نجونا ، ولولا الكلب لدخل علينا اللص ، ونحو هذا ؛ فيجعلون نعمة الله منسوبة إلى فلان ، ووقايته منسوبة إلى الكلب .

قلت : قد يقع في هذا القول والذي قبله كثير من عوام المسلمين ؛ ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . وقيل : نزلت هذه الآية في قصة الدخان ، وذلك أن أهل مكة لما غشيم الدخان في سبى القحط قالوا : « رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ » فذلك إيمانهم ، وشركهم عودهم إلى الكفر بعد كشف العذاب ؛ بيانه قوله : « إِنَّكُمْ عَائِدُونَ » والسود لا يكون إلا بعد آتداء ؛ فيكون معنى « إلا وهم مشركون » أى إلا وهم عائدون ، والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ أَقَامُوا أَن تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللهِ ﴾ قال ابن عباس : مُجَلَّةٌ . وقال شاذان : عذاب يغشاهم ؛ نظيره « يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ » . وقال قتادة : وفيعة نفع لهم . وقال الضحاك : يعنى الصواعق والقوارع . ﴿ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ ﴾ يعنى القيامة . ﴿ نَفْثَةٌ ﴾ تنصب على الحال ؛ واصله المصدر . وقال المبرد : جاء عن العرب حال بعد نكدة ؛ وهو قولهم : وَقَعَ أَمْرُهُمْ بَعَثَةٌ وَجَنَادٌ ؛ قال النحاس : ومعنى « بَعَثَةٌ » إصابة من حيث لم يتوقع . ﴿ وَهُمْ لَا يَسْتَعْرِضُونَ ﴾ وهو توکید . وقوله « بَعَثَةٌ » قال ابن عباس : تصبح مصحبة باللسان وهم في أسواقهم ومواقعهم ، كما قال : « نَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ » على ما يأتي .

قوله تعالى : ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي﴾ استاء وحبر، أى قل يا محمد هذه طريقى وسبيلى ومنهاجى ،
 قاله ابن زيد . وقال الربيع : دعوى . مقاتل : دعى ، والمعنى واحد ، أى الذى أبا عليه
 وأدهو إليه يؤدى إلى الجنة . ﴿عَلَى بَصِيرَةٍ﴾ أى على يقين وحق ، ومه : فلان مستصر بهذا .
 ﴿أَنَا﴾ توكيد . ﴿وَمَنْ اتَّبَعِي﴾ عطاف على المصمر . ﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ﴾ أى قل يا محمد : «وسبحان
 الله» . ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ الذين يتحدون من دون الله أندادا .

قوله تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ مِنْ
 أَهْلِ الْقُرَىٰ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ
 مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ١٠١ حتى إذا
 استنشق الرُّسُلُ وُظِنُوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرًا مِنْ نِسَاءِ
 وَلَا يُرَدُّ بَأْسًا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ١٠٢

قوله تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ﴾ هذا رد على
 الفاتنين : «قُلُوا أَنْزَلَ عَلَيْهِ مُلْكٌ» أى أرسلنا رجلا ليس معهم امرأة ولا جنى ولا ملك ، وهذا
 رد ما يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : «إن فى النساء أربع بيات حواء وآسية وأم
 موسى وصرم» . وقد تقدم فى «آل عمران» شئ من هذا . «مِنْ أَهْلِ الْقُرَى» يريد المدائن ؛
 لم يبعث الله نبيا من أهل البادية لعلة الخفاء والقسوة على أهل البدو ، ولأن أهل الأمصار
 أعقل وأعلم وأفضل وأعلم . قال الحسن : لم يبعث الله نبيا من أهل البادية قط ، ولا من
 النساء ، ولا من الجن . وقال قتادة : «مِنْ أَهْلِ الْقُرَى» أى من أهل الأمصار ؛ لأنهم
 أعلم وأعلم . وقال العلماء : من شرط الرسول أن يكون رجلا آدميا مدنيا ، وإما قالوا آدميا
 تحزنا من قوله : «يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْإِنِّ» والله أعلم .

قوله تعالى: ﴿أَقْلَمَ سَبْرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا﴾ إلى مصارع الأمم المكذبة لأنبيائهم (يُفْتَبَرُوا) . ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ حَيْرٌ﴾ ابتداء وخبره . وزعم الفراء أن الدار هي الآخرة ؛ وأضيف الشيء إلى نفسه لاختلاف اللفظ ، كيوم الخميس ، وبارحة الأولى ؛ قال الشاعر .
ولو أقوت عليك ديار عيس . عرفت الدل عرقان اليقين

أي عرقانا يقينا ؛ وأحجج الكسائي بقولهم : صلاة الأولى ؛ واحتج الأخفش بمسجد الجامع . قال النحاس : إضافة الشيء إلى نفسه محال ؛ لأنه إنما يضاف الشيء إلى غيره ليتعرف به ؛ والأجود الصلاة الأولى ، ومن قال صلاة الأولى فمناه : عند صلاة الفريضة الأولى ؛ وإنما لم يسمت الأولى لأنها أول ما صلى حين فرضت الصلاة ، وأول ما أظهر ؛ فذلك قيل لها أيضا الظاهر . والتقدير : ولدار حال الآخرة خير ، وهذا قول البصريين ؛ والمراد بهذه الدار الجنة ؛ فأى هي خير للثنتين . وقرئ « وَلَدَارُ الْآخِرَةِ » . وقرأ نافع وعاصم ويعقوب وغيرهم ﴿ أَهْلًا تَقُولُونَ ﴾ بناء على الخطأ . الباكون بالياء على الخبر .

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ﴾ تقدم القراءة فيه ومعناه: ﴿وَطَلُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كَذَبُوا﴾ وهذه الآية فيها تترية الأنبياء وعصمتهم عما لا يليق بهم . وهذا الباب عظيم ، وخطره جسيم ، ينبغي الوقوف عليه لئلا يزول الإنسان فيكون في سواء الجحيم . المعنى : وما أرسلنا قبلك يا محمد إلا رجالا ثم لم تعاقب أهمهم بالعقاب « حتى إذا استيسر الرسل » أي يسوا من إيمان قومهم « وطلّسوا أنهم قد كذبوا » بالتشديد ؛ أي أيقنوا أن قومهم كذبوهم . وقيل المعنى : حسبا أن من آمن بهم من قومهم كذبوهم ، لأن القوم كذبوا ، ولكن الأنبياء طلّسوا وحسبوا أنهم يكذبونهم ؛ أي خافوا أن يدخل قلوب أتباعهم شك ؛ فيكون « وطلّسوا » على باب في هذا التناويل : وقرأ ابن عباس وآبن مسعود وأبو عبد الرحمن السلمي وأبو جعفر بن التميمي والحسن وقتادة وأبو رجاء الطائري وثعاصم وحمزة والكسائي ويحيى بن وثاب والاعمش وحلف « كذبوا » بالتحفيف ؛ أي ظن القوم أن الرسل كذبوهم فيما أخبروا به من العذاب ،

ولم يصدقوا . وقيل : المعنى ظن الأمم أن الرسل قد كذبوا فيما وعدوا به من نصرهم . وفي رواية عن ابن عباس : ظن الرسل أن الله أخلف ما وعدهم . وقيل : لم تصح هذه الرواية ؛ لأنه لا يظن الرسل هذا الظن ، ومن ظن هذا الظن لا يستحق النصر ؛ فكيف قال : (جَاءَهُمْ نَصْرًا) ؟ ! قال القشيري أبو نصر : ولا يبعد إن سمحت الرواية أن المراد خطر بقلوب البشر هذا من غير أن يتحققوه في نفوسهم ؛ وفي الخبر : " إن الله تعالى تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها ما لم ينطق به لسان أو تعمل به " . ويجوز أن يقال : فربما من ذلك الظن ؛ كقولك : بلغت المنزل ، أى قريت منه . وذكر التلبي والنحاس عن ابن عباس قال : كانوا يشركونهم في طول البلاء ، ونسوا وظنوا أنهم أخلفوا ؛ ثم نلا : « حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله » . وقال الترمذي الحكيم : وجهه عندنا أن الرسل كانت تخاف بعد ما وعد الله النصر ، لا من همة يوعد الله ، ولكن تهمة النفوس أنه تكون قد أحدثت حدثاً ينقص ذلك الشرط والمهد الذي عهد إليهم ؛ فكانت إذا طالت المدة دخلهم الإياس والظنون من هذا الوجه . وقال المهدي عن ابن عباس : ظنت الرسل أنهم قد أخلفوا على ما يلحق البشر ؛ واستشهد بقول إبراهيم عليه السلام : « رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُخَيِّمُ الْمَوْتَى » الآية . والقراءة الأولى أولى . وقرأ مجاهد وحيد — « قَدْ كُتِبُوا » بفتح الكاف والذال مخففاً ، على معنى : وظن قوم الرسل أن الرسل قد كذبوا ، لما رأوا من تفضل الله عز وجل في تأخير العذاب . ويجوز أن يكون المعنى : و[لما] أبين الرسل أن قومهم قد كذبوا على الله بكفرهم جاء الرسل بصرنا . وفي البحار عن عروة عن عائشة قالت له وهو يسألها عن قول الله عز وجل : « حتى إذا استبأس الرسل » قال قلت : أ كذبوا أم كذبوا ؟ قالت عائشة : كذبوا . قلت : فقد استيقنوا أن قومهم كذبهم فما هو بالظن ؟ قالت : أجل ! لعمرى ! لقد استيقنوا بذلك ؛ فقالت لها : « وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا » قالت : معاذ الله ! لم تكن الرسل تظن ذلك برها . قلت : فما هذه الآية ؟ قالت : هم اتباع الرسل [الذين آمنوا بربههم وصدقوهم ، فطال عليهم البلاء ، واستأخر عنهم النصر حتى إذا استبأس الرسل]

عن كذبهم من قومهم ، وظنت الرسل أن أناسهم كذبهم جاءهم نصرنا عند ذلك .
وفى قوله تعالى : « جاءهم نصرنا » قولان : أحدهما - جاء الرسل نصر الله ؛ قاله مجاهد .
الثاني - جاء قومهم عذاب الله ؛ قاله ابن عباس . (فَجِئَ مِنْ نَشَأٍ) قيل : الأنبياء ومن آمن معهم . وروى عن عاصم « فَجِئَ مِنْ نَشَأٍ » بنون واحدة مفتوحة الباء ، و « مَنْ » في موضع رفع ، اسم ما لم يُسم فاعله ؛ واختار أبو عبيد هذه القراءة لأنها في مصحف عثمان وسائر مصاحف البلدان بنون واحدة . وقرأ ابن محيص « فَتَنَّا » فعل ماض ، و « مَنْ » في موضع رفع لأنه الفاعل ، وعلى قراءة الباقرين نصبا على المفعول . (وَلَا يَرْدُ بَأْسًا) أى عذابنا . (عَنْ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ) أى الكافرين المشركين .

قوله تعالى : لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولَى الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾

قوله تعالى : (لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ) أى فى قصة يوسف وأبيه وإخوته ، أو فى قصص الأنبياء (عِبْرَةٌ) أى فكرة ونذكرة وعظة . (لِأُولَى الْأَلْبَابِ) أى العقول . وقال محمد بن إسحق عن الزهري عن محمد بن إبراهيم بن الحارث التيمي : إن يعقوب عاش مائة سنة وسبعا وأربعين سنة ، وتوفى أخوه عيسو معه فى يوم واحد ، وقرأ فى قر واحد ؛ فذلك قوله : « لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب » إلى آخر السورة . (مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى) أى ما كان القرآن حديثا يفترى ، أو ما كانت هذه القصة حديثا يفترى . (وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ) أى ما كان قبله من التوراة والإنجيل وسائر كتب الله تعالى ، وهذا ناول من زعم أنه القرآن . (وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ) مما يحتاج العباد إليه من الحلال والحرام ، والشرائع والأحكام . (وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الرعد

مكية في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر ، ومدنية في قول الكلبي ومقاتل . وقال ابن
 حاس وقادة : مدنية إلا آيتين منها نزلنا بمكة ؛ وهما قوله عز وجل : « وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ
 بِهِ الْحَبَالُ » ^(١) [إلى آخرها]

قوله تعالى : أَلَمْ تَرَ نَازِلَ آيَاتِ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ①

قوله تعالى : (المراتب آيات الكتاب) تقدم القول فيها . (والذي أنزل إليك) يعني
 وهذا القرآن الذي أنزل إليك (من ربك الحق) لا كما يقول المشركون : إنك تأتي به من تلقاء
 نفسك ؛ فاعتصم به ، وأعمل بما فيه . قال مقاتل : نزلت حين قال المشركون : إن محمدا أتى
 بالقرآن من تلقاء نفسه . « والذي » في موضع رفع عطفا على « آيات » أو على الأبداء ،
 و « الحق » خبره ؛ ويعوز أن يكون موضعه جرا على تقدير : وآيات الذي أنزل إليك ،
 وارتفاع « الحق » على هذا على إضمار مبتدأ ، تقديره : ذلك الحق ؛ كقوله تعالى : « وَهُمْ يَكْفُرُونَ »
 اسحق ؛ يعني ذلك الحق . قال الفراء : وإن شئت جعلت « الذي » خفصا نعتا للكتاب ،
 وإن كانت فيه الواو كما يقال : أنا هذا الكتاب عن أبي حفص والفاروق ؛ ومنه قول
 الشاعر

إلى الملك القسرم وابن الهمام • ولبت الكتيبة في المزدحم
 يريد : إلى الملك أقرم بن الهمام ، لبت الكتيبة . (ولكن أكثر الناس لا يؤمنون) .

(١) الزيادة من قسم البحر . (٢) المزم (فتح الباء) - السية - الكتيبة : الجيش ، والمزدحم :
 حله الازدحام .

قوله تعالى : **اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمِدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَنَحَرَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدِيرُ الْأُمُورَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ** ﴿٢٠﴾

قوله تعالى : **(اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمِدٍ تَرَوْنَهَا)** الآية . لما بين تعالى أن القرآن حق ، بين أن من أنزله قادر على الكمال ، فانظروا في مصنوعاته لتعرفوا كمال قدرته ؛ وقد تقدم هذا المعنى . وفي قوله : **« بِغَيْرِ عَمِدٍ تَرَوْنَهَا »** قولان : أحدهما - أنها مرفوعة بغير عمد ترونها ، قاله قتادة وإياس بن مداوية وغيرهما . الثاني - لما عمد ، ولكننا لا نراه ؛ قال ابن عباس ، لما عمد على جبل قاف ، ويمكن أن يقال على هذا القول : العمد قدرته التي يُمَكِّك بها السموات والأرض ، وهي غير مرئية لنا ، ذكره الزجاج . وقال ابن عباس أيضا : هي توحيد المؤمن . أعمدت السماء حين كادت تنطرون كسر الكافر ، ذكره الفراء . والمعمد جمع عمود ، قال النابغة :

وَحَيْسَ إِلْحَىٰ قَدْ أُذِنَتْ لَهُمْ • يَنْبُونُ تَدْمَرُ بِالْصَفْحِ وَالْعَمِيدِ^(١)

(ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ) تقدم الكلام فيه . **(وَنَحَرَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ)** أي ذلَّهما لمناخ خلفه ومصالح عباده ؛ وكل خلق مذلٌّ للخالق . **(كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى)** أي إلى وقت معلوم ؛ وهو فناء الدنيا ، وقيام الساعة التي عندها تُكْوَرُ الشمس ، ويُصَفَّى القمر ، وتُكْدَرُ النجوم ، وتشتت الكواكب . وقال ابن عباس : أراد بالأجل المسمى درجاتهما ومنزلهما التي يتبيان إليهما لا يحاوذاهما . وقيل : معنى الأجل المسمى أن القمر يقطع فلانة في شهر ، والشمس في سنة . **(يُدِيرُ الْأُمُورَ)** أي يصرفه على ما يريد . **(يُفَصِّلُ الْآيَاتِ)** أي يُبَيِّنُها ، أي من قدره على هذه الأشياء بقدر على الإعادة ؛ ولهذا قال : **(لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ)** .

(١) يروي أبو الحسن - وطيس ، ذكي ، وقمر ، به بتمام ، ما سجد سليمان عليه السلام . وصفاح حارة حراس رقان . محمد ، جمع عمود . (٢) راجع ص ٧٩ طبة أول أو ثانية .

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْنِي عَنْكَ الْبَلَّ النَّهَارَ إِذَا فِي ذَلِكَ لَأَيَّاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ٥ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ ﴾ لما بين آيات السموات بين آيات الأرض ؛ أى بسط الأرض طولاً وعرضاً . ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ ﴾ أى جبالاً ثوابت ، واحدها راسية ؛ لأن الأرض ترسوها ، أى تثبت ؛ والإرساء الثبوت ؛ قال عنترة ؛
فَصَبَرْتُ عَارِفَةً لِّذَلِكَ حُرَّةً • تَرُسُو إِذَا نَفَسَ الْجَبَانِ تَطْلُعُ
وقال جميل ؛

أُحِبُّهَا وَالَّذِي أَرْتَمَى قَوَاعِدُهُ • حُبًّا إِذَا ظَهَرَتْ آيَاهُ بَطْنًا
وقال ابن عباس وعطاء : أوّل جبل وضع على الأرض أبو قبيس .

مسئلة - فى هذه الآية ردّ على من زعم أن الأرض كالكرة ، وردّ على من زعم أن الأرض تنهى أبوابها عليها ، وزعم أن الراوندى أن تحت الأرض جسماً صمّاداً كالرّيح الصّماء ؛ وهى منحدره فاعتمد الحادى والصّمدى فى الجرم والقوة فتوافقا . وزعم آخرون أن الأرض مركبة من جسمين ، أحدهما منحدر ، والآخر مصعد ، فاعندلا ، فلذلك وقفت . والذى عليه المسلمون وأهل الكتاب القول بوقوف الأرض وسكونها وديمها ، وأن حركتها إنما تكون فى المادة بزلزلة نصيبها . وقوله تعالى : ﴿ وَأَنْهَارًا ﴾ أى مياه جارية فى الأرض ، فيها منافع الخلق . ﴿ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾ بمعنى صنفين . قال أبو عبيدة : الزوج واحد ، ويكون اثنين . البراء : يعنى بالزوجين هاهنا الذكر والأنثى ؛ وهذا خلاف

(١) قبل البيت ؛

ومرفت أن متى إن تاتى • لا ينجى منها الفرار الأسرع

(٢) أبو قبيس ؛ جبل مشرف على مسجد مكة •

النَّص . وقيل : معنى « زوجين » نومان . كالحلوة والحامض ، والرطب واليابس ،
والأبيض والأسود ، والصغير والكبير . (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ) أى دلالات وعلامات
(لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) .

قوله تعالى : (وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ
وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنَوَانٌ وَغَيْرُ صِنَوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِصِلُ بَعْضَهَا عَلَى
بَعْضٍ فِي الْأُكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ①)

فيه خمس مسائل :

الأولى - قوله تعالى : (وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ) فى الكلام حذف ؛ والمعنى :
وفى الأرض قطع متجاورات وغير متجاورات ؛ كما قال : « سَرَابِيلٌ تَقِيكُمُ الْحَرَّ » والمعنى :
وتقيكم البرد ، ثم حذف لعم السامع . والمتجاورات المدن وما كان حاصرا ، وغير متجاورات
الصهارى وما كان غير عامر

الثانية - قوله تعالى : « متجاورات » أى قُرَى متدانيات ، ترابها واحد ، ومائها
واحد ، وفيها زروع وجنات ، ثم تشاوت فى الثمار والثمار ؛ فيكون البعض حلوا ، والبعض
حامضا ، والنصن الواحد من الشجرة قد يختلف الثمر فيه من الصغر والكبر واللون والمطعم ؛
وإن أنيسط الشمس والتمر على الجميع على نسق واحد ؛ وفى هذا أدل دليل على وحدانيته
وعظم صديقه ، والإرشاد لمن صل عن معرفته ؛ فإنه نبه سبحانه بقوله : « تُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ »
على أن ذلك كله ليس إلا بمشيئته وإرادته ، وأنه مقدور بقدرته ، وهذا أدل دليل على
بطلان القول بالطبع ؛ إذ لو كان ذلك بالماء والتراب والفاعل له الطبيعة لما وقع الاختلاف .
وقيل : وجه الاحتجاج أنه أثبت التفاوت بين البقاع ؛ فمن تربة عذبة ، ومن تربة سيخة
مع تجاورهما ؛ وهذا أيضا من دلالات كمال قدرته ؛ فجعل عزز تعالى عما يقول الظالمون
والجاحدون علوا كبيرا .

الثالثة - نعت الكفرة - لنهم الله - إلى أن كل لحنت جمعت بنفسه لا من صانع، وأدعوا ذلك في التآمر الخارجة من الاختيار، وقد أقروا بمحدثها، وأنكروا محدثها، وأنكروا الأعراض . وقالت فرقة: يحدث التآمر لا من صانع، وأثبتوا للأعراض قاطلا، والدليل على أن الحادث لابد له من محدث أنه يحدث في وقت، ويحدث ما هو من جنسه في وقت آخر، فلو كان حدوثه في وقته لا اختصاصه به لوجب أن يحدث في وقته كل ما هو من جنسه، وإنما بطل اختصاصه بوقته صح أن اختصاصه به لأجل تخصيص خصمه به ، لولا تخصيصه إياه به لم يكن حدوثه في وقته أولى من حدوثه قبل ذلك أو بعده، واستيفاء هذا في علم الكلام.

الرابعة - قوله تعالى : ﴿ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ ﴾ فقرأ الحسن « وَجَنَاتٍ » بكسر التاء، على تقدير: وجعل فيها جنات، فهو محمول على قوله : « وَجَعَلُ فِيهَا رَوَاسِيً » . ويجوز أن تكون مجرورة على الحمل على « كل » التقدير: ومن كل الثمرات، ومن جنات . الباقون: « جَنَاتٌ » بالرفع على تقدير: وبينهما جنات. ﴿ وَزُرُوعٌ وَنَخِيلٌ صُتُونٌ وَغَيْرُ صُتُونٍ ﴾ بالرفع. أبى كثير وأبو عمرو وحفص عطفًا على الجَنَاتِ؛ أى على تقدير: وفي الأرض زرع ونخيل. وخفصها الباقون نسقا على الأعناب؛ فيكون الزرع والنخيل من الجَنَاتِ، ويجوز أن يكون معطوفا على « كل » حسب ما تقدم في « وجَنَاتٍ » . وقرأ مجاهد والشنقي وغيرهما « صُتُونٌ » بهم الصاد، الباقون بالكسر؛ وهما لفتان؛ وهما جمع صُتُو، وهى النخلات والنخلتان، يجمعهن أصل واحد، وتتشعب منه رهوس قصير نخيلا، نظيرها قُتُون، واحدها قُتُو. وروى أبو إسحق عن البراء قال: الصُتُون المجمع، وغير الصُتُون المتفرق؛ النحاس: وكذلك هو في اللغة، يقال للنخلة إذا كانت فيها نخلة أخرى أو أكثر صُتُون . والصُتُو المثل، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم: " عَمَّ الرَّجُلُ صُتُو أَبِيهِ " . ولا فرق فيها بين التثنية والجمع، ولا بالإعراب؛ فتمربون الجمع، وتكسرون التثنية؛ قال الشاعر:

العلم والحلم حَقَّتَا كَرَمَ • للره زَيْنٌ إِذَا هُمَا أَجْتَمَعَا

صُتُونٍ لَا يُسْتَنَمُّ حُسْنُهُمَا • إِلَّا يَجْمَعُ ذَا وَذَاكَ مَعَا

الثامنة - قوله تعالى : (يُسْقِي بِمَاءٍ وَاحِدٍ) كصالح بن آدم وخبيثهم ، أبوهم واحد ، قاله النحاس والبخاري . وقرأ ماصم وابن ماصم « يُسْقِي » بإلقاء ، أى يُسْقِي ذلك كله . وقرأ الباقون بالياء ، لقوله : « جنات » واختاره أبو حاتم وأبو عبيدة ، قال أبو عمرو : والثابت أحسن ، لقوله : (وَنَفْضُلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ) ولم يقل بفضه . وقرأ حمزة والكسائي وغيرهما « وَيُقْضَلُ » بإلقاء رذا على قوله : « يُذَبَّرُ الْأَمْرُ » و « يُفْضَلُ » هو « يُغْشَى » . الباقون بالنون على معنى : ونحن بفضل . وروى جابر بن عبد الله قال : سمعت أبا صلى الله عليه وسلم يقول لعلى رضى الله عنه : « الناس من شجر شتى وأنا وأنت من شجرة واحدة » ثم قرأ النبي صلى الله عليه وسلم « وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ » حتى بلغ قوله : « يُسْقِي بِمَاءٍ وَاحِدٍ » و « الْأَكْل » الثمر . قال ابن عباس : يعنى الحلو والحامض والفارسي والدقل . وروى مرزا عن ما حديث أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في قوله تعالى : « وَنَفْضُلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ » قال : « الفارسي والدقل والحلو والحامض » ذكره التلجي . قال الحسن : المراد بهذه الآية المتل ؛ ضربه الله تعالى لبني آدم ، أصلهم واحد ، وهم مختلفون في الخير والشر والإيمان والكفر ، كاختلاف الثمار التي تسقى بماء واحد ؛ ومنه قول الشاعر :

الناس كالنبت والنبت ألوان • منها شجر الصنل والكافور والبان

• ومنها شجر ينضج طول النهار •

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) أى لعلامات لمن كان له قلب يفهم عن الله تعالى .

قوله تعالى : وَإِنْ تَعَجَّبَ فَعَجْبٌ قَوْلُهُمْ إِذَا كُنَّا تَرَابًا ۚ لَنِي خَلَقِ جَدِيدًا ۚ وَأُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَلُ فِيْ أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٠﴾

قوله تعالى : (وَإِنْ تَعْجَبَ فَعَجَبٌ قَوْلُكُمْ) أى إن تعجب يا محمد من تكذيبهم لك بعد ما كنت منهم الصادق الأمين فاعجب منه تكذيبهم بالبعث ، والله تعالى لا يتعجب ، ولا يحول فيه التعجب ، لأنه غير النفس بما تخفى أسبابه ، وإغاد كذا ذلك ليتعجب منه نبيه والمؤمنون . وقيل المعنى : أى إن عجت يا محمد من إنكارهم الإعادة مع إقرارهم بأنى خلق السموات والأرض والسموات المختلفة من الأرض الواحدة فتقولم عجب يعجب منه الخلق ، لأن الإعادة فى معنى الابتداء . وقيل : الآية فى منكرى الصانع ، أى إن تعجب من إنكارهم الصانع مع الأدلة الواضحة بأن المنفى لا بد له من منبر فهو محل التعجب ، ونظم الآية يدل على الأول والثانى ، لقوله : (أَتَدَّكُنَّا تَرَابًا) أى انبثت إذا كنا ترابا ؟ ! . (أَتُنَبِّئُنَا بِحَبْلٍ خَلْقٍ جَدِيدٍ) وقرئ «أنا» . و (الْأَعْلَالُ) جمع عُلٍّ ، وهو طَوْقٌ تُشَدُّ به اليد إلى الشئ ، أى يُلَوَّن يوم القيامة ؛ بدليل قوله : « إِذْ الْأَعْلَالُ فِي أَعْقَابِهِمْ » إلى قوله : « ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ » . وقيل : الأعلال أعلام السبى التى هى لازمة لهم .

قوله تعالى : (وَنَسْتَعْمِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ) وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ)

قوله تعالى : (وَنَسْتَعْمِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ) أى لفرط إنكارهم وتكذيبهم يطلبون العذاب ؛ قيل هو قولهم : « اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ مَوْلَاكَ فَامْطَرْ عَلَيْنَا حِمَاةً مِنَ السَّمَاءِ » . قال قتادة : طلبوا العقوبة قبل الحافىة ؛ وقد حكم سبحانه بتأخير العقوبة عن هذه الأمة إلى يوم القيامة . وقيل ؛ « قبل الحسنه » أى قبل الإيمان الذى يربى به الأمان والحسنات . و (الْمَثَلَاتُ) العقوبات ؛ الواحدة مثلة . وروى من الأعمش أنه قرأ « الْمَثَلَاتُ » بضم الميم وإسكان التاء ؛ وهذا جمع مثلة ، ويموز

« المتلآت » تهتل من الضمة كحة لتقلها ، وقيل : يؤتى بالفتح عروها من الهاء .
 وروى عن الأعمش أنه قرأ « المتلآت » بفتح الميم وإسكان التاء ، فهذا جمع مثلة ، ثم حذف
 الضمة لتقلها ، ذكره جميعه الحاس رحمه الله . وعلى قراءة الجماعة واحدة مثلة ، نحو صدفة ،
 وتيم نضم التاء وألميم هيماء ، واحدها على لغتهم مثلة ، بضم الميم وجرم التاء ، مثل : عُرمة
 وعُرقات ، والعمل منه مثلت به أمثل مثلاً ، بفتح الميم ومكوب التاء . (وَإِنْ رَبَّكَ
 لَتَوَسِّعُ) أي لتو تجاوز عن المشركين إذا آمنوا ، وعن المذنبين إذا تابوا . وقال
 ابن عباس : أوجز آية في كتاب الله تعالى « وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم » .
 (وَإِنْ رَبَّكَ لَتَنبَذُ لَكَ الْغَيَابُ) إذا أصررتا على الكفر . وروى حاد بن سلمة عن علي بن زيد
 عن سعيد بن المسيب قال : لما نزلت « وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم وإن ربك
 لتنبذ الغياب » قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لولا عفو الله ورحمته وتجاوز
 لنا هنا أحدا عبث ولولا عقابه ووعيده وعذابه لاتكفل كل أحد » .

قوله تعالى : (وَيَسْأَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا) أي هلا (أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ) .
 لما أقترحوا الآيات وطلبوها قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم : (إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ)
 أي منذر . (وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ) أي نبي يدعوهم إلى الله . وقيل : الهادي الله ، أي ملك
 الإنذار ، والله هادي كل قوم إن أراد هدايتهم .

قوله تعالى : اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ
 وَمَا تَرْدَدُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِعَقْدٍ ۝ عَنِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ

الْكَبِيرِ الْمُتَعَالِ ۝

فيه ثمان سائل :

الأول - قوله تعالى : (اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ) أي من ذكر وأنى ، صريح ، قبيح ،
 صالح وطالح ، وقد تقدم في سورة « الأنعام » أن الله سبحانه معترف بعلم الغيب وحده
 (ر) راجع ج ١ ص ١ وما بعدها طبعه ابن ارقانية :

لا شريك له ، وذكركنا هناك حديث البخارى عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « مفاتيح النيب خمس » الحديث . وفيه « لا يعلم ما يتبيض الأرحام إلا الله » .
وأنختلف العلماء في تاويل قوله : (وَمَا تَبْيَضُّ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ) فقال قتادة : المني ما تبيض قبل التهمة الأشهر ، وما تزداد فوق التهمة ؛ وكذلك قال ابن عباس . وقال مجاهد : إذا حاضت المرأة في حملها كان ذلك قصصا في ولدها ؛ فإن زادت على التهمة كان تمام لما نقص ؛ وعنه : التبيض ما تنقصه الأرحام من الدم ، والزيادة ما تزداد منه . وقيل : التبيض والزيادة يرجعان إلى الولد ، كقصان إصبع أو غيرها ، وزيادة إصبع أو غيرها . وقيل : التبيض انقطاع دم الحيض « وما تزداد » بلم النفس بعد الوضع .

الثانية - في هذه الآية دليل على أن الحامل تحيض ؛ وهو مذهب مالك والشافعي في أحد قوليه . وقال عطاء والشعبي وغيرهما : لا تحيض ؛ وبه قال أبو حنيفة ؛ ودليله الآية . قال ابن عباس في تاويلها : إنه حيض الحبالى ، وكذلك روى عن عكرمة ومجاهد ؛ وهو قول عائشة ، وأنها كانت تنفى النساء الحوامل إذا حيضن أن يتركن الصلاة ؛ والصحابة إذ ذاك متوافرون ، ولم ينكر منهم أحد عليها ؛ فصار كالإجماع ؛ قاله ابن عباس . قال ابن القصار : وذكر أن رجلين تنازعا ولدا ، فترافعا إلى عمر رضى الله عنه فعرضه على القافة ، فالحقه القافة بهما ، ففلاهم عمر بالدرة ، وسأل نسوة من قريش فقال : أنظرن ما شأن هذا الولد ؟ فقلن : إن الأول خلأ بها وخلأها ، فحاضت على الحمل ، فظننت أن عذتها انقضت ؛ فدخل بها الثانى ، فانشئ الولد بهما الثانى ؛ فقال عمر : الله أكبر ! وألحقه بالأول ، ولم يقل إن الحامل لا تحيض ، ولا قال ذلك أحد من الصحابة ؛ فدل أنه إجماع ، والله أعلم . احتج المخالف بأن قال لو كان للحامل تحيض ، وكانت مارتاه المرأة من الدم حبضا لما صح استبراء الأمة بمحيض ؛ وهو إجماع . وروى عن مالك في كتاب محمد ما يقتضى أنه ليس بمحيض .

الثالثة - في هذه الآية دليل على أن الحامل قد تضع حملها لأهل من قسمة أشهر وأكثر ، وأجمع العلماء على أن أقل الحمل ستة أشهر ، وأن عبد الملك بن مروان ولد لسة أشهر .

الرابعة - هذه السنة الأشهر من غيرها كالأشهر الثمينة ، وذلك قد روى
عن الشعب عن بطن أبي مالك وأئنه في كتاب ابن حارث أنه إن قص من الأشهر
لثلاثة أيام فإن قوله يلحق لثلاثة قص الأشهر وزادها ، حكاه ابن عطية .

الخامسة - واختلف العلماء في أكثرها ، فروى ابن جرير عن جميلة بنت سعد
عن مائنة قالت : لا يكون الحمل أكثر من ستين قدر ما يقول ظل المنزل ، ذكره
الناظر قتيبي ، وقاله جميلة بنت سعد ، عده بن سعد وعن الليث بن سعد - : إن أكثره
ثلاث ستين . وعن الشافعي أربع ستين ، وروى عن مالك في إحدى روايته ، والمشهور عنه
بحسب ستين ، وروى عنه لاحد له ، ولو زاد على العشرة الأعوام ، وهي الرواية الثالثة عنه .
وعن الزهري أنه صبح قال أبو عمر : ومن الصحابة من يجعله إلى سبع ، والشافعي : مدة
الغاية منها أربع ستين . والكوفيون يقولون : ستان لا غير . وعبد بن عبد الحكم يقول :
سنة لا أكثر . وداود يقول : خمسة أشهر ، لا يكون عنده حل أكثر منها . قال أبو عمر :
وهذه مسألة لا أصل لها إلا الاجتهاد ، والرد إلى ما عرفت من أمر النساء ، والله التوفيق .
وروى الناظر قتيبي عن الوليد بن مسلم قال : قلت لمالك بن أنس إن حدثت عن مائنة أنها
قالت : لا تزيد المرأة في حملها على ستين قدر ظل المنزل ، فقال : سبحان الله ! من يقول
هذا ؟ هذه حارثنا امرأة محمد بن عجلان ، تحمل وتضع في أربع ستين ، امرأة صدق ، وزوجها
رجل صدق ، حملت ثلاثة أطن في اثنتي عشرة سنة ، تحمل كل بطن أربع ستين . وذكره
المبارك ابن مجاهد قال : مشهور عندنا كانت امرأة محمد بن عجلان تحمل وتضع في أربع
ستين ، وكانت تسمى حاملية البعل . وروى أيضا قال : بينا مالك بن دينار يوما جالس
إذ جاءه رجل فقال : يا أبا يحيى ! أدع لامرأة حبل منذ أربع ستين قد أصبحت
في كرب شديد ، ففصب مالك وأطلق المصنف ثم قال : ما يرى هؤلاء القوم إلا آفة
أنبياء ! ثم قرأ ، ثم دعا ، ثم قال : اللهم هذه المرأة إن كان في بطنها ربح فأخرجه عنها
الساعة ، وإن كان في بطنها جارية فأبطلها علما . فانك تتعجب مما أقامه وتثبت ، وعندك

أثم الكتاب ، ودفع مالك يده ، ورفع الناس أيديهم ، وجده الرسول إلى الرجل فقال له : لندرك
 أمرناك ، فذهب الرجل ، لما حط مالك يده حتى طلع الرجل من باب المسجد على رجليه
 غلام جعد قَطَطٌ ، ^(١) ابن أربع سنين ، قد استوت أسنانه ، ما قُطعت سريره ، وروى أيضا أن
 رجلا جاء إلى عمر بن الخطاب فقال : يا أمير المؤمنين ! إني فبت من امرأتى ستين بخت
 وهي حل ، مشاور عمر الناس ورجها ، فقال معاذ بن جبل : يا أمير المؤمنين ! إن كان
 لك عليها سبيل فليس لك على ما في بطنها سبيل ، فاتركها حتى تضع ، فتركها ، فوضعت غلاما
 فدخرجت ثنتاه ، صرف الرجل الشبه فقال : ابني ورب الكعبة ! ، فقال عمر : عجزت
 النساء أن يلدن مثل معاذ ، أولا معاذ هلك عمر . وقال الضحاك : وضعتني أمي وقد حملت
 بي في بطنها ستين ، فولدتني وقد خرجت سنن . ويذكر عن مالك أنه حل به في بطن أمه
 ستان ، وقيل : ثلاث سنين . ويقال إن محمد بن عجلان مكث في بطن أمه ثلاث سنين ،
 فأتت به وهو بضطرب اضطرابا شديدا ، فشق بطنها وأخرج وقد نبتت أسنانه . وقال حماد
 ابن سلمة : إنما سمى حريم بن جبان حريما لأنه بقى في بطن أمه أربع سنين . وذكر الفزاري أن
 الضحاك ولد لستين ، وقد طلعت منه مسمى محمدا . عباد بن العوام : ولدت جارة لنا
 لأربع سنين غلاما شعره إلى منكبيه ، فز به طبر فقال : كثر .

السادسة - قال ابن خزيمة : أقل الحيض والنفس وأكثره وأقل الحمل وأكثره
 مأخوذ من طريق الاجتهاد ، لأن علم ذلك استأثر الله به ، فلا يجوز أن يحكم في شيء منه إلا بقدر
 ما أظهره لنا ، ووُجد ظاهرا في النساء نادرا أو متادا ، ولما وجدنا أمراة قد حملت أربع
 سنين وخمس سنين حكنا بذلك ، والنفس والحيض لما لم نجد فيه أمرا مستقرا رجعنا فيه
 إلى ما يوجد في النادر منهن .

السابعة - قال ابن العربي : نقل بعض المتأخرين عن المالكيين أن أكثر الحمل
 تسعة أشهر ، وهذا ما لم ينطق به قط إلاهاككن ، وهم الطبايعيون الذين يزعمون أن مدبر الحمل

(١) جعد قَطَطٌ : شديد الجعودة . (٢) مرد الصبي : ما قطعه القاطع .

في الرَّم الكواكب السبعة، فأخذه شهراً شهراً، ويكون الشهر الرابع منها للشمس؛ ولذلك
يتمزك، ويضطرب، وإذا تكامل التعادل في السبعة الأشهر بين الكواكب السبعة عاد في الشهر
الثامن إلى زحل، فيُقِلُّه بمرده؛ فياليتنى تمكنت من مناظرتهم لو مقاتلتهم ! ما بال المرجع
بعد تمام الدور يكون إلى زحل دون غيره ؟ الله أخبركم بهذا أم هل الله خفرون ؟ ! وإذا
جاز أن يعود إلى اثنين منها لم لا يجوز أن يعود التدوير إلى ثلاث أو أربع، أو يعود إلى جميعها
مرتين أو ثلاثاً ؟ ! ما هذا التحكم بالظنون الباطلة على الأمور الباطنة !

الثانية - قوله تعالى : ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ﴾ يعني من نقصان وزيادة .
ويقال : هـ بمقدار هـ قدر خروج الولد من بطن أمه، وقدر مكانه في بطنها إلى خروجه . وقال
قناة : في الرزق والأجل . والمقدار القدر ؛ وعموم الآية يتناول كل ذلك، وأنه سبحانه أعلم .
قلت : هذه الآية تمدح الله سبحانه وتعالى بها بأنه عالم الغيب والشهادة؛ أي هو عالم
بما غاب عن الخلق، وبما شهوده . فالغيب مصدر بمعنى الغائب . والشهادة مصدر بمعنى
الشاهد؛ فبشبه سبحانه على أنفاده بعلم الغيب، والإحاطة بالباطن الذي يخفى على الخلق،
فلا يجوز أن يشاركه في ذلك أحد؛ فأما أهل الطب الذين يستدلون بالإمارات والعلامات فإن
قصوا بذلك فهو كفر، وإن قالوا إنها تجربة تركوا وماهم عليه . ولم يمدح ذلك في الممدوح؛
فإن العادة يجوز أن تكسرها؛ والمسلم لا يجوز تبذله . و ﴿ الْكَبِيرُ ﴾ الذي كل شيء دونه .
﴿ الْمُتَعَالَى ﴾ عما يقول المشركون، المستعل على كل شيء بقدرته وقهره؛ وقد ذكرناهما في شرح
الأسماء مستوفى، والحمد لله .

قوله تعالى : **مَوَآءٌ مِنْكُمْ مِنْ أَسْرَ الْقَوْلِ وَمَنْ جَهَرُ بِهِ . وَمَنْ
هُوَ مُسْتَخَفٍ بِالنَّارِ وَصَارِبٍ بِالنَّارِ ۝**

قوله تعالى : ﴿ مَوَآءٌ مِنْكُمْ مِنْ أَسْرَ الْقَوْلِ وَمَنْ جَهَرُ بِهِ ﴾ إسرار القول : ما حثت به
المرء نفسه، والجمهور ما حدث به غيره ؛ والمراد بذلك أن الله سبحانه يعلم ما أسرّه الإنسان من

خير وشر، كما يعلم ما جهر به من خير وشر . و « منكم » يحتمل أن يكون وصفاً لوجوه
التقدير : يسر من أسر وجهر من جهر سواء منكم ، ويجوز أن يتعلق « سواء » حل معنى ،
يسنوي منكم ، كقولك : مرت يزيد . ويجوز أن يكون حل تقدير : يسر من أسر منكم
وجهر من جهر منكم . ويجوز أن يكون التقدير . ذو سواء منكم من أسر القول ومن جهر
به ، كما تقول عدل زيد وعمرو أى ذوا عدل . وقيل : « سواء » أى مستو ، فلا يحتاج إلى
تقدير حذف مضاف . (وَمَنْ هُوَ مُسْتَخِفٌّ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ) أى يسنوي في علم الله
السر والجهر ، والظاهر في الطرقات ، والمستخفي في الظلمات . وقال الأخفش وقطرب
المستخفي بالليل الظاهر ، ومنه خفيت الشيء وأخفيتها أى أظهرته ، وأخفيت الشيء أى
استخرجته ، ومنه قيل للنباش المخني . وقال امرؤ القيس :

خَفَاهُنَّ مِنْ أَنْفَاقِهِنَّ كَأَمَّا • خَفَاهُنَّ وَدَقَّ مِنْ عَشِيٍّ مَجْلِبٍ

والسارب المتورى ، أى الداخل سرا ، ومنه قولهم : أنسرب الوحش إذا دخل في مكانه .
وقال ابن عباس : « مستخف » مستتر ، « سارب » ظاهر . مجاهد : « مستخف »
بالمعاصي ، « وسارب » ظاهر . وقيل : معنى « سارب » ذاهب ، الكسائي : سرب
يسرب سرباً وسروباً إذا ذهب ، وقال الشاعر :

وَكُلُّ أَنَاسٍ قَارِبُوا قَيْدَ خَلِيلِهِمْ • وَنَحْنُ خَلَعًا قَيْدُهُ سَارِبٌ

(٣)

أى ذاهب . وقال أبو رجاء : السارب الذاهب على وجهه في الأرض ، قال الشاعر :

• أُنَى سَرَبٍ وَكُنْتُ غَيْرَ سُرُوبٍ •

وقال الفتي : « سارب بالنهار » أى منصرف في حوائجه بسرعة ، من قولهم : أنسرب

الماء . وقال الأصمعي : خَلَّ سَرَبُهُ أَيْ طَرِيقُهُ .

(١) أحاذ (جمع حق) : وهو مرب في الأرض إلى موضع آخر ، واستأذنه امرؤ القيس بحسرة العثرة
والردق : الملقح . وعيث مجل : مصوت ، و يروى مجل (بالحاء) . (٢) هو الأحمس بن شهاب التميمي
و يريد أن الساس أفاوما في موضع واحد لا يحرثون على القلة ، وحسبوا خلعهم عن أن يتقدم فتبته إليهم خوفاً
أن يذار عليها ، ونحن أعزاء خلعاً قد خلعنا إلهب حيث شاء . (٣) هو تيس بن الخليل ، وتنام البيت :
• وتغرب الأعلام غير قريب •

به صلى الله عليه وسلم . لَمْ مَعَقِبَتْ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ مَحْفُوظَةٌ مِنْ
أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا
أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ ﴿١١﴾

قوله تعالى : ﴿لَمْ مَعَقِبَتْ﴾ أى الله ملائكة يتعاقبون بالليل والنهار ، فكانت
ملائكة الليل أعقبها ملائكة النهار . وقال : «مُعَقَّبَاتٌ» والملائكة ذُكِرَ لآلِهته جمع مُعَقَّبَةٍ ،
يقال : مَكَتَ مُعَقَّبٌ ، وملائكة مُعَقَّبَةٌ ، ثم مُعَقَّبَاتٌ جمع الجمع . وقروا بعضهم - «لَمْ مَعَقِبَتْ»
بِئْسَ يَوْمٌ يَدْرِي وَحَى خَلْقِهِ . ومعاقب جمع مُعَقَّبٌ ، وقبل للملائكة معقبة على لفظ للملائكة .
وقيل : «لَمْ» لكثرة ذلك منهم ، نحو نَسَابَةٍ وعلامة وراوية ؛ قاله أبوهريرة ورواه . والتعقب
للعود بسببه البقاء ؛ قال الله تعالى : «وَلَىٰ مُدْرِكًا وَلَمْ يُعَقَّبْ» لى لم يرجع ؛ وفي الحديث :
«مُعَقَّبَاتٌ لَا يُحِيبُ قَائِلُهُنَّ» - أو - «فَاعْلُهُنَّ» فذكر التسييح والتوحيد والتكبير . قاله
أبو الميثم ، سميت «مُعَقَّبَاتٌ» لأنهن عادت مرة بعد مرة ، فعمل من عمل عملاً ثم عاد إليه
قد عَقِبَ . والمعقبات من الإبل اللواتي يقمن عند أعجاز الإبل المتريكات على الخوض ؛
فلذا أنصرفت ثلثة دخلت مكانها أخرى . وقوله : ﴿مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ أى المستخفى بالليل
والسليب بالنهار . ﴿مَحْفُوظَةٌ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ اختلف في الحفظ ؛ قيل : يحتمل أن يكون
نوكيل الملائكة بهم لحفظهم من الوحوش والموام والأشياء المضرة ؛ لطفاً منه به ، فإذا جاء
القبر خلوا بينه وبينه ؛ قاله ابن عباس وعلى بن أبي طالب رضى الله عنهما . قال أبو جازر :
جاء رجل من مراد إلى علي فقال ألم احترس فإن ناساً من مراد يريدون قتلك ؛ فقال : إن مع كل

- (١) قال البخارى : جمع عقب أرسقية يشده القاف فيها ، ولما عرض من حذف إحدى القافين
في التكبير . وقال ابن جني : إنه تكسر عقب ككسر وسكهم ، كأنه جمع على معاقبة ، ثم حذفت الهاء من الجمع
دعوضت الياء عنها ؛ قال الأوسى : ولله الأظهر . «روح المعاني» ؛ (٢) الحديث في اللطاف وهو قامه
في «صحيح مسلم» : «مُعَقَّبَاتٌ لَا يُحِيبُ قَائِلُهُنَّ» فذكر كل صلاة مكتوبة ثلاث وثلاثون تسبيحة وثلاث وثلاثون تحميدة
وأربع وثلاثون تكبيرة . سميت معقبات لأنها عادت مرة بعد مرة ، أو لأنها قال عقب كل صلاة .
(٣) مراد (بالضم وتكره دال مهله) ؛ قرية من قبائل العرب سميت باسم أبيها .

رجل مَلِكٍ يَحْفَظُهَا مَا لَمْ يَقْدَرْ، فَإِذَا جَاءَ الْقَدَرُ حَلَّ بِتَنَهِ وَيُنْ قَدَرُ اللَّهِ، وَإِنْ الْأَجَلَ حِصْنِ
 حَصِينَةٍ؛ وَعَلَى هَذَا «يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ» أَيْ بِأَمْرِ اللَّهِ وَبِإِذْنِهِ؛ «ذِيْنَ» بِمَعْنَى «بَنِي الْبَاءِ»
 وَحُرُوفُ الصِّفَاتِ يَقُومُ بِضَمِّهَا مَقَامَ بَعْضٍ. وَقِيلَ: «مِنْ» بِمَعْنَى «مَنْ»؛ أَيْ يَحْفَظُونَهُ
 مِنْ أَمْرِ اللَّهِ، وَهَذَا قَرِيبٌ مِنَ الْأَوَّلِ؛ أَيْ حَفَظَهُمْ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ لَا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ؛ وَهَذَا
 قَوْلُ الْحَسَنِ؛ نَقُولُ: كَوْنُهُ عَنْ عُرَى وَمِنْ عُرَى؛ وَسَمِعْتُ قَوْلَهُ مِنْ وَجَلٍ: «أَطْعَمَهُمْ
 مِنْ جَوْجٍ» أَيْ عَنْ جَوْعٍ. وَقِيلَ: يَحْفَظُونَهُ مِنْ مَلَائِكَةِ الْعَذَابِ، حَتَّى لَا تَحُلَّ بِهِ مَقْرَبَةٌ؛
 لِأَنَّ اللَّهَ لَا يَتْرِكُ مَا يَقُومُ مِنَ النِّعَةِ وَالْعَافِيَةِ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بَاتَتْهُمْ بِهِ الْإِصْرَارُ عَلَى الْكُفْرِ؛ فَإِذَا
 أَصْرُوا حَانَ الْأَجَلَ الْمَضْرُوبُ وَزَلَّتْ بِهِمُ النِّعَةُ، وَتَزُولُ عَنْهُمْ الْحَقِيقَةُ الْمُعَقَّبَاتُ. وَقِيلَ:
 يَحْفَظُونَهُ مِنَ الْخَلْقِ؛ قَالُوا كَسْبٌ: لَوْلَا أَنَّ اللَّهَ وَكَّلَ بِكُمْ مَلَائِكَةً يَذُبُّونَ عَنْكُمْ فِي مَطْعَمِكُمْ
 وَمَشْرَبِكُمْ وَعَوْرَاتِكُمْ لَتَخَطَفَنَّكُمُ الْمَلَائِكَةُ الْعَذَابُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ؛ وَخَصَمَهُمْ بِأَن قَالُوا:
 «مِنْ أَمْرِ اللَّهِ» لِأَنَّهُمْ غَيْرُ مُعَايِنِينَ؛ كَمَا قَالَ: «قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي» أَيْ لَيْسَ
 بِمَا تَشَاهِدُونَهُ أَتَمَّ. وَقَالَ الْفَرَّاءُ فِي الْكَلَامِ قَدِيمٌ وَتَأْخِيرٌ، تَقْدِيرُهُ: لَهُ مُعَقَّبَاتٌ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ
 مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ؛ وَهُوَ مَرْصُوعٌ عَنْ مُجَاهِدٍ وَأَبْنِ جُرَيْجٍ وَالنَّخَعِيِّ؛ وَعَلَى
 أَنَّ مَلَائِكَةَ الْعَذَابِ وَالْخَلْقَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ لَا تَقْدِيمَ فِيهِ وَلَا تَأْخِيرَ. وَقَالَ أَبْنُ جُرَيْجٍ: إِنْ الْمَعْنَى
 يَحْفَظُونَ عَلَيْهِ عَمَلَهُ، لِحَذْفِ الْمُضَافِ. وَقَالَ قَتَادَةُ: يَكْتَبُونَ أَقْوَالَهُ وَأَفْعَالَهُ. وَيَجُوزُ إِذَا كَانَتْ
 الْمُعَقَّبَاتُ الْمَلَائِكَةُ أَنْ تَكُونَ الْمَاءُ فِي «لَهُ» قَدْ عَزَّ وَجَلَّ، كَمَا ذَكَرْنَا؛ وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ
 لِلنَّخَعِيِّ، فَهَذَا قَوْلٌ. وَقِيلَ: «لَهُ مُعَقَّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ» يَعْنِي بِهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ
 عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ أَيْ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ تَحْفَظُهُ مِنْ أَعْدَائِهِ؛ وَقَدْ جَرَى ذِكْرُ الرُّسُولِ فِي قَوْلِهِ: «لَوْلَا أَنْزَلَ
 عَلَيْهِ آيَةً مِنْ رَبِّهِ إِنْ كُنَّا أَنْتُمْ مُنْذِرٌ» أَيْ سِوَاهُكُمْ مِنْ أَسْرِ الْقَوْلِ وَمِنْ جَهْرِ بِهِ فِي أَنَّهُ لَا يَضُرُّ
 النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بَلْ لَهُ مُعَقَّبَاتٌ يَحْفَظُونَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ وَيَجُوزُ أَنْ يَرْجِعَ هَذَا إِلَى جَمِيعِ
 الرُّسُلِ؛ لِأَنَّهُ قَدْ قَالَ: «وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ» أَيْ يَحْفَظُونَ الْمُسَادَى مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ.
 وَقَوْلُ رَاجٍ — أَنَّ الْمُرَادَ بِالْآيَةِ السُّلَاطِينَ وَالْأَمْرَاءَ الَّذِينَ لَمْ يَقُومُوا مِنْ بَيْنِ أَعْيُنِهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ

يحفظونهم ؛ فإذا جله أمر الله لم يُفوتوا عنهم من الله شيئا ؛ قاله ابن عباس وعكرمة ؛ وكذلك قال الضحاك ؛ هو السلطان المتحيز من أمر الله المشرك . وقد قيل : إن في الكلام على هذا التأويل قويا محذوفا ، تصديده : لا يحفظونه من أمر الله تعالى ؛ ذكره الماوردي . قال المهدوي ؛ ومن جمل المعقبات الحرس فالمعنى : يحفظونه من أمر الله على ظنه وزعمه . وقيل ؛ سواء من أسر القول ومن جهر به فله حراس وأعاون يتعاقبون عليه فيحملونه على المعاصي ؛ ويحفظونه من أن يقع فيه وعظ ؛ قال القشيري ؛ وهذا لا يمنع الرب من الإهمال إلى أن يحقق العذاب ؛ وهو إذا قهر هذا المعاصي ما بنفسه بطول الإصرار فيصير ذلك سببا للمعقوبة ؛ فكانه الذي يحمل المعقوبة بنفسه ؛ فقله : « يحفظونه من أمر الله » أى من امتثال لأمر الله . وقال عبد الرحمن بن زيد : المعقبات ما يتعاقب من أمر الله تعالى وقضائه في عبادته ؛ قال الماوردي ؛ ومن قال بهذا القول ففي تأويل قوله « يحفظونه من أمر الله » وجهان : أحدهما - يحفظونه من الموت ما لم يأت أجل ؛ قاله الضحاك . الثاني - يحفظونه من الجن والمواتم المؤذية ، ما لم يأت قدر ؛ قاله أبو أمامة وكعب الأجبار - فإذا جاء المقدور خلتوا عنه ؛ والصحيح أن المعقبات الملائكة ، وبه قال الحسن وبجاهد وقناة وابن جريج ؛ ورؤى عن ابن عباس ، واختاره النحاس ، واحتج بقول النبي صلى الله عليه وسلم : « يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار » الحديث ، رواه الأئمة . وروى الأئمة عن عمرو عن ابن عباس قرا - « معقبات من بين يديه ورقباء من خلفه » [من أمر الله] يحفظونه ؛ فهذا قد بين المعنى . وقال بكاءة المدوني : دخل عثمان رضى الله تعالى عنه على النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ! أخبرني عن العبد كم معه من ملك ؟ قال : « ملك عن يمينك يكتب الحسنات وآخر عن الشمال يكتب السيئات والذي على اليمين أمير على الذي على الشمال فإذا عملت حسنة كتبت حسرا وإذا عملت سيئة قال الذي على الشمال للذي على اليمين أكتب قال لا لعله يستغفر الله تعالى ويتوب فإذا قال ثلاثا قال نعم أكتب أراحنا الله تعالى منه

فبئس القرين هو ما أظن مرافقه لله عز وجل وأقل استنجاه منا بقول الله تعالى
 « مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ » وَمَلَكَانِ مِنْ بَيْنِ يَدَيْكَ وَمَنْ خَلَقَ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى
 « لَهُ مَعْقِبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ » [وَمَلَكٌ قَابِضٌ عَلَى نَاصِيَتِكَ
 إِذَا تَوَاضَعْتَ لِلَّهِ رُفْعَكَ وَإِذَا تَجَبَّرْتَ عَلَى اللَّهِ قَصَمَكَ ^(١)] وَمَلَكَانِ عَلَى شَفَتَيْكَ وَلَيْسَ بِحِفْظَانِ
 عَلَيْكَ إِلَّا الصَّلَاةُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَمَلَكَ قَائِمٌ عَلَى فِكَ لَا يَدْعُ أَنْ تَدْخُلَ الْحَيَاةُ فِي فِكَ وَمَلَكَانِ
 عَلَى عَيْنَيْكَ فَهَؤُلَاءِ عَشْرَةُ أَمْلَاقٍ عَلَى كُلِّ أَدَمِيٍّ يَسْتَدَاوِلُونَ مَلَائِكَةَ اللَّيْلِ عَلَى مَلَائِكَةِ النَّهَارِ
 لِأَنَّهُ مَلَائِكَةُ اللَّيْلِ لَيْسُوا بِمَلَائِكَةِ النَّهَارِ فَهَؤُلَاءِ عَشْرُونَ مَلَكَانِ عَلَى كُلِّ أَدَمِيٍّ وَإِلَيْهِمْ مَعَ ابْنِ آدَمَ
 بِالنَّهَارِ وَوَلَدُهُ بِاللَّيْلِ . ذكره الثعلبي . قال الحسن : المَعْقِبَاتُ أَرْبَعَةُ أَمْلَاقٍ يَحْتَمِعُونَ عِنْدَ
 صَلَاةِ الْفَجْرِ . وَأَخْثَرُ الطُّبَرِيِّ أَنَّ الْمَعْقِبَاتِ الْمَوَاقِبَ بَيْنَ أَيْدِي الْأُمَرَاءِ وَخَلْفَهُمْ ؛ وَالْمَاءُ
 فِي « لَه » لَهْنٌ ، عَلَى مَا تَقَدَّمَ . وَقَالَ الْعُلَمَاءُ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ : إِنَّ اللَّهَ سَبَّحَانَهُ جَعَلَ أَوَامِرَهُ
 عَلَى وَجْهَيْنِ : أَحَدُهُمَا - قَضَى حُلُولَهُ وَوُقُوعَهُ بِصَاحِبِهِ ؛ فَذَلِكَ لَا يَذْفُقُهُ أَحَدٌ وَلَا يَنْفِرُهُ .
 وَالْآخَرُ - قَضَى مَجْبِيئِهِ وَلَمْ يَفْضَحْ حُلُولَهُ وَوُقُوعَهُ ، بَلْ قَضَى صَرْفَهُ بِالْتَوْبَةِ وَالِدَعَاءِ وَالصَّدَقَةِ
 وَالْحِفْظِ .

قوله تعالى : (إِنْ أَقَرَّ لَا يَغَيِّرُ مَا يَقُومُ حَتَّى يَبْتَغُوا مَا يَتَّقِيهِمْ) أخبر الله تعالى في هذه
 الآية أنه لا يغير ما يقوم حتى يبتغوا ما يَتَّقِيهِمْ ، إما منهم أو من الناظر لهم ، أو من هو منهم
 بسبب ، كما غير الله بالمنزعين يوم أُحُدٍ بسبب تغيير الرماة بأنفسهم ، إلى غير هذا من أمثلة
 التَّجَرُّبَةِ ؛ فَلَيْسَ مَعْنَى الْآيَةِ أَنَّهُ لَيْسَ يَتَرَلَّ بِأَحَدٍ عَقُوبَةٌ إِلَّا بِأَن يَتَقَدَّمَ مِنْهُ ذَنْبٌ ، بَلْ قَدْ تَرَلَّ
 الْمَصَافِ بِذُنُوبِ الْغَيْرِ ، كَمَا قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَقَدْ سُئِلَ أَتَرَلُّ وَفِيهَا الصَّالِحُونَ ؟
 قَالَ - : « نَعَمْ إِنْ كَثُرَ انْتَبَهُ ^(٢) » . والله أعلم .

قوله تعالى : (وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ يَقُومُ سُورًا) أى هلاكاً وعذاباً (فَلَا مَرَدَّ لَهُ) . وقيل :
 إِذَا أَرَادَ بِهِمْ بِلَاةٍ مِنْ أَمْرٍ وَأَسْخَامٍ فَلَا مَرَدَّ لِبِلَاةِهِ . وقيل : إِذَا أَرَادَ اللَّهُ يَقُومُ سُورًا أَعْنَى

أبصارهم حتى يختاروا ما فيه البلاء ويصلوه ؛ فيمشون إلى هلاكهم بأقلامهم ، حتى يموت أحدهم من خنقه بكفه ، وبسعى يقدمه إلى إراقة دمه . (وَمَا لَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ مَنْ قَالَ) أى ملجأ ؛ وهو معنى قول السدي . وقيل : من ناصرهم من عذابه ؛ وقال الشاعر :

• ما في السماء سوى الرحمن من وال •

وَوَالٍ وَوَلِيٌّ كَفَاعٍ وَقَدِيرٌ •

قوله تعالى : هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ (١٢) وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ ، وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ ، وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي آلِهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ (١٣)

قوله تعالى : (هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ) أى بالمطر . « والسحاب » جمع ، والواحدة سحابة ، وتُحِبُّ وتُحَابُّ في الجمع أيضا . (وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ) قد مضى في « البقرة » القول في الرعد والبرق والصواعق فلا معنى للإعادة ؛ والمراد بالآية بيان كمال قدرته ، وأن تأخير العقوبة ليس عن عجز ؛ أى يريكم البرق في السماء خوفا للساfer ، فإنه يخاف أذاه لما يناله من المطر والحوادث والصواعق ؛ قال الله تعالى : « أَذَى مِنْ مَطَرٍ » وطمعا للناظر أن يكون عليه مطر ويخضب ؛ قال معناه قتادة ونجاح وغيرهما . وقال الحسن : خوفا من صواعق البرق ، وطمعا في غيثه المزيل للقفح . (وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ) قال مجاهد : أى البساء . « وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ » من قال إن الرعد صوت السحاب فيجوز أن يُسَبِّحُ الرعد بدليل خلق الحياة فيه ؛ وبدليل صحة هذا القول قوله : « وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ » فلو كان الرعد مَلَكًا لدخل في جملة الملائكة . ومن قال إنه ملك قال : معنى « من خيفته » من خيفة الله ؛ قاله الطبري وغيره . قال ابن عباس : إن الملائكة

خائفون من الله ليس تخوف ابن آدم؛ لا يعرف واحدكم من على بيته ومن على يساره، لا يشغلهم عن عبادة الله طعام ولا شراب؛ وعنه قال : الزعد ملك يسوق السحاب، وإن يماز الماء لفي نفرة إبهامه، وأنه موكل بالسحاب يصرفه حيث يؤمر، وأنه يسبح الله؛ فإذا سبح الزعد لم يبق ملك في السماء إلا رفع صوته بالتسبيح، فمندها يزل القطره وعنه أيضا كان إذا سمع صوت الزعد قال : سبحان الذي صبغت له . وروى مالك عن عاصم بن عبد الله عن أبيه أنه كان إذا سمع صوت الزعد قال : سبحان الذي يسبح الزعد بحمده والملائكة من خيفته، ثم يقول : إن هذا وعبد لأهل الأرض شديد . وقيل : إنه ملك جالس على كرسي بين السماء والأرض، وعن يمينه سبعون ألف ملك، وعن يساره مثل ذلك؛ فإذا أقبل على بيته وسبح سبح الجميع من خوف الله، وإذا أقبل على يساره وسبح سبح الجميع من خوف الله . (وَرِئِسلَ الصَّوَاعِقِ قَيْصِبٌ بِهَا مِنْ بَيِّنَاتٍ) ذكر الماوردي عن ابن عباس وعلى بن أبي طالب ومجاهد : نزلت في يهودى قال للنبى صلى الله عليه وسلم : أخبرنى ! من أى شئ ربك ، أين لؤلؤهم من يافوت ؟ بغاث صاعقة فأحرقته . وقيل : نزلت في بعض كفار العرب؛ قال الحسن : كان رجل من طواغيت العرب بعت النبى صلى الله عليه وسلم نفرا يدعوونه إلى الله ورسوله والإسلام فقال لهم : أخبرونى عن رب محمد ما هو، وبم هو، أين فضة أم من حديد أم نحاس ؟ فاستعظم القوم مقالته؛ فقال : أجيب محمدا إلى رب لا يعرفه ! فبعت النبى صلى الله عليه وسلم إليه مرارا وهو يقول مثل هذا ؛ فبعت التبرينازعونه ويدعوونه إذا ارتفعت سحابة فكانت فوق رؤوسهم، فرعدت وأبرقت ودمت بصاعقة، فأحرقت الكافر وهم جلوس؛ فرجموا إلى النبى صلى الله عليه وسلم فاستقبلهم بعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : أحرقنا صاحبكم ، فقالوا : من أين علمتم ؟ قالوا : أوحى الله إلى النبى صلى الله عليه وسلم . وَرِئِسلَ الصَّوَاعِقِ قَيْصِبٌ بِهَا مِنْ بَيِّنَاتٍ . ذكره الثعلبى عن الحسن، والشيرى بمعناه عن آمن، وسياق . وقيل : نزلت الآية في لؤد بن وبيعة أميئيد بن وبيعة وبيعة ، وفي عاصم بن الطميل، قال ابن عباس : أنفعل عاصم بن الطميل عاصم بن وبيعة

الأمريان يريدان النبي صلى الله عليه وسلم وهو في المسجد حابس في نفر من أصحابه ، فدخلوا المسجد ، فاستترف الناس لجمال عامر وكان أعور ، وكان من أجل الناس ؛ فقال رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم : هذا يارسل الله عامر بن الطَّيْل قد أقبل نحوك ؛ فقال : "دعْه فإن يُرد الله به خيرا يردّه" فأقبل حتى قام عليه فقال : يا عبد مال إن أسأمت ؟ فقال : "لك ما للمسلمين وعليك ما على المسلمين" . قال : أتجعل لي الأمر من بعدك ؟ قال : "ليس ذاك لي إنما ذلك إلى الله يبعثه حيث يشاء" . قال : أفجعلني من البرّوات على المدّر ؟ قال : "لا" . قال : فما تجعل لي ؟ قال : "أجعل لك أئنة الخيل تمزو عليها في سبيل الله" . قال : أو ليس لي أئنة الخيل اليوم ؟ قم معي أكلك ؛ فقام معه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان عامر أوما إلى أربد : إذا رأيته أكله فذر من خلفه وأضر به بالسيف ؛ فجعل يخاضع النبي صلى الله عليه وسلم وبراجمه ؛ فاخرط أربد من سيفه شبرا ثم حبسه الله ، فلم يقدر على سلّه ، وبست يده على سيفه ، وأرسل الله عليه صاعقة في يوم صائيف صايج فأحرقت ، وولى عامر هاربا وقال : يا عبد ! دعوت ربك على أربد حتى قتله ؛ والله لأعلم أنها عليك خيلا جردا ، وفينا نأمردا ؛ فقال عليه السلام : "يمنعك الله من ذلك وأبناء قيلة" يعني الأوس والخزرج ؛ فذلل عامر بيت أمراء سُلُولية ؛ وأصبح وهو يقول : والله لئن أُسحر لي محمدٌ وصاحبه - يريد ملك الموت - لأغذينهما برعى ؛ فأرسل الله ملكا فاطمه يجناحه فأذراه في التراب ؛ وخرجت على ركبته عُدّة عظيمة في الوقت ؛ فعاد إلى بيت السُلُولية وهو يقول : فُتدّة كفدة البعير ، وموت في بيت سُلُولية ؛ ثم ركب على فرسه فأتى على ظهره . ورتى كيد بن ربيعة أخاه أربد فقال :

يا مِينُ هَلَّا بَكَيْتِ أَرْبَدَ إِذْ تُدِّ . سَأَ وَقَامَ الْخُصُومُ فِي كَيْدِ
أَخْتِي عَلَى أَرْبَدِ الْخُنُوفِ وَلَا . أَرْبَعُ قُوَّةِ السَّيَاكِ وَالْأَسْدِ
بَحْمِي الرِّعْدُ وَالصَّوْاعِقُ بِالْمَا . رِيسَ يَسُومُ الْكَرِيمَةَ السَّجْدِ^(١)

(٢) أذواه ؛ الله دوى ؟

(١) أسحر الرجل ؛ إذا خرج إلى الصمراء .

(٤) السجدة ؛ الصريح الإجابة .

(٣) سجد ؛ فسلة وصله .

وفيه قال .

إِنَّ الرِّزْيَةَ لَأَرْزِيَنَّهَا . فَقَدْ أَنْ كَلَّ كَضْوَهُ الْكَوْكَبِ
يَا أَرْبَدَ الْحَبِيرِ الْكَرِيمِ جُدُّوهُ . أَفَرَدْتَنِي أَمْنِي بَقَرْنِ أَغْضَبُ^(١)

اسلم ليبد بعد ذلك رضى الله عنه .

مسئلة - روى أبان عن أس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا تأخذ الصاعقة ذا كرا لله عز وجل " . وقال أبو هريرة رضى الله عنه : كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا سمع صوت الرعد يقول : " سبحان من يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته وهو على كل شئ قدير فإن أصابته صاعقة على دينه " . وذكر الخطيب من حديث سليمان بن علي عن عبد الله بن عباس عن أبيه عن جده قال : كنا مع عمر في سفر فأصابنا رعد وبرد ، فقال لنا كعب : من قال حين يسمع الرعد : سبحان من يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ثلاثا عوفي مما يكون في ذلك الرعد ، فعلنا فعوفينا ، ثم لقيت عمر بن الخطاب رضى الله عنه فإذا بردة^(٢) قد أصابت أنفه فأثرت به ، فقلت : يا أمير المؤمنين ما هذا ؟ قال : بردة أصابت أبنى فأثرت ، فقلت : إن كبا حين سمع الرعد قال لنا : من قال حين يسمع الرعد سبحان من يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ثلاثا عوفي مما يكون في ذلك الرعد ، فعلنا فعوفينا ، فقال عمر : أولا قلتم لنا حتى نقولها ؟ وقد تقدم هذا المعنى في «البقرة» .

قوله تعالى : (وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ) يعني جدال اليهودي حين سأل عن الله تعالى : من أى شئ هو ؟ قاله مجاهد . وقال ابن جريج : جدال أربد فيما هم به من قتل النبي صلى الله عليه وسلم . ويجوز أن يكون «وهم يجادلون في الله» حالا ، ويجوز أن يكون متعلما . وروى أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بست إلى عظيم من المشركين بدعوه إلى الله عز وجل ، فقال (رسول الله : أخبرني عن الملك هذا ! أهو من فضة أم من ذهب أم من نحاس ؟

(١) قرأ غضب ، بكسر . (٢) البردة (البركة) : سببها .

(٣) جامع ١ ص ٢١٦ ما يعلقه آية الرعد .

فأستعظم ذلك؛ فرجع إليه فاعلمه، فقال: «أرجع إليه فأدعه» فرجع إليه وقد أصابته صاعقة،
وعاد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد نزل: «وهم يجادلون في الله». (وَهُوَ شَدِيدُ الْحَالِ؟)
قال ابن الأعرابي: «الحال» المكروه، والمكروه من الله عز وجل التذير بالحق. النحاس: المكروه
من الله إيصال المكروه إلى من يستحقه من حيث لا يشعر. وروى ابن اليزيدي عن أبي زيد
«وهو شديد الحال» أي النعمة. وقال الأزهري: «الحال» أي القوة والشدة. وأتقن
الشدة؛ الميم أصلية، وما حلت فلا تَحَالاً أي قلوبته حتى يثبت أينا أشد. وقال أبو عبيد
«الحال» المعقوبة والمكروه. وقال ابن عرفة: «الحال» الجدل؛ يقال: ما حَلَّ عن أمره
أي جادل. وقال التتبي: أي شديد الكيد وأصله من الحيلة؛ جعل ميمه كيم المكان؛
وأصله من الكون، ثم يقال: تمكنت. وقال الأزهري: غلط ابن قتيبة أن الميم فيه زائدة؛
بل هي أصلية، وإذا رأيت الحرف على مثال فِعال أوله ميم مكسورة فهي أصلية؛ مثل: يجهاد
وملاك وضرأس، وغير ذلك من الحروف. ويقطع إذا كانت من نبات الثلاثة فإنه يمي.
بإظهار الواو مثل: يَرْوِد ويَحُول ويَحُور، وغيرها من الحروف؛ وقال: وقرأ الأعرج -
«وَهُوَ شَدِيدُ الْحَالِ» بفتح الميم؛ وجاء تفسيره على هذه القراءة عن ابن عباس أنه الحول؛ ذكر
هذا كله أبو عبيد المهروري، إلا ما ذكرناه أظنا عن ابن الأعرابي؛ وأقارب الصعابة والتأبين
بمعناها، وهي ثمانية: أولاً - شديد المداوة؛ قاله ابن عباس. وثانيها - شديد الحول؛
قاله ابن عباس أيضاً. وثالثها - شديد الأخذ؛ قاله علي بن أبي طالب. ورابعها - شديد
الحقد؛ قاله ابن عباس. وخامسها - شديد القوة؛ قاله مجاهد. وسادسها - شديد الغضب؛
قاله وهب بن منبه. وسابعها - شديد الملاك بالمحل؛ وهو التقط؛ قاله الحسن أيضاً.
وثامنها - شديد الحيلة؛ قاله قتادة. وقال أبو عبيد ميمس الحال والملاسة للمساكة والمغالب؛
وأشد للأحس.

مرع نبع يترقى عُصْنُ القِهْ . يُكْثِرُ التَّدْيِ شَدِيدُ الْحَالِ

وقال آخر :^(١)

وَلَبَسَ ثِيَابَ أَقْوَامٍ فَكُلُّهُ أَعْدَاهُ الشَّفَايِبُ وَإِحْثَالًا

وقال عبد المطلب :

لَا هُمْ إِنَّمَا الْمَرْءُ يَمُوتُ • نَحَّ رَحْلَهُ فَأَمْنَعُ حِلَاكَهُ^(٢)

لَا يَبْلُغُ صِلِيهِمْ وَمَا • لَمْ يَمُوتُوا يَحَالِكُ

قوله تعالى : لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ شَيْءٌ إِلَّا كِبَاسٌ كَفِّهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿١٤﴾

قوله تعالى : (لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ) أى الله دعوة الصديق . قال ابن عباس وقادة وغيرهما : لا إله إلا الله . وقال الحسن : إن الله هو الحق ، فدعاؤه دعوة الحق . وقيل : إن الإخلاص في الدعاء هو دعوة الحق ، قاله بعض المتأخرين . وقيل : دعوة الحق دعاؤه عند الخوف ، فإنه لا يدعى فيه إلا إياه ، كما قال : « ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ » ، قال الماوردي : وهو أشبه بسياق الآية ، لأنه قال : (وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ) يعنى الأصنام والأوثان . (لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ شَيْءٌ) أى لا يستجيبون لهم دعاء ، ولا يسمعون لهم نداء . (إِلَّا كِبَاسٌ كَفِّهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ) ضرب الله عز وجل الماء مثلا لياسم من الإجابة لدهانهم ، لأن العرب تضرب لمن سعى فيما لا يدركه مثلا بالقابض الماء باليد ، قال :

فأصبحت فيما كان بيني وبينها • من الود مثل القابض الماء باليد

(١) هو ذو النونية ، وألقت من قصبة يمدح بها بلال بن أبي بردة بن أبي موسى . والقيس . والاختلاط . والشفايِب
قال الأصمى : التنزيه ضرب من الحيلة في الصراع ، وهو أن يدخل الزيل بين رجل صاحبه فصره ، والمضى
فكل رجل من القوم أعد له حجة وكما • (٢) الخلال (الكسر) : القوم المقبولون للجهاد بعدد ما هم
سكان الحرم .

وفي معنى هذا المثل ثلاثة أوجه : أحدها - أن الذي يدعو إلى ما من دون الله كالظمان الذي يدعو الماء إلى فيه من بعيد يريد تناوله ولا يقدر عليه لسانه ، ويشير إليه بيده فلا يأتيه أبدا . لأن الماء لا يستحب ، وما الماء بائع إليه ؛ فله مجاهد . الثاني - أنه كالظمان الذي يرى خياله في الماء وقد بسط كفه فيه ليلع فاه وما هو ببالعه ، لكذب ظنه ، ومساد توهمه ؛ فانه ابن عباس . الثالث - أنه كالسوط كفه إلى اناء ليقبض عليه فلا يجد في كفه شيء منه . وزعم الفراء أن المراد بالماء هنا الثرى ؛ لأنها معدن لاء ، وأن المثل كن مديده إلى البئر بعير يرشاء ؛ وشاهده قول الشاعر :

فإن الماء ماء أبي وجدتي • ويرى ذو حقرت وذو عورت

قال علي رضي الله عنه : هو كالظمان على شفة الثرى ، فلا يبلغ قعر البئر ، ولا الماء يرتفع إليه ؛ ومعنى « إلا كاسط » إلا كاستجابة بأسط كفه « إلى الماء » فالصدر مضاف إلى الباسط ، ثم حذف المضاف ؛ وفاعل المصدر المضاف مراد في المعنى وهو الماء ؛ والمعنى : إلا كاستجابة بأسط كفه إلى الماء ؛ واللام في قوله : « يبلغ فاه » متعلقة بالباسط ؛ وقوله : « وما هو ببالعه » كناية عن الماء ؛ أي وما الماء بائع فاه . ويجوز أن يكون « هو » كناية عن الفم ؛ أي ما الفم بائع الماء . (وَمَا دَعَا الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ) أي ليست عبادة الكافرين الأصنام إلا في ضلال . لأنها شرك . وقيل : إلا في ضلال أي بضل عنهم ذلك الدعاء ، فلا يجدون منه سبيلا ؛ كما قال : « أَيْمَنَّا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا » . وقال ابن عباس : أي أصوات الكافرين محجوبة عن الله فلا يسمع دعاءهم .

قوله تعالى : وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلُّهُمْ بِالْعُدُوِّ وَالْآصَالِ ⑤

قوله تعالى : (وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا) قال الحسن وقادة وغيرهما : المؤمن يسجد طوعا ، والكافر يسجد كرها بالسيف . وعن قتادة أيضا يسجد الكافر كرها حين لا يحسن الإيمان . وقال الزجاج : سجد الكافر كرها ما به من الخضوع وأثر الضعفة .

وقال ابن زيد : « طوعا » من دخل في الإسلام رغبة ، و « كرهه » من دخل فيه رهبة بالسيف
وقيل : « طوعا » من طالت مدة إسلامه فألف للسجود ، و « كرها » من يكره نفسه لله
تعالى ، فالآية في المؤمنين ؛ وعلى هذا يكون معنى « والأرض » وبعض من في الأرض . قال
القشيري : وفي الآية مسلكان : أحدهما - أنها عامة والمراد بها التخصيص ؛ فكل من يسجد
طوعا ، وبعض الكفار يسجدون إكراها وخوفا كالمتقين ؛ فالآية محمولة على هؤلاء ، ذكره
الفراء . وقيل على هذا القول : الآية في المؤمنين ؛ منهم من يسجد طوعا لا ينقل عليه للسجود ،
ومنهم من ينقل عليه ؛ لأن الترام التكليف مشقة ، ولكنهم يصلون لمصلحة إخلاص وإيمان ،
إلى أن يألفوا الحق ويمرؤوا عليه . والمسلك الثاني - وهو الصحيح - إخراج الآية على التعميم ،
وعلى هذا طريقان : أحدهما - أن المؤمن يسجد طوعا ، وأما الكافر فأمور بالسجود مؤاخذ
به . والثاني - وهو الحق - أن المؤمن يسجد يذنه طوعا ، وكل مخلوق من المؤمن والكافر
يسجد من حيث إنه مخلوق ، يسجد دلالة وحاجة إلى الصانع ، وهذا كقوله : « وَإِنْ مِنْ
شَيْءٍ إِلَّا يَسْبُحُ بِحَمْدِهِ » وهو تسبيح دلالة لا تسبيح عبادة . (وَظَلَّاهُمْ بِالْعُدُوِّ وَالْأَصَالِ)
أي ظلال الخلق ساجدة لله تعالى بالندو والآصال ، لأنها تين في هذين الوقتين ، ويميل من
ناحية إلى ناحية ؛ وذلك تصرف الله إياها على ما يشاء ، وهو كقوله تعالى : « أَوْ لَمْ يَرَوْا إِلَى
مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَّبِعُهُ ظِلَّاهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ » قاله ابن عباس
وغيره . وقال مجاهد : ظل المؤمن يسجد طوعا وهو طائع ، وظل الكافر يسجد كرها وهو
كاره . وقال ابن الأثيري : يحتمل للظلال عقول تسجد بها وتخضع بها ، كما جعل للجناب
أنهم حتى خاطبت وخطبت . قال القشيري : في هذا نظر ، لأن الجبل عين ، فيمكن أن
يكون له عقل بشرط تقدير الحياة ، وأما الظلال فآثار وأعراض ، ولا يتصور تقدير الحياة
لها ، والسجود بمعنى الميل ؛ فسجود الظلال ميلها من جانب إلى جانب ، يقال : سجدت النخلة
أي مالت . و « الآصال » جمع أصل ، والأصل جمع أصيل ، وهو ما بين المصر إلى القروب ،
ثم أصائل جمع الجمع ، قال أبو ذؤيب المظني :

تغمري لأنت اليت أكرم أملة . وأتمد في أقباه بالآصال

و «ظَلَّامٌ» يجوز أن يكون معطوفاً على «مَنْ» ويجوز أن يكون أرفع بالابتداء والخبر
مُحذوف؛ التقدير: وظلامٌ مُجَدَّبٌ بالقدور والآصال . «والقدور» يجوز أن يكون مصدراً،
ويجوز أن يكون جمع غداة؛ بقوى كونه جماً مقابلة الجمع الذي هو الآصال به .

قوله تعالى : قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ
أَفَاتُخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ
هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ
أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا تَخْلِيفَهُ فَتَشَبَّهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ
خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿١٦﴾

قوله تعالى : (قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم
أن يقول للمشركين : «قل من رب السموات والأرض» ثم أمره أن يقول : هو الله إلهنا
للحجة إن لم يقولوا ذلك ، وجهلوا من هو . (قُلْ أَتُخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ) هذا يدل على
أعترافهم بأن الله هو الخالق [وإلا] لم يكن للاحتجاج بقوله : «قل أخذتم من دونه أولياء»
معنى ؛ دليله قوله : «وَلَقَدْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ» أى فإذا أعترفت
فلم تعبدون غيره ؟ ! وذلك الغير لا ينفع ولا يضر؛ وهو إلزام صحيح . ثم ضرب لهم مثلاً
فقال : (قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ) فكذلك لا يستوى المؤمن الذي يبصر الحق ،
والمشرك الذي لا يبصر الحق . وقيل : الأنعمى مثل لما عبده من دون الله ، والبصير مثل
الله تعالى : (أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ) أى الشرك والإيمان . وقرا ابن عباس
وأبو بكر والأعمش وحزرة والكسائي «يستوى» بالياء لتقدم الفعل ، ولأن تأنيث «الظلمات»
ليس بمحقق . الباقون بالياء؛ واختاره أبو عبيد ، قال : لأنه لم يحل بين المؤنث والفعل حائل .
و «الظلمات والنور» مثل الإيمان والكفر؛ ونحن لا هدف على كيفية ذلك . (أَمْ جَعَلُوا
لَهُ شُرَكَاءَ خَلَقُوا تَخْلِيفَهُ فَتَشَبَّهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ) هذا من تمام الاحتجاج ؛ أى خلق غير الله مثل

خلقته فتناءه فخلق عليهم فلا يهرون خلق الله من خلقهم . (قل الله خالق كل شيء)
 أى قل لم يا محمد : الله خالق كل شيء ، فكم لذلك أن يعبده كل شيء . والآية رد على
 المشركين والقدريه الذين زعموا أنهم خلقوا كما خلق الله . (وهو الواحد) قبل كل شيء .
 (القهار) الغالب لكل شيء ، الذى يطلب فى مراده كل مرید . قال القشبرى أبو نصر :
 ولا يبعد أن تكون الآية واردة فيمن لا يتعرف بالصانع ؛ أى ملهم عن خالق السموات
 والأرض ، فإنه يسهل تقرير الحق فيهم ، ويقرب الأمر من الضرورة ؛ فإن تجزئ الجهاد
 وتجزئ كل مخلوق عن السموات والأرض معلوم ؛ وإذا تنجز هذا وبأن أن الصانع هو الله فكيف
 يجوز اعتداد الشريك له ؟ ! وبين أثناء الكلام أنه لو كان للعالم صناعتان لا شئيه المخلوق ؛
 ولم يتميز فعل هذا عن فعل ذلك ، فبم يعلم أن الفعل من اثنين ؟ ! .

قوله تعالى : أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلَهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَبْتَغِي النَّاسُ فَيَمْكُتُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ١٧
 لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ الْخُسْنَى وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ هُم
 مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَقُوا بِهِ ١٨ أُولَئِكَ هُمُ سُوءُ
 الْحِسَابِ وَمَأْوَهُنَّ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْهَادُونَ ١٩ أَقْنِ يَعْزِمُ أَنَّ أَنْزَلَ
 إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمْ هُوَ أَعْمَى ٢٠ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ٢١
 قوله تعالى : (أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا)
 ضرب مثلا للحق والباطل ؛ فشبّه الكفر بالزبد الذى يعلو الماء ، فإنه يضمحل ويبقى
 بجنبات الأودية ، وتدفعه الرياح ؛ فكذلك يذهب الكفر ويضمحل ، على ما نبهته . قال مجاهد :

لَكَاتُ أَوْدِيَةٍ بِقَدَرِهَا . قال : بقدر مائها . وقال ابن جرير : بقدر صغرها وكبرها . وقرا
 الأَنْثَبُ الْعَقْلُ بِالْحَسَنِ . **بِقَدَرِهَا** . يسكنون النبال ، والمعنى واحد . وقيل : معناها بما قدر
 لها . والأودية جميع الوادي ، وسَمَى واديا لغروجه وسيلانه ، فالوادي مل جينا أسم لياه
 للسائل . وقال أبو علي : « أودية » نوسع ؛ أى سال ماؤها لخفف ، قال : ومعنى « بقدرها »
 بقدر مياهاها ، لأن الأودية ما سالت بقدر انفسها . « فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا » أى طالما
 هالبا مرصعا فوق الماء ، وتم الكلام ؛ قاله مجاهد . ثم قال : (وَيَمَازُ يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ)
 وهو المثل الثانى . (أَجْفَاءَ حَلِيقَةٍ) أى حلبة الذهب والفضة . (أَوْ مَتَاعَ زَبَدٍ مِثْلَهُ) قال
 مجاهد : الحديد والنحاس والرصاص . وقوله : « زبدٍ مثله » أى يعلو هذه الأشياء زبد
 كما يعلو السيل ، وإنما احتمل السيل الزبد لأن الماء خالطه تراب الأرض فصار ذلك زبدا ،
 كذلك ما يوقد عليه في النار من الجوهر ومن الذهب والفضة مما ينبث في الأرض من المعادن
 فقد خالطه التراب ؛ فلما يوقد عليه ليزوب فيزياله تراب الأرض . وقوله : (كَذَلِكَ يَضْرِبُ
 اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً) قال مجاهد : جمودا . وقال أبو عبيدة قال أبو عمرو
 ابن العلاء : أَجْفَاءَتِ الْقِدْرُ إِذَا غَلَّتْ حَتَّى يَنْصَبَ زَبَدُهَا ، وَإِذَا جَمَدَ فِي أَسْفَلِهَا . **وَالْجُفَاءُ**
 ما أجفأ الوادى أى رمى به . وحكى أبو عبيدة أنه ميمع رُوْبَةٌ يقرأ « جُفَالًا » قال أبو عبيدة :
 يقال أَجْفَلَتِ الْقِدْرُ إِذَا قَذِفَتْ بِزَبَدِهَا ، وَأَجْفَلَتِ الرِّيحُ السَّحَابَ إِذَا قَطَعَتْهُ . (وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ
 النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ) قال مجاهد : هو الماء الخالص الصافي . وقيل : الماء
 وما خلص من الذهب والفضة والحديد والنحاس والرصاص ؛ وهو أن المثلين ضربهما الله
 للحق في ثباته ، والباطل في اضمحلاله ؛ فالباطل وإن علا في بعض الأحوال فإنه يضمحل
 كاضمحلال الزبد والخبث . وقيل : المراد مثل ضربه الله للقرآن وما يدخل منه القلوب ؛
 فثبته القرآن بالمطر لعموم خيره وبقاء نفعه ، وثبته القلوب بالأودية يدخل فيها من القرآن
 مثل ما يدخل في الأودية بحسب سمعتها وضيقها . قال ابن عباس : « أُنْزِلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءٌ »
 قال قرأنا ؛ « فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا » قال : الأودية قلوب العباد . قال صاحب

«سوق العروس» : إن مع هذا التفسير المعنى فيه أن الله سبحانه مثل التركة بالماء ومثل القلوب بالأردية ، ومثل الحكم بالسماني ، ومثل التشابه بالزبد . وقيل : الزبد غايل النفس وغوايل الشك ترتفع من حيث ما فيها فتضطرب من سلطان يلقها ، كما أن ماء السيل يجري صافيا فيرفع ما يجد في الوادي باقيا ، وأما حلية الذهب والفضة فمثل الأحوال السيئة ، والأخلاق الزكية ، التي بها جمال الرجال ، وقوام صالح الأعمال ، كما أن من الذهب والفضة زينة النساء ، وبهما قيمة الأشياء ، وقرا حيد وابن نخيصر وبجي والأعشى وحزمة والكاسي وحفص ويوفدون^(١) ، بالياء ، واختاره أبو عبيد لقوله : « ينفع الناس » فأخبر : ولا غاطبة هاهنا . الباقون بالتاء لقوله في أول الكلام : « أفأنتخذتم من دونه أولياء » الآية . وقوله : « في النار » متعلق بمحذوف ، وهو في موضع الحال ، وذو الحال الهاء التي في « عليه » التقدير : ومما يوفدون عليه ثابتا في النار أو كائنا . وفي قوله : « في النار » ضمير مرفوع يعود إلى الهاء التي هي اسم ذي الحال . ولا يستقيم أن يتعلق « في النار » بـ « يوفدون » من حيث لا يستقيم أوقدت عليه في النار ، لأن الموقد عليه يكون في النار ، فيصير قوله « في النار » غير مقيد . وقوله : « استقاء حليته » مفعول له . « زبد مثله » ابتداء وخبر ، أي زبد مثل زبد السيل . وقيل : إن خبر « زبد » قوله : « في النار » . الكاسي : « زبد » ابتداء ، و « مثله » نعت له ، وانظر في الجملة التي قبله ، وهو « مما يوفدون » . (كذلك يضرب الله الأمثال) أي كما بين لكم هذه الأمثال فكذلك يضربها بينات . ثم الكلام ، ثم قال : (لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ) أي أجابوا استجاب بمعنى أجاب ، قال :

« فَلَمْ يَسْتَجِبْهُ عِنْدَ ذَلِكَ يُجِيبُ »

وقد تقدم ، أي أجاب إلى ما دعاه الله من التوحيد والنبوات . (المتقن) لأنها في نهاية الحسن . وقيل : من الحسني النصر في الدنيا ، والعيم المقيم غدا . (وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ)

(١) حر : أو مشرجه الكريم بن عبد السيد الطبري ، تزيل مكة المكرمة ، المتوفى بها سنة ٧٤٨ هـ ، وتكاتبه

«سوق العروس» في علم القراءات - (كشف الطنون) .

(٢) مركب من سعد النوري بن أخاه أبا الموار ، ومدر للبيت : وداع دعاء من يجيب إلى الذي

أى لم يجهلوا إلى الإيمان به. (لَوْ أَنَّ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا) أى من الأموال. (وَمِثْلَهُ مَسْئَةٌ) ملك لم (لَا تَقْتُلُوا) من عذاب يوم القيامة، نظيره في آل عمران. «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا»، «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارًا فَلَنْ يَخْتَلَ مِنْ أَجْلِهِمْ يَوْمَ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَا فِضَّةً وَلَا مَا يَشَاءُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ» (أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ) أى لا يقبل لهم حسنة، ولا يتجاوز لهم عن سيئة. وقال فرقد السبيخى قال إبراهيم النخعي: يا فرقد! أتدري ما سوء الحساب؟ قلت: لا! قال: أن يحاسب الرجل بذنبه كله لا يفقد منه شيء. (وَمَاتُوا) أى بسكنهم ومقامهم. (جَهَنَّمَ وَرِثَسَ الْيَأْسُ) أى الفرائس الذى مهتوا لأغصم.

قوله تعالى: (أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَرِهَ اللَّهُ لِسَانَهُ أَنْ يَضُرَّ بِهِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْكَافِرِينَ، وَرَوَى أَنَّهُ نَزَلَتْ فِي حِزَّةٍ بَيْنَ عَبْدِ الْمَطْلَبِ وَرَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَأَبَى جَهْلٍ لِسَانَهُ اللَّهُ. وَالْمُرَادُ بِالْقَسَمِ قَسَمُ الْقَلْبِ، وَالْجَاهِلُ بِالذِّنِّ قَسَمُ الْقَلْبِ. (إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ).

قوله تعالى: (الَّذِينَ يُؤْفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ) وَلَا يَتَّقُونَ اللَّهَ

فِي سِتْرَانِ

الأولى - قوله تعالى: (الَّذِينَ يُؤْفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ) هذا من صفة ذوى الألباب. أى إنما يتذكر أولو الألباب المؤفون بعهد الله. والعهد اسم للجنس، أى بجميع عهود الله، وحى أو امره ونواحيه التى وصى بها عبده، ويدخل فى هذه الألفاظ التزام جميع الفروض، ونجسب جميع المعاصى. وقوله: (وَلَا يَتَّقُونَ اللَّهَ) يحتمل أن يريد به جنس المكواثيق، أى إذا عاهدوا فى طاعة الله عهدا لم ينقضوه. قال قتادة: تخدم الله إلى عهده فى نقض الميثاق ونهى عنه فى بضع وعشرين آية، ويحتمل أن يشير إلى ميثاق بعينه، وهو الذى أخذه

(١) راجع ج ٤ ص ٢١ وما بعدها ص ١٢١ وما بعدها طبعه أهل أرتانة.

(٢) السبيخى (يفتحين) إلى السبيخى موضع بالبحر.

لقد حل جلت من أجرحهم من صلب أبيهم آدم . وقال القائل : هو ما ينبغي هوسهم
من دلائل التوحيد والنبوة .

الثانية - روى أبو داود وغيره من عوف بن مالك قال : كنا مع رسول الله صلى
الله عليه وسلم سبعة أو ثمانية أو تسعة فقال : " ألا تبايعون رسول الله صلى الله عليه وسلم " .
ونكا حديث عهد ببيعة قلنا : قد بايعناك [حتى قالنا ثلاثا] فبسطنا أيدينا فبايعناه . فقال
قائل : يا رسول الله ! إنا قد بايعناك [فعل ماذا تبرئك ؟ قال : " فإن تعبدوا الله ولا تفركو
به شيئا وتصلوا الصلوات الخمس وتؤتيوها وتطيروا - وأمر كلمة خفية - قال لا تسألوا
الناس شيئا " قال : ولقد كان بعض أولئك التفرس سقط مسوطه فبايع أحدنا أن يتأمله
إياه . قال ابن العربي : من أعظم المواقف في الله ذكر الأيصال سواء . فقه كان أبو حمزة
الطبرستاني من كبار العباد سمع أن أناسا بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا يسألوا أحدا
شيئا . الحديث . فقال أبو حمزة : رب ! إن هؤلاء ما هدوا نيك إذ رأوا ، وأنا لما هدك
ألا أسأل أحدا شيئا . قال : فخرج سائبا من الشام يريد مكة فبينما هو يمشي في الطريق من الليل
إذ بين عن أصحابه لمدر ثم أتبعهم ، فبينما هو يمشي إليهم إذ سقط في بئر على حاشية الطريق .
نفسا حل في قعره قال : أمنت لمل أحدا . يعني . ثم قال : إن الذي ما هدته يرى
ويصمني ، والله ! لا تكلمت بحرف للبشر ، ثم لم يلبث إلا يسيرا إذ مر به ذلك البئر ففر ،
فلما رأوه على حاشية الطريق قالوا : إنه لينبئ سدا هذا البئر ، ثم قطعوا خشبا ونصبوها على
نم البئر وغطوها بالتراب ، فلما رأى ذلك أبو حمزة قال : هذه مهلكة ، ثم أراد أن يستبش
بهم ، ثم قال : والله ! لا أخرج منها أبدا ، ثم رجع إلى نفسه فقال : أليس قد ما هدت من
يراك ؟ فسكت وتوكل ، ثم استند في قعر البئر مفكرا في أمره فإذا بالتراب يقع عليه والغشب
يرفع عنه ، وسمع في أثناء ذلك من يقول : هات يدك ! قال : فأعطته يدي فألقني في مرة واحدة
إلى قعر البئر ، فخرجت فلم أر أحدا ، فسمعت هاتفا يقول : كيف مرأت ثمرة التوكل ، وأنشد :

(١) الزيادة من كتب المغررت .

فَمَا تَجِيءُ مَعَكَ أَنْ أَكْشِفَ الْهَوَى . فَأَعْبَيْتُ بِالْعِلْمِ مَعَكَ عَنِ الْكُشْفِ
تَلَطَّفْتُ لِي أَمْرِي فَأَبْدَيْتُ شَامِدِي . إِلَى قَاتِي وَالْطَفْ بِدَرْكِ بِالطَّفِ
تَرَابَتْ لِي بِالْعِلْمِ حَتَّى كَانَسَا . تَحْسِبُ بِالْقَبْرِ أَنَّكَ فِي كَفِّ
أَرَأَيْتَ رُبِّي مِنْ هَيْتِي لَكَ وَحَنَةً . فَتَوَسَّيْتُ بِالطَّفِ بِسُكِّ وَالطَّفِ
وَعَنِي عَيْبَا أَنْتَ فِي الْحُبِّ حَقُّهُ . وَفَا عَجِبْ كَيْفَ الْحِبَاءُ مَعَ الْحَفِّ

قال ابن العربي : هذا رجل عاهد الله فوجد الوفاء على التمام والكمال ، فافتدوا به إن شاء الله
تبتدوا . قال أبو الفرج الجوزي : سكوت هذا الرجل في هذا المقام على التوكل بزمه إغارة
على نفسه ، وذلك لا يحل ، ولو فهم معنى التوكل لعلم أنه لا ينافي استغاثته في تلك الحالة ،
كما لم يخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من التوكل بأخفائه الخروج من مكة ، واستنجاهه
ديلا ، واستحكامه ذلك الأمر ، واستناره في الغار ، وقوله لسُرَّاقَة : «أخف عني» . فالتوكل
المندوح لا يُبَالُ بفعل محظور ، وسكوت هذا الواقع في البئر محظور عليه ، وبين ذلك أن الله
تعالى قد خلق للآدمي آلة يدفع عنه بها الضرر ، وآلة يجتلب بها النفع ، فإذا عطشها مدحا
للتوكل كان ذلك جهلا بالتوكل ، ودعا لحكمة التواضع ، لأن التوكل إنما هو اعتماد القلب على
الله تعالى ، وليس من ضرورته قطع الأسباب ، ولو أن إنسانا جاع فلم يسأل حتى مات دخل
النار ، قاله سفيان الثوري وغيره ، لأنه قد دلَّ على طريق السلامة ، فإذا تقاعد عنها أعان
على نفسه . وقال أبو الفرج : ولا التفات إلى قول أبي حمزة : «بغاه أسد فأخرجني» فإنه
إن سمح ذلك فقد يقع مثله أضعافا . وقد يكون لطفًا من الله تعالى بالبد الجاهل ، ولا يكران
يكون الله تعالى لطف به ، إنما يكرضه الذي هو كسبه ، وهو إغاثته على نفسه التي هي ودية
له تعالى عنده ، وقد أمره بحفظها .

قوله تعالى : **وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ۝ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرُسُونَ**

وَالْحَسَنَةَ السَّيِّئَةَ أَوْلَيْتَ لَمْ عَقَبِي الْبَدَارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّتْ مَدِينٌ يَدْخُلُونَهَا
وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ
مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلِّمُوا عَلَيْكُمْ يَمَّا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الْبَدَارِ ﴿٢٤﴾

قوله تعالى : (وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ) ظاهر في صلة الأرحام ، وهو قول قتادة وأكثر المفسرين ، وهو مع ذلك يناول جميع الطاعات . (وَيُخَشِّتُونَ رَبَّهُمْ) قبله في قطع الرحم . وقيل : في جميع الماضي . (وَيُخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ) : سوء الحساب ، الاستقصاء فيه والمناقشة ، ومن تفرقت الحساب مذنب . وقال ابن عباس وسعيد بن جبير : معنى « يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ » الإيمان بجميع الكتب والرسل كلهم . الحسن : هو صلة محمد صلى الله عليه وسلم . ويحتمل رابعا : أن يصلوا الإيمان بالعمل الصالح ، « وَيُخَشِّتُونَ رَبَّهُمْ » فيما أمرهم بوصله ، « وَيُخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ » في تركه ، والقول الأول يناول هذه الأقوال كما ذكرناه ، والله توفيقنا .

قوله تعالى : (وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ) قيل : «الذين» مستأنف ، لأن «صبروا» ماض فلا ينقطع على «يوفون» . وقيل : هو من وصف من تقدم ، ويموز الوصف تارة بلفظ الماضي ، وتارة بلفظ المستقبل ، لأن المعنى من يفعل كذا فله كذا ، ولما كان «الذين» يشتمل الشرط [و] الماضي في الشرط للمستقبل جاز ذلك ، ولهذا قال : «الذين يوفون» ثم قال : «وَالَّذِينَ صَبَرُوا» ثم عطف عليه فقال : «وَيَدْرُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةِ» . قال ابن زيد : صبروا على طاعة الله ، وصبروا عن معصية الله . وقال عطاء : صبروا على الرزايا والمصائب ، والحوادث والثواب . وقال أبو عمران الجوني : صبروا على دينهم ابتغاء وجه الله . (وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ) أدوها بفروضها وخشوعها في مواعيدها . (وَأَنفَقُوا يَمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً) يعني الزكاة المفروضة ، عن ابن عباس ، وقد مضى القول في هذا في «البقرة» وغيرها . (وَيَدْرُونَ)

بَلَدَةِ السَّيِّئَةِ أى ينفون بالعمل الصالح الذى من الأعمال، قال ابن عباس: أين زيد، ينفون أشر باتخير - عبيد بن جبير: ينفون المنكر المعروف. الضحاك: ينفون الفحش بالسلام. جوير: ينفون الظلم بالعرف. ابن شجرة: ينفون الذنب بالثوبة. القتيبي: ينفون سفة الجاهل بالحلم، فالسفة السيئة، والحلم الحسن. وقيل: إذا هموا بسوء رجعوا عنها واستغفروا. وقيل: ينفون الشرك بشهادة أن لا إله إلا الله، فهذه تسعة أقوال، معناها كلها متقارب، والأول يتناولها بالعموم، ونظيره: «إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ» ومنه قوله عليه السلام لمعاذ: «وَأَنْتِيعَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةُ تَمْحُهَا وَتَأْتِي النَّاسَ بِخَلْقٍ حَسَنٍ».

قوله تعالى: (أُولَئِكَ لَهُمْ عَقَبَى الدَّارِ) أى عاقبة الآخرة، وهى الجنة بدل النار، والنار فداوان: الجنة للطيع، والنار للعاصي، فلا ذكر وصف المطيعين فدارهم الجنة لأعماله. وقيل: عنى بالدار دار الدنيا، أى لهم جزاء ما عملوا من الطاعات فى دار الدنيا.

قوله تعالى: (جَنَّاتٌ مِّنْ دِخْلُوتِهَا) أى لهم جنات عدن، فهـ جنات عدن، بدل من «عقبى». ويجوز أن تكون تفسيراً له عقبى الدار، أى لهم دخول جنات عدن، لأن «عقبى الدار» حنت، و«جنات عدن» من، والحديث إنما يفسر بحنت مثله، فالمصدر المحذوف مضاف إلى المفعول. ويجوز أن يكون «جنات عدن» خبر ابتداء محذوف. و«جنات عدن» وسط الجنة وقصبتها، وصفها عرش الرحمن، قاله القشيري: أبو نصر عبد الرحيم. وفى صحيح البخارى: «إذا سألت الله فاسأله الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة وفوقه عرش الرحمن ومنه تفجر أنهار الجنة». فيحمل أن يكون «جنات» كذلك، إن صح فكذلك خبر. وقال عبد الله بن عمرو: إن فى الجنة قصراً يقال له عدن، حوله الروج والمروج، فيه ألف باب، على كل باب خمسة آلاف حجرة^(١) لا يدخله إلا نبي أو صديق أو شهيد. و«عدن» مأخوذ من عدن بالمكان إذا أقام فيه، على ما يأتى بيانه فى سورة الكهف «إِنْ شَاءَ اللَّهُ» (وَمَنْ صَاحَبَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ) يجوز أن

(١) المطبعة (بكر الحاء المهمة وضعتها): ضرب من الميرة الجنة مزر. (٢) آية ٤١.

يكون معطوفاً على « أولئك » المسمى : أولئك ومن صلح من آباؤهم وأزواجهم وذرياتهم لم
 يهبي النار . ويجوز أن يكون معطوفاً على الضمير المرفوع في « يدخلونها » وحسن العطف
 لما حال الضمير المصوب بينهما . ويجوز أن يكون المعنى : يدخلونها ويدخلها من صلح
 من آباؤهم ، أى من كان صالحاً ؛ لا يدخلونها بالأنساب . ويجوز أن يكون موضع « من »
 نصبا على تقدير : يدخلونها مع من صلح من آباؤهم ، وإن لم يعمل مثل أعمالهم ليحققه الله بهم
 كرامة لهم . وقال ابن عباس : هذا الصلاح الإيمان بالله والرسول ، ولو كان لهم مع الإيمان
 طاعات أخرى لدخلوها بطاعتهم لا على وجه التبعية . قال القشيري : وفي هذا نظر ، لأنه
 لا بد من الإيمان ، فالقول في اشتراط العمل الصالح كالقول في اشتراط الإيمان ، فالأظهر أن
 هذا الصلاح في جملة الأعمال ، والمعنى : أن النعمة غداً تتم عليهم بأن جعلهم مجتمعين مع
 قرايبهم في الجنة ، وإن دخلها كل إنسان بعمل نفسه ؛ بل برحمة الله تعالى .

فوله تعالى : (وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ) أى بالتعطف والمهدايا من عند
 الله نكرمة لهم . (سَلَامٌ عَلَيْهِمْ) أى يقولون : سلام عليكم ، فاسم القول ، أى قد سلمتم من
 الآفات والمحن . وقيل : هو دعاء لم يدوام السلامة ، وإن كانوا سالمين ، أى سلمكم الله ،
 فهو خبر معناه الدعاء ، ويتضمن الاعتراف بالعبودية . (وَمَا صَبْرَتْمْ) أى بصبركم ، فهما «
 مع الفعل بمعنى المصدر ، والباء في « بما » متعلقة بمعنى « سلام عليكم » . ويجوز أن تتعلق
 بحذوف ، أى هذه الكرامة بصبركم ، أى على أصم الله تعالى ونبيه ، قاله سعيد بن جبير . وقيل :
 على الفقر في الدنيا ، قاله أبو عمران الجوني . وقيل : على الجهاد في سبيل الله ، كما روى عن
 عبد الله بن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " هل تدرون من يدخل الجنة من
 خلق الله " قالوا : الله ورسوله أعلم ، قل : " المجاهدون الذين نُسِمَ بهم النور وثُنِيَ بهم
 النكاره فيموت أحدهم وجأته في نفسه لا يستطيع لها قضاء فتأتيهم الملائكة فيدخلون عليهم
 من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار " . وقال محمد بن إبراهيم : كان النبي صلى
 الله عليه وسلم يأتي قبور الشهداء على رأس كل حول فيقول : " السلام عليكم بما صبرتم فنم "

طهى النار فكذلك أبو بكر وعمر وعثمان؛ وذكره السيوطي من أبي هريرة قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم يأتي الشهداء ، فإذا أتى قرصة الشعب يقول : « السلام عليكم بما صبرتم فنبه عفي النار » . ثم كان أبو بكر بعد النبي صلى الله عليه وسلم يفعله ، وكان عمر بعد أبي بكر يفعله ، وكان عثمان بعد عمر يفعله ، وقال الحسن البصري رحمه الله : « بما صبرتم » عن فضول الدنيا . وقيل : « بما صبرتم » على ملازمة الطاعة ، ومعارفة المصيبة ، قال معناه الفضيل بن عياض . ابن زيد : « بما صبرتم » عما تحبونه إذا فقدتموه . ويحتمل ما بها . « بما صبرتم » عن اتباع الشهوات . وعن عبد الله بن سلام وعلى بن الحسين رضى الله عنهم ^(١) : [أنهما قالوا] : إذا كان يوم القيامة ينادى مناد ليقيم أهل الصبر ، فيقوم ناس من الناس فيقال لهم : أظلفوا إلى الجنة ، فتلقاهم الملائكة فيقولون : إلى أين ؟ فيقولون : إلى الجنة ، قالوا : قبل الحساب ؟ قالوا نعم ! فيقولون : من أنتم ؟ فيقولون : نحن أهل الصبر ، قالوا ، وما كان صبركم ؟ قالوا : صبرنا أنفسنا على طاعة الله ، وصبرناها من معاصي الله ، وصبرناها على البلاء والهن في الدنيا . قال علي بن الحسين : فتقول لهم الملائكة : أدخلوا الجنة فتم أجمع الماملين . وقال ابن سلام : فتقول لهم الملائكة : « سلام عليكم بما صبرتم » . (فتم عفي النار) أي نعم عافية النار التي كنتم فيها ، عظم فيها ما أعقبكم هذا الذي أنتم فيه ، فالعفي على هذا اسم ، و « النار » هي الدنيا . وقال أبو عمران الجوني : « فتم عفي النار » الجنة عن النار . وعنه : « فتم عفي النار » الجنة عن الدنيا .

قوله تعالى : **وَالَّذِينَ يَبْقُصُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ اللَّعَنَةُ وَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ۖ** ^(٢) **اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ۖ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتْنَعٌ** ^(٣)

(١) قرصة الشعب : فزع . والشب : ما اقترح بين جبلين . والشهداء : كانوا يجمل أحد .

(٢) الأصل : « أنه قال » .

قوله تعالى : (وَالَّذِينَ يَقْتُلُونَ عَهْدَ اللَّهِ بَيْنَ يَدَيْهِمْ) لما ذكر المومنين بمصداق
 والمواصنين لأمره ، وذكر ما لم ذكر مكسبهم . قضى الميثاق ، ترك أمره . وقيل : إعمال
 عقولهم ، فلا يتدبرون بها ليعرفوا الله تعالى . (وَيَقْتُلُونَ مَا آَمَنَّا بِهِ أَنْ يُوصَلَ)
 أى من الأرحام ، والإيمان بجميع الأنبياء . (وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ) أى بالكفر وأرتكاب
 المعاصي . (أُولَئِكَ لَمْ أَكُنْ لَهُمْ مِنَ الْغَنَى) أى الطرد والإبعاد من الرحمة . (وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنَ الْغَنَى) أى سوء
 المتقلب ، وهو جهنم . وقال سعد بن أبي وقاص ، والله الذى لا إله إلا هو أنهم المحرورون .
 قوله تعالى : (اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ) لما ذكر عاقبة المؤمنين وعاقبة
 المشرك بين أنه تعالى الذى يسطر الرزق ويقدر فى الدنيا ، لأنها دار أمتان ، فبسطة الرزق
 على الكافر لا يدل على كرامته ، والتقدير على بعض المؤمنين لا يدل على إهانتهم . « ويقدر »
 أى يضيق ، ومنه « وَمَنْ قَدَّرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ » أى ضيق . وقيل : « يقدر » يعطى بقدر
 الكفاية . (وَفَرَحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا) يعنى مشركى مكة ، فرحوا بالدنيا ولم يعرفوا غيرها ، وجهلوا
 ما عند الله ، وهو معطوف على « وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ » . وفى الآية تقديم وتأخير ،
 التقدير : والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون
 فى الأرض وفرحوا بالحياة الدنيا . (وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ) أى فى جنبها (إِلَّا مَتَاعٌ)
 أى متاع من الأمتعة ، كالفضة والسكرجة^(١) . وقال مجاهد : شئ قليل ذاهب ، من متاع النهار
 إذا ارتفع ، فلا بد له من زوال . أبى عباس : زاد كراد الراعى . وقيل : متاع الحياة الدنيا
 ما يستمتع بها منها . وقيل : ما يتردد منها إلى الآخرة ، من التقوى والعمل الصالح ، « ولم
 سوء الدار » ثم ابتدأ « اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ » أى يوسع ويضيق .
 قوله تعالى : وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ .
 قُلْ إِنْ اللَّهُ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ^(٢) الَّذِينَ ءَامَنُوا
 وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ^(٣)

(١) السكرجة : إنا صغير يؤكل فيه الشئ القليل من الأدم ، وهى دابة .

قوله تعالى : (فَقُولِ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً) .
 أن اقتراح الآيات على الرسل جمل ، بعد أن رأوا آية واحدة تدل على الصدق ، والتعال
 عبد الله بن أبي أمية وأصحابه حين طالبوا النبي صلى الله عليه وسلم بالآيات . (قُلْ إِنْ أَنْتُمْ
 مِنْ رَبِّي) (يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ) أي كما أضلكم بعد ما أنزل من الآيات وحرّمكم الاستدلال به
 يضلكم عند نزول غيرها . (وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنْتَابَ) أي من رجع . والمساء في « إليه »
 تلقى ، أو للإسلامه لوجه عز وجل ، على تقدير : ويهدي إلى دينه وطاعته من رجع إليه
 يقبله . وقيل : هي التي صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى : (الَّذِينَ آمَنُوا) « الذين » في موضع نصب ، لأنه مفعول ، أي يهدي الله
 الذين آمنوا . وقيل بدل من قوله : « من أناب » فهو في محل نصب أيضا . (وَتَطْمَئِنُّ
 قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ) أي تسكن وتستأنس بتوحيد الله فتطمئن ، قال : أي وهم تطمئن قلوبهم
 على الدوام بذكر الله بالسّهم ، قاله قتادة . وقال مجاهد وقتادة وغيرهما : بالقرآن . وقال سفيان
 ابن عيينة : بأسره . مقاتل : بوعده . ابن عباس : بالهلف باسمه ، أو تطمئن بذكر فضله
 وإنعامه ، كما توجل بذكر عدله وأستقامه وقضائه . وقيل : « بذكر الله » أي يذكرون الله
 ويتأملون آياته فيعرفون كمال قدرته عن بصيرة . (أَلَا يَذْكُرُ اللَّهُ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ) أي قلوب
 المؤمنين . قال ابن عباس : هذا في الحلف ، فإذا حلف خصمه بالله سكن قلبه . وقيل :
 « بذكر الله » أي بطاعة الله . وقيل : بثواب الله . وقيل : بوعده الله . وقال مجاهد : هم
 أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى : (الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحَسَنٌ

مَعَابٌ)

قوله تعالى : (الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ) ابتداء وخبر . وقيل : معناه
 لهم طوبى ، ف « طوبى » رفع بالابتداء ، ويموز أن يكون موضعه نصبا على تقدير : يجعل

لم طوبى : وحطف عليه . وحسن مآب . حل الروحين للذكورين ، فرفع أو نصب .
 وذكر عبد الرزاق ، أخبرنا معمر عن يحيى بن أبي كثير عن عمرو بن أبي يزيد البجلي عن حنيفة
 ابن عبيد السلمي قال : جاء أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وسلم فسأله عن الجنة وذكر الحوض
 فقال : فيها فاكهة ؟ قال : " نعم شجرة تدعى طوبى " . قال : يا رسول الله ! أى شجر أرضنا
 تشبه ؟ قال : " لا تشبه شيئا من شجر أرضك ألايت الشام هناك شجرة تدعى الحسوة تلبس
 على ساق ويغترش أعلاما " . قال : يا رسول الله ! فما عظم أصلها ! قال : " لو أرحلت جذمة
 من إبل أهلك ما أحطت بأصلها حتى تنكسر رقبتها هَرَمًا " . وذكر الحديث ، وقد كتبه
 بكاله في أبواب الجنة من كتاب " التذكرة " ، والحديث . وذكر ابن المبارك قال : أخبرنا معمر
 عن الأشعث عن عبد الله عن شهر بن حوشب عن أبي هريرة قال : في الجنة شجرة يقال لها
 طوبى ، يقول الله تعالى لها : ففتحي لعبدي عما شاء ، ففتحت له من قوس بصرجه ولبامه
 وبعيته كما شاء ، وفتحت عن الراحة برسلها وزمامها وهبتها كما شاء ، ومن التجائب الباب .
 وذكر ابن وهب من حديث شهر بن حوشب عن أبي أمامة الباهلي قال : " طوبى " شجرة
 في الجنة ليس منها دار إلا فيها غصن منها ، ولا طير حسن إلا هو فيها ، ولا ثمرة إلا هي منها ؛
 وقد قيل : إن أصلها في قصر النبي صلى الله عليه وسلم في الجنة ، ثم تنقسم فروعها على منازل
 أهل الجنة ، كما أشر منه العلم والإيمان على جميع أهل الدنيا . وقال ابن عباس : " طوبى
 لهم " فرح لهم وقوة مبن ، وعنه أيضا أن " طوبى " اسم الجنة بالحبشية ، وقاله سيدي جبير .
 الربيع بن أنس : هو البستان بلفظ الهند ، قال القشيري : إن مع هذا فهو وفاق بين اللتين .
 وقال قتادة : " طوبى لهم " حسنى لهم . عكرمة : نعمى لهم . إبراهيم النخعي : خبر لهم ؛
 وعنه أيضا كرامة من الله لهم . الضحاك : غبطة لهم . النحاس : وهذه الأقوال متغيرة ؛
 لأن طوبى فعل من الطيب ، أى العيش الطيب لهم ؛ وهذه الأشياء ترجع إلى الشيء الطيب .
 وقال الزجاج : طوبى فعل من الطيب ، وهى الحالة المستطابة لهم ؛ والأصل طيبي ، فصارت
 الياء وأدا سكنها وضم ما قبلها ، كما قالوا : موسم وموقن .

قلت : والصحيح أنها شجرة ، للجنة المرفوع الذي ذكرناه ، وهو صحيح على ما ذكره
 السبيل ، ذكره أبو حنيفة في التمهيد ، ومنه قلناه ، وذكره أيضا التعليق في تفسيره ، وذكر أيضا
 المهدوي والفشيزي عن معاوية بن قرّة عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :
 " طوبى لشجرة في الجنة غرسها الله بيده ونفع فيها من روجه تُنبِت الحِلْيَ والحُللَ وإن أغصانها
 لَتَرَى من وراء سور الجنة " . ومن أراد زيادة على هذه الأخبار فليطالع التعليق . وقال آبن
 عباس : " طوبى " شجرة في الجنة أصلها في دار علي ، وفي دار كل مؤمن منها عُصْن . وقال
 أبو جعفر محمد بن علي : مثل النبي صلى الله عليه وسلم عن قوله : " طوبى لهم وحسن مآب " .
 قال : " شجرة أصلها في داري وفروعها في الجنة " ثم مثل عنها مرة أخرى فقال : " شجرة
 أصلها في دار علي وفروعها في الجنة " فقيل له : يا رسول الله ! سئلت عنها فقلت : " أصلها
 في داري وفروعها في الجنة " ثم سئلت عنها فقلت : " أصلها في دار علي وفروعها في الجنة " .
 فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " إن داري ودار علي غدا في الجنة واحدة في مكان واحد " .
 وعنه صلى الله عليه وسلم : " هي شجرة أصلها في داري وما من دار من دياركم إلا مدّت فيها
 عُصْن منها " . (وَحَسَنُ مَّآبٍ) أي إذا رجع . وقيل تقدير الكلام : الذين آمنوا وتطمئن
 قلوبهم بذكر الله وعملوا الصالحات طوبى لهم .

قوله تعالى : كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ
 يَتَّبِعُونَ عَلَى الَّذِينَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ وَالرَّحْمَنُ قُلْ هُوَ رَبِّي
 لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابٌ ﴿٢٠﴾

قوله تعالى : (كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ) أي أرسلناك كما أرسلنا
 الأنبياء من قبلك ، قاله الحسن . وقيل : شبه الإنعام على من أرسل إليه عهد عليه السلام
 والإنعام على من أرسل إليه الأنبياء قبله . (يَتَّبِعُونَ عَلَى الَّذِينَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ) يعني القرآن .
 (وَهُمْ يَكْفُرُونَ وَالرَّحْمَنُ) قال مقاتل وأبى جريح : نزلت في صلح الحديبية حين أرادوا

أن يكتبوا كتاب الصلح ؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم لعل : " أكتب بسم الله الرحمن الرحيم " فقال سُبَيْل بن عمرو والمشركون : ما نعرف الرحمن إلا صاحب الجاهلية ، بمنون سُبَيْدَةَ الكذاب ؛ أكتب باسمك اللهم ، وهكذا كان أهل الجاهلية يكتبون ؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم لعل : " أكتب هذا ما صالح عليه عهد رسول الله " فقال مشركو قريش : لن كنت رسول الله ثم فاطنك وصددناك لقد ظلمناك ؛ ولكن أكتب : هذا ما صالح عليه عهد بن عبد الله ؛ فقال أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم : دعنا تقاتلهم ؛ فقال : " لا ولكن أكتب ما يريدون " فترت . وقال ابن عباس : نزلت في كفار قريش حين قال لهم النبي صلى الله عليه وسلم : " أجمعوا للرحمن " قالوا : وما الرحمن ؟ فترت (قل) لم يا عد ، الذي أنكرتم (هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ) ولا معبود سواه ؛ هو واحد بذاته ، وإن اختلفت أسماء صفاته . (عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ) وأعتمدت ووثقت . (وَإِلَيْهِ مَتَاب) أى مرجى غنا ، واليوم أيضا عليه توكلت ووثقت ، رضا بقضائه ، وتسليا لأمره . وقيل : سمع أبو جهل رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو في الجحر ويقول : " يا الله يارحم " فقال : كان محمد ينهانا عن عبادة الآلهة وهو يدعو لهمين ؛ فترت هذه الآية ، ونزل : **قُلْ أَدْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ .**

قوله تعالى : **وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمَةٌ بِهِ أَلْمُوتَىٰ بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَأْتِئِصَ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَىٰ النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا يُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرْيَةً مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿١٦﴾**

قوله تعالى : (**وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ**) هذا متصل بقوله : **ولا تزل** عليه آية من ربه . وذلك أن قرا من مشركي مكة فهم أبو جهل وعبد الله بن أبي

وقيل : هو لغة هوازن ، أن أفلم يعلم ، عن ابن عباس وجاهد والحسن . وقال أبو حنيفة :
أفلم يعلموا ، وبتوا ، وأنت في ذلك أبو حنيفة لما لك بن حنيفة النضرية :
أَقُولُ لَمْ بِالْشَّمْبِ أَذْ يَسْرُونِي . أَلَمْ تَكُنْ أَلَمْ أَنْ قَارِسَ وَهَمَ
يَسْرُونِي مِنَ الْمَسْرِ ، وَقَدْ هَمَمْتُ فِي الْبُقْعَةِ . وَيَزِي يَسْرُونِي مِنَ الْأَسْرِ . وقال رباح
ابن عدي :

أَلَمْ يَتَّقِ الْأَنْوَامَ إِنِّي [أَنَا] أَبْنُهُ • وَإِنْ كُنْتُ مِنْ أَرْضِ الْبَشِيرَةِ تَالِيًا •

في كتاب الرد ، أتى أنا ابنه ، وكذا ذكره القزويني ، ألم يعلم ، وإنما على هذا ، أفلم يعلم الدين آمنوا أن لو شاء الله لهدى الناس جميعا من غير أن يشاهدوا الآيات . وقيل : هو من اليأس المعروف ، أي أفلم يعلم الذين آمنوا من إيمان هؤلاء الكفار ، لعلمهم أن الله تعالى لو أراد هدايتهم لهداهم ، لأن المؤمنين تنسوا نزول الآيات طمعا في إيمان الكفار . وقيل : هو ابن عباس : « أفلم يقين الذين آمنوا » من اليأس . قال القشيري : وقيل لابن عباس المكتوب « أفلم يعلم » قال : أظن الكاتب كتبها وهو غاص ، أي زاد بضمض المعروف حتى صار « يعلم » . قال أبو بكر الأنباري : روى عكرمة عن ابن أبي نجيح أنه قرأ — أفلم يقين الذين آمنوا — وبها احتج من زعم أنه الصواب في التلاوة ، وهو باطل عن ابن عباس ، لأن مجاهدا وسعيد ابن جبّير حكيا الحرف عن ابن عباس ، على ما هو في المصحف بقراءة أبي عمرو وروايته عن مجاهد وسعيد بن جبّير عن ابن عباس ، ثم إن معناه « أفلم يقين » فإن كان مراد الله تحت اللفظة التي خالفوا بها الإجماع بقراءتنا تقع عليها ، وثائق بتأويلها ، وإن أراد الله المعنى الآخر الذي اليأس فيه ليس من طريق العلم فقد سقط معنى قوله

(١) ذكر في «لسان العرب» أن قاتل البيت هو حميد بن وثيل اليربوعي ؛ قال : وذكر في السيرة النبوية جابر بن حميد بديل قوله فيه : «أبي ابن فارس زعمه» وزعمه : قرص حميد . وقوله : «يسروني من يسكر الجوز» أي يجهزني ويقتسوني ، وذكر لأنه كان له وقع عليه حباء فسريرا عليه اليأس فحاشيه على لسانه .
(٢) راجع ج ٣ ص ٥٢ طبعه أول مرة في : (٣) في نسخة من الأصول للشيخ .
والواجب إثباتها في كتاب «الرد» إذ أن البيت من الطويل ، وجعلها لا يسمع .

وأما سقوطه بطل الفرقان ، ولزم أصحابه البتان . (أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ) . أَنَّ ، مخففة من
الثقل ، أى أنه لو يشاء الله (لَمَتَى النَّاسُ حَبِيثًا) وهو يرد على القدرة وغيرهم .
قوله تعالى : (وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ) أى داهية نهموم
بكفرهم وعزيمهم ، ويقال : قرعه أمر إذا أصابه ، والجس قوارع ، والأصل فى القرح
الضرب ، قَالَ :

أَفَنِي تِلْكَ وَمَا جَعَلْتُ مِنْ نَقِيبٍ • فَسَرُّهُ التَّقَوُّيَاتُ أَقْوَاهُ الْإِبْرَاقِ

أى لا يزال الكافرون تصيبهم داهية مهلكة من صاعقة كما أصاب أريد أو من قتل
أو أسر أو جلب ، أو غير ذلك من العذاب والبلاء ، كما نزل بالمستزين ، وهم رؤساء المشركين .
وقال عكرمة بن ابن عباس : القارعة النكبة . وقال ابن عباس أيضا وعكرمة : القارعة الطلائع
والسرايا التى كان ينفذها رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم . (أَوْ تَحْمِلُ) أى القارعة
(قَرِيْبًا مِنْ دَارِهِمْ) قاله قتادة والحسن . وقال ابن عباس : أو تحمل أنت قريبا من دارهم .
وقيل : نزلت الآية بالمدينة ، أى لا تزال تصيبهم القوارع فتقتل بساحتهم أو بالقرب منهم كغزى
المدينة ومكة . (حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ) فى فتح مكة ، قاله مجاهد وقطادة . وقيل : نزلت بمكة ،
أى تصيبهم القوارع ، وتخرجهم إلى المدينة يا محمد ، فحمل قريبا من دارهم ، أو تحمل بهم
محاصرا لهم ، وهذه المحاصرة لأهل الطائف ، ولقلاخ خيبر ، وياي وعد الله بالإذن لك فى قتالهم
وفهمهم . وقال الحسن : وعد الله يوم القيامة .

قوله تعالى : وَلَقَدْ اسْتَهْزَيْ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمَلَيْتَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا
ثُمَّ أَخْلَلْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٦٦﴾ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ
بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ مَن مَّوْعِدُهُمْ أَمْ يَتَّبِعُونَ مَا لَا يَعْلَمُونَ
فِي الْأَرْضِ أَمْ يَرْكَبُونَ الْقَوْلَ بَلْ نُنْزِلُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مُكْرَمًا وَصُدُّوا

(١) هو الأنهر الأسدى ، رأسه الميرة بن جبه الله . والبلاد : أهل القديم المحدث . والكتب : القضاة
والبيان وما بعده منه . والقوانين (جمع قانون) ، وهو أمان يهرب بها الخمر .

بظاهر بعلمه قبل علمي : سمعهم ، وهذا سمعهم اللات والعزى فقل لهم : إله الله لا يعلم نفسه شريكا . وقيل : « أم تنهون » حلف على قوله : « أفن هو قائم » أي أفن هو قائم ، أم تنهون الله بما لا يعلم ، أي أتم تمدون به شريكا ، والله لا يعلم نفسه شريكا ، أفنتونه شريك له في الأرض وهو لا يعلم ! وإنما خص الأرض بنفي الشريك عنها وإن لم يكن له شريك في غير الأرض لأنهم أدعوا له شركاء في الأرض . ومعنى (أَمْ يَظَاهِرُونَ الْقَوْلَ) : الذي أنزل الله على أنبيائه ، وقال فتاة : معناه يبطل من القول ، ومنه قول الشاعر :

أَعْيَرْتَنَا الْآبَاءَ وَلَمْسُوهُنَا • وَذَلِكَ حَادٌّ يَا بَنَ رَبِّطَةَ ظَاهِرُ

أي باطل . وقال الضحاك : يكذب من القول . ويحتمل خامسا - أن يكون الظاهر من القول حجة يظهرونها بعلومهم ، ويكون معنى الكلام : اتبعونه بذلك مشاهدين ، أم تقولون محبين . (بَلْ زَيْنٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُمٌ) أي دع هذا ! بل زين للذين كفروا مكرم ، قيل : استدراك على هذا الوجه ، أي ليس لله شريك ، لكن زين للذين كفروا مكرم . وقرا ابن عباس ومجاهد - « بَلْ زَيْنٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُمٌ » مسمى الفاعل ، وعلى قراءة الجماعة فالذي زين للكافرين مكرم الله تعالى ، وقيل : الشيطان . ويجوز أن يسمى الكفر مكرًا ، لأن مكرم بالرسول كان كفرا (وَصَدُّوا عَنِ السَّبِيلِ) أي صدتم الله ، وهي قراءة حمزة والكسائي . الباقون بالفتح ، أي صدوا غيرهم ، واختاره أبو حاتم ، اعتبارا بقوله : « وَصَدُّوا عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ » وقوله : « مِمَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ » . وقراءة الضم أيضا حجة في « زين » و « صدوا » لأنه معلوم أن الله فاعل ذلك في منع أهل السنة ، ففيه إثبات التفسير ، وهو اختيار أبي عبيد . وقرا يحيى بن وثاب وعقمة - « وَصَدُّوا » بكسر الصاد ، وكذلك « هَذِهِ يَصَاحَتُنَا رَثَتْ أَبْتًا » بكسر الراء أيضا على ما لم يسم فاعله ، وأصلها صَبَدُوا وَرُبِنَتْ ، فلما أدعت الدال الأولى في الثانية نقلت حركتها على ما قبلها فانكسر . (وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ هَادٍ) أي موق ، وفي هذا إثبات قراءة الكوفيين ومن تابعهم ، لقوله : « وَمَنْ يَضِلِلِ اللَّهُ » ، فكذلك قوله : « وَصَدُّوا » . ومعظم القراء

بفهم على النال من غير الياء ، وكذلك وال وواي ؛ لأنك تقول في الرجل : هذا هابس والي
وهاد ، فتعطف الياء لسكونها والتقاءها مع التوين . وقرئ « فإله من هادي » وهو « والي »
و « وائي » بالياء ، وهو على لغة من يقول : هذا داعي ووالى وواي بالياء ؛ لأن حذف الياء
في حالة الوصل لالتقاءها مع التوين . وفراءتنا هذا في الوقف ؛ فرددت الياء بصار هادي ووالى
وواي . وقال الخليل في ياءه فاض : يا فاض بليثات الياء ؛ إذ لا تنوين مع السداء ، كما
لا تنوين في نحو الداعي والمنعالي .

قوله تعالى : ﴿ هُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ أى للشركين الصادقين بالمثل والسي
والإسار ، وغير ذلك من الأسقام والمصائب . ﴿ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ ﴾ أى أشد ؛ من
قولك : شق على كذا يشق . ﴿ وَمَا هُمْ مِنْ اللَّهِ بِشَيْءٍ ﴾ أى ما عيهم من عذابه
ولا دافع . و « من » زائدة .

قوله تعالى : ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا
الْأَنْهَارُ أَكْثَمُ دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ
النَّارُ ﴾

قوله تعالى : ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ ﴾ اختلف الحاة في رفع « مثل » فقال
سيبويه : أرتفع بالابتداء واخبر محذوف ؛ والتقدير : وفيما مثل طلبكم مثل الجنة . وقال
الخليل : أرتفع بالابتداء وجره « تجرى من تحتها الأنهار » أى صفة الجنة التى وعد المتقون
تجرى من تحتها الأنهار ؛ كقولك : قولى بزيد ؛ فنولى مبتدأ ، ويقوم زيد جره ؛ والمثل
بمعنى الصفة موحود ؛ قال الله تعالى : ﴿ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي النَّارِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِثْمِيلِ ﴾ وقال :
« وَيَبْقَى الْمَثَلُ الْأَعْلَى » أى الصفة العليا ، وأكره أبو علي وقال : لم يسمع مثل بمعنى الصفة ؛
إنما معناه التشبه ؛ ألا تراه يجرى نهره في مواسمه ومتصرفاته ، كقولهم : صرحت برجل
مثلك ؛ كما نقول : صرحت برجل شئت ؛ قال : وسيسد أيضا من جهة المعنى ؛ لأن مثلا

إنما كان معناه صفة كان تقدير الكلام : صفة الجنة التي فيها أنهار ، وذلك غير مستقيم ؛ لأن :
 الأنهار في الجنة نفسها لا صفتها . وقال الزجاج : مثل الله عز وجل لنا مغاب عنا بما زاده
 والمعنى : مثل الجنة جنة تجري من تحتها الأنهار ؛ وأنكره أبو علي فقال : لا يخلو المثل على
 قوله أن يكون الصفة أو الشبه ، وفي كلا الوجهين لا يصح ما قاله ؛ لأنه إذا كان بمعنى الصفة
 لم يصح ، لأنك إذا قلت : صفة الجنة جنة ، بغضت الجنة خبرا لم يستقيم ذلك ؛ لأن الجنة
 لا تكون الصفة ، وكذلك أيضا شبه الجنة جنة ؛ ألا ترى أن الشبه عبارة عن المماثلة التي بين
 المتماثلين ، وهو حدث ، والجنة غير حدث ؛ فلا يكون الأول والثاني . وقال الهراء : المثل
 مقحم للتأكيد ، والمعنى : الجنة التي وعد المتقون تجري من تحتها الأنهار ؛ والعرب تفعل ذلك
 كثيرا بالمثل ؛ كقوله : « ليس كيثليه نبي » ؛ أي ليس هو كشيء . وقيل التقدير : صفة
 الجنة التي وعد المتقون صفة جنة « تجري من تحتها الأنهار » . وقيل معناه : شبه الجنة التي وعد
 المتقون في الحسن والنعمة والخلود كشبه النار في العذاب والشدة والخلود . قاله مقاتل .
 ﴿ أَكَلَهَا دَائِمٌ ﴾ لا ينقطع ؛ وفي الخبر : « إذا أخذت ثمرة عادت مكانها أخرى » وقد بناه
 في « التذكرة » . ﴿ وَظَلَّهَا ﴾ أي وظلها كذلك ؛ حذف ؛ أي ثمرها لا ينقطع ، وظلها لا يزول ؛
 وهذا رد على الجهمية في زعمهم أن نعيم الجنة يزول ويقضى . ﴿ تِلْكَ عِقَابُ الَّذِينَ أَتَمَوْا وَعَقِبِي
 الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴾ أي عاقبة أمر المكذبين وآخرتهم النار يدخلونها .

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا كَتَبَ لَهُمْ بَرًا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ
 رَبِّكَ بِالْحَقِّ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ
 وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَهِي أَدْعُوا وَإِلَهِه مَعَابِدُ ۝ ١٢١ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا كَتَبَ لَهُمْ بَرًا أُنْزِلَ إِلَيْكَ ﴾ أي بعض من أوحي
 الكتاب يفرح بالقرآن ، كآب سلاّم وسلمان ، والذين جاءوا من الحبشة ؛ فاللفظ عام ، والمراد
 بالخصوص . وقال قتادة : هم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم يفرحون بنور القرآن ؛ وقاله مجاهد

وابن زيد . ومن مجاهد أيضا أنهم مؤمنو أهل الكتاب . وقيل : هم جماعة أهل الكتاب من اليهود والنصارى يفرحون بزلزال القرآن لتصديقه كتبهم . وقال أكثر العلماء : كان ذكر الرحمن في القرآن قليلا في أول ما أنزل ، فلما أسلم عبد الله بن سلام وأصحابه سامع غلة ذكر الرحمن في القرآن مع كثرة ذكره في التوراة ، فسألوا النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك ، فأنزل الله تعالى : « قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَدْعَاؤَ الرِّحْمَنِ أَبَآمَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى » فقالت قريش : ما بال محمد يدعو إلى إله واحد فأصبح اليوم يدعو للملئ ، الله والرحمن ! والله ما نعرف الرحمن إلا الرحمن العظمة ، يمتنون مُسْتَلِمَةَ الكَذَابِ ، فقلت : « وَمَنْ يَذْكُرِ الرَّحْمَنَ ثُمَّ كَافِرُونَ » « وَمَنْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ » ففرح مؤمنو أهل الكتاب بذكر الرحمن ، فأنزل الله تعالى : « وَالَّذِينَ آمَنُواهُمْ إِلِكَّابِ يَقْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ » . (وَمِنَ الْأَحْزَابِ) يعنى مشركى مكة ، ومن لم يؤمن من اليهود والنصارى والمجوس . وقيل : هم العرب المتحزون على النبي صلى الله عليه وسلم . وقيل : من أعداء المسالمين من ينكر بعض ما في القرآن ، لأن فيهم من كان يعترف ببعض الأنبياء ، وفيهم من كان يعترف بأن الله خالق السموات والأرض . (قُلْ إِنَّمَا أَمْرُهُ أَنْ أُعْبَدَ اللَّهُ وَلَا أُشْرِكُ بِهِ) قراءة الجماعة بالنصب عطفا على « أعبد » . وقرا أبو خالد بالرفع على الاستئناف ، أى أفرده بالعبادة وحده لا شريك له ، وأنبأ عن المشركين ، ومن قال : المسيح ابن الله وعزى ابن الله ، ومن اعتقد التشبيه كاليعود . (إِلَيْهِ أَدْعُوا) أى إلى عبادته أَدْعُوا الناس . (وَإِلَيْهِ مَكِيبٌ) أى أرجع فى أمورى كلها .

قوله تعالى : وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنْ أَتَيْتَ أَهْوَاءَهُمْ
بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنْ أَلْعِلِّمَ مَا لَكَ مِنْ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾

قوله تعالى : (وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا) أى وكما أنزلنا عليك القرآن فانكره بعض الأحزاب كذلك أنزلناه حكما عربيا ، وإنما وصفه بذلك لأنه أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو عربى ، فكذب الأحزاب بهذا الحكم أيضا . وقيل نظم الآية : وكما أنزلنا الكتب على الرسل بلغتهم كذلك أنزلنا إليك القرآن حكما عربيا ، أى بلسان العرب ، ويريد بالحكم ما فيه

من الأحكام . وقوله : لود بالحكم العريق القرآن كله ؛ لأنه يحصل من الحق . والباطل وحكم .
 ﴿ وَلَكِنْ أَتَيْتَ أَقْوَاعَهُمْ ﴾ أى أهواء المشركين فى عبادة ما دون الله ، وفى التوجه إلى غير
 الكعبة . ﴿ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْبَلِغِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ ﴾ أى ناصر ينصرك . ﴿ وَلَا وَاقٍ ﴾
 يمنعك من عذابه ؛ والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ، والمراد الأمة .

قوله تعالى : وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا
 وَذُرِيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِغَايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ
 كِتَابٌ ﴿٢٨﴾

فيه مئتان .

الأولى - قبل إن اليهود طابوا على النبي صلى الله عليه وسلم الأزواج ، وعبرته بذلك
 وقالوا ما نرى لهذا الرجل همة إلا النساء والنكاح ، ولو كان نيا لشغله أمر النبوة عن
 النساء ؛ فأنزل الله هذه الآية ، وذكركم أمر داود وسليمان فقال : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ
 وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِيَّةً ﴾ أى جعلناهم بشرا يقضون ما أحل الله من شهوات الدنيا ، وإنما
 للتخصيص فى الوحي .

الثانية - هذه الآية تدل على الترغيب فى النكاح والحض عليه ، ونهى عن التبتل ؛
 وهو ترك النكاح ، وهذه سنة المرسلين كما نصت عليه هذه الآية ، والسنة واردة بمعناها ؛
 قال صلى الله عليه وسلم : " تزوجوا فإنى مكاتبكم الأمم " الحديث . وقد تقدم فى « آل عمران » .
 وقال : " من تزوج فقد استكمل نصف الدين فليتقى الله فى النصف الثانى " . ومعنى ذلك
 أن النكاح يفتى عن الزنى ، والعفاف أحد الخصال التى ضمن رسول الله صلى الله عليه وسلم
 نعليها الجنة فقال : " من وفاء الله شراً آتيتين ورج الجنة ما بين حليه وما بين رجليه " أخرجه
 الموطأ وغيره . وفى صحيح البخارى عن أنس قال : جاء ثلاثة رهط إلى يسوت أزواج النبي

صلى الله عليه وسلم يسألون عن عبادة النبي صلى الله عليه وسلم ، فلما أخبروا كأنهم تقالوها فقالوا : وأين نحن من النبي صلى الله عليه وسلم ! قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، فقال أحدهم : أما أنا فأنى أصلى الليل أبدا ، وقال الآخر : إني أصوم الدهر فلا أفطر . وقال الآخر : أما أعتزل النساء فلا أتزوج به ، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « أتم الذين قلتم كذا وكذا أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له لكنى أصوم وأفطر وأصل وأرقد وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني » . نرجه مسلم بمعناه ، وهذا بين . وفي صحيح مسلم عن سعد بن أبي وقاص قال : أراد عثمان أن يتنزل فنهاه النبي صلى الله عليه وسلم ؛ ولو أجاز له ذلك لأختصمتنا ، وقد تقدم في « آل عمران » الحصة على طلب الولد والزوجة من جهل ذلك . وقد روى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه كان يقول : إني لأكره أن يخرج المرأة وما لى فيها من حاجة ، وأطوها وما أشتهيها ، قيل له : وما يحملك على ذلك يا أمير المؤمنين ؟ قال : حتى أن يخرج الله منى من بكائز به النبي صلى الله عليه وسلم التبيين يوم القيامة ، وإنى سمعته يقول : « عليكم بالأبكار فإنهن أعذب أفواها وأحسن أخلاقا وأتقى أرحاما وإنى مكائر بكم الأمم يوم القيامة » ، يعنى بقوله : « أتقى أرحاما » أقبل للولد ؛ ويقال للراءة الكثيرة الولد نائق ؛ لأنها ترمى بالأولاد رميا . ونرج أبو داود عن معقل بن يسار قال : جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إني أصبت امرأة ذات حسب وجمال ، وأنها لا تلد ، أفأتزوجها ؟ قال « لا » ثم أتاه الثانية فنهاه ، ثم أتاه الثالثة فقال : « تزوجوا الودود الولود فإنى مكائر بكم الأمم » . صححه أبو محمد عبد الحق وحسبك .

قوله تعالى : (وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ) عاد الكلام إلى ما أقرحوا من الآيات — ما تقدم ذكره في هذه السورة — فأنزل ذلك فيهم ؛ وظاهر الكلام حظر ومعناه النفي ؛ لأنه لا يحظر على أحد ما لا يقدر عليه . (لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ) أى لكل أمر قضاء الله كتاب عند الله ؛ قاله الحسن . وقيل : فيه تقديم وتأخير ، المعنى : لكل كتاب أجل ؛ قاله الفراء والضحاك ؛ أى لكل أمر كتبه الله أجل مؤجل ، ووقت معلوم ، نظيره : لكل نيا مستغر ؛

يَنْ أَنْ الْمَرَادَ لَيْسَ عَلَى اقْتِرَاحِ الْأَثْمِ فِي تَزْوِيلِ الْعَذَابِ، بَلْ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ . وَقِيلَ : الْمَعْنَى لِكُلِّ مَدَّةٍ كِتَابٌ مَكْتُوبٌ، وَأَمْرٌ مَقْدَرٌ لَا تَقِفُ عَلَيْهِ الْمَلَائِكَةُ . وَذَكَرَ التِّرْمِذِيُّ الْحَكِيمَ فِي « نَوَادِرِ الْأَصُولِ » عَنْ شَهْرِبَنْ حَوْشَبٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : لَمَّا أَرْتَقَى مُوسَى صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طُورَ سَيْنَاءَ رَأَى الْجَبَّارَ فِي إصْبَعِهِ خَاتَمًا، فَقَالَ : يَا مُوسَى مَا هَذَا ؟ وَهُوَ أَعْلَمُ بِهِ، قَالَ : شَيْءٌ مِنْ حُلَى الرِّجَالِ، قَالَ : فَهَلْ عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أَسْمَائِي مَكْتُوبٌ أَوْ كَلَامِي ؟ قَالَ : لَا، قَالَ : فَارْتَبِ عَلَيْهِ « لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ » .

قوله تعالى : **يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُنْثِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ** ﴿٣٩﴾

قوله تعالى : (**يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُنْثِتُ**) أى يمحو من ذلك الكتاب ما يشاء أن يوقعه بأهله ويأتى به « وَيُنْثِتُ » ما يشاء ؛ أى يؤخره إلى وقته ؛ يقال : محوت الكتاب محوًا، أى أذهبت أثره . « وَيُنْثِتُ » أى وينتبه، كقوله : « وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ » أى والذَكَرَاتِ لله .

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم « وَيُنْثِتُ » بالتخفيف، وتشدّد الباقر، وهى قراءة ابن عباس، وأختار أبو جاتم وأبو عبيد لكثرة من قرأ بها ؛ لقوله : « يُنْثِتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا » . وقال ابن عمر : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : « يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُنْثِتُ إِلَّا السَّعَادَةَ وَالشَّقَاوَةَ وَالْمَوْتَ » . وقال ابن عباس : يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُنْثِتُ إِلَّا أَشْيَاءَ الْخَلْقِ وَالْخَلْقُ وَالْأَجَلُ وَالرِّزْقُ وَالسَّعَادَةُ وَالشَّقَاوَةُ ؛ وعنه : هما كتابان سوى أم الكتاب، يَمْحُو اللَّهُ مِنْهُمَا مَا يَشَاءُ وَيُنْثِتُ ، (**وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ**) الذى لا يتغير منه شَيْءٌ . قال القُشَيْرِيُّ : وَقِيلَ السَّعَادَةُ وَالشَّقَاوَةُ وَالْخَلْقُ وَالرِّزْقُ لَا تُنْثَتُ ؛ فَلَا يَتَغَيَّرُ فِيهَا عَدَا هَذِهِ الْأَشْيَاءِ ؛ وَفِي هَذَا الْفَرْقِ بَرَعٌ تَحْكَمُ .

قلت : مثل هذا لا يدرك بالراى والأجتهاد، وإنما يؤخذ توقيفا، فإن صح قالوا به يجب ويوقف عنده، وإلا فتكون الآية عامة فى جميع الأشياء، وهو الأظهر والله أعلم؛ وبالله

يروى عنه عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه وأبى مسعود وأبى وائل وكعب الأحماس وغيرهم ،
 وهو قول الكوفي . وعن أبى عثمان النهدي أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان بطوف
 باليت وهو بيكي ويقول : اللهم إن كنت كتبتني في أهل السعادة فائتني فيها ، وإن كنت
 كتبتني في أهل الشقاوة والذنب فأعني وأئبني في أهل السعادة والمغفرة ؛ فإني تمحو ما تشاء
 وتثبت ، وعندك أم الكتاب . وقال ابن مسعود : اللهم إن كنت كتبتني في السعادة فائتني
 فيهم ، وإن كنت كتبتني في الأشقياء فأعني من الأشقياء وأكبتني في السعادة ؛ فإني تمحو
 ما تشاء وتثبت ؛ وعندك أم الكتاب . وكان أبو وائل يكثر أن يدعو : اللهم إن كنت
 كتبتنا أشقياء فأعنا وأكتبنا سعداء ، وإن كنت كتبتنا سعداء فائتنا ، فإني تمحو ما تشاء
 وتثبت وعندك أم الكتاب . وقال كعب لعمر بن الخطاب : لولا آية في كتاب الله لأتيناك
 بما هو كائن إلى يوم القيامة : « يحو الله ما يشاء ، وثبت وعنده أم الكتاب » . وقال مالك
 ابن دينار في المرأة التي دعا لها : اللهم إن كان في بطنها جارية فأينها غلاما فإني تمحو
 ما تشاء وتثبت وعندك أم الكتاب . وقد تقدم في الصحيحين عن أبى هريرة قال : سمعت
 النبي صلى الله عليه وسلم يقول : « مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُسْطَلَ لَهُ فِي رِزْقِهِ وَيُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ »
 وبشبهه عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « مَنْ أَحَبَّ » فذكره بلفظه
 سواء ؛ وفيه تأويلان : أحدهما - معنوى ، وهو ما سبق بعده من التناء الجميل والذي
 الحسن ، والأجر التكرار ، فكانه لم يمض . والآخر - يؤخر أجله المكتوب في اللوح المحفوظ ؛
 والذي في علم الله ثابت لا يتبدل له ، كما قال : « يحو الله ما يشاء ، وثبت وعنده أم الكتاب » . وقيل
 لابن عباس لما روى الحديث الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « مَنْ أَحَبَّ »
 أن يمد الله في عمره وأجله ويسط له في رزقه فليتي الله وليصل رحمته - كيف يزداد العمر
 والأجل ؟ ! فقال : قال الله عز وجل : « هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَعَى أَجَلًا وَأَجَلٌ
 مُّسَمًّى عِنْدَهُ » . فالأجل الأول أجل العبد من حين ولادته إلى حين موته ، والأجل

الثاني - بنى المسمى عنده - من حين وفاته إلى يوم يلقاه في البرزخ لا يعلمه إلا الله ؛
فلذا أتى العبد ربه ووصل رحمه زاده الله في أجل عمره الأول من أجل البرزخ ما شاء، وإذا
صلى وقطع رحمه نقصه الله من أجل عمره في الدنيا ما شاء، فيزيده في أجل البرزخ؛ فإذا تحتم
الأجل في علمه السابق أمتنع الزيادة والنقصان بقوله تعالى : « فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْجِرُونَ
سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ » فتوافق الخبر والآية؛ وهذه زيادة في نفس العمر وذات الأجل على
ظاهر اللفظ، في اختيار خبر الأمة، والله أعلم . وقال مجاهد : يحكم الله أمر السنة في رمضان
فيصهر ما يشاء ويثبت ما يشاء، إلا الحياة والموت، والشقاء والسعادة؛ وقد مضى القول فيه .
وقال الضحاك : يحو الله ما يشاء من ديوان الحفظة ما ليس فيه ثواب ولا عقاب ، ويثبت
ما فيه ثواب وعقاب؛ وروى معناه أبو صالح عن ابن عباس . وقال الكلبي : يحو من الرزق
ويزيد فيه، ويحو من الأجل ويزيد فيه، ورواه عن النبي صلى الله عليه وسلم . ثم سئل
الكلبي عن هذه الآية فقال : يكتب القول كله ، حتى إذا كان يوم انقبض طرح منه كل
شيء ليس فيه ثواب ولا عقاب ، مثل قولك : أكلت وشربت ودخلت ونعجت ونحوه ،
وهو صادق ، ويثبت ما فيه الثواب والعقاب . وقال قتادة وابن زيد وسعيد بن جبير : يحو
الله ما يشاء من الفرائض والنوافل فينسخه ويبدله ، ويثبت ما يشاء فلا ينسخه ، وجملة النافع
والمنسوخ عنده في أم الكتاب ؛ ونحوه ذكره النحاس والمهدوي عن ابن عباس ؛ قال النحاس :
وحدثنا بكر بن سهل ، قال حدثنا أبو صالح ، عن معاوية بن صالح ، عن علي بن أبي طلحة ،
عن ابن عباس « يحو الله ما يشاء » يقول : يبدل الله من القرآن ما يشاء فينسخه ، ويثبت
ما يشاء ، فلا يبدله ، « وعنده أم الكتاب » يقول : جملة ذلك عنده في أم الكتاب ، النافع
والمنسوخ . وقال سعيد بن جبير أيضا : ينقر ما يشاء - يعني - من ذنوب عباده ، ويترك
ما يشاء فلا ينقره . وقال عكرمة : يحو ما يشاء - يعني بالثوبة - جميع الذنوب ويثبت ببلل
الذنوب حسنت [قال تعالى] : « إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا » الآية . وقال

الحسن : « يحو الله ما يشاء » من جاء أجله « ويثبت » من لم يأت أجله . وقال الحسين
 يحو الأباء ، ويثبت الأبناء . وعنه أيضا : يُنسى الحَقْظة من الذنوب ولا يُنسى . وقال
 السدي : « يحو الله ما يشاء » يعني : القمر « ويثبت » يعني : الشمس ؛ بيانه قوله :
 « قَحَّوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً » وقال الربيع بن أنس : هذا في الأرواح حالة
 النوم ؛ يقبضها عند النوم ، ثم إذا أراد موته فجأة أمسكه ، ومن أراد بقاءه أبته وردّه
 إلى صاحبه ؛ بيانه قوله : « اللَّهُ يَتَوَكَّلُ الْإِنْسَانُ حِينَ مَوْتِهِ » الآية . وقال علي بن أبي طالب :
 يحو الله ما يشاء من القرون ، كقوله : « لَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ » ويثبت ما يشاء
 منها ، كقوله : « ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَيْنِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ » فيمحو قرنا ، ويثبت قرنا . وقيل :
 هو الرجل يعمل الزمان الطويل بطاعة الله ، ثم يعمل بمصيبة الله فيموت على ضلاله ، فهو الذي
 يحو ، والذي يثبت : الرجل يعمل بمصيبة الله الزمان الطويل ثم يتوب ، فيمحوه الله من
 ديوان البينات ، ويثبته في ديوان الحسنات ؛ ذكره الثعلبي . والمارودي : عن ابن عباس «
 وقيل : يحو الله ما يشاء - يعني الدنيا - ويثبت الآخرة . وقال هيس بن عباد في اليوم
 العاشر من رجب : هو اليوم الذي يحو الله فيه ما يشاء ، ويثبت فيه ما يشاء ، وقد تقدّم عن
 مجاهد أن ذلك يكون في رمضان . وقال ابن عباس : إن لله لوحا محفوظا مسيرة خمسمائة عام ؛
 من دَرَّةٍ بيضاء ، لها دَفَنان من باقوة حمراء ، لله في كل يوم ثلاثمائة وستون نظرة ؛ يثبت
 ما يشاء ويحو ما يشاء . وروى أبو الدرداء عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إن الله
 سبحانه يفتح الذكر في ثلاث ساعات يتيقن من الليل فينظر في الكتاب الذي لا ينظر فيه أحد
 غيره فيثبت ما يشاء ويحو ما يشاء " . والعقيدة أنه لا تبديل لقضاء الله ، وهذا المحو والإثبات
 مما سبق به القضاء ، وقد تقدّم أن من القضاء ما يكون واقعا محنوما ، وهو الثابت ؛ ومنه
 ما يكون مصروفا بأسباب ، وهو المحو ، والله أعلم . والفريزي : وعندي أن ما في اللوح تخرج
 من القيب لإحاطة بعض الملائكة ؛ فيحتمل التبديل ؛ لأن إحاطة الخلق بجميع علم الله محال ؛
 وما في علمه من تحوير الأشياء لا يتقل . . وعنده أم الكتاب . أنه أصل ما كتب من الآيات

وفيهما . وقيل : أم الكلب اللوح الم محفوظ الذي لا يبدل ولا يعبر . وقد قيل : إنه يجري فيه التبديل . وقيل : إنما يجري في الجراند الآخر . وسئل ابن عباس عن أم الكلب فقال : علم الله ما هو خالق ، وما خلقه عاملون ؛ فقال لعلمه : كني كلبا ، ولا تبديل في علم الله ، وعه أنه الذكور ؛ دليله قوله تعالى : « وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ » وهذا يرجع معناه إلى الأول ؛ وهو معنى قول كعب . قال كعب الأنبار : أم الكلب علم الله تعالى بما خلق وبما هو خالق .

قوله تعالى : وَإِنْ مَا تُرِيكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ تَتَوَقَّيَنَّ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَّغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ . وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٥١﴾

قوله تعالى : (وَإِنَّمَا تُرِيكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ) « ما » زائدة ، والتقدير : وإن تريئك بعض الذي نعدهم ، أي من العذاب ؛ لقوله : « لَكُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » وقوله : « وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا يُصِيبُهُمْ بِمَا صَوَّوْا قَارِعَةٌ » أي إن أربناك بعض ما وعدناهم (أَوْ تَتَوَقَّيَنَّ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَّغُ) فليس عليك إلا البلاغ ، أي التبليغ ، (وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ) أي الجزاء والمقوبة .

قوله تعالى : (أَوَلَمْ يَرَوْا) بنى أهل مكة . (أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ) أي نقصها . (نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا) اختلف فيه ؛ فقال ابن عباس ومجاهد : « نقصها من أطرافها » موت حلساتها وصلاتها . قال الفشيري : وعلى هذا فالأطراف الأشراف ؛ وقد قال ابن الأعرابي : الطرف والطرف الرجل الكريم ؛ ولكن هذا القول بعيد ، لأن مفصود الآية : أَنَّا أَرْبَانَاهُمُ النِّقْصَانَ فِي أُمُورِهِمْ ، ليعلموا أن تأخير العقاب عنهم ليس من عجز ؛ إِلَّا أَنَّهُمْ يَحِلُّ قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ عَلَى مَوْتِ أَحْيَارِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى . وقال مجاهد أيضا

وقَّادة والحسن : هو ما يظلب عليه المسلمون مما في أيدي المشركين ؛ وروى ذلك عن ابن عباس ، وعنه أيضا هو خراب الأرض حتى يكون العمران في ناحية منها ؛ وعن مجاهد ؛ قصصنا خرابها وموت أهلها . وذكر وكيع بن الحزاح عن طلحة بن عبيد عن عطاء بن أبي رباح في قول الله تعالى : « أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا » قال : ذهب فقهاؤها وخيار أهلها . قال أبو عمر بن عبد البر : قول عطاء في تأويل الآية حسن جدا ، تلقاه أهل العلم بالقبول .

قلت : وحكاية المهدي عن مجاهد وابن عمر ، وهذا نص القول الأول نفسه ؛ روى سفيان عن منصور عن مجاهد « نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا » قال : موت الفقهاء والعلماء ؛ ومعروف في اللغة أن الطرف الكريم من كل شيء ؛ وهذا خلاف ما أرفضه أبو نصر عبد الرحيم بن عبد الكريم من قول ابن عباس : وقال عكرمة والشَّعْبِيّ : هو التقصان وقبض الأنفس . قال أحدهما : ولو كانت الأرض تنقص لضاق عليك حشك^(١) . وقال الآخر : لضاق عليك حشٌّ تبرز فيه . وقيل : المراد به هلاك من هلك من الأمم قبل قريش وهلاك أرضهم بعدهم ؛ والمعنى : أَوَلَمْ تَرَ قريش هلاك من قبلهم ، وخراب أرضهم بعدهم ؟ ! أفلا يخافون أن يحل بهم مثل ذلك ؛ وروى ذلك أيضا عن ابن عباس ومجاهد وابن جريج . وعن ابن عباس أيضا أنه نقص بركات الأرض ونمازها وأهلها . وقيل ؛ قصصها بحدود ولاتها .

قلت : وهذا صحيح معنى ؛ فإن الجور والظلم يخرّب البلاد ، يقتل أهلها وأهلها ، وترفع من الأرض البركة ، والله أعلم .

قوله تعالى : (وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ) أي ليس يشعّب حكمه أحد بنقص ولا تغيير . (وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ) أي الانتقام من الكافرين ؛ سريع الثواب للذين . وقبل : لا يحتاج في حسابه إلى روية قلب ، ولا عقد بئان ؛ حسب ما تقدم في « البقرة » .

بيانه .

قوله تعالى : وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ
مَا تَكْتَبُ كُلُّ نَفْسٍ وَبِعِلْمِ الْكَافِرِينَ عُنِيَ الدَّارِ ۝ وَيَقُولُ
الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كُنِيَ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ
عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ۝

قوله تعالى : (وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ) أى من قبل مشرك مكة ، مكروا بالرسول
وكادوا لم يكفروا بهم . (فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا) أى هو خالق له مكر الساكرين ، فلا يضرك إلا
بإذنه . وقيل : فله خير المكر ، أى يجازيهم به . (يَعْلَمُ مَا تَكْتَبُ كُلُّ نَفْسٍ) من خير وشر ،
فيجازى عليه . (وَبِعِلْمِ الْكَافِرِينَ) كذا قراءة نافع وآب كثير وأب عمرو . الباقون : « الكفار »
على الجمع . وقيل : عنى أبو جهل . (لَمَنْ عُنِيَ الدَّارِ) أى عاقبة دار الدنيا نوابا وعقابا ،
أولين الثواب والمقاب في الدار الآخرة ، وهذا تهديد ووعد .

قوله تعالى : (وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا) قال قتادة : هم مشركو القرب ،
أى لست بلهى ولا رسول ، وإنما أنت منقول ، أى لما لم يأنهم بما أقترحوا قالوا ذلك .
(قُلْ كُنِيَ بِاللَّهِ) أى قبل لم يأنه ، « كنى بالله » أى كنى الله (شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ)
بصدق وكذبكم . (وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ) وهذا احتجاج على مشرك العرب لأنهم كانوا
يرجعون إلى أهل الكتاب — من آمن منهم — فى التفسير . وقيل : كانت شهادتهم فاطمة
لقول الخصوم ، وهم مؤمنو أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وسلمان الفارسي وغيرهم الدار
والنجاتي وأصحابه ، قاله قتادة وسعيد بن جبير . وروى الترمذى عن ابن أبي جسد الله بن
سلام قال : لما أريد [قتل] عثمان جاء عبد الله بن سلام فقال له عثمان : ما جاء بك ؟ قال :
جئت فى نصرتك ، قال : أخرج إلى الناس فأطردهم عنى ، فإنك خارج خيرى من داخل ؟
فخرج منه . بن سلام إلى الناس فقال : أيا الناس ! إنه كان أسى فى الجاهلية فلان ، فمات

رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله، ونزلت في آيات من كتاب الله؛ فنزلت في « وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى يَسْئِلِهِ قَامَنَّ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ » ونزلت في « قُلْ كَتَبْتُ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ » الحديث . وقد كتبناه بكماله في كتاب « التذكرة » . وقال فيه أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب . وكان اسمه في الجاهلية حصين فسماه النبي صلى الله عليه وسلم عبد الله . وقال أبو بشر : قلت لسميد بن جُبَيْر « ومن عنده علم الكتاب » ؟ قال : هو عبد الله بن سلام .

قلت : وكيف يكون عبد الله بن سلام وهذه السورة مكية وآبن سلام ما أسلم إلا بالمدينة ؟ ذكره التلميذ . وقال القشيري : وقال آبن جُبَيْر السورة مكية وآبن سلام أسلم بالمدينة بعد هذه السورة؛ فلا يجوز أن تحمل هذه الآية على آبن سلام؛ فمن عنده علم الكتاب جبريل؛ وهو قول آبن عباس . وقال الحسن ومجاهد والضحاك : هو الله تعالى؛ وكانوا يقرءون « وَمِنْ عِنْدِهِ عِلْمُ الْكِتَابِ » وينكرون على من يقول : هو عبد الله بن سلام وسلمان؛ لأنهم يرون أن السورة مكية، وهؤلاء أسلموا بالمدينة . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قرأ « وَمِنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ » وإن كان في الرواية ضعف؛ وروى ذلك سليمان بن أرفم عن الزهري عن سالم عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم؛ وروى محبوب عن إسماعيل بن محمد اليماني أنه قرأ كذلك — « وَمِنْ عِنْدِهِ » بكسر الميم والعين واللام « عِلْمُ الْكِتَابِ » بضم العين ورفع الكتاب . وقال عبد الله بن عطاء : قلت لأبي جعفر بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم زعموا أن الذي عنده علم الكتاب عبد الله بن سلام فقال : إنما ذلك علي بن أبي طالب رضي الله عنه؛ وكذلك قال محمد بن الحنفية . وقيل « جميع المؤمنين » والله أعلم . قال القاضي أبو بكر بن العربي : إما من قال إنه علي فعول على أحد وجهين وإما لأنه عنده أعلم المؤمنين وليس كذلك؛ بل أبو بكر وعمر وعثمان أعلم منه . ولقول النبي صلى الله عليه وسلم « أنا مدينة العلم وعلي بابها » وهو حديث باطل؛ النبي صلى الله عليه وسلم مدينة علم ومجاهد أبيها؛ فنهى الباب المضطرب، ومنهم المتوسط، على قدر متوسط في الصلوة . ولما من ذلك

اهم جميع المؤمنين فصلدق؛ لأن كل مؤمن يعلم الكتاب، ويدرك وجه إيجازه، وينهده
للنبي صلى الله عليه وسلم بصدقه .

قلت : فالكتاب على هذا هو القرآن . وأما من قال « هو عبد الله بن سلام فعول على حديث
الترمذى » وليس يمتنع أن يزل في عبد الله بن سلام شيئا ويتناول جميع المؤمنين لفظا ؛
وبعضه من النظام أن قوله تعالى : « وَبَيَّنَّا الَّذِينَ كَفَرُوا » يعنى قرشا ؛ فالذين عدم
علم الكتاب هم المؤمنون من اليهود والنصارى ، الذين هم إلى معرفة النبوة والكتاب أقرب
من عبدة الأوثان . قال النحاس : وقول من قال هو عبد الله بن سلام وغيره يمتنع أيضا ؛
لأن البراهين إنفاصحت وعرفها من قسرا الكتب التي أنزلت قبل القرآن كان أمرا مؤكدا ؛
والله أعلم بحقيقة ذلك .

Bibliotheca Alexandrina



0285619